

نالیف هـ. ١٠٠ ل. فشر

تاریخ اُوربَا

فی العصر الحديث

(١٧٨٩ - ١٩٥٠)



دارالمعارف بمط

002584

جُمُعِيَّةُ التَّارِيخِ الْحَدِيثِ

تَارِيخُ أُرُبَّاءَ

فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ

(١٧٨٩ - ١٩٥٠)

تأليف ه. أ. ل. فِشَر

تعريب

وديع الضئع

أحمد نجيب هاشم

الطبعة السادسة



الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

تقديم الكتاب

لحضرة المؤرخ الكبير الأستاذ محمد شفيق غربال

منذ سنتين أو ثلاث ، اتفق جماعة ممن اتخذوا من دراسة التاريخ ومطالعاتهم فيه ، المحور الذى تدور حوله حياتهم العقلية ، على أن يتقاربوا حول تلك الدراسة والمطالعات ، وأن يتذكروا مسائلهم ، وأن يناقشوا أبحاثهم ، وأن يطالعوا بنى وطنهم من حين لآخر بشمرات هذه المناقشة وتلك المذاكرة .

وقد لاحظوا أن المطبعة العربية قد فاضت على القارئ بكتب عديدة تناولت الكلام عن الحركات المختلفة المنبثقة عن النشاط الأوربي ، وخطر لهم أن ذلك الفيض من التأليف والترجمة يجب أن تصحبه ضوابط من النقد والحصر والتحديد ؛ وإلا كان مآله الاضطراب واللبلة . فاتجهوا نحو اختيار كتاب أوربي جيد فى التاريخ الأوربي ، يجد فيه القارئ المصرى الضابط لتلك الحركات الأوربية المختلفة الأهداف . وقد وقع اختيارهم على الكتاب الذى وضعه المؤرخ الإنجليزي هربرت فشر فى ذلك الموضوع ، والكتاب معروف لدى الرسمى التاريخ الأوربي من الطلاب المصريين .

وقد يكون جديراً بنا هنا أن نبين الأسباب التى حدثت إلى اختياره لنقله إلى العربية ، إذ الكتب الإفرنجية فى التاريخ الأوربي عديدة وقيمة ، بيد أننا آثرنا أن نقل كتاب مؤرخ إنجليزي . فالإنجليزي أوربي ، وغير أوربي ، أوربي بحكم أن بلاده قطعة من الحضارة الأوربية ، وغير أوربي بحكم أن حصته من العالم الأوربي قد انطبعت بظايعها الإنجليزي الخاص . وبذا لا تظهر على صفحات المؤرخ الإنجليزي ، حينما يؤرخ لأوروبا ، الخلل والاضطراب الذى تحصله الأوربية بعضها نحو البعض الآخر أجيالاً متعاقبة ،

أو مظاهر تعلق الشعوب بحيز ضيق « مقدس » من الأرض الأوربية كان موضع التناحر والتقاتل بينها .

ولم تحاول إنجلترا يوماً من الأيام أن تكون من أوربا مُلكاً متحداً يخضع لها . فلا تقرأ في المؤرخ الإنجليزي - كما تقرأ في المؤرخ الفرنسي أو الإسباني أو الألماني - أسفاً على حلم لم يتحقق ، أو تطلعاً لتحقيق حلم لا يتصوره ، وإن تصوره كرهه . فقد نصبت بلاده نفسها لتحطيم أية محاولة لتحقيقه . أما في التنظيم الاجتماعي ، فإنك تجد إنجلترا تنهج طريقاً وسطاً معتدلاً ، لا يمنح نحو التطرف أو العنف . فلا تحس ، حيناً تقرأ المؤرخ الإنجليزي ، شيئاً من حقد المحرومين المعدمين أو قلق السراة المالكين . وإنك لتلمس نهج الاعتدال هذا في حياتها الدينية أيضاً . فتجد الكتلثة الرومانية بين الإنجليز من يقدرها ، كما تجد الطوائف البروتستانتية من ينصفها .

فشر « أوربي إنجليزي » ، بدأ كأبناء جيله بالدراسات الكلاسيكية ، فهي أساس دراسته ، وعليها بنى ، كسائر أبناء الجيل . ودرس في السوربون ، ونمت وهو في باريس ، بينه وبين إرنست رينان صلات من المودة والحب . وكان لتلك الإقامة في باريس آثار عميقة في أساليب فشر ومناهجه ، وفي اختيار موضوعاته للدرس المستفيض من تاريخ الثورة الفرنسية وقابليون . ولكن فشر بنى ابن طبقته ، وابن جيله ، وابن أكسفورد ، وابن حزب الأحرار . وقد قال في المقدمة التي صدر بها الجزء الأول من تاريخه لأوربا : إن أذناً أخرى غير أذنيه قد سمعت لحناً موسيقياً مؤثلاً مبعثاً من حوادث التاريخ ، وإن عيوناً أخرى غير عينيه قد رأت في حوادث التاريخ نسجاً منتظم الشكل كلاً وجزءاً ، أما هو فلم ير إلا حوادث تتتابع على غير نظام ظاهر ، وعلى غير خطة مفهومة . ألا تقرأ في هذا فكرة الحرية المطلقة ، فكرة الدعوة إلى إزالة العقبات وعدم الموانع ؟ وأياً كان الأمر ، فإن ذلك الموقف العقل السليم لم يمنع حزب الأحرار من تشييد بناء تشرمي اجتماعي ضخم ، كما أنه لم يمنع فشر من أن يقبل دعوة لويده جورج ليهل وزارة المهلوف في أثناء الحرب

العالية الكبرى ، وأن يحاول وضع نظام تعليمي قوى شامل . ومهما يكن من ذلك الموقف العقلي السليم ، فقد كسب الناس تاريخاً متزناً ناضجاً مطمئناً ، ثمرة شهية من ثمرات ذلك اللون من الثقافة الأوروبية الصائر نحو الزوال .

وقد أتم الصديقان أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ترجمة الجزء الحديث من كتاب « تاريخ أوروبا » ، وهو الذي يعالج تاريخ القرن التاسع عشر ، من الثورة الفرنسية حتى قرب أيامنا هذه . أتمناه على خير وجه : دقة في الترجمة ، ومتانة في الأسلوب . وأخرجته دار المعارف في حلة جميلة . فنقدمه للمواطنين قائلين لهم : إننا نكلف بأنفسنا إلى حد الإرهاق ، وشيء من الثقافة الحرة الخالصة فيه بعض الشفاء .

محمد شفيق غربال



تعريف بالمؤلف

هربرت فشر

هو علم من أعلام المؤرخين في العصر الحديث ، ومصلح من كبار المصلحين في شئون التربية والتعليم . خلف وهو في كرسى الأستاذية من الآثار العلمية ، والأبحاث التاريخية الممتازة ، ما يشهد له بالعلم الغزير ، والبحث الدقيق ، والتتزه عن الهوى . ووضع وهو وزير لمعارف بلاده ، القانون الشهير الذى عُرف باسمه ، والذي قفز به إلى الصف الأول بين أئمة المصلحين الذين رفعوا مقام المعلم إلى درجة لم تكن تخال من قبل ، وسما بالحياة الديمقراطية الإنجليزية إلى مرتبة رفيعة ، وارتقى بها في معارج الحرية والكرامة والتقدم .

كان هربرت فشر طويل القامة ، جميل الطلعة ، ذا صوت عذب ، وخلق هادئ رقيق . وكان يربأ بنفسه عن مظاهر الأبهة والإعلان . وكان أكثر ملامحة لقرع المحاضرات وقاعات المكتبات منه لميادين السياسة الصاخبة . ومع ذلك فقد قضت المقادير أن يدخل البرلمان ، وأن يجلس في كرسى الوزارة .

وُلِدَ فشر في ٢١ مارس سنة ١٨٦٥ بمدينة لندن من أبوين كيريين . وقد كان الملك إدوارد السابع - وكان عند ذلك ولياً للعهد - عرابه في المعمودية . إذ كان والد هربرت سكرتيراً خاصاً لولي العهد من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٨٧٠ . وكان صاحب الترجمة كثيراً ما يُدعى هو وإخوته وأخواته إلى قصر مارلبرو ، حيث يلعبون مع أطفال أمير ويلز ، دين أن يدركوا ويكسبوا الشرف العظيم الذى أولوا إياه بالاختلاط واللعب مع أعظم أطفال إنجلترا كبراً ، وأسماء مقاماً .

وكانت أمه ابنة طبيب ينتمى إلى أسرة إنجليزية طيبة الأرومة . ويقول عنها صاحب الترجمة : « كانت والدة قديسة من القديسات . والحق أنه لم نعلم قط سيدة أشد منها إثارة وإنكاراً لنفس . فقد كانت حياتها كلها سلسلة من اليذل والتضحية المتواصلة في سبيل خدمة الآخرين . وقد أنجبت أحد عشر طفلاً ، فمهرتهم جميعاً بفيض من عطفها ، ووايل من حبها ورعايتها . وكانت أمهم معلمة بالفضل لهم . ولا أزال أذكر فصيحاً في غرفة اللعب القديمة في . فالأمر الحية ، والنشاط ، وعدوية الصوت التي تبدو في دروسها . فكان كل درس من دروسها مغامرة حلوة مثيرة ، لا عملاً موجباً للسأم والفضجر . فأرضعني حباً للتعلم ، وأكسبني بهجة من الدرس والتحصيل لن تنسى » .

وقضى هربرت السنين الأولى من صباه في الريف الإنجليزي ، فتمتع بمباهج الحياة الحلوة ، ومفاتيح الطبيعة . إذ عُين والده قاضياً إقليميًّا ، وكان الشاعر الكبير تينسن من كبار زوارهم . فقد كان والده يميل إلى دراسة اللغة الإغريقية القديمة وقرض الشعر .

وعند ما بلغ هربرت الثالثة عشرة من العمر أرسله أبوه إلى كلية ونشستر ، حيث قضى ستة أعوام يصفها بأنها « من أمتع سنى حياتي . فقد تمتعت بكل دقيقة من دقائق حياتي فيها : العمل ، والألعاب ، والاجتماع بزملائي ومدرسي ، وجمال الكلية ، وروعة أبنيتها القديمة ، وفتنة حدائقها ، وخضرة حقولها : كم كانت كلها بهية جميلة بهيجة » .

وكان والده خريج جامعة أكسفورد . فآثر أن يبعثه إليها . وتقدم هربرت إلى امتحان المسابقة للتجوائز العلمية التي تمنحها الكلية الجديدة New College بهذه الجامعة لطلبة ونشستر . فكان المجلت في الامتحان .

والتحق بهذه الجامعة الشهيرة في أكتوبر سنة ١٨٨٤ . ويقول عن سنى تلقيه العلم بها إنها لم تكن من أسعد أيام حياته . ولم يكن يستطيع دائماً أن يبعد عن ذهنه القلق الذي كان يفتابه بين آونة وأخرى ، بسبب خوفه من

الإخفاق في الحصول على مرتبة متفوقة من مراتب الشرف في الامتحانات .
الأمر الذي توقف عليه الشيء الكثير من حياته المستقبلية . غير أن مخاوفه
كانت في غير محلها ؛ فقد حصل على مرتبة الشرف الأولى في تلك
الامتحانات .

ومع أنه لم يشترك خلال مرحلة التحصيل في مناظرات اتحاد الجامعة ،
أو جمعيات الطلبة ، إلا أنه تدرب على الخطابة في الاجتماعات العامة .
إذ كان يلقى بعض الخطب في إجازاته المدرسية على فصول من العمال كان
يشرف على دراستها الدكتور أنجرام الذي صار أسقف لندن مدة طويلة
من الزمن .

وكان أفضل علم ميز فيه نفسه أيام طلبه العلم بالجامعة هو علم الفلسفة .
بيد أنه شعر أنه لم يجبل بالفطرة على أن يقضى أبحاثه في بحث مسائل ما وراء
الطبيعة . وكان الأستاذ ميتلند Maitland (أستاذ التاريخ بجامعة كبريدج)
زوج أخته يقول له : « لا يصح لأحد أن يدرس الفلسفة في الجامعة ، إلا إذا
كان يعتقد أنه كشف نظاماً فلسفياً يرغب في الدعوة له ونشره ، أو أن يكون
غيراً متحمساً للتبشير بنظام فلسفي ابتدعه آخر » .

ثم سنع لمخاطره أن يخصص نفسه للدراسة الآثار القديمة ، ولكنه ما لبث
أن أهمل هذه الفكرة . وقد كان مطعمه الشخصي عند قدومه إلى أكسفورد ،
كما كان مطعم أبيه ، أن يدرس القانون كي يمارس المحاماة ، وبعد نفسه
للدخول في حلبة السياسة . ومع أن أباه أظهر استعداداً لأن يعينه في التمتين
الأول من حياته العملية ، إلا أنه شعر أن أسوال الأسرة المالية لا تسمح له
بقبول هذا العرض .

وعرضت عليه كليته على أثر تخرجه فيها وظيفة مدرس بها ، فحزم
أمره على قبولها ، وأدار ظهره نحو المطامع الواسعة والآمال الكبيرة التي كانت
تجيش بصدوره أيام التلمذة . وعقد نيته على تكريس حياته لتدريس التاريخ
المحدث .

ونصح أحد مدرسي الجامعة بأن يولى وجهه شطر باريس قائلاً : إن صولجان التاريخ قد انتقل نهائياً من المؤرخين الألمان إلى الفرنسيين . وأشير عليه باللاحق بمدرسة الوثائق Ecole des Chartres . فسافر إلى مدينة النور في سبتمبر سنة ١٨٨٩ ، يحمل معه توصيات إلى رينان Renan وتين Taine وغيرهما من فحول أساتذة جامعة باريس في ذلك الحين . وكان صاحب الترجمة أول من نقض التقليد القديم الذي كان يقضى على البرادتين في تدريس التاريخ من أساتذة الجامعات الإنجليزية باللاحق بإحدى الجامعات الألمانية ، كى يدرسوا فيها الطرق الحديثة للبحث التاريخي .

ونحن نحاول في الحى اللاتينى . ولم تكن له خطة مرسومة للدراسة والبحث . فكان يقرأ هنا وهناك ، ويستمع لهذا الأستاذ وذاك . وكان يختلف إلى الاجتماعات الأسبوعية التى تُعقد في ندوات رينان وتين بمنزليهما ، والى كانت تجمع أكبر رجال التاريخ والأدب في فرنسا . ورأى عن كثب في مدرسة الوثائق كيف ينهك الطلاب الفرنسيون قواهم في الحفظ والاستذكار كى يجتازوا امتحانات تبلغ الذروة في الصعوبة والشدة ، وقارن بين حياتهم وحياة زملائهم الإنجليز الهينة المرحلة في أكسفورد .

ثم رأى أن يقضى فترة قصيرة في ختام عامه في جامعة ألمانية . فقصده جامعة جيتنجن ، وساهم في حياة الطلبة وسامراتهم . وكانوا يظهرين له وداً وعطفاً ، ولو أن بعضهم لم يكتفه شعوره بأن أيام بریطانيا أصبحت محدودة كدولة عظمى ، وأنه سيُغشى عليها في أول حرب أوربية قادمة .

وقفل راجعاً إلى إنجلترا حيث تقلد عمله الجامعى . وبدأ حياة منقطعة النظير في الدرس والتحصيل والبحث والتعليم . وشعر أن واجبه الأول هو أن يكون مدرساً قديراً للتاريخ . وشرع في العمل كمحاضر في التاريخ الحديث ، ومشرف على دراسات طلبة كليته اللذين يدرسون العلوم التاريخية . فغاصطر أن يشغل ساعات طويلة مرمقة . فقد كان عليه أن يدرس جميع عصور تاريخ إنجلترا وأوروبا . وبجانب ذلك كان عليه أن يدرّس على دراسات

الطلبة في علمي الاقتصاد والسياسة ، وهما علمان وجد نفسه ملزماً بتعلمهما كي يؤدي عمله على وجه مرض .

ولم يلبث طويلاً حتى بدأ أبحاثه التاريخية . فآلف كتاب *The Medieval Empire* سنة ١٨٩٨ ، ثم وجه عناية خاصة إلى دراسة عصر نابليون ، فأخرج عام ١٩٠٣ كتاب *Studies in Napoleonic Statesmanship* وكتاب *Bonapartism* سنة ١٩٠٨ ، و *Napoleon Bonaparte* سنة ١٩١٣^(١) . ودعا اللورد أكتون أستاذ التاريخ بجامعة كبريدج إلى كتابة الأبواب الخاصة بعهد نابليون في المجموعة النفيسة الضخمة *Cambridge Modern History* ؛ كما أخرج سير ثلاثة من أخلص أصدقائه ، وهي *Life of F.W. Maitland* سنة ١٩١٠ ، و *Life of Lord Bryce* سنة ١٩٢٦ ، و *Life of Sir Paul Vinogradoff* سنة ١٩٢٧ ، كما وضع طائفة من المؤلفات التاريخية الممتازة في موضوعات أخرى منها *A Political History of England* (١٩٠٦) ، و *The Republican Tradition in Europe* (١٩١١) ، و *Studies in History and Politics* (١٩٢٠) ، و *An International Experiment* (١٩٢٩) ، و *Whig Historians* (١٩٢٨) ، و *Our New Religion* (١٩٢٩) ، و *England and Europe* (١٩٣٦) . فجعلته هذه الأسفار التاريخية الوفيرة الممتازة في مقدمة أقطاب المؤرخين في العصر الحديث .

ولم يقصر نشاطه الجامعي على التدريس والتأليف ، بل كان مثل جون موريل المورخ والوزير البريطاني الشهير يرى أن يساهم في الحياة العملية بتصويب تدفيعه طبيعتها العملية إلى أن يوسع مجال نشاطه الوافر ، وحفزته إلى الاشتراك في شؤون العالم الخارجي . فكان فشر يلقى محاضرات على جموع كبيرة من العمال الأذكياء الذين يفتنون إلى أكسفورد في أيام المساهمة الجامعية . وكانت ميوله السياسية تدفعه نحو مناصرة حزب الأحرار . فأخذ يخطب في بعض

(١) كان هذا الكتاب إلى الدرجة الأضخمة نزل مراتب منظمة طناً ولها كود
منه نفاذ أسلاف المصنف الوطني بمجلس القاهرة .

اجتماعاته السياسية الكبيرة . وحضر على أن تمنح جامعة أكسفورد طالباتها درجات جامعية ، وكان يرسل عدداً وفيراً متزايداً من الأصدقاء والطلاب السابقين .

وكانت قدرته على العمل عظيمة خارقة . ولم يفسن بجهد في خدمة طلبته . وكان يقضى الأيام الأولى من الأسبوع في أبحاثه التاريخية . ويخصص الأيام الأخيرة للمحاضرات ومقابلات الطلبة والإشراف على دراساتهم ، مخصصاً أيام الآحاد للراحة والاشتراك في الحياة الاجتماعية بالكلية والجامعة . وكان يقضى كثيراً من إجازاته منعياً في أصاير المتحف البريطاني ، أو المكتبة الأهلية بباريس ، أو جامعات إيطاليا ، أو جامعة برلين ، باحثاً عن المستندات والوثائق التاريخية الضرورية لأبحاثه . غير أنه كان يخطف في فترات قصيرة من مساعدهات الصيف إلى جبال الألب أو زيارة أصدقائه في الريف . وكانت مواهبه عظيمة وذكاؤه نادراً . وكانت لمحاضراته جاذبية علمية كبرى ، فما مضى طويل وقت حتى صار أبرز مدرسي أكسفورد الشبان .

وفي سنة ١٩٠٨ دعت جامعات جنوب إفريقية لإلقاء محاضرات تاريخية على طلبتها ، فلقى نجاحاً باهراً وإقبالاً عظيماً . ثم دعت جامعة هارفارد الشهيرة في العام التالي لإلقاء سلسلة من المحاضرات بها لمناسبة ذكرى لوويل رئيس تلك الجامعة الذائع الصيت . فغير هو وزوجه المحيط الأطلنطي للمرة الأولى وألقى محاضراته التي أُلهمها عند كبير من الطلبة والأساتذة .

وفي سنة ١٩١٢ دعاه اللورد كرو حاكم الهند العام إلى الاشتراك في « لجنة التحقيقات الهندية » . فلبى الدعوة ، وسافر إلى الهند في يناير سنة ١٩١٣ حيث انتهز هذه الفرصة ، وألقى بضع محاضرات بدعوة من جامعاتها .

وقبل سفره عُرِضت عليه وكالة جامعة شفيلد (وهي بمثابة مديرتها الفعلي ، إذ أن رئاسة الجامعة منصبة من مناصب الشرف يختار له أحد كبار الإنجليز ممن يشتركون في الحياة العامة) . ولكن لم يقض عامين في عمله

الجديد حتى أعلنت الحرب العظمى ، فرأى أن يقوم بتصيبه القوى من الخدمة العامة . فقد كان شديد الفخار بأمنه ، مزهواً بروائع أعمال أبنائها في ميادين العلم والاجتماع والسياسة . فلعب دوراً رئيسياً في جميع صنوف النشاط المدني والعلمي . واشترك في لجنة برائس التي عينت لتحقيق في صحة الفطائع الألمانية المزعومة . ثم أرسل إلى فرنسا للبحث في قيمة الدعاوة البريطانية ومداها في ذلك القطر .

وفي أوائل سنة ١٩١٦ دعاه لويد جورج ، وكان وقتئذ وزير الذخيرة في وزارة المستر إسكوت للإفطار معه ، وأخذ يتبادل معه الرأي فيما يجب أن تكون عليه خريطة أوروبا الجديدة بعد الحرب . وعندما شرع لويد جورج في تأليف وزارته في ديسمبر سنة ١٩١٦ دعاه للاشتراك بها ، وعهد إليه بوزارة المعارف . فشرع فشر أن مصلحة البلاد تقتضى منه بذل جهود كبيرة لترقية مستوى التعليم فيها . وقد ظل يشغل هذا المنصب ستة أعوام ، بذل فيها جهوداً جبارة كى يرفع مستوى التعليم العام في بلاده إلى درجة تطمئن النفوس إليها . فوضع قانون التعليم الشهير المعروف باسمه والذي أجازته البرلمان في سنة ١٩١٨ ، فكان من بين آثاره الخالدة . وقد وضع هذا القانون على أساس اشتراك وزارة المعارف مع هيئات التعليم المحلية في النهوض بالتعليم الأول والثانوي والفقى . وضاعف القانون ماهيات المدرسين ، ووضع لهم نظاماً واقعياً للمعاشات ، وذلك بأن تحصل وزارة المعارف ثلاثة أخماس المرتبات التي تمنح للمدرسين . وبذلك وضع الأساس الذي يمكن المدرس من أن يعد نفسه من ذوى المهن الحرة ، كما أنقذه من غوائل الفقر المدقع والمذلة والحرمان التي كانت تصاحبه غالباً في سنى شيخوخته وعجزه ، وأعطاه مرتباً يبنى بموجبه المستقبل ، ويمكنه من شراء الكتب والملابس ونفقات العيش والفسحة التي بلونها لا يستطيع أن يعيش عيشة اجتماعية محترمة .

ونص القانون أيضاً على إنقاص ساعات العمل للصبيان الذين يرغبون في مواصلة الدراسة بعد تكميلهم مرحلة التعليم الإلزامي . ووسع ساعات الهيات

التعليمية المحلية . ومنح جوائز مدرسية عديدة للمتفوقين من تلاميذ المدارس الأولية الذين يرغبون في اللاحق بالمدارس الثانوية .

ولم يكن هذا العمل التشريعي الخطير الشأن الباقي الأثر مجرد عمل ضخم من الأعمال الوزارية ، بل إنه يمثل أخلاق فشر وفلسفته ومبادئه الحرة . ولم يقتصر عمله الوزاري على وزارة المعارف ، بل كان يستندب لتقليد وزارة الهند ووزارة إيرلندا عندما كان يغيب وزيراها عن لندن . كما اشترك في المفاوضات التي دارت بين مندوبي إنجلترا وإيرلندا لعقد المعاهدة الإيرلندية سنة ١٩٢١ . ومثل بريطانيا مع المستر بلفور وزير الخارجية واللورد روبرت سيسل في اجتماعات عصبة الأمم السنوية واجتماعات مجلس العصبة الدولية خلال السنين الثلاث الأولى (١٩٢٠ - ١٩٢٢) من حياتها القصيرة ، وأسدى لقضية السلام والتقريب بين الشعوب خدمات مجيدة ، ولم يساعده على النجاح اطلاعه الكبير وتبحره في تاريخ أوروبا الحديث ومواهبه الاجتماعية فحسب ، بل لأنه كان يشعر أيضاً بميل شخصي عظيم لهذا العمل الحديد ، وفتنة خاصة للاضطلاع بهذه المهمة الجليلة .

واستقال من الوزارة باستقالة وزارة لويد جورج في سبتمبر سنة ١٩٢٢ ، وألقى نفسه على حين بغتة بلا عمل . فاشتغل بإلقاء المحاضرات والتأليف وحضور جلسات مجلس العموم . وذهب إلى كندا سنة ١٩٢٤ حيث حضر في جامعاتها وجمعياتها العلمية ، ثم سافر منها إلى الولايات المتحدة حيث ألقى سلسلة أخرى من المحاضرات في جامعة هارفارد بمناسبة ذكرى لويل ، كما ألقى عدداً من الخطب على بعض المعاهد العلمية الأمريكية الأخرى .

دخلت عام ١٩٢٥ عمادة كليته القديمة ، فحرضت عليه وقبلها . وبقي يشغل هذا المنصب العلمي حتى آخر يوم من أيام حياته الزاخرة بألوان النشاط العديدة في ميدان الخدمة العامة . فقد كان علاوة على أعماله الرسمية بصفته عميداً للكلية وأستاذاً للتاريخ الحديث بالجامعة ، يعنى بالتأليف والخطابة وكتابة المقالات للمصحف والمجلات ، ويكثر من الاتصال شخصياً بالطلبة ،

ومصادقة الكثير منهم ودعوتهم إلى منزله الجميل بالكلية . وكان طلبة الكلية بوجه خاص ، وطلبة الجامعة بوجه عام ، يجدون عنده النصيحة الغالية والرأي السديد والحدب الشديد ، ويلمسون فيه المعلم الفاضل والصديق العطوف . وكان العميد باختباراته الواسعة المدى المتنوعة النواحي في الشئون العلمية والإدارية مصدراً كبيراً للقوة والإرشاد . فن الصباح الباكر إلى ساعات الليل المتأخرة لا ينقطع سيل الزائرين بمكتبه . كما كانت تنهمر الخطابات الواردة إليه من تلاميذه وطلابه الكثيرين في جميع أقطار المعمورة .

وبجانب هذه الأعمال الكبيرة والمسئوليات العديدة ، كان رئيساً للدراسات الصيفية للمعلمين بمدينة لندن ، وزميلًا بالجمعية الملكية ، وأحد محرري اللجنة التي تصدر سلسلة المؤلفات النفيسة المعروفة باسم Home University Library لنشر الثقافة بين جماهير القراء . ورأس المجمع العلمي البريطاني ومكتبة لندن ، وانتخب عضواً في إدارة وقفية رودس ، وخصص جزءاً كبيراً من وقته لتشييد معهد رودس والإشراف عليه . وكان عضواً في مجلس إدارة المتحف البريطاني ، وفي مجلس إدارة شركة الإذاعة البريطانية ، ومدير شرف لعدد من المدارس الكبرى ، وخاصة كليته القديمة ونشستر التي انتخبته زميلاً بها ، كما ساهم بتنصيب في هيئات أخرى تاريخية وسياسية وعلمية لا حصر لها .

وبدأ حوالي سنة ١٩٣٠ يؤلف سفره الخالد « تاريخ أوروبا » A History of Europe ، وأتمه سنة ١٩٣٥ . وقد استفد منه جمهور من جغارة ، واقتضى منه بحثاً عملياً متشعبة . ولا ريب في أنه من أعظم المؤلفات التي تبين المبادئ الحرة على ضوء الأحداث التاريخية . ومنح فسر لخدماته العلمية الكبيرة وسام الجدارة Order of Merit ، وهو من أرفع الأوسمة البريطانية ، ولا يمنح إلا للأساطين الكتاب والعلماء من البريطانيين .

واعتمدت صحته قليلاً في أواخر سنة ١٩٣٥ ، فاضطر إلى قضاء ثلاثة شهور في راحة تامة ، هي الأولى من نوعها طوال حياته .

غير أنه استعاد صحته كاملة ، ورجع إلى ضروب نشاطه العديدة .
ونشبت الحرب الأخيرة في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، فأضاف إلى أعماله الكثيرة
عملاً آخر ، هو قبوله رئاسة المجلس الاستثنائي الخاص بقضايا المتنوعين
عن الانخراط في سلك الجندية لحافز وجداني . وكان هذا المنصب دقيقاً
يحتاج إلى مران وخبرة بعقلية الشبان ، ولكنه أدامه خير أداء . وكان في طريقه
إلى دار المجلس حينما صدمته سيارة في أحد أيام سنة ١٩٤١ صدمة أودت
بحياته . ففقدت الأمة الإنجليزية بوفاته وطنياً صادقاً ، وخسر علم التاريخ
قطباً من كبار أقطابه .

أحمد نجيب هاشم

وديع الضبع

مقدمة المؤلف

يبدأ هذا الكتاب بتاريخ الإنسان في العصر الحجري (العصر النيوليتي) ، ويختتم صفحاته بستانين ومصطفى كمال وموسوليني وهتلر . وبين هذين العصرين الغامضين المعالم من عصور تاريخ الجنس البشري ، نستعرض مشاهد تزدهر بها النفس ، وحركات يطيب لاستعادتها الذهن : تنقلات الشعوب الآرية الزاخرة بألوان النشاط ، واستيطانها بعض أرجاء أوروبا ، وظهور عباقرة اليونان وازدهار نتائجهم العقلي ، وبسط السلام ألوته رداً طويلاً أيام دولة الرومان ، وموجة التطهير التي ظهرت بظهور المبادئ الخلقية المسيحية ، والنهضة البطيئة الخطى في العودة إلى دراسة الآداب القديمة ، بعد أن اختفت وكادت تنفى آثارها ، على إثر غزوات الشعوب المتبربرة ، واستكشاف العالم الجديد بازدياد المجهول من المحيطات ، وتحكيم العقل خلال القرن الثامن عشر ، وظهور الحركة العلمية ، وتقوية روح البر والخير العام إبان القرن التاسع عشر .

غير أن أمراً واحداً تعذرت على رؤيته . فقد أبصر بعض جهابذة العقل وأساطين الفكر في أطراف التاريخ وأحداثه مؤامرة محبوكة وتناغماً متناسقاً وقالياً مقررأ مقدوراً . أما أنا فقد حسّيت عن ناظري هذه الأمور ، واستحالت على رؤيتها . فإني لا أرى سوى حادث يعقب حادثاً ، وطارئ يتلو طارئاً ، كما تتعاقب أمواج البحر ، الواحدة في إثر الأخرى . ولم أنه إلا إلى حقيقة واحدة جليلة الخطر فريدة الشأن لا تتطلب تعميماً ، ولم أستخلص سوى قاعدة مأمونة يسترشد بها المؤرخ ويهتدى بنورها ، وهي أنه ينبغي عليه أن يدرك في تطور الأحداث وتغير تصاريف الزمان لعب الطوارئ غير المرتقبة والمقادير غير المنظورة . وهذا المبدأ ليس فيه ما يدعونا إلى الاستسلام لليأس

والتطير . فلان ألوان التقدم وضروب الارتقاء التى حوتها صفحات التاريخ ظاهرة جليلة لكل ذى عينين . ولكن التقدم ليس قانوناً من قوانين الطبيعة . فما يكسبه جيل قد يضيعه جيل نال . وقد تسير أفكار البشر فى سبل ومسالك تؤدى بهم إلى الحمجية ، وتقودهم إلى التهلكة .

ولقد بدأت هذا المؤلف بسرد تاريخ الإغريق ، والرومان ، والشعوب المتبربرة ، والمسيحية . ويخص استكشاف العالم الجديد واستعماره ، وقيام الدول ، وتطور النظام الرأسمالى تطوراً كاملاً - تخص هذه الأمور عصرأ تالياً ، هو عصر حديث نسبياً ، باعتبار أنه قد مضى ستة آلاف عام على ظهور الحضارة الإنسانية فى هذا الكوكب . أما كشف البخار والكهرباء وتسخيرهما لخدمة الإنسان ، فهما أحدث وأقرب . ومن المحتمل أن البشر بعد ألقى عام سوف يعتبرون كشف النقاب عن أسرارها بمثابة « الحد الفاصل » فى تاريخ البشرية .

والكتاب الثالث^(١) يصف نهوض المذهب الحر ، ووضعه موضع الاختبار والتجربة . وإلى أستعمل كلمة « المذهب الحر » Liberalism ، لا فى معنى حزبي ضيق ، وإنما أقصد به تلك المبادئ من الحرية المدنية والسياسية والدينية التى نراها راسخة الأركان رفيعة العماد فى بريطانيا ومستعمراتها المستقلة ، وهذه التى نراها أيضاً وطيدة الدعائم بين الشعوب الفرنسية والهولندية والسكندناوية والأمريكية . وإذا كنت أتحدث هنا عن الحرية فى هذا المعنى الرحيب الشامل بوصفها تجربة واختباراً ، فليس ذلك لأنى أبغى الاستهانة بشأنها والخط من قدرها (فلان معنى ذلك أنى سأمتن شأن الفضيلة ذاتها) ، وإنما أردت فقط أن أدلل على أن أمواج الحرية قد نكصت وتراجعت فجأة عن أرجاء فسيحة من قارة أوروبا ، بعد أن كانت قد ظفرت لنفسها بمكانة رفيعة خلال القرن التاسع عشر . إذ كيف يمكن لامرئ أن يعد انتشار

(١) وهو الكتاب الذى يلقبه المريان إلى القراء .

الاستعباد الفكرى أمراً يستوجب التقدير والتهنئة ، مهما تعددت منافع ذلك الاستعباد وتعاطمت خيراتہ . فإن الأصحاء لا يحتاجون إلى « مكيفات » أو عقاقير مخدرة ، ولا تلجأ الأمم إلى مثل هذا الشر المستطير والعقار الآثم كعقربة لازب إلا حينما تهوى أخلاقها ، وتنحدر روحها المعنوية في مهاوى الفساد والتدهور .

وإننا نحيل القارئ الذى يبغي الاطلاع على مراجع مطولة في تاريخ أوروبا إلى المراجع الموجودة في مجلدات Cambridge Ancient Medieval, and Modern History ، وإلى المراجع المذكورة في طبعة "Gibbon's Decline and Fall of the Roman Empire" التى قام بتحريرها ومراجعتها الأستاذ J.B. Bury ، وفي كتابى : Lavis's Histoire de France و Stubb's Constitutional History of England ، وأمهاات المؤلفات التاريخية الأخرى . وقد اقتصرنا في هذا الكتاب على أن ألفت القارئ في ختام كل فصل إلى عدد قليل من الكتب المفيدة ، وآثرت أن أختار منها ما ظهر حديثاً ، وسهل اقتناؤه باللغتين الإنجليزية والفرنسية .



مقدمة التعريب

للطبعة الأولى

لعبت أوروبا دوراً خطيراً في تاريخ الجنس البشرى منذ العصور القديمة .
ففيها ظهرت الحضارة الإغريقية الرفيعة ، وفيها نمت قوة روما وتعاظم نفوذها
حتى امتد إلى جميع البلدان التي تطل على البحر الأبيض . وفيها ظهرت حركة
 النهضة بآثارها العديدة من استكشاف واستعمار وتجديد في الفنون والآداب ،
وفيها اشتعلت نيران الثورة الفرنسية وامتدت مبادئها وآثار أحداثها حتى شملت
أركان المعمورة الأربعة ، وأثرت في حضارة الشعوب وأفكار البشر تأثيراً
منقطع النظير ، وفيها ظهرت الثورة الصناعية بمبادئها الاقتصادية الحديثة
ونتائجها الواسعة النطاق . وهي اليوم أعظم تأثيراً في تقرير مصاير الإنسانية
والحضارة منها في أى عصر مضى . حتى إننا لا نغلو حين نقول إن تاريخها
الحديث هو صنو لتاريخ العالم بأسره .

ولقد اقترح المؤرخ الكبير الأستاذ محمد شفيق غربال وكيل وزارة التربية
والتعليم على بعض من دارسى التاريخ ترجمة كتاب هربرت فشر: «تاريخ أوروبا» ،
وهو من أشهر المؤلفات الحديثة التي صنف في هذا الموضوع ، ويمتاز بأنه
يقدم صورة حية وتحليلاً عاماً للشخصيات والأحداث التي يعالجها ، فلا
يملأ صفحاته بمجزئيات الوقائع وتفصيل الأحداث ، ولا يحصر المؤلف الكبير
دراساته في تاريخ أوروبا من الناحية السياسية فحسب ، بل يعنى أيضاً بدراسة
القوى والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والدينية التي نبتت منها أصول
نلك الأحداث السياسية وأفرخت . ولا يتمحدر عن تاريخ الدول الأوروبية
باعتبارها وحدات سياسية منفصلة ، بل يعالجها على أنها أعضاء في كائن
حى ، يتأثر كل عضو منها ، ويؤثر بدوره في سائر الأعضاء ،

ويتجنب الإطالة في وصف المعارك والإفاضة في ذكر تفاصيلها المملة ، ويرى إلى أن يكون كتابه هذا حافظاً للقارئ إلى الاستزادة من الاطلاع ومواصلة البحث والدراسة .

وها نحن أولاء نقدم ترجمة الجزء الذي يؤرخ العصر الحديث، وهو يبدأ بالثورة الفرنسية ، وينتهي بتاريخ أوروبا إلى ما قبل نشوب الحرب العالمية الثانية. ونرجو أن نكون قد وفقنا في نقله إلى العربية في عبارة واضحة دقيقة . ونروم أن نذكر أننا رأينا لزيادة توضيح أبحاث الكتاب أن نقسم فصوله إلى أجزاء ، وأن نضع عناوانات على جوانب الصفحات للأحداث المختلفة وأن نكتب هوامش - علاوة على الهوامش الأصلية - لبعض الأعلام والوقائع التي قد يغمض أمرها على القارئ ، وأن نضيف في مواضع قليلة جداً بعض الإيضاحات على متن الكتاب .

وختاماً نود أن نسجل هنا شكرنا لحضرة أستاذنا الجليل الأستاذ محمد شفيق غربال لما أظهره لنا على الدوام من تشجيع، وعرفاننا للجميل لما أولى مجيهرنا من رعاية واهتمام .

أحمد نجيب هاشم وديع الضبيح

تقديم الطبعة الثانية

يطيب لنا أن نقدم الطبعة الثانية لهذا المؤلف الجليل ، الذى يبدو لنا أنه سدّ فراغاً أحسّ به الكثيرون فى جميع الأقطار العربية ؛ فقد أقبلوا على مطالعته واقتنائه إقبالا فاق كل مأمول .

وكانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد وصلت إلى معالجة تاريخ أوربا حتى سنة ١٩٣٤ . وتوفى مؤلفه الكبير هربرت فشر قبل أن يتسنى له الكتابة عن الأحداث العالمية الجلية الشأن البعيدة الآثار التى جرت بعد ذلك التاريخ .

فرأينا إكمالاً للقصد، وإتماماً للفائدة من هذا السفر النفيس، أن نعالج الأحداث المعاصرة التى جرت فى الحقبة التى توسطت عامى ١٩٣٤ و ١٩٥٠ ، فنصل بالكتاب إلى وقتنا الحاضر . فأضفنا لهذا الغرض فصلاً ثلاثة جديدة : هى الفصول الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون والأربعون . وقد جاءت فى نحو مائة صفحة ، فشرحنا فى شىء من الإسهاب والتفصيل الأحداث العالمية الكبرى التى انتهت إلى إيقاد لظى الحرب العالمية الثانية ، ثم وصفنا أحداث ذلك النضال المائل الذى استمر أعواماً ستة كاملة ، وتحدثنا أخيراً عن المضلات الكبرى التى ظهرت فى أعقاب الحرب ، وعن معاهدات الصلح ، ومظاهر الاتحاد فى بعض أرجاء العالم ، وعوامل الصراع بين المعسكرين الغربى والشرقى ، وجئنا بوصف موجز لنظم هيئة الأمم المتحدة ومؤسساتها .

وقد يجدر بنا أن نذكر هنا أننا رجعنا فى كتابة هذه الفصول إلى أدق المصادر، وعيننا بتحقيق التفاصيل والتواريخ المختلفة ، وتوخينا أن نرسم صورة صادقة بعيدة عن نوازع الهوى وأسباب الدعاية ، لتاريخ هذه الحقبة المعاصرة المليئة بالأحداث الجلل .

- خ -

وأضفنا خرائط ثلاث جديدة لتوضيح سير القتال في ميادين الحرب في
شمال إفريقيا والبحر الأبيض ، والجبهة الشرقية الأوربية ، والمحيط الهادى ،
وجزر الهند الشرقية ، وآسيا الجنوبية الشرقية .

فبراير سنة ١٩٥٣

تقديم الطبعة الثالثة

يسرنا أن نقدم لقراء العربية الطبعة الثالثة لهذا الكتاب النفيس الذى
أثبت إقبالهم المتواصل على مطالعته واقتنائه ، واعتماد طلاب الجامعات عليه في
دراساتهم وبحوثهم ، على أنه سدٌّ فراغاً أحس به الكثيرون في جميع الأقطار العربية .
وفما عدا تصويبات طفيفة ، تركنا متن الكتاب كما كان عليه في الطبعة
الثانية التى عاجلت تاريخ أوربا حتى سنة ١٩٥٠ . ذلك أننا نرى أن الوقت لما
يحن لتأريخ الأحداث - برغم خطورة شأنها وعظم آثارها - التى جرت في هذا
العقد من الزمان .

أحمد نجيب هاشم وديع الضبع

أغسطس سنة ١٩٥٨

محتويات الكتاب

صفحة	
ج	تقديم الكتاب : الأستاذ محمد شفيق غربال
ز	تعريف بالمؤلف
ف	مقدمة المؤلف
ش	مقدمة التعريب للطبعة الأولى
ث	تقديم الطبعتين الثانية والثالثة
١	اتجاهات التاريخ
٥	الثورة في فرنسا
٢٥	الحرب والإرهاب
٤٥	ظهور بوناپرت
٦٥	الفصلية والإمبراطورية
٨٠	الحصار القارى
٩٢	نابليون وألمانيا
١٠٠	سقوط نابليون
١١٦	مترنخ ، وكاسلريه ، وكاننج
١٣٢	ثورة عام ١٨٣٠
١٤٨	عصر بيل
١٦٢	مملكة يوليوس
١٧٦	حركة بعث إيطاليا
١٨٥	الثورات في النمسا وألمانيا
٢٠٥	خاتمة الإمبراطوريتين الإمبريتين
٢١٧	حرب القرم
٢٢٨	توحيد إيطاليا

صفحة		
٢٥٣	صوب اتحاد ألمانيا	الفصل الثامن عشر
٢٨٠	تأسيس الإمبراطورية الألمانية	الفصل التاسع عشر
٣٠٣	الجمهورية الثالثة	الفصل العشرون
٣٢١	تيارات دولية	الفصل الحادى والعشرون
٣٣٨	الحكم البريطانى فى الهند	الفصل الثانى والعشرون
٣٥٠	أوروبا والاسترقاق	الفصل الثالث والعشرون
٣٦١	الحرب والسلام فى البلقان	الفصل الرابع والعشرون
٣٨٤	بسمارك والريخ الألمانى	الفصل الخامس والعشرون
٣٩٧	ختم عزلة بريطانيا	الفصل السادس والعشرون
٤٢٣	إصلاحات وزارة الأحرار وغيوم الحرب	الفصل السابع والعشرون
٤٤٢	صربيا والمملكة النمساوية المهنغارية	الفصل الثامن والعشرون
٤٥٦	المنازعات بين البريطانيين والإرلنديين	الفصل التاسع والعشرون
٤٧١	نزعات مهددة للسلام فى ألمانيا وروسيا	الفصل الثلاثون
٤٨١	نشوب الحرب	الفصل الحادى والثلاثون
٤٩٤	الحرب : الطور الأول	الفصل الثانى والثلاثون
٥٢٢	الحرب : الطور الأخير	الفصل الثالث والثلاثون
٥٤٧	معاهدات الصلح	الفصل الرابع والثلاثون
٥٧٨	تطور تركيا	الفصل الخامس والثلاثون
٥٨٧	الدكتاتوريات الجديدة والديمقراطيات القديمة	الفصل السادس والثلاثون
٦٣٥	تذليل	الفصل السابع والثلاثون
٦٤١	العالم يسير سراعاً نحو الحرب	الفصل الثامن والثلاثون
٦٦٤	الحرب العالمية الثانية	الفصل التاسع والثلاثون
٧١٥	فى أعقاب الحرب	الفصل الأربعون
٧٥١	فهرس	

جداول تاريخية

صفحة	
٧٣٧	رؤساء الجمهورية الفرنسية
٧٣٨	رؤساء وزارات إنجلترا
٧٤١	مستشارو الإمبراطورية الألمانية
٧٤٢	ملوك إيطاليا
٧٤٢	البلجيك — بيت كوبرج
٧٤٣	الأسرة المالكة البريطانية من عهد جورج الأول

ملاحق

٧٤٤	ا : المنشور الشيوعي
٧٤٦	ب : ملاحظات عن شروط الهدنة عام ١٩١٨
٧٤٧	ج : نقط الرئيس ولسن الأربع عشرة

خرائط

٣٥	تقسيم بولندا
٨١	فتوحات نابليون
١١٣	أوروبا حسب تقسيم مؤتمر فينا
٢٤٨	نمو إيطاليا
٣٠١	نمو الإمبراطورية الألمانية
٤٩٩	خريطة الميدان الغربي ١٩١٤ — ١٩١٨
٥٦٤	أوروبا كما صاغتها معاهدات الصلح
٦٥٦	النمسا بعد معاهدة سان جرمان

صفحة	
٥٦٧	بولندا
٦٤٩	الرومر
٦٤٩	السا
٦٥٠	دانترج والممر البولندى
٦٥٠	سيليزيا
٦٩٠	الحرب فى الشرق الأقصى والمحيط الهادى
٦٩٥	الحرب فى شمال إفريقيا
٧٠٧	الحرب فى الجبهة الشرقية

الفصل الأول

اتجاهات التاريخ

الحرية . الاشتراكية . المذهب الصناعي . القومية . الثورة . الحرب

كان في رحاب القارة الأمريكية الخالية أوسع مجال للابتكار والتجديد والمغامرة ، وكان أمراً ذا أثر بعيد للعصر الذي أخذ يطلع على أوروبا أن ترتفع الصيحات من لدن جمهورية منتصرة مبشرة بإنجيل جديد للحرية والمساواة . فقد أبان إعلان الحقوق الأمريكي (صدر سنة ١٧٧٦) الطريق الذي يتعين على كل نصير للحرية في العالم القديم أن يسلكه : وهو أن ما أنجزه الأمريكيون بالثورة (١٧٧٦-١٧٨٣) يستطيع الأوروبيون أن ينالوا مثله بالإقدام والجرأة . وقد اتخذت روح الحرية أشكالاً عديدة : فهي دستورية عند ميرابو ، وثورية عند دانتون ، وشعرية خيالية عند شلر وشلي ولامارتين ، ومصدر وحى ونبوة عند مارتيني ، وعقلية عند كُنفندُرسية وجون ستيوارت ميل ، وعملية عند كُبندن وكافور ، وحربية مغامرة عند كشرابين وغاريبالدي . ولكن ظهورها اقترن بنضال ما زال محتدم الأوار . بيد أنها عُمِّرت بعد جرائم الثورة الفرنسية وإرهاب نابليون ، وأفلحت بختام القرن التاسع عشر في تأسيس هيئات برلمانية في جميع ممالك أوروبا العظمى ، ما عدا روسيا .

وكعصر الإسكندر ، شهد العصر الذي سيكون موضع دراستنا في هذا المؤلف زيادة هائلة في نطاق الأحداث وسرعتها وشدة تنوعها . ففي أقل من مائة وخمسين عاماً زاد عدد سكان أوروبا ثلثمائة وخمسين مليوناً ، وسكان الولايات المتحدة أكثر من مائة وثلاثين مليوناً^(١) . وصارت المدن أكبر ،

(١) قدر الدكتور R. R. Kurynski سكان أوروبا بمائة مليون سنة ١٦٠٠ ، و $\frac{1}{4}$ ١٥٢ مليون سنة ١٧٠٠ ، و ١٧٣ مليوناً سنة ١٧٨٩ ، و ٥٢٥ مليوناً سنة ١٩٣٤ .

والحكومات أقوى . وزادت الجيوش والأساطيل والميزانيات والأعمال ودخل
الحكومات والثروات الخاصة، إلى مدى لم يخطر قط ببال . فقد مكّن ابتداع
طرق جديدة للنقل من إرسال جيوش جرارة مئات من الأميال بعيداً عن
أوطانها ، وتموينها بانتظام أعواماً عدة . وبما الأبعاد ابتكار وسائل جديدة
للمواصلات ، واستُخدمت طرق جديدة للدعاية لتنظيم الرأي العام وضبطه .
تبلغ الأخبار والمعلومات التي تحت تصرف الحكومات الحاضرة ذروة رفيعة
ومن الكمال والدقة ، حتى لقد يمر الآن من الشؤون في يوم واحد في مكتب
رئيس الوزراء أكثر مما كان يجتمع لنظره خلال عام كامل أيام الملك جورج
الثالث .

وترجع الزيادة الضخمة في عدد سكان أوروبا إلى ازدياد سيطرة الإنسان
على قوى الطبيعة ، أكثر من رجوعها إلى أى تقدم عجيب في فن الحكم .
ولا يعنى هذا أن العصر الذى سنشرع في دراسته كان مجدياً من الأفكار
السياسية ، أو مقفراً من الإصلاحات النافعة . فإن التعريف الذى ابتكره
ريكاردو Ricardo (١٧٧٢ - ١٨٢٣) للإيجار ، بأنه فائض لا يعود
الفضل فيه إلى العمل أو رأس المال ، بل إلى قدرة التربة الأصلية التي لا تفى
— هذا التعريف لفت الأنظار إلى الإيرادات غير المكتسبة في جميع أشكالها
وألوانها ، وزود الاشتراكية بحجة من أقوى حججها النظرية . وأدى كشف
المبدأ القائل بأن التجارة تغزو أروج ما يكون عند تحررها من القيود المالية ،
والمبدأ المكمل له بأنه في عالم تسوده المنافسة ، ينبغي أن يُحمى العمال من استغلال
أرباب الأموال لهم — أدى كشف هذين المبدأين ، بطريقتين
مختلفتين اختلافًا بيناً ، إلى إيجاد مجتمع يتمتع بلذائذ مادية أوفر كثيراً ، وأفضل
توزيعاً ، منها في أى عصر مضى .

ومع ذلك فما زالت معضلة الفقر قائمة من غير أن يكشف لها حل ،
وما زال يحتم على قلب كل عامل خطر البطالة . فإن تغيير المستحدثات
(المودة) ، أو إفلاس صاحب العمل ، أو إحمال محصول في قطر بعيد ،

أو لإقفال مصرف أبوابه فجأة ، أو تدليس زمرة من المضاربين ، أو طيشهم وعدم تبصرهم ، قد يؤدي به إلى البطالة ، ويجر على أسرته الحاجة والعوز .

وقد بدأ عمال المدن ينمون ويزداد عددهم بسرعة كبيرة ، حتى أصبحوا يؤلفون في هذه الحقبة أغلبية المجتمع الأوربي . فبانت مشكلة توفير أسباب السعادة لهم من أضخم المشاكل وأكثرها تعقيداً ، حتى استعصى حلها على يد جماعة واحدة من أرباب السياسة ، وشق الوصول إلى حلها في هدوء وسكون . ولم تُكشَف إلا تدريجاً ، أو تطبق إلا جزئياً ، طرائق تخفيف وطأة الفقر وإزالة أسبابه ، هذه الطرائق التي نتجت عن وضع قوانين المصانع ، وتنظيم المناجم ، وجهود نقابات العمال وجمعيات التعاون ، والتأمينات والمعاشات التي تقدمها الدولة للعمال ، والتعليم الذي تهيئه للأحداث ، والمساعدات العامة التي تُمنح للعجزة . ومع أن « مشكلة حالة الشعب » كانت على الدوام في المحل الأول من الأهمية والاعتبار ، فإنها لم تكن يوماً من الأيام في طليعة المسائل التي تشغل اهتمام رجال السياسة وعنائتهم . فقد كان هنالك أسباب وشواغل أخرى أكثر جاذبية وأشدّ محرراً من تلك المشكلة ، تعمل على جذب اهتمام السواس بها ، أو إثارة عواطف الدهماء ، كالتنافس القائم بين الأمم ، والظلم إلى التوسع والاستعمار ، وتشديد الإمبراطوريات ، وشهوة فتح الأسواق . ومن ثم لا يمكن أن يَروى تاريخ أوربا على وجه الدقة كأنه نتيجة

لنلك التغيرات التي لا تحصى ، والتي تكاد تخاو من أى معنى — هذه التغيرات التي حولت مجتمعاً كان ملاك الأرض وأصحاب الطواحين أبرز أفرادها ، إلى مجتمع تتوقف سعادته إلى حد كبير على باشكاتب أو مهندس مجلس محلي أو مفتش صحة أو معلم . وإننا نبسط أكثر مما ينبغي معضلات المجتمع وقضاياها لو أننا اعتبرنا أن تاريخ أوربا إن هو إلا مجرد نضال بين طبقات ، وصدام على المصالح الاقتصادية ، فإننا بذلك نحط من شأن جبلة الطبيعة البشرية الغنية المتنوعة ، ومشاغل السواس ، وعناد الجواهر غرابة أطوارها . ففي الحياة الواقعة ، ليس في المستطاع أخذ حتى أهم المشاكل

الاجتماعية التي ترحق جيلا من الأجيال إلى معمل ما ، وبعد فحصها فحصاً دقيقاً بعيداً عن الهوى يمكن إيجاد حل علمي مضبوط لها » فقد تظل الأسباب الحقيقية لعلل المجتمع سنين عديدة لا يقام لها أقل وزن . فإننا قد ندقق البحث في مذكرات جيزو Guizot أحد أعظم الفرنسيين في القرن التاسع عشر . دون أن نعثر فيها على دليل بأنه كان مدركاً لروح الدماء ، أو ملمّاً بمشاكلهم ومشاكلهم العديدة .

فإن قارة أوروبا لما اضطرت هي أن تجابه حقائق الانقلاب الصناعي التي كانت إنجلترا تجاوبها ، لم تقل لنفسها وقتئذ : « إن الأمور الجديدة الغريبة التي تجري الآن في إنجلترا ستحدث لي أنا أيضاً ، عندما يحين الأوان . فستقام هنا أيضاً المدن الصناعية التي سيملاً دخانها الجو ، وسيستمر هنا أيضاً استغلال عمل الأطفال الصغار للربح والكسب ، ولكن سيولد برغم ذلك في هذه الدنيا أطفال أكثر وأكثر — أطفال يجب أن يبيتوا ويطعموا ويتعلموا ويحكموا ، وقبل أن تمضي عقود عدة ، ستتكرر في كل صقع وناد نفس هذه الأمور . وستغير الآلات الميكانيكية ورؤوس الأموال معالم المجتمع . وستجبر الحكومات في مشارق الأرض ومغاربها — إذا كانت تروم البقاء — على أن تعد العدة لحيل جديد لا يملك رأس مال : جيل اجْتُثَّ من الأحوال الاقتصادية الثابتة الوطيدة ومظاهر العبادة والتقوى التي تحفل بها الحياة القروية ، جبل لا تقاليد ولا ولاء ولا مستوى أخلاقياً له ، جيل هائم يعيش في مهب ريح المزاومة الاقتصادية العنيفة . ونحن الأوروبيين نبدأ في الواقع عصرًا صناعيًا جديداً ، فينبغي لنا أن نرقب أخطاره ، وندرك من قبل حوائجه . ونهلى خطواته الصراط المستقيم » .

كان قعياً بأوروبا أن تخاطب نفسها بهذه الأقوال ، ولكنها لم تفعل شيئاً من هذا . وبدلاً من أن تصيخ بأذنها إلى الإشارات والمسمات الخافتة التي كانت تنذر بقدوم الديمقراطية الصناعية التي بدأت طلائعها تآوح في الجو ، قذفت بنفسها في سعي حروب الثورة والإمبراطورية الفرنسية .

الفصل الثاني

الثورة في فرنسا

قوة فرنسا وضعفها . الامتيازات . مشكلة الطعام . فرصة الملك . عجز الميزانية . مجلس طبقات الأمة . أمانى فرنسا في سنة ١٧٨٩ . فرساي وباريس . المهاجرون الأولون . سقوط النظام القديم . الطبقات العاملة والأندية . ميرابور . دستور سنة ١٧٩١ . الثورة والكنيسة . الثورة والملكية الخاصة . مكاسب طبقة الفلاحين . فارن . انقضاخ الجمعية التأسيسية .

١ - قوة فرنسا وضعفها

برغم أن فرنسا خرجت منتصرة ظافرة في حرب الاستقلال الأمريكية ، وبرغم أن عدد سكانها كان يقرب من ثلاثة أضعاف عدد سكان منافستها المهزومة : بريطانيا العظمى ، وبرغم أنها كانت تملك موارد زراعية هائلة ، وصناعة نسيج رائجة ، وطرقاً وترعاً فخمة ، وتجارة خارجية زادت خمسمائة في المائة منذ وفاة لويس الرابع عشر - برغم هذا كله فلما أخذت تجابه بمعضلات داخلية خطيرة الشأن . وكان الشر العاجل المائل للعيون هو سوء حالها المالية . فقلبه كانت مهددة ، أو اعتقدت أنها مهددة بـ إفلاس خطير مخيف .

ولكن أهم وأخطر من ذلك ، كانت تنقصها المساواة الاجتماعية والحرية السياسية ونظام عادل للضرائب ، وسلطة تنفيذية ذات كفاية ومقدرة . فالامتيازات العقيمة الضارة التي يرجع أصلها إلى العصور الوسطى كانت قد عمت جميع أنظمة المجتمع وهيئاته . فهناك امتيازات الكنيسة ، وامتيازات النبلاء ، وامتيازات جميات الأقاليم التشريعية ، وامتيازات الهيئات القضائية ، وامتيازات نقابات طوائف العمال . وقد لوثت هذه الامتيازات العدالة . ونقلت

الشر الأكبر من أعباء الضرائب إلى أكتاف الفقراء ، وحرمت أفضل وأذكى طبقة وسطى في أوروبا من المناصب الحسنة في الجيش والأسطول والكنيسة والقضاء .

فغدت الامتيازات بغضبة كريمة لا مسوغ لبقائها . وفقد كبار رجال الدين في فرنسا الذين لم يكونوا يدفعون ضرائب ما - فقدوا كثيراً من احترام الناس لهم ، لغناهم الطائل وتكالبتهم على أمور الدنيا ، وارذائلهم ونقائصهم . وصار الأشراف الذين انقطعوا إلى مدى كبير عن الإقامة في إقطاعياتهم - صاروا لا يؤدون عملاً اجتماعياً . فكانوا يجمعون إيجاراتهم ، ويبيعون مكوسهم الإقطاعية ، ويفرضون أصناف السخرة *Corvées* على فلاحهم ، ولكنهم إذ كانوا عطلاً من كل عمل أصبحوا عبئاً ثقيلاً على المجتمع . ولكن وُجِدَ بلا مراء استثناءات شخصية ومحلية . فقد كان هناك بعض ملاك الأرض الأشراف الطبيي القلب الميالين إلى الإصلاح والتقدم . وفي بعض المقاطعات ، وبخاصة في إقليم فاندى ، كان النبلاء يقيمون في ضيعاتهم على نمط الأسياد الإنجليز . فأبقوا على حب أتباعهم وولائهم لهم .

ولكن التغيب طويلاً ، وبلا داعٍ ، عن المقاطعة كان هو القاطعة ؛ حتى ظن المؤلفون وكتبوا عن النبلاء الفرنسيين بأنهم من سلائل الفرنجة ، أو كفرقة من التوتون نزلت بأرض أجنبية وأخذت تسخر لخدمتها شعباً كِلَيْتِيّاً خاضعاً .

مشكلة الطعام

وقد جاءت الثورة لأن الملكية عجزت عن حل مشكلة الامتيازات ، ولم تكن من القوة بحيث تنبذ بقايا النظام الإقطاعي الذي كان في فرنسا - كما كان في معظم ممالك أوروبا الأخرى - ثقل الوطأة على الأهلين . ولقد كان ثمة معضلة أخرى ذات صبغة اقتصادية حارت حكومات النظام القديم في علاجها . ذلك أن موارد طعام الشعب لم تكن ميسورة مضمونة . فع كل ثروة فرنسا الزراعية ، وتروى طبقها العليا ، كانت بعض طبقات الأمة عرضة بين آن وآخر لفتك المجاعات وأهوالها .

ولم يكن ذلك نتيجة تطور صناعي قهري . فإن فرنسا ولو أنها كانت في ذلك الحين قطراً حضرياً غامراً بالمدن ، إذا قيسَت بألمانيا — فقد كان سكان باريس مثلاً قبيل الثورة يبلغون ٧٥٠ ألف نسمة — إلا أن طرق الصناعة فيها ، كطرق الزراعة ، ظلت إلى درجة كبيرة تلك التي كانت تُستعمل في العصور الوسطى . ولم تكن الطبقات العاملة إبان الثورة الفرنسية تتكون من عمال مصانع متنقلين اقتُلِعوا من الأرض اقتلاعاً ، بل من عمال وفلاحين عاديين غير منظمين . فلم تكن تلك الطبقات تحقد على رأس المال كنظام اقتصادي ، أو تعارض في ملكية الأرض . بل كانت مطالبا محصورة في الحيز الذي لم تكن تضمن الحصول عليه دائماً ، نظراً إلى سوء النظم الزراعية وتقادم المعهد عليها من جانب ، وفرض المكوس الجمركية الداخلية على الحنطة من جانب آخر . فكانت العواقب وخيمة سيئة : كقيام الفتن الخطيرة للمطالبة بالحيز ، ووجود فقر مدقع وعوز شديد في المدن الكبيرة وكثير من أقاليم الريف .

ولما تَسَنَّمَ لويس السادس عشر عرش فرنسا سنة ١٧٧٤ كان الميل في أوروبا قوياً نحو الحكم المطلق الخبير . فقد وضع فردريك الأكبر ملك بروسيا مثلاً اجتهاد الملوك في أن ينحوا نحوه . وحتى في النمسا وأسبانيا الكاثوليكيين هبَّ نسيم التقدم من الطبقة العليا ، وريح الرجعية من الطبقات الأدنى . فقد كان الملوك والملكات فيهما أحراراً ، بقدر ما كانت مجالسهما النيابية محافظة . ولذا كانت فرنسا مستعدة لأن ترحب بشرلمان جديد يستطيع بقاء حكمته أن يصلح ما فسد من شؤون الدولة .

ولكن ذلك الملك النقي لم يكن يصلح نباتاً للقيام بهذا الدور . نعم كان متحلياً بكل فضيلة شخصية ، فكان أميناً ورعاً لطيف المعشر حسن النطق ، ولكنه لم يكن في مقدوره أن يحكم . وقد حرمت الطبيعة صفاء الذهن ، وحدة التفكير ، وسرعة البت في الأمور ، وحاسة انتهاز الفرص ، وموهبة الجدل والمناظرة — تلك الصفات التي تكون رجل الدولة . ولذلك ترك التيار

يجرّفه إلى أين يجرى ، بدلاً من أن يوجّه هو الحوادث .

مارى انطوانيت مارى انطوانيت
أما زوجه مارى أنطوانيت ابنة ماريّا تريزا إمبراطورة النمسا فقد خلّقت من عود أصلب ومعدن أقوى . غير أنها كانت فى نظر الجماهير رمزاً بغضاً لتحالف كبريه محقوت . وفى نظر الباسة مصدر وحى لكل نزق وطيش يحدث فى البلاط ، ومركز مقاومة لسياسة التوفير والتجديد التى يطالبون بتنفيذها . ولم يُجندّها جمالها وفتنتها نفعا . وكانت ذات كبرياء وتشامخ . فلم تحاول أن تصفح عن عدو . أو أن تسعى إلى استمالة خصم . فبدت لناقضى المملّكية كبحورية البحر التى تجر سفينة الدولة إلى الهلاك والدمار .

معارضة برلمان باريس للإصلاح
وضاعت خير فرصة لمنع الثورة بإجراء الإصلاح ، حينما دعا الملك الشاب برامانات فرنسا للانعتاد فى محاولته التودّد إلى الشعب . فإنه بذلك أقام حاجزاً قوياً فى سبيل التقدم والإصلاح . ذلك أن القوة المنظّمة تستطيع دائماً أن تهزم الرأى غير المنظّم . فلقد كانت أكبر العقول فى فرنسا وقتئذ تؤيد تروجو Turgot (١٧٢٧ - ١٧٨١) أعظم وزراء فرنسا ، حينما اقترح إلغاء نقابات طوائف العمال ، وإطلاق تجارة الحنطة من كل قيد . ولكن برلمان باريس كان أيضاً محبوباً من الشعب ، فقد عدّه الحائل الفعال الوحيد دون طغيان العرش . ولذا فإنه حين عُزل تروجو بعد مكثه فى الوزارة ثلاثة عشر شهراً لم يُنجِز فيها شيئاً ، ولم يترك سوى ذكريات الإصلاحات الخائبة ، لم يُحدث عزله أى ضجة ، وإنما أوجد اقتناعاً فى نفوس الرجال المفكرين بأن إصلاح فرنسا المنشود لن يجرى من أعلى ، بل يجب أن يُنبثق عنه فى جهة أخرى ..

وبعد فترة وجيزة خلفه فى الوزارة نكر Necker (١٧٣٩ - ١٧٩٤) ، وهو يروتستانى جمهورى من أهل جنيف ، واشتغل أولاً فى أحد المصارف . وقد ظفّر نكر بحب الجمهور إيمان اشتراك فرنسا فى حرب الاستقلال الأمريكية ، بدفعه نفقات تلك الحرب بالقروض ، ولكنه فقد ذلك الحب حالما شرع فى إنشاء مجالس محلية تحل محل متلويى الملك فى الأقاليم Intendants فى

تأدية واجباتهم الإدارية . وعُزل نكر من منصبه سنة ١٧٨١ . ومن ذلك الحين حجت مشكلة الميزانية سائر المشاكل الداخلية في فرنسا .

وكانت تلك المشكلة تنحصر في كيف يمكن سد العجز الذي ظهر في الميزانية . فن جهة الأرقام لم يكن ذلك بالعمل الشاق ، كما قد يتراعى في بادئ الأمر . فإن فرض ضريبة إضافية قدرها ستة أو سبعة فرنكات عن كل فرد كان كافياً لتمكين فرنسا من موازنة دخلها وخرجها ، ولكن من الوجهة النفسانية السياسية كانت تحول دون ذلك صعوبات ضخمة . إذ كان هذا العمل ينطوي على موافقة الطبقات الممتازة على وجوب دفعها نصيبها النسبي من الضرائب . ولكن عيثاً حاول وزير بعد آخر حمل الأشراف على الموافقة على الحل الوحيد الذي يمنع هبوب العاصفة الموجهة : وهو النزول عن امتيازاتهم .

وقفل أيضاً كالون Calonne أجراً وأذكى أولئك الوزراء ، ولم تشر شيئاً فكرته الرائعة بدعوة جميعه من الأعيان (سنة ١٧٨٧) . كما حبطت مقترحات عديدة غيرها . ولكن كان لحبوط مسعاه ضجة أشد ورنين أعلى . إذ حاول أن يطلع بنى وطنه على بعض الحقيقة . فقد كتب : أن فرنسا مملكة تتكون من ولايات وأقطار منفصلة ذات إدارات مختلطة متنوعة ، لا تعرف مقاطعاتها شيئاً عن بعضها بعضاً ، وحيث لا تحمل بعض جهاتها عبئاً ما ، بينما العبء كله يقع على الجهات الأخرى ، وحيث أكثر الطبقات ثراء يُقرض عليها أعنف الضرائب ، وحيث الامتيازات تجعل دون كل توازن ، وحيث يتعذر إقامة حكم ثابت دائم ، ووجود إدارة مشتركة . فلا عجب إذا هي غصت بالميرب ، وحفلت بالمساي . ومن المتعذر في حالتها الرائنة أن تحكم حكماً صالحاً .

٢ - مجلس طبقات الأمة والجمعية الوطنية

دعوة الملك
لمجلس طبقات
الأمة

وقد جرّبت بلا جدوى جميع ضروب العلاج ، ما عدا علاجاً واحداً ألح على كل جانب على الحكومة بتجربته . ففي الثامن من أغسطس سنة ١٧٨٨ ، في جو مملوء بالخوف والفكر والآمال ، دعا الملك أخيراً مجلس طبقات الأمة

للانتماد في العام التالي ، وأرجع نكر ساحر المال إلى منصبه القديم الذي يهيمن فيه على مالية فرنسا .

ولم يصدر قط إصلاح جليل من ذلك المجلس الذي أهملت دعوته للاجتماع طويلا ، والذي كان يجتمع فيه رجال الدين والأشراف ويمثلو الطبقة الثالثة « طبقة العامة » ، ويتداولون ويقرعون كل على حدة . وكان كل ما أمله نكر من دعوته لإياه الآن أن يقرّ المال اللازم لمعادلة الميزانية ، فيسد بذلك الهوة العميقة التي فغرت فاهها بعجز الميزانية . ولم تضع الحكومة قبل انعقاد ذلك المجلس خطة للإصلاح الدستوري ، أو تُعيد أى إرشادات لهدى مجلس قليل الخبرة ، كهذا المجلس المؤلف من ألف ومائتي عضو ، خلال عمله . ومع أنه تم الاتفاق في ٢٤ يناير سنة ١٧٨٩ على أن يكون عدد ممثلي الطبقة الثالثة معادلا لعدد أعضاء طبقتي الأشراف ورجال الدين معاً ، فإن الحكومة لم تقرر شيئاً ، بل إنها لم تقرر حتى هذا الأمر الخطير وهو : هل يجتمع جميع أعضاء الطبقات الثلاث معاً ، أو يجتمع ممثلو كل طبقة على حدة ؟ والحق أن لويس لم يكن ينتظر ، أو يدرك الحركة الهائلة التي ترتبت على دعوة مجلس طبقات الأمة في فرساي ، والتي خلقت رأياً عاماً سياسياً قوى الإرادة شديد الهياج .

قصر نظر
الحكومة

ومع ذلك فإنك لتجد المطالبة بالإصلاح الدستوري في هذا الشكل أو ذاك ، ظاهرة في جلاء ، في المرائض *Quais* التي رصفها كل هيئة وفاحية في فرنسا إلى الحكومة ، أو نشرها كبار القوم خلال تلك الحقبة الديمقراطية . ولم يكن ذهن فرنسا — كما يظهر في تلك الوثائق — يمتنع إلى الجمهورية ، بل كان يطالب فقط بأن الضرائب يجب ألا تفرض من غير موافقة الشعب ، وأن تلغى ضريبة البيوت والمعار الثابت *Taille* ، وهماأمينتان أجمع الناس ، برغم تضارب المصالح ، على المطالبة بتحقيقهما . وثمة عريضة وزعت على نطاق واسع ، كتبها قس شاب ممتاز الذكاء ، ورسم فيها نظام ملكيكية دستورية تشبه كثيراً تلك التي أقيمت في فرنسا عقب سقوط نابليون . وكان ذلك القس هو تاليران *Talleyrand* . استغف أوقان الذي أثبتت الأيام أنه كان أحكم من الكثير من

أما في فرنسا
سنة ١٧٨٩

أبناء وطنه . فقد قُدِّر له سنة ١٨١٤ ، بعد أن أشرفت حروب الثورة على الانتهاء ، أن يدير دفة الأمور في فرنسا على النمط الذى سعى عبثاً أيام شبابه أن يخطه لها .

ولكن لما التأم عقد المجلس في فرساي في مايو سنة ١٧٨٩ وقع ممثلو طبقة العامة تحت تأثير عقلية السوق . فقد اجتمعوا في وقت هياج شديد وآمال عريضة ، وعقدوا من يادى الأمر النية على أن يمنحوا فرنسا نظاماً وهيئات تكون موضع حسد العالم لها ، وأنموذجاً لساثر البلدان . وبدأ كل شيء سهلاً ميسوراً لجيل رأى في تحليق البالون الأول فاتحة لتذليل الهواء ، وفي التزويم المغنطيسى قوة جديدة غامضة تسيطر على أعمال العقل البشرى . فلم يكن ممثلو تلك الطبقة ، وقد تشربت نفوسهم بهذه الروح بيميلون ، إلى أن يحتملوا معارضة من جانب الطبقات الممتازة . فأعلنوا في ١٧ يونية أنهم يكوّنون « الجمعية الوطنية » . وفي اجتماع شهير عُقِد في ٢٠ يونية في « ملعب التنس » بجوار قصر فرساي ، أقسموا بالألا ينفضوا حتى يضعوا لفرنسا دستوراً .

وكان العمل الذى فرضوه على أنفسهم ضخماً جباراً ، فإن الدستور الأمريكى سنة ١٧٨٩ وضعت وصقلته لجنة صغيرة من رجال ذوى كفاية ممتازة كانوا يعقدون اجتماعاتهم وراء أبواب مغلقة في مدينة فيلادلفيا الحادثة المتدنية . أما الجمعية الوطنية الأكثر عدداً المتعقدة في فرساي ، فقد جرت مداولاتها في مملكة تجمش بالقريش ، تحت ضغط خطاء باويس وصنخيم وزميجهم . وكان إصلاح نظام الملكية الفرنسية القديم العهد إصلاحاً عكسياً عكساً على أى حال ، ولكنه بات حاجة خفية أشق مما يجب بتحمل الجمعية تبعه حكم فرنسا ، الأمر الذى أقحمته عليها الحوادث .

وكان هنالك طغمة من البطانة الملكية تمقت منح الشعب أى شيء ، وتتوق إلى استخدام القوة في كبح جماح الجمعية ، والقضاء على اضطرابات العاصمة التى ازدادت استفحالاً . فأذعن لويس بعض الإذعان لهذه الطغمة . فأقال في ١١ يوليو فيكر المبتعض — أقاله الأمور ثلاثة — لأنه بروتستانتى ، ولأنه حديث نعمة ،

ولأنه مصلح . وأمر بإقامة معسكر قرب فرساي لجنود نظاميين وضعوا تحت إمرة برجلي ، وهو قائد قديم مجرب ذائع الصيت ، واستموت الآن لويس سياسة القوة والبطش ، وهو الذي كان ينادى من قبل بوجود الإصلاح .

فكان رد ديمقراطية باريس على تهديد الرجعية هذا ، هو الرد التاريخي الذي ما زالت فرنسا تحتفل به عيداً قومياً في ١٤ يوليو من كل عام : حين استسلم في ذلك اليوم من عام ١٧٨٩ حصن الباستيل إلى غوغاء كانوا قد سلحوا أنفسهم بما غنموه من الأنفاليد . ومن المرجح أنهم كانوا يموّلون من بعض أرباب الأموال الذين رأوا في فكر الأمل الوحيد للإصلاح المالي .

١٤ يوليو

ولم يكن هنالك فخر كبير في هجوم على حصن كانت مدافعه مهجورة عديدة الاستعمال . ولكنه كان نظراً للظروف التي سبقت وتبعت استسلامه مصدر عار وخجل شديدين : تلك الظروف التي تُرى في الذعر الشديد الذي حلّ إذ ذاك بسكان العاصمة ، أو في مشاهد التدمير والنهب ، أو في تمرد بعض الجنود وشغب البعض الآخر ، أو في ذبح حامية الباستيل ذبحاً دل على النذالة والقسوة . بيد أن الاستيلاء — برغم تدنسه بالخرابة — على ذلك السجن القديم الذي في أطراف باريس وهدمه ، كان عملاً سياسياً فذاً رائعاً . ففي طول أوربا وعرضها هلّل الناس وكبروا مرجحين بسقوط الباستيل كخاتمة للطغيان المستر ، والسجن الظالم المستبد ، وكبشير لبزوغ فجر الحرية . .

ومن ذلك الحين بدأت تسير باريس في طليعة التاريخ . فقد صار مجلس بلديتها حكومة ذات حول وطول ، وحرسها الأهل الذي ضم إلى صفوفه كثيراً من المجرمين نواةً لجيش شعبي ، وقسوة رعاها مصدرراً لإلقاء الملع والرعب في النفوس في الأيام السود القادمة .

نتائج سقوط
الباستيل

وكان سقوط الباستيل إعلاناً مدوياً للبلاط بأن باريس لا تنهى أن يفلت للمستور من بين يديها . وأن ما تريده باريس يجب أن تقبله فرنسا . أما لويس فما كان منه عند وصول الخبر إلى سمعه ، إلا أن قال : إنها فتنة كبيرة . فأجابه اللعق دي لياككور : « كلا يا مولاي ، إنها ثورة عظيمة » .

وأصبح الآن خسوف الملكية كاملاً ، فقد باتت عاجزة عن أن تحمى
أصدقاءها ، أو تقضى على أعدائها . وأرغم الملك النعس على تجرع كل هوان
وذلة ، فأنزِم أن يتقاضى أوامره للجنود ، وأن يعزل وزراءه ، ويستدعى نيكرو ،
وأن يبارك علانية استيلاء الرعاع على الباستيل ، وأن يقبل على ملاء من الناس ،
كعلم الأمة بعد تحررها ، الشارة المثلثة الألوان الجديدة التي ابتكرها لافاييت
محرم أمريكا والقائد المنتخب للحرس الأهلى .

ومع ذلك فلم تكن باريس بواقعة من فريستها . فقد تراءى لها أن الملك
طالما كان حراً طليقاً ، فإنه يصبح مصدر خطر عليها ، فقد يستأنف الأعبية
الرجعية القديمة ، فيجمع جنداً حوله ، أو لا يصدق على المراسيم التي تقرها
الجمعية الوطنية ، أو يدبر الفرار . وقوى الشعور بأن خطره يقلّ لو أنه أقام
في باريس حيث يمكن للكون Commune - وهو مجلس بلدى باريس -
أن يراقبه ، والحرس الوطنى أن يحيطه بالحراس . وكانت صالحة هذا الرأى
والداعية له عند لفيف من أصدقائها المتحمسين ، سيدة في مقتبل العمر بارعة
الجمال فصيحة اللسان ، هى مدام رولان ، قرينة مفتش مناجم رزين وقور .
وفى خلال هذه الفترة أدركت العاصمة طرق التهييج ، واستوعبت أساليب
الثورة ، فكانت تحت تصرفها أموال ومنظمون ، وغلاة ومتطرفون ، ومورد غزير
من الأوباش تعهد إليهم بأعمال الشغب والعنف . وفى الأسبوع الأول من
شهر أكتوبر سنة ١٧٨٩ ظهر عنبر يسوع إحداث انقلاب ، فقد كان الملك
دعاً فرقة الفلاندير إلى فرساي ، ورفض التصديق على قانون أجازته الجمعية
الوطنية، وأشيع أنه يفكر فى الفرار ، وأن الحرس الملكى داس بألقامه الشارة المثلثة
الألوان . فكان شبح الرجعية الذى توارى فى بوليو قد أخذ يرفع رأسه الشرير من جديد .

وكانت هذه الظنون - مضافاً إليها شبح الخبز حينذاك فى باريس - كافية
لأن تحرك ذلك الزحف الشهير إلى فرساي • أكتوبر سنة ١٧٨٩ : ذلك
الزحف الذى بدأ بتجميع حفنة من النساء الجامحات يولفن فى طلب الخبز ،
ولكن جاء على أثره الحرس الأهلى بقيادة لافاييت . فأحضروا معهم الأسرة

• أكتوبر

المالكة إلى باريس ، وإلى قصر التويلري الكئيب ، القارس البرد الذى صار أشبه بالسجن للملك والمملكة .

المهاجرون

وفى ليلة من ليالى يوليو ، عقب سقوط الباستيل ، حينما كانت الفوضى ضاربة أطنابها ، وبيوت النبلاء تلهتها النيران ، جاء تاليران خفية إلى الكونت دارتوا D'Artois أصغر أخوى الملك ، جاء يحضه على أن يحمل الملك على حل الجمعية الوطنية ، وإعادة النظام إلى نصابه بالقوة . ولكن الملك أبى ذلك عطفاً منه وشفقة . وإذ لم يضمن دارتوا لنفسه الحماية الكافية ، فرعب الحدود ، بادئاً بذلك أولى موجات الفرار المتعاقبة التى جلبت هذا الشر المستطير على فرنسا وعلى أوروبا .

وصعب أن نغلو فى تعداد الشرور والنتائج السيئة الناجمة عن وجود شرادم من الأشراف الحانقين النشطين الفارغى العقول وراء الحدود ، يتحالفون مع أعداء بلادهم ، ويتآمرون عليها ، إما عن طريق حرب أجنبية ، أو بث روح الفتنة والتفصال الداخلى ، كى يستأصلوا نظمها وهيئاتها الجديدة . فإن جميع الكوارث الكبرى التى انتابت فرنسا إبان الثورة : كإعدام الملك والمملكة ، وجنون الشك والريبة والإرهاب ، والفظائع التى ارتكبت ، وقمع الآراء المعتدلة الإنسانية ، — إن هذه الكوارث لتتصل من قريب أو بعيد بالخاوف التى أثارها حقد المهاجرين الدفين ، وقوة حلفائهم المسلحة سواء فى الداخل أو الخارج ، فإن أكثر ما أفضى مضاجع الثوار هو ارتياهم فى وجود أنصار مستترين للملكية فى جميع أرجاء فرنسا .

انهيار النظام القديم

ولكن الجمعية فى نفس الوقت وجهت جهودها لوضع دستور لفرنسا ، يغمرها روح التفاؤل والثقة ، كأن مصادر الوحي المعرفة لفلسفة ستجيبة عن كل لغز من ألغاز الحياة . وكان من حسن الطالع أن بسط عملها تبسيطاً مدهشاً من هذه الناحية ، وذلك أنها لم تجد نفسها مجبرة على أن تهتم شيئاً . فإنه فى ليلة جمعة النشاط من ليالى شهر أغسطس (ليلة ٤) تنازل الأشراف ورجال الدين وأعضاء مجالس المقاطعات والبلديات والشركات والتقابات ، فى موجة

من موجات الفرع والكرب ، عن حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية . وانهار بذلك النظام القديم عند ارتطامه بالعواطف الثورية : تلك العواطف التي كانت الجمعية تساهم فيها إلى درجة كبيرة ، ولكنها لم تفعل شيئاً لخلقها أو توجيهها . ولم يحدث قط من قبل أن مجتمعاً شهيراً نبذ بعنف وشدة ماضيه التاريخي ، كما فعل الآن المجتمع الفرنسي . ولو أن الملكية كانت قد نزلت بها الهزيمة والعار في حرب طاحنة مدمرة ، لما كان انحدارها وإذلالها بأعظم مما حل بها في ذلك الوقت .

فإنه عقب سقوط الباستيل سادت الفوضى كل شيء : سادت الإدارة والجيش — وما هو أدهى وأخطر على مستقبل فرنسا في البحار — سادت الأسطول الذي كان قد أبلى بلاء حسناً في أثناء حرب الاستقلال الأمريكية . وأشعل الفلاحون النار في قلاع أسياهم وقصورهم ، ولم يوجد في طول البلاد وعرضها من يطيع القانون ، أو يدفع الضرائب . وألفت كل ناحية من نواحي فرنسا حرساً أهلياً : تلك القوة العسكرية الهائلة العظيمة الشديدة الولاء للثورة ، لترد عنها كيد الخصوم .

روح الحركة
الجديدة

وكانت ثمة فكرة واحدة انتشرت في كل صقع وناد ، وطربت لوقعها الشجي النفوس . واهتزت الأفتلة : هي أن الشعب هو صاحب السيادة ، ومصدر كل سلطة . وبدت الملكية النظام القديم للناس خدعة كبرى وتلجيلاً واسع النطاق ، وأن الفرنسيين لم يعودوا بعد بالأمّة المستضعفة ، بل إنهم لم يكونوا يوماً من الأيام تلك الأمّة ، فقد صاروا مواطنين : أعضاء أخوة متضافرة حرة متساوية ، تملك حق إعلان الصلح والحرب ، وإبرام المعاهدات ، ومباشرة القضاء ، وتنظيم الكنيسة ، والإشراف على الجيش والأسطول ، ومن القوانين وفرض الضرائب ، وتراعى لهم أن ليس ثمة قوة في العالم تستطيع أن تسيطر أو تقف في وجه إرادة الشعب التي تعبر عنها الجمعية الوطنية الممثلة الشرعية لها ، وأن روح الاتحاد والتضافر التي تولف بين أعضاء الجماعة الواحدة ، سواء أكانت هذه الجماعة مجلس مقاطعة ، أم مجلساً بلدياً ، أم طبقة من طبقات المجتمع ، أم شركة ،

أم نقابة عمل ، يجب أن تدعى لأوامر فرنسا التي لا تتجزأ ، وقد هبَّ من رقاده
الوَقَّادُ أمام سندیانه ، والفلاحُ وراء محراثه ، والصانع في مصنعه ، فرأوا أنفسهم
جزءاً من فرنسا ذات السيادة والسلطان ، لهم من الحقوق والاعتبار ما لأسيادهم ،
ومُنِحوا حقوقاً طبيعية ليس في مقدور أحد أن يحرمهم منها : فقد وهبوا حق
الحرية ، وحق الملكية ، وحق الكلام والخطابة ، وحق مقاومة الظلم والتعسف .
كان هذا هو المنطق ، وتلك كانت العواطف التي استبوت فرنسا ،
واستحوذت على عقول أبنائها في صيف ١٧٨٩ . وكان هذا هو نداء الديمقراطية
الجديدة الذي وجهته شعوب أوروبا الممتنة الجانِب .

وقد ذاعت تلك الفلسفة التي انطوى عليها إعلان حقوق الإنسان ، بعباراته
الخلابة ، ومبادئه التي لم توضع موضع التجربة : هذا الإعلان الذي يَدُئ به دستور
سنة ١٧٩١ ، فأثارت عباراته العزة في النفوس ، وأيقظت الأمانى والآمال في
بيوت لا تحصى . ولم تثمر إلا قليلاً نصائح التعقل والحكمة ونداءات الاعتدال :
لإزاء القوة المضلِّلة الساحرة لهذا المنطق . وكان الاعتقاد بصلاح الطبيعة البشرية
الأصلية الذي تنطوى عليه هذه النظريات مصدر معظم المحن القاسية والنكبات
المريئة التي حلت الآن بفرنسا في تعاقب سريع . فقد غاب عن الفرنسيين
أنهم أمة لا تتألف من ساسة ملائكة ، بل من شعب يحتاج — ربما أكثر من
أى شيء آخر — إلى سلطة حازمة ويد قوية لترقية مواهبه وصفاته العظيمة ترقية كاملة .

٣ - دستور عام ١٧٩١

وتحت الطبقة البرجوازية (الطبقة الوسطى) ، كانت هنالك طبقات
العمال الجامعة جسماً وعقلاً ، المتحجرة القلب من جراء إهمال أمرها . وتنفيذ
القوانين المجحفة غير العادلة فيها : طبقات حفلت بالمجرمين والمهربين وقطاع
الطرق وسفاكي السماء . فإنه في ليلة اقترام الباستيل أخذت النسوة والأطفال
ترقص على ضوء المشاعل حول رموس مقطوعة لثلاثة من الأسياد الفرنسيين
قضوا حياتهم بلا دنس أو عيب .

الطبقات العاملة
والأندية

ومع ذلك فلم يأبه أحد لذلك الإنذار البشع ، وامتنع الملك ووزرائه من توجيه خطى الجمعية وهدايتها ، ورفضت الجمعية بدورها أن تحكم فرنسا ، أو تحفظ الأمن في باريس .

ولما انتقل الملك والجمعية إلى العاصمة انتقل مركز السيادة في فرنسا إلى الأندية السياسية التي كان أهمها نادى البعاقبة : ذلك النادى الذى صار في وقت وجيز قطب الرحى في اتحاد واسع النطاق ، وحاكم فرنسا الحقيقى . ولم تحاول قط الحكومة أن تضرب على أيدي الهيئات الثورية ، أو تقاوم أفعالها التي أدخلت الرعب في قلوب أعضاء الجمعية الوطنية : وبذرت بذور الفتنة والتمرد في الجيش .

ميرابو

وسبهم التاريخ على الدوام بأمر ميرابو Mirabeau ذلك المغامر والسياسى والخطيب الشعبى والمشرع ، على أنه الرجل الذى اجتهد عبثاً في وقف تيار القوضى الجارف وإنقاذ تاج فرنسا . فقد وضع له كل الوضوح ، كما وضع أيضاً لموتيه Mouni وأشخاص حكماء آخرين ، ألا سبيل إلى إنقاذ فرنسا من التردى في هوة السقوط ، إلا بقيام حكومة قوية شديدة البطش . ولكن انتهى بهم أن يجدوا القوة والحزم ؟ إنهم لم يجدوها في الملك ، ولا في أخيه الأصغر الكونت دى بروفانس ، ولا في لا فاييت المختال المزهر بنفسه ، وأقاله غير الكفء لجرس باريس الأهل .

وخبطت جميع المسائل لتأليف وزارة ملكية قوية ، ونحطمت على صخور المبادئ الديمقراطية جميع المقترحات التي كان يُحتمل أن تقوى مركز السلطة التنفيذية في الدستور الجديد : كل إنشاء مجلس تشريعى ثان ، ونزع الملك الحق المطلق في رفض التصديق على أى مشروع قانون ، وتخويل الوزراء حق الجلوس في السلطة التشريعية . ولم يستطع ميرابو نفسه أن يعتمد حتى على تأييد الأعضاء الملكيين في الجمعية الوطنية ، لأن كثيرين منهم كانوا هدامين يميلون بموارحهم إلى جعل الدستور أسوأ ما يمكن ، بغية الخط مع قواعد الديمقراطية . ولما انتهى رأى ميرابو إلى تعذر الاتفاق على شيء مع

الجمعية ، اقترح سرّاً على البلاط أن يرّحل علناً من باريس إلى روان . وربما كان اقتراحه هذا ، من بين جميع خططه العديدة ، أقلها تهوراً وقنوطاً . ولكنه جاء بعد فوات الأوان ، ذلك أن فرنسا صارت — ولما تدر — جمهورية قلباً وقالباً .

نشئت
السلطات

وقد أبى الدستور الذى خرج فى النهاية من مرّجل المناقشات ، على الفوضى الناجمة عن نشئت السلطات : هذا النشئت الذى وجدته الجمعية الوطنية قائماً ، ولم تفعل شيئاً لتقويمه . وقد عسّرت الملكية ، ولكن كظل فقط ، لأن السلطة الحقيقية صارت فى يد أربعين ألف مجلس محلى ، تدفع من الضرائب ما راق لها أن تفرض على نفسها ، ولما وحدها حق استدعاء حرسها الأهلى الخاص بها واستخدامه . فكان الخوف القاتل من سلطان الحكومة — ذلك الخوف البادى فى اعتقاد صلف لا يقبل مناقشة بفائدة الانتخابات والهيئات الشعبية — كان ذلك الخوف عيباً من أكبر عيوب المحاولة الأولى للثورة فى تنظيم فرنسا .

الثورة
والكنيسة

وعيب آخر نتج من منطق الثورة الديمقراطية بعينه ، هو إخضاع رجال الدين لدستور مدنى . فقد كان مبدأ أساسياً من مبادئ الثورة أن الهيئات المشتركة خطرة على المجتمع . ولما لم تكن ثمة هيئة مشتركة متضامنة فى مثل ثروة ونفوذ الكنيسة ، وذات سجل طويل حافل بالتعصب كسجلها ، فقد كانت محط بغض خاص من مجلس تشريعى معاد لهيئة رجال الدين . فأخذت الجمعية تكيل لم الضربة نلوا الضربة ، فألفت أولاً العشور الكنيسية *cithes* دون دفع تعويض ، ثم نشئت ذلك بمصادرة جميع أملاك الكنيسة ، وحل طوائف الرهبنة الدينية وتحرير الرهبان والراهبات من نذور بتولتهم . وأردفت هاتين الضريبتين بتخفيض عدد الهيئات والأشخاص الكهنوتيين تخفيضاً عظيماً . ولكن لما كانت الجمعية قد تركت للعقائد والعبادة من غير أن تُمس ، فإن هذه الإجراءات برغم تصفها وشدها لم تكن لتقوم حائلاً يتعذر التغلب عليه .

فإن الكنيسة قد تمتصّ جد الامتناع من سلبها ضياعها الواسعة وأوقافها الغنية ، ومن الإجراء الذى صير رجال الدين موظفين ذوى مرتبات خاضعين

لحكومة ديمقراطية . ولكن الكنيسة في فرنسا خضعت أمداً طويلاً للدولة . فلا يستطيع مسيحي أن يستنكر لإجراء كهذا حرم كبار رجال الدين من إيراداتهم الضخمة ، كى يرفع قليلاً من الرواتب الزهيدة لصغار القساوسة . بيد أن أعظم لثم أحفظ قلوب رجال الدين على الجمعية ، وجعل النزاع بينهم وبينها مما يتعذر رفعه وإصلاحه ، هو قرار الدستور الذى بمقتضاه يُختار الأساقفة بواسطة ناخبى المديرىات ، والقسس بواسطة مجالس المراكز المحلية ^(١) . فإن ذلك كان ينطوى على جواز انتخاب رجال الدين بواسطة أشخاص علمانيين قد يكونون بروتستانت ، أو حتى ملحدين .

ومن المعقول أن يُخشى على كنيسة تُحكم ويُعين رجالها على هذا النحو ، أن يجرفها التيار بعيداً عن مرساها القديم ، لا سيما عندما حُظر على المواطنين الفرنسيين أن يعترفوا بسلطة أى أسقف أو رئيس أساقفة تقع أبرشيته خارج فرنسا . وكان لا مفر من أن يستنكر البابا هذا الدستور الملتفى الذى لم يؤخذ رأيه فيه فى أية مرحلة من مراحله ، والذى جرح ضمير العالم الكاثوليكي .

والحق أنه لم يكن ثمة خطأ ارتكبه الجمعية التأسيسية أبعد أثراً فى نتائجه كذلك الإهانة غير المسوغة أو الضرورية التى وجهتها إلى عقائد الشعب الدينية . فقد انحاز فى بدء الثورة قساوسة القرى إلى قضية الشعب . فكان تأييدهم لهاها جليل القيمة عظيم القدر . أما الآن فقد انقسم رجال الدين فريقين : فريقاً مسaireاً حلف اليمين بطاعة الدستور ، واحتفظ بذلك بكونه ، وأخذ يقبض مزيجه ، وفريقاً شجاعاً عصى ونجوه ، وبدلاً من أن يقبل البقاء فى أحضان كنيسة متشقة عن البابا ، هام على وجهه مهدداً بالجوع والسجن والموت ، ولكنه حتمت مع ولاء رعية أمينة ومؤمنين أوفياء .

فصار القسس الذين لم يحلفوا بيمين الولاء للمستور *précairement* ، من يادى الأمر ، مركزاً منبعاً لمقاومة حكومة الثورة . فكنت تراهم فى مقاطعى

(١) كان هذا هو التقسيم الإدارى الجديد الذى رضع ليحل محل نظام فرنسا الإقطاعى

فاندسى وبريتانى ، وفى كل مكان خفقت فيه الشارة البيضاء مناضلة العلم المثلث الألوان . وفى هزيمتهم واضطهادهم توجَّعت هَامَاتِهِمْ بِأَكَالِيلِ النُصْرِ وَالْفَخَارِ .
فمن كَفَّارَةِ آلامِهِمْ وقربان أوجاعهم خرجت الكنيسة فى فرنسا مطهرة من
الأرجاس ، مجددة حياتها الروحية .

ولم يكن فى جميع تصرفات الجمعية شئ يَشْتَم منه رائحة الاشتراكية . فقد
هاجمت الثورة الفرنسية الامتيازات ، لا المِلْكِيَّة ، إذ كان أعضاء الجمعية التأسيسية
راسخى الإيمان بحرية الفرد . فهاضوا حتى تلك الألوان من الاتحاد الاقتصادى
كنقابات العمال التى وُجد فيما بعد أنها ضرورية لحماية الضعفاء من عسف
الأقوياء . وبات الفلاح قادراً على أن يزرع ما يشاء . ويبيع أين يشاء . وألغى
نظام استرقاق الأرض أيها كان قائماً ، ونُسِدَ نظام الرسوم الإقطاعية على صغار
الملاك ، وخُفِّفَ من وطأة قوانين الصيد ، وحُرِّمَ مالك الأرض من حقوقه فوق
أتباعه من العامة .

ولكن مع تغير نظام الأرض فى مظاهره الخارجية : بقى أساسه كما كان بلا
تغيير . وظلت الأرض يفلحها صغار الملاك أو المستأجرين من الفلاحين .
أوتُزْرِعَ حسب نظام الإيجار المشترك Metayer الذى بموجبه يساهم كل من
صاحب الأرض والمستأجر فى تكاليف الزراعة ، ويقسمان الأرباح . ولكن
مشروعاً لإنشاء نظام شيوعى زراعى أومعروهاً بمقتضاء تملك الدولة الأرض : لم
يُعرَضَ قط على بساط البحث ، أو يُقترح اقتراحاً . وقد نشأت ، نتيجة
لحاجات الدولة نفسها : رابطة مادية متينة العرى وثقت وأصهر ارتباط طبقة
الفلاحين بالثورة ، وضمنت — جزئياً على الأقل — عدم قلب عمل الجمعية
التأسيسية فى هذه الناحية .

واحتاجت الجمعية فى أثناء حكمها فرنسا إلى المال . فسعت إلى الحصول على
مطلبها منه بإصدار أوراق مالية Assignats ، ضُمِنَتْ أولاً بِأَمْلاكِ الكنيسة ،
ثم بعد ذلك بِأَمْلاكِ العرش والمهاجرين . وأصدرت فى بادئ الأمر (ديسمبر
سنة ١٧٨٩) أوراقاً بأربعمائة مليون فرنك ، اعتبرتها كسلفة تسدد بما ينتج من

التضخم المال

بيع أملاك الكنيسة . ولكنها ما لبثت طويلاً حتى وجدت هذا المبلغ غير كاف . فأخذت تسدد ثمن حاجاتها الجديدة بإصدار أوراق جديدة . فما عم أن حل التضخم المالى . مصحوباً بنتائج المحتومة : من انحطاط قيمة تلك الأوراق : وبيع الأرض بأثمان تثير السخرية .

ويسبب تدهور قيمة النقد تدهوراً سريعاً فى دولة ما إفلاس الكثيرين وخرابهم ، على حين يعود بالربح على فريق آخر . ولقد أفصى انحطاط قيمة الأوراق المالية الفرنسية إلى فقر خزانة الحكومة وأصحاب العقارات الثابتة وسكان المدن ، وساعد على استمرار الهياج الثورى فى باريس بخلق جو مفعم بالمضاربة والفرع . ولكن الفلاح الذى اشترى الأرض بأبخس الأثمان ظفر من جراء ذلك بمكاسب طيبة . ولهذا السبب ، من بين أسباب أخرى : كان يحق له مع كثير من المضاربين فى الأرض من سكان المدن أن يبارك الثورة ، وأن يخشى نقص عملها .

ونظر سجيننا التويلرى بروح الاشتراک والسخط ، المقرونة بالعجز وقلة الحيلة ، إلى تضخم تيار الثورة المتزايد ، وعنف نادى اليقظة : وتحريضات الصحف المتعطشة لسفك الدماء ، واستسلام الجمعية الذى لا يقف عند حد لأوامر الغوغاء ونزواتهم . ولكن حيث كانت الأشياء كلها ممقوتة آثمة : بدا للملك أن الدستور المدينى لرجال الدين أشدها إثماً ومقتهاً . فقد شعر أنه لن يستطيع التوفيق بين هذا القانون وبين ضميره ، أو يطبق تناول العشاء الربانى من يد كاهن دستورى .

وحدث يوم الاثنين السابق لعيد الفصح سنة ١٧٩١ حادث ظهر له منه أنه حتى دوافع الضمير لن تكون موضع احترام الثوار . ففى ذلك اليوم قصصه الملك والمملكة إلى سان كلود لتناول العشاء الربانى فى كنيسة ما ، ولكن الغوغاء ردهما خائنين . فكانت هذه الإهانة حاسمة . إذ عقدت الأسرة المالكة العزم على الفرار إلى الحدود ، حيث بوييه Bouille على رأس قوة ملكية موالية يمكنه بها أن يسطر لها يد الحماية والعون . وقبل أن يرح الملك باريس كتب منشوراً يعلن فيه

بطلان الأوامر الدستورية التي أرغم على توقيعها ، وطالب بتعديلها .
ولكن كُشِف أمر الماربيين في فارن « Varennes » (٢٢ يولية سنة ١٧٩١)
وأعيدوا إلى باريس . ومن تلك اللحظة قضى على الملكية بالهلاك . إذ ظهر الملك
كانخصم العلنى للدستور ، وكهاجر في قرارة نفسه ، وكنصير الكهان الذين لم
يقسموا اليمين بطاعة الدستور ، وكحرّض على الحرب الأهلية ، وكحليف للدول
الأجنبية المعادية للثورة . فأوقِف عشرة أسابيع عن العمل . وقامت حكومة
جمهورية في كل شيء ، ما خلا الاسم ، عملت على تلطيف المخاوف التي
ساورت النفوس بانحلال فرنسا فيما إذا أُلغيت الملكية .

حل الجمعية
الوطنية

وعند ما أُكِيل وضع الدستور حلت الجمعية الوطنية نفسها (١٤ سبتمبر
سنة ١٧٩١) . وكانت قد أجازت من قبل قانوناً دل على روح إثارة من جانباها ؛
ولكنه لم يفد فرنسا إلا قليلا . ذلك أنه قضى بتحريم انتخاب أعضائها في
الجمعية التشريعية الجديدة . ففي خفة وقلة اكتراث ضحّى واضعو الدستور القرنسى
الأول بالخبرة التي جمعوها خلال عامين حافلين بالعمل السياسى الجهم النشاط ،
وقبلوا أن يكلا أمر تنفيذ الدستور إلى رجال غير مجربين . وبذا قصت المقادير بأن
الجمعية الوطنية المنحلة التي آمنت بالحزبية والإخاء والمساواة ، وبذلت أكبر
الجهود لإنشاء دولة ديمقراطية في فرنسا يصونها سلم شامل ديمقراطى — قصت
المقادير بأن تمهد الجمعية السبيل إلى قيام حكومة استبدادية حربية ، وبذر بذور
حرب عامة .

كتب يمكن استشارتها

لدراسة العصر كله ، ليرجع القارئ إلى المؤلفات الآتية :

- G.P. Gooch : Annals of Politics and Culture. 1901.
The Cambridge Modern History. 1902-1910.
The Cambridge History of the British Empire. 1929.
A.—. Grant and H. Temperley : Europe in the Nineteenth and Twentieth
Centuries (1784-1932). 1932.
Eduard Fueter : World History, translated by S.B. Fay. 1923.

- C.A. Fyffe : History of Modern Europe. 1924.
 B. Croce : History of Europe in the Nineteenth Century, translated by H. Furst. 1934.
 C. Seignobos : Political History of Contemporary Europe Since 1814-1901.

ولعرفة أسماء أحدث المؤلفات ، يحال القارئ إلى :

The Annual Bulletin of Historical Literature, published by the Historical Association.

لدراسة الفصول السبعة الأولى من هذا الكتاب ، ليرجع القارئ إلى :

- The Cambridge Modern History, Vols. VIII and IX.
 L. Madelin : The French Revolution. Tr. Curtis. 1930.
 Lord Acton : Lectures on the French Revolution. 1910.
 A. Sorel : L'Europe et la Révolution française. 1889.
 A. De Tocqueville : Ancien Régime. Tr. M.W. Patterson. 1922.
 A. Taine : Origines de la France contemporaine. 1876.
 Carlyle : French Revolution. Ed. C.R.L. Fletcher. 1907.
 J.M. Thompson : French Revolution : Documents. 1933.
 A. Aulard : Histoire politique de la Révolution française. tr. Miall. 1910.
 Lecky : History of England in the Eighteenth Century. 1892.
 Seeley : Life and Times of Stein. 1878.
 Oman : Peninsular War. 1902-30.
 H.A.L. Fisher : Napoleonic Statesmanship : Germany. 1903.
 H.A.L. Fisher : Bonapartism. 1909.
 E.L. Woodward : French Revolutions. 1934.
 F. Masson : Napoléon inconnu. 1895.
 Vandal : L'avènement de Bonaparte. 1902.
 H. Houssaye : 1815. Waterloo. 1900.
 L.G. Wickham Legg : Select Documents. 1905.
 A.T. Mahan : Influence of Sea Power on the French Revolution. 1893.

التراجم

- Mirabeau, by P.F. Willert 1898.
 Robespierre by A. Matthiez. 1921, 1925.
 Danton, by H. Belloc 1928.
 Talleyrand, by Duff Cooper. 1932.
 Napoleon, by H.A.L. Fisher (1924). J. Holland Rose. (1902) J.B. Fournier. (1912), Jacques Bainville 1932.
 William Pitt : by Rosebery (1910), J. Holland Rose (1925).
 Burke : by John Morley. 1921.
 Fox, by J.L. Hammond, 1903; Christopher Hobhouse 1934.
 Wellington (The Duke), by Philip Guedalla. 1931.
 The Foreign Policy of Castlereagh, by C.K. Webster. 1934.

الأدب الخيالي

- Dickens : Tale of Two Cities.
 Anatole France : Les Dieux ont Soif.
 Stendhal : La Chartreuse de Parme.
 Tolstoi : War and Peace.
 T. Hardy : The Dynasts.

الفصل الثالث

الحرب والإرهاب

الجيرنديون . نشوب الحرب . تأثيراتها . دنتون . النزاع مع إنجلترا . ولم بت .
المسألة البولندية . أثر الأقليات . سقوط الجيرنديين . الإرهاب . عام رويسير .
ترميدور . عناد حكومة سفاحة . حكومة الإدارة وبنابرت .

١ - الحرب بين فرنسا والنمسا وبروسيا

الجيرنديون آلت زعامة الجمعية التشريعية الجديدة إلى زمرة من الشبان البالغين الطبقة الوسطى ، جاءوا من إقليم في جنوب غربي فرنسا يدعى جيرند Gironde ، ولذا ما لبثوا أن عُرِفوا ، وما زالوا إلى اليوم يُعرفون بالجيرنديين Girondins . ولم يكونوا يدركون من فن الحكم وأساليبه سوى النزر الضئيل . ولكن كان يعمر نفوسهم حماس ملتهب لفكرة الجمهورية ، وتغمر قلوبهم عاطفة قوية برسالة فُرِضت عليهم : هي نشر تلك الفكرة في جميع ربوع أوروبا ، كما أوتوا قدرة على إيصال ما يحسون به إلى الآخرين .

وكان فرنيو Virgniaud وإسناد Isnard خطيبى الحزب ، وبريسو Brissot مستشاره الدبلوماسي ، ومدام رولان ربة الوحي والإلهام له . ومع أن أحلام الجيرنديين الباهرة وحاسهم الرائع ونهايتهم المفجعة أكسبهم أصدقاء عديدين ، إلا أن عليهم يجب أن تقع أكبر التبعة في نشوب حرب طويلة مروعة : حرب هدمت نظام ريشليو ، وتركت فرنسا عضواً أصابه الضعف والوهن بين أعضاء المجتمع الأوروبي ، لا يحميها من الخطر الجاثم على تخومها

الشرقية سوى فرضها على أبنائها الضرائب الفادحة ، ونظام إجبارى عام للخدمة العسكرية .

وفى الجو الحافل بالشك والحنق الذى ساد باريس فى ذلك الحين ، كان يلوح أن أكبر أعداء الثورة هم المهاجرون من الأشراف ورجال الدين الذين لم يحلفوا اليمين ، وإمبراطور النمسا^(١) . ولهذا السبب ركّز الجيرنديون كل مقتهم وعدائهم فى هؤلاء ، معتقدين ألا شئ أنفذ فى جعل مركز الملك والمملكة غير محتمل ، وفى شق طريق إلى الجمهورية ، إلا باتباعهم سياسة إصدار القوانين الصارمة ضد الأشراف المهاجرين ورجال الدين ، ثم بإعلان الحرب على أخى الملكة .

أسباب الحرب ولم تكن الأعذار لامتشاق الحسام بالقليلة . فقد كان فى استطاعة ليوبولد إمبراطور النمسا (١٧٤٧ - ١٧٩٢) أن يرفع عقيرته بالشكوى من التحريض الذى يقوم به الفرنسيون لإضرام نار ثورة فى البلجيك الخاضعة له ، ومن حرمان الجمعية التشريعية بعض الأمراء الألمان من حقوقهم الإقطاعية فى الألزاس ، ومن انتزاع إقليم أفنيون من البابا وضمه إلى فرنسا ، ومن المبدأ الجديد المقلق الذى ينادى بأن لكل شعب حق تقرير الحكومة التى يروم أن يخضع لها ، وأهم من هذا كله من أسباب الخصام والاحتكاك مركز أخته - ملكة فرنسا - الخطر . فإنه لم يكن يستطيع أن يفض الطرف تماماً عن توسلات ماري أنطوانيت بوجوب دعوته مؤتمراً أوروبياً ليعالج أمر الثورة الفرنسية ، وحشد قوة عسكرية ، ليكون لقرارات ذلك المؤتمر التأثير المنشود .

بلاغ بلنتر ولهذا أصدر ليوبولد بعد حادث فارن^{*} بالاشتراك مع ملك بروسيا بلاغاً من بلنتر Pillnitz (٢٧ أغسطس سنة ١٧٩١) لاح كأنه يتوعد فرنسا بتأليب دول أوروبا عليها إذا هى لم تعامل لويس المعاملة اللائقة بمقامه الجليل . ومع أن

(١) كان أيضاً من بين ألقابه الرسمية : أرشوق النمسا حتى عام ١٨٠٤ ، وإمبراطور

الدولة الرومانية المقدسة حتى سنة ١٨٠٦ .

الموقف كان خطيراً ، إلا أنه لم يكن مما يستحيل إصلاحه . فإن ليوبولد ، ذلك الرجل الخفيف البارد الطبع ذا النظر البعيد ، المشغول بلا انقطاع بشؤون إمبراطوريته الداخلية ، لم يكن يرغب في أن يشعل لظى حرب صليبية جنونية ضد ديمقراطية فرنسا الهائجة الصاخبة . ومع أنه كان سريعاً في التهديد ، إلا أنه كان محجماً عن العمل . وقد كان يأمل أنه عند موافقة لويس على الدستور ، لن تكون بعدُ ثمة حاجة للعمل .

ولكن لما ذهب الحريف وحل الشتاء ، وما فنى كل أسبوع يحمل إليه أخباراً جديدة عن عنف الثورة ، أخذ عقل الإمبراطور يتجه أكثر فأكثر صوب تدخل مسلّح . ولقد كان الضغط عليه شديداً من كل جانب لكي يعمل على صد تيار الديمقراطية الفرنسية الحربى الجارف . فقد أتى من جانب المهاجرين الذين تجمعوا في كبلنتر Coblentz ، ومن جانب كاترين قيصرة روسيا ، وجوستاف ملك السويد ، ومن ملك إسبانيا ، وأخص من هؤلاء جميعاً ، أتى من أخته مارى أنطوانيت ، التى رأت في هزيمة الجيوش الفرنسية ، وارتدادها أمام الغزو الأجنبى ، الفرصة الوحيدة لإتقاذ عرش زوجها .

ولكن ليوبولد عاجلته المنية قبل أن ينضج تصميمه البطيء ، ويتحول إلى عمل . غير أن خلفه فرنسيس (١٧٩٢ - ١٨٣٥) - وكان شاباً ممتلئاً قوة ونشاطاً وقلة مبالاة - بادر إلى قبول تحدى الجيرننديين الذى أخذ شكل بلاغ نهائى شديد الالهجة بأن على منتخب تريف Trèves أن يطرد من أرضه قوة المهاجرين المسلحة التى كانت تُحشد في كبلنتر . وكان طلباً يقصد من ورائه الحرب . فإنه برغم اختلال نظام الجيش الفرنسى ، وبرغم تحالف النمسا وبروسيا على فرنسا ، فإن بريسو وأتباعه كانوا واثقين من النصر . فقد كانوا يعتقدون أنه بمجرد إعلان الحرب ستنهض على الفور شعوب أوروبا ضد حكامها المستبدين ، وستنهال عروش الملوك في كل مكان ، وستغزو مبادئ الحرية والإخاء والمساواة العالم بأسره . أما رويسبيرر أحد كبار خطباء نادى اليعاقة فقد رأى غير ذلك ، إذ ظن أن الحرب ستنتهى بإرجاع سلطة التاج الفرنسى ومقامه إلى ما كانا عليه قبلاً .

بيد أن روبسبير لم يكن قد جاء دوره بعد . فتمكنت وزارة "جيرندية" — كان الجنرال ديمورييه Dumouriez فيها وزيراً للخارجية — من أن تجر فرنسا إلى الحرب (٢٠ أبريل سنة ١٧٩٢) .

ثم كُشف بعد ذلك أنه لكي تدافع فرنسا الثائرة عن نفسها دفاعاً فعالاً ضد مَسَلِكِيَّاتِ أوروبا الفاسدة، فإنه يجب أن يوقف لويس عن الحكم ؛ وأن تخضع فرنسا لشكل دقيق من أشكال الاستبداد يغيّر كل المغيرة نظام تشتت السلطان السياسي الذي وجد له أنصاراً ومحبّذين في مستهل الثورة . وقد أدّى نشوب الحرب مباشرة إلى انهيار الملكية ، وتأسيس الجمهورية^(١) ، وتكوين حكومة الإرهاب . وصُيِّغت بلون قائم مخاوف الناس الوحشية ونزواتهم الشريرة وهواجسهم المتسببة عن غلاء الخبز ، وتحليق الأسعار ، وانتشار الفوضى والإضراب في كل مكان ، وتحريرضات الصحافة الظامّة للدماء تحريضاً غير منقطع ضد نشاط خصوم الثورة ومساعدتهم . فكانت هذه الأمور العلة المثيرة لارتكاب الجرائم المروعة ، وتعطش غزّ لسفك الدماء ، وإزهاق للأرواح لم يَسْقُفه هولا وشناعة في العصور الحديثة سوى شيوعي روسيا .

ولكن كان للحرب عواقب أخرى أبقي وأعمق أثراً . فقد غدت الثورة والشعور القوي صنوان . فإنه للمرة الأولى استخدمت الأمة الفرنسية قواها الهائلة في الذّب عن قضية اعتبرها كل مواطن فرنسي قضيته المشتركة ، وللمرة الأولى ظهرت فرنسا كأمة متحدة العناصر ، تقوم هيئاتها ونظمها على موافقة الشعب ورضاء ، وتمسكه بقضيته المشتركة ضد عدوان عالم مسلّح . فكانت تلك الهيئات والنظم بمثابة سيد وتابع على السواء لتلك الدولة الثورية .

وثمة نتيجة أخرى للحرب كان لا مناص منها . فإنه لما أثّرت روح الشعب الفرنسي الحربية ، انزوت على الفور في ركن بعيد تصريحات السلام الشعرية ، وعبارات الأخوة العالمية ، التي زينت عدداً عديداً من خطب الثورة . وعادت المبادئ السياسية القديمة والأهداف المعتادة في التوسع الإقليمي تشغل المرتبة

(١) في ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ .

الأولى من الأهمية ، ورجعت روح لويس الرابع عشر تهدي اليعاقة في مشاوراتهم ومداولاتهم ، وضُرب بالأخوة عرض الحائط ، وسكر الجيرنديون بخمرة الزهو وشهوة الفتح . ففقدوا النية على عزل النمسا ، حتى يتمكنوا من اختطاف البلجيك منها ، ومد الحدود الفرنسية إلى الرين .

ضعف الجيش
الفرنسي

غير أن عدم فطنة الجيرنديين وسوء تدبيرهم أوقعا فرنسا يومئذ في فضال ضد بروسيا والنمسا : أقوى دواتين حربيتين في أوروبا — من غير أن تكون متأهبة للحرب على الإطلاق ، لأن الجيش الملكي كان في حالة انحلال . وجاءت النتيجة مطابقة لما كان منتظراً ، فإن التراشق الأول بين المتحاربين كان كافياً للدلالة على أن فرنسا النائرة أصبحت بلا جيش تستطيع أن تعتمد عليه في الدفاع عن البلاد ، كما كان هنالك جبن وعدم نظام وقلة اكتراث ، وكما يحدث في الغالب عقب كل هزيمة حربية ، ارتفعت أصوات تقول بوجود خيانة في صفوف الجيش .

ففي إبان تلك الفترة من القلق المقض والشك الممض ، حين أثبت الجيش القديم قلة كفايته ، وقبل أن يبرهن متطوعو الثورة الجدد على جداتهم وأهليتهم — في إبان تلك الفترة قُدر مصير الملكية . فقد كان القوم يتساءلون : كيف نسير بالحرب إلى الظفر ، بينما يجلس في التويلري لويس صديق العدو ، فيطرد وزراءه الجيرنديين ، ويرفض التصديق على أمر عال لإنشاء معسكر حربي قرب باريس ، ويراسل الغزاة خفية — كما كان يُظن — مشجعاً إياهم وشاحداً لهمهم ؟

دانتون

ففي هذه الأزمة حين كان الجيش البروسي يزحف صوب فرنسا ، ويتوعد قائده باريس بالتدمير إذا ما لحق بالأسرة المالكة أذى ، برزت شخصية فجأة ثورية جبارة ، وسمت فوق الصخب والضجيج . وتسمنت فجأة مركز الزعامة . إن ذكرى دانتون غارقة في الدماء والعنف ، فهو الذي نظم الهجوم على التويلري (١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢) حينما مَزَّق جنود الحرس السويسري البواسل إرباً إرباً ، وسلم الملك والملكة إلى الأسر ، ودعى مؤتمر لإعلان الجمهورية . كما أنه لن يُغفر لدانتون إغصاؤه عن مذابح سبتمبر (١٧٩٢) المروعة في

السجون - تلك المذابح التي دُبِرت للتأثير في الانتخابات لهذا البرلمان الجديد . ومع ذلك كله ، فإنه أكثر من أى زعيم ثورى آخر قام فى ذلك الحين ، كان سياسياً فحلاً ووطنياً كبيراً ، ذا عين نافذة ترى حاجات الموقف الضرورية ، وعقل بعيد عن الأوهام والخيالات ، ومقدرة نادرة على العمل الحاسم . فوجه عنايته إلى إعطاء فرنسا جمهورية يرضى عنها الشعب مكان ملكية غير وافية ، وحكومة مركزية مكان الفوضى ، وجيوشاً جديدة فائقة النظام والترتيب ، يشيع فيها الإيمان بالثورة ، مكان شرارم جيش الملك المتداعية المتخاذلة . ورأى أن فكرة الجيرندينين بشن حرب صليبية على رءوس أوروبا المنتوجة هى ضرب من الأوهام . فهذا الرجل الذى هدم صرح الملكية الفرنسية صار فى المسائل الدبلوماسية قطباً من أقطاب النظام القديم .

فلقد كان الإزهاق زمن الحرب فى نظر دانتون ، كما هو فى نظر جميع رجال السياسة ، أداة ضرورية من أدوات السياسة والحكم ، وأن الأمر الوحيد غير المحتمل هو تناوب الفرنسيين وتفرق كلمتهم طالما كانت الجيوش الأجنبية تحتل بلادهم . أما أن تناوباً مثل هذا كان موجوداً ، فقد كان ذلك ما يعتقده كثير من . وكان يُظن أن كل محنة فى الداخل وفى الخارج ، وأن الأسعار المرتفعة والتجارة الكاسدة والحرب الأجنبية والقلق الناجم عن موقف الملك ورجال الدين - كان يُظن أن هذه الأمور تزيد فى جموع الساخطين المتبرمين . فلم يكن قيام ثورة مضادة بالشئ البعيد الاحتمال . ولهذا كان دانتون مستعداً لأن يستخدم أى تدبير إرهابى يراه ضرورياً لإلقاء الرعب فى قلوب أعداء الثورة .

٢ - الجمهورية الفرنسية الأولى

وأحرزت الجمهورية في مستهل أيامها بضعة انتصارات رخيصة وَضَعَتْ، في خلال أسابيع قلائل (٢٠ سبتمبر إلى ٧ نوفمبر سنة ١٧٩٢) ، ساقوى ونيس ولايات الرين والأراضي المنخفضة النمساوية (البلجيك) تحت أقدام جيوش فرنسا المظفرة الثَّابَّة . وكان جيته Goethe حاضراً أثناء معركة فالمي (١) فالمي التي على أثرها تراجع الجيش البروسي بقيادة الدوق برنزيك Duke of Brunswick - هذا الجيش الذي كان يُعتَقَد أنه أفضل جيوش أوروبا - بعد تكبده خسائر تافهة . فتنبأ جيته أمام الجنرال كلرمان Kellermann الذي قاد الفرنسيين إلى النصر في تلك المعركة بأن عصراً جديداً في تاريخ الإنسان قد طلع فجره . وبرهنت التجربة الديمقراطية بهذا الانتصار على أنها شيء أعظم من مجرد أدب ودعاية . فقد ارتد أمامها الحرس البروسي بقوته وشدة بأسه . وبدت ديمقراطية فرنسا المبليلة الفكر المهلهلة الثياب أفضل وأقوى من أي ملكية . وأماطت اللثام عن السر الحقيقي للقوة ، فعُرف أنها ليست قط شيئاً آلياً ، بل هي على النوام حماسُ الروح .

أضف إلى ذلك أن الجمهورية كانت حكومة فتح ودعاية . فإن رغبتها الشديدة في فرض عقيدة سياسية على العالم ، وضرورات خزانها المُلْاوِيَة ، اتحدت على دفعها إلى سلوك طريق لعبت فيه دوراً مزدوجاً: دور المبشر برسالة ، ودور اللص المقتصب . فإن فرنسا لم يكن في مقدورها أن تتحمل تكاليف السلم ، بل كانت مسوقة إلى أن تبقى في يدها ثمار انتصاراتها ، وتسخرها لمصلحتها . وقد بدت البلجيك بنوع خاص ملكاً شبيهاً ولقمة سائفة المُلْاق . فبدت أمام عينها منجم ذهب ، ومنجماً غنياً على أية حال ، ولكنه يخرج فقط إنتاجه الكامل عند تمكُّنها من فتح نهر الشلدت للملاحة ، وبعث أنتورب كنافيسة للتدن في أسواق العالم .

ولم يُعَنَّ المؤتمر الوطني إلا قليلاً بالحقيقة الواقعة وهي : أن ذلك النهر كان مقفلاً للملاحة بمقتضى اتفاق دولي كانت فرنسا نفسها أحد الموقعين عليه . فقد كانت فرنسا على استعداد لأن تنظر إلى أشباه تلك المعاهدات المناقضة في نظرها لقانون الطبيعة كقصاصات ورق . ولكنها بإعلانها للعالم بأن الشلدة نهر مفتوح ، وأنها مستعدة لأن تقدم العون لجميع الشعوب التي تناضل في سبيل الحرية ، بدأت في خفة تسلك الطريق الذي أفضى بها إلى إثارة عداوة بريطانيا الجبارة الشديدة المراس .

فإنها جابهت أمة متضامنة معترزة بنفسها واسعة الرءاء ، تحكها حكومة أرستقراطية حقاً ، ولكنها في الوقت عينه حكومة شعبية أيضاً . فإن الاتحاد الذي وصلت إليه فرنسا إذ ذاك عن طريق الثورة ، كانت إنجلترا قد ظفرت به في القرن الثاني عشر . وكانت الحريات المدنية التي أثملت جذتها فرنسا ، أموراً سائدة مقررة في إنجلترا منذ زمن بعيد . ولم يكن ثمة شيء في استطاعة فرنسا الثورية أن تعلمه لبريطانيا فيما يتعلق بالحكومات النيابية التي لم تكن وستمنستر (مقر البرلمان الإنجليزي) — والحق يقال — تفهما خيراً من فرنسا . فلم يكن هنالك على الأرجح قطر في أوروبا أقل إقبالاً على إنجيل الثورة من بريطانيا . فإن خير ما كانت تستطيع فرنسا الجمهورية إهداءه إلى تلك الجزيرة المحافظة ، كانت تلك الجزيرة تملكه فعلاً من زمن .

وكان وليم پت William Pitt رئيساً للوزارة البريطانية من سنة ١٧٨٣^(١) وكان بنشأته حراً ، ويميله مالياً ، وقد ملك ناصية البلاغة البرلمانية : ذلك الفن الذي لم يبلغ من الشأو في تاريخ أوروبا ما بلغه في ذلك الحين . وقد قصفت عليه الأقدار أنه في الحين الذي كان يعمل فيه جاهداً في استناب السلام مدة طويلة ، وتنظيم الإصلاحات الداخلية — قصت الأقدار عليه أن يقود وطنه إلى الحرب التي انتهت بمعركة ووترلو ، وأن يشهد منها الاثنى عشر عاماً الرهيب الأولى .

(١) اختاره جورج الثالث لرئاسة الوزارة البريطانية في ١٩ ديسمبر سنة ١٧٨٣ ، واستمر يتقلد منصب الرياسة إلى يوم وفاته في ٢٣ يناير سنة ١٨٠٦ ، إلا في فترة قصيرة من ١٤ مارس سنة ١٨٠١ إلى ١٠ مايو سنة ١٨٠٤ .

ولم يكن يت من بعض الوجوه وزير حربٍ عظيم ، فقد بعثر من غير طائل موارد الأمة في حملات ضئيلة الأهمية ، ولكنها حملات عظيمة الكلفة إلى جزر الهند الغربية . وإذا استثنينا إنفاذه نلسن إلى البحر الأبيض المتوسط فإنه لم يظهر فهماً كبيراً لأصول الخطط الحربية الاستراتيجية . بيد أن الفرنسيين رأوا حقاً في يت أكبر وأصلب خصومهم . فلقد كان روح كل تحالف أوربي ضدهم ، والرمز الحى لإرادة إجماعية لا تقبل التفكير في الهزيمة ، عند نهوضه ليلة بعد ليلة ، وعاماً بعد عام ، يعمر من جديد قلوب سادة إنجلترا ونوابها شجاعة وثباتاً ببلاغته الرزينة المترفعة .

وما حدث في أيام لويس الرابع عشر : حدث مثله الآن ، فقد نشبت مبارزة طويلة الأمد بين فرنسا وبريطانيا من جراء سياسة الدولة الأخيرة المقررة : وهى ألا تسلّم طوعاً بضم البلجيك وهولندا إلى دولة أوربية قوية . فإنه ما طلعت سنة ١٧٩٣ حتى أظهرت فرنسا الثورية بوضوح نياتها المبيتة . فقد فتحت البلجيك ، وشرعت تهدد هولندا ، ومزقت معاهدة الشلدت ، وأخذت تحرض بمرسومها في ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٢ رعايا ملك الإنجليز في إرلندا وسواها على العصيان . ثم أثارَت حنق الشعب البريطاني واشتمتازاه بضربها عنق لويس السادس عشر . ومع ذلك فإن فرنسا من غير أن تملك أسطولا تحدث الدولة البحرية الأولى في العالم .

تقسيم بولندا

وقد حرك دخول بريطانيا الحرب ضد فرنسا عنصراً كان إلى ذلك الحين غائباً ، وهو تركيز المعارضة وعملها بدأ واحدة ضد قضية الثورة . ففي تلك الآونة كان أعظم ما يشغل بال روسيا وبروسيا والنمسا هو بولندا ، لا فرنسا . فقد كانت تلك المملكة المنكودة الطالع — التى كانت حدودها قد تقلصت بتقسيم أول أجرته تلك الدول الثلاث (سنة ١٧٧٢) — كانت تلك الدولة على وشك أن تجرى لها لية تقسيم ثانية (١٧٩٢) ، وثالثة (١٧٩٥) ، على غرار التقسيم الأول . على يد جاراتها الطامعات . فإنه في الوقت الذى كانت تتادى فيه فرنسا بمبدأ تقرير المصير الكريم ، كانت ممتلكات شرق أوروبا الحربية منهزمة في إزهاق

روح أمة ، وهو مملكة من خريطة أوروبا . والحق أن قصة هذا العمل من أشد القصص خزيًا وعارًا في تاريخ أوروبا .

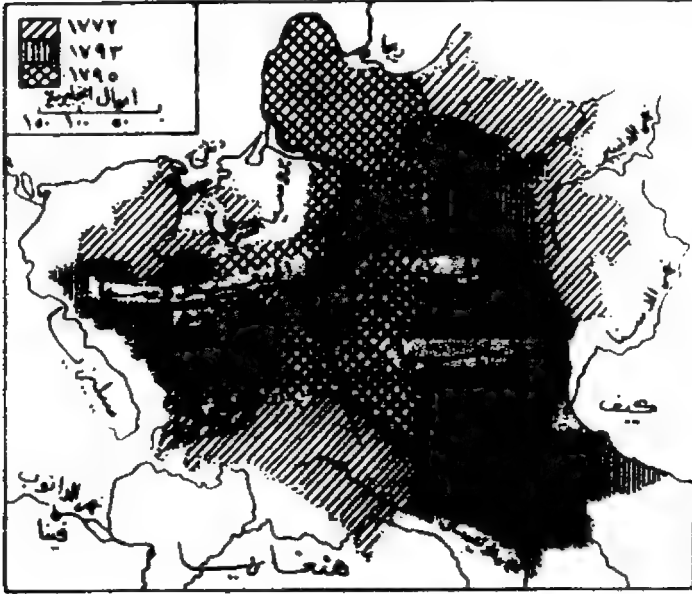
ولنذكر طرفاً من هذه القصة : ففي اليوم الثالث من شهر مايو سنة ١٧٩١ قَبِلَ إستانسلاس بِنِيَانفسكى Stanislas Poniatowski ملك بولندا دستوراً لبِلاده كان يُرجى منه إصلاح أكبر علة من علل الضعف التي أُنْهَكَها ، وشلَّتْ حكومتها . فقد ألغى ذلك الدستور حق « الفيتو » *Liberum veto* ^(١) : وجعل الملكية وراثية ، وأخضع الأشراف للضرائب ، وأباح الحرية للشيع الدينية المتعددة . فكان المأمول بعد إصلاح بولندا حالها على هذا النحو ، أن يكون في وسعها أن تلعب دوراً مجيداً نافعاً في المجتمع الأوربي .

بيد أن هذا الأمل كان قد ضيَّ في عين كاترين الثانية قيصرة روسيا النهمة الواسعة الأطماع ، برغم اعتراف بروسيا والنمسا بذلك الدستور . فأغارت سنة ١٧٩٢ على بولندا . وبعد أن ألحقت الهزيمة بالأمة البولندية التي استبسلت في الدفاع ، وبعد أن ألغت كاترين الدستور . دعت بروسيا والنمسا إلى اقتسام الغنائم معها .

وكان كل اعتبار من اعتبارات الشرف يدعو هاتين الدولتين إلى الإحجام عن قلب دستور ضممتاه في وضوح وجلاء . ولكنهما تحت ضغط الإغراء أثبتتا عدم وفائهما لتعهداتهما . ففي تقسيم بولندا الأول ، ثم في إعادة تقسيمها ، ثم في محوها من الوجود ، لعبت بروسيا والنمسا ، برغم انقسامهما بعوامل قوية من الحسد والبغض — لعبتا دوراً شائئاً ملتويًا . ثم حملتا أسلابهما ، بعد أن حطمتا فتنة كوشويسكو (*Kosciuszko*) الوطنية . وما جاء التقسيم الثالث الذي أبرمت المعاهدة الخاصة به في ١٠ أكتوبر سنة ١٧٩٥ ، حتى نُحِيت بولندا من خريطة أوروبا . ففي خلال أعوام أربعة جد خطيرة ، استحوذ التهام ذلك القطر الواسع

(١) هو الحق الممنوح لكل عضو من أعضاء البرلمان البولندي (Diet) قد الاستماع عن التصديق على أي قانون أو مشروع يمرض على ذلك البرلمان ، وبذلك يقتل القانون أو المشروع ، إذ يجب اتفاقه أن يقره جميع أعضاء البرلمان من غير استثناء .

الجانب الأكبر من التفات بروسيا والنمسا ، وأضر إضراراً قاتلاً بإحكام تعاونهما ضد فرنسا . فكأن هذا الأمر الجمهورية الفرنسية من الثبات والصمود في وجه أوروبا .



تقسيم بولندا

٣ - عهد الإرهاب

سيطرة
الأقلية

إن مفتاح إدراك كنه الثورات هو أنها تحركها وتديرها هيئات قليلة العدد شديدة التطرف . فإن المؤتمر الوطني الفرنسي الذي نادى بالجمهورية ، وقطع رأس الملك . وأرسل الجيرنديين إلى المقصلة . وأقام عهد الإرهاب ، كان منتخبا بأصوات نحو ستة في المائة من مجموع الناخبين . أما السواد الأكبر من الأمة الفرنسية فلم يكونوا بعد خدو لبيب الحماس الأول يُؤثرون شيئا أعظم من أن يسمح لهم بإدارة شئونهم الخاصة في هدوء وسكينة ، راضين كل الرضى بترك الأمور السياسية لرجال الأندية . ولكن المواطن المحترم العادى ، وقف بعيداً عن ساحة المعركة ، فقد كان شديد الخمول ، أو كثير المشاغل . شديد الأنانية أو كثير التفريط ، شديد الفزع أو عظيم السخط ، قصير الباع في التضامن مع غيره من المواطنين . فإنه في باريس حيث كان الاهتمام بمسائل السياسة بالغاً أشده ، يلوح من تقرير مراقب مدقق أن واحداً فقط من كل مائة وثلاثين شخصاً أيد الإرهاب تأييداً فعلياً .

ضعف
الجيرنديين

فإن الأغلبية الكبرى من أعضاء المؤتمر الذين عُرفوا « بالسهل » Marais كانوا ينتمون إلى الفريق المعتدل المحترم الذي لا لون ولا ميول قوية له من الطبقة الوسطى الفرنسية التي تؤلف دعامة الأمة . وكان طبيعياً أن يسعى هذا الفريق إلى الاسترشاد بالجيرنديين الذين بلغت قوتهم في المؤتمر مائة وعشرين عضواً من الأعضاء المعروفين في الدوائر النيابية .

وكان الجيرنديون آخر حوارى الأفكار الحرة في فرنسا . فقد كانوا يؤمنون بالحرية الإقليمية ، كما كانوا يؤمنون بالحرية الشخصية . وكانوا يحلمون برؤية فرنسا ، وقد استقر بها المال إلى حياة باهرة خالية من الشوائب ، تسير وفق دستور جمهورى هو أفضل ما أُخرج للناس . ولما كانوا في قرارة نفوسهم إنسانيين طيبى القلوب ، فقد أفرغتهم وأهاجت خواطرهم جرائم

أغسطس وسبتمبر سنة ١٧٩٢ . ولكن مع بلاغتهم وبحر خطبهم ، عجزوا عن اتخاذ خطط متحدة جريئة . فإنهم هاجموا روبسبير Robespierre ، ولكنهم لم يلقوا به في غياهب السجن ، وحملوا على سفاحى مذابح سبتمبر ، ولكنهم لم يقدمهم إلى المحاكمة ، وأدركوا خطر معارضة باريس الثائرة ، ولكنهم لم يغلّقوا الأندية ، أو يتحدّوا من حرية الصحافة ، أو يُعيدوا للمؤتمر الوطنى الحماية الضرورية الكافية ، بوضع قوة مسلحة تحت تصرفه يمكنه الركون إليها عند الحاجة .

وكان هنالك رجل واحد فى قدرته أن ينجيهم من الهلاك ، بل إنه عرض عليهم خدماته : هو دانتون ، ولكن الجيرندين كانوا شديدى الاحترام لأنفسهم ، فأنفروا أن يضعوا أيديهم فى يده المملوطة بالدماء . أما الرجل الفرنسى العادى ، فلم ينظر إليهم نظرة تبجيل وتقدير . فإن حزباً اقترح فى صف المؤيدين لحزب عتق مليكه هو حزب لا يستأهل فى نظره احتراماً . فإن الجيرندين عندما سمحوا لأنفسهم ، بسبب جبنهم وقلة كفايتهم وضد حكمهم الصائب ، أن يقموا فى الشرك الذى أعده الجلبون لهم ، كى يرغمهم على إرسال الملك إلى القصلة (٢١ يناير سنة ١٧٩٣) ، حكموا على أنفسهم بالموت ، ولم يكن فى طاقة فرنسى معتدل أن يقدم إليهم أية معونة .

وقد زخر الربيع الذى تلا إعدام اويس بالنكبات والكوارث على هذه الدولة التى استباح دم مليكها . فإنه بانضمام إنجلترا وإسبانيا وبولندا إلى صفوف أعدائها ، وبانسحاب جيوشها من البلجيك ، وبانحياز ديموريه إلى جانب العدو ، وباستفحال العصيان فى ليون وإقليم فاندلى ، وبوجود طولون تحت رحمة الأسطول الإنجليزى ، اضطرت الجمهورية أن تقاتل ، وتظهرها إلى الحائط . وكان ضغط هذه الأحداث المروعة هو التيار الذى جرف الجيرندين بعيداً عن الميدان السياسى ، وأقام تلك الأداة الحازمة المرعبة من أدوات الحكم الأوتقراطى : تلك الأداة التى أفلحت وسط الدماء والفظائع فى إعادة النظام الحربى لفرنسا .

تاريخ أوربا

وقد تألّفت (في أبريل سنة ١٧٩٣) حكومة اليعاقة من وزارة قليلة العدد عُرِفَتْ بلجنة الأمن العام Committee of public safety لإدارة السياسة العامة ، ومن هيئة سميت « لجنة الضمان العام » Committee of public security وهي أكبر عدداً بقليل من اللجنة الأولى، وتهيمن على أعمال البوليس وحفظ الأمن . ومن محكمة ثورية لبث الرعب في القلوب . ووضعت خطة لمراقبة القواد في ساحات الحرب مراقبة دقيقة بواسطة مندوبين مدنيين يدعون « ممثلين مبعوثين » representants mission ، واختيروا لمناصبهم لغلوهم في التطرف .

وواصل المؤتمر الوطني الذي وصفه ديمورييه في ازدهاء ، بأنه هيئة مكونة من ثلثمائة وغد وأربعمائة معنوه - وأصل عقد جلساته، والتقاش، وسن القوانين . ولكن سلطانه كان قد ذهب عنه . فإن انقلاباً قاده هنريو Henriot في ٢ يونية سنة ١٧٩٣ غيَّب عنه أولئك الخطباء الجيرنديين الذين كثيراً ما صحر حسن بياهم وفصاحة لسانهم الجمعية التشريعية . ولم يستطع حزب أولئك المثاليين الأذكاء حتى الدفاع عن زعمائه ، وإنقاذهم من التشريد والمنشقة ، أورد العلوان عن قاعة مداولاته . فقد شلَّت يده عن العمل السمعة التي جاءت عن طريق مبادئه ، والتي خشي الآن أن يبدو في مظهر المتنكر لها . وقلل من شأنه قيام الوزارة الجديدة (لجنة الأمن العام) وكومون (بلدية) باريس ، ونادي اليعاقة وكوردلييه Cordelier ، وبروز السوق المنظمين الصاخبين الذين صاروا يسيطرون على لجان الثورة في الأقسام ، وفي دوائر الانتخاب الثماني والأربعين التي قُسِّمَتْ إليها باريس .

وكل عصر يتطلب طرقاً خاصة به . وقد خلق ضغط الحرب حركة نشاط هائلة في دولاب العمل ، فصار العمل العاجل القاطع - لا الثروة التي لا تنتهي ، والتي حيرت بل أوقفت طويلاً تقدم الحكومة - هو شعار رجال مثل كارنو Carnot في وزارة الحربية ، وجان بون سان أندريه Jean Bon Saint-André في وزارة البحرية ، وكان اليعاقة الذين أنقلوا

الجمهورية مرده حقاً في الجهد والعمل . كما جاء العالم لتجديدهم ، ففي ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٣ أرسل أمر من باريس إلى الجيوش التي على الحدود في ربع ساعة ، ذلك أن التلغراف السيمافوري (بالإشارات) بدأ ظهوره في هذا الوقت ، ووضع في خدمة فرنسا . فكان أحد مكنونات الإمبراطورية الحربية الوشبكة القيام .

وكان رجل العصر هو روبسبير (١٧٥٨ - ١٧٩٤) المحامي النحيل البدن ، القادم من أراس . الذي دخل لجنة الأمن العام في ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٣ . قلمة عام واحد مذهش - عام خالد بأعجاده الحربية ، وعاره الداخلى - كان هذا الرجل العجيب حاكم فرنسا الحقيقى وروح أوروبا المسيطرة . فما أكثر الانتصارات التي أحرزها اليعاقبة في أيامه : فقد أخذوا الثورة في ~~لجول~~ ، واسترجعوا طولون ، وكسروا اللوق يورك في هوندشوتة Hondshoote ، وهزموا النمساويين في واتيني Watignies وفلورى Fleurus ، وأعادوا فتح البلجيك ، وغزوا هولندا ، وحرروا كل بقعة من أرض الوطن من الغزاة . كما كان ذلك العام عامّ التعبئة العسكرية الأولى للأمة ، والعام (ولو أنه ليس العام الأصلي الرسمي) الذي وضع فيه ذلك النظام للتجنيد الإجبارى الذي ما زال يسود بظله القاتم حياة كل فرنسى ، والعام الذي شرع فيه كارنو في تنظيم الجيوش التي صارت في يد نابليون أداة فتوحه وانتصاراته .

أما في باريس فإن عام روبسبير هذا يمتاز ببلوغ لإدهاب اليعاقبة ذروته . وكان الرجل من طراز لتين ، مؤمناً بالغ القلو في إيمانه بإنجيل موحى به إليه ، وكما كان كارل ماركس للزعيم الروسى ، كذلك كان روسو للتأثر الفرنسى . ويرتكز جانب من سلطان روبسبير على الباريسيين على أهدافه المتناهية البساطة ، وعلى حياته التي اشتهر عنها التنزه عن شائبة الاختلاس . وقد قال عنه أحد معاصريه « لقد تسخرون اليوم منه ، ولكن هذا الرجل سيعلو شأنه ويرتفع قدره كثيراً » .

وكان يؤمن بكل كلمة تخرج من فيه . وإن خطبه السهلة العبارة ، المملوءة غلاً وحقدًا ، وآراءه العنيفة المقرونة بالخلق العظيم في فنون الحكم

السياسى ، جعلته من بادى الأمر تقريباً زعيماً يشار إليه بالبنان بين اليقابة .
فلقد كان السيد المسيطر على أداة الثورة فى باريس ، قبل أن يغدو القابض
على السياسة القومية ، الموجة لدفعها . وكان أنيقاً فى هندامه إلى أقصى حدود
الأناقة ، مؤدب السلوك ، رائع التظاهر بالتمسك بالفضائل الجمهورية .

ولم يكن لكل منشق على عقيدته الضيقة سوى علاج واحد بسيط ،
هو المقصلة . فأرسل إليها فى مارس سنة ١٧٩٤ هيبير Hébert وشومت
Chaumette ، بتهمة الإباحية والإلحاد . وفى أبريل جزّ نصل المقصلة رأسى
دانتون وديمولان Desmoulins ، إذ حث الأخير منهما فى كتابه « كرداييه
العجوز » Vieux Cordelier — وهو الكتاب الوحيد من الأدب الحقيقى
الذى نشر إبان الثورة — حث فيه على الرجوع إلى الرحمة والاعتدال .

خاتمة
الإرهاب

ولكن ذلك النمر الضارى قضى على نفسه بتطرفه واشتطاطه . فقد أصدر
فى ١٠ يونية سنة ١٧٩٤ (٢٢ بريريال) قانوناً كان بمثابة سيف مصلى
على رقاب أعضاء المؤتمر . فقد حرم أولئك المشرعين من حصانهم اليرلمانية ،
ونبذ آخر الضمانات الواهية لحماية الأشخاص المتهمين بجرائم سياسية .
ولكن الشجاعة قد تدب حتى فى قلب الجبان إذا ما اضطّر إلى الدفاع عن
نفسه . وقد كان بين أعضاء المؤتمر رجال بزعامة بارا Barras وتاليان Tallien
عزموا عزمًا صادقاً على التخلص من هذا الطاغية ، ورأوا أن فى وسعهم تنفيذ
عزمهم لو أنهم أحكموا تنظيم قواهم خارج المؤتمر . وقد أتيح لأولئك الرجال
المقتدرين ألا يحرزوا نصراً سريعاً سهلاً بمحاربتهم اليقابة ، لا بالخطب
الرائعة ، بل بعين أسلحتهم من القوة المنظمة . وفى ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٤
(٩ ترميدور حسب التقويم الجمهورى) أهدت بدار البلدية واقتحمها
عنة قوة جاء أكثرها من حى لبيتييه Lepelletier ، وهو أحد الأحياء
التي يقطنها ذوو اليسار فى المدينة . وهناك عثرت على روبسيير ، وقد هشت
رصاصه فكه . فاقتيد وهو يقطر دماً إلى المقصلة ، كى يلوق نفس الكأس
التي أذاقها لكثيرين من فرائسه .

٤ - حكومة الإدارة

وأخيراً انتهى ذلك الكابوس المخيف الطويل ، وزالت فجأة حمى التذبيح المقنونة التي كلفت باريس وحدها ألفين وسبعمائة ضحية . وبسقوط روبسبير وانتصار جوردان Jourdan العظيم في فليرى Fleurus (٢٥ يولية سنة ١٧٩٤) قبض المعتدلون وأنصار دانتون على أزمة الحكم ، وألغوا الكومون ، وأغلقت نادى اليعاقة ، وعفوا عن الفانديين ، ومحموا للجيرنديين بالعودة إلى البلاد ، واختفت هواجس الشكوك الكريهة التي سممت حياة باريس السياسية .

واندفعت فرنسا على أثر تخلصها الفجائى من غاؤها وهوانها صوب شمس الأمل وروح المرح ، وامتلات الصدور خفة ومجوناً واستهتاراً بعد غيبة طويلة . وعقد الفرنسيون الحناصر على القضاء على التعصب القديم ، والتخلص من ترهات الصحافة الظامئة للدماء وهذيانها . فلن تضرب المفصلة بعد اليوم أعناق الشجعان والصالحين الأبرياء .

غير أن فرنسا ظلت ثورية برغم قضائها على الإرهاب . فلم يمد أعضاء البرلمان الذين سفكوا دم الملك أيديهم لمصالحة فريق الرجعيين . فقد كان بالنسبة لهم أمر حياة أو موت أن يسلكوا نهجاً يضمن لهم البقاء قابضين على زمام الأمور ، مهما يكن نوع حكومة فرنسا المستقبلية .

فأضحى الشاغل الرئيسى لأعضاء المؤتمر ابتداعُ القالب الذى تُشكّل فيه تلك الحكومة . وقد ابتدع كوندرسيه Condorcet خير المفكرين الجيرنديين دستوراً يحوى - كالدستور الألمانى سنة ١٩١٨ - أحدث وأدق أصول الفلسفة الديمقراطية . ولكنه كان عسير التطبيق بشكل واضح ، فلم يضع قط موضع التنفيذ . فإن المؤتمر الوطنى كان يبنى دستوراً يقلل من الديمقراطية ، ويزيد من تركيز السلطة . ولكنه فى الوقت عينه يضمن أطراف سيطرة ذلك العنصر

الثورى المعتدل الذى انتصر فى ٩ ترميدور (٢٨ يوليو سنة ١٧٩٤) .

وكان هنالك خطر هام يحول دون الوصول إلى حل لهذه المعضلة ، وهو أنه برغم إصابة ثوار باريس ، الذين خنّذوا فى ترميدور ، بضعف شديد ، نتيجة لحل الكومون ، فإنهم كانوا لا يزالون مسلحين شديداً بالبأس ، يملكون وسائل الانقلابات الثورية ، ويخنّقون أساليبها . فى اليوم الأول من مايو ، ثم فى اليوم الثانى من شهر يونيو سنة ١٧٩٥ ، هجموا على دار المؤتمر ، ولكنهم ردوا على أعقابهم فى كلتا المراتين . ثم اتخذ أخيراً قرار لو أنه اتّخذ من قبل ، فلربما كان أنقذ الملكية : وهو وضع الحرس الأهلى تحت إدارة لجنة من رجال الجيش .

اندحار الثوار
اليمانية

وقد وُجد حل للغز الدستورى ، بإنشاء هيئة اتخذت احتياطاً صبغة دستورية ، وعمرت أربع سنين تحت اسم حكومة الإدارة . فإنه لما كانت إقامة دكتاتورية أمراً ليس فى المستطاع وقتئذ التفكير فيه والرضا به ، فقد وُضعت السلطة التنفيذية فى يد هيئة مكونة من خمسة أشخاص يُنتخبون لمدة خمسة أعوام . ورئى لانتفاء حكم الرعاع إنشاء مجلسين تشريعيين : مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة ، يختار أعضاؤهما بطريق انتخاب محدود النطاق . ولكى تضمن مسئولية هذه الهيئات أمام رأى العام ، نصّ على وجوب تغيير عضو من أعضاء السلطة التنفيذية الخمسة ، وثلاث أعضاء السلطة التشريعية ، كل عام .

إنشاء حكومة
الإدارة

ولكن من وراء هذه الواجهة الجذابة للحرية المعتدلة ، كنت هذه الحقيقة ، وهى أنه ليس فى مقدور حكومة من السفاحين أن تنق بالامة . ولهذا صيّب الدستور بأمر عال يقضى باختيار ثلثى أعضاء البرلمان الجديد من أعضاء المؤتمر الوطنى : هذا المؤتمر الذى كان قد اقترح على إعدام الملك والملكة .

فتار جميع المعتدلين والملكيين فى باريس على هذا التدخل العنيف فى حرية الانتخاب ، فقد رأوا أنهم تخلصوا ، من حسن الحظ ، من برائن

الإرهاب ، فأرادوا الآن أن يتخلصوا نهائياً من السياسيين الذى جعل جبينهم وتطرفهم الإرهاب ممكناً . فنظمت أحياء باريس المشكلة للثروة والجاه والآراء المحافظة حركة ترمى إلى القضاء على تلك الهيئة السفاحية . وقيل إنه حشد فى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٥ ستة وعشرون ألفاً للقيام بالهجوم .

وكان أعضاء حكومة الإدارة الحديدية هيئة مختلطة ، يربطهم بعضهم ببعض تضامنهم المشترك فى الاثثار على قتل الملك . ولكنهم فيما عدا ذلك ، اختبروا عدداً من فرق مختلفة من معسكر الثورة . فهناك رويبل Rewbel ، وهو محام يعقوبى صلب الرأى قدم من الألزاس ، وكارنو وليتورنيه Letourneur وهما مهنلمان ، ولييه Lépeux وهو جيرندى خيالى ، وبارا وهو أقل الأعضاء الخمسة أهلاً للاحترام . وكان وحده من بينهم مهياً بالقطرة للعمل السياسى . فى نقطتين دقيقتين من نقط التحول التاريخية ، دل هذا الرجل السوق المراتى المختلس المستبيح على أنه رجل الساعة . فى حادث ترميدور كان هو الذى أسقط روبسيير ، وفى حادث فاندميمير Vendemiaire (أكتوبر سنة ١٧٩٥) اكتشف نابليون بوناپرت .

فقد اتفق أن هذا القائد القرشقى الشاب الذى كان من قواد المدفعية ، ظهور نابليون والذى ميّز نفسه فى خريف عام ١٧٩٣ فى حصار طولون ، كان فى باريس خلواً من العمل فى تلك الأيام المقلقة من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٥ - تلك الأيام التى أخذ الناس يسمعون فى أنثائها من جديد فى شوارع باريس ، وفى قبول وترحيب ، هتافات « يحيا الملك » ، ولتى فيها أخذ آخر المجالس التشريعية للثورة ينتفض فرقا من مهمة عاصفة رجعية . فتعرف فى أنثائها ببارا أقوى أعضاء حكومة الإدارة الذى حزر جلداته ومواجهه . فهد إليه بالدفاع عن دار المؤتمر الوطنى المهددة . وقد دلت خطط الجنرال بوناپرت الحربية على أنه أستاذ فى فنه . فقد أنفذ ميلا Murat أحد ضباطه بطوى الأرض بمجواده للحصول على البنادق اللازمة ، وبذلك ظفر بميزة عاجلة حاسمة على قوة كثيرة الضجيج والصخب ، ولكنها قوة عزلاء من المدفعية .

فكفت طلقات قليلة محكمة التصويب لإخلاء الشوارع من المتظاهرين وإنقاذ الحكومة . وأتاحت هذه الفرصة لهذا المنقذ دعوى لا تُرد لترقيته العسكرية . فجعل على الفور قائداً للقوات الداخلية . وفي العام التالي حظى — بوساطة وعون بارا مرة ثانية — بيد جوزفين بوهارنيه Josephine Beauharnais ، وقيادة الحملة الإيطالية ذات الأهمية البالغة ، والأثر البعيد .

الفصل الرابع

ظهور بوناپرت

فرنسا وأوروبا . جاذبية إيطاليا . انتصارات بوناپرت الإيطالية . كيبوفوريو . نتائج الحملة بالنسبة لإيطاليا . انقلاب فركتيدور . مصر . التحالف الدولى الثانى . سوريا . أثر الحملة السورية فى رأى العام الفرنسى . سيزر . انقلاب بريرير . بقاء المساواة الاجتماعية . الانفصالية . مارنوجو ولينفيل . موقف بريطانيا . إرلندا . الحصار البحرى وحقوق المحايدين . صلح أميان .

١ - الحملة الإيطالية

ما وافى عام ١٧٩٦ حتى كان دبلوماسيو حكومة الإدارة وقوادها قد حصلوا لفرنسا على مركز بالغ التفوق فى غربى أوروبا . فقد اكتسح بشجرو Pichegru هولندا التى حولت إلى جمهورية باتافية تابعة ، وضُمَّت بلجيكا وجميع الأراضى الألمانية حتى حدود الرين للجمهورية الفرنسية كأجزاء مكملة لها ، وكانت سافوى فرنسية ، وعسكر جيش فرنسى فى الرفيرا الإيطالية ، وانسحبت بروسيا وإسبانيا وتسكانيا من الحرب . فخلا المسرح الآن للصراع بين الثورة وتينك الدولتين اللتين كانتا تمثلان ، فى أقوى وأعند شكل ، الروح المضادة للثورة : وهما بريطانيا البروتستانتية والنمسا الكاثوليكية .

أما بريطانيا فقد وقفت تحمى دمارها الأمواج والرياح ، وتجعلها أمانع من عقاب الجو . فقد شملتها الطبيعة بكنفها ، فأرسلت العواصف والأنواء لتحطيم حلة هوش Hoche إلى إرلندا ، وخيبت كل تدبير من التدابير الصغيرة التى اتخذت لمساعدة القوى المتمردة الخفية التى كان يُظن وجودها

في الديمقراطية البريطانية . فلم يكن لأى هجوم مباشر على تلك الجزيرة العنيدة الصلبة العود سوى فرصة ضئيلة للنجاح لا تشجع دولة نهابة تبحث عن أسلاب عاجلة على الإقدام عليه . فإن هجوماً كهذا سيحدث بالضرورة عن طريق البحر . ولذا كان نجاحه أمراً بعيد الاحتمال ، وخاصة بعد أن أفسدت الثورة الأسطول الملكي القديم ، وذهبت بروحه المعنوية . فكانت تكاليف الهجوم باهظة ، وأرباحه غير مأونة .

أما موقف النمسا فكان مخالفاً لذلك كل الاختلاف . فإن لؤلؤة من لآلئ التاج النمساوى ، تافهة القيمة في نظر صاحبها ، الذى حاول أكثر من مرة أن يستبدل بها أرضاً بافارياً (لبعده بلجيكا عن فينا) كانت قد انتزعت منه . فقد امتلكت فرنسا بلجيكا ، ونوت أن تبقى في يدها هذا الإقليم الغنى بمناجم فحمه ، ومدنه الصناعية ، والمجاور لبحورها ، والقريب من عاصمتها . ولكن ما كان أغنى في نظرها ، وأشدّ محرراً وجاذبية من بلجيكا . هو ولايات شبه الجزيرة الإيطالية الواسعة ، هذه الولايات التى كان بعضها معترفاً بحكم النمسا المباشر لها ، والبعض الآخر قائماً بالسير في ركاها . فإن إقليم ميلان بمجموعة مدنه اللباردية المزدهرة كان داخلاً في نطاق الإمبراطورية النمساوية ، وكانت تسكانيا دوقية من دوقيات بيت هابسبرج ، وكانت نابلى يحكمها ملك فاسد منحل الأخلاق من سلالة بيت بوربون الأسباني ، يسير وفق إرشادات زوجه الهايسبرجية : ماري كارولين ، وتوجيهها القوي . فلهذا السبب ، ولأغراض النهب والدعاية ، رأت فرنسا الثورية أنه يمكن أن تضاف تلك المملكة إلى قائمة أعدائها .

موقف النمسا

ففي إيطاليا إذن كان كل شيء : تقاليد قديمة ، وجمال مناخها ، وتعدد محاصيلها ووفرتها ، وثراء مدنها ، وكنوز متاحفها وأروقها الرائعة ، وضعف النمسا اللذائع ، وتوقان أهل إيطاليا المزعوم إلى خلع النير النمساوى — كانت كل هذه العوامل تتآمر على استهواء الجمهورية الفرنسية إلى الإقليم على هذه المغامرة الحربية .

جاذبية إيطاليا

فرنسا
والفاتيكان

وكان هناك إغراء آخر على لإنفاذ حملة إلى إيطاليا ، استهوى كثيراً من أعضاء الحكومة الفرنسية المعادية للإكليروس ، وهو أن البابا جعل علاقته معها غاية في الصعوبة والتوتر . فقد أبى أن يقر الدستور المدني لرجال الدين ، وشجع القساوسة الذين لم يخلفوا يمين الطاعة للدستور على المقاومة . وكان الفاتيكان بين جميع القوى المضادة للثورة أشدها تحاملاً عليها وأذى لها . فقد كانت يده الخفية تلعب ضدها في كل صقع وناد : بين المهاجرين في كبلنتر ، وبين العصاة في فاندلى وبريتانيا ، وفي كل أبروشية في فرنسا حافظت على الولاء لقسيسها الذي لم يخلف اليمين بالولاء للدستور ، حتى إن سفيراً من سفراء فرنسا اغتيل في روما . ولهذا كان إنزال العقاب القاسي بهذا الحبر المتعيب ، وضم ولاياته المتأخرة السيئة الحكم ، من بين المشروعات المحببة إلى أعضاء حكومة الإدارة عندما كانوا يجتمعون في قبعاتهم المزدانة بالريش ، وملابسهم الرسمية الفاخرة ، في أبياء قصر لكسمبرج المذهبة ، لتبادل الرأي في تجديد أوربا .

روح الجيش
الفرنسي

أما الجيوش الفرنسية التي حوت زهرة الأمة ، فقد بقيت الأوهام والأخيلة تسيطر على عقولها ، تلك الأوهام التي زالت منذ زمن طويل من عقول حديثي النعمة والشهرة وطلاب الكسب الفاحش الذين تألف منهم يومئذ المجتمع السياسي في باريس . فافق الجنود الشبان الذين تبعوا بونابرت إلى ما وراء جبال الألب يؤمنون بأن لفرنسا رسالة ، هي تعميم الحرية في أرجاء العالم . فكانوا ينظرون إلى الإيطاليين نظرة إشفاق وعطف ، كشعب حُرِمَ حرماناً تاماً من التقدم والرفق ، ولكنه شعب قادر بإرشاد فرنسا وحمايتها ، على تعلم طرق الحياة الجديدة التي هي رائدها .

وقد عبر هذا القائد الشاب عن تلك الأفكار — التي ربما أحس هو أيضاً ببعض الشيء في نفسه بفتنتها — في أحد منشوراته الأولى إلى الشعب الإيطالي ، قال : أيها الشعب الإيطالي ، لقد جاء الجيش الفرنسي ليحطم أغلالكم . وإن الأمة الفرنسية لصديقة الشعوب كافة . فقابلونا في ثقة ، تكن

أملاكم ودينكم وتقاليدكم محل التبجيل منا . فإننا نشن الحرب كخصوم شرفاء . وليس نزاعنا ونضالنا إلا مع الطغاة المستبدين الذين يستبدونكم .

انتصارات
نابليون

وكان من بين الأقطار المؤيدة لقضية الملكية ، مملكة سردينيا الصغيرة التي حلت معها — من غير أن يعرف أحد في ذلك الحين — أمنية توحيد إيطاليا . فأرغمها بوناپرت في الشهر الأول من حملته المدهشة التي أذاعت عبقريته الحربية في الآفاق — أرغمها على توقيع هدنة شيراسكو Cherasco ، ثم إلى إبرام صلح معه لم تبلغ تلك المملكة في يوم من الأيام من القوة بحيث تحاول جدياً نقضه .

والحق أن الحلق الذي أظهره نابليون بضربه الحليفتين — النمسا وسردينيا — في نقطة اتصالهما ، وبذلك فصلهما الواحدة عن الأخرى ، ثم بقذفه بالسردنيين أمامه إلى الشمال الغربي ، وفي حرب جيلية خاطفة دلت على مهارة فائقة : حملهم على الاعتراف بالهزيمة — نقول إن هذا الحلق لمعترف به على الدوام بأنه أسى وأروع ما وصل إليه الفن الحربي .

ثم وجه نابليون بعد ذلك اهتمامه إلى العمل الأضخم والأشق ، وهو كسر النمساويين . فكللت خططه بذات النجاح الرائع ، الأمر الذي أثار دهشة أوروبا جمعاء . فإن الزحف إلى لودي Lodi مملكته ولاية ميلان . ونتج عن انتصاره في ريفولي Rivoli — وهو آخر حلقة من حلقات فعال باهرة ضد أمداد العدو — تسليم مانتوا Mantua . ولم يكن الأرشيدوق شارل النمساوي بأكثر توفيقاً في الصمود أمامه من بوليه Beaulieu ، أو فورمرس Wurmsr ، أو كوستدانوفتش Quosdanovich أو لفنتزى Alvinzky . فبعد أن فشلت خطط شارل على ضفة نهر التاليامنتو Tagliamento ، واضطر إلى الارتداد إلى الجبال ، لم يسعه سوى الترحيب بفتح مفاوضات الصلح التهديدية التي وقع شروطها في ليوبن Leoben في ١٨ أبريل سنة ١٧٩٧ .

وفي خلال شهور الصيف عاش القائد الشاب عيشة أرباب التيجان ؛ وظهر بمظهرهم في قصر مُمبِلُّو قرب ميلان . ولم تبت أطماعه الآن خافية ، فقد قال مرة وهو يتمشى في حدائق القصر : « هل تظنني أنني نلت ما نلت

من نصر في إيطاليا لأعظم من شأن المحاربين ورجال حكومة الإدارة وأرفع من قدرهم ؟

فإنه من غير أن يرجع إلى حكومة باريس أخذ يشن الحرب، ويبرم المعاهدات، ويخلق الدول والولايات . ولم يتورع بعد كسره الجيش البابوي في أنكونا Ancona عن ابتزاز المال والأسلاب من الفاتيكان ، وإجباره على النزول عن أفينيون Avignons والفينيسان the Venaissin في فرنسا ، وبعض الولايات البابوية the Legations . وحولت لمبارديا Lombardy إلى جمهورية الألب الشمالية Cisalpine ، وجنوه إلى جمهورية ليجوريا Liguria ، ومنع لكل منهما دستور على غرار الدستور الفرنسي . وحُصِّنتا كقلاع أمامية للجمهورية الفرنسية .

وكان نابليون أحكم من سادته الباريسيين حين رفض أن يورط نفسه في حملة على مملكة نابلي ، مدركاً أن الصلح لا يُكسب فيها ، بل في شمال إيطاليا ، وبخاصة في البندقية . ففي معاهدة كيبوفورميو (أكتوبر سنة ١٧٩٧) دعا هذا التلميذ لفرديريك الأكبر النمسا التي كانت قد ألهمت مرتين بولندا إلى أن تطرح جانباً كرامتها الألمانية ، وتنزل عن البلجيك وحدود الرين ولبارديا واستقلال الريخ الألماني . وفي مقابل ذلك تنال جزءاً من جمهورية البندقية الذائعة الصيت ، وإنما الجمهورية العاجزة المكسورة الجناح . ورضيت الحكومة النمساوية في ذلة وخزي أن توافق على هذه الصفقة الملوثة .

وبذلك توجت حملة نابليون الإيطالية الأولى بمعاهدة تقوم على تقسيم دولة مستقلة بريثة ، دون مراعاة للاعتبارات الأدبية . فهي لهذا لا تثير من الحماس إلا قليلاً في نفس رجل الأخلاق . ولكننا إذا أبعدنا الأخلاق جانباً ، فإن المعاهدة كانت انتصاراً فرنسياً باهراً . ففيها أقرت أولى الدول المحافظة فتوحات الجمهورية العجيبة ، ووافق الحامى العلماني الأكبر للمذهب الكاثوليكي على عمل سافل من أعمال النهب والسلب ، وضحي الزعيم الرسمي للريخ الألماني بحقوق دولته ، ووافق على دعوة مؤتمر يعقد في راشناد Rastadt لكي ينفذ التعديلات

الإقليمية المترتبة على امتداد الحدود الفرنسية إلى الرين . فكان نصر بوناپرت كاملاً ، إذ جعل فرنسا سيدة إيطاليا .

وفي تاريخ الأمة الإيطالية نُحَدِّدُ حملة بوناپرت هذه بداية تلك الحركة من إيقاظ الشعور القوي الإيطالي التي تعرف « بالبعث » Risorgimento . ولم يكن بوناپرت رجيماً متلطفاً في معاملة أبناء وطنه الإيطاليين ، فقد نهب متاحفهم وأروقة صورههم ، وانتزع من جيوبهم آخر فلوس بضرائبه الفاحشة ومطالبه العسكرية ، وقمع في قسوة بالغة أقل مقاومة لسلطانه ، وأزرق الحرية القديمة التاريخية التي كانت تتمتع بها البندقية ، ولكنه كان في سويداء قلبه إيطالياً صَبَّ في قالب إمبراطوري ، مستعيداً بحروبه وانتصاراته أمجاد روما القديمة .

ومع قسوته ، فإنه بدا في صورة المحرر الحامل معه نسيم حرية جديدة وآماني واسعة الآفاق لبثت قوة إيطاليا ومجدها . ولذا غُفِرَ الشيء الكثير لهذا القائد الشاب الذي حطم النير التساوي المسكس بختناق الأمة الإيطالية ، والذي دعا أبناءها إلى إقامة دولة عصرية وإدارة نظمها . فلهج الكتاب والشعراء الإيطاليون بذكره ، ونفثوا بمدحه ، وتزاحم أفضل رجال لمبارديا على بلاطه ، وعملت جمهورية الألب الشمالية سنين عديدة ، برغم ارتكازها على الحراب الفرنسية ، كمعهد للعلوم السياسية ، في أرض كان الحكم الأجنبي قد أَمَاتَ فيها تقاليد الحملة العامة ، وشعور الواجب القومي .

٢ - الحملة المصرية

فرنسا وإنجلترا وبانسحاب بروسيا والنمسا من الحرب وقفت فرنسا وبريطانيا وجهاً لوجه ، وبرزت - تفرق بينهما - المشكلتان اللتان تغلغلتا في صنم السياسة وهما : حدود الرين التي لم تكن تسلم بها بريطانيا لفرنسا ، والملكية التي

لم تكن ترضى بها جيوش فرنسا الطافرة . وكان في فرنسا إذ ذاك رجال معتدلون يقبلون تجربة النظم القائمة على الحرية ، وقيام ملكية دستورية ، وعقد صلح مع إنجلترا . ولكن أمثال هؤلاء الرجال عندما انتخب منهم عدد ليس بالقليل في المجالس التشريعية ، عُدَّ بقاؤهم على قيد الحياة بواسطة بارا في باريس ، وبونابرت صديقه في إيطاليا ، أمراً باعثاً على أشد التخوف . وقد عبر بصراحة عن هذا الإحساس أوجيرو Augereau رسول بونابرت ، إذ قال : « لقد جئت إلى هنا لأقتل الملكيين » ، وذلك عندما أتى بجنوده إلى باريس استعداداً لانقلاب فركتيدور Fructidor (٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧) .

انقلاب
فركتيدور

فقد قبض وقتئذ على النواب المشكوك فيهم في جنح الليل ، وأرسلوا دون محاكمة إلى كاين Cayenne ، وأخذت لجان عسكرية في الأقاليم تصدر الأحكام العديدة بالإعدام والنفي ، وأبطلت الانتخابات في تسع وأربعين مديرية . وكان من بين ضحايا هذا العنف نفر من أنبل رجال فرنسا وأسماءهم قدراً : مثل بشجروفاتج هواندا ، وبرتلمي Barthelemy الدبلوماسي الذي وقع معاهدة الصلح مع بروسيا ، وكارنو منظم النصر . غير أن بارا رجل الإرهاب سابقاً غداً آمناً مطمئناً في مركزه ، هو وحكومته يعقوبة لأهدافها ، بالغة الضعف وسوء الحكم ، حيث الإعياء والتفريط وحدهما هما اللذان أبقياها في دست الحكم ، إلى أن جاء الوقت الذي أصبح فيه بونابرت مستعداً للقبض بنفسه على أزمة الحكم .

مواصلة سياسة
الفتح

وفي الوقت الذي كان فيه الألمان المثقفون يستمتعون بمطالعة رواية جيته Wilhelm Meister ، أو خطة جديدة لسلام أبدى نشرها عمانوئيل كانت Immanuel Kant ، كان العقويون الفرنسيون — بعد أن تخلصوا من المعارضة الملكية — قد ظفروا بفترة أخرى من البقاء ، وواصلوا سياسة النهب والفتح الوفيرة الأرباح . وقد استغلوا فرصتهم أقصى استغلال . فلقد أثرت (١٧٩٧ — ١٧٩٨) الثورات في سويسرة وروما ونابولي ،

وأضيفت الجمهوريات الهلنستية (التي أقيمت في سويسرا) والرومانية (في الولايات البابوية) والبرثينية (في مملكة نابولي) إلى قائمة الممتلكات الفرنسية . لم يُقَمَّ حكام فرنسا معاودن للإكليروس سوى وزن ضئيل لاعتبارات بونايرت السياسية التي انطوت على إدراكه ما عليه الفلاح اللاتيني من تدين ، ورغبته في استخدامه في حروبه . فعاملوا بابا روما باحترام أكثر قليلا مما لاقاه ملك فرنسا على أيديهم ، إذ قبض عليه ونقل عبر الحدود الفرنسية إلى فالنس Valence

ويشتمل عام انتصارات بونايرت في إيطاليا على صفحة من أقم صفحات التاريخ البريطاني . ففي أبريل ومايو (سنة ١٧٩٧) شلَّت الأسطول الإنجليزي الذي كان كل شيء يتوقف عليه ، تمردات خطيرة قامت في أثناء رسوه في اسبهد Spithead والنور the Nore . وقد أمكن التغلب على هذه الفتنة باتباع سياسة الحزم المقرون بالتبصر ، تلك السياسة التي كثيراً ما خففت في الأحداث الإنجليزية من حدة العواقب الوخيمة المترتبة على التفريط والإهمال الطويل الأمد . فأزيلت أسباب التمر الحقة التي كانت موضع شكوى البحارة ، وشنق زعماء التمرد ، وأعيد النظام .

الأسطول
الإنجليزي

وتلا ذلك رد فعل سريع مجيد ، فقد أحرز الأسطول انتصاري كبير دون Camperdown وأبي قير Battle of the Nile : ذينك النصرين اللذين غيرا تاريخ أوربا . ففي المعركة الأولى محاذن كان Duncan الأسطول الهولندي من الوجود (أكتوبر سنة ١٧٩٧) ، وفي الثانية (أغسطس ١٧٩٨) دمر نلسن بضربة سريعة سريعة في خليج أبي قير ذلك الأسطول الفرنسي الذي حمل بونايرت إلى مصر . فحصل بذلك لبريطانيا على تفوق بحري في البحر الأبيض لم تفقده يوماً من الأيام من يومئذ .

ذلك أن حكومة الإدارة دعت نابليون إلى غزو إنجلترا ، ولكنه آثر بعد إنعام النظر والفحص الدقيق أن يهاجم عدوه في تلك النقطة من نقط نفوذه العالمي التي أمل أن انتصار فرنسا فيها قد يفضي إلى آثار سيئة جداً

بونايرت
في مصر

من إضعاف روح الثقة والاستقرار في إنجلترا . وأخذت تطوف مشروعات هائلة خيالية في عقل كانت قد ألهيته شهرة الإسكندر ، واضطربت فيه الرغبة الشديدة إلى التشبه به واحتذاء حذوه . وقد تراءى له أنه ، وهو في مصر ، يستطيع أن يشيد إمبراطورية شرقية ، فقد يزحف إلى الهند . أو إلى القسطنطينية ، فيجلب على جزيرة أصحاب الخوانيت الفقر والتدم ، بتدمير تجارتها ، وكان يعتمد في تنفيذ مشروعه هذا على مساعدة تيو صاحب Tipoo Sahib وعشائر المهاراتا الحربية . فقد خاطب جيشه غداة رحيله من طولون قائلاً: إنكم تؤلفون جناحاً من أجنحة الجيش الذي نعدّه لحرب إنجلترا . وترجع نشأة مصر الحديثة بطلائها البراق السطحي من الحضارة الفرنسية إلى معركة الأهرام (أو معركة إنبابة) التي قضى فيها بونايرت على سلطة المماليك المنهج . وقد أعادت حكمته إلى أحضان الحضارة الأوروبية قطعاً كان قد مكث بعيداً منها أزمنة طويلة ، كما أعلنت للغرب عن كنوزه الأثرية . ومن وادي النيل ، ومن أقطار بحر ليجة ، استمرت «أوديسة» هذا الأجنبي الفذ تبحث آمال الحرية في النفوس ، وتقدم مثالا يُحتذى للحكم الممدن المنظم . فقد كان تأثيره قوياً في اليونان ، ومنها نفذ إلى ألبانيا — هذه البلاد التي خرج منها بطل — ما زال مسجده قائماً في قلعة القاهرة — خرج إلى وادي النيل ليقم على ضفافه أسس دولة عصرية . ومن بين مقلدي نابليون ، لم يصل أحدهم من بسطة التفوذ وقوة السلطان إلى مثل ما وصل إليه محمد علي : ذلك الرجل الذي خرج من صلبه باشاوات وخديويون وملوك ، والذي أقام بنشاطه المضطرم ، وروحه المسيطرة ، من أفكار نابليون ضريح مصر الحديثة .

وقد أدت أنباء انتصار نلسن البحري العظيم إلى قيام التحالف الدولي الثاني

(١) تيو صاحب (١٧٥٣ - ١٧٩٩) هو ابن حيدر علي ، و سلطان ولاية ميسور . تعلم الفنون الحربية على أيدي ضباط فرنسيين في خدمة والده ، وحارب الإنجليز مراراً لغزوهم بلاده . وقتل في مايو سنة ١٧٩٩ أثناء دمه هجوماً شنيعاً عليه .

التحالف الدولى
الثانى

(نوفمبر سنة ١٧٩٨) . فن نابلى حيث قابلت ملكتها وصديقها إما هاملتون (١) ظهور البطل المنصور بأقصى درجات الفرح والسرور ، سرت فى سرعة إرادة قوية لخوض غمار الحرب ، من فينا الى بطرسبرج والقسطنطينية ، تلك الإرادة التى وضعها سياسة بت الأصفر الرشيدة ، والإعانات المالية البريطانية ، فى شكل مشروع كبير لرد فرنسا إلى ما وراء حدودها القديمة ، وقلب حكومتها العنقوبية . وكانت انتصارات الحلفاء الأولى مثيرة للدهشة . فى حملة صيفية قصيرة (١٧٩٩) أضاعت الجمهورية الفرنسية جميع ما كان نابليون قد أحرزه فى إيطاليا ، وجميع ما كانت حكومة الإدارة أضافته إلى مكاسبها . فقد بعث سوفوروف Surovoff ، ذلك القائد الفلاح التترى الطاعن فى السن ، القصير القامة ، الخارج من أدغال روسيا التى تسودها الرياح العاصفة — هذا القائد الذى لم ضوؤه كشهب ، والذى كان يلتهب همة ونشاطاً — نفع هذا القائد فى جنده الروس روحاً من روحه التى لا تقهر ولا تخور . فكسر مورو Moreau فى كاسانو Casano (١٥ أغسطس سنة ١٧٩٩) ، وساعد فى اصطلام جيش جوبير Joubert فى نوفى Novi ، وأزال الجمهوريات الإيطالية الفرنسية ، كما يزال بناء من الورق .

انتصارات
الحلفاء

انسحاب
روسيا

ولكن هذا الجنحى العبرى البدوى لم يستطع أن يحتمل ادعاءات حلفائه المتحذلقين المتطهرين ، فقد كان التناقض تاماً بين اندفاع سوفوروف العنيف الوحشى ، وبين أساليب الحرب النمساوية التى تتبع الأنظمة التقليدية المثبتة البطيئة . ولذا كان من حسن طالع فرنسا أن نفى القيصر يده من التحالف قبل أن يمثل الدور الثانى من المسرحية الإيطالية . فقد عاد سوفوروف قافلاً إلى وطنه ، وفى الوقت عينه أنقذت الانتصارات التى نالها مسينا Messina فى زيورخ ، وبرين Brune فى هولندا — أنقذت فرنسا من الهزيمة الماحقة . وبدخول تركيا الحرب تضاءلت أحلام نابليون فى إنفاذ حملة إلى الهند ، واستبدل بها الهدف الأصفر : وهو إرسال حملة إلى سوريا . فسار على رأس قوة من ثلاثة عشر ألفاً من المقاتلين المنتقين ، ووصل فى مارس سنة ١٧٩٩

حملة
سوريا

(١) قرية صغير بربطانيا فى بلاد نابلى ، ومخطبة لنس فىها يده .

إلى أسوار عكا ، حيث أوقف زحفه رجلان قويا الشيكمة ثابتا العزم وهما سلفي سمث Sidney Smith وفيليبو Phélippeaux ، وهو زميل نابليون القديم في الكلية الحربية . وكانت هذه الحملة نعمة له في طي نقمة . فالذي كان يُخشى عليه من ورائها لم تكن حالة الخوذ الترك التي كانت منحطة إذ ذاك ، بل تلك المساحات الواسعة الأرجاء الخالية من الماء التي قد ينجح جيش تركي مدبر أمامه ، موضوع تحت قيادة حاذقة ، في إغوائه على مطاردته فيها .

ولم يتمكن نابليون من انتشار جيشه من سوريا إلا بعد أن تكبد خسائر فادحة . أما أنه كان في استطاعته أن يقود هذا الجيش ، فرق مرتفعات الأناضول من غير حلول نكبة به ، إذا كان ذلك هو قصده ، فهو أمر محضف بأشد الريب والشكوك . وإنا فقد أنجاه ذلك الفشل الموفق الخزي معاً من هذه الغوايات التي حلت في طياتها الأخطار .

ولقد أتاح له الحرب التركية فرصة نادرة غير مرتقبة كانت ذات أثر في مجرى حياته . ذلك أنه إذا عُدَّ غزو مصر عملاً فروسياً أخذاً ، فإن السحر الذي سحب الحملة السورية كان أعظم وقعاً وأكثر خيالاً وروعة . فإن الفرنسيين في أرض الوطن ، مهما كان مبلغ سخرتهم بالبايا ، واستهزائهم بالقساوسة ، كانوا يطالعون في نشوة وفخار بلاغات القائد الفرنسي الشاب الذي استولى على فلسطين ، واتخذ مركزاً له دير الناصرة ، وقرأ على ضباطه التوراة تحت سماء سوريا : في تلك المواطن التي قدمها المسيح وحواريوه ، وحدثها في عيون الفرنسيين فعال الحرب الصليبية الأولى ومغامراتها . فإن استرجاع فلسطين من الأتراك - هذا الحادث الذي طرب له حتى رئيس وزارة بريطانية قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى - استقبل استقبالا حافلاً من مواطني القديس لويس الخاضعين لثير حكومة الإدارة الصارم الخسيس .

فكان اسم بوناپرت على كل لسان وشفة . وقبل أن يعود إلى وطنه ، تاركاً جندته يبذلون أقصى ما في طوقهم لتخلص من المأزق الذي ألغوا أنفسهم فيه ، كان قد غدا معبود الأمة وسيلها غير المتزوج . وعملت أنباء انتصار باهر ناله على الأتراك في أبي قير (٢٥ يوليو - ٢ أغسطس سنة ١٧٩٩) على التخفيف من وقع هذه الحقيقة القاسية وهي : أن جيشاً فاخراً قد بُدِّع عثاً في حملة عقبة .

٣ - إنشاء للكنصلية

ولم تكن فرنسا تصبوعد عشر سنين من الحرب والثورة إلى أكثر من رجوع السلم إلى نصابه . وإقامة حكومة منظمة . فقد شمت البلاد القوضى والحال وضائق ذرعاً بانتشار الاصوصية والسلب وسوء حال الطرق ، ولم تعد تطبق حالة المدارس من غير معلمين ، والمستشفيات من غير ممرضات ، ولا تلك الفتنة الملكية المحتدمة الأوار التي شملت حياة أربع عشرة مديرية من مديرياتها . ولهذا كان هناك بين السواس الباريسيين رجال رأوا أنه لن يجرر فرنسا من تناحر طوائفها وملكها ، وينشئ عهد حرية منظمة ، سوى مهتد جنلى .

فرنسا تصبو
إلى السلام

سييز

وكان من بين هؤلاء الرجال شخصية سياسية عجيبة ، كان قد استدعى في أسوأ أشهر عام ١٧٩٩ من السفارة الفرنسية في برلين وكان اسمه سييز Sieyes . وعين عضواً في حكومة الإدارة . ولم يكن أحد أكثر اهتماماً وأشد عناية بتقرير شكل الحكومة الثورية - ذلك الشكل الذى صح العزم الآن على تعديله - من ذلك الكاهن السابق ، النير الذهن ، الواضح الفكر ، الذى كان قبلاً بطل طبقة العامة ، وخطيب الجمعية الوطنية ، والمبتدع لنظام تقسيم فرنسا إلى مديريات ذات تخوم مصطنعة ، والضارب على يد الكنيسة ، والمستشار لحزب الجيرندين . وإنها لحقيقة ذات مغزى عظيم أن مفكراً هذا ماضيه ، وذاك سلطانه ، نشأ في دوائر الحكومة نفسها ، يقرر الآن ضرورة الاستنجاد بالجيش .

ولم يكن بوناپرت ، الذى كان قد نزل في فريجي Fréjus في ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩ عند أوت من مصر - ليروم لتحقيق أطماعه الكبيرة ، حليفاً أو فر دهاء وأعظم حلقاً من هذا الحليف .

ففي مساء أغبر من شهر نوفمبر مثل المنظر الأخير من مناظر رواية الثورة

الفرنسية ، في حديقة سان كلود St Cloud (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) فقد نقل في ذلك المساء إلى تلك الضاحية الباريسية مقر اجتماع مجلسي الخمسة والشيوخ ، بتقديم حجة زائفة ، هي أن مؤامرة يعقوبية تحاك ضدما بباريس . ولكن سرعان ما اجتمع المجلسان حتى أحرق بالمكان رجال مسلحون . وفي أسوأ شائن معيب فرقوا شمل الأعضاء بأسنة سيوفهم . وكانت أخطر لحظة في ذلك اليوم الحافل بالأخطار والمباغئات هي عندما بارح قاعة الاجتماع لوسيان بوناپرت Lucien Bonaparte . الرئيس الشاب لمجلس الخمسة ، وتحت الادعاء الباطل بأن الخناجر أشهت في وجه أخيه ، دعا باسم القانون الجنود الذين كانوا قد حشدوا في شرفة البناء ، وأمرهم بطرد الأعضاء من قاعة الاجتماع .

ولم تتحرك باريس إزاء استخدام طرق النصب والعنف هذه في إخماد أنفاس الحرية البرلانية ، ولم تسكب دمعة على تقويض حكومة الإدارة ، وإلغاء المجلسين التشريعيين . فقد كانت تلك الهيئات تتكلم في رعونة ، وتحكم حكماً سيئاً . وفي جميع ربوع فرنسا استبشر القوم خيراً بالانقلاب برسيمير هذا Coup d'Etat du Brumaire وهللوا له كفجر عهد جديد . وبعد ذلك الانقلاب بأسابيع قليلة ، وافقت البلاد بأغلبية كبيرة من الأصوات على دستور جديد ، خول نابليون بوصفه القنصل الأول - من بين قناصل ثلاثة - سلطاناً مطلقاً على معابر فرنسا خلال الأعوام العشرة التالية .

أما الجمهورية فقد ظلت باقية ، لا من حيث شكلها الخارجي فحسب ، فقد كان نابليون وليد الثورة ، ومثل كثيرين أن غيره من أذكاء الرجال ، ممكنه ذلك الانقلاب الاجتماعي المائل من أن يضع نفسه في طليعة القابضين على زمام الأمور ، أضف الى ذلك أن عقله الناشئ كان قد تهلب وأدب الانتقاد والتمرد : ذلك الأدب الذي نادى بالثورة ، وأنلر بانديلا لحيها . وكان فتح باب الترقية أمام الذكاء والمواهب مما يهواه قلبه ، ويحنو إليه فؤاده ، ذلك الأمر الذي هو روح الديمقراطية ، وعماد السلطة ، وسر الانتصارات الحربية التي جعلت أوروبا بأسرها تنتفض فرقا أمام الثورة .

فقد عقد نابليون عزمه على الاحتفاظ بهذا الجانب من ثمار الثورة على الأقل . فقد يفرط في الحرية السياسية ، أما المساواة الاجتماعية فكانت في نظره جليلة الشأن عظيمة القدر . والحقي أن التفوق العجيب الذي أحرزته فرنسا على أوروبا أيام القنصلية والإمبراطورية لا تفسره عبقرية قائدها الفذة وحدها ، بل يرجع أيضاً إلى الحقيقة الواقعة ، وهي أنه بالقضاء على الامتيازات ، وُضعت تحت إمرة نابليون خيرة قرائع أكثر أمم أوروبا الغربية اكتظاظاً بالسكان ، وأعلامها مدنية . فقد كان نابليون يسطع بأعمال وزارة الخارجية ، وفوشيه Fouché مديراً للشرطة . وقُلِّد رجال العلم مناصب الوزارة - الأمر الذي لم يُسمع بمثله في هوابهول (مقر الوزارات البريطانية بلندن) . وكان مجلس الدولة في فرنسا أكفأ هيئة من الخبراء ذوي الدراية والكفاية رأيتها أوروبا إلى ذلك الحين . كما ترقى معظم مرشالات فرنسا الذين قادوا جيوشها المظفرة - ترقوا عن جدارة واستحقاق من صفوف أنفار الجند العاديين .

ولتهدة فرنسا استخلم بوناپرت جميع ما أوتي من مواهب نادرة : من سياسة نابليون الداخلية حنق كبير ، ونظر ثاقب ، وعلم تحيز إلى هذا الجانب أو ذاك في كل مسألة تُعرض عليه . فلم يكن يعقوبياً ولا ملكياً ، بل سما فوق نضال الأحزاب وتناحر الطوائف . فكان لذلك في مقدوره أن يرى حاجات البلاد ككل . فلما أدرك أن طبقة الفلاحين متمسكة بأهداب الدين ، أعاد حرية العبادة الكاثوليكية ، وأبرم اتفاقاً Concordat سنة ١٨٠٢ مع البابا - وهذا إقليم فاندسى وصالحه ، وألغى قوانين البعقوبيين الصارمة ، واستدعى جودان Gaudin - وهو مالي ضليع - لكي يضع لفرنسا نظاماً للضرائب المباشرة وغير المباشرة محدودة تحديدًا عادلاً ، وفي الوقت نفسه لا تكون بالضرائب المرهقة . وقد كلل النجاح عمله . فهذه التغييرات ، مصحوبة بتأسيس بنك فرنسا سنة ١٨٠٠ ، بدأت عهداً من الاستقرار المالي لم تعهده البلاد منذ زمن بعيد .

وفي جميع هذه التدابير الضرورية التي قوبلت بقبول حسن ، سار القنصل الأول وفق رغائب بني جلدته . وقد سمح ، ملبى من الزمن ،

للمعارضة الحرة بأن تُسمع صوتها في مجلس تشريعى صغير اسمه « التريبون » Tribune ابتدعه دهاء سيز ، وألحقه بالدستور ، لكي يكون وسيطة للتفيس عن الصدور وبث الشكوى . ومع ذلك فتحى هذه المنحة النافذة للحرية ، وُجدت فيما بعد باهظة . فإنه لما أضحى هذا المجلس صعب المراس ، ألغى سنة ١٨٠٧ ، دون أن يثير موته كلمة رثاء أو همسة احتجاج .

مواصلة الحرب
ضد النمسا

أما جلب السلام إلى ربوع أوروبا ، فكان عملاً أكثر مشقة وأبعد مثلاً . فإنه برغم انسحاب پول قيصر روسيا من التحالف ، وغدوه بعد قليل شديد الإعجاب ببوناپرت ، ظلت النمسا وإنجلترا تنازلاته ، في ميادين القتال ، وأغمضتا عيونهما عن رؤية تلويحات القنصل الأول بالصلح .

ولهذا السبب اختار نابليون النمسا هدفاً أول للهجوم باعتبارها أضعف العدوين مركزاً . وقد تمكن من إيقاع الهزيمة بها في سهولة تبعث على الدهشة ، عند مقارنتها بحربها مع فرنسا في العام السابق . فإن نصر مارنجو Marengo الفريد (١٤ يولية سنة ١٨٠٠) الذى أثار في فرنسا أشد ضروب التهليل والحماس ، والذى كان باكورة الانتصارات التى أحرزتها القنصلية ، كان كافياً لإضاعة التفوق الذى كسبه النمساويون لأنفسهم ، بمعونة روسيا لهم إبان غياب نابليون في القطر المصرى .

ولم يغر أحد التفاته إلى أن نابليون قصر في إنجاد مسينا في جنوه ، أو أن رجمة ديزيه Desaix الفجائية من الغرب ، هى وحدها التى خلصت نابليون من هزيمة منكرة في مارنجو ، بل كفى الباريسيين أنه كنهانيبال ، عبر جبال الألب ، وقذف بنفسه في جسارة وإقدام على مواصلات العدو ، وبخمس عشرة منفى ، مقابل مائتين عند العدو ، ظفر بفوز ساحق . وفى الثالث من ديسمبر من العام نفسه ، اكتمل نصر فرنسا في معركة هوبنلندن Hobnolinden ولم يكن النمساويون بالموقنين في قوادهم . فقد اختير ملاس Melas المريم ليقف أمام نابليون ، واختير دوق في الثامنة عشرة من عمره لينازل مورو

Moreau

وقد أدب هذان الانكساران إمبراطور النمسا ، فطلب وقف القتال .
 وفي صلح لينفيل Luneville (٩ فبراير سنة ١٨٠١) وافق على خريطة
 لأوروبا وصلت فيها الحدود الفرنسية إلى ضفاف الرين ، واعترف بالجمهورية
 الأربع التي أقامتها فرنسا : وهى جمهوريات باتافيا وهلفاتيا والألب الشمالية
 وليجوريا - هذه الجمهوريات التي أنشئت لأغراض الدعاية والتأثير في الخارج .
 أما وزارة بت فلم تقبل على الإطلاق الموافقة على تأليف أوروبا على
 هذا الوضع .

٤ - موقف بريطانيا

حددت رسالة سياسية رائعة الأسلوب أخاذة العبارة نظرة بريطانيا العامة
 إلى الثورة الفرنسية من أيامها الأولى . وما زاد في روعة تلك الرسالة ، وعي
 وقعها ، أن كاتبها كان إرلندياً ، وعضواً في البرلمان منتبهاً إلى الأحرار : وهو
 بيرك Burke . فقد بثت رسالته « تأملات في الثورة الفرنسية »
 Reflections on the French Revolution (نشرت في نوفمبر سنة ١٧٩٠) -
 بثت رسالته سخطاً كبيراً على الثورة في نفوس أعضاء حزب المحافظين
 صاحب الأغلبية البرلمانية وقتئذ ، والذي كان يدير دفة البلاد ، وهو سخط
 لم يقلل منه تسلم نابليون مقاليد السلطة .

وقد حزرت أقلية صغرى من الرجال المستقلين الثاقبي النظر مثل تشارلس
 فوكس Charles Fox ما يتصف به القنصل الأول من المواهب المدنية الفاتحة .
 أما كثرة الأمة البريطانية فلم تدرك شيئاً منها . بل رأت في بونابرت وليد حركة
 كريمة إجرامية ، وآخر لص من لصوص الثورة ، وإن كان أشدهم بأساً وأعظمهم خطراً :
 لص سفاح أغرق أوروبا في لجة من الدماء ، وغول رهيب امتاز بقائمة طويلة
 من أعمال النهب والقتل في إيطاليا ، وبغظائمه المزعومة التي اقترفها في سوريا ،

في ذبحه الأسرى الأتراك الذين سلموا له بعد تأمينه إياهم ، وفي سمته ذوى العاهات الذين كان إنقاذهم يجلب عليه التعب والتعب .

ومع ذلك فإنه مثل عجيب حقاً للحماقة الصلابة الخرقاء أنه عندما أعرب القنصل الأول عام ١٧٩٩ إلى الحكومة البريطانية عن رغبته في عقد الصلح معها ، كان ردّها عليه هو أن خير ضمان يمكن لفرنسا أن تقدمه عريوناً لإخلاصها ، هو أن تعيد إلى عرش فرنسا ملكها الشرعى . فإن ردّاً كهذا ، كما لاحظ تاليران على الفور ، كان فجئاً غير مقبول من ملك ألماني الأصل جلس على عرش نيوانته من قبله أسرة ستيوارت .

إنجلترا
وإيرلندا

ولقد انبثت في بريطانيا ، في غضون خلافها الطويل مع فرنسا ، قلق مطرد من جراء مخاوف إيرلندا وتدميرها ودساتيمها . فما حدث إبان الثورة الأمريكية ، حدث مثله أيضاً في إيرلندا ، عند ما حركت أفكار الثورة الفرنسية ومبادئها نفوس البروتستانت المتعلمين في شمال إيرلندا أولاً ، ثم طار شررها إلى الإيرلنديين الكاثوليك المستكينين المهضوم الجانب الذين يقطنون الأنحاء الجنوبية والغربية من تلك الجزيرة . فقد كان الإيرلنديون الكاثوليك الجبهة الذين سلموا قيادتهم إلى إكليروسهم أبعد جميع الأمم الأوروبية قاطبة عن مبادئ الثورة الفرنسية الكافرة وبدعها الفاسدة . ولكن الناس عند ما يقال لهم إن حقوقهم مهضومة ، وعند ما يدركون أنهم محرومون من حقوق الانتخاب في وطنهم ، وعند ما يدعون باسم الحرية والمساواة إلى خلع نير أجنبي مقيت ، والمساهمة بتصميم المشروع في حكم بلادهم ، فإن مثل هذه الدعوة ستجد آذاناً صاغية وقلوباً واعية مهما كانتا محافظتين في قرارة نفوسهم .

وهذا ما حدث في إيرلندا . فإن بروتستانت الشمال برعانة وولف تون

Wolfe Tone مؤسس «جماعة الإيرلنديين المتحدين» The United Irishmen أهابوا بنى وطنهم الكاثوليك بأن يطالبوا بحق الجلوس في برلمان دبلن . وقدم الكاثوليك طلبهم ، ولكنه رُفِض . فثاروا وتمردوا ، غير أن ثورتهم قُمعت . ولما رأى بيت الأخطار والمتاعب العديدة المترتبة على وجود برلمانين خاضعين لتاج واحد ،

قام سنة ١٨٠٠ بتوحيد السلطة التشريعية في بريطانيا وإيرلندا . وبمقتضى صك الاتحاد خُصص مائة مقعد في مجلس العموم ، واثنان وثلاثون في مجلس اللوردات ، للإيرلنديين البروتستانت . ومع أن هذا التعديل الدستوري قوبل بمقاومة عنيفة من جانب المتحمسين من الإيرلنديين البروتستانت الذين كانوا يرومون إبقاء برلمان دبلن ، ومع أنه لم يصدق عليه إلا بعد دفع رشى عديدة لأعضائه ، فإنه دخل في حيز التنفيذ .

غير أن إيرلندا لم تسب لبريطانيا متاعب خطيرة في غضون حروب نابليون . ولكن المسألة الإيرلندية التي كثيراً ما عصفت بالسواس البريطانيين - أنهت حياة وزارة پت الشهيرة . فقد رأى ذلك السياسي الخطير الحكيم من أول الأمر أنه من الضروري لنجاح الاتحاد أن يباح انتخاب الإيرلنديين الكاثوليك لعضوية البرلمان البريطاني . إذ كان يؤمن بأن تحرير الكاثوليك حق عادل ، وهو بجانب ذلك سياسة رشيدة ، وأمر مأمون العواقب . فإن الأصوات الكاثوليكية التي قد تكون مصدر خطر في برلمان يعقد في دبلن ، تصبح عديمة الضرر في جوستمنستر الذي تسوده البروتستانتية . غير أن الملك جورج الثالث ، احتراماً ليمين تنويجه ، رفض رفضاً باتاً تأييد تلك السياسة البعيدة النظر . وقد قدم پت استقالته بسبب ذلك في مارس سنة ١٨٠١ . وكان عدم اهتمامه فيما بعد بالحث على اتباع سياسته ، كارثة من أكبر كوارث تاريخ إيرلندا .

أما نابليون في مغامرته التي كانت غايتها سحق إنجلترا ، فقد اهتدى إلى فكرة الحصار القاري . فإنه إذ بنى تفكيره على أن إنجلترا أمة تتألف من أصحاب حوانيت ، انتهى إلى هذا الرأي ، وهو أن مقتل قطر كهلا ، يرجد في إقفال جميع الأسواق الأوروبية في وجه بضائعه . ولكي يحقق هذا الغرض وجه أسبانيا إلى غزو البرتغال ، في نفس الوقت الذي أرغمت فيه حامية فرنسية ملك نابلي التمس على إقرار سياسة تجارية ملائمة لأغراض فرنسا .

غير أنه كان واضحاً في بادئ الأمر ، أن حصاراً يشمل البحر الأبيض المتوسط كان في حد ذاته نافه القيمة . فإنه لو أمكن البضائع الإنجليزية أن

فكرة
الحصار القاري

تنفذ إلى هامبرج أو ليبيك أو حتى إلى استكهولم أو بطرسبرج (ليننغراد)، فإن الحصار ينهار ، ويجد نابليون حينئذ نفسه مجبراً على إعلان رفعه . إذ لن يفلح إذا هو نفذ تنفيذاً جزئياً . فإن سياسة الحصار ، إيماناً تنجح بحذاقها ، أو أنها لا تنجح على الإطلاق . وكانت الحقيقة الماثلة الجارية التي جرت على نابليون في النهاية الملاك واليوار ، هي أنه عند ما أغواه سراب الحصار العام ، قضى على نفسه بالسعى لإقامة صرح إمبراطورية عالمية .

غير أنه حانت لحظة في مطلع عام ١٨٠١ كان فيها هذا المشروع الأحمق الفادح الكلفة أقرب إلى التحقيق والنجاح ، منه في أية مرحلة أخرى من مراحل الحرب التي جاءت بعد ذلك . ذلك أن پول الأول قيصر روسيا كان عاجلاً مستبداً نصف مجبول . غير أنه لما خفف من وقع قسوته تحمسه الغريب لغرسان مالطة ، وإعجابه البالغ العميق بعقيدة نابليون . ففي ديسمبر سنة ١٨٠٠ برز هذا الروسي الممجي ، كالبطل المدافع عن مستوى خلق رفيع في الحرب البحرية . وكون ، بضمه تحت لوائه الدنمارك والسويد وبروسيا ، «عصبة الحياد المسلح» League of Armed Neutrality لحماية حقوق المحايدين ، وللإضرار ببريطانيا ينوع خاص . ولقد كانت نقطة من نقط الضعف في درع بريطانيا ، أن أسطولها كثيراً ما سبب خسائر ومناعب لأصحاب سفن المحايدين أثناء تفتيشها ، في بحثه عن بضائع الأعداء أو البضائع المحرمة .

غير أن كيفية ممارسة حق التفتيش هذا ، والضوابط والتأمينات التي تحول دون إساءة استعماله ، والمعاملات والشروط التي تقدم عند مباشرته ، كانت ولا تزال معضلة شائكة من معضلات القانون الدولي . وكانت كاترين الثانية قيصرية روسيا قد أعلنت عام ١٧٨٠ مبدأ «حرية البحار» القاضى بأن السفن المحايدة الماخرة عاب البحار في أعمال مشروعة يجب ألا تتعرض لأية مضايقة من الأساطيل الحاربة . فجاء پول وبهت هذا المبدأ إلى الحياة سنة ١٨٠٠ . وهو مبدأ ما يرحح إلى يومنا هذا قضية حية مثيرة الخلاف تنقسم بصليدها الآراء ، برغم أن الأسطول الأمريكي ضرب به عرض الحائط في الطور الأخير من الحرب العالمية الأولى .

وكان إغلاخ پول الأول في الحصول على تأييد الدول الأوروبية الشمالية للدفاع عن مبادئ الحياذ المسلح - توفيقاً سعيداً غير مرتقب لنا بابين ، الذي أسرع في الإفادة منه . غير أنه في اللحظة التي شرع فيها هذا المشروع يتخذ شكلاً خطراً على إنجلترا : أى حين زحف البروسيون على هانوفر^(١) ، وأخذت الكتائب الدنماركية تحتل همبرج وليبك - في تلك اللحظة انهار المشروع انهياراً تاماً . ذلك أن القيصر اغتيل خنقاً في فتنة نشبت في القصر الإمبراطوري في مارس سنة ١٨٠١ ، وفي أبريل من العام نفسه حطم نلسن الأسطول الدنماركي في كوبنهاجن . فقضت هذه الصلصة المزدوجة ، على العصبة الشمالية التي لاحت لفترة من الزمن أنها ستكمل دائرة الحصار القاري - ماتت ميتة فجائية غير مجيدة .

صلح اميان

وقد مهدت هذه الحوادث : اغتيال القيصر ، ومعركة كوبنهاجن ، واستعفاء پت - مهدت الطريق إلى صلح أميان Amiens (مارس سنة ١٨٠٢) . ويقلب على الكتاب الإنجليز أن يقولوا أن أدنجتن Addington رئيس الوزراء الجديد ، الذي لم يكن بالصلب العود ، سلم بأكثر مما تطالبه الموقف . ولكن الكتاب الفرنسيين يرون عكس هذا . فقد احتفظت إنجلترا بتفوقها البحري على الأقل دون أن يمس بسوء ، ومن بين فتوحها المدينة عبر البحار ، أبقى في يدها ترينداد التي كانت قد انتزعتها من الأسبان ، وسيلان التي كانت قد اغتصبها من الهولنديين .

وإذا كان صحيحاً أن الفرنسيين لم يكن في مقدورهم على الإطلاق في ذلك الحين أن يلزموا إنجلترا بالتخلي عن الفتوح التي كانت مستعدة أن تتنازل عنها ، فإنه صحيح أيضاً أن هذه الممتلكات وراء المحيطات كان من السهل إعادة فتحها بقوة بحرية متفوقة ، إذا ما استؤنفت الحرب .

ولكن أسوأ نذير كان يهدد سلام المستقبل ، هو عدم إبرام فرنسا وإنجلترا اتفاقية تجارية فيما بينهما ، فإنه طالما بقي التجار الإنجليز يعاملون في فرنسا كأعداء غرباء ، تعلم الوصول إلى تفاهم حقيق بين الأمتين الفرنسية والإنجليزية .

(١) التلمة تلك لإنجلترا وقتئذ .

الفصل الخامس

القنصلية والإمبراطورية

سجايابايلون المدنية . الكنكوردات . القوانين . جامعة فرنسا . تجدد القتال .
الإمبراطورية . شريك الحديد . مسكر بواين .

١ - سجايابايلون وأعماله المدنية

إعادة هبة
الحكوية

أعاد نابليون للحكومة في فرنسا هيبتها واحترامها . فقد وجد فوضى ، وخالف نظاماً . وورث عصياناً ، وخلق طاعة وخضوعاً . فلعشر سنين أطلق العنان للشهوات والأهواء التي مزقت صرح المجتمع الفرنسي شر ممزق ، بينما اندحرت شر اندحار تلك القوى الأدبية التي ساعدت على تربيته وتدعيمه . فقد سخر القوم في تلك الأعوام العشرة بزوح الاحترام والتبجيل . فالدين وراث الماضي وتقاليد فرنسا الثالثة ، بل حتى مجاملات الحياة وآدابها العادية ، جعلت تبدو في عيون الناس كأنها بقايا مخيفة غير معقولة لماض غشوم مستبد .

وكان نابليون من أشياع قوليجر ، لا يستمسك بدين رسمي أو تقاليد مقرر . ويسير وفق أخلاق اجتماعية أفضل ما يمكن أن يقال فيها إنها وإن كانت أحياناً كريهة مرفقة مؤذية ، فإنها غالباً ما اتسمت بالقسوة الفاحشة وعدم الشعور . يريد أنه ولّد مفلوراً على القيادة والتزعم . وحزر في الحال أن الاتحاد أس المظنة القصوية . ولذا وجدت فيه كل قوة تمين على التساند الاجتماعي نصيراً وحمواً . فأزر الدين لأنه سير النظام الاجتماعي ، والتعليم لأنه يمكنه وضعه في القالب الذي يريده ، وناصر روح الدقة العلمية في الحكومة لأنها تخضع السلطان ، وآداب السلوك التقليدية لأنها تعلم تهكم الباريسيين اللاذع .

غاياته

وكان عمله التوفيق بين فرنسا الجديدة وفرنسا القديمة ، وأن يجمع تحت لوائه القساوسة والمهاجرين واليهود والبروتستانت والملحمدين واليعاقبة لخدمة الدولة ، ويلزمهم ببذل الجهود في رفع شأنها ، وإعلاء كلمتها ، حتى إنه في سعيه وراء الاستقرار انتهى به الأمر إلى مصاهرة أعرق بيت ملكي في أوروبا وأشدّه زهواً وتشاغلاً .

حكومته

وكانت حكومته من طراز جديد لم تعهده فرنسا من قبل : حكومة مستبدة استبداداً علمياً ، قائمة على الانتخابات الشعبية . ففي ثلاث مرات : في أعوام ١٨٠٠ و ١٨٠٢ و ١٨٠٤ اجتهد وأفلح في الحصول على تأييد الأمة له . ففي المرة الأولى جعلته الانتخابات قنصلاً أول لمدة عشر سنين ، وفي المرة الثانية قنصلاً مدى الحياة ، وفي المرة الأخيرة أقرته على مناداته بنفسه إمبراطوراً . ولم يكن في مقدور ملك من ملوك أوروبا أن يثبت أنه أحق منه بهذا اللقب .

وإذ منحت الأمة الفرنسية نابليون هذا القسط الكبير العجيب من الثقة ، تطلعت إليه أن يمنحها نعيم السلام وبركاته . ولكنه في ذلك خيب أملها . ولعله كان عاجزاً عن تحقيق أمنيتها . فلن قبضه على خيزرانة السلطة جر فرنسا إلى حرب أوشكت فيها أولاً أن تضم دول أوروبا الوسطى تحت رايتها ، ولكنها انتهت بانهايار فرنسا انهياراً حريباً بلغ من شدته وتماه ، أنها اضطرت إلى التخلي حتى عن فتوح الثورة الأولى ، والقبوع في داخل الحدود القديمة للملكية .

وإنه لمن سخرية التاريخ وقسوته ، أن أسره اسمها صنو للمجد والصيت الحربي الرفيع أنقصت بالفعل رقعة فرنسا . فلن نابليون الأول أنضاع بلجيكا - ونزل ابن أخيه ، نابليون الثالث ، الذي استحوذ في صفقة سياسية على ساكسونيا - ونزل عن الأكراس والورين ، عند ما طاش سهمه في تحكيمه السيف سنة ١٨٧٠ ، وشامت المقادير أن يعاد إلى فرنسا على يد جمهورية برجوازية ، بمؤازرة دائرة واسعة من الحلفاء - شامت المقادير أن يعاد إليها بعض الأملاك ومعظم النفوذ الذي فقدته في الذكبات التي حلت بها على أيدي آل نابليون .

أعماله الملئية

وإذا كانت فتوح نابليون الحربية لم تلبث قليلاً حتى ضاعت وانخفضت ،

فإن أعماله المدنية في فرنسا أقيمت على أسس من الصخر . ففي كل خلة لازمة للإدارة المدنية : في سعة الخيال ، وحدة التصور ، وقوة الابتكار ، وفي القوة المحركة ، والعناية الدقيقة بكل صغيرة وكبيرة من الأمور ، وفي وضوح الفكر ، والقدرة على العمل ، يبرز نابليون منقطع النظير ، فإنه في سرعة خارقة رُمِّمَ الحراب الشامل الذي صنعتُه الثورة ، وفي جو من الأمل والنشاط شاع في فرنسا أيام القنصلية ، أكملت آيات ، وأنجزت معجزات في كل مصلحة من المصالح الحكومية ، المركزية منها والمحلية ، لتحسين حالة الشعب المادية وزيادة رفاهيته . واختفت أحوال النظام القديم وظروفه المعطلة للتقدم ، الواقعة في وجه الإصلاح . فلم تعد هنالك جمعيات مشتركة ، أو برلمانات ، أو هيئات إقليمية ، أو طبقات ممتازة غير خاضعة للقانون العام . فالمدير في مديريته ، والمأمور في مركزه ، والعملة في ناحيته ، يعمل كل منهم في جو صاف غير معقد ، منفذاً أوامر رئيس الدولة :

ولم تكن الاتفاقية البابوية (يوليو سنة ١٨٠١) بأقل فعال نابليون أهمية في تحقيق سياسة التوفيق بين العالمين الجديد والقديم . أجل كان التغيير مبغضاً كريهاً ، وموضع الاستهزاء والسخرية من جانب رؤساء الجيش ، الذين ظاوا على روح الإلحاد المتطرف السائد في عهد الثورة ، وكذلك بين طبقات المفكرين والسياسيين البارزين . فقد بدت هذه الاتفاقية في عيونهم تنازلاً عن غم كسبته الحضارة ، ورجوعاً إلى ظلام العصور الوسطى ، ودعوة إلى القساوسة بأن يسرجعوا مرة ثانية سلطانهم المفقود على العقل الإنساني . ولكن نابليون نظر إلى ما هو أبعد من تفكير قادة الجيش والسياسيين : نظر إلى جماهير الفلاحين البعيدين الذين تألفت منهم قواته الحربية . فقد حزر تزعم الكهان لثورة لاندن ، وشاهد الفلاح الإيطالي يجر ساجداً أمام الحراب الصغير الرقيق ، وألم أن الدين قوة جبارة بين السذج من العباد . فكان انشقاق فرنسا عن الكنيسة جرحاً دائماً مفتوحاً ، جرحاً إذا هو لم يبادر في إبرائه ، فإنه سيفسد نظم الحكم ، ويعرضها للخطر والهلاك . ولذا وطن النفس على مغامرة التقرب من الكنيسة . وفي عام ١٨٠٢ بعد

مفاوضات مطولة أدارها في دهاء ، مزج فيها القوة بالاحتياال مزجاً بارعاً ، وصل إلى اتفاق مع البابا الجديد بيوس السابع .

الكنيسة
الفرنسية الجديدة

بيد أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الجديدة التي نتجت عن «الكنكوردات» وعن التشريعات الأساسية التي صاحبته ، كانت تختلف غاية الاختلاف عن كنيسة النظام القديم . فإن الضياع الواسعة ، والشعور الطائلة الإبراد ، والمرتبات الضخمة ، والمؤسسات الفخمة ، التي كانت مدى قرون عديدة من مخصصات أبحار الكنيسة الفرنسية ، أصبحت الآن أمراً مضي وانقضى . فإن أسقف المعهد النابوليوني ، هذا الموظف ذو المرتب العادى للدولة غيرة ، لم يكن يباح له أن يطوف خارج أبرشيته ، أو يدعو سينودساً مقدساً ، أو يتخاطب مع روما من غير إذن الحكومة . لقد مُنح للكنيسة حقاً أن تعيش وتعمل ، فأخذ جرس الكنيسة يذق من جديد داعياً الفلاحين إلى الصلاة ، وأخذت حلة الكاهن البيضاء ترفرف في الهواء ، وأخذت زمر المؤمنين تتجمع حول الهيكل ، أو تستريح في يوم الأحد من غير أن تخشى اضطهاداً ، وأعيد ثانية تنصيب الأساقفة وسجهم حسب طرائق النظام القديم . ولكن الكنيسة فقدت استقلالها ، وانحدرت إلى مركز هيئة رقيقة الحال خاضعة لسلطة المدنية ، وذهبت تلك الأيام التي كانت فيها وظيفة القسيس الوحيدة هي أن يكون الراعى الروحى لرعيته ، بمد يد المعونة للمريض ، ويخفف من آلام المحتضر ، ويتفقد النشء ، ويعلمهم أصول الإيمان . وغداً يُستظرمته أن يقرأ بلاغات الجيش من فوق منبره ، وأن يذكى نار الحماس في المتعاس الخاطر النفس ، وأن يبت في العقول الناشئة ، عن طريق التعليم الذى وضع نابليون مناهجه ، واجب الطاعة المطلقة لرأس الدولة .

ومع ذلك فقد يتسامل المرء عما إذا كان ضرورياً وتشد لنابليون أن يتفق مع البابا . فإن كنيسة فرنسية سايمة الإيمان صحيحة العقيدة ، مستقلة عن روما ، كانت بديلاً قد يقبله السواد الأعظم من الكهان الفرنسيين في ذلك العهد الذى انحطت فيه الحياة البنيية ، والذى قُتل فيه عدد كبير من النساوة الثلاثة أثناء الحرب الأهلية . غير أن نابليون برغم توعد الكردينالات المتفاوضين بإنشاء كنيسة

فرنسية منفصلة ، لم يضع وعيده موضع التنفيذ . إذ كان في حاجة إلى البابوية . فإنه مع نزول هذه الهيئة السامية التليدة إلى درك جعل نابليون يشترك في الاعتقاد مع ولیم پت ومع توجوت Thugut ورئيس الوزارة النمساوية ، بأن أيامها أصبحت معدودة ، فإنه لم يكن ليستطيع ألا يعبا بتأييدها . فقد رأى أن هذه الآلة القديمة المتداعية التي ستهاجم يوماً من الأيام من تلقاء ذاتها ، قد تكون مفيدة له ، في مساعدته على تعبئة كاثوليك الأمصار الأوربية إلى جانبه .

القوانين

أما صوغ القانون الفرنسي الذي لعله أبقى أعمال نابليون وأجلها ، فقد كان حليماً قديماً قديم قديم القرن الخامس عشر ، وجزءاً مكملًا لعقيدة الثورة . غير أن فترة تترى فيها القوانين التي يأخذ بعضها برقاب بعض ، ليست بالفترة الملائمة للقيام بهذا العمل الذي يستدعي نظرة واضحة جلية ثابتة تشمل المجال التشريعي كله . فقد أمرت حكومة الثورة من قبله بوضع قانون ، وأعدت مشروعات عديدة لهذا الغرض ، ولكنها لم تكمل شيئاً في حمى السرعة التي انتابتها .

فأخذ نابليون على عاتقه إنجاز العمل الموقوف ، وبشاطله الكبير واهتمامه الشخصي كان له فخر إنجازه في وقت وجيز (سنة ١٨٠٤) . ولم يكن القانون المدنى بالطبع وليد عقل مشرع جهيلى واحد ، فإن المبادئ القانونية الأساسية للنظام القديم ، وهى المماثلة للقانون الرومانى السائد فى الجنوب ، ضُمَّتْ إلى القوانين التي صدرت زمن الثورة ، والتي راقَتْ في أعين نابليون ومستشاريه ، ومزجت بعضها ببعض ، وأخرج منها سفر بلغ درجة من الوضوح والجلال أن الرجل العادى يستطيع أن يقرأه في متعة وفهم ، وبلغ من الإعجاز أنه يمكنه حله دون مضايقة في جيب من جيوب معطفه . وليس يميز هذا القانون المدنى ، هو أنه لم يترك شاردة ، أو أنه منع نماء تشريع القضاة Case Law ، أو أنه معصوم عن الخطأ شكلاً أو مادة ، بل لأنه يضع في عبارة مفهومة وقالب حازم معالم مجتمع مدنى واقعى ، مجتمع قائم على المساواة الاجتماعية والتسامح الدينى ، واحترام الملكية الخاصة ، والحياة العائلية المتأسكة العرى .

ولقد جاء وضعه في الوقت المناسب . فلو أنه وضع قبل ذلك بسنين فلاتل ، تارخ أوربا

لحفل بالغلو والتطرف اللذين سادا أيام الثورة ، ولو أنه وُضع بعدُ بأعوام قليلة لحيم على مؤاده ظلال الاستبداد . أما وقد سُنَّ في أبهى أيام القنصلية وأشدّها تألقاً — في الحين الذي كان فيه عدلُ نابليون مبسوطاً على جميع طبقات المجتمع الفرنسي ، فإنه قدم لا إلى فرنسا وحدها ، بل إلى أوروبا جمعاء ، سفيراً وتشريعاً مناسب الحجم لقطر عظيم الولاء للتقاليد القديمة لنظام الأسرة والملكية الخاصة ، واحتفظ في الوقت عينه بأطيب ثمار ثورة حرية علمانية .

هذا هو المغزى الأكبر لقانون نابليون بالنسبة لأوروبا . فإنه بإدخاله نظام الزواج والطلاق المدني ، نشر في ممالك أوروبا فكرة إمكان قيام مجتمع قادر على الاستغناء عن مساعدة رجال الدين وخطباتهم . فإن الزواج في القانون النابليوني هو عقد مدني يمكن الاتفاق عليه أو فسخه من غير نفقة كبيرة في مكتب رجل علماني . فللمرة الأولى منذ قبول قسطنطين المسيحية نَطَّست في قانون دولة أوروبية منظمة مستقرة الأركان حياة الناس اللنيوية البحتة .

ولكن يجب ألا نستنتج من هذا ، أن نابليون بنحس قوى الدين ونظام الأسرة قيمها كمعصرين ضروريين لسلامة المجتمع . بل العكس تماماً هو الصحيح . فإن آراء نابليون في الحياة العائلية كانت تتزعزع إلى النظام الروماني الصارم . فقد كان يرى إطلاق سلطان الآباء وخضوع الزوجات إلى أبعد حد . وما يؤثر عنه قوله : « ألا تعلم أن الملاك أخبر حواء بأن تطيع زوجها ؟ إن المبادئ الخلقية فرضت ذلك في جميع اللغات ، ويحذر أن تكذب هذه العبارة بتوكيد أقوى بالفرنسية في القانون » . ولكن تيار المبادئ العلمانية للثورة ، كان قد بلغ من الشدة دوجة لا تقاوم . ولذا أنقص نابليون من تسهيلات الطلاق التي أعلنها الثورة . ولكنه ألقى نفسه ملزماً بقبول المبدأ في ذاته .

وإنه للدليل على عظمة نابليون ، أنه لم يقنع بمجرد اقتراح القانون المدني ، وبدء هذا العمل الخطير ، بل ساهم بشطر كبير — وغالباً بشطر حاسم — في المناولات والناقشات التي دارت في اللجنة التشريعية لمجلس النخبة بخصوص مشروع قانونه . ولم يكن يعبأ بجزئيات التفاصيل ، بل كان ينظر نظرة شاملة إلى

أى أمر يمس الوجوه العامة للسياسة السليمة . وكان له رأى واضح فعال فى كل مسألة من المسائل التى وجه إليها التفاته . وعلى العموم كان يريد أن تكون فرنسا قطراً ، مقسمة أراضيها الزراعية إلى قطع متوسطة المساحة ، لا إلى قطع عديدة صغيرة المساحة جداً ، وأن يكون الآباء فيها مطلقى السلطان ، والأبناء مطيعين ، والنساء مستقيمات خاضعات لبعولهن . وفى كل هذه الشئون أفلح فى طبع قانون فرنسا بطابع معتقداته القوية .

وقد أذاع القانون المذنب ، أكثر من أى عمل آخر ، شهرة نظم فرنسا الجديدة ، فى جميع أرجاء أوروبا ، وأعلى كعبها . فقد انطوى على لب فلسفة الثورة وروحها فى قالب عملى يمكن للناس تطبيقه والاستفادة منه . وجمع بين الابتكار المثمر والعرف القديم ، واتحدت فيه الحرية مع النظام . ولم يحدث منذ صوغ قوانين جستينيان ، أن نُقل على نطاق واسع سفر من أسفار القانون ، مثل ما نقل قانون نابليون المذنب .

وكان هناك أربعة قوانين نابليونية أخرى : قانونان منها يتعلقان بإجراءات محاكمة المجرمين وعقوباتهم . وبما أنهما وُضعا أيام الإمبراطورية ، فقد شوهدا طابع الاستبداد . فإن ثبناً طويلاً من العقوبات الوحشية (من بينها المصادرة) تدل على أن واضعى قانون العقوبات كانوا بعيدين عن أن يمثلوا خير أفكار عصرهم فى دائرة التشريع الجنائى . وكذلك لا يحاول قانون تحقيق الجنابات من هذه الوصفة ، وإن كان ذلك بدرجة أقل . فبرغم أنه يعطى المتهم فرصة محاكمته فى جلسة علنية ، وأمام محلفين ، فإن هذه المزايا الخالصة التى هى تراث الثورة ، تقابلها فى الكفة الأخرى أحكام أخرى اقتبست من شرائع النظام القديم ، أو رغائب نابليون الإمبراطورية التى كانت أقل عناية بحماية الضعفاء والأبرياء . ومن بين هذه الأحكام يكفى أن نذكر هنا التحقيق الأولى الذى يجرى سرّاً بواسطة قاضى التحقيق ، وترشيح المحلفين الموكلين إلى مديرى المقاطعات .

نظم التعليم

وفى نفس الوقت الذى كان يوضع فيه هذا العمل التشريعى ، كان يختصر بالتدريج فى عقل نابليون مشروع لنظم التعليم الإمبراطورية : مشروع صارم

في مبادئه . صرامة نظم الجزويت . فإن النظام المدرسى المهيمن المتسامح السائد في إنجلترا وقتئذ الذى يتركز فيه اهتمام فنية الطبقات الميسورة في ألعاب الكريكت وكرة القدم وميادين الرياضة — هؤلاء الفتيه الذين كانوا يجاهدون كى يتعلموا مبادئ الإغريقية واللاتينية بواسطة معلمين لم يكن الملك جورج نفسه يستطيع أن يوصلهم من وظائفهم — كان هذا النظام غريباً كل الغرابة في نظر الإمبراطور . فإنه كان يعد عملاً من أعمال الجنون السياسى ، أن يترك أمر تعليم الشعب لرحمة الجهود والأعمال الفردية ، والمنح والأوقاف العامة . حقاً لم يكن ثمة مناص في نظره من وجود مدارس خاصة يديرها الأفراد ، لأنه لم يكن هنالك من أموال الدولة سوى القليل للإتفاق على التعليم . ولكنه كان يرى أن هذه المدارس الخاصة ينبغي أن تخضع لإشراف الحكومة ، أما اللهو والمرح فينبغى ألا يكونا جزءاً من التعليم . فالحياة أمر جدى خطير ، وعلى الشبان أن يتعلموا واجباتهم لزاء الدولة . وفي إمبراطورية حربية كإمبراطوريته يجب أن يتعلموا الخدمة العامة ، وأن ينحطوا في سلك الجيش ، وأن يسيروا إلى حومة الوغى ، وأن يموتوا فداء الوطن .

الجامعة

وتحقيق هذه الغايات ، أنشئت عام ١٨٠٨ جامعة تديرها الدولة ، وتساير مطالب الإمبراطورية . ونيط بها القيام بواجب تنظيم جميع فروع الثقافة العامة والمهينة عليها . وبُذرت هذه البذرة الغريبة في تربة مهياة للنظم المركزية . وقد عمرت ، بإدخال بضعة تعديلات ، جامعة فرنسا هذه التى أسسها نابليون ، والمقسمة إلى كليات فرعية ، إلى يومنا هذا .

وكان حظ الديمقراطية في كل هذا نافهاً يسيراً . فلم يصنع شيء للمدارس الابتدائية ، بل تركت في يد الأفراد والمهيات الخاصة . وحتى في دائرة التعليم الثانوى فشلت الكليات والمدارس الثانوية الحكومية في أن تقوم بنصف ما كان يراد منها . فإذا كان حكم نابليون مدهشاً في تاريخ التعليم الفرنسى ، فليس ذلك لأن الدولة كانت سخية مبسطة الكف في نشره ، بل لأنها كانت تتاهض الحرية العقلية .

فمن هذه الضفة على القنال الإنجليزي نرى تلميذ كلية إيتون مستمتعاً بالحياة على البال، يُجلّد كثيراً، ويُعلّم قليلاً. أما على الضفة الأخرى، فنرى في ليسيه، جمعت بين كآبة الدير، وصرامة الثكنة العسكرية، صبيّاً صغيراً لا يجد المرح إلى صدره سبيلاً، يُتمرّن في ملابس عسكرية مشدودة، ويُحشّى ذهنه بالمعلومات خشواً، ويوضع موضع المراقبة والتجسس، وفي عملية تنشئته وفقاً لأهداف الإمبراطور الإمبرطية، حُرِمَ حرماناً كاملاً من مسرات الشباب البريئة ومباهجه.

٢ - عصر الإمبراطورية

مما عاب خلة التبصر التي اتسم بها خلق نابليون، أنه رسم سياسته على نحو أثار، إلى أقصى حد، مخاوف منافسيه، مع أنه كان يكسب كل شيء، بأن يكفل استتباب السلم أمداً طويلاً. فقد لاحظت لندن أنه في الحين الذي كان يحرم فيه قطعياً دخول المراكب والبضائع الإنجليزية في الثغور الفرنسية، كانت قوة فرنسا تزداد.

ولم تكن عين الوزارة الإنجليزية بغافلة عن هذه التغيرات. فلما رأت حامية فرنسية تستقر في هولندا، بدأت تعيد التذكير في تعهدها السابق الخاص بإعادة مستعمرة الرأس إلى هولندا. وحينما تحققت أن بيدمونت، Piedmont، والفالايه Valais^(١) ضُمَّتا إلى فرنسا، وأن جمهوريتي سويسرة والألب الشمالية أعطيتا دستورين جملاهما بوضوح أكثر من ذي قبل تحت نفوذ فرنسا - لما رأت إنجلترا ذلك أثارت مسألة التويضات. وحينما تزامى إليها، أن حملة حربية عظيمة أقوى مما يتطلبه الهدف المزعوم لإيفادها، قد أبحرت لاسترجاع

(١) هي إحدى مقاطعات سويسرة، وتقع في وادي نهر الرون الأعلى. وقد نسبت سنة ١٧٩٨ إلى الجمهورية المفتية. ولكن نظراً لقابليتها الشديدة للحكم الفرنسي، أُعلن نابليون سنة ١٨٠٢ استقلالها تحت اسم *Rhodane Republic* وقد ضمت إلى سويسرة سنة ١٨١٥.

جمهورية سان دومينجو الزنجية ، ارتابت - وارتابت عن حق - في أن نابليون يرى إلى أهداف خفية ضخمة في نصف الكرة الغربى .

ولكن ما كان أدعى إلى تخوفها حتى من هذه الأعراض المقلقة ، هو ما قام لديها من الأدلة ، على أن استعادة مصر ، وامتداد الممتلكات الفرنسية ، ما برحا يحتلان مكاناً بين مشروعات القنصل الأول . فقد نُشِر تقرير بقلم الكولونل سبستيانى Sebastiani في جريدة Le Moniteur في ٣٠ مايو سنة ١٨٠٣ ، يصف فيه حب الشرق ومودته للفرنسيين ، وسهولة إعادة فتح مصر ، مما أيد أسوأ شكوك الحكومة البريطانية في نيات نابليون .

وقد رأت إنجلترا أنه إذا كان لا مفر من تجديد القتال في الشرق ، فلإن مألظة بمرقها العظيم الأهمية ، واستحكاماتها الشهيرة ، ستصبح نقطة هامة في خطة الدفاع الإنجليزية . ولهذا السبب ، وعلى الرغم من أحكام معاهدة أميان ، رفضت إنجلترا الجلاء عن تلك الجزيرة . وكان قرارها هذا ، الذى حضها عليه عاهلا روسيا وتركيا ، اللذان تخوفا كلاهما من مشروعات نابليون في الشرق ، كان خطأ من الوجهة الشككية . ولكن أصبح إلقاء لوم عليها ، وقد أقحمت عليها الحرب لإقحاماً (مايو سنة ١٨٠٣) ؟ فإن التعليقات السرية التى أصدرها نابليون إلى الجنرال ديكاين Decaen تظهر أن المشروع الخاص بالتوسع الفرنسى في الهند قد انتهى من وضعه بحذافيره .

وقبل أن تُضرب ضربة جديدة في الحرب ، حدث انقلاب دستورى عجيب في فرنسا . فإنه مما لا ريب فيه ، أن الشعب الفرنسى كان يريد حكم نابليون ، الذى جلب إليه منافع كبيرة ، وكان يرى ضرورة حمايته من أخطار الكاثوليكين له من اليعاقبيين والملكيين : تلك الأخطار التى ما برحت جسيمة ماثلة ، ولتى اتخذت منذ تهدة إقليم فاندنى صورة مؤامرات لاغتيال القنصل الأول ، إما بإلقاء القنابل عليه ، أو باغتياله في هجمة مباغطة مسلحة ، كتلك التى دبرها الملكيون سنة ١٨٠٠ ، وأخفقت في إصابة هدفها .

وقد حُبِكت إبان خريف وشتاء عام ١٨٠٣ ، وريبع العام التالى ، أطراف

المؤامرات على
نابليون

مؤامرة أخرى أوسع نطاقاً وأقل إحكاماً ، إذ لم تشمل فقط على مهوورين من الملكيين كجورج كدودال Georges Cadoudal ، بل اشتملت أيضاً على قواد ذاتي الصيت من قواد الجمهورية ، نظائر مورو وبشجرو ، وبتواطو مدبر مزر مع بعض صغار الوزراء الإنجليز . غير أن شرطة نابليون وعيونه كانوا يقظين ساهرين ، فقد نعى إلى سمعه أن بعضاً من مشاهير قواد الجمهورية قد وقعوا بطريقة ماكرة في حبال دسيسة ملكية دبرها الكونت دارتوا من ملجئه بإنجلترا ، وأن مورو تحدث إلى بشجرو ، وأن من بين خيوط الدسيسة تحريك الفتنة في مقاطعتي نورمانديا وبريتانيا ، وأن المؤامرة كلها حُدِّد ميعاد انفجارها عند وصول أمير من أمراء بيت بوربون . فترى من كان ذلك الأمير ؟

ولقد تصادف أن الدوق دانجيان Duc d'Enghien آخر سلالة آل كنديه Condé كان يقيم في مارس سنة ١٨٠٤ في إيتسهايم Ethenheim ببادن ، وهي على مقربة من الحدود الفرنسية ، فعقد نابليون النية على لإزهاق روحه ، برغم أنه قُبِض على مورو وبشجرو وكدودال من قبل ، فزال بذلك كل خطر عاجل . فاختطف هذا الشاب البريء — إذ لم يكن دانجيان مشتركاً في المؤامرة ، كما عرف نابليون قبل تنفيذ الحكم فيه — وبعث به إلى فنسان حيث أعدم سرّاً ، وميماً بالرصاص في ٢١ مارس سنة ١٨٠٤ ، بعد محاكمة عاجلة .

نفذ نابليون هذه الجريمة بعزم صادق ، وتصميم لا يابن ، مما هز ضمير العالم المثمن . غير أن هذا العمل أنتج نتيجة المنشودة . فلم يحدث البتة بعد ذلك أن انغمس أمراء أسرة بوربون في مؤامرة للقضاء على نابليون ، أو أن الجمهوريين اشتبهوا أن له ميولا ملكية خفية . غير أن دم الأمير الشاب البريء قام شاهداً على أن القنصل الأول قد ضم نفسه إلى صفوف جلادى الثورة .

وقد شعر حينذاك ، حتى أغلظ اليعاقبة كبداً ، بأن إقامة عرش موروث تؤمن عليه أسرة ملكية أظهرت بشكل قاطع أنها عدوة النظام الذى أقامته الثورة ، لن يهدد الكسب العظيم الذى نالته الثورة بتقريرها المساواة في الحقوق : ذلك الكسب الذى كلف الظفر به إهراق الدماء الغزيرة . فى الثالث والعشرين من

أبريل سنة ١٨٠٤ اقترح كيريه Gurée وهو سفاح معتدل من سفاحى الثورة ، على الترييون اقتباس المبدأ الوراثى لانتقال التاج ، واتخذ هذا المقترح قالباً يرضى مطامع نابليون ، وتقبله تقاليد شعب ما زال إلى درجة كبيرة ثورياً ، ولا يتخوف من شيء أشد من عودة الملكية .

وفى مايو سنة ١٨٠٤ منح « مجلس شيوخ استشارى » ، Senatus Consultum نابليون لقب « إمبراطور الفرنسيين » . وقد فاز هذا التغيير بكل ضرب من ضروب التأييد والموافقة اقتضته المستلزمات الدستورية فى ذلك الحين : من موافقة مجلس الشيوخ ، وموافقة الأمة ، ومسح البابا نابليون إمبراطوراً . وليس لأحد أن يرتاب فى أن هذا التغيير كان مقبولا لدى الأمة . فإن مؤامرات الاغتيال التى دبرت لقتله كانت علامة يستطيع كل امرئ قراءتها ، بأن حياة رجل واحد وقفت بمفردها حائلا بين فرنسا والثورة .

شرلمان الجديد

وفتن بالضرورة صيتُ شرلمان خيال إمبراطور الفرنسيين الجديد ، وتملكته الرغبة فى حذو حذوه ، وتطلعت نفسه إلى أن يكون شرلمان جديداً ، يجمع الشعوب اللاتينية والنيوتونية تحت تاجه الإمبراطورى ، ويُقطع أعضاء أسرته الممالك والإمارات ، ويعامل البابا كقس خاص له ، ويجمع فى بلاط ذى سناء ورواء طبقة جديدة من الأشراف تضيف إلى عرشه ضمناً آخر ، إذ تدين لأيديه عليها بكل ما ملكت يداها . وقد قال فى سائت هيلانة : « لقد أحسست بعزلى ، فألقيت بمراسى النجاة فى كل جهة » .

ومع ذلك فقد كانت كل مرسة من هذه المراسى تحدياً للنمسا : من مناداة ذلك القرشى بنفسه إمبراطوراً ، إلى وضعه تاج لبارديا الحديدى على مفرقه بميلان فى مارس سنة ١٨٠٥ ، إلى زيارته ذات المقرزى إلى آخن Aachen قصبة شرلمان ، كى يحتبر ولاء إمارات الرين وامثالها . وبزغت الحقيقة سافرة بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة مقضى عليها القضاء المبرم . ولقد أزعجت مكنته شرلمان الحديد القوية ذلك النسيج السياسى الواهى العديم الفائدة من سقف الصرح الألماني عام ١٨٠٦ ، أى بعد عامين من قيام إمبراطورية نمساوية

وراثية جديدة ، وهي الإمبراطورية التي قُدِّر لها أن تزول سنة ١٩١٨ .

ولقد عُمِّدَت هذه الإمبراطورية في بدء قيامها بمعمودية هزيمة ساحقة . تجدد القتال فقد نشبت حرب التحالف الدولي الثالث (أغسطس سنة ١٨٠٤) بين إنجلترا والنمسا وروسيا والسويد ونابلي من جانب ، وفرنسا وأسبانيا تابعتهما من الجانب الآخر . وما يؤثّر لبت ، المعمارى الأكبر لهذا التحالف ، أنه كان يفكر في دعوة مؤتمر ، بعد وضع الحرب أوزارها وكسب النصر ، لصوغ نظام تعاهدى لدول أوربا يصون السلم في ربوعها . وكان لناپايون أيضاً مشروع لإعادة تنظيم أوربا كمجموعة متضامنة من الأمم المستتيرة ، ولكنها مجموعة خاضعة لكلمة فرنسا . وما برح يوجد إلى الآن بعض أصدقاء الوحدة الأوربية يندبون حيوط حبله .

وكانت خطة نابليون الحربية تقضى باستهلال الحرب بغزو إنجلترا وفتحها . ومأمل أن يجد في هذه الجزيرة البالغة الغموض ، التي تقع على قاب قوسين منه ، شعباً يتشوق إلى أن يخلع عن عنقه نير جورج الثالث الطاغية ، حينما يرى جيش تحرير فرنسياً في وسطه ، كما فعل قبل ذلك بأقل من ثلاثين عاماً أهل مستعمرات ذلك الملك الأمريكية بمغونة فرنسا أيضاً . فقد ذكر نابليون في سنت هيلانة بأن دهباء لندرة كانوا سيلاقونه بالترحيب ، وأنه كان يأمل أن يقيم بين مظاهر التمايل والإنهاج العائين بجمهورية في إنجلترا وأخرى في أيرلندا . فأظهر بهذا القول أنه لم يكن يدرى شيئاً عن التماسك الاجتماعي للشعب الإنجليزي وثواب صفوفه ، ولا عن قوة إنجلترا الصناعية الحديثة النشأة . فإنه لو أتيح له يومئذ أن يشاهد استمدادات الحكومة البريطانية الناشطة ، أو استجابة الشعب الحماسية ، لعرف أن إنجلترا لن تصير أبداً جزيرة فرنسية كجزيرة أوليون Oléron أو جزيرة قرشقة ، وأن مخاطر عبور القنال الإنجليزي ، على شدتها وخطورتها ، لتضاهل أمام المهالك التي تنتظر غازياً في سهول إنجلترا الواطئة ، أو حقول كُنْتُب المزدهرة السندسية .

ولكن تلك الشقة الضيقة من الماء لم تُعبّر . وانتظر جيش فرنسى مؤلف

من مائتي ألف وعشرة آلاف مقاتل مجتمعين في معسكرات هائلة ممتدة على طول سواحل بحر الشمال والقتال ، انتظروا زهاء عامين كاملين أمر الإقلاع . بيد أن هذا الأمر لم يجر . فلقد كان نلسن يراقب أسطول طولوين ، وكورنواليس Cornwallis يحاصر برست ، وكانت كل شزيمة فرنسية أو أسبانية موضوعة تحت رقابة دقيقة من عدو شديد الوثوق بقوته ، لتفوقه في حسن التدريب ، وكثرة العدد ، بقدر انحطاط روح خصمه المعنوية .

وترتب على ذلك أن الشرط الذي بدونه كان مقضيّاً على الحملة بالفشل الذريع لم يتحقق على الإطلاق . فإن نابليون عجز عن أن يحشد في القتال ، ولولادة اثنتي عشرة ساعة فقط ، أسطولاً يبلغ من القوة ، بحيث يكفي لحماية نقل وإزالة حتى شطر صغير من كتائبه . غير أن الإمبراطور لم يقنط من نجاح مغامرته ، إلا حينما وصل إلى أذنه النبأ بأن فيلينيف Villeneuve الذي كان تحت إمرته الأسطول الفرنسي الأسباني قد نكص راجعاً إلى مرفأ قادز .

وإن العمود المقام في بولون لتخليد ذلك المطمع الكبير ، ليعيد إلى الأذهان سهر البحارة الإنجليز وبطلوتهم ، وهم يعيشون في شظف من العيش : على بسكويت دب إليه التعفن ، وعلى لحم الخنازير المملح . وفي جميع الأجواء : الحادثة الجحيمية ، أو الصاخبة الهائجة ، كانوا يعبرون عباب البحار في قلاعهم السندبانية المتأرجحة ، لا يغمض لهم جفن ، كي يحافظوا على استقلال إنجلترا ويصونوا معه حرية أوروبا .

وفي يوم أغبر من أيام أكتوبر (٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥) ، يعد أن زال كل خطر من الغزو ، وبينما كان نابليون بعيداً جداً في قلب بافالويا ، أحرز نلسن ذلك النصر المييد القاصم على فيلينيف : ذلك النصر الذي ألقم سيادة بريطانيا على متن البحار فوق كل تحدّ حتى نهاية الحروب النابليونية . فبسع وعشرين سفينة من سفن القتال مقسمة إلى صفين ، هاجم نلسن أسطول فرنسا وأسبانيا اللذين تمكن من إغوائهما بالخروج من مرفأ قادز ، وحطّهما تحطياً .

مركة الطرف
الأغر

ومع ذلك فإن انتصار الطرف الآخر ، برغم وضعه المستعمرات الفرنسية والأسبانية تحت رحمة الأسطول البريطاني ، لم يدخل في قلب الأمة الإنجليزية السرور والفرح ، فإن نلسن بطلها كان قد سقط صريعاً في المعركة . وكان جيش نمساوي قوى بقيادة ماك Mack ، وهو قائد مجرب كان يُرتَقَّب منه أمور جلائل — كان هذا الجيش قد سلّم قبل انتصار الطرف الآخر بيوم واحد (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٥) في أولم Ulm إلى الجيش الفرنسي الذي طوقه .

معركة أولم

الفصل السادس

الحصار القارى

السيطرة الفرنسية فى أوروبا الوسطى . سياسة نابليون . ثلث . الحصار القارى .
المعضلة الإيطالية . النزاع مع البابا . التدخل الأسباني ، أهمية الحرب الأسبانية .
بايون . ملكية أسبانيا . نبت روح الحرية فى أسبانيا . دستور عام ١٨١٢ .

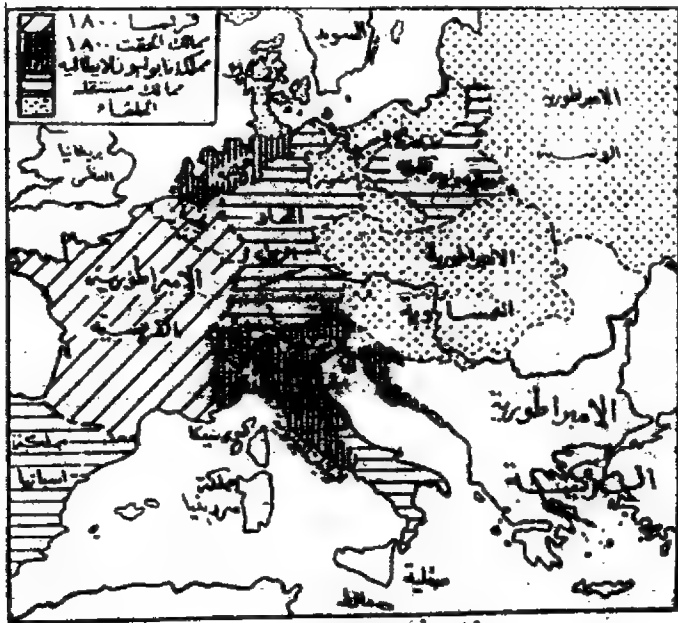
١ - سيطرة فرنسا على وسط أوروبا

باءت خطط نابليون البحرية بالفشل . ولكن هذا الفشل أعقبته تلك
السلسلة المدهشة من الانتصارات فى ألم Ulm ، وفى أسترتز Austerlitz ،
وفى بينا Jena وفى فريدلند Friedland ، (١٨٠٥ - ١٨٠٧) - هذه
الانتصارات التى أجبرت أولا النمسا ، ثم بروسيا ، على إبرام صلح شاتن .
وبترتيب وُضع فى ثلث Tilsit بين نابليون وإسكندر قيصر روسيا ،
نوطدت قبضة الإمبراطورية الفرنسية على أوروبا الوسطى .

انتصارات
نابليون

والمعجزات والعجائب لا تحصل فى التاريخ ، ولكن أثر حروب أعوام
١٨٠٥ و ١٨٠٦ و ١٨٠٧ على مسرح السياسة فى أوروبا حمل فى ثناياه عنصري
المباغنة والكمال اللذين تتصف بهما المعجزات والآيات . فكما حدث فى كل
فرصة ، انتفع نابليون بأغلاط أعدائه الحربية ، التى كان أخطرها قرار النمساويين
والروس بإلزام نابليون بمنازلتهم فى أسترتز ، قبل أن يلقى البروسيون بقواتهم
فى الحرب ، ويكونوا فى موقف يهددون منه مواصلاته .

وبجانب هذا الخطأ فى الحكم الحربى ، ظهر فى هذا التحالف ، كما
ظهر فى التحالفين السابقين ، ضعف محيت ناجم عن تراث طويل من



فتوحات نابليون

وفي أثناء هذه الأعوام الحافلة بالانتصارات الرائعة ، كانت سياسة نابليون موضع نقد شديد ولوم خطير ، برغم إظهارها حنقاً وطول باع لا حد لهما . فقد كانت فرنسا في حاجة إلى صديق . فأشار تاليران ، وهو سياسى ضليع ، وخبير مدقق بالمعايير الدبلوماسية . بأن تكون النمسا هى ذلك الصديق . فبعد أولم ، ثم بعد أسرتلتر ، حث وزير الخارجية الأريب من غير جدوى ، سيده الطموح على اتباع سياسة مصالحة ، يمكن وفقها مساعدة النمسا على توسيع رقعتها في البلقان ، كتعويض لها عن الخسائر التى سوف يُطلب منها في إيطاليا وفي الغرب ، ولكن نابليون صم أذنيه عن سماع هذه المشورة . فإنه حتى معاهدة برسبرج (Presberg) (٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٥) التى قطعت أوصال النمسا ، إذ سلبتها ثلاثة ملايين من الأنفس ، وسلمت رعاياها المخلصين في التيرول إلى بافاريا - نقول إنه حتى هذه المعاهدة تراءت له شديدة الترفق عظيمة الرحمة . فلم يكن في جمته عقاب ينزله بعلو مقهور ، غير إذلاله إذلالاً لا يترك وراءه سوى الحقد المضطرم الدفين ، والرغبة الخفية الصادقة في الأخذ بالثأر .

ولكن الإهانات التى صُبَّت على رأس بروسيا كانت أدهى وأمر . فإنه ليس أمراً تسر له أمة تحترم نفسها ، أن تجبرها دولة أجنبية على أن تنهب جاراً صديقاً ليس بينها وبينه شجار . ولكن البروسيين أرغموا على أن يضفحوا بشرفهم هذه التضحية القريفة في بابها . فقد طلب إليهم نابليون أن يستولوا على هانوفر ، ويعلنوا الحرب على إنجلترا (طبق معاهدة شونبرون Schönbrunn المبرمة في ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٥) . فرأى الأشراف ذوو النفوس الأبية من البروسيين هذا الأمر عاراً عليهم وشتاراً . ولكن حينما علم في برلين بعد ذلك بقليل ، بأن نابليون عرض سراً على إنجلترا (أغسطس سنة ١٨٠٦) إعادة هانوفر إليهم ، غضبت حكومة فردريك وليام الثالث واثرت لهذه الإهانة الغادرة ، وامتشتت الحسام . ولكنها هزمت في ملحمته يينا وأورشناد

تلت

وفي تلت (٨ يوليو سنة ١٨٠٧) فرض الظافر على بروسيا أفدح المقويات — ما خلا عقوبة الإيابة التامة ، التي كان في مقدوره أيضاً فرضها — دون أن تثنيه توسلات الملكة ماري لويز Marie Louise البليغة وتضرعاتها الفصيحة . فلتحم دوقية تدعى دوقية وارسو ، خاضعة لحكم ملك سكسونيا في الجنوب ، وأنشأ مملكة وستفاليا في الغرب ، ونصب عليها أخاه جبروم بوناپرت Jerome Bonaparte وضم إليها عدة ولايات سلخها من بروسيا ، كي يبقى هذا العدو المغلوب يرسف في أغلال ضعفه ، وأكل إخضاع تلك الأمة الباسلة بحياة تعريضات حربية باهظة منها ، واستقرار جيش احتلال ثقل الوطأة ولنفة في أرضها ، وتحديد قواتها المسلحة تحديداً دقيقاً . ومن عجب أن نابليون أظهر بعد ذلك نلماً على شفقتة ، مستمسكاً بوم الغزاة الفاسد ، بأن في الإسكان القضاء على أمة مقهورة قضاء مستديماً .

انضمام روسيا
إلى الحصار
القاري

وفي نفس الوقت بلغ لنابليون كأن إسكندر الأول الصديق الجديد ، اللطيف المعشر ، الشديد الحماس ، الذي عقد معه أوامر الصداقة في تلت ، يستطيع أن يقدم له مزايا أثبت وأدوم مما قد يمكنه الحصول عليها من وراء تحالف نمساوي أو بروسي . فقد اعترف القيصر على رموس الأشهاد بفتوح نابليون ، وربط نفسه في مواد سرية بمعاملة تلت بأنه في حالة رفض إنجلترا قبول توسط روسيا بينها وبين نابليون ، فإنه يترجم إلى الحصار القاري ، ويكره الداعموك والسويد والبرتغال والنمسا على إعلان الحرب على التجارة الإنجليزية . وقد أمل نابليون بمساعدة قوية كهذه أن يثبت على أساس مكين دولته في الغرب .

وقد بلغ في يونيو سنة ١٨٠٧ ذروة مجده وغاية سؤده . وأنفذ بمجزئة ، بواسطة نصر فريدلند المين ، من ألف تهلكة وتهلكة . فقد صارت النمسا وبروسيا تحت موطن قديمه ، وروسيا حليفته ، وضم الاتحاد جثماناً . فهل يستطيع يا تري أهل جزيرة إنجلترا ، وقد تسلّم مقاليد أمورهم رجل كاللوق دوقلند Duke of Portland أن يحسروا على رفض مصلحته ؟

ولكن أهل الجزيرة أبوا عليه ذلك وشكروا . فإن جورج كانينج George Canning وزير الخارجية الشاب فى وزارة بورتلند ، إذ درى بالمواد السرية بصلح تلمست ، أشار بالاستلاء على الأسطول الدنماركى الراسى بكونهاجن (سبتمبر سنة ١٨٠٧) ، قبل أن يقع فى قبضة أعدائه . وبهذا التهميم المثير للضعف على أمة ضعيفة بريئة ، أتم كانينج عمل نلسن فى معركة الطرف الأغر ، وحصل لوطنه على سيادة البحار دون منازع .

ولكن الحصار القارى الذى غدا سلاح نابليون الوحيد المشهور فى وجه إنجلترا كان ينطوى ، إذا أريد تنفيذه تنفيذاً محكماً ، على التسيطر السياسى على إيطاليا ، وعلى أسبانيا . وكانت معضلة إيطاليا أخف على العموم من المعضلة التى نشأت عن روح الوطنية العنيفة التى أظهرتها أسبانيا . فإن نابليون إذ كان إيطالياً بدمه ولسانه ، كان يملك أقوى التوصيات إلى شعب ما انفك أبناؤه — برغم أقسامهم السياسية الشديدة العداوة — يحتفظون فى نفوسهم بخلجة من العزة القومية . أضف إلى ذلك أن إيطاليا ، بعكس أسبانيا ، ألفت منذ زمن طويل أن تغزى من الشمال .

فإذا كان الحكم الفرنسى أجنبيّاً عنها ، فإنه لم يكن بأجنبي أكثر من السيطرة النمساوية ، أو الحكم الأسباني اللذين سبقاه . بل كان بالأحرى أشد منهما ترفقاً . وكان لأفكار الثورة الفرنسية أنصار وأشباع عديدين فى مدن لمبادريا الآهلة ، حتى قبل أن تندفع على السهول الإيطالية جيوش نابليون المهلهلة . ومن ثم كانت إيطاليا غير مهيأة من الوجهة المعنوية لمقاومة نابليون . فلم تكن بها ملكية وطنية ، ولم تكن تملك جيشاً وطنياً ، أو تستملك بتقاليد وطنية . ولهذا السبب فإنه عند ما تقوضت دعائم المقاومة النمساوية فى الشمال ، الأمر الذى حدث بعد هزيمتى مارنجو وأسترلتز ، كان طرد ملك نابولى البوربونى الضعيف ، وإقامة الحكم الفرنسى فى فلورنسا وروما ، عمليتين هينئتين يسيرتين . ومع أن حظر دخول السلع البريطانية تغوّر إيطاليا ، كان سياسة مواجهتها حقاً عقبات كثيرة ، كالمجمعات التى يمكن شها مثلاً

من صقلية بمساعدة بريطانيا ، إلا أن هذا الخطر مع ذلك كان سياسة في الإمكان تنفيذها بواسطة الموارد التي كانت تحت إمرة نابليون .

التزاع مع
البابا

أما الصعوبة الكبرى فكانت أدبية . فإن تنفيذ الحصار الإيطالي تنفيذاً مشدداً كان ينطوي على إثارة نابليون التزاع مع البابا . ولذا كان خطلاً خارقاً للعادة حسن تقدير رجل عبقرى مثله للأمور ، رجل يدرك إدراكاً كاملاً أهمية احترام عواطف الكاثوليك في إمبراطوريته المترامية الأطراف ، فإنه بدلاً من احتمال حيدة الفاتيكان ، نفى البابا في مايو سنة ١٨٠٩ من ولاياته ، وألقاه في السجن ، وضم أملاكه ، وربطها بالنظام الإداري للإمبراطورية الفرنسية . ومع أن الإيطاليين هم على الأرجح أقل شعوب البحر الأبيض المتوسط تديناً ، إلا أن البابوية كانت في نظرهم تمثل مجداً من أعجاد وطنهم التاريخية . ولذا استنكروا هوانها ، واستثارهم تحقيرها . والحق أنه من بين أغلاط نابليون الخطيرة ، لم يكن ثمة غلطة قدّر لها أن تهز من الأعماق أسس سلطانه ، لا في إيطاليا وحدها ، بل في جميع أنحاء العالم الكاثوليكي ، أشد من هذه الإهانة التي وجهها بلا مسوغ وبلا ضرورة ، للكرسي البابوي ، وللتقاليد الرومانية .

٢ - الحرب الأسبانية

تو تقدير
نابليون

وفي الوقت الذي كان فيه هذا الشجار مع البابا ناشئاً ، شن نابليون الهجوم على أسبانيا ، أشد أمصار أوروبا تمسكاً بأهلياب الدين ، وأقلها تأثراً بالبدع الانقلابية . وبرغم قبض حكومة ضعيفة خاملة واهية العرى على مقاليد الأمر فيها ، فلما كانت تفيض حماساً ووطنية وفخاراً . وقد شن نابليون الحرب عليها ، مع أنه كان لا بد يعلم المميزات العامة للجغرافية شبه جزيرة لإيبيريا وخصائصها ، وكيف أن ترتيب الجبال والأنهر يأكله يقبض حائل في وجه كل

غاز يأتيها من الشمال ، وكيف أنه في تلك الهضبة المرتفعة التي يتألف منها وسط أسبانيا ، والتي تلفحها الشمس بحمارة استوائية آتونة ، وتجمد أرضها بهبوب رياح قطبية آتونة أخرى . لا يستطيع جيش كبير أن يأمل في أن يمتون نفسه من غير الاستعانة بهيئة حكومية تضطلع بسد جميع حوائجه .

ولكن ما كان أخطر وأمر ، حتى من الشمس المحرقة ، والصقيع القارى ، والأنهر والجبال والبطاح الجرداء ، هو الخطر الكامن في نفسية الشعب الأسباني . فقد كان الأسبان في عزلة عن حياة أوروبا العامة . وكانت لهم مثل عاليا مختلفة ، وأفكار مختلفة وعادات مختلفة عن مثيلاتها في أوروبا . فإن لونا من ألوان الإهمال والتفريط ، نصفه اعتداد وكبرياء ، ونصفه الآخر تكاسل وتراخ ، قد عاق تقدم ضروب الرفاهية المادية التي عاوت في أقطار أخرى على شحذ القرائع والمهم . فإن الثلث فقط من أرض أسبانيا كان يُفلاح . وبرغم سيطرتها على إمبراطورية شاسعة عبر المحيطات ، فإنها لم تكن تملك أسطولا تجارياً ، بل إن تجارتها المنقولة في البحر الأبيض كانت في يد الأجانب . وكان الجهل فاشياً ، والفقر ليس بمعيب .

ولم تصادف فلسفة التحرير التي سادت القرن الثامن عشر هوى في أفئدة الفلاحين والرهبان والقساوسة والمتشردين والمهرين وقطاع الطرق الذين تألف منهم السواد الأعظم من الشعب الأسباني . فإن ملكاً مستنيراً كشارل الثالث (١٧٥٩ - ١٧٨٨) وهو خير ملوك البوربون الأسبان - هذا العاهل الذي نفي الجزويت وألغى مصارعات الثيران ، واجتهد في أن ينشئ الصناعات الأهلية الخمامة ، بدلا من أن يكون موضع التبجيل في عيون رعاياه من أجل إصلاحاته النافعة ، كان لهذا السبب بعينه محط بالغ بغضائهم وشديد موجلتهم . وعلى أثر وفاته في سنة ١٧٨٨ ، استعاد أعداء الإصلاح وأنصار الرجعية الذين لم يمكن مطلقاً زعزعة دولتهم في الأقاليم الريفية - استعادوا سلطانهم في دوائر البلاط والحكومة .

روح الأسبان
الحفاظة

ولهذا يمكن بسهولة للمرء أن يتصور كم كانت كربة مبغضة لأسبانيا

مبادئ تلك الفلسفة الأجنبية المعادية للبابوية ، المنفصلة بحراب فرنسا . فلم يكن الأسبان يقيمون أقل وزن لحقوق الإنسان ، ولكنهم كانوا يعنون أكبر العناية بالدين الكاثوليكي ، وعادات البلاد وعرفها . ولم تكن تعنى موازين أوروبا ومقاييسها إلا قليلا عند هذه الأمة الجادة المزهوة التي تغلب عليها روح الفردية ، والتي كانت الكنيسة أقرب إلى نفوس أبنائها من المدينة ، والمدينة من المديرية ، والمديرية من المملكة ، والمملكة من سائر أرجاء العالم . وقد بلغ من قلة اكتراثهم بجيوروت نابليون أن مقاطعة كمقاطعة أستوريا ، لا تملك إلا قوة مساحة مؤلفة من ثمانية عشر ألف محارب ، لم تتردد في رفع علم الثورة في وجه الإمبراطورية الفرنسية . ولم يُعير أندلسيا والشرق ، وغاليفيو الغرب ، وقشتايلو السواحل الشرقية ، أى اهتمام للحقيقة الواقعة ، وهى أن مدريد التي كانت مركزاً لنظام الطرق في أسبانيا احتلت سنين عديدة بواسطة الجند الفرنسيين .

وطنتهم

ولم يكن الإسبان يقاثلون ، بعد أن يحسبوا حساباً دقيقاً لفرص النجاح ، ويوازنوها بفرص الفشل . فلأنهم مع هزائمهم العديدة أمام الجيوش الفرنسية ، لم تخفهم سطوة فرنسا وبأسها . ومع أن جيوشهم كانت مجهزة تجهيزاً سيئاً بالبنادق وقرق الفرسان ، ومع أن نظامهم كان مهلهلاً ، وروحهم المعنوية غير موثوق بها ، فقد كانوا أساتذة بارعين في حرب العصابات : تلك الحرب التي تلائم طبيعة بلادهم أكبر ملاءمة ، والتي ضابقت عدوهم أشد مضابقة . فقد وجد الفرنسيون أنفسهم على الدوام على كعب من خصمهم المتوحش المراوغ العنيد . كما أن خط مواصلاتهم الطويل الممتد من جبال البرانس إلى مدريد ، لم يكن آمناً في أية لحظة من اللحظات ، من القناصين الأسبان ، والسفاحين الأسبان ، ومكانم الأسبان .

أمية الحرب
الأسبانية

ولقد تعاظمت على نابليون أضرار التمرد الأسباني ، الذي كان الحلقة الأولى من سلسلة ثورات قومية ضد الإمبراطورية الفرنسية . ذلك لأنه أتاح لبحيش إنجلترا البرى الصغير مساحة تمكنه من أن يستخلم فيها قواته وموارده أحسن إستخدام . فإلى هذه اللحظة ، التي قويت فيها الوزارة البريطانية أن تشد أزر

البرتغال وأسبانيا ، بعثرت قوة الجيش الإنجليزى بين عدد من المغارات المرتجلة غير المرتبطة : فى قاندى ، وفى جزر الهند الغربية ، وفى هواندا ، وفى جنوب إيطاليا ، مغامرات لم يكن لها تأثير محسوس فى مجرى الحرب العام . أما الآن فقد ووجهت بالواجب العظيم ، وهو إقصاء الفرنسيين إلى شمال البرانس ، بمساعدة كتاب البرتغال وأسبانيا الوطنية . ولم يصبح فى استطاعة الجنود الإنجليز أن يؤثروا بقواتهم فى سير القتال فحسب ، بل أن يعزروا أيضاً مقاومة الشعبين الإيبيريين .

آثر ولزلى

وإن الانتفاع بهذه الفرصة العظيمة إلى أقصى حدود الانتفاع ، وعدم تبديد الجيش الإنجليزى الصغير فى أسبانيا تبديداً أحمق ، بل استخدامه استخداماً حكيماً بالتضامن مع حلفائه ، مما ترتب عليه إلزام فرنسا بالاحتفاظ بجيش كبير فى أسبانيا ، ومطاردة الجيش الفرنسى فيما بعد إلى ما وراء جبال البرانس ، ليرجع الفضل فيه كله إلى العبقرية الفذة لقائد فحل ، هو آرثر ولزلى Arthur Wellesley . وقد قضى ولزلى قبل مجيئه إلى أسبانيا على قوة المهراتيين الهنود Mahrattas فى ملحمة أساي Assaye (١٨٠٣) . ثم أتاحت له حرب شبه جزيرة إيبيريا الفرصة لإظهار تلك الخطة التى بدونها لم يكن يستطيع مطلقاً توجيه موارد البرتغال وأسبانيا إذ ذاك توجيهاً فعالاً ضد العدو المشترك .

ولقد كانت خطط انتصاره الأوروبى الأول تحاكى خطط انتصاره الأخير . فى فيميرو Vimiero (أغسطس سنة ١٨٠٨) ، كما فى ووترلو Waterloo (يونيو سنة ١٨١٥) ، جاءه النصر بمواجهته العدو بصف رفيع من المشاة البريطانيين المغاوير الذين أحسن اختياراً مراكمهم ، كما أحسن حجبهم عن الأنظار ، والذين دربوا على الاحتفاظ بطلقاتهم إلى الوقت الذى يتقون فيه إصابة رؤوس صفوف العدو المتقدمة . فقد كان جوهر خطط ولزلى التكتيكية ، هو أنه يمكن الاعتماد على الصف من الجند line بأن يقهر القول Column منهم وكانت هذه الخطة أهم درس من دروس حرب شبه جزيرة إيبيريا .

وقد يجدر بنا أن نذكر هنا شيئاً عن الطريقة التي سلكها نابليون في دخول
أسبانيا ، وعن ماهية وعواقب الصدمة التي صُدِمَ بها شعباً إيبيريا .

ففي مساء معركة بينا (١٨٠٦) أمر جودوا Godoy عشيق ملكة إسبانيا ،
وبغض الأمة الإسبانية ، والحاكم الحقيقي للبلاد ، بتعبئة الجيش الأسباني معتمداً
على إحرار الجيش البروسي سيلا من الانتصارات على نابليون . فما كان من
الأخير سوى أن انتقم من هذه الحماقة الفجة التي نفذت إلى أعماق نفسه ،
بدهاء مكيا فلي بلغ الغاية القصوى من البراعة . فبدلاً من أن ينزل بأسبانيا العقاب
المنظور السريع ، أكرهها على إمضاء معاهدة في فنتنبلو Fontainebleau
(أكتوبر سنة ١٨٠٧) تعهدت فيها بالاشتراك مع فرنسا في هجوم على
البرتغال : هذا القطر الصغير الذي ملأ كثيراً من قباء قصور أشرف الإنجليز
وسرائهم بينت عنه ، وآوى عدداً وفيراً من الأساطيل الإنجليزية ، وكان الوحيد ،
من بين أقطار القارة ، الذي ظلت أسواقه مفتوحة على مصراعيها للتجارة الإنجليزية .
وكان فتح نابليون للبرتغال الذي تم بسهولة ، مجرد ديباجة لحطة أكبر .
فإنه لم يكنه أن يقصى الوصى على عرش البرتغال عن حاضرة البلاد ، فيضطر
إلى الإبحار إلى البرازيل ، بل عقد نيته على طرد آل بوربون من أسبانيا . فاتخذ
الثكنة الملائمة الخاصة بضرورات الحملة البرتغالية ، وتدققت القوات الفرنسية على
أسبانيا تشرق طريقها عبر البرانس ، واستولت على الحصون التي على الحدود ،
وتقدمت صوب مدريد .

فضلا مرجل حتى الشعب ومخطه على هذا الصنى الذى فتح أبواب الوطن أمام
عدو لا يرعى عهداً ، ولا يخفى ذمة . ونشب شغب في أرنجويس Aranguez المقر
الرئيسى للملك والملكة ، عند ما علم الشعب بأنهما يفكران في الحرب مع جودوا
إلى جزر الهند الغربية . فتنازل شارل الشمس عن سرير الملك كى يتخذ حياة
الصنى . وارثى العرش مكانه ابنه فردينند . ولكن مير Murat قائد الجيش
الفرنسى الزاحف كان في هذه الأثناء قد احتل مدريد ، فأصبح نابليون بملك
سيد الموقف . فرفض الاعتراف بالملك الجديد ، وأمر شارل بسحب تنازله . ولم

بعض غير قليل حتى أُعُويت الأسرة المالكة بمرمتها : والمملك الملكة وولى العهد ، على التوجه إلى بايون Bayonne ، حيث أُكْرِه الملك وولى العهد على التنازل عن جميع حقوقهما فى العرش . وقبل يوسف يونابرت أخو نابليون فى مايو سنة ١٨٠٨ الجلوس على العرش الشاغر ، بعد أن رفضه أخوه لويس . بينما خبر ميرا زوج أخت نابليون بين عرشى البرتغال ونابلى ، فاستقر رأيه بحكمة وتبصر ، على أن يحكم فى نابلى (يوليو سنة ١٨٠٨) .

تعلق الأسبان
بأسرتهم المالكة

وكان الأسبان ملكيين إكليروسيين . وليس أدل على تأخرهم من قبولهم دون همسة احتجاج أوتقراطية شارل الرابع الضعيفة العاجزة . وكان الكورتيز Cortes قد انحط شأنه ، وبطلت دعوته إلى الانعقاد ، ولم يكن عصر الصحافة قد بدأ بعد . ولم يوجه الأسبان فتنهم ومؤامراتهم — التى أعانت نابليون على تنفيذ انقلاب بايون — ضد مبدأ الملكية ، بل ضد نفوذ حبيب الملكة المقنوت . ولم ينقص من ولاء الأسبان العميق ، وإخلاصهم المكين لمبدأ الملكية ، ضعف شارل وعدم كفايته ، أو ردائل زوجه المتبدلة ، أو جبن ولى عهده وغشوه . كما أنهم لم يفتحوا صدورهم بالترحيب بنابليون ، لمنحه إياهم هذا الدستور الحر الذى وضعه لهم وهو فى بايون ، أو لأنهم أملوا قيام حكومة ناهضة تحت حكم يوسف يونابرت ، تسعى إلى ترقية الشعب والعناية بالمستعمرات .

فلو أن يوسف كان ملكاً هبط عليهم من السماء ، أو لو أن دستور بايون قد نزل به الوحي ، لما انفك الأسبان عن تبجيلهم لفرديناند الحقيق الحسيس ، والتعلق به .

فقد ظل هذا الأمير الشقى طوال حرب شبه الجزيرة معبود الأمة الأسبانية . أما أنه تمسح بنابليون وتعلقه ، وأنه أظهر جنناً وضيقاً ، وأنه تأمر على ولده ، وأنه لم يكن به ذرة من الذكاء ، وأنه كان غادراً بأصدقائه ومريديه ، فهذه جميعها اعتبارات لم تكن فى نظرهم شيئاً مذكوراً ، بالقياس إلى هذه الحقيقة الواقعة : وهى أنه كان الوريث الشرعى للتاج الأسبانى . ولهذا لم يكن ثمة مفر من أن يتبجح سقوط حكم نابليون عودة فرديناند إلى أريكة الملك .

دستور سنة
١٨١٢

بيد أنه برغم أوبة أسبانيا إلى تقاليدھا ونظمھا العتيقة ، بأوبة فرديناند ، فإن
نضال شبه الجزيرة ، وما جرته الحرب من تعاسة وشقاء ، خلق في البلاد حزبا
وطنيا حرا . فقد اضطر الأسبان أثناء خلو العرش إلى أن يعنوا بشئهم ، فأنشأوا
مجلسا مركزيا Junta . ولكن هذا المجلس اضطر أمام تيار الغزو الفرنسي المتقدم
أن يلتجئ أولا إلى أشبيلية ثم إلى قادس . وفي المدينة الأخيرة التأم عقد
« كورتيز » صاغ للبلاد دستورا (١٨١٢) . وفي هذه المدينة أيضا نشبت للمرة
الأولى في تاريخ أسبانيا ملحمة بصدد القضية الجوهرية الخاصة بالحرية الشخصية ،
وهي ملحمة كان من أثرها بروز حزبين سياسيين عرفا على التوالي بحزب الأحرار
Liberales وحزب العبيد Serviles ، اللذين استمرا يقسمان الرأي السياسي
في أسبانيا طيلة القرن التاسع عشر . ومع أن دستور سنة ١٨١٢ هذا قبيل
مبدأ الملكية الوراثية ، وحصر حق الانتخاب في الأسبان الكاثوليك ، إلا
أنه كان ميثاقا يمثل الرأي الحر الراديكالي في المدن الساحلية ورأى لفيغ من
القواد العسكريين ، أكثر من تمثيلة الجهات الداخلية ذات النزعة المحافظة في
أسبانيا .

وقد قضى هذا الدستور بحق الانتخاب العام ، وإنشاء مجلس نيابي واحد ،
وتمثيل المستعمرات ، وإلغاء التعذيب في التحقيق الجنائي ومصادرة الأملاك .
ولذا كانت أحكامه أرق مما تستأمله أسبانيا في ذلك الحين . ولذا لم يوضع قط
موضع التنفيذ . ولكن برغم هذا كله فإن هذا الميثاق الحر لذن أهمية دائمة في
التاريخ الأسباني . فإنه وإن لم يصبح قط أداة من أدوات الحكم ، فقد كان لواء
للتمرد والثورة ، ورمزا لوجوب إقامة برلمان شامل لأسبانيا كلها ، يقر الضرائب ،
ويسن القوانين ، ويحد من سلطان الملكية ، وقوة الكنيسة .

ومن أسبانيا ، أشد أصقاع أوروبا رجعية ، اقتبست السياسة الإنجليزية
الاصطلاح Liberal ، أو « حر » .

الفصل السابع

نابليون وألمانيا

الحكومة النابليونية . بحث بروسيا . بحيته
كحرر . النصيب الألماني في الأدب الأوربي

١ - بحث بروسيا

كانت النظم التي وضعها نابليون لحكم ألمانيا حدثاً قاسياً في تاريخ الأمة الألمانية ، ولكنه حدث مظهر نافع . فقد أزاحت هذه النظم كثيراً من التغايات المتراكمة غير المجدية ، وساعدت على إشاعة كثير من الأفكار المفيدة الطيبة . فإن الجماعات التي سادها دهرأ طويلاً روح القناعة والاكتفاء الذاتي ، أخذت بفعل تنبيه تلك الأفكار ، تنشط للقيام بالإصلاحات النافعة . وكان من بين هذه الإصلاحات تبسيط عظيم لجغرافية ألمانيا السياسية المعقدة : وهو تبسيط ترتب عليه القضاء على مائة وعشرين ولاية صغيرة . وقد وُضع هذا التقسيم الجديد لألمانيا في باريس سنة ١٨٠٢ ، كنتيجة للتعويضات التي كان على نابليون أن يقدمها إلى الأمراء الألمان الذين أكرمهم الفتح الفرنسي على النزول عن أملاكهم على الضفة اليسرى لنهر الرين .

أثر الحكومة
النابليونية

ولا يمكن للمؤرخ المدقق أن يغفل هذه الصفقات الدنيئة . فقد نتج عن « قانون التسوية » Act of Mediation - كما سُمي ذلك المشروع - أن برزت ألمانيا كدولة أسهل إدارة وأيسر اتحاداً مما كانت ، كما كان من أثره أن صارت دولة أكبر قوة وأشد خطراً على جاراتها الغربية .

شروع نابليون

وقد اتبع مشروع نابليون في قواعده العامة سياسة فرنسا الثاقبديية . فقد كَوَّن في يوليو سنة ١٨٠٦ اتحاد الرين تحت رئاسة الإمبراطور الفرنسي ، ليقوم كعامل توازن ضد العدوين المقيهورين الغاضبين : النمسا وبروسيا . وكان بعض أعضاء هذا الاتحاد ولايات حديثة ، خُلِقَتْ خلقاً من أملاك اقتطعت من دول معادية مغلوبة على أمرها ، في حين أن بعض الولايات الأخرى كبافاريا وورتمبرج كانت أعضاء قدامى في الرينخ الألماني . وليس ثمة ما هو أدل على التغيير الذي طرأ على ألمانيا منذ تلك الأيام ، من السهولة التي آلف بها اتحاد الرين ، وسير في مجراه ، والتعصيد الكبير الذي لقيه نابليون من الأمراء الألمان في اتباعه سياسة معادية للقومية الألمانية . حقاً لقد أعطى رثنى لحكامها : فُتِّحَ حاكما بافاريا وورتمبرج لقب ملك ، وأمير بادن لقب دوق أعظم ، كما صاهر بعض آخر منهم البيت الإمبراطوري الفرنسي .

ولم يكن في ألمانيا بعد ملحمة أسترلتز وبيننا قوة مسلحة تستطيع أن تقف أمام جيش نابليون الجرار . وليست العلة لظاهرة غريبة كهذه راجعة إلى خوف الولايات الألمانية ، أو ضادها وانحلالها ، بل لأن شعور العطف العام في كل من بافاريا . حيث كان يُنظر إلى النمسا كخطر مائل ، وفي أراضي الرين حيث كان البروسيون غير محبوبين — كان هذا الشعور ملائماً لأغراض فرنسا وقتئذ ثم انقلب هذا الشعور الودي نحوها إلى حقد مرير عليها من جراء إرهاب نابليون لها إرهاباً شديداً في تجنيد أبنائها ، وسفك دماهم في حروبه .

شاعر الألمان

فلهذه الأسباب لم يسكب أمراء اتحاد الرين الدمع ، عند ما فقدت النمسا تفوقها القديم العهد في ألمانيا ، أو عند ما أسلمت الإمبراطورية الرومانية المقدسة الروح في ٦ أغسطس سنة ١٨٠٦ . ولم يظهروا عطفاً على بروسيا في ساعة هوانها ومذلها . وحتى في مملكة وستفاليا التي تألفت وقتئذ من مزيج عجيب من ولايات هيس وهانوفر وبرنزلوك ، التي ضُمَّ أهلها بعضهم إلى بعض على كره منهم ، تحت حكم الملك جيروم — أصفر إخوة نابليون — الجلو الشائتل ، ولكنه الهب

للعبث والمرح ، — حتى في هذه المملكة تقدمت خيرة الأسرات الألمانية لشدة أزر الحكومة الأجنبية .

ويوجد من الناس بعض يظن أن دولة ألمانية متزنة التأليف على هذا النحو : فيها بروسيا منتزعة مقاطعاتها الوستفالية والبولندية ، والنسا مقصية عنها ، وبها عصبة من الأمراء تستمد توجيهها السياسي من فرنسا — يوجد بعض يظن أن دولة ألمانية كهذه ، تغدو عاملاً يساعد على قيام عالم أعظم استقراراً وأثبت أركاناً .

ولكن أينما كان الأمر ، فإن هذه التجربة لم توضح قط موضع التنفيذ زمن السلم ، فإن ألمانيا النابليونية كانت من أول أيامها إلى آخرها أداة من أدوات الحرب الموجهة ضد إنجلترا . فقد أكرهت على قطع صلاتها التجارية بالمستعمرات الإنجليزية ، وفي الوقت عينه حرمت تجارتها من الدخول إلى أسواق فرنسا . وأمسكت بخناقها جيوش الاحتلال الأجنبية التي أطلقت لنفسها العنان في النهب والابتزاز ، واستنزفت دماء أبنائها . ولذا فقد يستغفر الألمان إذا هم عدلوا من نظرتهم الودية الأولى نحو الفرنسيين ، وانتهوا إلى ألا يبتغوا شيئاً أعظم من نهوض أمة ألمانية لها من القوة ما يمكنها من خلع النير الأجنبي ، والدأب بعين لا تغفل على الدفاع عن الرين الألماني . واليهود الذين استنشقوا نسيم الحرية من أحضانهم الضيقة وأزقنهم الخاصة ، ولذين سؤوا بالوطنيين الألمان ، هم وحدهم الذين استمروا يندبون سقوط نابليون محررهم .

وأخيراً عند ما تحول بندوق الرأي العام الألماني ضد الحكم الأجنبي ، كان الرأس المفكر والقلب النابض في ألمانيا هما بروسيا . ففي تلك المملكة التي ظلت رديحاً طويلاً من الزمن مغتصباً يجذب إليه من كل فج رجال ذوي الكفاية والمقدرة لخدمتها ، نفذت عبرة بينا إلى أعماق نفوس فئة قليلة من الوطنيين المفكرين الشديدي النشاط الكبيرى الهمة . وإنه لمن دواعى مجد وفخار شارنهورست Scharnhorst وكلاويزنر Clausewitz وشتاين Stein وهاردنبرج Hardenberg ، أنهم نظروا إلى المسألة البروسية في أوسع معانيها . فرأوا أن بلادهم في حاجة ، لا إلى الإصلاح الحربى وحده ، بل إلى الإحياء الوطنى ،

تزم بروسيا
حركة التحرير

واليقظة القومية . وقد كانت نتيجة عملهم بوجه عام أنهم نفخوا في أبناء وطنهم روح العزة القومية ، ومنحوا جيشاً مستذلاً وأمة مستكينّة بعض مزايا الحرية المحيطة . ولا يحدث غالباً أن تُذكر كمثال الوضع الذي أدرك به البروسيون وقتئذ هذه العظة ، وهي أن أسباب هزيمة منكورة كتلك التي أصيبوا بها ترجع إلى العامل الخلقى الأدبى . وما كان إلا سياسياً كبيراً ضليعاً كشتاين يستطيع أن يفتن إلى أنه يجدر لبعث بروسيا بعثاً حريياً ، منح المدن البروسية قسطاً من الحكم الذاتى ، والتمانية بأحوال الفلاحين الاجتماعى . ولا يضره أو ينقص من مدى بصره بالأمور ، أنه تلقى دروسه هذه من الفرنسيين ، الذين كانوا قد حرروا من قبل طبقة الفلاحين في بولندا ووستفاليا .

٢ - جيته كمحرر

عصره

وبما امتازت به حالة الإمبراطورية الألمانية في ختام القرن الثامن عشر أن جيته ، الذى خلق الأدب المستحدث في بلاده ، لم يكن مسيحياً ، ولا بطلا ، ولا وطنياً . وقد عاصرت حياته الطويلة التى بدأت سنة ١٧٤٩ ، وانصرم حبلها سنة ١٨٣٢ ، عصرأ شاع فيه العنف والتغيرات المتواصلة . فلقد كان صبيّاً في السابعة من العمر ، عند ما نشبت حرب السنين السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) . وكتب منظومته *Gotz von Berlichingen* في العام الأخير من حكم لويس الخامس عشر (١٧٧٤) . وأعقبها على الفور برواية « أحزان فيرنر » ، التى غزت قلوب جماهير القراء لا في بلاده فعصب ، بل في الأقطار الأخرى . وعند ما اندلعت نيران الثورة الفرنسية كان جيته رجلاً في الأربعين من العمر ، ويكبر نابليون بعشرين عاماً ، وأشهر أدباء أوروبا وأبعدهم صيتاً .

ولقد اجتاحت عواصف الثورة والإمبراطورية الفرنسية ألمانيا ، من غير أن تزعج هدوءه الذى قد من الصخر ، أو أن تثير في نفسه اهتماماً بمصاير الدول .

إشادته بفتوح
نابليون

وعاش عيشة محمية ميسورة ، كموظف في بلاط فييار الصغير . وواصل تهذيب نفسه كغاية في ذاتها ، مستمداً هذا الجانب من وحيه الذى استخرجه من بطون الكتب ، لا من مؤلفات الكتاب الألمان الأولين المملة المائتة ، بل من ينوع شكسبير الرائع الخيال الفسيح الأرجاء ، ومن كتاب المسرحيات في إيطاليا وأسبانيا وشعرهما ، ومن عيون الأدب الشرقى وروائع أسفاره . وإذ لم يكن جيته مديناً إلا بالثافة القليل للعقل الألماني ، وكان ينظر إلى البروسيين نظرة ازدراء لغلاظة أكبادهم ، فإنه رجب يعبقريه نابليون وأشاد بفضل فتوحه . وكانت هزيمة الإمبراطور الفرنسى في ليبتزج قذى في عينه محبة لآماله . ولهذا لم ينظم شاعر ألمانيا الأكبر في الشعر الغنائى شيئاً في الأدب الخاص بحرب التحرير .

فصله على
الأدب الألماني

ومع هذا فإنه في معنى واسع عميق ، ليس يوجد في جيش المحررين الألمان ، من يدانى هذا الشاعر الفحل مرتبة ، أو يوازيه في جلائل الأعمال . فإنه بتلك الروائع الضخمة الجبارة ، في النظم وفي النثر ، أعتق الأمة الألمانية من خضوعها للنابى للأدب الفرنسى ، الذى كان منذ حرب الثلاثين عاماً آفة على العقل الألماني القوي . فإن منظوماته الغنائية تنبعث غضة نضرة من هوى محب عاشق ، ونثره الهادئ الجاد الأنيق هو على الدوام واسطة من وسائط نقل المعرفة الإيجابية الحقة والتأمل الناضج . لا يشوه أدبه البتة تعرضه لفلسفة ما وراء الطبيعة الغامضة ، أو أفكار غير متمسكة امتثالاً كاملاً . ولقد كتب في علم البصريات ، وعلم النبات ، ودرس اللغات الشرقية والطب ، وجلب إلى العلوم ما هو أندر وأقيم من مبدأ القياس المضبوط . ألا وهو فن الإلهام . فؤلفاته حافلة بالأفكار والاقتراحات التى وجدت في العصور التالية ذات قيمة ونفع .

وقد كانت معاييب الأدب الألماني الكبرى هي الغموض والحذافة والعواطف المتطرفة . أما جيته فبرغم أنه كثيراً ما يكون مملاً ، إلا أنه ليس بالغامض . ومع غزارة علمه ، فهو ليس بالمتحدث ، ومع أنه كثيراً ما سيطرت عليه أهواؤه ونزواته الناجمة عن غرامياته التى لا حصر لها ، فإنه لا يصل قط إلى الحد الذى يفقد فيه ذلك القلب الطاهر ، الذى هو خاصة من خواص الأناني الكامل . ولو أنه تعلم

من الفرنسيين فن وضع الكتب الموجزة المتناسقة التبويب ، لكان أضاف مأثرة أخرى إلى المآثر العديدة التي أسداها إلى الشعب الألماني .

ولم يشاطر جيته كتّاب الثورة الفرنسية فكرتهم بأن القانون هو قوام الفضائل البشرية . فروح كتاباته وتعاليمه كلها - التي هي عقيدة عبقرى يشعر باكتفاء ذاتي تخالف هذه الفكرة وتناقضها . وهو لا يعبأ قلامة ظفر بتقابات السياسة ومدها وجزرها ، ولا تحد من تفكيره الميول القومية . وقد ناهض جيته إيمان الفرنسيين بالتشريع كالعامل الأول للتقدم البشرى . ممثلاً في شخصه صورة رجل متفوق المواهب الجثمانية والذهنية ، اجتهد بكل ما في وسعه أن يهذب روحه عن طريق الحب والتأليف والفن والعلم والإدارة .

وفي البلاطات الملكية الصغيرة في ألمانيا ، وفي البقاع المحجوبة المحمية منها ، حيث ينساب مجرى الحياة في جداول هادئة ضيقة ، أظهر النشاط الجبار ، والهمة القعساء لهذا الكاتب الشعب النواحي ، المتنوع الدراسات والاتجاهات ، ملئ ما يستطيع أن يصل إليه فنان من السمو ، وأن يحققه من روائع الأعمال ، دون أن تحفزه لذلك حوافز خارجية ، وإنما تدفعه إليها دوافع عقلية وعواطف داخلية . وبينما كان كل شيء في فئار ساكناً لا يتحرك ، كانت روح جيته على الدوام فتية ، ومزاجه غضاً ، يصبو إلى تذوق الحياة حلوها ومرها . وكانت عبقريته في حركة دائمة ، يتدفق منها فيض من المسرحيات والقصائد والأقاصيص والرسائل ، دون تقييد بالشكليات . فكان يتحول من الرواية الخيالية المعالجة للمصور الوسطى التي أوحى إلى ولتر سكوت Walter Scott بروائع براعته ، إلى أعصى الدراسات القديمة وأعمقها ، ثم يقذف بنفسه في الشرق ، وأخيراً عثر حتى رجب بروائع بيرون . فباستخدام جيته الأثافي القاتر الوطنية مواهبه الجبارة ، ونسييره تلك المعجزة الدائمة الحركة المجددة لذاتها ، رفع الأمة الألمانية إلى مكانة جديدة في عالم الفكر الأوربي .

ولم يكن جيته في هذا العمل منفرداً . فلان ليسنج Leming وشالر أدباء ألمانيا وهردر Herder وهايته Helne يعتبرون عن جدارة وحتى من

بين أبحاد الأدب الألماني . ومن بين هؤلاء ، كان هاينه (١٧٩٩ - ١٨٥٦) يهودياً ، تشبعت روحه ، بدرجة أقل حتى من جيته ، بتلك الخلطة التي تغالت روح القومية الألمانية المتفجرة في تقديرها . فإن هاينه الذي قضى طفولته في دَسْلِدُورْف حينما كانت حاضرة دوقية بيرج ، وجزءاً من الإمبراطورية النابليونية ، كان يفضل الفرنسيين على الألمان ، ويبجل كسائر يهود ألمانيا نابليون محرر الجنس السامي . وشلر وحده (١٧٥٩ - ١٨٠٥) هو الذي كان يلهب حماساً سياسياً ألمانى الثَّغرة . ولكن حتى شلر أبلغ الحواريين الألمان ، أجبر على أن يتلقى دروسه في الحرية من الهولنديين .

ولم تنل هذه الحركات الجبارة المتلاطمة للعقل الألماني التي تنتسب إلى هذه الفترة ، والمؤلفات الجليلة العديدة لكثير من المؤلفين الألمان ، تقديرًا عامًا إلا بعد أن نشرت مدام دى ستايل Madame de Staël سنة ١٨١٠ سفرها المبدع عن ألمانيا . حينئذ كشف الناس أن الأمة التي اجتاحت أرضها جيوش نابليون ، وعملت بالازدراء الذي هو من نصيب الأمم الخاضعة المنحطة المكانة ، كانت في الواقع ربة كنز من الشعر والنثر المعاصرين ثمين : كنز في اتساع وعمق معانيه ، وغنى وابتكار أشكاله ، يفوق أى عمل حديث وضع في أى بلاد أخرى من بلدان أوروبا . وما وافت سنة ١٨١٥ حتى ألقت ألمانيا نفسها قوة في عالم الأدب والعلم ، حتى وإن لم تصبح وقتئذ وحدة سياسة . ولكن القمة الروحية التي وصلت إليها حينذاك ، وبجال التأثير الروحي الذي كانت تتمتع به ، لم تستطع قط أن تستعيدهما بعد ذلك .

ومن عجب أن الأدب الألماني بلغ ذروته في عصر غلب عليها فيه الضعف والاستكانة والانقسام السياسى ، حينما كان جيته وشلر صديقين في فيمار ، وحينما كانت الروح الوطنية في أسفل درك . فليس الحكم النابليوني لألمانيا إذن بخال تماماً من الحسنة ، وليس تقدم القومية الألمانية الظافرة محضاً لها من مواطن الأخذ والولم . وقد يتساءل المرء في التحليل النهائى ، عما إذا كانت فيمار لم تصنع

للروح الإنسانية خيراً أعظم مما صنعت برلين ، وعمّا إذا لم يكن نظام الولايات
الألمانية الصغيرة أعظم عوناً للحرية ، وغرس المواطف وتشذيبها ، من الريح
الحديث الذي تفتححه أنواء السياسة العالمية ، وتهز أركانه أهواء التضال الداخلي
ونزواته .

الفصل الثامن

سقوط نابليون

الصدوع الأولى . الحرب الروسية . حرب التحرير الألمانية . أسباب تأجيل
الوحدة الألمانية . حملة عام ١٨١٣ . فرس نابليون الضائعة . حذقه الحرب
المطرد . إلبا . عودة البوربون . مؤتمر فيينا . إعادة تسوية أوروبا . انتصار
الحقوق الشرعية . مقارنة بمعاهدات الصلح المعرمة في ١٩١٩ - ١٩٢٠

١ - الصدوع الأولى

بمغامرة نابليون الأسبانية بدأت تظهر الصدوع الأولى في صرح الإمبراطورية
الفرنسية . فإن تسليم ٢٣٠٠٠ جندي فرنسي في بايلن Baylen في ١٩ يوليو
سنة ١٨٠٨ ، كان علامة جلية بأن في نقطة القومية الأسبانية برزت قوة
جديدة قادرة على هدم تلك الإمبراطورية . فلقد شجع مثال أسبانيا النمسا ،
بمشورة الكونت شتايدون Stadion رئيس وزارتها ، على توطين العزم على
استئناف النضال . ففي الحين الذي كان يطارد فيه نابليون جيش سير جون مور
Sir John Moore حتى كورونا Corunna في أسبانيا ، شرع النمساويون يوغلون
في الأراضي البافارية .

في أسبانيا

وإن السرعة التي عاد بها نابليون لمقاومة التهديد النمساوي (أبريل سنة
١٨٠٩) ، بعد أن أرجع الموقف في وسط أسبانيا لصالحه ، والمهارة التي أبدأها
في الحركات التي بواسطتها أفلح في ثلاث ملاحم عنيفة (هي معارك آبنسبرج
Ahensberg ولاكهل Eckmühl ولاندشوت Landshut) في دحر النمساويين
على ضفاف الدانوب الأوسط ، والصدمة التي لقيها أمام فيينا ، وانتصار
وجرام Wagram (يوليو سنة ١٨٠٩) الذي كلفه كثيراً : هذه الأمور كلها ،
بينما توضح عبقريته غير المتقوصة كمثائد ، تدل على الصعوبات المتزايدة

التهديد
النمساوي

التي أخذت تكتنفه . فإن الجيش النمساوى الذى وقف فى وجهه فى تلك الملاحم ، كان يختلف جد الاختلاف عن القوات التى أنزل بها المزيمة فى مارنجو وأسترلتز . فقد كان أفضل منها تدريباً ، وأحذق قيادة ، وأسمى روحاً معنوية . وقد أدرك نابليون هذه الأمور ، فإنه عندما عارضه لينيه Iéine عقب تلك المعارك ، مصرحاً بأن النمسا صارت قوة منهوكة خائرة ، أجابة قائلاً : « من الجلى إذن أنك لم تشهد معركة وجرام » .

قيام الفتن

وعلاوة على عودة النمسا إلى النشاط ، كانت هناك علامات تدل على أن آخرين سيحذون حذو أسبانيا . فقد قامت ثورة التيرول ضد البافاريين ، واشتعلت فتن غير متصلة العرى فى بروسيا — حوادث نافهة فى ذاتها ، وأخذت دون كبير عناء — إلا أنها كانت كافية لتنم عن ظهور صدوع جديدة فى البناء الإمبراطورى . بل إنه فى فرنسا نفسها أخذ يظهر لون من ألوان الكلال والفتور . وفى مؤتمر عقده نابليون مع إسكندر الأول فى إرفرت Erfurt سنة ١٨٠٨ أدلى تاليران بهذه الملاحظة ، وهى أن فتح البلجيك ، والوصول إلى حدود الرين ، هما من فتوح فرنسا ، أما الفتوح التالية فهى فتوح نابليون وحده .

٢ — الحرب الروسية

فصم التحالف

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الأمور ، كان نابليون يسير تدريجياً نحو تلك المغامرة الروسية الجارحة التى عملت أكثر من حروب شبه جزيرة إيبيريا أو الأسطول البريطانى ، على تعطيل إمبراطوريته . وكانت العلة الظاهرة لفصم التحالف بين العاهلين ، هى رفض روسيا رفضاً عنيفاً فى ديسمبر سنة ١٨١٠ لإغلاق موانئها فى وجه السفن المحايدة ، واتخاذها تعريفة بحركية ملائمة لواردات المستعمرات الإنجليزية ، ولكنها ضارة بالواردات الفرنسية .

تاريخ أوروبا

ولم يكن نابليون مستعداً أن يطبق انحراف حليفه الروسى عن تأييد النظام القارى . ولقد ساورته الشكوك أمداً طويلاً فى تلك الصداقة التى تكوّنت على عجل فى تلمست سنة ١٨٠٧ . إذ كان لا يثق بالقيصر ، وعرف أن القيصر يبادلّه عدم الثقة ، وأنه لم يغفر له بسهولة تشجيعه البولنديين ، أو زواجه من مارى لويـز النمساوية ، وأن الحصار المتواصل المكروه فى كل مكان ، كان أعظم ضرراً ، وأشد إرهاباً ، لتجار وسادة روسيا، منه فى أى بلاد أخرى .

ولهذا عقد النية على جعل السيف القول الفصل بينهما . ولعله كان يؤمل بأن نصراً حاسماً ، كذلك الذى كسبه فى فريدلند ، يظفر به على حدود الإمبراطورية الروسية ، قد يأتى بصلح مبين . كما كان يدور أيضاً فى خلدّه الرجاء — إذ غدا الآن واسع الأطماع — بأن يضيف إلى فتوح شلمان صيت الإسكندر الذائع ، فيحقق حلمه باستخدام روسيا كمحطة على الطريق بين أوروبا وآسيا . ولقد قال : إن الناس يرغبون أن يعرفوا إلى أين نحن ذاهبون . إننا سنعمل على الانتهاء من أوروبا ، ومن ثم سنهاجم سلايين آخرين أعظم إقداماً وجرأة منا ، ونغدو بعد ذلك أسياذ الهند .

خفية آمال
نابليون

ولكن لم تكن هنالك معركة فريدلند ثانية ، ولم يظفر نابليون بصلح . وما وافى منتصف أغسطس سنة ١٨١٢ حتى كان نابليون فى سمولنسك Smolensk ، وهى فى منتصف المسافة بين نهر النيمان وموسكو ، دون أن ينال فخر نصر فاصل ، وبعد أن فقد من جيشه الجرار مائة ألف مقاتل . فما كان منه إلا أن ضرب عرض الحائط بخطته الأولى الحصيفة التى تنطوى على حملة تدوم عامين ، وعزم على الإيغال فى قلب روسيا ، سعيّاً وراء ذلك النصر الكاسح الذى قد يصرع القيصر ، ويحمله على طلب الصلح مرة ثانية .

ولكن ما حدث فى أسبانيا ، حدث مثله فى روسيا . فقد دب الحماس فى القلوب ، واضطرم حب الوطن فى النفوس ، فلم يقف الروس عن تحمل أى تضحية ، حتى إحراق موسكو ، لمضايقة الجيش الغازى والنيل منه . ومع

أن نابليون استوى في الكرملين بموسكو ، فقد أبى إسكندر الأول الذى كان يلزمه يومئذ شتتين البروسى ملازمة وثيقة - أبى أن يصيخ السمع لحظة واحدة إلى تلويحات نابليون بالصلح . فقدّر للأخير أن يختبر العاقبة التى تجرّها روسيا دائماً على العدو الذى يبدأ نضالاً غير متعادل مع الشتاء الروسى . فقد قضى التراجع من موسكو القضاء المبرم على الأداة التى فرض بها نابليون سيطرته على أوروبا ، وكان إيذاناً بذلك العصيان الذى قام به الشعب الألمانى ضد حكمه ، وهو العصيان الذى جرّ فى ذيله على نابليون الاندحار والتنازل عن العرش والثنى ، بعد تطاحن أشبه بالأساطير القديمة .

٣ - حرب التحرير الألمانية

ظهور الروح
القوية

وحرب التحرير الألمانية (سنة ١٨١٣) ، بجانب أنها خالدة لتمييزها بالقضاء على سلطان نابليون فى وسط أوروبا ، قد بذرت بذور تلك العاطفة القوية للولاء لألمانيا الكبرى ، تلك العاطفة المشبوبة التى حولت مجرى السياسة فى العالم الحديث . فللمرة الأولى تملك الشعب الألمانى أمنية مشتركة ، وشاع فيه إحساس واحد . فلقد أودى كل ألمانى بوطاة الحصار القارى والتجنيد الإجبارى . فصار تحرير الوطن من نير الطغيان الأجنبى الذى لا يطاق ، ودره الخطر الفرنسى بطريقة ما ، أمتين يشتركان فىهما القوم على بكرة أبيهم . ولكن التضافر كان بشكل خاص أقوى فى شمال ألمانيا ، حيث تعاون الشعراء والفلاسفة وكتاب النشرات على التبشير بإنجيل أمة ألمانية واحدة .

ومع ذلك فلم يكن ثمة إلى ذلك الحين أمة كهذه . وإنما كان الأمر مجرد تخمر ملتهب قوى للشعور القوى ، يمكن بفعله ومساعدته أن تستجيب أمة وتنبئ تحت توجيه سياسى حازم . ولكن هذا التوجيه لم يبرز إذ ذاك ، ولم تكن ولاية من الولايات الألمانية من القوة والبأس ، بحيث تستطيع بمفردها

أن تقهر نابليون ، وتضم جميع الألمان تحت لوائها . فبروسيا حيث كان الشعور القومى على أشده ، والزعامة جد مستنيرة ، لم تكن تملك بعد جيشاً يستطيع أن ينهض بهذا العمل . فإن هزائم البروسيين والروس الأولى فى باوتزن Bautzen ولتزن Lutzen كانت دلالات كافية على أن ألمانيا لن تستطيع أن تنال خلاصها على يد بروسيا وحدها ، حتى إذا هى استطاعت أن تعتمد على تأييد جيش روسى ، هذا التأييد الذى ضمنته لها معاهدة كاليش Kalisch (فبراير سنة ١٨١٣) .

النمسا وألمانيا

وترتب على ذلك أن تحرير ألمانيا لم يكن ليتم من غير مساعدة فعلية من الإمبراطورية النمساوية . ولكن هذه الإمبراطورية كانت وقتئذ فى جملتها دولة غير جرمانية ، وقد قللت باطراد تعهداتها فى الغرب ، فتخلت عن البلجيك وحدود الرين ، وتنازلت عن ممتلكاتها القديمة فى سوابيا Swabia^(١) ، وشاهدت اختفاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى شىء من الارتياح . وكانت تهتم بالسيطرة على شمال ووسط إيطاليا ، ومن ثم على الفاتيكان ، أكثر من اهتمامها باستئناف هذا العمل المخفوف بالمخاطر والحدود ، وهو حماية ألمانيا من الاعتداء الفرنسى فى الغرب .

إذن لم يكن للنمسا مصلحة فى قيام دولة ألمانية متحدة . وكان للبرنس مترنخ Metternich (١٧٧٣ - ١٨٥٩) ، الذى صار الآن يوجه السياسة النمساوية ، وجهة نظر بشأن مستقبل ألمانيا تغاير كل المغايرة الأفكار التى كانت تجول فى خاطر هاردنبرج وشتين فى برلين . فبينما كان الزعيمان السياسيان البروسيان يرومان أن يطردا نابليون من ألمانيا بالطعان والتنازل ، ومن ثم يخلقان دولة ألمانية متحدة ، كان مترنخ يرغب فى فرض توسله على الفرق المتناحرة ، وإخراج نابليون من ألمانيا عن طريق المفاوضة ، وإزالة سلطان فرنسا على اتحاد الرين إذا أمكن ، وبذلك يُسحب اتحاداً ألمانياً. وأهى العرى

(١) واسمها بالألمانية Schwaben ، وهى إحدى الدوقيات الألمانية التى قاست فى المصور الوسطى . وتعد بنهر الرين وبحيرة كونستانس والبحر وفرنكونيا . وقد ألفت بعض مدنها ، وأهمها ألم ياوجزبرج وهابيلرون ، عصية كانت تسمى العصية السوابية (١٣٢٢ - ١٥٣٤) .

مؤلفاً من ولايات متساوية خاضعة لتزعم النمسا . ولقد تغلبت وقتئذ وجهة النظر المتساوية . فتأجيل الوحدة الألمانية إلى عام ١٨٧٠ : يرجع إلى أن مساعدة النمسا الحربية كانت ضرورية لتحرير ألمانيا في سنة ١٨١٣ . وقد استطاعت النمسا ، بتعاون الولايات الألمانية الجنوبية معها طوعاً واختياراً ، أن تنشئ ألمانيا وفق رغائبها .

ويعد المؤرخون البروسيون مأساة من مآسي التاريخ الألماني أن المواطنين الحرة القومية الجياشة التي أثارها حرب التحرير تتركزت تتبخر وتضيق عبثاً كما تضيق مياه نهر إفريقي في الفيافي والرمال ، وأنه برغم الجهود الجبارة والمحن القاسية التي مرت بألمانيا في تلك الأيام ، قد خرجت بنظام تعاهدي وُضع على نحو يشل نشاطها ، ويحرمها من أي سلطان فعلي في مجالس أوروبا السياسية .

ولذا فإن نابليون في الحرب الشعواء الطاحنة التي شنها في ألمانيا سنة ١٨١٣ ، لم يواجه شعباً متحداً ، بل حكومات دخلت حومة القتال في أطوار مختلفة من الحرب . ولم يكن من اليسير التآليف بينها - برغم أمان شعوبها المشتركة - كي تسير معاً طبقاً لخطة مشتركة . فقد كانت النمسا تغار من بروسيا ، وكانت جيوش اتحاد الرين خلال المرحلة الأولى من الحرب ، لا تزال تحارب تحت لواء نابليون ، وفيها عدا الرغبة المشتركة في التخلص من الفرنسيين ، لم يكن هناك اتفاق سياسي نهائي بين حكومتى فيينا وبرلين .

بيد أن روسيا وبروسيا والنمسا كانت متفقة معاً على ضرورة إرغام نابليون على التنازل عن فتوحه البولندية والألمانية . أما هوفابي أن يفعل ذلك فقد قال لمترونيخ في ٢٦ يوليو سنة ١٨١٣ : ما الذي ترومه مني ؟ أتقصد أن أمرغ شرفي في التراب ؟ إن هذا لن يحدث أبداً . إني أعرف كيف أموت . ولكني لن أنزل عن شبر واحد من الأرض . فقد هزم ملوككم الذين وللوا على أرائك العرش عشرين مرة ، ومع ذلك يعودون إلى عواصمهم . أما أنا فليس لي ذلك . فقد رقيت إلى السلطة والنفوذ بحمد السيف .

ولكن هذه الروح العنيدة التي لا تقبل تسوية ، كانت أعظم أثراً من الكوارث الحربية التي أخذت على الفور تتعاقب على نابليون ، في إرغامه على التنازل عن عرشه . فإنه حتى بعد انتصار أعدائه الساحق في أكتوبر سنة ١٨١٣ ، حيث أورد موارد الدمار آخر جيش تمكن من حشده بعد جهود فوق طاقة البشر - إنه حتى بعد انتصار الحلفاء عليه ، عرضوا عليه في نوفمبر الصلح على قاعدة أن تحتفظ فرنسا بحدودها الطبيعية : الألب والرين والبرانس ، ولكن هذا العرص رُفض .

ثم لما غزيت فرنسا في عقردارها ، وأوقع بحيشها المدافع هزيمة فريدة ، كانت بالطبع شروط الحلفاء أقصى . ولكن حتى في هذا الحين (٤ فبراير سنة ١٨١٤) ، كان في مكتبة نابليون - بتضحية ساقوى والبلجيك وقبول الحدود القديمة للملكية الفرنسية قبل فتوح الثورة - أن يحتفظ بعرشه . ولكن بعد نبذه هذه الفرصة الأخيرة ، لم يدرك في خلد الحلفاء سوى فكرة واحدة وهي أن ينزلوه عن العرش ، كما أنزل هو كثيراً من ضحاياها الملوك .

أما أن تقرر لإنجلترا احتفاظ نابليون الدائم بالبلجيك ، وأما أن تظل فرنسا خاضعة له ، إذا ما هوفط في هذه الثمرة الثمينة من ثمار الثورة ، فهما مسألتان كثيراً ما عُرِضتا على بساط البحث ، ووجدتا من يدافع عنهما دفاعاً مستساغاً مقبولا . ولكن جدير بنا حيناً يقدم تاريخ الثورة والإمبراطورية كمحادث روائي ، ينتهي بنهاية محتومة ، نتيجة هذا الخطأ القاتل ، وهو فتح البلجيك الذي كان لا مفر لنابليون من أن يدافع عنه مهما كلفه الدفاع ، والذي ضمنت إنجلترا لاعتبارات قوية قاطعة على مناهضته - جدير بنا أن نلاحظ أنه حتى بعد ملحمة ليبترج كان الحلفاء يقبلون أن يفكروا في عقد معاهدة ترك فيها البلجيك لفرنسا . وليس ثمة ما هو أبلغ من هذا دلالة على الاحترام والتعظيم اللذين كانت قوة نابليون الحربية تبعثهما في صدور أعدائه .

وقد توقفت نتيجة الحرب على التصميم وقوة الإرادة ، أكثر من توقفها على عدد الجيوش . ففي حربيه الأخيرتين في فرنسا ، وقف نابليون وجهاً لوجه

تحالف أوروبا
ضد نابليون

أمام أعداد غفيرة وقوات جد متفوقة ، تحالفت أوروبا برمتها تقريباً عليه . فإنه حتى برنادوت Bernadotte ، الذى كان ضابطاً من ضباطه القدماء ، وصار الآن ولى عهد السويد ، سَيَّر جيشاً إلى ساحة الوعى ضد سيده السابق ، ابتغاء الاستحواذ على النرويج ، بل ربما على عرش فرنسا أيضاً ، حين يأتى وقت توزيع الأسلاب ، وفى الوقت الذى كانت تطبق فيه النمسا وبروسيا وروسيا والسويد فى الميدان الألمانى على جيوش نابليون ، كان ولنجنى يدفع أمامه الفرنسيين عبر البرانس .

حذقه الحرب
المطرده

ومع ذلك فبرغم هذا التفاوت المائل بين الكفتين ، أدار نابليون دفة القتال فى هاتين الحربين الأخيرتين بتفنن ومهارة أثارنا دهشة الخلف ، وإعجاب الأجيال المتعاقبة. فع أن سواد جنوده كانوا صغار السن غير مدربين ، ومارشالاته قد هدَّت الحروب من حبلهم ، وأنهكت من قواهم ، ورغم أن خيَّالته كانت غير كافية ، وعدد قواته أقل من عدد قوات خصومه ، فقد أفلح فى إيقاع الهزيمة بجيش الحلفاء الرئيسى الذى تحت قيادة شوارتزنبرج Schwarzenberg فى الملحمة التى دامت يومين ، خارج أسوار درسدن فى ٢٦ و ٢٧ أغسطس سنة ١٨١٣ . ولو أن نابليون كان كسابق عهده ، سريع الانقضاض ، شديد الوطأة فى مطاردة الأعداء ، فلربما كان أرغم منازلته على التفكير بالتسليم . ولكنه بعد تلك المعركة ، أتاح لخصومه ، لضعف فى إرادته وفقر فى همته ، أن يطوقوه ، ويحطموا قواته فى مذبحه لبيتروج المروعة . ومع ذلك فإن العمليات الحربية التى قام بها فى العام التالى ، بشراذم من الجند الخغام العديمى الدربة ، ضد جيشى بلوخر Blucher وشوارتزنبرج فى وديان السين والمارن ، لتعد من بين آياته الحربية الجلييلة الروعة . ففى تلك الأعمال أدار جيشه على خطوط داخلية ، ضارباً مرة البروسيين فى الشمال ، ومرة أخرى النمساويين فى الجنوب ، داخراً أعداءه المرة بعد الأخرى ، بخفة حركاته وسرعها ، وشدة وطأة هجماته . ولكن هذا كله لم يجده فتيلاً ، وذهبت جهوده أدراج الرياح . فلقد كان

إلى

بلوخر خصماً يضارعه في شدة المراس وقوة الإرادة والعزم، وقائلاً ذا أعصاب من فولاذ ، لا يعرف الكلل والحمق إلى نفسه سبيلاً إذا غضب ، أو الاضطراب والطيش إذا هُزِم . فقد رده نابليون على أعقابهِ ثلاث مرات . فالتزم هذا البروسي الهرم أن يتراجع شمالاً إلى حيث توجد أمداده . ولكنه كان يعود إلى حومة الوغى في ساحات لاون Laon ، وكروان Craonne التي حُمي فيها وطيس القتال ، وبذلك فتح لنفسه ولحلفائه الطريق إلى باريس . وتراجع نابليون غرباً عندما رأى أعداءه قد سبقوه . وإذا وجد قصبة حكمه قد سلمت للأعداء ، عسكر في فنتنبلو . ولكن مارشالات فرنسا الذين كانت الحروب قد أنهكتهم ، والذين حزروا همود روح البلاد وقعوس مهمتها ، ألزموه بالتنازل عن العرش . ومن هناك بعد أن ودعته فرقة الحرس وداعاً جعله بطلاً تَهفو إلى زعامته القلوب ، رحل إلى جزيرة إلبا Elba ، شاقاً طريقه بين لعنات الجنوبيين وتهديداتهم ، تاركاً لآخرين غيره مهمة وضع التاريخ خلال الأشهر العشرة القادمة .

عودة البوربون

ولقد كان ناليران (١٧٥٤ - ١٨٣٨) هذا الكاهن المشلوح والأسقف السابق المتزوج ، وزير خارجية نابليون - هو الذي أقنع إسكندر الأول بوجوب استدعاء بيت بوربون لحكم فرنسا . فانه مهما بدا بعيد الاحتمال قبول فرنسا عن رضى ، أن يحكمها رجل عجوز بدين ، رجل عاش خمساً وعشرين سنة منفياً عنها ، وغريباً عن جميع تلك الأحداث الكبيرة والأعجاد الرائعة التي حدثت في غضون تلك الحقبة ، إلا أنه لم يكن أمامها بديل آخر . ومع ذلك يجب ألا ننسى أن لويس الثامن عشر كان يمثل على الأقل مبدأً وتقليداً هما جزء من معتقدات فرنسا السياسية .

وقد حُسيب أن لويس سيُجلب على الأقل الهدوء ومودة أوروبا إلى أمة غمرتها الهن ، وساورتها المخاوف . فإنه بعد التخلص من الثورة والإمبراطورية بدت الملكية القديمة للأعين بأنها أقل التدابير أذى ومضرة . بيد أنه عجزت ، حتى يراعة شاتوبريان Chateaubriand ، أفصح وأبلغ فنحول

الكتاب الفرنسيين ، عن جعل تلك الملكية مجيدة مكرمة ، وعجز الدستور الإنجليزي المظهر ، الذى فرضه الحلفاء فرضاً على فرنسا ، عن أن يحولها إلى أداة للحرية الكريمة المتعلقة . ولحق أن الراية الملكية البيضاء التى خفقت الآن على الراية المثثة الألوان الذائعة الشهرة كانت رمزاً ملائماً للأسرة التى عادت إلى وطنها ، دون أن تتعلم شيئاً أو تنسى شيئاً فى عهد طافح بالتغيرات الهائلة المتوالية .

وقد تميزت الشروط الممنوحة للدولة المقهورة ، بمقتضى معاهدة باريس ^{معاودة باريس} (٣٠ مايو سنة ١٨١٤) ، باعتدال سياسى أريب ، فلم تطالب تلك الدولة بدفع غرامة أو تعويض حربى ، ولم يصر أعداؤها على احتلال أرضها . بل لم يكن هنالك حتى هذا الشرط ، وهو أن الكنوز الفنية التى نهبها فرنسا من متاحف أوروبا ، يجب أن تعاد إلى أصحابها الشرعيين . حقاً إن فتوح نابليون الأجنبية سلّخت منها ، ما فى ذلك شك . ولكن مما هو قمين بالملاحظة أنه برغم انتصار الحلفاء الكامل ، وبرغم طول الحرب ومرارة القتال ، فقد أعطى لويس الثامن عشر رقعة من الأرض أكبر قليلاً من تلك التى كان أخوه لويس السادس عشر يملك عليها قبل اندلاع الثورة . ذلك أن تطبيق أبسط قواعد الحكم السليم كان كافياً لأن يظهر للحلفاء بأن صفتهم لويس لن يستطع الاحتفاظ بعرشه المززعج تحت ظلال صلح مرهق مذل .

٤ - مؤتمر فيينا

تُرِكَت تفاصيل التسوية النهائية ، إلى مؤتمر دُعى للانعقاد بفينا فى نوفمبر سنة ١٨١٤ . وفى أثناء انعقاده أطلق سادة النظام القديم ، فى ساعة تحررهم العظيم ، العنان لأنفسهم فى حفلات رائعة خلافة من السكر والعريضة والاستمثار . فكما رقصت باريس بعد انقلاب ترميدور ، ورقصت بعد هدنة عام ١٩١٨ ، كذلك رقصت فيينا خلال الحريف والشتاء ، بينما كان القرشقى فى

حرز أمين في ليا ، والساسة يعملون في إقامة بنيان أوروبا جديدة . وفي ذلك
الرهط من الأباطرة والملوك ، والأمراء والتبلاء والساسة ، وبذلت ماري لويز
زوجة نابليون الخائنة ، قصارى جهدها في أن تبرز في تيه ودلال قدميها الصغيرتين .

ورُسمت خريطة أوروبا بواسطة سراس كانت الثورة الفرنسية في أعينهم أعظم
الآخطار كلها التي تهدد رخاء الجنس البشرى ورفاهيته .

خريطة أوروبا
الجديدة

ولذا السبب صُفّت حدود فرنسا الشرقية بمجموعة من الدول والولايات
الحاجزة ، بقصد حماية وسط أوروبا من أخطار الثورة : فأقيمت في الشمال
مملكة من الأراضي المنخفضة دامت إلى سنة ١٨٣٠ ، حينما فُصم الاتحاد
غير المقبول بين هولندا الكلفنية والبلجيكا الكاثوليكية . وفي الجنوب أقيمت
سردينيا بعد تقويتها بضم جنوه وسافوى إليها ، في حين وضعت أقاليم الرين
الوسطى ، بإيعاز من الحكومة البريطانية تحت وصاية بروسيا .

ولم يتكهن أحد وقتئذ باتحاد ألمانيا تحت التاج البروسي ، أو يتنبأ بذلك
التبدل في التوازن الدولي الأوربي الذي جعل بعد ألمانيا قوة هائلة مرهوبة الجانب
من جيرانها . بل كان المشهد السياسي عام ١٨١٤ يختلف عن هذا جد الاختلاف .
فقد كانت فرنسا تُعَدّ يومئذ العدو العام ، وبروسيا - أجدر الدول بمراقبة الرين
وحراسته .

واسترشاداً بالفكرة عنها القائلة بوجوب إعادة أوروبا إلى أحضان المبادئ
الحافظة والتعقل ، مُنح النمساويون ذلك المركز المسيطر في شمال ووسط إيطاليا ،
ذلك المركز الذي أثار بعد وجيز وقت مؤامرات القومية الإيطالية وحروبها ،
فقد نالوا مملكة لمبارديا ومقاطعة البندقية ، واستعادوا تريستا والساحل السلاسي ،
وقروا عيناً برؤية أرشدوق نمساوي يملك في فلورنس ، وأرشدوقه نمساوية تملك في
بارما . ولما كان فرديناند الرابع الذي ربطتهم به روابط القرابة والسياسة والمذهب
قد أعيد إلى أريكة عرشه في نابلي ، بعد إعدام ميلا في سنة ١٨١٥ ، فقد
امتد نفوذهم من أقصى شبه الجزيرة الإيطالية إلى أقصاها . والحق أن النمسا
قد خرجت من حروب الثورة والإمبراطورية الفرنسية ظافرة بأكبر حصّة من

الأسلاب ، فزاد عدد سكانها نحو أربعة ملايين ونصف مليون نسمة ، وكادت سيطرتها على إيطاليا تكون كاملة ، وبرزت كرئيسة لاتحاد جرمانى حديث الإنشاء محلول العرى .

مضلة بولندا
وسكونيا

وقد وصلت الدول المتحالفة إلى هذه الترتيبات دون إثارة جدول أو خلاف كبير بشأنها ، كجزء من خطة عامة ترى إلى إقصاء نفوذ فرنسا من تلك الممالك الذى نشرته فيها فتوح نابليون . ولكن الصعوبة الكبرى فى التسوية قامت فى ذلك الإقليم الواقع فى شرق وسط أوروبا ، حيث ما زالت مشكلته جد شائكة إلى اليوم وهى : ما الذى يُصنع بدوقية وارسو العظمى التى اقتطعها نابليون من ولايات بروسيا البولندية ، وسلمها إلى ملك سكونيا ليحكمها ؟ بل ، إذا يُصنع بملكة سكونيا نفسها ؟

فلقد كانت روسيا تشتهى امتلاك بولندا ، وكانت بروسيا تشتهى امتلاك سكونيا . ولأن تينك الدولتين تركتا إعلان بأنفسهما ما بينهما حسب مشيئتهما ، لاختلفت بولندا وسكونيا من خريطة أوروبا . بيد أن حلا كهذا لم يكن تنسيغه قط النضا وفرنسا . فلم تكن الأولى تطبق أن ترى مزاحمتها بروسيا تكبر إلى هذا الحد . وكانت الأخرى تؤمل خيراً كبيراً فى قيام دولة بولندية محررة . ولقد أوصلت هذه المشكلة المؤتمر إلى شفا الحرب . وأخيراً وصل المفاوضات إلى تسوية تنال بروسيا وفقها نحو ثلثى سكونيا ومقاطعات الرين ، وأقيمت فى بولندا ملكية دستورية تحت حكم قيصر روسيا .

انتصار الحقوق
الشرعية

وكانت قاعدة « الحقوق الشرعية » التى نادى بها نالييران هى قوام تسوية مؤتمر فيينا وروحها . فالحقوق المشروعة هى التى أعادت آل بوربون إلى فرنسا ، وهى التى أنقذت سكونيا لآل ^(١) Wettins ، وهى التى ثبتت سلطان البيت المالكة فى سردينيا . ولم يبق أى اعتبار لقومية أو لرغائب السكان . ولهذا السبب كان السواس الذين وضعوا معالم التسوية فى

(١) اسم أسرة نخرج منها عدة بيوت مالكة أوروبية ، ومن بينها البيت المالكة فى سكونيا .

فينا على نقيض تام ، أهدافاً ومبادئ ، مع مبدعى أوروبا التي تقوم اليوم .
 فإن معاهدات الصلح عام ١٩٢٠ انطوت على تسوية ديمقراطية لم تغدُ مستطاعة
 إلا بسقوط تلك الملكيات عينا التي عهد إليها مؤتمر فينا بتوطيد دعائم الأمن
 والسلم في أوروبا . فقد خلقت تسوية سنة ١٩٢٠ جمهوريات جديدة ،
 وأعادت توزيع الحدود ، وقبلت انحلال الإمبراطورية النمساوية العتيقة ،
 وأقامت أوروبا جديدة وفق مبدأ تقرير المصير : ذلك المبدأ الذي نادى به
 الثوار الفرنسيون ، ولكنه ضاع وطوى بعدمه أمداً طويلاً . فبادئ الرئيس
 ولسن كانت تعتبر في نظر مؤتمر فينا ككفراً وبهتاناً . فقد كان ذلك المؤتمر
 يؤمن تحت توجيه مترنخ وتاليران وكاسلريه بأن رخاء أوروبا لا ينال بالعمل
 حسب الرغائب المزعومة للشعوب صاحبة الشأن ، بل ينال فقط بإطاعة
 السلطات الشرعية طاعة مطلقة تامة .

عودة نابليون

، ولقد كان من حسن التوفيق للمبادئ المحافظة أن ملوك الدول المتحالفة
 ووزراءها الذين كانوا مجتمعين في فينا ، علموا في ٧ مارس سنة ١٨١٥ بأن
 نابليون نزل مرة أخرى بأرض فرنسا . فلزاء ذلك الخطر ، بادروا بإنهاء
 أعمال المؤتمر في نحو أسبوعين فقط ، وأعلنوا أن نابليون شخص مشبه خارج
 عن حمى القانون ، ووضعوا شروط التحالف الحربى ضده . وبذلك حرموه
 قبل أن يضرب أية ضربة ، من كل سلاح دبلوماسى . ولهذا السبب فلان
 نابليون كان سيُصرع حتماً في آخر الأمر ، بواسطة قوات أوروبا المتحدة ،
 حتى لو أن موقعة ووترلو انتهت على غير ما انتهت إليه .

ومن بين جميع الخطط التي كان يمكن لنابليون أن يرسمها لمغامراته اليائسة
 بعد عودته ، كان خيرها لحمل فرنسا على الانسواء تحت علمه والخروج
 لنصرته ، هي حملة يوجهها إلى بروكسل . فلقد كان للبلجيكي خلال قرون
 عدة قيمة رمزية وسحر غامض في أعين الأمة الفرنسية . إذ كانت ترى في
 امتلاكها سبيلاً إلى السيطرة على المصب العظيم لنهر الرين . ولذا روت الدماء
 الفرنسية تربة ذلك القطر الصغير المرة بعد الأخرى . وأذكى مطمح امتلاكه

أذهان السياسيين الفرنسيين في كل عهد وجيل . ولما كان أيضاً فتح البلجيك أول وأهم أعجاد الجمهورية الفرنسية الفتية ، وكان فقدانها أعظم ضربة وُجّهت للإمبراطورية ، فإن استرجاعها كان وقتئذ أشهى مكافأة إلى قلوب الفرنسيين . فكان نابليون إذن على حق حين سدد ضربه نحو بروكسل ، كما كان ولنجتن مصيباً أيضاً عند ما اتخذ موقفه في ساحة ووترلو ، ليسد عليه المسالك .

ووترلو

ففي يوم طال نهاره من أيام يونيو سنة ١٨١٥ : يوم خالد في تاريخ البشر ، تقرر نتيجة ذلك النضال العظيم والصراع الماثل بين الثورة من جهة ، والأسرات المالكة الأوربية من جهة أخرى ؛ ذلك الصراع الذي افتتح بتراشق المدافع في واقعة فالمي قبل ذلك بثلاث وعشرين سنة . فلقد مزق جيش ولنجتن الذي تألف جزء منه من جند بريطانيين ، وجزء آخر من جند ألمان ، وثالث من بلجيكيين وهولنديين ، والذي أيده تأييداً قوياً عند اقتراب الفسق جيش بلوخر البروسي — مزق جيش ولنجتن آخر جيش من جيوش نابليون .

وإذا قيس تلك المعركة بمقياس الملاحم الحديثة ، بدت نافهة ضئيلة^(١) . أما إذا قيس بمقدار ما أذكت في النفوس من فخرار روجي ، فلا يفوقها ، في الروعة وخطورة الشأن سوى انتصارات عظيمة معدودة . ذلك أن ووترلو كانت الفصل الختامي من فصول رواية مفاجئة ، وكانت نهاية عصر ، وبداية عصر آخر .

اعتدال الحلفاء

ومما يذكر بالفضل للسياسة البريطانية أنه عند وضع تسوية جديدة مع فرنسا عقب « حكم المائة يوم » ، عوملت تلك المملكة المهزومة بالاعتدال . ولو أن بروسيا تمكنت من أن تنال مرادها ، لكانت مقاطعتنا الألزاس واللورين من بين التضحيات التي فرضت وقتئذ على حكومة لويس الثامن عشر بعد عودتها إلى الحكم . بيد أن ولنجتن وكاسلريه أيقنا أنه ليس

(١) تألف جيش ولنجتن — الذي كان في نظر قائده « أسوأ الجيوش عدة كما كان أسوأها قيادة من حيث هيئات أركانه » — من ٢٣ ألف جندي بريطاني ، و ١٧ ألف جندي بلجيكي وهولندي ، و ١١ ألفاً من هانوفر ، و ٥٩٠٠ من جنود برنزلوك ، و ٢٨٠٠ من جند ولاية ناساو .

ثمة ما يؤدي إلى زعزعة سلطان البوربون وإضعاف هيبتهم ، أعظم من أن يُطلب إلى فرنسا تحمل هذه الخسارة الفادحة . فلقد كان من مصلحة إنجلترا ، كما كان من فائدة أوروبا ، أن تقدّم كل معونة ممكنة للأسرة الفرنسية المألكة كي تسترجع وتحفظ بولاء الشعب الفرنسي لها ، رغم الصدمة الكبرى التي أصابها في بعدها عن أجداد الإمبراطورية الحربية . وقد رُفِي بحق استحالة نهوض الملكية بهذا العمل ، لو أنه نفذ البرنامج الروسي الخاص بتوزيع الغنائم .

نعم ، قُضِيَ على فرنسا أن تتخلى عن دوقية بويون Bouillon ، وشطر من الآردن The Ardennes إلى مملكة الأراضي المنخفضة ، وأن تسلّم حصون سارلوي Saarlouis ولنداو Landau لألمانيا ، وأن تدفع غرامة قدرها سبعمائة مليون فرنك ، وأن تخضع لجيش احتلال لفترة من ثلاث إلى خمس سنين ، وأن تعيد الكنوز الفنية التي سمحت لها معاهدة الصلح السابقة بأن تبقىها في يدها . ولكن لم يكن في هذه الشروط ما يتعذر على كرامة فرنسا القومية احتماله .

غير أن الحوادث بورت مخاوف القيصر إسكندر ، الذي أظهر ارتياحه في حكمة إرجاع بيت بوربون لحكم فرنسا . فإن شجرة الحقوق الشرعية فشلت في أن تنضج وتينع في تربة ما زالت تغطى بحمم الثورة . ولم يقدر تحالف أوروبا على إنقاذ فرنسا من براثن الانقلابات ، وأن يحول دون عودة الأفكار البوفايرية وتأسيس إمبراطورية ثانية فيها بعد . ولكن رغم جميع نقائص ذلك الصلح فإنه منح أوروبا سلماً نسبياً مدة أربعين عاماً .

الفصل التاسع

مترنخ ، وكاسلريه ، وكاننج

أهداف الحلفاء . تضامن أوروبا . التحالف المقدس . ألمانيا . نظام مترنخ .
النمسا وإنجلترا . حرب استقلال اليونان . محمد علي والتدخل المصري . جورج
كاننج . دور الأسطول البريطاني في نيل اليونان وأمريكا الجنوبية استقلالهما .

١ - تضامن أوروبا

أهداف الحلفاء . لقد سببت الثورة الفرنسية ونابليون المتاعب العديدة للحكومات أوروبا ،
حتى باتت الفكرة المسيطرة على عقول عواهل ووزراء « التحالف الأعظم »
the Great Alliance ، بعد ترحيل « المارد القرشي » إلى جزيرة سنت
هيلانة ، وتثبيت لويس الثامن عشر على سرير ملكه - حتى باتت الفكرة
المسيطرة عليهم هي العمل على منع عودة الثورة الفرنسية ونابليون وما شابههما
منعاً باتاً . وكما صرخت بصوت واحد الشعوب المهوكة المؤلفة للتحالف المظفر
عام ١٩١٨ ، مطالبة « باستئصال روح الحرب البروسية » ، كذلك عقد
الظافرون سنة ١٨١٥ الخناصر على العمل على منع تكرار الثورة الفرنسية ،
وضرورة اجتناب كل رأى حرّ من أصوله على الفور ، لتلا يفرخ وينمو ويؤثى
ثمّاره الخبيثة الثورية . فورا كل حركة قاسية غشومة من حركات الرجعية التي
سادت سياسة القارة الأوروبية أثناء الثلاثة والعشرين عاماً القادمة كان يابح
على اللوام ذكرى مفاصل الثورة الفرنسية الحديثة العهد ، والخوف المساور
للتفوس بما قد تعود ثورة أخرى إلى صنعه مرة ثانية .

وكان طبعياً أن تكون أحاسيس البغض والفرع من الثورة على أشدها

في الدول الأوتقراطية الثلاث التي غزت جيوش نابليون أرضها ، وعفرت عزتها وكرامتها في التراب . فلم يجد قياصرة روسيا والنمسا وبروسيا أية صعوبة في الانتهاء إلى الرأي ، بأن واجبهم لإزاء أوربا ، وإزاء الحضارة ، يلزمهم بالتحالف معاً ضد روح الثورة ، والتعاون على سحق رأسها المقيت أينما أطل . وأملوا أن يظفروا في هذا العمل بعطف الحكومة البريطانية وتأييدها المطرد . ولكن تلك الحكومة خيبت آمالهم وأطاشت رجاءهم .

بريطانيا بعد
الحروب
النابليونية

فقد خرجت بريطانيا من الحروب النابليونية بنظام صناعي جديد ، وإمبراطورية جديدة ، وظفرت بمالطة ومستعمرة رأس الرجاء الصالح وجزيق مورتويس وسيلان ، ودافعت عن كندا دفاعاً ناجحاً في حرب ضد الولايات المتحدة نشبت سنة ١٨١٢ ، بسبب النزاع معها على حق تفتيش السفن في عرض البحار . وشرعت تنمى تجارة عظيمة نافقة مع المستعمرات الأسبانية والبرتغالية في أمريكا الجنوبية — هذه المستعمرات التي انتهزت فرصة حرب شبه جزيرة إيبيريا ، فخرجت على الدولتين المستعمرتين لها . وقد اختلف أيضاً مركز بريطانيا عن مركز حلفائها في القارة في وجود مصالح كبيرة نامية لها خارج أوربا ، وأن نابليون لم يفرق قط أرضها .

أضف إلى ذلك أن إنجلترا حافظت — حتى في عهد أشد حكوماتها رجعية — على نظامها البرلماني وحريةها المدنية . فقد انهم كاسلريه وزير الخارجية البريطانية ، الذي قاد الأمة إلى النصر إبان الأطوار الختامية للحروب النابليونية — اتهمه بنو جلدته بأنه المثل الحي لأقيم ألوان الرجعية والتأخر . ومع ذلك فإنه لو قورن هذا السياسى المحافظ الإنجليزي ، بإسكندر قيصر روسيا ، أو مترنخ كبير وزراء النمسا ، لبدا ملاكاً من ملائكة الحرية والحكم السليم المتزن .

ولكن رغم اختلاف إنجلترا في وجوه عديدة مع دول القارة ، فإنه لم يكن في مقدورها ، نظراً للدور الخطير الذي لعبته في الحرب ، أن تأبى المساهمة بنصيب رئيسى في إعادة تنظيم أوربا . فقد ألزمتها الحرب نبذ عزلتها ،

وتوثقت العلاقة بين الساسة الإنجليز وكبار رجال السياسة في الأقطار الأخرى ، وظهرت في محيط التحالف الأعظم روح تعاون دبلوماسي ، وكان مترنخ وكاسلريه مرتبطين بشعور خالص غير مصطنع من الاحترام المتبادل . ولذا فإنه رغم رغبة بريطانيا في الاشتراك في « التحالف المقدس »^(١) ذي الصبغة الدينية الغامضة ، الذي أنشأه قيصر روسيا ، فإنها انضمت إلى تضافر أوربي^(٢) Concert of Europe ، كان أميل إلى الوجهة العملية .

التضافر الأوربي وقد تعهدت الدول المؤلفة له وهي : روسيا والنمسا وبروسيا وبريطانيا ، باستمرار العمل على إقصاء بيت بوناپرت عن فرنسا . ولكن لم يجُلْ إذ ذاك في خاطر ساسة تلك الدول . الذين أنكروا مبدأ القومية ، أن يقيموا عصبة أمم . غير أنه نُصِّ في مواد هذا التحالف الرباعي Quadruple Alliance ، على وجوب اجتماع ممثلي الدول المتعاقدة في فترات يتفق عليها للبحث في مصالحها المشتركة ، وفي الشؤون التي تمس سلام أوروبا وأمنها .

سياسة مترنخ
وكاسلريه

ولم يكن في الاستطاعة وقتئذ ابتكار أداة خير من هذا التضافر المؤلف من دول أربع عظمى مرتبطة معاً بعهود العمل على صيانة قضية السلام الأوربي . بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى أضحي جليلاً أن اتحاد تلك الدول كان اسماً أكثر منه حقيقة . فعلى حين كان مترنخ يبغي جعل التحالف الرباعي أداة فعالة لقمع الحركات الحرة في جميع أرجاء أوروبا ، كان كاسلريه يرى أنه ليس جزءاً من واجب الدول الأربع أن تتدخل في الحكم الداخلي للدول .

ولقد كان كاسلريه عافظاً ، وكان في أعين خصومه الأحرار المثل المتجسد لاستبداد المحافظين ، وآلة في يد التحالف المقدس — رغم رفضه الانضمام إليه — وعلو المبادئ الحرة في مشارق الأرض ومغاربها . غير أنه في الواقع ، بينما كان يبغي تقوية ألمانيا كي تصبح سداً في وجه كل من فرنسا وروسيا ،

(١) هو إعلان يحوى بعض مبادئ الحكم المطلق ، ومبادئ أخرى مسيحية ، ليس لها أية نتائج قانونية .

(٢) أبرم في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥ .

ويعرف قيمة التحالف مع النمسا ، كدعامة من دعائم المبادئ المحافظة الأوروبية ، فإنه لم تكن له رغبة في مشاهدة إنجلترا تُجرَّ إلى التدخل في المشاحنات الداخلية لدول القارة . إذ مع تمسكه الشديد بالمبادئ المحافظة ، كان يعرف جيداً أن مواطنيه لن يسمحوا لأنفسهم بالاشتراك في سياسة مترنخ المنطوية على الشدة والقمع .

وقد ازداد باطراد الخلاف بين وجهة نظر السياسة الانجليزية التي كانت في صميمها حرة ، ووجهة النظر النمساوية التي كانت محافظة غاية المحافظة ، إلى أن اخترمت المنون حياة كاسلريه في أغسطس سنة ١٨٢٢ ، واستلم كاننج خيزرانة الأمور مكانه ، حينئذ ظهر الخلاف بين الدولتين جلياً سافراً .

وفي الوقت الذي ظهر فيه « تضايف أوروبا » الآنف ، تكون في ٢٦ سبتمبر التحالف المقدس سنة ١٨١٥ اتحاد أوثق من الدول الأوروبية الأوتقراطية الثلاث : روسيا وبروسيا والنمسا ، استمر حتى سنة ١٨٢٦ . وكانت سياسته تهدف إلى مقاومة مبادئ الحرية ، والقضاء على جرائم الثورة . وهذا الاتحاد هو الذي سمي « بالتحالف المقدس »^(١) وهو التحالف الذي ألجم الحياة الفكرية في ألمانيا ، وقمع الحركات الدستورية التي قامت في إيطاليا ، وأرجع أسبانيا إلى أحضان الحكم المطلق ، وأبى الاعتراف بديمقراطيات أمريكا الجنوبية النائرة . وقد اصطدم هذا التحالف اصطداماً عنيفاً بفلسفة إنجلترا السياسية الأمل إلى الحرية ، في مؤتمرات تروپاو Troppau (سنة ١٨٢٠) وليباخ Leibach (سنة ١٨٢١) وفيرونا Verona (سنة ١٨٢٢) .

ومن العجيب أن جيته وصف هذا « التحالف المقدس » بأنه لم يُبتكر ما هو أعظم منه ، وأجلّ فائدة للجنس البشرى . وآراءُ جيته جديرة بالاحترام . ولعل من المفيد ألا يغرب عن البال ، أنه بعد أهوال الحروب النابليونية واضطراباتها العنيفة ، شعر سواس الأمم الظافرة أن واجهم نحو الإنسانية

(١) دعيت الدول الأوروبية المسيحية إلى الانضمام إليه . وقد قبلت جميعها ذلك « ما عدا إنجلترا » .

يقضى عليهم بابتداع وتجربة طريقة من الطرق ، لتنظيم العلاقات الدولية تنظيماً أفضل . وكان هذا هو رأى بيت من قبلهم ، كما كان حلم إسكندر القيصر الروسى ، الذى أخذ تارة يبت رؤيا روحية للاتحاد المسيحى ، وتارة أخرى يرسم معالم خطة غامضة مبهمه لعصبة عامة تتألف من الموقعين على معاهدة فيينا . وكان هذا أيضاً هو مقصد كاسلريه ، الرجل العملى ، الهادئ ، الرابط الجأش .

ولكن هذا التحالف المقدس الذى تزعمه العواهل الثلاثة الأوتقراطيون ، والذى أوحى به إسكندر ، والذى كان نظاماً من أنظمة مترنخ لحكم أوروبا ، والذى نال حظوة فى عبنى جيته غير المغرض - إن هذا التحالف عجز عجزاً كبيراً عن أن يساير حماس القيصر فى طوره الأول ، أو حذر كاسلريه المقرون بالتسامح ، أو يماشى القواعد التى ينبغى أن تنظم أوروبا بمقتضاها تنظيماً فعالاً .

ولم يرتكز هذا التحالف على أساس من الرأى العام ، بل سار ضد أقوى الأمانى الشعبية الغالبة فى ذلك العصر . ولكن لما كان يناصره سيد الجيش الروسى ، أضخم وأقوى جيوش أوروبا ، فإنه حرك الريب نحوه فى دول أوروبا الغربية . ومع ذلك فقد كان هذا التحالف فى نظر جيته أداة عملية لجلب شىء من السلام والنظام والخلق إلى المجتمع الأوروبى . ولذا نال رضاه .

معارضته لروح
العصر

غير أن الفكرة بأن فى الإمكان حكم أوروبا حسب مبادئ محافظة سلبية ، كانت فكرة خيالية إلى أقصى حدود الخيال . فلم يكن هذا العصر الذى هو عصر سكُت وبأيرن ، وعصر شلى وكولردج ووردزورث ، وعصر تجارب فروبيل فى تربية الطفل ، ومغامرة روبرت أوين فى الاشتراكية - لم يكن هذا العصر عصر خلود ذهنى ، بل عصر يقظة ونشاط فكري نادر النظم .

وكان من الخطأ أن يفرض أن أوروبا ، وقد أذكى نفوس أبنائها كثير من الأحلام والأفكار ، وأيقظها شعراؤها وروائيوها ، وشبابها الجامعى المضطرم حية ، وجندها وبجارتها المسرحون الذين تاقَت نفوسهم إلى مغامرات جديدة - كان من الخطأ أن يفرض أن أوروبا ، وحالها هذا ، تقبل فى استكانة - لمجرد خور قواها وحلول الكلال بها - تسوية الصلح التى أبرمت فى فيينا ، ولقد

السخط على
تسوية فيينا

هوجم مهاجمة عنيفة واضعوا صلح الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ ، لأنهم عتوا أكثر مما ينبغي بمبدأ القومية وبالرغائب المزعومة للسكان . ولكن التبرم والسخط من تسوية فيينا كانا أهم إبان مدة مترنخ ، ولو أن سببها كان عكس ذلك . فقد كان الإيطاليون ساخطين ناقلين تحت حكم النمساويين ، والبلجيكيون تحت حكم الهولنديين ، والبولنديون تحت نير الروس والبروسيين ، والصربيون واليونانيون تحت ربقة الأتراك .

كما أزهقت في قسوة آمال خيار الألمان في أن الجهود الواسعة النطاق التي بذلوها في حرب التحرير ، ستفر عن اتحادهم القومي وقيام حكومة دستورية في بلادهم . إذ لم يتكوّن اتحاد . وإنما كُوّن « مجمع » أو « ديت » Diete ينتظم تسعاً وثلاثين ولاية ، لكل منها حق مباشرة سياستها الخارجية بنفسها ، وأن تمنع وحدها إجازة وتنفيذ كل قرار هام يتخذه هذا المجلس الصاهلى . ولم يكن ثمة رابطة سياسية بين الولايات المنتظمة في الديت ، لأن دولا غير ألمانية كالدنمارك ولكسمبرج كانا لها كراسى فيه . ولم توجد حياة نيابية نشطة في أية ولاية ألمانية ، إلا في بافاريا وبادن . إذ كان يغلب عليها نظم متشابهة من الاستبداد غير المستنير الذى ينزع إلى التخفى والسرية . ورغم تعهد ملك بروسيا رسمياً بمنح رعاياه نظاماً برلمانياً ، أفلح نبلاء بروسيا الإقطاعيين في منع عقد برلمان في برلين . فكان الأحرار الألمان - وهم أقلية على الدوام - يحصلون بباريس ولندن مناقشاتهما البرلمانية الرائعة ، ويفكرون في تقصير بلادهم وجلبها السياسى ، ويسائلون أنفسهم عما إذا كان الوطن قد كسب شيئاً ذا قيمة من وراء بذل الدماء الغزيرة ، وضياح بدرات الأموال والكنوز في الحروب النابليونية .

اختلاف آماني
الألمان

أما العلة الكبرى لهذه الهمة ، فقد نجمت عن اختلاف الألمان أنفسهم فيما بينهم في رسم خطة لإنشائية لمستقبل بلادهم . فكان البعض منهم يصبو إلى قيام دولة ألمانية تحت حكم بروسيا ، والبعض الآخر إلى دولة ألمانية تدين بالولاء للتاج النمساوى ، وآخرون برومون اتحاداً تعاهدياً تستطيع فيه النمسا

وبروسيا والولايات الألمانية الصغرى أن تكونَ فرقاً متكافئة تتبادل التعاون فيما بينها . فلاحق ألمانيا للعالم الخارجى كأنها تتحرك وتسير فى ضباب فلسفى ، أو كما وصفها ميشليه Michelet المؤرخ الفرنسى ، « بأنها آسية أوروبا » .

ولم يكن الحرمان من الحقوق القومية هو وحده الذى هدد خفية السلم الأوروبى . فى الجهات التى سيطرت عليها الأوتقراطيات الثلاث أو خضعت لتفوذها ، شاع قمع للآراء قاس عنيف . فعادت إلى الحياة مرة أخرى جميع أدوات السيطرة البابوية : الجزويت ، ومحاكم التفتيش . وتحريم الكتب . فى إيطاليا أدار القساوسة - تؤيدهم الحراب الفساقية - المدارس ، وراقبوا الصحافة ، وحرموا طبع أى مؤلف انحرف أقل انحراف عن جادة أدق الطرق الكاثوليكية . . . وفى عهد الملكية الأسبانية ، كانت الكنيسة بأوقافها الواسعة الضخمة ، وإعفاءاتها المالية من الضرائب ، وبتأييد السكان الجهلة المتشبعين بالخرافات - كانت الكنيسة فى مركز يجعلها تدير سياسة الدولة .

سياسة القمع

ولكن كان من حسن التوفيق أن الهوان والانحطاط لم يصلا فى ألمانيا النصف البروتستانتية إلى هذا الدرك السافل ، فإن جامعة جيتنجن Göttingen التى أسسها جورج الثانى سنة ١٧٣٤ ، والتى تمتعت بحصانة نسبية من التدخل الحكومى نظراً إلى مركزها الممتاز فى هانوفر ، بدت فى ثوب من الحرية جميل . أما فيما عداها من الجهات ، فقد كان القمع ، العلمى ، بتعليمات فينا ، هو القاعدة العامة السائدة .

٢ - استقلال أمريكا الجنوبية

ولكن فى الجانب المقابل لأوروبا الرجعية غير القومية ، بدا منظر آخر طاب له نفوس الأحرار فى إنجلترا : هو منظر القارة الأمريكية . فى شمال تلك القارة ظهرت جمهورية قوية تمكنت من الظفر بحريتها ، وفى الجنوب

عين الأحرار
الإنجليز

والوسط شرع عدد من الجماعات تحت زعامة سيمون بوليفار الكاراكاسي^(١) Simon Bolivar of Caracas — تلك الزعامة الحافزة للنفوس ، المذكية للهمم ، وبمساعدة غير رسمية ليست بضئيلة من بحارة وتجار إنجليز ، وعلى الأخص من اللورد كشرين Cochrane الرائع الذكاء — شرعت تلك الجماعات تناضل لتحرير نفسها من ربة أسبادهما الأوربيين . وكانت إنجلترا ، بالنسبة إلى تطورها التجارى الكبير ، ذات صلات خاصة بهاتين القارتين الأمريكيتين ، واستغلت استغلالاً تاماً انتشار زراعة القطن في ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية تحت تأثير اختراع المحالج سنة ١٧٩٣ . بيد أن التجارة الأوربية بأكملها نفقت وترعرعت مع المستعمرات اللاتينية الجنوبية بعد إعلان تمردهما .

عصيان
المستعمرات
الأسبانية
والبرتغالية

فقد أخذت مستعمرة نلومستعمرة ترفع عن عنقها نير سيدتها الأوربية ؛ فحرر كشرين بيرو ، ثم البرازيل . وأعلن بوليفار استقلال كولبيا ، وأعان إتربيد Iturbide استقلال المكسيك . وأضحى جلياً واضحاً قيام إمبراطورية تجارية جديدة تقدم فرصاً مناسبة للمغامرين البريطانيين السعيدي الطالع . فرفع تجار مدينة لندن نداء يطالبون فيه الحكومة البريطانية بموجب تنظيمها هذه التجارة النامية وتأمينها بالاعتراف رسمياً بالمستعمرات الثائرة .

سياسة كاننج

وكان السياسى الإنجليزى الذى قُسم له أن يعالج هذه المشكلة هو جورج كاننج (١٧٧٠ — ١٨٢٧) ، وهو خطيب مفوه ، وذكى لبيب . فع أنه كان وزيراً فى حكومة إنجليزية محافظة ، وخصماً لا يابن للإصلاح البرلماني ، إلا أنه كان فى السياسة الخارجية رائداً من رواد ذلك اللون الحديد من الدبلوماسية الحرة الشعبية التى واصل اتباعها بعده بلمرتون Palmerston أحد تلاميذه العظمى الإعجاب به . وصارت تلك الدبلوماسية مدى قرابة نصف قرن شوكة فى جنب ملوك أوروبا وحكامها الأوتقراطيين .

ولم يكن من سياسة كاننج أن يؤيد نظاماً جماعياً لإقرار النظام فى الأقطار

(١) انظر كتاب « بوليفار » بقلم ودع الضع .

الأجنبية . فع أن النمسا بموافقة روسيا وبروسيا ، أثرت أن تخمد الفتن والثورات التي نشبت في نابلي ، فقد كان هذا في نظره هو شأنها الخاص بها وجدها . ومع أن فرنسا أنفدت جيشاً إلى أسبانيا للقضاء على فتنة عسكرية أجبرت ملكاً مستبدّاً خاضعاً لنفوذ الإكليروس على منح دستور لبلاده سنة ١٨٢٣ ، فهذا أيضاً لم يكن في رأيه بالأمر الذي يتطلب موافقة إنجلترا وتأييدها . بل على التقيض من ذلك ، نظرت لندن إلى الغزو الفرنسي نظرة قلق شديد . إذ ماذا تعمل لو أن الجيش الفرنسي بعد قمعه هذه الفتنة ، ظل معسكراً في أسبانيا ؟ وما العمل لو أنه غزا البرتغال ، حليفة إنجلترا ؟ وما العمل أيضاً لو أنه أعان الأسبان على استرجاع جزر الهند الغربية ؟ غير أن كاننج وطن عزمه على منع احتمالات مزعجة كهذه . ولهذا السبب اعترف بالثوار الأمريكيين الجنوبيين ، رغم استياء عواهل أوروبا الأوتقراطيين واستنكارهم الشديد .

تصريح منرو

ومع عظم الضجة والدهشة اللتين نجمتا عن هذا الاعتراف الخطير الشأن ، فإن الضجة والدهشة كانتا تغدوان أعظم ، لو أنه اعترف بمركز المستعمرات الأمريكية الجنوبية بإصدار إعلان مشترك من لندن و واشنطن ، كما اقترح كاننج . بيد أن الولايات المتحدة بمشورة جون كونسى آدمز John Quincy Adams وزير خارجيتها صممت على أن تصدر تصريحاً خاصاً . فأعلن الرئيس منرو onro في رسالة شهيرة إلى الكنجرس مبدأه الشهير الخاص بأن أمريكا للأمريكيين ، وأذاع إنذاراً خطيراً إلى العالم القديم بأن الولايات المتحدة لن تطبق استعماراً أوروبياً جديداً لأية بقعة من بقاع أمريكا . ولقد سبق مبدأ منرو تصريح كاننج . ولكن الذى وقى قارة أمريكا الجنوبية إبان الشطر الأكبر من القرن التاسع عشر من أى هجوم أوروبى عليها ، هو سطوة أسطول ملك بريطانيا وقوته ، أكثر من الأمنية الجلييلة التى فاه بها رئيس الجمهورية الأمريكية .

٣ - حرب استقلال اليونان وتدخل محمد علي

وعقب ذلك ، ساهم الأسطول البريطاني - الذي لعب دوراً كبير الشأن تشجيع الإنجليز
اليونان في تحرير أقطار أمريكا الجنوبية - في تحرير بلاد اليونان .

ولقد أظهر بشكل بارز نضال الأمة اليونانية في سبيل تحريرها من الحكم التركي نزعيتين متضادتين في الحياة الدولية . ففي نظر نبلاء النخسا المتلمذين على الحزويت ، كانت القومية اليونانية مرضاً من الأمراض ، اعتقدوا بحق أن انتشار عدواه في وادي الدانوب ، يحمل معه انهيار دولتهم ، أما سادة إنجلترا ، فلم تخامر نفوسهم مخاوف كهذه . فقد كانوا يتمتعون بنعم القومية الإنجليزية ، رغم قمعهم روح القومية في أيرلندا . أما القومية الهندية فكانت ما تزال أمراً بعيداً .

وقد جعلهم التعليم الذي تلقوه في مدارسهم متشيعين للهيلينية ، وجعلتهم الحياة العامة البريطانية برلانيين ، وهفت عواطفهم ، بصفة كونهم محبين للنصفة والعدالة ، إلى نصرة أمة صغيرة تجاهد لنيل حريتها . ولما مات بايرن في ١٩ أبريل سنة ١٨٢٤ في مسولونجي Missolonghi مستشهداً في سبيل الحرية اليونانية ، شاعت الحماسة والحمية بين الإنجليز في كل صقع وفاد . ولم يقفوا لئسألوا عن مدى ما يروح باقياً من الهيلينية في تلك البلاد القديمة ، التي تعلمت الشبيبة الإنجليزية في قاعات المحاضرات في أكسفورد وكبردج أن تضعها موضع التبرجيل والإعجاب - لم يقفوا لئسألوا عن مدى ما بقى من الهيلينية في رعاية وقطاع الطرق وقرصان اليونان الحديثة وجزرها . فاقدم كان اسم اليونان طلسمًا من الطلاسم . ومع أن تركيا كانت وقتئذ صديقة لإنجلترا الرسمية ، وحائلا دون أطماع روسيا وتدابيراتها في الشرق ، إلا أن سواد الإنجليز وقفوا وراء جورج كاننج وزير الخارجية يستدونه ويشدون أزره ، حينما انتهى رأيه في آخر الأمر

إلى الاعتراف بالثوار اليونان كمحاربين ، وانضم إلى فرنسا وروسيا للعمل على إنقاذهم من الإبادة .

اليونانيون
الحديثون

أما هؤلاء اليونانيون الذين أذكوا لظى حرب الاستقلال ، فلم يكونوا ، لا ثقافة ولا دماً (إلا إلى مدى ضئيل هو موضع الحدس والتخمين) ذوى صلة يونانيي أفلاطون وأرسطو . فقد انحدر جلهم من سلالة السلاف والألبان الجهلة الأجلاف ، ورضوا بوضع عقولهم وأفكارهم تحت سيطرة رهبان الكنيسة البيزنطية وقسوسها . وكانوا يتخاطبون بالرومية Romaic ، وهى ضرب من اللغة اليونانية تشكل على أسنة الرعاة والبحارة ، واقتبسوا بحرية كثيراً من الكلمات التركية واللاتينية والسلافية ، وتعبيرات ملاحى بحر لإيجة العامية . وكانوا يستعملون الحروف اليونانية القديمة ؛ ولكنهم لم يكونوا يدرون شيئاً عن منظومات هوميروس ومآسى أخيلوس .

التفاخر بالماضى

وتدين كل حركة من الحركات القومية فى القرن التاسع عشر بالشئء الكثير لروحى الماضى الغابر . ففى نهضة الصربيين الوطنية الحديثة رجعوا بأبصارهم إلى ستيفان دوشان Stephan Dushan فى القرن الرابع عشر ، ورجع الإيطاليون إلى دانتي وفرجيل ، والبوهيميون إلى الأناشيد التشكية المعروف قديمها ، والإيرلنديون إلى لغتهم الأصلية «إرس» Erse . وقد خطرت لكوريس Korais ، وهو معلم من جزيرة كورفة ، الفكرة الرائعة بأنه يمكن نقل آداب اليونان القديمة إلى لسان وسط بين الأصيل الفخم واللهجة العامية الغالبة وقتئذ فى اليونان . وهكذا بخلقه لغة جديدة عاون هذا العالم المجد على ولادة أمة جديدة .

ضمت تركيا

وقد هيئت السبل للثورة اليونانية بسلسلة من الصدمات التى أوهنت من قوة الإمبراطورية التركية فى السنين الأولى من القرن التاسع عشر ، وبدت كندب شؤم بانحلالها المقرب . فقد خرجت عن طاعتها بلاد الصرب عام ١٨٠٤ تحت قيادة قوه جورج Gora George راعى الخنازير ، ونادت باستقلالها . وكذلك أعلن على باشا والى يانينا استقلال ولايته ألبانيا . وتمكن محمد على المغامر

الألباني من السيطرة على القطر المصرى . ففى هذه الظروف لاح لأثرياء اليونان — الذين كانوا قد أسسوا عام ١٨١٥ جمعية ثورية سرية تحت اسم « جمعية الإخوان » Philike Hetairia فى أودسا — لاح لهم أمل جديد لمستقبل جنسهم اهتزت له نفوسهم طرباً .

فى سنة ١٨٢١ تمكنت الجيوش التركية فى ولاية الأفلاق من القضاء بسهولة على تمرد تزعمه الأمير إسكندر إيسلانتى Alexander Ypsilanti ، أحد ياوران القيصر إسكندر الأول ، نتيجة سوء قيادته واستعداده ، ولعدم حصوله على المساعدة الروسية والرومانية التى اعتمد عليها .

بيد أن اليونانيين كانت لهم مزية لا يتمتع بها فى العادة الخارجون على السلطات المشروعة : هى تفوقهم على خصمهم فى البحار . فقد تمكنت السفن الأولى التى أنزلها سكان الجزر اليونانيون الأغنياء من تشديد الحناق على العدو ، وإنزال النجيدات حيث تظهر الحاجة . وتمكن يونانيو المورة والجزر بمعاونة المتطوعين من الدول الأوربية الغربية ، من أن يواصلوا مدى ثلاثة أعوام نصالاً . كاد يكون متكافئاً : نصالاً تميز بالفظائع الوحشية التى ارتكبها كل من الطرفين ضد خصمه القوى . بيد أن الموقف تغير فجأة بتدخل محمد على والى مصر القوى البأس فى جانب السلطان .

ومحمد على هذا هو مؤسس البيت المالك الذى كان يجلس على سرير الملك بالقاهرة . وهو ألبانى مسلم من أهل قولة . وهو فى سن يونابرت وولنجتن إذ ولد مثلهما سنة ١٧٦٩ . ولقد كان ثاقب النظر فى رؤية الفرص المواتية وانتهازها ، جم الحصافة فى تقدير الظروف . فكنته هاتان الخلتان فى كل خطوة من خطوات حياته المفعمة نشاطاً وهمة من سلوك السبيل الذى يجلب فائدة له — مهما يكن ذلك السبيل غادراً عتيفاً — وقد ميز نفسه كمحصل للضرائب فى بلده ، وميز نفسه بدرجة أفضل كتاجر تبغ . ولكنه بز الأقران ، وفاق كل مأمول ، كرئيس أورطة ألبانية فى الجيش العثمانى المعسكر فى مصر .

إخفاق ثورة
إيسلانتى

ثورة المورة

محمد على

ولقد استطاع محمد على ، بفضل تلك الأورطة التي كانت الوحيدة بين القوات التركية في مصر التي يمكن الاعتماد عليها ، أن يجعل نفسه سيد مصر . فطرد الأتراك ، وهزم البريطانيين ، وذبح المماليك ، وامتدت ذراع فتوحه إلى مكة والخرطوم منصوره ظافرة . وبأسطول اشتراه حديثاً من دول الغرب ، وبحيـش جند سواده من السودان ، ودُرّب على يد ضابط فرنسي كفء ، بدأ سياسة واسعة الأطماع بعيدة الأهداف : سياسة بدأت أصلاً في الحصول من السلطان على جزيرة كريت وإقليمى فلسطين والشام ، ككافأته على إخماد الثورة اليونانية ، ولكنها سياسة حوت — من بين أهدافها النهائية الخفية — قاب الإمبراطورية التركية .

وبدأ التدخل المصرى ضد اليونانيين في أول الأمر كأنه ينذر بالقضاء التام على أمانهم ومطامعهم . فقد اكتسح جيش مصر شبه جزيرة المورة ، وسيطر أسطولها على بحر إيجه . ثم أذيع على أثر ذلك في الدول الغربية أن الأسرى اليونانيين يباعون كأرقاء في القاهرة ، وأن سكان القسم الأكبر من بلاد اليونان مهددون بخطر الفناء . فنتيجة لذلك تدخل كاننج .

التدخل المصرى

فإنه رغم كونه محافظاً حسب تقاليد أسرته ، ورغم كونه عضواً في وزارة محافظة كانت تنظر شزراً إلى جميع العصاة من أى جنس ، لم تقبل نفسه أن تشهد ألم صقع من أصقاع أوروبا وأمجدها ، ومنيت الحضارة الأصيل ، يحتله جيش من الفلاحين والسود . وبدلاً من أن يسلم بإيادة اليونانيين . دعا الدول العظمى إلى التدخل لمصلحتهم . بيد أن النمسا وبروسيا رفضتا دعوته ، لعنايتهما المطرد الحرية . أما روسيا وفرنسا فقبلتا : الأولى لوجود نزاع بينها وبين الباب العالى ، والثانية من باب العطف على اليونان .

فأبرم كاننج في ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ مع روسيا وفرنسا معاهدة لندن ، التي نصت على التدخل ، بفرض حصار بحرى « سلمى » ، لإنشاء دولة يونانية متمتعة بالحكم الذاتى تحت سيادة السلطان ، ولذا يمكن اعتبار هذه المعاهدة الأساس الحقيقى لاستقلال اليونان .

التدخل
الأوروبى

ومع أن كاننج توفى في الشهر التالي (٨ أغسطس) ، وخلفه وزراء محافظون لا يشعرون بأدنى عطف على سياسة تؤدي إلى إضعاف الباب العالي ، أو تقوية القيصر ، إلا أنهم لم ينتفضوا عمله . وقد جرّ الحصار السلمي إلى المعركة البحرية التي لم تقرها الحكومة البريطانية ، والتي نشبت في خليج نوارين في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ . وكانت نتيجةها تدمير الأسطولين المصري والتركي عن آخرهما بواسطة الحلفاء الثلاثة . فأرغى الباب العالي وأزبد ، ورفض كل اعتذار أو احتجاج . ولكن ظهر أسطول إنجليزي أمام ميناء الإسكندرية ، وتوغل جيش روسي في أراضي السلطان حتى وصل أدرنه ، وأنزلت كتائب فرنسية قوية في المورة ، فاضطر محمد علي إلى إجلاء جنده عن المورة ، والسلطان إلى منح اليونان استقلالاً داخلياً تحت سيادته .

استقلال
اليونان التام

ولما سقطت حكومة المحافظين في إنجلترا سنة ١٨٣٠ ، وصار بلمرستن أحد أعضاء حزب الأحرار وزيراً للخارجية ، زالت جميع العراقيل للاعتراف باليونان دولة مستقلة كل الاستقلال عن تركيا (سنة ١٨٣١) . وقد ألبت الدبلوماسية التي اضطرت قهراً إلى إقرار العمل غير النظامي الذي اضطلع به الجنود والبحارة والمغامرون الأوروبيون الذين اشتركوا في المواقع الحربية - ألبت الدبلوماسية الدولة الطفلة حلة من الاحترام والمهابة الملكيين . فدعى أمير باغاري اسمه أتو Otto للجلوس على سرير مملكة يتعذر النهوض بها . إذ لم تكن تضم يومئذ إلا جزءاً من الأمة الناطقة باليونانية ، لأن تساليا وكريت لم تنضم إليها وقتئذ .

انتصار القومية

ومع أن مملكة أتو الصغيرة لم تكن تنزل الرعب في قلب أحد ، إلا أن ثورة اليونان رغم ضآلة قيمتها من حيث تغيير التوازن الدولي في أوروبا ، كانت حقاً ذات أثر جليل بعيد . ففيها سُدَّتِ الضربة الأولى الناجحة ضد حكم أوروبا حكماً أوتقراطياً وفق مؤتمرات دولية ، وفيها أصيبت الدولة العثمانية بأشد جروحها حساسة ، وفيها كسبت روح القومية المصرية - التي قدر لها أن تحكم فيما بعد إيطاليا وبولندا وبوهيميا وإيرلندا ، وتلك الإمبراطورية النمساوية

دكتاً - كسبت روح القومية أول نصر رائع لما رن في الآفاق .

وفي هذا الطور الأول للقومية الذي تمت حوادثه في اليونان ، وفي آخر أطوارها : هذا الذي حدثت حوادثه في إرلندا ، نرى الأشكال البشرية تتكرر وتماثل : نرى كولوكترونس Kolokotrones وميشيل كولنز Michel Collins وكوريس وأرثر جريفث Arthur Griffith وكاننج ولويد جورج : نرى المتآمر المجاهد ، والعالم الأديب ، ورجل السياسة الحر المذهب .

بيد أنا حين ننعم النظر في الأحداث المروعة التي تميزت بها حروب الاستقلال اليوناني : من مذبح شنيعة وتعذيبات مرعبة ارتكبتها اليونانيون ضد سكان الترك في شبه جزيرة المورة ، ومن إبادة سكان جزيرة خيوس Chios اليونانيين عن بكرة أبيهم ، وكذلك قتل الجانب الأكبر من سكان الحى اليوناني في اسطنبول على أيدي أعدائهم الترك ، ثم حين ننعم النظر أيضاً في السلسلة الطويلة الحلقات من الملاحم الوحشية التي رسّخت في نهاية الأمر أركان مبدأ القومية في شبه جزيرة البلقان في عصرنا الحديث - حينما ننعم النظر في هذا كله ، من الطبيعي أن نسائل أنفسنا بعد ذلك عما إذا كانت القومية البلقانية تساوى هذا الثمن القادح الرهيب . فإنه إذا تذكرنا أن مركز اليونانيين وحالم تحت حكم الترك في القرن الثامن عشر كانا محتملين ، وأن الكنيسة اليونانية كانت ممنوحة قسماً كاملاً من الحرية الدينية ، وأن تجارة الليفانت كانت في أيدي التجار اليونان ، وأن اليونانيين كانوا يحتكرون أبواباً معينة من التجارة والصناعة ، ويستأثرون دون غيرهم بأربعة من مناصب الدولة الكبرى - إذا تذكرنا هذا كله ، رأينا من الواضح الجلى أنه بغير ذلك الهيجان لفكرة القومية ، كانت وحدة البلقان تتخذ طريقاً آخر ، يلائم ملاءمة تامة رخاء رعايا الباب العالي المسيحيين ، ورفاهيتهم المادية .

ولكن من الجهة الأخرى ، فلربما كان ثمن التزام الهدوء ، والخلود إلى الراحة تحت نير الترك المتقلب ، الذي لا قانون ولا ضابط له ، كان ثمناً قادحاً . إذ يحمل في طبائنه الابتعاد عن تيارات التقدم للفكر الغربي ، وخلق روح

دائمة من الذلة والهوان تتعارض مع احترام النفس ، وتنافى أسس تقدم الأمم
وتشجيع السواعد لترقيتها .

كتب يمكن استشارتها

- C.A. Fyffe : History of Modern Europe. 1924.
C.K. Webster : The Foreign Policy of Castlereagh.
H. Temperley : George Canning. 1926.
Alegernon Cecil : British Foreign Secretaries. 1927.
W.A. Phillips : The War of Greek Independence. 1897.
G. Young : Egypt. 1927.
W.A. Phillips : Mohamed Ali. 1907.
A. Toynbee : A Study of History. 3 vols. 1934.

الفصل العاشر

ثورة عام ١٨٣٠

بريطانيا والتجارة العالمية . انتشار الاختراعات الميكانيكية . التأخر النسبي للصناعة الألمانية . بقاء الروح الديمقراطية في فرنسا . صموبات الملكية الدستورية الفرنسية . لويس الثامن عشر . الصراع بين الأحزاب الفرنسية . النمو المطرد للمبادئ الحرة . شارل العاشر . ثورة يوليو . لويس فيليب . شيوع الهيجان الثوري . ولادة البلجيكي . عذاب بولندا المبرح . الرابطة بين بولندا وفرنسا .

١ - الانقلاب الصناعي

بريطانيا
والتجارة العالمية

بعد موقعة ووترلو بخمس سنين ، كتب هيجل Hegel أحد جهابذة الفلاسفة الألمان عن الإنجليز يقول : « إن حياة الإنجليز المادية تقوم على التجارة والصناعة . وقد أخذ الإنجليز على عاتقهم عبء نقل الحضارة إلى العالم . فإن روحهم التجارية تحفزهم على الطواف في كل بحر ، والتنقل في كل مكان ، وإنشاء صلات وروابط مع الشعوب المتبربرة ، وخلق الحاجات وإنعاش دولا الأعمال ، وتهيئة الأحوال الضرورية فيما بينهم - أولا وقبل كل شيء - لقيام التجارة . وهذه الأحوال هي : نيل حياة العنف غير المشروع ، واحترام الملكية ، واتباع آداب اللياقة والسلوك مع الغرباء » .

فلم يبدُ الإنجليز إذن أمام الأجانب كأسياد إمبراطورية ، كما أنهم لم ينظروا إلى أنفسهم بهذه العين ، بل ظهروا بالآخرى بمظهر تجار عالميين ، يبيعون السلع التي أنتجتها لهم حديثاً التحسينات الميكانيكية ووفرة النافع المعدنية ووفرة واسعة النطاق في بلادهم ، ويحملون بدلا منها منتجات كل قطر من أقطار البسيطة . فع أن استراليا كانت قد كشفت وامتلكت ، ومع أن كندا كان قد

دفع عنها بنجاح في حرب قصيرة مع الولايات المتحدة ، ومع أن سيلان ورأس الرجاء الصالح ومالطة كانت قد أضيفت إلى ممتلكات الملك جورج وراء البحار ، ومع أن النظام الاستعماري العتيق القاضى بمنح أفضلية للتجارة بين الدولة المستعمرة ومستعمراتها قد عُمِّرَ بعد ثورة المستعمرات الأمريكية الناجحة ، إلا أنه لم يكن ثمة ما هو أبعد إلى أفكار الإنجليز في ذلك الحين من حصر تجارتهم مع الممتلكات البريطانية . فقد كانت أسواق أوروبا الغنية قريبة الشقة من بلادهم ، وقدمت أمريكا الجنوبية بعد تحريرها من ربة أسبانيا والبرتغال فرصاً واسعة المدى للتجارة الإنجليزية . وكان فحم وحديد ومنسوجات إنجلترا لازمة لسد حوائج القارة الأوروبية . كما أنه من مبادلة السلع المصنوعة الإنجليزية بالمواد الخام التي تنتجها أقطار قاصية ، نشأ تطور للتجارة الدولية لم يشاهد التاريخ قط مثيلاً له من قبل .

انتشار
الاختراعات
الميكانيكية

وكانت إحدى خصائص القرن التاسع عشر ، أنه شاعت أثناءه في ربوع أوروبا والعالم الخارجى ، تلك الاختراعات الآلية ، وذلك اللون من الحضارة الصناعية التي طلعت وتطورت أولاً عند الدول الأنجلوسكسونية . ففي عام ١٨١٩ عبرت أول سفينة تجارية المحيط الإطلنطى ، وشاهد العقد التالى افتتاح السكك الحديدية في البلجيكي وفرنسا وألمانيا . وفي سنى الأربعين عم التلغراف أوروبا طولاً وعرضاً ، نتيجة لاختراع مورس Morse المخترع الأمريكى . وجاءت سنى الخمسين بالتلغراف الممتدة أسلاكه تحت سطح الماء . وتقدم في سنى الستين مد خطوطه عبر الأوقيانوسات . ورأت سنى السبعين تكوين اتحاد البريد الدولى ، وتطور تجارة الحبوب الدولية ؛ هذا التطور الذى جعل محصولات العالم الحديد في متناول سكان العالم القديم .

التأخر النسبى
للصناعة الألمانية
والفرنسية

وامتازت العقود الختامية للقرن التاسع عشر ، ببناء حجم المدن في جميع أنحاء أوروبا الغربية . وبدأت هذه الظاهرة على الأخص في ألمانيا : تلك البلاد التى كان يمكن وصفها حتى سنة ١٨٧١ ، حين أسست الإمبراطورية ، بأنها قطر تتألف غالبية أهله من فلاحين أحرار مالكيين لأرضهم ، وسادة من تاريخ أوروبا

ملاك الأرض ذوى حول وطول ، ومن مدن عظيمة قليلة العدد ، ومن نسبة غير كبيرة من سكان المدن . ولكن نظراً للتأثير المشترك لانتشار السكك الحديدية ونمو التجارة الخارجية ، وظهور الاختراعات فى صناعتى الفولاذ والكهرباء ، ونتيجة للنشاط الجهم المترتب على انتصار ألمانيا فى حرب السبعين ، زاد سكانها الحضر أربعة أمثال ، فى مدى الستين عاما التى تخللت سنئى ١٨٤٩ و ١٩١٠ .

وكان تقدم الصناعات — الذى سار بخطوات حثيثة فى بريطانيا — بطيء الخطى فى قارة أوروبا ، اللهم إلا فى ذلك الشطر الصغير الرقعة من البلجيك الذى عُرِف منذ القرن الثالث عشر بازدهام مدنه بالسكان ، وحياته الصناعية الموفورة النشاط . وعلى هذا ، فلم تكن الحركات الثورية التى قامت فى أصقاع مختلفة من أوروبا أعوام ١٨٢٠ و ١٨٣٠ و ١٨٤٨ هى نتيجة لتذمر عمال المصانع ؛ فإنه لم يكن فى الواقع خلال تلك الحقبة سوى عدد قليل من المصانع الكبيرة ، سواء فى فرنسا أو فى ألمانيا . فيذكر الدكتور كلاهام Dr. Clapham ، (أستاذ التاريخ بجامعة كبرج سابقاً ، أنه لم يكن فى فرنسا بين سنئى ١٨١٥ و ١٨٤٤ سوى مدينتين فقط هما سنت إتيين St Etienne وروبيه Roubaix ، فقد نمنا نمواً سريعاً ، وأن ثلاثة أخماس الحديد الخام الذى أنتجته تلك المملكة أخرج من مئات الأفران الصغيرة المنتشرة فى الأقاليم ذات الغابات ، ولم يكن الحال فى ألمانيا مغايراً لهذا . أجل ، كان للألمان مزايا عديدة على منافسيهم الإنجليز . فقد كانت طبقتهم الوسطى أفضل تعليماً ، وكانوا يتفوقون عليهم فى فنون الرسم والمستحدثات ، وكانوا أكثر منهم دراية بالكيمياء ، وكان فى مكنتهم أن يعلنوا أن صناعة قطع المائدة المعدنية فى سولنجن Solingen ذات سوق أوسع ، وشهرة أطيب ، من مثيلاتها فى أوروبا . كما أنه لم يكن لألمانيا بين أوروبا جمعاء ضريب فى خبرتها الموروثة فى صناعات التعدين .

ومع هذا فإن العقل الألمانى كان قليل الانشغال بالأشكال والمعايير الحديدية للتطور الاقتصادى . وكانت الصناعات الألمانية ، حتى الصناعات المشتغلة

باستغلال منابع البلاد المعدنية الغنية ، متأخرة تأخرًا عظيمًا . إذ نقصتها المعدات العلمية ورأس المال والمغامرة ، حتى إنه لم يشرع إلا حوالى سنة ١٨٤٠ فى العمل بمناجم الفحم العظيمة فى سيليزيا التى كانت مبعث خلاف شديد بين بولندا وألمانيا فى السنين الأخيرة .

٢ - ثورة يوليو

بقاء الروح
الديمقراطية
فى فرنسا

مع أن عودة الملكية فى فرنسا ، هيات لذلك القطر مرة ثانية ، منظر ملك وأبهة بلاط ، إلا أنها لم تغير إلا قليلا من أحوال الأمة الفرنسية . فقد ذهب « النظام القديم » إلى غير عودة . وغيرت انقلابات الثورة والإمبراطورية الواسعة المدى نظام المجتمع الفرنسى تغيراً أساسياً عميقاً ، بحيث لم يعد فى وسعه أن يعيد فوضى العصر البائد وخلله واستثناءاته — تلك الأمور التى جعلت الملكية القديمة مثالا صارخاً للفوضى ، وصرحاً رفيعاً للحكم السيئ . فلم يتمكن الأشراف قط من استرجاع سلطانهم الكبير القديم . وكانت سلطة الأساقفة الزمنية تزداد على مر الأيام ضعفاً واندثاراً ، وظلت جميع انقلابات الثورة الكبرى : كالمساواة أمام القانون . والحرية الشخصية ، والحرس الأهلى ، وإزالة النظم الإقطاعية ، والنظام القضائى الجديد — ظلت هذه الانقلابات دون تأثير بأوبة البوربون إلى الحكم . فلم يشعر أحد أن فى قدرته إلغاء قوانين نابليون ، أو وسام جوقه الشرف الذى استحدثه ، أو إقفال أبواب الجامعة التى أسسها . بل إنه حتى الكنكرادات التى عقده مع البابا ، والتى كان قذى فى أعين الإكليروس الفرنسى صار قوى الأهمول راسخ الجذور ، بحيث لم يكن فى المقدور تمزيقه ونبذه وراء الظهور . فبدت الملكية العائدة بتقاليدها المطلقة الإكليربكية ممسوخة الشكل ، لا تلائم مجتمعاً صارت تسوده مبادئ المساواة ، وتشيع فى أقوى طبقاته نفوذاً وسلطاناً روح علمانية بعيدة عن الدين .

صعوبات الملكية
الفرنسية
الديمقراطية

ولمّا ابتدأت تجربة الملكية الدستورية فى فرنسا فى أشد الظروف سوءاً

وإحراجاً لها . فلم تكن فقط محل البغض والكراهية ، ولم تكن فقط غير مألوفة من الجميع ، بل إنها كانت تشير إلى ثبت طويل من الفضائل السياسية التي لا يستطيع ممارستها إلا قوم خلت نفوسهم من المنازعات والأحقاد المريرة : هذه المنازعات والأحقاد التي جعلت من الصعب على الفرنسيين تسوية خلافاتهم فيما بينهم تسوية عادلة . فقد استطاع تقليد دستور إنجلترا ونقله . ولكن ليس من السهل نقل روح التساهل والاعتدال والمسالمة والمعاملة العادلة ومشاعر الولاء — هذه الأشياء التي جعلت تنفيذ ذلك الدستور أمراً ميسوراً ناجحاً . فبينما كانت جرائد إنجلترا في تلك الحقبة تملأ أعمدتها بأخبار الألعاب الرياضية والإعلانات ، كانت جرائد فرنسا تتميز حقناً وغيظاً بإساءات « حكم المائة يوم » و « الإرهاب الأبيض » الذي تلاه ، فتحشو صفحاتها بالقذع السياسي العنيف ، وسيل من السباب الفاحش لا ينقطع .

ذلك لأن المشرع الفرنسي ، لم يكن كزميله الإنجليزي ، يعنى بالاشتراك في حفلات الصيد والقنص ، أو تلطّف مشاهدته سباق الخيل من عنف تفكيره السياسي ، أو تخفف من سورة منطقته الحانق . بل كان يفكر على الدوام في منطق مرير قاس . فإذا كان ملكياً متعصباً للملكية ، هاجم في قسوة وعنف الدستور والكنكرات ، وسعى لإرجاع الضياع والأراضي التي صادرتها الثورة إلى الأشراف . وبالعكس كانت الشيع المعادية للملكية تتمتع في غل مضطرم الأوار طبقات النبلاء ورجال الدين ، وتشدد التكبر على الملكية ، لخضوعها الدليل للدول الأجنبية ، ولنبداه الراية الثلاثية الألوان ، ولقبوها صلحاً مزرياً بكرامة أمة حربية ومجدها .

لويس الثامن
عشر

فكان مركز لويس الثامن عشر (١٨١٤ - ١٨٢٤) — وهو يقف وقفة عسيرة بين أمتين وفلسفتين وتقليدين متباينين — صعباً إلى أقصى درجات الصعوبة . فقد كان يدين بعرشه للهيمنة الشائنة المذلة التي لحقت بفرنسا في ووترلو ، وأعيد في ذيل جيوش الحلفاء الظافرة إمعة زرية بعيدة عن المجد والأبهة ، إلى أمة تتعطش إلى المجد والرفعة والسلطان . وأجبرته الظروف القاسية

التي حَقَّتْ به على التزام جادة الاقتصاد الشديد المكروه . فلم يكن في إمكانه أن يجارى نيلاه المتطرفين ، الذين سيطروا على مجلسه التشريعي الأول ، إذ كانت أذهانهم مملوءة بالوهم بعودة النظام القديم . وفي الوقت ذاته كان يخاف الاحتمالات الثورية للمبادئ الحرة . ففي هذا الجو من العنف الأعمى الذي كانت الشيع المتضادة المختلفة تعيش فيه ، كان عسيراً كشف الطريق السوي ، وعسيراً أيضاً علم الانحراف عنه . ومع ذلك فقد تمكن لويس من كشفه والسير على هديه . فإن القانون الانتخابي الذي صدر سنة ١٨١٧ ، والذي حصر حق الانتخاب في دائرة ضيقة من الطبقة الوسطى ، قرر في مبادئه الرئيسية ، قواعد الحكم التي حكمت بمقتضاها فرنسا مدى ثلاثين عاماً .

ومن الأمور التي تُذكر بالخير لهذا الملك العجوز الذكي الفؤاد ، السريع الخاطر ، أنه بعد أن تخلص من مجلسه التشريعي الأول المؤلفة أغلبيته الساحقة من النبلاء — الذين كانوا ملكيين أكثر من الملك — عين وزراء تمكن بمشورتهم وتأييدهم من تجنب جميع ألوان التطرف ، ومنح فرنسا فترة من السلام ورغد العيش استطاعت في خلالها أن تنظم ماليتها ، وتدفع بنسبة منقوصة الغرامة الحرية المفروضة عليها ، وتحرر أرضها من الجيوش الأجنبية ، وتحرز مرة أخرى مكاناً في مجالس أوروبا السياسية على قدم المساواة والشرف مع غيرها من الدول . ولحق أن أساء ريشليو Richelieu ودي سير De Serre وديكاز Decazes ، وبدرجة أقل فيليل : Villèle — وهو مالى يمقت المغامرات — الحق أن أساء وزراء لويس الثامن عشر هذه جديرة بأن تخلد في سجل الشرف بين أسماء عظماء البرلمانيين الفرنسيين .

الصراع بين
الأحزاب
الفرنسية

ولكن خارج حلقة الناضحين المؤلفة من قرابة ثمانين ألف ناخب ، ظهرت حركتان متعارضتان ، أخذتا تسيران بسرعة كبيرة متزايدة : الحركة الأولى تمثل تجدداً في روح الكنيسة الكاثوليكية ونشاطها : هذه الكنيسة التي وضعت وقتئذ نصب عينها أن تعيد إلى أحضان الإيمان ، وترجع إلى معرفة الله ، قسماً كبيراً من الفرنسيين ، كان قد ضل طريقه وارتدى في أحضان الوثنية ،

وذلك لتنظيم مجموعات متضاربة من البعثات الدينية ، وشن هجوم عنيف على الجامعات والمدارس لإرجاعها إلى محجة الدين . أما الحركة الثانية فقد أشهرت الحرب على الإكليروس ، ووجدت لها أداة مساعدة جديدة في جمعيات الكاربونارى Carbonari : وهى جمعيات خرجت من نابلى ، وكانت ترمى إلى النضال ضد الاستبداد فى جميع أشكاله .

نمو المبادئ
الحرية

ولم تكن الحرية الأوربية قد أصيبت بمقتل فى ساحة ووترلو ، كما أكد نابليون يومئذ . فإنه لم تنقض أعوام خمسة ، حتى أدركت فى امتعاض حكومات الدول الغربية المحافظة أن روح الثورة عامة ماثلة تعمر الصدور . فقد كان هناك هياج بين طلبة الجامعات بألمانيا ، وقامت فتن فى مانستر ، وثورات فى نابلى ويديمت وأسبانيا ، وطالب القوم فى صقلية بالاستقلال ، وفى البرتغال بالدستور ، وظهرت فى اليونان هزات تنذر بالقومية ، وفى فرنسا اشتعلت ثورات كاربونارية صغيرة متفرقة ، كما كان لاغتيال الدوق دى برى Duc de Berry ابن أخى الملك ، ووريث العرش بعد أبيه الكونت دارتوا ، فى ١٣ فبراير سنة ١٨٢٠ بطعنة من خنجر متهرس اسمه لوفيه Louvet - كان لاغتياله دوى هائل فى فرنسا . ولكن هذه الحركات كانت فجة لم تنضج بعد . وحتى فى الجهات التى تقام فيها الخطر كنابلى وأسبانيا ، وأمكن قمعها بسهولة بواسطة أذاتين طيعتين من أساحة الأوتوقراطية : وهما جيشا النمسا وفرنسا الملكيان .

الجيش الفرنسى
يخمد ثورة
أسبانيا

غير أنه حينما يذكى سفير الشهور والأهواء إلى درجة عالية من الغليان ، تصبح إدارة دفة الحكم بحكمة وتفطن أمراً يزداد صعوبة وشقة . فإنه بعد مصرع الدوق دى برى ، غلا شعور الملكيين فى باريس إلى درجة تعذر فيها بقاء وزارة حرة فى دست الحكم . فاضطر لويس فى أسف وغم بالغين أن يقهى وزيره المحبوب ديكاز ، ويعين فى مكانه ثيليل ، أحد دعائم أحزاب اليمين . وكسمت الصحافة ، وزحف على أسبانيا جيش فرنسى تخفق فوق كتائبه البنود الملكية القديمة ، ودخل تلك البلاد دون أن يلاقى مقاومة

جدية ، وأخذ ثورة قام بها الأحرار الأسبان ، وأرجع إلى ملكها فرديناند سلطانه وأطلق حريته . فخلقت هذه الحالة الباهتة من النصر في ذهن ذلك الملك المهرم الوهم بأن قضية الملكية في أوروبا في خير حال وأحسن مآل .

ولكن كاتنج كان في ذلك الحين يوجه سياسة بريطانيا وفق مبادئ حرة . ونادت البرازيل وبيرو واليونان وقتئذ باستقلالها . ولم يخامر المراقب الأريب الفطن أى شك في أن أنصار الحرية ومريديها سوف يزدادون عدداً ، ويتعاضمون قوة في العالم .

وخلف شارل العاشر^(١) أخاه على العرش سنة ١٨٢٤ . وكان كهلاً شديداً التعصب لرأيه ، محروماً من خلتى القطة وقوة الملاحظة . وكان بخلاف أخيه لويس اللطيف المعشر اللين العريكة ، رجلاً ذا مبادئ صارمة ، نزاعاً إلى الاستبداد والتمسح بأهذاب رجال الدين . وبما يؤثر عنه قوله : لخير لي أن أكون خطياً ، من أن أملك على شاكلة ملك إنجلترا .

فأصمّ أذنيه عن سماع نداءات المستقبل ومطالبه . ولم يقطع إلا صوت الماضي . ونمى إلى مسامع ذلك الجليل النشاط القليل الإيمان الذي كان شارل يحكمه - ذلك الجليل الذي لم تزل الوثنية تشيع في صفوفه ، ويزداد نفوس أبنائه جنوباً إلى المبادئ الحرة واليونانية - نمى إلى مسامعه في ازدياد مشرب بالتفكه والتندر ، كيف أن الملك الحديد أمر بأن يتوج طبقاً لمراسم التتويج القديمة ، في ريمس ، وكيف تمدد منبطحاً على وسائد من القطيفة ، وأذن بأن يؤخز بدنه في سبعة مواضع بمثقب ذهبي ، كى ينال بركات الدهن المقدس ؟

ولكن عندما تلا هذا الاحتفال ، الذي يرجع إلى العصور الوسطى ، صلبور قانون بمنح تعويض مالى للأشراف المهاجرين ، ثم صلبور قانون آخر بفرض عقوبات صارمة على الإلحاد الدينى ، وأمر ملكى بحل الحرم الأهل الذى قام وقتئذ بمظاهرة تشيعاً للإصلاح الدستوري - تلا روح المرح والتفكه نفاد الصبر والتبرم والمضايقة والخوف . وشاعت الفكرة التى

(١) الكونت دارتوا قبل .

أذكتها الرغبات المتطرفة غير المستورة للصحف الملكية، بأن الملك ينوي إحداث انقلاب يلغى به الدستور ، ويعيد النظام القديم . وقد ظهر للجميع في جلاء أن هذا هو مقصده في الواقع ، حينما أقال كبير وزرائه مارتينيلاك Martignac ، ٧ وهو سياسي حاذق أريب ، لو أنه بقى قابضاً على زمام الأمور ، فلعله كان قد تمكن من إنقاذ التاج . ودعا شارل العاشر إلى جانبه بدلا منه جول دي بولنيك Jules de Polignac في إبريل سنة ١٨٣٠ .

بولنيك

وكان بولنيك هذا رجل أحلام ورؤى ، زعم أن خطواته تَهْدِي من العذراء رأساً . وكان المثل الحى للرجعية ، ومن أوائل النبلاء الذين هاجروا من فرنسا قبيل استفحال الثورة ، وألقى في السجن في عهد الإمبراطورية ، ورفض أن يحلف بيمين الولاء لدستور سنة ١٨١٥ .

وكان تعيينه ينطوى على التحدى لأمانى الأمة . ولكن لما نعى إلى مسامع الجمهور ، أن وزير الحرب في وزارته هو بورمون Bourmont القائد الذى غدر بنابليون فى ليني Ligny ، أضيف إلى شعور عدم الثقة بالوزارة شعور الخنزى والحسنة .

فتح الجزائر

ولكن مما هو جدير بالذكر أن فرنسا فى آخر وأضعف وزارة لآخر وأضعف ملك من ملوكها الشرعيين ، بسطت سيطرتها على بلاد الجزائر ، فاستهلت بهذا العمل الحربى الممتاز عمله إعادة سيطرة الجنس اللاتينى على ساحل إفريقيا الشمالى ، ووضعت أساس إمبراطوريتها الإفريقية المترامية الأطراف التى تبذل الآن جهوداً كبيرة للاحتفاظ بها ، كعون لها من حيث القوة العددية ضد ألمانيا .

نشوب الثورة

غير أن باريس لم تعرف فتح الجزائر اهتماماً ، بل كانت مشغولة بالتزاع الأذى إلى فكرها : وهو التزاع الناشب بين القس والعلمانى ، وبين التاج والأمة - هذا التزاع الذى تحول فى وقت وجيز إلى خلاف حاد . وأخذت الحالة تتحرج تحرجاً سريعاً . ففى ٢٥ يوليو سنة ١٨٣٠ صدرت مراسيم ملكية من قصر سان كلو الملكى تحدد كثيراً من حرية الصحافة ، وتحل

البرلمان ، وتعديل قانون الانتخاب . فأبان الملك ووزيره عندئذ عن نواياهما سافرة جليلة . وكان من الواضح أنهما لم يبغيا من ذلك فقط رفض المطلب الخاص بتوسيع دائرة الناخبين : هذا المطلب الذى كان يزداد قوة وشدة خلال شهور ذلك العام ، بل إنهما قصدا تمزيق الدستور ذاته ، وحق الحرية فى جميع أشكالها .

ولكن القوم فى باريس سرعان ما أدركوا مغزى البرنامج الملكى ، وعدوه إهانة لا تحتمل . وكان ردهم على هذا الانقلاب الملكى نشوب قتال شديد دام ثلاثة أيام (٢٧ - ٢٩ يوليو سنة ١٨٣٠) انتهى بإنزال الملك عن سرير ملكه ، والقضاء قضاء مبرماً على ملكية فرنسا القديمة .

وتمتاز ثورة يوليو هذه بأنها عمل مدينة واحدة . فقد قررت باريس مصير فرنسا . وقبل أن يستفيق الملكيون فى الأقاليم من غفوتهم ، قررت نتيجة القتال فى شوارع باريس اختفاء العلم الملكى الأبيض . ولم تكن دهشة الجماهير بقليلة ، حينما شاهدت الحكومة التى برزت للعيان بعد هدوء العاصفة . فإن قسماً كبيراً من قتال الشوارع قام على أكتاف رجال مثل كافينياك Cavaignac — هؤلاء الرجال الذين كانوا يرومون إنشاء جمهورية ، وأنصار آل بوناپرت الذين كانوا يبتغون قيام إمبراطورية ثانية .

غير أن مولود الثورة لم يكن جمهورية ولا إمبراطورية ، بل كان لويس فيليب ملكية لويس فيليب Louis Philippe البورجوازية . ولويس فيليب هذا هو رئيس بيت أربان Orleans ، وابن « اللوق فيليب مساواة » Philippe Egalité الذى اعتنق مذهب الثورة ، وأعطى صوته بإعدام الملك لويس السادس عشر ، ثم انصرف حبل حياته على نطع المقصلة . فلقد كان خاطراً سعيداً حاذقاً جاش فى صدور أحرار عبيدين فى ذلك الحين ، وعلى الأنخص فى صدر شاب عبقري من أهل الجنوب اسمه تيير Thiers أخذ نجمه وقتئذ يبرز ومكانته تعلو فى دوائر التاريخ والسياسة والصحافة — جال ذلك الخاطر وهو أن لويس أربان الذى قاتل

في أيام شبابه في صفوف جيوش الثورة ، والذي ذاق بعد ذلك كأس
الأحزان وذل الحرمان ، سيمنح فرنسا النعم المباركة المأمولة من ملكية ديمقراطية .
فلم يكن يصم لويس أية نقيصة من النقائص التي جعلت حكم شارل العاشر
أمراً لا يطاق . بل كان رجلاً من رجال العالم الجديد الحديث : بسيطاً غير
متصنع في حركاته وسكناته ؛ ملكاً يقبل الانضواء تحت العلم ذي الثلاثة
الألوان ، والسير بمقتضى النظم العلمانية للدولة ديمقراطية .

ولما كانت سابقة ثورة سنة ١٦٨٨ الإنجليزية تجول في أذهان تلك
الزمرة الصغيرة من السياسيين الذين أقاموا ملكية يوليو ، بدأ لويس لأعينهم
كوليم أوف أورانج فرنسي ، هيأته الأقدار لأن يرى الأمة الفرنسية
من علل الخلل والاضطراب ، وأن يبدأ عهداً للحكم الدستوري طويلاً زائلاً
بالخيرات ، في قطر أسىء فيه استخدام الحرية المعتدلة المترنة . وقبل أن
يدري أهل باريس بما يجري حولهم أحضر الأمير فيليب بواسطة أنصاره
إلى دار البلدية ، حيث نشر أمام الملأ الراية المثلثة الألوان ، وعانق أمام
الجماهير المحشودة لافاييت « بطل عالمين » ^(١) و « رجل الثورة العظيم
العجوز » وحصل لويس فيليب بذلك لحكومته الجديدة غير الثابتة الأركان
على « العمودية » اللازمة لها من رضا الأمة ، وترحيب الشعب .

وانشرت على جناح السرعة شرارات من أتون باريس ، إلى الكتل
الحشوية الواهية الدعائم التي أقامها مؤتمر فينا . فخرج البلجيكيون على
الهولنديين ، والبولنديون على الروس ، وجمعيات الكاربوناري على الحكم
الإكليريكي في الولايات البابوية . ورنّت في باريس صيحة عالية بإشهار
حرب تحريرية على النحو الثوري القديم العظيم ، لإنقاذ شعوب أوروبا
المعدبة . فاندلعت في فرنسا فتن خطيرة ، وبقيت حكومة باريس الجديدة
مدى عام كامل ، وهي في كفة القدر ، إلى أن هدأت العاصفة في النهاية .
فلن لويس كشح بوجهه عن أولئك المجانين الذين كانوا يغفون اشتباك فرنسا في

انتشار الهياج
الثوري

(١) ذلك لأنه اشترك في حرب استقلال الولايات المتحدة والثورة الفرنسية .

حرب مع إنجلترا بخصوص البلجيكي ، ومع روسيا بخصوص بولندا ، ومع الإمبراطورية النمساوية بخصوص الانتصار لقضية القومية الإيطالية . ولقد أبان بهذا العمل عن حسن تقديره للأمور ، ومعرفته بدقائق السياسة . إذ أنه بمحافظته على السلم مع الدول العظمى أتاح لبلاده ثمانية عشر عاماً من التقدم الاقتصادي ، وقسطاً من الرخاء المادى المتزايد .

٣ - ثورة بلجيكا واستقلالها

أما الثورة التي فصمت عرى مملكة الأراضي المنخفضة السيئة التكوين ، أسباب الثورة فقد ابتدأت بشغب اندلع في بروكسل في ٢٥ أغسطس سنة ١٨٣٠ . فقد تملل البلجيكيون وتذمروا طويلاً من حكم أسيادهم الهولنديين الصارم . وكانوا يمتنون الدين البروتستانتي ، وروح التسامح الدينى الهولندى ، واستثثار الهولنديين بكل طيب في الدولة . ورأوا أنفسهم أكثر منهم عدداً وأفصح لساناً ، واعتقلوا أنهم أعلى ثقافة وألطف معشراً . فلهذا عدوا جعل اللغة الهولندية اللغة الرسمية الوحيدة في الدولة ، وإبعاد السكان الـ *Walloons* ^(١) عن الحياة العامة ، وإعطاء جميع الوظائف الهامة تقريباً ، مدنية أو عسكرية للهولنديين - عدوا هذه الأمور مظالم لا تحتمل . وكان شعور التفوق والامتياز الذى بدا على وجوه الهولنديين يستفز صدور مواطني روبرت *Rubins* المصور الذائع الصيت . كما أذكى لظى غضبهم مثالُ باريس . فوطنوا العزم على خلع نير الأجنبي عن أعناقهم .

ويشير عمود تذكارى مقام في ميدان الشهداء في بروكسل إلى اللحد الذى يضم رفات ستمائة متطوع بلجيكي استشهدوا في قتال نشب في سبتمبر سنة ١٨٣٠ في شوارع المدينة مع الجند الهولندية النظامية . فلفت هذا الاستشهاد الذى حرك يومئذ شعور الناس ، الأنظار إلى قضية استقلال بلجيكا ، ولكنه لم يحققه .

(١) يعتبر هؤلاء السكان منحدريين من سلالة مختلطة من الكلت والرومان ، وأقرباء لفرنسيين ، ويسكن أغلبهم جزءاً كبيراً من أرض البلجيكي يمتد من دنكرك إلى ملبهى .

فإن مملكة البلجيك الحديثة لم تقم على بسالة البلجيكيين الحربية ، بل قامت نتيجة لمفاوضات دبلوماسية طويلة بين إنجلترا وفرنسا ، مع معونة يسيرة قدمها لها الجيش الفرنسي . فبناءاً استقلالهماهما : بلمرسن (١٧٨٤-١٨٦٥) الذى كان قد عين حديثاً وزيراً للخارجية فى وزارة اللورد جراى الحرة ، وتاليران سفير فرنسا يومئذ فى لندن الذى أحسن اختياره لهذا المنصب . فإن حب بلمرسن للحرية ، مقروناً بتصميم لويس فيليب وتاليران على ألا يفتحا أبداً من جديد النزاع القديم مع إنجلترا ، مكنا الدولتين من حسم الخلاف بينهما ، دون التجاه إلى تحكيم السيف وذلك على أساس منح البلجيك استقلالهما . ولو أن بلمرسن انحاز إلى جانب الهولنديين ، وأيد حكمهم الأوتقراطى أو لو أن لويس قبل التاج البلجيكى الذى عُرض على ثانى أولاده ، لاستمر الشجار القديم بين فرنسا وإنجلترا مرة ثانية ، جاراً فى ذيله عواقب ، ربما كانت قد قضت على آمال البلجيكيين فى نيل استقلالهم .

ولكن تعاون الدولتين حصر موضع الخلاف ، وحل المشكلة . فعرض التاج البلجيكى على ليوبلد أمير ساكس كوبرج Leopold de Saxe Cobourg (١٧٩٠ - ١٨٦٥) خال الملكة فكتوريا البعيد النظر الواسع الاطلاع ، الذى كان قد اقترن قبلاً بابنة جورج الرابع^(١) ، ثم أظهر الآن استعداداه للاقتران بابنة لويس فيليب ، كعلامة لعدم تحيزه .

ولقد أظهر المستقبل أن البلجيك أجادت انتقاء هذا الأمير . فقد ذل ليوبلد جميع المصاعب والعقبات التى واجهته . فتغلب على الغزو الهولندى المخوف بالخطر على بلاده ، الذى شُنَّ فى أواخر يوليو سنة ١٨٣٠ ، وتغلب على مشكلة لا تقل عن هذه خطورة ، وهى تخلصه من جيش فرنسى جاء لطرد الهولنديين . وتغلب على سحق الشعب البلجيكى الشديد وتزمره العميق لفقدانه شطراً من لكسمبرج ولبيرج - هذا الفقدان الذى فرضته عليه

(١) تخطت سنة ١٨١٧ فى خلال ولادتها الأولى .

الدول العظمى في مؤتمر لندن ، وأيدته معاهدة لندن المبرمة في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٣٠

أما النصر الحقيقي فكان هذا الذي كسبته سياسة بلمرستن. فقد تخلصت البلجيكي حقاً من حكم هولندا ، ولكنها أنقذت من خطر انضمامها إلى منطقة النفوذ الفرنسي الحربي والتجاري . فتَقَرَّضَ عليها نظام من الحياد المستديم . فبمقتضى معاهدة سنة ١٨٣٩ الشهيرة ، التي وُصِفَت بعد ذلك بخمسة وسبعين عاماً بأنها قصاصة ورق ، ضُمِّنَ حياد البلجيكي بواسطة خمس من الدول الكبرى ، كان من بينها بروسيا وفرنسا ، علاوة على إنجلترا التي حصلت بهذا التدبير على ضمان أولى مصالحها السياسية : تلك المصلحة التي دافعت عنها قروناً عديدة بدماء أبنائها .

٤ - عذاب بولندا المبرح

أما العصيان البولندي الذي نشب أيضاً سنة ١٨٣٠ ، فلأنه لم يظفر بنصرة الدبلوماسيين الأحرار في الدول الغربية ، اتخذ مجرى آخر ، وانتهى إلى نهاية أخرى . فإن نقولا الأول قيصر روسيا (١٨٢٥ - ١٨٥٥) ، الذي كان يرمق شزراً ، وفي فزع وخوف ، ثورة يوليو في باريس ، شرع يتخذ العدة لإنزال التآديب الصارم بديمقراطية فرنسا الوقحة الصلبة ، ولكن أوقف استعداده قيام عصيان خطير في وارسو .

ففي تلك المدينة قبض فريق من الضباط وملاك الأرض البولنديين الذين خشوا أن يسيروا قسراً لمحاربة أصدقائهم الفرنسيين ، والذين أملوا حدوث شيء يعود بالفائدة على بولندا من انتشار لهب الثورة - قبض هذا الفريق على زمام الحكومة في وارسو ، وبأموال بولندا ، هذه الدولة الصغيرة الدستورية وجيشها ، وقف يتحدى جيروت الإمبراطورية الروسية .

العصيان
البولندي

نضال غير
متكافئ

وكافح البولنديون مستبسلين زهاء عام كامل خصصهم الجبار ؛ يتزلون به ، ويتزل بهم ، الحسائر الفادحة . ولكنهم خرجوا صرعى في سبتمبر سنة ١٨٣١ أمام عدوهم في هذا النضال غير المتعادل . فأزالت روسيا آخر مظهر من مظاهر الحرية البولندية ، ومحت بولندا التي أقامها مؤتمر فيينا من الخريطة ، وصيرتها ولاية عادية خاضعة للنظام الاستبدادي الذي كانت تحكم وفقه الإمبراطورية الروسية . فكسبت بولندا بذلك إنماء قوتها الصناعية ، ولكنها فقدت — كما يؤكد المؤرخون البولنديون — تلك الفضائل الروحية من التمحس وحب الوطن والإيمان التي تنبت من الحرية .

الرابطة بين
فرنسا وبولندا

وكانت إحدى نتائج هذه الحركة البولندية الخائبة هجرة كثير من الفنانين والكتاب البولنديين إلى باريس ، التي غدت مدى أجيال عديدة عاصمة الأمة البولندية الثقافية . فدُعِم فرار الضباط والجنود البولنديين المرتقة الأول ، بهجرة كثير من الأساتذة والشعراء والموسيقيين الذين أظهروا النبوغ السلافي للناس في أعلى عواصم أوروبا أدباً وأرقها شمائل .

ولهذا السبب ، فإن ثورة بولندا عام ١٨٣٠ لم تكن من غير جدوى ، ولو أن نتيجتها بدت فشلاً ساحقاً ذريعاً . فقد ذكرت أوروبا بوجود جماعة تشيع في صلوورها العواطف القومية : جماعة ما زالت قوية ، وإن كانت مرهقة بمظلم ما برحت تن من ثقلها ، جماعة تعمر قلوب أبنائها شجاعة تقرب من التهور . ولم ينس الفرنسيون أن العصيان البولندي كان نتيجة لثورتهم هم الداخلية ، وأنه أذكاه ، وشجع عليه رهط من الفرنسيين البارزين ، وأنه حاهم في لحظة خطيرة في تاريخهم من احتمال شن هجوم جبار على وطنهم . وما انفكوا يذكرون هذه الأمور ، وتهتر خواطرم بهذه الأحاسيس . فكونت بين فرنسا وبولندا رابطة قوية وثيقة ، ما زالت عاملا في مجرى السياسة الأوروبية .

کتب ممکن استشارتها

Cambridge Modern History. Vol. X. 1907.

J.H. Clapham : Economic Development of France and Germany. 1921.

Lowes Dickinson : Revolution and Reaction in Modern France 1892.

Chateaubriand : Bonaparte et les Bourbons. 1814.

P. Thureau Dangin : Histoire de la Monarchie de juillet 1884-92.

Memoirs of Beugnot, Chateaubriand, Guizot.

E. Faguet : Politiques et moralistes du XIX. Siècle. Tr. 1928.

H. Pirtnne : Histoire de Belgique. 1903-33.

P. Guedalla : Lord Palmerston. 1926.

Duff Cooper : Talleyrand. 1932.

Roman Dyboski : Poland. (Nations of the Modern World Series)
1933.

الفصل الحادي عشر

عصر بيل

البرلمان العتيق والمجتمع الجديد . حرية النقد . تقدم التعليم العام . الأحرار والمحافظةون . قانون الإصلاح سنة ١٨٣٢ . السير روبرت بيل وتأسيس حزب المحافظين . أنصار إلغاء قوانين الغلال والاشتراكيون والميثاقيون وأنصار حرية التجارة . النمو المطرد للخدمات الاجتماعية .

١ - قانون الإصلاح

العقلية العتيقة ، والمجتمع الجديد ، في الوقت الذي كانت تدور فيه الحوادث الآتفة ، أخذت إنجلترا في ببطء تحس بمشكلاتها الضخمة الجديدة التي واجهها بها تطور الحياة في المصانع . فإنه من الشرور الكبرى التي ما تزال نشعر بعواقبها الوخيمة إلى هذا اليوم ، أنه لمدة عشرين سنة خطيرة الشأن ، كان ينبغي في أثنائها أن توجه الطبقة الحاكمة عقولها إلى تجهيز أهل المصانع الجديدة بالمدارس ووسائل الصحة العامة ، وبالمنازل الصالحة وبالمدن الجديدة التخطيط وبالمتاحف والمكتبات ، وبالحدائق العامة وساحات الرياضة الشعبية - في هذه العشرين سنة الخطيرة كانت البلاد مشغولة في حرب قاسية مريرة مع فرنسا . وحتى بعد أن وضعت الحرب في آخر الأمر أوزارها ، وثقى نابليون إلى سنت هيلانة ، عمرت عقلية الحرب سنين عديدة : هذه العقلية التي أشارت بالخطر ، وسادها الهيب ، وأشاعت سوء الظن وعدم الثقة ، ووقفت حجر عثرة في وجه كل اهتمام نزيه يبحث حالة الأمة بحثاً كاملاً . وإن

قوانين اللورد سيدموث^(١) Lord Sidmouth التي وضعت سنة ١٨١٩ يمكن أن تعتبر آخر مثال من أمثلة اطراد همل تلك العقلية بعد الحروب النابليونية .

إقرار قانون
الإصلاح

وقد وُجِدَ ظرف سيئ آخر، وهو أنه في عهد وزارة وليم بيت المحافظة الطويلة المدة ، اتخذ مجلس الأعيان البريطاني ذلك الطابع الشديد المحافظة الذي ما زال يدمغه إلى الآن . ولهذا السبب تأخر إصلاح البرلمان سنين عديدة جليلة الخطر . ولم يحقق هذا الإصلاح إلا سنة ١٨٣٢ حينما هددت الأعيان ، بمطالبة الملك وليم الرابع (١٨٣٠ - ١٨٣٧) بخلق عدد من اللوردات الأحرار كاف لأن يجعل مجلس الأعيان يميز قانون الإصلاح ، الذي أُقرَّ أخيراً سنة ١٨٣٢ في جومن التيج السياسي لم تشاهد لإنجلترا له مثيلاً منذ الحروب الأهلية في عهد شارل الأول .

فقد كانت البلاد إلى ذلك الحين تحكمها تلك الأداة العتيقة التي لامت إلى حد كبير ظروف وحاجيات قطر يتألف سواده من سكان ريفيين قليل العدد، والتي تألفت من سادة الأمة الذين كانوا يجلسون في منصة القضاء ، أو في مقاعد البرلمان . أجل لم تكن دائرة الحياة البرلمانية المحفوظة مقفلة وقتئذ ، كما أنها لم تغفل في أى وقت آخر في وجه الثروات الطائلة مهما كانت طريقة كسبها ، أو في وجه المواهب الرفيعة الممتازة التي يزيكها النبلاء . فإن الثروة الطائلة التي جناها آل بيت من الهند فتحت في وجوههم أبواب البرلمان، وكان أبو السير روبرت بيل Robert Peel وجدّه من بناء صناعة لنكشير . بيد أنه في الحين الذي كانت فيه قرية قليلة السكان جده أكثرية سرّمة

(١) كان وزير الداخلية الإنجليزية في وزارة اللورد ليغربل . واشتهر أنه تقلده هذا المنصب بالعمل على قمع جميع الحركات الحرة ، وخاصة بعد انتهاء الحروب النابليونية . فمثل سنة ١٨١٧ قانون الحرية الشخصية ، ثم دافع سنة ١٨١٩ عن « القوانين الستة » التي حولت حكام الأقاليم والقضاة الحق في سجن الأشخاص الذين توجه إليهم تهمة الخس على كراهية الحكومة ، كما حولتهم سلطات جديدة لمنع عقد الاجتماعات ، وتقييد حريتي الخطابة والكتابة تقييداً شديداً .

Sarum القديمة ترسل عضوين إلى البرلمان لتمثيلها ، كانت متشتر وبمرئجهام من غير تمثيل .

فجاءت النتائج طبق ما كان يُنتظر ، فقد دُعِيَ برلمان أرسقراطى لأن
يعالج علاجاً ناجحاً نظاماً اقتصادياً لم يكن لأى قطر آخر أية خبرة به .
فإن المصانع بنظمها المشددة والمدن الصناعية الضخمة بسكانها المزدحمين ،
والازدياد السريع فى عدد السكان ، ونمو الثروات الطائلة فى صناعة القطن :
هذه كلها كانت فى الواقع نذراً تنبئ بولادة عهد جديد فى أساليب المعاملات
البشرية : أساليب لم ينح للبرلمان القديم غير المصلح أن يستوعبها استيعاباً
تاماً ، إلا فى بقاء وتأخير . فلهاذا لم يكن عجيباً أن يفضل البرلمان السيل
السوى ، فيتدخل حيناً كان ينبغى عليه أن يمسك يده ، ويقف متفرجاً
حيناً كان ينبغى عليه أن يتدخل ، وأن يشرع مثلاً لمنع رخص أثمان
الحبوب ، بينما هو لا يحرم إقامة الأحياء غير الصحية والمنازل الرخيصة .

عدم خبرة
البرلمان بالأحوال
الجديدة

فقد كان هنالك الشيء الكثير من الشقاء غير المقصود وغير الضرورى
فى إنجلترا خلال الأحوال التى جاءت توالاً بعد الحروب النابليونية . ذلك أن
دول القارة المحرقة لم تكن فى حال تمكنها من شراء البضائع التى كانت إنجلترا
تنفق إلى تصديرها . وبينما كانت الضرائب والرسوم فى إنجلترا عالية ، كانت
الأجور فيها واطنة إلى درجة ضارة . أضف إلى ذلك ما يحدث من رد فعل
بعد انتهاء حرب ، أو عند تقدم اختراع علمى بسرعة خارقة . ولذا عمت فى
إنجلترا بطالة واسعة النطاق عولجت من غير فطنة وتدبير . فإن قانون مساعدة
الفقراء Poor Law الذى أسس وقتئذ تطبيقه ، شجع نظامه الخاص بمنح
المهات المالية خارج المنازل وإعانة العائلات بقدر عدد أطفالها - شجع على
الكسل فى الجهات الريفية . كما رفع نظام مرّ بك لحماية التجارة لمن الخبز
للأهلين الخائفين . وأمسك بمخازن التجارة الأجنبية نظام معقد الرسوم
الجمركية .

سوء الأحوال
الاقتصادية

ولذا فكما أنه طبيعي أن يخلف الليل النهار ، كذلك كان طبيعياً أن ينمو
التهريب نتيجة لنظام تقييد حرية التجارة ، وأن ينبت من التهريب روح الخروج
على القانون والعبث بالنظام . وقد تلطّف القوانين الشفيقة العادات الصيفة
الهائجة . ولكن القانون الجنائي الإنجليزي كان في حال يساعد كل المساعدة على
غرس روح الاستهتار والتحدى العايب للقانون ، إلى أن أصلحه روملي « Romilly »
وبيل . فإنه كان يُحكم أحياناً على المذنب بالنفى إلى المستعمرات أو الإعدام
لارتكابه ذنباً تافهاً : كسرقة بقرة أو حرق جرن أو فنس دجاجة بريّة في
غابة بواسطة قروى دفعه يأس الخروج إلى هذا الحرم .

وحتى في وقت متأخر كسنة ١٨٣٤ ، بعد أن أصلح البرلمان ، وعند
ما كانت وزارة حرة في دست الحكم ، حكم على ستة فلاحين في إحدى قرى
مقاطعة دريسيت بالنفى سبع سنين خارج إنجلترا لحلفهم بيميناً غير قانونية
أمام جمعية تعاونية .

أما من جهة عمال المصانع والسكان الجدد للمدن الصناعية ، فقد خلقوا
مشكلات جديدة بلغت حداً من التحقيد ، أنه كان يصبح أمراً عجباً حقاً ،
لو أن البرلمان قبل إصلاحه ، تمكن من معالجتها علاجاً سريعاً شافياً . فقد سُبح
بنمو مناطق فسحة من الأحياء القبلية الممتدة ، في حين تمكن بعض أرباب
الصناعة من جميع ثروات كبيرة في فترة وجيزة من ربوات المهاجرين السيئ
التفلية للرهيدي الأجور . ومن الصحيح أن الحكمة يفرضها زجماً على التواقة ،
جعلت الفرق الممتدة الرديئة البوية ، أكبر أجرة وأكثر إقبالاً عليها .

ولكن من بين جميع المظاهر المؤلمة للحياة الإنجليزية في المصانع ، في
مستهل الحقبة التي عقيت حروب نابليون ، كان أسوأها وأقبحها هو استغلال
الأطفال الصغار استغلالاً قاسياً خالياً من كل رحمة . فإنه حتى حيناً تحرك
البرلمان أخيراً سنة ١٨١٩ وأجاز قانوناً امتاز بأنه أول قانون للمساواة بين
المصانع « Factory Laws » لتنظيم عمل الأطفال ، فإنه لم يعمل أحد من
تعليمه ساحات عمل الأطفال بالنفى عشرة ساعة ونصف ساعة ، وعطّر

إنشاء أحياء
غير صحيحة

استغلال الأطفال

تشغيل الأطفال ممن يقل عمرهم عن تسع سنوات في مصانع معينة . ولقد كان الوعي العام للأمة من قلة الثقافة ، وصف التنوّع ، بحيث إنه حتى هذا القانون المتواضع كان حبراً على ورق ، لقلة عدد المفتشين الذين يشرفون على تنفيذ بنوده . فإذ عند تقديم مشروع قانون آخر لحماية الأطفال ، بعد قانون سنة ١٨١٩ بست سنين ، ذُكر في البرلمان أن « الأطفال في خيرات المصانع كانوا يُجسّرون على العمل اثنتي عشرة ونصف ساعة يومياً ، وفي معامل أخرى خمس عشرة أو ست عشرة ساعة » .

حرية النقد

ولكن رغم هذا كله ، ورغم بروز رجعية جاهلة غير ذكية ، يرجع بروزها إلى الجرع ، وإلى قيام أحوال صناعية عديدة لا تُحتمل ، وبخاصة جشع أرباب العمل والآباء ، فقد كانت إنجلترا تستمتع بميزة ثمينة . ذلك أن الناس تركوا أحراراً في أن يتذمروا ويرفعوا عقيرتهم بالشكوى . فكان البرلمان يجتمع ، والصحف تنتقد الوزراء والملوك ، ومحلفو المحاكم يدينون العرش في القضايا المرفوعة أمامهم ، وحتى في عام ١٨١٩ حينما بلغت الرجعية الذروة في النفوذ والبطش ، نشطت معارضة برلمانية قوية صلبة « لقوانين سدموث الستة » التي كانت بغيتها تعطيل حريات الأمة .

تقدم التعليم
العالم

بيد أنه أخذت تشيع في خارج البرلمان بخطى بطيئة فكرة تقول بأن تعليم الجماهير هو شأن قومي ، وليس بالشأن الذي تترك فيه المسئولية كلها لزعزعات الشيع الدينية المتنافسة ونشاطها . ولا ينبع هذا أن المنافسة في شئون التعليم لا قيمة لها . فقد كانت كنيسة إنجلترا الرسمية ، وكنائس المذاهب الدينية الأخرى ، هي الأولى التي نزلت حلبة المضمار . ففي زمن لم تضطلع جماعات علمانية بنشر التعليم - بل كان يشك في إيانه أنه يمكن لوازع غير وازع الغيرة الدينية القوية أن تُبدل الجهود الاجتماعية اللازمة لتعليم الفقراء - برزت في الميدان جمعيتان هما : « جمعية المدارس البريطانية والأجنبية » *British and Foreign Schools Society* وهي جمعية غير مذهبية ، وناقشتها « الجمعية الأهلية الإنجيلية » *Anglican National Society* . ولكن

طرق التعليم التي اتبعتها هاتان الجمعتان كانت رديئة ، ومواردهما ضئيلة جداً ، والجانب الأكبر من معلميهما غلماناً لم يتجاوزوا سن العشرين . وإن تاريخ منازعاتهما وتحاسدهما لا يمكن أن يُقرأ دون إحساس بالحقول . بيد أنهما على أية حال كانتا رائدتين في ميدان خدمة هي أعظم الخدمات الاجتماعية وأجلها . ولم تبغ الدولة قط يوماً من الأيام أن تنقص عملهما ، كما أنها لم تجسر قط على أن ترسم لإنجلترا خطة كاملة للتعليم القومي المنظم . بل فضلت أن تشرف على المدراس الأولية الموجودة : من إنجليزية ، وتابعة للكنائس الحرة ، ويهودية ، وكاثوليكية ، كما وجدها ، وأن تساعد بالمال من خزانة الدولة وبالتفتيش عليها ، وإلزامها برفع مستواها التعليمي . كما أن الدولة بتنفيذها مشروعاً منظماً لإعداد المعلمين تمكنت بالتدريج من الوصول بهذه المدارس إلى درجة نسبية من الكفاية . وقد ابتدأت هذه العملية عام ١٨٣٣ ، وذلك بمنح الجمعيتين الآتيتين إعانة مالية قدرها عشرون ألفاً من الجنيهات . ثم خطت الحكومة خطوة أخرى بإنشاء لجنة للتعليم في المجلس الخاص سنة ١٨٣٩ . ولكن لم يبدأ اهتمام الدولة بوضع التدابير لإعداد المعلمين حتى سنة ١٨٤٦ .

وقد عرقلت عوائق ثلاثة الرقي القومي وكفاح الأمة ضد معازل الجهالة والأمية . وهذه العوائق هي : احتكار الكنيسة الإنجليزية الرسمية لشؤون التعليم احتكاراً تغالت في الحرص عليه ، ومطالب المصانع المهرطة المهرقة ، ونظرة واطئة رخيصة لنوع التعليم اللائق للأطفال الفقراء . ولقد شُنَّ الهجوم على بعض هذه العوائق . فإن جامعة لندن التي أسست سنة ١٨٢٥ فتحت مثلاً أبواب التعليم العالي لأبناء غير الإنجليين .

وحددت سلسلة من القوانين — أُجيز أولها في سنة ١٨١٩ ، وكان آخرها قانون العشر الساعات الذي أُقر سنة ١٨٤٧ بعد تهيج سياسي حاد — حددت هذه القوانين ساعات عمل الأطفال والغلمان الذين دون الثامنة عشرة في المصانع . وقرّر المبدأ الجليل القيمة بأن واجب كل دولة صناعية يفرض عليها بأن تكفل شرطاً من أوقات الفراغ لعمالها ، فكانت هذه الأمور انتصارات باهرة ثمينة .

وكنلك تأسست معاهد الفنون الميكانيكية لنشر المعارف العلمية بين أذكى العمال الفنيين . فإن الناس في سنى العشرين والثلاثين من القرن التاسع عشر بدأوا يدركون أن التعليم مصدر القوة والعزة القومية ، وهو الدعامة الأساسية لحياة قومية سليمة .

ومع ذلك بقى الشيء الكثير لأن يُنجز ، وقضى على إنجلترا أن تنتظر حتى سنة ١٨٧٠ ، لتقرير تعميم التعليم الأول الإلزامى ، وحتى سنة ١٨٩١ لحمل هذا التعليم بالبحان ، وحتى سنة ١٩٠٢ لإعانة المدارس الثانوية من مال الدولة . ولكن مما هو جدير بالملاحظة أنه فى وقت باكر كعام ١٨٢٥ نشر هنرى براوام Henry Brougham ، وهو مصلح تشريعى عظيم يترع إلى المهمة والتجديد ، وكان فى زمانه من أعظم الشخصيات المعروفة التى يشار إليها بالبنان - نشر براوام كتابه « ملاحظات على تعليم الشعب » Observations on the Education of the People ، فنقدت منه على الفور عشرون طبعة ، وأدى كتابه هذا إلى تأسيس « جمعية نشر المعارف المفيدة » Society for the Diffusion of Useful Knowledge سنة ١٨٢٧ .

وقد أقل نجم حزب الويغ The Whig Party أمداً طويلا . فإذا استثنينا وزارة جرنيل وفكس « Grenville-Pox » القصيرة الأمد (يناير - سبتمبر سنة ١٨٠٦) ، التى يذكر اسمها بالمجد والتمغار ، لإلغائها تجارة الرقيق ، فإن حزب التورى « The Tory Party » حكم إنجلترا من عهد ارتقاء بت إلى السلطة سنة ١٧٨٤ ، إلى عودة اللورد جراى سنة ١٨٣٢ فى أخريات عمره المديد من مقامه الرئى فى نرمبرلند إلى لندن لإقرار قانون الإصلاح الذى كان حلماً من أحلام شبابه . ومع ذلك فإن اللون الإنجليزى من المبادئ المحافظة كان يختلف اختلافاً بيناً عن المبادئ المحافظة النمساوية . فإن العناية الإلهية الشفيقة التى كانت تهيم على مجرى السياسة الإنجليزية أمدتها بطائفة من أفضل الزعماء المحافظين من ذوى الحكم الصائب السليم والطباع المرونة المتساحة : تلك الخلال التى بدونها كان يشق على إنجلترا أن تجتاز فى

الأحرار
والمحافظون

أمن وسلامة تغيرات القرن التاسع عشر الصناعية والاجتماعية من غير اندلاع ثورة خطيرة باهظة الثمن . فقد كان ولم يت الذي وضع خلال حكمه الطويل التقاليد الإنجليزية المحافظة في الشطر الأول من القرن التاسع عشر - كان بعيداً البعد كله عن عقلية مترنخ . ذلك أنه رضع لبان دين الأحرار الخاص بالحرية المستوردة . ومع أنه تحت ضغط الحرب الفرنسية ، ألغى نفسه كما رأينا مضطراً إلى أن يؤجل توسيع دائرة الانتخاب ، إلا أنه لم يصبح يوماً من الأيام محافظاً ضيق النظر أو أنانياً . فقد أدرك ، كما أدرك دزرائلي من بعده ، الأحوال المزرنة التي تكتنف الصناع الفقراء ، كما أنه لولا معارضة الملك له ، لخول الإيرلنديين الكاثوليك حق الجلوس في البرلمان بوستمنستر .

وقد شاطره في سخاء الفكر وكرم النظر ، بعض من أفضل خلفائه ، وبخاصة كاننج ، وروبرت پيل ، وهصكسن « Huskisson » . وحتى اليوم ولنجن أشد المحافظين صرامة كان مستعداً في نهاية الأمر للموافقة على إصلاح البرلمان . ولهذا لم يكن عصر مترنخ فترة ركود في تاريخ إنجلترا الداخلي . بل على العكس كان عهداً سُنّت فيه قوانين عظيمة ، وأقريت تغيرات كبيرة تبين اتساع أفق العقل السامى الإنجليزي وتسامحه ، فقد صارت نقابات العمال مشروعة قانوناً سنة ١٨٢٤ ، وبُسّطت التعريفات الجمركية سنة ١٨٢٦ ، وصُنح المنشقون البروتستانت أولاً ، ثم الكاثوليك ثانياً ، حتى التصويت ، وأخيراً بإجازة قانون الإصلاح سنة ١٨٣٢ ، إجابة لطلب أغلبية كبرى من الرأي العام في البلاد ، ومنحت الطبقة الوسطى حق الانتخاب ، وبحرور ملكك مجلس العموم من سيطرة الطبقة الأرستقراطية . وكتبنتيجة طبيعية أدى هذا التغير إلى إشاعة الديمقراطية في الحكومة المحلية ، وإلى إصلاح قانون مساعدة الفقراء ، وإلى إلغاء الرق ، وإلى رفع القيود الجمركية عن طعام الشعب . وبما يلفت النظر أن الإصلاح البرلماني ، ولو أنه تم على يد وزير حر ، فإن تحرير الكاثوليك ، وإلغاء قيود التجارة ، كما على يد السير دوبرت پيل الوزير المحافظ الجليل ، الذي تمكن من تكييف مبادئه وفق الحقائق الواقعية وعظمتها .

٢ - السير روبرت پيل

نشأته وعلاقته وإن قبول الأرسقراطية الإنجليزية الصلقة المتعالية النزاعة إلى السيطرة - إن قبولها بروح المسألة ، المطالب الديمقراطية لعصر صناعي ، ليعود الفضل فيه إلى مدى بعيد إلى خلق پيل : هذا الزعيم البرلماني القوي الذي كان لأكثر من أربعين عاماً (١٨٠٩ - ١٨٥٠) في طليعة المناضلين في معارك المحافظين .

وقد تضافر البيت والمدرسة والحاممة على جعل پيل محافظاً ، وعلى انضوائه ، عند دخوله البرلمان سنة ١٨٠٩ ، تحت راية ليفربول ولونجتون الزعيمين المحافظين . ولكن ذهنه كان جباراً أميناً شجاعاً ، نزاعاً إلى قبول الآراء المتغيرة ، تغيراً غير محسوس كل يوم . وكان يسير متمهلاً ، لأنه كان عند اعتناقه مذهباً ما يتحول عقله كما يتحول عقل الرجل العادي . ولكنه كان يتحرك في النهاية ، وفي آخر لحظة من الوقت المناسب .

وكان إذا غير مرة مبادئه طوعاً لصوت ضميره ، فإنه كان شجاعاً في الإعراب عنها دون مداجاة ، ولم يمزج من أن يواجه ما هو غير دائماً على كل برلماني مطبوع مثله أن يقبله ، وهو القذف به إلى الصفوف الخلفية المنسية من الحزب . فإن معظم القوانين والمشروعات الكبيرة الشأن التي أجزمها أو قبلها في كهولته ، كان قد ناضلها نضالاً عنيفاً في أيام شبابه . فقد عارض ثم أجاز نفسه فيما بعد ، تحرر الكاثوليك وحرية التجارة . وعارض ، ثم قبل في ولاء ، قانون الإصلاح .

تأسيس حزب المحافظين وفي منشور تامورث Tamworth ، الذي أصله بشأن الإصلاح النيابي بنصيحة - بارنز Barnes رئيس تحرير جريدة التيمس - إلى دائرته الانتخابية عقب هزيمة حزبه الكبرى ، أعلن انبعاث حياة جديدة في حزب أصبح

لا يُدعى بعد الآن Tory ، بل Conservative ^(١) . وأعلن في مايو سنة ١٨٣٨ بأن هتاف من سنين عدة خلت ، هو أن أضع أسس حزب عظيم يجب عليه ، نظراً لوجوده في مجلس العموم ، واستمداده قوته من الرأي العام ، أن يقضى على أسباب الصدام بين فرعى السلطة التشريعية المتعادين . ولقد كان هذا العمل أجل أعماله وآخرها .

وزارة تقلد بيل زمام السلطة في سنة ١٨٤١ على رأس وزارة منقطعة النظير في القدرة والكفاية ، وجعل الحكومة أداة نفذ بها سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية الهامة . وإذا كانت إنجلترا قد أصبحت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مكاناً رخيصاً للسكنى ، وصارت تجارتها عالمية ، وأصبح العالم كله مستودعاً تجلب منه حنطتها ، وإذا كان عجز ميزانيتها قد انقلب إلى زيادة ، رغم إنقاص الرسوم الجمركية على الواردات ، وإذا كانت نظمها الخاصة بالمصارف والعملة قد وضعت على أساس ثابت ، وأزيل من نظمها القضائية كثير من أسوأ العيوب التي أبانها جيرمي بنتام « Jeremy Bentham » المشرع المصلح العظيم ، الذي عم خيره العالم أبجع - فإن هذه الأعمال ليمود الفضل فيها إلى مدى غير قليل إلى قلوب السير روبرت بيل الحارقة وآرائه الناضجة السليمة .

الاشتراكيون والميثاقيون أنجز كل هذا ، رغم أن عصره كان عصر اضطراب وتقلقل . ففي إنجلترا التي كانت دائماً قاب قوسين من الثورة ، كان دانييل أوكونل Daniel O'Connell يشدد التأكيد على المحافظين لتحقيق مطلبه الأول الخاص بتحرير الكاثوليك ، ثم بعد ذلك شدد الهجوم عليهم لتحقيق مطلبه الخاص بمنح لإرlanda الحكم الذاتي . وفي إنجلترا كان روبرت أوين (١٧٧١ - ١٨٥٨) يوضح نظرياً وعملياً المنافع الرائجة للاشتراكية . ثم عقبه الميثاقيون « the Chartists » الذين ألحوا في المطالبة بتحقيق مطالبهم الستة التي جاءت

(١) بدأ استخدام كلمة Conservative لتفسير عن الحزب السياسي الإنجليزي الذي عرف منذ ظهور أصوله في عهد شارل الثاني باسم حزب التوري - بهذا استعمال هذه الكلمة ، في النصف الرابع من القرن الماضي .

فى ميثاقهم ، وهى : منح حق الانتخاب للجميع ، ودفع مرتبات لأعضاء مجلس العموم ، والتصويت السرى ، وإلغاء شروط الملكية فى منح حق الانتخاب ، وانتخاب برلمانات كل سنة ، وتقسيم البلاد إلى دوائر انتخابية متساوية ، مؤهلين بأن قيام ديمقراطية عديدة سيرى البلاد من جميع الأدواء .

كبدن وسرية
التجارة

وأخيراً برز فى هذه الحلقة من هو أقوى من هؤلاء جميعاً وهو : ريتشارد كبدن Richard Cobden (١٨٠٤ - ١٨٦٥) بائع المنسوجات الرخيصة : الذى كسبت حملته الحامية ضد بقاء قوانين الغلال Corn Laws - تلك الحملة التى شنها بعنف وقوة لا مثيل لها - كسبت لإنجلترا خبزاً رخيصاً ، وأدت إلى أخذها بمبدأ حرية التجارة . وكانت خدمة بيل العظمى ، هى أنه بتجنبه الآراء المتطرفة للنظرين الراديكالى من جهة ، والصمود أمام حتى أصحاب الضياع ورجال الدين وسخطهم من جهة أخرى ، قدر على تسيير دفة البلاد فى الصراط الوسط المأمون للإصلاح الحر .

النمو المطرد
الخدمات
الاجتماعية

ولهذا فإنه فى الحين الذى كانت ثورات سنة ١٨٣٠ ، ثم ثورات سنة ١٨٤٨ تهرز أركان أوروبا ، وسعت إنجلترا فى هدوء وسلام نطاق حرياتهما وزادت فى رغد العيش لأبنائها . ولم يكن الإنجليز ينظرون بعيداً إلى الأمام . فقد جابهوا أخطاراً عظيمة ، وانتابهم شقاء عظيم من جراء احترام حقوق أصحاب المصالح الموروثة والأطماع الاقتصادية الجامحة . ولكنهم كانوا فى المحطات الخطيرة الحاسمة يتخذون التدابير الصائبة السليمة . فحينما أطلت عليهم الثورة تكشّر عن أنيابها ، أبيع للطبقة الوسطى حق الانتخاب ، وسُيحت حصّة من السلطان . وأنتج انتشار الكوليرا إجازة أول قانون من قوانين الصحة العامة . وساعد نقص محصول البطاطس فى إيرلندا سنة ١٨٤٦ بيل على إلغاء قوانين الغلال . وما وفى العام الذى سقط فيه مترنخ (سنة ١٨٤٨) ، حتى كانت إنجلترا تملك قانوناً جنائياً مصلحاً ، وبدأت نظاماً لإعانة المدارس ، وأقرت قوانين لرقية وسائل الصحة العامة ، وتحديد ساعات عمل الأطفال ، ووضعت نظاماً مالياً للضرائب خفيف العبء على الفقراء . ومع أن السياسة البرلمانية

الحصيفة أخفقت بونث في ترويد البلاد بمستوى من التعليم يستطيع أن يتال رضا ألماني ذكي القواد كالأمير ألبرت زوج الملكة فكتوريا ، إلا أن هذه السياسة وضعت أسس ذلك النظام الضخم من الحملات الاجتماعية ، الذي رقى إنجلترا ، أكثر من أى عامل آخر ، ويلات الثورة وشرورها .

٣ - نتائج سياسة حرية التجارة

وكان انتصار مبدأ حرية التجارة في إنجلترا فوزاً للحضر على الريف ، انتصار المصالح الاقتصادية وانتصار المصالح الصناعية الجديدة على مصالح الملاك القديمة ، وكسباً للطبقة الوسطى - هذه الطبقة التي في الحين التي كانت تنمو فيه مصالحها المادية الخاصة ، رقت عرضاً مصالح الفقراء . ولم يكن مال أصحاب المصانع الوفير هو الذي كسب وحده الحركة لمصالح حرية التجارة ، فإن الزراع الإنجليز لو أنهم وحدها صفوفهم ضد الانقلاب الذي حدث وقتئذ في نظم الضرائب ، فلربما كانت النتيجة غير ما ذكرنا . ولكن المشتغلين بالزراعة لم يوحدها صفوفهم . فقد كان ملاك الأرض في جانب ، والمسال الفلاحين وسكان الأكواخ في جانب آخر . وكان من أكبر العوامل التي أعاقت كبدن وأنشاعه من مؤسسي الجمعية المعادية لقوانين الفلال ، Anti-Corn Laws League في حلهم على تلك القوانين ، هو أنهم تمكنوا من أن يمتثلوا ملاك الأرض لأحكامهم الفقراء ، بل كضطهادهم والمستبدين بمصالحهم .

وكان نتيجة لا مفر منها لسياسة « الرخيف الرخيص » أن ارضعت الأحيوات المطالة بيناء أسطولهم فتور له بلجج البحار . فإنه على حين أخلت هذه السياسة القرى من سكانها ، فلها زحمت المدن ، وجرت في ذيلها نمواً هائلاً في عدد السكان الذين صاروا في عوز أكثر من قبل إلى الطعام ومواد خام تجلب من وراء البحار ، وإلى أسواق أكثر لمصادرات إنجلترا ، وإلى سفن أكثر لنقل حوائجها . وبامتلاك إنجلترا إمبراطورية مترامية ، وأسطولا تجارياً

ضخماً لم يكن ثمة محيص من بناء أسطول حربي قوى يستطيع وحده أن يضمن استيراد الأطعمة لأمة توزع سكانها توزيعاً غير متكافئ بين الصناعة والتجارة ، وبلغوا من كثرة العدد بحيث صار من السخف الافتراض بأن حقول جزيرة صغيرة كبريطانيا تستطيع أن تقوم بأوهم ، إلا بتكاليف تبلغ من البهظ والفساد حداً يصعب التفكير فيه .

وقد أشاع الرخاء المادى المتزايد روحاً قوية من التفاؤل فى طول البلاد وعرضها خلال الأعوام التى تلت مباشرة إلغاء حماية التجارة . ومات جورج الرابع الخليفة المتهتك (١٨٢٠ - ١٨٣٠) ووليم الرابع الأحمق السفیه الرأى (١٨٣٠ - ١٨٣٧) ولم يبيتا يلونان العرش . واستوت الملكة فكتوريا (١٨٣٧ - ١٩٠١) على سرير الملك ، جالبة معها نضرة الشباب وورزاة الملك واتزان الرأى فى تأدية واجبات منصبها السامى . كما ترتب على الصدقة السعيدة بكونها سيدة ، قطع إنجلترا لصلاتها المربكة البغيضة مع ناخبية هانوفر .

استواء
الملكة فكتوريا
على العرش

وعُقد المعرض الدولى الأول فى لندن عام ١٨٥١ فى جو يسوده الأمل ، وتغمره البهجة . أولمَّ يحلم شاعر^(١) غص الإهاب قبل ذلك بأعوام تسعة : برؤيته « السماء تملأ جنباتها التجارة ، والسفن ذات الأشرعة السحرية ، والقباطنة فى نور السحر القرمزى يُترلون البالات الغالية الثمن » ؟ أولمَّ يحلم أيضاً بزمن « لا تفرع فيه طبول الحرب ، بل تطوى بنود المعارك ، ويقوم برلمان يمثل اتحاد العالم ؟ » .

المعرض الأول
الملك

ولكن أوروبا لم تكن مهيةةً وفتحةً للدولية . فإن مذهب حرية التجارة الذى بشر به آدم سميث، وجد معارضاً له فى مبدأ حمايتها الذى شرحه وأيده فريدرخ لست Friedrich List الاقتصادى الألمانى . فلم تحذ دولة واحدة حلو إنجلترا فى فتحها أبوابها لواردات العالم أجمع . بل على النقيض من ذلك ، شاهد القندان التاليان لظهور حركة حرية التجارة فى إنجلترا انفجاراً قوياً

(١) هو ألفرد تينين .

من القومية المسلحة في قارة أوروبا مرق عمل مؤتمر فيينا ، ونخيب إلى حين
جميع الآمال التي عقدتها العالم الممدن لبناء نظام أفضل وأكثر انسجاماً وتناغماً :
نظام كثيراً ما دار في خلد الشراء ، وحلم به أنصار حرية التجارة .

كتب يمكن استشارتها

- G.M. Trevelyan : British History in the Nineteenth Century. 1922.
J.L. Hammond : Age of the Chartists. 1920.
W. Bagehot : Sir Robert Peel. (Biographical studies) 1907.
G.M. Trevelyan : Lord Grey of the Reform Bill. 1929.
G.M. Trevelyan : Life of John Bright. 1925.
George Peel : Life of Sir Robert Peel (Dict. Nat. Biography)
H.W.C. Davis : Age of Grey and Peel. 1929.
E. Halévy : Histoire du Peuple Anglais au XIX siècle. Eng.
Tr. 1926-35.
G.T. Garratt : Lord Brougham. 1935.

الفصل الثاني عشر

ملكية يوليو

قوة ملكية لويس فيليب وضعها . انفصال البوهارتية . لويس بوناپرت .
الاشتراكية . نان سيمون ، فورييه ، وبرجوت ، ولويس بلان . ثورة
فبراير . الجمهورية الثانية . أيام يوليو . انقلاب ديسمبر . ابتداء عصر القوميات .

١ - مواطن الضعف والقوة في ملكية لويس فيليب

لقيت ملكية لويس فيليب حظها - بعد حياة عمرت ثمانية عشر عاماً -
في عين النظرات التي طلعت له على الناس وهو : شبيب ثورة في باريس .
وقد كان حكمها يحرق فضائل عديدة : فذلك الأمور كان يسلك بها ملك
حكيم غير مجد ، والدولة يحميها ساسة من ذوي الكفاءة والاستقامة والقوة .
فقد كان كازيمير بيرييه *Casimir Perier* ، وثيير ، ووليه *Mol* وجيزو
Guizot ، رؤساء وزارات لم يتطرق إلى وطنيتهم وفلسفتهم أدنى ريب . ومع
أن حق الانتخاب حصر في دائرة ضيقة ، تتألف من مائتين وخمسين
ألف ناخب ، فإن فرنسا لم تشاهد عصراً يداني عصر لويس فيليب في روعة
البلاغة البرلمانية وفخامتها . وفي خلاله نفقت التجارة ، وبدأ تطور السكك
الحديدية ، واستمر فتح بلاد الجزائر وتوطيد الحكم الفرنسي فيها .

مواطن القوة

وقد نجحت حكومة لويس فيليب في كبح جماح شهيوتين قويتين مركبتين
طلبا استهوا قلب الأمة الفرنسية وهما : الثورات الداخلية ، والمطامير
الحرية الخارجية . وضعت فرنسا في جيزو سياسياً قديراً وحالاً لوبياً ،
أدرك الحاجة إلى نظام عام للتعليم الشعبي تكمله الدولة ، وأحد المدن اللامعة

لتنفيذه . ولكن رغم جميع الفضائل السياسية السامية ، الى امتازت بها ملكية لويس ، ورغم خدمتها الجليلة لفرنسا ، فإنه ما من حكومة قتل "أسف الناس على سقوطها مثل تلك الحكومة .

ولم يكن مقتل اللوق أرييان وريث العرش المحبوب عام ١٨٤٢ كافياً في مواطن الضعف ذاته ليفسر علة تحول الشعب عنها وفجوره منها . فقد كان هنالك في نظر شعب منطلق كالشعب الفرنسي عيب أساسي في نظام حكومة لم تكن ملكية حقاً ، ولا جمهورية حقاً ، ولا إمبراطورية حقاً ، بل كانت وليداً خلاسياً ، لا يمحيط به فلك السناء التاريخي وتلك الأبهة اللذان يحيطان بأرباب التيجان ، ولا الحب الشعبي الذي تقوم عليه الجمهوريات ، ولا الصبغ الحروب المهيديت بونايرت ، بل إن ذات الفضائل التي اتسمت بها حكومة لويس فيليب كانت مبيهاً لغيرها ، كما كانت سياسة التساهل والخصوية التي اتبعتها مع إنجلترا ، ورغبها في حفظ علاقتها الحسنة معها ، وحبها المجازفات الخطيرة البراقة — كانت قذرى في أعين الناس . وقد لخص لا مرتين زعيم حركة الأدب الرومنطيق في فرنسا حكم الأمة عليها في هذه العبارة اللاذعة : " لقد ملت فرنسا بحكمها وسادها السأم منها ، فقد حكم المواطن الفرنسي العادي على ملكه بعاداته اليورجولارية ، ومظلمته الكبيرة ، وفضائله العائلية المربكة ، بأنه شخص يحمل ثقل العثرة .

ولكن كانت هناك أسباب خفية متوالية أعظم خطراً وأكبر وزناً من هذه الأسباب كحرمات الفرنسيين في ملكية لويس . فقد أغضبت الكنيسة بإلغائها نظم التعليم والحرية في فرنسا على مبادئ غير ملهية ، وبلغا أقصى الجهد لاسترضاء القساوسة من أن تدخل بأمر رجال الدين . ولم تقل أن توسع دائرة الانتخاب ، أو تمناً بالقرحات الخاصة بتحسين حال الأمة . وعلى حين تقدمت إنجلترا قديماً سرياً بتطبيقها مبادئ قانون الإصلاح الصادر سنة ١٨٣٢ ، فألفت الرق ، وأصلحت المجالس المحلية ، وظلمت من جديد

الأعوام الثمانية الأخيرة من حكم لويس فيليب قاوم مقاومة شديدة متواصلة أكثر المطالب اعتدالا لتوسيع نطاق حق الانتخاب . ولذا كان انتهاج حكومة لويس سياسة سلبية بحتة مطردة في وسط هذا الغليان للرأى العام مؤدياً لا محالة إلى الكوارث والمحن .

وفي نهاية الأمر صدم تياران قويان صدمة قاتلة بنيان هذا النظام الإدارى السيسى الشديد الحذر ، العديم الابتكار : هذا النظام الذى وصفه بحق جون ستورات ميل : « بأنه يخلو كلية من روح التحسين ، ويكاد يتبع على الدوام أسط نزوات البشر وأشدها أنانية » .

وكان التيار الأول منهما بونا برتياً . فلقد نسي الناس بتعاقب الأيام الجانب المولم المحرب في سياسة الإمبراطور العظيم : نسوا ثقل وطأة التجنيد العام الطاحنة ، ونسوا إفناء زهرة الأمة الفرنسية ، ونسوا غزوات الدول الأجنبية لبلادهم وسلخ أرض الوطن منهم ، في حين تضافر الشعراء وكتاب المنشورات والمؤرخون على تزيين هذا العصر الملىء بالانتصارات الفرنسية والبطولة الخالدة التى كان يعيدها إلى الأذهان مجرد ذكر اسم نابليون . فإنه حتى حين ناشد نابليون خلال حكم « المائة يوم » الأقاليم بالالتفاف حوله ، وحاول أن ينفخ فيها روح الثورة القديمة ، وأخذ يطرقى في الوقت نفسه ذكاء الباريسيين وميلهم إلى الحرية ، حسب عمله هذا استقامة متره . فتغنى بيرنجيه Berange بحروبه . وأشاد فكتور هيغو Victor Hugo بانتصاراته في منظومة Ode à la Colonne ، وقُدِّمت مذكرات الإمبراطور التى أملاها في منفاه بسنت هيلانة إلى الأمة الفرنسية ، ورُتبت أحاديثه ، بقصد ضمان مستقبل أسرته وتعزيز مركزها . فقلعت إمبراطورية نابليون إلى الأمة الفرنسية كنظام انتقال ، أقيم ابتغاء تقدم المبادئ الحرة ودعم القومية الفرنسية ، ولكنه دُكَّ إلى الأرض نتيجة حسد الأسرات المالكة في أوروبا ، قبل أن تتمكن الإمبراطورية من تبيان مزاياها النافعة للناس ، وإخراج أكلها الشئى .

ومن ثم أخذت نظرة الفرنسيين إلى الإمبراطورية كأداة حرة ديمقراطية

انتماش
البونابرتية

— لا كأداة استبداد وطفان — ترسخ باطراد في الأذهان ، وتضم إليها الأشياء .
فإن أسطورة « الجاويش الصغير » الذي شق طريقه بيده إلى المجد والرفعة ،
وثلَّ العرش تلو العرش ، ثم مات شهيد الاستبداد البريطاني الغشوم في جزيرة
ناحية من جزر المحيط الأطلسي تكتسحها الرياح العاصفة — إن هذه الأسطورة
نفذت إلى قلوب الأمة الفرنسية ، يحيط بها العديد من الظروف المثيرة للشجون
المحركة للعواطف . ولذا فإنه عندما أعيد سنة ١٨٤٠ جثمان نابليون إلى باريس
لدفنه في الأنفاليد ، أصبح قيام الإمبراطورية الثانية في حكم الأمر الواقع المقرر .

لويس
بونابرت

وكان هناك مطالب بالعرش ، يقف عن كعب متربصاً : هو لويس بونابرت
(١٨٠٨ — ١٨٧٣) ابن لويس بونابرت ملك هولندا ^(١) . وأمه هي هرتسن
بوهارنيه Hortense Beauharnais ابنة الإمبراطورة جوزفين من زوجها
الأول . وأصبح لويس بعد وفاة الدوق دي ريشناد ^(٢) Duc de Reichstadt
سنة ١٨٣٢ ، رأس أسرة نابليون . وكان شاباً منجداً غريب الأطوار كثير
التفكير ، تملأ الأحلام خياله ، والتدائير والخطوط ذهنه . ويعمر قلبه إيمان
وطيد لا يتزعزع بأن العناية الإلهية قد اصطفته لإعادة بيت عمه إلى عرش فرنسا .

وقد حاول لويس مرتين : الأولى سنة ١٨٣٦ ، والثانية سنة ١٨٤٠ ،
اغتصاب التاج الفرنسي . ولكن مساعاه خاب في المرتين خيبة مزرية . بيد
أن السخرية لم تكن لتخرجه ، ولا القشل لبثنيه عن قصده . وفي سنة ١٨٤٨
كان متفياً بأئس الحال في لندن ، « بلا الحياة من جوانب منوعة عديدة :
خبرها كعضو في جمعية كربونارية بإيطاليا ، وكطريد في الولايات المتحدة ،
وكسجين في إنجلترا ، وكصحفي وكاتب منشورات . ولكن رغم هذا كله كان

(١) هو لويس بونابرت ، أجلسه أخوه الإمبراطور على عرش هولندا سنة ١٨٠٦ ،
ولكنه تنازل عنه سنة ١٨١٠ .

(٢) وهو الملقب أيضاً بملك روما . وله سنة ١٨١١ لنابليون الأول من زوجه الثانية
ملوى لويز ، وتوفي بولينا سنة ١٨٢٢ .

الحلم بارتقاء العرش الإمبراطوري يوسوس في مخيلته على الدوام . وأعلن في كتاب صغير عنوانه « أفكار نابليونية » Idées Napoléoniennes برنامجاً كاملاً لإمبراطورية نابليونية ثانية تقوم على المبادئ الحرة .

انتشار المبادئ
الجمهورية
والاشتراكية

أما التيار الثاني الذي ارتطمت به ملكية لويس ، فكان جمهورياً اشتراكياً . فقد كانت فلسفة ثورة ١٧٨٩ فلسفة تنطوي على تصورها الحقوق السياسية والشخصية قائمة على مبدأ المساواة . ومع ذلك فإن الثورة لم تحاول إلغاء الملكية الخاصة أو ضمان مستوى ملائم من رغد العيش للصانع ، أو التدخل في حرية الأعمال الصناعية . فكانت نقابات العمال موضع الكراهية واليغض للذين أظهرتهما تلك الثورة للجماعات المشتركة عامة ، بصفتها آلات خاضعة لنظام الامتيازات القديم . ولا كانت جميع الجمعيات والاتحادات موضع مقت الثورة وعدم رضاها ، فقد حرمت الثورة الصانع من الفوائد التي تعود عليه الآن من استخدام نقابات العمال سلاح الإضراب ، والمساومة الجماعية .

بيد أن هذه الأفكار التي غلبت عليها النزعة الفردية ، أخذت تخفى سريعاً ، وتحل محلها نظرية جديدة للمجتمع . فقد اعتقت المجالس النابية للثورة الفرنسيين من أغلال الامتيازات ، غير أنها أبقت معضلة الفقر هائلة جبارة مستعصية ، كما كانت من قبل . ولكن الناس أخذوا يتساءلون إذا كان الفقر ضربة لازب ، وإذا لم يكن من المستطاع إعادة تنظيم المجتمع ، بحيث يمكن أن يعطى الجميع حصصاً معقولة من ثروة العالم المادية ، حتى وإن لم تكن حصصاً متساوية . فألفت كتب كثيرة في الأدب السياسي كان لها أثر بعيد ، وتلور أبحاثها حول هذه المعضلة الأولية .

بعض انتداب
الاشتراكية

فنادى أتباع سان سيمون Saint-Simon بالسلام العالمي ، وإلغاء مبدأ التوريث ، وضرورة تنظيم العمل تنظيماً دولياً ، ووضع نظام للتوزيع يكافأ فيه كل فرد حسب حاجته . واقترح فورييه Fourier إلغاء الدولة ، وإحلال « خلايا عمال » Phalansteries مكانها . وحض لويس بلان Louis Blanc على إقامة مصانع قومية . وأدلى برون Proudhon بالعبارة

الشهيرة الخطرة « الثروة هي سرقة » . ونحت يومئذ الكلمتان : « الاشتراكية » ^(١) ، « الشيوعية » ، وصارتا في وقت وجيز من مصطلحات الناس العادية . وشاعت في ذلك الحين فكرة بين الطبقات الباريسية السفلى بأن انقلاباً هائلاً يوشك أن يقع ، فيشرب الساقى نبئذ سيده ، وترتدى الخادم دمقس سيدتها . ولكن من بين عديد الآراء والأفكار التي ظهرت - وكان بعضها خيالياً وبعضها الآخر عنيفاً متطرفاً - برزت فكرة عملية كان لها أثر بعيد وشأن خطير ، عبر عن لبابها عنوان رسالة كتبها لويس بلان سنة ١٨٣٧ ولقيت إقبالا شديداً من الشعب ، وهذا العنوان هو : « تنظيم الصناعة » . فقد نادى هذه الرسالة بالاستعاضة عن مبدأ « حرية العمل » laissez-faire الذي دعا إليه الأحرار ، بالمبدأ الاشتراكي وهو : « المقدرة على العمل » Savoir-faire

والاشتراكية التي هي قديمة قدم الفقر ذاته تتخذ أشكالا مختلفة في الأذهان المختلفة : فيتصورها البعض في إشاعة المبادئ الإنسانية المسيحية في ميادين الصناعة ، ويتصورها بعض آخر في المساواة في الثروة وتكافؤ الفرص ، وآخرون في تملك الدولة وسيطرتها على الأرض وأدوات الإنتاج ، على حين أن آخرين - وهم تلاميذ كارل ماركس - طالبوا بقيام دكتاتورية من الطبقات العمالية ، واعتقدوا أنه لا يمكن نيلها إلا بنشوب حرب بين الطبقات . كما أن هناك اشتراكية تقوم على نقابات العمال ، واشتراكية عملية ، واشتراكية قومية - كل ذلك تبعا لوجهة نظر المرء إلى الهيئة التي يرى أنها أصلح من غيرها لتنظيم الأعمال الصناعية وتوجيهها .

بل إن البعض يرى - وهم أقرب الناس إلى المطلق - أن الاشتراكية القومية ليست بكافية لإسعاد البشر . إذ يلاحظ هؤلاء المفكرون أن القوى الطبيعية في جهات العالم المختلفة - في أوروبا وإنجلترا والورين والهرم وسيلزيا -

(١) اجتمعها في فرنسا بيير ليرو Pierre Leroux سنة ١٨٢٨ ، وظهرت في إنجلترا كلمة « اشتراكي » في Co-operative Magazine سنة ١٨٢٧ ، وكانت تطلق إلا ذلك مل أشياح روبرت أوين . -

موزعة توزيعاً غير عادل . فهم يتساءلون مثلاً إذا كان من العدالة أن تتوافر المواد الخام لتجهيز جيش حديث في اليابان ، في حين أنها لا تتوافر في الصين . وأن رومانيا ، وليست إيطاليا ، هي التي تملك آبار زيت البترول . وتعجز أفهامهم عن أن ترى كيف يمكن الحصول على السلم العالمي وضمانه من غير وضع نظام ما لتوزيع منابع الثروة في العالم توزيعاً دولياً . وصفوة القول أن هؤلاء المفكرين هم اشتراكيون دوليون . فإنه عقب الحرب العظمى مباشرة ، حينما كان الفحم الأمريكي والإنجليزى يباع في إيطاليا بأثمان باهظة جداً لشحه وقتئذ فيها ، حض مندوب إيطالى عصبة الأمم على إقرار الملكية الدولية للفحم وبعض المواد الخام الأخرى التي تحتاج إليها الصناعة . ولكن أيّاً كان شكل الاشتراكية الأمثل ، فلا مشاحة في أن إعادة تنظيم الصناعة طبق مبادئ إنسانية عملية هي مهمة تتطلب عملاً متشعباً يجب أن تتصافر فيه كثير من العقول الموهورة الذكاء ، الطويلة الأناة . وقد قذف الكتاب الاشتراكيون الفرنسيون وقتئذ بأفكار جديدة ، ونموا روح التفرم والسخط في هيئات ذكية مثقفة ، ولكن الأمر الذي لم يفعلوه ، ولعلهم لم يمنحوا الوقت الكافي لفعله ، هو أن يعملوا طريقة سياسية مجربة تستطيع أن تقوم بوضع مقترحات عملية يمكن وضعها موضع التنفيذ . فإن الثورة فاجأهم قبل أن تتاح لهم الفرصة لتربية جيل جديد من أنصار الاشتراكية وتلقينه .

ولقد وصف هاينريخ جو باريس المستعمر في مقال كتبه سنة ١٨٤٢ في جريدة ألمانية قال فيه : « حينما زرت بعض المصانع الموجودة في حي « فوبرج سان مارسو » وأخذت أستفهم عن أنواع المطبوعات التي يقرأها عمال المصانع الذين يؤلفون أغنى عناصر الطبقات العاملة ، خطر للذهني حكمة مائكو باتزا التي تقول « خبئني : عما زرعت اليوم ، أنبتك لما ستحصله غداً » . فقد وجدت أن عدة طباعات جديدة لخطب روبيسير بطل الثورة الفرنسية وبعض منشورات لمارا تباع النسخة الواحدة منها بعلم - وجدتها متشرة انتشاراً كبيراً بين عمال تلك المصانع ، ووجدت بين أيديهم مؤلف كاييه في « تاريخ الثورة »

شيوخ روح
الثورة

ومؤلفات كرمينان Cormenin السامة الصغيرة الحجم ، وكتاب بوناروتى Fuonarotti الذى عنوانه Babceuf's Doctrine and Conspiracy ، وهى كتابات تفوح كلها دماً . والأغاني التى سمعهم يتغنون بها تبدو كأنها نظمت فى سفير جهنم ، وهى ذات قرارات تبلغ فيها فورة النفوس أشدها . والحق أن قوماً مثلنا يسرون فى مسالك الحياة الوديعة الهائلة ليعجزون عن أن يدركوا الروح الإبلية التى تشيع فى تلك الأغاني . فلا بد للمرء الذى يروم إدراك أثرها أن يسمعها بأذنيه ، فيسمعها مثلاً فى تلك الورش الضخمة المتسعة حيث تطرق المعادن ، وحيث الأصوات المتحدية المتحفزة التى تخرج من حناجر هذه الأبدان نصف العارية تنسجم وتتناغم مع الضربات القوية التى يحدتها ضرب المطارق الحديدية الجبارة على سندباناتها الرنانة . وأجلاً أو عاجلاً أخشى أن تكون ثمرة ما يذر الآن فى فرنسا فتنة جمهورية هوجاء .

وواضح من كلمات هاينه هذه أن ما كان يحول فى عقول الصناع الباريسيين يومئذ هو ثورة سياسية غنيقة دموية ، لا تحول قائم على مبادئ علمية مدروسة .

وفى عطلة البرلمان الصيفية عام ١٨٤٧ بعد أن أخفق أوديلون بارو Odilon Barrot زعيم الأحرار فى مجلس النواب ، فى إجبار الحكومة على إعطاء بعض المنح ، أشار بالقيام بحملة فى طول البلاد وعرضها للمطالبة بإصلاح البرلمان . فأقيمت المآذب ، وألقيت الخطب ، وشربت الأنخاب (ولم تكن جميعها موالية للملكية) . ونودى فى موجة صاخبة من التحدى بضرورة عزل جيزو كبير الوزراء ، وجوب تطهير البرلمان من الأعضاء الوصليين ، وتوسيع دائرة حق الانتخاب . وكان من أبرز خطباء ذلك الحين لامرتين Lamartine (١٧٩٠ - ١٨٦٩) الشاعر المحبوب والمؤرخ وخطيب فرنسا المفوه ، وزينة المجالس والندوات ، ونبي الجمهورية المثالية . فقاومت الحكومة هذه المطالب وحظرت عقد مأدبة كان يراد إقامتها فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٤٨ . ولكنها سرعان ما ألقت نفسها فجأة وجهاً لوجه أمام شغب إصلاحي نشب فى باريس ، ثم تطور هذا الشغب تطوراً سريعاً غير منتظر إلى عصيان

المطالبة
بالإصلاح

جمهورى هائل، لعله كان نتيجة تراشق عَرَضى بدأتها دورية من رجال الجيش تولاهم الجزع .

اندلاع الثورة

وفي ٢٤ فبراير سنة ١٨٤٨ ، وهو اليوم الثانى من القتال الذى أخذ يدور فى الشوارع ، تحصن العمال خلف المتاريس التى أقاموها فى الشوارع ، واستبدل بالهتاف « بحيا الإصلاح » هتاف « تحيا الجمهورية » . ولما رأى الملك الذى بلغ من العمر عتياً ، والذى كان يغلب عليه النصب والكلال ، ويجزع من سفك الدماء ، أن الحرس الأهلى انقلب عليه ، واعتقد خطأ أن الأمة تسير خلف صفوف الحرس الأهلى - لما رأى الملك هذه الأمور تولاه الملح ، وتنازل عن العرش لحفيده ، ولاذ بالحرب إلى ملجأ مأمون فى مقاطعة صرى بإنجلترا .

٢ - الجمهورية الثانية

وفى الحين الذى أخذ لويس فيليب يتوارى فيه عن أنظار فرنسا ، بدأ لويس بوناپرت يظهر على المسرح . وقد صار الآن رجلاً فى الأربعين من عمره : شخصية غامضة مستبحة ، بلا ضمير أو وازع وجدانى ، يخاله من يراه حشاشاً ، وينطق الفرنسية بلهجة أعجمية . ولكنه إذ وجد بعد قليل أن الفرصة غير ملائمة ، انسحب إلى إنجلترا ، بعد أن أعلن وجوده فى مهارة ودهاء . وأخذ يرتقب استدعاه إلى فرنسا .

بروز لويس نابليون

وللمرة الثانية قررت ثورة تنشب فى باريس مصير فرنسا . ولكنها فى هذه المرة كانت ثورة عجز أشياخ الحرية عن السيطرة عليها أو توجيهها . فأعلنت الجمهورية تحت ضغط الطغام العنيف . وفى خلال فترة انتظار دعوة جمعية تأسيسية، ألغيت حكومة وقتية اختير أعضاؤها فى مكاتب جريدتين ، إحداهما اشتراكية^(١) والأخرى راديكالية^(٢) ، لإدارة شئون البلاد . وواجهت

إعلان الجمهورية

هذه الهيئة المكونة من رجال قليلي الخبرة بالحكم ، شديدي التباين في الآراء — واجهت هذه الحكومة الوقتية موقفاً عسيراً وصعوبات كبيرة . فقد كانت مدينة باريس في حالة هياج مصحوب بالطرب والنشوة . فنهض بعض يطالب بمشروعات هائلة من التنظيم الاجتماعي ، وبعض آخر يرفع عقبرته بعنف وإصرار بالمطالبة بإشهار الحرب في اللحظة والتو على عواهل أوربا المستبدين .

والحق أن من حسنات لامرتين الذي كان أحد الوزراء البارزين في هذه الحكومة ، أنه أبى إبدال الراية الثلاثية الألوان بالراية الحمراء . وبدلاً من إشهار حرب صليبية مخوفة بالمهالك ، اكتفى بإصدار إعلان يشيد فيه بالمبادئ الحرة . وكسَّبَحَ جاح الثورة الاجتماعية بوعد جرىء، ولكنه وعد جرء على البلاد فيما بعد النكبات والخطوب ، وهو واجب الحكومة في تدبير العمل للجميع ، وإنشاء مصانع قومية لتخفيف ضائقة المتعطلين

وقرَّرَ انتخاب الجمعية التأسيسية بالانتخاب العام . وقد كشفت نتيجته عن حقيقة لو أن لويس فيليب ووزرائه كانوا قد حزروها ، فرمما كانت الملكية قد أُنفِذت . ذلك أنه في قطر يتألف سواد سكانه من ملاك فلاحين ، يأتي عادة الانتخاب العام بنتائج تترع إلى المبادئ المحافظة ، لا المبادئ الراديكالية . فإن حصر دائرة الانتخاب في مائتي ألف ناخب يتمون إلى الطبقة المسورة الحال لم يضمن ولاء الأمة للملكية في البرلمان ، أو يُشجِعَ الثقة في البلاد ، بل كان يشجع على فساد الذم ، ويشير الحسد والمشاحنات ، ويميت الحماسة في الصدور . أما حق الانتخاب العام فقلعه كان كترأ للملكية جليل القيمة . فإنه عند تطبيقه في فرنسا لأول مرة عقب ثورة فبراير هذه — وكان عدد الأصوات الملقاة في صناديق الانتخاب أكبر ما سجل في الانتخابات الفرنسية إلى ذلك الحين — انتُخِبَت جمعية وطنية يتألف سوادها من أعضاء بورجوازيين . وكان عدد الجمهوريين فيهم بنسبة واحد إلى ثمانية .

وبين هذا البرلمان ، الذي كان أول برلمان انتخب في فرنسا وفق نظام ثورة البفله

الانتخاب العام - يبين تبييناً وافياً روح الريف ونزعاته المحافظة . ولذا كانت مسألة قمع خطر الشيوعيين في باريس أمر حياة أو موت بالنسبة لأعضائه المحافظي التزعة فيه . ويمكن تبين حرج مركزهم ودقته، رغم إحرازهم أغلبية أصوات الدوائر الانتخابية الريفية وثقتها ، مما حدث في ١٥ مايو ، لما اقتحم الغوغاء دار الجمعية التأسيسية ، وطلبوا إليها أن تحل نفسها ، وتشر الحرب على ملوك أوروبا . ولكن أنقذ الموقف البالغ الخطر ظهور الحرس الأهلي في الوقت المناسب ، وسلوكه مسلماً حميداً .

قتال يونيو

غير أن الناس أخذوا يتساءلون : ماذا يحدث لو أن هذا الهجوم تكرر ؟ فلهذا رُئي أن يكافح الشر في مصدره بحزم وثبات . وكخطوة أولى رُئي لإغلاق الورش الأهلية التي أنشأتها الدولة وأدارتها بخسائر فادحة جداً ، وكانت سبباً في جذب ربوات غفيرة من الرجال المتعطلين إلى باريس . ولكن عقب إصدار هذا القرار الصارم - ولكنه القرار الضروري - نشب قتال في شوارع باريس يوضح المظاهر السياسية العجيبة التي حدثت خلال الشهور التالية ، نظراً لما أثاره هذا القتال من الفرع والاستنكار العميقين في قلوب الفرنسيين . فقد احتدم نضال هائل عنيف مر المذاق أياماً أربعة لافحة القيظ من أيام شهر يونيو^(١) بين الجند النظاميين والحرس الأهلي تحت قيادة الجنرال كافينيك ، وبين العمال العاطلين الذين كانوا بلا قواد أو زعماء خلال هذا النضال الذي يبدو أنهم لم يكونوا يقصصونه ، ولقد كلف نصر الحكومة فيه ضياع عشرة آلاف من الأنفس . ولما كان سواد الأمة الفرنسية يملكون أرضاً زراعية ، أو يستثمرون مالا في قروض الحكومة ، فقد كبروا لانتصار الحكومة وهلّولوا . وإذ أدركوا عظم الخطر الذي جابهته ، طالبوا القابضين على زمام الأمور بأن يحكموا في حزم وشدة ، حتى لا يجسر الثنين الأحرار على رفع رأسه مرة أخرى .

الاستور الجديد

وفي وسط هذا القلق وتلك المخاوف ، أخرجت الجمعية التأسيسية دستوراً

(١) من ٢٢ إلى ٢٦ يونيو سنة ١٨٤٨ .

ملؤه السخف والحرق ، ينجح إلى التضارب والتعقيد ، ويقف في سبيل كل تغيير . فقد أنشأ نظاماً للجمهورية الجديدة يقوم على مجلس نيابي واحد ورئيس للجمهورية يتنافس كلاهما في الاستئثار بالسلطة المطلقة، ويُنْتَخَب كل منهما بالانتخاب العام . وظهر أن ذلك الدستور وُضِع على غرار دستور الولايات المتحدة . ولكن نسي واضعوه أنه على حين تَحُدُّ حقوق ولايات الاتحاد من سلطات رئيس الجمهورية في أمريكا، فإن رئيس الجمهورية الفرنسية الجديدة - الذي حددت مدته رئاسته بأربع سنين ، على ألا يعاد انتخابه - سيكون سيد إدارة بيرقراطية تتدخل في شئون كل مدينة وكل قرية في فرنسا .

وفي الاستفتاء الشعبي الذي عقد في ١٠ ديسمبر سنة ١٨٤٨ لا انتخاب رئيس الجمهورية ، نال لويس بوناپرت أكبر عدد من أصوات الناخبين . فقد أرى ما أحرزه من الأصوات على نيف وأربعة ملايين صوت أكثر مما أحرزه منافسوه في الانتخاب : كافينياك مخلص المجتمع الفرنسي من الثوار الحمر ، ولامرتين خطيب الشعب . فإنه رغم التسعة والثلاثين عاماً التي قضاها لويس في نفي زرى غير مجيد، كان اسم بوناپرت في ذاته كافياً لتحبيب الفرنسيين فيه وترغيبهم في انتخابه . فقد كان ذلك الاسم يُعَدُّ في كل كوخ وبيت في أرجاء فرنسا رمزاً للنظام والقوة والعصبة الجيد .

ومع ذلك لم يكن لويس بوناپرت رئيساً طليق اليد . فقد واجهه مجلس نيابي انتخب حديثاً ، ذو طابع محافظ ، مستعد لإعادة الملكية إذا ما اتفق أشياخ آل بوربون وأشباه آل أربليان على حل لما بينهما من خلاف : مجلس نيابي لم يكن للويس فيه أنصار شخصيون ، أو يستطع أن ينتظر منه تأييداً مخلصاً مستديماً . فاضطر لويس رغم ميله الحرة الوطنية أن يماشى رغبات العناصر الإكلييريكية والمحافظلة ، وأن يتنكر لماضيه « ككاربوناري » قديم ، فيبحث بعون إلى البابا ضد الجمهورية التي أقيمت في روما وقتئذ .

ولما كان الانقلاب الحكومي الذي أحدثه لويس في ٢ ديسمبر سنة انقلاب ديسمبر

١٨٥١ ضربة ضربها للظفر بالحرية والسلطان . وقد رسم خطة لهذا الانقلاب جمعت أقصى درجات المكر والقوة والاحتيايل ، ناقضاً بذلك يمينه الدستورية ومنتهكاً حرمة الدستور . فقد غيب في السجن عدداً كبيراً من الزعماء السياسيين وكبار رجال الجيش ، وضرب بالرصاص المتظاهرين في شوارع باريس ضد هذا الانقلاب ، وأصيب منهم نحو ألف ومائتي مواطن برىء ، وحل مجلس النواب ، وسجن بعض أعضائه ، وفرق البعض الآخر . وذلك كي يجعل نفسه سيد فرنسا . وكانت نتيجة هذا الانقلاب أن مدت رئاسته إلى عشر سنين .

ولكن من العجب أنه رغم أن الانقلاب أثار استنكار فكتور هوجو ، وتينيس الشاعر الإنجليزي ، وسخطهما الشديد ، فإن لويس لم يبدُ للفرنسيين كستبد ، بل بدا في أعينهم عدواً للاستبداد قاضياً عليه . أفلم يحل مجلساً نيائياً كان أعضاؤه قد قرروا لأنفسهم مرتبات ، وحرموا ثلاثة ملايين ناخب من حق الانتخاب بمقتضى قانون انتخابي أجازوه قبيل الانقلاب ، ولو أنه يحتمل أنهم لم يكونوا حينئذ يدركون جميع عواقبه ؟ لهذا لاح الرئيس للناس وقتئذ أنه على حق فيما فعل . ولقد قال برجلي Brégely السياسي الفرنسي : إن الأمة تنال الحكومة التي تؤثرها ، والطبقة البورجوازية تنال الحكومة التي تستأهلها . وهذه المناسبة ذكر الرئيس الأمير الذي بات الآن إمبراطوراً من جميع الوجوه ما عدا الاسم ذكر لوزير مملكة سردينيا المفوض : « والآن إذ صار في استطاعتي أن أفعل ما أشاء ، فسأفعل شيئاً لإيطاليا » .

وبدأت صفحة جديدة تكتب في تاريخ أوروبا : صفحة تمتاز بانتصار القومية بمثلاليها الرائعة ، وروحها الوطنية المنظمة ، ومصالحها السياسية القوية ، كما تمتاز أيضاً بأهوائها العمياء ، وجيوشها الجائرة ، وحروبها المجيدة ، وتهديدها الدائم للسلام والتعاون الدولي . وفي المراحل الأولى لهذه الحركة العظمى من حركات الروح الإنسانية التي جلبت معها أخطاراً جديدة إلى أوروبا ، لعب لويس بونابرت دوراً فاصلاً . فإنه بعد أن شن الهجوم على روح الرجعية في أوروبا :

ابتداء عصر
القويات

هذه الروح التي كانت تبدو في أبشع ألوانها في روسيا بنوع خاص ، أمكن لهذا المدبّر لجرّمة ديسمبر أن ينجز أكثر من نصف العمل الذي أُنْتُج في النهاية اتحاد إيطاليا ، وكسب لها حريّتها .

كتب يمكن استشارتها

- H.A.L. Fisher : Bonapartism. 1909.
 Guizot : Memoires. 1864.
 E.L. Woodward : Studies in European Conservatism. 1929.
 Lowes Dickinson : Revolution and Reaction in Modern France 1892.
 Louis Blanc : Ateliers Nationaux. Ed. Marriott. 1913.
 H. Heine : Letters to the Augsburger Allgemeine Zeitung. 1840-3.
 Odilon Barrot : Memoires. 1875-1876.
 F.A. Simpson : The Rise of Louis Nopoleon.
 P. Gucdalla : The Second Empire. 1932.
 A.D. Tocqueville : Souvenirs. Tr. 1896.
 L. Blanc : Histoire de Dix Ans. 1843-5.
 P. Thureau Dangin : Histoire de la monarchie de Juillet. 1884-1892.

الفصل الثالث عشر

حركة بعث إيطاليا

إيطاليا في هيجان . بيو نونو . التقاليد الجمهورية في إيطاليا . مافزيني .
نصيب مملكة سردينيا في حركة البعث . الجمهورية الرومانية . البندقية وماين .

١ - إيطاليا في هياج

الثورة تم
الولايات الإيطالية
لأنه حتى قبل انهيار الملكية الفرنسية ، كانت نار الثورة التي قدر لها أن
تجعل عام ١٨٤٨ عاماً خالداً في تاريخ إيطاليا - كانت نار الثورة تزكو ويشند
سعيها بين الدعائم الخشبية المتداعية التي قامت عليها مملكة نابلي . وبانتشار
لظى الثورة في الشمال في ربيع ذلك العام ، أخذ الأمراء الإيطاليون الوجلون
غير الصادقين في وعودهم ، يمنحون الدساتير في شتى إماراتهم . ولما وصل ركب
الثورة إلى روما وتورين ولجهورن وبيزا وفلورنسا وميلان ، وجاءت الأنباء بأن
فيينا صارت في قبضة الدمماء ، وأن مترنخ الجبار نفسه ترك أزمة السلطة ولاذ
بالفرار ، دبّت الشجاعة حتى في البندقية المسالمة وثارت تحت زعامة مانين
Manin ، ووضعت يدها على الرسالة وأحواض السفن ، وأعلنت الجمهورية .
وفي تلك الثورات الواسعة النطاق ضد الأحوال السائدة ، كانت أولى
العواطف التي خالجت النفوس في أوروبا ، وأعمها انتشاراً بين الناس ، هي
الرغبة في نيل تلك الحريات الأساسية والمدنية التي كسبها إنجولترا ، والتي ظفرت
بها فرنسا زمناً ، والتي رأى كافة سكان إيطاليا بصيصاً عابراً من أشعتها تحت
حكم نابليون الاستبدادي ، ولكنه الحكم المجدد المستنير . فكان الإيطاليون
على اختلاف وجهات نظرهم السياسية ، تجيش في سلورهم آمال واحدة

وأمانى مشتركة ، هي : أن يُرفع عنهم نير الشرطة المتجسدة على حركاتهم وسكناتهم ، وأن يحرروا من جور السجن بلا محاكمة ، ومن رقابة متأخرة على الصحافة والكتب ، ومن القيود المضايقة فى التنقل والسفر . وفى الولايات الإيطالية التى كانت النمسا تحكمها ، كان القوم يتوقون علاوة على الفوز بهذه الأمور ، إلى أن يحرروا من نظام صارم للتجنيد يؤخذ بمقتضى أحكامه الفلاح من قريته على كره منه ، ليخدم فى جيش أجنبى ، وفى أرض بعيدة .

أما أمنية الإيطاليين الخاصة باتحاد إيطاليا فكانت شأناً آخر . كانت هذه الأمنية تنطوى ، كخطوة أولى ، على طرد النمساويين بالقوة من لمبارديا ومقاطعة البندقية ، فكانت بذلك تثير على الفور هذه المشكلة الخطيرة ، وهى كيف تنظم إيطاليا نفسها بعد تحررها . غير أنه لم تكن للإيطاليين خطة متحدة مشتركة عام ١٨٤٨ لحل تلك المشكلة ، فإن البعض منهم كان يبغي اتحاداً تحت سيطرة البابا ، وبعضاً آخر كان يروم إقامة جمهورية مركزية ، وآخرين ملكية يدير دفة شئونها بيت سافوى الذى كان يملك فى سردينيا . فإلى هذه الأسباب يعود بشكل خاص إخفاق الثورة الإيطالية فى ذلك العام الحافل بالاضطرابات والقوضى .

ولاح لكثرة الإيطاليين فى بادىء الأمر أن آمالهم فى تحرير إيطاليا تستند إلى عامل قوى نادر الحدوث ، وهو اعتلاء بابا حر المبادئ كرسى البابوية . فإنه بعد وفاة جريجورى السادس عشر المستبد الغشوم ، خلفه فى صيف سنة ١٨٤٦ بابا يخفق بين ضلوعه قلب إيطالى يتزعج إلى الإصلاح . وزادت مناقبه لمعاناً وبهاء ، ليس فقط لأنها كانت على تمام التقبض من أخلاق سلفه ، بل لأن روحه كانت متمشية مع حالة نبيلة من الكتلثة الحرة سادت نفوس الكبارين فى ذلك الحين . فقد طار على جناح السرعة فى ربوع إيطاليا كلها النبأ بأن بيو نونو Pio Nono (أو بيوس التاسع) أصدر عفواً عاماً عن جميع الإيطاليين الوطنيين الذين كانوا قد حكم عليهم بالسجن لهم سياسية ، وأنه احتج على احتلال النمسا لفرارا Ferrara - وهى

مدينة تقع في أملاكه - وأنه ألف حرساً مدنيّاً ، وأنه أخذ بنفسه بهم بإصلاح أنظمة الحكم في دولته .

النعيازه في
بادى الأمر
لحركة الإصلاح

وبدا للعديد من الفلاحين وملاك الأرض الإيطاليين الوريين الأتقياء ، بدا الخبر بأن البابا حاكم مصلح ، دليلاً كافياً في ذاته على أن الإصلاح شيء حسن جميل . ومع أن غير البابا الإصلاحية كان مبالغاً فيها كثيراً ، وأضعفها مجرى الحوادث إضعافاً شديداً بعد وقت وجيز ، إلا أنه يجدر بنا ألا نبخس قيمة المزايا التي ضمنها لقضية الأحرار تشجيع ييوس التاسع في بدء عهده لحركة الإصلاح . فلولاها لما انضم على الإطلاق إلى الحركة الوطنية كثير من المحافظين الذين ظلوا أنصاراً أمناء ثابتين لقضية إيطاليا ، حتى بعد أن أشاح البابا بوجهه عنها . بل إنه لأمر يداخله الشك في أن حركة القومية الإيطالية كانت تترعرع وتنمو إلى الحد الذي تصبح فيه المسألة الإيطالية بين كبرى المسائل السياسية في أوروبا ، لولا أن هذه الحركة نالت بركة البابا في بادئ الأمر .

تصر نظر
الوطنيين

ولكن عجز المتحمسون لقضية الحرية الإيطالية عن أن يستشفوا ما كان في الواقع أمراً محتوماً لا مناص منه : وهو أن رأس الكنيسة الكاثوليكية الروحية لن يستطيع طويلاً تشجيع حرب ضد الدولة الكاثوليكية الكبرى في أوروبا . ولهذا فإن نونو لا يلام على رفضه لإعلان الحرب على النمسا^(١) . فإنه لو فعل ذلك لحازف بولاء الكاثوليك الألمان للبابوية ، ولعرض وحدة الكنيسة الكاثوليكية للخطر . ولكن أياً كان الأمر فإن رفضه المساهمة بقليل أو كثير في حرب ضد النمسا عدّ بحق يومئذ ضربة شديدة لقضية القومية الإيطالية . فإن من بين جميع الخطط التي رسمت لحركة التحرير الإيطالية كانت خطة إنشاء اتحاد تعاهدى^(٢) تحت زعامة البابا أقربها إلى الوجهة العملية . ولهذا فممن بالإيطاليين الوطنيين المتحمسين والكاثوليك الوريين - عندما يرون أن اتحاد إيطاليا لم يكن ليتم عام ١٨٤٨ إلا بهذه الطريقة - فممن بهم أن يبتهجوا لحبوط الخطط التي رسمت في ذلك الحين لتحقيقه .

(١) كما أعلن في رسالة بابوية في ٢٩ أبريل سنة ١٨٤٨ .

Federation (٢)

التفاهد
الجمهورية
وماتزيني

ولقد كان المبدأ الجمهوري تقليداً عميقاً الأصول في التربة الإيطالية ، ولكنه كان مقصوراً على حكومات المدن ، لا حكومة البلاد المركزية . وكانت ذكراه سبباً في بنو بنور الانشقاق السياسي ، أكثر من مساعدتها على إنشاء الوحدة القومية . ولقد كانت مهمة ماتزيني Mazzini (١٨٠٥ - ١٨٧٢) وهو ابن طبيب من أهل جنوة ، وكان شديد البغض للإكليروس - كانت مهمته أن يبدل أفكار الأمة الإيطالية وجهتها . وقد فعل ذلك بإشارته بولاء نادر المثال ، وإخلاص لا يتزعزع ، وإثارة منقطع القرين ، بمبدأ الجمهورية لإيطاليا ككل لا يتجزأ . فماتزيني إذن هو البشير بالحركة الجمهورية الإيطالية ، إذ لاح له أمراً محالاً أن يقبل مواطنوه حكم ملك ، سواء أكان ذلك الملك هو ملك نابلي أم ملك سردينيا . إذ كان يعلم أن الأسرة المالكة في نابلي فاسدة منحطة ، والأسرة المالكة في سردينيا متأخرة رجعية . فحسب أن جمهورية - وجمهورية لا غير - مرتبطة بروابط سلمية دائمة مع الجمهوريات الحرة في مشارق الأرض ومغاربها ، هي الجديرة بإيطاليا .

ماتزيني في
الوطنية الإيطالية

ولكن هذا الحلم كان ضرباً من الوهم والخيال ، قميئاً بمتآمر مثل ماتزيني رفع يده على جميع الحكومات على اختلاف أشكالها . وقد بنى ماتزيني إيمانه ، كغالبية الأحرار في سنة ١٨٤٨ ، على قوة الحرس والإقناع لدى الناس إلى الكمال السياسي ، لا على جمل القول الفصل لل سيف . ولكن مع أن الجند النمساويين كانوا في حاجة إلى شيء أحد وأصلب من رسائل ماتزيني لإقصاصهم عن إيطاليا ، إلا أنه ينبغي ألا نعتقد أن حياة ماتزيني كانت فاشلة . فإن الحماس الروحي الذي اضطرم في حركة إيطاليا الوطنية ليرجع إلى مدى كبير إلى تعاليم هذا الحلم الرفيع المقام ، وإلى جملة الشيعة الإيطالية التي أسسها سنة ١٨٣١ في غرفة صغيرة على سطح أحد بيوت مرسيليا لنشر أفكاره وبثها .

جيرمinal
الإيطالية

وكان لب المسألة الإيطالية هو حكم النمساويين لمقاطعتي الجارديا والبندقية . فقد كان من العبث التحدث عن الوحدة الإيطالية طالما كان المارشال راديتسكي Radetzky المعجوز على رأس خمسة وسبعين ألفاً من الجند النمساويين ،

وفى يده حصون الكوادريلا تيرال^(١) الشهيرة ، مسيطرا بذلك على الموقف في شمال إيطاليا .

وقد أبانت الحوادث عن خرق الفكرة بأن جيشاً كهذا ، يقوده مثل هذا القائد المحارب ، يمكن أن يهزم أمام الجند غير النظاميين وغير المدربين الذين كانوا يحملون لواء الجمهورية في إيطاليا . وأثبتت الأحداث أن نابلي والبايا قصبتان مرضوضتان . أما مقاطعة البندقية فقد تركت فيها القوات والموارد الحربية التي ربما كان يستطيع الانتفاع بها - تركت من غير عناية وتدريب . وحتى المبارديون لم يلعبوا عقب أيام مايو الشهيرة - حينما خرج السكان على الحامية النمساوية وطردوها من بلادهم ، ملحقين بها خسائر فادحة - حتى هم لم يلعبوا غير دور ثانوى في المراحل الأخرى من الحرب ضد النمسا .

٢ - دور مملكة سردينيا

ولكن كانت هناك نواة واحدة يمكن أن تنطوى حولها مقاومة إيطالية منظمة فعالة لجيش الاحتلال الأجنبي : وهذه النواة هي جيش مملكة سردينيا^(٢) . فقد انضم ملكها شارل ألبرت إلى حركة الولايات الإيطالية في خروجها على النمساويين . وأعلن الحرب على النمسا في ٢٣ مارس سنة ١٨٤٨ . وقد كسب عدة انتصارات على علوه في بادىء الحرب ، ولكنه أضاع فرصته بعدم مواصلة القتال بلا هوادة ، إلى أن يطرد النمساويون من أرض إيطاليا . وبذلك أعطى خصمه العنيد الماكر المارشال رادتركى فرصة ثمينة تلتى فيها إمدادات قوية ، وبذلك تمكن من سحق قوات البندقية والولايات الإيطالية ولبارديا ، ثم ضرب جيش شارل ألبرت ضربة قاصمة في موقعة كسترا Cusenza

شارل ألبرت
يعلن الحرب

(١) Quadrilateral ، وهي المدن الحصنة الآتية : فيرونا Verona وبشيرا

Peschiera ولبنانجو Legnago ومنتوا Mantua .

(٢) ويطلق عليها أيضاً اسم « مملكة يهنت » .

(في ٢٥ يوليو سنة ١٨٤٨) . فاضطر شارل إلى عقد هدنة فيجفانو Vigevano في ٩ أغسطس سنة ١٨٤٨ .

ولكن الحرب تجددت في ١٣ مارس سنة ١٨٤٩ بين الفريقين . فقد عامل النمساويون سكان الولايات الإيطالية الخاضعة لحكمهم ، وبخاصة اللمبارديون ، بعنف وقساوة بالغين . وكان شارل ألبرت يتحرق شوقاً لفصل عار هزيمة كسترا ، وانتُخب مجلس نيابي في ييلمنت ذو أغلبية حرة . غير أن مجرى الحرب خيب آمال الإيطاليين . فقد هُزم الجيش اليلمنتي في معركة نوفارا Novara الفاصلة في ٢٣ مارس سنة ١٨٤٩ . فاضطر الملك المهزوم الكسير القلب إلى التنازل عن العرش لابنه فكتور عمانوئيل Victor Emmanuel ولجأ إلى البرتغال .

يبد أنه برغم تباطؤ جيش شارل ألبرت في الدخول في المعركة ، وبرغم بطئه في الانتفاع بفرصه ، فإنه قدم إلى مدى بعيد أفضل تحدٍّ جابه العدو . وحتى بعد هزيمة نوفارا لم يكن ثمة رجل معقول يتطرق إلى ذهنه أى ريب في أن من ييلمنت - ومن ييلمنت وحدها إذا أمكن ذلك - يستطيع أن يخرج جيش لتحرير إيطاليا . فإذا كان جيش تلك المملكة الألبية الصغيرة قد أساء قيادته ملكها المشوش التفكير المقلب النفس ، فلماذا ناضلت حتى النهاية ، وتحملت تضحيات عظيمة تفوق طاقتها في قضية نهم كافة الأمة الإيطالية .

ومع أن شارل ألبرت ترك ابنه يحكم مملكة خرجت من الحرب مقهورة ،
إلا أنه تركها بعد أن منحها في ٤ مارس سنة ١٨٤٨ دستوراً حرّ المبادئ ، بلغ
من مائة أركانها أنه عمر إلى أيام موسوليني . وقد أُجيد وضع أحكامه بحيث
شيد بنياناً تمكنت ييلمنت بمقتضاه أن تصبح بإرشاد كالفور العبقري وهدايته
البالغة البراعة أشد ولايات إيطاليا عصرية ، وأعلاماً كمياً في مدارج التقدم .
أما في مدينتي روما والبندقية الحاليتين ، فإن حركة البعث الإيطالية سلكت
في ذلك الحين طريقاً عجيب الأحداث خالده الذكرى . فإن رسالة إيو نونو

قباها
والوطنيين

التي أذاعها في ٢٩ أبريل سنة ١٨٤٨ كانت بمثابة تلميح إلى العالم بأن البابا لا يستطيع أن يساهم بنصيب في توحيد إيطاليا . فكانت النتيجة الحتمية لهذا التصريح ، حسب منطق الوطنيين الإيطاليين ، أنه لا مندوحة بعد الآن من أن تحكم سلطة زمنية الولايات البابوية كجزء مكمل للدولة الإيطالية الجديدة . فقد كان من نافلة القول في نظرهم الكلام عن دولة لإيطالية متحدة إذا ظل يفصل بين شرقها وغربها أراضي حاكم يستنكر حرب التحرير ، وقد يخال نفسه مطلق اليد في تأييد العدو . وقد أحس بهذا المنطق الصارم الفوغاءُ الغلاطُ الأكباد في روما . فاغتالوا في ٥ نوفمبر سنة ١٨٤٨ في راحة النهار رُئيَ Rossi الوزير المستنير الذي كان يبرونون قد استدعاه إلى جانبه . فلاذ البابا بالهروب إلى غيتا Gaeta من موقف أصبح عاجزاً عن السيطرة عليه ، تاركاً الثورة في روما تجري شوطها المحتوم .

إعلان
الجمهورية
في روما

وطبعت الأحداث التي تعاقبت بعد ذلك أثراً عميقاً في أذهان الإيطاليين . فقد دعيت جمعية تأسيسية في سنة ١٨٤٩ . وكان من أعمالها سحب السلطة الزمنية من البابا ، وإعلان جمهورية في روما ، وتشكيل حكومة ثلاثية على رأسها ماتزيني لحكم الدولة الرومانية الجديدة . ولكن مغامرة كهذه تقوم على تعدد سافر للكنيسة الكاثوليكية والولايات الإيطالية الأخرى التي قد تمتشق الحسام تأييداً لها ، كان مقضياً عليها بالفشل السريع . كما أنه ليس لجمهورية رومانية ، مهما برعت في الدفاع عن كيانها ، أن تأمل في التغلب على الأمير لويس بونابرت رئيس الجمهورية الفرنسية الذي كان يتوق يومئذ إلى كسب رضا الناحيين الكاثوليك في بلاده بتقديم مساعدته إلى البابا ، أو ترجو التغلب على إمبراطور النمسا الذي عقد نيته على استعادة نفوذه في إيطاليا . وقد حدث بالفعل أن حطم الفرنسيون تلك الجمهورية في ٣٠ يونيو سنة ١٨٤٩ .

ولكن جمهورية روما ، وإن كانت قصيرة الأجل ، إلا أنها كانت حادثاً خالداً جليل القدر لسببين : فقد كتب ماتزيني بعد انهيارها يقول « كان من الضروري لإنقاذ روما ، والارتقاء بها مرة ثانية إلى القمة ، حتى يتعلم

الطليان أن يعتبروها مرة ثانية قضية بلادهم وكعبة آمالم المشتركة . . . والحق أن هذه العبارة تم عن بصيص من التبصر الصحيح بشئون السياسة . فإن لإنشاء الجمهورية الرومانية التي استبسل الإيطاليون في الدفاع عنها ، واستخفوا بالمخاطرة في الوقوف ضد جيش أودينو Oudinot الفرنسي المنظم ، أيقظ في عقول الأمة الإيطالية الفكرة بأن روما قد تغلوا ثانية حاضرتهم السياسية : وهى فكرة وإن قُسم لها ألا تتحقق إلا سنة ١٨٧٠ ، إلا أنها بقيت ماثلة منذ سنة ١٨٤٨ في أذهان ذلك الشطر من الأهلين الذي كان يخفق فؤاده للمطامح القومية .

أما السبب الثانى الذى جعل الجمهورية الرومانية خالدة الذكر بين أحداث حركة البعث الكبرى ، فهو أن الرجل الذى قاد المدافعين عنها كان غاريبالدى Garibaldi (١٨٠٧ - ١٨٨٢) ، ذلك الزعيم الأشقر العظيم للكتائب غير النظامية ، ذلك الرجل الذى كان يمجت القساوسة ، ويصعد أمام محراب الحرية ، والذى رجع إلى إيطاليا بعد حياة زاخرة بالأخطار والمغامرات فى أمريكا الجنوبية ، لكى يعين على جعل وطنه المحبوب جمهورية حرة . فقد ظهر يومئذ بأتباعه الجفاة الحشنين ذوى القمصان الحمر على المسرح الإيطالى ، واحتل مكاناً رئيسياً بين اللاعنين .

ومع أن غاريبالدى كانت تنقصه كل النقص - القنطة السياسية : فلم يكن قطباً من أقطاب الأعلام الإيطاليين ككاترينى ، أو سياسياً ذاهية ككافور ، إلا أنه كفائد للجند غير النظاميين ، وكرعيم ، قادر على إذكاء الإيمان السياسى والحماس المضطرم فى ضلوع أتباعه السذج البدويين - إنه يدانى فى العظمة أبطال ملحم هوميروس . فقد أثر أربعة آلاف متطوع أن يتبعوه فى خروجه من روما ، بدلا من أن يسلموا أسلحتهم للعدو فى أرض الوطن ، وأن يسروا وراعه فى تراجعه عبر إيطاليا : ذلك التراجع التاريخى الحافل بالعديد من الأحداث الرائعة الفذة ، وذى النهاية المفجعة . فكسب بذلك ثقة الوطنيين الإيطاليين وإعجابهم الفائق .

أما جمهورية البندقية فع أنها صمدت فى وجه محاصريها النمساويين حتى جمهورية البندقية

٢٤ أكتوبر سنة ١٨٤٩ ، إلا أنها لم تكن لها فرصة حقة للبقاء بعد هزيمة سردينيا في معركة نوڤارا . ولكن عبرة الحرب ظلت شاخصة غير منسية في مخيلة مانين المحامي الأملى الذكى الفؤاد ، المنحدر من سلالة إسرائيلية . فقد وضع له من فشل حركات الإيطاليين في روما والبندقية أن إيطاليا لن تستطيع الوصول إلى الاتحاد إلا بقوات مملكة سردينيا ، وبعون فرنسا ، لا وفق خطة ماتزيني . فقد شاهد هزيمة شارل ألبرت ومصرع إيمانه بأن في مقدور إيطاليا أن تخلص نفسها بنفسها ، في ساحتين من ساحات القتال المرير الحائب .

فقد ضيى بذلك القضاء المبرم على القائلين بمبدأ العزلة ، وكذلك قُبرت الفكرة بأنه في حيز الإمكان ضرب جيش قوى منظم ضربة قاصمة بواسطة فرق العصابات الجمهورية . ومن ذلك الحين حلت روح جديدة من اغتنام الفرص في سياسة الحزب الإيطالي الوطني ، مكان التحمس غير القطن والحمية القصيرة البصر اللذين جرّأ إلى هزائم عام ١٨٤٨ النكواء . وليس ثمة مثال خلال العقد السادس من القرن التاسع عشر لاستبدال القطة السياسية التي لا تحفل إلا بالواقع بالتحمس الأعمى للجمهورية ، خير من مثال تحول مانين خالق جمهورية البندقية ، إلى اعتناق فكرة عقد تحالف بين فكتور عمانوئيل ونابليون الثالث .

كتب يمكن استشارتها

- Bolton King : A History of Italian Unity. 1924.
 G.M. Trevelyan: Manin and the Venetian Revolution of 1848. 1928.
 G.M. Trevelyan : Garibaldi. 1939.
 W.R. Thayer : The Dawn of Italian Independence.
 Mazzini : Essays, translated by T. Okey. 1894.
 E.L. Woodward : Three Studies in European Conservatism. 1929.
 J.A. Hübner : Une année de ma vie. 1848-91.

فصل الرابع عشر

الثورات في النمسا وألمانيا

النمسا في عهد مترنيخ . قسوط . الثورة الديمقراطية . أمانى السلاف والمجر .
الرجمية في بوهيميا وهنغاريا . انتصارات فنلشجراتز ويلاسيك . حكمة
شفاوتزنبيرج السياسية . الثورة الألمانية . بحق المبادئ الحرة . يرلمان فرنكفورت
يقرر إقصاء النمسا ورفض النظام الجمهوري . فردريك وليم الرابع . فوز الرجمية
في برلين . المنافسة بين بروسيا والنمسا . انتصار النمسا في الكر . أتوفون بسمارك .
الفلسفة البروسية للدولة .

١ - قيام الثورات في النمسا والمجر

كانت حكومة الإمبراطورية النمساوية حكومة مستبدة بطيئة الخطى ،
تترع إلى السرية ، ويضرب في أطنابها الاختلال ، ولو أنه كان يخفف
من ثقل وطأتها ألوان من الإهمال والاستهتار والعبث . وقد لُفَّت لفتاً محكماً
بطبقة فوق طبقة من التقاليد والشكليات ، وحجبت حجياً كاملاً فعلاً عن
روح التقدم والتحسين ، حتى إن ضروب الاستثناءات والشذوذ والمساوئ التي
استوصلت منذ أمد طويل في الدول الغربية ما برح يستفحل شأنها فيها استصحاحاً
عظيماً . فقد كان نبلاء النمسا والمجر يتمتعون بكل شكل من أشكال الامتيازات
المهامة : فكانوا معفون من الخدمة العسكرية ، مستثنى من الضرائب ، يعيدون
عن تناول المحاكم وسلطتها ، على حين كانت طبقة الفلاحين ترسف في أصفاد
العصور الوسيطة . وكان الأباطرة يتعاقبون على عرشها الواحد تلو الآخر .
وقد خلف الآن فريدنند (١٨٣٥ - ١٨٤٨) الأبله السفينه فرنسيس القليل
النباهة والدكاه .

وتركت مشكلات الفلاحين ، التي كانت تقتضى تعديلاً أساسياً في

نظام الحكومة المحلية في الإمبراطورية - تركت من غير حل . إذ كان مبدأ السياسة المساوية في عهد مترنخ هو أن يدع الفتنة نائمة . وكانت تحكم الإمبراطورية شرطة هي أقسى أترباها في أوربا ، وأفظعها وحشية ، وأشدّها قمعاً : ترسل عيونها إلى كل ركن ، وتتجسس على كل أمر ، محاولة إبعاد سموم الفكر الغربي المخاتل الخداع عن أهل قينا الموفوري المهمة والنشاط .

استيقاظ الشعب غير أن نظاماً كهذا النظام لن يدوم أبد الدهر . فلقد شرعت جمعيات وتشكيلات جديدة مختلفة الرأي : منها المنشائم المستهزئ ، ومنها الحر المنشئ ، ومنها العنصرى المناضل - شرعت تظهر في ضوء الحياة في العقد الرابع من القرن الماضى . فأضحى الأسلوب السائد على أحاديث أهل الثقافة في قينا هو الاستهزاء بالحكومة ، والحط من قدرها . وهبت هبوباً قوياً روح العنصرية من بولندا ، وتسربت المبادئ الحرة كأنها رذاذ أمطار خفيفة من باريس ولندن . وتقدم « اللبيت » الهنغارى المنعقد في برسيرج بطلب استعمال اللغة المجرية عوضاً عن اللاتينية في ملائولات المجلس ، وبرنامج كامل واف من الإصلاحات الاجتماعية .

العلاء العنصرى وبازدياد روح العلاء الجنسي في هنغاريا ، أخذ يتقادم ذلك العلاء في تلك الأرجاء من المملكة الهنغارية الى تقطنها الأجناس غير المجرية : كالكرواتيين والصربيين في الجنوب ، والفلاحين الرومانيين في ترانسلفانيا في الشرق ، والروتيين في الشمال ، والسلوفاكيين في الغرب . وحاشت الآمال في الصلور ، وبلغت روح القومية المتحفة القديمة الى بدأت تتخذ نزعة سياسية بين أمة التشك - بلغت نقطة جديدة من نفاد الصبر ، والتطلع إلى مستقبل جديد .

وكان كبير مثيرى هذه الحملات الشعواء الجديدة ، وموقف فتنها ، لويس كوموط Louis Kossuth (١٨٠٢ - ١٨٩٤) ، الذى وجه في بادئ الامر ملكاته الباهرة كخطيب مفوه ، وصحافى قدير ، إلى العمل على استبدال اللغة المجرية باللغة اللاتينية في اللبيت الهنغارى ، ثم استخدم

تلك المواهب في حملة حماسية رائعة قام بها للمطالبة باستقلال هنغاريا. فأذكى في كل صقع من أصقاع الإمبراطورية أوار. اللهب الكامن لعنصرية جاحمة هدامة. وما وافى ربيع سنة ١٨٤٨ حتى كان هذا الزعيم الشعبي القوي قد قضى ثمانى سنين يبشر بمبادئه القومية الراديكالية للجموع الكبيرة من بنى جلدته الشاغخين بأنوفهم العنقى المزاج.

الثورة
الديمقراطية

وانقضت ثورة فبراير التي اندلعت في باريس انقضا ضالصاعقة على حكومة مثل حكومة النمسا ، تهاجم وتنهش من كل ناحية ، وأدى شغب لم يدم سوى يوم واحد (١٣ مايو سنة ١٨٤٨) ترعاه أساتذة الجامعة وطلبتها ، ومن ورائهم سكان فيينا المدنيون يؤيدونهم ويشلون أزرهم - أدى هذا الشغب إلى انتهاء حكم مترنخ ووقوع فيينا في قبضة الدماء ، وأُنتاخت الفوضى والخلل بالحكومة الإمبراطورية المركزية ردحا من الزمن .

ولكن بدأت في الحال تظهر للعيان المشاق التي تكثف حكم الإمبراطورية النمساوية المتشعبة الأجناس المختلطة الملل . فقد استسلمت الأوتقراطية المستبدة ، وأبعد الوزراء القدماء ، وشرعت تحكم الآن في فيينا لجنة مركزية للدفاع عن حقوق الشعب ، وانتخب بالاقتراع العام برلمان للنمسا كلها ، علنا هنغاريا . وأخذ هذا البرلمان يشغل في وضع دستور . وكان الشطر الرئيسى من الجيش مشغولا في إيطاليا .

وهب نسيم الحرية المطهر الذى عم ألمانيا ، فوق جميع عواصم الإمبراطورية النمساوية أيضاً ، مثيراً في أذهان المعلمين فيها رغبة مشتركة في إنشاء حكومة دستورية ، ونيل الحريات المدنية ، ورفع المظالم التي يشكو منها الفلاحون ، ووضع خاتمة للحكم الأوتقراطى . ولاح في هذه الظروف أن تحولا كاملا شاملا للدولة النمساوية على نمط حرة دستورية هو أمر ميسور في حيز الإمكان . وكانت النفوس مفعمة بالآمال وساد التفاؤل القلوب ، وبدا الوقت موافقا مواتياً .

نفق القلوب
بالآمال

ففي براغ وبرسبرج - كما في فيينا - شاع أمل قوى ، وصادت ثقة

عامة ، بإمكان تحقيق شتى الإصلاحات العديدة ذات النفع الجزيل في خلال هذه الفترة من تعطيل سلطة الإمبراطورية . كما أن هذا الأمل لم ينجب خيبة تامة . فإن أفضال الرجال الذين تزعموا ثورة سنة ١٨٤٨ ، سواء في البرلمان النمساوى أو في البرلمان الهنغارى ، أنهم أخذوا يعالجون مشكلة الفلاحين في إقدام وجسارة ، فألقوا صنوف السخرة التي كانت ترهق كواهل الفلاحين ، وألغوا القوارق القانونية بين النبلاء والعامة . وأسدوا في بحر شهر واحد من الخير الدائم لسكان الريف في الإمبراطورية النمساوية أكثر مما نالوه منذ أيام الإمبراطورة مارية تريزا (١٧٤٠ - ١٧٨٠) .

ولكن فوق هذا الأمل الجميل المنشود من التقدم الدستوري ، خيمت سريعاً سحابة قائمة . فقد كان من أسباب ضعف الإمبراطورية النمساوية الخاصة بها ، كما كان من أقوى الحجج ضد إحداث أى تغيير في أنظمتها ، قيام النزاع العنصرى بين أجناسها المختلفة ، علاوة على شكاوى الأفراد والطبقات . فإنه سرعان ما طرحت المسألة الدستورية على بساط المداولة ، حتى شرع كل جنس من أجناس الإمبراطورية يطالب لنفسه بمركز مأمون في التصميم العام الحديد لبيان الدولة النمساوية الجديدة . وكان البلاط الإمبراطورى مغلول اليد في مقاومة هذه التطورات الضخمة الكبيرة ، بل حتى في التأثير فيها . فقد منحت الحكومة المؤقتة في هنغاريا حق السيطرة على جيشها وسياساتها الخارجية ، ووعد البوهيميون بمنحهم برلماناً مستقلاً ، وهبات محلية مستقلة .

النزاع بين
أجناس
الإمبراطورية

يبد أنه ظهرت على الفور سلسلة جديدة من المشكلات البعيدة الأثر العظيمة القدر . فقد كان هنالك كثيرون من الألمان في الإمبراطورية النمساوية ممن كانوا يرضون كل الرضا بتحويل سلطان الدولة من يد وزراء الإمبراطورية الذين يتبعون السرية في سياستهم ، إلى برلمان حر تنتخبه دائرة واسعة من الناخبين ، طالما بقيت إدارة دفة السياسة كما كانت في أيدي الألمان . ولكن القليل منهم كانوا يطيبون نفساً إلى انفصال هنغاريا عن النمسا ، أو إلى

تنفيذ دستور ينحول لسلافي الإمبراطورية سلطاناً يتناسب مع تفوقهم العددي . فقد يرضى الألمان بأن يقيم البوهيميون حكومة دستورية لهم في مقاطعاتهم ، ولكن أين هو الألماني الذي كان يستطيع وقتئذ أن ينظر نظرة رضا وقبول إلى مؤتمر الجامعة السلافية الذي دعى للانعقاد في الثاني من شهر يونيو سنة ١٨٤٨ ، للنظر في إمكان إنشاء اتحاد من جميع الأجناس السلافية ؟ فإن اتحاداً مثل هذا — لو تم — كان معناه انحلال الإمبراطورية العاجل . فإنه منذ القرن السابع عشر كان إخضاع التشك البوهيميين ركناً أساسياً من أركان السياسة النمساوية وشرطاً جوهرياً لاستتباب السلامة الداخلية . كما كان النمساويون الألمان — الذين لم يكونوا قد فقدوا بعد خيلاءهم واعتدادهم القديم — يعتبرون تطلع هذا الجنس من الفلاحين ذوى التقاليد السقيمة الخاضعين لزعماء فئة صغيرة من الشعراء والقاصين واللغويين إلى أن يصير حجر الزاوية في النفوذ السلافي والثقافة السلافية في أرجاء الإمبراطورية ، لا إلى التمتع بالحكم الذاتي وحسب — كانوا يعتبرون تطلعهم هذا دعوى باطلة يجب القضاء عليها مهما كلف الأمر .

أما منح الحكم الذاتي لهنگاريا ، فكان النمساويون الألمان ينظرون إليه نظرة تختلف بعض الشيء عن نظرهم إلى استقلال التشك . فلقد كان الهنگاريون في جميع الأزمنة جنساً حاكماً ، لم يخضع قط لثير أجنبي . ولكنهم كانوا يعتبرون — ويعتبرون بحق — تخويل الهنگاريين حق تجنيد جيش مستقل ، وصك عملة مستقلة ، ورسم سياسة خارجية مستقلة ، ضربة شديدة لاتحاد الإمبراطورية ، وإنقاصاً محسوساً جلياً لقوتها . ولهذا فإن حبوط الثورة في الإمبراطورية النمساوية يرجع إلى هذه الحقيقة الواقعة ، وهي أن الثورة جرت في ذيلها ظهور مثل هذه السياسات ووجهات النظر المتباينة .

وبدأ رد الفعل يبلو في منتصف الصيف . ففي ١٧ يونيو سنة ١٨٤٨ . صوب الأمير فنلشجراتز Windi chgratz مدافعه على مدينة براغ . وبضره إياها ضرباً حامياً سحق عصيان بوهيميا ، وأجل بهذا العمل مدة

سبعين عاماً تحقيق استقلال التشك وفيلهم حرياتهم .

وأدخل هذا الانتصار الشجاعة فى بلاط الإمبراطور ، كما ملأته أملا الأخبار الطيبة التى أخذت تصل إليه من نابلى وروما ومن ساحة كسترا بانتصارات جيوشه الظافرة . فشرع بوجه اهتمامه بعد ذلك إلى المعضلة الأشد خطورة : وهى معضلة الهنغارين . ولكن فى هذه المغامرة التى زادت من صعباتها الفوضى الضاربة وقتئذ أطناها فى فينا ، جاء العون إلى الحكومة الإمبراطورية من جانب السلافيين والرومانيين ، إذ كانوا يعمتون مقتناً شديداً سادتهم المجر الذين تحكموا طويلاً فى رقابهم . ولقد كان بنوع خاص أهل كرواتيا — ذلك الإقليم فى المملكة الهنغارية الذى كان فيه السلافيون أفضل بنى جبرتهم نظاماً ، وأقوامهم اتحاداً ، وأشدهم بأساً ، وأعلامهم كعباً فى الحضارة — كانوا يحقدون على النبلاء المجر حقداً دفيناً مريراً .

فقد رُفِع فى البيت الكرواتى ، الذى عقد فى أجرام Agram عام ١٨٤٨ ، كثير من الاحتجاجات الشديدة على إلزام الكرواتيين باستعمال اللغة المجرية . ولذا كانت السياسة التى دُفِعَت الحكومة النمساوية إلى انتهاجها — وكانت سياسة فظة مقيتة بلا ريب — هى أن تؤلب الكرواتيين على المجر ، وتدعو السكان السلافيين والرومانيين فى الإمبراطورية إلى أن يسددوا بالربا الفاحش ديون المظالم والإساءات الفادحة التى لحقتهم على أيدي أعدائهم . والحق أن الحكومة النمساوية لمدينة إلى هذه السياسة بإطالة عمرها .

وتجسست كراهية الكرواتيين للمجر فى شخص يوسف يلاسيك Josef Jellacic وهو كولونل فى الجيش النمساوى ، لم تكن تتوق نفسه إلى شيء أكثر من إرغام الهنغارين على القتال ، وتحطيمهم فى ساحة الرغى ، وإعادة سلطان الإمبراطورية على بلادهم . وكانت الحكومة الإمبراطورية تدرك نفع هذا الجندي الكرواتى المحبوب الذى كانت كلمته وحدها كافية لأن تضمن لها ولاء الجنود الكرواتيين الذين يقاتلون معه فى إيطاليا ، وكانت على ثقة من أنهم سيسيرون الآن تحت علمه لقهر أعدائهم .

فمع يلاسيك
ثورة المجر

ولذا عينته حاكماً لكرواتيا ، على الرغم من احتجاج زعماء المجر . فسار زاحفاً على بست^(١) على رأس أربعين ألف مقاتل .

ورأى المهنغاريون أنه لا مفر من القتال . فاضطربت القلوب حماساً ، وقبض قوسوط وأتباعه الديمقراطيون على زمام الأمور في هنغاريا ، ودبت في الحال روح عطف قوية على قضية المجر في نفوس أحرار فيينا ، الذين لما رأوا أن هنغاريا قد صارت في قبضة الأحرار المهنغاريين الأمانة ، اعتقدوا أن تحالفاً وثيقاً مع هؤلاء الأترباب البواسل هو آخر فرصة تقدم نفسها لهم لإنقاذ قضية الحرية . غير أن قوات الإمبراطور كانت متفوقة تفوقاً عظيماً . ففي اللحظة التي كان يحمد فيها فنلشجراتر في سهولة ثورة أهل فيينا ، كان يلاميك يهزم في مهل اشفيشات Schwechat في ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٤٨ قوة هنغارية كانت تسير لتجديدهم .

بهذا الفوز المتزوج تدفق تيار الرجعية بقوة جارفة : فأزهقت أنفاس الديمقراطية في فيينا ، وانصرم حبل التقدم الدستوري . وكان لإعدام روبرت بلوم^(٢) Robert Blum مذكراً أليماً بأن النمسا تسير الآن في طريق التأخر .

حكمة
شوارزنبرج

ونخلص الجيشُ الإمبراطوريّ من خطر الانقسام وتفرق الكلمة . وظهر الآن في صفوفه سياسي خطير فد ، تمكن بتفكيره الجسور ، وذهنه المبتكر ، من أن يقطف ثمار النصر ، ويؤمن سلامة كيان الدولة . وهذا السياسي هو الكونت فلنكس شفلورنبرج Felix Schwarzenberg الذي ظهر على مسرح السياسة النمساوية سنة ١٨٤٩ ، وهضرت المنون حياته سنة ١٨٥٢ . ففي خلال هذه الأعوام الثلاثة تمكن هذا الأرستقراطي الطموح الصلف من إرغام الإمبراطور فرديناند الأبله على التنازل عن العرش ، وأجلس في مكانه ابن أخيه فرنسيس جوزيف Francis Josef وحطم

(١) هي قصبة بلاد المجر القديمة وتتألف جزءاً من حاضرتها الحالية بودابست .

(٢) كان مندوب برلمان فرنكفورت إلى فيينا . وقد ساءم في الدفاع عنها .

بمساعدة جيش روسي ثورة الهنغارين ، وأدخل مبدأ المركزية في نظم الإمبراطورية ، ولم يخش أن يواجه في ديسمبر سنة ١٨٤٨ خطر الاشتباك في حرب مع بروسيا ، كي يعيد تفوق الإمبراطورية النمساوية القديم في الاتحاد الألماني القائم وفق معاهدة سنة ١٨١٥ .

صنف الأحرار
على هنغاريا

وقد اجتاحت دول غرب أوروبا موجة من العطف العميق على مأساة الهنغارين ، الذين وإن كانوا قد حكموا الأمم التي خضعت لهم حكماً استبدادياً قاسياً ، إلا أنهم بتقاليدهم الحرة في الجدل والنقاش ، وفي نضالهم العنيد في سبيل الحرية الشخصية والحكومة النيابية المسئولة ، يُعَدُّون أعضاء في زمالة الارتقاء والحرية . وكما تتجبع الناس في إعجاب ونشوة عميقين حملات القائدين جورجي Go gei وبم Bem الباسلة ، وحماسة قوسوط وشجاعته في بسط المبادئ الراديكالية ، وإنشاء الهنغارين بإرشاده ومشورته جمهوريتهم ، كذلك قوبلت بالاستياء الشديد والجزع العميق أنباء تسليم جورجي في فلاجوس Villagos في ١٤ أغسطس سنة ١٨٤٩ ، والعقوبات المروعة التي أنزلت بمبيشه المنهزم .

وقد بذرت ألوانُ التطرف التي ظهر بها الانتصار النمساوي في ذلك الحين بنور المتاعب المقبلة للنمسا . وكان من الأسباب غير الفضيلة القدر التي من أجلها أيد الشعب الإنجليزي بقلبه حرب القرم إحساس الحق على روسيا للدور الأثيم الذي لعبته في خنق حرية هنغارية واستقلالها ، وفي إحكام الأغلال النمساوية حول أعناق الأمتين الإيطالية والألمانية .

٢ - الثورة الألمانية

أما في ألمانيا حيث لم تكن هناك مشكلات جنسية ، ولا مسائل تتعلق برفع نير أجنبي ، فقد اتخذت النزعة الثورية ، التي كانت لا تقل قوة فيها عما ظهرت به في النمسا وإيطاليا - اتخذت شكل العمل في سبيل الوحدة والحرية .

العمل للوحدة
والحرية

نعم ، وُجد جمهوريون في ألمانيا وخاصة في الجنوب الغربي منها ، وكانوا جمهوريين نزيقي الرأي ، ينجحون بطبيعتهم إلى النضال ، ولكن حزبهم كان أقلية بشكل جلي . فقد كان معظم الألمان في مطلع سنة ١٨٤٨ مصلحين ، وكان معظم المصلحين أحراراً ، وكان معظم الأحرار يؤمنون بالوحدة الألمانية ، إلا أنهم كانوا يؤمنون بأن ألمانيا لا تستطيع أن تتحد وفق المبادئ الحرة ، إلا عن طريق برلمان ينظم الأمة الألمانية بأسرها ، ويُنتخب انتخاباً حرّاً ، ويستقل استقلالاً تامّاً عن الديت الألماني العقيم الفاتدة الذي فرضه على البلاد مؤتمر فينا .

ننشجع زعماء الألمان الأحرار بعزل لويس فيليب ، ودعوا — ولكن من غير أن يضمنوا تأييد الأحرار لهم — برلماناً تمهيدياً للاجتماع في فرنكفورت لإعداد العدة لانتخاب جمعية وطنية ، كان يُرجى أن تخرج من مداولاها السلمية ألمانيا جديدة . والتأم عقد هذه الجمعية في ١٨ مايو سنة ١٨٤٨ . وكانت تحوى بعضاً من أكرم الشخصيات ، وأنبال العقول في ألمانيا ، كما كانت عامرة بالحماس والطموح والعمل الصادق ، لا تقبل ضيماً ولا إساءة من أجنبي ، شديدة الاهتمام بتوسيع سلطان ألمانيا وفرضها . وبعد مداولات متشعبة محكمة اتسمت بالجد الكبير ، أخرجت دستوراً ديمقراطياً لألمانيا المتحدة : دستوراً كان أبرز وأتمن ظاهرة فيه بنود طويلة من الأحكام المدققة لحماية الحرية الشخصية .

غير أن عمل هذه الجمعية كان مجهوداً ضائعاً . وإنما حقاً للأساءة من مآسى التاريخ الحديث أن هذه الجمعية التي قامت على موجة طاغية واسعة النطاق من التمسس والوطنية عجزت عن إنجاز واجبها الذي فرضته على نفسها ، وأن اتحاد ألمانيا تم وأكمل لا عن طريق المناقشات البرلمانية والأخذ والعطاء البرلماني ، بل عن طريق الدم والحديد اللذين استُنفدا في حروب أهلية وأجنبية . ويجدر بنا أن نعدد هنا في إيجاز علل هذا الخطب الكبير الذي ابتليت به الحرية الألمانية . فإن الجمعية الوطنية بفرنكفورت مع تمثيلها خيرة العقول الألمانية المثقفة للطبقات الرسمية وأصحاب المهن الحرة ، أخضقت إنضاقاً غير

برلمان
فرنكفورت

قليل في تمثيل طبقات النبلاء والعمال وأصحاب المصالح الكبرى في عالمي الأعمال والمال . ومع عدم استكمال تأليف هذا البرلمان من هذه الناحية ، وكذلك من ناحيتي التقاليد النيابية والنظام الحزبي ، فقد جابهته في مسهل حياته مسألتان جد معتدتين ، كان الأمل في حلها يومئذ حلا سلميًّا من الصّالة بمكان ، وهما : ما الشكل الذي يجب أن يعطى لألمانيا الجديدة ، وهل يجب أن تشمل الدولة الألمانية الجديدة الإمبراطورية النمساوية كلها ، أو تحوى الشطر الألماني منها فقط ؟ وهل تُترك النمسا الألمانية خارج صرح الدولة الألمانية الجديدة ؟

وقد أجبني بالسلب دون تردد على السؤال الأول ، فلم تكن ثمة تفضحية كبيرة في نظر هؤلاء المشرّعين الألمان أن يأبوا ضم التشك والمجر والكرواتين والرومانيين الذين كانوا خاضعين لإمبراطور النمسا إلى حظيرة الأسرة الألمانية . بيد أن الاقتراح الثاني الخاص بإقصاء النمسا الألمانية عن ألمانيا قوبل بمعارضة جدية عنيفة . فقد ارتفعت الأصوات متسائلة كيف يمكن أن يُحتمل نيل ثمانية ملايين من الرجال والنساء الألمانيي الجنس من الريخ الألماني ؟ فإن المثاليين الذين كانوا يتطلعون إلى قيام دولة جامعة للشعوب الألمانية ، والكاثوليك الذين كانوا يبتغون تقوية مذهبهم ، وحكومات الولايات الصغرى التي اعتادت أن تنظر إلى النمسا كمجن لها ضد صولة البروسيين غير المحبوبين - اتحدوا جميعاً لمقاومة الاقتراح القاتل بإبعاد ألمانيي النمسا . وشعرت الجمعية بخطورة هذه المعضلة وعصرها ، فتحاشت في الأشهر الخمسة الأولى من عقدتها النقاش في القواعد الأساسية لبناء الحكومة الألمانية المستقبلية . وفي الوقت الذي كان فيه كل شيء يتوقف على السرعة ، تباطأ عن عمد مشرو برلمان فرنكفورت .

وكانت هناك مشكلة أخرى تكاد تداني المشكلة الآتية عسراً وشدة . فقد كانت ألمانيا وقتئذ اتحاداً تعاهدياً يتألف من دول ذات سيادة ، تهتم كل منها إلى أقصى حدود الاهتمام بالاحتفاظ أشد المحافظة بحقوقها وإميازاتها . ولكن لم يكن ممكناً الوصول إلى اتحاد ألماني جديد أعظم تماسكاً وترابطاً من

مشكلة إنشاء
اتحاد ألماني
وثيق العرى

الاتحاد القائم ، إلا إذا قبلت الدول الأعضاء إنقاص سلطاتها المستقلة بعض الإنقاص . ولكن أيمن أن تتغلب على الولايات روح من التضحية والبذل مثل هذه ؟ وإذا كان في الإمكان التطلع إلى الولايات الألمانية الصغيرة بأن تغلب هذه الروح في سياستها ، فهل ينتظر من الممالك الألمانية ، كبروسيا وبافاريا أن تقدم هذا البذل ؟

وحزر برلمان فرنكفورت أنه لن يستطيع التقدم في أعماله ، بانتهاجه طريقة المشاورة الانفرادية مع كل حكومة من الحكومات الثماني والثلاثين التي تولف الاتحاد الألماني . فإن التأخيرات ستكون غير محدودة ، وفرص الاتفاق بعيدة نائية . ويحاذب ذلك فإنه كان شأنًا جوهريًا بهم أعضاءه أن يقوموا بوضع دستور للدولة الألمانية الجديدة بصفة كونهم الممثلين الشرعيين للأمة الألمانية . بيد أنه ماذا يكون موقفهم لو أن حكومات الولايات لم تقبل قراراتهم ؟ فقد كان هذا طارئًا محتملًا ، بل لقد كان طارئًا مرجحًا حقًا . ولهذا السبب فإنه بعد أن قررت الجمعية - ولو أن قرارها كان بأغلبية أربعة أصوات فقط - إقصاء النمسا من الاتحاد القادم ، عقدت العزم في حكمة على أن تدعو أقوى سيف في ألمانيا إلى نصرتها والدفاع عن عملها . فعرضت تاج الاتحاد على ملك بروسيا .

فردريك
الرايخ

ولكن ملك بروسيا فردريك وليم الرابع (١٨٤٠ - ١٨٦١) كان حاكمًا مزهوًا مختلًا ، متشعب التزعزعات والأهواء ، ميالًا إلى الخيال والمغامرة ، جم الاطلاع ، ولكن من غير ثبات رأى ، أو استيعاب واف لشئون السياسة . فقد انقلب في وجيز وقت حماسه الفتي المتقلقل من تأييد مبادئ الحرية إلى اعتناق مذهب الحق الإلهي للملوك . وقالت من مدى نفعة خيلة هي أقتل ما يكون في الحاكم الأناني : وهي امتلاكه ناصية فصاحة متحذقة . فإنه عند اعتلائه أريكة العرش سنة ١٨٤٠ ، أخذ يتلاعب بالأفكار الحرة والإصلاحات الدستورية . فقدّمت مقترحات عديدة للإصلاح خلال السنين السبع الأولى من حكمه ، ولكن لم ينفذ منها شيء ، ثم أجبرته قوة الرأي العام على أن يعقد في برلين في فبراير سنة ١٨٤٧ أول برلمان بروسي (ديت) .

وقد اجتمع هذا البرلمان وسط فوران روحى غير عادى ، وادعى لنفسه حق سن القوانين ، ومراقبة مالية الدولة ، والتصديق على القروض العامة . وكانت هذه الادعاءات بدءاً مزعجة لفردرك ولیم . فما كان منه إلا أن حله فى يونيو من العام نفسه . ولكنه واجه فى مارس سنة ١٨٤٨ ثورة خطيرة ، بعد أن فقد شيئاً كثيراً من سمعته الإصلاحية ، بسبب معاملته غير المشرفة للبرلمان .

فتنة برلين

فى مارس عام ١٨٤٨ : هذا العام الذى عم فيه الاضطراب والفوضى كل مكان تقريباً ، شبت فتنة خطيرة سفكت فيها دماء غزيرة فى شوارع برلين . من جراء تأخر فردرك ولیم فى منح الإصلاح المنشود . ولكن هذا العاهل الذى كان شديد الرغبة فى التمشى مع التيار ، أوقف القتال ، ووعد بدعوة برلمان . وعندما عادت الأمور إلى مجاريها ، سار فى ٢١ مارس فى شوارع قسبة ملuke ، مرتدياً البزة الألمانية القديمة ذات الألوان الثلاثة : الذهب والأبيض والأسود . وأعلن أنه من اليوم ستندمج بروسيا فى ألمانيا الكبرى . ولكن الأمر كان يحتاج إلى أكثر من تلويح بليغ لظهور بروسيا بمظهر التكاثف المتضافر مع الحركة الحرة الكبرى للوحدة الألمانية بفرنكفورت .

يبد أن هذا الملك كان لا يزال أوتقراطياً فى دخيلة قلبه ، وكان جيشه لا يزال عظيم الولاء لعرشه ، ولا يخصص نفسه لخدمة سيد سواء ، وكان وجوه دولته لا يزالون غير مقتنعين بأن ثمة أى نفع يمكن أن تجنيه بروسيا من وراء الحركات الديمقراطية . كما وقف على الدوام بين فردرك ولیم والأحرار الألمان حائل منيع من الحقد وعدم الثقة : هو الدم الذى أهرق عند متاريس شوارع برلين . ومن سوء الحظ لم يكن هناك فى الديمقراطية المرتجلة التى قامت فى الحاضرة البروسية ، ما يعين على حل ما بينهم من خلاف .

فوز الرجعية

وأخذ الملك فى قصره يستسدام يراقب فى استياء متزايد مشاغبات الشوارع غير المنقطعة ، والحماقة الطائشة لبرلمان نزع متسرع ضئيل الاختبار ، وأخيراً

دبت في نفسه الشجاعة لضرب ضربته ، عند ما بلغه نبأ إخضاع أهل فينا
وقمع فتنهم . ففي الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٨٤٨ بدأ ينتهج طريقاً رجعيّاً :
فزل وزراره الأحرار ، وحل الحرس المدني ، وفرض البرلمان . وفعل هذا كله ،
دون فقدان حياة واحدة أو إطلاق طلقة واحدة ، وذلك بمؤازرة الجيش القوية ،
وبتسليم أشد طبقة وسطي في أوروبا وجلا وتبياً .

رفض فردرك
ولم مقترحات
فرنكفورت

وحدث أن فردرك ولم تسلم - بعد إحرازه هذا الفوز الرائع الذي صيّر مرة
أخرى سيد البلاد تسلم - دعوة برلمان فرنكفورت لأن يقبل عرش الإمبراطورية
الألمانية . ولهذا أبي وتنكر (١) ، وأجاب أن الملك لن يقبل تاجاً غير مرفوع
إليه من الأمراء ، ودستوراً لم تقره حكومات ألمانيا . وقد حدس أن مقترحات
برلمان فرنكفورت تحمل في ثناياها موافقة على مبدأ الديمقراطية الأثيم ، كما
تحمل في طياتها نصلاً مسلحاً أكيداً مع النمسا ، ومن المحتمل مع روسيا
أيضاً ، وتتطوى على كثير من الارتباكات المقلقة داخل الرينغ الألماني ذاته .
ولذا بدلا من أن يضع على مفرقه التاج الإمبراطوري ، ويتخذ لنفسه لقب
إمبراطور ألمانيا ، وفق دعوة مجلس نيابي يحس نحوه بالازدراء وعدم الثقة -
لأنه مجلس أقر منح الأمة حق الانتخاب العام والاقتراع السري للناخبين -
بدلا من أن يفعل فردرك ولم ذلك ، أثار أن يبقى السيد المتفرد لرعاياه البروسيين
المخلصين ، ويدمر عمل فرنكفورت ، ويقضي في الحال على تلك المشروعات
التي ترمي إلى قيام ألمانيا متحدة حرة ، والتي أذكت حمة كثير من الرجال
الأشراف النفوس ، العامري الوطنية ، وأثارت نشاطهم وجهودهم . وأخذ القلك
يلور دورته ، وتجمع الرجعية قواها وعنفها . فتمكن الجيش البروسي من
سحق الفتن في سكسونيا وبادن وهانوفر ، وكسب بذلك اعتراف جميع الأمراء
الألمان الذين كانوا يهلون فرقا من فقدان عروشهم - كسب اعترافهم بهذا
الصنيع الجميل فاليد البيضاء .

(١) في أبريل سنة ١٨٤٩ .

ولكن بعد أن هدأت ربيع الثورة ، ألقى الملك البروسي نفسه وجهاً لوجه أمام شفارتزنبيرج ، سيدِ حولة نمساوية ناهضة . فقام نضال خالده بين سياسى هذين الحاكين المتضاربين ، أسفر في النهاية عن هزيمة بروسيا هزيمة سياسية بالغة الإذلال لها . ذلك أن فردرك ولم يفرض أن النمسا غدت الآن خارج نطاق الريخ ، وأن اللديت الألماني القديم قد مات واندر ، وأن في مقدوره أن يكون بمحض رغبة حكومات الولايات الألمانية اتحاداً ألمانياً جديداً تحت زعامة بروسيا . ولهذا دعا برلماناً اتحادياً للانعقاد في إرفرت ، واقترح وضع دستور اتحادى ، وأفلح في أن يضم تحت رايته ثمانى وعشرين ولاية من الولايات الألمانية الصغيرة ، وإن كان قد أخفق حقاً في أن يضم إلى جانبه - كما كان يأمل - مملكة واحدة من الممالك الألمانية الأربع .

النضال بين
شفارتزنبيرج
وفردرك ولم

يبد أن شفارتزنبيرج عارض أشد المعارضة هذه السياسة برمتها . ورفض رفضاً باتاً أن يفكر لحظة واحدة في أى مشروع يقضى بإقصاء النمسا من ألمانيا ، وأصر على إرجاع اللديت الألماني تحت زعامة النمسا ، وطلب من بروسيا التخلي عن عصبها الجديدة من الأمراء ، متوعداً إياها بالحرب إذا هى رفضت . وفى هس - كاسل Hesse-Cassel وقعت النمسا - بصفتها وكيلة عن اللديت الألماني القديم - بجانب أميرها المستبد الغشوم ، على حين ناصرت بروسيا رعاياه المظلومين . وكانت قوات الدولتين المتنافستين على شفا الاشتباك معاً . ولكن الحرب تَجَنَّبَتْ ، إذ رأى فردرك أن جيشه ليس بكفء لمنازلة خصمه . واضطرت بروسيا إلى شراء صلح مزور في ألتر Olmitz (٢٥ نوفمبر سنة ١٨٥٠) بتسليمها الكامل بمطالب النمسا .

صلح المزع

وكان بين المراقبين لهذه الحركات شاب من وجوه بوميرانيا ، عضو في برلمان برلين . وقد أبان في هذه الأزمة عن شجاعة في الرأى ، وفصاحة في اللسان ، وقوة في الإيمان جعلت له سلطة ونفوذاً فاقا كثيراً ما للوزراء عادة منهما : هذا هو أوتوفون بسمارك Otto Von Bismarck الذى كُتِبَ له أن يكون من أعظم الشخصيات في تاريخ بروسيا . ولقد ألقى قوة بدنية

أوتوفون
بسمارك

فائقة ، وكان خطيباً ذرياً قوياً ، وخيلاً محبباً مرحاً ، ولغوياً ماهراً . وولد مطبوعاً على أفانين السياسة وحيلها ، وجمع في شخصه جميع المناقب التي يتصف بها السياسي الداهية ، مع بسطة في المطامع ، وبساطة في الأغراض ، ضرورتين لأسمى أشكال السياسة الرشيدة الفطنة .

وكان يبتغى هو أيضاً قيام اتحاد ألماني . ولكنه لم يكن يرغب في أن يتم ذلك بتضحية الملكية البروسية ، أو الجيش البروسي ، أو التقاليد البروسية . ولقد قال : « إننا نصبو جميعاً إلى أن ينشر النسر البروسي جناحيه كدروع وحاكم من ميونخ إلى دنسبرج Donnersberg ، ولكن يجب أن يكون مطلقاً من كل قيد ، غير مشلود إلى ديت متحكم جديد ، فلاننا بروسيون ، وسنظل بروسيين » . ولقنته المبادئ المحافظة الموروثة القوية التي يتحلّى بها أعيان البروسيين أن مستقبل بلاده سيتشكّل ، لا بخطب الساسة الأحرار الذين يقلدون النظم البرلمانية الإنجليزية تقليداً أعمى ، وإنما بالنظام العسكري الصارم . وقد ملأ قلبه فرح طاع ، وابتهاج شديد ، لفشل برلمان فرنكفورت ، وإخفاق خطط مليكه في إرפורت . فإنه لم يكن في مقدوره أن يطبق فكرة وجود برلمان يعلو سلطانه سلطان ملك بروسيا ، ومن حقه أن يحرك جندياً من جنود الجيش البروسي ، أو مدفعاً من مدافعه . ولذا أشار — مخالفاً رأى رادووتر Radowitz كبير وزراء بروسيا — بإبرام صلح مع النمسا . فإنه مهما كان ذلك الصلح مهيناً مزرياً ببلاده ، فقد يكون خيراً من هذا الهدف البغيض ، وهو حبس النسر البروسي في قفص عصبة ألمانية .

٣ - تطور المنافسة بين النمسا وبروسيا

وباختفاء مترنخ ، وبروز بسمارك في الميدان السياسي ، تطورت المنافسة تطور المنافسة بين النمسا وبروسيا ، وهي المنافسة التي ترجع إلى عام ١٧٤٠ حينما سلب فردريك الثاني سيليزيا من مارية تريزا ، والتي تطورت بخطى سريعة مدبرة إلى نهاية عنيفة في ساحة ساكوا Sadowa سنة ١٨٦٦ ، حيث هزم البروسيون

النمساويين ، ودحر العالم الجديد العالم القديم ، وبدفعة هائلة فكّ الريخ الألماني قيوده من سيطرة النمسا القديمة التي لم تتمكن حتى مطرقة نابليون الجبارة من تحطيمها . وتمكن البروسيون بأسلحتهم الدقيقة الفتاكة من إقصاء روح مترنخ المسيطرة بعيداً عن نطاق الريخ الألماني ، وذلك بطريقة أفضل وأدوم مما أسفرت عنه ثورة فيينا سنة ١٨٤٨ .

مترنخ

بيد أن نظام مترنخ ، جلب لأوروبا سلاماً دام أربعين عاماً ، فكسب لهذا الزعيم السياسي أكابيل المجد والفخر من جيل ما زالت ولايات الحرب وخطوبها عالقة في ذهنه . وكان مترنخ منصفاً بمناب كثيرة تجعله زعيماً سياسياً عظيماً : كان ذا شخصية جذابة لامعة ، هادئ الطبع رابط الجأش ، ذا اطلاع واسع المدى ، وإرادة ثابتة لا تتزعزع ، وحساس شديد . ولقد بلغ مقامه ذروة رفيعة كححرر بلاده من قبضة نابليون ، وكالمعماري الأول لأوروبا الجديدة . وكانت الثقة التي أولاه إياها العالم الناطق بالألمانية تكاد تكون غير محدودة . وفي مجالس الحكام المستبدين ونلواتهم ، كان عقله الأداة الموجهة ، حتى إن الحقبة بين سنتي ١٨١٥ و ١٨٤٨ لم تُدعَ بعصر مترنخ من غير حق . ولكن هذا الأرستقراطي العريق ، ذا الأخلاق المستبحة المشهورة ، والمبادئ السياسية الدقيقة الحازمة ، والنفوذ الواسع المدى المترامي الأطراف ، كان يعمل ويكد تحت تأثير عيب من أكبر العيوب الذهنية التي تنحرف بفكر سياسي عظيم ، وتبعد أحكامه عن محجة الصواب : ذلك أنه لم يستطع أن يشق طريقاً وسطاً بين الثورة والأوتقراطية . ولما كانت الثورة كريمة بغیضة إلى نفسه ، وجهه جهده إلى قمع ما يُعَدُّ روح الحياة الإنسانية ولها ، إذ جاهد في لإزهاق روح الحرية ذاتها .

خطأ سياسته

ومن جهة أخرى اتخذ نظام مترنخ نهجاً معارضاً لنزعة فكرية خطيرة الشأن نامية الأثر . فقد شُيِّدت الإمبراطورية النمساوية على أساس من قمع القومية . وكان فضلها — كما زعم البعض — يقوم على هذه الحقيقة : وهي أنها حرّمت مهاباً في اتحاد سياسي ديني مالى واحد عدداً من الأجناس كانت

خوفه من
روح القومية
والتجديد

عداوتها المتبادلة أقوى دعائم الإمبراطورية . ولم يكن هذا الاتحاد سهلاً يوماً من الأيام . وزادته صعوبة ومشقة روح القومية التي أطلقت الثورة الفرنسية عقلاها في أوروبا . فقد قال الإمبراطور فرنسيس الثاني مرة : « إن دولتي تشبه بيتاً قد نخره السوس ، فلو نزع منه جانب ، لما أمكن لأحد أن يتكهن أى الجوانب الأخرى سوف تنهار منه » .

ولذا عقد مترنخ تصميمه على ألا يخاطر بشيء . فلم يطرأ خلال الفترة التي كان ممسكاً فيها بزمام الأمور في النمسا أى تغيير جوهرى في إيطاليا أو في هنغاريا أو في بوهيميا ، أو في ممتلكات التاج النمساوى السلافية والألمانية . كما أنه لم يهمل اتخاذ كل حيلة ضد غمرة التجديد . فالكاهن الكاثوليكي كَوْن الضمير وشكّل العقل ، ورجل الشرطة الكاثوليكي أوقف تسرب الأدب السياسى من دول الغرب ، والجندي الكاثوليكي وقف متأهباً ليحمى بحسامه ذمار دولة تألفت من زيجات الأمراء ، ولا تعرف من المبادئ السياسية سوى مبدأ الطاعة والخضوع للعرش . ولم يكن فيها برلمان حر ، أو صحافة حرة ، أو جامعة حرة ، أو حتى إدارة حكومية مستنيرة . يمكن لشعبها أن تتلقن على يديها أبسط المبادئ الأولية للتربية السياسية .

ولكن على النقيض من النمسا كانت بروسيا . فقد كانت أوثق منها تضامناً ، وأكثر كفاءة ، وأعلى كعباً في مدارج التقدم . نعم ، بقيت الصناعة في أكثر نواحيها تسير على المستوى والأشكال الأهلية القديمة ، يعوزها الفحم ورأس المال ، ويتقصها التنظيم ، وبلغ من درجة تأخرها في شوط التطور والارتقاء ، أنه في سنة ١٨٤٠ ، كان أقل من ٤٠٪ من أثقال النسيج التي تملكها تدار بالبخار . ولكن كانت قد وُضعت من قبل نظم تساعد على التقدم الصناعى والتجارى .

ولكن في سنة ١٨١٨ أسّس « زلفرين » Zollverein ، أو اتحاد جمركى . ويرجع أكبر الفضل في قيامه إلى ماسن Massen وزير مالية بروسيا في ذلك الحين . وكان يقصد من ورائه ضم الممتلكات البروسية المبعثرة

بعضها إلى بعض بتعريفه جمركية منخفضة . وقد بلغ من نفع هذا الاتحاد الجمركي ، ونفع الطرق البروسية الجديدة ، وخلّص ذلك القطر من المكوس الداخلية والرسوم الجمركية في داخل أرضه ، أنه أفلح في خلال ثلاثين عاماً في جذب جميع الولايات الألمانية إلى الانضمام إلى ذلك الاتحاد الجمركي . وبهذا العمل الجليل وُضِعَت أسس دولة ألمانية متحدة تحت هيمنة بروسيا على دعائم متينة قوية .

مزايَا بروسيا

ثم ظهرت بشكل واضح على مر الأيام مزايَا أخرى لبروسيا أعانتها على تبوؤ مركز الزعامة في الأمة الألمانية . فقد كانت النمسا كتلة غير متجانسة من الولايات المتعددة اللغات ، وكانت مشغولة بمشكلاتها الداخلية الشائكة التي جرتها في ذيولها محاولتها مصالحة شتى أجناسها بعضها ببعض . وبينما كانت النمسا تتجذب أكثر فأكثر صوب الشرق ، أخذت مصالح بروسيا تتركز داخل نطاق الريخ الألماني نفسه . وعلى حين كانت سياسة النمسا في عهد مترنخ موجهة إلى هذا الهدف البسيط : وهو قمع جميع الميول القومية والحرة في بلادها ، والحفاظ على سلطان ملكية مطلقة ، وكنيسة مطلقة ، بواسطة نظام شرطي صارم ، فإن سياسة بروسيا كانت مشبعة بالغيرة العلمية ، مشربة بروح عملية تنزع إلى التقدم .

فبين حكومة ليس لها مذهب سياسي إلا مذهب الطاعة والامتثال ، وحكومة تعمل وتجد لتنمية ثروة الأمة المادية ، وارتقاؤها في سلم العلوم والمعارف ، لا يمكن أن يقوم تكافؤ وتوازن . ولهذا الأسباب فإن الحقبة التي جاءت بين عام ١٨١٥ و ثورة عام ١٨٤٨ ، تكاد تخلو من سناء المجد . بيد أنها تبرز كثرة استعداد تهيأ فيها العدة لاتحاد ألمانيا تحت التاج البروسي .

وفي خلال تلك الحقبة ظهرت وتطورت في بروسيا نظرية من نظريات الحكم ابتدعها فيلسوف عظيم . ونظراً لأنها تتفق كثيراً ومبادئ الشعب البروسي الخلقية ونظمه ، تمت لها الغلبة في وقت قصير على النظريات الأخرى . ثم ذاعت بعد ذلك طولا وعرضاً ، كمنصر أساسي في نظام كامل في المثالية

الفلسفة
البروسية
للدولة

الفلسفية . فقد دلل هجل بكل قوة ذهنه الماضى الذكاء على المبدأ القائل بأن الدولة هى : « إله يمشى فى الأرض » ، وأن الدول أعظم من عهودها ، وأن الحق يجب أن يُدعم بالقوة ، بل إن الحق هو القوة . وبينما كان بتنام الفيلسوف الإنجليزى يدلل على أن غاية الدولة يجب أن تكون الحصول على أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد ، جهر هجل بأن رخاء الأفراد وسعادتهم يجب ألا يؤبه لهما إذا ما تعارضا مع عظمة الدولة . فالقوة فى نظره أمر مسوغ . وبما أن الدول قامت على القوة ، فالحرب هى جزء من متطلبات السياسة والسعادة القومية . ونادى بأن العالم موضوع فى المركز الذى ينبغي أن يكون فيه . وقال : بما أن الروح هى التى تحكم العالم ، فكل ما هو ناجح لا بد أن يكون حسناً طيباً ، وأن غاية الدولة لا يمكن أن تكون الإحسان والجلود العالمى ، بل ينبغي أن تكون دائماً هى سعادتها الخاصة بها وحدها . والهيئة العليا التى فوق الدولة هى عالم الأرواح التى ترز الدولة بمدى نجاحها . ومن السهل أن يشاهد المرء الخلاف الحاد الذى لا مفر من أن يشجر على الدوام بين هذا الإدراك النفسى الغامض للدولة — هذا الإدراك الذى وضعها فى مصاف الآلهة — وبين النظرية المستمدة من مبادئ روسو التى تعد الدولة نتيجة عقد اجتماعى قائم على محض الاختيار والرضا . ففى نظر هجل أظهر الله نفسه فى طبقة نبيلة أوحاكمة ، لا يصيبها الضعف والقصور ، إلا عن طريق الانتخابات الشعبية .

وعلى حين شُبِّدت الديمقراطية الفرنسية على كتابات روسو ، فإن مذهب الدولة الفاتكة القدرة والسلطان : وهو المذهب الذى شاع بين البروسيين ، وجد خير ناصر ومجده له فى تعاليم هجل . وتوارى منطق الطغيان والاستبداد تحت قشرة ذهبية رقيقة من الجمال الخلقى للبذل والإيثار . فالدولة فى نظره هى الله . وباسم هذا الشئ المبهم غير المحسوس يجب على ملايين البشر أن يعلوا أنفسهم للعمل ، وتحمل الآلام ، وتجزع غصص الموت . هذه هى الفلسفة الإمبرطية لشعب أخذت نهى له المقادير السبل لزعامة ألمانيا.

کتب ممکن استشارتها

Metternich : Mémoires. 1880.

J. Maurice : The Revolution of 1848. 1857.

Bismarck : Thoughts and Recollections 1933.

J.W. Headlam-Morley : Bismarck. 1899.

H. von Sybel : Deutsche Geschichte in 19 Jahrhundert.

Leger : Histoire de l'Autriche Hongrie. 1920.

C.G. Macartney : Hungary. (Nations of the Modern World Series)
1934.

F.W. Newman : Select Speeches of Kossuth. 1853.

C. Grant Robertson : Bismarck. 1918.

Hegel : Philosophie des Rechts. 1821. tr. 1896.

الفصل الخامس عشر

خاتمة الإمبراطوريتين الإيبيريتين

ثورة المستعمرات الأسبانية والبرتغالية في أمريكا . خصائص الحكم الأسباني في أمريكا الجنوبية . أهمية الخزويت . نصيب إنجلترا في حروب استقلال أمريكا الجنوبية . حكومة البوربون العائدة في أسبانيا . الحاجة إلى التعليم الشعبي . إهمال الأحرار الأسبان حساب الروح الإقليمية في بلادهم . موازنات في التاريخ الأسباني . تناقص نفوذ أسبانيا العالم .

١ - ثورة المستعمرات الأسبانية والبرتغالية

كان من بين النتائج الهامة لحروب الثورة ونابليون فصح العرى التي كانت تربط أسبانيا والبرتغال بأملكهما عبر البحار . وكما كان تأسيس الولايات المتحدة حدثاً من أعظم أحداث القرن الثامن عشر السياسية ، كذلك كان تحرر أمريكا الجنوبية والوسطى في الربع الأول من القرن التاسع عشر من سيطرة أوروبا حادثاً كسبت فيه قضية التحرير من ربة الاستعمار انتصاراً آخر . ومع ذلك فالتاريخ لا يبعد نفسه ألبتة . فإن قصة انفصال المستعمرات الأسبانية الأمريكية لا تشبه إلا في القليل الظروف التي أحاطت بثورة المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية .

فعل حين أزاح أهل المستعمرات البريطانية عن كواهلهم نير مملكة كانت قد خرجت منذ سنين قليلة ظافرة منتصرة في حرب أوربية عظمى ، فإن الضربات الأولى في سبيل استقلال أمريكا الجنوبية أوقعتها نابليون بأسبانيا والبرتغال اللتين كانتا قد انحدرتا إلى أسفل درك من التدهور والمهانة . وكانت الحجة التي تُلزَع بها الأمريكيون الشماليون لإضرام نار الثورة هي فرض ملك مستبد ضرائب مجحفة غير دستورية عليهم . أما

موازنة بين
ثورة
أمريكا الجنوبية
وأمريكا الشمالية

الأمريكيون الأسبان فلم يتقدموا بأعذار دفاعية كهذه ، بل إنه بدلا من اعتراضهم على السلطات الاستبدادية التي تمتع بها ملوك أسبانيا الشرعيون ، كان من دواعيهم الأصلية لتبرير ثورتهم ، أن فردينند السابع الذي كان يمثل الأوتوقراطية القديمة ، أبعد من منصبه واستعفى عن حكمه بنظام ديمقراطي أقامه مغير فرنسي .

خفة وطأة
الحكم الأسباني

وكان مجلس الدولة المهيمن على شئون المستعمرات الأسبانية هيئة فضولية مربكة . ومع ذلك فإن سجلات مستعمرتي المكسيك وبيرو المليئة بالأوامر الملكية ، لتشهد بعناية ذلك المجلس واهتمامه الفائق بشئونهما . ولم يكن أهل المستعمرات يحسون بمضايقة شديدة من هذا الحكم الاستبدادي الذي حشر نفسه في الكثير من شئونهم . إذ كان يلطف من حدة ذلك الحكم بعد الشقة بين المستعمرات وبين الدولة المستعمرة ، وكان يخفف من وطأته الفساد والرشوة الضاربان أطنابهما . وكان أهل المستعمرات يجدون في الإهمال والتكاسل المنتشرين في البوالتين المستعمرتين منفذاً للتخلص من طغيان الدولة الحاكمة . فلقد كان سكان المستعمرات الأسبانية من الوجهة النظرية أشد شعوب البسيطة خضوعاً لنظم حكومية بالغة التحكم ، ولكنهم كانوا في الواقع يفعلون ما يهون . وقد يكون حكام للمستعمرات أفراداً ظالمين مشتهين ، ولكن الظلم الآتي من أسبانيا نفسها كان طفيفاً يكاد لا يُشعر به .

نعم ، كان للإمبراطورية الأسبانية نقطتها السوداء : كقيام السخرة في مناجم بيرو وفي الأعمال العامة الكبرى في المكسيك ، كما أن الرجل الحر المذهب ينظر نظرة سخط واستنكار إلى نظام كان يرغم السكان الهنود على التبعد أمام مذبح الكنيسة تحت تهديد السياط ، ويخضع أفكار الناس لسلطانها الصارم . بيد أن الأسبان كانوا يسيطون ألوية السلامة والأمن — وهما نعمتان من أجل النعم — فوق جميع ممتلكاتهم المترامية . وكان السكان الذين تألف شطر منهم من أصل أسباني ، وكان شطر آخر خلاسياً ، وثالث هندياً ، ورابع زنجياً — كانوا يخضعون جميعاً لنظام واحد مشترك من الأنظمة

الحكوية والدينية . ولم تكن أمريكا الجنوبية خلال حكم أسبانيا والبرتغال إياها أشد اضطراباً أو أقل رضاً وقناعة مما هو حالها خلال المائة عام الأخيرة التي قبضت فيها العناصر الأوربية على زمام السلطة في أقطارها . والحق أن نتيجة ثورة المستعمرات الأسبانية كانت الاستعاضة « بالسلام الأسباني » ، الذي نشر ألويته عليها رديحاً طويلاً من الزمن ، بعصر من الحروب المضطربة بين دولها المختلفة ، وقيام الفتن والثورات الداخلية التي لم تبلغ بعد نهايتها .

أما الولايات المتحدة فقد أسسها رهط من المستعمرين الإنجليز الذين وقفوا معاً كالبناء المرصوص يشد بعضه بعضاً ، والذين رضعوا جميعاً ألبان الحرية وتقاليدها ، وقد انحدر كثيرون منهم من أسلاف غادروا أوطانهم خلال حركة دينية مفعمة بالقنوط والسخط الشديدين . أما الأسبان والخلاسيون الذين استعمروا نصف القارة الجنوبي ، فلم يكونوا مشيرين بهذه التقاليد وتلك الروح المنطوية على التمرد والعصيان في وجه الضيم والتصف ، ولم يكن لهم ذلك التراث من الحرية الدستورية الذي كان لأتربهم الإنجليز في الشمال . وكان يُنظر إلى المستعمرات الأسبانية ، لا كاستعمرات معدة لسكنى مهاجرين أحرار من الوطن الأم ، بل كضياع ملكية . وكانت الإقامة فيها تعتبر امتيازاً لا يمنح إلا بإذن خاص من صاحب التاج الأسباني .

وكانت فكرة إبادة السكان الهنود الأصليين ، أو جعل أمريكا الجنوبية أمية الجزويت قطعاً أسبانياً صميمياً « يسكنه مائة في المائة من الأمريكيين الأسبان » - كانت فكرة بعيدة كل البعد عن الفلسفة الكاثوليكية للملكية . فقد كان الأسبان يتسربون إلى تلك المستعمرات ، كما يتسرب اليهود اليوم إلى فلسطين . ذلك أن المبدأ السياسي الذي كان يفرض أن المستعمرات تحكم بمقتضاه هو أن يكون الشطر الأكبر من السكان هنوداً وخلاسيين مولدين رؤوساً بنشاط الفرق الدينية المتواصل ، ودعايات طوائف الرهبان التي لا تنكسر على الولاء للتاج الأسباني . وفي هذا الميدان لعب الجزويت دوراً رئيسياً . ولذا فقدت تلك المستعمرات عند طردهم منها سنة ١٧٦٨ أقوى وسائل التعليم والتهديب

التي غرست باطراد في النفوس واجب الطاعة للعرش الأسباني . ولم تُعوَّض هذه الخسارة قط . فكما أن فتح البريطانيين لكندا الفرنسية أضعف من قوة البواغث التي تربط المستعمرات الأمريكية بالملكة الأم ، كذلك أوهن طرد طائفة الجزويت من المستعمرات الأسبانية بعد ذلك الفتح بسنين أربع من ولاء تلك المستعمرات لأسبانيا .

نصيب إنجلترا
في حرب
استقلال
المستعمرات

ولقد تأثرت إنجلترا لنفسها من أجل العون الذي قدمته أسبانيا لمستعمرات إنجلترا الأمريكية في ثورتها في القرن الثامن عشر . إذ لعبت إنجلترا دوراً كبيراً في تحرير أمريكا الجنوبية من حكم المملكتين الإيبيريتين . فحطم أسطول إنجليزى الشطر الأكبر من الأسطول الأسباني في معركة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥ . وحينما غزا القائد الفرنسي جينو Juno البرتغال سنة ١٨٠٨ ، نقل الأسطول البريطانى البيت المالك البرتغالى إلى منفاه في البرازيل . وكان أول حافز للأرجنتين على الثورة ضد أسبانيا هو نزول حملة بريطانية في بيونس آيرس سنة ١٨٠٦ . وكان أميربحر إنجليزى (كشرين) هو الذى طرد الأسطول الأسباني من المحيط الهادى ، وعاون على تحرير شيلي سنة ١٨١٨ ، وبيرو سنة ١٨٢٤ . وكانت قوة إنجليزية مؤلفة من ستة آلاف من المغامرين هي التي كونت نواة الجيش الذى بواسطته خلق بوليفار جمهوريتي فنزويلا وكوليبيا سنة ١٨٢١ ، وكان سياسياً إنجليزياً ، هو جورج كاننج ، الذى أعلن سنة ١٨٢٣ في نشوة عمت ندوات الأحرار في لندن ، وبلهجة حماسية ، تصميم إنجلترا القاطع على الاعتراف باستقلال جمهوريات أمريكا الجنوبية المحرة ، ودعا العالم الجديد إلى النهوض والتقدم كى يبرئ العالم التقدم من أسقامه . وحينما حضرت بوليفار الوفاة سنة ١٨٣٠ كان الجزء الجنوبى من نصف الكرة الغربى قد تقسم - بمساعدة الشعوب الأنجلوسكسونية وتأييدها الخفيين إلى حد كبير - إلى عدد من الجمهوريات المستقلة .

وهكذا تجدد بين الشعوب الأنجلوسكسونية والإيبيرية . ذلك الكفاح القديم الذى بدأ في عهد الملكة أليصابات ، متخذاً الآن أشكالاً وأساليب

جديدة . وعندما توقف الإنجليز عن القتال ، واصله أهل الولايات المتحدة . فضموا ولايتي كاليفورنيا والمكسيك الجديدة إلى بلادهم سنة ١٨٤٨ ، ثم جزر كوبا والفلبين بعد خمسين عاماً من ذلك . ولذا يرفع الكتاب الأسبان عقيرتهم بالشكوى ، بأن من بين جميع أعداء أسبانيا ، كان الجنس الأنجلوسكسوني الزنديق أشدهم بأساً ، وأقوامهم مراساً ، وأكثرهم توفيقاً .

٢ - أسبانيا تحت حكم أسرة بوربون

مع أن فقد المستعمرات جرح عزة الأمة الأسبانية ، إلا أنه لم يلحق أذى برخاتها ورغد عيشها . فإن أسبانيا - حسب جميع المعايير الاقتصادية - أغنى وأسعد الآن مما كانت عليه في أي عهد مضى . فقد تضاعف عدد سكانها ، وزادت منابع ثروتها الداخلية أضغافاً مضاعفة . وتتوارى الآن على جناح السرعة أسبانيا ذات المظاهر التي غلبت عليها في العصور الوسيطة ، والتي بدت لنا في حرب شبه جزيرة إيبيريا (١٨٠٦ - ١٨١٣) .

غير أنه كان لتحرير المستعمرات الأسبانية نتيجة استمرت مدة طويلة ذات أهمية كبيرة . فإن فقدان إيرادات المستعمرات التي كانت تؤلف عنصراً جوهرياً في ميزانية الملكية الأسبانية القديمة جعل فرديند السابع وخلفاءه يواجهون ألواناً من الشدائد المتضاربة ، شق عليهم أحياناً كثيرة اختيار أهونها . إذ لكي يدفعوا مرتبات الجند ، كانوا يُدفعون إلى فرض الضرائب على الكنيسة ، فكانت الكنيسة تثير عليهم استياء الشعب . ذلك لأنها في أسبانيا لم تكن قوة مناهضة للقومية ، كما كان حالها في إيطاليا ، بل على العكس من ذلك كانت روح القومية الأسبانية وعمادها . فإنه على حين أن الأحرار الأسبان لم يستطيعوا أن يبعدوا عن أنفسهم وصمة الانتماء بأنهم مقلدون للراديكاليين الفرنسيين ، وأنهم كفرة زنادقة ، وعالميون في سياستهم ، فإنه كان ينظر إلى الكنيسة في أسبانيا كالحجر الأكبر للملكيتها المركزية المطلقة . ويظن أن قوة أسبانيا واتحادها تتوقف على المحافظة على الكنيسة .

عدم تأثير
أسبانيا اقتصادياً
بفقد
المستعمرات

تأثير الملكية

ولكن برغم عدم تكافؤ هذه القوى المتنازعة ، فإن تفوق الكنيسة على خصومها استمر من غير انقطاع . بيد أن الضيق المالى الذى كان يحل بالتاج فى فترات مختلفة ، كان يدفعه أحياناً إلى تقليد الأحرار زمام الأمور . ذلك أن قواد الجيش كانوا يتدخلون مطالبين الملك - وسيفهم مشهورة - بدفع مرتبات جندهم الضئيلة بفرض الضرائب على أملاك الكنيسة الواسعة .

محاربة الكنيسة
الأسبانية
لمبادئ الحرية

ويوضح تاريخ أسبانيا السياسى بعد عودة فردينند سنة ١٨١٤ صعوبة إقامة حكومة من الأحرار ، وممارسة المبادئ الحرة فى هذا القطر الكاثولىكى . ولكن بُدِرت بنور الحرية ، والتأم « كورتس » فى قادس سنة ١٨١٢ خلال محنة حرب شبه الجزيرة ، ووُضع دستور ، وأمكن لبعض المبادئ الحرة أن تجد أنصاراً لها فى أقلية موفورة الذكاء والنشاط فى المدن الساحلية وفى الجيش . ومن ذلك الحين لم ينقص أسبانيا - حتى فى أقطم عهود الرجعية - ظهور رجال فيها يركبون المخاطر فى سبيل حكم البلاد حكماً دستورياً ، وإطلاق حرية الصحافة ، وإشاعة التسامح الدينى . بيد أنه طالما كانت الكنيسة تسيطر على التعليم فى أسبانيا ، وتبقي بقواتها المادية والاجتماعية الواسعة النطاق على الرأى العام ، فلم يكن ثمة فرصة ما لإقامة نظام نيابى سياسى سليم فيها . فحكم إيزابيل الثانية الطويل الأمد (١٨٣٣ - ١٨٦٨) كان فى الواقع سلسلة متصلة الحلقات من الدكتاتوريات الحرة ، حتى وإن اتخذ فى الظاهر قالباً دستورياً . وعلى الرغم من أن الجمهورية الأسبانية الأولى (١٨٧٣ - ١٨٧٤) كان يؤيدها إميليو كستلار Emilio Castelar ببلاغته الحماسية ، وحيثه المضطربة ، فقد أنهارت لقلّة أنصارها الجمهوريين .

الحاجة إلى التعليم
الشعبى

فتغير أداة الحكم السياسية ، لم يكن وحده بقادر على ما يظهر ، على حفر الأمة الأسبانية على إبداء ذلك الاهتمام القوى ، وتلك العناية المتواصلة ، بشئون السياسة القومية ، اللذين بلونهما يتعلمن تسيير الأنظمة الدستورية الحرة . فإنه عند عودة البوربون الأسبان إلى الحكم سنة ١٨٧٤ كُبيح جراح الشعب ، وألجم سلطانه بدستور مموه غرلر . وأدخِلت قاعدة الانتخاب العام

سنة ١٩١٠ ، ولكن نظراً إلى أن ٦٠ ٪ من الأهلين كانوا لا يزالون أميين ، نتيجة احتكار الكنيسة لشئون التعليم ، فإن منح البلاد دستوراً وحق الانتخاب العام ، لم يساعد على خلق حياة برلمانية صحيحة . فمن سكان يربون على العشرين مليوناً ، لم يكن فيهم - طبقاً لتقدير الملك ألفنصو الثالث عشر - سوى زهاء ستة آلاف أسباني يعنون بالشئون السياسية .

ديمقراطية
زائفة

ففي مثل هذه الظروف لم تكن الحياة البرلمانية في أسبانيا سوى تمويه جميل الصورة . فإن الحكومة القائمة كانت « تطليخ الانتخابات » ، وكان يُنتظر من الملك أن يعطى كل حزب بالدور حق حل الكورتس وإجراء انتخابات جديدة ، وبذلك يقرر اللون السياسي للمجلس القادم . وكانت نتيجة ذلك أن تعاقبت الوزارات على أسبانيا بسرعة محيرة ، كما أن نظاماً دورياً عقيماً كهذا وُضع لإشباع أهواء الساسة ، حرم الحكومة من كل سلطة لرسم سياسات جريئة واسعة المدى لنفع البلاد ، وشل يد البرلمان عن العمل في فترات الأزمات الحقيقية . ولم يكن العلاج الناجع لهذا الداء هو إنشاء دكتاتورية - كما حاول ألفنصو الثالث عشر بين سنتي ١٩٢٣ و ١٩٣٠ ، حينما عطل الدستور ، ونحوّل الجنرال بريمو دي ريفيرا سلطات مطلقة لحكم أسبانيا - وإنما يكون بتثقيف عقول الأمة وتربيتها تربية سياسية صالحة . ولكن هذه التجربة التي لم تجرّها قط الملكية الأسبانية ، حاولت الجمهورية الأسبانية الثانية (١٩٣١-١٩٣٧) أن تجربها على الورق على الأقل للمرة الأولى في تاريخ أسبانيا .

أثر العوامل
الطبيعية في
الأخلاق

والحق أن الأمة الأسبانية لم تكن قط أمة يسهل فتحها أو حكمها . فإن مزاج أبنائها المتقلب الثوري ، الذي لاحظته ليلئ المؤرخ الروماني القديم ، ما زال يغلب عليهم إلى يومنا هذا ، دون أن يطرأ عليه تغيير كبير . فإنه يبدو أن الشمس اللافتحة ، والرياح الجافة القاسية المحملة بالرمال ، تؤثر تأثيراً شديداً في نفوس الأسبان ، بحيث نرى الحركات العنيفة المعذبة للنفس البشرية ، كالشيوعية والاشتراكية والإكليريكية والنقاية^(١) تنبع وتزدهر في أعنف

أشكالها في تربة أسبانيا . وما يقال عن مناخ البلاد ، يمكن قوله أيضاً عن طبائع القوم . فالاعتدال والبعد عن التطرف مجهولان في تلك البلاد . وليس ثمة أى اتصال بين الأحداث التي تجري فيها . فالفتنة تعقب الهجمة ، والهجمة تعقب الفتنة من غير تلرج . وتقطع فورات فجائية من الاختلال والفوضى العنيفة فترات طويلة من الركود السياسي . .

إمال الأحرار
الأمبان حساب
الروح الإقليمية

ولكن إذا كانت العناية برخاء الأمة ما تزال ضعيفة ، فإن شعور الاستقلال الشخصي مكين في النفوس ، والتعلق بالحرريات المحلية يكاد يبلغ الذروة . وإنها لمحة للحركة الحرة الأسبانية في القرن التاسع عشر ، أنها نظراً لتأثرها بأحداث فرنسا ، لم تمر هذه الروح الإقليمية القوية اهتماماً - هذه الروح التي هي خصيصة من أقوى خصائص الخلق الأسباني ، والتي هي قوية بنوع خاص في أهل الباسك الخاضعين للإكليروس ، والمؤيدين للحكم المطلق ، والذين تغلب عليهم إلى اليوم أحوال العصور الوسيطة . وهي أيضاً قوية في القاطنين المتطرفين في الراديكالية والمرطقة . ولقد حاول فردينند السابع عبثاً أن يمحو استقلالهم الذاتي بسلسلة من المراسيم صدرت بين سنتي ١٨٢٨ و ١٨٣٣ ، ولكن هذه المشكلة لم تكن لتحل بمثل هذه السهولة . إذ كان التمرد يتلو التمرد ، والفتنة تعقب الفتنة - في عام ١٨٤٤ ، وعام ١٨٦٣ ، وعام ١٨٧٠ ، وعام ١٨٧٤ - تذكّر الحكومة بميلريد بشأن هؤلاء الخصوم العنيدين الشديدي المراس ، القاطنين بساحل أسبانيا الشرق ، الذين لم يكونوا يخفون بالنفس والمتاع ، كما كان يحفل أسيادهم القشتاليون . ولهذا تعلن على أسبانيا سحق قطلونيا ، كما تعلن على إنجلترا سحق لإرلندا الكاثوليكية . وبعد ألفنصر الثالث عشر والجمهورية الأسبانية الثانية أنفسهما مرغمين على الاعتراف بمطالبهم .

أما الروح الإقليمية لأهل الباسك - وهم شعب أقل عدداً وأضعف قوة من القطلانيين ، يسكن منحدرات البرانس - فقد برزت إلى الوجود وصارت قوة يحسب حسابها لارتباطها بدعوى دون كارلوس وسلالته بأنهم

يمثلون الفرع الشرعى لبيت البوربون الأسباني . فإن الحرب ^(١) التى قامت بين دون كارلوس وبنت أخيه إيزابلا التى اعتلت العرش عند وفاة أبيها فريدنند السابع سنة ١٨٣٣ ، ثم الحرب الثانية ^(٢) التى قامت بين سلالتي الفريقين ، كانت تريد هما اضطراباً عداوة الباسكيين للقشتاليين . فكما أبدت العشائر الإسكتلندية قضية سلالة جيمس الثانى ، كذلك تألف معظم أشياع دون كارلوس وسلالته من الأنصار الذين كانوا يمثلون المبادئ الإكليريكية والأوتوقراطية والرجعية فى ذلك الشعب البدائي الباسل الذى يظن البعض أن لغته هى اللغة الأصلية للجنس الذى يقطن شبه الجزيرة .

٣ - موازنات فى التاريخ الأسباني

وقد لعبت أسبانيا منذ صلح أترخت سنة ١٧١٣ دوراً ثانوياً فى شئون أوروبا ، بعد أن كانت فى بعض عهودها واسطة العقد فى أحداث تلك القارة ، ومهدداً لبعض من فحول السياسة وأعلام البيان ، وحصناً منيعاً للمبادئ الدينية ، وكعبة يُحجُّ إليها ، ومنهلاً علمياً ترتشف منه حضارة العرب ، وقصبة متألفة البهاء ذات سؤدد ومجد لإمبراطورية قوية شائعة . فإن البلاد التى أنجبت تراجان وهادريان ومرقس أوريليوس ويوديسيوس ، الذين حكموا الإمبراطورية الرومانية ، وكونتليان وسينكا ومرتيال ولوكان وجيوفينال الذين زادوا كنوز الأدب الرومانى غنى وسناء - لم تكن تلك البلاد لإزالة نائية من إمارات الإمبراطورية الرومانية ، بل كانت قرية من مركز أعمالها وقلب ثقافتها . بل إن أهمية أسبانيا كانت أعظم حتى من هذا خلال عصور التدين والإيمان ، حينما كانت مبادئ الكنيسة الكاثوليكية فى البوقة ، وهيكل القديس جيمس الـكَمْبَسُتِلَى يعد بين أقدم أقداس المسيحية ، ثم إيان ذلك التبادل المستمر الطويل بين الحضارتين اللاتينية والعربية - وهو التبادل الذى

(١) من سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٣٩ .

(٢) ١٨٧٢ - ١٨٧٨ .

انتهى عصره بفتح المسيحيين غرناطة ، ففي جميع هذه العصور . كان تأثير أسبانيا عظيماً متغلغلاً واسع المدى ، سواء بصفحتها ركناً أساسياً من أركان الكاثوليكية ، أو الوسيط الذي انتشرت عن طريقه فلسفة أرسططاليس والفكر العربي في أمصار الغرب .

أهمية أسبانيا في المصور الوسطى جنوب فرنسا ، وابن رشد صاحب المذهب الفلسفي لوحدة الكون . وعندما هددت أمواج البروتستانتية المتلاطمة الكنيسة الكاثوليكية بالفرق ، أمر أغناطيوس لويولا «فراجعت الأمواج» ، وكانت أسبانيا دعامة الحركة العظيمة التي توصف بالحركة المضادة للإصلاح . فلم يكن ثمة صقع لم يصل إليه نفوذها ، وإن يراعى سرفنتس وكلدريون ، وريشتي فلاسكويز ومورالو لتلقى أنوار البهاء وأضواء المجد ، على أمة كانت تبعث في النفوس مدى قرن ونيف ، الرهبة والإعجاب بثروتها وصلواتها وأطماعها الكبيرة المترامية .

تناقص نفوذ
أسبانيا

أما الآن فقد ذهب هذا المجد المتألق ، وانقضت تلك الأبهة الإمبراطورية . ففي مدة حكم بيت بوربون صارت أسبانيا إما دولة تابعة لفرنسا ، أو زميلة لها في المزاومة الاستعمارية الطويلة التي نشبت بينهما وبين إنجلترا . وخرجت أسبانيا من حروب الثورة الفرنسية ، وقد برح بها الوهن حتى لم يعد في مقدورها أن تُبقي في يدها ، أو تستعيد إمبراطوريتها الأمريكية التي أخذت تبعد في سرعة عظيمة من مراسيها القديمة . كما أخذ تضارب الفلسفات القديمة والحديثة يمزق أسبانيا ، حتى صار لا يهدأ لها بال ، أو يستقر لها حال . وكذلك أنزل نفوذها في أوروبا إلى الحضيض سلالة متعاقبة من الملوك الحقيرين : فرديناند السابع ، وكريستينا ، وإليزابيل .

إن تدهور أسبانيا ما فتى موضوعاً مطروحاً ، حتى عند الباحثين والمؤرخين الأسبان أنفسهم . فإنهم حينما يتأملون في الممتلكات الشاسعة التي كانت في قبضة التاج الأسباني ، والتي فقدتها الأسبان الآن ، سواء من جراء التكاسل والحمول ، أو نتيجة الزهو والصلف ، أو العجز وقلة الكفاية المقرونين بروح

التفريط والإهمال - هذه الخلال التي تكون شطراً من الخلق الأسباني المتأصل - ثم يحيلون الفكر في الإمبراطورية الفرنسية الجديدة في إفريقية ، أو في الممتلكات الترامية الأطراف التي يملكها الجنس الأنجلوسكسوني ، فإن أذهانهم تتجه إلى الاستنتاج بأن ذلك يرجع إلى تدهور لا يُدرك كنهه في النشاط والكفاية القومية . ومع ذلك فليس هناك في الواقع قرائن تثبت هذا الرأي . وكل ما في الأمر أنه حدث تغير في توجيه الأمة ، أكثر من حدوث انحلال في خلقها . والمتضلعون في تاريخ أسبانيا يرون أن الأسباني في جميع العصور لم يغيره تغير ، أو يتطرق إلى نفسه وهن ، فإن مؤلفاً عصرياً اسمه أزورين Asorin بعد أن استعرض أحداث الاستعمار الأسباني لأمريكا - كما تبسط اليوم - لا يجد أي داع للقلق والتشاؤم ، فهو يقول :

تفاؤل بمض
الأسبان

« ليس هنالك أي تدهور ، بل إن عالماً جديداً اكتُشِف حديثاً وأنجب عشرين أمة . وكسحت لغة واحدة أمامها العديد من اللغات المحلية الأصلية . وشُيِّدت مشروعات للرى هائلة ، وخطَّت الطرق ، وأزيلت الغابات ، وقسمت الأراضي وزرعت ، وتسلفت الجبال الشاهقة ، ومُدَّت الجسور فوق الأنهر العريضة ، وأنشئت المجالس المحلية في آلاف المدن والبنادر ، وتغترف جموع غفيرة مناهل العلوم ، وتدب الحياة في الصناعة والتجارة والملاحة والزراعة ورعاية الماشية في جانب جديد من المعمورة ، تحمل إلى شعوبه ودوله الثروة والغنى . فن الذي قام بهذا العمل الضخم الجبار ؟ أهو فرنسا وإنجلترا وإيطاليا والنمسا وروسيا منحلة كلها معاً في هذا المجهود القوي المارد ؟ كلا . إنها أمة واحدة ، وقد قامت به وحدها ، وهذه الأمة هي الأمة الأسبانية . وما عدد ذلك الشعب الذي أسس هذه الأقطار الحديثة العظيمة ؟ إنه ينبغي ألا تقصر نظرنا على أولئك الذين يسكنون أرض شبه الجزيرة فقط . فأسبانيا لا تألف منهم وحدهم ، بل يجب أن يضاف إليهم العشرون أمة التي تقطن أمريكا » (١) .

(١) Asorin: An Hour of Spain . ولكن أغفل هذا الكاتب الملقق الموهوب شأن

رؤوس الأموال البريطانية والمهاجرين الألمان .

ومنذ الحرب العظمى ، أخذت أسبانيا تدنو من هذه الأمم : وليداتها .
 ومع أنه لا يلور كلام بصدد عودة الإمبراطورية الأسبانية القديمة — فشعوب
 أمريكا الجنوبية لن تتخلى عن استقلالها — إلا أنه حينما كانت عصبة الأمم
 تجتمع كل خريف في جنيف ، كانت تتاح فرصة بديعة لتجدد المودة
 الودية بين أعضاء الأمة الأسبانية المبعثرين ، وتقف أسبانيا أمام العوامل
 الغربية المعقدة التي تسود أوروبا الآن ، في صف واحد مع وليداتها الأمريكيات
 يشددن أزر بعضهن بعضاً .

كتب يمكن استشارتها

- Cambridge Modern History, Vol. X. Chapters 7-10 1907.
 H.V. Temperley : Canning. 1926.
 W.B. Stevenson : Twenty Years Residence in South America. 1825.
 Lord Dundonald : Narratives of Services in Chile, Peru, and Brazil.
 2 vols. 1859.
 J.W. Fortescue : Dundonald. 1895.
 M.A.S. Hume : Modern Spain. 1923.
 Bertrand and Petric : The History of Spain. 1934.
 Butler Clarke : Modern Spain. 1815-1898.
 Sir C.R. Markham : History of Peru. 1880.
 V. Cherbuliez : L'Espagne politique. 1865-73. 1874.
 Y. Guyot : L'Evolution politique et sociale de l'Espagne. 1899.
 L. Teste : L'Espagne contemporaine 1872.

الفصل السادس عشر

حرب القرم

عداوة إنجلترا لروسيا . هزيمة روسيا تهيئ السبيل لفوز القوية الإيطالية .
مسألة الأماكن المقدسة . لورد ستراتفورد دي ريكلف . نشوب الحرب .
سهاية نابليون الثالث . سير الحرب . الإمبراطور الفرنسي يقرر عقد الصلح .
معاهدة باريس . كافور وفلورنس نيتنجيل .

١ - أسباب الحرب

ما حل منتصف القرن التاسع عشر حتى لقيت قضية القومية ، التي
قسم لها أن تكسب أكبر انتصاراتها في معاهدات الصلح التي أبرمت في
سنى ١٩١٩ و ١٩٢٠ - لقيت صلعة عنيفة خيل يومئذ أنه من السير
التغلب عليها . فأى نبى هذا الذى كان يستطيع فى ذلك الحين أن يتكهن
بأنه فى خلال عقدين من الزمان ستتحد ألمانيا الى وصفها قلم تاكرى فى
روايته Vanity Fair - ستتحد تحت تاج ملك بروسيا، وتتحد إيطاليا - الى
رأيناها فى عهد يو نونو- تحت تاج ملك سردينيا ، ونهض هنغاريا من كبوة
فلما البالغ ، وتُمنَح مكانة تضارع مقام النمساويين الألمان فى الإمبراطورية
النمساوية ؟ فقد كان بحسب المرء ، لقول باستحالة حدوث مثل هذه التطورات ،
أن يشير الى البغضاء والعداوة وروح الحسد والخاف والاطماع التي سممت
مدى قرون عديدة حياة الأمتين الألمانية والإيطالية السياسية ، وأن يشير
الى إخفاق الثورات التي عمت أرجاء أوروبا منذ عهد قريب ، وإلى ماهية
العقبات التي وقفت فى سبيل نجاح قضية القومية ، والتي بدت الآن أضخم
وأخطر مما كانت عليه فى أى عصر سابق ، ولاحت كحائل منيع دون فوز
أية حركة مماثلة فى المستقبل .

وكانت روسيا أعظم هذه العقبات . فإن رقعة الإمبراطورية الروسية الشاسعة ، ومدى تسليحها الضخم ، وامتداد سيطرتها على الهضبة الآسيوية الذى بدا - برغم بطئه - كأن أى عائق لا يمكنه الوقوف فى وجهه ، ونياتها المزعومة بشأن تملك القسطنطينية : كل هذه الأمور أحدثت ، وخاصة فى إنجلترا ذات المصالح الكبيرة فى الشرق ، شعوراً مبهماً - ولكنه شعور متأصل - من الخوف المزوج بيفض شديد لهذا النظام السياسى برمته الذى كانت روسيا أقوى عمده وأركانها فى أوروبا . ولم يكن معاصرو بلمرسن وثاركرى من الإنجليز يحسون بأى شعور من الإعجاب والاحترام لروسيا يخفف من الوقع الشديد السوء الذى كان يستفزه اسمها فى نفوسهم . فإن عبقرية الشعب الروسى فى الآداب والفنون ، وفى العلوم والموسيقى والرقص ، لم تكن قد تكشفت بعدُ للعالم ، وتصبح جزءاً من الثروة المشتركة للحضارة الأوروبية . كذلك لم يكن قد كُشِف النقاب بعدُ عما يتحلى به الفلاح الروسى من مناقب حميدة .

نقولا الأول

وكل ما كان معروفاً وقتئذ فى إنجلترا عن تلك البلاد أن نقولا الأول (١٨٢٥ - ١٨٥٥) الذى نعتته تنيسُن الشاعرة الإنجليزية « بالمسكوفى البارد الطباع » ، « والممجى الشرقى الضخم الجثة » ، والذى خلف إسكندر الأول سنة ١٨٢٥ ، لم يكن متحلياً بأية سجية من السجايا الحرة التى اتصف بها سلفه . بل كان يُخضع رعاياه تحت نظام قاسٍ من التجسس والظفران . فقد سحق نقولا دون شفقة البولنديين الثائرين فى وجهه ، وعاون النمسا سنة ١٨٤٨ على إخضاع هنغاريا ، ثم ساعدها فى المتر على إذلال منافستها بروسيا . وكانت حكومته - التى وصفها دى تكفيل الوزير والمؤرخ الفرنسى بأنها « قطب الرعى للاستبداد فى العالم » - كانت هذه الحكومة عقبة كأداء فى سبيل تعديل المعاهدات العاشمة ، وحائلاً قاهراً فى طريق تحرير الأمم ، ومانعاً قوياً لتجدد تلك الآمال الجياشة الكريمة التى لقيت مصرعها فى سنة ١٨٤٨ . ولذا فإنه حينما رفضت تركيا - التى كانت قد أدخلت بعض الإصلاحات الدستورية فى نظمها الحكومية - تسليم قسوط

وغيره من اللاجئين المنفارين الذين لا ذوا ببلادها - تسليمهم ، إلى النمسا أو إلى روسيا لصب جام نقيمتها عليهم ، غدا سفير تركيا لدى البلاط الإنجليزي معبود الجماهير الإنجليزية .

تيمة السبيل
لفوز القوية
الإيطالية

وقد نجم عن هذه العقيلة الشديدة العداوة لروسيا التي اجتاحت الأمة البريطانية في ذاك الحين ، أن تشبت في الشرق حرب لم يتعمد أحد إشعلها . ووقفت النمسا إبانها موقف حياد مشرب بالبغضاء إزاء صديقتها السابقة ، « فأدهشت العالم بمحودها ونكرانها للجميل » - حسب قول أحد سواسها . غير أنها بوقوفها هذا الموقف ، جعلت حرب القرم تسلى إلى قضية الحرية خلمة جليلة القدر . فقد حطمت تلك الحرب العرى الوثيقة التي كانت تربط هاتين الدولتين الأوتقراطيتين بعضهما ببعض . وبذلك خلقت الأحوال الملائمة التي أدت فيما بعد إلى تحرير الأمتين الألمانية والإيطالية . هذه هي أهم النتائج السياسية لعراك نشب دون أن تكون له ضرورة ، ووجه من غير تبصر أو بعد نظر . ونظراً لما اتبع في تلك الحرب من الأساليب العتيقة ، وظهر في تسيرها من الإهمال وسوء الإدارة الوخيم العقبي ، فأحرى بها أن تعد حرباً من حروب المصور الوسطى ، من أن تكون إحدى حروب العصر الحديث .

سألة الأماكن
المقدسة

قامت حرب القرم نتيجة نزاع شَجَرَ بين رهبان الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية في أبيهم أحن بحراسة بعض الأماكن المقدسة المسيحية ببيت المقدس . وكان النزاع في ذاته تافهاً ، ولكنه استمد أهميته من الحقيقة بأن قيصر روسيا كان يعاضد تعصباً قوياً المطالب الأرثوذكسية ، في حين أن نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيين كان يؤيد ادعاءات الكنيسة الكاثوليكية . وانتهى هذا النزاع المتعب المثير للخواطر ، بوضع الحكومة التركية سنة ١٨٥٢ تسوية له أثار حن القيصر الشديد . فأمر بتعبئة جيش روسي وإنفاذه إلى نهر بروث . وأوفد بعثة متخطرة إلى الإستانة برئاسة الأمير منشيكوف Mereschikoff لتطلب ، لا تقديم ترضية عاجلة فيها يتعلق ببيت المقدس فحسب ، بل أيضاً إبرام معاهدة بين الدولتين تفوق في مدى إرهاقها

للباب العالى جميع المطالب الروسية السابقة ، بحيث تضمن للقيصر فى الواقع حق حماية جميع الرعايا الأرثوذكس للباب العالى . غير أن السلطان قرروا رفض هذه المطالب ، برغم أن ستراتفورد دى ردكلف « Stratford de Redcliffe » السفير البريطانى فى الإستانة نصحه بقبولها .

وقد زالت الآن الظروف التى يمكن فيها لسفير أن يورط بلاده فى الدخول فى حرب . فإن التليفون والتلغراف يجعلانه أداة خاضعة لمجلس وزرائها ومنفذاً لسياسته . ولكن لما كان التلغراف عام ١٨٥٣ لم يقطع بعد مرحلة كبيرة من التقدم — إذ لم يمتد فى شرق أوروبا إلى أبعد من فينا — فإن سفيراً قوياً فى قطر قصى ، ذا آراء شخصية قوية واضحة تحت رئاسة رئيس وزراء ووزير خارجية ضعيفين ، كان يستطيع أن يتخذ خطة معينة ، دون أن يرجع إلى حكومته لتليل تصديقها عليها ، ولا سيما إذا كانت هناك أسباب تجعله يعتقد أن آراءه الخاصة تتفق والرأى العام فى وطنه ، وبذلك يلزم بلاده بالوقوف موقفاً معيناً . وكان يُظن أن هذا كان موقف ستراتفورد دى ردكلف . فإن آراءه فى الشؤون الشرقية التى بناها على خبرة طويلة كانت غاية فى الوضوح ، وكان معجباً بالترك ، سبب الظن بالقيصر . ولعله حسب أيضاً أن الوقت قد حان لأن يتزل هزيمة دبلوماسية أو حرية قاصمة بروسيا التى كان بعدها علمو إنجلترا الأكبر ونخصمها الأشد .

فإنه مع علمه بأن اللورد أبردين « Lord Aberdeen » رئيس الوزارة الإنجليزية ، وكلا رندن وزير خارجيته كانا لا يرغبان فى الحرب ، فإنه كان يعرف أن بلمرستن أحب الوزراء إلى قلب الشعب الإنجليزى كان يتزع إلى سياسة التلويح بالقوة وركوب الأخطار ، وأن رجل الشارع فى إنجلترا كان يفسر لروسيا بغضاً عميقاً أعمى . فلهذه الأسباب « ظن » حيناً طويلاً من الزمان أن ستراتفورد دى ردكلف هو المضمحل الحقيقى لحرب القرم . ولكن رسائل هذا السفير المشهور لا تؤيد هذا الظن ، بل تشير إلى أنه كان يحض على الاعتدال .

ستراتفورد
دى ردكلف

غير أن رسائل السفراء لا تروى قط القصة كلها . فإن التركي اللبيب كان يعرف جيداً أن له صديقاً يمكنه الاعتماد عليه في شخص « الألتشي »^(١) ، العظيم ، وأن البوارج البريطانية واقفة على مسافة غير بعيدة من عاصمة بلاده . ولذا فإن مجرد وجود هذا الدبلوماسي القدير المغامر السريع التأثير في الأستانة كان كافياً - حتى بدون رسائله الرسمية - لإحباط كل اقتراح من الاقتراحات المتتالية التي قُدمت لفض الخلاف . . فإنه صلب تصميم الأتراك على عدم الخنوع أمام خصمهم ، وأحبط مذكرة فينا التي قدمتها لإنجلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا في ١٢ ديسمبر سنة ١٨٥٣ إلى روسيا تحضها على التخلي عن بعض مطالبها المتطرفة . وكانت الاقتراحات التي حوتها هذه المذكرة تحسم النزاع كله ، وترضى الحكومتين الإنجليزية والفرنسية ، إذا خلصت النيات . أضف إلى ذلك أن قيصر روسيا ، بل حتى السفير التركي لدى البلاط النمساوي ، أعربا عن رضاها بأحكامها .

٢ - سير الحرب ونتائجها

ولذا فإنه عندما أعلنت تركيا الحرب على روسيا في ٤ أكتوبر سنة ١٨٥٣ ، وبدأت بإطلاق النار على الجنود الروس الذين كانوا قد عبروا نهر بروث ، واحتلوا مقاطعتي الأفلاق والبغدان ، أجاب الروس على هذا العمل بإغراق الأسطول التركي على مقربة من سينوب . فاجتاحت بريطانيا كلها موجة شديدة من الحمق على هذه الضربة الأثيمة . إذ كانت سياسة القيصر موضع سوء ظن عميق حتى لدى الجناح الميراث في الوزارة البريطانية . فقد وصف القيصر تركيا في حديث جرى له مع أبردين سنة ١٨٤٤ « برجل أوروبا المريض » ، وبسط قبيل إعلان حرب القرم للرهاملتين سيمور Hamilton و Scymour السفير البريطاني في بطرسبرج ، الفكرة بحجب اتحاد إنجلترا

(١) الألتشي كلمة تركية معناها السفير .

وروسيا على اقتسام تركيا فيما بينهما . وبعد تردد كثير ، وبعد انقضاء فترة سعت فيها الدبلوماسية في فيينا سعياً حثيثاً إلى صون السلام ، قررت إنجلترا إعلان الحرب في ٢٧ مارس سنة ١٨٥٤ .

سياسة
نابليون الثالث

ووقفت فرنسا في هذه الحرب في صف إنجلترا ، تشد أزر تركيا . ولعله يكون من الإجحاف لنابليون الثالث القول بأن الباعث الأكبر الذي حفزه على دخول المعركة كان المجد الحربي . فقد كانت رعيته تصبو إلى السلام ، ووُعِدَت بالعمل على استتباب أسبابه . فقد قيل لهم : إن «الإمبراطورية لا تتوق إلى شيء أكثر مما تتوق إلى السلم ، فنحن نملك أراضي شاسعة غير معمورة نروم إصلاحها وزرعها ، وطرقاً نرغب في شقها ، وموانئ نرغب في تعميقها ، وقنوات نرغب في إكمال حفرها ، وأنهرأ نريد أن نجعلها صالحة للملاحة ، وسككاً حديدية نريد ربطها بعضها ببعض . وعلى الساحل المقابل لمارسيليا نملك أراضي مترامية نرغب في إدماجها بفرنسا » . وكل هذه الأمور تتطلب صون السلام .

فع أن سياسة نابليون الخارجية كانت كثيرة التقلب ، نزاعة إلى المجد والتألق ، إلا أنها كانت تقوم على قواعد قليلة ثابتة لا تتغير . وكانت إحدى هذه القواعد رغبته في تعديل معاهدات عام ١٨١٥ . وكان يؤثر أن يتم ذلك على يد مؤتمر أوربي ، إن أمكن . وكانت ثمة قاعدة أخرى هي : أن يقدم بعض الغوث للإيطاليين في سبيل تحقيق أمنيتهم القومية ، وثالثة هي : تجنب الأخطاء الجلية التي أدت إلى سقوط الإمبراطورية الفرنسية الأولى . ولما كانت سيادة إنجلترا على البحار هي التي أسقطت الم ، فقد وطن ابن الأخ عزمه على عقد تحالف مع إنجلترا ، حتى ولو جر ذلك عليه اشتباكه في حرب مع روسيا . فلم يكن الروس في عينه بأشد بطشاً من غيرهم ، وكانوا محل مقت الإكليروس الفرنسي ، لنظرة لهم كأمة منشقة عن الإيمان الصحيح ، وكانوا محل عداء الجمهوريين الفرنسيين لنظم الحكم الاستبدادية القائمة في بلادهم ، وكان الإمبراطور نفسه حانقاً

على القيصر لصلفه ووقاحته في عدم مخاطبته إياه باللقب اللاتق المألوف بين الأباطرة ، وهو يا «أخي» - الأمر الذي أثار ألم نابليون وغيظه .

وأعلنت إنجلترا وفرنسا «نقطاً أربع» تبين أهدافها من دخول الحرب . النقط الأربع
وكانت هذه النقط تنطوي على فوائد جمة لإنجلترا ، فإنها كانت تحرم روسيا بعد هزيمتها من نفوذها في البلقان ، وتحرم عليها إبقاء سفن حربية في البحر الأسود . وكان فيها أيضاً نفع جزيل للنمسا ، إذ أن مقاطعتي الأفلاق والبلغدان ونهر الدانوب ستحرر من قبضة روسيا . أما فرنسا فلم تكن ستجني إلا فوائد ضئيلة القيمة ، مع أنها هي التي ستقدم الجانب الأكبر من القوات المقاتلة . ومع هذا رأى نابليون أن مغامرة يتحد فيها مع البريطانيين الأشداء ستساعده على تثبيت دعائم عرشه الجديد المزروع الأركان .

ووقع الاختيار على سياستبول ، الفرضة البحرية العظمى للإمبراطورية الروسية في البحر الأسود ، لتكون الهدف الحربي الرئيسي لحملة كان أكبر ما ترى إليه هو تدمير قوات العدو البحرية . ولهذا فإنه بعد أن جلا الروس عن مقاطعتي الأفلاق والبلغدان ، وانتهى بذلك القتال في وادي الدانوب ، أبحرت قوة ضخمة متنوعة من الإنجليز والفرنسيين والترك - وكان عدد الإنجليز يبلغ قرابة ٢٦ ألف جندي ، والفرنسيين أكثر قليلاً من هذا العدد - أبحرت هذه القوات من الفرضة البلغارية وارنا في منتصف سبتمبر سنة ١٨٥٤ قاصدة الميناء الروسي . سير الحرب

والحق أنها كانت مغامرة جنونية . فإنه لما كان الترك قد طردوا الروس من وادي الدانوب من غير معونة أجنبية ، وذهب بذلك كل خطر عليهم يأتي من تقدم الروس صوب الأستانة ، فلم يكن ثمة أى سبب معقول لأن يضيع الحلفاء جندياً واحداً ، أو يبددوا جنياً واحداً على حصار مدينة سياستبول . فإنه حتى إذا كتب الفوز للحلفاء وفتحوها ، لم يكن ذلك ليؤثر تأثيراً محسوساً في موارد روسيا الضخمة . أضف إلى هذا أن هدف الحملة كان أحمق . وبما زاد الطين بلة ، أن طرق الوصول إلى تلك الفرضة كانت مروعة .

فقد تقدم الجيش الإنجليزي إلى ساحة الوغى دون أن تكون له معدات وافية للنقل ، أو تتوافر لديه وسائل العناية بالمرضى . وكان الجنود يرتدون ملابس لا تصلح إلا للاستعراضات الحربية . بل إنه لم يخطر في بال حكومة أعظم قطر هندسى فى العالم أن تسهل نقل العتاد من ثغر بلاكلافا إلى ساحة القتال بأن تمدّ سكة حديد ضيقة عبر الأميال الخمسة التى تفصل بينهما .

ولم يحاول الروس وقف إززال جنود أعدائهم . وكان الاشتباك الأول بين الفريقين فى ألما Alma نصراً للحلفاء . ولو أنهم واصلوا الهجوم — كما أشار اللورد رَجْلان Reglan القائد العام لجيش إنجلترا — فإن هناك أسباباً تدعو إلى الاعتقاد بأن نصف سياستبول الشمالى على الأقل ، ربما كان وقع فى أيديهم . ولكن قيادة الحلفاء اتخذت هذا القرار المفجع وهو ، سحب الجند ، والإبحار بهم نحو الجنوب ، حيث أماكن التزول أكثر ملائمة ، ثم تجديد الهجوم من هناك . غير أن الوقت الثمين الذى أضاعه المهاجمون على هذا النحو ، انتزع به المدافعون أكبر انتفاع . فزيدت تحصينات سياستبول مناعة فوق مناعتها ، ووكّثها خطر الأعداء عبقرية المهندس الروسى التابعة تودلين Todleben ، وعواصف شتاء روسى وزمهرير برده القارس ، واستمرار وصول الأمداد إلى الجنود المحاصرين ، نظراً لعدم تطويق المهاجمين للمدينة تطويقاً تاماً . وأخيراً ، ولكن بعد أن حصلت الكولولا والصقيع أرواح عدد كبير من الجند فى جميع الجيوش المحاربة — هجم الفرنسيون هجمة صادقة على حصن ملاكوف Malakoff ، واقتحموه فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٥٥ ، ثم سقطت سياستبول فى اليوم التالى . بيد أن الجيوش الظافرة لم تستول إلا على أنقاض وركام متأججة كانت قبلُ مدينة عامرة .

ورأى نابليون الثالث
يقرر منه
الصلح
ورأى نابليون عقب هذا النصر الباهر الذى أحرزه جنوده أن يدعو إلى الصلح . ولكن بلمرستن المنلغ القوى الشكيمة كان قد أصبح رئيس الوزارة البريطانية ، وكانت روح الحرب قد هيّبت من رقادها ، وعمرت قلوب مواطنيه . فلم يكونوا يقينون بالانتصارات التافهة التى نالها الجيش البريطانى

في بلاكلافا Balaklava وإنكرمان Inkerman وريدان Redan د فحضر بلرمستن على شن حرب لا هوادة فيها ضد الروس . ولكن سهماً أريباً رماء الإمبراطور من جعبته أصاب المرمى ، وأطاح بحماقة البريطانيين ، وجلب السلام إلى ربوع أوربا . فقد أوضح نابليون أنه إذا كان لامنلوحه من مواصلة القتال ، فإنه يجب أن تشمل أهداف الحرب الكبرى ، من بين ماتشملة ، تحرير البولنديين . وأحدث هذا التهديد الأهوج أثره . فإنه أرجع الساسة الإنجليز على الفور عن حماقتهم ، وأعادهم إلى محجة التعقل والرأى السليم . فقد كان تحرير البولنديين بغيضاً إلى لندن ، ممقوتاً أشد مقت لدى برلين ، ويحمل في طياته الأخطار والنذر لبطرسبرج .

وقد نال الحلفاء في معاهدة باريس التي وقعت في ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ جميع الأهداف التي أعلنوا في بادئ الحرب أنهم امتشقوا السيف من أجلها . فإن مقاطعتي الأفلاق والبغدان أعيدتا إلى مركزهما السابق ، وجُعلت الملاحة حرة في نهر الدانوب ، وحُرِّم على روسيا إبقاء سفن حربية في البحر الأسود ، وتعهد السلطان بتنفيذ وعود الإصلاحات التي كان قد وعد بها رعاياه المسيحيين ، على ألا تتدخل الدول العظمى في شئون دولته الداخلية ، وضمنت الدول العظمى لـ صربيا — مكافأة لها على حيدتها خلال الحرب — جميع الحقوق والامتيازات الممنوحة لها ، مع بقائها خاضعة لسيادة السلطان . كما أكرهت روسيا — كعلامة على فوز الحلفاء — على أن ترجع إلى الترك قارص ، التي كانت قد استولت عليها عنوة ، وأن تنازل أيضاً عن شطر من إقليم بسارايا ، يضم إلى مقاطعة البغدان .

هذه هي الشروط — وأكثرها كان ذا قيمة وقتية وخفقط — التي تمكن الحلفاء من إرغام حكومة القيصر الجديد : إسكندر الثاني على الموافقة عليها . ولكن مع أن الباب العالي منح أجلاً جديداً للبقاء على قيد الحياة ، فقد عجز الظافرون عن أن يوقفوا اطراد تقدم حرية المسيحيين في البلقان ، أو تُجدد قوة روسيا البحرية في البحر الأسود . ووضع نابليون إمارة رومانيا

الجديدة تحت رعايته ، منتهزاً فرصة انشغال إنجلترا بقمع ثورة نشبت في الهند سنة ١٨٥٧ ، وعجزها عن الاحتجاج . أما بنود المعاهدة المتعلقة بالبحر الأسود فقد نبذتها روسيا سنة ١٨٧٠ . واضطرت أوروبا كلها إلى الإذعان لهذا العمل غير المشروع - ولكنه العمل الطبيعي - لعدم قدرتها على منعه .

بيد أن روسيا كانت يومئذ ، وظلت سنين عديدة بعد ذلك ، كمارد جبار هددت كيانه الحرب ، وشلت قواه الجروح المروعة التي أثخن بها أثناء سير جنده الطويل المر المذاق في وحول الشتاء وزمهريره القارس ، وهم يخفون لنجدة سباسبول : حينما كانت العربات التي تجرها الثيران تغوص في التربة الرخوة المغطاة بالثلوج ، فهلك فيها مئات الألوف من الفلاحين الروس السذج الطيبى القلوب ، وهم يجدون في السير إلى ساحة الوغى .

كافور

وكان بين الجالسين حول نضد الصلح في مؤتمر باريس رجل بدين ذو سواف طالعة على صدغيه ، يضع نظارات على عينيه ، حلو الحديث ، فصيح اللسان ، قوى العارضة ، عليم بجزئيات المشاكل التي يتحدث فيها وشئى تفاصيلها : هو الكونت كافور الذى صار رئيس وزارة بيدمت سنة ١٨٥٢ . ولقد استطاع هذا السياسى الكبير البعيد النظر ، بعد خوضه معركة من أعنف المعارك البرلمانية قامر فيها بكل ما يملك - كما يفعل فى الغالب أقطاب السياسة لكى يفوزوا بأكثر الأرباح - استطاع هذا السياسى أن يحمل برلمان بلاده فى يناير سنة ١٨٥٥ على الموافق على إنفاذ فرقة سردينية إلى القرم . والتوفيق يلازم الحسور عادة . وهذا ما تم لكافور بدفعه ثمناً تافهاً ، هو خسارة ثمانية وعشرين قتيلاً فقدتهم كتيبة بلاده فى معركة تشرنايا Tchernaya وإصابة عدة آلاف من رجالها بالكولرا - فإنه كسب الحق فى أن يرفع ظلامات إيطاليا أمام ممثلى أوروبا على مائدة الصلح عندما وضعت الحرب أوزارها .

فلورنس
نيتنجيل

ويضاهى عمله لإقداماً وجسارة وقوة عزيمة - ولكن فى مضمار آخر - عمل سيدة إنجليزية نشأت فى مهاد العز وبحبوة الحياة الناعمة الفكتورية . فقد

أشجنتها قصص الآلام المبرحة التي يعانها الجند الإنجليز في حرب القرم ،
 فهجرت وطنها ، وسافرت لتمرّض الجرحى . ورفعت بمثلها الحى هذا ، وأنموذجها
 الشخصى ، ونشاطها المتأجج إبان الحرب وبعدها ، مركز صناعة التمريض
 بين مواطناتها ، وحسّنت مستوى الصحة العامة . وبتأثيرها — ولعله كان
 أقوى من أى تأثير فردى آخر — ظفرت لنساء وطنها بحق الدخول فى مهن
 مفيدة جدية . والحق أن عمل فلورنس نيتنجيل Florence Nightingale
 الباهر ، وجرأتها الحارقة فى تحدى نقاليد عصرها البالية ، وانخراطها فى
 عملها الجدي لتخفيف الآلام البشرية ، هى إحدى المكافآت القليلة التى
 عوّضت عن التدمير والتخريب والتبديد التى أحدثتها حرب القرم .

كتب يمكن استشارتها

- P. Guedalla : Palmerston. 1926.
 Sir Edward Hamley : The War in the Crimea. 1891.
 A.W. Kinglake : The Invasion of the Crimea. 1877.
 Pierre de la Gorce : Histoire du Second Empire. 1908.
 Spencer Walpole : A History of England from the Conclusion of the
 Great War in 1815. 1890.
 Sir E.T. Cook : The Life of Florence Nightingale. 1925.
 W.R. Thayer : The Life and Times of Cavour. 1915.
 F.A. Simpson : Louis Napoléon and the Recovery of France. 1923.
 P. Guedalla : The Second Empire. 1932.
 S. Lane Poole : Life of Stratford Canning. 1888.
 English Historical Review, 1933. 1934.

الفصل السابع عشر

توحيد إيطاليا

حساب إنجلترا الخاطئ في الشرق الأدنى . إنجلترا وحركة البعث الإيطالية . دين كافور للمبادئ الحرة الإنكليزية . ارتقاء بيدمت المصرى . النمسا في إيطاليا . اجتماع بلمبير . الحرب الإيطالية عام ١٨٥٩ . هدنة فلافرنكا . الحركة الوطنية في وسط إيطاليا . ريكاسولي في تسكانيا . سلخ سافوي ونيس وضمهما إلى فرنسا . كافور وماقزيني . غاريبالدي في صقلية ونابلي . كافور وفكتور عمانوئيل يقصدان الجنوب . إخلاد غاريبالدي إلى الانزواء . الأطوار الختامية للحركة الوطنية الإيطالية : مسألة سيطرة البابا على روما . إقصاء النمسا عن إيطاليا .

١ - تقدم مملكة بيدمت

قامت مغامرة إنجلترا في أرض القرم على تقديرات خاطئة هي : خشية مبالغ فيها لا تستند إلى أساس صحيح من بطش روسيا في الساحات النائية عن قلب الإمبراطورية الروسية ، وعدم تقدير إنجلترا تقديراً صائباً لقدرة الشعوب المسيحية البدوية في البلقان على المحافظة على الاستقلال بشؤونها ، وأخيراً استمرار إعانتها ، برغم عبر الماضي المنصرم وعظاته الكثيرة ، بقدرة الترك على منع رعاياهم المسيحيين مزايا حكم عادل مستنير ، بإرشاد صالح من الدول الغربية . فإن هذه القواعد التي استمرت السياسة البريطانية في البلقان تتركز عليها ، إلى أن لفظتها مجرى الحوادث في العقدین التاسع والعاشر من القرن المنصرم ، كلفت بريطانيا خمسة وعشرين ألفاً من الأنفس في ساحات القرم ، وصنوفاً عديدة من الجزع والقلق وتبديد الجهود .

انجلترا تخطئ
الحساب في
الشرق الأدنى

بيد أن نفوذ إنجلترا استخدم استخداماً موفقاً قليل التكاليف في إيطاليا ،
 التي بعد فوزها بوحدة تحت حكم بيت سافوي أكبر أحداث التاريخ الأوربي
 التي تمت بعد حرب القرم . فإنه حينما كانت إيطاليا تنجز أدق مرحلة
 في تاريخها ، وحينما كانت القومية الإيطالية في حاجة قصوى إلى التشجيع ،
 تهددها المنازعات الداخلية والأخطار الخارجية ، كان كل وزير مفوض لإنجليزى
 لدى بلاط مملكة سردينيا يناصر قضية الحرية الإيطالية ويؤازرها . وأينما اجتمع
 الأحرار في إنجلترا - في الجامعات ، وفي الأندية ، وفي بيوت السراة والنبلاء ،
 وفي البرلمان - كان يسودهم روح أمل وثقاؤل بأن تقوّس تقويضاً كاملاً سلطة
 الإكليروس الكاثوليكي ، والحكم المطلق في إيطاليا ، هذا الحكم الغيظ إلى قلوب
 أمة بروتستانتية دستورية . وازدادت إنجلترا مقتناً وكرهاً لهما ، حينما أباط غلادستون
 Gladstone اللثام عن القضايع الوحشية المتعلقة بإجراءات القضاء والعدالة في مملكة
 نابلى . وأعظم من هذا أهمية أن بلمرسن رئيس الوزارة البريطانية من ١٨٥٩ إلى
 ١٨٦٥ ، واللورد جون رسل وزير الخارجية كانا شديدى الانتصار لقضية الحرية
 الإيطالية (بقدر ما كانت الملكة فكتوريا وقرينها الأمير ألبرت مزورين عنها) .
 وكانا يسيان دقة الدولة في سنة ١٨٦٠ ، حينما كانت فرنسا والنمسا تتوقان إلى
 التدخل لمنع اتحاد وسط إيطاليا وجنوبها بالمملكة الإيطالية الشمالية عند
 ظهور أقل باذرة من بوادر التشجيع لهما في لندن . ولكن بيانات هذين السياسين
 الكبيرين القوية وإعلاناهما الصريحة في شد أزرق قضية الحرية الإيطالية ،
 وتخوف الدول الأوربية الكبرى من موقف الأسطول البريطانى ، وما قد
 يصدر إليه من أوامر إذا ما حاولت تلك الدول أن تجعل أذنان فينا وروحا
 من حكام الولايات الإيطالية الصغيرة - كانت كلها عوامل هامة في نجاح قضية
 إيطاليا ، ومساهمة قيمة في تحقيق أمانها .

وهناك ناحية أخرى تدب فيها الحركة الإيطالية بفلاحها لإنجلترا .
 فقد رضع كافور أثناء إقامته بإنجلترا لبان المبادئ الحرة الإنجليزية ، وغدا
 بطنح بعد أن صار كبير وزراء بيلمنت سنة ١٨٥٢ ، إلى أن يطلق أولاً في
 تاريخ أوروبا

دين كافور
 السلطنة الحرة
 الإنجليزية

تلك المملكة الصغيرة ، ثم في إيطاليا المتحدة ، حينما تسنح له الفرصة المواتية - صار كافور بطمح في أن يقيم فيهما نظام حكم دستوري على غرار نظام الحكم في إنجلترا، فتقوم في بلاده ملكية دستورية مشيدة على أسس الحرية والتسامح الديني ، تضع الكنيسة في مكانها الصحيح ، وتتبع مبدأ حرية التجارة ، وتعمل على تقدم السكك الحديدية ، وتطبق في مناحي الصناعة والزراعة جميع المعارف العلمية والفنية التي كُشِفَ عنها في ذلك العصر .

ولم تكن المبادئ النظرية الفرنسية لتجد سبيلاً إلى عقل رجل واقعي ككافور، اشتغل مصرفياً ، وزاول الصناعة والزراعة : قبل أن يغدو سياسياً ويرق إلى زعامة بلاده . ولكن إذا كان الاشتغال في دوائر الأعمال قد أَلَفَ جزءاً هاماً في تدريب كافور ومراته، فقد كان البرلمان المسرح الذي هفا إليه فؤاده، لإظهار ملكاته اللامعة ومواهبه الكبيرة ، فقد بَزَرَ الجميع في حسن البيان وقوة المعارضة والإقناع . ولم يكن يخشى التزول في حلبة النقاش ، بل كان يدعو إليها، ويستمرها، ويتفوق فيها . لذلك بُذِرَتْ إبان حكمه الطويل (١٨٥٢ - ١٨٥٩ و ١٨٦٠ - ١٨٦٦) بنور الحكومة المسئولة ، وتأصلت جنورها في التربة الإيطالية . بل إن المبادئ الحرة الإنجليزية لم تظهر في فتوحاتها الخارجية بعقل أكبر وأنفذ وأحذق من عقل كافور .

وكانت دولة سردينيا مؤلفة من أربعة أقسام غير متناسقة . وكان قسم واحد منها فقط : هو جمهورية جنوة المندمجة بسردينيا حديثاً - يتصل بعض الاتصال بمفاخر إيطاليا التاريخية . أما سافوى التي على الجانب الفرنسي من الألب ، فمع أنها المنبت الأصل للبيت المالک فقد كانت تعد لساناً وأماناً مقاطعة فرنسية، أكثر منها جزءاً مكتملاً لإيطاليا . وكانت يديمت إقليماً فقيراً متأخراً يقع في سفوح الألب ، وليس له من الخدمات الماضية ما يثير إعجاب الإيطاليين به . ولولا هم له ، ولم يساهم - كما لا بد أن بدا للإيطاليين يومئذ - في تلك النواحي الأدبية والفنية التي يزهو الإيطاليون بحق بإجادتهم إياها وتفوقهم

مقاطعات

بيمنت

فيها . أما سردينيا فقد كانت جزيرة متبربرة ترتفع في أرجائها الملايريا .

يبد أن جنوة كانت تختلف كل الاختلاف عن الأقسام الآتفة . فهي مدينة كبيرة لعبت دوراً كبيراً ، لا في تاريخ البحر الأبيض المتوسط وحسب ، بل في مغامرات العالم البحرية الكبرى . ولكنها كانت في ذلك الحين قد هُزمت وحل بها ضعف الشيخوخة ، وكانت تؤلف جزءاً حديثاً من دولة بيدمنت (أو سردينيا) . ولذا تأققت من نيرها غير المألوف ، وكانت مصدراً من مصادر القلق لحكومة تورين ، أكثر من كونها مصدر قوة لها .

فمن هذه الولايات المتنافرة غير المتجانسة ، عقد كافور النية على أن يشيد دولة تستطيع ، سواء من ناحية القوة والحدادة أو من ناحية ممارسة النظم البرلمانية - تستطيع أن تقبض على زمام الحركة الإيطالية ، وتحفظ بتزعها وتوجيهها لياها . وساعده في تحقيق مراميه وخططه دستور ورثته بيدمنت من عهد الملك السابق ، وشعب حي موفور النشاط ، وملك حسن الطباع عظيم الهمة شديد الحماس ، وجيش هو أفضل جيش وُجد وقتئذ تحت إمرة حكومة إيطالية .

وكانت حركة البعث البيدمنتية ، كما تخيلها ورسمها كافور ومعاصره الذين نحا نحوه في تفكيره ، تنطوي على إصلاحات كان لا مفر لإنجازها من نشوب نضال حامى الوطيس مع الكنيسة . وقد انتهى هذا النضال إلى نتيجة محمودة ، برغم مقاومة الملك عمانوئيل الأول وتخوفه وقلقه . فإن قانون Siccaldi Law الذى صدر في فبراير سنة ١٨٥٠ هاجم الولاية القضائية للمحاكم الإكليريكية ومركز الإكليروس الممتاز أمام القانون ، وخفضت قوانين رتاتزى Rattazzi Laws الصادر عام ١٨٦٧ ، تخفيضاً جسيماً لإيرادات الأوقاف الكنائسية والدخل الوفير لكبار أعيان الكنيسة ، وأقفلت أكثر من ثلثائة دير .

كما أقر برلمان تورين التشريع الخاص بالزواج المدني برغم مقاومة الفاتيكان البالغة العنف . وبأمثال هذه التشريعات صارت بيدمنت في مدى أعوام قليلة جداً تُعَدُّ دولة محررة عصرية عملية ، لا ولاية من أشد الولايات الإيطالية

إصلاحات
كافور

تأخراً كما كان حالها قبلاً ، حين كانت جهودها مبعثرة متفرقة ، وأذهان أبنائها مصفدة بقيود التقاليد البالية ، تخيم عليها سيطرة الإكليروس الرجعية . وقد دُعِمت هذه الإصلاحات بوضع ميزانية متعادلة للدولة ، وإبرام سلسلة من المعاهدات التجارية ، وإهتمام الحكومة المتواصل بمد خطوط السكك الحديدية ، وتحسين طرق الزراعة والصناعة ، وإنشاء وتدريب جيش يبلغ من القوة بحيث يستطيع أن يطرد النمساويين إلى ما وراء الألب ، حينما يجيء الوقت المناسب .

وإذا استثنينا تسكانيا وبيدمنت من ولايات إيطاليا ، كانت مقاطعتا لمبارديا والبندقية اللتان بقيتا إلى ذلك الحين تحكمان بواسطة النمسا ، أدنى الولايات الإيطالية من حيث سوء الإدارة . بيد أن الحكومة النمساوية — مهما اجتهدت في تحسين الحالة المادية لرعاياها الإيطاليين — لم تكن بقادرة على أن تغير الحقيقة بأنها كانت حجر الزاوية للحكم الرجعي في طول إيطاليا وعرضها ، وأن الحكومة البابوية في روما لم تكن لتبقى ويشند ساعدها ، وأن الملك « بمبا » Bomba^(١) لم يكن لينتمكن من مواصلة حكمه الشرير ومظالمه في نابلي ، إلا تحت حماية النمسا .

النمسا في
لمبارديا
والبندقية

ولذا لم يسمح ماتزيني شيخ المتأمرين لبنى وطنه بأن ينسوا لحظة واحدة أن النمسا هي علومهم الأكبر الذي يجب عليهم التغلب عليه بجميع الوسائل الشريفة وغير الشريفة . وبحبكه وشائج المؤامرة تلو المؤامرة ، وبسجحه حياثل الدسيسة تلو الدسيسة — كل منها تفوق سابقتها عنفاً وبأساً — روى هذا المتعصب الماثل القوي الجنان الثابت العزم الذي لم تنه عن غايته أية صعوبة أو خطر — روى تربة إيطاليا بدماء الشهداء من أبنائها .

ماتزيني والنمسا

(١) هو فردينته الثاني ملك نابلي (١٨٣٠ - ١٨٥٩) . لقب هذه الكلمة لقسوته البالغة في سحق الثورة التي قامت في بلاده سنة ١٨٤٩ ، وخاصة بأمره بقتل مدينتي باليرمو وسنا بالقنابل دون شفقة .

٢ - الحرب الإيطالية عام ١٨٥٩

وكذلك كانت النمسا في نظر كافور ، فقد رأى فيها العدو الأكبر للوحدة الإيطالية . غير أنه على حين أن ماتزيني لم ير سبيلا إلى الوصول إلى غايته إلا عن طريق الحناجر والمكائرات ، فإن لباب خطط كافور لتحرير إيطاليا كان صرع النمسا في ساحة الوعى على يد جيشي فرنسا وبيدمنت المتحدين . ففي تورين كان الجميع يتأهبون للقتال والحرب ، أما في باريس فكانت زوايا التويلري الخفية - حيث كان يجتمع المتآمرون الطليان - كانت ترنح بالآمال والدسائس .

وخطا نابليون الثالث - الذي كان في خبايا نفسه «كاربونارياً» ، ولكن الأحداث والسياسات المتضاربة أخذت تتنازعه بعد قبضه على زمام الأمور في فرنسا - خطا خطوة هامة حاسمة في يوليو سنة ١٨٥٨ ، بدعوته في الخفاء ، ودون أن يطلع وزراءه أو يستشيرهم ، كافور لمقابلته في بلمبيير Plombières بإقليم الفوج . وهناك أوضح للسياسي الإيطالي في مقابلتين خططه الخاصة بتنظيم إيطاليا بعد تطهيرها من النمساويين .

وقد رسم في هذه الخطط إنشاء مملكة إيطالية في الشمال ، تمتد من الألب حتى البحر الأدرياتي ، ومملكة أخرى تجمع من هنا وهناك في وسط إيطاليا ، ودولة بابوية - لأن الرأي الإكليريكي في فرنسا كان يطالب بوجوب بقاء البابا في روما ، ومملكة مصلحة في نابلي . ويربط هذه الولايات بعضها ببعض شكل "ما من أشكال الاتحادات التعاهدية تحت رئاسة البابا . وحزر الرجلان أنه لا مفر من الدخول في حرب مع النمسا . ولكنهما اتفقا على أن تكون حرباً يبررها غير يستهوي أفئدة الفرنسيين : حرباً تظهر فيها النمسا كالمعتدى الجبار ، وبيدمنت كالدولة الضعيفة البريئة التي تناضل في سبيل

حياتها وكيانها . وفي هذه الحالة يمكن لكافور أن يعتمد على عون فرنسا له ، بشرط أن تُعطى بعض التعويضات جزاء تضحياتها ، كأن تعطى سافوى ونيس . وسافوى هذه هي الوطن الأصلى للبيت المالک في بيدمنت ، ونيس كانت من سوء الحظ مسقط رأس غاريبالدى الزعيم الإيطالى الكبير ، على أن تتوّج هذه المعاهدة السياسية بقران ملكى ، فتقدم يد الأميرة كلوتلدة ابنة فكتور عمانوئيل — وكانت طفلة في الخامسة عشرة من عمرها — إلى الأمير جيروم نابليون ابن عم الإمبراطور ، وهو رجل مستسيح فاسق ، يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً ، وبرغم أنه كان يعاني سمعة مرذولة بلجبهه وهلمه في ساحة الوغى ، كان المديح والإطراء يكالان له لوفائه لمخطياته وإخلاصه لمن . فلقد جال بذهن نابليون أن المقادير قد تخط لهذين الزوجين المختلفين كل الاختلاف أحدهما عن الآخر ، أن يجلسا على سرير الملك في فلورنس يوماً من الأيام . إذ كانت أحياناً تمر في ذهن الإمبراطور أخيلة عابرة غير واضحة المعالم باحتمال تأسيس بيت بوناپرت أسرات مالكة في إيطاليا ، فيجلس أمير بوناپرت على عرش تسكانيا ، وأمير من سلالة ميرا على عرش نابلى .

التهديد للحرب

ورجع كافور إلى تورين ليمهد للحرب ، وفي وطابه هذه المساومة ، التي وإن كان عسيراً على سيده الملك هضمها ، إلا أنه كان مطمئناً إلى أن إمبراطور الفرنسيين بات من ذلك الحين شريكه المتواطئ معه .

وفي الاستقبال الرسمي الذى عقده نابليون بمناسبة رأس السنة الجديدة عام ١٨٥٩ ، ذكر عرضاً للسفير النمساوى أنه يأسف لأن علاقاته مع النمسا ليست من الود بمثل ما كانت عليه أولاً . فطارت هذه الكلمات المهمة على أجنحة السرعة في مشارق أوروبا ومغاربها ، وعُدّت نذيراً بحرب وشيكة . ولكن بلغ من تفكير الإمبراطور المترن واعتقاده بفائدة عقد المؤتمرات الدولية ، أنه خيل له أن الحرب قد لا تنشب مطلقاً .

ولكن في اللحظة التي لاحت فيها الأمور سوداء قائمة في عين كافور ،

إذ بدا له أن آماله في نشوب الحرب ستطيش، جاءت إليه النمسا بالنجدة. فإن تلك البلاد التي كان في المقدور على اللوام الاعتماد بأن تقع فريسة في حبال خصومها بلغت بها الحماقة أن تبعث في ١٣ أبريل سنة ١٨٥٩ إنذاراً نهائياً إلى حكومة تورين تطلب منها فيه تجريدتها من السلاح . فقدمت بذلك النريعة التي كان ينشدها اجتماع بلمبير لإعلان الحرب . فقد ظهرت النمسا بمظهر المعتدى . وسرعان ما خف مقاتلو فرنسا المغاوير تحت علم بونايرنى مرة ثانية - عندما أعلنت الحرب رسمياً في ٢٦ أبريل - خضوا إلى سهول إيطاليا بقلوب يهزها الطرب ، وثغمرها ثقة لا حد لها .

سير الحرب

وأكبر ما يذكره دارسو التاريخ الحربي عن هذه الحملة الإيطالية هو أنها كانت ثباتاً طويلاً من الأغلاط الحربية . فلقد كان يظن أن النمساوين بعد أن أُنذروا طويلاً باقتراب الحرب منهم ، سيعملون إلى توجيه بعض العناية إلى تحسين خطوط سككهم الحديدية . ولكن عقول رجال الحرب بطيئة في استيعاب المخترعات الفنية ، فكان واط وستيفنسن عاشا في نظرهم عبثاً . فإن الحكومات المتنافسة وقواد الجيوش لم تعر احتمالات السكك الحديدية وفرص الانتفاع بها إلا الشيء الضئيل من اهتمامها . فلم يكن يربط فينا بتريستا سوى خط حديدي فردى واحد . ولم يكن هناك أى خط حديدي بين البندقية وتريستا ، مع أن المسافة بينهما سبعون ميلاً . وبلغت غلبة الطرق العتيقة البطيئة التي ظلت سائدة في تسيير الحروب ، أن النمساوين برغم أنهم هم الذين أشهروا الحرب ، وحشدوا جيوشهم على حدود بيلمنت ، فإنهم لم يبذلوا أى جهد للقضاء على اليلمنتيين أولاً ، ثم يركّزون بعد ذلك قواتهم ضد الفرنسيين . وبلدرجة من المعجز والتقصير تكاد لا تصدق زحف جيول Giulay القائد النمساوي داخل حدود بيلمنت . ولكنه انسحب منها ، ثم سلم في استكانة زمام الأمر لخصمه .

يبد أنه برغم تألق الاسم الذي يحمله الإمبراطور الفرنسي ، والمجد الذي حَفَّ به ، فإنه لم يكن قائداً . فقد رُميت خطة الحرب أُغفلت فيها السكك

الحديدية ، لأن راسمها كان قائداً من قواد نابليون القدامى — بدلا من تطبيق الخطة التي يقضى بها العقل والزمن . ولهذا فإن نابليون الثالث الذى اضطلع بالقيادة العليا ، والذى اتبع قواعد يومينى Jomini^(١) اتباعاً أعمى — كان سيعرض جيشه ، وهو يزحف به صوب الشمال ، لهجمات خطيرة كثيرة ، لو أن خصمه كان يظفاً ساهراً . ولكن القيادة التمسوية كانت فى حال أسوأ حتى مما كانت عليه قيادة الجيش الفرنسى . ولهذا أفلح الجيش الغازى فى جميع حركاته ، وبلغ جميع أهدافه : فقد أفلح فى زحفه إلى الشمال ، وفى تقدمه شرقاً صوب ميلان التى احتلها فى ٧ يوليو بين تهليل السكان وترحيبهم البالغ ، وأفلح فى الظفر بعذوة فى الملحمين العنيفين اللتين يلوح أن كل شيء فىهما لم يسر طبق الخطة الموضوعة وهما : ماجنتا Magenta (فى ٤ يونيو) ، ولفرينو Selferino (فى ٢٤ يونيو) . بيد أنه شكراً لِسالة الجند الفرنسيين والليدستين ونخوتهم ، ما حل شهر يوليو حتى كان الملكان المتحالفان يسيطران على لمبارديا .

غير أنه فى هذه المرحلة من مراحل القتال التى ما زال فيها أنين جرحى سلفرينو يتقر آذان نابليون ، اتصل هذا العاهل فجأة بفرنسيس جوزيف إمبراطور النمسا الشاب ، وتهادن معه فى ١١ يوليو سنة ١٨٥٩ فى فلافركنكا Villafranca فاستهدف يومئذ وبعدئذ بعمله هذا ، إلى اتهامه بالفخر بقضية إيطاليا أشنع غدر . فإنه دون أن ينال موافقة فكتور عمانوئيل ، وفى صباح انتصار حرى أكيد ، أنهى الحرب بغتة . وافق مع النمسا على أن تتنازل ليدمنت على مقاطعة لمبارديا ، ولكنه أبقى فى يدها مقاطعة البندقية . وقع فى ذلك الحين بأن يتزل عن نصيبه فى الأعواض التى وعده بها كافور ،

(١) قائده وكتاب حرى منحدر من أصل سويسرى . ولد سنة ١٧٧٩ ، وانخرط فى ذلك جيش نابليون ، وسارب منه فى ملحمة أسترتز وينا ، ولكنه انضم إلى الجيش الفرنسى ضد نابليون سنة ١٨١٢ . وتفرغ بعد الحرب لتأليف فى الموضوعات الحربية . وتوفى سنة ١٨٦٩ .

نظراً لعدم قيامه بنصيبه من الصفقة المتفق عليها، قائلاً لفكتور عمانوئيل: فلتدفع لي نفقات الحرب، ولن نتكلم بعد ذلك عن نيس وساقوى.

أما كافور فبلغ به السخط حداً دفعه إلى الاستقالة من منصبه حين سماعه خبر قبول مليكه هذه الشروط. ويمكننا بلا ريب أن نقدر تقديرأ جيداً مدى الخيبة التي أحس بها في تلك اللحظة. فإنه كان قد وعد بإنشاء دولة إيطالية نزع نير النمسا نزاعاً عن جميع أرجائها - دولة إيطالية حرة تمتد من الألب إلى الأدرياتي. وما هي ذى ييدمت بعد أن أوفت بعهودها، وبذلت الجهد الحربي الذي في طوقها، وما هي ذى إيطاليا بعد أن تحفزت من أقصاها إلى أقصاها للحركة والعمل، وبعد أن استرجعت ميلان، وفي وقت كان جيش فرنسي كبير ما زال في أرض الوطن الإيطالي - أبرم صلح تركت فيه النمسا كما كانت من قبل، ثابتة القدم في مقاطعة إيطالية شimore، وفي مركز يمكنها من إبقاء النظام الإكليريكي المطلق يسيطر على أغلب الولايات الإيطالية: هذا النظام المعارض للمصالح الإيطالية، والذي جاهدت من بادئ الأمر سياسة ييدمت أكبر جهاد في نبذه.

سقط
الإيطاليين

ولهذا فن اللحظة التي عقد فيها نابليون هدنة غلافنكا، تغيرت عواطف إيطاليا كلها نحوه. فحل على أئرها في قلوب الإيطاليين شعور مقت واشمئزاز لزاء الفرنسيين كخونة غدروا بقضية الحرية الإيطالية - حل ذلك محل التهليل الحماسي والترحيب البالغ اللذين استقبل بهما الفاتحين عند دخولهم المظفر في ميلان. ومع هذا فإن من بين جميع أعمال نابليون الثالث، ليس ثمة سوى أعمال قليلة أبان فيها عن حكمة أكبر ونظر أبعد من قراره المباغت بإنهاء الحرب الإيطالية عقب نصر سلفرينو. فقد كانت الحسائر التي نزلت بالجيش الفرنسي فادحة، وسجلت بعض حالات الكولرا في معسكرات الجند. وكان يتقص جيشه تقصاً فاحشاً جميع المعدات اللازمة للتجاح في قتاج طويل الأمد: كوسائل النقل والمؤونة وأجهزة المستشفيات. فتحركت عواطف

نابليون الإنسانية . وهي على الدوام عامل معقل - عند مشاهدته مناظر الحرب المؤلة وفضائنها الواقعة .

وفكر في نفسه بأن العدو - يرغم إيقاع بعض الهزائم به - ما زال سليماً متماسك البنیان ، ويمكنه على الأرجح أن يقاوم تقدمه مقاومة فعالة ناجحة بمساعدة خط الكوادر لاتيغال الشهير الذي يشمل المواقع المحصنة الأربعة الشهيرة : فيرونا ومتوا وبشيرا ولبنانو . وحتى إذا لم يكن هناك أى خطر يحشاه نابليون من ناحية ألمانيا ، فإنه كان أمراً مشكوكاً فيه ، فيما إذا كان في مقدرة الحليفتين فتح مقاطعة البندقية . ومع ذلك فإن الخطر الألماني كان رهيباً مائلاً . فقد وصلت إلى نابليون رسالة مستعجلة من باريس تنبئ بأن جيشاً بروسياً يبعثاً في جهات الرين ، وأنه إذا لم يهرم مع النمسا صلحاً عاجلاً ، فإن هذا الجيش سينقض على القور على قلب فرنسا . وعلى ذلك كانت لدى نابليون أسباب قوية عديدة تبرر رغبته في دفع هذا الخطر ، ولو أن تلك الأسباب خفيت على كافور وأصدقائه . ولهذا اتفق مع النمسا على عقد مؤتمر في زيورخ ليقدر مستقبل إيطاليا .

٣ - الحركة الوطنية الإيطالية بعد الحرب

وكانت الأحداث التي تلت عقد الهدنة فورة من تلك الفورات الجياشة الفجائية للشعور الشعبي : تلك الفورات التي توقع الخطأ بجميع تقديرات السياسيين وحساباتهم . فقد أعلن سكان وسط إيطاليا نيّهم على الانضمام إلى يلمنت . وخرجت الإمارات الصغيرة : مودينا وبارما وتسكانيا على حكامها . واجتاحت ولايات رومانا وأميريا والمارش موجة طاغية من الحماس البالغ للاندماج في المملكة الإيطالية الجديدة في الشمال - تلك المملكة التي كانت تضطرم هي أيضاً حمية وتحمساً ، وهو أمر لم يحسب نابليون وكافور له حساباً في اجتماعهما بيلمير ، وكان ينقض مشروع إمبراطور فرنسا الخاص

الحركة في
وسط إيطاليا

بإنشاء مملكة في تسكانيا يحكمها الأمير جيروم بونابرت ، كما كان بغياً على البابا، إذ يؤدي إلى تقطيع أوصال ممتلكاته ، ومقيتاً في أعين النمسا لأنه سحب السلطة من أيدي الأمراء الإيطاليين الضالعين معها والخاضعين لنفوذها ، بل أضحوها معرضين لأن تثلّ عروشهم ، إما بواسطة الجمهوريين الإيطاليين المتحمسين لمقاومتهم ، والذين كانوا في الوقت نفسه يكرهون الكراهية كلها الخاضوع لبيدمنت ، وإما بتدخل الدول الأجنبية .

ريكاسول
في تسكانيا

بيد أنه أنقذ الموقف ظروف ثلاثة . فقد كانت تسكانيا الكبرى أشهر ولايات إيطاليا الوسطى وأعظمها نفوذاً . وقد حكمها لمدة مائة وواحد وعشرين عاماً أمراء من بيت لورين حكماً فظماً رحباً . ولذا كان يحق للمرء أن يخال أن الروح الإقليمية ستكون في أوج عفوانها في تلك المقاطعة ، وأن تقاليد الاستقلال الكريم الذي كانت تتمتع به ستجد فيها آذاناً مفتوحة . هنا إلى ما يجره قبول حكم بيت سافوي على أهلها من فقد الكرامة والمركز الممتاز . ولكن حدثت مصادفة سعيدة فريدة في نوعها ، إذا نزل ليوبلد الثاني آخر أدواق بيت لورين عن عرش تلك الولاية نتيجة ضغط الشعور القومي الشديد . وانتقلت زعامة التسكانيين بين تهليلهم وتكبيرهم ، لا إلى سيامي محترف مندفع يسير وراء نزوات الجماهير الصاخبة ، بل إلى نبيل كريم الشائيل حميد المناقب ، مخلص في وطنيته ، رافع في حمسه ، سليم في حكمه على الأمور هو : **بنيتو ريكاسولي « Benito Ricasoli »** (١٨٠٩ - ١٨٨٠) . فإنه في هذه اللحظة الحرجة الدقيقة التي توقف فيها كل شيء على حكمة فلورنسا أو غفلتها ، لتأثيرها الكبير في مجرى الأحداث في مودينا وبارما وغيرها من ولايات وسط إيطاليا ، عمل هذا السياسي الكبير على توجيه التسكانيين في ثبات وقوة إلى رفض الحل القاتل بإنشاء مملكة خاصة بهم منفصلة عن بقية إيطاليا ، وإلى قبول بيت سافوي حاكماً لهم . ولهذا فإن اسم ذلك الشريف التسكاني الثابت المبدأ لقمين بأن يخلد بين بناء الوحدة الإيطالية .

غير أن هذه الحركات الإقليمية ، وإن كانت قد نالت تأييد الشعب الإيطالي وتصديقه عليها في الاستفتاءات التي أجريت في ذلك الحين ، إلا أن تدخل الدول الأجنبية ربما كان عمل على قتلها ، لولا العطف الحار الذي لقينته إيطاليا في تلك اللحظة الدقيقة من الحكومة الإنجليزية ، ولولا هذه الحقيقة الواقعة ، وهي أن نابليون قد صار بتقيده بمحادثات بلمبير شريك كاثور المتواطئ . فإن ذلك السيامي الإيطالي الكبير ، بعد استقالة وجيزة الأمد ، رجع في ٢٠ يناير سنة ١٨٦٠ إلى منصب رئاسة الوزارة ، كي يدير دفة شئون دولته .

صفحة نابليون
مع كاثور

ولقد كان كاثور يلم بالأفكار العابرة التي تجول في مخيلة نابليون : كيف أنه يروم مشاهدة ابن عمه مستوياً على عرش فلورنسا ، ومشاهدة أمير من بيت ميرو يملك في نابلي ، وكيف أنه ينبغي ضمان مركز البابا ودعمه . وتذكر أن الإمبراطور هو الذي اقترح أولاً أن تقدم له بعض التعويضات مقابل مساعدته : وهي التعويضات التي تنازل عنها في فلافرنكا . فرأى الآن أن يجب مطالب نابليون ، لو أن هذا وافق على إدماج الولايات الإيطالية بمملكة سيده . فوافق نابليون على تلك الصفقة . واتبعت القواعد المألوفة التي تقضى بها الديمقراطية ، فأُجرى استفتاء في كل من تسكانيا ومودينا أظهر رغبتهما في الانضمام إلى مملكة إيطاليا ، كما أُجرى استفتاء شعبي آخر في سافوي ونيس انتهى بقبولهما الانضمام إلى فرنسا .

ولكن هذه الصفقة لا يمكن أن تفسر بأنها تمت لمجرد تحقيق رغائب الوطنيين الإيطاليين . فإن مملكة فكتور عمانوئيل الجديدة تخلصت قطعاً من مقاطعة متأخرة كان يسود فيها النفوذ الإكليريكي الرجعي ، وكان يشق عليها أن تتخفها ، كما أن نفقات الدفاع عنها كانت تبهظ كاهلها . ولهذا لم يؤدّ نقل ملكية سافوي لفرنسا إلى نقص حقيق في قوة المملكة الإيطالية الجديدة . بل إنها عوضت عنها تعويضاً سخياً بتملكها الولايات الوسطى . غير أن نقل ملكية سافوي كان زهرة شائكة لنابليون . فقد ترددت الأصوات

في لندن وعواصم أوربية أخرى بأنها البداية الأولى - حتى وإن كانت بداية متواضعة - لسياسة ترمي إلى امتداد حدود فرنسا الشرقية ، وإلى إعادة النظر في المعاهدات التي وضعها الدول الظافرة في الحروب النابليونية لتتلم فرنسا من أطباعها البخارقة . فشكت الملكة فكتوريا شكاية مرة من أن إنجلترا قد خُذعت وخرُرت بها ، حتى إن المعاهدة التجارية التي كان نابليون الثالث قد أبرمها سنة ١٨٦٠ مع كبدن Cobden وزير التجارة البريطانية ، والتي أيسحت فيها حرية التجارة بين البلدين، والتي كلفت نابليون لهذا السبب الشيء الكثير من صدفوف الشعب الفرنسي عنه ، ولم تستطع أن تزيل الأثر غير الطيب الذي تركه امتلاك فرنسا لساغوى في نفوس الإنجليز . ومن تلك اللحظة بدأت السمعة الطيبة للإمبراطورية الفرنسية الثانية تتضاءل تضائلاً محسوساً في أوروبا ، وبدأ يُنظر إلى نابليون كمعكّر للسلام ، وعدو للنظام القائم، وأنه يعمل على الدوام ، حتى وراء ستار حرب قومية ، لاسترجاع تفوق فرنسا في قارة أوروبا .

ولم تكن بين الصعاب التي أقضت مضاجع العاملين على تحرير إيطاليا، صعوبة أشق من المعضلة الخاصة بكيفية معاملة ماتريني وأشياعه من المتأمرين الجمهوريين . فإن سياسياً من طراز كافور ، يؤمن بفائدة العمل عن طريق الحكومات المنظمة ، والجيش النظامية ، والأشكال المرجية في الضغط والإغراء الدبلوماسيين ، لم يكن يرى ما هو أشد خطراً من التعامل جهراً مع متأمرين سافرين ، أو التواطؤ معهم في دساتينهم، ولكنه لم يكن في المستطاع ، عند النظر إلى الموقف نظرة هادئة بعيدة عن الهوى ، إنكار الأمر بأن المؤامرات ، برغم قبحها ومقت الناس لها، وبرغم انطوائها على الإجرام والباس ، كانت على الأمل ذات أثر في لفت أنظار الناس في الخارج إلى شكايات الإيطاليين وظلاماتهم ، وفي إذكاء الحماس السياسي في قلوبهم .

فلو أن كافور ثبت من همة القائمين بالمؤامرات ، وأشاح بوجهه عن اللصائس كلبية ، لكان عمله بمثابة محاولته القضاء على الدافع الأعظم والمؤثر

الأكبر في الحركة الإيطالية ، على حين أنه لم يكن في مقدوره أن يدع سلاحاً قوياً كهذا بفلت من يده . ولهذا لم يرم إلى إبعاد قلوب المتأمرين عنه بأخذهم بالشدة ، بل عمل على جذبهم إليه بالألوان الوعود والإغراء ، على حين كان يتظاهر باستنكار أى عمل يصدر منهم ، تسهجه لندن أو باريس . فأخذ يحارب المؤامرة بالمؤامرة ، ووجد في جمعية « لافارينا » La Farina الوطنية جمعية منظمة تقبل أن تستمد سلطتها وتوجيهها من حكومته ، وتقوم بتحقيق هدفه الرئيسي .

كافور
وغاريبالدى

وفوق هذا تمكن كافور من استمالة غاريبالدى إلى الانضمام تحت علمه . فارتدى هذا البطل المغوار في حرب عام ١٨٥٩ البزة العسكرية الخاصة بمملكة سردينيا ، كقائد قوة غير نظامية من قناصى الألب ألُفَّت لهذا الغرض ، وهو إشارك القائد العظيم لحرب العصابات في أعمال الجيش الملكى السردنى . وقد بانَت أهمية هذا الانضمام بعد وقت وجيز .

الثورة في
صقلية ونابلى

فإنه بينما كانت الأحداث الجلية التى أشرنا إليها آنفاً تجرى في الشمال ، كان كرسبى Crispi ، وهو متأمر جمهورى صلب الرأى واسع الحيلة — كان يحرك الفتنة في صقلية للانتفاض على فرنسيس الثانى البوربونى ملك نابلى . وكان كرسبى جياراً عنيداً ، كما كان نطاق المؤامرة فسيحاً واسعاً . وكانت طباع أهل الجزيرة الذين ألُفوا حيناً طويلاً من الزمان العصيان والتمرد ، تشير إلى احتمال نجاح ثورة جمهورية . وكان كرسبى في حاجة إلى سيف مسلول ، إذ كان الموقف يتعالب وجود جندى يستطيع أن يشعل خيوط الفتنة في تمرد ، ويدكى نار التمرد في حرب مستطيرة ، ويخرج من أتون النار نصراً ميبناً . وإذ رأى كرسبى أن سيف غاريبالدى المدافع عن دمار الجمهورية الرومانية قد بات الآن مغمداً عاطلاً ، كان من الطبيعى أن يتجه ذهنه إلى استخدامه . فلما تحققت خطته ، وصار اشتراك غاريبالدى سرّاً مكشوفاً ، هفت القلوب إليه تدعو له بالنصر والتوفيق في صقلية ، وهو يجاهد لتحرير الجنوب . وكانت ثمة أسباب قوية عديدة ماثلة مثلاً كاملاً في ذهن كافور الحكيم —

ذلك الدهن الذى كان يحسب لكل أمر حسابه - تدعوه إذا أمكن إلى تأجيل إدماج الجنوب فى مملكته التى كُوِّنت حديثاً جداً ، والتي ما زالت غير كاملة الانسجام والتنظيم . فقد كان الجنوب على تمام النقيض من الشمال فى تأليفه العنصرى ، وفى بنائه الاجتماعى ، وفى درجة ثقافته ، وفى استعدادده للأخذ بأسباب الحياة العصرية . وهَوَّت به الحكومات الرديئة إلى درك الجهالة والبربرية ، وراجت فيه الألوان السفلى من الخرافات ، وكان قطع الطرق فيه فاشياً ، وتأليف الجمعيات السرية لارتكاب الجرائم سرطانياً يفترس قوى الأمة افتراساً . ويضاف إلى هذه المساوئ الخلقية والسياسية بلاء آخر ، هو فقر الجنوب المدقع ، بجميع نتائج الفقر السيئة وعواقبه المعقدة الناجمة عن خمول الإنسان وبخل الطبيعة .

غاريبالدی
فی صقلية

ورأى كافور أن اضطلاع الحكومة الإيطالية الجديدة فى نورين فى هذا الوقت الباكر غير المناسب بمعالجة المعضلات الكبيرة غير المألوفة السائدة فى الجنوب قد يقصم ظهرها . بيد أنه رأى فى الوقت عينه أن التأجيل غداً مستحيلاً . فقد صارت الحركة الثورية فى صقلية خارجة عن نطاق قدرته على منعها . ففكر فى أنه يمكنه هديها ، ولكنه ليس فى مقدوره وقفها ، بل إنها قد تتخذ شكلاً جمهورياً وخيم العواقب إذا هو أحجم عن التدخل . ولكنها قد تُروّض على قبول الملكية . ولهذا رُكِّزَت الآمال فى غاريبالدی . فى ٥ مايو سنة ١٨٦٠ أقلع هذا القائد الكبير - بتواطؤ سرى مع كافور - ميمساً وجهه شطر صقلية . وكان يحمل معه بزة جنرال ييلمنى ، واتخذ شعاراً له : « تحت لواء إيطاليا وفكتور عمانوئيل » .

وإن قصة مغامرة غاريبالدی العجيبة فى صقلية : كيف نزل فى ١١ مايو سنة ١٨٦٠ فى مرسالا Marsala على رأس ألف من المتطوعين البلو الجفاة الذين جمعوا من أخطاوط عدة ، وكيف انقضت فى ١٥ مايو على كالاتافيمي Calatavimi ، واستولى عليها . ثم شق طريقه عنوة إلى بالرمو ، وكيف تمكن فى نهاية شهر ثلاثة من تطهير الجزيرة من جنود ملك نابلى - إن قصة

هذه المغامرة ، حتى مع عدم إغفال الجبن والعجز وضعف الحيلة التي أظهرها خصمه ، والعطف العام الذي قابل به الصقليون رجال غاريبالدى — إن هذه القصة لمثال رائع لقوة التأثير الأدبي للزعامة في أزمنة الحروب .

غاريبالدى في نابلي

وبعد أن تملك غاريبالدى صقلية ، عبر المضيق إلى إيطاليا . وقد سمحت له الدول البحرية العظمى التي كان في مكنتها أن تعرقل مروره لهذا السبب أو ذاك — سمحت له الدول باجتيازه من غير أن تحاول اعتراض طريقه . ومن ثم تكررت ذات القصة العجيبة الفذة التي شهدناها أولاً في صقلية — تكررت على أرض المملكة النابلية بين تلال كالبريا Calabria المتفضضة ، وسهول جنوب إيطاليا الزراعية المنبسطة المتألقة في أضواء الشمس ، وهي قصة خصوم جبناء ، وجيوش منحلة ، وجماهير مهللة مبتهجة مستبشرة . ولم يحاول فرنسيس الثاني أن يدافع حتى عن قصبة ملكه ، بل هرب في ٦ سبتمبر على جناح النعامة إلى غايتا تاركاً نابلي لغيره .

وأوشك نصر غاريبالدى أن يكون كاملاً . ولكن لعل من حسن الطالع أنه لم يكمله ، فقد كان يفكر في الانقضااض على روما والبندقية من غير أن يتدبر فيما يجره عمله هذا من وخيم العقبي . ولكن حاميات ملك نابلي في غايتا وكابوا Capua وقفت في وجهه ، وحالت دون هذا الزحف الحافظ . فإن معارك حامية الوطنيس نشبت بين ١٩ سبتمبر وأول أكتوبر على نهر الفلتورنو Volturno بين الغاريبالدين والجنود النابليين ، أبانت للأولين أنه في مقدور حتى حامية نابلية خارجة من حصن كابوا أن تعمل فيهم أنيابها .

٤ - الأطوار الختامية للحركة الوطنية

وراقبت حكومة تورين من أول الأمر نجاح القمصان الحمر السحري الباهر بأحاسيس امتزج فيها الإعجاب والفتخار بالقلق والتخوف . فقد خشيت أن تتحول حركة تحرير صقلية ونابلي برمتها إلى فوضى ضالعة لا ضابط لها . كما خشيت أن يزحف غاريبالدى ، وكان قد منع بمشقة من

مخاوف كافور

مهاجمة الولايات البابوية ، خشيت أن يزحف بعد انتصاراته في نابلي على روما ، فيصطدم بالجنود الفرنسيين الذين كانوا وقتئذ يحتلون ، فيثير بهذا العمل معضلة دبلوماسية شائكة من أخطر نوع مع نابليون . فإنه في كلتا الحالتين كانت قضية تحرير إيطاليا تتعرض لخطر جدى كبير . وكانت تكون بداية سيئة الطالع لمملكة إيطاليا الجديدة ، لو أنها أكرهت في مستهل حياتها على إخذاد تمرد وطنى في نابلي وصقلية . كما أن الخطر لم يكن بأقل من ذلك لو أن نابليون الثالث ألغى نفسه مجبراً على شهر حرب شعواء في وسط إيطاليا ، لكي يحمى أملاك البابا من انقلاب حكومى يحدثه غاريبالدى فيها .

ولكن بيدمت تمكنت من تفادى هذين الخطرين الكبيرين . ولا يرجع نجاحها في ذلك إلى المناقب الفذة التى أبدتها كافور وغاريبالدى وفكتور عمانوئيل في هذا المأزق الحرج فحسب ، وإنما يرجع أيضاً إلى الرغبة العجيبة التى أظهرها أهل نابلي في قبولهم الخضوع لبيت سافوى . فقد حزم كافور رأيه في حكمة رائعة على أن الوقت قد حان لأن يسيط فكتور عمانوئيل سيطرته على وسط إيطاليا وجنوبها ، وأن يصنى الموقف مع غاريبالدى قبل أن يطأ الأخير بجنده ذوى القمصان الحمراء أراضى البابا ، فيحدثوا خرقاً لا يمكن رتقه . فنفذ بدقة وسرعة برنامجاً كان قد اتفق عليه مع نابليون ، إذ عجل باحتلال أمبريا والمارش . وبذلك حالت الجند البيدمنتية بين القمصان الحمر وروما .

ضم معظم
أملاك البابا

ثم أنفذ كافور قوة كبيرة دخلت الولايات البابوية . وأخذت تستولى على معاقلها الواحد بعد الآخر . وتمكن تشيالدینی « Chialdini » القائد البيدمنتى من تفريق شمل آخر فلول القوات البابوية تحت قيادة المفامر الجنرال لامورسير « Lamoricière » في معركة كستلفيدارو « Castelfidaro » في ١٨ سبتمبر . وبذلك تمكن بحرب لم تطل أكثر من ثلاثة أسابيع من امتلاك الجانب الأكبر من الممتلكات البابوية ، بحيث لم يبق خاضعاً لسلطة البابا الزمنية سوى شقة ضئيلة تشتمل على مدينة روما والأراضى المحيطة بها . فقصى

بذلك قضاء نهائياً على سلطة آخر ولاية في وسط إيطاليا كانت تناصر قضية الاحتلال الأجنبي وسيطرة الإكليروس في ربوع إيطاليا .

ودُعِيَ برلمان للانعقاد في تورين لكي يصدق على سياسة الحكومة . وقد وافق هذا البرلمان في ٤ أكتوبر بأغلبية كادت تكون إجماعية على تحويل الحكومة السلطة في أن تضم إلى مملكة بيدمنت أى ولايات وسطى وجنوبية تظهر عن طريق الاستفتاء رغبتها في الانضمام إليها . فأجريت في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٦٠ استفتاء في صقلية ونابلي ، أبان بأغلبية ساحقة عن رغبتها في الاتحاد . وبذلك تقوى كثيراً مركز كافور السياسي ضد غاريبالدي وماتزيني وأنصارهما ، الذين كانوا يبتغون إقامة جمهورية في الجنوب ، تقابل المملكة الإيطالية الشمالية وتناهضها ، وقضى بذلك على الخطر الذي كان يهدد إيطاليا بالانقسام .

واضطر غاريبالدي ، وهو الرجل الوحيد الذي كان في إمكانه أن يحطم الوحدة الإيطالية ، إلى أن يطرح جانباً في اللحظة الفاصلة ميوله النفسية وأهواءه وزرواته ومطامعه الشخصية . فقد كان في قرارة قلبه جمهورياً ، قبل نصرته الملك الذي حارب باسمه في صقلية ونابلي ، والذي أوصى الآن بني وطنه بالانضواء تحت علمه . وفي ٩ نوفمبر دخل فكتور عمانوئيل نابلي ، وإلى جانبه غاريبالدي ، وجابا شوارعها بين هتاف الشعب واغتيابته ، بعد أن عملاً معاً متكاتفين على جعل إيطاليا دولة واحدة .

ولقد وصل غاريبالدي في هذه الآونة إلى أوج سناء وقمة شهرته . فقد كسب جنوب إيطاليا ، ثم نزل عنه بجلء اختياره . وظفر بزمam السلطة المطلقة ، ثم تخلى عنها بمحض إرادته . وعرضت عليه الألقاب الرفيعة والأوسمة المتألقة والثروة الطائلة ، ولكنه عزف عنها جميعها . فلإن مظاهر هذه المدنية البراقة لم تكن شيئاً مذكوراً في نظر هذا الطفل الكبير ، والجندي الباسل القديم . فلقد عرف بسليقته أن الطيور الجارحة تصنيها الأقفاس الذهبية وتقتلها . فببساطة سماوية صدف عن تلك الأبحاد والمفاخر التي طرحها نابلي تحت

انزواء
غاريبالدي

قدميه ، ونشر أشعة سفينته صوب جزيرة كابريرا ، أخذاً معه قليلاً من بتور
محصولات الجنوب ، وبعض الخضروات ، وبعض الأسماك المملحة ، ومبلاً
ضئلاً من المال اقترضه ، لكي يعيش في جنباتها عيشة فاقة وكد مرهق .
ولكنه أخذ في الوقت نفسه يعمل الفكر ، وهو يعيش بين رعاة البقر والماعز ،
في خير السبل لاستكمال خلاص إيطاليا ووحدها .

ذلك أن مقاطعة البندقية وروما كانتا لا تزالان خارج نطاق المملكة
الإيطالية . ولم تكن تلك المملكة تستطيع ضم الأولى إليها إلا بهزيمة النمسا .
أما الثانية فكانت تنود عنها فرنسا ، ولم يكن محتملاً أن تخرج من يد البابا
إلا في حالة انقلاب السياسة الفرنسية انقلاباً تاماً ، أو انهيار قوة فرنسا
انهياراً غير مرتقب ، ولهذا فإن المراحل الأخيرة لحركة توحيد إيطاليا توقفت
على التغيرات التي طرأت على التوازن الدولي في أوروبا ، أكثر من توقفها
على جهود الإيطاليين أنفسهم ، من غير مساعدة تأتيهم من الخارج .

تحالف بروسيا
وإيطاليا

فإن امتلاك الإيطاليين للبندقية لم يكن ثمرة نصر إيطالي ، بل كان نتيجة
تحالف سرى هجومي ودفاعي ، أظهروا غاية الفطنة والبراعة في إبرامه مع
البروسيين في إبريل سنة ١٨٦٦ . صحيح أن الإيطاليين اشتركوا في الحرب
التي كان ذلك التحالف مقدمة لها ، ولكنهم لم ينالوا أي انتصارات فيها .
بل على العكس منوا فيها بعدة هزائم في البر وفي البحر . أما الذي
ظفر لهم بهذه الجائزة الثمينة ، فهو الجيش البروسي المظفر في ساحة سادوا —
هذا الجيش الذي كان قد نظمته ودربه فون رين Von Roon ، وقاده فون ملتكه
Von Moltke ، والذي أضفى الأداة التي نفذ بها بسمارك سياسته البعيدة
الأهداف الكبيرة الأطماع .

دخل روما
واتخاذها مقبلة
البلاد

وبعد تلك الحرب بأعوام أربعة ظفر ذلك الجيش البروسي عينه بانتصارات
فاصلة على الفرنسيين ، أدت إلى استدعاء الجند الفرنسيين من روما . وبذلك
فُتح الطريق لإقامة حكومة إيطاليا الملكية الجديدة في قصر الكورينال ،

وأخذت ترسل صيحاتها وتحذيرها ، حيناً في دوى هائل ، وحيناً في صوت خافت ، إلى يلاط البابا الكهنوتي ، وحكمه الديني العالمي .

وإن تأخير حل مسألة روما هذا الزمان الطويل يجب ألا يثير من جانبنا دهشة ، إلا إذا أئينا التسليم بالنور الكبير الذى لعبه رجال عنيدون صلبو الرأى جامدو الفكر على مسرح السياسة الإيطالية ، فكما أن أنطونللى Antonelli مستشار بيوس التاسع لم يستطع أن يرى فائدة من أى تنازل اختياري ، مهما كان ذلك التنازل نافهاً ، عن أملاك البابا لأولئك الذين سعوا

البابوية
والمملكة
الإيطالية



نقو ايطاليا

إلى إنقاصها ، كذلك لم يطق غاريبالدى أن يسمح لرجل من رجال الدين بأن يظفر بشبر واحد من أرض الوطن المقدس ، كى يتفد فيه سياسته الرجعية المتأخرة العقيمة ، ولكن بين هذين الرجلين المتطرفين وُجدت آراء وسيطة .

فإن نابليون الذى كان من مناقبه أن يفحص أشوك الأمور وأعقدها فحصاً هادئاً بعيداً عن الخيال والهوى، رأى ضرورة انكاش الأملك البابوية انكاشاً محسوساً لسوء إدارتها، ومع ذلك تقدم بمحج ملائمة لتسويغ الرأى القائل بضرورة احتفاظ البابا بروما والأرض المحيطة بها . وقد استمر إمبراطور الفرنسيين متمسكاً بهذا الرأى ، الذى إن كان بغيضاً للمتعصبين من رجال الدين ، والمتحمسين من الوطنيين الإيطاليين على السواء ، فإنه كان دليلاً على فهم صحيح لسياسات التوازن الدولى .

وكان ثمة حل آخر لمسألة روما تقدم به كاثور. فقد عرض على البابا أن تُمنح الكنيسة استقلالاً روحياً كاملاً مقابل تنازله عن سلطته الزمنية. ولكن كاثور عاجلته المنية فى ٦ يونيو سنة ١٨٦١ ، والمسألة الرومانية باقية من غير حل ، تعذب حكومة إيطاليا، وتضنى ضمير أوربا. وقد حاول غاربالدى الجموح مرتين أن ينقض على غريمه القديم فى روما. ولكن أُحبط فى المرتين مساه، فقد رده حكومة يديمنت ذاتها خائباً فى أسبرومنت Aspromonte . (فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٦٢) ، وأنزل الفرنسيون بقواته الهزيمة فى منتانا Mentana (فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٦٧) ، بينما وقف جيش ملك إيطاليا — الذى كان قد تمهد باحترام للدولة البابوية — عاجزاً عن أن يمد له يد المساعدة .

ومع ذلك فإن نابليون لم يكسب إلا نفعاً ضئيلاً من سفكه دماء الإيطاليين فى تلك الموقعة النعسة . وقد كتب الجنرال دى فيي De Failly الفرنسى عن البنادق الفرنسية الجديدة « بأنها صنعت العجائب »، وهى كلمات لم يكن نسيانها سهلاً على شعب مرهف الحس — شعب حُكم عليه أن يتحمل فى صبر وتجلد هزيمة أكبر أبطاله الأحياء فى ظروف بالغة الهوان له . غير أن الإمبراطور الفرنسى رغب فى إرضاء رجال الدين بفرنسا، وبذلك أضاع الفرصة لعقد تحالف ثمين مع مملكة كان هو قد أعان على خلقها ، وتدين له بالكثير من الأيادى البيضاء .

وكانت العاقبة وخيمة عليه. فقد جاء عليه حين فى سنة ١٨٧٠ احتاج فيه إلى

مساعدة إيطاليا . ولكنها أمسكت يدها عنه . فأكره على الوقوف منفرداً من غير سند أو صديق ، في وجه الهجوم المائل الذي شنته عليه ألمانيا المدججة بالسلاح .

وقد انصرم الآن قرابة قرن منذ أن تمكنت شعوب إيطاليا المتعددة التي درجت برغم نطقها بلسان واحد ، وتوارثها ثقافة وتقاليدها واحدة ، وسكنها بقعة واحدة من الأرض ، على أن ترمق بعضها بعضاً بعين البغضاء وسوء الظن — انصرم عليها قرن منذ أن تمكنت من الانضمام بعضها إلى بعض تحت حكم بيت سافوى . وصمد هذا الاتحاد الذي لاح في أعوامه الأولى مزعزعاً واهياً إلى أقصى درجة ، أمام عواصف الدهر وأنواء الأحداث . وتضاءلت خلال تلك الحقبة الفروق الخاصة التي بين الشمال والجنوب . وتدعمت الملكية ، وتعمقت أصولها . وأزالت روح قوية — بل روح عنيفة — من الوطنية القومية ، الأهواء المحلية المكيئة ، والتعصب الإقليمي اللذين ساد في العصور الماضية . فلا يبقى الآن إيطالي واحد أن يشاهد عودة تلك الأيام التي كانت فيها بلاده منقسمة منشقة بلا حول ولا قوة .

وإن هذا النجاح الذي صادفه اتحاد إيطاليا ليثير في النفوس دهشة أعظم ، نظراً إلى أن الملكية الإيطالية كانت محرومة من تلك الدعام التي تساعد في أقطار أخرى على تثبيت الأنظمة الملكية . فلم يكن يحيط بالعرش الإيطالي سناء طبقة أرستقراطية عريقة القدم ، أو يزيده بهاء وتألقاً تراث طويل المدى من المجد والشهرة ، أو تعمر انتصارات باهرة قلوب رعاياه . فقد اضطر الإيطالي ، حينما كان ينعم النظر في حركة توحيد بلاده ، إلى الاعتراف بأنه بغير مساعدة فرنسا وبروسيا ، لم تكن إيطاليا لتستطيع أن تغزو دولة موحدة . فقد هزم الأسطول الإيطالي في ليسانسا Lissa ، ودُحر الجيش الإيطالي في كسترا . ونرى الكنيسة في الأمصار الأخرى تضع عادة نفوذها الكبير برومته في كفة سلطة الملك ، أما في إيطاليا فقد كانت شديدة العداء للملكية التي جرت أملاكها ، وسلبت الكرسي الرسولي نفوذه السياسي الكبير التليد . فأصدر البابا أمراً باباويّاً Non Expedit حرّم فيه (من ١٨٧٤ إلى ١٩٠٣) على الكاثوليك المؤمنين أن يساهموا في سياسة بلادهم . وكان عنف الانشقاق الديني في روما ذاتها واضحاً أشد الوضوح .

فقد اعتبر البابا نفسه سجيناً في الفاتيكان . وكان البلاطان : بلاط ملك إيطاليا والبلاط البابوي ، مقطوعى الصلة ، يكشران النواجز أحدهما للآخر ، وكان الفريقين من جهة العلاقات الودية ، برغم سكنهما مدينة واحدة ، يقيمان في عالمين قصيين أحدهما عن الآخر .

ومع ذلك فقد عمرت الملكية في إيطاليا . والتف رهط من السواس المقتدرين ذوى الضمائر الحية حول عرش فكتور عمانوئيل خلال الأعوام العشرة الأولى من تاريخ مملكته الجديدة ، وواصلوا عمل كافور ، يحف بهم حماس الشعب المضطرم الذى ولدته حركة البعث فى الأئدة . فإيطاليا تذكر بالتقدير والعرفان بالجميل أسماء ريكاسولى ولا مارمورا La Marmora ولترا Lanza وسلاً Sella ومنغيتى Mingiatti وإسپافنتا Spaventa ، كأولئك الرجال الذين نهضوا بالعبء الأفدح من العمل الابتدائى فى إقامة بناء الدولة الجديدة ، حتى إنه لما انتقلت السلطة عام ١٨٧٦ من أحزاب اليمين إلى أحزاب الشمال ، كانت أركان إيطاليا الجديدة قد وضعت على أسس سليمة قوية .

وكانت الأنظمة الاقتصادية الإنجليزية القائمة على مبدأ حرية التجارة ، ومد خطوط السكك الحديدية ، عاملاً قوياً فى اتحاد إيطاليا السياسى . فمع أن ميول الإيطاليين الانفصالية كانت أقوى قبلاً ، مما صارت إليه فيما بعد ، فإن قوة البحار وساقط المياه جعلت عودة الأوضاع والتقاليد القديمة التى فصلت بين الولايات أمراً لا يمكن احتمالها . فإنه مهما تكن عديدة كبيرة الفوارق التى بين السكان والبيدمنتين وبين البنادقة ، أو بين النابليين وأهل الشمال ، فإن اعتبارات واضحة من القوائد الاقتصادية لا يمكن إغفالها أجبرتهم على الاتحاد معاً ، والخضوع لحكم مشترك .

کتاب ممکن استشارتها

- Bolton King : A History of Italian Unity. 1921.
- W.R. Thayer : The Life and Times of Cavour. 1915.
- F.A. Simpson : The Rise of Louis Napoleon. 1925.
- Fierre de la Gorce : Histoire Du Second Empire. 1908.
- H. von Treitschke : Historische und politische Aufsätze, Vol. II (Cavour)
1871.
- G.M. Trevelyan Garibaldi. 1933.
- Bolton King Life of Mazzini. 1912
- E.L. Woodward: Three Studies in European Conservatism. 1929.

الفصل الثامن عشر

صوب اتحاد ألمانيا

أشق عقبة في مبيد الوحدة القومية الألمانية . أتوفون بيسارك . ظروف قبضه على زمام السلطة . الجيش البروسي ينجو من هيمنة البرلمان البروسي . انقصار المنهج الحر في بروسيا . سقوط المشروع النمساوي لإصلاح الإمبراطورية الألمانية . المصيان البولندي عام ١٨٦٣ . فوز بيسارك بتحالف روسيا . الدوقيتان الدنماركيتان . حرب عام ١٨٦٤ ومهادنة فيينا . انقسام الحكم الثنائي النمساوي - البروسي للدوقيتين سنة ١٨٦٥ . نابليون الثالث . رضاه عن الحالة السياسية . نزوعه إلى المبادئ الحرة . مغامرته المكسيكية . الإمبراطور مكسليان . تدهور هيبة فرنسا . بيسارك يطعن نابليون في بيارتز . حق الانتخاب العام يمرض على الألمان . حرب الأسابيع السبعة . اعتدال بيسارك في فرض شروط صلح . معاهدة براغ . اشتداد حق فرنسا . الدستور الألماني الجديد . موازنة بين الدولتين القويتين : الإيطالية والألمانية .

١ - بيسارك يصير رئيس وزراء بروسيا

لم يكن أمراً بعيد الاحتمال أن يساعد انتصار القومية في إيطاليا على إحياء الآمال في إنشاء الاتحاد الألماني . تلك الآمال التي سُحقت بقسوة في ثورات الأحرار التي نشبت سنة ١٨٤٨ ، وضاعت بين أطلالها . فإن ما صنعت ملكية بيدمت ذات القوة الحربية الضئيلة لاتحاد إيطاليا في دولة واحدة ، قد تستطيع في سهولة بروسيا - الدولة الأكبر والأقوى منها كثيراً - أن تستكمله للألمان . وقد شاع هذا الأمل وقتئذ شيوعاً واسع النطاق . وكانت النمسا في كلتا إيطاليا وألمانيا الخصم المشترك الواقف لهما بالمرصاد ، هذا برغم أن المسألتين الإيطالية والألمانية كانتا تختلفان إحداها عن الأخرى في ناحية هامة : وهي أن النمساويين كانوا

في إيطاليا أجناب غرباء ، أما في ألمانيا فلم يكن ينظر إليهم هذه النظرة . بل كانوا يعدون بالأحرى عظماً من عظمهم ، ودماً من دمهم — جزءاً مكملًا لحياتهم المشتركة التاريخية .

بل إنهم عند الكثير من الألمان ، وخاصة عند الألمان الجنوبيين ، كانوا يفضلون كثيراً عن البروسيين ، وكان الكثيرون منهم تجيش في نفوسهم آمال غامضة بالوحدة الألمانية ، ويهلعون وجلاً من شبح الحرب التي قد يُجبرون على خوضها ضد انفسا ، ويصرخون مطالبين بجعل ألمانيا دولة واحدة ، بينما كانوا يغمضون أعينهم ، حتى لا ترى الثمن البغيض — ولكنه الثمن الضروري — الذي سيلزمون بدفعه . ولو أن استفتاء للشعوب الألمانية كان أجري في أي وقت خلال العقد السابع من القرن المنصرم ، لما أقرت أغليبتها حرباً ضد انفسا ، أو وضع ألمانيا تحت سيطرة بروسيا . ولم تكن حكومة تستطيع أن تفكر بالهوض بهذا العمل الضخم سوى حكومة حزمت أمرها في قسوة وصرامة على الضرب بالرأى العام عرض الحائط ، والتعرض لخطر انقسام ألمانيا ، ومواجهة حرب أهلية بولاياتها الكثيرة . ولم يكن ليضمن نجاح الوصول إلى هذا الهدف الكبير سوى أحكم الاستعدادات الحربية والدبلوماسية وأدقها .

وإن شخص بسمارك الضخم الجبار الذي كان يرى أن الرجل ما ينبغي له أن يلتقى ربه إلا بعد أن يدخن مائة ألف سيجار ، ويمرر في جوفه خمسة آلاف زجاجة من الشمبانيا — إن شخص بسمارك هو استجابة الطبيعة السخية الواسعة الكرم للشروط القاسية التي كان يفرضها هذا العمل المائل على من يتقدم للاضطلاع به . فإن من خصائص ذلك الرجل القذ ، أننا بينما كان مرناً غاية المرونة في الجزئيات ، أدرك من بادئ الأمر الوجوه الكبرى للمسألة الألمانية ، ولم يسمح بتأثراً لأية همسة من همسات الضمير أن تتدخل في تنفيذ خطته . ففي سنة ١٨٦٢ ، أي بعد مضي عام على وفاة كافور — أفضى بسمارك إلى ذرائع بقصده في إشهار الحرب على انفسا في أول فرصة مواتية . وقد قال يومئذ ذلك اليهودي النافذ البصيرة لمن حوله : « خلوا جنركم من هذا الرجل ، فإنه يعني

ما يقول « . والحق أنه ما مضت أعوام أربعة حتى أشهر بسمارك الحرب التي رأى من أول الأمر لزومها لتحقيق خططه السياسية . هذا برغم أن ألمانيا قاطبة كانت معادية لهذه الحرب ، مستنكرة إياها ، ولم يكن له من الأشياح غير فريق العسكريين .

وقد تميز حكمه العجيب العظيم — الذي دام من سبتمبر سنة ١٨٦٢ إلى مارس سنة ١٨٩٠ — تميز في بدايته بمبارزة من تلك المبارزات الدستورية النادرة ذات الأهمية الدائمة في تاريخ الأمم . فإن وليم الأول الذي تقلد زمام الأمر في بروسيا سنة ١٨٥٨ بوصفه وصياً على العرش حين استحسنت أعراض الجنون على أخيه الملك فردرك وليم الرابع — كان جندياً بسيط المظهر ، حى الضمير ، يؤدي واجباته في أمانة . وكان يمتق مقتاً عميقاً جميع الحركات الشعبية ، نتيجة تجربته بثورة سنة ١٨٤٨ ، ولم يكن ذلك الملك الكهل متحلياً بأية بحية من بحايا المثالية الألمانية ، بل كان يكفيه أن يعمل على أن تصبح بروسيا قوية ، بحيث لا تُجبر مرة أخرى بسبب ضعفها الحربى على أن تغض الطرف عن إهانة توجه إليها . ولقد وجد هذا الملك في ألبرت فون رون وزيراً للحرب حسناً يهوى فؤاده . فرسماً معاً خطة لتكبير الجيش البروسى وإعادة تنظيمه . ثم قدما مشروع قانون إلى البرلمان البروسى يقضى بزيادة عدد الجيش . وجعل مدة الخدمة العسكرية ثلاث سنين بدلاً من سنتين ، وزيادة الاعتمادات المالية للجيش . ولكن المجلس الأدنى (مجلس النواب) رفض ذلك المشروع .

وأبى كل من الملك والمجلس أن يحميد قيد أنملة عن موقفه . وتعقد المأزق ، وطال أجله . فالبرلمان يأبى الموافقة على زيادة الجيش وتقويته ، وفون رون وسيداه الملك يمتدان فرقاً جديدة ، كأن المال المطلوب وافق عليه البرلمان بالفعل . وأقيم بمناسبة رأس عام ١٨٦١ احتفال مهيب لتقديم الأعلام للأورط الجديدة . وفي اليوم الثانى مات فردرك وليم الرابع ، فارتقى وليم الأول أريكة الملك ، وجاهه في مطلع حكمه هذه الأزمة الدستورية الكبيرة . فأمر في ١١ مارس سنة ١٨٦١ بحل مجلس النواب ، وأجريت انتخابات عامة في ٦ مايو . ولكنها خيت آجاله .

فقد أعادت مجلساً أقل محافظة ، وأشد تصميماً من المجلس السابق على الإشراف على أعمال الحكومة .

فتحور الخلاف بين الفريقين ، ولم يبت مسألة إطالة مدة الخدمة العسكرية إلى ثلاث سنين ، بل نادى البرلمان بأنه يجب أن يكون هو السيد المطاع — كما هو الحال مع البرلمان الإنجليزى — وأنه ينبغي أن تقرر شؤون الجيش والمالية والسياسة الأجنبية وفق إرادة الشعب ، حسبما يعبر عنها ممثلوه . ولو أن هذا المطلب كان أجيب يومئذ ، لانتخذ تاريخ ألمانيا وأوروبا بأكمله وجهة أخرى .

بيد أن ما لقيه مجلس النواب في ذلك الوقت من مقاومة ناجحة يرجع إلى تدخل بسمارك القوى الصلب العود . فقد دعاه فون رون لإنقاذ الموقف . وقبل بسمارك أن يتقلد رئاسة الوزارة . فنفخ روحاً من الشجاعة في الملك الرجل الذى كان قد كتب فعلاً لإعلان تنازله عن العرش ، وواجه هجمات السياسيين العنيفة . ورغم إعصار من الطعن والمحو ، احتفظ بسمارك بوجهة نظره بأن الجيش في روسيا أمر مقدس يجب ألا ينحضع لأية سيطرة برلمانية . وبما هو جدير بالذكر أنه عند ما وضعت الحرب ضد النمسا أوزارها سنة ١٨٦٦ ، حصل بسمارك على قانون تضمينات صدق فيه البرلمان على النفقات التى كانت الحكومة قد تكبدتها من غير أن تنال تصديقه . ولم يبد على بسمارك أى مظهر من مظاهر التوبة والندم .

فإنه لم يكن مستعداً — لا في هذا الوقت ولا بعدئذ — أن يقبل السير بمقتضى النظام البرلمانى الإنجليزى . وقد مكته انتصار الجيش الروسى الساحق في تلك الحرب من أن يتحدى آراء الأعضاء الأحرار الذين كانت لهم الأغلبية في البرلمان من غير أن يخشى عقاباً ، وأن ينقش نقشاً عميقاً في الحياة الدستورية الألمانية هذا المبدأ ، وهو أن البرلمان وإن أجاز ضرائب جديدة ، أو ناقش مشروعات القوانين ، فإن هناك أموراً ثلاثة خارجة عن نطاق سلطاته وهى : ليس له أن يتناقش في المسائل الخاصة بالجيش ، ولا أن يضع سياسة الدولة ، ولا أن يؤلف أو يقبل الوزارات كما هو الحال في إنجلترا . وقد استمرت هذه المبادئ يُستشهد

بها في الأوضاع الدستورية الألمانية حتى آخر أيام إمبراطورية آل هوهنزلرن سنة ١٩١٨ .

ولكن يجب ألا يظن أن أنصار إقامة حكومة مسئولة في بروسيا رضخوا لهذا التحدى. فإن الأحرار الألمان الذين كانت كثرتهم رفيعة الثقافة عامرة الوطنية ، مع إدراكهم النفع الذى يترتب على تقوية الجيش ، كانوا لا يقلون اهتماماً بحماية الحرية القومية . ولقد كانوا موضع عطف ولى العهد ^(١) وزوجه الإنجليزية - ابنة الملكة فكتوريا - الذكية الفؤاد المضطربة الحماس ، ولكنها غير الحكيمة . وكان يؤيد أيضاً هؤلاء الأحرار أساتذة الجامعات بعلمهم ونفوذهم . ولم تكن ثمة قذيفة من قذائف الحجج والأفكار التى استمدوها من الجعاب الرحبة للتقاليد والتجارب البرلمانية الإنجليزية ، إلا صوبوها إلى رأس ذلك الوجيه البروسى المتعجرف . الذى زاد بمفرده عن حصن الحكم المطلق فى بلاده ، ورد عنه كيد الهاجين . غير أن بروسيا لم تكن إنجلترا ، فإنها كانت أشد منها إقطاعية ، وأميل إلى الروح الحربية ، وأكثر منها تأخرأ فى ميدان الصناعة ، نظراً لتأخر بدء النظام الصناعى الحديث فيها .

ولهذه الأسباب جميعاً كانت المبادئ الحرة فى نظر بسمارك قوة لا يؤبه لها ، ولم يخش أن يظهر ازدراءه بها ، وكان يعتقد أن من اليسير عليه تحقيقها ، وإحلال مبادئ أخرى مكانها .

ومع أن بسمارك كان يحب الإنجليز ، ويحل قدرهم ، إلا أنه كان يرى أن مبادئ الحكم الإنجليزية ، إذا هى نقلت إلى بروسيا ، فإنها تجر عليها الخراب والتكبات . ولهذا كان من الضرورى له قبل إعلانه الحرب على النمسا سنة ١٨٦٦ أن يسحق أشياء هذه المبادئ وطلاب الحرية فى ألمانيا . ولقد كان نصره فى هذا المضمار تاماً باقى الأثر . بل لقد سَطَّرَ فوزه بحروف من نار فى تاريخ العلم . فإنه قاد ألمانيا فى طريق سياسات بعيدة الأهداف من التوسع ، تقوم على تنفيذ برامج حرية وبحرية طويلة الأمد .

(١) الذى صار فى مارس سنة ١٨٨٨ الإمبراطور فريدريك الثالث .

وكانت الدولة في عينه قوة ، والحرب — كما علّم كلاوزفيتز Clausewitz القائد والكاتب الحربى الروسى الذائع الصيت (١٧٨١ — ١٨٣١) — إن هى إلا مواصلة السياسة ، والغاية والواسطة تتفاعلا لإحداهما مع الأخرى . فكلما ازدادت السياسة أطماعاً ، ازداد نطاق التسليح ، وكلما ازداد نطاق التسليح ، اتسعت مجالات السياسة . ولهذا فلن تحول أوروبا إلى معسكر مدجج بالسلاح كان نتيجة محتومة لهزيمة الأحرار الروسين عام ١٨٦٢ . وكانت طريق التسليح مأمونة العقبي ، طالما كان بسمارك ممسكاً بسكان الدولة .

ولكن هذه الطريق ما لبثت أن صارت بعد عزله من منصبه سنة ١٨٩٠ غير مأمونة . فقد اتسع نطاق المرامى والأهداف الألمانية وزادت المخاطر ، حتى بات ممكناً في نهاية الأمر لشعب عاطفى كالشعب الألمانى أن يؤمن بأن المقادير المسيطرة على شئون البشر قد دعت إلى رسالة سامية ، وأن عليه أن يضع نصب عينيه أن يعمل على تزعم العالم ، أو يهوى إلى قرار محقق .

وقد أوشكت عقبة قامت في مستهل الأيام الأولى من وزارة بسمارك أن تهدم خططه كلها . وزاد من خطورة هذه العقبة تواربها عن الأنظار . ذلك أن النمسا وجهت دعوة إلى الأمراء الألمان لعقد مجلس منهم في فرانكفورت لينعم النظر في مشروع قدمته لإصلاح الدستور التعاهدى للريخ الألمانى . فلم يبدُ اقتراح من حيث مظهره الخارجى أكثر فائدة من ذلك الاقتراح ، فإن هذا الدستور كان أسوأ دساتير العالم ، ولذا كان فى أشد حاجة إلى رفقه رفقاً شاملاً . ولم يكن أحد أعرف من بسمارك بهذا الأمر ، وأشد منه شعوراً به . ولكنه رأى أن إصلاحات تنفذ بإرشاد النمسا ، وبتسليم بروسيا ، لم تكن لها سوى نتيجة واحدة وهى : تدعيم سلطان النمسا وتقويته فى ألمانيا . ولهذا كان من الضرورى فى رأيه ألا تمثل بروسيا فى فرانكفورت ، وأن يحبط المشروع النمساوى وهو فى المهد ، وأن تبقى فى الوقت عينه الطريق مفتوحة لإعادة تنظيم ألمانيا دستورياً تحت نفوذ بروسيا . ولكن ملك بروسيا الشيخ كان بطيء الفهم والتقدير . لجميع هذه الوجوه .

المشروع
النمساوى لإصلاح
الاتحاد الألمانى

ولم يتمكن بسمارك إلا بعد نضال طويل متشعب النواحي ، هدد فيه بالاستقالة ، من نيل موافقته قسراً على وجهة نظره .

بسمارك يحيط
المشروع

وافْتُتِحَ المؤتمر بفرنكفورت في ١٤ أغسطس سنة ١٨٦٣ ، ولكن بروسيا لم تكن ممثلة فيه . وتسلم المؤتمر في ٢٢ سبتمبر ردها على اقتراحاته ، وجاء فيه « بأنه يجب في أى إصلاح للاتحاد أن تكون بروسيا على قدم المساواة مع النمسا في رفض التصديق على إشهار الحرب ، وفي مسألة رئاسة الاتحاد ، وأنها لن تنازل قيد شعرة عن أى حق من حقوقها إلا لبرلمان يمثل الأمة الألمانية بأسرها » .

المصيان
البولندي

ولقد امتاز أيضاً عام ١٨٦٣ ، الذى شهد هذه الصفعة للنمسا ، باندلاع فتنة في بولندا الروسية قُسم لها أن تؤثر تأثيراً واسع المدى في الشئون الدولية . ومع أن هذا التمرد قمع قمعاً عاجلاً قاسياً ، إلا أن دول أوروبا الغربية لم تكن تعد قضية بولندا أمراً تستطيع الحكومات الممدنة الإنسانية أن تنظر إليه بعين الاستخفاف وقلة المبالاة . فقد استفز الرأي العام في فرنسا ، وحتى في النمسا وإنجلترا ، استفزازاً شديداً ، مشهدُ شعب باسل يحاول عبثاً أن يحتفظ بأركان حياته القومية تحت نير أجنبي جائر غشوم . ولهذا اتفقت حكومات تلك البلدان الثلاثة على أن تقدم إلى روسيا مذكرة مشتركة تحضها فيها على منح عفو عام واستقلال داخلي لبولندا .

بسمارك يؤيد
روسيا

ودعيت بروسيا إلى تأييد هذا المطلب الدبلوماسي الذى لم يكن ثم رجاء كبير بإجابته . ولكن بسمارك لم يخالجه أى شك في الفوائد التى يمكن أن تُجنى من رفض هذه الدعوة رفضاً باتاً . والحق أنها كانت ضربة من ضربات حسن التوفيق ، أبان فيها بسمارك عن دواية تامة بانتهاء الفرص التى تخوله تنفيذ خطته ، وهى : أن يتاح لروسيا أن تبعد نفسها بهذا الأسلوب القاطع من أية خطة تؤدى إلى مضايقة قبصر روسيا في معالجة المشكلة البولندية . ذلك أنه في هذه الفترة من فترات التوتر الدولى الشديد — فترة كيل فيها القدرح والهجاء للحكومة الروسية في كل مكان — مدت دولة واحدة يد الصداقة إليها ، رافضة لا أن تشترك في تقديم

المذكورة فحسب ، بل رضى أن تمضى مع روسيا اتفاقية حرية تحمل في ظاهرها دلائل اهتمامها المشترك معها في بسط رواق الأمن بين شعب مشاغب . فضمن بسمارك من هذه اللحظة تحالفه مع روسيا - ذلك التحالف الذى كان قطب الرضى في سياسته ، والشرط الأساسى لتتويجها بالنجاح . ومن تلك اللحظة أمكنه أن يشعر باطمئنان بأنه عند إشهاره الحرب على النمسا - وربما على فرنسا فيما بعد - وهى الحرب التى رأى ضرورتها لاستكمال مشروعه الأكبر ، ستكون بروسيا آمنة على حدودها الشرقية .

وكان هناك ضمان آخر لثبات عرى الصداقة بين الدولتين ، وهو أن تلك الصداقة شيدت على دعائم أخوة ودية منسجمة قائمة على اتباع سياسة من القمع والشدّة . وقد كان أيضاً لبريطانيا رعايا شبيهون بالرعايا البولنديين المهضومى الحقوق : وهم الإيرلنديون . وكما بكّنت المشكلة الإيرلندية ضمائر الأحرار الإنجليز ، كذلك كان هناك ميل في غرب ألمانيا ، وحيث التأم عقد الأحرار الألمان ، إلى العطف على شكاوى البولنديين ، سواء أكانوا خاضعين لبطرسبرج أم لبرلين ، والرغبة في رفع الجور عنهم . غير أن هذه العواطف الحميلة كانت مقبنة إلى قلب ذلك النبيل الروسى الذى رأى أن العلاج الوحيد للمشكلة البولندية في بلاده هو تحويل البولنديين إلى بروسين بأقل تأخير مستطاع ، والقضاء على لغتهم قضاء تاماً وإزالة ثقافتهم القومية من الوجود ، ونبد تقاليدهم ، ومقاومة المبادئ الحرة التى كانت تسعى إلى الإبقاء على بعض مظاهر الأمة البولندية ، وذلك بانتهاج سياسة لا هوادة فيها لضمها وتحويل أبنائها إلى بروسين .

وكان بسمارك لا يقل عن الروس في عدم قدرته على احتمال أى تدخل في تنفيذ هذه الخطط . وقد قال للجنرال فليرى « Fleury » سنة ١٨٦٣ : « إنى لأؤثر الموت على أن أسمع بطرح مركزنا في بولندا على بساط البحث أمام مؤتمر أوربى ، بل إنى لأؤثر على ذلك سلخ أراضى الرين نفسها » . والحق أنه طالما وقفت روسيا وبروسيا جنباً إلى جنب في هذه المسألة ، فإنه لم يكن ثمة أى أمل بتحرير بولندا ، رغم ملء أحرار أوروبا الأرض احتجاجاً وعويلًا .

٢ - مسألة الدوقيتين الدنماركيتين

وفي الوقت نفسه أخذ يستخدم شجار في الجهة السفلى من شبه الجزيرة الدنماركية قُدِّر له أن يتخذ بهمارك ذريعة لإشهار الحرب على النمسا، وأن يمكن ألمانيا من شق قناة كيل التي فتحت لألمانيا المتحدة آفاقاً جديدة على متن البحار. وليس بضرورى أن ننقل الذاكرة بالتفاصيل المعقدة لمسألة شلزويج-هولشتين Schleswig-Holstein ، ولكن لباب هذه المسألة هو أن هاتين الدوقيتين اللتين كان ملوك الدنمارك يحكمونهما منذ سنة ١٤٩٠ ، لم تكونا تؤلفان جزءاً من مملكة الدنمارك ، ولكنهما صارتا سنة ١٨٦٣ مثار خلاف بين الدنمارك من جهة ، وبروسيا والنمسا من جهة أخرى . وكانت شلزويج مقاطعة يغلب فيها العنصر الدنمركي ، ولها « ديت » منفصل خاص بها . أما هولشتين فكانت كثرتها ألمانية . وكانت من قبل جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، واعترفت بها معاهدة فيينا سنة ١٨١٥ عضواً في الاتحاد التعااهدى الألماني .

وكانت الدنمرك تتوق إلى ضمهما ، كما تاق أيضاً إلى ذلك الاتحادُ التعااهدى الألماني . ونشوت أيضاً بروسيا إلى ضمهما إليها ، ولكن دون أن يكون لها أى حق شرعى أو تاريخى فيهما . وقد تمكنت أخيراً من الوصول إلى غرضها . ويعتبر بهمارك - وله ما يبرر حكمه - الطريقة التي جقق بها هذا العمل أروع خططة السياسية . والحق أنه ليس هنالك أنموذج أدل على دهائه وحلقة أفانين السياسة من الطريقة التي وصل بها إلى تحقيق مرماه هذا .

ولم يكن الشجار حديثاً ، بل إنه يرجع إلى عهد فردريك السادس ملك أصاب الشجار الدنمرك (١٨٠٨ - ١٨٣٩) الذي حاول إدماج الدوقيتين نهائياً بمملكته . غير أن محاولته فشلت نظراً إلى احتجاج بيت أوجستنبرج Augustenburg الذي كان يتطلع إلى الجلوس على أريكتها عند انقضاء نسل الذكور في البيت ناروغ أوربا

الدنماركى الملكى بمقتضى القانون الصالى : الأمر الذى كان منظوراً حدوثه فى وقت غير بعيد . ولكن فى سنة ١٨٤٦ نشر كرستيان الثامن (١٨٣٩ - ١٨٤٨) خلف فردريك السادس ، خطاباً مفتوحاً يعترف فيه بحق أخته الأميرة شارلوت وورثتها فى حكم دوقيتى شلزويج وهلشتين بعد وفاة ابنه ^(١) الذى لم يكن يرغب منه أن يعقب نسلاً . فأثار هذا العمل حنق « ديت » الاتحاد الألمانى ، واجتاحت ألمانيا بأسرها موجة غضب شديد ، وخاصة فى عام ١٨٤٨ الذى عمت فيه الثورات أرجاء أوروبا . فلم يجمع الرأى العام فى ألمانيا على شىء أكثر من إجماعه على ضرورة بقاء الدوقيتين متحدتين وخاضعتين لحاكم واحد ، وأن يكون هذا الحاكم أميراً ألمانياً ، بعد وفاة فردريك السابع ملك الدنمارك (التى حدثت سنة ١٨٦٣) . وكان الأمير الذى وقع عليه اختيار الديت الألمانى هو الدوق أوجستبرج الوريث الشرعى ، ولتلقبه هنا بالمطالب بالعرش .

تدخل الدول
العظمى

وتلت هذه الأحداث حقبة من الاضطراب والقتال غير الفاصل انتهت بتدخل الدول العظمى . فى مارس سنة ١٨٥٢ عقد مؤتمر فى لندن ضم بريطانيا العظمى وفرنسا وبروسيا والنمسا وروسيا . واتفقت هذه الدول بمقتضى معاهدة لندن التى وقعت فى ٨ مايو على ضرورة ضمان استقلال الدنمارك ، وعلى أن يعقب كرستيان أمير جلوكسبرج ^(٢) Christian of Glucksburg فردريك السابع فى حكم جميع ممتلكاته ، ومنها دوقيتا شلزويج وهلشتين ، على شريطة عدم مس حقوق الاتحاد الألمانى فى هلشتين ولاونبرج . وبذلك لاح للناس أن هذه المسألة الشائكة قد حُلَّت حلاً موفقاً . وإذا كانت النمسا وبروسيا من ضمن الدول الموقعة على المعاهدة ، كان من الشاق الاعتقاد بأن أحكامها سيعتريها التحوير والتبديل . أما الدوق أوجستبرج المطالب بالعرش فقد قبل تعويضاً كبيراً من المال لقاء تنازله عن مطالبه ودعاويه .

(١) خلف أباه على عرش الدنمارك سنة ١٨٤٨ باسم فردريك السابع .

(٢) هو زوج الأميرة لويوز كريستيان شارلوت أخت كرستيان الثامن .

غير أن النزاع لم ينته عند هذا الحد ، فقد كان في كوينهاجن تيار قوى من الرأي العام يحض على ضرورة العمل على مد تخوم الدنمارك الجنوبية إلى نهر الأيدر ، كما كان فيها ميل إلى إنقاص الامتيازات المحلية الممنوحة للدوقيتين ، وهو الأمر الذى استنكره الألمان استنكاراً شديداً . وحدث أنه بينما كان الألمان والدنماركيون يكشرون عن أنيابهم بعضهم لبعض ، واللهب القديمة — التى كان يظن أنها قد همدت — تقذف شرراً ملتهاً بين آونة وأخرى ، أصدر فردرك السابع فى ٣٠ مارس سنة ١٨٦٣ دستوراً ، اشتمل من بين ما اشتمله ، على إدماج شلزويج فى مملكته ، ومنح استقلال داخلي لهشتين .

والحق أنه كان حلاً أريباً للغاية . وكان هو الحل الذى فرضته فيما بعد معاهدة فرساي من حيث المبدأ . فقد ضمت الدوقية الناطقة باللسان الدنماركى إلى الدنماركيين ، ومنحت الدوقية الناطقة بالألمانية قسماً وافراً من الاستقلال الذاتى . غير أن هذا الحل قوبل فى ألمانيا بالسخط والاستنكار الشديدين . فاستنجدت الجمعية التشريعية الهلشتينية — التى لم يكن رأياً قد أخذ فى هذا الحل — بالديت الألمانى الذى عد نفسه مطلق اليد ، نظراً لعدم اشتراكه فى معاهدة لندن ، أو موافقته عليها . وناشدته تلك الجمعية أن يسعى إلى فصل الدوقيتين غير المتجزئتين عن مملكة الدنمرك ، وإقامة إمارة منهما يحكمها أمير ألمانى . ولم ينقص الديت هذه المرة أيضاً وجود مرشح لهذا المنصب ، فإن ابن المطالب السابق بالعرش تقدم فى غير استحياء إلى المجلس بدعوى بيته فى حكم الدوقيتين ، معلناً أن تنازل أبيه ليس برابط له .

فأجاب فردرك عن ذلك بأن أصدر فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٦٣ دستوراً آخر ضم فيه الدوقيتين نهائياً إلى مملكة الدنمارك ، فنقض بذلك معاهدة لندن سنة ١٨٥٢ . وبعد يومين توفى ، فخلفه على العرش كريستيان التاسع الذى وضع — تحت ضغط الشعب الدنماركى — الدستور الأخير موضع التنفيذ .

وغائب بسمارك
وسناوراته

وبوصول المسألة إلى هذه النقطة بدأ بسمارك يقوم بتلك السلسلة من المناورات الدبلوماسية التي أعطت في ختام الأمر الدوقيتين الدنمركيتين إلى بروسيا . ولم يكن براغب في التضامن في السير مع الديت ، وكان بصفته رئيس إحدى الدول الموقعة على معاهدة لندن ملزماً بالاعتراف بكرستيان ، خشية أن يثير امتناعه امتعاض إنجلترا وروسيا ، كما أنه لم يكن من الأمور التي يرتاح إليها قلبه أن يرى المطالب بالعرش الشاب — وكان حر المذهب وصديقاً لولي عهد بروسيا — يحكم ولاية ألمانية جديدة ستكون بلا ريب حائلاً دون امتداد بروسيا . بل كان بسمارك يتوق إلى ضم الدوقيتين إلى أملاك سيده . ولهذا عقد التية على العمل ، لا مع الديت الألماني بل مع النمسا إحدى الدول المشتركة أيضاً في معاهدة لندن ، فيعترف بكرستيان طبقاً لبنود تلك المعاهدة ، ولكنه في الوقت ذاته يبعث إليه بإنذار نهائي يطلب منه فيه إلغاء دستور نوفمبر ، ويكتب الإنذار بأسلوب يجعل قبول طلبه هذا أمراً متعذراً .

حرب عام
١٨٦٤

وسار كل شيء طبق الخطة الموضوعة . فإن الدنماركيين الذين كانوا قد شجعوا على الأقل على الاعتماد على عطف إنجلترا ، وأن هذا العطف ليس بمجرد كلام أجوف عديم القيمة عملياً ، رفضوا الإذعان للإنذار البروسي . فغزت الجند النمساوية والبروسية في يناير سنة ١٨٦٤ المقاطعتين ، وهزمت الدنماركيين ، وأكرهت كرستيان على التقدم بطلب الصلح . ونزل هذا الملك للدولتين الألمانييتين الظافرتين ، بمقتضى معاهدة فيينا في ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٦٤ ، عن حقوقه في شلزويج وهلشتين ، وفي دوقية لاوونبرج الصغيرة .

الخلاف بين
النمسا وبروسيا

ولكن نشأ الآن موقف غاية في الدقة . فإن حكماً ثنائياً لولاية ما ، ليس في طبائع الأشياء بالحكم السهل المريح على الإطلاق . فما بالك وهذا الحكم الثنائي يتألف من النمسا وبروسيا . ولذا لم يكن يرتجى منه أن يسير من غير احتكاك . فإن هاتين الدولتين كانتا مستظطرتان إن عاجلاً أو آجلاً إلى أن تقررا فيما بينهما ، من الذي سيطلب إليه منهما حكم الأراضي التي صار لها الآن حق تقرير مصيرها . فأما النمسا — وكانت تحمل عطف الأغلبية

الكبرى من الأمة الألمانية — فأخذت تؤيد دعاوى المطالب الشاب : تلك الدعاوى التي نوى بسمارك مقاومتها إلى النهاية ، إلا بشروط كانت تجعل الدوقيتين بروسيتين في كل شيء خلا الاسم . ولقد نمتى سلوك الأمير الشاب غير الفطن الذي استقر الآن في كيل ، وأقام فيها بلاطاً صغيراً ، وشرع ينشر منها دعاوته بتأييد النمسا المكشوف — نمتى سلوكه هذا مضايقة برلين منه وحققها عليه ، حتى أوشكت الدولتان في أغسطس سنة ١٨٦٥ أن تعلن الحرب إحداهما على الأخرى .

بيد أن النمسا لم تكن متأهبة للقتال ، كما أن استعداد بروسيا الدبلوماسي لم يكن قد بلغ حد الكمال . ولذا أبرمت بينهما اتفاقية جاشتين Gastein في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٦٥ ، وهي معاهدة رأيت الصلوع رأياً ظاهراً ، ومنحت الدولتين فسحة من الوقت لتتمكننا خلالها من تنظيم قواهما للحرب المقبلة . وقد اتفقتا في تلك المعاهدة على إبطال الحكم الثنائي ، وأن تحكم النمسا هلشتين ، وتحكم بروسيا شلزويج ، وتُمنَح دوقية لاونبرج بأكملها للملك بروسيا .

ولقد نجح بسمارك أيما نجاح في تنفيذ خطته . فقد تمكن من إحباط دعوى بيت أوجستنبرج ، برغم رأى أغلبية الأمة الألمانية ، وبرغم مقاومة البلاط والبرلمان البروسيين لسياسته . وتمكن من السير بالحرب ضد الدنمارك إلى نهاية مظفرة دون تدخل من جانب فرنسا أو إنجلترا ، والآن بعد أن توج النصر الجهود الأولى للجيش البروسي الحديث التنظيم ، وبعد أن أثار بسمارك شهوة ملك بروسيا العجوز للغزو والضم بالاستيلاء على لاونبرج ، بات في مقدوره أن يرقب المستقبل بعين واثقة مطمئنة . فإنه بوجود فرص احتكاك لا تُحصى مع النمسا رأى أنه سيكون في استطاعته أن يتحل في اللحظة المناسبة ذريعة لتجديد الحصار مع تلك الدولة وقطع العلاقات معها .

ولكن كان من الضروري له في هذه الأثناء أن يعمل على عزل غريمه عزلاً تاماً . وكان بسمارك مطمئناً من ناحية حدود بلاده الشرقية المتاخمة للروس .

فإنه كان في مقدوره الاعتماد عليهم بأن يلتزموا حياله حيدة مشربة بالود والصدقة . بيد أنه كان لا يزال من الضروري له أن يضمن ، إذا أمكن ، حياد فرنسا ، ومعاونة إيطاليا لبلاده معاونة فعلية .

وكان نابليون الثالث مثل تاليران وبريان^(١) أورياً صالحاً . فمع أنه رأى من الضروري أن يشجع بصلصلة السيوف وهدير المدافع روح أمته الحربية ، فقد كان يؤمن بضرورة استتباب السلم ، وبإرضاء الروح القومية ، وبالحكم النيابي . وورث المبدأ الذي كان عمه العظيم ينادى به وهو في سنت هيلانة : وهو أن تكوين مجموعات قومية كبيرة في أوروبا يساعد على استقرار الأمور فيها .

وليس ثم سبب للشك بأن عطف نابليون الثالث على الإيطاليين والبولنديين كان عطفاً صحيحاً بعيداً عن الزيف أو الغرض ، وأنه كان ينجح إلى التفكير ، بل كان يتشوف إلى المساهمة في إحداث تلك التغيرات العظمى في خريطة أوروبا : هذه التغيرات التي كانت لازمة لتحديد التخوم السياسية بين الدول بحيث تطابق تلك التخوم الرغائب القومية للشعوب مطابقة أقرب إلى العدالة ، ولكن بشرط ألا يحدث ذلك تبديلاً في التوازن الدولي لا يكون في مصلحة مملكته . ولهذا لم يسبب له تضخم بروسيا أى قلق ، فإنه لم يكن يحسب فقط أن من العدالة أن يضع البروسيون أيديهم على اللوقيتين ، بل إنه حتى قيام اتحاد ألماني شمالي تحت زعامة بروسيا لم يكن يثير في نفسه أى خوف . فقد كان يعتقد أن هذا الأمر يساعد على أن تستند الولايات الألمانية الجنوبية إلى ذراع فرنسا القوية ، وأنه يمكنه إذا ما أشهت بروسيا حرباً على النمسا من أن يكرر الضربة السياسية الباهرة التي سلخ بها سافوي ونيس عن بيدمت ، وأن حرباً كهذه ستؤدي إلى انضمام مقاطعة البندقية إلى إيطاليا . فلقد كان قلب نابليون ، كما حزر بسمارك يبصره النافذ ، خيراً من عقله .

(١) الوزير الفرنسي الشهير الذي ذاع بعد الحرب العالمية الأولى صيته برغبته الشديدة في توطيد السلام الأوروبي ومصالحة ألمانيا .

ولقد جلبت السنون الخمس التي أعقبت سنة ١٨٦٠ وهناً محسوساً في قوة الإمبراطورية الفرنسية وتراص صنفوها . فلم يصبح بعد رأسُ الدولة ذلك الرجل الذي عرفناه في انقلاب سنة ١٨٥٢ وحرب القرم . فقد هد الكد المتواصل والقلق المستمر بدأً كان أضناه من قبل السكر والعريضة . فإن مرضاً خطيراً اتسم بإحداثه تشنجات غير منقطعة تحدث آلاماً مبرحة لا تطاق كان قد أضعف إرادته ، فحل بنفسه الكلال ، وفترت ميوله إلى المغامرة وركوب الأخطار .

وكان نتيجة لهذا الوهن الجسماني من ناحية ، والعمل على تحقيق مبدأ عمه ، وتقييده بعض الشيء سلطان الحكومة الفرنسية المطلق ، وتخويل المجالس النيابية حرية أوسع للعمل من ناحية أخرى ، أن بدأ نابلون الثالث خلال هذه الفترة في إدخال المبادئ الحرة في الإمبراطورية . فخلو في ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٦٠ مجلسي الشيوخ والنواب أن يتداولوا ويقترعا على الخطاب السنوي الذي يردآن به على خطاب العرش ، وعين عدداً من الوزراء بلا وزارات كي يوضحوا مشروعات الحكومة لهما ، ويدافعوا عنها أمامهما ، وأباح نشر المداولات البرلمانية على الجمهور .

غير أنه في إعادته من جديد روح الحياة البرلمانية ، تأججت مرة أخرى العداوات الكامنة في صدور الأمة الفرنسية ، واشتعلت نيرانها المخبوءة . فقد لام الإكليروس الإمبراطور ، لأنه عاون الإيطاليين ضد البابا ، ولامه الأحرار لتخليه عنهم وحكمه البلاد حكماً استبدادياً . وهاجم رجال الصناعة سياسته الخاصة بحرية التجارة الأجنبية . وهاجمه أشياخ بيت أربليان لمصادرته أملاكهم ، وأنصار بيت بوربون لرضائه بإقصاء فرع بيتهم الذي كان يجلس على عرش نابلي . والآن وجد الإمبراطور الذي كان يتطلع ، بعد انتصاراته الباهرة في القرم وإيطاليا ، إلى فترة من الراحة الهيدة المستحقة يتمكن في خلالها من أن يؤلف سيرة خالدة ليوليوس قيصر ، ويزيد في إغناء بلاده بالسكك الحديدية والتلغراف والمصارف - وجد الإمبراطور

نفسه معرضاً لهجمات مقضة وضغط شديد عليه من جوانب الشيع المتنافسة : تلك الشيع التي شق عليه مقاومتها وهي متجمعة ، فمن الجهة الواحدة كان يُضغَط عليه كي يشد أزر البابا ، ومن الجهة الأخرى كي يني بوعده بالعمل على رد مقاطعة البندقية لإيطاليا . وأخيراً في ساعة من ساعات التحس أمكن لمشيريه من رجال الدين أن يقنعوه بإشهار حرب صليبية - جانب منها ديني ، وجانب آخر منها مالى - هي مغامرته في بلاد المكسيك القاصية .

٣ - مغامرة نابليون المكسيكية

كانت المكسيك ، تلك البلاد التي تشيع فيها الخلافات المزمنة والتناحر الدموي ، منشقة في ذلك الحين إلى شعبتين : إحداهما إكليريكية محافظة يتزعمها ميرامون Miramon ورئيس الجمهورية السابق (١٨٥٨ - ١٨٦٠) ، وأخرى معادية لرجال الدين ، وتترزع إلى التطور والارتقاء ، وتنضوى تحت زعامة بنيتو جوارز Benito Juarez الذي انتُخب رئيساً للجمهورية سنة ١٨٦٠ . وجوارز هذا منحدر من أصل هندي ، وقد أمتاز بتزاهته ، ونبل خلقه ، ووضوح آرائه ونظراته ، وقوة إرادته ، ولكنه كان مبغوضاً بغضاً شديداً في العالم الكاثوليكي بأسره ، لقوانينه وإجراءاته الخازمة الشاملة في الحد من سلطة الكنيسة وثروتها .

النزاع في
المكسيك

وقد احتكت كلتا الشعبتين إلى السيف للفصل بينهما ، واقترضت كلتاها أموالاً طائلة من أوروبا ، ووعدت كلتاها وعوداً سخية في تسديدها حينما تضع الحرب الناشبة بينهما أوزارها في صالحها . وقد أقرض ممول سويسرى في باريس اسمه جيكيه Jekker مالا لميرامون ، ووعده جيكيه الدوق دى مهورنى Duc de Morny ، وهو أخ غير شقيق لنابليون الثالث ، بأن يدفع له ٣٠ ٪ من الأرباح . غير أن الذى كسب الحرب كان جوارز ، لا ميرامون (سنة ١٨٦١) .

ولاح لرجال الدين الفرنسيين وأشياعهم ، وبالأخص للإمبراطورة
يوجينى أن قهر الهنود الملحدين ، وإقامة إمبراطورية كاثوليكية فى المكسيك
تحت رعاية فرنسا ، هما هدفان جليلان فى ذاتهما. أضف إلى ذلك أنه من
المحتمل أن يعودا أيضاً بربح مالى . حقيقة أن المكسيك كانت قطراً ثانياً ،
لا يُعرف عن مناخه وجغرافيته سوى التزر اليسير . فكان يُعرف عنه أنه قطر
فسيح ، وبذاع عنه أنه غنى غنى فاحشاً . وبما أن الأسبان هم الذين كانوا
قد فتحوه ، فكان يُخال - رغم أن ظواهر الأمور كانت تكذب ذلك -
أنه يحمل فى صلور أبنائه ولاء باقياً للكنيسة الكاثوليكية والأنظمة الملكية .
فتضاfer المال والسياسة والدين معاً على إبراز الفوائد التى تنجم من مغامرة
مكسيكية . . فقد كانت هذه المغامرة تدخل السرور إلى قلب القاتيكان ،
وترضى ندوة الأموال المالية ، وترفع من شأن الإمبراطورية ونفوذها . أضف
إلى ذلك أن الفرصة كانت ملائمة ، فقد كانت الولايات المتحدة تمزقها
الحرب الأهلية التى نشبت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية (١٨٦١ -
١٨٦٥) . ولذا أمل نابليون أنه فى الوقت الذى كان يتناحر فيه البروتستانت
الأنجلوسكسونيون بشأن الرق وحقوق الولايات ، يستطيع هو أن ينشئ
فى القارة الأمريكية دولة لاتينية كاثوليكية ، تكون بمثابة معقل أسمى لفرنسا ،
وسد حائل ضد الحركات النامية للهرطقة القرية .

وبينا كانت هذه الأفكار الكبيرة والمطامع الواسعة تتكون فى عقول
الفرنسيين ، انضم نابليون إلى إنجلترا وأسبانيا فى تنفيذ هذا الهدف المحدود
وهو : إرسال حملة حرية لإكراه الحكومة المكسيكية على الوفاء بديونها .
ذلك أن البرلمان المكسيكى كان قد أصدر قراراً نال تصديق الرئيس جوارز
فى ١٧ يوليو سنة ١٨٦١ بوقف تسديد جميع القروض الأجنبية لمدة عامين .
فاقلعت السفن الحربية إلى الجانب الآخر من الأطلسى ، ونزلت الكتائب
الإنجليزية والفرنسية والأسبانية فى ديسمبر سنة ١٨٦١ ويناير سنة ١٨٦٢
على الساحل المكسيكى القاصى الموبوء بالملايا . وأعاد اللاتين الأوربيون

أسباب تدخل
نابليون الثالث

حملة حربية إلى
المكسيك

إلى حكومة جوارز الجمهورية صوابها ، وأفهموها أنهم لن يرضوا بهذا التأجيل . وكان هذا الإجراء جائراً متعسفاً ، ما فى هذا شك . غير أنه كان أقل جوراً ، وأبعد عن الاعتراض ، من قرار نابليون عقب انسحاب جنود حليفته من المكسيك بعد زمن قليل من نزولهم بها ، بإبقاء الجند الفرنسيين ، بنية قلب حكومة المكسيك ، متأثراً بالوهم الخاطئ البعيد عن الحكمة والتبصر بأن أهل تلك البلاد ، الذين لم يكن يعرف عنهم غير الشيء الضئيل فى باريس ، يتلهفون إلى إبدال جمهورية جوارز الجديدة العصرية ، بملكية كاثوليكية إكليريكية .

مكسليان

ودعا بعض خصوم جوارز المكسيكيين ، بإعاز من نابليون الثالث ، الأرشيدوق مكسليان أخا فرنسيس يوسف إمبراطور النمسا فى ١٠ يوليو سنة ١٨٦٣ ، إلى قبول تاج الإمبراطورية المكسيكية الجديدة . ولكن لم يمض طويل وقت . حتى بدت مغامرة لإرغام الأمة المكسيكية على قبول عاهل أجنبي أمراً أعظم فى التكاليف من المال والرجال مما ظُنَّ أولاً .

أما مرشح الإمبراطور ، فما كان يمكن أن يوجه إلى شخصه أى مأخذ . فقد انحدر مكسليان من بيت هسبرج العريق المجد . وكان مقترناً بشارلوت ابنة ليوبلد الأول ملك البلجيك ، وكان مديد القامة ، وسيم الهيا ، حلو السمائل ، كريم الطبع ، ذا ماض مجيد حافل بالمآثر والأفضال أيام كان يحكم فى ميلان قبل اندماجها فى مملكة بيدمنت . والحق أنه كان حاكماً يقبل أى شعب يصبو إلى حكم هادئ وإدارة متزهة شريفة أن ياتمر بأمره . ولكن كان من سوء طالعهم أن المكسيكيين صدقوا عنه ، وبلغ بهم الشنوء أن يفضلوا قائدهم الجمهورى الخشن الذى يجرى فى عروقه الدم الهندى الممجى على أمير كامل المناقب ، يستطيع أن يزهو بانحداره من أعرق بيوت أوروبا المالكة وأشهرها .

وبان من أول الأمر أن الحراب والأموال الفرنسية هى وحدها التى تستطيع أن تدعم العرش الواهى لذلك الأمير الأجنبي العائر الجد . ولكن تأييداً

كهذا لم يكن في المقدور بطبيعة الأشياء ضمان بقائه مدة طويلة . ولقد جاءت النهاية على حين فجأة ، وعلى نحو مزرٍ بكرامة فرنسا أعظم زراية . فإن حكومة الولايات المتحدة على إثر إخضاعها الولايات الجنوبية سنة ١٨٦٥ ، أمرت الفرنسيين بلهجة حازمة بالخروج من المكسيك ، وأبت الاعتراف بالإمبراطور الذي فُرض على الشعب المكسيكى فرضاً . والحق أنها لقصة مفجعة من مبدئها إلى نهايتها ، تلك التي رواها يدمه مكسميليان السيء الطالع . فقد اضطر نابليون إلى سحب جنوده من المكسيك في فبراير سنة ١٨٦٧ ، وألح على مكسميليان بالأوبة معهم إلى أوربا . ولكن هذا أبى أن يهجر أنصاره من الوطنيين المكسيكيين . بيد أنه أجبر في يونيو من ذلك العام على التسليم إلى أعدائه ، ومات ربيعاً بالرصاص في كورينثارو .

تدورمية
فرنسا

ويشقُّ على المرء أن يغالى في تقدير الخسارة التي انتابت الإمبراطورية الفرنسية في كرامتها ونفوذها نتيجة الإخفاق العاثر للحملة المكسيكية . فقد أخطأ الإمبراطور في وزنه لكل شيء : في فهمه لطباع المكسيكيين وبساتهم ، وفي عدد الجنود الذين يُحتاج إليهم لإخضاع تلك البلاد ، وفي الصعاب التي أقامها المناخ في وجه الغزاة ، وفي مدى الأمل في فوز الولايات الشمالية الأمريكية في الحرب الأهلية . فإن الجند الفرنسيين حتى عندما كانوا في أوج قوتهم ، لم يستطيعوا أن يسيطروا سيطرتهم إلا على شطر صغير جداً من ذلك القطر الشاسع . يقابل هذا هزيمتهم في كثير من المواقع الصغيرة ، وإنما المواقع الهزئة ، وتبديد الأرواح العديدة نتيجة لفتك الأمراض التي انتشرت بينهم .

وقد انتقد السياسة الفرنسية في المكسيك انتقاداً مرّاً من أول الأمر ، الأحرار الفرنسيون الذين كانوا يسائلون أنفسهم : « أية مصلحة قومية تلك التي تعرضت للخطر حتى نتصر لقساوة المكسيك ورجائها ، ونغاضى عن المبادئ السليمة للثورة الفرنسية ؟ » وكانوا يشكون كيف أن جيشاً كان يمكن الانتفاع به ، لو أنه عسكر على حدود فرنسا الشرقية ، قد مُزق شللاً

مذر ، وهلك على بعد خمسة آلاف ميل من فرنسا ، في نزاع أضرمه القساوسة ورجال المال . ولقد كان أمراً باعثاً على الأسف أن المغامرة انتهت بالفشل ، ولكن ما كان أدعى من هذا إلى الأسى ، هو أنها لُقِّبَت في سخرية وتهكم « بحرب اللوق چيكيه » . ومُحِل عليها حملة شعواء كعمل نُهَضِر به لاستعادة خسائر موائد الميسر التي لحقت بزمرة من المضاربين ذوى النفوذ .

٤ - الحرب بين النمسا وبروسيا عام ١٨٦٦

مقابلة بيارترز

ما وافى خريف سنة ١٨٦٥ حتى كان فشل الحملة المكسيكية حقيقة واقعة . ولقد كانت خيبة الآمال في فرنسا مريرة المذاق ، وعار الهزيمة ماثلاً غير منكور . ولهذا كان أى رجاء في الحصول في جهة أخرى من الميادين السياسية على تعويضات قد تساعد على رتق الخرق وشغل الأنظار ، أمراً مرغوباً فيه ككل الرغبة . فتقدم الآن بسمارك بهذا المطمح إلى نابليون خلال مقابلة جرت بينهما في بيارترز Biaritz في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٦٥ . ووضع الداهية البروسى بتلك الصراحة المحببة التي جعلت منه دبلوماسياً جباراً ، جميع أوراقه على المائدة : الحرب المنتظرة ضد النمسا ، وتعديل دستور الاتحاد الألماني ، والاستيلاء على اللوقيتين الدانماركيتين ، وعقد تحالف لإيطاليا بروسى ، واستعداده للنظر في توسيع رقعة فرنسا إذا ما ضمن حينها في غضون الحرب القادمة بينه وبين النمسا . ولم يحدد ذلك السيامى الواسع الحيلة أى شيء على وجه الدقة ، أو يسجل شيئاً على الورق . بل كان يكتفى لأغراضه ، أنه مقابل تلميحات مبهمة بإعطاء تعويضات ، أظهر نابليون رضاه عن الخطوة البروسية ، وقبوله للوقوف موقف الحياد في حالة إشهار الحرب .

بسمارك بكل استعداداته

فجراً هذا الضمان الثمين — ولو أنه كان ضمناً غامضاً غير مأمون — بسمارك على المضى قدماً في إكمال استعداداته للحرب التي نسج حبالها ، وأخّر إعلانها رجعاً طويلاً من الزمان . فاشترى مساعدة إيطاليا الحربية

بوعدها بضم مقاطعة البندقية إليها ، وذلك حتى يمكن شغل العدو في جبهتين ،
وأتم مد السكك الحديدية البروسية ، كما قسم الجيش البروسى إلى جيوش ،
كل منها يعبا منطقة معينة ، ومجهز تجهيزاً تاماً بعتاده الكامل من الفرسان
والمدفعية والمهندسين . ولذا كان أسبق بأسبوعين في التعبئة من خصمه
فتوفرت له جميع الأسباب لارتقاب النصر .

إصلاح بسمارك
الدستوى

بيد أنه بقى احتياط أخير ، وجب عليه اتخاذه قبل السماح للمدافع
بأن تقصف رعوها . فقد كان عاملاً من عوامل عظمة بسمارك أنه كان يدرك
قيمة العنصر الأدبى في الحروب . فإنه إذ رأى أنه سينزل — كما كان قد
بيئت النية — في حلبة نضال بغض بغض كله على السواد الأعظم من الشعوب
الألمانية ، فقد أدرك أن انتحال ذريعة تكون أعظم أثراً وأقرب إلى القلوب من
هذا النزاع المحلى القذر الذى نشب وقتئذ بين الدولتين بخصوص حكم
اللوقيتين — أدرك أن انتحال هذه الذريعة ضرورة كبرى للنجاح نجاحاً
باقى الأثر ، ولم يكن يكفيه انتصار الجيش البروسى ، بل تاق أيضاً إلى أن
يتقدم بشىء جليل للأمة الألمانية .

وكان ما تقدم به غريباً حقاً . ففي ٨ أبريل سنة ١٨٦٦ أبرم التحالف
الإيطالى ، وفي اليوم التالى عرض هذا السياسى المحافظ الكبير مشروعاً على
النيت الألمانى ، يشتمل على إصلاح عام للاتحاد التعاهدى الألمانى ، وإنشاء
برلمان ألمانى ينتخب بالاقتراع العام . وقد كان يُظن أنه كان متأثراً في هذا
العمل بأراء لاسال Lassalle الاشتراكى الألمانى (١٨٢٥ — ١٨٦٤) .
ولكن الأرجح أنه كان كلزوايملى عرف في دخيلة قلبه أن الطبقة الوسطى ،
وإن كانت تميل إلى المبادئ الحرة ، فإن النظم الديمقراطية تجنح إلى تغليب
المبادئ المحافظة .

ومع أن برلين ادعت أن الاستغراز النهائى جاء من ناحية النمسا ،
إلا أنه لم يكن ثمة شك حقيقى في أن الحرب التى اندلعت في منتصف يونيو
سنة ١٨٦٦ كانت حرباً أرادها بسمارك ، وسعى إليها . فإن ملكه الذى عُهدت

إليه قيادة الجيش البروسى فيها قال بعدئذ الحق مجرداً من كل زخرف . قال : « إن حرب عام ١٨٦٦ لم تنشب لأن كيان بروسيا كان مهدداً ، أو صلوفاً لرغائب الرأى العام ، أو مشيئة الشعب ، بل كانت حرباً عُرِف قيامها قبل نشوبها بوقت طويل ، وأُعِد أمرها بعناية ، وسلمت الوزارة بضرورتها لا للحصول على توسع أرضى ، بل لإحراز القوة والتفوق للوصول بهما إلى زعامة بروسيا فى الريخ الألماني » . وقال بسمارك لـ تريتشكه Treitschke المؤرخ والكاتب السياسى الألماني بصراحة محبة : « يجب أن نَعترف أن ملاسنا لم تكن على الدوام أنظف الملابس » .

وفتحت هذه الحرب التى دامت سبعة أسابيع عيون أوروبا إلى النتائج التى يمكن الحصول عليها بتطبيق العلوم البروسية ، والأساليب البروسية ، على فن الحرب . فإن سرعة التعبئة البروسية ، ودقة الحركات البروسية ، وتفوق المدفعية البروسية ، ومهارة استخدام السكك الحديدية التى استخدمت للمرة الأولى فى الحروب ، كانت كلها نذراً تشير إلى طلوع عصر تَقَرَّر فيه أحداث التاريخ العظمى بالقدرة النسبية للدول على مدى استخدامهما لمواردها الفنية والعلمية ، وإلى أن تسيير دفة الحرب سيشبه أكثر فأكثر إدارة عمل صناعى واسع النطاق متشعب الفروع .

فقد قُطعت العلاقات بين النمسا وبروسيا فى ١٥ يونيو سنة ١٨٦٦ . وفى الأسبوع الأول من الحرب سحقّت بروسيا المقاومة النمساوية التى جابهتها فى الشمال الغربى من ألمانيا . وفى الأسبوع الثالث ، وعلى وجه التحقيق فى ٣ يوليو ، سُحِقَ الجيش الرئيسى النمساوى فى معركة سادوا^(١) بيوهيميا . وكان القتال حامى الوطيس ، وبقيت النتيجة فترة طويلة من الزمن معلقة فى كفة الميزان . وكُسِبَت المعركة فقط حينما صار جيش ولى عهد بروسيا فى موقف يمكنه من مهاجمة جناح العدو الأيمن . بيد أنه بقدر ما اشتدت مقاومة النمساويين لأعدائهم أثناء القتال ، بقدر ما عظم الخطب الذى ابتُلَى به جيشهم حينما

سادوا

(١) وتعرف عند الألمان بمعركة كينجراتز Koenigrats

حُطِمت تلك المقاومة في آخر الأمر . فلقد كانت الجريمة ماحقة ، وصار الطريق إلى فيينا مفتوحاً . فأمر ملك بروسيا العجزو الذي أسكرته نشوة النصر بالزحف عليها ، وأصر على ألا يعقد الصلح إلا فيها .

اعتدال بسمارك

بيد أنه ليس ثمة معيار موثوق بدقته للسياسة الفطنة الأربية خيراً من المقدرة على مقاومة سكرة الظفر السياسي . فإن بسمارك — بعكس نابليون الأول الذي كان يقسّي شروطه الدبلوماسية بكل انتصار حربي يحرزه . كان يعرف ما يريد ، وما لا يريد . فلم يكن جزءاً من خطته أن يهين المتساويين أو يخط من غير داع من قدرهم . فقد يغدو التحالف معهم أو وقفهم على الحياد في الأيام المقبلة ذا نفع كبير للملكه وبلاده . ولم يكن يريد استلاب أرض نمساوية ، أو كسب انتصارات حربية جديدة ، أو دخول قصبة العدو المخدول دخول الظافر المنتصر . بل كان يحسه أن تنسحب النمسا من ألمانيا ، وتسلم بسيطرة بروسيا على الدوقيتين الدنماركيتين ، وتمتنع عن معارضة تأليف اتحاد تعاهدى ألماني شمالي تحت زعامة بروسيا . بل إنه أبقى — مراعاة لمشاعر الحكومات الألمانية الجنوبية — أن يفرض أى شروط لإكراه تلك الحكومات على الانضمام إلى الاتحاد الألماني الشمالي . بل كان بالأحرى مستعداً لأن يوافق على إنشاء اتحاد تعاهدى منفصل فيما لو رامت ذلك .

ومع أن جمّاً غفيراً من بنى وطنه أخذوا ينادون بإقامة ألمانيا متحدة ، فقد تخوف من مثل هذا التسرع الجشع ، مقدراً أن اتحاداً ألمانياً شاملاً هو أقصى ما يخلق بروسيا أن تطمع يومئذ في هضمه وتمثيله ، أو يستعظم من فرنسا أن تسلم به في ذلك الحين . وكان قد عقد نيته من قبل لإعلان الحرب على أن يجعل نهر المين آخر تخومه ، ورفض بعد الانتصار أن يتراجع عن هذا القرار الحكيم . ورأى أن حركة جامعة الشعوب الألمانية هي حل يجب ألا يلجأ إليه ، إلا عند ما تلطم النواذب ، فهي تسوية عنيفة غير موثوقة العواقب ، يجدر حجبها والاحتفاظ بها لمقاومة ما يُحتمل حدوثه ، وهو إبرام تحالف بين فرنسا والنمسا . فقد كان أفضل له إلى حد بعيد ألا يقحم الآن مسألة ضم الاتحاد

الألماني الجنوبي إلى بروسيا ، وأن يسمح للألمان الجنوبيين أن يندمجوا في الاتحاد البروسي حينما يشاعون ، وكيفما يريدون. فاحتذى نهجاً يضمن له رضاهم . ومع أن الولايات الألمانية الجنوبية كانت قد انضمت إلى جانب النمسا في هذه الحرب فإنه لم يفرض عليها غرامات حربية . بل إنه في نقطة جد خطيرة ، تغلب في نهاية الأمر على رغبة مليكه ، فلم يسلبها أى أرض . ولقد لقي على الفور جزاء اعتداله . فإنه قبل أن ينصرم شهر أغسطس سنة ١٨٦٦ كانت بافاريا وورتمبرج وبادن قد أبرمت اتفاقيات حربية مع حكومة بروسيا . وكانت النمسا مستعدة لقبول هذه الشروط الحكيمة الكريمة . وقبل أن تنفيق أوربا من دهشتها لنبا هزيمة سادوا ، واجهت الحقيقة الواقعة ، وهى إبرام معاهدة براغ في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٦٦ التى أعادت الأمور إلى مجاريها بين الدولتين : بروسيا والنمسا .

صلح براغ

هذا وإن تعجل بسمارك السريع — بعد أن تغلب بمجزمه على معارضة الملك وقواد الجيش — بإنهائه القتال ، وعقده الصلح ، قام على تخوفه من أن الحرب لو طاللت ، فقد يكره على مواجهة فرنسا المسلحة . ولقد حدث ما يبرر قلقه . فإن نابليون عرض بعد يومين من معركة سادوا وساطته التى رأى بسمارك نفسه مضطراً إلى قبولها . فقد كان أخشى ما يخشاه هو أنه فى الحين الذى يكون فيه الشطر الأكبر من الجيش البروسى فى بوهيميا ، يكون نابليون قد عبأ جيشه ، وأوقفه على الرين ، ثم يطلب وهو يجرّد السيف فى وجه خصمه ، منح فرنسا تعويضاً كجزء من التسوية العامة .

ولكن نابليون فشل فشلاً تاماً فى الظفر بأى كسب لفرنسا من وراء الحريين اللتين شنتهما بروسيا ضد الدنمارك والنمسا . وكان فشله هذا هدفاً لمطاعن عنيفة وجهت إليه فى مجلس النواب الفرنسى . فقد حُكِمَ على فرنسا ، وأحاسب الغيظ والحسد والقلق تغمرها ، أن تشهد انتصار بروسيا المدوى : هذا الانتصار الذى مكّنها من ابتلاع هانوفر وهيسن كاسل والدوقيتين الدنماركيتين ، ومن السيطرة فوق ألمانيا حتى نهر المين ، ومن إضافة أربعة

حق فرنسا

ملايين وربع مليون من الأنفس إلى سكانها ، ومن قلب التوازن الدولي بأكمله في وسط أوروبا ، على حين أن الإمبراطور الفرنسي لم يحرك مدفعاً واحداً أو عسكرياً واحداً لنيل مزايا معوضة لمملكته . وقد أعرب المارشال راندون Randon عن شعور الحمية الذي تملك فرنسا يومئذ بقوله : « إن فرنسا هي التي هُزمت في سادوا » . وكانت هزيمتها هزيمة عجزت الدبلوماسية الفرنسية عن مداواتها . فقد كانت ضربة بسمارك أسرع مما توقع الناس ، وجاء بحث الفرنسيين وراء الأسلاب متأخراً أكثر مما يجب .

وظالب الإمبراطور في الفترة التي توسعت موقعة سادوا ونشوب الحرب الفرنسية البروسية بكل صنف من صنوف الترضيات : كأن يعطى بالاتينات الرين وهيس* ، أو الساروميتز ، أو البلجيك ، أو لكسمبرج . ولكن هذه الاتفاقات التي لم تسندها القوة رُفِضَتْ بلا محاملة . غير أن بسمارك احتفظ بالدلائل التي تشير بتقدم الإمبراطور له بها ، واستخدمها ضده في الوقت المناسب - الأمر الذي كان له أثر حاسم في جعل الدبلوماسية الفرنسية تبدو كركبة بمجوجة في نظر بافاريا وإنجلترا .

وقد نال الاتحاد الألماني الشمالي في ذلك الحين من بنائه بسمارك دستوراً . وضع أن هذا الدستور لم يحو غير قليل من المبادئ الحرة الإنجليزية ، إلا أنه كان متيناً قوياً ، بحيث احتمل العواصف والأنواء التي هبت عليه خلال اثنين وخمسين عاماً (١٨٦٦ - ١٩١٨) . وبمقتضى هذا الدستور ، أنشئ مجلس نواب سمي بالريشتاغ .

وكان هذا المجلس ينتخب بالاقتراع العام ، ولذا قام على أسس أكثر ديمقراطية مما كان يقوم عليها البرلمان الإنجليزي حتى سنة ١٩١٨ . ولكن طبقاً للمبادئ البسماركية ، لم يكن في مقلود الريشتاغ تأليف الوزارات أو إسقاطها ، أو الهيمنة على أموال الدولة أو القوات الحربية ، كما يفعل البرلمان الإنجليزي عن طريق إجازته كل عام مشروع قانون الجيش وضرورة تصديقه على الأموال التي تنفق عليه . ولهذا لم يتحول هذا المجلس الديمقراطي

حق السيادة في الدولة . وكانت الهيئة الحاكمة الحقيقية للاتحاد هي المجلس
التعاهدي Bundesrat . وكان يتألف في ذلك الحين من اثنين وأربعين
مندوباً يمثلون حكومات ولايات الاتحاد الشمالى المختلفة . وكان هذا المجلس
يتداول في هيئة سرية ، تحت رئاسة مستشار الاتحاد ، الذى كان في نفس
الوقت كبير وزراء بروسيا .

وقد خال الكثيرون من النقاد البروسيين مجلساً كهذا مربكاً معطلاً
للأمور بلا ضرورة . فكانوا يتساءلون : لماذا تعطى بروسيا عشرين أسرة
مالكة صغيرة حق التمثيل في الهيئة الحاكمة العليا للدولة الجديدة ؟ أولم تكن
الأنظمة المركزية أبسط وأفضل ؟ فقد كان في مقدور بروسيا أن تزيل هذه
الأنقاض الدارسة من بقايا الماضى . فقد أنزلت ملك هانوفر عن عرشه ،
وأنتهت حكم بيته . فلماذا تعنى الآن عناية بالغة بالإبقاء على عدد من الولايات
المنفصلة ، وتخويلها سلطة سياسية قد تستخدمها في التعطيل والتأخير ؟ بل
إنها سمحت لسكسونيا أحد أعضاء الاتحاد الشمالى ، بأن تمثل في بلاط
الملوك الأجانب بوزراء مفوضين مستقلين عن ممثلي الاتحاد .

بيد أنه ليس ثمة ريب في أن بسمارك كان حكيماً في مقاومة الغواية بأن
يجعل ألمانيا الجديدة دولة موحدة . فقد كانت البيوت المالكة في الولايات
الألمانية المختلفة متأصلة الجذور في تربة التاريخ الألماني . وكانت تستطيع
المساهمة بنصيب في أعمال الدولة . فلم يكن بسمارك ليكسب من وراء إزالتها
غير خلق الصعوبات غير الضرورية في الشمال ، وغرس شعور مقت عنيف
في نفوس الشعوب الألمانية الجنوبية لأية فكرة ترمى إلى إيجاد اتحاد أوثق عرى
بينها وبين الولايات الشمالية .

أضيف إلى ذلك أنه لم يكن هناك أى خطر من قيام حكومة قوية ذات
كفاية ومقدرة في داخل البناء الاتحادى . فقد كان لبروسيا أغلبية مأمونة
في البندسرات . وكانت بروسيا هي بسمارك . فإنه بمقتضى أحكام الدستور
القد الذى وضعه بسمارك ، كان مستشار الريخ الألماني مسئولاً أمام ملك

بروسيا وحده ، ولم تكن هنالك وزارة للاتحاد الألماني تعوق أعماله ، بل كان هو الرئيس الفعلي لجميع إدارات الحكومة وفروعها . ولم يكن البندسرات ، أو الريشتاغ ، أو برلمان بروسيا ليستطيع أن يقبله من منصبه ، أو يتحدى بدرجة فعالة إرادته ، بل كانت شخصية الوزير الأول الجبارة الهائلة تسيطر عاماً بعد عام على الموقف ، وتملأ أرجاء أوروبا طويلاً وعرضاً برعود خطبه القوية المدوية ، وتلقى على بنى جلده دروساً جديدة في فن حكم الجنس البشري . ولهذا كانت الفوارق عظيمة بين النظم التي ابتدعها كل من الدولتين القوميتين : إيطاليا وألمانيا ، هاتين الدولتين اللتين تدينان بكيانهما لكافور وبسمارك . ففي إيطاليا سحبت انتصار القومية إنشاء نظم برلمانية على الطراز الإنجليزي . أما في ألمانيا فقد هُزمت سيادة البرلمان على الحكومة هزيمة فاصلة . ولكن رغم أن النظام الحكوي الألماني وضع بحيث يضمن للأوتقراطية البروسية الكلمة العليا ، فإنه حرّمها من فوائد الدروس والعظات التي تنبه ساسة الدول الألمانية وتقوّم أخطاءهم . فإنه في فترات منتظمة كانت تيارات الانتخابات العامة المطهرة تطغى على الريشتاغ ، وتمكن شعباً جديدة من الرأى العام من التأثير في حياة البلاد السياسية . ولم تكن هذه التيارات تأتي وفق رغائب بسمارك على الدوام ، فإنه بينما استخدم الأحرار الوطنيون كل فن من أفانين الدعاوة الشعبية للحض على الوحدة الألمانية ، وتأييد النظم الجديدة للدولة ، عملت الأحزاب الكاثوليكية والاشتراكية على تحدى بسمارك ومقاومته .

كتب يمكن استشارتها

- J.W. Headlam : Bismarck and the Foundation of the German Empire. 1899.
 C. Grant Robertson : Life of Bismarck. 1918.
 Bismarck's Thoughts and Recollections. 1899.
 Pierre de la Gorce : Histoire du Second Empire. 1908.
 H.A.L. Fisher : Bonapartism 1909.
 E. Olivier : L'Empire Liberal. 1911.
 F.A. Simpson : Louis Napoleon and the Recovery of France, 1848-1856-1983.
 P. Guodalla : The Second Empire 1932.
 Lord Edmund Fitzmaurice : Life of Lord Granville.

الفصل التاسع عشر

تأسيس الإمبراطورية الألمانية

استمدادات بروسيا الحربية، تذبذب سياسة فرنسا . ميول رجال الدين الفرنسيين .
الأحرار والجمهوريون والاشتراكيون الفرنسيون . إميل ألغويه . المرشح لعرش
أسبانيا من بيت هوهنزولرن . بريقة إمز . تهمة إشعال الحرب . تفوق ألمانيا .
انحطاط كفاية القيادة العليا الفرنسية . عدم وجود احتياطى قوى مدرب .
سير القتال . العصيان الوطنى . ليون هبشتا . حصار باريس . جمعية بورديو .
صلح فرانكفورت ونصيب تيير فى وضعه . الألزاس واللورين . الإمبراطورية
الألمانية . مطامع بروسيا الواسعة .

١ - فرنسا فى أواخر العقد السابع

تذبذب السياسة
فرنسية
والآن ندنو من آخر وأعظم حرب من الحروب الثلاث التى خرجت من
بوتقتها وحدة الأمة الألمانية . فقد رأينا كيف أكرهت بروسيا أولا الدغاركين
على خوض غمار حرب ضدها ، ثم أكرهت بعدهم النمساويين . والآن أصبحت
فرنسا العقبة الوحيدة التى بدت كأنها تحول بين بسمارك وبين إدراكه وطوره .

ويجب ألا يفترض أن باريس التى أفلقها كل الإقلاق انتصار بروسيا
فى سادوا ، أهملت فى إظهار استيائها ، ومقاومة - فى حدود طاقتها -
امتداد سلطان بروسيا عبر نهر المين . نعم ، ربّ فيلسوف كان يقول لنفسه :
بما أنه ليس ثم مفر من أن تمّ الوحدة الألمانية يوماً من الأيام ، فإن فرنسا
تحسن صنعاً إذا هى مدّت دون تردد يد الصداقة والود لبروسيا ، ورضيت
بتغيير ليس فى مقلودها أن تمنع حلوله منعاً دائماً . بيد أن عاهل أمة مزهوة
ذكية سريعة التأثير كالأمة الفرنسية ، ليس له أن يكون فيلسوفاً . فإن أهواء

رعاياه ومخاوفهم ونقائصهم تحد من حريته . وحينا كان يؤكد كل جالس في مقاهي باريس ومتدبائها أن بروسيا قد أضحت من الآن علو فرنسا ، صار من المتعذر على نابليون الثالث أن يتصرف كأن ألمانيا صديقة لها . وكانت برلين تدرك إدراكاً جيداً أفكار باريس وجوانحها . ووضع لبسمارك ومشيريه الحريين أنهم لا يستطيعون إكمال بناء النصف الباقي من صرح الوحدة الألمانية دون تلاحن عنيف مع فرنسا . ولهذا واصلوا في جد وانتظام تأهبهم الحربى .

غير أن مجالس الإمبراطور الفرنسى لم تُبد جلاء في نظرتها إلى الأمور ، أو ثباتاً في مراميها وأهدافها ، كما أبدت بروسيا . فقد كان كل شيء في فرنسا غامضاً مبهماً ، عديم الثبات والاستقرار ، يميل إلى الطرب والاستخفاف ، وخيل للفرنسيين أن الحرب ليست جزءاً لا منلوحه عنه في برنامج بروسيا ، وبدت في عيونهم كأنها شر يمكنهم اجتنايه بحيل الدبلوماسية وخداعها . ووضعت مشروعات لعقد محادثات مع النمسا وإيطاليا ، وأجريت محادثات ، وتبدلت زيارات معهما . بيد أنه لم يرم شيء على وجه الدقة . بل كان هناك رجاء مبهم بأنه في حالة اندلاع حرب ، فإن الدنمرك وهانوفر وبافاريا سترحب بهذه الفرصة لإنزال القصاص بروسيا على قحتها وصلفها . ومع ذلك لم يُصنع شيء في هذه الناحية أيضاً لضمين تعاون تلك الدول مع فرنسا .

ورُسمت خطط هامة لإصلاح الجيش الفرنسى ، ولكن تركت من غير أن يدافع عنها دفاع قوى أمام مجلس نواب كان يترع إلى الاقتصاد ، فرفضت . فلأن مجلس النواب الفرنسى مع أنه كان يسلم بأن بروسيا هى العدو ، إلا أنه لم يخطر فى باله لحظة واحدة أن البروسيين صاروا أنداداً لمنازلة جيش فرنسا المدرب الدائع الصيت فى حومة الوغى . بل كان يُعتقد أن الحرب قد لا تصبح ضرورية على الإطلاق . فقد كانت صداقة فرنسا فى نظر ذلك المجلس شيئاً ثميناً . ومثل كل شيء ثمين يمكن للبروسيين أن يشتروها بشئ ما .

وقد سعت الدبلوماسية الفرنسية سعياً حثيثاً في الحقبة التي توسطت بين سادوا والحرب الفرنسية البروسية - سعت في التنقيب عن تعويضات لإرضاء الرأي العام في بلادها - الأمر الذي كان يسهل عليها الاحتفاظ بالسلم . وكانت أمامها ولاية بالاتينات الرين ولكسمبرج وبلجيكا . ولكنها كانت كلها أهدافاً حقاء خطيرة ، ولم يتج لفرنسا من محاولة بلوغها سوى الأذى والضرر . فإنه لما نعى خلال الحرب البروسية النمساوية إلى البافاريين ، عن طريق جريدة فرنسية كان قد وصل إليها هذا السر من بسمارك ، بأن فرنسا طلبت منه أن يعطيها شطراً من ألمانيا الجنوبية - وكانت ميون ولاياتها الجنوبية ضالعة مع فرنسا - لم يتردد البافاريون في إبرام معاهدة مع بروسيا جعلوا جيشهم بمقتضاها تحت إمرة بروسيا في حالة نشوب الحرب . وكذلك فعلت ورتمبرج وبادن . ثم أكره نابليون بعد ذلك على سحب مشروعه الخاص بشراء دوقية لكسمبرج^(١) تحت ضغط عدا بروسيا العنيف السافر .

ولكن ما كان أشد وطأة على نابليون الثالث من كل هذا ، هو ما حل بطلبه المتعلق بالأا يعارض بسمارك في فتح فرنسا بلاد البلجيك ، وهو الطلب الذي قدمه الكونت بندتي Benedetti الذي أوفد عقب سادوا إلى بسمارك لمفاوضته في شأن إعطاء فرنسا بعض تعويضات . فقد أرجأ بسمارك عامداً الإجابة عنه ، إلى أن نشبت الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ ، فنشر مشروع المعاهدة الذي كان نابليون الثالث قد تقدم به إليه سنة ١٨٦٦ . فأبعد بذلك عنه عطف الرأي العام البريطاني الذي كان يعد حياد البلجيك قدس الأقداس ، وتحول البريطانيون على الفور إلى الانتصار لجانب ألمانيا .

ومع أن بلاط نابليون الثالث ظل في مظاهره الخارجية متألقاً براقاً جواداً إلى حد الإسراف ، كما كان عهده من قبل . فإن روحاً من القلق والتخوف

(١) كانت دوقية لكسمبرج بمقتضى معاهدة لهذا أحد أعضاء الاتحاد الألماني . وكانت في الوقت نفسه تحت سيادة ملك هولندا ، غير أنه كان لبروسيا حق الاحتفاظ بحاميات في حصونها .

كانت تشيع في أروقة قصر التويلرى وأبهائه . فقد فقدَ الإمبراطور قدرته السابقة على الوصول إلى قرارات حاسمة . وكان وريث عرشه صبيّاً نابتاً . وأخذت تتجمع من كل فج حول الأسرة المالكة عاصفة هوجاء من المقاومة والتهم . ولم يُجَدِ نابليون نفعاً أنه ضحى المرة تلو المرة بالشىء الكثير لرجال الدين وأشياعهم الذين كانوا عماد سلطانه الإمبراطورى . فكان دفاعه عن البابا في روما بإبقائه حامية فرنسية فيها ، وإنفاذه أربعين ألفاً من المقاتلين الفرنسيين الأشداء في حملة كاثوليكية إلى المكسيك ، وإقصائه ديروى . Duruy أعظم أئمة التربية في القرن التاسع عشر من منصبه — كانت كل هذه التضحيات وغيرها عبثاً في عبث . فافقُ رجال الدين ساخطين غير قانعين ، ولم يغتفروا البتة لهذا العاهل تدخله الأول سنة ١٨٥٩ ، الذى مكن الإيطاليين الزنادقة من طرد بيتى هسبرج وبوربون من أرض إيطاليا ، وسلب البابا الشطر الأكبر من ولاياته . فإن الأساقفة الكاثوليك أصحاب الحول والطول الكبير ، والصحف القوية المتغالية في التشيع للبابوية بزعامة لويس فيو Louis Veuillot — وهو صحافى نازى المزاج — إن هذه الصحف كانت تعتبر أن واجب الحكومة الفرنسية الأول هو تأييد المصالح الكاثوليكية في جميع الأقطار والأمصار . فطفقت تصب جام غضبها المطرد على حكومة نابليون عند كل إحجام من جانبها عن مؤازرة الإكليروس . ورأت في حركة إيطاليا القومية العدو الأكبر للكنيسة . وأشادت بالمنشور البابوى الذى أصدره البابا بيوس التاسع في ٨ ديسمبر سنة ١٨٦٤ يعدد فيه ثمانين ضرباً من ضروب الهرطقة ، وذم فيه من بين ما ذمه من سمات المدنية المعاصرة ، نظام الانتخاب العام ، وبالتالي ذمّ ضمناً إمبراطورية نابليون الثالث التى قامت على الاستفتاء الشعبى .

الأحرار
والجمهوريون
والاشتراكيون
الفرنسيون

فلذا كانت هذه هى وجهة نظر القساوسة ، فن الميسور تصور حال الرجال النزاعين إلى الارتقاء والتقدم الذين لم يصبروا شيئاً جليلاً في حكم نابليون يحملهم على الإشادة به . فلم يكن ثمة أى سناء يحيط بقوله Fould

المالى اليهودى وأحد وزراء المالية ، أو روهيه Rouher المحامى والسياسى الذى شغل فى عهد نابليون عدة مناصب وزارية ، أو هوسمان Haussmann المهندس الضليع - ولكنه غير المحبوب - الذى شق شوارع باريس الكبرى الرحبية Boulevards ، وجعلها المدينة العصرية التى نعرفها - لم يكن هناك سناء يحيط بهؤلاء الرجال الذين قربهم نابليون إليه ، وقلدهم أرفع المناصب .

ولم تكن ثمة حالة من المجد تطوق سياسة الإمبراطور الخارجية فى الأيام الأخيرة من حكمه ، بل كانت هنالك على التقبض من ذلك سلسلة من الفشل والتخللان والنكسات . وكانت الشيبة ترى أن الحكومة فى عوز إلى دم فقى . وكان الأحرار فى مجلس النواب هيئة نامية يترعها إميل ألفيه Emile Ollivier ، وهو بمثابة غلاستون فرنسى ، ولكن لم تكن له شجاعة الزعيم الإنجليزى الكبير . وكان ألفيه مشايماً للإكليروس ، سامى المبادئ والأهداف ، متفقاً بليغاً ، وكان الأحرار يحضون على توسيع الحريات التى منحت عام ١٨٦٠ ، وإقامة حكومة مسئولة . وبعد صمت طويل الأمد استعادت المبادئ الجمهورية قوتها فى شخص ليون غمبتا Leon Gambetta ، وهو علم ناشئ من أهل الجنوب ، أخذ يدعو إلى إسقاط الإمبراطورية . وشدد الاشتراكيون الذين اكتسبوا قوة وكرامة من وراء تأليفهم هيئة دولية ، ومنفيو عام ١٨٥٢ الذين فك عقالم صلور عدد من قوانين الغزو العام - شدد هؤلاء القوم النكير على الإمبراطورية وزادوا النار سعيماً واضطراباً .

ولكن ما كان أدهى على الإمبراطور وأفرع له ، هو أنه لم يكن محط الكراهية ولقت فحسب ، بل كان هدفاً للسخرية والنهكم . فكان مما يضيّق له صدره أن يمد إليه رجل الشارع أصبح الاتهام كقاتل زعيم . ولكن ما كان أقتل له حتى من هذا هو تهكم جريدة لا لانترن La Lanterne اللاذع الباهر المتلرار . وكانت لسان حال رشفور Rechefort الذى كان من بين جميع الصحافيين الفرنسيين فى تلك الآونة ، أكبرهم موهبة فى فن السخرية اللاذعة والمجون القاسى غير المسئول .

وكان الموقف في آخر عهد الإمبراطورية على أقصى درجة من الحرج وبدا للعديد من الناس من انتخابات عام ١٨٦٩ ، التي ظفرت المعارضة فيها بما يقرب من نصف الأصوات الملقاة في صناديق الانتخاب رغم ضغط الحكومة على الناخبين - بدا للعديد من الناس أن سياقاً يوشك أن يبدأ بين الثورة الداخلية والحرب الخارجية : فإما أن تهلك الإمبراطورية بضربات مهاجمها في الداخل ، وإما أن تتمكن من إطالة أجلها بحرب ظافرة تصون بها كرامة فرنسا في الخارج . وكان هناك طريق ثالث حث ألفيه الإمبراطور على سلوكه ، وقد انتهجه الأخير بعد تردد كثير ، وهو أن يطبق نابليون في فرنسا المبادئ الحرة للأنظمة الملكية في إنجلترا وإيطاليا . فإن وزارة متجانسة مسئولة أمام مجلس النواب قد يتسنى لها أن تخفف عن كاهل الإمبراطور عبأه القادح ، وترضى عقلاء الأمة ، وتسلب الثورة أكبر أسباب اندلاعها ، وبذلك تحفظ البيت المالك من السقوط .

ووضعت التجربة موضع الاختبار . ففي الثالث من يناير سنة ١٨٧٠ وجد ألفيه نفسه على رأس حكومة حرة . وعُدّل الدستور وفق مبادئ حرة . وقُدّمت الإصلاحات إلى استفتاء شعبي ، فقبلت بأغلبية تقرب من ستة ملايين صوت ، وبدأت دوائر البلاط تشعر بالاغتياب والفرح . وخيل كأن كل شيء يشير إلى بدء عصر يسوده السلام ورغد العيش ، وحقبة جديدة من السلطان والعز للإمبراطورية .

وشرع اللورد كلارندن وزير خارجية بريطانيا - بليعاز من ألفيه - يعرض على بسمارك مشروعات لنزع السلاح . وصرح رئيس الوزراء الفرنسي الجديد « بأنه أينما نوجه أنظارنا ، نرا الجو خالياً من المعضلات المتعبة . ولم يكفّل السلام في أوروبا في أية لحظة خيراً مما هو مكفول الآن » . غير أنه لم يتصرم شهر واحد على هذا التصريح حتى أدى اندلاع ثورة في أسبانيا وخلو عرشها إلى أمر غير مرتقب ، وهو شوب لظي حرب جرفت نابليون وألفيه والإمبراطورية الثانية أمامها . وفي الوقت ذاته صيرت حلم الوحدة الألمانية حقيقة واقعة .

٢ - الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠

المرشح الألماني
لعرش أسبانيا

فقد نعى إلى باريس في ٣ يوليو سنة ١٨٧٠ أن الأمير ليوبولد من أمراء بيت هوهنتولرن سجمارتجن Hohenzollern Sigmaringen ، وهو قريب بعيد للملك بروسيا ، وابن الأمير أنطوني الذي شغل قبلاً منصب كبير وزراء بروسيا ، وأخو الأمير شارل الذي انتخب سنة ١٨٦٦ أميراً على رومانيا - نعى إلى باريس أن هذا الأمير قبل عرش أسبانيا الشاغر ، على شريطة تصديق الكورتس الأسباني على اختياره . فنشأ في الحال موقف من التوتر الدبلوماسي بالغ الخطورة . ذلك أن ترشيح الأمير الهوهنتولرن كان قد عُرض على بساط البحث بشكل سرى في برلين سنة ١٨٦٩ . وأحبط البروسيون وقتئذ علماً باعتراف الفرنسيين على ترشيحه ، فقد عده الأخيرون جزءاً من خطة تنطوي على تهديد بلادهم بخاطر عودة إمبراطورية شارل الخامس ، وقلب التوازن الدولي الأوربي في غير مصلحتهم .

فما الذي دعا إلى تجدد هذا الترشيح المبغوض في يوليو سنة ١٨٧٠ ؟ إن الحكومة الفرنسية انتهى رأيها على الفور إلى أن بسمارك ينصب لها أحبولة من حباله ، بغية إذلال الأمة الفرنسية . ورأت أنه إذا لم يُسحب الترشيح قبل انعقاد الكورتس في ٢٠ يوليو ، فإن فرنسا ستكره على إشهار الحرب على بروسيا . وأخبر اللوق دي جرامون Duc de Grammont وزير الخارجية الفرنسية مجلس النواب في ٦ يوليو بأن هذا الأمر يحس شرف بلاده ومصلحتها . بل إنه حتى ألفيه السيامي الأريب الحر الميال إلى المسالمة ، الذي كان قد صرح إلى مصدر ألماني بأنه لن يكون شريكاً لأية حركة ترمي إلى أن تقاوم بلاده بحمد السيف أى اتحاد اختياري بين جنوب ألمانيا وشمالها - حتى ألفيه استغزه هذا الشرك المزعوم الذي حاكه ختال بروسيا وسوء نواياها المبيتة . ولكن وسط هذا الفوران العام الفرنسي الذي ارتفع إلى أوج الحمى ، هبطت بقة على باريس في ١١ يوليو - كما يهبط المن من السماء - أعصار

غير رسمية بأن الأمير أنطوني هوهنتولرن أمكن استأثته إلى أن يعلن باسم ابنه نزوله عن ترشيحه للعرش الأسباني . فكانت دهشة باريس عظيمة ، وروح الفرح والغبطة فيها أعظم ، وبدا كأن الخطر قد أبعد ، وأن تصريحات فرنسا قد أثمرت ثمرها . وأعرب الإمبراطور وألفيه عن ارتياحهما . أفلم يكن هذا ينطوي ، لا على صون السلم فحسب ، بل على صون السلم مع الشرف ؟ . وأكد جيزو الوزير السابق العجوز أنه لا يذكر نصراً دبلوماسياً أحرزته فرنسا أعظم من هذا النصر .

عمل دبلوماسي
طائش

بيد أنه سرعان ما كُسب السلم ، حتى راح ضحية عمل دبلوماسي طائش يدل على الحقم والرعونة . فإن جرامون ، وهو دبلوماسي محترف ، كان أكثر من كبير الوزراء ميلاً إلى الحرب والأخذ بأساليب الشدة - فلم يكتف بأن يعلن « الأب أنطوني » تخلي ابنه عن الترشيح ، بل رأى ضرورة الحصول على تأكيد صريح من ملك بروسيا بتصديقه على هذا التخلي ، وتمهده بعدم تجديد هذا الترشيح قط في المستقبل . بل إنه ذهب حتى إلى المدى البعيد ، بأن يقترح على السفير البروسي بباريس أنه يجدر بملكه أن يعرب عن أسفه على حدوث هذا الترشيح إطلاقاً .

ومن سوء الطالع ، لم ينفرد جرامون بهذا الطيش وتلك الحماسة ، فإن غراً أحق آخر وقف في مجلس النواب الفرنسي - الذي كان قد أذكت فيه لظى حمى متأججة من التحمس والهوى في الأيام القليلة السابقة - وطالب حكومته بضرورة حصولها على تأكيدات واضحة . وانتقلت هذه الصرخة من المجلس إلى القصر الإمبراطوري ، فجرفت أمامها تعقل الإمبراطور واعتداله ، فأنفذ هو ووزير خارجيته - من غير علم ألفيه والوزارة - تعليمات في ١٢ يوليو إلى بندق سفيره ببرلين ، بأن يقابل الملك ولهم في مدينة إمز *Emm* ، ويحصل منه على تأكيد بأنه يشترك مع الأمير أنطوني في تنازل الأمير ليوبلد ، وأنه لن يقر البتة أية محاولة لتجديد إجلاس أمير من آل هوهنتولرن على أريكة العرش الأسباني . ومع أن هذه المشكلة الأسبانية لم تعرض قط على الوزارة البروسية ، إلا أن الفرنسيين كانوا على صواب في حدسهم بأن سبارك كان قطب الرضى في هذه

بسمائه منصب
المبال

الأحولة . وفي الواقع لم يترك بسمارك وسيلة من الوسائل إلا طرقها ، لكي يحبط المحادثات المساوية الفرنسية بشأن تقرب الدولتين ، وسعى إلى عقد تحالف بين روسيا وأسبانيا يفتح الأسواق الأسبانية في وجه التجارة البروسية ، ويكفل لبلاده في حالة نشوب حرب دولة صديقة عبر البرانس . ولهذا حض الأمير الهوهنتزلرن على قبول الترشيح ، وحض الأسبان على تجديده ، وحض مليكه على أن ينظر إليه بعين الرضا ، وأن يتصرف فيه كأمر سرى للغاية . وبينما كان ينكر في دهاء معرفته رسمياً بهذه المسألة ، سعى كي تُبحث في اجتماع خاص لمجلس الدولة حضره الملك والأمراء وأقطاب الحرب . وقد روعيت بشأن انعقاد هذا الاجتماع أشد ضروب الكتمان والتستر . وأمل بسمارك أنه قبل أن يلرى أحد حتى الفرنسيون بأن عرضاً كهذا قدّم ، فلن الأمير الألماني يكون قد زُكي وقبّل ملكاً بصفة رسمية في ملريد .

فإن بسمارك رأى حدوث إحدى نتيجتين ، كانت كلتاهما ملامحة لأغراضه ، وهما : إما شوب حرب بين فرنسا وبروسيا ، أو ما هو أقل ملاءمة لمقاصده ، شوب حرب بين فرنسا وأسبانيا . ولهذا فإنه علم في ١٢ يوليو ، وقلبه يطفح خيبة أمل برفض « الأب أنطوني » هذا العرض الكبير ، إذ كان معنى ذلك انتصار الدبلوماسية الفرنسية ، وعجزه عن الاختصاص من الصحافة الباريسية على قبحها وتهجمها . وهو يصف هذا الموقف في مذكراته « أفكار وذكريات » بأنه أكبر إذلال أصاب بلاده منذ ألتير .

برقية إمز

بيد أن جرامون خلصه من وجوه ومراره نفسه . فإنه لما حظى بتلقى بمقابلة ملك بروسيا في صباح ١٣ يوليو وهو ينتزه في شوارع إمز ، قابله الملك الهرم مقابلة مجاملة ، ولكنها حازمة أيضاً ، إذ رفض إعطائه أى وعد . ثم رجا السفير الفرنسي مرّتين تحديد موعد لمقابلة أخرى مع الملك ، غير أنه رفض استجابة طلبه . وأرسل الملك إلى بسمارك برقية يقول فيها ، إنه وصله إخطار رسمي من الأمير ليوبولد بتنازله عن الترشيح ، وإنه موافق على هذا التصرف . وأعرب لوزيره الأول عن رأيه بأن هذا سيؤدي إلى فسخ المشكل .

وأخبره أن المقابلة التي جرت بينه وبين السفير الفرنسي — وكان كلامهما يتوق إلى تجنب بلاده الحرب — كانت تسودها المجاملة البالغة والشعور الطيب .

وتسلم بسمارك في مساء ذلك اليوم البرقية الملكية التي تروى هذه الوقائع ، بينما كان يتمتع مع ملئكته رئيس هيئة أركان الحرب ورون وزير الحرية . فأبصر هذا الاستراتيجي الأكبر في لمح البصر بأن خصمه قد وقع في الفخ . ذلك أنه رأى أن يصدر بياناً إلى الصحف يضمنه فحوى البرقية ، ولكن بعد أن يُعمِل في نصها تغييراً أريباً طفيفاً ، بحيث تبدو كأن السفير قد أهان الملك ، وأن الملك أكرمه على أن يرد الإهانة أضعافاً . ولما قرأ بسمارك على القائدين الشهيرين النص المعدل للبرقية ، اغتبطا اغتباطاً كبيراً . وقال ملئكته : « إنه تحد » ، وقال فون رون « إنه لشئ جميل » . وكان بسمارك والقائدان على محجة الصواب ، فإن برقية إمز هي التي أشعلت نار الحرب بين فرنسا وألمانيا .

فرنسا تعلن
الحرب

ففي صباح ١٤ يوليو اندفع جرامون إلى مكتب ألفيه ، ويده نسخة من جريدة « شمال ألمانيا » Norddeutsche Zeitung ، حاوية نص بسمارك لبرقية إمز . فصاح ألفيه « ناقة إنهم يرمون إقحام الحرب علينا » . ولقد كان ذلك اليوم في باريس يوماً عصيباً حافلاً بالتردد وعدم الوصول إلى قرار حاسم . فقد أخذ بندول النقاش في مجلس الوزراء الفرنسي الذي عقد ذلك اليوم يشير مرة إلى غلبة السلم ، ثم يتحول تحولا عاجلا إلى ضرورة تجريد السيف . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر صدرت الأوامر باستدعاء الاحتياطي . وفي منتصف الساعة السابعة تقرر دعوة مؤتمر ، غير أن الرأي تصب بعد العشاء في جانب امتشاق الحسام . وفي منتصف الليل انتهى المجلس إلى إعلان الحرب . وقد حضرت الإمبراطورة الاجتماع في العشية حينما اتخذ المجلس قراره الخطير . ومع أنها التزمت الصمت ، إلا أن موها كانت معروفة بانتصارها بجانب الحرب .

وأظهرت باريس رأياها بشكل جلي . وقال الإمبراطور حيثئذ : « إنه حتى إذا لم يكن ثمة باعث لنا نستطيع أن نتقدم به لخوض غمار الحرب ، فلنا

مضطرون إلى الامتثال لمشئنة الشعب . بيد أن الشعب دلّ على جهله الكبير بحقائق الموقف في هتافاته التي ملأت الشوارع : « إلى برلين ، لتحيا الحرب » .

وإذا كانت باريس قد استقبلت الحرب في تهليل وتكبير ، فقد قوبل إعلانها في تردد وأسف في إحدى وسبعين مديرية من مديريات فرنسا السبع والثمانين ، فقد كانت في نظر هذه المديريات حرباً لا ضرورة لها ولا معنى .

وإن على أكتاف بسمارك وجرامون يجب أن تُلْقَى أكبر التبعة في إعلانها :

تبعة الحرب

فعلى بسمارك ، لأنه حبك حبال مؤامرة ترشيح الأمير الألماني سراً ، ولتحويله نص برقية إمز ، وعلى جرامون ، لتعجله في السير وراء أهوائه المتدفعة ، وقطعه عامداً أسباب السلام . كما أنه لا يمكن إعفاء الملك وليم والإمبراطور نابليون من اللوم والمؤاخذه . فإن الملك وليم الذي كان أنموذج الشرف والتبل ، سمح لنفسه ، ضد رأيه الصائب ، أن يسجّر إلى التصديق على المغامرة الأسبانية من غير استشارة فرنسا ، برغم معرفته بأن لها مصلحة في هذا الشأن . وكذلك لا يقل نصيب الإمبراطور في اللوم والتفريع ، لأنه انضم إلى جرامون في طلب الضمانات الذي أدى إلى هذه الحرب المشنومة . أما أن موقفه قد جعل شاقاً عسيراً بتحتمس الخطباء الفرنسيين المحافظين المتهورين في مجلس النواب ، وبلهجة صحف باريس النارية ، فما في هذا ريب . بيد أن عاهلاً قوياً حازماً خلق به الاحتفاظ بهدوئه ورجاحة رأيه خلال الأزمات . وبما هو جدير بالذكر أن تيير ، خير ساسة عصره ، لم يخش أن يجاهر برأيه ضد الحرب .

غير أن كل شيء حدث في عجلة خارقة . فبينما أوروبا ترتع في بحبوحة من السلام والطمأنينة ، إذ بها في أكثر قليلا من أسبوعين تنزلق إلى سعي حرب مستطيرة شعواء . وفي أوج موسم الإجازات الصيفية ، حوّلت الأسلاك البرقية والصحافة اليومية شجاراً لم يكن قط مرتقباً إلى نهاية وبيلة ، فقذفت بأمتين من أسمى أمم العالم مدنية في جحيم حقد وحشي وكراهية شرسة ، قبل أن تتمكن عوامل التعقل وأواصر الحوار من أن تُسمع أصواتها السلمية . وعلا فوقها من كلا الجانبين صليل السيوف ، وهدير المدافع .

تفوق الجيش
الألماني

وطاشت ظنون جميع الأنبياء ، وكذبت تكهناتهم . فإن جيش فرنسا المنظم ذا الصيت الذائع والانتصارات الكبيرة ، بدلا من أن ينقل ساحة القتال إلى جنوب ألمانيا ، حُطِّمَ تحطيماً في شهر واحد . ولم تكن هذه النتيجة بعائدة إلى نقص في مناقب الجندي الفرنسي الحربية ، بل إلى الحقيقة بأن النظم الحربية الفرنسية كانت بالغة أقصى حدود القصور وضعف الكفاية ، على حين أن الجيش الألماني كان قد أكمل استعداداته الحربية الدقيقة ، وكانت الأمة الألمانية أعظم أمة شهدها العالم حتى ذلك الحين نظاماً وترتيباً .

ومن أبلغ الدروس التي يمكن استخراجها من هذه الحرب الموازنة بين الدولتين المتحاربتين في مسألة التعبئة الجلية الخطر . فبينما الجندي الألماني عند ما دُعِيَ إلى القتال ، وجد أسلحته وبزته العسكرية على أكمل وجه ، كان على الجندي الفرنسي أن يسافر أحياناً بطول فرنسا ، بل كان عليه أحياناً أن يعبر البحر إلى بلاد الجزائر لكي يصل إلى مستودع مهمات فرقته . فكانت النتيجة أنه على حين تم نقل الجيش الألماني إلى الحدود بدقة آلية ونظام مضبوط ، سادت أشد ضروب الاختلال السكك الحديدية الفرنسية ، بحيث كان الألمان على الحدود بقوة متفوقة قبل أن يستعد الفرنسيون للملاقاة . ولما كانت فرصة نابليون الوحيدة لحمل النمسا على الدخول في هذه الحرب إلى جانبه هي إحرازه نصراً باهراً مبدئياً ، فقد أسفر العجز الكبير وعدم الكفاية الهائلة لنظام التعبئة الفرنسية ، عن نتائج خطيرة كبيرة القدر .

واختصر الغزاة بميزة أخرى على خصمهم ، هي أنهم كانوا قد درسوا هذه الحرب التي أزمعوا خوضها بإحكام عظيم ، على ضوء آخر التطورات التي تمت في التلغراف ومدفعية الميدان . وعلى حين أن الفرنسيين لم يحل في خاطرهم البتة الاحتمال بأنهم قد يُكْرهون على الذود عن أرض وطنهم ، فإن الخطة الروسية لغزو فرنسا كانت قد وضعت منذ ثلاث سنين ، فرسمت الطرق على الخرائط ، وقُدِّرت المقدرة الثقيلة للسكك الحديدية . ولم تترك هيئة الأركان العامة الروسية في برلين شاردة أو واردة من التفاصيل الخاصة

بتنظيم الجيش الفرنسى ، وتسليحه ، وتوزيع وحداته ، دون أن تحيط بها علماً . وكانت تضاف باستمرار إلى المعلومات العديدة التى جمعها هيئة أركان الحرب البروسية معلومات جديدة ، بواسطة سياج متحرك من الخيالة المراقبين الذين كانوا يتقدمون بتقديم الجيوش الألمانية الثلاثة فى فرنسا .

وربما ظن بعض الناس أن لإحكام النظام الحربى الألمانى ودقة جزئياته أخذاً فى أفراد ضباطه روح الابتكار . ولكن الواقع كان غير ذلك . فقد كان مبدأ من مبادئ هيئة الأركان العامة الألمانية أن تشجع صغار القواد على الاضطلاع بالمسئولية ، ولهذا بينما كانت حركات الجيوش الفرنسية تعاق بخضوع قوادها الفائق لقيادة الجيش المركزية ، لم يحدث - حسباً يبدو - أن قائداً ألمانياً تردد فى الزحف إلى حيث تقصف المدافع ، أو فى قذف جنوده فى حومة الوعى ، حيث يرى الحاجة ماسة إليهم . والحق أن روح الابتداع والابتكار الرائعة التى أظهرها أصاغر القواد الألمان هى مظهر من أبرز مظاهر تلك الحرب .

وفى الحروب يتوقف كل شىء على مقدرة الإدارات المدنية وقيادة الجيش العليا على العمل معاً فى تضافر ، وعلى بث الثقة فى النفوس ، وتوجيه الأمة والجنود إلى مرام واضحة ثابتة مذكية للعزائم . وفى جميع هذه المسائل الجزئية كانت فرنسا فى مركز عائر فى صيف عام ١٨٧٠ . فلم يكن هناك أى نظام ، أو حماس ، أو همة ؛ لا فى القيادة الحربية العليا ، ولا فى تنظيم المدنيين . فقد كان نابليون مريضاً مهدماً تمزقه الآلام المبرحة ، وكان لى ييف Leboeuf وزير الحربية وبازين Bazaine خلفه فى القيادة العليا ، على أكبر درجات العجز وقلة الكفاية .

نقص كفاية
القيادة العليا
الفرنسية

وخلف هؤلاء قامت فى باريس حكومة مدنية شديدة الجزع والملمع تترعها الإمبراطورة الحسنة المكروهة . وأخلت هذه الحكومة تواجه غمرات من التمرد الشعبى تعلو وتصخب على جناح السرعة . وفى الجهة المقابلة لهذا المشهد من القصور الحربى والفوضى المدنية ، وقعت أمة متحدة ، وبيت

مالك عريق الأصول ، وثالث هائل جبار يتألف من بسمارك ، وفون رون ، وملتكه ، يؤازره جيش من الضباط العسكريين والموظفين المدنيين دُربوا في خير مدرسة من مدارس الخدمة العامة الموجودة يومئذ في أوروبا .

ويمكن إضافة وجه آخر لهذه الموازنة بين الدولتين ، وهو أن الألمان كانوا يسرون وفق نظام قصير الأجل للخدمة العسكرية . أما الفرنسيون فكانت مدة الخدمة العسكرية عندهم طويلة الأمد . فبينما النظام العسكري البروسى يحدد عامين للخدمة في الجيش العامل ، وأربعة أعوام في الاحتياطى ، وخمسة أعوام ونصف عام في الرديف ، مما كان مقدراً له أن يخرج جيش ميدان يتألف من خمسمائة ألف مقاتل ، ورائهم عرمرم من الوحدات المدربة ، كان النظام الفرنسى الذى يفرض خمسة أعوام للخدمة العسكرية ملائماً إلى درجة ما للحملات الاستعمارية عبر البحار . ولكنه لم يكن يجدى قتيلاً في الحروب الكبرى . ولو أن الجيش النظامى الألمانى هلك في المراحل الأولى للحرب ، لكان من الميسور تعويضه بجند قضا المدة الكاملة للتدريب في الجيش العامل ، أما الجيش الفرنسى فإنه حينما أبيد ، أو فرق شذر منثر ، أكرهت البلاد على الاعتماد على جنود كانوا إلى أكبر حد خاماً غير مدربين . ولقد أحست فرنسا بهذا النقص الفادح أشد إحساس في النصف الثانى من الحرب .

وكان تاريخ الشطر الأخير من صيف سنة ١٨٧٠ مأساة كبرى متصلة التوائب والكوارث لفرنسا . فإن الألمان جرفوا كل شىء أمامهم بقوة هائلة لا تقاوم ، فدخلوا ماكاهون Macmahon في ثرت Worth وهزموا فروسار Frossard في إسيشرن Spichern . وبهذين الانتصارين : الواحد في الأنزاس والثانى في اللورين ، واللذين أحرزاً كلاهما في ٦ أغسطس — أى بعد يومين فقط من بلوغ الجيش الغازى الحدود — بهذين الانتصارين الألمانين هبت عاصفة عاتية من الاستنكار الشديد ، وعت موجة طاغية من التشاؤم والملح في طول فرنسا وعرضها ، حتى اضطر الإمبراطور إلى أن تاريخ أوروبا

عدم وجود
احتياطى
مدرب فرنسى

سير القتال

يتخلى عن منصب القيادة العليا ، ويعين فيه بازين . وأقصى ألفيه الأمين الرجل الذرب اللسان المرح القواد من مسرح السياسة الفرنسية إقصاء أبدياً . وحل محله في ١٠ أغسطس ضابط كهل من ضباط الفرسان هو الكونت دي بالكاو De Palikao وضعت فيه الإمبراطورة الحزونة القلقة المتخوفة في عناد وإصرار آخر آمالها .

يبد أن جميع هذه التغيرات كانت بدون جدوى . فلم يكن بازين بالرجل الذي يوقف الهجوم البروسي الجارف . وكان ارتداده بطيئاً ، وبطيئاً إلى درجة أنه مكن الألمان من أن يلتفوا حوله ، ويوقفوه عند مار لا تور Mars la Tour ، ثم يردوه بعد فوز دموى في غرافلوت Gravelotte في ١٨ أغسطس . وتراجع بازين جنوباً بشرق كى يحتوى بتحصينات معقل متر ، حيث سمح لغريمه بأن يطوقه ، وحيث ظل دون أن يبذل أى جهد لاختراق خطوط الجيش المحاصر ، وحيث استسلم أخيراً للعدو في ٢٧ أكتوبر ، وأطلق بعمله هذا المنطوى على الجبن والغدر جيشاً ألمانياً مؤلفاً من مائتى ألف جندى لكى يساهم في إخضاع بلاده .

وكان جيش فرنسى آخر مدرب من الجند النظاميين يتجمع في الأيام الأولى من أغسطس في شالون Chalon تحت قيادة مكماهون . وغداً أمراً من الأهمية بمكان عظيم إذا كان في مقدور هذا الجيش الذى صار آخر قوة نظامية فرنسية غير محصورة أن يوجه حركاته بحيث يُستفاد منه انتفاعاً كبيراً . وأشار ماكماهون - في حكمة كما يبدو - بأنه ينبغي أن يجتنب هذا الجيش أى اتصال مباشر بالعدو ، وأن يرتد إلى الوراء ، وأن تخفّ إلى نجدة أية قوات حربية مبعثرة تكون باقية في البلاد ، وأن يركز قوته أمام حصون باريس . ولكن الإمبراطورة يوجينى ومشيريهما أصموا آذانهم عن سماع هذا الرأى القاتل بالتراجع ، وحضوا على أن يهرع ماكماهون إلى نجدة بازين ، وأشاروا إلى أن باريس في حاجة إلى انتصار يُكسب في الشرق ، وأنه إذا تراجع جيش شالون إلى الوراء ، فإن الناس سيهبون لقلب العرش . فاضطر ماكماهون

على كره منه ، وضد رأيه الصائب ، أن يزحف قافلاً إلى ريمس . وإذ نُسى إليه أن بازين بنوى شق طريقه إلى الشمال ، أدار وجهته إلى الشمال الشرقى صوب الحدود البلجيكية . بيد أن ملتكه بادر إلى تعقبه ، وأمكنه أن يطوّقه فى البندر الصغير : سيدان Sedar ، وأن يسلط عليه حمى مدافعه ، ويحبره على التسليم . وكان من بين أسلاب ذلك النصر الألماني الميين نابليون الثالث نفسه .

اعلان
الجمهورية الثالثة

وقد نشبت هذه المعركة فى الثانى من سبتمبر . وبعد يومين من وقوعها ، أعلنت الجمهورية فى باريس . وبينما كان الزعيم الفرنسى جول فاشر Jules Favre يعلن للعالم أجمع أن فرنسا لن تنزل عن حجر واحد من قلاعها ، أو شبر واحد من أرضها ، كانت الإمبراطورة تلوذ بالفرار سراً فى عربة طبيب أسنان أمريكى إلى الحرم الأمين التقليدى للمنفين السياسيين : إنجلترا . وبذلك قُضى على البونابرتية القضاء المبرم ، وانتهى ذلك النوع من النظام الملكى القائم على الاستفتاء الذى بعد أن أوشك على توحيد أوربا قاطبة تحت صولجان نابليون الأول ، ختم أيامه بترك فرنسا مقصوصة الجناح ، مهينة الجناح تواجه خصماً عنيداً جباراً .

الأمة الفرنسية
تواصل القتال

ولكن ما انتهت الحرب ضد الجيش الإمبراطورى الفرنسى ، حتى بدأت ضد الأمة الفرنسية نفسها . ولو أن أريياً وزن الموقف وزناً هادئاً بعيداً عن الهوى ، لأشار بأن أكبر أمل لفرنسا فى الوصول إلى صلح ملائم كان فى الوقت الذى ما برحت متر فيه ممتعة على العدو ، وجيش بازين لم يمسه أذى . غير أن الأهواء لا تحسب لشيء حساباً . كما أن هناك بلا ريب برهات فى تاريخ كل أمة تكون فيها قواها النفسانية - مهما تكن أهواؤها عياء جامعة - أثمن لها وأنفس من العناية بتقدير حساب المكسب والخسارة . فإن الحرب القومية التى بدأت فرنسا الآن تخوضها ، وإن كانت قد جرت عليها صلحاً أقصى ، إلا أنها عاوت بعض الشيء على إعادة الكرامة والعزة واحترام النفس إلى الأمة الفرنسية ، وعملت على المحافظة على شجاعة أبنائها

وتقوية عزائمهم في السنين العائرة التي بدأت تطالهم .

صحيح أن الأحداث أثبتت أن هذه الحرب كانت حرباً يائسة لا رجاء فيها ، ولكنها كانت ملأى بالمضايقات للعدو الظافر الغازي ، ومقمة بصعاب ربما كانت أعظم من تلك التي واجهته في الطور الأول من الصراع الذي تطاحن فيه الجنود المحترقون . فإن ميدان عمليات العدو الحربية صار أوسع ، وطالت خطوط مواصلاته ، وكثيراً ما هدده الجنود الفلاحون الذين هبوا للذود عن أرض الوطن . وكانت الجيوش الفرنسية الجديدة التي نهضت في كل صقع للقتال ، أعصى على العدو في تقدير قواتها وكشف مواقعها . ولو أن الفرنسيين كانوا قد اتخذوا الحيلة في إعداد نظام واف لتأليف جيش احتياطي مدرّب ، فلربما كان في وسعهم أن يحولوا هذه المضايقة التي عاناها العدو إلى تهديده تهديداً خطيراً .

غيبنا

وكان قطب الرحي في هذه الحركة الشعبية التي أطالت الحرب هو ليون غمبتا (١٨٣٨ - ١٨٨٢) الخطيب الجمهوري المفوه ، الخارج من الجنوب ، الذي برز اسمه لأول مرة في قضية شهيرة كان فيها المكافح العتيد ، والمهاجم القوى المراس للإمبراطورية الثانية . ولم تكن العقبات لتثنيه عن عزمه ، ولا العراقيل لتحول بينه وبين بغيته . مثال ذلك أنه حينما طوق الألمان باريس ، فر منها في بالون إلى روان . وبنشاطه الخارق وهمته القعساء ، حشد في خلال أسابيع ستة جيشاً من مائة ألف وثمانين ألف مقاتل . وتمكن هذا الجيش الجديد من إنزال الانكسار الأول الذي أصاب الألمان في هذه الحرب ، وذلك في كوليه Coulmier بالقرب من أربان .

ولو أن بازين كان لا يزال ممتنعاً في متر ، فلعل الجنرال دورى D'Aurelles الذي أحرز نصر كوليه كان قد استطاع بمعونة حامية باريس من ففض الحصار عن قصبة البلاد . ولكن استسلام بازين في ٢٧ أكتوبر أثر تأثيراً حاسماً في مجرى الحرب . إذ جعل تحت تصرف الألمان جيشاً كبيراً قوياً كانوا ساعثت في أشد الحاجة إليه . وكانت الكئاب الفرنسية الخام النصف

المدرية تقاتل في كل بقعة من بقاع القتال قوات تفوقها عدداً وقوة ومراً ،
 مما أسفر عن دحردورى ثلاث مرات على مقربة من أربليان ، وهزيمة شانزرى
 Charzy - بعد قتال شرس دام أياماً ثلاثة - في لى مان Le Mans في
 ١٠ يناير سنة ١٨٧١ ، وانكسار فيدرب Faidherbe - الذى كان قد
 ظفر ببعض الانتصارات الابتدائية في الشمال - في سان كنتان St. Quentin
 في ٩ يناير سنة ١٨٧١ .

ثم أخفقت إخضاعاً أشد حتى من الاندحارات السالفة الذكر محاولة
 بلغت حدّاً من الضخامة ، قلل من فرص نجاحها . فقد حاول غمبتا أن
 يحمس أهل الجنوب الشرقى لفرنسا ضد الغزاة ، وأن يوجه غارة على بادن
 يشغل بها العدو ، غير أن جيش بورباكى Bou baki المؤلف من ٨٥ ألف
 رجل سيئ العدة ، دحر في مونتيليار Montbeliard ، وسبق وراء
 الحدود إلى داخل أرض سويسرة المحابدة ، حيث نزع سلاحه نزعاً مزيئاً
 في أول فبراير سنة ١٨٧١ .

وفي هذه الأثناء أخذت باريس تكابد غوائل حصار غير مرتقب . حصار باديس
 فأضحت ضغينة ومذلة قلوب أهل تلك المدينة السمحاء : أولئك الذين كانوا
 قد هلّوا للحرب في خفة وطرب ، هاتفين : « إلى برلين ، إلى برلين » ،
 والذين حُكم عليهم الآن أن يذوقوا طعم الخذلان المرير . وساعد نقص الأطعمة ،
 وإخفاق كل محاولة لاختراق صفوف الحصار ، وأحوال رشق المدينة بالقنابل
 رشقاً منظماً من ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٧٠ ، حينما دنت المدفعية البروسية
 منها ، وأخذت تصب حممها على السكان المدنيين والحصون على السواء - ساعد
 كل هذا على خلق « حمى الحصار » - كما يدعوها الفرنسيون - في عقول
 الجماهير : هذه الحمى التى تحولت في سهولة إلى جنون السوق الطغام .

وأخيراً ، بعد أن جبطت التجربة اليائسة التى أقدم عليها الباريسيون
 لشق طريقهم كتلة مرصوصة واحدة ، قبلوا فتح المفاوضات مع الأعداء .
 فنحو الهدنة في ٢٨ يناير سنة ١٨٧١ ، وأجريت انتخابات عامة في ٨ فبراير ،

والتأم عقد الجمعية الوطنية في ١٢ فبراير في مدينة بورجو التي كانت الحكومة الفرنسية المؤقتة قد اتخذتها مقراً لها بعد حصار باريس . وانتخبت تلك الجمعية تيير رئيساً للسلطة التنفيذية ، وخولته حق التفاوض مع العدو .

شروط الصلح

وكان بسمارك صلباً لا تلين له قناة . النقط الرئيسية لشروط الصلح . فقد طلب في فبراير صلح الأكراس وشطركبير من اللورين تدخل فيه مدينة متر ، عن فرنسا ، وفرض غرامة حربية قبيل نهاية الأمر لإنقاذها إلى مائتي مليون جنيه . فقد كان الداهية البروسي في مركز قوى مكين . ولما أظهر تيير رفضاً وعناداً ، هدده بسمارك بالتفاوض مع نابليون . ولم ينزل أمام توسلات الرئيس الفرنسي البليغة عن القواعد الرئيسية لشروطه إلا في نقطة واحدة ذات أهمية جدية ، ذلك أنه قبل أن يحتفظ الفرنسيون بيلفور Belfort ، لو أنهم طيخوا خاطر الجيش الألماني بأن يحتل باريس . وقد فرض الألمان صلح فرنكفورت (١٠ مايو سنة ١٨٧١) الذي تضمن هذه الشروط على الفرنسيين ، كما فرض الحلفاء صلح فرساي سنة ١٩١٩ على الألمان . وكانت الغرامة الحربية شيئاً تافهاً في نظر الفرنسيين - وقد سددها عن آخرها في ثلاثة أعوام كي يتخلصوا من بقاء الجند الألمان المبغضين في أرض الوطن - كانت الغرامة شيئاً تافهاً بالقياس إلى صلح ستراسبورج ومتر عن بلادهم . فإنه كان غصبة مرة المذاق على كل فرنسي .

تيير

أما تيير (١٧٩٧ - ١٨٧٧) : هذا السياسي الوطني الملتهم الحماس ، الذي قام بالنيابة عن بلاده المهزومة بمفاوضات الصلح التمهيدية ، والذي كان قد حذر بنى جلده من سوء مغبة إشهار الحرب ، فإنه قام - برغم سنه السبعين - في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٧٠ برحلة إلى بلاط الملوك الأجانب ، على رجاء أن يحملهم على التدخل في الحرب لمصلحة بلاده . ولكنه رجع إلى بلاده خائباً صفر اليدين . والحق أنه كان رجلاً من أفاذا رجالات التاريخ الفرنسي المدنيين . كان ضئيل البدن ، مشوه الخلق ، ذا رأس بيضاوي ، ونظارات كبيرة ، وبهجة المصورين الكاريكاتوريين ، ومطع التفانهم .

وقد أبرم الصلح مع ألمانيا ، وقضى على فتنة الكومون . ورغم أنه كان بعقيدته ملكياً يناصر بيت أربيان ، فإنه خلق ، أكثر من أى شخص آخر ، الجمهورية الثالثة التى عمرت طويلاً (١٨٧٠ - ١٩٤٠) ، برغم الأخطار العديدة التى اكتنفها فى أيام طفولتها . ذلك أنه رأى أن من بين جميع أشكال الحكم كان النظام الجمهورى أقلها سبباً فى إحداث الانشقاق فى صفوف الفرنسيين . وقد قويت الجمهورية واشتد ساعدها ، حتى تمكنت بعد ثمان وأربعين سنة من إنشائها من الأخذ بثأر الحرب الفرنسية - البروسية .

الألزاس
واللورين

ولحق أن بيسارك باستيلائه على مقاطعتى الألزاس واللورين وحصل متر العظيم ، قوى من أسباب الخصام والبغضاء بين فرنسا وألمانيا ، وبذر بذور حرب مستقبلية . فارتكب بهذا العمل أعظم أغلاطه ، وأكبرها خطورة ، وأبعدها أثراً فى حياة زاهرة بالانتصارات وجلائل الأعمال . صحيح أن الألزاس كانت مقاطعة ألمانية فى صميمها ، ولكن اللورين كانت إلى مدى بعيد ولاية فرنسية . وقد اغتصب مازاران المقاطعة الأولى من ألمانيا بمقتضى صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ . أما الثانية فحصل عليها لويس الخامس عشر سنة ١٧٦٦ ، بعد وفاة حميه استانسلاوس ليونزسكى Stanislaus Loozinski ملك بولندا . نعم ، كان فى وسع ألمانيا فى استيلائها على هاتين المقاطعتين ، ولا سيما فى استيلائها على مقاطعة الألزاس ، أن تستند إلى حقوق تاريخية لها فيها ، غير أن سكانها الذين كانوا قد انتفعوا بالإصلاحات العمرانية والاجتماعية التى قام بها الفرنسيون مدة حكمهم إياها لم يطلبوا أية فرصة لإبداء إرادتهم ، وأبعد أهلها من أمة كانوا قد ألفوا العيش معها ، واعتادوا حكمها ، ووضعوا تحت ربة أفسى .

٣ - إنشاء الإمبراطورية الألمانية

وفي ١٨ يناير ١٨٧١ - أى قبل استسلام باريس بعشرة أيام - أعلنت الإمبراطورية الألمانية فى بيو الرايا بقصر فرساي . وما هو جلهر بالذكر

أن الانتصار المدوّى الذى كسبه الألمان فى فرت كانت قد كسبته كاثب
بفاريا وورتمبرج تحت قيادة ولى عهد بروسيا . وما إن سلم نابليون فى
سيدان ، حتى شرعت الولايات الألمانية الجنوبية تلوح برغبتها فى الدخول
فى الاتحاد الألماني الشمالى . فقبولت بالترحيب الشديد .

ومع أنه كان هنالك أناس عديدون رأوا أن الوقت مناسب لإقامة
دولة مركزية قوية فى ألمانيا ، فإن بسمارك لم يكن واحداً منهم ، قائلاً : « إننا
لا نروم أن ننضم إلينا بافاريا وهى غير راضية ، بل نروم دولة ننضم إلينا
بملاء اختيارها وحريتها » . ولكى يجعل هذه الدولة مقبلة راضية ، كان مستعداً
أن يمنحها حقوقاً واسعة : كالهيمنة على جيشها أيام السلم ، وإسماع صونها
فى الشؤون الخارجية ، وتخويلها نظاماً مستقلاً للبريد والتلغراف . وليس ثمة
ما هو أدل على حكمته ونفاذ بصيرته من أن ملك بفاريا قبيل أن يضع التاج
الإمبراطورى على مفرق وليم الأول ملك بروسيا فى حفلة تتويجه إمبراطوراً
على ألمانيا

حكمة بسمارك

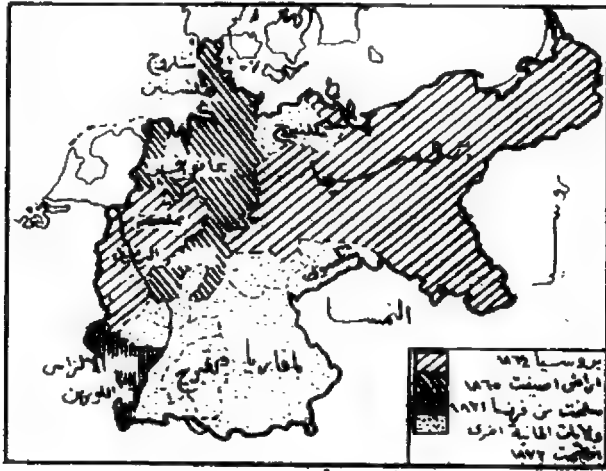
ومن العسير الغلو فى وصف الحماس البالغ واحترام النفس والثقة التى
بعثتها هذه الأحداث العجيبة فى أفئدة الأمة الألمانية . فمع أن البروسيين
من الطراز العتيق ، ومن أشباه الملك وفون رون ، لم يكونوا يستطيعون إلا قليلاً
اللقب الإمبراطورى الجديد ، فإن الحقائق الواقعة تقطع بأن ألمانيا بعد قرون عدة
طافحة بالانقسام والأخطار الخارجية ، ضمت صفوفها آخر الأمر نتيجة
حرب ظافرة ، وأثبتت جيوشها فى حومة الوضى أنها قوة لا تقهر ، وأنها فرضت
إرادتها على النمسا ثم على فرنسا ، وأنها باسترجاعها مقاطعتين كانتا قد سلختا
عنها ردها من الزمان ، أقامت حاجزاً قوياً ضد الأخطار المقبلة التى قد تأتى
من ناحية الجنوب — هذه الأمور كلها غمرت قلوب الألمان عن بكرة أبيهم
بأحاسيس الفوز والفخار والرضا .

تمس الألمان
للإمبراطورية

ولقد قاد الألمان أمداً طويلاً أوروبا فى الموسيقى والثقافة ، وفى عدد مدارسهم
وجامعاتهم ، وفى مدى نفوذها وكفاية رجالها . وصاروا الآن بلا منازع أعظم

مطامع بروسيا

قوة حربية في أوروبا . أفكان إذن أمراً غير طبيعي أن المتحمسين من البروسيين ، حين تستعيد أذهانهم الماضي ، ويرون الأصول الأولى الغامضة المعالم لبلادهم : كيف نبتت في مركز حربي صغير يتألف من شريحة من الرجال الناطقين بالألمانية يقفون في وجه ربوات السلافيين ، ثم يستتبع هؤلاء المتحمسون تطورات تاريخهم المتعاقبة - أكان أمراً غير طبيعي بعد ذلك ، أن يلمحوا في هذه الأمور أصبع قوة سماوية وضعتهم تحت كنفها ، وأظلمهم برعايتها الخاصة . وهل كان أمراً غير طبيعي أن يؤمنوا بأن الجنس البروسي بزهده وخشونته ونظمه الصارمة وعنفوان قوته الجبارة المنظمة : قد اختير لكي يؤدي رسالة تاريخية على هذه الأرض : في بدء الأمر بصفته مبعوثاً لنشر الحضارة الألمانية بين صقالة البحر البلطي ، ثم بصفته مبشراً بالمذهب البروتستانتي لأوروبا ، ثم بصفته الشعب الذي أنقذ الألمان من براثن الإمبراطورية النمساوية المشلة لجهودهم وريقهم ، والذي وهبهم مركزاً فيصلاً في القارة الأوروبية ؟



لمو الإمبراطورية الألمانية

لقد نُشرت هذه الخواطر والتأملات على نطاق واسع من فوق منابر الجامعات . بل وُجد الكثيرون من الألمان ممن بلغت بهم جسارة القلب ورحابة المطمح ، أن يوجهوا عقولهم إلى استشفاف حجب المستقبل ، وأن يسألوا أنفسهم عما إذا كانت الأقدار قد هيأت لبيت هومبترولرن مستقبلاً أرفع وأياماً أجد . فترامت أمامهم

الدنيا مترامية الأطراف فسيحة الأرجاء . وبدأ لهم أن بحار العالم ومحيطاته تشير إليهم بالمغامرة ، وتناديهم بركوب المخاطر . وخيل إليهم أن لا شيء مستحيل أمام البطولة الألمانية . فلا القوة البحرية المروية الجانب ، ولا امتلاك المستعمرات الواسعة ، ولا سيادة العالم يبعيدة عن قفاز أيديهم .

غير أنه بقي أمام هذه الدولة التي هي في قوة نامية متزايدة ، أذلت أعناق الدنماركيين ثم النمساويين ثم الفرنسيين — بقي أمامها أن تخوض غمار اختبار قاس آخر . فقد أبصر الألمان أمامهم الإمبراطورية الأنجلو سكسونية التي شيدتها أمة من الرجال المدنيين المخاطرين والهواة العابثين ، الذين ظفروا بسمو المكانة وريغد العيش من غير كدح ولا عناء . وقيل لهم إن هذه الإمبراطورية ليست بالأزلية الدائمة ، وإن هؤلاء الأطفال المجدودين من أبناء القدر السعداء حظوا بأطياب الحياة ولذا نذها فترة طال أمدها أكثر مما ينبغي ، وإنه قد حان الأوان للألمان لأن تمطرهم السماء بمحائب نعمائها ، وأن تحول إليهم تلك البركات المادية الجزيلة التي أسبقها العناية فترة طويلة على الإنجليز : أوائل الأبناء المخطوظين للقدر السعيد ، وإن على روما — إذا رامت الرفعة والمجد — أن تختصب اغتصاباً صولجان السيادة والسلطان من قرطاجنة .

ألمانيا
والإمبراطورية
البريطانية

هذا في الواقع كان مدار تعاليم هينرخ فون ترايتشكه Heinrich von Treitschke أعظم الأساتذة والكتاب الألمان نفوذاً ، وأقوام أثراً ، وهو ييشر بها من فوق كرسية في جامعة برلين .

كتب يمكن استشارتها

- Fyffe : A History of Modern Europe. 1924.
E. Ollivier : L'Empire Liberal. 1911.
Pierre de la Gorce : Histoire du Second Empire. 1908.
G. Rothan : Souvenirs Diplomatiques. 1882.
E. Bourgeois : Manuel Historique de politique Etrangère. 1905-6.
E. Bourgeois and E. Clermont : Rome et Napoléon III. 1907.
J. Reinach : G.L. Gambetta 1884.
Lowes Dickinson : Revolution and Reaction in Modern France. 1892.

الفصل العشرون

الجمهورية الثالثة

بنفس الريف الفرنسي للمبادئ الجمهورية . كميون باريس . الكفاح بين باريس وفرنسا . تأسيس الجمهورية الثالثة . الحكومة البرلمانية في فرنسا . فرنسا وألمانيا . جول فرى . المسألة الإكليريكية . عدم استقرار الجمهورية . بولنجيه . قضية دريفوس . الدبلوماسية الفرنسية .

١ - ثورة كومون باريس

بنفس الريف
الفرنسي للمبادئ
الجمهورية

استطاعت فرنسا خلال الأعوام التي أعقبت هزيمتها النكراء في الحرب السبعينية أن تشيد لنفسها صرحاً سياسياً جديداً . ولقد دب في قلبها سأم شديد من الاستثناءات الشعبية والدكتاتوريات والمغامرات الأجنبية . ولا كانت فكرة الجمهورية قد اقترنت على الدوام في أذهان الفرنسيين بالحرب والثورة ، فإن الأكثرية الكبرى منهم كانت تتخلع قلوبهم من أى دستور يحمل هذا الاسم . ولما فُتِح في الانتخابات التي جرت في ٨ فبراير ١٨٧١ للجمعية التأسيسية ، انتخب أربعمائة عضو ممن يناصرون إعادة الملكية ، من السبائة والخمسين عضواً الذين تألفت منهم تلك الجمعية .

الخلاف بين
الملكون

بيد أنه لم تبرز في النهاية حكومة ملكية ، بل قامت جمهورية من هذه الجمعية الشديدة الميل إلى النظام الملكي ، والتي كانت تمثل رأى البلاد تمهلاً حسناً . ذلك أن فرنسا أخذت تدرك بخطئ وثيلة أن قيام الملكية بات أمراً مستحيلاً ، نظراً للانشقاق الذي دب بين أنصار كل من بينى بوروبين وأورليان في الجمعية ، ولرفض الكونت دى شامبور De Chambour ، حفيد شارل العاشر ، ورأس الفرع الأقدم من الأسرتين ، رفضاً باتاً الاعتراف بالرابية الثلاثية الألوان التي كانت في نظر الفرنسيين رمز الأنظمة الديمقراطية - رفضه الاعتراف

بها كراية فرنسا ، ولاستياء الهيئات النيابية في باريس استياء عنيفاً من أية محاولة ترى إلى إرجاع الملكية إلى فرنسا .

مقت الباريسيين
الملكية

فقد كانت باريس جمهورية النزعة ، تفيض حماسة لحرب ثورية تشنها على الألمان - حرب من الطراز القديم ، مماثلة لتلك التي شنها دانتون وكارنو أيام الثورة . فقد أبصر أهلها أن الحرب الأخيرة أدبرت على أسوأ منوال ، ودخل في روعهم أن حصار مدينتهم كان من الميسور فكه ، لو أن جيش فرنسا كان تحت قيادة بأسلة بارعة ، واعتقدوا أن الجمعية الوطنية الوجلة الوضيعة النفس التي كانت كثرة أعضائها تتألف من محافظين وريفيين - والتي انتقلت في ١٠ مارس من بوردو إلى فرساي - اعتقد الباريسيون أن جمعيتهم الوطنية قد باعت حقوق البلاد الخالدة للعدو ، وأنها أخذت تحيك المؤامرات لإعادة النظام القديم بجوره ومساوئه ومظالمه . فأثرت باريس التمرد والقنال على الخشوع لأشباع الملكية الذين تمقتهم كل المقت لخطيئتهم المزدوجة وهي : نصرتهم للملكية ، واستسلامهم الصاغر للعدو .

فتنة الكومون
الرهيبية

ولقد كانت هذه المدينة المتشاعنة جوعى متضايقة حاقدة ، كتم عزتها منظر الجنود الألمان ، وهم يسرون في انتصار وزهو في الشانزليزيه ، وأكلت قلبها التروات الثورية ، وزخرت قلوب أبنائها بالأحلام من كل لون وصنف : إنشاء نظام ثوري متطرف ، أو نظام اتحادى ، أو نظام اشتراكى ، أو شيوعى ، أو فوضوى . وكان الحرس الأهلى قد سلّح لمقاومة الحصار . وعند دخول الألمان العاصمة سمح له بأن يحتفظ بأسلحته ، وأن يعسكر في حى منارتر . ولكن حكومة فرساي أنفذت كتيبة للاستيلاء على مدافع الثوار ، فتمرد الحرس ، وأمكنه أن يستميل إليه جنود الكتيبة ، وأسر قائديها ، ورماها بالرصاص . وعلى الأثر أقام كومون باريس (مجلس بلديتها) حكومة ثورية في ١٨ مارس سنة ١٨٧١ اتخذت دار البلدية مقراً لها ، وبدأت بذلك فتنة رهيبية مدمرة طائشة .

مظهر الثورة

إن ثورة كومون باريس غدت أسطورة من الأساطير ، بوصفها أول مظهر محتم الأوار للحركة الثورية العظمى التي تحمل الآن روسيا لواءها ضد نظام

المجتمع الرأسمالى فى العالم قاطبة . بيد أن هذا المظهر لم يكن الصفة الأصلية أو الرئيسية لثورة الكومون . فقد كانت أفكار زعمائها أميل إلى أفكار دانتون منها إلى أفكار لينين . وكانت هذه الثورة فى الأصل عاصفة هرجاء فجائية من التحمس للمبادئ الجمهورية ، أكثر من كونها مزامرة محبوبة الأطراف لقلب نظام المجتمع القرنسى . ولكن لما اشتد سعي الأهواء ، اتخذت الحركة — التى قادها فى بدء ظهورها أعضاء بلدية باريس المحترمون — اتخذت أهدافاً جديدة ، مثل تحويل فرنسا إلى اتحاد تعاهدى يتألف من جمهوريات محلية تقوم فى المقاطعات المختلفة ، أو تقويض النظام الرأسمالى فى جميع أنحاء العالم — وأصبحت هذه الأهداف أمنية المستقبل الخلافة لبعض شيع الطبقة العاملة الثائرة . غير أنه لم يكن هناك هدف عام واحد تشترك فيه جميع الطوائف والنحل التى انضمت إلى هذه الحركة .

القتال بين
الحكومة والثوار

وكان تيير العجوز الضئيل البدن فى بذلته القراك المشدودة ، الذى تشع عيناه وميضاً خلال نظاراته الكبيرة — كان هذا الرجل على رأس الحكومة الوقتية التى اتخذت فرساي مقراً لها . ومع أنه لم يقرر بعدُ شيء بصدد الدستور والشكل النهائى للحكومة ، فإن حكومة تيير كانت فى الواقع جمهورية . ومع ذلك فإن هذا الزعيم المهرم ، الذى قد قلبه من الصخر ، لم يبدِ أى ضعف فى قمع ثورة الكومون التى كان أشبايعها قد اعتصموا بحى منارتر على الأخص . فحشد فى أوائل مايو سنة ١٨٧١ قوة من ١٣٠ ألفاً من الجند النظاميين ، ووجه همه بعزم لا يبلين وصرامة بالغة إلى إعادة فتح باريس . وارتكبت أثناء إخماد هذه الثورة وبغدها قساوات وحشية هائلة . فلم تعرف الرحمة إلى قلب تيير سيلاً تجاه الإرهابيين المجانين الذين حولوا باريس إلى أنقاض وركام ، وأضرموا النار فى التويلرى ودار البلدية . حتى عد الفرنسيون توقيع معاهدة صلح فرنكفورت مع الألمان فى ١٠ مايو عملاً حازماً مبروراً كى تنفرغ الحكومة لإخماد هذه الفتنة . وُصِفَت الثورة دون شفقة فى « أسبوع الدم » الذى بدأ فى ٢١ مايو وانتهى فى ٢٨ مايو . وأثبتت الحكومة الوقتية بهذا العمل أن النظم الجمهورية ، برغم كل شيء ، تنزع إلى المبادئ المحافظة ، وأنها تنفض يدها من الثورات والحروب .

غير أن ثورة كومون باريس كانت ذات أثر خطير في تطور فرنسا السياسي ، فقد دلت على أن عمال باريس يبذلون أقصى قواهم في محاربة الملكية ، على حين أن الطبقة الفرنسية الوسطى تقبل عن طيب خاطر النظام الجمهوري .

٢ - استقرار الجمهورية ، ودستور عام ١٨٧٥

ولقد استمرت على قيد الحياة هذه الحكومة الوقتية التي كانت « جمهورية بغير جمهوريين » تنمى قوتها على مر الأيام ، وتزايد في عدد أنصارها المنضوين تحت علمها . وكان من بينهم غمبتا الذي علمته تجارب الحياة الشيء الكثير من الحكمة السياسية . ولا عُرِضَتْ أحكام الدستور على بساط البحث في الجمعية الوطنية سنة ١٨٧٥ ، أقرت الجمعية بأغلبية صوت واحد هذه الكلمة الجبارة : « الجمهورية » ، فقد تأخر الملكيون في حزم أمورهم ، والاتفاق فيما بينهم ، فعقد النصر ألويته للجمهوريين المحافظين الذين اضطلِعوا بالواجب الذي امتنع الملكيون عن النهوض به لنقص في شجاعتهم وانقسام صفوفهم . وكانوا قمتين بهذا الفشل الذي لم يكن في طاقتهم درؤه أو علاجه .

ازدياد قوة
الجمهورية

وأدرك تيير رغم تشييعه طوال حياته للملكية الدستورية بأن الجمهورية المحافظة هي أقل أشكال الحكم مثاراً للتراع والشقاق بين الفرنسيين . وأعلن على رؤوس الأشهاد تأييده للجمهوريين . فأتحدت كلمة الأحزاب الملكية ضده ، وأرغمته على الاستقالة في ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣ . وانتخبت الجمعية الوطنية بدلاً منه المرشال ماكاهون رئيساً للدولة لمدة سبع سنوات . وكان معروفاً عنه ضلعه مع حزب البوربون ، وميله إلى الإكليروس .

انتخاب
مكاهون رئيساً

وأجريت في فبراير سنة ١٨٧٦ انتخابات عامة أحرز فيها الجمهوريون أغلبية تربو على المائتين . وتألّفت وزارة من أحزاب اليسار برئاسة جول سيمون Jules Simon ، غير أن هذا لم يفت في غضد الملكيين . فأجبر ماكاهون على الاستقالة ، وكلف اللوق دى برجل بتأليف الوزارة . ولكى يقوى سلطانه ،

أقدم في ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٧ على حل مجلس النواب ، وإجراء انتخابات جديدة . بيد أن ما كماهون تلقى من الناخبين درساً لم يجرؤ رئيس للجمهورية الفرنسية بعده على حل ذلك المجلس قبل انتهاء مدته القانونية . فقد كسبت مرة أخرى أحزاب اليسار المناصرة للجمهورية أغلبية كبيرة في الانتخابات التي أجريت في أكتوبر سنة ١٨٧٧ . وكان من أهم أسباب الهزيمة الكبيرة التي حلت بأحزاب اليمين اعتقاد الجمهور بأن هذه الأحزاب سوف تقذف بفرنسا مرة أخرى في أتون الحرب تحت قيادة رئيس الجمهورية ذى النزعة العسكرية الإكليريكية . فاضطر ما كماهون إلى الامتثال لإرادة الشعب ، ثم قدم استقالته من رئاسة الجمهورية في ٣٠ يناير سنة ١٨٧٩ .

دستور
سنة ١٨٧٥

والدستور الجمهورى لعام ١٨٧٥ الذى حُكِمَ فرنسا بمقتضاه ^(١) يقوم على الخوف من الشرور والتكبات التى جلبتها الحكومات المطلقة التى قامت فى فرنسا نتيجة للاستفتاءات الشعبية . فنص ذلك الدستور على وجود مجلسين : مجلس شيوخ ، ومجلس نواب . كما نص على انتخاب رئيس الجمهورية باقتراع هذين المجلسين مجتمعين فى هيئة مؤتمر ، لا عن طريق الانتخاب العام . فإن الطريقة الأولى تساعد مساعدة فعالة على حماية البلاد من سحر المغامرين الخطرين ، وفتنة عباراتهم المعسولة .

والمجلسان لا يختاران لرئاسة الجمهورية مرّة أفذاذاً ، بل يقع عادة اختيارهما إما على محام قوى الخلق متين المركز ، أو على رجل أعمال عُرِفَتْ أخلاقه وخبرت قلدراته فى ساحة البرلمان . وهما لا يبحثان عن رجل قوى الشكيمة ، بل عن رئيس شكلى . فإنه منذ أخفق ما كماهون فى أن يستخدم منتصب الرئاسة لنصر قضية الملكية ، أصبح أضر شيء على رئيس فرنسى هو أن يشك الجمهور فيه بأنه يسعى إلى فرض سياسة خاصة به ، أو الاتصال بالرأى العام فى البلاد اتصالاً مستقلاً عن مجلسى البرلمان .

(١) أوقف العمل بهذا الدستور ، حينما نهارت الجمهورية الثالثة فى صيف عام ١٩٤٠ ، لما احتل الألمان باريس فى الحرب العالمية الثانية .

ولهذا السبب ، أعطى دستور سنة ١٨٧٥ فرنسا حكومة برلمانية على النمط الإنجليزي . فإنه وضع السلطة في الدولة في الوزارة . وجعلها مسئولة أمام مجلس النواب ، ولم يضعها في يد رئيس الجمهورية الذي ينتخب لمدة سبعة أعوام . فصارت فرنسا للمرة الأولى في تاريخها ، إلى ما صارت إليه إنجلترا منذ « ثورتها الحيدة » سنة ١٦٨٨ - أصبحت ديمقراطية برلمانية دقيقة القواعد . بل إنها أصبحت - كما يؤكد الفرنسيون - ديمقراطية أشد تدقيقاً من ديمقراطية إنجلترا نفسها . إذ بينا الوزارة البريطانية تهيمن على البرلمان ، نرى العلاقات بين الوزارة والبرلمان في فرنسا على الضد من ذلك . ففي مجلس تشريعي - كمجلس النواب الفرنسي - ليس من الميسور حله قبل إكمال مدته الشرعية وهي أربع سنين ، يغدو النظام الحزبي فيه ضعيفاً ، وتتألف من أعضائه شيع صغيرة عديدة تنضم طوراً إلى هذه المجموعة ، وطوراً أخرى إلى تلك ، بدلا من الحزبين الإنجليزيين الكبيرين المنظمين أدق نظام ، اللذين يناضل أحدهما الآخر في ساحة مجلس العموم للوصول إلى السلطان .

وقد أدى هذا النظام الحزبي في فرنسا إلى قصر أجل الوزارات الفرنسية . كما أن استهداف هذه الوزارات لخطر السقوط في أي لحظة بتأليف مجموعات جديدة غير مرتقبة ، أكرهها على أن تخصص للموقف الاستراتيجي في البرلمان شطراً كبيراً من الجهد الذي كان في مقدورها أن تخصصه لوضع مشروعات تشريعية طويلة الأمد وتنفيذها . وإلى جانب هذا الشر يجب أن يضاف شر آخر : هو العبء الباهظ من المحسوبيات الذي هو خصيصة من خصائص الحكومات الشديدة المركزية . صحيح أن أعباء الوزير الإنجليزي ثقيلة ، ولكنه لا يطلب منه أن يناضل في كل جلسة من جلسات مجلس العموم مائتي صوت قد توجه ضده في أية لحظة ، أو أن يعمل على استرضاء المرشحين لوظائف السعاة وكتبة البريد في القرى واللساكر .

ولا يستلزم من الرأي العام الفرنسي أن يتبع في تبجيل وإهتمام التغييرات التي تجري في هيئة برلمانية تشغل نفسها بالتواضع من الأمور . فإن المسارح والمنتديات

والأكاديمية الفرنسية ومباحث الأدب العصري تؤلف كلها موضوعات أكثر إمتاعاً لنفوس الفرنسيين وأشدّ جذباً لاهتمامهم من مناقشات مجلسي البرلمان . والحق أن برلمانات الجمهورية الثالثة ، رغم مناقشاتها النارية وخطبها البليغة المتضلعة ، لم تحتل قط مكاناً سامياً في قلوب الأمة الفرنسية ، أو تنل تبجيلها وإعجابها . فإن بعضاً من الفضائح الكبرى ، وخاصة الفضيحة المتعلقة بشركة قناة بناما^(١) ، ساعدت على ترويع فكرة غير مستحبة عن ذبوع الرشوة وخراب الذم بين أعضاء البرلمان . فلا نرى التبجيل الذي أحيط به الجمهورية الأولى القديمة مائلاً في نفوس الفرنسيين أيام الجمهورية الثالثة . ولم يرتق هذا الخرق الصبّ الحميد الذي ناله بعض الوزراء العظام الذين نهضوا ، بتأييد أغليات برلمانية قوية غير متقلقة ، سياسات وأعمال تثير في الأمة الفرنسية أقصى حدود الإعجاب والتقدير .

وكانت أكبر معضلة إبان الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٧٠ و ١٩١٤ شغلت أذهان الأوربيين الذين يعنون بتقدم الحضارة هي المعضلة الخاصة بإمكان إنشاء علاقات ودية بين فرنسا وألمانيا . غير أن الألتراس واللورين وقفنا حائلاً متنبهاً دون ذلك . فإنه طالما بقي تمثال ستراسبورج في ميدان الكونكورد مجللاً بالخمل الأسود . ما انفك كل فرنسي يحلم باسترجاع المقاطعتين المسلوبتين كغاية نهائية — غاية وإن خيلت وقتئذ متعذرة التحقيق ، نظراً لقوة ألمانيا الحربية الهائلة البادية لكل ذي عينين ، إلا أنها كانت غاية تهفو إليها القلوب ، وتشرّب نحوها الأعناق ولم تكن هذه الأمنية البعيدة المثال موضع حديث الناس ، بل كانت ، كما نصح غمبتا قومه « لا يتكلمون عنها البتة ، وإنما يفكرون فيها على الدوام » . فغدت عنصراً مستديماً في الشعور الفرنسي العام ، وعقبة كأداء جاثمة للصدقة بين البلدين ، وحافزاً قوياً من حوافز السياسة ، وغيمة سوداء قائمة تنذر المستقبل بشر مستطير .

(١) أثبت التحقيق في هذه الفضيحة الكبرى التي رجت المجتمع الفرنسي ارتشاء عدد كبير من الوزراء وأعضاء البرلمان ورجال الصحف وغيرهم مقابل إعماضهم عيونهم عن التزويرات التي ارتكبتها الشركة لإغراء المستثمرين الفرنسيين على الإقبال على شراء سنداتها .

ولو أن الألمان قبلوا منح هاتين الولايتين قسطاً كاملاً من الاستقلال الداخلى لحفّت حدة التوتر بين الأمتين . فقد وُجد بعض من كبار الساسة الفرنسيين ممن كانوا يرون إمكان الوصول إلى تفاهم حثي بين القطرين بتساهل من هذا القبيل . بيد أن بسمارك فهم واجبات منصبه على غير هذا النحو . فقد كانت الألتراس واللورين في نظره لجاماً لاغنى له عنه لكبح أطماع أمة لم تصفح ولم تغفر له قط مذلة الهزيمة التى ألحقها بها .

ولم يخلد بسمارك إلى الثقة بحسن طوية الجمهورية الثالثة . بل أفرغه تجدد نهضة فرنسا الاقتصادية ، وأقضى مضجعه اقتباسها في عزم وسرعة نظاماً حريياً قائماً على المبادئ الحربية البروسية ، قدر له أن يخرج لفرنسا جيش ميدان مؤلفاً من ٦,٧٥٠,٠٠٠ ، وجيشاً احتياطياً من نصف مليون رجل ، كما راعته خطب بعض السواس الفرنسيين العدائية ، وعباراتهم غير المسالمة . ومن المحتمل أنه لولا تدخل الملكة فكتوريا وقيصر روسيا — هذا التدخل الذى جاء في الوقت المناسب — لأقم بسمارك بلاده في حرب وقائية ضد فرنسا سنة ١٨٧٥ .

ولكن تراءت لفكره طريقة أرخص تهدئة خواط جار مقلق : وهى اقتراحه على فرنسا ضم تونس . وأعرب عن مرماه من وراء ذلك بقوله : « لقد أطلقت العنان لهذا الجحود الجامح النارى المزاج الذى ارتقت ظهره المطامع ، كى يشرع رمال تونس ويخضرها . وسيرى الفرنسيون أنهم ذهبوا إلى مغامرة باهظة الكلفة » . فقد أمل من وراء نزول فرنسا في حلبة الفتح الاستعماري أن يفتّر تفكيرها الخائق في مقاطعتها المفقودتين في أوروبا .

ولقد كان من المفاخر النادرة للحياة البرلمانية الفرنسية نائب جاء من إقليم الفوج ، رائع الحماس ، قوى الشكيمة ، شديد العارضة ، اسمه جول فرى Jules Ferry (١٨٣٢ — ١٨٩٣) ، كان طوال حياته هدفاً لأعنف ضروب الأحقاد والتآثم ، ومع ذلك فإنه ترك ذكراً خالداً في سياسة بلاده الاستعمارية ونظمها التربوية . كان فرى في عهد إمبراطورية نابليون الثالث راديكالياً داعياً للسلام . ثم شق لنفسه طريقاً إلى العلا والسلطة أيام الجمهورية

جول فرى

الثالثة بصفتها داعية للتوسع الاستعماري، وجمهورياً محافظاً، وفي ميدان التعليم سياسياً معارضاً لرجال الدين. وألف الوزارة مرتين: الأولى من سنة ١٨٨٠ إلى ١٨٨١، وفي أيامها أعلنت الحماية الفرنسية على تونس، والثانية من سنة ١٨٨٣ إلى ١٨٨٥، وفي خلالها احتلت فرنسا مدغشقر، واهتم فرى بارتيدان نهري الكنفو والنيجر، ونظم الهند الصينية.

نقد الحركة
الاستعمارية

ولقد عصفت أنواء الجدال العنيف، وهبت رياح الحقن حول هذا المناضل الصنديد الذي طرح وراء ظهره مبادئ الراديكاليين المقدسة، واستبدل بها سياسته الاستعمارية، واستفز غضب الإكليريكيين بمدارسه العلمانية. فقد كان الراديكاليون ينادون بأن فرنسا في غير حاجة بعد الآن إلى مستعمرات، وأن شارل العاشر ورط فرنسا في مغامرة الجزائر الغالية الثمن، وشددت الإمبراطورية الثانية بعنقها مستعمرة نائية في الشرق الأقصى، في وقت أخذت فيه نسبة المواليد في فرنسا تنخفض، فلم يكن لديها فائض من السكان ترغب في تصديره، بل كانت بالأحرى في حاجة إلى كل مورد من مواردها لكي تتجابه الخطر الكبير الجاثم لها على تخومها الشرقية — هذا الخطر الذي ينبغي أن توجه نحوه كل اهتمامها. وقالوا: أولئك تكن عبدة المكسيك بكافية؟ وما قيمة تونس أو تونج كنج في نظر قطر واجبه الأول هو نحو سكان الألزاس واللورين المسلوبتين؟ بمثل هذا فكر أيضاً غريم فرى: جورج كليمنصو Georges Clemenceau الملقب «بالنمر» الذي شهد هزيمة بلاده عام ١٨٧٠، فوطن النفس على الأخذ بالثأر. ولهذا لم يكن يميل البتة إلى أن ترى إيطاليا، التي ابتغت أيضاً احتلال تونس، بنفسها بين ذراعي ألمانيا المرحبتين.

وكان هذا النقد ينطوي على درجة كبيرة من أصالة الرأي والحكم السليم. فإن حركة التوسع الاستعماري التي تزعمها فرى عاوتت — كما لا بد لكل حركة مماثلة أن تعاون — على خلق متاعب وأخطار جديدة لفرنسا. فقد أصابت سنة ١٨٨١ صداقة إيطاليا بسبب تونس، وجازفت سنة ١٨٩٨ بقطع جبال السلم بينها وبين إنجلترا من أجل فاشودة، وتوترت سنة ١٩٠٥ علاقاتها مع ألمانيا

وأسبانيا توتراً خطيراً بسبب مراكش . ومع هذا فإن الفرنسيين ، عند خوضهم غمار الحرب سنة ١٩١٤ ، لم يعضوا بنان الندم على تشييدهم إمبراطوريتهم الاستعمارية (التي كانت الثانية في العالم) . فقد أسعفتهم القوات التي جندوها من أهل إفريقيا في نضالهم ضد ألمانيا . وصفحوا عن تلك السياسة الكبيرة المطامع التي أهالت سخرية الباريسيين وتكلمهم على رأس فرى عندما أخذت فصائل الجزائر والسنغاليين أماكنها في خنادق الميدان الغربي بصفتهم مواطنين لفرنسا .

ويبرز حول فرى أيضاً في ناحيتين أخريين بين عظماء الساسة في عهد الجمهورية الثالثة . فإنه أقر قانونية نقابات العمال . وكسب معركة التعليم العظمى التي كان ديروى Duruy قد خسرها أيام نابليون الثالث . وتدين فرنسا لفرى بنظام التعليم المجاني الإجبارى العام^(١) . كما أنه توصل إلى طرد اليسوعيين (الجزويت) من المدارس ، ووضع الهيئات التعليمية الأخرى تحت رقابة أضبط . ومع أنه كان مترقفاً في معاملته للجزويت ، احتراماً لمصالح فرنسا في الخارج ، وإرضاء لشعور الجيش ، إلا أنه كان يرى أن التعليم الذى يشرف عليه رجال الإكليروس يتجه إلى إضعاف روح الثقة بالجمهورية ، وأن مناهج المدارس التابعة للهيئات الدينية لا تلائم حاجيات العصر .

وليس ثمة ريب في أن فرى كان مصيباً في كلتا الناحيتين . فإن أكبر السبب في انتشار الأمية في فرنسا حتى سنة ١٨٧٠ ، وسير المدارس فيها على نظم تربوية عتيقة - إن أكبر السبب في ذلك يعود إلى العراقيل التي وضعها رجال الدين في سبيل توسع الدولة في نشر التعليم . وقد بقيت تلك العراقيل حتى أيام فرى . وقد قاوم مجلس الشيوخ الهجوم على مدارس الجماعات الدينية ، ولكن الحكومة تغلبت على معارضته ، وحلت طائفة الجزويت بأن أصدرت مراسيم جمهورية لا تقتضى موافقة البرلمان عليها .

(١) طبقاً لقانون الذى صدر فى ٢٨ مارس سنة ١٨٨٢ ، وكان فرى وقتئذ وزيراً

للمعارف فى وزارة فريسنيه .

وبذلك هيات الطريق إلى ذلك التطور العظيم الذى شمل جميع فروع التعليم - هذا التطور الذى كان أعجب أعمال الجمهورية الثالثة الداخلية وأجلها .

٢ - نضال الأحزاب الفرنسية

كان نضال الأحزاب فى فرنسا خلال العقود التى تلت الحرب الفرنسية البروسية فى صميمه نفس الشجار القديم الذى نشب بين رجال الدين والأفكار المعاصرة، حتى وإن اتخذ أشكالا شتى عديدة، حسبما أملت الأحداث المصادفة . فنادى غمبتا فى ٤ مايو سنة ١٨٧٧ بأن شعاره فى الحرب الشعواء التى أشهرها على رجال الدين هو : « الإكليروس هو العدو » ، كما أن أحزاب اليسار كانت تخشى أثر القساوسة فى ميادين السياسة والبيت والمدرسة .

ومع أن الأغلبية الكبرى من الصناع والعمال كانوا يسلمون بإقامة الشعائر الكنائسية فى شئون المعمودية والزواج والدفن، إلا أنه أمكن على اللوام الاعتماد عليهم فى التصويت ضد المبادئ الإكليريكية فى الانتخابات العامة . وكان للتقاليد فى هذا الأمر شأن كبير . ذلك أن الصناع كانوا يعتقدون أنهم بتصويتهم ضد القساوسة ، يقرعون ضد النظام القديم ، وضد رجعة النظام الإقطاعى والامتيازات ، وضد الجور الاجتماعى وعدم المساواة ، وضد جميع الشرور التى علمهم آباؤهم أن يقاتلونها ، وأن يقرنوها بقسس الكنيسة الكاثوليكية . فإنه برغم انقضاء مائة عام على عهد الإرهاب ، فإن دوائر الانتخاب التى كانت من قبل ملكية كانت تفرع فى جانب أشياخ الإكليروس ، والدوائر التى كانت قبلا يعقوية التزعة كانت تنتخب أعضاء ينتمون إلى هذا الحزب أو ذاك من أحزاب اليسار .

ونظراً لعدم وجود كنيسة بروتستانتية قوية ذات آراء معتدلة فى فرنسا ، فإن

الثلة التي شطرت فرنسا نصفين - نصفاً متدينًا محافظاً متشيعاً للإكليروس ، وآخراً ديكالياً زنديقاً يكره القساوسة ، ويجذ سيطرة العقل على شئون هذا العالم - كانت الثلة بينهما واسعة عميقة . وحينما كان الشجار بينهما ينشب خلال توتر الجوع الدولي كانت تبدو فرنسا كأنها على شفا حرب أهلية . فإنه إلى سنة ١٨٩٢ جعلت معارضة الكنيسة الكاثوليكية ، ووجود الأحزاب الملكية والإمبراطورية ، والأحقاد الدينية التي خلفها قمع ثورة الكومون قمعاً بالغ القسوة ، ونمو الآراء الاشتراكية والتفاوية نمواً مطرداً - جعلت هذه الأمور مهمة الذود عن المبادئ الجمهورية شاقة إلى أبعد درجات المشقة ، حتى خيل بين آونة وأخرى أن بنيان الجمهورية يشرف على التداعي والانهيار .

فإنه برغم القرايين العديدة التي قدمت لمذبح الديمقراطية الفرنسية ، وبرغم انتقال زمام السلطة في مجلس النواب باطراد صوب أحزاب اليسار^(١) ، فإن فرنسا واجهت على الدوام هذه المعضلة الكبرى التي لم يعثرها أى تبدل وهي : هل في وسع برلمان تنتمي أكتريه أعضائه إلى الطبقة الوسطى ، ويتزعون نزعة قوية إلى العلمانية ، وينقسمون إلى شيع شديدة العداوة بعضها لبعض - هل في وسع برلمان كهذا أن يفلح في حكم الشعب الفرنسي المتقلب الأهواء الناري النزوات ، وأن يكفل له مكانة محترمة ومقاماً مسيطراً بين شعوب العالم ؟

فإن مثلين عجيبيين حدثا في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر دلاً على عدم ثبات أركان فرنسا الجمهورية ، وعلى ضعف دعائمها الداخلية . ففي عام ١٨٨٦ بينما كانت رئاسة جريني Grévy غير النابه ، وإنما الرئيس المحترم - بينما كانت رئاسته تدنو من نهاية غير مشرفة^(٢) ، استرعت أبصار البلاد شخصية قائد جي الطلعة ، ينهذى على جواد أسود أصيل ، وكان هذا

(١) كانت الأحزاب المسيطرة على ذلك المجلس في أول الأمر هي أحزاب المحافظين ، ثم انتقلت السيطرة إلى أحزاب وصولية نهابة للفرص - ثم انتقلت إلى الأحزاب الراديكالية ، وأخيراً قبض بريان على مقاليد الأمر في سنة ١٩١٠ ، فانتقلت السلطة إلى الأحزاب الاشتراكية .

(٢) اضطر إلى الاستقالة من رئاسة الجمهورية سنة ١٨٨٧ إثر فضيحة شملت زوج ابنته ، لانهام بالسرقة في منح الأوسمة .

القائد هو الجنرال بولنجيه Boulanger (١٨٣٧ - ١٨٩١) حاكم تونس العسكري سابقاً .

وفن رجال فرنسا ، واستهوى نسوتها وأطفالها ، هذا المشهد الأخاذ لذلك الجندى الوسيم المحيا الذى يزين الريش الجميل قبعة العسكرية ، وقد صفرت الحروب الأفريقية التى خاض غمارها أكاليل المجد فوق هامته . أفلم يكن هو المهدي المنتظر والمبعوث المرتجى الذى اشرأت إليه أعناق فرنسا ، وترقبت حلوله بين ظهرانيها هذا الأمد الطويل ؟ وأياً كان أمره ، فقد كان كنزاً انتخابياً فى المقام الأول . فأخذت « عصابة الوطنيين » تروج مناقبه الحملة بين الناس ، وتذيع على الملأ خلاله الرفيعة ، ونظم اليهودى ناكيه Naquet حملاته الانتخابية . فأبنا خلعت دائرة انتخابية فى فرنسا ، رشح بولنجيه نفسه للنيابة عنها . وكان يظفر بأغلبيات كبيرة فى الدوائر التى رشح نفسه فيها . فقد كان أحب شخصية إلى الجماهير فى فرنسا خلال عامى ١٨٨٦ و ١٨٨٧ ، ما فى ذلك أدنى ريب . وعين فى يناير سنة ١٨٨٦ وزيراً للحربية فى وزارة المسيو فريسنيه . ولكنه استقال فى مايو سنة ١٨٨٧ ، وصار لسان حال الروح القومية الحربية ، والمطالب القوي بتعديل الدستور تعديلاً شاملاً كلياً . وكان فى استطاعته ، بعد أن انتخب على التوالى فى ثلاث من دوائر باريس ، أن يرتقى منصب رئاسة الجمهورية ، بعد استقالة جريش فى ديسمبر سنة ١٨٨٧ ، وأن يقبض على أزمة الحكم . ولكنه كان واهن العزم ضعيف المبدأ . فسمح للفرصة بعد الفرصة أن تقوته . ونشط أعداؤه ، وعاد إلى حكام فرنسا لإقحامهم . فوجهوا إليه فى مارس سنة ١٨٨٩ تهمة الخيانة العظمى . فتولاه الدعر وفر إلى بروكسل فى أول أبريل . فانفضت الجماهير عنه وانقلب حبها سخطاً . ثم أقدم على إزهاق روحه فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩١ ، وأنجى بذلك الجمهورية من ضائقة حرجة .

بيد أن الأحقاد التى احتدم أوارها بعد ذلك بخمس سنين ، حول اسم سادة دريفوس الكبتن دريفوس Dreyfus كانت أوسع نطاقاً وأقرب عداء وبغضاء حتى

من تلك التي أثارها بولنجه . وإنه لمن العسير على من لم يعيشوا في فرنسا خلال السنين ١٨٩٤ - ١٩٠٣ التي بلغت فيها حمى الهياج أوجها ، أن يكونوا فكرة عن الأهواء الجامحة التي أثارها مصير هذا الضابط الشاب اليهودي الذي كان مجلس عسكري قد حكم عليه في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٩٤ بالسجن مدى الحياة ، وترحيله إلى جزيرة الشيطان النائية ، لآثامه ببيع أسرار حربية للألمان .

فقد انشطرت فرنسا خلال تلك الحقبة شطرين : أحدهما يؤمن في إصرار وقوة بأن دريفوس مذنب ، والآخر يؤكد في عناد وقوة مماثلين بأنه حكم عليه ظلماً وعدواناً . ونجم عن الشجار العنيف الذي نشب بين الفريقين انفصام صداقات امتدت طول العمر ، وضياح السلام بين أعضاء الأسرة الواحدة ، وتعذبت ضحايا الأفراد ، وقامت حملة عنيفة هوجاء في الصحافة الكاثوليكية تحض على كراهية اليهود . غير أنها لحسن الحظ لم تقترب بأعمال العنف والظلم البالغين اللذين امتازت بهما المشاغبات التي اندلعت ضد اليهود في وسط أوربا وشرقها أيام هتلر . وأخذت تلك الحملة تنفث سمومها في طول فرنسا وعرضها متسائلة : كيف يمكن لهذا اليهودي أن يكون بريئاً ؟ وكيف يمكن أن يخطئ قضائه العسكريون ؟ وكيف يمكن أن يتفق مع مصلحة الأمة فلم شرف الجيش ، وهو الحائل الوحيد بين فرنسا والخطر الألماني ؟ وما قيمة إنصاف فرد ، إذا قيست بسلامة الدولة وتأمينها ؟

ولكن المبادئ الخلقية كسبت النضال في النهاية ، فإن شهادة پول ماير Paul Mayer خبير الخطوط ، وآتهامات إميل زولا Emile Zola الروائي ، وشجاعة الكولونل بيكار Picquart البروتستانتي الذي عين سنة ١٨٩٥ رئيساً لمصلحة المخابرات السرية ، والذي أعلن بعد بحث دقيق بأن ضابطاً فرنسياً غير دريفوس هو المذنب الحقيقي ، مجازفاً بذلك بمنصبه الحربي ، ثم انتحار الكولونل هنري Henri في ٣٠ أغسطس سنة ١٨٩٨ ، وهو الذي خلف بيكار بعد عزله ثم سجنه ، معترفاً قبل موته بأنه زور بعض الوثائق التي أدانت دريفوس - عملت هذه الأمور على انبلاج الحقيقة .

فأعيدت محاكمة دريفوس في ٧ أغسطس سنة ١٨٩٩. ولكنه حكم عليه بالسجن عشر سنين ، غير أن رئيس الجمهورية أصدر في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٩ عفواً عنه ، وأطلق سراحه .

ولكن هذه القضية لم تنته عند هذا الحد ، فقد واصل مريلو دريفوس جهودهم لإظهار براءته ، وقيل إن وثائق جديدة كشفت تثبت طهارة ذيله . فأحيلت القضية في يوليو سنة ١٩٠٦ على محكمة النقض والإبرام التي أصدرت حكمها بأن دريفوس بريء كل البراءة من جميع التهم التي وجهت إليه . وجانب كبير من الفضل في إرجاع الحق إلى نصابه في هذه القضية التاريخية يرجع إلى وزارة والدك - روسو Waldeck Rousseau (١٨٩٩ - ١٩٠٢) التي ثبّت هذا الفوز للضمير الإنساني دعائها ، والتي كانت راديكالية في الداخل ، حرية النزعة في الخارج ، والتي تمكنت من أن تمنح الجمهورية الثالثة الحقبة الطويلة الأولى من الحكم الحازم الوطيد الأركان .

الجمهورية
الثالثة في أمين
نصيحها

أما في أمين خصومها ، فقد بدت الجمهورية الفرنسية الثالثة كأنها تعوزها الدعائم الثابتة ، والحكم السديد ، والصيت الحسن ، والشهرة البعيدة . فإن الحرب الفرنسية البروسية بكشفها قلة كفاية الجيش ، وفظائع فتنه الكومون وأهوالها ، وتعاقب وزارات ضعيفة في سرعة عثقة ، وعنف النضال الحزبي ، وكشف الفضائح المالية بين الفينة والفينة ، ساعدت هذه الأمور على أن يسمى حتى المراقبون ذوو الخبرة والنظر البعيد الظن باستعداد الأمة الفرنسية لتضهم فنون الحكم .

ولكن هؤلاء الناس عميت أبصارهم عن رؤية تنظيم الجيش من جديد - هذا التنظيم الذي نهضت به وزارة فريسييه ، والأعمال المحيطة التي قام بها القواد والإداريون والمستكشفون الفرنسيون في إفريقية ، وسير الخدمة المدنية الداخلية في كفاءة مطردة ، وعدالة النظام الاجتماعي ، وخيل لهم أن الفرنسيين قد أصبحوا في مؤخرة موكب الحياة بالنسبة للإنجليز والألمان والأمريكيين . مثال ذلك حينما جاء ديروليد Déroutède الشاعر والسياسي الوطني المتحمس

إلى رينان الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي سنة ١٨٨٨ ، وسأله الانضمام إلى « عصابة الوطنيين » أجاهبه العالم الهرم : « أيها الشاب إن فرنسا تعالج سكرات الموت ، فلا تزد من أوجاع ساعاتها الأخيرة » . فلقد شاع الاعتقاد في أخريات القرن التاسع عشر بأن الأجناس اللاتينية قد بلغت نهاية مجدها .

بيد أن هذا الاعتقاد كان مبتسراً بعيداً عن الصواب ، فإن من الكاى دورسيه (مقر وزارة الخارجية) بباريس أخذت إدارة دبلوماسية لا تضارعها إدارة أخرى في المهارز والتصميم والكفاية — أخذت تمتد نفوذ فرنسا في جميع الأقطار والأمصار وتنسج شبكة من المحالفات أعادت إلى الأذهان محالفات ريشليو ومزران .

الدبلوماسية
الفرنسية
الجديدة

وقد استطاعت هذه الجمهورية التي قامت على حق الانتخاب العام المباشر أن تحبط جميع المحاولات لقلبها. فليس ثمة في فرنسا طبقات حُرمت حق الانتخاب ، فتجبر على أن تطرق باب الدستور في عنف وشدة كي يفتح في وجهها ، وليس فيها طبقة ممتازة تقبض على أزمة الأمور ، وتستبد بالفقراء ، وتجور على حقوقهم ، كما كان الحال في أنظمة الحكم السابقة . وإذا كان مجلس النواب لا ينظر القوم إليه بعين الاعتبار والتبجيل ، فإن الصحافة صارت حرة ، والحكومة المحلية ديمقراطية ، ونقابات العمال قانونية ، ومعفاة من كل تدخل حكومي منذ سنة ١٨٤٨ .

وبينما كانت الاشتراكية في روسيا وألمانيا محظورة قانوناً — ولذا صارت خطرة — فإن الاشتراكيين الفرنسيين تحت لواء الجمهورية الثالثة انتخبوا أعضاء في مجلس النواب ، وشغلوا مناصب الوزارة ، بل ارتقوا إلى منصب رئاسة الجمهورية . فإن ميلران Millerand أول اشتراكي استلم مقاليد الوزارة (سنة ١٨٩٩) ختم حياته السياسية الهيدة كرئيس للجمهورية . وأبان بريان الذي ارتفع على أجنحة بلاغته الساحرة إلى منصب رئاسة الوزارة مراراً عديدة — أبان لفرنسا بإصداره أمراً وزارياً بتجنيد المضربين ، كيف يستطيع رئيس وزارة اشتراكي أن يفرض إضراباً صارماً بالوطن . وقد تقلد سنين كثيرة وزارة

الاشتراكية
الفرنسية

الخارجية ، حتى صارت بلاده تشعر أنه لا غنى لها عنه فيها . وكان فثيانى Wiviani المضطرم الحماس ، والخطيب الذى عد من أعظم خطباء عصره - بل أى عصر آخر - كان رئيس الوزارة حينما نشبت الحرب العالمية الأولى . وبدلاً من أن تصبح الاشتراكية الفرنسية سيفاً مصلتاً فى وجه الجمهورية يهدد كيانها ، قدمت خدمات جليلة رائعة للحياة البرلمانية الفرنسية ، بعد أن نزع منح الأمة حق الانتخاب العام من الاشتراكيين القدرة على الأذى والشر .

ولكن الخطر الأكبر على الجمهورية جاءها من أشياخ أحزاب اليمين . فقد كان هؤلاء الفرنسيون يتساءلون بين آن وآخر عما إذا كان ساستهم البورجوازيون يعملون فى سبيل سلامة فرنسا وإعلاء مكانتها ، وعما إذا كان فى وسعهم استرجاع الولايتين المسلوبتين ؟ أو أنهم سيخفضون عدد الجيش ؟ وعما إذا كان نظام التعليم العلمانى المركز فى يد الدولة لا يقضى على تقدم جميع المشاعر الدينية فى قرى الريف ودساكره ، تلك المشاعر التى تغذى روح الأمة وتلهمها القوة والحياة ؟ فقد تكاثف الكاثوليك والملكيون والوطنيون معاً على مناهضة الجحوى العلمانى الحر التفكير الذى كانت تدبر فيه شئون الدولة . ووجهت المثالب والريب إلى اليهود والبروتستانت ودعاة الأخوة العالمية ، تبعاً للقانون الشائع الذى يقضى باضطهاد الأقليات وتعذيبها خلال فترات المسترأى القومية .

بيد أن الجمهورية ، على الرغم من هذا ، انتصرت حتى على هؤلاء الوطنيين المتحمسين . فقد سحق بولنجيه ، ودحرت أشياخ التعصب العنصرى ، وغلبت السلطات المدنية على السلطات الحربية ، وقامت نفوذ الكنيسة فى التعليم . ولما اندلعت الحرب سنة ١٩١٤ كانت فرنسا لا تزال قطراً تخفق فوق ربوعه ألوية الحرية المدنية .

خطر احزاب
اليمين

کتب ممکن استشارتها

- Bainville: Histoire de France. 1924.
- Hanotaux : Histoire de la France Contemporaine. Tr. J.C. Tarver. 1903-8.
- J.E.C. Bodley : France. 1898.
- A. Rambaud : Jules Ferry. 1903.
- F.C. Conybeare : The Dreyfus Case. 1895.
- J. Reinach : Histoire de l'affaire Dreyfus, 6 vols. 1901-8.
- Lowes Dickinson : Revolution and Reaction in France. 1892.
- H. Poincaré : Au Service de la France. 1913-26.
- A. Rambaud : Histoire de la civilisation contemporaine en France. 1932.
- A. Thiers : Notes et souvenirs de 1870 à 1873. 1903.
- J. Bainville : La Troisième République. 1935.
- A. Lavy : L'oeuvre de Millerand. 1935.

الفصل الحادى العشرون

تيارات دولية

الفاتيكان والمذاهب الحرة . النقد الأهل . لاهل ودارون . هربرت سبنسر .
كارل ماركس . الفابيون .

١ - الفاتيكان والمذاهب الحرة

بتقدم القرن التاسع عشر ، اعترى مجموع الأفكار والمعتقدات والتقاليد
التي توارثها الأوروبيون منذ الأزمنة السحيقة تحول جوهرى عميق . فإن تقدم
علوم التاريخ والاقتصاد والطبيعة ، وغيره الباحثين الأمتاء ، وعديد المبتكرات
الآلية التي ابتدعتها قرائح المخترعين ، جعلت من أوروبا مجتمعاً جديداً فى
نواح هامة عديدة . ولاح كل شيء كأنه فى حالة تبدل وتعديل ، إلا مؤسسة
واحدة ظلت دون أن يطرأ عليها تغيير .

أما تلك المؤسسة فكانت الفاتيكان . فإنه بدا كجمود صخر ثابت الفاتيكان المحافظ
الطود ، بين العباب الخضم لحركة البعث الإيطالية . فالأفكار الكريمة ،
والنظرة الواسعة ، والعلم الغزير ، وروح التسامح وبمباشرة الأحداث - تلك
المناقب التي اتسم بها أقطاب الكتلركة الحرة فى ألمانيا وفرنسا ، كانت جميعها
يبدعاً غريبة فى نظر الأخبار الإيطاليين الذين التفتوا حول العرش البابوى ،
وأسهموا فى صياغة سياسة الكرسي الرسولى حيال الاعتداءات السريعة على
سلطته الزمنية .

ولكن الفاتيكان فى سلسلة من المنشورات : كالمشور البابوى The En-
cyclical of Mirari Vos سنة ١٨٣٢^(١) ، والمشور البابوى سنة ١٨٦٤ ،

(١) أصدره البابا جريجورى السادس عشر فى أغسطس سنة ١٨٣٢ ، واستنكر فيه -

والأمر البابوي سنة ١٨٧٠ ، والرسائل البابوية العديدة التي وجهها ليو الثالث عشر (في سني ١٨٧٨ و ١٨٨١ و ١٨٨٨ إلخ) إلى الأساقفة الكاثوليك في جميع الأقطار يستنكر فيها المستحدثات الفكرية العصرية ، ويذم الحركات العقلية الحرة التي أرخت أواصر الولاء والامتنال للنظم والشعائر الكاثوليكية . فندد الكرسي البابوي بالاشتراكية والمذاهب الحرة والشيوعية وجميعات التوراة وحرية الضمير وحرية الصحافة ، ودمغها جميعاً بطابع الإلحاد والكفر . وفي عبارة جارفة أقضت مضاجع الكاثوليك الأحرار ، خطاً المنشور البابوي سنة ١٨٦٤ الفكرة القائلة بأن كبير أحبار الكنيسة الكاثوليكية يستطيع ، أو أنه يجب عليه أن يساير روح التقدم ، ويماشي المذاهب الحرة والحضارة العصرية . فإنه عندما اعتدى على أملاك البابا وسلطانه الزمني ، وقف يتحدى ويستنكر كل مظهر من مظاهر روح العصر الحديث .

دراسة التوراة
دراسة علمية

أما في الأقطار البروتستانتية من أوروبا فإن المعتقدات الدينية تشكلت وفق الأسفار المقدسة اليهودية والمسيحية ، أكثر من تقريرها بواسطة كنيسة مسيطرة مهيمنة . بيد أن تلك الأسفار القديمة من الأدب المقدس غدت موضع الفحص الدقيق والامتحان الشديد . وغدت التوراة تعتبر كتاباً عادياً لا سفيراً مقدساً له مكانته الخاصة . وشرع في وضعها موضع التفحص طبقاً لقواعد الإثبات والترجيح التي يطبقها الباحث التاريخي المنصف المدقق على أي كتاب أدبي قديم ، أو سفر تاريخي وسيط .

غير أن فكرة نقد التوراة لم تكن بالبدعة المستحدثة . فإن اسپينوزا Spinoza الفيلسوف اليهودي الأمستردامي كان قد تكهن في كتاب Theologico Tractatus Politicus (نشر سنة ١٦٧٠) عن مبادئ ونتائج عديدة حازت ، بعد ستين ومائة عام من نشرها ، قبولا لدى علماء جامعة

= حرية الضمير ، وحرية العبادة ، وحرية الصحافة ، وفصل الكنيسة عن الدولة ، و... أخطاء مقيتة أخرى يرتكبها هؤلاء الذين في حجبهم الحرية الزائد على الحد يستمعون أقصى ما في وسعهم لإضعاف أسس السلطات المشروعة .

توبينجن^(١) Tubingen ولكن هذه الطريقة الجديدة في دراسة التوراة لم تبدأ بوجه عام إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، واستطاعت أن تؤثر في أفكار اللاهوتيين البروتستانت ، وأن تكسب إلى جانبها أنصاراً بين أشياع الكنيسة الكاثوليكية نفسها ممن يتزعون نحو التطور المعصرى . فإن الحركة التي بعثها كتاب Essays and Reviews^(٢) في سنة ١٨٦٠ ، وكتاب Lux Mundi^(٣) في سنة ١٨٨٨ ، تحدد المراحل التي أمكن في خلالها إقناع بعض طوائف الكنائس البروتستانتية في إنجلترا بأن تقبل النتائج التي وصلت إليها الأبحاث التاريخية .

أما في فرنسا فكان أعظم أعلام الأدب نفوذاً مؤرخاً دينياً بدأ حياته راهباً ، ثم قطع جميع صلته بالكنيسة الكاثوليكية هو : إرنست رينان Ernest Renan (١٨٢٣-١٨٩٢) الذي روى قصة أصول الكنيسة الكاثوليكية في سلسلة من المؤلفات التي امتازت بالاطلاع الواسع والنظرة الثاقبة . وقد أقبل الناس على أسفاره إقبالا عظيماً لروعة عباراتها ، وجللاء معانيها ، وجمال مبناها . وذاع صيته على الأخص عند ظهور كتابه الأشهر : « حياة يسوع » Vie de Jesus سنة ١٨٦٣ .

وقد نُفِثَ روح جديدة من الواقع في دراسات التوراة باقتباس طرق البحث التاريخي اقتباساً عاماً . وشط السير بعيداً بعدد قليل من الدارسين ، روح جديدة في دراسة التوراة

(١) توبينجن مدينة صغيرة من أعمال ورتمبرج بألمانيا على مقربة من مشارف الغابة السوداء . وقد اشتهرت بجامعتها التي أسست سنة ١٤٧٧ ، وبمدرستها اللاهوتية التي أسست سنة ١٨٣٥ والتي ذاع صيتها بدراساتها للمسائل اللاهوتية من وجهة تاريخية فلسفية .

(٢) كتاب وضعه سيمه من أعلام الإنجليز في ذلك الحين منهم ف . تمبل F. Temple الذي صار رئيس أساقفة كنتربري ، وبادن يارل Baden Powell ، مؤسس حركة الكشف و ب . جورت B. Jowett . عيد كلية بيليل بكسفورد ، ومن أعلام الأدب الإغريق . ويمتاز الكتاب بروحه النقدي الجدى ، وندائه بإطلاق حرية النقد . وتظهر مقالاته عدم قبولها مبدأ وتجسد الله الكامل وظهوره في المسيح .

(٣) كتاب ألفه سنة من الكتاب ، أهمهم تشارلس جور Charles Gore أسقف ونشتر . وقد حاول الكتاب التوفيق بين مطالب النقد الحديث ، وعقائد طائفة الكنيسة العليا الإنجيلية High Church .

وأثاروا الريب في حقيقة المسيح التاريخية، مثل داود شتراوس David Strauss^(١) ،
ومثل ف. س. كونيبير F.C. Conybeare في رسالته « تاريخ نقد
العهد الجديد » (History of New Testament Criticism) سنة ١٩٠٩ .
ومع ذلك فقد كان هناك ميل عام للتمييز بين الأدبيات وأصول الإيمان -
وهو التمييز الجليل القدر الذى وضع قواعده ماثيو آرنولد Mathew Arnold
الشاعر والناقد الإنجليزى . كما كانت هناك نزعة عامة لإيجاد السمات
المميزة للتوراة ، لا في المبادئ التى يظن البعض أنها تقرر هذه السمات
وتعرفها ، بل في قدرة هذا الكتاب المقدس على تعمير خيال الإنسان الدينى ،
والنسamy به : هذه القدرة التى يشترك فيها مع جميع أسفار الأدب الرفيعة السامية .

أبحاث لايل
ودارون

بيد أنه يندر أن تجذب مؤلفات ناقدى الكتب المنزلة قلوب الجماهير
وأنظارهم إليها . فإن الجنس البشرى لم يحفل كثيراً لكشف السمات المتنوعة
لسفر التكوين ، أو يعابأ بالنبا القائل بأن قصة الطوفان يمكن تتبع أصولها
إلى أسطورة من الأساطير البابلية . ونبدأ الناس نبذاً عاماً للأفكار العتيقة
الخاصة بتاريخ العالم القديم وأصول الإنسان لم يكن نتيجة نقد التوراة وتمحيص
منها ، بل كان نتيجة من نتائج الكشوف العلمية ، وبخاصة نتيجة لأبحاث
تشارلس لايل Charles Lyell الذى نشر مؤلفه « مبادئ الجيولوجيا »
Principles of Geology بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٣٤ ، وأبحاث تشارلس
دارون Charles Darwin الذى ظهر كتابه « أصل الأنواع بواسطة
الانتقاء الطبيعى » Origin of Species by means of Natural Selection
سنة ١٨٥٩ ، والذى قفاه بعد اثني عشر عاماً بمؤلفه الذى أثار دويماً كثيراً
وهو : « تسلسل الإنسان » Descent of Man .

فأمام هذه الأدلة لم يصبح من الممكن قبول قصة الخليفة كما جاءت
في سفر التكوين إلا كرمز دينى واستعارة شعرية . ودحض علم الجيولوجيا

(١) اتخذ هذا الباحث في كتابه « حياة يسوع » ، الذى ظهر سنة ١٨٣٥ ، موقفاً
واقعياً ، فعد المسيحية ضرباً من الأديان الميثولوجية ، والمسيح فيلسوفاً من نوع سقراط .

الاعتقاد الذى ظل باقياً في المعابد وعرف الدراسة بأن العالم خلق سنة ٤٠٠٤ ق.م. فرجعت قصة آدم وحواء القهقرى أمام دراسات دارون والبيولوجيين . وأبدلت القصة المتداولة عن جنة عدن وشجرة المعرفة ، بصورة الطبيعة « وقد خضب أديمها دماء الصراع بين شتى مخلوقاتنا » : صراع قاس لا هوادة فيه ولا شفقة في سبيل البقاء ، وعملية استمرت ملايين السنين من التطور البيولوجى عن طريق إبادة غير الصالح ؛ ثم ظهور الإنسان من سلالة القرود القريبة من الإنسان في مرحلة متأخرة من مراحل التطورات الدقيقة الطويلة الآماد التى حدثت صدفة واتفاقاً ، ومن غير هداية ترشد خطواتها . وكان من نتائج هذه الاكتشافات والنظريات أن نقص نقصاً كبيراً خلال العقدين السابع والثامن من القرن المنصرم عدد الرجال الأذكىاء المثقفين الذين بقوا متمسكين بأهذاب العقائد الدينية .

٢ - أثر الأبحاث الحديثة في علمى السياسة والاقتصاد

وكذلك تأثرت السياسة بنظريات دارون . فقد أخذ الناس يسألون : أثر دارون في السياسة
إذا كان علم الأحياء هو المفتاح لفهم مغالبي الماضى ، أفلا يمكنه أيضاً أن يساعد على صوغ المستقبل ؟ وهل في وسع الساسة ألا يكتفوا للعامل البيولوجى ؟ أوكيس واجبههم يدعهم إلى تشجيع السلالات القوية ، وتثبيط السلالات الضعيفة ؟ وهل يستطيع مجتمع البقاء دون أن يتعاون - إما عن طريق التشريع أو عن طريق العرف - مع الطبيعة في إبادة غير الصالح ؟ أو ليست نتيجة حتمية لمبادئ دارون أن الحكم الأرستقراطى هو المبدأ السليم الوحيد للحكم ، وأن المنافسة - اقتصادية أو سياسية أو حرية - هى الركن الوحيد المضمون للتقدم والازدهار ؟

وظن مفكرون كثيرون - في إغفالهم الحقيقة بأن القرائح الذكية اللازمة تاريخ أوروبا

ليست بالضرورة تجتمع مع الأبدان السليمة — ظن هؤلاء المفكرون أن دارسى العلوم البيولوجية يقولون بنتائج من هذا القبيل . ولكن توماس هكسل Thomas Huxley ، وهو تلميذ من أعظم تلاميذ داروين ، لم يقع في هذا الخطأ ، بل ميز تمييزاً جليلاً بين قسوة الطبيعة ، ومكارم الحياة الاجتماعية ومبرراتها اللازمة لبقائها .

وكان أثر هذه النظرة البيولوجية الجديدة أسرع شيوعاً في إنجلترا منها في أى بلد آخر . ذلك لأن هذه النظرة تتلاءم مع نزعة قوية من روح الفردية تغلب على أفكار الإنجليز ومعاملاتهم — وهى نزعة تُرى بوضوح من أيام وليم پت واستيعابه كتاب آدم سميث : « ثروة الأمم » Wealth of Nations واعتناقه مبادئه . فإن نخبة من المفكرين الممتازين الإنجليز الذين اتصفوا بالقوة والتراسة وسداد الرأى لقنوا أمة هى من أشد أمم العالم حباً للحرية ، فلسفة تلامح حاجياتها وأخلاقيها .

أثر آدم سميث
وبنتام

وفى عهد الرخاء تغلبت سجيعة الاعتماد على النفس محبة إلى القلوب ، تهفو الأسماع على الدوام إلى الإصغاء لبشارتها . ولقد كانت إنجلترا فى العقود الوسطى من القرن التاسع عشر قطراً يرتفع فى مجبوحة من العيش ، ويزخر بالتروات الجديدة ، ورجال الأعمال الجدد ، ويقدم فرصاً طيبة ومكافآت جزية للمجدين والطموحين . وكانت المدرسة السائدة للمفكرين الاقتصاديين والسياسيين تطلب فى مديح هذا المجتمع المتألف من أقطاب عصاميين للأعمال الصناعية . وكان ذلك المجتمع يدين بمبدأى حرية التجارة ، والعمل على منح أقصى قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد ، كهدفين أوليين للدولة ، وبضرورة حصر تدخل الحكومة فى دائرة ضيقة .

تلك كانت مبادئ آدم سميث كبير أقطاب مذهب حرية التجارة ، وجرىى بنتام مصلح القانون الإنجليزى وعقل الراديكالية الخصب . وكانت هى أيضاً مبادئ تلميذه جيمس وچون سيتوارت مل ، وكذلك دافيد ريكاردو أكبر المنتبئين البرلمانيين للشئون الخاصة بالنقد والمالية العامة . فقد كان

ما يتوق إليه كل ناسخ وصانع طنائس ، وكل صاحب طاحونة وبناء مغامر ، وكل تاجر وصاحب سفن ، هو أن يكونوا أحراراً بعيدين عن أى تدخل حكوى ، وأن يحصل كل امرئ على الثروة والغنى بالطريقة التى يختارها لنفسه . وقد انحاز الشطر الأكبر من الطوائف البروتستانتية المنشقة الى يتجه رأياها على اللوام الى نقد الحكومة - انحازت أغليبتها الى آراء أولئك المفكرين الألباء .

٣ - هربرت سبنسر

ورضى قسم كبير من أوروبا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بأن يستمد إلهامه وإرشاده من رجل خرج من صلب أسرة تنتمى الى شيعة البروتستانت المنشقين ، هو « هربرت سبنسر » Herbert Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣) . ولا يُسجل هذا الفيلسوف الإنجليزى إلا قليلا بين فلاسفة بلاده المحترفين ، إذ هو الذى علم نفسه بنفسه ، وكان شديد الاعتداد بأرائه ، تموزه لباقة اللفظ ، وروعة التركيب . ومع ذلك فإنه أضحى ، وهو ما يزال حياً ، شخصية فذة يشار إليها بالبنان فى بلدان القارة . فكان إبان العقدين التاسع والعاشر من القرن المنصرم العَلَمُ الفردى فى باريس ، وفى أكثر مجامع العالم اللاتينى والسلافى . بل إنه لم يتقنه فى كثرة الأتباع والمتشيعين فيلسوف إنجليزى آخر . ولا ترجع الشهرة البعيدة التى نالها سبنسر الى محاسن لفظه وروعة أسلوبه ، لأن عباراته وإن تكن جلية ، إلا أنها فجأة ليست بالجزلة . وإنما ترجع الى هذه الحقيقة وهى : أنه تقدم فى ثقة واعتداد بالنفس الى جيل انقطع عن أن يستوحى هديه الروحى من الكنائس - تقدم الى هذا الجيل بفلسفة مبنية على معرفة الطبيعة وضرورة فهم قواعدها وأسرارها .

واستاء المتحلقون من هذا الفيلسوف الذى بدأ حياته العملية كمهندس

إخصائى فى تعدين المناجم ، واستنكروا كتاباته الصريحة التى لا تعرف دهاناً أو مداجاة ، وسخطوا على هذا التشكك الراديكالى الخارج من أسرة متوسطة الحال - هذا التشكك الذى استعمل المصطلحات والعبارات الإنجليزية دون أن يعابى ببلاغتها ومحسناتها اللفظية ، وازدرى شأن الآداب اللاتينية والإغريقية القديمة واللاهوت والتاريخ ، وابتغى قلب نظام التعليم فى إنجلترا رأساً على عقب ، واعتقد أن رسكن Ruskin (١٨١٩ - ١٩٠٠) الكاتب الإنجليزى الكبير جلف غليظ الطبع ، ودانئى متغالٍ فى العناية بزخرف اللفظ .

فلسفته البشائية

يبد أن الرجل العادى رأى فى سبنسر نبياً ورسولاً . فقد نظر هذا الفيلسوف نظرة طبيعية إلى الكون ، وعرض فلسفة بنائية تقدمت بنظرية عامة للتطور كما يشاهد فى جميع صنوف المخلوقات . وجعله احتقاره للأراء المتداولة ، وروحه المحبة للاستطلاع ، الضاربة بسهم وافر فى آفاق العلم ورحاب المعرفة ، وموهبته الفائقة فى التعبير عن أية حقيقة وصلت إلى نطاق معرفته وخبرته ، مهما كانت تلك الحقيقة نافهة ضئيلة القدر - جعلت كل هذه المناقب منه شخصية مبجلة تفرض التوقير والاحترام .

ولقد كتب سبنسر عن تطور الإنسان ، وعن تطور الأسرة ، وعن تطور النظم والمؤسسات الاجتماعية والشعائرية . وتقدم بقاعدة عامة للتطور ، هى أن التجانس يتحول إلى اختلاف وتضاد . وتنشأ بتحول المجتمع من مظهره الحربى المستبد إلى مظهر صناعى ديمقراطى . ورأى أن علمى الأخلاق والسياسة هما شطر هام من علم الحياة ، ونوع من «الفسولوجيا المتفوقة المتسامية» . وكان يسرى فى جميع نظرياته وقواعده لون من التفاؤل السليم المترن ، الخالى من التعقيد الغامض الذى يستطيعه القارئ المتخذلق . ونادى بأن المجتمع بصيرورته صناعياً يستطيع أن يرى حق الحروب ووحشتها . وتنشأ بأن أنظمة الحكم ذاتها ستفلس ، فإن هى إلا بقية من بقايا عصور النهب والاعتداء ، وستكشش أعمال الحكومات بارتقاء الحضارة . وقال إن الناس سوف يرون كيف كان التعليم يقوم على أسس هى أبعد ما تكون

عن التناسب السليم الصائب ، وكيف أن نوعين من الحقائق والشخصيات ^(١) - لا يشغلان في الواقع غير حيز غاية في الضآلة في تكوين هذا العالم ، الذي هو بدوره جزء حقير من الكون لا يؤبه بشأنه - كيف يُسمح لهذين النوعين أن يسودا عالم المعرفة والرؤى ، ويقصيا الحقائق الكبرى للطبيعة الفيزيائية .

وحلا للناس الإصغاء إلى كل هذه التعاليم والنبوءات ، وأحسوا أنها أشياء جديدة ثورية عظيمة القدر . أضف إلى ذلك أنه كان في مقدورهم أن يفهموا ، أو تراءى لهم أن في مقدورهم أن يفهموا هذا الفيلسوف البسيط العبارة ، التي نقد في جسارة الآراء السائدة ، وتقدم في كل فرع من فروع المعرفة بألوان شتية عديدة من الآراء التي وثق ببعدها عن البطلان . وكانت الطبقة الوسطى بنوع خاص تميل إلى إصاخة السمع إلى مفكر لم يخطط كلمة تحييد واحدة للاشتراكية ، بل كان على العكس يعارض معارضة قوية أى شكل من أشكال التدخل المطلق الذي تقوم به الدولة .

ولكن سينسر ، رغم ذبوع شهرته ، كان كصوت صاروخ في البرية . ^{إعمال الحكومات} فرغم اعتراضه واحتجاجه ، شرعت الدولة تتدخل في الصناعة . ^{العمل بمبادئه} وفي تربية الأطفال وتنقيتهم ، وتؤيد الكنيسة ، وتنظم الصحة العامة . وأخفق سينسر ، بصفته نبي الفردية في الميدان السياسي ، في أن يضم إلى جانبه أشياء ومريدين ، رغم أنه وجه كلامه إلى عدد كبير متزايد من الأذهان . فإن الاتجاهات كلها انحلت تجري في تيار سريع جلب في الجهة المضادة لمبادئه .

٤ - كارل ماركس

وكان نبي الحركة الاشتراكية رجلا فظ الخلق ، شديد التعصب لآرائه ، ^{منشوره} هو كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) . وقد خرج من أسرة يهودية محترمة ^{الشيخي}

(١) ويقصد بها آداب الإغريق والرومان وتاريخهم .

متوسطة الحال كانت تقطن مدينة تريف من أعمال الرين ، وقفز اسمه فجأة إلى الشهرة خلال ثورات سنة ١٨٤٨ بإصداره منشوراً شيوعياً على أكبر جانب من الخطورة وعظم الشأن التاريخي^(١) . ففي تلك الوثيقة النارية تقدم ماركس بفلسفة جديدة للتاريخ ، وبرنامج جديد للإصلاح الثوري ، ونداء جديد للعمل الدولى . فكتب مجادلاً بأن الطبقات البرجوازية هي التي أنجب خلقها ظهور الطبقة المقابلة والمعادية لها : وهي طبقة العمال ، وأن النضال بين هاتين الطبقتين هو مفتاح التاريخ الحديث ، وأن الفريق الكبير من العمال الذين يحسون بمركز طبقتهم الوضع هم الشيوعيون ، الذين لن يرضوا بأقل من « قلب النظام الاجتماعى بأكمله بالعنف » . ثم عدد عشرة إصلاحات مستعجلة ، أكثرها صالح مفيد ، وقد اقتبسها ونفذها بالفعل كثير من البرلمانات التي كانت تمثل في نظره الطبقة الوسطى ، والتي امتلأ قلب ماركس حقداً عليها ، ومرغها في التحقير والازدراء .

ولكن من المتعذر على ناثر أن يعترف بأن في الإمكان تنفيذ الإصلاحات المرغوب فيها بواسطة الحكومات القومية ، أو بالتشريعات التي يضعها ممثلو الطبقة الوسطى . وكان ماركس يفت القومية بكل جوارحه ، ويحقد عليها حقد المنبوذ الموتور . وكان يحترق الحرية في عجرفة الطاغية المستبد . ولم يضع طيلة عمره أية فرصة لمهاجمة الطبقة التي خرج هو من بينها .

مقته الحرية
والقومية

وكان التقسيم الأساسى الحيوى للجماعة البشرية في نظر هذا الزنديق العالمى المتطرف لا يقوم على دين أو على قومية ، بل على أساس الطبقات ، فلم يكن ثمة في رأيه أية مصلحة مشتركة بين أرباب الأعمال الألمان والعمال الألمان ، وإنما كانت هناك مصلحة مشتركة بين عمال العالم في أن يقضوا قضاء مبرماً على الممولين على اختلاف أجناسهم الذين يستغلونهم ويسخرونهم لمصلحتهم ، وقد ختم منشوره بهذه العبارات النارية : « فلترتعدن فرائص

نظرته إلى تقسيم
الجنس العنصرى

الطبقات الحاكمة ، ولتتخلعن قلوبهم أمام سيل الثورة الشيوعية الجارف .
فليس للمال ما يفسدونه منها سوى أغلامهم ، ولكن أمامهم العالم بأسره للظفر به .
فيا أيها العمال من جميع الأقطار والأمصار ، هيا اعتصموا بحبل الاتحاد والتكاتف .
وبعد فشل الحركات الثورية التي قامت سنة ١٨٤٨ في قارة أوروبا ،
اتخذ ماركس لندن مقراً له ، وأمضى بها الأربعة والثلاثين عاماً الأخيرة
من حياته . وكان على الدوام في حاجة قصوى إلى المال . ولكنه في كل ضائقة
مالية حلت به كان يجد له يد العون صديق ألماني اشتراكي المذهب هو
فردريك إنجلز Fredrick Engels ، وكان ابن صاحب مصنع للنسيج في
منشستر ميسور الحال . وكانت شخصية ماركس المهية المهمة ، وذكاؤه
اللامع القوي ، وفكره الواضح الواثق بنفسه ، ومزاجه الشرس المحب للسيطرة ،
وقدرته على الحديث الرائع اللاذع السخري — كانت كل هذه الصفات
تجعل منه شخصية فذة في أمة نادرة ومجتمع ، حتى وإن كانت شخصية
متفردة غير مقبولة . كتب ه . م . هندمان H.M. Hyndman الزعيم
والكاتب الاشتراكي الإنجليزي يقول عنه : « لقد جمع بحبيته السيطرة ،
وأهدايه المدلاة الكتلة ، وعينه المتألفتين المفترستين ، وأنفه الحساس العريض ،
وفه المتحرك ، يحيطها جميعاً لحية كثة وشر منكوش — لقد جمع في هيئته
هذه سمات أنبياء إسرائيل العظماء في غضبانهم الحققة ، مضافاً إليها قدرة
اسبينوزا والحكماء اليهود على التحليل الرصين » .

وألف ماركس ، وهو مقيم بإنجلترا ، كتابه الكبير الشأن : « رأس
المال » ، الذي قبله الناس كافة في جميع أنحاء المسكونة كتزواة الطبقات
العاملة . وقد استقى معلوماته عن الأمور المتعلقة بحياة المصانع الإنجليزية
من قراءاته في قاعة المطالعة بالمتحف البريطاني . ونقرأ قليل من بين الملايين
العديدة من أنصاره المتشربين في جميع أقطار أوروبا هم الذين تكبدوا مشقة
مطالعة المجلدات الطويلة الثلاثة التي يتألف منها هذا الكتاب (ظهر عام
١٨٦٧) والتي تعتبر الآيات الينيات المقدسة للمذهب الشيوعي . ولا يستند

نفوذ ماركس إلى عرضه المبادئ الاقتصادية عرضاً محكم العبارة ، ولكنه عرض غير مدعم بالأدلة ، إذ حاول في كتابه أن يثبت أن القيمة في علم الاقتصاد هي عمل متجمد ، وأن القيمة الفائضة التي ينتجها العمل فوق الغلة الثابتة لرأس المال يضيفها الممولون على الدوام بصفة ربح لم ، وأنه كلما ازداد الأغنياء غنى ازداد الفقراء فقراً . فإنه رغم عبقرية الفذة كان غير نابه كفيلسوف وكاقتصادي ، ولم يكن متضلماً في اللغة الإنجليزية - وإنما تستند قوة هذا الطريد المحتاج العنيف الأهواء والتزوات إلى أنه كان على الدوام داعية من دعاة الثورة ، يهاجم في عنف وحتى مركزين نظام المجتمع بأكمله ، مبنياً في ثقة متعجرفة أن الفقراء في جميع عصور التاريخ كانوا نهياً للأغنياء ، أما الآن فقد جاء دورهم للسلب والاعتصاب ، حسب قانون التقدم الإنساني الذي لا مرد لحكمه .

تفسيره لتاريخ

وقد جُبل الناس على الميل لتأييد القضية التي يعتقدون أن النصر سيكون لها . ولقد كان أروع أعمال هذا الخيال اليهودي أنه أقمع ذوى الثقافة والذكاء من العمال في أمصار كثيرة بأن ساعة نصرهم قد حلت . وتقدم بقاعدة للتقدم البشرى هي من مبتدعات فلسفة هجل - وإن كانت في بعض تفاصيل هامة تخالف تلك الفلسفة - تقدم بقاعدة تبلي أنها تضع الماضي والحاضر والمستقبل في ترتيب منطقي محتوم ، ترى فيها أن الشيوعية البدائية قد تراجعت أمام النظم الإقطاعية التي حلت محلها . ثم خطفت البرجوازية الرأسمالية للنظم الإقطاعية . وقد جاء الآن دور الطبقات العمالية لسلب الطبقات البرجوازية ، وانتزاع ما في أيديها .

فالتاريخ بأكمله في نظره إن هو إلا نضال بين الطبقات في سبيل الظفر بطييات الحياة المادية . وهو يرى أن حرب الطبقات ، وعداء الطبقات ، هما القانون الأول من قوانين التغير ، وأن دكتاتورية الموليين ستخلفها دكتاتورية العمال . وسيخلف الأخيرة ، حيناً يحين الوقت ، مجتمع عديم الطبقات هو الغاية النهائية لهذا الكفاح الوحشي الطويل الأمد وراء الماديات . أما من حيث

النظام الرأسمالي ، فيعتقد ماركس أنه يحمل في ثناياه معاول هدمه وأسباب منيته .
ففي فقرة كثيرة الاقتباس ، يصف كيف سيقلب النظام الرأسمالي ، فيقول
إن دوائر الأعمال مترداد بمر الأيام اتساعاً وكبراً ، وسيتناقص عدد الممولين ،
وستعظم الفاقة والطغيان والاستغلال والتدهور ، فيلقى هذا النظام حظه نتيجة
غلوّه وتطرفه . فإن الطبقات العاملة التي يزداد على الدوام عددها سترقى ،
وستوحد بينها النظم والعمليات الرأسمالية نفسها . ذلك أنه حينما تسرح هذه
الطبقات الفكر في سلطان الاحكار الرأسمالي المتزايد ، وتقارن بين غنى
المجملودين الفاحش ورغد عيشهم الكبير ، وبين فاقة الطبقات العاملة وعوزها
ويؤسها ، حينئذ ستفجر سورة غضبها ، ويستمر أوار حنقها وحقدّها .
وسيم يومتد ما لا قبيل لبشر بمنه . « فإن تركيز وسائل الإنتاج ، واشتركية
العمل ، سيصلان حدّاً يُرى فيهما مغايرتهما للنظام الرأسمالي الأجوف . وحينئذ
سيتمزق هذا النظام شلر منر ، وسيدق ناقوس الموت للملكية الخاصة
الرأسمالية منقراً بالهلاك ، وسينهب الناهبون » .

يد أن مجرى الأحداث الأوربية قُسم له أن يجيب آمال الفين آمنوا
بحرب طبقات عالمية ، ورأوا خلاصهم في تلك الحرب . فإن الدولية الأولى
التي أسست سنة ١٨٦٤ لتوحيد عمال الأمطار المختلفة لم تلق سوى تأييد
ضعيف منهم . وقد مزقتها الخلافات والمنازعات التي قامت بين هياتهم ،
ثم لقيت حضاها بعد زمن وجيز من تأسيسها . فقد زعزعت الحرب الفرنسية
البروسية أركانها ، فوهنت قواها ، وتحطمت في نيويورك بعد أن عمرت ثلاثة
عشر عاماً كانت مملوءة بالتقار والخصومات .

وأجهزت الحرب العالمية الأولى على الدولية الثانية^(١) . وكانت هذه
الثلاثة هيّة ترخر بالمواهب الرفيعة ، ولكنها كانت تخضع لغزو موسكو
الشرير . وأطلقت تلك الحرب الآمال بأن في وسع العمال المنظمين تنظيمياً

(١) كانت تضم لئين ، وموسكوى ، وبريان ، وروسي مكفوفاله ، وليبكسخت ،
والافال ، وفسطاطله ، وبلسوسكى ، وبرنارده شو .

دولياً أن يتقادوا الحروب القومية ، ويحسنوا حالهم . وأثبتت المنافسات القومية أنها أقوى أثراً في النفوس من مصالح الطبقات ، والعواطف الوطنية أنها أشد نفوذاً من روح الولاء للثقافات . فإن قوة العمال في كل دولة — لا قرارات العمال الدوليين — هي التي حققت كل ما ناله العمال حتى الآن من الإصلاح الاجتماعي .

وكاد ماركس إبان حياته في إنجلترا — هذا البلد الذي كان المسرح الأكبر لجهوده — كاد يوشك أن يكون إمعة لا أثر له فيها . فإن تطور الاشتراكية في إنجلترا لا يعود إلى كتابات ذلك النبي المهيج ، بل كان نتيجة العطف الإنساني الذي أثارته الظروف القاسية لحياة العمال في المدن المكتظة الكبرى . فطلق البرلمان يشرع لحماية العمال . كما نظم العمال أنفسهم في نقابات وجمعيات تعاونية لتأمين مستوى معيشتهم . وقام المصلحون الأذكى في دوائر المجالس المحلية — أمثال جوزف تشمبرلين (عمدة مدينة برمنجهام من سنة ١٨٧٣ إلى سنة ١٨٧٦) — بحركة ترى إلى إزالة الأحياء غير الصحية ، وتخفيض نسبة وفيات الأطفال ، وجعل التعليم والخدمات الاجتماعية في متناول الطبقات الفقيرة . وفي الحين الذي كان فيه ماركس ينظم اتهاماته للرأسمالية الإنجليزية ، كان الأحرار والمحافظون الإنجليز يقرون في ساحة البرلمان التشريعات والتدابير التي ظهرت ذلك النظام من كثير من عيوبه ومثالبه .

الجمعية القابلية

وقد أيقظ توماس كارليل^١ ووليم موريس^٢ ضمير الأمة الاجتماعية . وفي عالم الاقتصاديات البطيء الخطى الوئيد التقدم أخذت زمرة من المفكرين الاشتراكيين الأكفاء^(١) لقبوا أنفسهم بالفائيين — أخذوا يراقبون الميل المتطرد لتنظيم الصناعة تنظيماً جماعياً — هذا التنظيم الذي كانت تشاد أركانه حولم ، ونال رضاهم واستحسانهم . فرووا في سلسلة من المؤلفات النفيسة تاريخ

(١) أشال برنارد شو، وسدي وبياترس وب Sidney and Beatrice Webb وجرهام

ولاس Graham Wallace إلخ . وقد تأسست الجمعية القابلية سنة ١٨٨٢ .

نقابات العمال ، ووضعوا أسس الديمقراطية الصناعية الجديدة ، وشجعوا تشجيعاً قوياً الدولة والمجالس المحلية على توسيع نطاق الخدمات الاجتماعية التي تضطلع بها .

التشديد بمذهب
الحرية
الاقتصادية

وهاجم الفايون في إقدام وجرأة مذهب « الحرية الاقتصادية » ، والمبدأ العتيق الذي كانت تحبذه وزارات المالية والقائل بترك المال يتكاثر في جيوب دافعي الضرائب ، وحضوا الحكومة على الإنفاق في سبيل ترقية المرافق العامة . وأعلنوا للأمة أن العامل مستحق لحد أدنى من التعليم والصحة وأوقات الفراغ والأجور . وطرب المناهون بالإصلاح لذلك التأييد الكريم . ولهذا فإنه بينما كان نجم كارل ماركس آخذاً في الأفول في إنجلترا ، أخذ المصلحون الفايون الديمويون الذين كانوا يعيشون في بحبوحة من العيش - أخذوا ينادون بيشارة « التدرج الطبيعي الختمى » ، وطبعوا تشريعات البرلمان الإنجليزي الكثيرة في الإصلاح الاجتماعي بطابع أفكارهم وبمحوهم .

ولذلك لم يلق مذهب ماركس القائل بتطاحن الطبقات في جميع بقاع المعمورة ، والمبشر بالزندقة المنظمة - لم يلق آذاناً صاغية في بريطانيا ، حتى بين أشد أهلها فاقة وأمرهم نفساً . فإن هنلمان الرياضى السرى المرح القواد الذى تلقى العلم في كلية إيتون الخاصة الشهيرة ، ثم اعتنق المذهب الماركسى ، وأنشأ « الاتحاد الديمقراطي الاشتراكى » Social Democratic Federation سنة ١٨٨١ ، لم يكن ذا أثر مذكور بالقياس إلى جون برنر John Burns زعيم العمال الذى لم يكن يحفل بالنظريات ، والذي قاد إضراب عمال ميناء لندن سنة ١٨٨٩ ، أو بالقياس إلى كير هاردي Keir Hardi المدن الاسكتلندى المتصوف المتدين الذى أسس حزب العمال المستقل سنة ١٨٩٣ .

مقارنة بين
الاشتراكية
البريطانية
والاشتراكية
الثقافية

فالاشتراكية البريطانية كانت حركة قومية صميمة ، تغلغل في أعماقها الشعور الدينى الإنجليكانى الذى هو أدنى في روحه إلى الحركات الدينية الكبرى التى تحرك بين آونة وأخرى ضماير الشعب البريطانى ، وتفتح له

أفاقاً وآمالاً ورؤى جديدة . فغرب عن هذه الاشتراكية عنصر الكراهية القاسية والحقد الشرس بين الطبقات : وهو العنصر الذى نراه يلهم الحركات الاشتراكية فى قارة أوروبا ، ويذكى نارها . ففى إيطاليا ، وفى فرنسا ، وأكثر منهما فى روسيا ، بدأت المبادئ الماركسية منذ العقد الأخير من القرن الماضى تسهوى ألباب كثير من أذكى قرائح الجيل الناشئ . ودخل الشعراء وأساتذة الجامعات ومعلمو المدارس والعمال الفنيون أفواجا فى المذهب الماركسى ، واعتنقوا نظرية حرب الطبقات و « قانون الأجور الحديدي » الصارم ، وتطلخوا إلى انتصار العمالية القادم . فأشاعت أدا نجري *Ada Negri* - التى اشتغلت بالتدريس فترة فى إحدى المدارس الإلزامية بلمبارديا - أشاعت الاشتراكية فى إيطاليا فى ملحمتها الشعرية الشعبية . وأسس فيلبو توراني *Philippo Turati* وهو شاعر لمباردى آخر ، جريدة اشتراكية .

وأمكن للماركس فى خلال عقد من السنين أن يثل عرش هربرت سبنسر بوصفه النبي الأكبر للفلسفة السياسية والاقتصادية فى عيون الإيطاليين . وذاع صيته بين عمال المصانع . ودل الإضراب العام الذى قام فى إيطاليا سنة ١٩٠٤ على كثير سلطانه وذيوخ تعالجه بعد موته . وفى الحين الذى كان فيه الشعراء والأدباء الإيطاليون يستلهمون وحيم من منظومات كاردوتشى *Carducci* الجمهورى ، وتخلب لب القصصيين والمسرحين بلاغة دانتزيو *d'Annunzio* أمير الشعراء الاستعماريين - هؤلاء الشعراء الذين يوشك جيلهم أن يتقرض - فى هذا الحين وجد عمال المصانع فى شمال إيطاليا خلاصهم ، ووضعوا آمالهم فى ماركس .

والحق أنه كلما عظم تأخر قطر من الأمطار ، ازداد تأثير ذلك المفكر الثورى رجحاناً وصار قوة خطيرة فعالة . ففى روسيا التى لم يكن بها نقابات للعمال ترفع مستوى معيشة العمال وتكفله ، سرعان ما نفذت تعاليم ماركس داخل المصانع ، واستوعبت مبادئه ، حتى انتشرت انتشار النار فى الهشيم ، وظفرت بالتمسوق والغلبة فى تلك البلاد .

کتابخانه استانی

- Seignobos : History of Contemporary Europ. 1909.
 Leslie Stephen : The English Utilitarians. 1900
 Herbert Spencer : Social Statics. 1892.
 Herbert Spencer : The Man versus the State. 1909.
 Herbert Spencer : Autobiography. 1904.
 E.H. Carr : Karl Marx. 1934.
 Fabian Essays in Socialism : Ed. G.B. Shaw. 1931.
 S. and B. Webb : Industrial Democracy. 1920.
 S. and B. Webb : History of Trades Unionism. 1920.
 Charles Darwin : Origin of Species. 1859.
 Charles Darwin : Descent of Man. 1871.
 Greece : History of Italy. Tr. C.M. Ady.
 Action : The History of Freedom and Other Essays. 1907.
 R.L. Woodward : Three Studies in European Conservatism. 1989.
 F. Nielsen : The History of the Papacy in the Nineteenth Century. 1906.

الفصل الثاني والعشرون

الحكم البريطاني في الهند

حرى بنا الآن أن نوجه الالتفات إلى أمرين ، وهما وإن كانا خارجين عن نطاق كتاب يؤلف في تاريخ أوروبا ، إلا أنهما جذيران بلفتة موجزة نظراً لما يلقىانه من ضوء على سمات دولة من دول أوروبا الكبرى . وأول هذين الأمرين هو : فتح بريطانيا للهند وحكمها إياها . والثاني : الموقف الذي اتخذته بريطانيا العظمى والدور الذي لعبته في الحملة على مبدأ الاسترقاق ومكافحة تجارة الرقيق .

أما فتح بريطانيا للهند فلم يكن قط موضع تدبير وتخطيط من جانبها . وإنما نجم عن الحاجة التي أحس بها التجار الإنجليز في تلك البلاد إلى وضع نظام لاستتباب الأمن والعدالة ، اللذين يلوئهما لا يمكن للتجارة أن تنفق وتزدهر في بلد من البلدان . فإن القوضى واضطراب حبل الأمن اللذين عقبا انحلال إمبراطورية المغول قدما للإنجليز فرصة لم يسعوا وراءها ، غير أنهم تمكنوا من استغلالها استغلالاً حسناً . قال كاتب أخلاقي أمريكي : « لقد استسلمت الهند صاغرة أمام الأخلاق البريطانية ^(١) » .

سمات الفتح
البريطاني

فقد أفلح الإنجليز في فتح تلك البلاد ، لأنهم جلبوا إلى ربوعها السلام ، والطمأنينة ، وخلصوا أهلها من ربة البغي والجور . وكان نجاحهم في هذا المضمار عجيباً حقاً . فلهم أنقلوا الهند من الاعتداءات الخارجية ، ومنحوها نم السلام الداخلي المستقر ، وحرية التجارة . فليس ثمة شبر واحد من

(١) عبارة قالها ر . و . إمرسن R.W. Emerson ، واقتبسها الماركيز زتلند في كتابه خطوات نحو الحكم الذاتي الهندي . Zetland : Steps toward Indian Home Rule

أراضي الهند البريطانية لا يحظى برعاية الإدارة البريطانية ، أو لا يتمتع بحماية سلطان القانون البريطاني . وعمر مهندسو الري البريطانيون قرابة أربعين مليون فدان كانت قبلُ صحراء قفراً . ومع أن عدد الإنجليز الموظفين في حكومة الهند لم يزد يوماً من الأيام على خمسة آلاف ، فإن هذه الشريحة من الرجال الغرباء أداروا شئون تلك البلاد في عدالة وفطنة ، حتى زاد عدد سكانها أكثر من ٢٣٠ مليوناً من الأنفس في نحو قرن ونصف قرن من الزمان .

دين الهند للحكم
البريطاني

وكل ما يوجد بالهند الآن من أشكال الوحدة الثقافية ، والوحدة السياسية ، راجع إلى الفتح البريطاني ، والإدارة البريطانية . فإن اللغة المشتركة بين الهنود من أقصى القارة الهندية إلى أقصاها ، والتي هي الأداة الوحيدة المشتركة للتعليم العالي ، والتي لا متدوحة للهنود عن استعمالها نظراً لاختلاف لغاتهم اختلافًا شاسعاً - نقول إن هذه اللغة المشتركة هي اللغة الإنجليزية - وإن كان قولنا هذا يبعث على الأسف . ففي كل حفل سياسي من محافل الهنود ترى المناقشات تدور بلسان هذه الجزيرة الأوربية النائية .

العراقيل الماثقة
لنشر التعليم

وقد اتهمت الإدارة البريطانية في الهند أحياناً بأنها أهملت تعليم الهنود ، حتى إن ٩٠ ٪ من السكان ^(١) لا يزالون أميين . ولكن هؤلاء الذين يوجهون هذا الاتهام ينسون أن نشر التعليم في الهند تعوقه عراقيل ثلاثة مثقلة للجهود ، وغير موجودة في أي قطر أوربي . وأول هذه العراقيل ، وإن كان أقلها أهمية ، هو تباين اللغات والمذاهب الهندية تبايناً عظيماً . والثاني هو انتشار زواج الأطفال الذي يحصد البنات الهنديات حصداً ، بحيث يوجد فاقض من الذكور يبلغ عشرة ملايين . والثالث هو تعذر استخدام المعلمات غير المتزوجات في المدارس الأولية نظراً لتقاليد الهند الاجتماعية . وبحسب كل امرئ أن يستعرض حال التعليم الأولى في أوروبا وأمريكا ليدرك علة شيوع الأمية بين الشعوب الهندية .

(١) بلغوا سنة ١٩٣١ ، ٢٣٨ مليون نسمة .

إن أعظم ما يثير الالتفات ، كدليل على الخلق البريطاني ، ليس هو إخفاق هذه الدولة الأوربية في إعطاء الهنود نظاماً كاملاً للتعليم الأولي ، كهذا الذي وُضعت أصوله في مشقة وصعوبة في إنجلترا نفسها عام ١٨٧٠ - بل هو عزمها على تقديم التعليم الغربي عن طيب خاطر إلى أهل الهند . فإنه بإرشاد ماكولي المؤرخ والسياسي الإنجليزي الذي كان وزيراً للعدل في مجلس حاكم الهند العام من سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٣٨ ، قُرِّرَ وجوب تثقيف شعوب الهند بلسان فاتحيها الأوربيين ، وتلقيها آدابهم وعلومهم . ومع أن هذه السياسة بنيت على عطف خاطئ في إدراك تقاليد الشرق الثقافية ، ومع أنها نفذت تنفيذاً فضفاضاً واسع النطاق ، إلا أنها أوجت بها رغبة كريمة في ضرورة إشراك الهند في كل ما هو طيب وصالح ونفيس في حضارة الأمة الفاتحة .

ولقد كانت نتائج هذه السياسة مدهشة حقاً . فإن طائفة كبيرة من الهنود من رجال القانون والإدارة والموظفين والمعلمين والسياسيين الأذكياء أتقنوا بسهولة لا تكاد تصدق لسان بريطانيا وعضموا أفكارها . فهم يطالعون المؤلفات الإنجليزية ، ويمتازون الامتحانات الإنجليزية ، ويمثلون المسرحيات الإنجليزية ، ويستشهدون بالقضايا والقوانين الإنجليزية ، ويظهرون كحامين وبرلمانيين أدلة على خلق ممتاز . فكانت ثمرة مذكرة ماكولي الشهيرة عن التعليم في الهند^(١) هي أنها لم تخلق فقط طائفة من الموظفين الأذكياء يبلغ عددهم زهاء مليونين ، بل إنها أنجبت أيضاً نخبة من السياسيين المثقفين ، الذين باطلاعهم على الكتب الإنجليزية تعلموا أن يكونوا جد معجبين بالحرية ، وأن يدلوا بالحجة القائلة بأن ما هو صالح ونافع للإنجليز ، لا بد أن يكون صالحاً ومفيداً للهنود أيضاً ، ويوجهون إلى الدولة الحاكمة تحدياً يستند إلى مبادئ ومعتقدات الإنجليز أنفسهم في الحرية والتقدم .

(١) قلعت هذه المذكرة للحاكم العام سنة ١٨٣٣ .

إن مائة حول فقط تفصل بين موقعة بلاسى^(١) وبين نهاية شركة الهند الشرقية . فإن قانون الهند سنة ١٨٥٨ الذى أخضع الإمبراطورية الهندية لهيمنة التاج البريطانى مباشرة - وذلك بتعيين وزير خاص للهند فى الوزارة البريطانية - إن هذا القانون يحدد ختام عصر الفتح ، ويبدأ عهداً من الاستقرار والتنظيم والسلام . ومع ذلك فإنه حتى فى غضون القرن الذى كان البريطانيون خلاله يملكون سلطانهم بقوة السيف على وسط الهند وغربها ، وعلى البنجاب ، كان أفضل حكام الهند العاملين يعتبرون أنفسهم مسئولين عن رفاهية الأهلىين الوطنيين ورخائهم . فلقد كانت هذه هى نظرة هيستنجز^(٢) ولزلى^(٣) وبتنتك^(٤) ودهلوزى^(٥) وجون لورنس^(٦) وهنرى لورنس^(٧) .

وكان الأحرار الإنجليز الذين أقرؤا قانون الإصلاح البريطانى سنة ١٨٣٢ يعدون المبادئ الحرة منهاجاً تسير وفقه الحكومات الناجحة فى جميع الأقطار والأمصار . وه العهد الهندى^(٨) الذى أصدر سنة ١٨٣٣ ، يقرر مبدأين عظيمين : الأول أن مصالح الأهلىين الهنود يجب أن تفصل على مصالح الأوربيين أينما وُجد بينها تضارب . والثانى : « يجب ألا يُحرَم أى مواطن أو مولود هندى خاضع لجلالة ملك بريطانيا ، من تقلد أية وظيفة أو احترام أى عمل ، بسبب دينه ، أو محل ميلاده ، أو جنسه ، أو لونه » . وقد استمر هذا التسامح الإنسانى معمولاً به حتى عقب نشوب الثورة الهندية

(١) نشبت فى ٢٣ يونيو سنة ١٧٥٧ ، وفيها انتصر كلايف انتصاراً كبيراً على سلطان البنغال .

- | | | |
|-----------------------|-----|---|
| Warren Hastings | (٢) | كان حاكماً عاماً من ١٧٧٣ إلى ١٧٨٥ . |
| Marquis Wellesley | (٣) | (١٨٠٥ - ١٧٩٨) . |
| Lord William Bentinck | (٤) | (١٨٣٥ - ١٨٢٨) . |
| Marquis of Dalhousie | (٥) | (١٨٥٦ - ١٨٤٨) . |
| Sir John Lawrence | (٦) | (١٨٦٩ - ١٨٦٤) . |
| Sir Henry Lawrence | (٧) | وكان أول حاكم البنغال بعد ضمها سنة ١٨٤٩ . |
| The Indian Charter | (٨) | |

سنة ١٨٥٧ ، حينما كان من المحتمل أن تحرف الأهواء العنصرية الهوجاء الحكومة عن مسلكها القويم . فقد أعلن منشور ملكي أن حقوق الأمراء الهنود ستكون محل الاحترام ، وأن جميع الأديان على السواء ستُكفَل حريتها ، وأن جميع المناصب ستفتح أمام جميع رعايا العرش دون أى مراعاة للجنس أو المذهب . وقد نُفِذَ التعهدان الأولان بأمانة ودقة . أما التعهد الثالث فقد نفذ في مراحل متباطئة وخطى حذرة .

نجاح الحكم
للبريطانى

ويُستدل على النجاح الكبير الذى أحرزه الحكم البريطانى فى الهند من الحقيقة بأنه لم تحدث قنن واسعة النطاق تهدف إلى الخروج عليه . فلم تكن الثورة الهندية عصياناً عاماً ، وإنما كانت تمرداً حريباً جزئياً . وقد قُسمت بمساعدة الكتابات الهندية التى أخذت من البنجاب . ومع أن الفتنة لم تخلُ من فظائع وحشية مؤسفة ارتكبها كلا الفريقين ، ومع أنها تركت فى النفوس ذكريات قاسية مريرة ، فقد أعقبتها فترة من الحكم الإنسانى القطن الحكيم : حكم عمل على تلطيف شبهات الأهلين الدينية ومخاوفهم . ولعله لذلك أخطأ فى السير فى تهيب وحذر شديد . وفى الحرب العظمى الماضية حينما كادت موارد الإمبراطورية أن تستنفد ، أظهر أقيال الهند وأهلها ولاءهم للأواصر التى تربطهم ببريطانيا . فلو أن السيطرة البريطانية كانت صارمة أو مستبدة طاغية ، أو لو أنها كانت متصلة فى معنى مطلب الهنود المتعلمين بالمساهمة بنصيب فى حكومة بلادهم ، لقبض الهنود على ناصية هذه الفرصة التى هُدِدت فيها بريطانيا بالخطر والتهلكة .

ولكن الهند حُكمت منذ الثورة الهندية بموظفين يتقلدون وظائفهم تبعاً لنتائج امتحانات مفتوحة لكل من يرغب فى التقدم إليها . ويسلم كثرة الناس بالفائدة التى جنتها الهند من وجود حكومة نقية من شوائب الفساد والأهواء والخلل تدبر شئونها ، وتقضى بين الناس بالعدل والمساواة دون تحيز لطبقة أو لمذهب . وحقق الموظفون البريطانيون فى حكومة الهند ، أكثر من أية طبقة حاكمة أخرى ، المثل الأعلى للحكومة المنصفة غير المتحيزة ، هذا

المثل الأعلى الذى اعتقد أفلاطون أنه ليس فى المستطاع بلوغه ، إلا إذا ضُمِنَ كيان الدولة ، وإبعاد المهيمنون على شئونها من غوايات الملكية ، وتجارب الأواصر العائلية . وكان عمل هؤلاء الموظفين مرهقاً كثير النصب والعناء : فمن تعقب الجرائم ومنعها ، إلى اتخاذ العدة لتوفير مطالب دولة عصرية من موارد ضئيلة شحيحة لشعوب شرقية فقيرة ، إلى ترقية وسائل التعليم وتوفير أسباب الصحة بين طبقات الفلاحين المتأخرين الذين تشجع بينهم الأوهام والخزعبلات ، إلى العمل كفيصل عادل بين جماعات متعادية ومذاهب متباغضة .

ولعله يمكن إعطاء صورة تقرب إلى الأذهان شكل الإدارة البريطانية فى الهند خلال عقود السنين التى سبقت الحرب العظمى ، لو أننا تخيلنا أن أهل أوروبا تمثلهم إلى حد كبير عقلية فلاح أعزل من فلاحى التبرول ، وتنبع قارتهم مبدأ حرية التجارة ، وتحكمهم حفنة من الصينيين الأذكاء الخبيرين ، ويصد جيش صينى - تسكر أكثر فرقته فى جبال الأورال - يصد عنهم عاديات البر والبحر . ويتألف هذا الجيش من مائة ألف وخمسين ألفاً من الجند الأوربيين وخمسة وسبعين ألفاً من الجند الصينيين . فإن أمة كالأمة الهندية يبلغ عددها ثلثمائة وخمسين مليوناً ، وتحمى ذمارها قوة من الجند البريطانيين لا تريد كثيراً على تلك التى تحتاج إليها البلجيك - لأنها لتقدم الدليل القاطع على أن الحكم البريطانى فى الهند مقبول لدى الكثرة الكبرى من الشعوب الهندية .

ولقد كان من بين الأهداف الرشيدة للسياسة البريطانية أن تشرك فى قسط متزايد الهنود الوطنيين المثقفين فى إدارة شئون حكومتهم . نعم ، لم يكن يسمح للهنود فى بادئ الأمر بأن يشغلوا سوى الوظائف الصغيرة ، غير أنهم أخذوا قبل الحرب العظمى يتقلدون مناصب القضاء فى محاكم الاستئناف ، ويشغلون نصف الوظائف المدنية . وبُذِرَتْ سنة ١٨٦١ بنور الحياة البرلمانية^(١) فنبئت وترعرعت ، حتى صارت شجرة قوية فرعها فى السماء .

(١) حين الحاكم العام الهند عاداً قليلاً من الأعضاء الهنود فى المجلس التشريعى .

وظهرت في الهند روح من القومية قوية متغلغلة كانت مجهولة في عهد كليف واران هيستنجز ، بل كانت مجهولة أيضاً لحيل الهنود الذي قام بالثورة الهندية . فصارت مهمة الإنجليز في الهند أعسر وأشق مما كانت عليه أولاً . فإن البشرية البيضاء التي كانت في القرن الأول من الحكم البريطاني جوازاً يفرض الاحترام والمهابة في نفوس الهنود ، أصبحت الآن في أعين الكثيرين من الهنود المثقفين وأشباه المثقفين إهانة ومذلة . واستفحل أمر التعصب الجنسي ، وصار إقصاء العنصر الأجنبي عن الحكومة هدفاً عادياً مألوفاً لمطامع ذلك الشطر من السكان الذي يشغل نفسه بالسياسة . فالطلبة في الكليات والجامعات يحملون بالاستقلال ، والصحفيون يسعون سعياً حثيثاً لنيله . وبعد انتصار اليابانيين في الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ - ١٩٠٥) رأى الهنود أنه ليس هناك سبب ليطأطي الشرق بعد الآن هامته للغرب .

والقومية الهندية تميل في درجات متناهية التفاوت في الشكل واللون ، إلى أن تتخذ أحد قاليتين رئيسيين : القالب الأول : غربي دستوري . والثاني : شرقي ثوري . فهناك فريق من الهنود ذوي البصيرة وردوا مناهل الفلسفة الحرة التي سادت أثناء العصر الفكتوري ، وتتبعوا باهتمام وحماس بالغين سير الحركات القومية للتحرير في البلدان الغربية ، ودوسوا استقلال الولايات المتحدة ، ومنع المستعمرات البريطانية الكبرى حكومات نيابية مسئولة ، وراقبوا ضغط الحركة الإيرلندية المتزايد وإفلاحها في إحراز الحكم الذاتي - إن هذا الفريق من الهنود يرى أن ما ثبت صلاحه ونجبه في الأقسام الأخرى من الإمبراطورية البريطانية ، لا بد أن يكون صالحاً نافعاً لشعوب الهند أيضاً .

ولهذا فإن رؤياهم التي يتشوقون إلى تحقيقها للهند المستقبلية ، هي أن تصبح مستعمرة بريطانية تتمتع باستقلال ذاتي كهذا الذي تتمتع به أستراليا وكندا ، وأن تتوفر لها مجالس نيابية ديمقراطية ، وأن تحتل مكانها بين أمم العالم العصرية بتزودها من الثقافة الغربية ونشر التعليم بين أهلها . ولا يرى هؤلاء الأشخاص إلى الثورة ، فإنهم يعتقدون أنهم سائرون في طريق الاستقلال القوي ، ولكنهم

يبتغون أن يعجلوا نبيله باستخدام الضغط السياسى المطرد فى نطاق الحدود الدستورية . ولقد كان ج. ك. جوخال^(١) G.K. Gokhale (١٨٦٦ - ١٩١٥) رائداً من رواد هذه المدرسة، جمع بين الفهم والكياسة وجعل المناقب .

أما الفريق الآخر فلا يقيم كبير وزن للمستحدثات الغربية . ويرى أن كل شىء ثمين فى الحياة الهندية موجود فى متن أسفار الفيدا . وهو يؤمن بالهند كأمة ، ولكنه لا يؤمن بها كديمقراطية برلمانية . هذه هى فلسفة سوامى ديانانادا Swami Dayananda ، وقد أسس جمعية «أريا»^(٢) Arya Samaj التى تهدف إلى إحياء الروح الهندية القديمة .

وكانت هذه أيضاً وجهة بال غنغار تيلاك Bal Gengadhar Tilak (١٨٥٦ - ١٩٢٠) البرهمى الجبار الذى نظم مقاومة عنيفة للحكم البريطانى فى إقليم الدكا فى غضون العقد الأخير من القرن المنصرم . وكان من مميزات الروح المحافظة المتطرفة لهذا الخطيب الشعبى الثورى القوى الشكية ، أنه قاوم الروح المعصرية التى تمثلت فى قانون سن سنة ١٨٩٠ لتحديد سن زواج الأولاد والبنات The Age of Consent Bill بقصد لإزالة هذا الشر الذى يعتبر بوجه عام أسوأ لوثة فى نظام الهند الاجتماعى .

ومن المحتمل أن رجال الإدارة البريطانيين فى الهند أبدوا فى مقاومتهم هذه الآراء القومية الجديلة عناداً وصلابة أشد مما ينبغى . ولكن يجب ألا يستظر من موظفين مرهقين إرهاقاً باهظاً بعبء ثقل من الأعمال والواجبات ، ويعيشون فى مناخ مزهق النفوس ، أن يرحبوا بمثل هذه الأفكار المزعجة المثيرة لحواسهم ،

(١) ولد جوخال من أسرة رقيقة الحال . وتمكن بحده ودأبه من أن يصبح أستاذاً لقانون واقتصاد السياسى بكلية فيرجسون ، ثم ناظراً لها . وانتخب سنة ١٩٠٥ رئيساً للمؤتمر الهندى . وأسس فى بونجا جمعية « خدام الهند » التى كانت تفرض على أعضائها أن يحلفوا الإيمان بأن يعيشوا عيشة فاقة وزهد ، ويكرسوا حياتهم للخدمة العامة فى روح من التمسيد والتتدين .

(٢) أسس هذه الجمعية سنة ١٨٧٥ ، واتخذ مقراً لها مدينة لاهور ، وأنشأ لها فروعاً فى جميع أرجاء الهند ، حيث أذكت الروح القومية فى أهله ، وحشنتهم على العناية بالتعليم ، وصارت قوة من أعظم القوى فى الهند الحديثة .

والتي قد نخلُ بحسن سير الأداة الحكومية الدقيقة الأجزاء في سيرها الهادئ المنتظم . ولهذا نشاهد الموظفين البريطانيين يقابلون بفتور عظيم أعمال سياسي المؤتمر الهندي الذين دأبوا منذ تأسيسه سنة ١٨٨٥ على خلق حركة قومية وإذكاء نارها ، ولا يعيرون هجمات الصحف الوطنية غير المنقطعة كبير التفات . ومن الطبيعي أن تنسم علاقات عمال دولة أجنبية خيرة اغتصبوا دهرًا طويلًا زمام الحكم من أبناء البلاد — من الطبيعي أن تنسم علاقاتهم بالحركة القومية التي يضطلع بها الشباب الهندي بقلة أكثرث يشوبه ازدراء واحتقار .

ولكن برغم هذا كله ، فإن الإدارة البريطانية الهندية نفذت في ولاء جم وإخلاص كبير الخطط والمشروعات التي وضعتها الوزارات البريطانية ، والوزراء والحكام العامون البريطانيون من ذوى المبادئ الحرة ، لإرضاء الساسة الهنود . فإن المجالس البلدية التي أنشأها اللورد ريبون Lord Ripon سنة (١) ١٨٨٣ ، والمجالس التشريعية الاستشارية التي ابتدعها اللورد مورلي Lord Morley (٢) ، واللورد منتو Lord Minto سنة (٣) ١٩٠٩ ، والحكم الثنائي القائم على مشروع متاجيو — تشلمسفورد Montagu-Chelmsford Scheme سنة ١٩١٧ ، الذي انتقلت بمقتضاه الخدمات الاجتماعية ، كشئون التعليم والصحة والحكومة المحلية إلى وزارات هندية مسئولة أمام مجالس تشريعية منتخبة ، على حين بقيت شئون الأمن والنظام (كالجيش والبوليس إلخ) في أيدي البريطانيين : هذه المنح المتتالية من الحرية السياسية ، التي وإن أضطت العقل البيروقراطي ، وازور عنها الموظفون البريطانيون في الهند ، فقد سلّم بضرورتها المحتومة . وغدا الاعتماد الغالب الآن على جميع ألوان الرأي العام البريطاني بأنه يجب الرضا عن صيغ السياسة البريطانية في الهند بالروح الوطنية الهندية ، كإقرار البرلمان الهندي بلهى تمريرة جمركية هندية تحد من واردات البضائع البريطانية لفائدة المنتجين الهنود .

إدخال نظم
الحكم الذاتي

(١) كان حاكم الهند العام ١٨٨٠ - ١٨٨٤ .

(٢) كان وزير الهند بالوزارة البريطانية من ١٩٠٦ إلى ١٩١٠ .

(٣) كان حاكم الهند العام ١٩٠٥ - ١٩١٠ .

شروع اتحاد
هندي

غير أن نظام الحكم الثنائي الذي قرّرت سنة ١٩١٧ ، وعدّ منحة كبيرة القدر للهنود ، فشل في إرضائهم ، وأصبح الهدف الذي يتطلع الزعماء السياسيون في كلا الهند وبريطانيا إلى تحقيقه ، بل إنه مدون في قانون أقر سنة ١٩٣٥ ، وبدئ بتنفيذه في إبريل سنة ١٩٣٧ ، هو إنشاء اتحاد يضم جميع المقاطعات الهندية ، بما فيها المقاطعات التي يحكمها الأمراء الوطنيون ^(١) ، والتي تتمتع بالحكم الذاتي . وقد قبلت بريطانيا أن تسير في سرعة حثيثة في هذا الطريق المخوف بالمعائر ، مهتدية بمبدأين رئيسيين من مبادئ الجنس الأنجلوسكسوني : الأول أن كل شكل من أشكال الحكم ينبغي أن يتركز على أساس من موافقة الشعب ، والثاني : أن عمل الرعامة السياسية الرشيدة وواجبها هما تفادي اندلاع الثورات بإدخال الإصلاحات المنشودة .

اختلاف وجهة
نظر الشرق

ولقد قيل « الشرق شرق ، والغرب غرب » . فنرى الخلق الهندي ، والتقاليد والمستويات الهندية ، في تحليلها النهائي ، تُبرز على الدوام صفات يعسر على المراقب الأوروبي إدراك كنهها . ففي المحيط الديني الهندي يُنظر عادة إلى أمور هذا العالم كأشياء تافهة عديمة الوزن ، وإلى اختيارات الحياة كأمر ضئيلة القيمة قليلة الشأن . فالإيثار والزهّد يفوقان البدارة والأهلية مرتبة . وتحصيل العلم وكسب المعرفة يعلمان قيمة وتبجيلا النشاط العلمي والهمة الموفورة . والقديس الذي يقضي أيامه جائعاً عرياناً هو موضع الاحترام والتبجيل من الجميع ، أما المصلح الاجتماعي الذي يزيل الأحياء الملوثة غير الصحية ، أو الذي يأخذ بمخناق المراهبين ، أو الذي يكافح الأمراض والأوبئة ، فإنه يلقى مقاومة أعظم مما يصادف من استحسان وتقدير .

فقد غادر اللورد كرزون Curzon الهند غير مرموق من الهنود بعين الرضا ، ورغم ما أداه من خدمات جليلة للزراعة والتعليم والتنقيب عن الآثار القديمة

(١) يتراوح عدد هذه الإمارات الهندية بين خمسمائة وستمائة إمارة ، مساحتها ٧١٢,٥٠٠ .

ميل مربع ، يسكنها نحو ٨١ مليون نسمة .

والعناية برماهيّة الأمة الهندية ورغد عيشها . أما البطل الذي شخصت إليه أبصار الهنود ، واصطفوه لهم زعيماً وقائداً ، فهو رجل يختلف إلى أقصى درجة يمكن تصورها عن ذلك الإداري الإنجليزي الأملى الباهر المواهب . فإن غاندى ، وهو الرجل الذى نعينه ، له مجايا عديدة كانت ترفعه إلى المقام الأول فى الحياة السياسية ، لو أنه قُسم له أن ينبت فى قطر غربى . فهو يتحلى بسحر شخصى عظيم ، وجاذبية قوية ، ووطنية مضطربة ، ومقدرة فائقة فى حلبة النقاش والحوار ، وبصر نافذ فى أساليب الدعاوة والنشر ، وحذق رائع فى وسائل الدفاع والهجوم ، وتضلع ممتاز فى اللغة الإنجليزية . ولا ريب فى أن مثل هذه المتأهب ، التى تدخل بين الفضائل السياسية للغربيين ، تثير إعجاب الإنجليز . ولكن هذا المحامى الهندوسى الضئيل البدن ، الذى خلق للحكام البريطانيين متاعب لا حصر لها بصفته المنظم لحركة مقاطعة البضائع الإنجليزية ، وزعيم حملة العصيان المدنى ، يعرض وجوهاً أخرى محيرة يشق فهمها على البريطانيين . فبينما هو قديس ، إذ ما فى هذا شك ، إذ به لا يستنكر الربا بصفته ممولاً ، ومع أنه وطنى بالغ الحماس إلا أنه كسياسى لا يرى غضاظة فى قبول هبات تجيء له من إيجارات الأحياء القنطرة غير الصحية فى الهند . ومع أنه خصم سافر للروح الفرية العصرية ، إلا أنه لا يحرم على نفسه الانتفاع بما تقدمه السيارة من وسائل الراحة والتيسير . فجمع غاندى بذلك خلاصة من تلك المتناقضات القلة التى تحير عقول الأوروبيين - تلك المتناقضات التى تتحدى تحدياً عجيباً صبر الغرب وأناته وحكمته .

کتاب ممکن استشارتها

- A.C. Lyall : The Rise of the British Dominion in India. 1910.
 T.W. Hoderness : Peoples and Problems of India. (Home University Library), 1912.
 E. Thompson and E. Garratt : Rise and Fulfilment of British Rule in India. 1934.
 Sir Courtenay Ilbert : The Government of India. 1913.
 W.W. Hunter : The Indian Empire. 1893.
 W.W. Hunter : The Marquis of Dalhousi. 1890.
 T. Rice Holmes : History of the Indian Mutiny. 1898.
 Marquis of Zetland : Life of Lord Curzon, 1928.
 R. Temple : Lord Laurence. 1898.
 Indian Statutory Commission 2 vols. ed. 3568, 3569 1929-30 Simon Report.

الفصل الثالث والعشرون

أوروبا والاسترقاق

الاسترقاق في المصور الغابرة . موالى الأرض في المصور الوسطى . رق المزارع الكبيرة في العالم الجديد . إنسانية أسبانيا النسبية . تجارة الرقيق الإنجليزية . حركات إلغائها . المحررون . أهية البرلمان . طاقفة وسل الدينية . الاقتصاديون . تشريعا سنة ١٨٠٧ وسنة ١٨٣٣ . محاربة تجارة الرق الأجنبية . لفنجتون في إفريقيا . الروح الإنسانية في التشريع الحديث .

الاسترقاق في
المصور الغابرة

يحوى تاريخ أوروبا — بقدر ما وصلت معرفتنا به — فصلين يمتازان بطابع خاص من العار والشين . الفصل الأول منهما : هو حينما هجمت فيالق الجمهورية الرومانية وقراصنتها على السكان والأقطار الشرقية غير المحمية الراجعة في بحبوحة من الرخاء والأمن . والثاني حينما زخر بحر إيجه بتجار الرقيق ، وذاع الصيت البغيض لجزيرة ديولوس (التي صارت مرسى حرا سنة ١٤٦ ق . م . بعد سقوط كورنثوس) — ذاع صيتها بصفقتها مركزاً لتجارة الرق الأوربية : تلك التجارة ، التي إذا صدقنا رواية سترابو المؤرخ الإغريقى ، كان يصل ما يباع فيها ويشترى من العبيد إلى عشرة آلاف عبد في اليوم الواحد . ولكن هذه الحقبة التي شاع فيها النهب والسلب والتقتيل والتدمير ، برغم هولها ووحشتها ، كانت من حسن الحظ قصيرة الأمد . فإن حكومة الإمبراطورية الرومانية الرفيعة برعاياها قمعت حرفة قصص الرقيق . كما خفت فلسفة الرواقيين الودبعة الإنسانية من آلام العبيد ، ورفعت من حالهم . ومع أنه لم تقم وقتئذ حركة لإلغاء الرق ، إلا أنه جُزء من أسوأ مثالبه وأوزاره .

موالى الأرض في
المصور الوسطى

ثم تحول نظام الاسترقاق إلى نظام موالى الأرض والسخرة في المزارع والحقول ، وصار يضاهى كثيراً من الحرف الحضرية الراقية التى تقتضى حدقاً ودرية . وكان العبد الرومانى فى الطور الأخير من عهد الإمبراطورية الرومانية رجلاً حرّاً فى كل شىء ما خلا الاسم ، فقد اتخذ مكانه فى البنيان الاجتماعى الذى أقامه أسياده ، وأخذ يشاركونهم فى الدراسات والأفكار ، ويساهم بنصيب فى الفنون والصناعات ، بل إنه كثيراً ما أثر تأثيراً محسوساً فى توجيه شئون الحكم . فان إبيكتيوس Epictetus ، الذى كان فيلسوفاً من أنبل الفلاسفة الرواقيين وأكثرهم علماً ، احتمل دون مراوة وتحسر منزلة الاسترقاق . وقد استمرت حرية المشاعر البشرية فى الحياة الخاصة ، ونمو روح المسئولية فى النظم الحكيمية ، وتأثير المسيحية ، وتنظيم مقاطعات الإمبراطورية الرومانية فى آسيا وإفريقيا ، وعدم وجود تلك التحصينات الميكانيكية التى تقود بطبيعتها إلى الإنتاج الكبير — استمرت هذه العوامل تعمل على تناقص عدد الرقيق ، وتحسين حالهم ، والتقليل من أهميتهم من الوجهة الصناعية .

كما أن وطأة هذا الإثم لم تزد زيادة خطيرة بعد انهيار صرح الإمبراطورية الرومانية . فقد كانت تجارة الرق فى العصور الوسيطة شراً ضئيل الشأن ، لانتشار نظام موالى الأرض الزراعيين ، وسهولة سد الطلب على العمال المطلوبين فى الحواضر . فلم تزدهر تلك التجارة الذميمة إلا على سواحل البحر الأحمر بنوع خاص . ولكن كان ذلك على نطاق ناه ، إذا قيس بمعاملات قنص الرقيق فى عهد الجمهورية الرومانية ، أو فى فترة الاختطاف والسلب العظيمة الثانية التى تلت استكشاف العالم الجديد .

رق المزارع
الكبيرة فى العالم
الجديد

والحق إنها لو صمة مروعة ، وتعقيب شائن على أثر الحضارة المسيحية : أن أطول حقبة عرفها التاريخ لتفاق تجارة الرقيق هى التى بدأتها دول أوروبا الغربية : أسبانيا ، والبرتغال ، وفرنسا ، وهولندا ، وبريطانيا ، بعد أن كان قد مضى أكثر من ألف عام على توطيد دعائم المسيحية فيها . وإنها لو صمة أخطر وإلحقة ألدنس على المسيحية : أن الاسنة قاة ، الحديث كان أسوأ مظهراً ، وأقضى

روحاً، وأعظم شقاء من الاسترقاق القديم . ففي العالم القديم كان الاسترقاق المنزلي المثقف للقول ، الإنسانى المظهر فى أغلب الأحيان — كان هذا الاسترقاق أجل شأنًا وأوسع نطاقاً من الاسترقاق الذى كان يوجد يومئذ فى المناجم والمزارع . أما فى العالم الجديد فقد كان الأمر على تمام النقيض من هذا . فقد صار الإنتاج الكبير القاعدة الاقتصادية السائدة . وكان سد طلبات الأوربيين على الشاى والتبغ والقطن يقوم على عمل الرقيق الذين يُقنصون من إفريقيا ، ويحشرون حشراً فى ثكنات خاصة ، ويعملون فى زمرات نظمها — كما كانت قد قنصتها — أيدٍ نهاية نُزعت الإنسانية والرحمة من قلوبها .

ومن بين الممالك الغربية القناصة للعبيد، التى خطَّت هذا الفصل الجديد من الفظاعة والوحشية البشرية، امتازت إسبانيا بمعاملة رقيقها معاملة إنسانية نسبياً . فعن أن قسوة أسبانيا فى الدور الأول، ثم فى الدور الخلتى لإمبراطويتها عبر البحار — مع أن قسوتها على رعيثها المستعبدة فى مستعمراتها الأمريكية كانت لا تقل فظاعة ورعباً عن أى دولة أوربية أخرى ، إلا أنه كانت هناك فترة طويلة توسطت اللورين ، قامت الكنيسة الكاثوليكية بإبانها بجهود مجيدة لتحسين حال السكان العبيد فى المستعمرات الأسبانية . فقد كانوا يتصرون ويهاون لتناول القربان المقدس وسماع الكلمة المقدسة ، ويقون فى حظيرة الأسرة ، ويدخلون عن طريق عضويتهم فى الكنيسة فى نظام الحكم الأسباني .

إنسانية إسبانيا
النسبية

أما فى المستعمرات البريطانية فلم تبدل كنيسة إنجلترا مثل هذه الجهود . وكما قال كارنيج : « لم تكن تُحسب لمؤلاء العبيد قيمة أكثر مما تُحسب للحيوان الذى يغاسمهم النصب والكدح » . وعلى حين دأبت الكنيسة الأسبانية على جهودها الدينية ، فإن ملاك المزارع البريطانيين كانوا يعسبون فى وجه أية محاولة تثير هواجسهم لنشر العقيدة المسيحية بين عبيدهم ، بل إنهم كانوا يحولون دون ذلك . ولم تتخذ الكنيسة الإنجليزية أى إجراء لتلافي هذا الموقف .

تجارة الرقيق
الإنجليزية

وإن القصور النسبي للمذهب البروتستانتي ، وعجزه عن التلطيف من حدة آلام تلك التجارة الدنيئة المقيتة وأهوالها، لها أعظم خطراً وأشد وقعاً ، بالنظر إلى

هذه الحقيقة ، وهى أنه من بين جميع تجار الرقيق الأوروبيين ، كان التجار البريطانيون أعظمهم نجاحاً وتوفيقاً ، وبالتالي أكبرهم إثمًا وجريرة . فقد حُسِبَ أن المجموع الكلى للعبيد الذين جُلِّبوا من إفريقيا إلى المستعمرات الإنجليزية فى العالم الجديد بين عامى ١٦٨٠ و ١٧٨٦ يربو كثيراً على المليونين . وقد ناصر زعماء سياسيون كبار كاللورد تشاتم Lord Chatham هذه التجارة ، كدعامة كبرى لقوة بريطانيا ، كما انتصر لها رجال بحر مثل نلسن ، وكانوا يرونها عضداً وسنداً لأسطول بريطانيا التجارية . وقد شُيد على تجارة الرقيق رخاء ليفربول وثرورتها ، وإلى مدى كبير رخاء وثرورة برستل أيضاً .

ولهذا كانت مكافحة المصالح الموروثة القوية المرتبطة بتجارة الاسترقاق البريطانية عملاً هائلاً جباراً . فى القرن الثامن عشر لم يكن لبريطانيا مستعمرات أثمن لها من مستعمرات جزر الهند الغربية التى تنتج السكر . ولما كانت أرض هذه الجزر يفلحها الأرقاء الإفريقيون ، فقد وقف أرباب المصالح الإنجليز فى تلك الجزر صفّاً مرصوحاً لمحاربة أى اقتراح يهدف إلى تخفيف أو محو هذه التجارة التى كانت ترتكز عليها أرباحهم . وحينما يضاف إلى هؤلاء فريق الإنجليز الذين كان يهجمهم أمر ضياعهم التى يعمل فيها الرقيق فى القارة الأمريكية ، وكذلك الكثرة الكبرى من الأمريكيين الذين كانوا قبل فصولهم العرى التى تربطهم بإنجلترا يمكن الاعتماد عليهم فى الدفاع عن الاسترقاق فى أمريكا - حينما نتصور هذه المصالح الكبيرة القوية ، يمكننا أن ندرك أن الآمال باجتماع هذا النظام كانت تلوح بحق ضئيلة باعثة على اليأس والقنوط .

ومع ذلك فإنه من بريطانيا ، أكبر تجار الرقيق وأشدّهم ذنباً ، انبعثت حركات إلغائها الحركة التى أفلحت فى إلغاء نظام الاسترقاق فى الجزر البريطانية سنة ١٧٧٢ ، ثم تحريم تجارة الرقيق فيها سنة ١٨٠٧ ، ثم إلغاء نظام الاسترقاق فى المستعمرات الإنجليزية سنة ١٨٣٣ . وأخيراً عملت إنجلترا بكل مايتسع لها الذرع على إيقاف الزوجدان العالمى ، كى تكفل اتفاقاً واسع النطاق - بل اتفاقاً يقرب من أن يكون إجماعياً - على اقتلاع ذلك الشر من جذوره .

ويرجع الفضل في الحصول على الحكم الشهير الذي أصدره سنة ١٧٧٢ كبير القضاة اللورد منسفيلد Lord Mansfield في قضية جيمس سومرست James Somerset الذي يقضى بأن نظام الاسترقاق غير معروف في قانون إنجلترا العام ، وأنه حالما تطلأ قدم عبد من العبيد أرضاً إنجليزية ، يصبح معتقاً — يرجع الفضل في صدور ذلك الحكم إلى غرنفل شارب Grenville Sharp ، وهو موظف من موظفي الحكومة مغمور المركز والثراء ، ولكنه عامر القلب بالحنان والعطف ، متين الخلق ، قوى العزم ، استغزه مشهد استخدام القسوة البالغة مع عبد أسود في أحد شوارع لندن ، فلم يهدأ له بال حتى حصل على ذلك الحكم الذي طهر وتنتد الجزائر البريطانية من وصمة الاسترقاق .

ثم جاء بعده رتل من المحررين الإنجليز ، جديريين بأن تخلد أسماءهم حتى في تاريخ عام لأوروبا كهذا الكتاب : أمثال وليم ولبرفويس^(١) ، وتوماس كلاركسون^(٢) ، وذكرياما كوكلي^(٣) ، وجيمس ستيفن^(٤) — هؤلاء الرجال الذين مكنت جهودهم التمهيدية التي دامت عشرين عاماً تشارلس فكس رئيس الوزارة البريطانية يومئذ من إقرار قانون إلغاء تجارة الرقيق . وكذلك أمثال توماس فول بكستن^(٥) ، الزعيم البرلماني لفريق الراغبين في محو الرق الذي أثار حمية مجلس العموم للموافقة على إلغائه ، وبراوام^(٦) الذي حمل مشكاة قضية إلغاء الرق في طول البلاد وعرضها ، وبلمرستون الذي أوقف تجارة الرقيق بين البرتغال والبرازيل ، وتلك الزمرة الصادقة النبيلة من المرسلين ورجال الحرب والسياسة أمثال : داود لفنجستون وتشارلس غردون والسير جون كيرك واللورد لوجارد الذين فتحت جهودهم إلى حد كبير القارة الإفريقية للعالم ، وخلصوها من مخالب قناصي الرقيق العرب وأثامهم . ولا يذكر لكى Lecky ، المؤرخ الإنجليزي ، أكثر من الحق حينما يقول ، إن حملة إنجلترا الصليبية ضد الاسترقاق « تعد على الأرجح من بين الصفحات الثلاث أو الأربع الناصعة البياض في تاريخ الدول والشعوب » .

Thomas Clarkson (٢)

William Wilberforce (١)

James Stephen (٤)

Zachary Macaulay (٣)

Brougham (٦)

Thomas Fowell Buxton (٥)

وبما لا شك فيه أن نجاح ثورة المستعمرات الأمريكية أفاد قضية إلغاء الرق في بريطانيا. فقد أقصى استقلال أمريكا فريقياً قوياً من أنصار الاسترقاق من حلبة الجدل والنقاش في مجلس العموم ، بعد أن بارت سوقهم في الجمهورية الأمريكية الجديدة . وكذلك استفادت قضية الرقيق من اتحاد إيرلندا ببريطانيا سنة ١٨٠١ ، إذ أحضر هذا الاتحاد إلى مجلس العموم نقرأ من الأعضاء الإيرلنديين ، الذين إذ لم تكن لهم مصلحة في بقاء تجارة الرقيق ، كانت أذهانهم مهيأة لاستجابة نداء الحرية والعدالة المجردة .

بيد أن هذه المساعدات العَرَضية لا توضح كيف أن فئة قليلة من الناس لم يكن من بينها من لمع اسمه في عالم السياسة ، استطاعت أن تتغلب على المقاومة المنظمة التي أثارها تجارة رابطة كانت تعد لازمة جوهرية لرخاء إنجلترا وقوة أسطولها . فإنه يجدر ألا يغيب عن الأذهان أنه لم يكن في المقدور استكمال هذا العمل الجليل من غير وجود البرلمان . ذلك لأن إنجلترا كانت تملك في مجلس العموم هيئة يمكن أن يلقي فيها الضوء على الأمور الخبيثة ، وتُعرض أمام الأعين الأفعال المزرية الدنيئة في ثيابها الدنسة . فأمكن تعريف الأمة برذائل الاسترقاق المقيتة ومساوئه البغيضة ، حتى توقع بالقوات المادية الكبيرة المؤيدة له المزمجة والاندحار . فن الأمور ذات المغزى أن وليم ولبرفورس الزعيم البرلماني لجماعة إلغاء الاسترقاق كان يلقب « بلبل مجلس العموم » ، وأن إلغاء تجارة الرقيق أُقر سنة ١٨٠٧ على يد تشارلس جيمس فكس أعظم خطباء زمانه البرلمانيين .

ونخلف هذا التيسج البرلماني ، قامت حركة حفزتها تلك الدوافع الدينية والحلقية المتغلغلة في أعماق النفوس التي اتسمت بها بنوع خاص جماعات الكويكرين والميثوديين الإنجليز في الشطر الأخير من القرن الثامن عشر . فلان « لجنة السنة » التي كانت الأولى في القيام بحملة منظمة سنة ١٧٨٣ في البلاد الإنجليزية ضد الاسترقاق ، كانت لجنة مؤلفة من « الكويكرين » . وكانت « شيعة كلايم » Clapham Sect ، وهو الاسم الذي أطلق على جماعة ولبرفورس — كانت متأثرة أعمق التأثير بضروب الاختبارات الدينية الشخصية التي

فائدة البرلمان
الإنجليزي

جهاد بعض
الطوائف الدينية

نادى بها يوحنا وسلي John Wesley المبشر الذائع الصيت ، وأوصى بمثاله وأسوته الناس بانتهاجها .

ومع أن مؤثرات أخرى تضافرت مع تلك القوى : كنشر آدم سمث آراءه الاقتصادية السليمة ، وجرىمى بتنام مبادئه العقلية الإنسانية ، فإن القوة المسيطرة التى جعلت الإلغاء مستطاعاً ميسوراً كانت روحاً من التدين العميق والخلق المكين عمرت قلوب نخبة صغيرة من الإنجليز ذوى الآراء القويمة والعزائم القعساء ، وسيطرت على ضمائرهم ، فأصبح لا يطيب لهم بال حتى يقوموا وزراً عظيمًا ، ويسحقوا جريرة كبرى .

مراسل إلغاء
الاسترقاق
البريطاني

وكان الأثر المباشر لحكم اللورد منسفيلد - وكان هذا الحكم أول انتصار أُحرز في هذه الحملة الطويلة الأمد - كان أثره المباشر عتق قرابة خمسة عشر ألف عبد أسود كان أسيادهم قد جلبوهم إلى إنجلترا ، حيث كانوا يباعون ويشترىون بمطلق الحرية . وكانت المرحلة الثانية في عملية الإلغاء أشق وأعقد : وهى الهجوم على تجارة الرقيق بالذات . فإنه على الرغم من نفوذ ولبرفوس ووليم پت ، وعلى الرغم من جهودهما المشتركة ، تمكن أصحاب المصالح المالكة للأرقاء من إبطال المقترحات الخاصة بإلغاء تلك التجارة في مجلس الوزراء ، وفي مجلس العموم ، وفي البلاد . ومع أن پت توفى في يناير سنة ١٨٠٦ ، إلا أن فكس الذى صار وزيراً للخارجية استطاع بمعاونة أصوات النواب الإيرلنديين أن يلغى تلك التجارة ، قبيل بدء تدفق القطن الذى أنتجته أيدي العبيد في أمريكا على مصانع لنكاشير ، وبالتالي قبل أن تُعطى لنكاشير دافعاً للتكاثر مع أصحاب مصالح زراعة قصب السكر في جزر الهند الغربية للدفاع عن الاسترقاق .

ولمذا فإن قانون الإلغاء أُجيز في أنسب الأوقات ، وذلك في ٢٥ مارس سنة ١٨٠٧ . ثم أُجيز سنة ١٨١١ قانون آخر جعل الإلغاء فعالاً حقاً ، إذ جعل تجارة الرق جنابة عقوبتها النفى .

وحينما نتذكر أن إلغاء هذه التجارة جاء وسط كفاح حياة أو موت بالنسبة لإنجلترا ضد نابليون ، وأن كل بحار ، من نلسن ومن هم دونه ، كان يعلن أن

هذا الإلغاء سيودي بالأسطول البريطاني - حينئذ نذكر ذلك نعجب حقاً أبلغ إعجاب بشجاعة بت وفكس في الضرب بعرض الحائط بمشورة الخبراء البحريين ، وفي الضغط في غير هودة - حتى في وقت الحرب - على البرلمان لإزالة هذه اللوثة العظيمة التي لطمخت البشرية . ولم تكن هذه بالمرّة الأولى ، ولا بالمرّة الأخيرة ، التي غلبت فيها حكمة الزعماء المدنيين ونفاذ بصرم نصائح رجال الحرب ومشوراتهم . ومن ثم دخلت إنجلترا وهي في دورها الجديدي العجيب بصفتها دولة ألغت الاسترقاق - دخلت مؤتمر فينا ، حيث فازت بالحصول من الدول الثمان الكبرى المشتركة فيه على تصريح قاطع بأن إلغاء تجارة الرق إلغاء عاماً شاملاً هو تدبير « جدير كل الجدارة بعناية تلك الدول وحسن رعايتها ، متفق وروح العصر » . ومن ذلك الوقت صار إلغاء تجارة الرقيق ونظام الاسترقاق في المستعمرات البريطانية هدفاً رئيسياً من أهداف السياسة البريطانية ، جهدت بريطانيا في أمانة وبكل ما يتسع لها الذرع في تحقيقه . وجذب إليه اهتمام رجالات الأمة ذوي المقاصد السامية وحاسمهم . ولا رأى البرلمان في بريطانيا بعد محاولات عدة أنه من العبث إقناع المجالس التشريعية في المستعمرات بإلغاء نظام الرق فيها ، قرأه على أن يشرع هو فوق رؤوسها . فأجاز في أغسطس سنة ١٨٣٣ قانوناً بإلغاء الاسترقاق في جميع المستعمرات البريطانية ، ووافق على اعتماد مبلغ عشرين مليون جنيه لتعويض أصحاب العبيد فيها .

غير أن مكافحة تجارة الرقيق التي كانت تقوم بها الدول الأجنبية كانت بطبيعة الأمر أعبس وأشق كثيراً . فإن فرنسا لم تفرض عقوبات رادعة على جريمة تجارة الرقيق في بلادها إلا سنة ١٨٣١ . ولم تفرضها أسبانيا إلا سنة ١٨٣٥ . على حين انقردت بريطانيا وحدها باتخاذ التدابير الكفيلة بتنفيذ القانون ضد تلك التجارة في البحار تنفيذاً دقيقاً لا هودة فيه . ولكن نظراً إلى أن الولايات المتحدة اعترضت على الأسطول البريطاني ممارسته حتى تفتيش سفنها ، وفي الوقت نفسه لم تعد من جانبها أية مراقبة لسفن الرقيق ، فقد أمكن لمعظم تلك السفن أن تتخلص من العقاب ، برفعها الراية الأمريكية . فازدهرت بنوع خاص تجارة الرق في تاريخ لوربا

مكافحة تجارة
الرق الأجنبية

كوبا ، إلى أن صدر قانون أبراهام لنكولن سنة ١٨٦٢ بتحرير العبيد .

ومع ذلك ، فقد أُنجِز الشيء الكثير بالضرب على أيدي تجار العبيد بإنشاء نظام لخفارة البحار ، حتى ولو أن تلك الخفارة كانت أقل كثيراً مما كان يمكن لإنجازها فعلاً لو أن الدول البحرية قامت كل منها بنصيبها من العمل . فإن القضاء على تجارة الرق البرتغالية مع النصف الغربي من الكرة الأرضية لم يتم إلا على يد الأسطول البريطاني ونشاطه في الإجهاز عليها .

لفنجنون في
أفريقية

وبقيت بعد ذلك المشكلة العسيرة العنيدة المراس الخاصة بتحرير إفريقية من عصابات العرب لقنص العبيد وتجارة الرقيق الداخلية التي كانت تباشر في قلب تلك القارة . إذ من الجلي أن نظاماً للحراسة البحرية مهما كان دقيقاً — هذا وقد خُصَّص سدس الأسطول البريطاني لأعمال خفارة السواحل الإفريقية في سني الأربعين من القرن الماضي — جلي أن نظام الخفارة لم يكن يواف وحده لمكافحة ذلك الشر الواسع النطاق . ولكن حياة داود لفنجنستون المرسل الإسكتلندي الذي اخترق إفريقية في صحبة قليلة من الرفاق الوطنيين بين عامي ١٨٥٣ و ١٨٥٦ سيراً على الأقدام في الجانب الأكبر من رحلته — استهلت حياة هذا المرسل في إفريقية عهداً جديداً ، وأبانت عن طريقة جديدة لشن الحرب على تجارة الرقيق في تلك القارة . فقد أظهرت رحلاته للرأى العام البريطاني فظائع تجار الرقيق العرب الذين كانوا قد اتخلوا زنجيبار مركزاً لهم .

فتجدد نشاط أنصار الإلغاء ، وشمروا عن ساعد الجدد ، وكانت أولى ثمار كفاحهم عقد معاهدة سنة ١٨٧٣ بين بريطانيا وزنجيبار أوصلت سوق العبيد العظيمة في تلك البلدة . ومن ذلك الحين ازداد الناس يقيناً بأنه ما لم تُكشَف مجاهل القارة الإفريقية ، وتفتح أبوابها في وجه المزارعين والمسلمين الأوروبيين ، وتوضع تحت هيمنة الدول الأوروبية ، فإنه لن يستطاع اجتثاث تجارة الاسترقاق اجتثاثاً كاملاً .

ولهذا مكن التقسيم السلمي لإفريقية بين الدول الأوروبية العظمى — وهو التقسيم الذي لعله كان أعجب أعمال السياسة الأوروبية وأروعها في سني الثمانين

والتسعين من القرن الماضي - مكن هذا التقسيم الدول الأوروبية من تنفيذ سياسة القضاء على الرق . ذلك أنه عاون على انضمام دول أخرى إلى جانب بريطانيا في اتخاذ تدابير قوية وافية لسحق الاسترقاق ، وتحسين الأحوال الاجتماعية في إفريقية . فلان مؤتمر بركسل الذي دعاه ليوبلد الثاني ملك البلجيك سنة ١٨٨٩ إلى الالتئام - تلبية لاقتراح الحكومة البريطانية - والذي حضره مندوبون عن سبع عشرة دولة ، أنهى أعماله بإقرار قانون صودق عليه سنة ١٨٩٢ ، ولُقب « ماجنا كارتا العبيد الإفريقيين » . فقد كانت بعيدة المدى أحكام هذه المعاهدة التي تعهدت الدول المشتركة فيها (وكان من بينها إيران وزنجبار والدولة العلية) بتنفيذها . ومع هذا فإن الشرما زال قائماً لما يستأصل بعداً بأكمله . وما زالت الدول الأوروبية تناضله وتحاربه . غير أنها تزداد أملاً بنجاح جهودها ضد جشع الإنسان المتأصل وقسوته المنكرة .

الروح الإنسانية
في التشريع
الحديث

وهذه الحرب العوان الطويلة ضد الاسترقاق وتجارته هي جزء من التزعة العامة للسياسة الخيرة الإنسانية التي أنجبت أيضاً إيفاد البعثات الدينية ، والخدمات الاجتماعية الكثيرة النفقات ، وتكوين الجمعيات لحماية الأطفال والعناية بالحيوان . وإنه لمن بين جميع المظاهر التي تميز الجماعات الحديثة عن الجماعات الغابرة ، تبرز هذه الظاهرة كأبعثها على الأمل ، وأدعائها إلى الرجاء ، وأقواها على تعزية الذين يحزن قلوبهم استطراد جرائم بني البشر ومفاسدهم وحقاقتهم . ولا ينكر امرؤ أن للحضارة الديمقراطية لأوروبا الحديثة نقائص ومثالب كثيرة ، إلا أن جهودها الإنسانية في سبيل حماية الضعفاء من أفراد المجتمع من جفوة المزاحمة الاقتصادية الصارمة تقدم حجة تمنع الناس من أن يحكموا عليها حكماً قاسياً ، وتضاهي في جليل الفائدة الأعمال العلمية الرائعة التي قامت بها تلك الحضارة ، وتبرز في عظيم نفعها تقدم ثروة العالم المادية .

کتب ممکن استشارتها

- W.E. Le ky : History of England.
- R. Coupland : Wilberforce. 1922.
- R. Coupland : The British Anti-Slavery Movement. 1933.
- R. Coupland : Kirk in the Zambesi. 1928.
- Livingstone : Narrative of an Expedition to the Zambesi.
- Lugard : The Dual Mandate in British Tropical Africa. 1922.
- P.M. Allen : Gordon and the Sudan. 1931.
- H. Wallon : Histoire de l'esclavage dans l'antiquité. 1879.
- M. Rostovtzeff : The Social and Economic History of the Roman Empire 1926.

الفصل الرابع والعشرون

الحرب والسلام في البلقان

قلق بيسارك رغم تحالف القياصرة الثلاثة . المسألة الصربية والمملكة الثنائية . حركة الأمم السلافية . تأثيرها في السياسة الروسية . إصلاحات إسكندر الثاني . بلغاريا . ثورة البلقان عام ١٨٧٥ . المذابح البلغارية . الغزو الروسي ومعاهدة سان ستيفانو سنة ١٨٧٨ . اللورد بيكسفيلد ومؤتمر برلين . انقسام تحالف القياصرة الثلاثة . غلاستون وذرزاتيل .

١ - حركة جامعة الأمم السلافية

كان كل شيء في السنين التي تلت الحرب الفرنسية البروسية يشير إلى تصانف الخطر وسوخ قدم الريح الألماني ، واستطرد مؤدده وعظمته . فقد حطم علوه الخطير الوحيد . ولم يصبح ثمة منافسون له ظاهرون . ودعم شعب عظيم ثقله نشوة النصر سلطان العرش الإمبراطوري . وقدم مختاراً راضياً فروض الإعجاب والتبجيل لمبة أركان أقوى جيش من جيوش العالم طراً .

ولم يتبين للشعب الألماني أن ثمة شيئاً يخشاه من جانب روسيا أو النمسا ، اللتين ربطت قيصرهما بقيصره أوامر الود والصدقة الشخصية . وحينما اجتمع هؤلاء الأباطرة الثلاثة في برلين سنة ١٨٧٢ ، اتفقوا على المحافظة على الحالة الراهنة في أوروبا ، والحد منها ، والعمل في تضامر حفي على حل مشكلات البلقان ، وكبح الاشتراكية ، والسعى في سبيل الإصلاح . فبدا صرح الإمبراطورية الألمانية المنيف منبع النمار وطيد الأركان . فأى علو هذا الذي تبلغ به الجسارة الطائشة أن يتحدى تحالف القياصرة الثلاثي ، ولا ينصاع لمشيئته ؟ ومع ذلك كانت فرائص بيسارك ترتعد فرقا من شبح الانتقام الفرنسي .

القلق من

البغضاء العنصرية

فإنه جدير بنا أن نلاحظ هنا ، أنه قبل أن يتصرم العقد الثامن من القرن الماضي استشف غمبتا في أفق بلاد الصرب الموضع القاتل الذي سيلقى فيه الرينخ الألماني المارد مصرعه . فقد بدا للأعين ، حتى في تلك الأيام الباكرة ، أن الحركات العنصرية بين الأجناس السلافية قد تهدد مبدأ سيطرة الجنس النيتونى وتفوقه في وسط أوروبا ، ونوجه ضربة ساحقة إلى أسس أوروبا المحافظة .

فإن الموقف الداخلى للإمبراطورية النمساوية - هذا الموقف الذى كان على الدوام شديد التحرج بسبب البغضاء العنصرية - طرأت عليه تقلبات عديدة منذ أن سحقت الثورات البوهيمية والمغاربية في عامى ١٨٤٨ و ١٨٤٩ . فقد بسط أولامدة عشر من السنين - الحكم الأوتقراطى الصارم المستند على قوة العنصر الألماني في الإمبراطورية - بسط رواقه على كل مكان وصقع . فكان ذلك العنصر يملأ الوظائف الإدارية في هنغاريا ، وهيئة ضباط الجيش الهنغارى ، ويهيمن على الشرطة الهنغارية ، ويضع بمقتضى كتكوردات أبريم مع البابا في ١٣ أغسطس سنة ١٨٥٥ جميع المؤسسات المدرسية والعلمية الهنغارية تحت رقابة الكنيسة الكاثوليكية وقوامها .

غير أنه كان من الخطل أن يُظن أن الأجناس الهنغارية والسلافية ستقبل على الدوام في خضوع واستسلام سيطرة الجنس الألماني عليها ، وخضوعها له . فإن إسكندرباخ Alexander Bach اليهودى الأصل ، ووزير داخلية الإمبراطورية النمساوية من سنة ١٨٤٩ إلى سنة ١٨٥٩ ، ابتدع نظاماً مركزياً للحكومة الإمبراطورية ، وإن لم يكن ينقصه حسن المقصد والكفاية وروح التقدم والتحسين ، إلا أنه كان يعتبر كابوساً جائعاً وقيداً لا يحتمل عند تلك الأجناس التى كانت تكره من أعماق قلبها التقاليد الألمانية ، وأساليب الحياة الألمانية ، وروح التفوق الألمانية .

أثر الحرب

الإيطالية

فلم يكن الموقف في حاجة إلا إلى صدمة نكبة عامة حتى يتبين ضعف الثقة ، ووهن الدعائم التى استندت إليها الحكومة ، وشيوع روح العصيان والتمرد بين الجماهير . ولهذا فإنه حينما دخلت النمسا غمار الحرب الإيطالية سنة ١٨٥٩ ،

أخذ بنيان الإمبراطورية كله يهترو ويضطرب كأنه مشيد على رمال متحركة . فطرب
المجريون والشكليون جهازاً لهما ثم انمسا في ماغتتا وسلفرينو . وفشل قرض الحرب
فشلاً ذريعاً . شعر أولو الأمر بأنه ينبغي عليهم أن يفعلوا شيئاً لصد تيار التذمر
العنصرى المتزايد ، وربط أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض قبل فوات الأوان
المناسب . ولهذا بدت فترة من التجريب الدستورى بين سنئى ١٨٦٠ و ١٨٦٧ .
ولكنها لم تفد إلا فى أن تظهر مبلغ صعوبة المشكلة الخاصة بتوحيد الأجناس
المتعددة التى تألفت وقتئذ منها الإمبراطورية النمساوية ، فى أى شكل راسخ من
أشكال الاتحاد السياسى .

فقد جُربَ نظام تعاهدى غير وثيق الأواصر ، وأخفق . ثم جُربَ نظام
برلمانى مركزى ، ولم يكن نصيبه من النجاح بأفضل من نصيب النظام الأول ،
فلم يطلب للمجريين أن يدخلوا برلماناً يلتزم عقده فى فينا ، للألمان فيه أغلبية الأصوات ،
كما لم يطلب لأهل ألصتر أن يجلسوا فى برلمان قوى يلتزم فى دبلن ، أغليته معقودة
لأهل الجنوب الكاثوليك . وأخيراً ذهب الإمبراطور فرنسيس جوزف بنفسه
سنة ١٨٦٥ إلى بودابست ، ودعا المجريين والكرواتيين إلى أن يرفعوا إليه ظلامتهم
واقترحاتهم .

واتفق خلال هذه الضائقة أن وجدت هنغاريا فى دياك Deak (١٨٠٣ -
١٨٧٦) زعيماً سياسياً قديراً ووطنياً ذا مواهب رفيعة ، وشخصية مسيطرة ، وآراء
معتدلة . وكان دياك يرى أن بلاده تريح كثيراً من ارتباطها بالنمسا ، ويعارض
بقوة أنصار الانفصال . ولكنه كان فى الوقت عينه عاقداً النية على أن يكسب
للأمة المجرية الأمنس الضرورية للحرية السياسية والكرامة القومية . ولا يمكن لأحد
أن ينكر أن النكبات التى حلت بالنمسا خلال حربها مع بروسيا سنة ١٨٦٦
سهلت تسهيلاً جلياً تحقيق هدفه . وإن من واجب الساسة الأفذاذ أن يمكسوا
بأذبال الفرصة قبل أن تغلث من أيديهم . ولذا انتهز ساسة بودابست فرصة
السخط والظنوط التى سيطرت على رجال السياسة فى فينا ، واستطاع دياك
الاتضاع من مزجة النمساويين فى سادوا ، الأمر الذى يذكر له بالفضل .

فأقام مع بيست Beust المستشار الإمبراطوري ^(١) أسس الملكية الثنائية . وقد وُضعت في فبراير سنة ١٨٦٧ هذه التسوية التي أقامت النظام الثنائي للنمسا والمجر ، والتي تسمى Ausgleich . وبمقتضاها يطلق على الإمبراطورية اسم « النمسا والمجر » وتتألف من دولتين مستقلتين إحداهما عن الأخرى ، وعلى قدم المساواة معاً في نظر القانون ، ويحكمهما عاهل واحد يلقب « إمبراطور النمسا وملك المجر » . وتُوجَّ الإمبراطور فرنسيس بتاج القديس إسطفانوس . في بيسْت عاصمة المجر في يونيو سنة ١٨٦٧ .

ويعود الرسوخ النسبي لهذه التسوية العجيبة - التي ظلت نافذة حتى سنة ١٩١٨ - إلى هذه الحقيقة ، وهي أنها وضعت أقوى جنسين من أجناس الإمبراطورية وهما الألمان والمجريون على قدم المساواة في السلطة . ففي سسليتانيا Cisleitania التي حوت مقاطعات النمسا السبع عشرة ، كان الألمان متفوقين في العدد . وفي ترنسليتانيا Transleitania (وتشمل هنغاريا وكرواتيا وسلافونيا وترنسلفانيا وبعض مقاطعات الحدود) كان المجريون هم المتفوقين . وكان لكل من شطري الإمبراطورية برلانه الخاص ، وبجانبه المحلية الخاصة ، ولغته الرسمية الخاصة . ومع أنه كانت هناك وزارات إمبراطورية للحرب والمالية والشئون الخارجية ، إلا أنه لم يكن هناك برلمان إمبراطوري .

أما الشئون ذات المصلحة المشتركة بين هنغاريا والنمسا ، مثل المسائل الخاصة بعقد المعاهدات التجارية ، فكان يبحها وفدان يمثلان البلدين ، يتألف كل منهما من ستين عضواً ، ويجتمعان بالتناوب في بودابست وينا ، ولكنهما يتداولان ويقترعان كل على حدة . ويسود هذا النظام حيلة بليغة الدلالة على التباعد وعدم الثقة اللذين كانا يغلبان عليهما ، فقد نُص على ألا يتصل أحد الوفدين بالآخر ، إلا عن طريق تبادل المذكرات والوثائق الكتابية . ولكي يحدّد بوضوح - أكثر حتى مما ذُكر - الاستقلال ذو السيادة الممنوح لكل من النمسا وهنغاريا ، لم تُعتبر هذه التسوية اتفاقاً بين أمتين وحكومتين ، وإنما عقداً أبرمه كل من البلدين على

(١) بمثابة رئيس الوزراء في الأقطار الأخرى .

حلة مع صاحب العرش من بيت هابسبرج .
وبهذه التسوية المتبعة التي ارتبطت بها النمسا والمجر معاً ، واجهت هاتان
الدولتان المستقلتان الأنواء السياسية مدة خمسين عاماً . وأخذتا تتطلعان إلى السيطرة
على الجزء الجنوبي الشرقي من أوروبا ، بعد أن أقصتهما المدافع والحرب البروسية
من ألمانيا ومقاطعة البندقية . وبذلك قلقتا بأنفسهما أكثر فأكثر في لحب
السياسة البلقانية . ولكنهما في الوقت عينه قبلتا — كدليل جدي على أهليتهما
وجدارتهما — مبادئ الحكم البرلماني ، والتسامح الديني ، والتعليم غير الديني :
تلك المبادئ التي كانت لها الغلبة في دول أوروبا الغربية .

فما أعظم التغيرات وأوسعها نطاقاً ، تلك التي عجل بها انتصار بروسيا على
النمسا ! ففي سنة ١٨٦٧ ، أي بعد انقضاء حول واحد على ذلك الانتصار ،
صارت النمسا والمجر ملكية دستورية . ثم بعد ذلك بحول آخر ، قضتا على احتكار
الكنيسة لشئون التعليم في بلادهما .

مشكلة القومية
السلافية

يبد أنه بقيت معضلة واحدة خطيرة من غير تسوية . فقد ظل السلافيون
قلقين حائرين تحت ربة الجنسين المسيطرين . ولذا لم يكن يرتجى أن يرحب
التشكيون في بوهيميا ، والسيلفاكيون والكرواتيون والصربيون في هنغاريا ، بهذا
التنظيم الجميل الذي عهد بشئون الإمبراطورية ومصايرها إلى الأرستقراطية المجرية
المتشاعمة المتعجزة ، وإلى أشراف النمسا وجوهرها الذين يتكلمون اللسان الألماني .
صحيح أن المواطنين السلافيين في المملكة الثنائية كانوا منقسمين فيما بينهم باعتبارات
جغرافية ، وباختلاف لهجاتهم وعاداتهم ، وفي بعض الحالات بإنشقاقهم المذهبي
الديني : فكان التشكيون منفصلين عن السيلفاكيين ، والسيلفاكيون عن
الصربيين ، وهؤلاء جميعاً عن الكرواتيين والسيلفانين . وظلت قروناً عديدة
هذه الأفرع المبعثرة البائسة الرقيقة الحال من شجرة الأسرة السلافية لا تشر
بأصل مشترك وشخصية مشتركة .

ولكن هذه الحالة أخذت تتغير وتتبدل . فقد بدأت حركة تسرى في الشعوب
السلافية لجمع شملها في جامعة أم واحدة ، وتوقظ أذهان أبناء تلك الشعوب

البلوية المتأخرة . فبدأ يحفزهم شعور بأنهم رغم الكوارث التي حلت بهم ، ووطنهم بالأقدام : البعض منهم تحت نير الترك ، والبعض الآخر تحت ربة الألمان والمجرين ، فأنهم يؤلفون أمة قوية ، وجماعة شديدة البأس ، يقطن أبنائها الأراضي القسيحة الممتدة بين المحيط المتجمد الشمالى والبحر الأسود ، ومن البحر البلطى إلى مضيق بهرنج . وبرز فجر هذه الحركة بمنظومات كولار (Kollar ١٧٩٣ - ١٨٥٢) ، أول الشعراء السلوفاكيين وأشهرهم ، وكان لمنظومته Slavy Doera أوه ابنة سلافيا ،^(١) (نشرت سنة ١٨٢٤) هزة كبيرة ودوى عظيم .

وانتقلت أفكار هذا الشاعر على جناح السرعة إلى بوهيميا ، حيث تلقفها أئمة اللغة وأعلام الأدب التشكيون طريين مرحبين . وكان الوازع لهم في بادئ الأمر شعوراً بميراثهم المشترك من الثقافة السلافية ، ورغبة في ازياد كنوز الفكر التى تخص السلاف جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها ، والتبحر فى رحابها . وبذلك يشعر حتى أوضع الفلاحين ، وهم يكسحون فى خدمة أسيادهم الغرباء ، أنهم ينتمون إلى مجتمع عظيم ، وشعب مشترك ، يرتقب منه أن يقوم بنصيب نبيل ممتاز من جلائل الأعمال والخدمات لقضية الحضارة والتقدم . ولكن حدث - كما هى الحال فى أغلب الأحيان - أن الأفكار التى نادى بها الشعراء والعلماء السلافيون ، انتقلت إلى نطاق السياسة الجدلية . فلعبت فكرة جامعة الأمم السلافية دوراً فى الثورة البوهيمية عام ١٨٤٨ . غير أن بوهيميا كانت مسرحاً ضيق الرقعة ، ولذا أمكن القضاء على ثورتها فى سرعة وسهولة .

إلا أن مسرحاً أوسع رحاباً وأعظم كسباً فُتح فيما بعد لحركة الجامعة السلافية . فإنه بعد عشرين عاماً من سحق الثورة السالفة الذكر ، وخلال حكم إسكندر الثانى قيصر روسيا (١٨٥٥ - ١٨٨١) . دخلت أفكار الجامعة السلافية ميدان السياسة الروسية ، كقوة فعالة موجّهة . ومن ثم غدت هذه الفلسفة العنصرية الجدلية قوة فى المقام الأول فى جبروتها وعنفوانها . فشرعت تتحدى سلطان الباب العالي بأكله فى بلاد البلقان ، وتنتشر قلقاً واضطراباً جديدين بين الملايين الكثيرة

أثرها فى
السياسة الروسية

(١) « سلافيا » بطل خرافى من أبطال الفنتك .

من السلافيين الذين كانوا يعيشون في درجات متفاوتة من الخضوع داخل تخوم الملكية الثنائية .

٢ - إصلاحات إسكندر الثاني

برنامج إسكندر
الثاني

في الوقت الذي كانت مس فلورنس نيننجيل تفتح أبواباً جديدة لحرية النساء الإنجليز في عهد الملكة فكتوريا ، كان إسكندر الثاني ينفذ كتيبة لحرب القرم - بمعاونة حفنة من النبلاء والموظفين المستنيرين - برنامجاً عظيم القدر من الإصلاح الداخلي . ففي إبان عقد واحد من السنين ، أعتق موالى الأرض في بلاده ، ونظم من جديد النظام القضائي ، وأدخل نظم الحكومة المحلية ، وأباح حرية الصحافة ، ومنح الجامعات قسطاً من الحرية العلمية . ولقد كان العمل العظيم الذي أنجزه هذا القيصر المصلح وأعوانه في سنى الستين محط إعجاب الأجيال التالية وتقديرها الكبير ، كعمل خالد ملهم لعصر من عصور البطولة . فقد أنجزت خلاله أعمال عديدة حقاً لكسر ربة التقاليد ، ولوضع أسس نظام سياسى واجتماعى سليم .

يبد أن روسيا بلاد ، ابتكار جلائل الأفكار فيها ، أسهل من وضعها موضع التنفيذ القويم . فقد كانت الأفكار جلية ، والحطط رائعة ، ولكن الرجال الذين عهد إليهم بتنفيذها لم يتساموا إلى قمة عظمتها وجلالها . فكانت النتيجة أن ما أنجز فعلاً كان أقل كثيراً مما كان يُرتجى . ذلك أنه كانت تنقص الموظفين المهارة والتزاهة اللازمتان ، والإيمان المنشود . وكانت ثمة كراهية عامة للعمل السياسى المتواصل الدعوب . وأغفل الأحرار من الطبقة الوسطى تأييد هذه الحركة الإصلاحية والأخذ بناصرها ، فقد درجوا على أن يوسوس الشيطان في نفوسهم بالقول بأنه لا يمكن لحكومة قيصرية روسية أن تعمل شيئاً ، أو تؤدى واجباً على الوجه الأكمل . ورفضوا أن يدلوا موقف المقاومة هذا الذى اتخذوه ، وظلوا متشبثين به ، حتى حيناً قدّمت إليهم إصلاحات ممدّنة خطيرة الشأن .

يبد أن هذا الوصف لا يعطى غير صورة مشوهة غير كاملة لروسيا في عهد طينان القيصر

إسكندر الثانى ، الذى قد لا يشاهد المرء فيه سوى برنامج الإصلاحى العظيم . فقد كان عهده برغم إصلاحاته ، عهداً مستبدّاً طاغياً ، وبخاصة بعد سحق العصيان البولندى عام ١٨٦٣ ، والضرب فى صرامة على أيدي الذين اتخذوا الاغتيال السياسى وسيلتهم للاحتجاج . وكان حكمه حكماً لم يسلم فيه مشبوه من عين البوليس السرى ، وتفتّحت فيه البيوت دون إنذار ، ويُسجن الرجال والنساء زرافات منفين إلى جهات سيبيريا السحيقة ، فى حين كان كل عضو من أعضاء الحكومة — من القيصر فما دون — هدفاً للخناجر والقنابل .

شروع التمور

وكان عهده هو العهد الذى شرع فيه شبان روسيا المستنيرون يهاجمون صرح المجتمع بأكله بطيش رهيب ورعونة وحشية ، بعد أن عيل صبرهم من سير الإصلاح سيراً بطيئاً ، وبعد أن أسكرتهم نشوة العلوم الجديدة . وقد لُقّبوا « بالمؤمنين بلا شيء » Nihilists ، إذ لم يكن لديهم ما يتعلمون به ليحل محل جميع الأمور والأنظمة التى وطنوا الزم على هدمها . وعهد الإسكندر هو أيضاً ذلك العصر الذى وصفته براعة ترجينيف Turgenev فى رواية « الآباء والأبناء » وقلم تولستوى Tolstoi فى قصة « أنا كارينينا » Anna Karenina ، والذى أخذ فيه الجيل الناشئ يتحدى تحدياً عنيفاً جميع قيم النظام القديم ، وانظم فيه سلام الأسرة ، ومُرّقت أواصرها دون أن يكون ثمة أمل بلجبرها . وفيه واجهت التقاليد القديمة ، واحترام الكبار ، زندقة الشبيبة الوقحة المعتدة بنفسها . فلم يكن فى مقدور حكومة القيصر أن تهادن هذه الميول الثورية ، أو تترفق فى معاملتها .

ظهور أفكار

ثلاثة

وقد اتحدت مع هذه الروح من الصمم الداخلى فى روسيا أفكار سياسية ثلاثة أخرى : هى توحيد الشعوب التى لم تُهضم بعد فى الإمبراطورية ، وفتح آسيا الصغرى ، وتحرير أمم البلقان السلافية من نير الأتراك . أما الفكرة الأولى من السياسات الثلاث فكانت عقيمة ، وقد باءت بالفشل . أما الثانية فكلّلت بالفوز (فلان الروس فتحوا سنة ١٨٦٨ سمرقند) . فى حين أن الثالثة حملت فى طياتها الكوارث والنكبات لا لروسيا وحدها ، بل لأوروبا والعالم أجمع .

فإن فكرة جامعة الأمم الصقلية كانت تكون فكرة حسنة ، لو أن مصالحة

البلقان كانوا أسرة متحدة ، أو لو أن الدول العظمى وافقت على سيطرة القيصر على تركية أوروبا . بيد أن واحدة من هاتين الحالتين لم تتحقق . فإنه حينما انهار في النهاية الطغيان التركي الطويل الأمد في أقطار البلقان ، بدا واضحاً جلياً أنه ليس ثمة عداوة ومقت فيها ، أشد من العداوة والمقت اللذين كان البلقار والصربون يضمرونهما بعضهم لبعض .

بلغاريا تعارض
السياسة الروسية

ولكن دُهِش كل امرئ حينما أحيط علماً بأن الشعب البلغاري الذي اصطفته روسيا لترعم الشعوب السلافية الخاضعة لتركيا ، والذي أغدقت عليه دعايتها وثقافتها سنين عديدة ، كان في الواقع ينظر إليه السلافيون في الجنوب الغربي من بلاد البلقان ، كشعب غريب وعدو بغيض . فبدلاً من أن إقامة دولة بلغارية قوية تستند إلى الحزب الروسية ، تشد من أزر حركة الجامعة السلافية ، وتعين على امتداد النفوذ الروسي ، فإن نتيجة إقامة هذه الدولة كانت مناقضة تمام المناقضة لما كان يؤمل منها . فإن بلغاريا التي حُررت سنة ١٨٧٨ ، صارت قوة معارضة لنفوذ الروس ، وهيات للصربيين سبباً للغيرة المرة ، والحق الشديد .

غير أنه لم تتطرق أدنى ريبة بإمكان حدوث شيء كهذا خلال السنوات الأخيرة من العقد الثامن في القرن الماضي — وهو العقد الذي حدثت خلاله أزمة سياسية في الشرق الأدنى جعلت روسيا في شبه عزلة ، وأضعفت تحالف القيصرية الثلاثة المنيع النمارة ، الذي كان يرتكز عليه سلام أوروبا واستقراره حتى ذلك الحين .

٣ - ثورة البلقان عام ١٨٧٥

ففي عام ١٨٧٥ اندلعت ثورة في البوسنة والمهرسك ضد الحكم التركي الفاسد : ثورة أشعلها البؤس والسخط والفاقة التي كانت تضطرم في قلوب الفلاحين . وامتدت لمب الفتنة إلى بلدان الجبل الأسود والصرب وبلغاريا ، وانتشرت فيها انتشاراً ذريعاً . ولم يشهد التاريخ قط قبلاً مظهراً شاملاً متسع النطاق للقومية السلافية في البلقان ، مثل ما شهد في تلك الثورة التي كانت إعلاناً صارخاً لظلمات أهل البلقان وشكائهم .

ولكن الأتراك كانوا وقتئذ جد أقوياء . فعصفت قواتهم بجيش صربيا والجبل الأسود . وكان في ذبح زهاء ١٢٠٠٠ مسيحي في بلغاريا بواسطة الجند التركية غير النظامية ، دليل قوى على عودة سلطة تركيا فوق الفلاحين البلغار العصاة . غير أن روسيا لم تقبل أن تسلم بسحق القضية السلافية في البلقان . فأشهرت في إبريل سنة ١٨٧٧ الحرب على تركيا ، وهاجمتها في آسيا وفي أوروبا معاً . وبعد صدمة وقتية لحقت بها أمام قارص وبلغنا اكتسحت جيوشها كل شيء أمامها . فاضطر الترك ، وقد نصب الروس معسكراتهم أمام قسبة بلادهم ، أن يبرموا في ٣ مارس سنة ١٨٧٨ معاهدة سان ستيفانو San Stefano . وكان أهم أحكامها خلق دولة بلغارية فسيحة الأرجاء تتمتع بالحكم الذاتي ، وتدار شئونها تحت قوامة روسيا ، وتحتل أرضها الكتاب الروسية مدة عامين .

موقف إنجلترا أما لإنجلترا التي ظلت فيها روح حرب القرم القديمة بقظة حية بين رجال حزب المحافظين ، فقد استقبلت الانتصارات الروسية بموجة من الملع والسخط . ذلك أنه لآح لأهلها أن صيرورة تركيا دولة تابعة لروسيا ، يهدد مركز بريطانيا بأسره في الشرق . فتحمت الملكة والصحافة ووجوه الدولة وأعيانها للحرب . وذاعت يومئذ أغنية سخيفة ، ملأت قاعات الرقص والمسارح ، مطاعمها :

We don't want to fight, but by jingo if we do,
We've got the ships, we've got the men, we've got the money too !

ولم تكن أوروبا في عصر من العصور أدنى من شوب نار حرب مستطيرة هائلة ، منها في أوائل ربيع سنة ١٨٧٨ ، حينما تقدمت وزارة اللورد بيكنسفيلد Lord Beaconsfield للبرلمان بطلب اعتماد ستة ملايين من الجنيهات ، وأمرت الأسطول باجتياز الدردنيل . ودعت القوات الاحتياطية ، وأقصت اللورد دربي واللورد كارنارفون الوزيرين اللذين تمسكا بأهداب السلام . وحتى اللورد سالسبرى وزير الخارجية الذي كان قد أدرك بوضوح قبل ذلك بشهور قلائل أن روسيا — وكانت يومئذ بلا أسطول ، وبلا بحارة ، وتخضع لإدارة حكومية فاسدة — لن تستطيع أن تهدد تهديداً خطيراً مركز بريطانيا

فى البحر الأبيض - حتى هو أبدى موافقته على خوض غمار الحرب ، إن لم يقبل القيصر عرض معاهدة سان ستيفانو بحذفها على الدول العظمى ، وتعديل شروطها .

غير أنه من حسن الطالع ، أنقذ سلام أوروبا وساطةً بسمارك الطيبة ، ومهارة اللورد سالسبرى الفائقة ، واستعداد النمسا لأن تتبع بريطانيا إلى حيث تقودها .

وإذ شعرت روسيا بغزالتها ، أمكن إقناعها بعرض المعاهدة على الدول ، وقبول الاقتراحات التى كانت تعتبرها فى غير هذه الأحوال مهينة لكرامتها جارحة لعزتها . وبذلك سُوِّيت فى مؤتمر برلين (الذى عقد فى يونيو سنة ١٨٧٨) مسألة الشرق الأدنى برمتها ، طبقاً لشروط صانت مصالح بريطانيا ، ومدت نفوذ النمسا ، وصدمت صدمة قاسية مطامح القيصر فى حركة جامعة الأمم السلافية .

فحرّر أحد عشر مليون مسيحي من نير الترك ، وسلّمت البوسنة والهرسك للنمسا لإدارتهما ، أما الدولة البلقارية الممتدة الأطراف ، التى كان خلقها بمقتضى معاهدة سان ستيفانو لهم ثمار السياسة الروسية ، وأعظم أسباب قلق بريطانيا . فلنّها شذبت إلى مساحة أكثر تناسباً واعتدالاً . ولكن عوّضت روسيا ، مقابل هذه التنازلات الكبيرة ، بمنحها مقاطعة بسارابيا ، وبالإعتراف بفتحها الآسيوية التى لم تكن الدول الأوروبية الغربية فى موقف يساعدها على أن تقاومها .

غير أن هذه التعويضات كانت كسباً زهيداً نافه القيمة لروسيا ، إذا قيس بالآمال الواسعة التى جاشت بصلورها . ولا درى الروس بأن إنجلترا منافستهم الكبرى قد ظفرت سرّاً بجزيرة قبرص من الأتراك ، بحجة أنها تصبح بامتلاكها قاعدة كهذه فى مركز أفضل للدفاع عن أملاك الباب العالى الآسيوية ، بدت الصفقة كلها التى عقدت فى مؤتمر برلين هزيمة سياسية فاصلةً لبلاדם . فمهما جهد الإنجليز فى إخفاء الحقيقة ، فقد بان للجميع

شعور الروس
بالحيلان

انتصار بيكتسفيلد والسبرى على غرتشاكوف Gortschakoff رئيس الوزارة الروسية . فقد رسما خريطة للبلدان البلقان طبقاً لمبادئ السياستين الإنجليزية والنمساوية ، لا السياسة الروسية ، ووطدا نفوذ لإنجلترا والنمسا على الأتراك ، وظفرا بتأييد فيينا وبرلين طيلة مداولات المؤتمر .

انقسام عرى
تحالف القياصرة
الثلاثي
وحينما استقبلت لندن استقبالا حافلا هذين السياسيين البريطانيين الكبيرين اللذين رجعا يحملان إليها « السلام مع الشرف » ، لم يتألك قيصر روسيا من أن يناجى نفسه فيما كانت تكون نتيجة مؤتمر برلين ، لو أن صديقيه إمبراطورى النمسا وألمانيا قدما له قسطاً وافياً من التأييد الدبلوماسى . فبدأ من تلك اللحظة تحالف القياصرة الثلاثة يترنح ويتصدع ، وبدأت سلسلة من الأحداث كُتِب لها أن تهدم فيما بعد اتحاد الأباطرة ، وتطرح روسيا القيصرية فى أحضان فرنسا الجمهورية . ولقد كانت هذه النتيجة ، من بين جميع نتائج عصيان الشعوب السلافية ضد الحكم التركى ، أخطر هاشأناً وأبعدها أثراً.

٤ - غلادستون ووزرائه

حزب الأحرار
الإنجليزى
والفظائع
البُلغارىة
غير أن إنجلترا كانت فى الوقت عينه ترتجج بنضال داخلى فائق الشدة بالغ العنف . فقد كان من تقاليد حزب الأحرار وموضع زهوه ، أن يناصر قضية العدالة والحرية فى جميع أرجاء العالم . فقد أيد الأحرار الإنجليز إيطاليا ضد النمسا ، والدانمارك ضد ألمانيا ، وفى بدء الحرب الفرنسية البروسية شابعوا المعاهدة الخاصة بالدفاع عن حيده البلجيك . ولما لم تبتدُ فى عين حزب يتمسك بمثل هذه التقاليد ، حكومة أوربية أبغض أو أكثر جوراً وقسوة من حكومة السلطان ، أو شعوب هُضمّت حقوقها أكثر مما هُضمّت حقوق رعايا الباب العالى المسيحيين .

ولما سرعان ما تطايرت أنباء الفظائع البلغارىة ، حتى خرج من عزله أعظم زعيم سياسى للأحرار ، وقاد حركة عنيفة معارضة لسياسة الحكومة الإنجليزية المحافظة القائلة بالإبقاء على تركيا . وكان غلادستون (١٨٠٩ -

غلادستون

(١٨٩٨) يناهز السبعين من العمر ، حينما تزعم هذه الحملة الشعواء .
 ولدت سنة ١٨٠٩ ، ودخل مجلس العموم في يناير سنة ١٨٣٣ ، فهو يتذكر
 كاتنج ، وخدم تحت زعامة ولنجتون ، وكان عضواً في أول برلمان مصلح ،
 وخاض معامع عشرة انتخابات عامة ، وفي الخامسة والأربعين قدم بصفته
 وزيراً للمالية ميزانية مشهورة ، وفي التاسعة والخمسين كان على رأس وزارة
 قدمت للبلاد خدمات مجيدة (١٨٦٨ - ١٨٧٤) ، فأعطت لإنجلترا
 التعليم العام الإلجباري ، ونظام الاقتراع السري ، وفكت الأصفاد الدينية
 عن عنق الجامعات ، وأصلحت الجيش ، ووجهت الضربات الجسورة
 الأولى ضد المظالم التي نجمت من سيطرة رجال الدين البروتستانت الإنجليز
 في أيرلندا ، وقضت على مساوئها ومثالبها الشاذة .

فع أن غلادستون كان إنجيلياً قوى الإيمان ، لأنه لم يتردد في إلغاء
 سيطرة الكنيسة الإنجيلية على أيرلندا ، ومع أنه كان مالكاً كبيراً من ملاك
 الأرض ، فإنه سن قانون الأرض الأيرلندي الذي كان معارضاً لمصالح طبقة ،
 كى يخفف من ضائقة ديمقراطية زراعية معوزة مريرة النفس . وكان قد
 اعتزل الحياة العامة بعد نشاط برلماني طويل الأمد منقطع النظر ، واستقر
 في هاوردن Hawarden الغنية بغاباتها الجميلة الفاتنة ، حيث أخذ يقطع
 الأشجار ، ويستعيد قراءة هوميروس ، ويتوسع في اللاهوتيات - تلك
 الدراسات المحببة إلى قلبه - بيد أن صرخات البلغارين العالية من الفظائع
 المروعة التي ارتكبت ضدهم واستغاثاتهم الباكية ، مزقت قلبه ومهصرت
 فؤاده ، ودعته في هزة عنيفة إلى أن يهجر هذه الأعمال السارة الحبيبة إلى نفسه .

والحق أن الحملة التي شنها ذلك الزعيم الجبار ، داخل البرلمان وخارجه ،
 تعد من أبرز الجهود الجثمانية ، وأروع ضروب البلاغة في التاريخ الإنجليزى .
 فإن البلاط ، والأرستقراطية ، والشطر الأكبر من الصحافة ، والأغلبية
 الساحقة في كل من مجلسي العموم والأعيان ، والجماهير الضحلة التفكير
 القليلة الإدراك التي تتلهف على الأشياء المثيرة ، كانت كلها تعارض

سياسته أشد معارضة . فإن حقداً دقيناً وبغضاً مكيناً لروسيا وعاطفة من الصداقة التقليدية نحو الترك ، وحاساً للحركات المثيرة والحريرية : كإرسال الجنود الهنود إلى مالطة ، وإنفاذ الأسطول إلى الدردنيل ، حيناً هددت روسيا القسطنطينية بالاحتلال ، كانت كلها تحول دون إقبال الأمة الإنجليزية على الإصغاء إليه .

ومع ذلك فلقد بلغ من قوة بيان غلادستون ، وفزابة لسانه ، وسحر نداءاته لمشاعرو مواطنيه الخلقية ، أنه قبل أن تنقضى أعوام ثلاثة على حملته ، كان قد قضى على ما كسبه بيكنسفيلد وسالسبرى من شهرة ، وأبعد حزب المحافظين من دست الحكم ، ورجع لقيادة حزبه ، واحتلال المكان الأول في مجالس الدولة وهيئاتها .

وكانت أعظم حججه وزناً وأنفعها أثراً ، أنه ليس في وسع الناحيين الإنجليز ألا يحفلوا ببرحاء الجنس البشرى ورفاهيته العامة . فخطب ناخبي مدلسيون في خطبة رائعة الجلال ، قائلاً : « تذكروا أن قدسية الحياة في قرى أفغانستان الجبلية القابعة بين ثلوج الشتاء ، مصونة في أعين الله القدير ، كقدسية حياتكم أنفسكم » .

ولم يحسن اتساع رقعة بلغاريا . بل إنه بغريزة صائبة ، أعلن أنه ليس ثم حائل يمكن أن يعوق زحف النفوذ الروسى في البلقان ، أعظم من وجود أمة تتألف من رجال أحرار . وقد أثبتت الحوادث بعد سنين قلائل سلامة نظريته ، وصواب تقديره للموقف . فإن نصق بلغاريا اللذين كان فصلهما أكبر أهداف الدبلوماسية البريطانية سنة ١٨٧٨ ، تأصرا واتحدا سنة ١٨٨٥ ، تحت ضغط العاطفة القومية ، يحبوها ود بريطانيا الشامل ، ويكلوئها حسن تمنياتها ، على حين بلغ حتى الحكومة الروسية الذروة لهذا الأمر .

وكانت المباراة التي دامت ردهاً طويلاً من الزمن (١٨٥٢ - ١٨٨٠) بين دزرائيل وغلادستون ، محور الحياة البرلمانية في منتصف العصر الفكتورى . ولقد كان من مميزات إنجلترا أن يقبل حزب المحافظين فيها ، أن يترعمه

النتصال الحزبي
بين غلادستون
ودزرائيل

يهودى عبقرى ، اختار تأليف الروايات وسيلته الكبرى لنشر أفكاره السياسية . على حين كان زعيم الأحرار عيناً من أعيان الإنجليز ، ينتمى إلى مذهب « الكنيسة العليا » الإنجليزية ، وكان ذلك الزعيم الحر خير زهرة أنجبها كلية إيتين وجامعة أكسفورد . وبدأ حياته السياسية عضواً من أعضاء البرلمان وحزب المحافظين ، وصار الأمل المرجو لهؤلاء الرجال الأشداء المراس ، الصلبي الآراء .

ولم يكن ثمة أحد فى ذلك العصر أبعد إلى فلسفة المبادئ الحرة الراديكالية من غلادستون بالذات . ولم يكن أيضاً ثمة أحد أعظم استجابة لتغيرات المحيط والبيئة من دزرائيل . ومع ذلك فإن الحركة العلمية العظمى التى برزت فى العصر الفكتورى لم تمس مثقال ذرة عقل غلادستون الحر ، أو تقلل من إيمانه الدينى المكين . ومع أنه قاد حزب التقدم بحسارة فائقة ، وفطنة برلمانية نادرة المثال ، فإن ذهنه لم يكن بالذهن الذى يخترق حجب المستقبل ، ويستشف أسراره . فإنك لتجد إدراكاً حقيقياً وفهماً صحيحاً لضرورات العصر فى كتاب جون ستوارت مل Political Economy ، وفى رواية دزرائيل Cybil ، أكثر مما تلقاه فى خطب غلادستون السياسية جمعا . أما الذى أعطى غلادستون سلطانه الخاص ونفوذه الكبير ، فهو هيئته التى لا مثيل لها على الأداة البرلمانية . فلم يظهر قط برلمانى يضارعه فى إعداد العدة لكل طارئ ، وفى سرعة استقراء عواطف سامعيه المتبدلة وأحاسيسهم المتغيرة ، والتغلب على معارضتهم بإجاباته النافذة وضرباته القوية . فقد كان ينهض المرة بعد المرة ، من صف مقاعد الوزراء فى مجلس العموم ، وعيناه السوداوان تلمعان وتتقدان ، وصوته العجيب يرتفع وينخفض تبعاً لانفعالاته ، وبنيتة الرياضية تزخر بحماس النقاش وحية الجدل ، مسفهاً آراء خصومه ، ناشراً الارتباك والبلبلة فى صفوفهم ، معيداً لواء النصر إلى حزبه . وحتى حينما بلغ من العمر عتياً ، وصار يواجه نخبة ممتازة من الجهابذة البرلمانيين المحافظين ، كان يملأ المجلس ببلاغته الساحرة وفصاحته الرائعة ،

ففيهض الأعضاء الإيرلنديون على أقدامهم ، وقد بلغ بهم النحس والتأثر
أيما مبلغ ، يلحون بأوراقهم ، ويهتفون كمن بهم مس ، حتى يهتز المكان ،
وترتج المقاعد والمناضد .

وعلى حين أضحى حزب الموج القديم تحت تأثير غلادستون حزب
الأحرار ، فقد كانت خدمة دزرائيل الجليطة للسياسة الإنجليزية ، هي
تطعيمه لحزب المحافظين - البطيء الحركة الذى كان قد صاغه بيل الرصين
فى قالبه الراهن - هى تطعيمه لهذا الحزب بومضة من روحه اللامعة النزاعة
إلى الديمقراطية الاستعمارية الرومانطيقية . وقد بسط دزرائيل لفائدة إنجلترا
الفتاة « مبادئ الديمقراطية المحافظة فى روايته Coningsby

ولم يكن هذا الزعيم المحافظ يخاف أن يمنح الشعب ثقته . فلم يخش وهو
يقود حزب المحافظين ، ابتعاد كثير من أتباعه عنه حينما أعطى سنة ١٨٦٧
حق الانتخاب للعمال الماهرين ذوى الأجور الحسنة . فقد كان أحكم وأذكى
من أغلبية الأعيان الإنجليز من ملاك الأرض وكبار رجال الأعمال . فإنه
فطن إلى أن فى أكثرية العمال الإنجليز نبعا لا يغيض من الولاء والإخلاص
للعرش ولنظم البلاد ، وأنه يمكن الاعتماد على استجابة شعب إنجلترا فى
حمية وقوة لكل نداء مترن سليم المبادئ . وكان يؤمن أيضاً إيماناً قوياً - وقد
أثبتت الحوادث صواب إيمانه - بأن صاحب التاج ما زال أمامه دور عظيم
ليقوم به فى حضارة إنجلترا ونظمها الديمقراطية . فقد أبصر العرش كينبوع
للتأثير والقوة ، وكأصرة لاتحاد الإمبراطورية .

أما من ناحية الإمبراطورية ، فقد بدت فى عينيه شديدة السحر
عظيمة الفتنة ، ذلك أن أعين لؤلؤة من لآلئها كانت ترسل بريقها من الشرق .
فقد ملأت الهند جنبات عقله ، وأوحت إليه بسياساته . وإذا كانت ماثلة
على اللوام فى ذهنه ، فقد أبصر فى روسيا الغدو الأذى لإنجلترا ، وفى تركيا
الصدىق الوفى المعين . وكنتيجة لتفكيره الدائم فى الهند ، ظفر لبلاده سنة

مبادئ دزرائيل
السياسية

أثر الهند

١٨٧٥ بتصيب مسيطر من أسهم قناة السويس . وأضاف في مظاهر خلافة وأبهة رائعة ، إلى أنقاب الملكة فكتوريا الملكية لقب « إمبراطورة الهند » .

وعلى حين كان غلادستون على الدوام مبشراً دينياً ، كان دزرائيل بالفطرة مغامراً خيالياً . فإنه إذ حزر قلب الملكة فكتوريا العطوف ، كان يهزج إليها أهازيج الحب ، كالعاشق المفتون . وكان خلال أشد أعوام حياته البرلمانية إضناء ونصباً ، يجد عزاء وراحة في كتابة خطابات تفيض عاطفة وخيالا - أحياناً مرتين وأحياناً ثلاث مرات في اليوم الواحد - إلى ليدى برادفورد Lady Bradford وأختها ، ولم ينقطع عن ذلك ، إلا حينما ألقى في روايته الأخيرة Endymion ميداناً أوسع ، ونطاقاً أرحب ، لقلمه المحب الخيالي .

مع أن سياسته الخارجية لقيت ترحيباً وتأييداً عظيمين في زمانها ، ومع سياسته الخارجية أن سياسته الاستعمارية القوية النشطة جذبت إليها على الدوام قلوب هذا الشطر من الأمة الإنجليزية الذي يطرب للمغامرات وركوب الأخطار ، إلا أنها انطوت على عناصر فاسدة فساداً كبيراً . فقد أخطأ فهم المسألة البلقانية ، وأوشك أن يجر إنجلترا إلى الحرب ، لكي يُبقَى شعباً مسيحياً تحت ربة الأتراك ، وكان خصومه الأحرار مصيبين في خشيتهم من أن كلفه بالأبهة واقتتانه بالعظمة قد يقودان البلاد إلى المعائر والأخطار .

غير أن الاستعمار الإنجليزي الذي أثر تأثيراً واسع المدى في الأفكار والأعمال السياسية الإنجليزية خلال النصف الثاني من القرن الماضي ، يدين لهذا الأملى اليهودي بمبادئه الملهمة الأولى . فحينما قاد دزرائيل ، تبعه فيما بعد كيلنج ، وروزبري ، وتشمبرلين ، وملر ، وبلفور ، وكروزن . صحيح أن ثورة المستعمرات الأمريكية أجهزت على الإمبراطورية الإنجليزية الأولى عبر البحار : هذه الإمبراطورية التي كانت قد شُيدت على مبادئ السيطرة البريطانية في معناها القديم . ولكن حل محلها في عهد ذلك الاستعماري ليمان مضطرم وخيال ملتهب في فوائد الحكم البريطاني في الهند ، وفي المنافع التي

تنجم من إيجاد علاقات وثيقة بين المملكة الأم وممتلكاتها ومستعمراتها وراء البحار . وسرى هذا الإيمان وذلك الخيال ، بخطب دزرائيلي ، إلى المبادئ التي صار يعتنقها من يومئذ حزب المحافظين ، فزادت دعوة ذلك الحزب قوة ، وأتمت نداءاته غنى وجاذبية .

رسالة
غلاستون

ولكن رسالة غلاستون وإيماءاته في أخريات أيامه العجيبة الزاخرة بالفتوة والهمة كانت أجل وأروع من كل هذا . فلم تكن كلمات : الإمبراطورية والمجد ، والمركز ، والحرب ، والسيطرة ، لتثير صدى في نفس هذا الزعيم المتدين لحزب الأحرار . فبدلاً من الرغبة في مد رقة الإمبراطورية البريطانية ، كان على النقيض من ذلك ، شديد الرغبة في تحديد مسئوليات بلاده أينما وجد إلى ذلك سبيلاً . فإن إرضاء الأمن القومي في البلقان ، وفي جنوب إفريقيا ، وفي أيرلندا ، كانت أهدافاً بدت للكثيرين خداعة براءة . ومع ذلك كان غلاستون مستعداً كل الاستعداد لأن يقامر بمركزه ومركز حزبه في سبيل تحقيقها . فحينما كان شاباً غض الإهاب أشار بإرجاع جزر الأيونيان إلى بلاد اليونان ، وحينما غدا عجوزاً يوشك عمره أن ينصرم ، أعرب عن رأيه بأن من العدل إرجاع الترنسفال إلى البوير .

وزارته الثانية

ولكن وزارته الثانية (١٨٨٠ - ١٨٨٦) مع تميزها بإقرار قانون الأرض الأيرلندي (سنة ١٨٨١) ، الذي حدد للفلاحين الأيرلنديين إيجارات عادلة معتدلة ، ونص على ثبات مدة الإيجار ، ومع منحها للفلاحين العمال البريطانيين حق الانتخاب (سنة ١٨٨٤) ، فإن مقتل غوردون بالسودان لبسدها بغيوم القشل والخيبة .

الخلاص بشأن
منح أيرلندا
الحكم الذاتي

كما أن التوفيق لم يكن نصيب غلاستون في آخر مغامراته ، وأشدها كفاحاً ، وأدعاهاً إلى القنوط . فقد اقترح « الشيخ العجوز العظيم » سنة ١٨٨٦ منح أيرلندا الحكم الذاتي Home Rule دون أن يهاب مقاومة المصالح البروتستانتية القوية فيها ، أو عواطف الطبقات المالكة في بريطانيا . فأبى أقوى أعوانه : تشمبرلين ، وهارتنجتون Hartington وغوشن Goschen

أن يسيروا وراهم . بيد أن انفصال هؤلاء الرجال الأقوياء ، ومعرفته بأنه حطم بهذا الاقتراح الأداة الحزبية البديعة التي أحرزته له انتصاراته المجيدة الأولى ، لم يضعفها من عزمه ، أو يوهنها من تصميمه . فقدم قانون الحكم الذاتي لإيرلندا إلى مجلس العموم في مايو سنة ١٨٨٦ ؛ وبعد مناقشته ، رفضه المجلس في ٨ يونيو . فأشار على الملكة بحله . إلا أنه هُزم في الانتخابات العامة التي أجريت في أول يوليو ، فاضطر إلى تقديم استقالته .

غير أن هذا الشيخ الحليل الذي لا تقهر له إرادة ، عاد إلى رئاسة الوزارة سنة ١٨٩٢ ، بعد ستة أعوام قضاهما في الكفاح والمناضلة . وتمكن بمجهود فائق من القوة الجثمانية والذهنية ، أن يميز قانون الحكم الذاتي الإيرلندي في مجلس العموم (سنة ١٨٩٣) . غير أن مجلس الأعيان رفض إقراره . فخاب أمل الحزب البرلماني الإيرلندي مرة ثانية .

ولكن وزارة سالسبري (٨٨٦ - ١٨٩٢) جابهت المشكلة الإيرلندية من ناحية جديدة . فلن مشروعاً جريئاً مبتكراً من الاشتراكية الحكومية ، ابتدعه جوزف تشمبرلين ، وفضله في إقدام وذكاء المستر بلفور وزير إيرلندا (من سنة ١٨٨٧ إلى سنة ١٨٩١) - أعقدق هذا المشروع نعماً مادية وارقة على أهل تلك الجزيرة . إلا أن أمة الحالمين أثبت أن تتنازل عن أحلامها . فلم يكن يمكن الإيرلنديين الكاثوليك أن يحكموا حكماً صالحاً ، بل كانوا يبتغون - كما حزر غلادستون - أن يحكموا أنفسهم .

وتمر الأيام ازدادت مطالبهم قوة ، وحركتهم صلابة . فأكرهت الحكومة البريطانية في سنة ١٩٢١ على أن تمنح لحزب من ذوى العنف ، قسماً من الاستقلال يفوق كثيراً في وجوه عديدة تلك القوانين التي قدمها غلادستون في سنى الثمانين والتسعين من القرن الماضي ، والتي رجّت وقتئذ السياسة والمجتمع في إنجلترا رجاً عنيفاً .

الجميات
الإيرلندية

ولا يمكننا نحن أن نترك الأحقاد المريعة ، والأهواء العاصفة ، التي بثها في ذلك الحين الضلال بشأن الحكم الذاتي لإيرلندا في السياسة الإنجليزية ،

إلا إذا تذكرنا الأسلوب العنيف الذى نهجته الحملة الإيرلندية لتحقيق مراميها، والنتائج المقلقة التى كان يُظن أنها ستتجنى عنها . فإن « عصابة الحكم الذاتى الإيرلندية » The Irish Home Rule League التى أسسها سنة ١٨٧٠ إسحق بـط Isaac Butt الزعيم الوطنى الإيرلندى ، بغية الحصول بالضبط البرلمانى المشروع على منحة الحكم الذاتى لإيرلندا ، كانت جزءاً لا غير من حركة واسعة . فقد أسست قبلها بأربعة عشر عاماً ، جمعية سرية اسمها « الأخوة الجمهورية الإيرلندية » Irish Republican Brotherhood بقصد قطع كل آصرة تربط إيرلندا ببريطانيا قطعاً لا رجعة فيه ، بقوة السلاح . واقتربت حركة الإيرلنديين الدستورية فى داخل البرلمان ، بحركات ثورية أخرى فى خارجه ، كحركة « الأخوة الجمهورية الإيرلندية » السالفة الذكر ، التى كانت تعمل فى أوروبا ، و « جماعة ناجايل » Clan na Gael فى أمريكا - وهى اتحادات متآخية سرية كانت ترى أن الطريق السوى للإقناع هو استخدام الديناميت ، لا الكلام .

جهد الإيرلنديين وقد نجم عن هذا الجانب الحالك من الحركة الإيرلندية الذى تمثل فى أعمال الإرهاب التى ارتكبتها أعضاء تلك الجمعيات ، أن كثيراً من الإنجليز الذين كانوا ينتصرون لقضية إنشاء برلمان فى دبلن ، لو أن الإيرلنديين استخدموا أساليب ألطف ، ازوروا عن منح إيرلندا أية امتيازات . أضف إلى ذلك أن الزعماء السياسيين الإيرلنديين وضعوا تحت رعايتهم حملة عنيفة لإثارة هياج بين الزراع فى إيرلندا ، غمر البلاد بلون وضيع من الإجرام .

ولم يُجدد الحكومة فتيلاً محاولتها فى أكتوبر سنة ١٨٨١ قمع « عصابة الأرض » The Land League التى أسسها سنة ١٨٧٩ ميخائيل دافيت Michael Davitt المهيج الإيرلندى . فإنه ما إن قمعت تلك الجمعية ، حتى واصلت « عصابة الأرض النسائية » Ladies Land League عملها مكانها . ووقف النواب الإيرلنديون صفّاً مرصوصاً يجاهدون فى نيل الحكم الذاتى ، ما عدا حفنة من الأعضاء الإيرلنديين البروتستانت ، وتضاضروا فى عزم فى تنفيذ سياسة قوامها وضع المراقيل لتعطيل أعمال البرلمان حتى يجاب مطلبهم .

ولكن تحت ضغط الكلال والإضناء والحقق بسبب إطالة جلسات البرلمان إلى أواخر الليل ، وقذف أعضاء مجلس العموم الإنجليز بالإهانات والثرديات ، وازدياد سحق هؤلاء الأعضاء على جرائم الفئتين الإيرلنديين ، واشتداد فزعهم من شبح الدعاية لإنشاء نظام جمهورى فى إرلندا ، وحيرتهم فى أن نياتهم الطيبة نحو إرلندا لم تلق ردّاً إلا ازدياد عدااء الإيرلنديين لإنجليزاً وعدم تقمّم بها - تحت ضغط جميع هذه العوامل أبدى أغلبية الأعضاء الإنجليز فى البرلمان مقاومة فعالة نشطة لمشروع الحكم الذاتى .

المحافظون
وحركة الحكم
الذاتى

ولهذا كان غلاستون سنة ١٨٨٦ مقالياً ، حسب ما يبدو ، فى أمله بأن حزب المحافظين لن يقف حجر عثرة فى سبيل بغية الإيرلنديين ، حينما يدرك هذا الحزب أن هناك كتلة مرصوفة مؤلفة من ستة وثمانين عضواً إرلندياً^(١) فى البرلمان الإنجليزى ينشدون جميعاً الحكم الذاتى .

وفى الحق أنه جال برهة ما ، فى أذهان المحافظين انتهاج هذه السياسة فقد حدثت مفاوضة غير رسمية بين الإرل كارنارلوفن حاكم إرلندا المحافظ المبدأ (١٨٨٥ - ١٨٨٦) ، وهارنل Parnell الزعيم الوطنى الإيرلندى اللائح الصيت . ولكن هذه المفاوضة لم تأت بنتيجة . ولذلك تُركت هذه المشكلة ، التى كان يجب أن تعالجها حكومة مؤتلفة - تركت ليرعاها ويناصرها قسم منشق متناقص العدد من حزب الأحرار ، ويسمى إلى حلها .

ومع ذلك فإن أخلاق الزعيم تشارلس ستىوارت هارنل لم تجعل عمل ذلك الفريق المنشق من الأحرار سهلاً ميسوراً ؛ فقد تجسّمت فى شخصيته جميع التقاليد الإيرلندية القديمة الخلاصة بالعصيان والمقاومة . فكان على اتصال بجميعات إرلندا وإنجليزاً وأمريكا السرية ، ورئيساً « لمصبة الأرض » ، وزعيماً الحزب الإيرلندى فى مجلس العموم ، وملكاً غير متوج للأمة الإيرلندية ،

(١) كان ذلك نتيجة لصدور قانون فى سنة ١٨٨٤ الذى أماد توزيع المقار الانتخابية فى المملكة المتحدة .

واعترفت جميع العناصر والهيئات المعادية لإنجلترا بزعماء هذا الرجل العجيب الغامض ، الذى جمع بين البرودة والصرامة الجافية ، والنار المتأججة اللافحة . فكان مجلس العموم يرمق بعين الرهبة والخشية هذا السيد الإيرلندى الصلف الجميل الطلعة ذا اللحية الضاربة إلى الاسوداد ، والعينين القاتمتين اللامعتين ، وهو جالس فى سكينه وعبوس وسط أتباعه المطيعين .

وهو برغم انحداره من أسرة ريفية عريقة لإرلندية - إنجليزية ، عُرِف بأنه خصم عنيد لبريطانيا . فاتهمه الإنجليز بأنه متحجر القلب ، قليل الاكتراث بالمبادئ والفصائل . فإن غلادستون نفسه أكره فى أكتوبر سنة ١٨٨١ - وذلك قبل أن يشرع فى الدعوة لمشروع قانونه الأول للحكم الذاتى - على أن يقدمه للقضاء ، ويلقيه فى السجن .

فقد كان هذا الإيرلندى المارد تخرج من فيه ، بين الفينة والفينة ، عبارات تزعج المؤيدين له من الأحرار الإنجليز . فقد صرح مرة بأنه « ليس فى مقدور بشر أن يضعوا حدوداً لتقدم أمة » . وقال مرة أخرى مخاطباً اجتماعاً أمريكياً : « لن يهدأ لأحد منا بال ، سواء كنا فى أمريكا أو فى إرلندا أو فى أى صقع آخر ، حتى نقطع آخر آصرة تبقى إرلندا مشدودة إلى إنجلترا » . ولذا لم يكن فى وسع الأحرار الإنجليز إزاء هذه التصريحات سوى أن يرجوا أن مصلحة الأمة الإيرلندية ستؤدى إلى القضاء على المؤامرات فيها ، وأن الإصلاح سيجنبها ركوب الثورة ، وأن سموم العنف ستُلفظ من النظام الإيرلندى عند إنشاء برلمان خاص بتلك الجزيرة يتمتع باستقلال ذاتى .

ستوطه

ومع هذا فإن پارنل لم تعصف به نتائج خطبه المتطرفة ، أو تصرعه هجمات جريدة التيمس الهائلة التى قرنت اسمه بارتكاب الجرائم ، ولكنه حطّم تحطيماً سنة ١٨٨٩ ، باتهامه بالزنا مع امرأة متروجة . فأذى بارتكابه تلك الحرية وجدان أتباع غلادستون الشديدي التدين . وبذلك قضى حب امرأة القضاء المبرم على أعظم زعيم أنجبته إرلندا .

ولكن مع أن تمزق الحزب الإيرلندى فى السنين الأخيرة المفجعة من حياة

ذلك الزعيم أخيراً تأخيراً مؤقتاً تقدم القومية الإيرلندية، إلا أنه لم يحدث أى أثر فى النتيجة النهائية للحركة . فإن رغبة إيرلندا الكاثوليكية فى أن تعطى حق إدارة شئونها بنفسها ، وفى أن تختار لحياتها السبيل الذى يحلو لها ، كانت من التغفل والعمق ، بحيث لم تكن لتمحق بفضيحة زعيم كبير وموته ، أو بانشقاقات حزبية ، أو بتقلبات المحادلات البرلمانية .

كتب يمكن استشارتها

- Fyffe : History of Modern Europe. 1924.
 Wickham Steed : The Hapsburg Monarchy. 1919.
 C.G. Macartney : Hungary. (Nations of the Modern World Series). 1934.
 Seignobos : History of Contemporary Europe. 1909.
 A. Rambaud : History of Russia. 1900.
 Isenmann : Le Compromis Austro-Hongrois de 1867. 1904.
 R.W. Seton Watson : Disraeli, Gladstone, and the Eastern Question. 1935.
 John Morley : Life of Gladstone. 1908.
 Monypenny, and G.E. Buckle : Life of Disraeli. 1929.
 E. Denis : La Bohème depuis la montagne blanche. 1930.
 St. John Irvine : Parnell. 1927.

الفصل الخامس والعشرون

بسمارك والريخ الألماني

بسمارك بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧٩ . تطور ألمانيا الاقتصادية . اقتباس بسمارك مبدأ حماية التجارة . قوانين التأمين الألمانية . سياسة القمع . الانقلاب الدبلوماسي . التحالف الثنائي سنة ١٨٧٩ . الأزمة البلقانية سنة ١٨٨٥ . علاقات بسمارك بإنجلترا . مخاوف بسمارك . الأعمال الجبلية التي قام بها الشعب الألماني بعد الحرب البروسية - الفرنسية .

١ - بسمارك بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧٩

استمر بسمارك يقبض على خيزانة الحكم ، ويوجه دفة شئون بلاده ، ويؤثر في مصائر العالم ، مدة تسعة عشر عاماً بعد تأسيس الإمبراطورية الألمانية . وطابت نفسه بعد الأعمال الجبلية التي أنجزها إلى حصر جهوده في وقاية ألمانيا من التقلبات الداخلية والحروب الخارجية .

سياسة بسمارك

فلم يكن له مطمع في تأسيس إمبراطورية استعمارية ، أو التوسع في الشرق . وكان من بين القواعد الأساسية لسياسته ، ألا يعرض صداقة إنجلترا لبلاده للخطر ، بتحدى سيطرتها على البحار . فقد كان مرهف الإدراك بالمعائير والأخطار التي يطويها الموقف السياسي في القارة الأوروبية بين دفتيه ، فلم يرَ أن يحاطر بمغامرات جديدة . فقد أبصر أن فرنسا لا تترع إلى المصالحة ، وروسيا لا يمكن الركون إلى صداقتها ، وأنهما ما زالت تحس بسخط على برلين . فاضطر إلى أن يركز مواهبه الدبلوماسية كلها إلى هاتين المعضلتين ، وهما : كيف يكون على ود وصداقة مع روسيا من غير إغضاب إنجلترا ،

ومع النمسا من غير ابتعاد روسيا عنه ؟

وكان عزل فرنسا ، والسيطرة على أوروبا بواسطة جيش ألماني قوى ، والمحافظة على نظام حكمه الأوتقراطي ، المبادئ الهادية لسياسته . وقد ساعدته على النجاح عدة صدف عجيبة من طول العمر وقصره ، فإن الإمبراطور وليم الأول الذى مات سنة ١٨٨٨ ، كان عمره قد طال إلى زهاء التسعين عاماً . وحينما اعتلى ابنه فريدريك العرش ، كان السرطان يهصر حياته . فشلت يده خلال حكمه الذى دام تسعين يوماً فقط ، عن أن يؤثر فى مجرى الأمور . وبموت هذا العاهل الحر الزرعة هذه الميتة المضجعة ، أزيحت أعظم عقبة فى سبيل بسمارك لتنفيذ سياسته .

التغيرات
الاقتصادية

وفى هذه الأثناء ، أخذ يطل على ألمانيا تغيير فى حياتها الاقتصادية شبيه — ما عدا فى شدة سرعته — بذلك التغيير الذى خبرته إنجلترا فى ثورتها الصناعية . فقد امتازت عقود السنين التى قفت الحرب البروسية الفرنسية بتقدم عجيب فى الصناعة والتجارة الألمانية ، واغتنت فجأة تلك البلاد بعد فاقة . وهرع الأهليون الذين كانت كثرتهم الكبرى تقطن الريف ، إلى المدن فى أعداد متزايدة ، حيث تولدوا وتكاثروا ، حتى صارت كثرة الألمان الحضريين ترجع رجحاناً ظاهراً كثرة الألمان الريفيين .

وأنت لألمانيا الرعامة فى أهم فرعين من فروع الصناعة الجديدة ، وهما : الصناعات الكيماوية ، والصناعات الكهربائية ، كشرتين طبيعيتين لتغوق الشعب الألماني فى شئون التعليم ، فزادت الكميات المستخرجة من الفحم الحجري أضعافاً مضاعفة ، إذ ارتفعت من ثلاثين مليون طن فى سنة ١٨٧١ ، إلى مائة وتسعين مليون طن فى سنة ١٩١٣ . ومكنت عملية اختراع فى إنجلترا ، ونُسبت إلى توماس Thomas ، وجلكرايست Gilchrist العالمين الإنجليزين — مكنت عمليهما الألمان من الانتفاع اقتصادياً بالحديد الخام المستخرج من مناجم لكسمبرج ، واللورين . وقاد هذا الاختراع إلى تطورات اقتصادية واسعة النطاق ، فتحولت منطقة الفحم فى وستفاليا

إلى إقليم يضارع في نشاطه وتركيز الصناعة فيه أغنى مقاطعات إنجلترا الصناعية . ففي عقد واحد (وهو العقد التاسع من القرن الماضي) ضاعفت الإمبراطورية الألمانية إنتاجها من الصلب ، وضاعفت تقريباً ما تخرجه من الحديد .

عمو البحرية
الألمانية

وبينما كانت الصناعة تتقدم على هذا المنوال ، وتبدل من أخلاق الأمة الألمانية ، وأنواع حرف أبنائها ، وُجِعت عناية كبيرة لتنمية البحرية الألمانية . فسرعت المراكب الألمانية ، في أعداد سريعة الزيادة ، تشق عباب المحيط الأطلنطي ، وترسو في فرض القارة الأفريقية ، وتتاجر مع الليثانات والشرق الأوسط ، واستيقظت الروح الهندسية^(١) القديمة من رقادها . ففي العشرين سنة التي تخللت سنى ١٨٧٠ و ١٨٩٠ ، تضاعفت حولة سفن الإمبراطورية الألمانية سبعة أمثال ، وُرُفِع الصوت عالياً مطالباً بمستعمرات ، وبوضع حماية ضد القمح الأمريكي والمصنوعات الإنجليزية ، وبتهج سياسة نشطة في كل صقع من أصقاع العالم .

مبدأ حياة
التجارة

وبلغ ضغط الرأي العام في هذه النواحي من الشدة ، بحيث لم يكن في مقدور أى سياسى ، مهما علا مقامه في أعين مواطنيه ، أن يصمد أمامه طويلاً . فأكرهه بشارك على التسليم بمطالبه ، فأقر سنة ١٨٧٩ مبدأ حماية الصناعة الألمانية كأساس لسياسته الحمركية ، ثم أسرع بعد ثلاث سنين يوجه ألمانيا في طريق الاستعمار ، محتجاً بأن للضرورة أحكاماً .

ومن الصدف الطريفة التي لاحظها البعض أن تكوين الشعبة الاستعمارية في مجلس الريشتاغ حدث في نفس العام (١٨٨٣) الذي شاهد تأسيس « شركة الكهرباء الألمانية » التي يرمز لها بالحروف A.E.G.^(٢) ، وهي

(١) نسبة إلى العصافندية Hansatic League ، وهي اتحاد تألف في القرن الثالث عشر من المدن الألمانية الشمالية ، لتبادل حماية التجارة وترقية شئونها . وكانت العصبة تضم نحواً من تسعين مدينة ، أهمها : ليبك وهمبرج وبريمن . وقد أثرت العصبة تأثيراً عظيماً في شئون أوروبا مدى قرنين من الزمان .

الاتحاد الكهربائي الضخم الذي أقام على أساس وطيء أعظم صناعة من الصناعات العلمية الألمانية .

وواجهت ألمانيا بالاشتراك مع كل مملكة أوربية أخرى خبرت نتائج انتشار الصناعة الحديثة في بلادها - واجهت ألمانيا في سنى السبعين والثمانين من القرن الماضى ألواناً قاتمة من الفاقة غير العادلة ؛ وشعرت بتخوف من مشهد طبقاتها العمالية القلقة البائسة المسخرة . فإنه في الحين الذى كان فاجئ Wagner يشف فيه آذان محبى الموسيقى في أوربا يعزف الأوبرات الموسيقية ، خلال احتفالات بيرويت Bayreuth الموسيقية ، كان عمال المناجم والمصانع الألمانية يتعرضون لمصاعب ، ويتوجسون من مخاوف ، تماثل تلك التى عاناها عمال المصانع الإنجليزية قبل سن قوانين المصانع .

ولكن بسمارك كان سياسياً أعظم من أن تعمى عيناه عن رؤية أهمية المسائل الاجتماعية . فرأى بنافذ بصيرته ، أنه إذا كان يروم بقاء بنيان نظمه ومؤسسته سليماً ، فعليه أن يرضى العمال . إذ لم يثق بأن ترك المنافسة الطليقة للأهواء الشخصية غير المكبوحة سينتج أعظم قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد . ولهذا ظفرت النظم القائمة على رعاية الدولة للضعفاء من أبنائها - هذه النظم التى لم تكن بالبدعة المستحدثة في التقاليد البروسية القديمة - ظفرت هذه النظم بمبرر جديد . وأخذت تطالب بتطبيقها في دائرة واسعة ، تبعاً للظروف المتغيرة الناجمة عن الثورة الصناعية . فطالبت بأن يُحسنى الشيوخ من العوز ، ويؤمن العمال ضد أخطار المرض والحوادث .

ومع أن بسمارك لم يكن محسناً كريماً كاللورد شافتسبرى ، ومع أنه لم يضع قوانين تضارع القوانين الإنجليزية الخاصة بالمصانع ، إلا أنه كان في مشروعاته العظيمة للتأمين الإجبارى ضد المرض سنة ١٨٨٣ ، وضد الحوادث سنة ١٨٨٤ ، وضد الشيخوخة سنة ١٨٨٩ - كان رائداً مبتدعاً . فسبق ، فيما خلا عدم إعداده تأميناً ضد البطالة ، تلك المشروعات والقوانين التى نقلت فيما بعد في إنجلترا على يدى المستر لويد جورج سنة ١٩١١ ،

عند ما كان وزيراً للمالية في وزارة أسكوث Asquith

وتعد قوانين التأمين الألمانية ركناً من أركان التقدم الاجتماعي . فإن من جميع المستبطلات السياسية التي ابتكرت إبان القرن التاسع عشر ، لم يكن هناك ما هو أضمن وأبقى على نظم المجتمع ، من كشف نظام للتأمين يقوم على إعانات مالية تعطى من خزانة الدولة ، ومن جيبي صاحب العمل والعامل ، وبذلك تُحمى الطبقة العاملة من شرور المصادفات السيئة في الحياة الصناعية . والحق أن تجنب إشعال الثورة ربحاً طويلاً من الدهر في ألمانيا ، يعود إلى درجة ما ، إلى هذه المشروعات النفيسة ، التي حرم بسمارك بواسطتها الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني ، الذي نما نمواً مطرداً برغم وسائل الاضطهاد والقمع التي تعرض لها — حرمة بسمارك من دافع قوى ، ودعاية لا تُرد لإثارة خواطر الفقراء ، وإذكاء سخط المهرومين .

سياسة القمع

ولكن بتقديم المستشار الحديدي في السن ، غدا أقل تحملاً للمعارضة . فانهز فرصة محاولتين مختلفتين لاغتيال الإمبراطور ، ووضع قانوناً — جُدِّد ثلاث مرات متتالية — ضد الاشتراكيين . وبلغ من صرامة ذلك القانون أنه وضع الحريات الفردية تحت رحمة البوليس . ولم تكن مملكة لتقبل الخضوع صاغرة مستسلمة لأكهمال القمع والطغيان ، إلا بلاداً أطار الهلع والخوف لبها ، أو فقد أبنائها فقداناً تاماً فضيلة الشجاعة السياسية . ولهذا فإن حزب الأحرار الوطني — الذي كان دعامة الإمبراطورية في أيامها الألمانية الأولى ، والمؤيد للحكومة في كفاحها ضد رجال الدين — إن هذا الحزب بموافقته على ذلك التشريع المجحف الصارم ، أعلن إفلاسه من المبادئ الحرة الحقيقية . وكانت أمة درجت طويلاً على ممارسة الطاعة السلبية ، هي تلك التي دخلت غمار الحرب الأوربية سنة ١٩١٤ .

٢ — التحالف الثنائي سنة ١٨٧٩

ويوضح شعور بسمارك نحو فرنسا سياسته الخارجية برمتها . فقد أبهر

بسمارك وفرنسا

ذلك السياسى الكبير فى فرنسا عدو بلاده العنيد الخطر ، الذى يأكل الغل قلبه ، والذى يجب عدم الركون إليه قط ، وينبغى إضعافه وإقصائه على الدوام من حظيرة جيرانه الأوروبيين . وقد خدمت منطقة ساحل إفريقية الشمالى ، التى غدت فى وقت سريع مطعماً للاستعمار الأوروبى - خدمت هذه المنطقة أغراضه كأداة لدبلوماسيته المعادية للأمة الفرنسية .

فإنه شجع فرنسا على امتلاك تونس ، كى تتشاجر مع إيطاليا . وشجع إنجلترا على امتلاك مصر ، كى تتشاجر مع فرنسا . وكذلك كانت الاتفاقات البحرية الإنجليزية الإيطالية التى أبرمها اللورد سالبرى سنة ١٨٨٧ ثماراً لنفس السياسة السيئة المقصد البعيدة النظر ، التى كانت ترمى إلى عزل فرنسا ، وحرمانها من أن يكون لها صديق فى أوروبا . كما أن بسمارك لم يغفل مراقبة مجرى القوى السياسية المختلفة فى باريس نفسها . فمع أنه كان ملكياً فى ألمانيا ، فقد كان محبداً للنظام الجمهورى فى فرنسا . إذ كانت الجمهورية فى نظره أضعف جميع أشكال الحكم وأسوأها .

أما فى شرق أوروبا ، فقد كانت أهم وسيلة من وسائل الدفاع الدبلوماسى لبسمارك وفرنسا التى لجأ بسمارك إليها لمنع تأليف تحالف دولى قد تنظمه فرنسا الحاقدة على بلاده ، هى تكوينه ذلك التحالف الإمبراطورى الثلاثى السالف الذكر ، الذى تألف فى يونيو سنة ١٨٧٢ ، وكان لا يزال حياً سنة ١٨٧٨ ، حين عرّضه مؤتمر برلين لأزمة شديدة - وهو المؤتمر الذى وصفه قيصر روسيا بأنه « تحالف أوروبى تحت زعامة الأمير بسمارك ضد روسيا » . ولكن تحالف الأباطرة الثلاثة خرج من هذه الأزمة دون أن يُقضى عليه . فجبرت صلوع الصداقة ، وجُدد التحالف مرة أخرى ، وأُعلنت أوروبا كل أعوام ثلاثة بأن عواهل الإمبراطوريات الحرية الكبرى فى شرقها قد ارتبطوا معاً بعرى متجددة من الصداقة والتضافر .

يبد أنه برغم المزايا الجلية التى ترتبت على حسن تفاهم ألمانيا مع روسيا ، فإن بسمارك لم يطمئن قلبه قط إلى جانب روسيا . بل كان يرى صداقتهم تاريخ أوروبا

متقلبة لا يُركن إليها ودبلوا سيئهم ماكرة خادعة . وكان يفصله عن غورتشا كوف كبير وزراء روسيا بغضاء شخصية قوية تقوم على عدم التقدير وقلة الاحترام . وكان يرى أنه إذا اضطر إلى الاختيار بين روسيا والنمسا ، فإنه سيؤثر على الدوام اختيار النمسا : من جهة للدواعى القرابة ، ومن جهة أخرى لأنه إذا استأنفت النمسا لأية علة من العلل شجارها القديم مع بروسيا ، فلأنها تستطيع أن تقدم بمطالب ضدها تقوم على أسس تاريخية ، كحقوقها في سيليزيا ، وفي الألزاس ، وفي الدوقيتين الدنماركيتين ، بل في نظام الريخ الألماني نفسه — تلك المطالب التي تعرض للخطر جميع الانتصارات الغالية الثمن التي أحرزها بيت هوهنتولرن منذ اعتلاء فردرك الأول أريكة الملك .

ولهذا السبب وطن بسمارك النية ، عند ما سُوِّيت الخلافات البلقانية سنة ١٨٧٨ ، على إبرام معاهدة سرية مع النمسا ، من وراء ظهر حليفته الروسية . ولقد كان هذا العمل عاملاً حاسماً في تاريخ أوروبا ، فإن بسمارك وضع بلاده بهذه المعاهدة السرية في صف النمسا في نضالها القادم المرتقب ضد جامعة الأمم السلافية .

ولقد أبرم هذا التحالف الثنائي بين النمسا وألمانيا سنة ١٨٧٩ . ثم صار بانضمام إيطاليا إليه سنة ١٨٨٢ « التحالف الثلاثي » : وهو التحالف الذي دام حتى نشوب الحرب العظمى سنة ١٩١٤ . وإن دارس العوامل الدبلوماسية السابقة لهذا الحدث الخطير ، عند ما يرجع بعصره القهقري في مجرى التاريخ ، يبين له هذا التحالف الذي عقده بسمارك وأندراسي Andrassy (وزير خارجية النمسا وقتئذ) بأنه كان حجر الزاوية لقيام الحرب العظمى . فقد قسمت الأقدار من لحظة إبرامه ، بأنه إذا حدث أن تشاجرت النمسا وروسيا في البلقان ، فإن الجيش الألماني سيقف جنباً إلى جنب مع حليفه النمساوى . فقد نصت أهم مادة من مواد تلك المعاهدة الخطيرة الشأن على أنه « إذا هاجمت روسيا أحد الطرفين الموقعين المبرمين للمعاهدة ، وهو عكس ما يربحون ، وضد رغبتهم الخالصة ، فإن الطرفين ملزمان بأن يتقلدا لمساعدة أحدهما

الآخر بكل ما لدى إمبراطوريتيهما من قوة حرية ، ويتعهدان بالألأ يبرما الصلح إلا معاً ، وبمقتضى اتفاق متبادل . ولذا كان تناقض هذه المعاهدة مع تعهدات ألمانيا العامة لروسيا علناً يبرر العناية الخاصة التى اتخذت لإخفاء أمرها .

الأزمة للبلقانية
عام ١٨٨٥

ذلك أن بسمارك لم يكن يروم حرباً بين روسيا والنمسا . بل كان مطمئحه الأعظم هو أن تُتجنب مثل هذه الحرب . إذ تجلت لذهنه الحاد القوى هذه الحقيقة ، وهى أنه ليس ثمة ما هو أخطر من هذه الحرب على ألمانيا ، وعلى أوروبا . غير أنه لم يكن هناك ما هو أسهل من قذف شرارة بين هشيم الدول البلقانية السريع الالتهاب ، فتتقد نار حرب شعواء تتأجج فى ربوع أوروبا ، وتمتد من نهر النيفا شمالاً إلى بحر إيجه جنوباً . وقد كادت تُقذف هذه الشرارة ، حينما أعلنت ولاية الروملى الشرقية انضمامها إلى بلغاريا عام ١٨٨٥ . فقد أكل الحسد قلوب جيرانها الصربيين ، لاتساع أملاك عدوهم اللدود فجأة . واستلوا سيوفهم ، وخرجوا للقتال . ولكن إسكندر أمير بلغاريا هزمهم فى معركة سليفتزنا Slivitzna .

وكانت أوروبا على قاب قوسين أو أدنى من نشوب الحرب بين دولها أثناء هذا القتال البلقانى . فقد عرف الجميع — أو إن لم يكونوا عرفوا ، فقد اشتبهوا — بأن الصربيين كانوا يعملون بإيعاز من النمساويين ، وكان الجميع على دواية بأنه مهما كان شخص إسكندر (وهو بالمولد أمير من أمراء بيت باتنبرج الألماني) مقيتاً فى عين قيصر روسيا ، فإن البلغار كانوا خاصة أتباع الإمبراطورية الروسية . فإذا مُسح لهذا الشجار بين بلغاريا والصرب بأن يطول أكثر مما يجب ، فن السير أن يرى ، أنه لا محالة من تولد الاحتكاك بين النمسا وروسيا وليق نعمهما ، وأنه قد يعقب احتكاك كهذا نشوب القتال بينهما ، وأن الطلقات الأولى المتبادلة بين النمساويين والروسيين ستجر ألمانيا إلى حومة الوغى .

ولذا بذل بسمارك قصارى جهده ليتجنب حرباً كهذه . وإذا رأى

أنها لا تساوى حياة فارس ألماني واحد ، أفلح في الواقع في تجنبها . فقد بعث إلى نينا يجبرها بضرورة تفادي القتال ، ولم يسمح للنمساويين بالاندفاع والتهور . وفي الوقت نفسه عمل على تهدئة سورة الروس . فرت الأزمة البلغارية بفضل براعته ودهائه دون أن تحدث انفجاراً عاماً . وأنهت على جناح السرعة تلك الحرب الصغيرة بين بلغاريا وصربيا . وعقد بين الدولتين اليقانييتين صلح بوخارست (في ٣ مارس سنة ١٨٨٦) الذي قضى بإبقاء الحال على ما كانت عليه قبل الحرب .

غير أن الأمير إسكندر ، الذي كان شخصه موضع حقد الحكومة الروسية ، أكره على التنازل عن عرشه في سبتمبر ١٨٨٦ . فاختارت الدول من البيوت المالكة الألمانية ، التي لا ينضب لأمراتها معين ، أميراً تقبله النمسا ، ولا تمجده سان بطرسبرج . وكان هذا الأمير هو الملك فرديناند ، الطويل الأنف ، المديد الرأس ، المحب للطيور ، الملقب « بشعب البلقان » ، الذي رغم حذقه أفانين السياسة وأساليب الدهاء ، ضم الشعب البلغاري في الحرب العظمى إلى الجانب الخاسر .

ووقفت إنجلترا إزاء شباك المحالفات المضادة للأمة الفرنسية حرة طليقة ، وفي « عزلة مجيدة » . فلم تجرؤ حكومة إنجليزية ، حرة كانت أو محافظة ، على أن تربط الشعب الإنجليزي بمبادئ السياسات الأوربية الماكرة . وبقيت تلك الجزيرة بمنأى عن المؤامرات ، لا يحسب لها حساب . أما في نظر أهل القارة ، فقد وقفت هذه البلاد وقفة غامضة ، تكتنفها الألغاز ، وتحوطها الأسرار .

ولكن إنجلترا كانت دعوبة في تلك البرهة على تحقيق أطماعها في جهات قصية نائية عن المراكز الرئيسية للحياة الأوربية . فقد كانت زمرة من رجالها تحكم في الهند . وانتشرت حضنات من المستعمرين من أبنائها في أراضي القارة الأسترالية ومستعمرة رأس الرجاء الصالح . ولم يكن في مقدور ألماني أن يجرز على وجه الضبط مدى تماسك أجزاء ذلك البنيان الذي شيده وتحتد بنو التاميز .

غير أنه كان يضطر إلى التسليم بتفوق الإنجليز في التجارة ، وفي قوة الأسطول ، واتساع الإمبراطورية : تلك الأمور التي ظفر بها صدفة واتفاقاً ذلك الشعب من أبناء القرصان المرحين المجلودين .

علاقات بسمارك
بانجلترا

ولكن شيئاً واحداً بدا يومئذ للألمان مؤكداً لاريب فيه : وهو أن صداقة الإنجليز معناها عداوة الروس . فلاح لبعض ساستهم أن إبرام معاهدة سرية مع إنجلترا تبعدها عن فرنسا فكرة جذابة . وقد حاول بسمارك تحقيقها ، أولاً مع ذررائيل ، ثم مع السبري . ولكن الساسة الإنجليز أعلنوا أنهم يكرهون الدخول في معاهدات سرية ، وقالوا إنه لا بد لهم من اطلاع البرلمان والملكة فكتوريا على كل شيء . كما تسامع أيضاً الألمان بدورهم : أى ضمان هذا الذي يمكن لهم أن يعتمدوا عليه في موثيق الحكومات الإنجليزية التي تجلس اليوم في دست الحكم ، ثم تذهب غداً ، والتي هي على الدوام ألعبوة في مهب أهواء الناخبين ؟ فهل تستطيع وزارة محافظة مثلاً أن تضمن لهم عدم تغير سياستها إذا ما خلفتها وزارة حرة ؟ إن السالبري أظهر في عبارة دبلوماسية شكوكه في ذلك . كذلك كان بسمارك يميل إلى الاعتقاد بأن الديمقراطية عاجزة عن « تسليم البضاعة » .

ولهذا لم تبرم معاهدة بين ألمانيا وإنجلترا خلال حياة بسمارك . ومع أن المستشار الإمبراطوري العظيم كان يقدر صداقة إنجلترا ، ويرغب - دون أن يعلن جلياً هذه الرغبة - في أن يمر إنجلترا إلى داخل حلقة شركائه ، إلا أنه لم يستطع قط أن يظفر حتى من حكومة محافظة ، بالتمهيدات الصريحة أو السرية ، التي كانت وحدها تستطيع أن تشبع مطالبه ، وتهدئ من روعه . أضف إلى ذلك أن ألمانيا بدخولها حلبة الاستعمار ، ضاعفت كثيراً من فرص الاحتكاك بينها وبين إنجلترا . فقد كان هناك احتكاك بين الثولتين بصدد فيجي ونيان الجديدة ، وبصدد إفريقيا الجنوبية الغربية وإفريقية الوسطى ، وبصدد جيكا وبنجبار . وكانت العلاقات الألمانية حينها تغلو طية مع روسيا ، كان في وسع بسمارك أن يتشاجر مع إنجلترا ، ويحاول

لإرهاها - الأمر الذى كان يثير طرب الحكومة القيصريّة الروسية ، وسرور الشعب الألماني . غير أن لعبة إثارة إنجلترا وتحدّيتها لم تكن بمأمونة المغية ، إلا حينما تكون علاقاته مع روسيا ودية . ولكن عند ظهور أول بادرة لتكدر العلاقات الروسية الألمانية ، كانت إنجلترا ترجع إلى حظوته ورضاه .

خاف ببارك ومع هذا ظل بيسارك لا يشعر باطمئنان . فإنه برغم تحالف العواهل الثلاثة ، وبرغم التحالف الثلاثى ، والتفاهم بين إيطاليا وإنجلترا ، وبرغم محالقات النمسا والمجر الأخرى مع الصربيين والرومانيين ، وبرغم معاهدة سرية تأكيدية أبرمها مع روسيا سنة ١٨٨٧ - برغم هذا كله بقى بيسارك خائفاً يحتم فوق صدره شبح نشوب حرب تُجبر فيها ألمانيا على القتال فى جبهتين . والحق إنه لتعقيب محزن على سياسة القوة التى اتبعها بيسارك أن يحس نفسه مكرهاً فى سنة ١٨٨٧ - بعد أن مارس الحكم الأوتقراطى خمساً وعشرين سنة - أن يحس نفسه مكرهاً على التقدم إلى الريشتناغ بطلب الموافقة على زيادة الجيش الألماني إلى زهاء سبعمائة ألف جندى .

٣ - الإصلاحات العمرانية

من العسير أن نغالى فى إطراد الأعمال المحيدة التى قام بها الشعب الألماني فى غضون العشرين عاماً من السلام البسماركى الذى عقب رجة الحرب البروسية الفرنسية . فع أن التقدم الاقتصادى فى ألمانيا خطا خطوات كبيرة واسعة ، إلا أنه لم يبرز مقدرة العقل الألماني المبتكر على التنظيم . فقد وُضع التعليم العام على أسس سليمة صحيحة : فكانت المدارس صالحة ، والجامعات كثيرة ، تلهمها غير شديدة على تقدم العلم ونشر المعرفة .

وسبقت ألمانيا جميع الدول فى سرعة الانتفاع بمزايا تضايف العلم مع الصناعة . واستخدام هذا التضايف على نطاق واسع ، وفى فطنة فائقة . وفى دوائر الأعمال قادت الشعب الألماني غريزته المنظمة ، إلى تأسيس « شركة الشركات » Kartells ، وهى اتحادات عظيمة لمجموعات من الشركات تقوم

التقدم العلمى

بإنتاج سلع متشابهة ، بغية المحافظة على أسعارها ، بمنع المزاومة بينها وتحديد إنتاجها .

وكانت الرسائل العلمية المتبحرة تصدر من المطابع كل عام في كثرة هائلة عجيبة . ولم يفتق الألمان شعب أوربي آخر في كثرة المطالعة وجديتها . وكانت الموسيقى تعزف في كل مكان ، وكانت أجور سماعها أرخص في ألمانيا منها في فرنسا ، وأعم فيها منها في إنجلترا ، وأجود وأشجى فيها منها في أى صقع آخر من أصقاع المعمورة ، ما خلا قينا .

عبرية الألمان
في التنظيم

ولم يكن أقل من هذا جلالاً وعظمة ، بُعدُ النظر الذى اتسمت به طرق معالجتهم للمشكلات الاجتماعية الخطيرة التى جرتها عليهم الثورة الصناعية في ذيلها . ففي تخطيط المدن ، كما في الصناعات الميكانيكية والكهربائية ، كان الألمان رواداً سابقين . فبينما كان صناع إنجلترا يكدحون ويموتون في أحياء قذرة مكتظة مؤلفة من أكواخ حقيرة ، كان الألمان يفكرون ويخططون قبل أن يبدأوا بالعمل . فشيد الجانب الأكبر من مدنهم وضواحيهم وفق نماذج رسمت في ذكاء وفطنة ، وتوفرت فيها مطالب الراحة والصحة . فولدت الأجيال الحضارية الجديدة في عالم صالح ، كان قد هيئ من قبل لاستقبالها .

فكرة الحرب

ولكن كانت تخيم فوق مشهد هذه الحضارة الفتية النشطة المتشعبة التواحي ، فكرة الحرب المروعة للبعض ، الحبيبة إلى نفوس البعض الآخر ، الشاغلة لبال الجميع . فقد كانت ترفرف على ألمانيا أجنحة السلام ، ولكنها كانت في الوقت نفسه مدمجة بالسلاح ، تساور عقول أبنائها الريب والمخاوف . فقد كانت ألمانيا تخشى جيرانها ، كما كان يخشاها هؤلاء الجيران . فإن سياسة بسيارك لم تتزعزع إلى التقليل من مظنات أوروبا وريبها ومخاوفها . فكثيراً ما استخدم لغة الوعيد ولهجة الغطرسة ، ولوح ببريق السيوف البروسية اللامعة . وكثيراً ما صوّب هجمات صحفه الماكرة ضد الإنجليز والفرنسيين ، وكثيراً ما ذكّر العالم بأن السلام الألماني إنما يستند إلى أسنة رماح الجيش الألماني . ولحق أنها لؤنة خطيرة لطخت سياسته الرشيدة ، أنه كان يؤمن بسياسة

الخداع والغش والمباراة السفية والخلق غير الكريم .

ومع ذلك يجب أن يُذكر له بالفضل ، أنه جنَّب على الأقل بلاده الحرب بتجنبه هذه الأخطار الثلاثة التي سبقت بعده الإمبراطورية الهوهنتزلرنية عندما أدار سكان شتونها أيد أقل براعة ودهاء من يديه . وهذه الأخطار هي : قيام تحالف بين روسيا القيصرية والجمهورية الفرنسية ، وقيام تنافس بحري بين بلاده وإنجلترا ، ونشوب شجار في البلقان بلغ من خطورة شأنه ، أنه هدد حياة الإمبراطورية النمساوية المجرية تهديداً مستمراً ، ودفع الجنسين السلافي والتيونني إلى نزال طاحن مرير .

كتب يمكن استشارتها

C.A. Fyffe : History of Modern Europe. 1924.

J.A. Spender : Fifty years of Europe. 1933.

Lives of Bismarck, by J.W. Headlam-Morley. 1894. and C. Grant Robertson. 1918.

E. Brandenburg : From Bismarck to the World War. 1927.

G.P. Gooch : Germany. (Nations of the Modern World Series) 1925.

Bismarck; Thoughts and Recollections. 1899.

الفصل السادس والعشرون

ختام عزلة بريطانيا

ألمانيا وقت اعتلاء وليم الثاني العرش . خلق القيصر الألماني . التحالف الفرنسي - الروسي . التوازن الدول في القارة . إنجلترا . المعاهدة الإنجليزية - اليابانية . إثارة مسألة اتفاق إنجليزي - ألماني . عداة ألمانيا لإنجلترا . روح الاستعمار البريطانية . مسألة جنوب إفريقية . كشف المناجم . ماجويا . كروجر . وسل روس . غارة جيمس وحرب جنوب إفريقية . البوير وقيصر ألمانيا . بناء الأسطول الألماني . مصر . بريطانيا تأخذ على عاتقها تبعة حكمها . تشارلس غوردون . استرجاع السودان . أم درمان . فاشودة . وفاة الملكة فيكتوريا . مصر الفكتوري . إدوارد السابع . الاتفاق الإنجليزي - الفرنسي .

١ - الإمبراطور وليم الثاني

دولة مؤلفة من جند وموظفين ، ومجتمع تسيطر عليه طبقة حربية ، وشعب ما يزال متشياً بخمرة النصر ، وبرلمان إمبراطوري منتخب حقاً بالانتخاب العام ، ولكنه مدرب على الموافقة على ميزانية الجيش بعد طول المعارضة واللجاج ، وفيما عدا حفنة من أعضائه الاشتراكيين المضطهدين الضئيلي الأهمية ، كان هذا البرلمان ينصاع لإرادة حكومة لم يكن في مقدوره أن يغيرها ، وبرلمان بروسي منتخب طبق نظام انتخابي أوليغارشى ضيق - برلمان لم يكن ذا خطر أو بال ، ولم يعثره تغير منذ نشأته خلال الثورة الرجعية التي نشبت عام ١٨٥٠ ، وفوق تلك الهيئات جميعاً تطل شخصية بسمارك الجبارة المسيطرة - هذا هو المشهد الذي كاهلت فيه ألمانيا في يونيو سنة ١٨٨٨ ، حينما خلف وليم الثاني (١٨٨٨ - ١٩١٨) - وهو في الحادية والثلاثين من العمر - أباه على أريكة الملك .

وأعلن الإمبراطور الجديد أن « ليس هناك غير سيد واحد في هذه المملكة ،
هو أنا » . فقد أثر وليم أن يقطع صلاته بمؤسس الإمبراطورية ، على أن يقاسمه
بسمارك وأسرته السلطان . ففي مارس سنة ١٨٩٠ — وهى السنة التى دخل فيها
البرلمان الإنجليزى دافد لويد جورج ، وكان ابناً مغموراً مجهول الذكر من أبناء
ويلز — فى هذه السنة أقبل بسمارك ، وقبض هذا القيصر المتدفع على سكان
الدولة ، مقصياً الربان الذى ظل ثمانى وعشرين سنة يدبر دفنها خلال العواصف
والأنواء . وألقى الإمبراطور نفسه مسيطراً على أقوى أداة حرية فى العالم أجمع .

وسرعان ما صار العاهل الأوتقراطى الجديد قوة تفيض حياة ونشاطاً ، وتبعث
القلق والوجل فى المجتمع الأوروبى . وما من شك فى أنه كان متحلياً ببعض
المواهب اللامعة ، بل حتى المواهب الفذة . فقد كانت نظرته إلى الأمور
جسورة رحية ، وشوقه إلى التطلع كبيراً شاملاً ، ودأبه على العمل عظيماً ،
وذاكرته للجزئيات قوية مضبوطة . وكان متديناً عقفاً قويمًا ، ووطنياً متحمساً .
وكان أحياناً — وبخاصة عند تحدته عن البحار وسيادتها — يصل إلى ذروة رفيعة
من البلاغة المتدفقة المؤثرة . ولكن كان يمتزج بهذه المناقب المتألقة صفات أخرى
من معدن خسيس . فقد كان مشبعاً بغرور طاغ يملأ عليه نفسه ، وهوى جامع
يتعنتر عليه كبجه ، وحب للظهور وافتتان بالمظاهر المسرحية البراقة كثيراً ما
عرضاه للسخرية ، ونزعة للإساءة وإيقاع الأذى جديرة بالاحتقار . فلم يكن
ثمة تملق ، مهما تسفل ، إلا تقبله وطرب له ، أوقسوة وحشية ، مهما اشتدت ،
إلا انساق إليها فى سورة غضبه . وكان يسيطر عليه اندفاع وجموح ، جملاً
لصداقته سحراً ، ولرفقته نشوة ، ولكنهما جملاهما أيضاً كبير الخطر كحاكم
متصرف فى رقاب البشر ، حتى أخذ وزراؤه يسألون أنفسهم فى قلق وجزع ،
بعد اندفاعات ومخاوف عديدة أثارها ، عما إذا كان سيد ألمانيا الأوحدهم الأوهج
المتدفع مصاباً بلوثة فى عقله .

ولكننا نبعد عن محجة الإنصاف ، لو أننا عددناه بين مثيرى الحروب
المرتزة . فقد أبى وليم شعبه فى ظلال الملام مدى ستة وعشرين عاماً . وليس

ثمة علة تدعونا إلى التشكك في إخلاص تصريحاته السلمية التي كان يخاطب بها مجلس اللاندتاغ Landtag البروسي في مستهل كل عام . ولكن جو بلاطه كانت تغمره العنجهية العسكرية البروسية . فلم يكن في ميسور القيصر أن ينسى أنه سيد الحرب الأعلى . بل إنه كان يعد واجباً من واجباته أن يذكرى حماس الأمة الحربى ، بخطبه الحماسية العديدة لكتائب الجند والبحارة . فساعدت عباراته غير المعتدلة ، وفعاله غير المسئولة ، والقرائن الكثيرة التي أبان بها عن مطامعه الواسعة غير المترتبة - ساعدت كل هذه الأمور على زيادة القلق في دوائر أوروبا السياسية ، وخلق جو غير ملائم لمعالجة الشؤون الدولية علاجاً رصيناً هادئاً سهلاً .

٢ - التوازن الدولى

التحالف
الفرنسى الروسى

ولم يمض طويل وقت على سقوط بيسارك ، حتى أبرمت معاهدة كانت الحيلولة دون عقدتها هدفاً رئيسياً من أهداف دبلوماسية المستشار العجوز السابق . فقد خلعت فرنسا أخيراً عنها نقاب عزلتها ، ووجدت في روسيا حليفاً ، وألغت فيها بلاداً في عوز إلى المعدات الحربية التي كانت فرنسا راغبة في أن تمدّها بها ، وفي حاجة إلى سلك حديدية كانت باريس - وليست برلين - مستعدة أن تمول إنشاءها ، ووجدت فيها بلاداً كانت تبحث عن صديق يمكنها من أن توازن به كفة الدولتين الأوربيتين الوسطيين ، نظراً إلى الاحتمالات المختلفة في البلقان (إذ كان قيصر روسيا قد نعى إليه سنة ١٨٨٨ نبأ المعاهدة النمساوية الألمانية السرية التي كانت قد عقدت قبل ذلك بتسع سنين) .

فع أنه لم يكن هناك صقع في أوروبا أقل حفلاً بمبادئ ثورة سنة ١٧٨٩ مثل إمبراطورية القيصر الروسى ، فإن الفرنسيين لم يكن في طوقهم أن يرفضوا مصافحة اللب الروسى ومصادقته . فأمضيت بين الدولتين سنة ١٨٩١ معالم اتفاقية ، استكملت أحكامها باتفاقية أخرى حربية سرية أبرمت في ٤ يناير سنة ١٨٩٤ ، وربطت كلا الفريقين ، في حالة تعرض أحدهما لهجوم ألماني ، بأن

يهب إلى نجدة حليفه يجيش كبير . وأعدت هذه الاتفاقية العدة لإجراء مشاورات بين رئاستي أركان حرب الدولتين في أوقات السلم ، وللتعبئة العاجلة عند ظهور أول بادرة من بوادر تعبئة قوات أى دولة من دول التحالف الثلاثي . وكانت هذه المعاهدة ذات مزايا عملية كبيرة أخرى . فلقد كانت اتفاقية عسكرية حقاً . فقد نصت على « أن القوات التي تستخدم ضد ألمانيا يجب أن تكون ١,٣٠٠,٠٠٠ مقاتل من جانب فرنسا ، و ٧٠٠,٠٠٠ أو ٨٠٠,٠٠٠ من جانب روسيا . وينبغي أن تعمل معاً هذه القوات إلى أقصى حد بأوفر سرعة ، كى تجبر ألمانيا على أن تقاتل في الشرق وفي الغرب في آن واحد » .

الاستعداد
الحربي

فأصبح الآن التحالف الثلاثي المكون من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا يواجه تحالفاً ثنائياً مكوناً من روسيا وفرنسا . وكان كل من المسكرين مثقلاً بالسلاح . وكان كل منهما متأهباً لأن يمسك بخناق الآخر عند ظهور أول بادرة من بوادر العداء . غير أنه لم يكن في مقدور أحد في ذلك الحين أن يتكهن في ثقة عن أى الفريقين سيكون الأخرى في حالة اندلاع شرارة الحرب بينهما . ولكن لو أن سياسة توازن القوى هذه تُركت على هذا النحو ، فمن الجائز أن سلام أوروبا كان يبقى محفوظاً مستتباً . هذا وقد ظل التحالف الروسي - الفرنسي سرّاً مكتوماً في ذلك الحين .

هموض موقف
إنجلترا

أما إنجلترا فقد وقفت موقفاً غامضاً مبهماً . فإن انضمامها إلى إحدى الكفتين كان في الغالب يرجحها على الكفة الأخرى . فإن توازناً كهذا يظل ثابتاً نسبياً ، طالما وقف الفريقان أحدهما في وجه الآخر . غير أنه يضطرب اضطراباً شديداً إذا نزلت هذه الدولة البحرية العظمى في حلبة التضال . فإن الثقة سترفع في الجانب الذي ستنضم إليه ، ويزداد القلق والخوف في الجانب الآخر . وكان يُعتقد أن تكاتف إنجلترا مع التحالف الثنائي سيحدث في ألمانيا حالة عصية من الملح تقرب من المس الخنفي . أما في حالة روسيا فقد كان يظن أنه سيتيج لونا من ألوان التهور الصلف والتحدى غير العائى بشئ » .

وكان قيصر الألمان حفيداً للملكة فيكوريا . وكان على استعداد لأن يقدم

على الدوام هذه السيدة المبجلة فروض احترام الحفيد لجدته . وكان يقبل من قلمها غير اللين ، وليس من قلم آخر سواه ، تقريباً حاداً ؛ ولو أنه كان تقريباً ممزجاً بالعطف والود . وكان القيصر يملك ناصية اللسان الإنجليزي ، ذا حلقة واسعة من الأقارب والأصدقاء الإنجليز . فكان يلجأ إلى جزيرة جدته ، كيدانه المحب للعب والتفريح عن النفس . وكانت تطيب نفسه ، وتقر عينه ، عند ما يتزل ضيفاً عليها في قصر وندسور ، أو عندما يمحخر بيخته في سباق كاوز البحري ، أو يرتدى البزة المقصبة لأدميرال إنجليزي ، أو يسمع هتاف جماهير لندن ، أو يستريح في أحد القصور الريفية المترفة لنيل إنجليزي . فقد كان شطر من طبيعته شديد الإعجاب بإنجلترا وأهلها ، وكان شطر آخر منها يرمقهم بنظرة ملؤها الكراهية والحسد .

وكان أمراً طبيعياً مرتقباً ، نظراً لانقسام القارة الأوروبية إلى مجموعتين متنافستين ، أن تنشأ مباراة نشطة بين فرنسا وألمانيا لكسب رضا الجزيرة الإمبراطورية وحظوتها . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . فبدلاً من السعي إلى الظفر بود بريطانيا وكسب صداقتها ، كان يُنظر إليها في فرنسا وألمانيا وروسيا على السواء ، خلال الأربعة عشر عاماً الأولى من حكم الإمبراطور ، بعين الحقد الخطير أحياناً .

التحالف
الإنجليزي الياباني

هذا ما جرته على إنجلترا عزلتها . وهكذا بدا خطر هذه العزلة وسوء مغبتها عليها ، حتى انحرفت وزارة بلفور سنة ١٩٠٢ في جسارة وإقدام عن تقاليد كاتنج وبلمرستن وغلادستون والسبيري ، وخطت خطوة خطيرة الشأن حينما قاومت سراً ، ثم أبرمت جهراً ، تحالفاً مع اليابان .

والحق أن هضم تلك الجزيرة الآسيوية النائية للعلوم والمعارف الأوروبية هضم سريعاً واسع النطاق ، هو إحدى معجزات التاريخ الحديث . فلقد كانت اليابان غارقة في جهالة العصور الوسطى قبل أن يفتح القبطان پرى Perry الأمريكي أعين اليابانيين سنة ١٨٥٤ إلى بطش الأسلحة الغربية وجيروتها ، ومزايا التجارة الخارجية . وكان يحكم تلك البلاد وقتئذ ثمانية وستون واثناً « ديميو » Daimio

أو سيد إقطاعي ، ومن ورثهم مواليمهم المسلحون الملقبون « ساموريين » Samurai . ولم يكن لليابان أسطول ، أو مدفعية ، أو أسلحة ، أو طبقة تجار أو نظام عام للتعليم ، أو قوانين مدونة عامة . وكانت أخلاق الشعب الياباني شبيهة بأخلاق القبائل الإسكتلندية القديمة في أيام الملك مكبث (١٠٤٠ - ١٠٥٨) .

فمن ذا الذي كان يحلم من رجال أسطول يرى ، بأنه قبل أن ينصرم القرن ، تلغى اليابان أنظمتها الإقطاعية ، وتصبح حكومتها مركزية ، وتجهز نفسها بأسطول وجيش عصريين ، ونظام حديث من القوانين ، وآخر من التعليم العام ، وأن تهيب نفسها لكي تلعب دور دولة عصرية ؟ ومع هذا فقد أنجزت اليابان جميع هذه الأمور المخارقة في سرعة ولباقة فائقتين ، تحت الحكم الخالد الطويل الأمد للميكادو متزو هيتو Mutzu Hito (١٨٦٧ - ١٩١٢) .

ولهذا فإنه لما سعت إنجلترا سنة ١٩٠٢ للتحالف مع حكومة الميكادو ، كانت اليابان قد أصبحت أقوى دولة بحرية في المحيط الهادئ . وتمكنت بواسطة أسطول نُظِّم على النمط البريطاني ، وجيش درب طبق النظام الحربي الألماني ، من دحر الصين في حرب قصيرة الأجل (١٨٩٤ - ١٨٩٥) . بل لقد بلغت اليابان من القوة والصلوة في البر وفي البحر ، وصارت من الجبروت بتضافر الأسلحة الحربية الغربية ، وشجاعة أبنائها الإقطاعية ، بحيث لم ينقض سوى ثلاث سنين على عقدها المعاهدة الإنجليزية ، حتى خرجت ظافرة منصوراً من حرب مع روسيا (١٩٠٤ - ١٩٠٥) . فاهتزت القلوب في الشرق طرباً وإبهاجاً ، وشرع الغرب يتحدث عن « الخطر الأصفر » ، ويتساءل عما إذا كان زمان سيطرة « الرجل الأبيض » قد دنا من نهايته .

المنافسة بين
بريطانيا وروسيا بعيد .. فإن مخاوف البريطانيين على سلامة الهند ، وخوفهم على سلامة القسطنطينية ، وخوفهم من أن يشق أسطول روسي طريقه إلى البحر الأبيض ، كانت عللاً كافية للإبعاد بين قلوب البلدين - هذا دون أن نذكر البغض

المتمكن في صدر الديمقراطية الإنجليزية للطغيان المستبد الروسي . فكان « اتفاق » ألماني - إنجليزي ، بل حتى تحالف بين القطرين ، أقرب تصوراً من تحسين العلاقات بين روسيا وبريطانيا .

فإنه لم تكن ثمة أسباب عميقة متأصلة للكراهية بين ألمانيا وبريطانيا ، بل كان هناك على الضد من ذلك أسباب تعاون على التقريب بينهما . فقد كان الألمان والإنجليز ينتمون إلى فرع واحد من أفرع الجنس التوتوني ، ويتكلمون لغة مستمدة من أصل مشترك ، وكثيراً ما حاربوا جنباً إلى جنب في معارك حامية ، وآثر الإنجليز حكم أسرة مالكة ألمانية الأصل ، على أن يحكمهم ملك إنجليزي كاثوليكي ، ورضوا من غير تاذر بمحظيات جورج الأول الألمانيات ، وفترات الغياب العديدة التي درج جورج الثاني على قضائها في ألمانيا ، ولم يرموا بزوجة جورج الثالث الساذجة ، أو بزوجة الملكة فكتوريا الألمانية الجميل الطلعة الوسيم القدر .

وبتقدم الأيام في حكم هذه الملكة الجليلة ، تضاعفت كثيراً عرى التبادل وصلات التعامل - سواء أكانت صلات اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية - بين البلدين . فأصبحت ألمانيا أفضل عميل أجنبي للبضائع الإنجليزية ، وإنجلترا أعظم الأجانب اهتماماً بالأفكار الألمانية وتحمساً لها . وتسربت إلى إنجلترا زمرات كثيرة من الألمان الأذكياء ، الذين ساء البعض منهم غلبة الروح العسكرية البروسية في ألمانيا ، واتخذوا هذه البلاد وطناً ، وأقاموا فيها راضين هانئين ، وساهموا في تشييد رخاء منشستر في القطن ، وبرادفورد في النسيج ، وشيفيلد في صناعة الصلب .

وتكررت هذه الظاهرة نفسها من التبادل السهل الثمر في الميدان الثقافي . فإنه لما تحررت جامعتا أكسفورد وكمبرج (سنة ١٨٧١) من أصفاد التعصب اللبني ، ترددت في جوانبهما أصداء الثقافة التوتونية . وفي الوقت عينه استطاع المشاهير من أساتذة برلين وجيتنجن أن ينشروا المعارف الألمانية والدعوة لها في إنجلترا ، على زمرة من الشبان الإنجليز المعجبين بهم ، عقب عودتهم إلى

مواطنيهم الأكثر حضارة من الألمان ، وإنما الأقل منهم فصاحة ، والأضعف تعبيراً وحسن بيان .

فلا عجب في ظروف كهذه ، أن بعضاً من الساسة البريطانيين الذين كانت تزعمهم أخطار « العزلة المحيطة » على بلادهم ، حولوا أفكارهم صوب صداقة الألمان . وقد عبر عن هذه الصداقة جوزف تسمبرلين وزير المستعمرات النافذ الكلمة في وزارة سالسبرى (١٨٩٥ - ١٩٠٠) بقوله : « إن أقوى تحالف طبيعي هو هذا الذي يعقد بيننا وبين الإمبراطورية الألمانية » .

هذه الألمان
لإنجلترا

يبد أن الألمان كانوا يرون غير هذا الرأي . فقد تراءى لهم هذا التحالف الذي وصفه الوزير البريطاني الكبير هذا الوصف ، كأنه تحالف نجس ملوث غير طاهر الذيل . وقوبلت في ألمانيا إشارة تسمبرلين بالحميلة القصد بعاصفة عامة من الاستتكار أوردتها موارد التهلكة . وليس من الصعب تعقب تاريخ العواطف التي خلقت هذه الروح العاتية العجيبة من الاستياء والبغض . فقد حفظ البروسيون أحسن حفظ الدرس الذي جهد الكتاب الألمان من أشياح بسمارك أن يتفشوه في الصلور . فأضحوا يعتقدون أن المذهب الحر - هذا السم الإنجليزي - بعد أن أفسد الفضائل الأرستقراطية للأمة الإنجليزية ، يحاول الآن نقت سمومه في جسم بروسيا السليم المعافى . ولاحظوا أن الإنجليز قد وقفوا وقفة الحيدة لزاء الحروب الخطيرة القدر التي جعلت من ألمانيا أمة متحدة : فإن الإنجليز وإن عطفوا أحر العطف على الدنماركيين سنة ١٨٦٣ ، وأظهروا ميلاً إلى انتصار النمساويين سنة ١٨٦٦ ، وأخيراً حينما أخذت مدافع ملكة ترشق شوارع باريس وميادينها سنة ١٨٧٠ ، أبلدوا في جلاء عطفهم على الفرنسيين ، إلا أنهم مع ذلك ظلوا في حياد غير مجد .

وازداد استفحالاً سوء الأثر الذي أحدثته تلك المشاعر في عهد وليم الثاني . فإن هذا الإمبراطور لم يتفق مع بسمارك في نظريته بأن ألمانيا قد أضحت دولة مشبعة إلى حد الامتلاء . وشاركه رعاياه بدرجة كبيرة هذا الرأي . فبينما كانت « عصبة جامعة الأمم الألمانية » المؤسسة عام ١٨٩٣ تقترح لزوم ضم النمسا والأقاليم

الألمانية الخاضعة لسويسرا وهولندا إلى الريخ الألماني، قنع الإمبراطور بأن يعين لنفسه ثلاث مناطق جديدة للتنفيذ الألماني، ارتقب أن يلتقي في كل منطقة منها معارضة لإنجلترا الدبلوماسية له في إدراكها. وكانت المنطقة الأولى الإمبراطورية التركية، والثانية المستعمرات. وكانت البحار المنطقة الثالثة والأهم، فقد كانت السفن هي العوبة القيصر المحببة إلى نفسه. وإنه لمن تعس حظ الشعب الألماني أن إنشاء أسطول حربي لا يفوقه أسطول آخر، كان هوى الإمبراطور الذي سيطر على عقاه، وملك عليه نفسه، في سني نضجه واكتمال تفكيره.

٣ - حرب البوير

الروح
الاستعمارية
الإنجليزية

وكان هذا الشعور نفسه بعدم الاكتفاء الذاتي ظاهراً أيضاً في إنجلترا. فقد ارتفعت فيها حرارة النزعة الاستعمارية، وتأجج لها. وبرز رديارد كيبيلنج نبياً داعياً إليها، وجوزف تشمبرلين نصيراً مدافعاً عنها. وسارت جنوب إفريقية في ركاب الهند تدعو الإنجليز في سحر وبريق إلى الفتح والسيطرة والتجارة. واستقر الإنجليز في مصر، وفي أوغندا، وفي نيجيريا. وظفروا كألوف عاداتهم بأينع القطاف، وبأماكن أفضل كثيراً من تلك التي وضع الألمان أيديهم عليها، بل أفضل من تلك التي استولى عليها الفرنسيون الذين كانوا يملكون تونس والجزائر والسنغال، أو التي استولى عليها البلجيكيون الذين خُصصت لهم بلاد الكونغو الفسيحة الأرجاء.

ومع ذلك لم يكتف الإنجليز بهذا كله. بل ما انفكوا خلال العقود السابعة والثامن والتاسع من القرن الماضي يمدون باطراد من مستعمرة الرأس، مغالهم شرقاً وغرباً وشمالاً، إلى أن طوقت أذرعهم القوية جمهوريتي الترنشال وأورانج الحرة اللتين أقامهما البوير - هؤلاء المستعمرون الذين احتفظوا بخلصة روح الحضارة الاستعمارية الهولندية القديمة، ولم يبق لهما من الجمهوريتين سوى منفذ على خليج ديلاجوا. وبلغ الاستعمار البريطاني ذروته حينما بسط سسل رودس Cecil Rhodes الإنجليزي الباحث عن الثروة الطائلة وأحد بناءة الإمبراطورية - حينما بسط

سيطرته على رودسيا . وبالطبع لم ينظر ألماني واحد إلى هذه التطورات نظرة رضا وقبول .

مسألة جنوب
إفريقية

ومع ذلك فقد كانت القومية الهولندية في جنوب إفريقية هي أقتل النقط في الإمبراطورية البريطانية وأشدّها خطراً عليها . ولم يكن المنتجعون الهولنديون لمستعمرة الرأس بالماليين إلى الاستعمار البريطاني . وكان أقلّ منهم ميلاً إليه الهولنديون المشتتون في داخل إفريقية . ومع أن هولنديي مستعمرة الرأس تعلموا أن يعيشوا في صفاء وود مع البريطانيين القاطنين معهم ، والحاكمين مستعمرة الرأس ، إلا أنهم كانوا في دخيلة قلوبهم جمهوريين يتطلعون إلى الوقت الذي يستطيعون فيه أن يقطعوا — من غير تمزيق عنيف — الرابطة التي تربطهم بإنجلترا ، وأن يقيموا دولة تعاهدية شبيهة بالولايات المتحدة ، تسير بهم في مضمار الاستقلال المجيد ، ويرفرف عليها علم الصليب الجنوبي . ولم يكن ثمة خطر من هذا الشعور القلبي الحميل ، لولا الموقف الذي اتخذته فيما بعد الجمهوريتان الواقعتان شمال مستعمرة الرأس : الترنسفال وأورانج الحرة .

ولنرجع الآن بالبصر القهقري . ففي سنة ١٨٣٦ هجرت زمرة من الفلاحين الهولنديين مستعمرة الرأس التي كانوا يقطنونها ، إذ شكوا جور الحكومة البريطانية عليهم لإلغائها استرقاق العبيد السود في بلادهم ، دون أن تمنح أسيادهم البوير تعويضات مناسبة ، وأخذوا يشقون طريقهم شمالاً إلى أن ألقوا عصا الترحال على نهر الفال ، حيث أسسوا في شماله وجنوبه جمهوريتين هما : الترنسفال وأورانج الحرة . وفي تلك الهضاب المشمسة ذات المناخ المنشط ، عاش البوير يفلحون الأرض ، ويقنصون الحيوان ، ويحملون العبيد ، ويقرعون التوراة : عيشة خشنة بدوية ذات نظام قبل أبي هو أقرب إلى القرن السابع عشر منه إلى القرن التاسع عشر . وكانوا يؤثرون عزلتهم البعيدة في أراضيهم الفسيحة ذات الهواء المنعش على جميع أطايب حياة المدن ومباهجها .

كشف مناجم
الذهب والماس

ولكن طراً بعد ذلك ارتباك خطير على البنيان البسيط الذي شيدته هذه الجماعة . فقد كُشِفَ أولاً في الترنسفال الماس (في عامي ١٨٦٩ و ١٨٧٠) ،

ثم كشف الذهب بعد ذلك (سنة ١٨٨٥) . أما الماس فقد كشف بوفرة لم يسمع بمثله من قبل في المكان الذي صار يعرف فيما بعد باسم كمبرلى Kimberley . أما الذهب فقد وجد في داخل أرض الترسقال في تلك السلسلة من هضاب وتواترسراند Witwatersrand ، حيث تقوم الآن مدينة جوهانسبرج الرحيبة الغنية .

فتدقق على حين بغتة على بقاع الفلدت التي كان يحجم عليها قبلُ السكون والهدوء والرزانة ، وحيث درجت الحياة على السير سيراً وثيداً متمهلاً - تدقق عليها فجأة سيل من المغامرين الضارين بكل أرض في طلب الثروة ، جارين في أعقابهم جلبة أوروبا الحضرية وآلاتها وملأها . ومن السهل تصور مدى ما خلقه كشف أعظم وأغنى مناجم الذهب في العالم من المعضلات والمشاق غير المرتقبة في أنظمة الحكم لحكام الترسقال الفلاحين البدو .

وكان الحفاء والتوتر قد ازدادا بين الحسنين الأبيضين في جنوب إفريقية : الإنجليز والهولنديين - قبل الاندفاع إلى إقليم الراند للتنقيب عن الذهب ، بسبب حادث فريد في سوء الطالع . فقد ضم دزرائيلي سنة ١٨٧٧ هذا الإقليم إلى ممتلكات بريطانيا نتيجة سوء فهم وتقدير للأمر . ولكن غلادستون أعادته إلى البوير (سنة ١٨٨١) أثر هزيمة خطيرة حلت بقوة بريطانية في تل ماجوبا

Majuba Hill

ولأنه لمن أصالة الرأي أن تكون كريماً بعد النصر . ولكن من المجازفة أن تتساهل في ساعة الهزيمة . فقد فسر البوير الهزيمة عمل غلادستون المنطوى على النخوة والشهامة ، وكان نتيجة شعوره بالقوة - فسروه بأنه علامة على الجبن وخور الهزيمة . فنظر البوير في ذلك الحين إلى البريطانيين نظرة ازدراء واستهانة . أما المخبرون الذين استغزهم احتقار البوير لهم ، واستهانتهم بشأنهم ، والذين زاد من حقنهم ذل الهزيمة ، فإنه غلا مرجل غضبهم على البوير ، وقل فيهم روح التقدير لمناقبهم .

كروجر

وقد سيطر على المشهد السياسي في جنوب إفريقية في ذلك الحين رجلان وسيل رودس

عجيبان حقاً ، أحدهما يتزعم الهولنديين ، والآخر يتزعم الحركة البريطانية ، وهما : كروجر Kruger الجمهورى البويرى ، ورودس المستعمر البريطانى . وقد اشترك كروجر (١٨٢٥ - ١٩٠٤) وهو فى سن الصبا فى هجرة مواطنيه الكبيرة سنة ١٨٣٦ من مستعمرة الرأس . وكانت مهارته فى الرماية ، وبراعته الفائقة فى تذليل الخيل والثيران ، وقوته الجثمانية العظيمة ، عاملاً فى تبريزه بين قومه وهو لا يزال شاباً غض الإهاب . وزادت سيطرته رسوخاً - وهو يتقدم فى السن - بمحشونة خلقه وعنفه وتقواه وخبثه ودهائه . وبما أضفى جاذبية على خلق هذا الرجل البدوى الخشن موهبة فائقة امتلك ناصيتها فى التندر الرينى ، وقدرة على فصاحة الوعظ ، وإيمان عميق بهدى الله لخطوات بنى جنسه . فكان يبدو النموذج المتجسم والمثل الحى لبطاسة البوير وتقاليدهم الجمهورية ، وهو يدخن غليونيه على شرفة بيته المتواضع فى بريتوريا يتحدث مع الفلاحين السذج .

ومع ذلك فإن كنوز الراند أثارت شهوته ، وحركته إلى العمل . فقد أدرك على الفور قيمة الذهب لجمهوريته الفتية ، وكيف أنها تستطيع بالمكوس التى تفرضها على ما تخرجه مناجها منه ، أن تسيطر على السكك الحديدية ، وتجهز جيشاً . بل إنه ربما يبيت فى مقدورها أن تقذف بالبريطانيين فى مستعمرة الرأس إلى البحر ، الأمر الذى كان الكثيرون من شبان البوير يصبون إليه . ولكن كروجر التزم فى ذلك الحين موقف الدفاع . ثم أبقن من الشكاوى المرتفعة التى رددتها الجالية الأجنبية فى جوهانسبرج أن هؤلاء الأجانب الأثرياء ذوى النفوذ والحول ينصبون المكاييد ، ويتآمرون بمعونة الحكومة البريطانية على القضاء على دولته .

أما رودس فقد منحه تعليمه بجامعة أكسفورد ، وخلقته الإنجليزى ، اتساعاً فى نظراته ، وبخاء فى معاملاته . وإذا كان خارجاً من صلب أسرة إنجليزية ريفية كريمة المحدث ، كان يشبه البوير فى حبه للأرض . وإذا كان قد وجه الشطر الأكبر من جهوده لإقتناء المال ، فإن ذلك لم يكن منه مجرد الرغبة فى اكتنازه ، بل بالأحرى لما يمكنه هذا المال من شراء السيطرة والسلطان والنفوذ .

وكان يحلم أيام شبابه بأن في مقدوره أن يكفل للعالم السلام المستقر الدائم بواسطة مشروع ضخّم من الجوائز العلمية التي تمكن بعض الشبان الممتازين من الإنجليز والأمريكيين من العيش معاً تحت سقف جامعة أكسفورد، وهم في سن القابلية للتشكّل والصياغة . وسعى طيلة حياته إلى تحقيق هذا الحلم، ولكن في طريقة معدلة رحيمة . وقد خرج مشروعه إلى الوجود في شكل وقف كبير الموارد المالية خصّص لإيراده لهذا الغرض التعليمي النبيل .

فلم يكن رودس واحداً من أولئك الأجانب النازحين إلى الترنسفال الذين لا يهدفون إلا إلى جمع المال . بل إنه عاش وعمل من أجل جنوب إفريقية ، وفي سبيل خدمتها ، والسعى إلى التعاون المنسجم بين الجنسين الأبيضين . فكان يجعل البوير الهولنديين تبجيلاً عميقاً لا ملق فيه ولا كلفة؛ إذ رأهم يتحلون ببساطة هادئة مثبّدة تعدل بساطته .

غير أن إصابته بعلّة القلب جعلته نافذ الصبر . وأثّرت هذه العلة تأثيراً سيئاً في سداد حكمه على ضجيج المغامرين النازحين إلى جنوب إفريقية وشكاياتهم المستمرة ، ومقاومة الرئيس كروجر العنيدة التي لا تليّن للإصلاحات المعقولة . وفي لحظة مشثومة صدق رودس على شن غارة على الترنسفال ، قامت بقيادة صديقه الدكتور جيمسن Dr. Jameson في ديسمبر سنة ١٨٩٥ للقضاء على جمهورية الترنسفال ، ووضع ذلك القطر تحت العلم البريطاني .

ولكن الغارة باءت بالفشل والخذلان . ولم يجد فتيلاً لإنكار الحكومة البريطانية معرفتها بأمرها واستنكارها إيّاها . فقد حدث الضرر ، واندمجت نار مستطيرة هوجاء من الحمق العنصري عمّ أرجاء الترنسفال ، وسار قدماً تحت زعامة كروجر العنيدة المتأججة صوب الحرب . على حين واصل السر ألفرد ملنر Alfred Milner المندوب السامي البريطاني ضغطه على جمهورية الترنسفال لإجراء الإصلاحات المنشودة، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح . هذا وإن المستندات الحديثة توضح الروح المشاغبة التي سادت الجمهورية البويرية الفتية في ذلك الحين ، وتبين كم كان عسيراً الاحتفاظ بأهداب السلام .

ولم تكن ظلامات الجالية الأجنبية ، برغم ارتفاع صيحاتها في الصحف الإنجليزية ، تعد في ذاتها سبباً في حفز بريطانيا الديمقراطية إلى النضال . فإن أحداً لم يكره هؤلاء الأجانب على التزوج إلى جنوب إفريقيا والاستيطان بجوهانسبرج . ولم يوصد أحد أمامهم باب الانسحاب والخروج . فقد فصلوا الترنشال لكسب المال ، وتمكنوا من الوصول إلى مرامهم . بل إنهم غالباً كسبوا أموالاً طائلة على الرغم من سوء نظام هذه الجمهورية وجورها .

خاف
البريطانيين

فلم يكن شجار محلي صرف كهذا الشجار ، في مدينة للتعليمين في جنوب إفريقية ، ليشير الرأي العام البريطاني . ولكن الشجار لم يكن محلياً . فقد داخلت البريطانيين الريب والظنون بأن الرئيس كروجر يستخدم ثروة الراند في تمويل مؤامرة واسعة النطاق ضد بريطانيا ، وأنه استحوذ في هذه المغامرة على عطف الريبغ الألماني واعتمد على تأييده . ولهذا فإنه عندما أبرق إمبراطور ألمانيا إلى كروجر في عشية هزيمة جيمسن ، باعثاً إليه بتهنته ، اشتعلت إنجلترا بأسرها حقناً وغضباً . فقد عدّ تدخله هذا بلا ضرورة أو جلوى ، بل إنه قد ينطوي على الشر والسوء . فهو سيئ في ذاته ، وهو أسوأ لما يحوى من احتمالات وقرائن . ومن حسن الحظ لم يُعرف في لندن في ذلك الحين أن القيصر ، في تهوره واندفاعه ، بعث بمذكرة نهائية إلى الحكومة البريطانية محتجاً على هذه الغارة ، وتهجم الصحافة الإنجليزية عليه ، وأن سفيره الأريب أبي أن يسلمها إلى الحكومة البريطانية ، وأن الحكومة الألمانية أخذت بعد ذلك بزمّن وجيز تعمل في همة وخفية على تأليف حلف أوربي ضد إنجلترا : وهو حلف لم يتكون ، لإحجام فرنسا عن الاشتراك فيه .

إعلان الحرب

ثم انقضت أعوام ثلاثة ، تفاقم خلالها شجار جنوب إفريقية حتى اندلع في حرب خطيرة ، خفّ إليها المتطوعون من كل فج من نجاح الإمبراطورية لعمري بريطانيا الأم . ولكنها في الوقت عينه كانت حرباً استنفدت مواردها ، وأبانت للتأقدين الحربيين في الأقطار الأوربية مآخذ الضعف العديدة في الجيش البريطاني .

وعلى الرغم من أن البوير - لا البريطانيين - هم الذين أشهروا الحرب . أوربا والحرب فإن العواطف القوية للقارة الأوروبية كانت تؤيد جيوش الجمهوريتين ، وتدعو لها بالنصر . وكانت البراعة والصلابة والبساطة التي أبدتها الفلاحون البوير في مقاومة القوات الحربية الملمبة لإمبراطورية عظيمة ، والصمود في وجهها ، موضع الإعجاب العام . وخيل للمراقبين أن هذه الحرب هي نضال بين البساطة والتنعيم ، وبين الحرية والظلم ، وبين الله ومعبود الذهب . وكان كل نصر يحرزه البوير يُستقبل في أوربا بحماس لا يوصف ، وكل اندحار يحل بقضيتهم يقابل بحزن وخيبة أمل شديدين . وفي ألمانيا وفرنسا ارتفعت أمواج السخط على بريطانيا والاشمئزاز منها إلى أعلى عليين . وحتى قيصر روسيا الذي لم تكن حكومته الداخلية أنموذجاً للحرية يُحتذى ، اقترح عقد حلف عام من الدول الأوروبية الكبرى ضد الجزيرة المتعجرفة الصلابة البغيضة .

ومع ذلك وقفت أوربا مكتوفة الأيدي لا تتدخل . وبرغم حقها وبغضها البالغين ، أكرهت على الوقوف موقف المتفرج ، بينما استرد القائدان روبرتس وكشنر ما كان الإنجليز قد خسروه في أول الحرب ، وأوهنا مقاومة البوير ، وأنزلا الإعياء بقواتهم .

ولم تكن ثمة دولة أوروبية ، أو مجموعة من الدول ، في مركز يمكنها من الوقوف في وجه الأسطول البريطاني . فقد سيطرت سيادة بريطانيا على البحار على الموقف . ولم تترك قارة أوربا في عصر ما ، مثلما أدركت في ذلك الوقت ، المضايقات التي ترتب على سيطرة بريطانيا فوق أمواج البحار . ويُقش هذا الدرس البالغ نقشاً عميقاً في صدر القيصر الألماني ومشيريه ، وبخاصة في صدر ضابط شاب قوى الشكيمة على الهمة من ضباط الأسطول الألماني يدعى تربتر Tirpitz ، كان اسمه قد لَمَعَ في نفس الوقت تقريباً الذي حدثت فيه غارة جيمسن . فأخذ يحض على إنشاء أسطول ألماني قوى يشق عباب مياه المحيطات .

ولهذا نجم في ألمانيا من التروات التي أثارها حرب جنوب إفريقيا نتيجتان هامتان : الأولى أن الطريق إلى قيام تحالف إنجليزي ألماني ، وهي الطريق التي كان جوزف تشمبرلين قد فتحها ، انسدت برهة ما انسداداً محكماً . والنتيجة الثانية ، قيام الحجة التي لم يكن عسيراً على الألماني أن يغلط عليه فهمها ، وهي ضرورة بناء بلاده أسطولاً جباراً يلزم أقوى دولة بحرية في العالم باحترامه . فواصل الإمبراطور بهمة مندفعة قعساء تنفيذ مشروعه العزيز إلى فؤاده ، تستحثه العبر التي تلقاها من حرب البوير . ولا يبدو أنه خطر إلى ذهنه وقتئذ أن إنجلترا التي تعتمد حياتها كل الاعتماد على مواردها المحمولة على متن الأمواج ، ستعد وجود أسطول يعدل في القوة أسطولها أمراً يهدد كيائها تهديداً خطيراً . ولما كان الإمبراطور يعتقد أن أي تدخل في شأن لعبته الحبيبة هو إهانة شخصية له لا تطاق ، وأنه ليس ثمة سلاح دبلوماسي ضد الإنجليز أفعل من التلويح لهم بالقوة ، فقد تقدم بإصرار إلى الريشستاغ بسلسلة من مشروعات القوانين البحرية ، كان من الضروري لإجازتها إثارة الشعور العام في بلاده ضد الإنجليز . ولكن يبدو أنه لم يخطر لذهنه الماضي - ولكنه الذهن المتهلل المتعجل - أنه نظراً للتوازن الدولى القائم في القارة حينئذ ، فإن هذا المشروع كان يصطدم بأخطار خاصة تهدد ألمانيا بالذات .

٤ - الاحتلال البريطاني لمصر

كان يفرق بين فرنسا وإنجلترا من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٠٤ مشكلة مصر المعقدة . فقد قسمت الأقدار - التي لاحت للفرنسيين معاكسة إلى حد كبير لأطماعهم - قسمت هذه الأقدار للإنجليز أن يستولوا بالصدقة على ميراث كانت فرنسا قد عيته من نصيبها من المغنم . فلقد كان نابليون هو الذى استعاد مصر لأوروبا . غير أن محمد علي - المعجب بنابليون وتلميذه - هو الذى خلق من مصر دولة عصرية . وكان مهندساً

عبرياً فرنسياً هو الذى أنجز سنة ١٨٦٩ شق قناة السويس . وقد قاومت إنجلترا أعمال هؤلاء العظماء ومجهوداتهم ، ومع ذلك فإن إنجلترا - لفرنسا - هى التى كسبت صوتاً مسيطراً على شئون القناة ، بشرائها سنة ١٨٧٥ أسهم التأسيس التى كان يملكها الخديو إسماعيل فى شركة القناة . وكانت إنجلترا أيضاً هى التى أخذت منذ سنة ١٨٨٢ تدبّر شئون مصر ، وتوجه السياسة المصرية من القاهرة .

ولم يكن لفرنسا عنبر فى كل هذا الخذلان . فإنها بإيجاء من بسمارك ، أخذت على عاتقها ، بالاشتراك مع إنجلترا ، حماية قضية أصحاب سندات القروض الأجنبية التى استدانها مصر . فخلعت الدولتان الخديو إسماعيل ، وفرضتا على مصر مراقبة ثنائية بقصد إعادة تنظيم ماليتها التى أشرفت يومئذ على الإفلاس . ولكن فرنسا انسحبت عامدة من الاشتراك فى إخماد ثورة عراقى - وهو ضابط مستاء متذمر من ضباط الجيش المصرى - تاركة إنجلترا وحدها تضطلع بهذا العمل ، وتقوم بإصلاح الأداة المالية والإدارية المصرية التى كان الخديو المخلوع قد خلفها وراءه تضرب فيها الفوضى بأطنابها .

ولقد كان الموقف السياسى عجيباً حقاً . فإن وزارة غلادستون الحرة التى كانت تمتعت بالتعهدات الاستعمارية ، وتتوق إلى نفوذ يدها من مصر فى أول فرصة ملائمة ، ألقت نفسها مكرهة على التغلغل أكثر فأكثر فى وادى النيل ، على حين أن فرنسا التى لم يكن يغفل يدها عن الاستعمار وإزعاج أدبى ، والتى كانت تتوق إلى وضع يدها على مصر بأى ثمن ، تركت فى فورة فجائية من الحلع والتهيب الثمرة إلى منافستها لتقطفها من دونها .

وإذا كانت فكرة احتلال مصر احتلالاً دائماً مقبنة فى عيون الأحرار الإنجليز ، فإن الاقتراح الخاص بمحاولة فتح السودان كان أمقت وأبغض إلى نفوسهم . فقد نهضوا يؤيدون قضية السلام ، ويدعون إلى الإصلاح والاقتصاد فى النفقات - تلك الأمانى التى كان يصعب أن تتفق مع إنفاذ

حملة حربية إلى مفاوز لافحة القبط ، لتحارب جموع الدراويش المتوحشين المهوسين .

ومع ذلك فإنه لم يكن من اليسير على حكام مصر الجدد ألا يحفلوا بمصير قطر كانت الراية المصرية ترفرف فوق أرجائه ، وتعسكر الكتائب المصرية في بلدانه ، والذي صار الآن مهدداً بحركة من تلك الحركات الشرسة من التعصب الديني العنيف الذي يروج بين آونة وأخرى العالم الإسلامي . وكان القائد لهذا التمرد العجيب الجبار مسلماً اسمه محمد أحمد ، وهو ابن أخ لصانع مراكب في دنقلة . ونادى سنة ١٨٨١ بأنه المهدي المنتظر ، وأعلن أن هدفه فتح العالم .

هزيمة مكس وقد أنفذت الحكومة المصرية إلى السودان جيشاً مصرياً ضعيفاً من الجند غير المدربين للقضاء على الحركة المهدية . فضل الطريق في أحراش كردفان ، حيث أنزلت به هزيمة ماحقة بالقرب من الأبيض في يناير سنة ١٨٨٣ . فنال المهدي بذلك الفوز أول انتصاراته .

ولما كان قائد القوة المصرية المدحورة هو هكس باشا Hicks Pasha الإنجليزى الجنس ، فقد خلّق موقف محير للحكومة البريطانية . فكان إخلاء السودان للتو والحالة هذه مشورة أريية ، وضرورة سحب الحاميات المصرية منه قبل أن يغمرها تيار المهدي واجباً يفرضه العقل . أما العملية الأولى فكانت ميسورة . ولكن إجلاء الحاميات المصرية الميثونة في أرجاء السودان الفسيحة ، بدون إرسال حملة كثيرة التكاليف عظيمة المعائر ، كان معضلة تحير أذكي العقول وأحكمها .

إيفاد غوردون وفي ساعة نحس أصاغت الحكومة البريطانية السمع لمشورة جريئة البال مال الإنجليزية . فقد اقترحت تلك الصحيفة بأن هناك رجلاً واحداً يستطيع بمخاديبته القاتمة وموهبته المنقطعة النظير في معاملة الشعوب الشرقية ، أن يحفز السودانيين إلى الالتفاف حوله ضد المهدي ، ويتخذ بذلك الحاميات المصرية ، ويقمع تجارة الرقيق ، ويخلص — بدون تحريك جندي أو

مدفع من إنجلترا -- الوزارة البريطانية من غاؤها . وكان هذا الرجل هو غوردون « الصينى » ، وهو بطل ورع ، يتزع إلى الرؤى والأحلام ، خاض ببسالة معارك الحروب الصينية الأهلية دون أن يحس شعرة واحدة من شعره أذى . فكان يقود الجيوش ، ويحسم المنازعات ، ويفرض - بفضل قوة روحانية خاصة وسحر لا يقاوم - إرادته على أشد الطوائع البشرية وحشية ، ثم لمع اسمه فترة قصيرة بعد ذلك لتفوزه الشخصى العجيب فى السودان حينما كان حاكماً عاماً له .

وفى أيام معدودة أضحى غوردون معبود الجماهير الإنجليزية ، وكثراً من كنوزنا القومية ، ورجل الأقدار المعين للإتيان بالخوارق والمعجزات . ولم يقف أحد لينعم النظر فيما إذا كان هذا الرجل الباسل الغامض التزعات حائزاً على سداد الرأى وثبات المرمى الضرورىين لإنجاز مثل هذه المهمة العظيمة . فقد كان بحسب كل امرئ أن غوردون قبيل أداء هذه الرسالة المحفوفة بالمهالك .

وما حلَّ فبراير سنة ١٨٨٤ حتى كان غوردون قد وصل إلى الخرطوم . ومنها أخذ يبعث بوابل من البرقيات المتضاربة الحيرة المتدفة التى كشفت النقاب عن الغلطة المفجعة التى ارتكبها وزارة غلادستون فى اختيارها إياه حاكماً عاماً للسودان كى ينهض بالمهمة التى كُلف بها . ولكن غلطة أدهى تلت هذه الغلطة . فإنه لم يتفحص عام على وصول غوردون إلى الخرطوم ، حتى ترك لتمزق جسمه حراب الدراويش (فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) . فإن حملة إنقاذ بريطانية وصلت بالكاد متأخرة عن الوقت المناسب لإنقاذ حامية المدينة المحاصرة التى كان الجوع قد عمل فيها وفى أهل المدينة أنيابه ، ولتخليص قائدها الباسل أيضاً .

وكانت أقل نتائج هذه المأساة المفجعة أهمية هى أنها جرفت من منصة الحكم الوزارة التى ظنَّ أنها أوفدت رجلاً باسلاً شهماً فى مهمة مستحيلة ، ثم سمحت بتراخيها وتلكئها بأن ترهق روحه ، وهو يقوم بتأدية واجبه . أما

سقوط وزارة
غلادستون

النتيجة الأبقى أنراً والأوسع نطاقاً ، فهي أنها أدخلت في السياسة الإنجليزية روحاً من التصميم القاطع لإعادة فتح السودان . فأضيف الآن إلى واجب حماية قناة السويس التي كانت ذات أهمية بالغة للمصالح البريطانية ، أسباب أخرى لسياسة عدم الجلاء عن مصر ، قائمة على المشاعر العميقة التغلغل في الشعب البريطاني . وهذه الأسباب هي : الأخذ بثأر غوردون ، وتحرير السودان من الطغيان الذي يسيطر عليه ، واسترداد بريطانيا هيبتها الحربية .

فقد أعلن الوزراء الإنجليز بين الفنية والفينة أن سياسة البلاد الرسمية هي الجلاء عن مصر في أول فرصة ممكنة . غير أن هذه الفرصة لم تأت قط . وشرع إفلن بارنج Evelyn Baring (صار فيما بعد اللورد كرومر) الذي كان يحنى سلطاته الدكتاتورية تحت ستار لقبه الرسمي المتواضع « قنصل جنرال » شرع هذا الرجل يقوم بعمله العظيم من الإصلاح الإداري الذي أعاد لمصر رخاءها ومقدرتها على الوفاء بديونها .

٥ - استرجاع السودان

فوز المهديين ثم انصرمت إحدى عشرة سنة (١٨٨٥ - ١٨٩٦) ، جاور المهدي في خلافا ربه ، وخلفه في الحكم الخليفة عبدالله التعايشي . ولكن هذا التغيير لم يحدث أى أثر في السودان . فلن نفس الهوس الديني المتأجج الشرس ، والوحشية الملتهمه ، استمر يسيطران على نفوس زعماء القبائل الذين غلوا الآن يسيطرون على هذا الإقليم الرحيب الآفاق .

إعادة تنظيم الجيش المصري وفى خلال تلك السنين أيضاً بلغ الجيش المصري - الذى كان قد وُضع تحت قيادة ضباط إنجليز - بلغ من القوة حداً يمكنه من الدفاع عن حدود بلاده ، وإنزال سلسلة من الهزائم بجيوش الخليفة وأعوانه . ولكن جهداً أعظم وتنظيماً أدق كانا يُطلبان ، إذا كان المقصود إنقاذ السودان من مخالب الدراويش ومظالمهم .

وأخيراً حانت هذه الفرصة بفضل جهود بارنج وكنتشر سردار الجيش
المصرى واستعداداتهما الدقيقة . ففي سنة ١٨٩٦ زحف كنتشر إلى دنقلة .
ثم بعد عامين من بدء الحملة - ذلل فيهما مشكلة بعد الشقة ، بمد خط
حديدى بين حلغا والخرطوم ، ومشكلة قلة عدد الجنود المقاتلين بتجهيزهم
بالمدايع - تمكن من إبادة عدوه فى ملحمة أم درمان فى ٢ سبتمبر سنة
١٨٩٨ . ودخل الخرطوم ، حيث أقام حكومة مشتركة يخفق عليها العلمان
المصرى والبريطانى . وكان نصر كنتشر فوزاً للنظام البديع ، والخطوة المحككة .
فإن هذا المهندس المرتب النشاط تمكن بتفقه زهيدة من إعادة فتح السودان .

ولكن سرعان ما أنجز هذا العمل الباهر حتى برز حادث غير مرتقب ،
حدثد بريطانيا بإضعاف مركزها كله فى مصر . فإن زمرة صغيرة من الرواد
الفرنسيين بقيادة اليوزباشى مارشان Marchand سارت شرقاً مدة
ثلاث سنين صوب قلب إفريقيا ، إلى أن بلغت فى آخر المطاف فى
أواخر صيف سنة ١٨٩٨ فاشودة : وهى قرية تقع فى أعلى النيل ،
ورفعت عليها العلم الفرنسى . فبعثت الحكومة البريطانية بتعليات إلى كنتشر
تكلفه فيها بأن يسير لمقابلة مرشان ، ويطلب منه الانسحاب .

وفى الحال توترت العلاقات بين الدولتين توتراً خطيراً . فإن بريطانيا
بعد التضحيات التى بذلت فى الحملة السودانية لم تكن ميالة إلى بر وادى
النيل الأعلى من السودان وتقديمه لفرنسا مجرد وجود فريق من المستكشفين
الفرنسيين فى فاشودة . ولكن من الجهة الأخرى لم يكن أمراً سهلاً لإقناع
الرأى العام الفرنسى بأن فرنسا لم تلحق بها إهانة بمطالبة ضابط فرنسى المعنى
بأن يتزل عن أرض كان هو السابق إلى بلوغها ، بعد أن قام برحلة استكشافية
فذة حقاً .

ولكن من حسن الحظ كان دلكاسيه Delcassé وزير الخارجية
الفرنسية سياسياً رشيداً . فأبى أن يورط بلاده فى حرب من أجل مجموعة
صغيرة من الأكواخ الحفيرة واقعة على النيل الأعلى لم يسمع عنها قط شيئاً

قبل الآن تسعة وتسعون فرنسيًا من مائة من بنى وطنه . وأدرك بنظر بعيد وحكمة فطنة أن فرنسا قد تبتهج قبل مضي زمن طويل لأن تمد يد الصداقة إلى إنجلترا . فوطن العزم على إصدار الأمر إلى مارشان بالانسحاب . وبذلك تُجَنَّب الحرب ، بعد أن كانت الأساطيل قد عبثت ، وأصبحت الحرب بين البلدين قاب قوسين أو أدنى .

نيت الاتفاق
الودي

ووقف ذلكاسيه ، الذى أنجى السلام على هذا النحو عام ١٨٩٨ ، بعيداً عن النزوات الشعبية الحمقاء ، برغم صيحات السخط العالية والكراهية الشديدة لإنجلترا ، وهى الكراهية التى خلقها فى بلاده حادث فاشودة وحرب البوير . وكان جسوراً فى اعتقاده بأن قيام تفاهم بين فرنسا وإنجلترا أمر محمود مرغوب فيه ، وأن فى الإمكان الوصول إليه . وكان موثقاً على الدوام فى اختيار أعوانه ، وخاصة فى إيفاده پول كمبون Paul Cambon كسفير لبلاده لدى بلاط سان جيمس (١٨٩٨ - ١٩٢٠) ، ليعسى فى إنشاء اتفاق Entente بين البلدين .

وفى حفلة أقيمت بلندن فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٢ سُمع جوزف تشمبرلين وكامبون يتحدثان عن مصر ومراكش . ذلك أن وزير المستعمرات الإنجليزية القوى الشكيمة النافذ الكلمة حوّل أفكاره صوب بلوغ اتفاق مع فرنسا ، عندما أخفق فى مفاوضاته مع ألمانيا .

٦ - وفاة الملكة فكتوريا

ختم حكم الملكة فكتوريا الطويل الأمد فى ٢٢ يناير سنة ١٩٠١ . وتركت الملكية التى ألفتها عند ارتقاها العرش ضعيفة مزدراة ، راسخة الأركان وطيدة الدعائم فى قلوب رعيته . وقد منحها الدأب المتواصل ، والجد الذى لا يعنوه كلال ، والخبرة القيمة ، شيئاً من ذلك السلطان المنقطع القرن الذى امتازت به الملكة أليصابات (١٥٥٨ - ١٦٠٣) فى الأعوام الأخيرة من حكمها . غير أن الذى منح الملكة فكتوريا هذا السلطان النادر

رسوخ الملكية
فى بريطانيا

المثال لم يكن فقط مقدرتها على إنجاز أعمال الدولة التي لم تكن الأمة تدرى عنها إلا التزر اليسير ، أو نزعاتها وميولها التي أثارت حب الشعب وولاءها ، وإنما هو بساطتها التيوتونية ، والحب الذي كان يملأ قلبها الكبير ، وعطفها المتدفق ، ومقدرتها على المساهمة في أفراح الناس العاديين وأحزانهم - هؤلاء القوم الذين كانت بفطرتها أقرب إليهم منها إلى الطبقات المثقفة والأرستقراطية . ولقد كانت نقاوة بلاطها ، وبعده عن الفخضة الكاذبة ، والتبذير والفضائح ، يرفعانه في عيون شعبها ، ويؤهلانها لاحترامه وتبجيله . فقد أسخطت الشعب الإنجليزي حياة عمها جورج الرابع الخاصة . وأثارت أشمئزاه . ولذا اغتفر الناس في أيامها الشيء الكثير في سبيل الفضيلة والعفة اللتين ازدانت بهما حياتها^(١) .

ازدهار عصرها
بفحول المظلم

وحكت هذه السيدة المعجوز الضئيلة البدن ، البالغة الكبرياء والزهو ، التي كانت مع ذلك تشبه كثيراً في طرقها وأفكارها طرق ربات البيوت المتوسطات الحال وأفكارهن - حكمت هذه السيدة إنجلترا إبان حقبة امتدت إلى أكثر من ثلاثة وستين عاماً : أعواماً شهدت كثيرين من جهابذة الأمة الذين لمع اسمهم وتألّق نجمهم في خلال سني حكمها . فقد كان تاكوي ودكتور بستران رواياتهما الخالدة في أيام شبابها ، وميردث وكبلنج وهاردي ور.ل . ستيفنس في سني عمرها الناضجة . وكان في وسعها أن تدعو إلى مائدتها - لو أنه خطر لبالها أن تفعل ذلك - كوكبة لامعة من أعلام المؤرخين ، تبدأ بما كولي وتنتهي بميتلند : كوكبة لم تبرز في عهد أي عاهل آخر . ومن بين كبار المفكرين الذين ظهروا في عصرها ، يمكن عد كارليل ومل ورسكن ، ومن بين فحول الشعراء تيتس وبراوننج وسونثرون وماثيو آرنلد ، وفي اللاهوتيات الكردينال نيومن^{*} ، وفي الكشف العلمي دارون وولاس ، وفي ميدان الاستكشاف لفنجستون ، وفي الطب لسترن^{*} ، وفي القصص

(١) يحسن لمن يرغب في الاستزادة من الإلمام بهذا عهد هذه الملكة أن يقرأ سيرتها : « الملكة فكتوريا » ، تأليف لئن ستريشي ، وتريب وديع الضج (طبع دار المعارف بمصر) .

ثاكرى ودكنز وأنطونى ترولب وشارلوت برونتي وجورج إليوت وروبرت لويس ستيفنسن ، وفى تبسيط العلوم وتقريبها إلى الأذهان ، توماس هنرى هكسلى وهربرت سبنسر ، وفى القانون المقارن هنرى مين — يبرز هؤلاء جميعاً بين شخصيات عديدة ذات ألمية ومواهب كبيرة فى كل صقع من أصقاع المعرفة .

خلق فكتوريا بيد أن الملكة لم تكن من ذوات الذكاء الكبير والعلم الغزير . فلم تحفل كثيراً لذلك الموكب الفخم الأخاذ ، الذى ألقته عبقریات رعاياها وقرانهم الوقادة ، وهو يسير أمام عينيها الملكيتين ، ولم يتجاوب قلبها مع نداء حماسهم المستنبط ، وخیالهم المضطرم المبتكر . فالحرکات الكبرى : حركة أكسفورد Oxford Movement ، والحرکة الاشتراكية ، والحرکة العقلية Rationalist Movement والحرکة النسائية — كانت كلها على السواء بغیضة لتقاليدها المحافظة وروحها البسيطة . ولقد كانت حتى النفس الأخير وطنية إنجليزية مضطربة الحماس ، وفى السياسة الإنجليزية متحيزة شديدة التحزب . واحتفظت إلى آخر نسمة من حياتها ، برغم الكدح المضنى والتبعات الجسيمة ، بقلب فتاة ألمانية شديدة العطف والحدب .

٧ - الاتفاق الودى

وكان دلكاسيه يترقب اعتلاء ابنها البكر إدوارد العرش . وكان ملك إنجلترا الجديد حلو الشئائل جميل المناقب . فلم يضر لأحد عداوة أو بغضاء ، اللهم ماعدا عدم استلطاف شخصى لابن أخته إمبراطور ألمانيا المزهو الصلف . وكانت تغمر إدوارد السابع رغبة صحيحة لا زيف فيها فى أن تكون علاقات إنجلترا ودية صافية مع العالم أجمع : مع ألمانيا ، ومع فرنسا ، ومع روسيا . وكان يصبو إلى أن تكون علاقته ودية مع فرنسا على الأخص برغم مقبها الشديد للإنجليز . فقد كان كثيراً ما يلهو ويطرب فى باريس ، لما كان أمير ويلز ، واتخذ له أصدقاء فرنسيين كثيرين . فلم تكن الحكومة

اعتلاء إدوارد السابع العرش

البريطانية في معاملاتها مع فرنسا لترغب في سفير يحمل إليها نواياها الطيبة ومقاصدها الودية خير من مليكها .

غير أنه من الخطأ أن نعزو إلى إدوارد السابع (١٩٠١ - ١٩١٠) إحدائه انقلاباً دبلوماسياً ، كان في الواقع من عمل وزارة بلفور (١٩٠٢ - ١٩٠٥) . فإن هذا الملك عاون فقط في بناء الاتفاق الودي Entente Cordiale مع فرنسا ، ولكنه لم يخلقه . فإن زيارته الرسمية لباريس سنة ١٩٠٣ أزالت العدواة بين البلدين ، وولدت الحماسة . ولكن « الاتفاق الودي » يعود إلى الحقيقة بأن الحكومتين الفرنسية والإنجليزية كانتا قد أدركتا أنهما في مركز يسمح لهما بإبرام صفقة استعمارية رابحة لكلتئما .

وكانت خلاصة الصفقة التي تمت سنة ١٩٠٤ اعتراف فرنسا بالحقوق الخاصة التي كسبتها إنجلترا في مصر ، على حين سلمت إنجلترا بمركز فرنسا الخاص في مراكش . وقُرِنت الاتفاقية باتفاق سري ، عين حدود منطقة النفوذ الفرنسي في مراكش في حالة حدوث تفاهم مع أسبانيا . وفي الوقت نفسه سويت الخلافات البارزة بين القطرين بنينوفوندلند وسيام ومدغشقر وجزر هبريد الجديدة .

ولم يبدُ حسب الظاهر شيء أسعد أو أحكم من هذه التصفية بين القطرين لشكاويهما الاستعمارية المضايقة المتبادلة . وكان كبون شديد الاعتباط بحل المسألة المراكشية . كما طرب مجلس العموم لاتفاقية أمنت مركز إنجلترا في مصر . ولكن اللورد روزبري زعيم حزب الأحرار يومئذ ، لاحظ أن ألمانيا ، وهي أقوى دولة حرية في أوروبا ، لم يتوخذ رأيها في مسألة مراكش . فانتقد المعاهدة ، معرباً عن رأيه في أحاديثه الخاصة بأن الاتفاق الودي مع فرنسا سيقود إنجلترا في النهاية إلى حرب مع ألمانيا .

کتاب ممکن استشارتها

J.A. Spender : Fifty Years of Europe. 1933.

J.L. Garvin : The Life of Joseph Chamberlain. 1932.

Lady Gwendolen Cecil : The Life of Robert, Marquis of Salisbury.
1921.

E. Brandenburg: From Bismarck to the World War, German, Foreign
Policy 1870-1914. 1927.

H.N. Brailsford : The War of Steel and Gold. 1915.

J. Bryce : Impressions of South Africa. 1897.

Basil Williams : Cecil Rhodes. 1921.

D. Reitz : Commando. 1929.

S.G. Millin : Rhodes. 1933.

الفصل السابع والعشرون

إصلاحات وزارة الأحرار ، وغيوم الحرب

صلح فيرينجينج . السياسة الداخلية الإنجليزية . قانون التعليم سنة ١٩٠٢ . معارضة الأحرار . تحديد المسكرات . العمال الصينيون . إصلاح التعريف الجمركية . سنو الأحرار العشر في دست الحكم (١٩٠٥ - ١٩١٥) . نمو قوة ألمانيا . مراكش . الاتفاق الإنجليزي الفرنسي . المباراة البحرية الإنجليزية الألمانية . حبوط مؤتمره لهى . الاتفاق الروسى الإنجليزي سنة ١٩٠٧ . الانقلاب السياسى الذى أحدثته النمسا عام ١٩٠٨ . خطر الحرب .

١ - انتهاء حرب البوير

كان عسيراً على الإنجليز ، وهم شعب متحضر منزول ، أن يدركوا تماماً دلالة الانقلاب الدبلوماسى الذى أنهى الفترة الطويلة التى سادت خلالها سياسة « العزلة المحيطة » . فإن المعاهدة اليابانية التى مهد لها السبيل فى تكتم ، لم تحدث فى الرأى العام سوى اهتمام ضئيل . ونُظِرَ إلى الاتفاق الودئى مع فرنسا كصفقة استعمارية موفقة تساعد على الوئام العام . وكانت فكرة نشوب حرب أوربية بعيدة عن أذهان الناس . وبلغت معارضة الإنجليز القوية لقرض نظام التجنيد الإجبارى فى بلادهم حداً جعل بعض الفرنسيين . ككليمنصو مثلاً ، يعلنون هذا الاتفاق خطراً جليلاً على فرنسا .

أضف إلى ذلك ، أن إنجلترا كانت مشغولة الفكر بشئونها الخاصة . فقد طلع القرن العشرون ، وكانت البلاد لا تزال تناضل فضلاً شاقاً لقمع البوير . الذين برغم وقوع برييتوريا عاصمة ترانسفال ، وبلومفنتين عاصمة أورانج الحرة فى قبضة أعدائهم ، أصروا على مواصلة القتال . وكانت طريقتهم فى الحرب

طريقة الحركة ، والكرك والفر . وكان كل بيت من بيوت البوير في الريف يمد بالطعام والملاذ الشراذم الصغيرة من مقاتليهم من حملة البنادق الراكبين الذين ضايقوا جيشاً كان أصغر كثيراً من أن يستطيع القيام بعمليات حربية فعالة في ميدان فسيح كجنوب إفريقية ؛ مما أدى به إلى ارتكاب أعمال قسوة أثارت اللوم العام . فقد رأى الجيش الإنجليزي أنه من اللازم له أن يحرق بيوت الفلاحين البوير ، ويبنى معتقلات خشبية يجمع فيها النساء والأطفال الذين أجلاهم عن منازلهم .

صلح فيرينجينج غير أنه مهما يكن اتخاذ تدابير قمعية كهذه أمراً لا مندوحة عنه في نظر الرجال العسكريين ، فإنه كان مقيتاً في أعين شعب متسامح كالشعب الإنجليزي . ومع أن عبارات كامبل بنرمان Campbell Bannermen الرعيم الحر الذي ندد فيها « بالطرق الوحشية المتبريرة » التي استخدمها الجيش البريطاني ، لم تلق ارتياحاً أو موافقة لدى بنى جلده ، فإن الحقيقة الواقعة ، وهي ضرورة اتخاذ مثل هذه التدابير ، حوت في ثناياها حجة إضافية على وجوب إنهاء الحرب من غير إبطاء .

ولذا أبدت الحكومة الإنجليزية كتنش في رغبته في إبرام صلح يتم بالمفاوضة ، بدلا من أخذها بالرأى القاتل بضرورة تسليم البوير من غير قيد أو شرط ، وهو الرأى الذي كان ملتر المنتدب السامى في جنوب إفريقية يؤثره . فجاءت معاهدة فيرينجينج Vereeniging التي أنهت القتال ، محاولة حقيقية لمصالحة البوير . فمع أنه اشترط عليهم فيها الموافقة على ضم بلادهم إلى الإمبراطورية البريطانية ، إلا أنهم منحو ثلاثة ملايين من الجنيهات ، لإعادة بناء منازلهم وإصلاح مزارعهم ، وذلك بدلا من أن يطالبوا بدفع غرامة حرية . وقدم الجنرال بوثا Botha قائد البوير إلى لندن بعد انتهاء الحرب ، وألقى نفسه لدهشة بطلا محبوباً . فقد رحب أهل قصبة الإمبراطورية المرحون ذوو الروح الرياضية النصفية بمقدم أعند خصم لم من خصومهم الحليين ، وأكبرهم شأنًا - رجوا به بهتافات : « يحيا بوثا الطيب الصالح » ، كرجل مهذب

الشمال ، وكخصم مهزوم شريف ، وكصديق .

أصل حركة
الكشافة

وقد حرك حدث صغير من حوادث الحرب الجماهير الإنجليزية ، وأثار حماسهم وإبتهاجهم العظيمين : وهو تمكن الجيش الإنجليزي من إنقاذ بندر لم يكن بالكبير يقع على حدود الترنسفال الغربية . فإن حصار بندر مافكنج Mafeking لم يكن ليثير في الشعب الإنجليزي إلا أضعاف الاهتمام ، لولا أنه كان يدافع عن تلك البلدة الصغيرة رجل عبقري ، جعلته البرقيات التي كانت ترسل إلى إنجلترا ، واصفة سعة حيلته وهجماته الباسلة - جعلته بطل بني وطنه المحبوب . فإن اسم "بادن" "هاول" Paden Powell الذي صار ذائع الصيت في بلاده نتيجة عمل من أعمال البطولة الحربية ، رنّ فيها بعد في الآفاق نتيجة كسبه نصراً كبير القدر في ميادين السلم . فإن حامى دمار مافكنج أسدى خدمة جليلة لم يسبقه إليها أحد لتربية الشباب نتيجة لخبرته بالقتال في مضارب الفلدت ، وذلك بتأسيسه نظام الكشافة للأولاد . فقد غدت الآن هذه الحركة مؤسسة عالمية ، وأضافت قوة ميمونة جديدة في المجتمع لبناء أخلاق الشباب ودعمها .

فن حريين إنجليزيين : حرب القرم ، وحرب جنوب إفريقية ، برزت قوتان غير مرتقتبتين لرفع شأن الإنسان ، ومدتا يد الفؤاد إليه . فقد وهبت حرب القرم فلورنس نيتجيل إلى صناعة التمريض ، وأرشدت حرب جنوب إفريقية بادن هاول إلى ابتداع لون من ألوان التلريب الخلقى ملائم جداً للملازمة لطبيعة الصبيان ، ويهدف إلى معالجة السامة والضجر اللذين يشيعان بين تلاميذ مدارس المدن والبنادر ، بفتحهم لميادين الحرية في الأماكن الطليقة الهواء ، وتلزيهم على الحياة الخشنة .

٢ - السياسة الداخلية الإنجليزية

فاز حزب المحافظين الذي كان يتولى حكم إنجلترا خلال لإيرام صلح وزيراً للبرية فريبنجج بأغلبية ساحقة في مجلس العموم في الانتخاب العام الذي جرى

سنة ١٩٠٠ . وكان يرأس الوزارة لورد سالسبرى ، وكان أكبر أعوانه فيها
 ا. ج . بلفور وجوزف تشمبرلين . والأول منهما إنسانى كامل السجاياء ،
 وفيلسوف غزير العلم ، ذو ملكة خاصة للجدل والنقاش البرلماني . أما الثاني
 فكان من أتباع مذهب المنفعة العامة ، وبعد حياة دعوب ناجحة في ميدان
 الأعمال ، وفي مجلس بلدية برمنجهام ، دخل البرلمان . وما عثم أن أبدل آراء
 شبابه الراديكالية الأولى بمبدأ التوسع الاستعماري المنشئ ، وأخذ يحض بكل
 قوته عليه ، حتى صار في ذلك الحين أبرز رجال حزب المحافظين وأنفذهم
 كلمة .

ولكن لا يمكن اتخاذ انتخاب أجرى وأهواء الحرب الجاحشة ونزواتها الهوجاء
 ما زالت مشبوبة في النفوس ، دليلاً على القوة الحقيقية للأحزاب السياسية .
 فإنه سرعان ما شرعت حكومة المحافظين تعالج المسائل الداخلية حتى اعترى
 قوتها ضعف محسوس فإن أنصار المذهب البروتستانتي المنشقين Nonconformists
 استاءوا من طريقة علاجها لشئون التعليم وبيع الخمر ، واستنكر العمال
 الإنجليز استيراد العمال الصينيين إلى جنوب إفريقيا للعمل في مناجمها ،
 وأظهر أرباب التجارة والصناعة عدم رضاهم ، بيدتهم حملة قوية ضد النظام
 المتين الأركان لحرية التجارة الذي كان سائداً وقتئذ في إنجلترا .

وكان الواضع الحقيقي لقانون التعليم الذي أقره البرلمان سنة ١٩٠٢ ، هو
 السر روبرت مورانت Sir Robert Morant ، وهو موظف قوى النفوذ
 من كبار موظفي الحكومة الذين كثيراً ما يعملون أكثر من الوزراء ، رؤسائهم
 الرسميين ، في صوغ سياسة البلاد . ولقد كان هذا التشريع عملاً جليل
 الشأن عظيم الخير ، أحدث انقلاباً خطيراً في النظم التعليمية بإنجلترا . إذ نقل
 إدارة التعليم المحلية من المجالس المدرسية إلى لجان خاصة بالمجالس المحلية :
 أى إلى هيئات منتخبة بواسطة دافعي العوائد والرسوم المحلية ، ولذا فهي هيئات
 حائرة على السلطات التي يمنحها حق الانتخاب لأعضاء تلك المجالس ، كما تقع
 على عاتقها التبعات والواجبات التي يفرضها هذا الحق .

قانون التعليم
 سنة ١٩٠٢

وتقدم انصار هذا الإصلاح بالحجة بأن هيئات تستطيع أن تفرض مكوساً ،
 هي هيئات تستطيع أن تعمل الشيء الكثير ، وتجسر على القيام بمشروعات
 للتعليم أكثر من تلك التي ليس في طاقتها إلا أن تشير وتنصح . فكان هذا
 القانون في صميم الواقع بمثابة حافز لكل مدينة وكل مركز بأن يشعر بفخر
 العمل على ازدهار مدارسه وتقدمها بكل ما يتسع له الذرع . ويجسار قضاة
 بها الضرورة ، ألغى هذا القانون القواعد المتبعة يومئذ ، وأجاز منح إعانات مالية
 من خزينة الدولة لنشر التعليم الثانوي .

ولكن برغم هذه المزايا استاء البروتستانت المنشقون أشد استياء ، وبالتالي ممارسة الأحرار
 استاءت أغلبية حزب الأحرار من وضع مدارس الطوائف غير البروتستانتية
 تحت هيمنة الحكومة ، ومنحها حق طلب إعانة من الأموال العامة المحلية .
 فقالوا كيف يكون من العدل وكيف يتلاءم مع الوجدان الديني أن يلزم إنجيلي
 بدفع عوائد لمساعدة مدرسة تسودها الروح الكاثوليكية ، أو أى مذهب آخر
 غير الملتبب الإنجيلي ؟ وأدهى من هذا هو الشكوى القائلة بأنه في النواحي
 التي لا توجد فيها غير مدرسة واحدة ، كان يكره البروتستانت المنشقون على
 إرسال أولادهم إلى مدارس تشرف عليها الكنيسة البروتستانتية الرسمية .

وقد أطلقت المحاولات التي احتدم أوارها في طول البلاد وعرضها بين
 الطوائف الإنجيلية العديدة ، والطوائف الكاثوليكية - أطلقت هذه المحاولات
 العنان للغيرة الكامنة في النفوس بين هذه الطوائف . وبلغ من حدة الشعور
 أن كثيرين من المنشقين أخلوا يقاومون « بطريقة سلبية » هذا القانون ،
 ويفضلون أن يزوجوا في السجون ، على أن يدفعوا الضرائب المحلية المفروضة
 عليهم .

وكان تحديد بيع الخمر مسألة أخرى اشتد عليها الحواري والخلاف أبنا تحديد المسكرات
 اجتمع الأحرار . فقد كان شرب المسكرات شراً يسلم به الجميع . كما كانوا
 يسلمون بارتباطه بالإجرام والشفاء الاجتماعي الصاريين أطنابهما . وكان كل
 مصلح اجتماعي يعتبر احتساء الخمر أعظم العقبات وأقوى العراقيل في سبيل

الإصلاح الاجتماعي . وقد اقترحت أدوية عديدة لعلاج هذا الوباء : فاقترح
تحريم الخمر تحريماً باتاً ، أو منح السلطات المحلية حق تحريمها داخل
تخومها ، أو إنقاص عدد محال بيع الخمر الزائدة كثيراً على الحاجة لإنقاصاً
كبيراً ، وذلك بوضع نظام صارم للترخيص .

ولهذا السبب اعتُبرت خطوة رجعية تنكص بالأمة إلى الوراء لإجازة مجلس
العموم في سنة ١٩٠٤ قانوناً يعد رخصة صاحب الحانة ملكاً خاصاً لا يمكن
للسلطات المرخصة نزعها منه دون تعويض (إلا في حالة إساءة استعمالها) .
فانضم إلى جانب المعارضة التي كانت تتجمع وتزداد ضد حكومة المحافظين
بسبب خطأ سياستها التعليمية - انضم إليها جميع المهتمين بمحاربة الخمر
في البلاد ، المستنكرين لسياستها ، الساخطين عليها .

إلا أن هذا كله لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب الغضب الذي أثاره استخدام
العمال الصينيين في مناجم جنوب إفريقية ، والتهديد بقلب النظام البحري
القائم على حرية التجارة . فإن نقابات العمال الإنجليزية التي كانت قد شيدت
لنفسها صرحاً شامخاً واسع السلطان ، لا يعدله أى نظام عمالي شبيه به في
قارة أوروبا ، رأت في اقتراح استيراد العمال الصينيين إلى جنوب إفريقية خطراً
يهدد مستوى المعيشة في إنجلترا ذاتها ، وهو المستوى الذي كانت أجيال ثلاثة
قد كدّت ودأبت على بنائه . فقد أخذ رجالها يتساءلون : إذا كان في الإمكان
استيراد فرقة من العمال الصينيين إلى جوهانسبرج ، أفلا يصبح في وسع أصحاب
رعوس الأموال أن يملأوا بنفس السهولة مصانع لنكاشير ويوركشير بعمال أجانب
سهلي الانقياد قليلي الأجور ؟ وإذا حدث هذا ، فماذا يكون موقف العمال
البريطانيين تجاه هذا الخطر ؟

إن أولى نتائج هذا الخطب ستكون تحطيم حركة نقابات العمال البريطانيين
بأكملها . ما في ذلك من شك . وسيكون من نتائجه أيضاً تخفيض الأجور ،
وتدهور مستوى المعيشة ، وتوسيع الثلمة القائمة بين صاحب العمل والعامل
اتساعاً هائل المدى . ومع أن خطر استيراد عمال من الأقطار الشرقية إلى إنجلترا

مسألة
استخدام العمال
الصينيين

كان بعيداً جداً، ويبلغ في شأنه نتيجة للنضال الحزبي، إلا أنه ليس ثمرة ريب في أن « الاسترقاق الصيني » كان عنصراً هاماً في خلق السخط العظيم الذي شاع في البلاد يومئذ، والذي جعلها تعيد حزب الأحرار إلى تقلد زمام الحكم على أثر انتخابات سنة ١٩٠٦ .

ثم كانت هناك مشكلة أخرى أكبر وأخطر : تلك التي أثارها جوزف تشمبرلين في حملته التي قام بها لإصلاح التعريف الجمركية . ففي خلال زيارة قام بها وزير المستعمرات في جنوب إفريقية سنة ١٩٠٣ ، رسم سياسة محكمة ظن أنها قد تقضي أذهان مواطنيه عن خلافاتهم التافهة الدائرة حول مدارس الكنائس والحانات ومحال بيع الخمور ، وتجدد قوى حزب المحافظين المتناقصة . وسلطانه المتداعي . ذلك بأن يُقرن اسم هذا الحزب بالمسألة الرنانة الفخمة ، وهي العمل على ترسيخ دعائم الإمبراطورية وربط أجزائها بعضها ببعض . وتزامى له أن الأصوات التي كان المحافظون قد قفلوها نتيجة سياستهم في مسائل التعليم ومشكلاتي الأحمر والعمال الصينيين ، يمكن إعادتها إليهم بانتهاج سياسة جريئة تقوم على منح تفضيل حركي بين إنجلترا ومستعمراتها .

ورجع تشمبرلين إلى إنجلترا وقد وطن العزم على شن حرب شعواء على مبدأ حرية التجارة في بلاده . فاستغنى من منصبه الوزاري ، وشرع في حملة مستطيرة بالغة العنف في البلاد . ولكن وزارة بلفور تمسكت وتشدت بمبدأ الحرية . وأخذ رئيسها يوازن في خفة ومهارة بين فوائد التفضيل الإمبراطوري وأضراره ، حتى انتهى من المفاوضات السياسية التي كانت دائرة في ذلك الحين مع فرنسا . وحيث يشعر بأنه حر في مواجهة الناحيين برأيه ، والجمهور أمامهم بتحليله مبدأ الحماية ، ودعوتهم إلى مناصرة مبدأ تفضيل المستعمرات في شئون الواردات والصادرات .

أما نظام حرية التجارة فقد ساد إنجلترا مدة ستين عاماً ، خربت البلاد في غضونهما ازدياداً مدهشاً في رخائها القوي . فلي حين تقلعت الصناعات ، وجمعت ثروات طائلة ، فإن طعام عامة الشعب ازداد تنوعاً وأصنافاً ، ووفرت

كمياته ، ورخص ثمنه برخص أثمان الحبوب والفواكه التي أخذت تستورد من جميع أصقاع العالم . فظُنَّ أن ازدهار مصنوعات لنكاشير القطنية التي كانت تعتمد في رخائها على الأسواق الشرقية يهدّد بفرض أى مكوس ، مهما تكن زهيدة ، من شأنها أن تميل إلى رفع كلفة الإنتاج . فقد كانت تتقلص صادرات المنسوجات البريطانية بدرجة ملموسة عند حدوث أقل ارتفاع في أثمانها . أضف إلى ذلك أن صناعة السفن والنقل البحري ، والعمليات المصرفية ، واستخراج الفحم ، كانت صناعات أساسية راسخة القدم في إنجلترا . وقد غنمت وانتعشت من وراء اتباع نظام حرية التجارة . فكان فرض مكوس بحركية يلحق بها الأذى . وعُدَّ أمراً بديهيّاً أن يكون ثمن الحديد والصلب أرخص ما يمكن في بلاد أصبحت فيها استخدامات الصلب عديدة للغاية ، وتطبيقات الآلات الميكانيكية عميمة جداً . وكان يُعتقد أن لندن كمرکز العالم المالي ، وأن ضخامة الأسطول التجاري ، ونشاط مصانع الغزل والنسيج ، تقوم جميعاً على حرية التجارة .

ومع أن أقطاراً أخرى لم تحذُ حلو إنجلترا في انتهاج سياسة حرية التجارة ، ومع أن قطرين على الأخص منها : وهما الولايات المتحدة وألمانيا ، أسرت حالهما ، وزاد رخاؤهما تحت حماية التجارة ، إلا أن البضائع الإنجليزية مع ذلك ظلت تنقل إلى جميع أرجاء العالم . وظل المبدأ القديم القائل بأنه في الميسور غزو إنجلترا للأسواق الأجنبية برخص أسعار صادراتها — ظل مبدأ محترماً فيها ، برغم الرسوم العالية المفروضة على بضائعها في البلاد الأجنبية .

فبدت التضحية بكل هذه المزايا والمنافع التي لا ريب فيها كأنها مقامرة مجازفة ، وأن بريطانيا لا تستطيع الاعتماد على مقدرتها على شراء الأطعمة الضرورية لتغذية سكانها ، إلا بنفاق تجارة صادراتها القائمة على رخص منتجاتها . ولا شرع تشمبرلين في حملته ، كانت ذكرى « سني الأربعين العجاف » من القرن الماضي ، ما زالت حية ماثلة في أذهان الأمة . كما أنه لم يكن هناك موضع أشدّ مطعناً في نقد سياسة تشمبرلين الجمركية من الضرورة التي كانت

هذه السياسة تنطوي عليها - وهي ضرورة فرض رسم جمركي على واردات الطعام إلى إنجلترا، إذا كان يُبتغى حقاً منح المستعمرات المستقلة والمستعمرات الأخرى تفضيلاً ذا قيمة في المعاملة .

ولكن في الكفة المقابلة لهذه الأضرار والخاوف ، كشف تشمبرلين للعيون عن مشهد إمبراطورية عظيمة مرتبطة الأجزاء بروابط قوية من سياسة التفضيل الجمركي . فناشد بريطانيا بأن تضع مكوساً حامية على الواردات - وتدخل فيها المواد الغذائية والحيوانات ، (أولاً) لكي يتسنى لها أن تعطي الممتلكات المستقلة والمستعمرات تفضيلاً على الممالك الأجنبية ؛ (وثانياً) لكي تكون هذه المستعمرات بمثابة درع تقي المصنوعات البريطانية من المزاومة الأجنبية . وأخذ تشمبرلين في هندامه الأنيق ، تزيينه زهرة في عروة ملابسه ، ومونوكل على عينه اليمنى - أخذ يطوف في البلاد طويلاً وعرضاً بصفته رسول الإصلاح الجمركي ، شارحاً هذه الآراء بهمة قصاء منقطعة النظير ، يناشد الأمة مرة بمواطفها الإمبراطورية ، ويشير أخرى إلى صرامة المزاومة الأجنبية المتزايدة ، خاصاً بإشارته تقدم الصناعة الألمانية .

واقفى أثره أسكوت الخطيب الموقر للأحرار (اللذين كانوا يوليون مبدأ حرية التجارة) مطوّقاً أيضاً وفنداً . وامتد النقاش واتسع الجدل . فأثارا في كل بيت مشكلات غاية في الخطورة والتغلغل .

وكانت النتيجة السياسية الأولى لهذا الجدل أن انشق حزب المحافظين على نفسه ، وكان قد أوتيه من قبل انفصال اللوق ديشير وروشن عنه . وكانت النتيجة الثانية لهذا الجدل أنه أعان الأحرار على إحراز نصرهم العظيم سنة ١٩٠٦ . فبامت إلى برمة قضية الإصلاح الجمركي بالخللان . وكسب الرخاء - لا التشدد بالانقضاء - الفوز في هذه المعركة .

٣ - حكومة الأحرار

فوز حزب
الأحرار وأعدائه

حكم حزب الأحرار البلاد عشر سنوات على أثر نجاحه المظفر في الانتخابات

ووقف ينادى بالسلام وحرية التجارة ، ويسمى إليهما . وكان يعد التجارة نظاماً
وُضع للمبادلات بين أصدقاء لمنفعتهم المتبادلة ، لا نصلاً بين متنافسين .
وكان يصبو إلى تخفيض النفقات على التسليح ، وترقية الخدمات الاجتماعية .
واهتم بمداواة شكايات البروتستانت المنشقين وأشباهاها التي جاشت بها
صلورهم بصدد مدارس الكنيسة ، وتحديد تجارة الخمر . ورفض سياسة
التفضيل الإمبراطوري للواردات من المستعمرات .

وتجلى الضرب الذى آثره هذا الحزب من ضروب الاستعمار حينما أعطى
كامبل بارنمان رئيس الوزراء الحديد حكومة مسئولة للترنسفال وولاية أورانج
الحررة سنة ١٩٠٨ . وفى الحق ليس ثمة لإجراءات عديدة فى التاريخ الحديث
أكثر جرأة من تقرير إعادة زمام حكومة إفريقية الجنوبية إلى يد أبنائها بعد
نضال مرير . وقد أبانت الحوادث بعد ثمانى سنين من هذه المنحة أن ثقة
كامبل بارنمان لم توضع فى غير موضعها ، وذلك عندما قاد الجنرال بوثا
البويرى مواطنيه فى الحرب العظمى إلى جانب بريطانيا ، بعد أن قمع بإقدام
عصياناً حرّضت عليه زمرة قليلة من زملائه القداماء فى حرب البوير .

منح جنوب
إفريقية
الحكم الذاتي

ولأنه لمن مأساخر الأقدار أن هذه الحكومة الهبة للسلام ، الساعية لإقرار
نصابه ، كُتِب لها أن تلجأ أزمة أوربية بعد تأليفها بقليل . ذلك أن مركز
ألمانيا فى أوربا كان قد تقوى فى العامين السالفين بسلسلة من الحوادث عاونت
على الإضعاف من قيمة التحالف الروسى . وكانت أولى هذه الحوادث نشوب
حرب بين روسيا واليابان فى فبراير سنة ١٩٠٤ ، وثانيها إحراز اليابانيين سلسلة
من الانتصارات المثيرة للدهشة فى تلك الحرب ، وثالثها حدوث رجة عنيفة
ثورية فى روسيا قفت على التوانهار الجيش الروسى فى ساحة الوغى .

نمو قوة ألمانيا

ففى عام ١٩٠٥ ، أى فى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه المتاعب
والاضطرابات ، لاحظت للكونت شليفن Schlieffen رئيس هيئة أركان
الحرب الألمانية ، أن الفرصة مؤانية لأن يقترح على حكومته إقحام حرب على
فرنسا . ولم تبدُ هذه الفكرة الخالية من روح الإنسانية مجرمة أئيمة ، أو على

حادث مراكش

الأقل فكرة تأباها النفوس الشريفة ، في نظر الرجلين الأثيمين اللذين أصبحا الآن يوجهان دفة السياسة الخارجية الألمانية . فقد اتفق الكونت بيلوف Bulow مستشار الإمبراطورية المداهن السهل الانقياد ، والبارون هلشتين Holstein : هذه القوة الغامضة الشريرة وراء العرش الألماني - اتفق هذان الرجلان في الرأي بأن الوقت قد حان لاختبار متانة الاتفاق الإنجليزي الفرنسي بشن هجوم دبلوماسي قوى ، حتى ولو جازفا باشتباك بلادهما في حرب . واختبرت مراكش نقطة للهجوم . فإن إنجلترا بإطلاقها يد فرنسا في مراكش اشترت عديم تعرض الفرنسيين لمركزها في مصر . فعجز الساسة الألمان بحق ، أنه ما لم يكن الإنجليز على استعداد لأن يؤيدوا الفرنسيين في مراكش ، حتى ولو كلفهم هذا التأييد امتشاق الحسام ، فإن الصداقة الإنجليزية ستفقد نهائياً قيمتها في أعين فرنسا .

وعلى ذلك بدأت ألمانيا حملة عنيفة ، فأوفد الإمبراطور في بعثة إلى طنجة ، ليؤكد لسلطان مراكش نياته الخالصة نحوه ، ورغبته في شد أزره . وتطورت الحوادث . فأكثره الفرنسيون على أن يقبلوا - تحت تهديد إعلان الحرب - استقالة دلكاسيه وزير خارجيتهم ، ودعوة مؤتمر دولي إلى فرضة الجزيرة بمراكش .

غير أن الألمان لم يستغيثوا إلا قليلاً من إلحاق الهوان بهموم بهذه الدبلوماسية القظة الصلابة . فإن السير إدوارد غراي Sir Edward Grey وزير الخارجية البريطانية الحديد الحر المذهب حكم في سداد رأى بأن شرف بلاده قد أصبح معلقاً على منحه الفرنسيين كيلاً مهزوزاً ملبداً من التأييد الدبلوماسي في مؤتمر الجزيرة^(١) . وإذا ثارت في نفسه الموجس بأخطار قيام ألمانيا بهجوم على فرنسا ، رخص بإجراء محادثات حرية سرية بين هيثي أركان حرب فرنسا وإنجلترا . فكانت النتيجة العاجلة الأولى لهذا الضغط الألماني على فرنسا هي إحكام أواصر الاتفاق الفرنسي الإنجليزي أكثر من إضعافها .

(١) عقد في يناير ، وانتهى في إبريل سنة ١٩٠٦ .

ومع أنه لم يعلن شيء في ذلك الحين للجمهور - بل إنه حتى معظم أعضاء الوزارة البريطانية ساهموا في هذا الجهل - فإن خطوة حاسمة اتخذت، حينما رُخص في يناير سنة ١٩٠٦ لرياسي أركان الحرب الفرنسية والبريطانية أن ترسم خططاً ، باعتبار احتمال قيام حرب بين ألمانيا وفرنسا . ومع أنه أوضح وقتئذ بتدبير وعناية أن محادثات كهذه لن تربط بشيء الحكومة الإنجليزية التي يجب عليها أن تسترشد في نهاية الأمر برأي البرلمان والأمة وعواطفهما الأدبية ، إلا أنه خلق في أذهان رجال الحرب في فرنسا وإنجلترا أنه يتعين عليهم أن يكون بعضهم لبعض ظهيراً . فتبدلت المشاورات المستترة وبحسب الحطط السرية . فكان بدء هذه المحادثات الحربية دليلاً على أن الاتفاق الإنجليزي الفرنسي لم يقصد منه أن يكون مجرد تسوية لمنازعات استعمارية ، بل إنه كان تهاهماً قد يقود إنجلترا إلى الاشتراك في حرب أوربية ، حينما ينشأ سبب وافٍ لنشوبها ، بشرط أن يوافق البرلمان على خوض غمارها .

وفي الوقت عينه كانت وزارة البحرية الإنجليزية تراقب بعين قلقة نمو الأسطول الألماني . وما هو حرجي بالذكر أن الأسطول في إنجلترا لم يكن مثار نزاع بين أحزابها . فقد كان الكل يدركون أن حماية واردات غذاء الأمة في زمان الحرب يتوقف على امتلاكها ناصية البحار ، وأن تماسك أجزاء الإمبراطورية البريطانية ذاتها يستند في نهاية الأمر إلى مقدرة الأسطول البريطاني على تطهير البحار من أعدائه .

المهارة لبحرية
بين إنجلترا
وألمانيا

وكان هناك مبدأ عام تسترشد به البحرية الإنجليزية كجزء من السياسة القومية . وهو أن ترمى إلى جعل قوة الأسطول الإنجليزي مماثلة تقريباً لجميع قوات أقوى دولتين بحريتين في العالم تليان بريطانيا ، كي يتسنى له أن يكون ذا أثر فعال . ولكن نهوض البحرية الألمانية غير الموقف على الفور . ولم يكن رجال البحرية الإنجليزية يميلون إلى التحليل من قيمة المزايا البحرية لسفن الحرب الألمانية ، أو براعة المدفعية الألمانية ، أو جرأة البحارة الألمان ومناقبهم البحرية . ونظراً لأن رجال البحرية الإنجليزية كانوا يقدرون تقديراً جيلاً حلق

رجال البحر الألمان ، فإنهم نهوا بتوكيد شديد إلى الخطر الناجم من سياسة ألمانيا البحرية . وما كان رجال البحر الإنجليز يرونه ، كانت حكومتهم وبلادهم تريانه أيضاً . فأنهى الرأى إلى أنه مهما عظم البذل ، فإنه يجب على إنجلترا أن تتفوق تفوقاً جلياً على ألمانيا في بناء السفن الحربية .

ولذا اتخذت في سنة ١٩٠٦ خطوتان دللتا على أن وزارة الأحرار الجديدة مدركة للخطر الداهم ، وكانت الخطوة الأولى بناء بوارج حرية كبيرة ، والثانية تركيز الأسطول المدافع عن إنجلترا في بحر الشمال . فأجاب الألمان عن ذلك بإقرار قانون بحرى جديد . وأضحى السباق الآن في التسليح البحرى سافراً غير محتجب . ولم تغفل الأيرالية البريطانية عن بناء السفن المدرعة الثقيلة ، لا بقصد استخدامها في جهات نائية ، بل لمنافسة غريم قوى في بحر الشمال . ويقع نصيب ليس بالضئيل من تبعة هذه المباراة المفجعة المشؤومة على الرأى الخاطئ الذى سيطر على عقل الإمبراطور ولهم الثانى وتريتر وزير بحريته ، وهو أنه ستمر فترة يكون فيها الأسطول الألمانى ضعيفاً نسبياً ، الأمر الذى قد يستهوى الإنجليز إلى تحطيمه . ولكن حينما تجتاز ألمانيا « نقطة الخطر » ، فإن كل شيء سيسير سيراً حثيثاً . ولقد ترتب على هذا التفكير أن ألمانيا رأت أنه كلما زاد عدد السفن الحربية التى تبنيها ، عجلت في اجتياز نقطة الخطر هذه ، وازدادت وثوقاً من احترام منافستها البحرية لها وامتنالها لرغائبها . وما كان في الإمكان زحزحة الإمبراطور قيد أعملة عن هذه القاعدة من قواعد علم النفس والمنطق .

ولذا قوبل كل اقتراح أت من جانب بريطانيا ، بحجب الوصول إلى تحديد لقوات الدولتين البحرية يتفق عليه الطرفان ، بحيث يترك لإنجلترا امتلاك عدد أكبر من السفن مما تملكه ألمانيا — قبول كل اقتراح كهذا باستثناء في برلين ، وعد إهانة لها . فحينما أقدم السير تشارلس هاردينج Sir Charles Hardinge الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية (١٩٠٦ - ١٩١٠) على فتح الحديث في هذا الموضوع مع إمبراطور ألمانيا في مقابلة لما جرت

في كرنبرج Cronborg في ١١ أغسطس سنة ١٩٠٨ ، أخبره الإمبراطور
بصرامة وتصميم أنه يؤثر الحرب على الموافقة على هذا الاقتراح .

حبوط مؤتمري
لهاي

وكان جو أوروبا خلال هذه الأعوام مثقلا بالريب والشبهات ومخاوف
الحرب . وقد دعا قيصر روسيا مؤتمرين دوليين ، عقد الأول منهما سنة
١٨٩٩ ، وعقد الثاني سنة ١٩٠٧ ، والتأم جمعهما في هاي ، وأخذنا يبحثان
في الوسائل التي تعمل على استقرار السلام ، وتعين على تخفيض التسلح .
ولكن المؤتمرين بدلا من أن يحسنا الموقف زاده ضعفاً على إباله . فقد لاحظ
- في ارتياب - الألمان الذين عارضوا أى إنقاص للتسلح الحربى أو البحرى ،
أنه على حين اقترح قيصر الروس تحديد أنواع العتاد التي كانت روسيا
تضمن على الدوام تفوقها الساحق فيها ، فإنه عارض في وضع أى قيود أو
تحديدات لزيادة السكك الحديدية الروسية ، التي كانت ناقصة في ذلك
الحين نقصاً فاحشاً . كما وقفت بريطانيا موقفاً مبهماً يدعو إلى الالتباس
والتشكك . فهي من الجهة الواحدة طالبت في إصرار بإنقاص التسلح
الحربى ، ومن الجهة الأخرى عارضت الاقتراح الذى اجتمعت عليه كلمة
ألمانيا وأمريكا ، الخاص بمنع السفن التجارية المحايدة حصانة من تفتيشها
في عرض البحر أثناء الحرب . ولها السبب حقّ لألمانيا أن تقول إنه على
حين اهتم الإنجليز أشد اهتمام بترع السلاح من قارة أوروبا ، فإن هذه
الدولة التي تملك أقوى أساطيل العالم ما فتئت تقترح استعمال حقوقها
المحاربة على حساب التجارة المحايدة في أزمنة الحروب . ولها لم تشر هذه
المناقشات الطيبة المقصد ثمرة صالحة تؤتى أكلا .

الاتفاق
الإنجليزى
الروسي

وفي الوقت عينه (سنة ١٩٠٧) أكمل تأليف حلف كانت برلين
تظنه في حكم المستحيل ، وصار هذا التحالف حقيقة ماثلة . ذلك أن
روسيا وإنجلترا ، الإمبراطوريتين الشرقيتين المتنافستين ، سوتا خلافاًهما
الخاصة بمناطق نفوذهما ومصلحتهما في الشرق الأوسط . فتلا الاتفاق الفرنسي
الإنجليزى على المسائل الاستعمارية ، اتفاق إنجليزى روسى على المسائل

الآسيوية . وفي الحق لم يكن ثمة شيء أعظم حكمة من أن تجنّب الدولتان في إزالة أسباب الاحتكاك والتزاع بينهما . ومع أن هذا الاتفاق كان موضع نقد البعض بصفته اتفاقاً جائراً على إيران ، إلا أنه أطرى بوجه عام في إنجلترا بصفته خطوة هامة أخرى نحو تنظيم العالم بطرق سلمية .

غير أن برلين كانت تهجم بأفكار مغايرة جد المغايرة للأفكار السالفة لزاء هذه الاتفاقية . فقد عدت التفاهم الانجليزى الروسى قرينة جديدة أخرى تم عن المشروع المكياغلى الذى عزت تدبيره إلى الملك إدوارد السابع والسير إدوارد غراى ، والذي كان فى نظرها ينطوى على العمل على تطويق ألمانيا بحلقة من الأعداء .

٤ - الانقلاب السياسى عام ١٩٠٨

لم تكن ألمانيا لترضى بأن تقف مكتوفة اليدين لزاء سياسة تطويقها هذه . بل وطلت العزم بنوع خاص على أن تبقى لنفسها طريق البلقان مفتوحاً إلى الشرق الأدنى وخليج فارس . ولما كانت النمسا صديقتها وحليفها تملك أبواب ذلك الطريق ، فقد كان مبدأ أساسياً من مبادئ السياسة الألمانية ألا يُسمع لأى شيء بأن يوهن الاتحاد الوثيق القائم بين فيينا وبرلين . وظفر هذا الحلف بين الألمان والنمساويين بدليل فذ دَسَمَ عن متانة تماسكه . فإن خريطة البلقان السياسية كانت قد رُتبت بصعوبة شديدة بواسطة مؤتمر عقد فى برلين سنة ١٨٧٨ من الدول الأوروبية الكبرى . فحدد هذا المؤتمر رقعة بلغاريا وأعاد مقدونية إلى تركيا ، ودعا النمسا إلى إدارة ولايتى البوسنة والمهرسك اللتين كان سكانهما صربيين أصلاً ولساناً ، مع بقائهما تحت السيادة التركية .

صحیح أن معاهدة برلين لم تكن أنموذجاً أعلى للمعاهدات . فقد أثبتت النمسا تفهم اللجنة والمهرسك مقدونية ببقائها تحت حكم الترك أنها مركز مزمن للاضطراب والشدة

والقمع . ولكن هذه المعاهدة حازت على الأقل مزية كونها تسوية وافقت عليها الدول الكبرى جمعاء . ولم يكن يستطيع تعديلها تعديلاً مأموناً صالحاً من غير موافقة تلك الدول . ولذا كان التجهيم والامتناع عن عظيمين في أوروبا ، حينما عرف أن النمسا بدون علم حليفها : ألمانيا ، ضمت البوسنة والمهرسك (في أكتوبر سنة ١٩٠٨) ، وأن بلغاريا بتشجيع النمسا ، أعلنت نفسها مملكة مستقلة عن الباب العالي . ولا ريب أنه كانت هناك حجج عديدة لتبرير هذه التعديلات فقد تحملت النمسا عبء إدارة هاتين الولايتين السلافيتين . وكان عملها فيهما خيراً مشمراً . كما أن بلغاريا كانت تشيع فيها روح قوية من الكرامة القومية والطموح إلى الاستقلال .

ومع أن الغايات كانت حسنة ، إلا أن الطريقة التي انتهجت لتحقيقها كانت تحدياً لقانون أوروبا العام ، وتهديداً جليلاً لأركان السلام . إذ كيف يمكن أن يُرجى من الصربيين أن ينظروا في هدوء ورضاءة إلى ضم أهل البوسنة فجأة إلى الإمبراطورية النمساوية ، وهم يكونون شعباً يعتبرونه عظماً من عظمهم ولحماً من لحمهم . فإن هذا العمل أهب شعور السخط والحنق في جميع أرجاء صربيا ، في وقت كان الخطر فيه على السلام أشد منه في أي وقت مضى ، إذ وقفت وراء صربيا تسند ظهرها ، وتشد أزرها ، قوة الإمبراطورية الروسية الهائلة ، وذراعها العظيمة البطش .

وللمرة الثانية لاحت الحرب وشبكة الوقوع . فحث ملتكه وكثراد فون هوتزندورف Conrad von Hotzendorf رئيساً هيئتي أركان الحرب الألمانية والنمساوية على التوالى ، على أن الأوان قد آن لمنازلة روسيا وفرنسا . وكذلك احتدمت الأهواء ، واضطربت النفوس في سان بطرسبرج . فقد كان إسفلسكى Isvolsky وزير خارجية روسيا (١٩٠٦ - ١٩١٠) الذى كان الكونت إيرنتال Aerenthal وزير خارجية النمسا (١٩٠٦ - ١٩١٢) قد غرر به - كان إسفلسكى حانقاً أشد الحنق ، مندداً أشد التنديد بالسياسة النمساوية ذات الوجهين . كما استفحل شعور كل روسي

السلام في خطر

بأن توازن القوى في البلقان قد تحول تحولاً حاسماً ضد الدول السلافية بهذا العمل المتساوى العنيف المبالغ .

وفي هذه اللحظة ، التي ربما كانت مفعمة بالمهالك للإمبراطورية آل هابسبرج ، وقف الإمبراطور وليم جنباً إلى جنب مع فرنسيس جوزف يؤيده ويشد أزره . وأفهم قيصر روسيا (في ٢٣ مارس سنة ١٩٠٩) أنه إذا كان سيمتشق الحسام في هذا الشجار البلقاني ، فعليه أن يحسب حساب مقاومة الإمبراطورية الألمانية له . وكان التهديد كافياً ، ولكن بقي روح الإذلال دقيقاً في الصلور .

وفي العام التالي رفع الإمبراطور الألماني عقبرته في فيينا مزهواً بأنه في أزمة البوسنة وقف ه في كامل عدته وعدده ، إلى جانب صديقه وحليفه إمبراطور النمسا . غير أنه لم يكن من سداد الرأي أن يزعم الإمبراطور أمام العالم بأنه ما كان في المستطاع حفظ السلام إلا بهذا الوعيد . فقد وُجد في بطرسبرج من أقسموا ، أنه إذا قامت أزمة مماثلة في البلقان ، فلنهم لن يجعلوا روسيا تغطّي الرأس مرة أخرى أمام إرادة الإمبراطور الألماني . وإنه لمن أبلغ الدلائل على النورستينيا الدولية التي سادت تلك الأزمة ، أن رجلين من المرتبة الثانية : ليرنتال وزير خارجية النمسا النصف اليهودي ، وإسفلسكي ، وهو دبلوماسي روسي مختال فارغ الدمن يركب العناد رأسه - إنه لمن أبلغ الدلالات أن رجلين مثلهما كان في مقدورهما ، لا أن يجعلوا أوروبا على شفا حرب عامة فقط ، بل أن يلوثوا أيضاً العلاقات القائمة بين إمبراطوريتيهما بجانب كبير من حقدتهما الشخصي ، وأن يفتنا فيها قسماً كبيراً من كراهيتهما العنيفة المتبادلة .

ذلك أن هذين السياسيين الواسعي المطامع كانا قد اجتمعا قبلاً في منزل ريني بيوهيميا ، ونسجاً معاً خيوط مؤامرة تعطي النمسا البوسنة والهرسك ، وتفتح لروسيا منفذاً إلى البحر الأبيض المتوسط . وقد حبكت المؤامرة سراً . وبما أنها انطوت على نقض مزدوج لمعاهدة برلين ، فلنما كانت بعيدة

كل البعد عن الأصول المشروعة السليمة . أضف إلى ذلك أنه حتى إذا بقيت النمسا وروسيا محتفظتين باتفاقهما ، فإن خطة فتح المضيقين كانت تعتبر تحدياً لإنجلترا .

إلا أن إيرتال هنك سر المؤامرة . فلإن هذا المتآمر النمساوى أذاع نبأ ضم النمسا للولايتين قبل أن تتخذ روسيا أية خطوة لبلوغ مآربها . فحنق السياسى الروسى عليه أشد حنق . فقد أسفرت الأحبولة الماكرة التى كانت مستكسبه عرفان أمته الأبدى بإسداء هذه الخدمة الكبيرة لها — أسفرت عن الفشل . فلم تصل روسيا إلى بغيتها ، على حين غنمت النمسا ولايتيها . فعقد إسفلسكى النية — تلذعه كرامته المهانة وتذكى نار حقهه مطامعه المهدورة — على أن تدفع النمسا ثمناً غالياً لغفر إيرتال . ولهذا فإن من بين سماسة الحرب خلال هذه الفترة، يتسم هذا الدبلوماسية الروسى درجة رفيعة — درجة توشك أن تدنو ارتفاعاً من مرتبة كترادفون هتزنلدورف العنيف الهوى ، الشديد الغلو ، والداعية العنيد المراس ، المتأجج ناراً وحرقة إلى إضرام نار الحرب فى أوربا .

واقترح السر إدوارد غراى الذى كانت هذه الفعال غير المشروعة قد كثرته ، وهو قابع فى لندن بعيداً عن مركز تلك الحوادث — اقترح دعوة مؤتمر أوربى لتسوية هذه الخلافات . غير أن الوزارة الإنجليزية والبرلمان الإنجليزى لم يكونا قد انهييا بعد إلى رأى قاطع فيما يجب على إنجلترا أن تصنعه ، لو أن فرنسا جرّت قدمها إلى الحرب بسبب هذه الأزمة البلقانية .

کتاب ممکن استشارتها

J.A. Spender : Fifty Years of Europe. 1933.

J.A. Spender : Life of Sir Henry Campbell-Bannerman 1933.

Earl Buxton : General Botha. 1924.

G.B. Allen : Sir Robert Morant. 1934.

J.L. Garvin : Life of Joseph Chamberlain. 1932.

Von Bülow : Memoirs. 1931-2.

Grey of Fallodon : Twenty-Five Years. 1928.

الفصل الثامن والعشرون

صربيا والمملكة النمساوية الهنغارية

فرنسيس جوزف . الراديكالية في المملكة الثنائية . كرواتيا تحس ببناء القوي .
التهديد الصربي . حتى فيينا . الثورة التركية عام ١٩٠٨ . سمها الحقيقية .
الاستبداد التركي يوحده بين دول البلقان المسيحية . مؤتمر أغادير . طرابلس .
تكوين المصبة البلقانية سنة ١٩١٢ . انتصاراتها المسيحية . تجنب مؤتمر لندن
أوروبا حربا عامة . الحرب البلقانية الثانية . هزيمة بلغاريا . صربيا تقود دولة
البلقان الكبرى . محاول فيينا .

١ - النمسا والروح القومية السلافية

في خلال الحقبة الطويلة (١٨٤٨ - ١٩١٧) التي استوى فيها
فرنسيس جوزف على عرشه بثينا ، ظل يكدح ويدأب في مكتبه ، ويوقع
ويقرأ ، من الصباح الباكر إلى عتمة الليل : رجل مفجوع القلب مكلوم
الفتاد - هذا إذا كان في مقصوره أن يشعر بثقل الفجيعة . فقد اغتالت
زوجه بدو قاتل زعيم . وأزمت ابنه الوحيد روحه بيده . وألحق ابن أخيه -
ووريث عرشه - العار بأسرته بقران لم يغفروه له الإمبراطور ، وذلك بزواجه
من سيدة كلف بها ، تدنو مرتبتها الاجتماعية عن منزلة الإمارة .

ولكن سواء أكانت كل مقصرة لفرنسيس جوزف على الشعور والإحساس
قد نصب معينها ، وجف ماؤها في نفسه ، أم لشعور طاغ في دخيلته بعظمة
منصبه الرفيع ، أم لمجرد أن طبيعته كانت باردة جوفاء ، فإن هذا الرجل
العجوز واصل السير دون أن يهزه شيء - رجل متعبد زاهد آلى ، كان يشاد

فرنسيس
جوزف

مدحه بوصفه الفارس الأول في مملكته ، والسيد النبيل الأول في أوروبا .
وقد وقته حواجز جامدة صماء من المظاهر والتقاليد الإمبراطورية صخب
العالم الخارجى وضجيجيه . وحت طبة أرستقراطية حرية ذمار عرشته ،
وأمدته نظام بيروقراطى إمبراطورى بالوزراء : يسرون متعثرين ، يكدحون
ويجهدون أنفسهم فى تأدية أعمال الحكومة المرهقة المخرجة للصنور . فإذا
تألق اسم وزير منهم ، لا يلبث طويلا حتى يختفى .

ولقد منيت الإمبراطورية النمساوية فى غضون حكمه الطويل الأمد
بضربات ساحقة عديدة : فنيت بفقدان لمبارديا وولاية البندقية ، وسلب
الدوقيتين الدنماركيتين ، وإقصائها عن الريخ الألماني الأكبر . فبدت
هذه الإمبراطورية كأنها تحمل حياة مسحورة لا يقربها الفناء ، حتى حينما
كانت تسير فى خطى حثيثة نحو الانحلال والانذار .

وكانت المملكة الثنائية ، من بين جميع الدول الأوروبية ، أدها
إلى التخوف والقلق من تطور النزوات القومية والأهواء العنصرية الى
كانت تكنسح اكساحاً العالم قاطبة ، فنشاهد هذه الأهواء قوية فى اليابان ،
مهدة نائرة فى الهند ، معمرة القلوب بالحماس فى المستعمرات البريطانية
المستقلة ، وأخيراً نراها تحول مظاهر الحياة السياسية فى البلقان .

تطور النزعات
القومية فى
الإمبراطورية

كانت المملكة الثنائية — هذه الدولة الخليفة الأجناس — تقوم على
قمع العنصرية وإنكار وجودها فى بلادها إنكاراً تاماً . وواصلت الحياة ،
مفترضة بأن ثمانية ملايين ونصف مليون تشكى ، وخمسة ملايين بولندى ،
وأربعة ملايين روتينى ، وخمسة ملايين وسبعمئة ألف صربى وكرواتى ،
وثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف رومانى ، ومليوناً وثلاثمائة ألف سلوفينى ، يقنعون
بالخضوع لنظام حكومى يياشر فيه السلطان فى نصف من هذه المملكة
عشرة ملايين مجرى ، وفى النصف الآخر اثنا عشر مليون ألماني .

ولقد كان لهذا الافتراض ما يبرره خلال قرون عديدة . ذلك أن
الإمبراطورية النمساوية كانت متماسكة أجزاءها المختلفة بروابط مذهب دينى

مشترك ، وجيش مشترك ، وتاج مشترك ، حتى صار الناس يعدون وجودها ضرورة دولية . فإنه مهما بلغ تباين أجزائها ، وعظمت مشقة إدارتها ، فلأنها كانت دولة منظمة تخدم غرضاً جدياً نافعاً . ولو أنها أزيلت ، لكان محوها يحدث فراغاً بغيضاً .

ومع ذلك غدا بقاء هذه المملكة مهدداً من الداخل ، فقد كانت هناك احتكاكات مزعجة حتى بين الجنسين الحاكمين فيها : الألمان والمجر . فإن المجر كانوا يسعون إلى بتر كل شيء جوهرى لازم في الأواصر الموحدة بين النمسا وهنغاريا ، وذلك عند إعادة النظر كل عشرين سنة في تسوية سنة ١٨٦٧ ، حتى لم يبق من هذه التسوية غير اتحاد مجرد عاطل ممثل في شخص العاهل الذى يضع على مفرقه تاجيهما . وأسوأ من ذلك كانت العلاقات بين المجر والشعوب غير المجرية العديدة التى تقطن المملكة الهنغارية .

فالحقد ومرارة النفس للذان رأيتاهما يجيشان في صدور الفلاحين الإيرلنديين ضد أسيادهم الإنجليز ، كانا يجيشان بالمثل في صدور السلوفاكيين والروتينيين والرومانيين والصربيين تجاه الأرستقراطية المجرية الممتازة المتعجرفة التى سعت بوسائل الشدة والقمع إلى « تمجير » تلك الأجناس ، فارضة عليها فرضاً لغتها ومدارسها ، واضعة الأنظمة الانتخابية التى بواسطتها تتمكن من أن تتحدع هذه الشعوب الضعيفة ، وتحرمها من نصيبها الشرعى في التمثيل النيابي في « البيت الوطنى » .

وأخفق نمو الاهتمام بالمسائل الاجتماعية والديمقراطية ، ونهوض حركة العمال الدولية ، ومنح حق الانتخاب العام سنة ١٩٠٧ - أخفقت هذه الأمور جميعها في التلطيف من حدة الانقسامات بين الأجناس المختلفة في الإمبراطورية . وكانت العنصرية على الدوام أقوى الدوافع في إثارة الرأى العام ، فكانت أقوى من الشعور الدينى ، ومن الأواصر الطبقية الاجتماعية ، ومن روابط المهنة والتضافر الاقتصادى . وكان كل برلمان وطنى ومجلس لإقليمى يميل إلى أن يصير بؤرة من بؤر التراجع العنصرى . وقد عبر

الراديكالية في
المملكة التشادية

كاتب نساوى عن هذا الشعور بقوله : « لقد كان القميص العنصرى أقرب إلى القلب من البزة الإمبراطورية » .

ونجم من هذه المشاهدات الخطيرة اشتداد الخوف من أن تمزق الحركات حركة الانفصال الانفصالية شمل الإمبراطورية ، فقد كان سلافيو استريا Styria ، وإيطاليا التيرول الجنوبي يسعون إلى الانفصال ، وكذلك كان روتانيو غاليسيا الشرقية لا يألون جهداً في فصم الروابط التي توحد بينهم وبين البولنديين الساكنين في الجزء الغربى من هذه الولاية ، وكان فلاحو ترنسلفانيا (وهى إحدى مقاطعات هنغاريا) رومانين ، لا في الدم فحسب ، بل في العواطف السياسية أيضاً ، وفي كرواتيا التي كان أهلها يتميزون غيظاً لإكراههم على استخدام اللغة الهنغارية في الشؤون الرسمية ، كان حزب ينمو نمواً حثيثاً في العدد والنفوذ ، ويؤثر فصل هذه الولاية عن هنغاريا ، وضمها إلى اتحاد تعاهدى يتألف من صقلية الجنوب ، ويضم ولايات البوسنة والمهرسك ودلماشيا السيليتانية . بل يضم أيضاً مملكة الصرب - هذا الحلم الذى كان يحول في صدور بعض الأفراد الجسورين من الجنس السلافي .

ولم يكن من اليسير على سواس الإمبراطورية أن يغضوا أبصارهم عن قلقينا وحنتها مثل هذه الأمانى والحركات . وكانت حكومة فينا على حق في نظرها بقلق وارتباب إلى أمنية قيام دولة يوغسلافية ، أو ولاية سلافية جنوبية تتمتع بالحكم الذاتى . فإن داء القومية السلافية لم يكن من الأدواء التي تعالج بالقمع ، فلم يكن الكرواتيون مجرد شعب من الشعوب الخاضعة للنمسا خابت آماله ، ويمكن معالجة مشكلته بوسائل الرقابة والشدّة ، بل كان شعباً صريباً لغة وجنساً ، حتى وإن كان يعتقد المذهب الكاثوليكي . ومع أن الكرواتيين تفانوا في خدمة بيت هابسبرج ، حينما كانت صربيا ولاية مهينة الجناح من ولايات الإمبراطورية التركية ، إلا أنه بعد أن نالت صربيا استقلالها ، لم يكن في وسعهم أن يغلّفوا قلوبهم عن أن تستجيب لنداء القرابة . وحينما كانت بلغراد خاضعة للترك اتجهوا بولائهم نحو فينا .

ولكن حينما غدت صربيا مملكة حرة مستقلة قادرة على أن تدافع عن ذمارها ضد الترك والبلغاريين ، منادية بأنها صارت زعيمة الجنس السلافي في البلقان ، فإن ولاء الكرواتيين للإمبراطورية النمساوية أخذ يتنازع الانقسام والشكوك .

نداء القربي

فمن ناحية كانت تربطهم بالإمبراطورية تقاليد نبيلة طويلة الأمد من الخدمة في صفوف الجيش الإمبراطوري ، وسفكوا دماء غريزة في معامع عديدة خاضوا غمارها ، ونالوا الألقاب والرتب الإمبراطورية عن جدارة ، وبعد عناء ونصب . ولكن من ناحية أخرى كان هناك ذلك النداء القادم إليهم من شعب يسكن عبر تخومهم : شعب باسل مقدم تربطهم به صلات الرحم واللسان ، شعب وإن كان لا يزال في طور من التقدم أخط مما بلغوه هم ، إلا أنه ظفر بحد السيف باستقلاله السياسي .

وكانت تزيد من قوة هذا النداء عاطفة بغض وكراهية متبادلة . فقد كان المجر مقبطين في أعين الكرواتيين ، مقبهم في أعين الصربيين . وقد ظهرت أحاسيس الكراهية والبغضاء بين صربيا وهنغاريا في شكل حرب جرمية مشنومة نشبت بينهما . وكانت هذه الأحاسيس مهياة لأن تنقلب إعصاراً أهرج يعم آفاق السياسة الدولية .

ولهذا لم يكن عجباً أن تنظر الحكومة النمساوية إلى صربيا ، نظرتها إلى عدو . فقد كانت تشاهد على تخومها الجنوبية دولة صغيرة الرقعة قليلة السكان حقاً ، ولكنها دولة مسلحة مقدامة مغامرة تنزع إلى الحرب والطعان ، وذات قرابات عنصرية متغلغلة في النمسا وهنغاريا . وأبصرت فيها مركزاً قائماً للدعاية السلافية ، وإسفيناً يمكن أن يبدأ منه الهجوم السلافي ، فلم يكن افتراضاً متطرفاً ، أو افتراضاً غير قائم على سند معقول ، تصورُها بأن حركة تمتد من الصربيين إلى ذوي قرباهم الساكنين في الإمبراطورية قد تؤدي في النهاية إلى استيلائها الولايات السلافية الجنوبية اسمالة تامة إلى صفها ، وأنه لا يبعد أن يصبح هذا الأمر رذود فعل يتعذر قياس مداها

بين الشعوب الأخرى المستاءة السريعة الإثارة التى تقطن فى وسط الإمبراطورية وشمالها .

جمعية اليد
السوداء

ومكنت جريمة مروعة هذه الظنون والعداوات فى نفوس الساسة المتساويين . فقد كان فى الجيش الصربى جمعية سرية تعرف بجمعية اليد السوداء ، وهى جمعية ثورية وطنية تولد فى نفوس أعضائها كراهية طاغية متأججة لأسرة أبرينوفتش Obrenovitch المالكة ، ليس فقط نتيجة لتلك الحزازات الدموية القديمة بين هذا البيت وآل كاراجيوجيفتش Karageorgevitch — تلك الحزازات التى مزقت صربيا مدة أجيال ثلاثة ، بل كانت أيضاً ناتجة عن أن الملك الذى كان يجلس على عرش صربيا كان يوصم فى نظر الصربيين بميله المحافظة وسياسته المتحيزة للنمسا .

ولم يكن ضباط اليد السوداء يقفون عند حد ، أو يزرعهم وازع . فاقتمحوا القصر الملكى (سنة ١٩٠٣) ، وذبحوا الملك والملكة ، وأمروا البرلمان بدعوة بطرئ كاراجيوجيفتش من منفاه ليرتقى العرش الشاغر . وكان كاراجيوجيفتش هذا كهلا معتدل الآراء ، سهل الطباع . ولم يكن يعزى النمسا إلا قليلا بأن ملك صربيا الحديد رجل لطيف المعشر ، وأنه ترجم فى منفاه كتاب جون ستيوارت مل « فى الحرية » . فقد أيقنت أنه هو وملكوته صاروا فى قبضة « جمعية اليد السوداء » السفاحة ، وأن هذه الجمعية التى كانت تنشر فكرة اتحاد جميع السلافيين الجنوبيين تحت حكم التاج الصربى لن تقبض يدها عن ارتكاب أية جريمة لتحقيق مآربها .

وما رجال السياسة إلا يشركسائر الناس . وهناك نقطة تنهار عندها الأعصاب بتراكم المخاوف وتجمع أسباب القلق . ولقد كان ساسة فينا يسرون باطراد نحو هذه النقطة فى السنين الأولى من القرن العشرين . فلم يصرأى أمر من الأمور طبق مرامهم . وفى أى جانب اتجهوا ، وجدوا صعباً وعراقيل تعذر عليهم التغلب عليها ، مهما بذلوا من مجهود ، وألغوا منازعات تعذر عليهم التغلب عليها بأية وسيلة ، وأخطاراً تعذر على العين أن تدرك مداها .

وأضحى الجو مشبعاً بالمضايقات والسخط ونفاد الصبر . فصارت أذهانهم لا تفكر إلا في تأديب الصربيين ، وتعليم هذا الشعب الحديث النعمة المؤلف من القنلة والسفاحين والمتآمرين الأوغاد ، درساً قاسياً ، ووضع كل صربي حقير تمس في موضعه الصحيح . وحض رجال الحرب النمساويون ساستهم ، المرة تلو المرة ، على وجوب القيام بحرب وقائية . ومن المرجح أنه لولا تشييط الألمان لعزائم هؤلاء الساسة ، لكانوا قد اتبعوا مشورة رجالهم العسكريين .

٢ - الثورة التركية عام ١٩٠٨

وفي ربيع العام (١٩٠٨) الذي أحدث فيه إرنتال انقلابه الناجح ، ولو أنه الانقلاب المشؤم الطالع ، اشتعلت ثورة عجيبة بين الأتراك . فإن هذه الأمة الآسيوية البلوية لم تبق جامدة غير متأثرة على الإطلاق باختلاطها الطويل بثقافة الغرب . فقد تضافرت الإرساليات الأمريكية ، والروايات الفرنسية ، وجامعتا باريس وبرلين ، على إعطاء العناصر الميسورة الحال من الأمة التركية وجهة نظر جديدة في شئون العالم .

أثر المدنية
الغربية

فبدأ تهيج لإذكاء القومية الوطنية في نفوس الأتراك ، وغدا هذا التهيج محسوساً في ذلك المجتمع الفاسد المتدهور الذي ظل زمناً طويلاً في سبات تحت حكم عبد الحميد الثاني الجامح النزوات المثبط للهمم والعزائم . ثم اتخذ الحماس الوطني بالتدريج شكلاً عملياً ، فتكونت سرّاً جمعية دعت نفسها « لجنة الاتحاد والترقي » بقصد القضاء على خضوع العثمانيين الشائن للدول الغربية ، وبناء دولة عثمانية عصرية منظمة قوية ، واتخذت هذه الجمعية جنيف مركزاً لها (سنة ١٨٩١) ، ثم لجأت إلى باريس ، وأخيراً استقر بها المقام في سالونيك (سنة ١٩٠٨) .

وكان كثير من أعضائها محامين وأطباء ، وبعضهم يهوداً ، والبعض الآخر ضباطاً ، وكان نشر الثقافة العامة الشعار الذي اتخذته هذه الهيئة التي لم تكن تمثل أتراك الأناضول الخفاة ، بل الطبقة التركية المتعلمة التي

كانت قد تكونت في الثغور الكبرى ، نتيجة انتشار الثقافة الغربية فيها . وكان من بين أعضاء الجمعية أنور بك ، وهو ضابط شاب تلقى الفنون العسكرية في برلين ، وطلعت بك ، وقد جاء من سالونيك ، وبدأ حياته كاتباً في مكتب تلغراف ، وجاويد بك وهو مالى يهودى . ولما تمكنت الجمعية من ضم الجيش الثالث المعسكر في مقدونية لنصرة قضيتها ، حسرت النقاب عن وجهها ، وأعلنت ضرورة تنفيذ الدستور التركي الذى صدر سنة ١٨٧٦ ، واستعدت للزحف على العاصمة .

ولقد حل بأوروبا الدهشة حينما وصل إليها خبر ما لاقته ثورة الشبان الترك هذه من نجاح سريع . وفرغ السلطان ، وبادر إلى إعلان عطفه الكاذب على الثورة وقبوله الدستور ، ودعا برلماناً إلى الانعقاد ، وشرح جواسيه ، وأعلن مبادئ الحرية والمساواة ، ولكنه ما عثم بعد قليل أن نقض عهوده . فأنهى الأمر إلى خلعهم في ٢٧ إبريل سنة ١٩٠٩ . وقبضت جماعة تركيا الفتاة على أزمة الدولة . وبذلك ختم حكم عبد الحميد الثانى الطويل الذى قام على التجسس والاستبداد . وارتقى السلطان محمد الخامس أريكة العرش ، وأوحى إليه بأن سلامة تركيا وسعادتها تتوقفان على « تطبيق النظام الدستورى تطبيقاً مطرداً جدياً » .

وخيل للمراقبين الأجانب ، مدى أسابيع قليلة عقب الثورة ، أن جميع الأفكار الشائعة بين الأوروبيين عن الأتراك يجب أن تعدل . فقد بدت أمامهم حكومة إسلامية هيات نفسها لنقض كل مبدأ ، واستنكار كل قاعدة ، حكمت تركيا بمقتضاها في الماضى : حكومة مؤلفة من أحرار وديمقراطيين وبرلمانيين ومحسنين ، ومن ساسة عاهدوا أنفسهم على أن يضموا سكان البلقان المسيحيين على قدم المساواة مع العثمانيين المسلمين في الامتيازات والحقوق والسلطة ، وأن يقدموا للدولة التركية جميع المنافع والمزايا التى تستطيع الحضارة الحديثة أن تمنحها للشعوب . ولُهِج في إنجلترا بذكر رجال تركيا الفتاة كشالين تواقين إلى التربي في مدرسة الحرية ، وإلى إقامة برلمان تركى

على النمط الإنجليزى على ضفاف البوسفور .

ولكن هذه الأفكار كانت كلها خطأ فاحشاً ، فإن جماعة تركيا الفتاة كانوا بعيدين كل البعد عن أن يكونوا أحراراً . وكانت القوة الدافعة لحكومتهم هى التعصب القوي المتطرف . ولم يكن ثمة شيء أبعد إلى أفكارهم أو إلى فعالم وطرقهم من محاولتهم مصالحة الشعوب المسيحية الخاضعة لهم . فقد أبدلوا طرق الاغتصاب والنهب والمصادرة والمذابح العديدة التى سادت فى عهد عبد الحميد ، باستبداد مركزى منظم . وزادت الاضطرابات ، وتضاعفت الإساءات ، وسارت ولاية مقلونية بسكانها المختلطين من بلغار ويونان وصرب ، من سيئ إلى أسوأ ، وأثارت الضرائب الجديدة سخط الألبان ، ومُنعت اتحاد جزيرة كريت باليونان .

السنة

الحقيقية لثورة

ولكن فى أقل من عامين ، حققت حكومة هؤلاء الوطنيين الأتراك الصرامة معجزة لم يكن فى مقدور الساسة أن يتكهنوا بإمكان حلوثها . ذلك أن الطغيان الإسلامى الضخم الشديد البأس ، الذى كان يوحى به ، ويمسك بزمامه ، هؤلاء الرجال الذين صمموا على المقاومة بكل شيء فى محاولة يائسة لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية فى عالم قلب لها ظهر المحن — أمكن لهذا الطغيان أن يصنع هذه المعجزة ، وهى أن يبرئ فجأة البلقان من عداواته ، ويوحد أهله المسيحيين سنة ١٩١٢ فى عصبة حرية واحدة ضد الأتراك .

الاستبداد

التركي يوحده

شعوب البلقان

ودخلت الآن المسرحية البلقانية — التى كانت قد بدأت بالثورة التركية فى سالونيك — فى أدق أطوارها وأحرجها . ولكن قبل الكلام عنها ، يجب أن ننقل المشهد السياسى لحظة قصيرة إلى أغادير ، وهى فرصة غير معروفة على ساحل مراكش على المحيط الأطلنطى . فقد أرسلت الحكومة الألمانية إلى تلك الفرصة فى يوليو سنة ١٩١١ الطراد Preacher احتجاجاً على إيفاد الفرنسيين حملة حربية إلى فاس . فأحدثت هذه المظاهرة البحرية رد فعل عاجل فى باريس ، وفى لندن ، وفى روما . فألقى المستر لويد جورج

حدث أغادير

وزير المالية البريطانية خطاباً في مأدبة عمدة لندن السنوية في خريف ذلك العام ، خرج فيه عن حدود وظيفته ، إذ أنذر الحكومة الألمانية بأنه إذا كان لا يحصى من إقحام الحرب على فرنسا بسبب ذلك الخلاف ، فإن إنجلترا لن تقف ساكنة .

أما في روما فقد حفز إنفاذ الطردة الألمانية إلى مراكز الحكومة الإيطالية إلى المغامرة في مضمار الاستعمار فقد أعدت وافدة الاستعمار إيطاليا أيضاً . وإذا لم تقنع بالتفكير في المطالبة برد الأراضي الإيطالية التي كانت لاتزال خاضعة لحكم النمسا ، أخذت تحلم بتشديد إمبراطورية إيطالية في إفريقيا . وزنت عينها إلى امتلاك طرابلس ، وشعرت بأنه إذا كان للألمان طمع خفية في ساحل إفريقيا الشمالى ، فإنه يجب على إيطاليا ألا تضيق الوقت لثلاث تفوتها الفرصة . وحتى جيوليتى Giolitti رئيس الوزارة الإيطالية ، هذا البرلماني الحاذق الذى كان قليل الميل إلى أى لون من ألوان المغامرات ، ولكنه السياسى الذى كان يصغى إلى كل شىء - حتى هو أدرك وجوب العمل على جناح السرعة . فبدون أن ينتحل شبه تكتة ، أعلن الحرب على تركيا في يوليو سنة ١٩١١ ، وبعث بجيش إيطالى إلى ليبيا .

ولنعد الآن إلى البلقان ، فنقول إن تكوين العصبة البلقانية في فبراير سنة ١٩١٢ كان عملاً رائعاً مدهشاً ، ساعد على إتمامه سوء إدارة جماعة تركيا الفتاة لشتون بلادهم ، وغلظة أكبادهم ، وقسوة حكمهم . كما أن إنجازه يرجع أيضاً إلى بروز حفنة قليلة من الرجال الممتازين بالدهاء السياسى . منهم : بورشير J.D. Bencherif مراسل جريدة التيمس في بلغاريا ، ومسيو فتريلوس Venizelos رئيس الوزارة اليونانية ، وهو كرىنى عرك الثورات التى اشتعلت في مسقط رأسه ، وكان ذا نظرة للأمر أوسع من نظرة معظم الساسة اليونانيين .

وإذا كان إنشاء العصبة البلقانية قد عدَّ عجباً ، فإن نجاحها كان أعجب وأدهش . فقد أعلنت العصبة - وكانت مكونة من دول اليونان

طرابلس

تكوين

العصبة البلقانية

انتصاراتها
السجينة

وصربيا وبلغاريا - الحرب على الدولة العلية، في ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٢ .
 وتمكنت الجيوش المتحالفة من إنزال الهزائم بالجيش التركي في كل ملحمة
 اشتبكت فيها معه . وحرم الأسطول اليوناني على غريمه الانتفاع بالبحر .
 ودحر البلغار الجيوش العثمانية الرئيسية في تراقية : أولا في قرق قيبليسي
 Kirk Killisi في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩١٢ ، ثم في لول بورغاس Lul Burgas ،
 دافعين عدوهم أمامهم إلى ما وراء خطوط شطلجة ، موقعين بصغوفه الاختلال العظيم .
 وبينما كان البلغار يحرزون هذه الانتصارات العجيبة في الشرق - هذه
 الانتصارات العجيبة نظراً لسرعتها وكماها - كان اليونانيون يشقون طريقهم
 صوب سالونيك . كما اهتزت قلوب الصربيين ابتهاجاً لتمكنهم من إزالة عار
 ذكرى هزيمتهم الكبرى القديمة في معركة قوصوة ، تلك المعركة التي قضت
 القضاء المبرم على الإمبراطورية الصربية في القرن الرابع عشر ، وذلك في
 المعركة الطاحنة التي ظفروا فيها بعدوهم في ساحة كومافوفو Kumanvo .
 ومع أن انتصاراً كهذا لم تدرك دلالاته الخطيرة إلا قليلاً في ذلك الحين ،
 إلا أنه كان ذا أثر عميق في هذه المعضلة الصعبة ، وهي حفظ أركان السلام
 في ربوع أوروبا . وكان ذلك الفوز انتصاراً من تلك الانتصارات الكاملة
 غير المرتقبة التي تسمو بروح الأمة . واشتد حفزه لهم الصربيين ، لأنه
 قادهم إلى استرجاع أسكوب Uskub قصبة صربيا القديمة ، وموناستير Monastair
 مفتاح مقدونية الوسطى .

ففي جملة لم تدم غير ستة أسابيع ، انتزعت العصبة البلقانية التي أرسلت
 إلى ميادين القتال أكثر من ستمائة ألف مقاتل ، جميع أراضي تركية أوروبا ،
 ما خلا القسطنطينية .

ويمكن بسهولة للمرء أن يتصور كيف نفرت النمسا من هذه الأحداث
 الحارقة . فإن صربيا - أكبر مصدر لقلقها وتخوفها - خرجت من هذا
 النضال البلقاني وقد ارتفع مقامها ، وسمت منزلتها ، واتسعت رقعة أرضها ،
 وأذكت آمالها . ولذا ففي المؤتمر الذي عقد في لندن (من ديسمبر سنة ١٩١٢)

سياسة النمسا

إلى أغسطس سنة ١٩١٣) ، لوضع خريطة جديدة للبalkan ، كان أهم غرض للنمسا ، هو أن تحرم صربيا من منفذ مباشر لها على البحر الأدرياتي .

تجنيد مؤتمر
لندن أوروبا
حرباً عامة

ولهذا السبب ما لبثت ولاية ألبانيا الحميلة الصغيرة أن صارت مركزاً للصراع الدبلوماسي الشديد . فإن تصميم النمسا على إقصاء صربيا من ألبانيا قوبل من الجهة الأخرى بعزم روسيا على أن يعطى الصربيون هذا المنفذ . واقتربت الحرب من أوروبا حتى صارت على قاب قوسين منها . غير أنه أمكن تفاديه . فإن الألمان استخدموا نفوذهم في تلطيف مطالب النمسا ، واستخدم الإنجليز نفوذهم في تلطيف مطالب روسيا . فسوِّت المشكلة ، بإقامة ألبانيا دولة مستقلة يحكمها أمير ألماني .

الحرب البلقانية
الثانية

ولكن بينما كان المؤتمر منعقدًا في لندن ، قامت جماعة تركيا الفتاة بزعامة أنور بثورة في القسطنطينية ، وأشعلت نار الحرب من جديد . وامتازت هذه الحرب الثانية بكسب العصبة البلقانية انتصارين فيها على الترك . فإن اليونانيين استولوا على يانينا . وأجبر الصربيون والبلغار الترك على تسليم أدرنة . ولكن في ١٨ مارس سنة ١٩١٣ اغتيل جورج الأول ملك اليونان ، وهو عامل حكيم ربما كان استخدم نفوذه — لو أنه عاش — استخداماً حسناً لمصلحة بلاده . وفي ٣٠ مايو سنة ١٩١٣ وقَّعت معاهدة لندن التي بمقتضاها اقتضرت أملاك تركيا في أوروبا على القسطنطينية وشبه جزيرة غليوبولي .

الحرب بين دول
العصبة

ولكن ما كاد المداد يجف على هذه المعاهدة الخطيرة ، حتى نشبت حرب طاحنة بين دول العصبة الطافرة نفسها . فإنه من بين الحليقات الثلاث التي صرعت الأتراك ، قدمت بلغاريا أكبر عدد من المقاتلين ، وجابه جنودها أعنف مقاومة ، ولحقت بهم أفدح الخسائر . وكان عنف هجومهم وشدة وطأته ، هما اللذان حطما قوات الأتراك ، وانتزعوا تراقية الشرقية من العدو . فلاح لأكثر الرقباء أن النتيجة المتوقعة لحرب البalkan هي أن بلغاريا ستغزو على الأرجح كبرى الدول البلقانية .

تاريخ أوروبا

وكان ثمة لون من الثبات والتماسك في الأخلاق البلغارية يجب فيه السباح القادمين من دول الغرب ، ويثير إعجابهم وثقتهم بهم . فبدأ البلغار في أعينهم أقل اندفاعاً وجموحاً من الصربيين ، وأقل تدليلاً وأثبت جنائناً من اليونانيين ، وأقل جهالة وغباءة من الترك . وقد وجدوا في فرديند مليكهم ، قائداً طموحاً شديد المكر والدهاء ، وإن كان غير محبوب . وقد عُرِف بانتصار النمسا له . أضف إلى ذلك أن البلغار كانوا ظمئين لتوسيع أملاكهم ، فلم يقنعوا بالنصيب الذى غنموه خلال حملتهم ضد الترك ، ورأوا أنفسهم قد فشلوا بالظفر بالقسطنطينية ، إذ عرفوا جيد المعرفة أنه مهما تكن تركيا ضعيفة ، فإن روسيا تحظر عليهم دخول هذه الحاضرة التى تربع فوق ضفاف البسفور .

أما غنائم الحرب الكبرى ، فقد ظفرت بها حليفتا بلغاريا : وهما اليونان التى وضعت يدها على سالونيك ، وصربيا التى احتل جيشها مقدونيا الوسطى . ولا ريب أن البلغار خامرهم الريب فيما كان في الواقع حقيقة ، بأن الصربيين واليونانيين قد وطنوا النفس على الاحتفاظ بمكاسبهم مهما كلفهم الأمر .

ولكن لما كان هناك عدد كبير من البلغار يقطنون مقدونيا ، فقد قرأى بلغاريا في لحظة حق أخرق على مهاجمة حليفتها . ولكن الصربيين واليونانيين كانوا على تمام الأهبة للقاء الهجوم . وبقواتهما وبقوات رومانيا التى غزت بلغاريا من الشمال منى البلغار بهزيمة ماحقة ، وأكروها على الموافقة على صلح مهين .

هزيمة بلغاريا

وكان ساسة فينا يرقبون في قلق زائد ، وخيبة أمل عميقة ، مجرى هذه الأحداث المفجعة في البلقان . فقد كانت نتيجة الحروب البلقانية سحق بلغاريا صديقتهم ، وإضعاف تركيا التى وجد فيها قيصر الألمان أحدث حلفائه ، وازدياد قوة صربيا ازدياداً عظيماً . وكانت الانتصارات الحربية التى أحرزها شعب صربيا الصغير عجيبة حقاً . فقد دحر الترك ، وساعد

خافوا النمسا

البلغار على الاستيلاء على أدرنة . ثم عاون معاونة كبيرة على إنزال الهزيمة بهم فصار الصربيون الآن بلا منازع الشعب الأول في البلقان . فغمرت قلوبهم نشوة الفوز ، وعمرت أفتدثهم ثقة بشد روسيا لأزهرهم ، وشرعوا يحملون بضم ذوى قرباهم القاطنين في البوسنة والمهرسك إليهم ، وتكوين مملكة تمتد على طول الساحل الأدرياتي .

فأخذت رئاسة أركان الحرب النمساوية تحض المرة بعد المرة حكومتها على أنه من الضروري أن تلقن هذه الأمة الصغيرة الخطرة درساً بالغ العبرة ، قبل أن تصبح دولة عظيمة القوة والبطش . ولكن برغم الغواية الشديدة ، رفض ساسة فيينا المزهوون بقوتهم ، الاستماع إلى هذه المشورة .

ولكن هؤلاء الساسة أخذوا في الوقت عينه يتساءلون أى الطرق يسلكون ؟ وهل يعدلون من جديد الدستور الإمبراطوري تعديلاً جوهرياً حتى يرضى أمانى السلافيين في الإمبراطورية ؟ وكان هناك بعض منهم يعتقد بأن من الميسور إيجاد حل لهذه المشكلة ، وذلك بمنح أولئك السلافيين قسماً أوفى من الاستقلال الداخلى ، ونصيباً أكبر في الشؤون الإدارية .

وتساءلوا أيضاً : أليس من المستطاع إبدال المملكة الثنائية القائمة على سيطرة الألمان والمجر فيها ، بدولة ثلاثية مشيدة على زمالة متآخية متساوية بين الألمان والمجر والسلاف ؟ لقد ذاعت يومئذ إشاعة بأن الأمير فرنتر فردينند Franz Ferdinand وريث العرش النمساوى ، تجول في ذهنه بعض هذه الأفكار ، وأن سياسته كانت تعارض معارضة تامة الأحلام التى جالت بمخيلة الوطنيين المتحمسين في بلغراد بإقامة دولة صربية كبرى .

كتب يمكن استشارتها

- J.A. Spender : Fifty Years of Europe. 1933.
 J.A.R. Marriott : The Eastern Question. 1924.
 Lord Grey of Fallodon : Twenty - Five Years. 1928.
 H. Temperley : History of Serbia. 1917.

الفصل التاسع والعشرون

المنازعات بين البريطانيين والإيرلنديين

مشكلة مجلس اللوردات في إنجلترا . تزايد الاحتكاك بين الطبقات . نمو الحفصات الاجتماعية . حركة المال الإنجليزية . المسألة الإيرلندية . القومية وألستر . الحزب البرلماني الإيرلندي وحزب شن فين . شبح الحرب الأهلية . الأمريكيون الإيرلنديون . التحزب الشديد في إنجلترا . استعدادات الحرب . بقاء نفسية السلام .

١ - مشكلة مجلس اللوردات

أحرز حزب الأحرار في انتخابات يناير سنة ١٩٠٦ أغلبية كبيرة على أحزاب المحافظين والإيرلنديين والعمال معاً ، فألقى نفسه على أثر تقلده زمام الحكم يواجه مشكلة خطيرة . ذلك أن جميع المشروعات الرئيسية الكبرى التي احتواها برنامجه الحزبي : كتحديد بيع المشروعات الروحية ، والعمل على نشر التعليم غير الخاص للهيئات الدينية ، وإلغاء سيطرة الكنيسة الإنجليزية الرسمية على شئون ويلز الدينية ، وإقرار منع الحكم الذاتي لإيرلندا - كانت هذه المشروعات بعد إقرارها من مجلس العموم وإرسالها إلى مجلس اللوردات ، إما أن يرفضها هذا المجلس ، وإما أن يضع على الأرجح العراقيل في سبيلها ، لمنع إقرارها ووضعها موضع التنفيذ .

معارضة المجلس
إصلاحات
الأحرار

فيما بمقتضى دستور كان ديمقراطياً اسماً ، كأنه لا يمكن لحزب الأحرار مهما رجحت أغليته في مجلس العموم ، وبهما كان حديثاً موعداً انتخابه ونيله انتداباً من الأمة بتمثيلها - لا يمكن لهذا الحزب أن يميز قانوناً معارضاً لرغائب مجلس اللوردات الوراثي . فاحتج الأحرار على هذا الوضع ، قائلين إن حق « فيتو » كهذا يباشر في مجتمع متحضر ديمقراطي بواسطة

هيئة كمجلس اللوردات هو شئ لا يمكن تبريره أو الدفاع عنه . فقد كانوا يرون أن مجلس العموم الممثل للشعب هو الذى ينبغى أن تكون له الكلمة النهائية فى أى مشروع يعرض على البرلمان .

ولذلك فإنه حينما رفض مجلس الأعيان التصديق على ميزانية عام ١٩٠٩ — الأمر الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ البرلمان — عقد أسكوت ، الذى كان قد عين رئيساً للوزارة فى العام السابق ، عقد النية على إجراء انتخابات جديدة ، ليطلب من الأمة منحه توكيلاً بإنقاص سلطات مجلس اللوردات . وكان مستعداً ، إذا أصر اللوردات على رفض التصديق على تخفيض سلطات مجلسهم ، أن يوصى الملك بأن يمنح أربعمئة رجل رتبة اللوردية ، كى تحرز الوزارة أغلبية فى ذلك المجلس تقرر ذلك التعديل .

وفى وسط هذا النضال الدستورى الخطير ، وبعد محاولة غير مجدية للوصول إلى اتفاق بين حزب المحافظين الذى عارض أشد معارضة فى تحديد سلطات مجلس الأعيان — فى هذا الوقت توفى إدوارد السابع (فى مايو سنة ١٩١٠) . فخلفه ابنه جورج الخامس على أريكة العرش .

وإن العنف الخارق والأهواء الجامحة التى أثارها مسألة تعديل سلطات مجلس اللوردات قد تبلو غريبة فى نظر جيل تعود العمل بقانون عام ١٩١١ ، الذى أنقِصت بمقتضاه مدة المضوية فى مجلس العموم من سبع سنين إلى خمس ، وحُرم مجلس اللوردات من سلطة رفض إقرار مشروعات القوانين المالية ، أو رفض أى مشروع قانون عام وافق مجلس العموم عليه ثلاث مرات فى خلال دورتى انعقاد متاليتين . فقد اتهم المحافظون الأحرار بأنهم ثوار متطرفون ، دون أن يدركوا أن حكومة ثورية متطرفة ما كانت تقبل أن يؤخّر تنفيذ مشروعاتها مدة عامين ، وهى المدة التى يتطلبها قانون سنة ١٩١١ لتنفيذ أى قانون يجيزه مجلس العموم ، ولا يحصل على موافقة مجلس اللوردات .

وفاء ادوارد
السابع

قانون سنة
١٩١١

إذ أن في مقدور مثل هذه الحكومة الثورية أن تنفذ أغراضها الخاصة بالقضاء على طبقة الأغنياء المعادية لها بطرق أسرع : كأن تلجأ مثلا إلى إنقاص قيمة العملة ، أو إلى إشاعة الخلل وإضعاف روح النظام في رجال الجيش والشرطة . غير أن حزب المحافظين اعتقد يومئذ أن تحديد سلطات المجلس الأعلى سيفتح أبواب طوفان الثورة — هذا الطوفان الذي كانوا يبصرون بلحجه تتلاطم وتتدفق في مشارق الأرض ومغاربها .

تزايد الاحتكاك
بين طبقات
الشعب

فقد أدخلت ميزانية عام ١٩٠٩ الفرع الشديد في قلوب المحافظين ، بإقرارها القاعدة الجديدة بفرض ضريبة إضافية على الإيراد غير المكتسب الذي يجيء من الأرض . فهُيِّئَ لهم أنه لن يكون بعد اليوم حد يقف عنده نهب البرلمانات القادمة . ولكن ما كان أمراً على نفوسهم من ذلك ، هو تفكيرهم بأنه بزوال حق الفيتو المطلق الممنوح لمجلس اللوردات ، ستزول آخر عقبة في سبيل إجازة مشروع قانون الحكم الذاتي لإيرلندا .

وقد اضطرت حكومة الأحرار إلى إجراء انتخابات عامين متتاليين سنة ١٩١٠ ، لكي تعطى البلاد فرصة لإعلان رأيها الصريح في تأييد سياستها المالية ، وفي مشروع إنقاص سلطات مجلس اللوردات . وأعاد الناخبون في كلا الانتخابين أغلبية من الأحرار تؤيدها في مجلس العموم . غير أن هذه الأغلبية تناقصت في كل انتخاب قال إلى درجة أن وزارة الأحرار أكرهت في النهاية على الاعتماد على أصوات الأعضاء الإيرلنديين والعمال ، للظفر بالأغلبية في مجلس العموم . ولكن الأعضاء الإيرلنديين اشترطوا لمنحها تأييدهم إقرار مشروع الحكم الذاتي لبلادهم ، الأمر الذي زاد من سخط حزب المحافظين وحقه على وزارة أسكوث الحرة ، لالتجائها إلى مثل هذا التأييد كى تحدث تغييرات بهذه الدرجة العظمى من الخطورة وجلال الشأن .

٢ - نمو الخدمات الاجتماعية

وكان للمحافظين بعض العذر في أن يبصروا المستقبل بقلق وتشاؤم . تلقى المحافظين فقد بدت في كل مكان تقريباً حركات ثورية ضد الأحوال الاجتماعية التي كانت الكثرة الكبرى من الجنس البشرى مكرهة على العيش فيها . وأدت يومئذ هذه الحركات إلى قيام حكومة من حزب العمال في أستراليا ، وإلى انتشار واسع المدى للحركات الاشتراكية والنفاية في دول القارة ، وشرع العمال في كل مكان يطالبون بأجور أفضل ، وتوفير أسباب حياة أسعد ، وفراغ أطول ، وتسليات أكثر ، وفرص أوفر لهم .

صحيح أن شعور العداء بين الطبقات كان في إنجلترا أقل عنفاً منه في ألمانيا وفرنسا ، ولكنه كان يزداد نمواً وشدة بذبوع المبادئ الماركسية بين الشبان . وجاء كل دليل جديد مثبتاً هذه الحقيقة الواقعة ، وهي أن كل زيادة لأجور العمال كانت تغتصب قسراً من أصحاب الأعمال بوسائل التيسير المنظم . ومن القرائن التي أظهرت مدى الاحتكاك الاقتصادي الواسع النطاق الذي نشب في إنجلترا بين أرباب الأعمال والعمال بين عامي ١٩٠٦ و ١٩١٤ ، أن أحد عشر مليون يوم كانت تضيع كل عام نتيجة لاعتصابات العمال . فكانت كل حكومة من حكومات أوروبا الغربية تتشد الرق ، تبحث وتغنى - بنتائج متفاوتة في النجاح - بهذه المسألة وهي : كيف يمكن للحكومات أن تشيد حضارة يتقدم فيها العوز ، ولا يُحرّم فيها مجموع الشعب من أطياب الحياة وبهاجها .

ولعل ألمانيا كانت يومئذ أعظم دولة شاعت فيها وسائل اللذة والانتعاش العقلين ، وكان تخطيط المدن فيها قاعدة مقررة معمولاً بها منذ أمد طويل . فعمت أرجاءها الحدائق العامة ، والمسارح الرخيصة ، وقاعات الموسيقى ،

ومساحات اللعب - تعمل كلها في خدمة صغار موظفي الدكاكين ، وخدمة المنازل ، وعمال المصانع ، وتمتعهم بمباهج الحياة . فكان الألمان يسبقون الإنجليز بحيل من الزمان على الأقل ، في توفير المتع غير المكلفة ، والدلائد البريئة لأفراد الشعب .

يقظة الضمير
الاجتماعى في
انجلترا

ومع ذلك فإنه برغم النتائج المروعة للثورة الصناعية في مدن الصناعة البريطانية ، فإن النصف الثانى من القرن التاسع عشر شهد في هذه البلاد يقظة للضمير الاجتماعى أثرت تأثيراً محسوساً في حياة الشعب . فإن إجازة قانون العشر الساعات سنة ١٨٤٧ بنفوذ اللورد شافتسبرى ، برغم مقاومة عنيفة في البرلمان ، كان اعترافاً من المجتمع بأن لأبناء الشعب الحق في أن يمتدحوا وقت فراغ . وكانت إجازة قانونى العام سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٩١ اعترافاً منه بأن لعامة الشعب الحق في مطالبة الحكومة بأن توفر لهم فرص الانتفاع بأوقات فراغهم .

ومع ذلك فإنه برغم تشريعات العصر الفكتورى الاجتماعية ، بقيت مخلفات كثيرة من الإصلاحات كان على الحكومة أن تبادر إلى إنجازها . فقد كان العامل البريطانى لا يزال يعيش « في خوف من أشباح عليدة » . وكان معرضاً من غير أن يرتكب ذنباً : أن يقذف به في الشارع . فإنه فيما عدا المساعدات التى يمنحها « قانون إعانة الفقراء » ، لم تكن الحكومة الإنجليزية تصنع شيئاً لغوث المرضى ، أو إعانة العجزة ، أو تخفيف متاعب النسوة الحاملات ، أو الاحتفاظ بمستوى حسن لصحة الأطفال . ومع أن تسخير أصحاب الأعمال للعبيان في المصانع ، كانت قد خفت ويلاتهم كثيراً عن ذى قبل ، بواسطة قوانين المصانع فإنه ما يرح عبء كزوداً في سبيل نمو مجتمع سعيد سليم الأبدان .

وكانت منازل الأشراف الريفية مشهورة حقاً بجمالها وأناقيتها وتوفر أسباب الراحة فيها . ولكن أطلق العنان للمدن الصناعية العظمى أن تنمو وتوسع كما تشاء وتهرى دون ضابط . فأصبحت هذه المدن الكبيرة أماكن مقفرة

كثيرة مقبلة إلى أقصى حد استطاع أن يصل بها التضايف الإنجليزى بين جشم المولدين المائل ، والطراز المعمارى البيوريتانى البشع المتجهم .

التأمينات
الاجتماعية

ولكن فى غضون الأعوام الثمانية التى سبقت الحرب العظمى بذلت وزارتان حرتان محاولة جريئة وجهداً كبيراً مشكوراً للتخفيف من هذه الأضرار الاجتماعية . فأمن العمال ضد المرض والحوادث ، وفى بعض الأحوال أمنوا ضد البطالة أيضاً . وقُدرت إعانة للعجزة . وأجيزت ثلاثة قوانين هامة لحماية صحة الأطفال وزيادة رعايتهم . ويمقتضى قانون الصناعات الطويلة الساعات ذات الأجور البخسة The Sweated Industries سنة ١٩٠٩ ، كَوْنُ لجان خاصة لتحديد أجرة أدنى فى الصناعات التى تكون فيها الأجور واطنة إلى حد استثنائى .

وأنقصت بقانون أجازة البرلمان ساعات العمل الطويلة التى كانت أكثر مما يجب لموظفى المحلات التجارية والدكاكين وعمال مناجم الفحم . كما أجاز قانون لتخطيط المدن وتنظيم الأحياء والمباني . ورُخص للمجالس المحلية فى الجهات الريفية أن تتزع ملكية الأرض بطريق الشراء الجبرى ، لبيعها قطعاً ومزارع صغيرة ، بقصد زيادة سكان الريف المزارعين . ولم تخش حكومة أسكوث أن تقتنى أثر بسمارك فى إصلاحاته الاشتراكية ، وتقتبس من تشريعاته المبدأ الثورى القائل بتحديد حد أدنى للأجور .

غير أن التوسع العظيم فى الأعمال والمبرات الحكومية ، وفى مدى تدخل الدولة لعون الضعفاء ، لاح لأحرار المدمسة الغلادستونية الذين رضعوا لجان تقاليد الحرية ، وبدأ إطلاقها فى ميادين الأعمال — كما لاح للمحافظين أيضاً — أنه يضرب معاوله فى هلم الاستقلال الأدنى للأفراد ، ويهدد قوة البلاد المالية . ولكن كان أعظم من ذلك عاصفة الاحتجاج التى أثارها الحكومة بانهاجها قاعدتين أخريين من قواعد المذهب الحر ، وهما الخاصتان باتحادات العمال النظامية والحكم الذاتى الإيرلندى .

٣ - حركة العمال الإنجليزية

تأسيس نقابات العمال
على حين أن الأحزاب الاشتراكية في ممالك أوربا كُوتت في زمن لم يكن في وسع عمالها تنظيم شؤونهم ، كان الأمر على النقيض من ذلك في بريطانيا ، فقد أسست فيها نقابات العمال نفسها كجزء معترف به ، بل كجزء لازم ضروري ، من أجزاء الأداة الاقتصادية في بريطانيا . وذلك قبل أن يتزل بزمن طويل حزب اشتراكي عمالي حلبة السياسة .

رعاية حركة العمال الإنجليزي
وعلى عكس النقابيين الفرنسيين والإيطاليين الذين كانوا يعملون على قلب النظام الرأسمالي برمته باعتصاب ثوري ، فإن حركة العمال الإنجليزية كانت أنموذجاً للرعاية العملية . مؤثرة الثمار الواقعية الدانية القطوف على الأحلام البعيدة التحقيق . فكانت تعنى بنيل العمال حداً أدنى للأجور ، وتحديد ثماني ساعات في اليوم للعمل ، أكثر من عنايتها بالشروع في خطط تتطلب العنف لتبديل نظام المجتمع تبديلاً تاماً . فإن اتحاد المعدّنين في بريطانيا مثلاً أنشئ سنة ١٨٨٨ لكي يحتج على فرض طريقة خاصة لتحديد أجور العمال في المناجم . وكان هدف الإضراب العظيم الذي قام به حاملو الموائى في العام التالي ، بزعامه جون برنزوتهم مان ، هو الحصول على زيادة بنس في الساعة لعمال ميناء لندن .

وحتى زعماء العمال ، من أمثال كبير هاردى ، الذين كانوا يعتنقون مبادئ الاشتراكية بأكملها ، القائلة بضرورة امتلاك المجتمع لوسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل - كان هؤلاء الزعماء متفقين على أن في إمكان العمال تحقيق هذا الانقلاب بوسائل دستورية . فلم يكن البرلمان في نظرهم خصماً يجب القضاء

عليه ، بل كان حليفاً حريئاً بهم أن يظفروا بتأييده .

وفي سنة ١٨٨٨ تقدم كبير هاردي نفسه للانتخاب ، كمرشح عن العمال المستقلين في دائرة مدلاناوك . وبعد خمس سنين ، تبع هذا العمل بتأسيسه حزب العمال المستقل . ومن ذلك الحين وجه العمال جهودهم إلى دخول مجلس العموم . والحق أن النجاح الذي صحب حملاتهم الانتخابية لعضوية البرلمان كان عائقاً قوياً ضد نشوب الثورات في إنجلترا . فقد ظفر حزب العمال سنة ١٩٠٦ بقرابة خمسين مقعداً في مجلس العموم . ومنذ يومئذ كانت قوته كافية لأن تنيله من وزارة الأحرار القائمة قسطاً كبيراً من الرعاية الاجتماعية ، والاهتمام بتحقيقها . ولا شك أنه كان من سداد الرأي تسهيل دخول البرلمان على ممثلي العمال . إذ لا ريب أنه شرط من شروط الارتقاء الدستوري والتقدم المنظم المشروع أن تمحس كل ظلامة حققة ، وأن ينال كل مطمح سياسي دستوري العناية الجديرة به في ساحة مجلس العموم .

وقد أدركت وزارتا الأحرار قبل الحرب العظمى هذه الأمور . فأدخلت نظام دفع مكافآت لأعضاء ذلك المجلس . وقوّت مركز نقابات العمال بإعفاء أموالها من التبعة القانونية للجنح المدنية ، وتخويلها سلطة فرض أتاوة على العمال لاستخدامها في الأغراض السياسية . وقد احتجّ وقتئذ بأن ذلك يضع نقابات العمال في موضع ممتاز كثير المعائر والأضرار بالأمة . إذ أنه يمكنها من استخدام سلطاتها استخداماً استبدادياً غير مشروع . وطنّ أنه انحراف متسرع آثم عن الأساليب المحرّبة القديمة للحياة البرلمانية الإنجليزية أن تشد الحكومة من أزر إحدى الطبقات لكي تحصل على السلطة التي قد تستعملها هذه الطبقة لأغراض هدامة ضارة بالأمة .

٤ - المسألة الإيرلندية

أما الانشقاق الحائز القتال الخاص بإيرلندا ، فقد استمر يقسم الأحزاب تنافس الانشقاق السياسية الكبرى في البرلمان الإنجليزي . فقد كان الوطنيون الإيرلنديون الكاثوليك

يستحثون حزب الأحرار على منع إرلندا نظام الحكم الذاتي ، على حين كان بروتستانت ألستر يشددون على حزب المحافظين بالعمل على محاربة هذا المشروع . وكان المحافظون يهدفون إلى المحافظة على اتحاد إرلندا ببريطانيا ، وإلى السعي في تحبيب هذا الاتحاد إلى قلوب الإيرلنديين بعد خطوط السكك الحديدية في بلادهم ، وشراء الأرض من أصحابها الإنجليز ، وبيعها بشروط سهلة للفلاحين الإيرلنديين في إرلندا ، وتحسين الأحوال الاجتماعية العامة .

ولما كان كل فريق من الفريقين الإيرلنديين يضمّر أشد ضروب العداء للآخر ، ولا ينوي التزحزح قيد أنملة عن أغراضه ، فإن السياسة البريطانية السمحة القائمة على مبدأ الأخذ والعطاء اصطدمت بعقبة كؤود محيرة . فقد أبى أشياخ الحكم الذاتي التنازل عن مطالبهم مقابل تحسين معاملة الإيرلنديين والتساهل في معالجة مشكلتهم . كما رفض في احتقار غلاة الوطنيين الإيرلنديين فكرة تقسيم إرلندا . فقرر رأى بروتستانت ألستر بقيادة السر إدوارد كارزن Sir Edward Carson على تأليف كتاب من المتطوعين منهم ، وأعلوا عدتهم للتزال ، مفضلين القتال على الخضوع لسيطرة برلمان كاثوليكي في دبلن . وكان كل حزب منهما يؤمن بعدالة قضيته . ففي إرلندا الكاثوليكية تضاعفت ذكرى المظالم القديمة والضمير المرير الذي خبرته إرلندا على يد الإنجليز ، مع أمانها القومية الرجحية . وأخذت تتطلع إلى الحرية وتقرير مصيرها بنفسها . ولم يحفل زعماء الحركة الوطنية قلامه ظفر إلى الحقيقة بأن شكاوى الأمة الإيرلندية الصحيحة قد أزيلت كلية ، أو أنها أزيلت إلى درجة كبيرة ، وأنه منذ سنة ١٨٢٩ أعنتى الكاثوليك من جميع ألوان الاستثناءات المدنية والسياسية المحجفة ، وأن الكنيسة البروتستانتية الإنجليزية ألغيت سيطرتها على إرلندا ، وأن الفلاحين الإيرلنديين أقطعوا الأراضي ، وأن تدابير خاصة اتخذت لتخفيف كربة الفاقة ولغوث الفقراء في المقاطعات الغربية المكتظة ، وأن خمسة وثمانين نائباً من نوابهم - وهم قوة غير ضئيلة - تجلس في كراسي البرلمان لتمثيلهم ، وأن الأبواب مفتحة لأولى المواهب اللامعة من الإيرلنديين في جميع أرجاء بريطانيا والإمبراطورية .

القومية
والإرلنديون
الكاثوليك

فلأن خيلاء الإيرلنديين كانت تنفر وتثور على الإدارة الحكومية الإنجليزية المركزة داخل أسوار قلعة دبلن ، الكثيرة المتجهمة - هذه الإدارة التي كان يرأسها حاكم عام إنجليزي يقيم بإيرلندا ، ووزير إنجليزي في الوزارة البريطانية ، ويحميها جيش إنجليزي يربط في إيرلندا . فندد الإيرلنديون بهذه المظاهر للاستعباد الأجنبي ، وطالبوا بأن يحكمهم برلمان إيرلندي مسئول أمام الناخبين الإيرلنديين .

الحزب البرلماني
الإيرلندي

وكان جون ردمند John Redmond زعيم الوطنيين الإيرلنديين وأشياعه في مجلس العموم مستعدين أن يقبلوا قسماً متحفظاً من الحكم الذاتي داخل الإمبراطورية ، وهو قسط كان في مقدور حزب الأحرار أن يوصي البرلمان بالموافقة على منحه . ولكن كان هناك أعضاء وهيئات إيرلندية أخرى تهدف إلى أبعد من ذلك . فلم يكن يقتنعها الحصول فقط على برلمان إيرلندي يعترف بسيادة العرش البريطاني ، وخاضع للقوانين البريطانية . فناشدت مثلاً « العصبة الغالية » Gaelic League الإيرلنديين غير الخاضعين للحكم البريطاني في عبارات مثيرة أن يقدموا عونهم ومساعدتهم للقضية الإيرلندية ، مذكرة إياهم بأجداد وطنهم السالفة .

أهداف حزب
شن فين

وعلى حين كان آرثر جريفث Arthur Griffith ، وهو متمرد إيرلندي امتاز بالتزاهة والرزانة واللباب ، كان يطالب بمنح إيرلندا مركز مستعمرة بريطانية مستقلة ، فإن حزباً جديداً أطلق على نفسه اسم « شن فين » Sinn Fein أخذت تجيش في نفوس أشياعه الأحلام بإقامة دولة إيرلندية مستقلة تستطيع أن تقطع بالقوة والعنف جميع الأواصر التي تربطها ببريطانيا ، وتستعيد مجدها القديم ووجدانها الوطني ، بإحياء اللسان الإيرلندي القديم . وأشادت نخبة ألمعية من الأدباء والشعراء الإيرلنديين بهذه الحركة التي ضمت إلى صفوفها طبقات الدماء وأحاطتها بهالة من المثالية الأرستقراطية المتألفة السناء .

معارضة أئصر

وكان رجال أئصر يعارضون أشد المعارضة هذه الحركات جميعها ، ويقاومونها مقاومة لا هوادة فيها . فقد كانت القضايا العظمى الثلاث : التعليم البروتستانتي

في المدارس ، وحرية التجارة مع بريطانيا ، وتحديد المسكرات — كانت هذه المسائل تهدد في نظرهم بالتعطل لو أن برلماناً في دبلن أخذ على عاتقه شؤون التشريع فيها . وأبصروا في مشروع الحكم الذاتي الخطوة الأولى نحو الانفصال ، وقيام حكومة مستندمة العداء لأي لون من ألوان الارتباط بين إيرلندا وبريطانيا : حكومة توافقة إلى إيقاع الأذى بالمصالح البريطانية في جميع بقاع العالم .

ومع ذلك تمكنت وزارة الأحرار من إجازة قانون سنة ١٩١٢ بمنح إيرلندا الحكم الذاتي . ورغم أن مجلس اللوردات رفض التصديق عليه ، إلا أنه كان سيوضع موضع التنفيذ في سنة ١٩١٤ . بيد أنه باقتراب الساعة الرهيبة التي كان سيبدأ فيها العمل به ، كثر تهريب الأسلحة إلى ألستر . فدعا الملك جورج الخامس مؤتمراً عقد في قصر بكنجهام ، بينما كانت غيوم الحرب الأهلية تتجمع في سماء إيرلندا . ولكن الخلاف ظل محتدماً . إذ أبن ممثلو الفريقين الاتفاق .

شح الحرب
الأهلية

وندر أن مرّ على بريطانيا عصر انقسم فيه الرأي العام ، وتفاقم الخطر ، واشتد الارتياح بسوء المآل ، كما حدث يومئذ . وأخذ الناس يتساءلون : هل تتجاسر الحكومة البريطانية على استخدام القوة ضد متطوعي ألستر ؟ وكيف يمكن تفادي شطر إنجلترا شطرين بسبب هذا النزاع الإيرلندي ؟ وهل تستطيع الحكومة الإنجليزية أن تعتمد على تأييد الجيش لها في قمع حركة ألستر ؟ ولذا لاح في يولييه سنة ١٩١٤ كأن بنيان المملكة المتحدة على وشك أن تقوضه حرب أهلية ، بشكل لم يعهد له مثيل قط في تاريخ بريطانيا منذ القرن السابع عشر . فقد توقع الناس أن يكون هذا النزاع أكثر من مجرد نزاع محدود . فإن الإيرلنديين الكاثوليك في إيرلندا لم يكونوا سوى جزء ضئيل من مجموع الإيرلنديين المنتثرين في جميع أرجاء المعمورة . ففي كل مستعمرة مستقلة وغير مستقلة كان الإيرلنديون يشرّبون أنخاب السعادة والحرية للجزيرة الخضراء ، وطعمهم الأصلي ، ويدعون بالفشل والخيبة المضطهد بها . وأجازت برلمانات الولايات الأسترالية قرارات بالحث على منح الحكم الذاتي لإيرلندا . وفي أمريكا كان الإيرلنديون

الإيرلنديون
الأمريكيون

الذين هاجر الجانب الأكبر من أجدادهم أثناء منتصف القرن التاسع عشر — حينما كانت الفاقة والتعاسة والمجاعة في إرلندا في أسوأ درجاتها ، وقبل تطبيق أى تشريع لمداواة هذه الشرور — كان الإيرلنديون فيها عديدين أقوياء . وكانوا يسيطرون على تامانى هول Tammany Hall ، وهى أداة سياسية قوة النفوذ في نيويورك . وكانوا قابضين على زمام الأمر في بوسطن . وعاونوا على خلق رأى عام قوى معاد لبريطانيا في الولايات الوسطى الجنوبية . وفي شيكاغو وحدها كان عدد أصحاب الملايين الإيرلنديين مائة ونيفاً . وأخذت صحافة هيرست — وهى اتحاد قوى من الصحف في الولايات المتحدة — أخذت تشوّء البواعث البريطانية وتسفه السياسة البريطانية . لكى تستميل إلى جانبها الإيرلنديين في أمريكا . وكان السياسيون الأمريكيون الذين يحرون وراء أصوات الناخبين في الدوائر التى يكون فيها العنصر الإيرلندى قوياً ، يُكرهون على أن ينهجوا خطة تحقير بريطانيا ، وتوجيه قارص الكلام إليها .

ولم يُنقص من نشاط التيسيج ضد بريطانيا بين الإيرلنديين الأمريكيين ، أن الأحوال في إرلندا تحسنت تحسناً واسع المدى منذ « سنى الأربعين العجاف » من القرن الماضى . فإن ذكرى تلك السنين المرعبة ما زالت تسيطر على الأذهان ، وتثير كامن أشجان الإيرلنديين والإرلنديات ، حتى الفقراء منهم ، وتدفعهم إلى البذل والعطاء في سبيل قضية إرلندا . وكان هارنل الزعيم الإيرلندى يتجه شطر أمريكا لإمداده بالمساعدات المالية ضد إنجلترا ، كما استمر غيره من الوطنيين الإيرلنديين يستمدون منها مواردهم .

ولما كان الأحرار الإنجليز لا يتوقون إلى شيء أشد من لإزالة هذه العقبة التحزب الشديد في إنجلترا من سبيل الصداقة الأمريكية ، فإنه لم يكن يبدو من بين النتائج المنتظرة من إخضاع مشروع الحكم الذاتى ، ما هو أعظم خطورة وأسوأ مغبة من إغضاب الجمهورية الأمريكية ، وإثارة حنقها الشديد الأكيد .

ولهذا ساد إنجلترا غليان سياسى خارق للعادة خلال الحقبة التى جاءت بين حرب البوير والسنين الأولى الخطيرة من الحرب العظمى الطاحنة . فإن

روحاً من الغلو والتعصب نفثت سمومها في هذا القطر الذي يفيض بالخيرات والنعم . فغدا لا يشعر بالاطمئنان والثبات . فالمثديون من أهله آثروا أن يكسروا القانون على أن يدفعوا العوائد الخاصة بالتعليم . وأخذت نسوة رقيقات القلب عاليات الثقافة يحطمن النوافذ ، ويتشاجرن مع الشرطة ، ويسعين بهذه الطريقة أو بتلك إلى أن يرسلن إلى السجون ، كاحتجاج على حكومة تأبى أن تمنح النساء حق الانتخاب .

واحتدم أوار الخلافات الحزبية بشأن تخفيض سلطات مجلس اللوردات ، ومنح الحكم الذاتي لإرلندا ، إلى درجة القطيعة في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد . هذا على حين كان البعض من الإنجليز يؤمن أشد الإيمان بالتوسع الاستعماري ، وإصلاح التعريف الجمركية ، ويجاهد بكل ما ملكت يده في تحقيقهما . وكانت البلاد طافحة بالاضطرابات ، وسرت عدوى الإضراب من المناجم والسكك الحديدية والمصانع إلى المدارس . بل بلغ سوء الحال في صيف سنة ١٩١٤ أن سرى روح من التمرد بين ضباط الحامية الإنجليزية المسلحة في جنوب إرلندا ، إذ خشوا أن يهزموا بالزحف على ألستر ، إذا ما استنحل الخطب . فأخذ القوم يتساءلون : هل وصلت الإمبراطورية إلى نقطة بدء تدهورها؟ وهل أخذت القضايا الإنجليزية الإمبرطوية التي كان كبلنج يبشر بها ، وبرنارد شويندد بها ، تنحط وتتلوث ؟ وراقب الطلبة الهنود في دلهي في فرح وابتهاج تنظيم عصيان ألستر الناجح . ولاحت بريطانيا في أعين الألمان دولة قوية ترتفع في مجبوحة من العيش والرخاء ، توشك أن تهب عليها أعاصير عاتية هدامة .

ومع ذلك فإن إنجلترا لم تكن قط معدة للقتال ، منأهة للحرب ، خيراً مما كانت عليه في ذلك الحين . فان هلدان Haldane وزير الحربية الذي كان قبلُ محامياً وأستاذاً للفلسفة ، ودرس في جامعة جيتنجن الألمانية ، ونقل إلى الإنجليزية مؤلفات شوبنهاور Schopenhauer ، كان قد أعاد تنظيم الجيش البريطاني وفق مبادئ ، وإن كانت تدبى بالشىء الكثير للنمط الألماني .

نائب إنجلترا
لحرب

إلا أنها سحّرت لتلّام حاجيات دولة تتألف من جزيرة منعزلة قد تضطر إلى الاشتراك في حرب تنشب في قارة أوروبا . وإن بريطانيا لتدين لعبقريته الإدارية بإنشاء « نظام رئاسة أركان الحرب » ، ولإعداد قوة مقاتلة كاملة التجهيز ، وجيشاً احتياطياً ، وهيئة خاصة لتدريب الضباط .

وكذلك أعد الأسطول بواسطة الأميرال الأول السير جون فيشر Sir John Fisher للترول في نضال مرتقب ضد الأسطول الألماني في عرض البحار . وبلغ تركيز قوة الأسطول الإنجليزي في بحر الشمال ، أن ثمانين في المائة من مدافعه كانت مصوبة شطر السواحل الألمانية ؛ ووُضعت الخطط لتعاون الجيش والأسطول معاً ، وخلق نواة قوة جوية جديدة . وجُعِلت هذه القوى الثلاث تتضافر في العمل عن طريق « لجنة للدفاع الإمبراطوري » ، ووُضِع كتاب حربي حاوٍ للتعليقات السرية ، مستنبطاً بدقة مضبوطة عجيبه حاجيات البلاد الأولى في حالة نشوب حرب في قارة أوروبا ، على أن يوزَّع هذا الكتاب عند إعلان الحرب .

بقاء نفسية
السلام

ولم يكن رجل الشارع يدرى شيئاً ، أو لم يكن يدرى إلا التزر اليسير ، عن هذه الاستعدادات الحربية المدروسة . فقد بدا المسرّ لويد جورج من مكتبه بوزارة المالية ، وهو يعكر صفو ملاك الأرض ودافعي الضرائب ، والسر إدوارد كارزُن وهو يتحدث جون ردْمند، ومسز بتكنهيرست وهي تطالب بحقوق النساء، وهوب سيملي الزعيم العنيد لعمال المناجم - بدا هؤلاء الأشخاص كأنهم أعظم الممثلين نشاطاً ولزعاجاً للنفوس على مسرح البلاد السياسي .

وفيما عداهم ، لاح كأن السلام ينشر بنوده فوق كل مكان . فلم يكن للاستعدادات الفنية للأداة الحربية صدى في حالة الرأي العام النفسية . ومع أن بعض الصحفيين دقوا ناقوس الخطر في بعض صحف لندن الكبرى ، فإن إنذاراتهم لم تكن تُسمَع إلا في خفوت في مدن الشمال الصناعية، حيث لم يكن ثمة يومئذ شيء أشهى إلى قلب الرجل العادي من التمتع بإجازة الصيف ، ولم يكن هناك شيء أبعد إلى فكره من ترقب نشوب حرب أوربية .

کتب ممکن استشارتها

- D.C. Somervell : The Reign of King George V. 1935.
- J.A. Spender, and C. Asquith The Life of Lord Oxford. 1932.
- J.A. Spender : Fifty Years of Europe. 1939.
- L.T. Hobhouse : The Labour Movement. 1893.
- S. Gwynn : John Redmond's Last Years. 1919.
- E. Marjoribanks, and Ian Colvin : The Life of Lord Carson. 1932,
1934.
- Richard Burdon Haldane : An Autobiography. 1929.
- J. Ramsay MacDonald : The Socialist Movement. (Home University
Library). 1911.
- G. Elton : England Arise ! 1931.

فصل الثلاثون

نزعات مهددة للسلام في ألمانيا وروسيا

تفوق ألمانيا في أوروبا . الروح العسكرية الألمانية . حقد الألمان على إنجلترا . طيش قيصر الألمان . الجمهور البريطني ومجلس الوزراء البريطني . الجهود تبذل لتحسين العلاقات مع ألمانيا . توثق العلاقات مع التحالف الثنائي . الثورة تهدد روسيا . روسيا تجرب النظام الدستوري . ضعف القيصر نقولا . السباق بين الحرب والثورة .

١ - تفوق ألمانيا الحربي

أهمية ألمانيا كانت ألمانيا في مطلع القرن العشرين واسطة العقد في المشهد السياسي الأوروبي نتيجة لثبات أهدافها ، وتركيز وسائلها ، ونظام أهلها ، وصوله جيشها . وكانت النمسا وإيطاليا تابعتيها ، وكانت السويد صديقة شديدة الإعجاب بها ، وقدمت تركيا من بلادها مركزاً لنفوذها السياسي والاقتصادي المتزايد . ونظمت ألمانيا تجارتها العالمية النطاق ، التي نمت نمواً سريعاً في الكمية والأهمية بمعونة الحكومة ، كأنها عملية من عمليات الحرب الهجومية . وصار العلم الألماني يشاهد في كل ميناء .

تنظيمها المعجب ولم يشارك أمر للصدفة . فكانت الدولة تدبر السكك الحديدية ، وتحمي السوق الداخلية ، وتعين الصادرات ، كما تعين السفن التي تحملها بالمساعدات المالية . ولم يكن للإمبراطورية الألمانية نداء في القوة الحربية والاقتصادية بين دول القارة . فكانت مقاييس الحرب والسلام في يد برلين ، وكان في وسع الإمبراطور الألماني أن يقلب في صباح واحد توازن أوروبا الدقيق .

ولكن كان يوجد في هذا التفوق العجيب مواضع ثلاثة من مواضع الخطر . فإن كل رجل سليم البدن في ألمانيا ، إما أنه كان ، أو أنه الآن ، أو أنه سيكون جندياً . فأشاع وجود طبقة كثيرة العدد من الضباط ، وقوة ضخمة من المقاتلين المدربين ، اهتماماً واسع النطاق في البلاد بفنون الحرب وعملياتها . فكان جميع الشبان الألمان يرتقبون - وكثير منهم يأملون - أن تكون لهم من بين الاختبارات التي تقدمها لهم الحياة ، فرصة للقتال في سبيل الوطن .

وقد لُتقوا أن يعدوا حرباً كهذه دواء ضرورياً ناجماً في تاريخ الدول الأدي ، لا جريمة ضد الحضارة . ولهذا لم يكونوا (بعكس كثير من الإنجليز) يخشون الحرب ويمقتونها ويزدرونها ، باعتبارها بقية من بقايا الممجية التي تصم البشرية بلوثة العار ، بل كانوا بالأحرى يرحبون بها ، ويقبلون عليها كفرصة تقدم أعظم امتحان للرجولة . وكان إقبالهم عليها شديداً الآن ، إذ كانوا يعتقدون ، كما علمتهم اختباراتهم الحديثة ، أن الحرب القادمة ستكون ظفراً سريعاً لهم ، مذكية للنفس ، مطهرة للروح . فلذا كان هذا هو الشعور العام للجماهير الألمانية . فإنه من اليسير تصور الاهتمام البالغ الذي كانت تبديه طبقة الضباط التي زادت برماً ببطء الترقيات العسكرية في أيام السلام الطويلة الأمد ، واشتياق هيئة أركان الحرب العامة إلى انتهاج سياسة نشطة قوية .

أما نقطة الخطر الثانية ، فكانت إرخاء الألمان عناهم للأحقاد الدولية التي هي أشد الانفعالات تهلكة . فقد شُجِعُوا - وهم شعب خفّاق العواطف ساذج التفكير - على التمادي في هذه الأحاسيس ، حتى بلغ ، شعور الحق العام السائد في ألمانيا ضد إنجلترا قبل حرب البويرسين كثيرة جداً عظيماً ، قضى على كل رجاء بالوصول إلى تفاهم سياسي وطيد بين الشعبين . وقد أدرك فيما بعد في أسف ، كثير من الساسة الألمان ، مثل فون بيلوف ، ما تجره هذه العاطفة الموهجة من التكبّات . ولكن ذلك كان بعد أن فانت الفرصة للعمل على اجتثاثها . فقد ظلت الدعاوة المعادية لإنجلترا

حقّد الألمان
عل إنجلترا

في ألمانيا . نصف قرن . نهج الرأي العام عليها . ولا كان كل مشروع لتكبير الأسطول الألماني يتفخ روحاً جديدة تريد في اضطرامها ، لم يكن من السهل تنكيبها واقتلاعها . أما في بريطانيا فإن شعور العداء ، برغم التصريح عنه بشدة في بعض دوائر الأمة المعادية لألمانيا ، فإنه كما يسلم الألمان العارفون بالأمور ، كان أقل انتشاراً وتأصلاً في هذه البلاد منه في ألمانيا . بل لم يكن له وجود قطعاً في بعض دوائر الطبقة الراقية .

وكانت أخلاق القيصر الألماني عاملاً ثالثاً من عوامل الخطر والشؤم . فإن خيلاءه الحائرة غير المستقرة ، وخياناته السياسية ، وولعه بالأبهة المسرحية ، وفوراته العتيفة المستبرية ، أبطت أوروبا في حالة شديدة من التوتر . وإن سلسلة الخطابات العجيبة التي تبادلها مع نقولا الثاني قيصر روسيا لتدل على أنه كان قادراً كل المقدرة على التصريح بصداقة حارة لإنجلترا في نفس الوقت الذي كان ينصب فيه الدسائس لتأليف حلف من دول القارة ضدها . وكانت تصريحاته العامة في بعض الأحيان تصريحات رجل مفتون . فإنه عندما أقلعت مثلاً بعض السفن الحربية الألمانية قاصدة الصين في سنة ١٩٠٠ على أثر ثورة البُكْسَر ، أذكى حية القوة الألمانية بالعبارات الآتية التي دوت في آفاق الأرض ، قال :

« إنكم توشكون أن تقابلوا عدوّاً محتالاً قاسياً حسن التسليح . قابلوه واهزموه . ولا تمنحوه رحمة ولا صفحاً . لا تأخذوا أسرى ، بل اقتلوا كل عدو يقع في قبضتكم . وكما خلد الهون ، تحت قيادة ملكهم أتيلاً منذ ألف سنة خلت - خلدوا لهم صيئاً في الأساطير والخرافات لا يزال يدخل الرعب والهلع ، هكذا اجعلوا اسم ألمانيا يرن رنيناً مدوياً في صفحات التاريخ الصيني بعد ألف عام من الآن . »

وكان على هذا الغرار أيضاً في أحاديثه الخاصة ، عظيم الخطر على بلاده وعلى العالم . فقد شاهدنا كيف كان من الجوهرى لحفظ السلام العام أن تمتنع النمسا عن استفزاز روسيا إلى إشعال حرب بسبب خلاف بلقاني ، وكيف كان من

طيش قيصر
الألمان

المهم لألمانيا بالذات - كحليفة للنمسا - أن تكبح جماح السياسة النمساوية الخارجية عن الشطط . ومع ذلك فإنه برغم أجلى الإنذارات التي تبين تغلب شعور العدوان على دوائر فيينا السياسية ، وبرغم الحقيقة بأن النمسا في فرصتين مختلفتين - في سنة ١٩٠٨ ، ثم ثانية في سنة ١٩١٢ - كادت تورط ألمانيا في حرب ، فإن الإمبراطور برغم هذا كله شجع حليفه على الاعتقاد « بأن كل ما يجنيه من وزارة خارجية النمسا ، مهما يكن بعيداً عن محجة السداد ، هو بمثابة أمر له واجب التنفيذ » .

فتبين مذكرة دوتها الكونت برشتولد Berchtold وزير خارجية النمسا عن مقابلة جرت له مع القيصر الألماني في فيينا في ١٦ أكتوبر سنة ١٩١٣ - تبين هذه المذكرة بطريقة مفزعة حقاً رعونة هذا العاهل المتقلب وعظيم طيشه . فهو يقول للنمسا إن الحرب بين الشرق والغرب أمر ليس منه مفر ، وإن الصقالبة وُلدوا ليعملوا ، لا ليحكموا ، وإن الصربيين يجب أن يخفوا بالرشوة ، أو يكروهوا على وضع جيوشهم تحت تصرف النمسا ، وإلا فإنه يتعين ضرب قصبة بلادهم بالقنابل واحتلالها . وهو يؤكد لحليفه ويطمئنه بأنه ينبغي ألا يخاف جانب الروس وقوتهم ، إذ أن ألمانياً يقطن إحدى الولايات الروسية الواقعة على البلطيق أخبره بملاحظة ذكرها قيصر الروس ، مضمونها أن الحرب تعد في حكم المستحيل بالنسبة لروسيا في بحر الأعوام الستة القادمة . ثم يقول برشتولد في مذكرته : « وكلما حانت لي الفرصة خلال حديثنا الذي دام ساعة ونصف ساعة للتحدث عن علاقاتنا كحليفتين ، كان جلالته ينهز الفرصة بأن يؤكد لي في زهو ومباهاة أننا نستطيع الاعتماد عليه اعتماداً تاماً مطلقاً » .

ولقد خطَّ القدر في لوحه أنه لن تمضي فترة طويلة حتى يزاح الستار عما حملته في طياتها هذه التأكيدات والمشورات من النكبات والأرزاء للنمسا ، وألمانيا ، وللعالم أجمع .

٢ - موقف بريطانيا

الجمهور
البريطاني

طُبعت في الشعب الإنجليزي غريزة سياسية كامنة ، هي الانضمام إلى فريق الدول الذي يناهض أقوى دولة في أوروبا . ومع ذلك فإن الإنجليزي العادي لم يكن في مستهل عام ١٩١٤ يرجو شيئاً أكثر من ألا يدعى إلى القتال في حرب أوربية . فمع أنه أبدى موافقة عامة على خطة التفاهم مع فرنسا وروسيا ، كأمر يعين على توطيد دعائم السلام ، وتحسين التوازن الدولي في أوروبا ، فإنه لم يكن يدرى شيئاً عن الاتفاقات الحربية أو الالتزامات الدولية التي كانت حكومته قد تعهدت بشرفها بالنهوض بها .

وكانت الفكرة بأن بلاده ستُجر إلى حرب عامة نتيجة شجار بلقاني تبدو في نظره فكرة عجيبة بعيدة التصديق . ولكن نماء الأسطول الألماني الذي اقترن بإشاعات مفزعة كانت تنتشر بين آونة وأخرى في إنجلترا ذاتها ، جعله قلقاً وجلاً . وكان البريطاني يشعر أنه ليس من النخوة أو السلامة أن يقف موقف المتفرج مكتوف اليدين ، بينما تكتسح ألمانيا البلجيك ، وتدحر فرنسا ، وتحتل الثغور الواقعة على القنال الإنجليزي . وما كانت تطالعه به الصحف الإنجليزية بصدد أطماع الشعب الألماني لم يكن من شأنه أن يدخل إلى قلبه الأمل بأن الألمان بعد إحرازهم انتصارات مثل هذه ، يتركوا الإمبراطورية البريطانية وشأنها . فهل كان معقولاً أن يحجم المنتصرون عن تصفية حسابهم مع إنجلترا بعد أن تخر فرنسا وروسيا صريعتين ؟

موقف الوزراء
البريطانيين

ولكن أسكوث وغراي وهلدوين - وهم الوزراء الثلاثة الذين كانوا يومئذ معنيين غاية العناية بصوغ السياسة الإنجليزية وتوجيهها - كانوا يرون أن ذهن الأمة الإنجليزية الذي كان إلى هذا الوقت بريئاً لا تداخله الريب ، سيهزه منطلق الحوادث ، ويزيح الغشاوة عن عينيه .

ولعله ضعف يلزم الوزارات البريطانية أنها تهيب مواجهة المسائل البعيدة الحدوث أو الفرضية . فترى مجلس الوزراء البريطاني لا يبحث بحثاً دقيقاً ، أو يحدد تحديداً واضح المعالم ما يتعين على بريطانيا أن تفعله ، إذا انتهك حياد

البلجيكي ، أو إذا هاجمت ألمانيا المغرب . فإن النظرية السائدة هي أن البرلمان وحده هو الذى يضع القرار النهائى ، وأنه سيعمل وفق فهمه للوجوه الأدبية لكل مسألة حين تعرض عليه . غير أن هلدباين وزير الحرب كان قد أُنذِر الألمان سنة ١٩١٢ ، حينما دعى ليشهد مناورات الجيش الألمانى فى ذلك العام ، بأن إنجلترا ستنتظر إلى انتهاك حياد بلجيكا — إذا حدث — كعمل خطير يهددها هي ، كما ذكر هذا الوزير نفسه لمرنخ السفير الألمانى المقننر بلندن ، بأن رأى العام البريطانى لا يوافق على سحق فرنسا .

وقد قُدمت الحجة أحياناً بأن الحرب ربما كانت تُجنَّب ، لو أن تصريحات أجسر وأصرح من هذا التلميح ، أعلنت فى الوقت المناسب بواسطة الوزارة البريطانية . ولكن ليس ثمة شيء أكيد بخصوص هذه النقطة . فإنه من سنة ١٩١٢ وما بعدها ، لم تكن السلطة الحقيقية فى برلين مركزة فى يد الإمبراطور وحده ، بل ساهمت فيها بقسط متزايد أركان الحرب الألمانية العامة . فإن تلك الهيئة العسكرية الضليعة كانت قد قدَّرت تقديرًا ضئيلاً للغاية جهد إنجلترا الحربى المحتمل أن تقدمه فى حرب تنشب فى قارة أوروبا ، صحيح كان يسلَّم بأن الإنجليز سيسببون المتاعب لألمانيا فى البحار ، ولكن برلين كانت تعتقد أن الحرب لو نشبت ، فإن نتيجةها المحتومة فى الجهة الغربية ستقرر فى أسابيع قليلة جداً ، وأن وجود قوة بريطانية على أرض فرنسا ، ولو أنه سيطيل قوائم إصابات القتلى والجرحى الألمان ، إلا أنه لن يؤثر سوى تأثير طفيف فى جدول العمليات الحربية الذى وضعته .

أما غراى وزير الخارجية فلم يكن يرى أن الحرب أمر لا محيص منه . بل كان يرجو أن لإنجلترا — مع بقائها مخلصاً لتعهداتها لروسيا وفرنسا — ستفوز بتحسين علاقاتها مع ألمانيا . فاقترح على الحكومة الألمانية أكثر من مرة بأنه يجملر بها أن تشترك مع إنجلترا فى خطة لتخفيض السلاح البحرى ، غير أن هذا الاقتراح قوبل بالإعراض فى كل مرة . لذا لم يكن مستطاعاً الوصول إلى نتيجة محمودة فى هذا الشأن . وتقدمت لندن بنية خالصة بعروض

الجهد تبذل
لتحسين العلاقات
مع ألمانيا

من نتيجته خلق شعور أعظم صداقة ووداً بين الأمتين ، ولكن هذه العروض كانت تُعد في برلين خيوطاً من أحبولة مكياغلبية ، يُقصد من ورائها دوام تفوق الأسطول البريطاني . فاللفتة السلمية التي تقدم بها رئيس الوزراء كامبل بزمان سنة ١٩٠٧ تُنظر إليها بأنها تبيت النية على مباغته الأسطول الألماني وتدميره . وندد الإمبراطور باقتراح « العطلة البحرية » سنة واحدة من بناء السفن الحربية ، وهو الاقتراح الذي عرضه المسر ونستن تشرشل سنة ١٩١٢ ، واصفاً إياه بأنه « مجرد نفاق ورياء » . وكذلك لم تُجدِ ثمرة بعثة هلدان إلى برلين سنة ١٩١٢ . فلم يكفِ الألمان أن تؤكد إنجلترا لهم أنها لن تبدأ حرباً هجومية غير مسوغة أو تنضم إليها ، بل طالبوا الحكومة البريطانية بما ليس في يدها أن تعطيه ، وهو أن تتعهد تعهداً صريحاً جلياً بالتزامها الحيدة في حالة اشتعال الحرب .

ولكن برغم هذا كله ، ثابر وزير الخارجية البريطانية في مساعيه لاستقرار السلام . وفي جو سياسي كان قد طرأ عليه تحسن عظيم نتيجة نجاح مؤتمر بوخارست سنة ١٩١٣ ، أوشكت إنجلترا وألمانيا في الشهور الأولى من سنة ١٩١٤ أن تَصلا إلى اتفاق بينهما ، بشأن سكة حديد بغداد ، والتقسيم النهائي للمستعمرات البرتغالية .

ولكن اتخذت في ذلك الوقت خطوتان جعلتا دخول إنجلترا في حرب أمراً يكاد يكون لا مفر منه إذا هوجمت فرنسا . فإنه حسب اتفاق مع الوزارة البريطانية سنة ١٩١٢ ، ركّز الفرنسيون أسطولهم في مياه البحر الأبيض المتوسط . ولم تكن إعادة توزيع قواتهم البحرية هذه تنطوي إلا على افتراض أخذ بريطانيا على عاتقها مهمة الدفاع البحري عن ساحل فرنسا الواقع على القنال الإنجليزي في حالة نشوب حرب . أما الخطوة الثانية فكانت ترخيص الحكومة الإنجليزية بعد ذلك بعامين لخبرائها البحريين بإجراء محادثات بحرية مع روسيا .

توثيق العلاقات
مع التحالف
الثنائي

٣ - الثورة تهدد روسيا

أما عن مجرى الأحداث القادمة التي كُتِبَ للإمبراطورية الروسية المترامية الأطراف أن تشهدا ، فلم يكن في مقدور أحد التكهّن بها في شيء من التأكيد والوثوق . فمع أن الحكومة القيصرية المستبدّة كانت لا تزال قائمة - بعد أن تغلبت على قلاقل الطلبة سنة ١٨٩٩ ، وفتن الفلاحين سنة ١٩٠٢ ، واندحار الجيش الروسى المفجع في الحرب اليابانية ، وعصيان سنة ١٩٠٥ ، وهو العصيان الذى جلّ خطره بسبب اقترانه مع ظروف أخرى باعتصاب روسى عام كان أتمّ الاعتصابات استكمالا حتى ذلك اليوم ، وكان أول تجربة في قطر أوربي لمحاولة إقامة دكتاتورية عمالية - مع كل هذا ، كان الناس يتساءلون عما إذا كان في طوق هذه الإمبراطورية أن تستمرّ معمرة طويلا من غير اللجوء إلى شن حرب ناجحة تشغل بها الرأى العام في بلادها عن الثورة .

قيام الفتن
والاضطرابات

فإن قوى هائلة متأججة كانت تعمل في الداخل لتدمير ذلك البناء الشامخ وتقويضه . فقد كانت هيئات الطلبة في الجامعات الروسية ممتلئة سخطاً وحنقاً ، ورفعت الطبقات الوسطى الحرة المذهب التي رضعت لبان الثقافة الغربية - رفعت عقيرتها مطالبة بإحداث تغييرات دستورية بعيدة المدى . وكان إلحاح الفلاحين الفقراء التمسّين بضرورة وضع قوانين عادلة تنظم تأجير الأرض لهم ، والتهيجُ الأهوج المستمر القائم على المبادئ الماركسية بين عمال المصانع ، وفتن القوميات المهضومة الحقوق الخاضعة لحكومة القيصر ، والصراخ المرتفع الحانق الصادر من فلذات المنفيين في سيبيريا ، وضحايا الجور والطغيان الآخرين - كل هذه الطوائف ألقت كتلة ضخمة من المقاومة هدّدت النظام القائم في روسيا بالويل والثبور .

التفمر العام

فلما رأت الأوتقراطية الروسية نفسها تهاجم من كل جانب ، ولا سيما بعد أن سقطت هيئتها بسبب إنكسارها في الحرب اليابانية ، آثرت أن تمد

تجربة النظام
الاستورى

يدها لمصالحة محرّكى الفتنة ، لعلها بذلك تتفادى الخطب . فدعت أولاً إلى العاصمة لجنة مركزية انتخبها المجالس المحلية . ثم قفت هذه الخطوة نحو التقدم الدستوري بدعوة برلمان منتخب Duma سنة ١٩٠٥ . وما هو حرى بالذكر أن النبأ القاتل بأن روسيا — هذا المثال المتجسم للاستبداد غير المستنير — قد استعارت من الغرب نظمه البرلمانية — أن هذا النبأ أثار نشوة وابتهاجاً عظيمين في أفئدة الأحرار الإنجليز .

ولكن لم يكن ثمة سوى سبب ضئيل للفرح والسرور . فقد تعاقبت البرلمانات الروسية ، الواحد إثر الآخر في توالٍ سريع ، دون أن تعمل شيئاً للتقليل من كراهية الشعب للقيصر ، أو التلطيف من حدة الخصومات بين الشيع المتناضلة . فقد نجم عن عدم ثقة الحكومة بالدوما ، وعدم ثقة الدوما بالحكومة ، أن الأمة لم تجن الفوائد التي ارتبحتها من التثام عقد عدد كثير من الرجال الوطنيين المقتدرين في هذا المجلس النيابي .

ولم يكن نقولا الثانى بالرجل الذى يستطيع أن يقود السفينة إلى بر السلامة
في وسط الزوابع العاصفة . فإنه مثل لويس السادس عشر جبّيل على الحياة
الخاصة ، لا العامة ، واجتمع فيه خور العزيمة مقروناً بميل إلى العناد ،
وذكاء ضعيف ، وقصور عن استيعاب أهمية الحوادث ، أو معرفة أخلاق
الناس الحقيقية — كل هذا مصحوباً بميل إلى تصديق الخرافات المزرية ،
الأمر الذى جلب أكثر من مرة الضرر على مصالح الدولة .

وكما كان من نحس ألمانيا أن يكون إمبراطورها ذا شخصية فائقة القوة ،
كذلك كان من سوء طالع روسيا أن يبلغ آخر قياصرها حداً بالغاً من الضعف .
فإنه برغم تجمله بكل خلة شخصية — فقد كان سيداً كريم الخلق ، وزوجاً
وفياً ، وأباً عطوفاً — إلا أنه كان عاجزاً عن فهم شئون الدولة فهماً راسخاً غير
متقلب ، أو انتهاج خطة للعمل ثابتة حازمة . فكان يميل إلى استشارة أفأك
جاهل يتظاهر بالتدين في مسائل تتطلب مشورة رجل سياسى متزن ، وكان
في اختياره نهج هذا الطريق اليائس متأثراً بآراء قريته المحزونة التى يؤلف

افتانها براسبوتين Rasputin الراهب المحتال المستبجح النصاب فصلاً عجياً من فصول علم النفس .

السباق بين
الحرب والثورة

هذا ولم تكن زمرة الدبلوماسيين ورجال الحرب الذين أحاطوا بالعرش الروسى بميالين إلى السلام . فقد كانوا يرومون أن يشاهدوا روسيا - بعد أن أجبرتها الحوادث على التقهقر في الشرق الأقصى - تهيم يوماً من الأيام على ثغر القسطنطينية عقب حرب يُعتقد لها فيها لواء النصر . فكما كانت السياسة الخارجية لحكومة القيصر عدوانية في الماضي ، كذلك ما برحت عدوانية الآن . بيد أنه لم يكن يجيش في صدر الساسة الروس في ذلك الحين رغبة طاغية في امتشاق الحسام ، اللهم إلا إذا وُجّهت إهانة بالغة للصربيين ، فإن سكك روسيا الحديدية لم تكن قد أُكملت بعد .

ولذا فإنه حينما نشب في ٨ يوليو سنة ١٩١٤ اعتصاب خطير في مصانع سان بطرسبرج أدى إلى إقامة المتاريس في الشوارع ونشوب القتال فيها ، لاح كأنه يدل على أن الفوز سيكون للثورة في السباق الذي كان يجري يومئذ بينها وبين الحرب .

كتب يمكن استشارتها

- G.P. Gooch : Germany. (Nations of the Modern World Series) 1925.
 Von Bulow : Memoirs.
 J.A. Spender : The Last Fifty Years.
 D. Lloyd George : War Memoirs. 1933.
 Lord Grey of Fallodon : Twenty-Five Years. 1928.
 Lord Oxford and Asquith : Memories and Reflections. 1928.
 Winston Churchill : The World Crisis. 1923.
 Paléologue; L'Empire des Tsars.

افصل الحادى والثلاثون

نشوب الحرب

تطور حضارة مشتركة رفيعة فى أوربا . اغتيال الأرشدوق . البلاغ النهائى النمساوى . النمسا تعلن الحرب على صربيا . سارنوف . تبعات ألمانيا والنمسا وروسيا فى إعلان الحرب . شعور الإنجليز . انتهاك حياد البلجيوك . مشوليات الرأسمالية . ضعف عام فى الميل إلى السلام . النمسا وحدها ، تؤيدها أركان الحرب الألمانية تريد الحرب عام ١٩١٤ . مفاجآت الحرب المعظمى .

١ - تطور الحضارة الأوربية الرفيعة

ما طلع القرن العشرون ، حتى كانت شعوب أوربا - خلاقسها صغيراً نشر السلام ألوته منها فى البلقان قليل التمدن - كانت قد بلغت ذروة من الحضارة /مرغد العيش لم تبلغهما قط من قبل . فقد عمت المجالس النيابية جميع أقطارها ، ولو أن هذه المجالس كانت فى أصقاع عديلة منها واهية الأساس سيئة الإدارة ، لا تترك الأمم وظيفتها إدراكاً صحيحاً ، أو تحسن تسييرها .

وأخذ الاعتقاد يزداد قوة ورسوخاً بأن العلم يفضُّ السير نحو الاتحاد ، على الرغم من الحركات الحربية والقومية التى قامت فى ذلك العصر . واقتسمت دول أوربا بمجهود رائع من الدبلوماسية الرشيدة قارة إفريقية فيما بينها ، دون أن يثار نضال بين دولها الإمبراطورية ودولها الاستعمارية . وأضحى الالتجاء إلى التحكيم لتسوية الخلافات الدولية يمارس بدرجة أكثر من قبل . وما تأسس اتحاد البريد الدولى (سنة ١٨٧٥) ، وإقامة نظام مشترك لضمان حقوق التأليف ، وإنشاء مكتب دولى للصحة العامة (سنة ١٩٠٧) ، إلا أمثلة

للطريقة التي نزعت نحوها الدول بدرجة متزايدة في إدارة شؤونها المشتركة .
وبدا للناس كأن رجال السياسة قد تعلموا أخيراً الدرس بأن السياسة هي
فن السعادة البشرية . فقد أجازت جميع البرلمانات القوانين لحماية الضعفاء
من أعضاء المجتمع ، وامتحت جميع الامتيازات الجائرة من ميزانيات الدول ،
وأزيلت المظاهر الوحشية للعصر الوسيط من قوانين العقوبات ، وعم التعليم
وازدهر في كثرة الأقطار الأوروبية . وأطال كثيراً الطب الوقائي من أعمار
البشر . واختفى الموت جوعاً من بين قائمة الشرور الاجتماعية في جميع الأقطار
الراقية .

السياسة هي فن
إسعاد البشرية

وخيل أن المجتمع الأوروبي تخلص إلى مدى بعيد من شر واحد بنوع
خاص . فإنه بازدياد القوات المادية الموضوعة تحت إمرة الحكومات ازدياداً
كبيراً بتقدم العلم ، اختفى كل مظهر من مظاهر الركود الذهني ، واستيقظت
الفرائح ، وتفتحت الأذهان في جميع أمصار القارة الأوروبية .

النهضة الأدبية

ولم يُقبل المجتمع على كُتّاب أكثر من إقباله على أولئك الذين هاجموا
النظم القائمة ، وحاولوا إعادة تقدير القيم السائدة ، ففي العصر الفكتوري وجه
ماثيو آرنلد موهبته الموهبة المتأنقة إلى السخرية من التقاليد الجامدة للطبقة
الوسطى . بل ظهر في عالم الأدب في أواخر القرن المنصرم ناقلون ألع وأقوى
من آرنلد . فقد خاطب إِبسن Ibsen ، وتلستوي Tolstoi ، ونيتشة Nietzsche
وأناتول فرانس Anatole France ، وبرنارد شو ، خاطبوا عدداً أكبر من القراء
والمستمعين ، وألّفوا في نطاق واسع في موضوعات أجراً وأجسر مما تناولته
أقلام الكتاب السابقين . فلم يمر زمن على أوروبا كانت فيه أكثر يقظة
لإدراك عيوبها ونقائصها ، أو أحكم مشورة لتدبير وسائل إزالة هذه العيوب
والنقائص ، مما كانت عليه في مطلع القرن العشرين .

وأغدقت العلوم الكهربائية خيراتها على الجنس البشري : فأطمرت بركات
الحرارة ، والآلات الحارقة ، والتلغراف ، والتليفون ، والسينما ، واستكملت

بركات العلوم

الدراجة والسيارة والطيارة ما في السكك الحديدية من مواضع نقص . وتوافرت أسباب الاطلاع على الأدب النفيس والأدب الغث بنماء المكتبات العامة ، وتنافس الناشرين ، وتقدم آلات الطباعة . وأشيعت إلى حد الارتواء صحافة رخيصة غريزة حب الاستطلاع في جماهير العامة الذين ينهى تعلمهم المدرسي بانتهاء مرحلة التعليم الأولى .

رفع مستوى
طبقات العمال

ولكن لعل أبرز مظهر من مظاهر العصر الذي سبق توأ الحرب العظمى . هو نمو الاعتقاد بأن للعمال والعاملات الحق في أن توفر لهم أسباب التسلية والتمتع ، وأن تجعل في متناول طاقتهم ، عن طريق دفع إعانات مالية من خزائن الحكومات . ومنذ سقوط الإمبراطورية الرومانية لم تكن السلطات العامة أحرص على إعداد تسليات عامة لشعوبها ، وإشباع شهوة الجماهير للملذات وتوفير أسبابها لها ، منها في ذلك الحين . كما أن الأعمال الذهبية لم تكن أسرع الانتقال من أمة إلى الأمم الأخرى ، منها في تلك الآونة .

فوسيقى براهمس Brahms ، ومسرحيان إيسن ، وروايات تيلستوي وأناتول فرانس ، وأوبرات جلوبت وسليشان ، وأغاني قاعات الموسيقى الشعبية — كونت كلها جزءاً من الثروة الأدبية العامة لأوروبا . صحيح أن عائق اختلاف اللغات كان عائقاً جديداً خطيراً . ولولاه ، لكان هناك من الدواعي ما يحفز الإنسان إلى الأمل بأن أوروبا قد تصبح بانتشار الثقافة المشتركة وحدة متحضرة واحدة ، كذلك التي صورها أرسططاليس الفيلسوف الإغريقي العظيم .

٢ - انتهاء عهد السلام ، وتجريد السيف

غير أن هذه العملية التي سمت بالحضارة الإنسانية ، وأمنت رخاء البشر ورغد عيشهم ، حطمتها على حين غرة جريمة رهيبة خطيرة الشأن . فإنه في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ ، أطلق غفريلو برنسيب Gavrilo Princip ، وهو طالب متطرف من أهل البوسنة — أطلق الرصاص على الأرشيدوق فرانز فرديناند وريث العرش النمساوي في سراييفو Saragivo عاصمة البوسنة ،

بينما كان الأرشدوق يقوم بزيارة رسمية لتلك الولاية . فقتله هو وزوجته .

فاجتاحت على الأثر عاصفة من الاستياء والاستفطار مملكة النمسا والمجر . واعتقد الكثيرون من أهلها ، كما رأى البعض من ساستها ، أن من حسن السياسة أن يفرضوا أن هذه الجناية ، وإن ارتكبت في أرض البوسنة التابعة للنمسا ، إلا أنها كانت من تدبير جمعية اليد السوداء الصربية ، وأنها لقيت حثاً وتشجيعاً من جانب موظفي الحكومة الصربية^(١) ، أو على الأقل أنهم أغمضوا أعينهم عن أمر تدبيرها .

خطأ الحكومة
الصربية
ومع أن تحقيقاً محلياً أجرته الحكومة النمساوية لم يجد أى دليل مباشر على تواطؤ الحكومة الصربية ، فقد كان للنمساويين بلا أدنى ريب عذر في المطالبة بإجراء تحقيق مستوف شامل في مؤامرة كانت تمتد جنورها بلا نزاع في مملكة الصرب ، وفي ولاية البوسنة على السواء . وكان يجدر بالصربيين مراعاة لمصالحهم نفسها ، أن يقوموا هم بتحقيق كهذا . ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل ، سواء أكان ذلك لأنه كان يجري في صربيا انتخاب عام وقتئذ ، أو لأنه يلوح أن الوزارة الصربية كانت قد تلقت فعلاً معلومات بأنه من المحتمل الشروع في اغتيال الأرشدوق ، وأهملت إبلاغها إلى فيينا .

بلاغ نهائي من
النمسا
فأخذ رأى دوائر فيينا — يدعمه تأييد الحكومة الألمانية — يتحرك سراعاً نحو ضرورة إعلان الحرب على صربيا . بينما أخذت صحافة كلا القطرين تتراسق التهم والعداوات العنيفة . وفي ٢٣ يوليو سنة ١٩١٤ أنفذت الحكومة النمساوية إلى غربيها بلاغاً نهائياً ، قال عنه السير إدوارد غراي إنه لم ير قط دولة ترسل إلى دولة مستقلة أخرى إنذاراً مثله في الغضب والخطورة . فقد كان بلاغاً نهائياً قصد منه أن يقابل بالرفض ، إذ انطوى على تقويض استقلال الصرب — فيؤدى رفضه إلى الحرب .

(١) هناك من القرائن ما يجعل على الاعتقاد بأن اغتيال إسكندر ملك صربيا وفريقته الملكة دراجا عام ١٩٠٣ ، وبصرع الأرشدوق في سنة ١٩١٤ ، كانا كلاهما من عمل أليس Avia رئيس جمعية اليد السوداء .

وأُرسل هذا البلاغ في وقت كان فيه بونكاريه Poincaré رئيس الجمهورية الفرنسية وفشيانى رئيس وزرائها يمتطيان متن البحار ، قافلين من زيارة لقيصر روسيا . ووقفت برلين خلف فينا تشد أزرها وتسند ظهرها . وأُنذرت البواخر الألمانية باحتمال نشوب الحرب . ونُبهت سان بطرسبرج وباريس ولندن إلى أن أى تدخل من جانبها بين النمسا وصربيا ستيبعه « عواقب لا حصر لها » .

ومن السهل تصور مدى القلق والامتناعض اللذين أثارتهما هذه الأنباء في الوزارات الأوروبية . فإن أول خاطر جال في الأذهان هو أن الحكومتين النمساوية والألمانية تريدان أن تتخذتا من هذه الجريمة تكفة لسلب صربيا استقلالها ، وربما أيضاً لإقحام حرب عامة على روسيا وفرنسا قبل أن تُستكمل السكك الحديدية الروسية ، وتصبح معدة للقيام بأعباء الحرب . وازداد هذا الخاطر تأصلاً وتمكناً ، حينما أقنع الإمبراطور فرنسيس جوزف ، بمشورة الكونت برشتولد وزير خارجيته ، بأن يعلن في ٣٠ يوليو سنة ١٩١٤ الحرب على صربيا — هذا برغم قبول الأخيرة سبعمائة من النقط العشر التي حوّاها البلاغ النهائي النمساوى . ذلك أن الجيش النمساوى الذى تعطش طويلاً إلى تأديب « أمة القتلة والسفاحين » لم يقصد أن تغفل من أنيابه هذه المرة .

ولم يكن من المنتظر أن تقف روسيا من غير حراك ، بينما تُمحي صربيا من خريطة البلقان . فقد رأى سazonov وزير خارجية روسيا — وهو رجل سهل الإثارة شديد الاندفاع بحيث لم يكن جديراً بمنصب خطير كمنصبه — رأى ما يملأ قلبه فزعاً وارتباعاً من تدابير دولتي أوروبا الوسطى في الشرق الأدنى : فإن أميراً ألمانياً كان قد أُرسِل إلى ألبانيا لكي يجلس على عرشها ، وقائداً ألمانياً كان قد أوفد إلى القسطنطينية لتنظيم الجيش التركى . فلو أن الصربيين خرجوا صرعى ، فما الذى كان يمنع ألمانيا من إقامة دولة ألمانية تمتد من همبرج إلى بغداد ؟

وكان سazonov شديد البغض للنمساويين . فإنه على الرغم من أن الكتابات تاريخ أوروبا

الروسية كانت قد عاوت سنة ١٨٤٩. فرنسيس جوزف على قمع ثورة هنغاريا ، فإن مملكة النمسا والمجر كثيراً ما وقفت عائقاً في وجه السياسة الروسية . ولهذا بينما كان سارونوف يتوق لكشف سبيل للاحتفاظ بأهداب السلام ، فإنه كان يتتابه بين وقت وآخر فورات جاعحة هوجاء من الغضب والتسرع . ولا ريب أنه كان رجلاً أضعف كثيراً من أن يقاوم ضغط أرباب السيف الروس الذين أجبروا حكومتهم على تعبئة الجيش تعبئة جزئية في أول الأمر ، ثم تعبته تعبئة عامة على أثر وصول الأنباء إلى بلادهم بضرب النمسا للبغداد بالقنابل .

وكان طبيعياً أن يشتعل قيصر الألمان غيظاً واستنكاراً بحرمة سراييفو . فقد كان الأرشدوق خليصاً من خلصائه . وكانت طريقة اغتياله فظيعة مروعة لا يمكن التماس مبرر لها . ومع ذلك فإنه من سوء الحظ أنه في مخاطباته الأولى مع فينا ، كال من غير تحفظ التنديد بصربيا ، وأدلى بتصريحات تم عن رغبته في إزال القصاص بها .

تيمات ألمانيا
والنمسا وروسيا
في إعلان الحرب

ووقف يفاخر بولائه لحليفته ، ويزهو بنخوته في الوقوف إلى جانبها . فكان موقفه هذا أسوأ موقف يمكن أن يتخذ خلال أزمة كانت تتطلب رزانة وهدوءاً ، لا اندفاعاً وراء الخيالات . فإنه نظراً إلى أن فحوى البلاغ النهائي النمساوى انطوى على إزالة دولة مستقلة من الوجود ، لم يكن من السهل أن يقال إنه يمكن حصر الخلاف بين النمسا وصربيا وحدهما . فكانت أكبر خلعمة يمكن للحكومة الألمانية أن تمديها وقتئذ إلى أوروبا هي أن تستخدم نفوذها على النمسا للتخفيف من غلوها . ولذا وجهت إليها التهمة بأنها لم تشرع في الضغط عليها إلا بعد انفلات الفرصة ، حينما أصبحت الأداة الحربية النمساوية تتحرك بكامل قوتها .

فلم تؤيد الحكومة الألمانية السر إدوارد غراي في اقتراحه المقدم في ١٣ يوليو سنة ١٩١٤ بأن المهلة المحددة لصربيا يجب مدها . كما أنها لم تقبل اقتراحه بأن يعرض الخلاف على مؤتمر يعقد في لندن . كما أفهمت الحكومة

النمساوية ، أثناء تصرفاتها البعيدة عن الرصانة ، بأنه في مقدورها الاعتماد على تأييد الجيش الألماني لها . وبذلك رفضت الدولة الوحيدة التي كان في مقدورها كفالة السلام ، أن تتعاون في الجهود التي كانت تبذل للاحتفاظ به . وأخذت الحكومة الألمانية التي كان في وسعها أن تمنع انتقاد جذوة الحرب - أخذت على عاتقها تبعة إشهارها . أما الشعب الألماني فقد ظل يلقن ردىحاً طويلاً من الزمن بأنه يطوقه تحالف مكيفللى من الأعداء ، بحيث لم يجد صعوبة في الاعتقاد بأنه دُعِيَ الآن للذود عن حياض الوطن من محاولة أثيمة تبغى تقويضه .

وكان الألمان شديدي التخوف والقلق بنوع خاص من الجيوش الروسية الهائلة الواقعة لهم بالمرصاد على حدود بلادهم الشرقية . ومن نافلة القول أن يفرض أنه كان في مقدور الأمة الألمانية ، في هذه اللحظة الزاخرة بالانفعال والهباج ، أن تستعيد إلى ذهنها القرص العديدة التي سعت حكومتها بالذات في الأرمنة الحديثة إلى نيل أغراضها الدبلوماسية بسلاح التهديد بالحرب ، وأن تسرّج ألوان الوجل والقلق التي أثارها سياستها الإمبراطورية الاستعمارية في الأقطار الأجنبية .

ولكن تبعة أعظم من هذه تقع على أكتاف الكونت برشتولد . فمع أنه كان معروفاً في قينا منذ ١٣ يوليو بأنه ليس في الاستطاعة إثبات جريمة التواطؤ في جريمة سراچيفو على الحكومة الصربية ، فإنه أصر على مواصلة سياسته القاضية بإنفاذ حملة تأديبية ، حتى على الرغم من الترضيات التي قدمها صربيا ، وحتى حينما صار جلياً أن روسيا ستؤيدها .

حقيقة من الممكن التسليم بأنه كان للنمسا من الأدلة ما يجعلها شديدة الوجل من الدعاية الثورية الصربية داخل حدود إمبراطورتها . غير أنه من الشاق أن يُعتقد بأن هناك أسباباً حقيقية تدعوها إلى الخوف من القوة الحربية لمملكة صغيرة خرجت تواءاً من أتون حربين طاحنتين ، وأصبحت تواجه المشكلة الشائكة الخاصة بهضمها رعاياها الجدد في الجنوب . فأثرت النمسا ، دون

أن تعير أى اكتراث للعواقب ، انتهاز فرصة السخط العظيم الذى أثارته جريمة سراجيفو ، لتسوية جميع خلافاتها مرة واحدة مع تلك البحارة الصغيرة ، ولكنها البحارة المثيرة للمضايقة الشديدة .

ولو أن عاجلاً قوياً بصيراً بالأمر كان متربحاً على العرش الروسى يومئذ ، فربما كان فى طوقه أن يواجه دون خشية ، الحنق الذى سيثيره تخليه عن صربيا فى ساعة محنتها ، حتى ولو جازف بفقدانه صداقة صقالية البلقان وودهم . وربما كان فى وسعه أن يسوغ عمله بأن روسيا تملك من الأراضي الفسيحة إلى حد أنها بالجهد تستطيع أن تحكمها ، وأن الفتوح الأجنبية لن تجلب لها شيئاً يزيد فى قوتها وسطوتها ، وأن سفك الدماء وإضاعة بدرات الأموال من أجل صربيا هما من الخرق وسفاهة الرأى ، بحيث يحتمل أن يهدما صرح الإمبراطورية بأكمله .

إلا أن نقولا الثانى لم يكن بالرجل القوى . فإن روحاً من التسليم النفسى الغامض احتل مكاناً فى جوانح نفسه — كما احتل مكاناً فى جوانح كثرة الروس — بدلا من تحليه بسجية المقدرة على التفكير المتواصل الذى لا يقبل الركود . فبرغم أن القيصر أهاب بالعالم المرة بعد المرة ، أن يعمل على استتباب السلام ، وبرغم أنه دعا الدول الممدنة مرتين لتأسيس محكمة للتحكيم الدولى^(١) ، فإنه سمح مع ذلك لرئاسة أركان الحرب الروسية التى كانت تعبو إلى الحرب ، أن تنتزع منه الإذن بتعبئة الجيش الروسى تعبئة عامة ، قبل أن تقرر ألمانيا إشهار الحرب . ولكن يمكن القول تبريراً لعمله هذا ، بأن حكومته كانت قد حضت الصربيين على أن يقدموا تلك الترضيات بالذات التى قدموها للنمسا ، والتى صرح القيصر عند قراءته إياها للمرة الأولى بأنها كافية لتجنب الحرب .

شعور الإنجليز أما إنجلترا فقد جاهدت باطراد ، بقدر ما وسعها الطاقة ، فى سبيل حفظ السلم خلال تلك الأيام الأحد عشر التاريخية العصيبة ، حينما كانت

(١) هى محكمة لاهائى الدولية .

مصابير أوربا في كفة الأقدار . ولا يمكن بالطبع أن توجه إليها مهمة السعي إلى شهر الحرب . فإنه كان أمراً لا مفر منه ، أنه عند إقحام الحرب على فرنسا ، ستؤثر إنجلترا أن تقاد إلى حومة الوغى ، على أن تشاهد سحق حليفها - حتى ولو أنها لم تكن تدرك ذلك وقتئذ . ومع هذا فقد كان الشعب الإنجليزي ضئيل الرغبة زاهد الفكر في إشهار السيف ، حتى إنه لولا غزو ألمانيا لبلجيكا . لحلَّ بصفوف الوزارة والبرلمان والأمة الانشقاق وتفرق الكلمة .

فإن انتهاك حرمة بلاد بريئة - كانت بروسيا نفسها قد ضمنت حيادها - بلا مسوغ أو استفزاز ، وحّد رأى وزارة أسكوث ، وبدّد شكوك حزب العمال في البرلمان ، وأقنع الأمة بأن الحرب قد أشهرت للدفاع عن قضية عادلة . ولهمّ الحزب الإيرلندي البرلماني بزعامة جون ردمند ، الذي أعلن استنكاره للعنوان الذي حلّ بشعب كاثوليكي صغير على يد جارٍ شديد البطش - ألهم جون ردمند بأن يعرض على الوزارة خدماته خلال هذه الحرب .

أما الفكرة بأن الحرب العظمى أثارها الرأسماليون ، فهي هراء ولغو . فإنه الرأسمالية لم تنح في كل مكان - ربما ما خلا في بعض دوائر صنع الأسلحة - ارتاع كبار رجال الأعمال أيما ارتياح لفكرة انهيار السلم التي أطلت عليهم الآن . ومع ذلك فلأنهم لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون أن يوقفوا أدوات الحرب الجبارة الماثلة عن التحرك والسير - مثلهم في ذلك كمثل الأحزاب الاشتراكية . فلما حلتّ الأزمة ، كان الرأسماليون عاجزين عن تسويتها ، عجزَ الاشتراكيين اللولين . فقد تناسى الاشتراكيون في برلين ، وفي باريس ، وجهات نظرم في السلام العام ، واقترعوا في جانب الاعتمادات المالية المطلوبة للحرب . إذ طغى فوق سائر القوى روح عنيفة من القومية المتأججة المضطربة الأوار .

ولم تكن هناك مملكة أوروبية واحدة وضمت سياستها على أسس من

السلم . بل جاشت في كل وزارة خارجية أحلام كانت تصبو إلى تحقيقها عن طريق القتال . فقد كانت فرنسا تنزو بأبصارها إلى إعادة الأكراس والورين إلى أحضانها . ورغبت ألمانيا في امتلاك مستعمرات أكثر ، والسيطرة على الشرق الأدنى . ورامت النمسا إذلال صربيا ، وانتزاع ثغر سالونيك من اليونان . وابتغت روسيا امتلاك مضيق البسفور والدرديل . ونصبت صربيا شباكها لامتلاك البوسنة والمهرسك . وطمعت إيطاليا في ضم تريستا والترينيو إليها ، ورومانيا في تملك ترانسلفانيا بعد سلبها إياها من هنغاريا ، أو تملك بسارابيا بعد انتزاعها من روسيا .

المسئولية الخملية الواقعة على الحكومة النمساوية

ف عند اندلاع الحرب ، استعرت جميع هذه الأطماع في نار هائلة . أما الحرب في ذاتها ، فلم تكن أمراً لا مفر منه . كما أنها لم تكن قط أمراً يرومه الأكثرون . فلا فرنسا ولا روسيا ولا إنجلترا كانت براغبة في الحرب سنة ١٩١٤ . والحق أنه لم تكن في ذلك الوقت غير حكومة واحدة تتوق بكليتها إلى نقض السلام ، وهي الحكومة النمساوية ، تشجعها وتؤيدها الصولة الشريرة والنفوذ الطاغى لأركان الحرب العامة الألمانية التي كانت قبل مقتل الأرشدوق بشهور تضغط على حكومتها مبينة لها فوائد اقتحام حرب دون تأخير .

الآثار الأولى لإعلان الحرب

وأنتج في الوهلة الأولى ، النبا المذهل للأذهان بأن دول أوروبا تنصارع في ميادين الوغى ، تعجلاً عجيباً خارقاً في دوران عجلات الحياة . فأضحى كل شخص مشغولاً مهتماً بنشاطاً ظمناً إلى بذل الجهود والسعى في خدمة بلاده . وتوارت فجأة المنازعات الداخلية التي كانت تلوح قبل الحرب بأيام قلائل خطيرة الشأن ، إزاء الخطر الكبير الذي صار يهدد حياة كل أمة . فعاد المعتصبون إلى أعمالهم في بطرسبورج ، وتوقفت المطالبات بحقوق النساء عن عنفهن في لندن . وفي إيطاليا حض بنيتوموسوليني Benito Mussolini الذي كان قبيل الحرب يتزعم إضراباً ثورياً هائلاً - حض حكومته على التدخل .

وأمنت كل أمة بعدل قضيتها، وأنها تناضل عدوًّا أثيمًا يتوق إلى تدميرها، وأن بقاء نظام أدبي في العالم غذا يتوقف على إحرازها هي النصر. فالألمان الذين اعتبروا أنفسهم المبشرين بأرفع ألوان الحضارة التي بلغها الإنسان على ظهر هذا الكوكب، لاحوا لأعدائهم كأنهم قد أبدلوا المثل العليا الإنسانية التي دعا إليها الجليل الألماني السابق، بالمبدأ البروسي القاتل بضرورة استعمال القوة المجردة العارية التي لا تقف عند وازع أدبي. فإن لب مكتبة جامعة لوفان المحترقة أرسلت ضوءاً شيطانيًّا مكفهرًا على ادعاءات الألمان برسالتهم الثقافية.

٣ - مفاجآت الحرب

خطا المتنبيين ولم يوهب إلا للقليلين أن يستنبثوا أطوار أو مدة هذا النضال الذي بدأ في جو أغسطس البديع بأشعته الذهبية وسمائه الصافية. وكان الاعتقاد الشائع هو أنه سيكون نضالاً قصيراً حاداً، وسيختتم بتطاحن القوات الحربية في البروفى البحر: هذه القوات التي كانت قد أعدت من قبل بكل حرص وعناية.

ولكن لم يُشَحَّ لرجل أن يتنبأ صدقاً عن أى عامل رئيسي من عوامل الحرب. فإن أحداً من الناس لم يرتقب بأن العالم بأسره تقريباً سيُجر إلى ساحات الهيجاء، أو أن الحرب ستكون حرب شعوب تتطاحن فيها إلى حد الإبادة والإفناء. ولم يستطع رجل أن يتكهن المدى الذي ستطبع العلوم والآلات طابعها عليها وتقرر نتائجها. ولكن كاتباً بولنديًّا^(١) من كتاب القرن الماضي كان أدنى المستشفيين حجب المستقبل إلى الصدق، حينما صور حرب المستقبل كعملية واقفة صامدة من عمليات التفتيل

(١) هو Jean de Bloch الذي ألف كتابه La Guerre ، وهو ترجمة السفر الروسى الذى عنوانه La guerre future aux points de vue technique, economique et politique. الذى ظهر فى ستة مجلدات .

الوحشي الدموي ستكون الغلبة فيها للشعب الذي يستطيع أن يمد نفسه بالطعام أطول مدة .

خطأ تقديرات
الساسة ورجال
الحرب

ولم يكن الساسة بأقدر على استشفاف حجب المستقبل من عامة الناس . فقد افترضت خطط الحرب الألمانية في ثقة ، أن البلجيكي ستسلم لطلب اختراق أرضها ، وافترضت بقاء إنجلترا وإيطاليا ورومانيا على الحياد . وحُسب في برلين أن الجيوش الألمانية ستكون في باريس في بحر ستة أسابيع . إعلان الحرب ، وأنها ستفعل راجعة إلى الجبهة الشرقية في بحر ستة أسابيع . أما في لندن فقد أعدت أركان الحرب العامة العدة لمعارك أربع تدوم كل منها ثلاثة أيام . وكان السياسيون الإنجليز العارفون ببواطن الأمور يميلون خلال الشتاء الأول من الحرب إلى الرأي بأنه لن يمكن أن يؤخر الفصل فيها إلى أبعد من أغسطس سنة ١٩١٥ ، ظناً منهم أن الدول المحاربة ستعجز عن مواصلة تمويل الحرب . وكان كتشير وزير الحرب الجديد هو الوحيد من بين الرجال البارزين الذي استطاع أن يستوعب استيعاباً صحيحاً صعوبات القتال ، متنبئاً بأن على بلاده أن تهبط قسمها لحرب ستطول أعواماً ثلاثة . وبدا تقدير مبكر بأن بريطانيا ستضطر إلى فتح اعتماد مالى قدره ألف مليون جنيه — بدا هذا التقدير في أول الأمر مذهلاً مخيفاً ، مع أن هذا الرقم لم يكن سوى عشر مجموع المبالغ التي أنفقتها إنجلترا مدة الحرب .

الحرب الكالية

ولم تدرك لأول وهلة الصفة المميزة لهذا الضرب الجديد من الحرب . فقد كان شعار دوائر الأعمال الإنجليزية في بدء القتال هو ، « الأعمال تسير كالمعتاد » . وكانت الفكرة في ذلك أن الأمة بمواصلتها أعمالها العادية — كأن شيئاً غير عادي لا يحدث — تتمكن من المساعدة بتجديد الطرق على تمويل جهود حليقاتها .

يبد أنه أخذ يختفى بالتدريج التمييز بين المحاربين وغير المحاربين في هذا النضال الذي نشب بين الشعوب . وأخذ يتضح للناس أنه لا يمكن لفريق أن يأمل

الفوز فيه إلا إذا انتفع إلى أقصى حد مستطاع بجميع موارده البشرية والمادية . وكانت النتائج المعنوية لهذا الأمر مثيرة للعجب حقاً . فلم تتكبد قبل " جيوش " خسائر في منتهى الفداحة دون أن تنهقر خطوة واحدة ، مثل ما تكبدت في هذه الحرب ، ولم ينشط السكان المدنيون إلى العمل في خدمة بلادهم بحماس وإخلاص ، أعظم مما أظهروه في هذا النضال . فقد أبانت النساء في مصانع الذخيرة ، وفي المستودعات والمستشفيات ، وفي المجازفة بأرواحهن في أعمال التجسس واستطلاع الأنباء، عن بطولة تضاهى بطولة الرجال .

ودل الاختبار على أن الفكرة الطائشة القائلة بأن التعليم والحياة الحضارية يُفقدان الناس الشجاعة والإقدام هي فكرة لا تقوم على أساس . فقد سما القوم في ضروب البسالة والحرأة اللتين أبدوهما خلال هذه الحرب فوق كل مستوى سابق . وليس ثمة ما هو أروع وأبعث على التبجيل من روح النظام الاجتماعي الرفيع الذي مكن الألمان دهرأ طويلا من الصمود أمام المتاعب الشديدة التي نجمت عن الحصار البحري الذي ضرب حول بلادهم ، ومن الوقوف صفاً مرصوصاً في وجه أعدائهم .

كتب يمكن استشارتها

- Lord Grey of Fallodon : Twenty-Five Years. 1928.
 Lord Oxford and Asquith : Memories and Reflections. 1928.
 J.A. Spender : Fifty-Years. of Europe. 1933.
 J.W. Headlam-Morley : The History of Twelve Days. 1915.

الفصل الثانى والثلاثون

الحرب . الطور الأول

خطة الحرب الألمانية . الانتصارات الألمانية الأولى . جوفر . تاننبرج والبحيرات
الماسورية . انتصار الحلفاء فى وادى المارين . السباق صوب ثغور القنال الإنجليزي .
الدفاع عن فتوة يبرس . حرب الخنادق . اتساع نطاق جهود بريطانيا الحربية .
الأسطول البريطانى . أنصار الهجوم فى الشرق ، وأنصار الهجوم فى الغرب .
الدردنيل . انحياز إيطاليا إلى الحلفاء . خطة فلكنهاين . انتصارات ألمانية
لامعة فى الشرق . صد هجمات الحلفاء فى الميدان الغربى . فردان والسوم سنة
١٩١٦ . الديابات . نجاح بروسيلوف . دخول رومانيا الحرب . فتح الألمان
لرومانيا . المصاعب الاقتصادية للدولتين الوسطيتين والحصار البحرى .

١ - الانتصارات الألمانية الأولى

كان من نصيب ملتكه رئيس أركان الحرب العامة الألمانية ، والورث
الخائب العادى الذكاء لاسم عظيم مجيد فى تاريخ ألمانيا الحربى ، أن يكون
هو البادئ فى عمليات الحرب الأولى . وقد قامت خطته على مشروع
أحكم تديره سنة ١٩٠٥ الكونت شليفن رئيس الأركان يومئذ . وكانت
تقضى هذه الخطة بأن يسحق الجيش الألمانى فرنسا ويخرجها من ميدان
القتال ، بحركة التفاف واسعة النطاق خلال البلجيك ولكسمبرج ؛ على
حين يحرس بفرق قليلة حدود ألمانيا الشرقية . وحين ينتهى من سحق فرنسا
يقذف بكل قوته ضد الروس . وكانت برلين ترتقب فى وثوق أن الفرنسيين
لن يستطيعوا أن يقاوموا مقاومة مجدية ضربات قوة عظيمة تتألف من أربعة
أخماس جيش الريخ ، حتى ولو أدمت صفوفهم قوة بريطانية من مائة ألف

خطة الحرب
الألمانية

مقاتل، وهو أمر حسب خطة شليفن حسابه . وقد قال قيصر الألمان للسردادوار غراى فى فرصتين : « تذكر أن فى مقدورنا أن نكون فى باريس فى بحر أسبوعين » ، ولم يكن هذا القول مجرد زهو باطل ومباهاة زائفة . فإن الجيش الألمانى سنة ١٩١٤ كان من حيث النظام والتجهيز والتدريب فى جميع الجزئيات والكتليات أقوى أداة حربية شهدها العالم إلى ذلك الحين . فقد بلغت قوته أربعة ملايين وثلاثمائة ألف مقاتل مدربين تدريباً كاملاً ، ومليون مقاتل مدربين تدريباً جزئياً . وكانت مدفعيته متفوقة تفوقاً هائلاً ، وطريقة تعبته تحفة فنية بديعة . إذ نُظِّمَت آلاف من القطارات التى تسير بدقة طبق جدول موضوع ، حاملة موسقاتها البشرية إلى محطات صغيرة رُصَّت على طول السكك الحديدية التى مُدَّت خصيصاً لهذا الغرض على طول الحدود البلجيكية والفرنسية ، انتظاراً « لليوم المرتقب » .

وسارت الأمور سراعاً . فقد أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا فى اليوم الأول من شهر أغسطس . وفى اليوم التالى أرسلت مذكرة نهائية إلى البلجيكي تطلب منها فيها السماح لها باختراق أرضها . ورفضت البلجيكي الإذعان للمطالب الألمانية ، واستنجد ملكها بالملك جورج الخامس . فبعثت الحكومة البريطانية إلى ألمانيا مذكرة نهائية تطلبها فى تصميم قاطع باحترام حيده تلك المملكة الصغيرة . غير أن ألمانيا كانت قد أعلنت فى ٣ أغسطس الحرب على فرنسا . وتدفقت جحافلها على أرض البلجيكي طبق الخطة الموضوعية .

مقاومة الجيش
البلجيكي الباسلة

فوقف فى وجهها الجيش البلجيكي ، برغم قلة عدده ، وقفة تجلت فيها البسالة وثبات الجنان . وقاوم الألمان فى لياج Liege مقاومة لم يتوقعوها ، لعلها كلفتهم نحو أربعين ألف إصابة ، ولكنها لم تعطل الجدول الحربى الموضوع تعطيلاً جدياً . واستمر الجيش الألمانى الهائل يتدفق على أرض البلجيكي : فاحتل بروكسل فى ٢٠ أغسطس ، وقوض بمدافعه الهاوتزر الثقيلة حصوناً عظيمة المناعة كحصون نامور Namour ، ومويج Maubeuge ، وهى

الحصون التي كان الحلفاء يؤملون منها أن تقاوم الغزاة مدة طويلة . وأنفذ الألمان فيلقين إلى أنتورب التي كانت الحكومة البلجيكية قد انتقلت إليها على أثر سقوط بروكسل . وفي الوقت عينه أخذت القوات الألمانية الضخمة تدفع أمامها دفعا القوات الفرنسية والإنجليزية التي كان عددها ومدافعها وعتادها أقل مما ينبغي . وقد حاولت هذه القوات الصمود أمام الألمان في شارلروا Charleroi ، وفي منس Mons ، وفي لي كانو Le Cateau (٢٦ أغسطس) . ولكن جيش فون كلوك Von Kluck كان في ٢ سبتمبر يقترب من باريس . فاضطرت الحكومة الفرنسية إلى الالتجاء إلى بوردو . وواصلت القوات الإنجليزية بقيادة السرجون فرنش Sir John French ارتدادها . ونحى أن سقوط العاصمة الفرنسية وانتهاء الحرب في الميدان الغربي طبقاً للجزء الأول من الخطة الحربية الألمانية هما مسألة أيام فقط .

وكان الجيش الفرنسي يقوده جوفر Joffre ، وهو رجل مرح بدين ، ذو عقل لا يلبس ، وعادات مريثة ، وتفاؤل قوى ، وإرادة ثابتة . ولقد ارتكبت القيادة العليا الفرنسية كل غلطة في مقدورها أن ترتكبها . فلإنها لم تهيئ العناد اللازم للذود عن مقاطعات فرنسا الشمالية الشرقية ، وانتظرت تقدم الجيش الألماني حتى الأردن ، وأخطأت أفحش الخطأ في قلة تقديرها عدد الجند الألمان ، لعدم توقعها زحف فرقة الاحتياطية مع جيش الميدان . ومع أن اختراع المدافع الرشاشة والأسلاك الشائكة غير من أساليب القتال ، فإن أركان الحرب العامة استمرت تغرس في عقول الضباط الفرنسيين الشديدي الانصباع المبدأ القاسد الوخيم العقبي القائل باتباع خطة الهجوم والاندفاع . وكانت نتيجة هذه الأخطاء أن الجيش الفرنسي مئى بجسائر فادحة في الأسبوعين الأولين من الحرب . ولكن برغم اضطراب ميسرته إلى التقهقر إلى حد عرض باريس للخطر ، فإن ميخته صمدت في وجه العدو . وثبت الجيشان الفرنسيان الأول والثاني في مواقعهما أمام تول Toul ونانسي Nancy وڤردان Verdun .

جوفر

٢ - معارك تاننبرج الفاصلة

وفي هذه الأثناء كانت أداة الحرب الثقيلة غير المحككة للإمبراطورية الروسية على الحدود الألمانية الشرقية تتقدم تقدماً متعجلاً في رجاء تخفيف ضغط الألمان الذي هدد بومثد فرنسا . فعلى حين كان جيش الفرندوق نقولا القائد الأعلى للجيش الروسى يشق طريقه في غاليسيا ضد النمساويين ، كان جيشا رننكامف *Rennenkamp* وسامسونوف *Samsonof* يغزوان بروسيا الشرقية ، الأول زاحفاً شمالاً ، والآخر جنوب البحيرات المسورية ، ناشريّن ضرباً من الارتياح والفرع الشديدين في طول ألمانيا وعرضها .

ثم بلغت برلين فجأة ، ومن غير سابق إنذار ، أنباء انتصارات تزيد كثيراً في روعتها وكالمها على ما يمكن للخيال أن يحلم به . فقد أيد جيش سامسونوف في تاننبرج *Tannenberg* (٢٥ - ٣١ أغسطس) ، وهُزم جيش رننكامف هزيمة منكرة عند البحيرات المسورية (٨ - ١٥ سبتمبر) . أما صانع هذه المعجزة ، فكان قائداً ألمانياً عجوزاً أجبرته الحرب على الخروج من عزله والرجوع إلى صفوف الجيش ، لإلامه الكبير بطبيعة أرض تلك الجهات . وكان رئيس أركانه قائداً أصغر منه سناً ، لمع اسمه خلال الهجوم على ليج . فأمكنهما بسلسلة من المناورات المتناهية الإحكام والبراعة أن ينقذا بروسيا من غالب الروس . وصار اسما هندنبرج *Hindenburg* ولودندورف *Lodendorf* من تلك اللحظة طلسم النصر عند الألمان . غير أنه لم يُعرف وقتئذ أن هذين القائدين الكبيرين كانا ينقلان خطة وضعها قائد ألماني آخر ^(١) .

وكانت النكبة التي حلت بالقوات الروسية في الغابات والمستنعات المسورية الموحشة هائلة ماحقة . ومع ذلك فقد حققت هذه القوات شطراً

(١) هو الكوازل مهان *Hoffmann* رئيس إدارة العمليات الحربية .

على الأقل من هدفها الذى كان تقدمها المستعجل البعيد عن الفطنة يرى إلى تحقيقه . فإن الألمان لكي يوقفوا زحف الجيش الروسى ، اضطروا إلى أن ينقلوا من الجبهة الغربية فيلقين كان وجودهما فى سهول فرنسا الشمالية خلال الأسبوع الأول من سبتمبر يحوّل الهزيمة التى حلت بهم فى تلك الجبهة إلى نصر متألق .

ذلك أن جوفر أدار وجهه قافلاً لمهاجمة مطارديه فى وادى المازن (٤ - ٩ سبتمبر) ، ورَسب المعركة الفاصلة فى الحرب العظمى . ولا يقلل من فضل هذا القائد أن مشورات الجنرال غاليني Gallieni حاكم باريس العسكرى ساعدته فى وضع خطته وتنفيذها ، أو أنه جاءت إلى نجده ظروف لم يكن هو نفسه يوجهها أو يضبطها : كالحقيقة الواقعة مثلاً بأن المقاتلين الألمان كانوا قد سبقوا كثيراً فى زحفهم تقدم عتادهم ، وأن فون كلوك تحول فجأة نحو الجنوب ، مستجيباً رجاء جاءه من الجيش الألماني الثانى بأن يسد ثلثة أخرجت مركزه ، وبذلك عرّض جناحه لهجوم شُنَّ عليه من باريس ، وأن ضابطاً من ضباط أركان الحرب الألمانية أصدر الأمر بالارتداد اعتقاداً منه أن جيشاً روسياً أنزل على شاطئ البلجيك ، (وهى إشاعة كثر تصديق الناس لها يومئذ فى إنجلترا) . فإن من واجبات القائد البارع أن يستمع إلى آراء أصدقائه الحسنة ويقبلها ، وأن ينتفع بأغلاط خصومه . وما كان إلا قائداً عبقرياً فذاً ، هذا الذى استطاع ، بعد تراجع طويل الأمد مزرٍ بالكرامة ، أن يعيد تنظيم جيوشه ، ثم يستدير لمواجهة غريمه ، ويثبث المهمة فى جيوشه بحركة متناسقة كل التناسق على جبهة واسعة ، ويقودها إلى النصر .

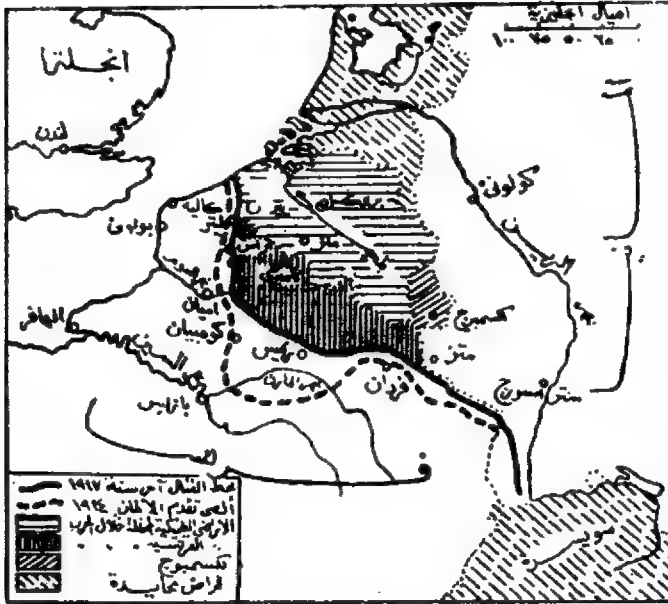
٣ - حرب الخنادق

وبعد أن أخفق الألمان فى الاستيلاء على باريس ، أهملوا نتيجة سهو غريب ، احتلال موانئ القنال الإنجليزي ، حينما كان ذلك سهلاً عليهم . فإن السرجون فرنش ، وهو قائد فرسان سريع القلب والحركة ،

كان ينوى سحب الجيش الإنجليزي من خط القتال ، بعد ازدياده الكبير ، لإعادة تنظيمه وتجهيزه . ولكن كشنر الذي صار وزير الحرية عند نشوب الحرب تدخل شخصياً ، لمنع هذا الانسحاب . وقد كثر نقد العسكريين لخطط فرنش ، واشتد تعريضهم بكفائته الحربية . غير أنه يجب ألا يعزب عن البال أنه حينما تقهقرت صفوف الألمان من المارن إلى الإين ، وصمدوا أمام جميع المحاولات لطردهم من مواقعهم ، اتخذ فرنش من تلقاء نفسه قراراً خطير الشأن . فقد سير في حذق ومهارة نحو القتال الإنجليزي قوة إنجليزية (في أكتوبر) ، وبذلك سبق العدو إلى احتلال سواحله .

صد الألمان
عند بيرس

وصد فرنش في سلسلة من المعارك الضروس التي دارت حول بيرس Ypres محاولات العدو ، الواحدة بعد الأخرى ، لاختراق خطوطه . والحق أن معارك قليلة في التاريخ تفوق شدة وصلابة معركة بيرس الأولى والثانية . كما أن معارك قليلة جداً تفوقهما في أهمية نتائجهما . فلو أن الألمان كانوا قد تمكنوا من ترسيخ أقدامهم في كاليه وبولون ، لقطعوا أسرع خط



خريطة الميدان الغربي ١٩١٨ - ١٩١٤

من خطوط الاتصال بين فرنسا وإنجلترا ، ولاختلت خطة التعاون برمتها بين البلدين ، بل لعلها كانت قد اختلت اختلالاً مميّناً قاضياً .

وإن عظم الخسارة الفادحة التي ألّمت بكلا الفريقين لأكبر دليل على خطورة ذلك الصراع وأهمية نتائجه . فقد حُصِد جيش إنجلترا المحترف القديم ، وذبلت شبّية الجامعات الألمانية في المناضلات الخفيفة التي حدثت في خريف سنة ١٩١٤ وريبع سنة ١٩١٥ من أجل امتلاك ثغور القتال الفرنسية . ولكن تضحية الحلفاء هذه لم تذهب أدراج الرياح ، فإن الألمان أسرفوا في تبديد احتياطهم من الضباط الشبان الذين تعذر عليهم تعويضهم ، وشعروا بفقدانهم شعوراً عظيماً في السنة الأخيرة من سني الحرب .

وعلى مسيرة الخنادق البريطانية ، اصطف الجيش البلجيكي تحت قيادة الملك ألبرت على ضفاف نهر الإيزر ، واحتفظ في يده برقعة صغيرة من الأرض حتى نهاية الحرب ، راداً عنها هجمات الأعداء الغزاة . وبرغم قلة عدده ، وبرغم إصابته بخسائر فادحة أنقصت نقصاً كبيراً من صفوف كتائبه ، أسدى للحلفاء خدمة ضرورية . ومع ذلك فإنه يدين بالشيء الكثير لوجوده إلى قوة إنجليزية صغيرة كانت قد أنفذت إلى أنتورب في الساعة الفاصلة ، فكنته من الانسحاب من تلك المدينة المحاصرة ، وخلصته من قبضة الألمان لكي يساهم في الدفاع عن ثغور القتال .

نصيب الجيش
البلجيكي

وما وافى شتاء سنة ١٩١٤ حتى بات جلياً أن تغييراً أساسياً قد طرأ على الموقف الحربي في الجبهة الغربية . فقد حل محل حرب الحركة حرب تطاحن وإبادة . وبدلاً من تصويب ألمانيا سهماً قاتلاً إلى أحشاء فرنسا ، فُرض عليها هي حصار بطيء مضمّن . وأخذ الجيشان المتباريان يراقب أحدهما الآخر ، ويتقاتلان في خطوط الخنادق الطويلة المحمية بالعواتق السلكية الممتدة من القتال الإنجليزي حتى إقليم الفوج ، وهما عاجزان عن التقدم إلا في خطى ضئيلة جداً في جوانب الجبهة الصلبة الجامدة ، برغم

حرب الخنادق
الطاحنة

ضروب البسالة الخارقة والإقدام الجسور التي أبدياها .

المزايا الحربية
للألمان

وكان للألمان في الأيام الأولى من هذه المبارزة المفضية المفجعة مزايا عظيمة . فقد كانوا أكثر عدداً وأحسن تدريباً من أعدائهم . وكانوا يملكون عدداً أوفر من المدافع الرشاشة ومدافع الهاوتزر والطائرات والمشاغل . وكان في قبضتهم الأراضي الأكثر ارتفاعاً . وكانوا يسيطرون على موارد البلجيك الاقتصادية وأقاليم جنوب شرق فرنسا الغنية التي حوت ٨٠ ٪ من فحمها ، وكل حديدتها تقريباً . فلم يكن في الطاقة رد جناحي جيشهم اللذين كان أحدهما يستند إلى البحر والآخر إلى جبال الألب .

تكوين جيش
كثيف

وبات في الحال واضحاً للحكومتين الفرنسية والبريطانية أنه لن يتم التوازن في قوات الفريقين المتحاربين إلا إذا حُشد جيش بريطاني أكبر بكثير من الفرق الست التي عُدت كافية في مبدأ الأمر ، وقُدِّف بهذا الجيش في رحي الهيجاء . فأهاب كثثُر بالبلاد للتطوع في سلك الجندبة . وجال في خاطره إمكان تكوين سبعين فرقة خلال ثلاث سنين وقد أعطى شخصه المهيب ، وصيته المتقطع الضريب ، لندائه قوة خاصة . فأقبل الناس للفور على التطوع ، حتى وصلت جيوش كثثُر - كما كانت تدعى أحياناً - إلى ثلاثة ملايين مقاتل . ولكن حتى هذا الرقم الكبير لم يكن بكاف . فالتَّجَّئُ إلى التجنيد الإجباري سنة ١٩١٦ . وقد يجمل بنا أن نقول إنه من الأمور المشكوك فيها أن بلاداً غير إنجلترا كانت تستطيع أن تحشد عن طريق التطوع جيشاً جراً من الشبان للقتال وراء البحار في حرب ضروس ، كهذا الجيش الذي جمعه كثثُر . ومع هذا فقد وقع العبء الرئيسي من النضال في الجبهة الغربية - على أكتاف الجند الفرنسيين ، خلال الفترة التي كان فيها المتطوعون البريطانيون يدربون ويجهزون .

ولكن مع أن بريطانيا لم تكن مهياً بالمرة لجهود حربية عظيمة كهذه الجهود التي تطلبها الآن منها هذه الحرب ، إلا أنها كانت تسيطر على أمواج البحار . فإن أسطولها كان قد حُشد للمناورات البحرية التي أجريت

في يوليو سنة ١٩١٤ . فاحتُفظ به بعد انتهائها ، نتيجة حيلة المستر تشرشل وزير البحرية وصدق فراسته . و رابط الأسطول في قواعده البحرية في سكاپافلو وروسايت . وأدعيم في عملياته الحربية بقسم كبير من الأسطول التجاري ، المتتافى في الخدمة ، الحسن التدريب والبراعة .

وكانت الأميرالية البريطانية ، وعلى رأسها الأميرال چليكو Jellicoe القائد الأكبر للأسطول ، تدرك أكمل إدراك الالتزامات الواسعة النطاق المفروضة على الأسطول ، وهي باختصار : تأمين نقل الجنود إلى أية جهة من جهات المسكونة تدعو الضرورة إلى إرسالهم إليها ، وتدمير الطرادات الألمانية ، وقطع دابر التجارة الألمانية في البحار الخارجية ، وانتزاع المستعمرات الألمانية ، ومصادرة الأطعمة وذخائر الحرب المرسلة إلى البلدان المعادية . فهذه الالتزامات جميعها أنجزها الأسطول في غير جلبة : بمساعدة أسطول اليابان وفرنسا في مياه المحيطين الهادى واهندى والبحر الأبيض المتوسط ، ثم أيضاً بتعاونة أسطول الولايات المتحدة الجيد التدريب في الأطوار الأخيرة من الحرب .

٤ - حملة الدردنيل

وقد تأثرت بالضرورة خطط بريطانيا الحربية في ميادين القتال البرية ، هجوم أنصار الهجوم في الشرق بتفوق أسطولها في البحار . فإن بريطانيا ، من بين جميع الدول المقاتلة ، كانت وحدها مطلقة اليد في استخدام جيوشها في أية بقعة من بقاع العالم . ولهذا السبب سرعان ما لاح محتملا قيام حالة جمود في الميدان الغربى ، حتى برز فريق من وزرائها يحض على استخدام القوات البريطانية في ميدان الحرب الشرقى . وكانت حجج هذا الفريق أن الخطوط الألمانية في الجبهة الغربية من المناعة بحيث يكاد يتعذر التغلب عليها ، وأن القوة المهاجمة كانت تُمنى في محاولات اختراقها بخسائر أفدح كثيراً من تلك التى أصابت المدافعين ، وأن خير خطة استراتيجية يخلق بدول الحلفاء

اتباعها أن تلزم جيوشها خطة الدفاع في الغرب ، حيث كان استخدام المقاتلين والميرة عملاً غير مجدٍ نسبياً ، وحيث يُسمح للألمان بأن يهجموا إذا ما رأوا في ذلك مصلحة لهم . وأن تسعى تلك الدول إلى نقل مسرح الفصل في هذه الحرب إلى الشرق ، حيث قد يعاون ظهور قوة إنجليزية فرنسية صغيرة العدد نسبياً في البلقان إلى انضمام شعوبها إلى حملة هجومية كاسحة على الإمبراطورية النمساوية ، أو إلى فتح طريق مأمون لتموين روسيا بالذخيرة ، بعد أن أفضلت المضائق في وجه سفن الحلفاء في أول أكتوبر سنة ١٩١٤ ، وانضمت تركيا إلى دولتي الوسط في ٢٩ أكتوبر من ذلك العام . وكان المستر لويد جورج والمستر تشرشل محبذين قويين لهذه الخطة ، وحضوا على إنفاذ هذه الحملة .

معارضة أركان
الحرب الفرنسية

وكانت رئاسة أركان الحرب الفرنسية العليا بأكملها معارضة للفكرة بطبيعة الأمر . فلم يكن في نظر جميع الفرنسيين هدف ينبغي أن تُحصر فيه الجهود ألزم من تحرير أرض الوطن من الغزاة . كما كانوا يرون أنه كلما ازداد عدد المدافع والمحاربين الذين تستطيع إنجلترا أن تبعث بهم إلى فرنسا ، خف حمل الفرنسيين ، وعجل ذلك في تحقيق أملهم المنشود . وشاطرهم هذا الرأي السرجون فرنش والسر دجلاس هاييج الذي خلفه سنة ١٩١٥ في قيادة الجيش البريطاني . وهاييج ضابط من ضباط الفرسان ، أسكتلندي الأصل ، ثابت الرأي . فقد سخط هذان القائدان تشيتت جهد إنجلترا الحربي ، وكانا - بالاشتراك مع جوفر - يعتقدان الأمل الحلاب بأنه في حيز الإمكان دائماً ، بل لقد خامرهما الظن أحياناً أنه أمر وشيك الوقوع ، أن يتمكننا من اختراق خطوط العدو بهجمة صادقة من الفرسان ، والظفر بالنصر . وكان جميع كبار العسكريين ، ما خلا كشتنر ، يشاطرونهما هذا الرأي ، ويعقدون رجاءهم كله على الجبهة الغربية .

نتائج دخول
تركيا الحرب

والحق أنه كان حدثاً فذاً ، أثار التغيرات دول الاتفاق ، انضمام تركيا إلى أعداء فرنسا وإنجلترا صديقتي الباب العالي منذ قديم الزمان . فلقد كان أخرى بالسلطان أن يواصل سياسة الحياد . ولكن نفوذ أنور باشا وزير الحربية وضغطه ، وظهور الطرادتين الألمانيتين غوبين Goeben وبرسلاو Breslau

في مياه البسفور ، والإكراميات الألمانية التي نُثرت في عديد الدوائر التركية ، والمضايقة التي سببتها لإنجلترا لتركيا بجزرها في أحواضها البحرية بارجتين كان صنعهما لتركيا قد أكمل ، وكان ثمنهما قد جمع باكتتابات عامة قومية - كل هذه الأمور دفعت أخيراً الباب العالي إلى الضرب عرض الحائط بمشورة القائلين بحكمة الحياد . وأمكن التغلب على آخر مظهر من مظاهر تردده ووجله بقطعة رائعة من المكر والحساسة . فقد ضربت الطرادتان الألمانيتان اللتان كانتا قد بيعتا صورياً للحكومة التركية الثغر الروسي العظيم : أودسا في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٤ ، وبهذه الطريقة ورُطت الإمبراطورية العثمانية ، ودخلت الحرب في جانب ألمانيا والنمسا في اليوم التالي .

وكانت عواقب دخولها الحرب غاية في خطورة الشأن واتساع النطاق . فإن روسيا التي كانت تملك قوات من الرجال لا حصر لها ، نقصتها المعدات الميكانيكية لمواصلة حرب حديثة . فاحلّ خريف سنة ١٩١٤ ، حتى كانت قد استنفدت احتياطياتها من الذخائر ، إذ لم يكن في مقدورها أن تسد سوى ثلث مطلوبها اليومي من الذخائر مما تنتجه مصانعها .

إنفاذ حملة
الدردينيل لغزو
روسيا

فباتت روسيا الآن تواجه عبء حرب جديدة ضد الترك في القفقاز . وفي الثاني من يناير سنة ١٩١٥ تسلم كشنر استغاثة من الغرنلوق نقولاً تستحثه على المبادرة إلى مد يد المعونة إليه ، لتخفيف الضغط عن جبهة القفقاز . فقرر الرأي على إنفاذ حملة إلى الدردنيل . ذلك أن روسيا قد تكررَ بإقفال ذلك المضيق على إلقاء السلاح لنقص ميرتها ، أما إذا فُتح هذا الطريق المائي ، فإنه يصبح في المستطاع ، لا تدفق القنابل والمدافع عليها في جميع فصول السنة فقط ، بل يصبح في المقدور أيضاً وقف شيوع روح التشييط والقعوس فيها ، وتدعيم قواتها المعنوية ، وتحسين خططها الحربية ، بدروس الميدان الغربي وعبره الحربية .

وكللك جاءت اعتبارات أخرى ، ليست بأقل من هذه أهمية وقبولا ، لتأييد فكرة إنفاذ الحملة . فإن رسو أسطول بريطاني أمام القسطنطينية كان

يشطر الجيش التركي شطرين ، ويفتح طريقاً إلى نهر الطونة ، ويجعل في متناول الحلفاء المحاصيل الوفيرة من الحنطة التي تنتجها أقاليم روسيا الجنوبية . فكان أول تحويل للجهد الحربي والبحري أثناء الحرب وأدعى إلى التعجيل به ، هو تجريد هذه الحملة إلى الدردنيل .

وأخذت تبدو وتتجسم في الأفق البعيد تطورات سياسية وحرية واسعة المدى : مثل انحياز دول البلقان المسيحية إلى قضية الحلفاء ، والتحرير المحتمل للعالم العربي من ربة الترك ، وثورة العالم الإسلامي المحتملة ضد بريطانيا . وتقويض الحكم البريطاني في الهند ومصر ، وإنهاء الحكم العثماني للشعوب غير التركية في أوروبا وآسيا — هذا الحكم الذي دام دهوراً طويلاً . فكانت حملة شبه جزيرة غاليبولي أعظم من مجرد تدبير حربي ملائم لغوث روسيا وتدعيم عزيمتها . فلما كانت الضربة القوية الأولى من الضربات التي وُجِّهَتْ إلى الإمبراطورية العثمانية . فأوردتها في نهاية الأمر موارد البوار ، حتى ولو أن حملة الدردنيل نفسها أخضقت في تحقيق هدفها الأكبر .

ولكن كانت هناك تقصيرات كثيرة في وضع هذه المغامرة الجسورة إخفاق الأسطول
البريطاني المحفوفة بالأخطار موضع التنفيذ . فقد حطت محاولة قام بها الأسطول البريطاني في ١٨ مارس سنة ١٩١٥ لاقتحام المضيق الدردنيل ، بسبب انفجار حقل خفي من الألغام . ولم تُجدّد هذه المحاولة مرة ثانية ، الأمر الذي يستنكره الآن بعض أرباب الرأي الخفيف من رجال البحرية . فأنذِر العدو إنذاراً كاملاً بنية الحلفاء ، وتأهب أتم تأهب لاستقبال السر أيان هاملتون Sir Uan Hamilton قائد الحملة ، حينما غدا في مركز ييسر له التزول بأرض شبه الجزيرة ، بعد تأخيرات طويلة كان في الإمكان تحاشيها .

وفي الحال تجلّت للجميع الصعاب العديدة التي أخذت الحملة تواجهها . صواب الحملة فلأن شبه هذه الجزيرة العارية من الأشجار ، تتحدر أرضها بالتدرج نحو الشاطئ ، فتبيء بذلك في كل فج تقريباً من فجاجها مكاناً صالحاً كل الصلاحية للدفاع عنها . وكانت القوة المهاجمة أقل عدداً مما ينبغي أن تكون

عليه . وكانت تعتمد كل الاعتماد في تموينها على الأسطول . وأخذت تجابه كل ضرب من ضروب العوائق استطاع الذكاء الألماني والدأب التركي أن يقبها . ومع هذا أمكن إزلال جنود الحملة تحت نار حاصدة في نقط قليلة بطرف شبه الجزيرة الجنوبي في ٢٥ أبريل سنة ١٩١٥ ، وبذلك عُرِضَت خيرة الفرق التركية شهوراً عديدة لمجهود متواصل مضى في الدفاع عن مراكزها . ولاح النصر خلال فترة قصيرة ، دافى القطاف من البريطانيين ، بعد أن وصلهم إمدادات كبيرة ، ففي ٦ أغسطس استولى الجنود البريطانيون على مكان جديد للتزول في خليج سوفلا . وقد أخذ الأتراك هنا على غرة . ولعله كان في استطاعة ستيفورد Stopford قائد الفرقة المهاجمة أن ينتزع تل أنافيرتا الذي كان مفتاح الموقف ، لو أنه بادر بعد التزول إلى التقدم . ولكن الفرصة أفلتت من يده بإضاعته ثمانى وأربعين ساعة ثمينة ، جمع خلالها مصطفى كمال بك ، وهو ضابط شاب تركى ، عدداً كافياً من الجند ، وطار على جناح السرعة إلى النقطة الحيوية ، وأخذ بذلك الموقف .

انسحاب الحملة
وغنائرها

ثم رأت الحكومة البريطانية سحب قواتها من شبه الجزيرة ، بعد أن فقدت الرجاء في نجاح هذه المغامرة . وتم سحب هذه القوات (١٨ ديسمبر سنة ١٩١٥ - ٨ يناير سنة ١٩١٦) من غير أن تفقد أثناء السحب رجلاً واحداً ، بعكس ما أُنْزِر به جميع المتنبئين . وكان إجلائها أنموذجاً رائعاً لكفاءة الأسطول البريطاني الذي أبلى بلاء حسناً طول مدة الحملة .

وقد كلفت مغامرة الدردنيل البريطانيين ١٢٠ ألفاً من القتلى والجرحى . وأخفقت في تحقيق هدفها الأكبر ، وهو شق طريق مالى في جنوب أوروبا إلى روسيا لكي تواصل مقاومتها الألمان والأتراك مقاومة عنيفة عنيدة . ومع ذلك فإنه من التعجل القطير أن يفرض أن هذا البذل العظيم من الأرواح البريطانية في بطاح شبه الجزيرة الجرداء ذهب هباءً منثوراً ، من دون أى نفع لقضية الحلفاء . فإن روسيا ظلت تقاوم وتناضل ، تحفزها أقوى الدوافع لمواصلة الحرب ، وذلك طالما كان البريطانيون بمعاونة الجنود الأستراليين

والنيوزيلنديين الصداقة يدقون دقاً قوياً أبواب المضائق . وكان الحلفاء قد وعدوها بالقسطنطينية ، هذه الجائزة الثمينة التي ما انفكت بريطانيا أكثر من قرنين تعمل على حرمانها منها . ذلك أن كل كسب كان تافهاً ضئيل القيمة في نظر الروس ، بجانب هدية نفيسة كهروس البسفور . فلأنهم لم يأبهاوا إلا قليلاً لأمر صربيا ، ولم يشتهوا فتوحاً في تخومهم الغربية ، وأدركوا أنه ليس من السهل عليهم دحر الألمان . ولكن لو أن حملة الدردنيل كانت قد أفلحت في تحقيق مرماها ، لعوضت روسيا عن خسائرها الجمة في البحيرات الماسورية ، وفي بولندا ، وفي غاليسيا . ولهذا يمكن القول بأن أهم نتيجة حرية لحملة الدردنيل هي أنها أبقت روسيا تواصل الحرب ، كما أنها شغلت خيرة فرق الجيش التركي ، وأرهقت قواها .

٥ - إيطاليا تدخل الحرب

رأت إيطاليا عقب نزول البريطانيين في غاليبول أن تلبي نداء سياساتها القومية ، وذلك بعد أن وزنت جميع الاحتمالات والوجه . فأشهرت الحرب على النمسا في ٢٤ مايو سنة ١٩١٥ . فإن غزو البلجيك غير المشروع ، ولو أنه أثر تأثيراً محسوساً في عواطف الإيطاليين الكريمة ، إلا أنه كان أقل تأثيراً في نفوسهم من توقعهم إلى ضم الترينينو وتريستا إلى بلادهم ، وهي تلك الأراضي الإيطالية غير المحررة التي أبت النمسا أن تتنازل لهم عنها . أما الحلفاء فقد تعهدوا بمقتضى معاهدة لندن السرية في ٢٦ أبريل سنة ١٩١٥ بأن يردوها إليهم ، جزاء معاونتهم إياها .

وقد نُدد فيما بعد بهذه المعاهدة ، كجريمة ضد مبدأ تقرير المصير . إذ نصّت على إخضاع أهل التيرول النمساويين لسيد غريب عنهم دون موافقتهم - بل على الضد من رغائبهم . بيد أن هذا كان الثمن الذي فرضته إيطاليا على الحلفاء لتقدم لهم مساعدتها . وكانت هذه المعاهدة إحدى الانحرافات والوصيمات التي لوّثت العدالة المثالية ، والتي أكرهت الضرورة - والضرورة

لا تعرف قانوناً - حكومتى لندن وباريس الديمقراطيةين على الموافقة عليها . وكانت النتيجة لتدخل إيطاليا هى أنه فُتح على الفور ميدان جديد للنضال والقلق للجيش النمساوى . فإنه برغم فشل الإيطاليين فى شق طريقهم إلى النمسا ، فقد أمسكوا بتلايب عدوهم ، وأصلوه حرباً عواناً طويلة ، فى جبال الألب وفى وادى آزنزو Asonzo وعلى هضبة كارسو Carso الصخرية ، خلفين وراءهم فى هذه المعامع ٢٨٠ ألف قتيل .

فوائد تدخل
إيطاليا

ومع أن الإيطاليين هُزموا هزيمة شنعاء فى كابوريتو Caporetto فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، ولأذا بالفرار مختل الصفوف بشكل بدا كأنه انهيار قوى عام ، إلا أنه ظلت فى قلب الحكومة والشعب الإيطالى بقية من الإرادة والإقدام تعذر حتى على هذه النكبة أن تمحقها .

معركة كابوريتو

وتمكن الجيش الإيطالى بمعاونة بعض الفرق الفرنسية والإنجليزية التى جاءت فى الوقت المناسب - تمكن من لم صفوفه ، والصمود للعدو تحت قيادة قائد جديد على ضفاف اليباف . ثم جمع قواه ، واسترد ثقته عند دحره غريمه فى معارك متعاقبة . وفى الأيام الأخيرة من الحرب وجه لعدوه فى ساحة فتوريو فينيتو Vittorio Veneto (فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨) ، الضربة القاصمة لصفوفه المتداعية التى كانت قد فقدت روحها المعنوية: تلك الضربة التى دكت الإمبراطورية النمساوية إلى الحضيض .

معارك
فتوريو فينيتو

ولقد أُلِفَ الإيطاليون ، فى غلو مختفر لهم ، أن يعزوا إلى هذا النصر القوى الكبير لا سقوط إمبراطورية آل هابسبرج فقط ، بل النصر النهائى لقضية الحلفاء . ولها حزٌ فى نفوسهم ألا يفوزوا بعد أن وضعت الحرب أوزارها إلا بمكافأة غزيرة معتصبة اغتصاباً ، مقابل خدمة جليلة القدر كهذه الخدمة، ونصائير أمدح بالنسبة لعدد السكان من تلك التى تحملها أية دولة أوربية أخرى .

٦- الحرب في عام ١٩١٥

بينما كان دخول إيطاليا الحرب لا يزال معلقاً في كفة الميزان ، أقصى ملتكمه من قيادة الجيش الألماني خائباً مدحوراً ، وحل في مكانه فلكنهاين Falkenhayn القائد الألماني العبقري في أواخر سبتمبر سنة ١٩١٤ . وكانت الخطة الاستراتيجية لهذا الرئيس الجديد لرياسة أركان الحرب تتسم بالجرأة والمرونة . فمع أنه فشل في بلوغ أهدافه الرئيسية في هجوم قام به في خريف سنة ١٩١٤ في معركة بيرس الأولى ومعركة الإيزر ، إلا أنه طاب نفساً لأن جيوشه باتت في مراكز حسنة ، وصارت تحتل خنادق صالحة في فرنسا والفلاندر ، بحيث يمكن الاعتماد عليها في الحول القادم بأن ترد بخسائر قليلة نسبياً أي هجوم قد يوجه إليها .

ورأى فلكنهاين أن في طاقته استغلال هذه الفرصة في شن حملة فاصلة في الجبهة الشرقية ، حيث كان الفرندوق نقولا في غاليسيا يهدد كراكاو والإمبراطورية النمساوية . ولم يكف فلكنهاين أن هندبرج أوقف الجيوش الروسية البرقعة البطيئة الزحف عن التقدم في خريف سنة ١٩١٤ ، بل ابتغى أن تُرد تلك الجيوش إلى روسيا نفسها . ورأى ما سيرتب على القضاء عليها من مزايا للألمان هائلة لا حصر لها . فإنه سيخفف بذلك عن النمسا عبئها الباهظ من الخوف والفرع ، ويمكن دولتي الوسط من مد يد المعونة إلى تركيا ، ويساعد على تحطيم صربيا ، واستمالة بلغاريا إلى جانب بلاده ، وتدعيم ولاء اليونانيين المتأرجح ، ومقابلة هجوم الإيطاليين بقوة كبيرة لو أنهم قرروا دخول الحرب في صف الحلفاء . كما أن إزالة الكابوس الروسي الجاثم بضميريات صادقة متواصلة يمكن ألمانيا والنمسا من تسوية شئون الشرق فترة من الزمن ، وتعبيد الطريق من برلين إلى بغداد خلال القسطنطينية .

ورأى أنه من الممكن بعد إنجازه هذا العمل حل مشكلة الجبهة الغربية الصعبة ، وشاهد في إنجلترا أخطر أعداء ألمانيا وأصلبهم عوداً وأكبرهم شراً

ولإثباته . وأيقن أنه ليس في استطاعة بلاده فرض الصلح على الحلفاء إلا بطريقتين متلازميتين معاً وهما : شن حرب القواصات من غير قيد في البحار ، وإيراد الجيوش الفرنسية موارد البوار في البر . وانتهى تفكيره إلى هذه النتيجة ، وهي أنه عند ما يتم له إخضاع الشرق ، يجب أن يهجم الجيش الألماني على فرنسا في نقطة بالغة الحيوية لها بحيث تُكره على كل تضحية مهما غلت للندود عنها . فتُجذب زهرة الجيوش الفرنسية إليها ، حيث يعمل على سحقها وإبادتها . ووقع اختياره النهائي لهذه النقطة التي أعدها لمذبحة الفرنسيين الهائلة على فردان . وأصاب الألمان نجاحاً فائقاً في الأدوار الأولى لهذه الخطة الضخمة . فقد شق ماكزن Mackensen طريقه في ٢ مايو سنة ١٩١٥ بغلالة هائلة من النيران وسط الجيش الروسي المقاتل في غاليسيا في معركة غورليس تَرَنَاو Gorlice Tarnau . ولما كان يتفوق كثيراً في قوة المدفعية على غريمه ، دفعه أمامه دفعاً حتى الحدود الروسية منزلاً به خسائر مروعة . وسقطت على التعاقب لبرج عاصمة غاليسيا ، ووارسو عاصمة بولندا ، وكوفنو وقلنا أكبر مدن لتوانيا ، أمام المدافع الهاوتزر الثقيلة الألمانية . وفي الشمال اكتسح فون بيلو ، وهو قائد من أبرع القواد الألمان - اكتسح مقاطعة كورلند Courland من أعمال لتفيا ، ثم طار إلى ريغا في رجاء قطع المواصلات الحربية بين بَرغراد^(١) وخطوط القتال الروسية . وبلغ تقدم الزحف الألماني من السرعة والقوة الجارفة ، أنه ما طلع شهر سبتمبر سنة ١٩١٥ ، حتى لاح من المحتمل أن الألمان سيتمكنون من قطع خطوط اتصال الجيوش الروسية بقواعدها ، ثم تمزيقها شراً ممزقاً . بل لاح كأن العام الجديد قد يطلع على الألمان وهم مستقرون في بَرغراد . ولكنهم حُرموا من تحقيق فوز ساحق كهذا . فإن روسكى Russky في الشمال وإيفانوف Ivanov في الجنوب ، أحرزا خلال شهر سبتمبر انتصارات هدأت من سرعة تقدم الألمان ، وأرسلت بارقة جديدة من الأمل في قلوب الحكومة القيصرية .

انتصارات
ألمانيا الرائعة

(١) هو الاسم الروسي الجديد لبطرسبورج .

ولكن مع أن القوة الدافعة لهذا الزحف الألماني العظيم تضاعفت ، فإن نتائج هذه الحملة كانت رائعة جليلة إلى حد كبير . فقد فُتحت الروس ٣٢٥ ألف أسير وثلاثة آلاف مدفع . وهى ضربة لم يتمكن الجيش الروسى قط من استرداد قواه بعدها استرداداً كاملاً .

ثم تلا هذه الحملة إخضاع البلقان . فشُدَّ من أزر الأتراك فى صدمهم الهجوم البريطانى فى ساحة الدردنيل . وأمكن استمالة البلقار ، فأعلنوا الحرب فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ على صربيا . وأكره الجيش الصربى الذى كللت هجماته فى الحريف السابق جبينه بالفخر - أكره على الارتداد على عجل ، متحملاً خسائر ماحقة ، إلى جبال ألبانيا المكسوة بالثلوج ، قبل أن يُعطى وقت كاف لقوة صغيرة من جنود الحلفاء ، كانت قد أنزلت فى سالونيك ، لتقديم مساعدتها له .

ولاح أنه أينما يظهر قائد ألماني ، يجلب فى ركابه النصر . فهندنبرج فى بروسيا الشرقية وبولندا ، وماكنزن فى غاليسيا وصربيا ، وليمان فون ساندرس فى شبه جزيرة غاليبولى ، كسبوا جميعاً انتصارات رائعة . وبنينا كانت هذه الانتصارات المتألقة تُكتسب فى المسرح الشرقى للحرب ، وقفت الجبهة الألمانية فى الغرب ثابتة القدم أمام هجمات الجيشين الفرنسى والبريطانى . وفى تلك الجبهة وضع الحلفاء فى تفاؤل لم تكن تبرره الحوادث ، خططاً لسلسلة من الهجمات فى الفلاندر ، وفى أرتوا ، وفى كامبان ، أنزلت بالمهاجمين خسائر أفدح كثيراً مما أصابت القوات المدافعة - اللهم ما عدا الهجوم المباغت الناجح فى نيف شابل (١٠ - ١٣ مارس) - فقد اعتقدت القيادة الفرنسية العليا - بانية اعتقادها على نظرية حساية زائفة - بأنه فى حروب التطاحن والإفناء ، يكون المهاجمون فى مركز أفضل . ولكن الألمان أبانوا أنهم أكثر منها دراية بفنون الحرب ، فلأنهم خرجوا ظافرين فى القتال الذى دار فى تلك الجبهة ، برغم عدم غنمهم شيئاً من استخدامهم غير المشروع للغازات السامة (فى ٢٢ أبريل سنة ١٩١٥) بعد المفاجأة الأولى فى بيرس . وكما كان منتظراً

مد هجمات
الحلفاء فى
الميدان الغربى

بطبيعة الحال ، أدت الخسائر الفادحة التي أصابت الحلفاء في الجبهتين الغربية والشرقية عام ١٩١٥ إلى إحداث تغييرات عدة في قياداتهم العليا . فقد بلغ من انزعاج الرأي العام الإنجليزي من نقص الذخائر عند الجيش البريطاني ، ومن قرائن الفشل الذي لازمه في الغرب ، أنه طالب بضرورة تكوين وزارة ائتلافية . كما استُبدل بفرنش هايج .

ولكن ما كان أخطر من ذلك في نتائجه ، هو التغيير الذي حدث في روسيا . فقد نُدب الفرندوق نقولا لقيادة جيش القوقاز . وتسلم القيصر مقاليد القيادة العليا ، ومعه ألكسييف Alexieff كرئيس أركان حربه . ولكن على الرغم من عظمة مواهب ألكسييف الحربية ، فإن أغلبية الروس عدوا هذه التغييرات دليلاً على انتصارات المؤثرات التي كانت تمثل في نظرهم أقوى عوامل الفساد في حكومة تلك البلاد ، وأشدّها عداً لتسيير دفة الحرب تسييراً فعالاً حازماً . فقد كان القيصر دمية في يد القيصرة التي كانت خاضعة لسحر راسبوتين . وراسبوتين هذا راهب فاسق سفيه وهبته قلوباته المتنوعة كمدّح للنوبة ، ومداد روحاني وشهواني مستبيح ، نفوذاً ساحراً على نساء الطبقة الروسية الرفيعة ، وكان يُعتقد أنه يناصر عقد صلح منفرد مع الألمان . ولما كان الفرندوق نقولا أعظم أعداء هذا المخلوق صولة ، فإن عزله من منصب القيادة العامة العليا ، عد نصراً لهذا الراهب ، وبالتالي نصراً للألمان ، ولوبة عار على سمعة البيت الروسي المالك . ومن هذا الحين أخذت هيبة نقولا « الأب الحنون للشعب » تتضاءل في عجلة واطراد .

قيصر روسيا
يتسلم قيادة
جيوشه

٧ - الحرب في عام ١٩١٦

وكان العام التالي (١٩١٦) عاماً خالداً بشكل خاص في معارك الجبهة الغربية ، نتيجة معركتين نشبتا في أرض فرنسا ، طالت إحداهما إلى سبعة أشهر ، والأخرى إلى أربعة . إن ملحمتي فردان والسوم هما بلا نزاع من أروع الأعمال البشرية الدالة على قوة الاحتمال ، وأفجع المأسى البشرية في التبديد

معركتا فردان
والسوم

والإسراف . ومع ذلك فإن ذلك العام انتهى ولم يبدُ أن شيئاً قد أكل بعد .
 فى ساحة فردان رد الفرنسيون العدو على أعقابهم ، واستعادوا جميع المواقع تقريباً
 التى كانوا قد فقدوها فى الأدوار الأولى من الهجوم الألمانى . أما البريطانيون
 الذين فقدوا ٦٠ ألف قتيل وجريح فى اليوم الأول من معركة السوم ، فقد
 أخضعوا فى تدمير وسائل الدفاع المحكمة التى حمت الخط الألمانى . ومع
 ذلك فإن هاتين المحزرتين المرعبتين غيرتا رجحان كفة الميزان فى جانب
 الحلفاء . فإنه حينما رد الفرنسيون العدو عن فردان فى يوليو ، وحينما تضاعفت
 الجهود المتواصلة الباسلة التى بذلتها القوات البريطانية الجديدة فى ساحة السوم
 فى أكتوبر ، كان الجيش الألمانى القديم الذى كان أكل قوة حربية شهدها
 العالم ، وأعظمها براعة وحذقاً - كان هذا الجيش قد راح واندثر^(١) . ومن
 هذا الوقت فصاعداً أجبر الألمان على الاعتماد إلى أكبر حد على مجندين من
 الأحداث لم تكن صفاتهم الحربية بأعظم من صفات خصومهم الفرنسيين
 أو البريطانيين .

وكانت هناك حقيقة أخرى أثارت قلقاً عميقاً لدى هيئة أركان الحرب
 الألمانية : هى ظهور جيش بريطانى كبير العدد فى ساحة الوغى ، قادر على
 أن يأخذ من الفرنسيين جانباً كبيراً من خط القتال ، ويرد ضربات العدو
 بمثلها شدة واطراداً وتقتيلاً .

وفى ساحة السوم ظهرت الدبابات ، وهى سيارة مسلحة تسير على عجلات
 « جتزرية » ، وتستطيع أن تشق طريقها خلال الأسلاك الشائكة والخنادق
 والعوائق الأخرى . وقد ظهرت فى حومة النضال لأول مرة فى ١٥ سبتمبر
 سنة ١٩١٦ . وكانت اختراعاً بريطانياً عاق ظهوره مدة طويلة قبل الآن
 الروح العسكرية المحافظة المتصلبة . ولكن قدر له أخيراً أن يكون المفتاح
 الذى يفتح مغاليق الجبهة الغربية . غير أن هذا الاختراع البديع لم يحدث

(١) بلغت الخسائر الألمانية فى السوم خمائة ألف ، والخسائر البريطانية ١٠٠ آلاف ،
 والخسائر الفرنسية ١٩٠ ألف رجل .

سوى أثر ضئيل في ميدان السوم . ذلك لأنه استُخدم استخداماً جزئياً ، وبطريقة غير فطنة . إلا أنه كسب عام ١٩١٨ النصر في تلك الجبهة .

نجاح بروسيلوف وبينما كانت الفرق الألمانية في الميدان الغربي تقابل هذه العوائق والصعاب ، رفرف حسن الطالع بجانبه على الجنود الروس في الجبهة الشرقية . فإن هجمة رائعة قام بها بروسيلوف Brussilov ، الذي لعله كان أكفأ القواد الروس في الحرب العظمى ، دلت مرة أخرى على أن الجيش الروسى حيناً يجهز تجهيزاً حسناً ، ويقاد قيادة حاذقة ، يصبح أكثر من قريع للقوات المجندة المختلطة المتذمرة التي حشدتها الإمبراطورية النمساوية المجرية . ففي خلال حملة دامت عشرة أسابيع ، أسر بروسيلوف أربعمائة ألف وخمسين ألف أسير من جنودها . فلمع نجاحه وقتئذ بنور أشد تألقاً مما يستأمله ، نظراً لنكبات الروس في حملات العام المنصرم . وبدا هذا النصر كأنه يذكر أوروبا بأن أمة تستطيع أن تحشد خمسة عشر مليون رجل في سن القتال هي أمة لن تُستنفد قط مواردها . وقد شجع هذا النصر الروسى رومانيا على إشهار الحرب في ٢٧ أغسطس سنة ١٩١٦ على النمسا والمجر . فردت ألمانيا في اليوم التالى بإعلان الحرب عليها .

وقابلت شعوب الحلفاء بالتهليل والابتهاج انضمام حليف لها كرومانيا عظيم الثراء في الحنطة وزيت البترول ، وأصناف أخرى من الثروة الطبيعية . غير أن القواد الروس والرومانيين لم يكونوا أنداداً لفلكنهاين وماكترن اللذين اكتسحا اكتساحاً كل مقاومة اعترضت سبيلهما . ودخلا بوخارست في ٦ ديسمبر . والحق أن سرعة الزحف الألماني وبراعة خطته الحربية ، والحق الذي وفق به هذان القائدان العظيمان بين حركاتهما - الأول وهو يزحف خلال جبال الكريات ، والآخر خلال دوبرجه ، ثم انقضاضهما في ختام الأمر على قصبة البلاد - كسبت لهما إعجاب المراقبين الحربيين وتقديرهم . وصارت ثروة رومانيا الطائلة تحت تصرف ألمانيا وحليفاتها - ما خلا معدات آبار البترول التي كان مهندس إنجليزى قد أشرف على تدميرها . وبواسطة هذه

انضمام رومانيا
للحلفاء

الثروة ازدادت زيادة ملحوظة قوة احتمال دولتي الوسط وحليفتها ومقاومتها .

مصاعب ألمانيا
وانحسار
الاقتصادية

وكان الألمان قد أدركوا بعيد إعلان الحرب أن تعويض المواد الخام والأغذية ، التي حرمهم منها الآن بقطعة الأسطول البريطاني وسهره ، ستكون من أصعب مشاكلهم وأعقدها . ولكن يهودياً رفيع المقام في ميادين العلم والأعمال والأدب : هو ولتر راتناو Walter Ratnau تكفّل بتنظيم موارد البلاد الاقتصادية طبق خطة محكمة التنظيم . فكشفت أعواض لألوان شعبية عديدة من الأغذية ومواد خام ضرورية كثيرة . ولكن برغم كل ما صنعه العلم ، وحاء به التنظيم ، وبرغم المساعدة القيمة التي جاءت بها الموارد الرومانية ، فإن الحصار البحري أثر أثره السيئ في تغذية الشعب الألماني وصحته . فبدت أمارات على ندرة الأشياء سنة ١٩١٥ ، وأمارات أوضح في سنة ١٩١٦ . ثم ازداد الضغط خطورة وشدة . وتحمل الأهليون عنهم في تقشف وتجلد وبطولة ، يرفع من أملهم بالنصر ضجيج الانتصارات الكبيرة ، وترقب النصر النهائي في ثقة . وحينما عين هندنبرج قائداً أعلى للجيش الألماني ، ولودندورف رئيساً لهيئة الأركان العامة في ١٨ أغسطس سنة ١٩١٦ ، عقب فشل الهجوم على فردان ، عمت البلاد روح جديدة من الأمل ، وأجمعت كلمتها على بذل أقصى الطاقة . وسيطرت الدولة على خدمات كل مواطن من سن الخامسة عشرة إلى الستين ، بعد أن مدت سلطاتها العامة امتداداً واسع المدى .

٨ - الحصار البحري المضروب على دولتي الوسط

سيطرة الأسطول
البريطاني على
البحار

سيطر الأسطول البريطاني من مبدأ الحرب على أمواج البحار . فتمكن نقل الجيش البريطاني ، ثم الجيوش الحديدية المهندسة ، إلى فرنسا دون فقدان رجل واحد . ورُحلت الكتائب البريطانية إلى اللوردنيل ، وإلى الإسكندرية وإلى سالونيك ، دون عائق . وطُردت الطرادات الألمانية من عرض المحيطات . وأوقفت التجارة الألمانية عبر البحار . وقُطع اتصال المستعمرات الألمانية بأرض الوطن ، وعرضت لخطر الاستيلاء عليها في أول فرصة ملائمة . وبذراع الأسطول

البريطاني أمكن جعل الأغذية والمواد الخام وذخائر الحرب المصنوعة في الولايات المتحدة في متناول الحلفاء ، على حين حُرم أعدائهم منها .

حقن الدول
المحايدة

ولكن الرقابة البحرية أثارت حقن الدول المحايدة التي كانت سفنها تنقل البضائع إلى دول القارة ، برغم تنفيذ هذه الرقابة بفطنة واحتراس عظيمين . فكلما أوقفت سفينة حربية إنجليزية سفينة تجارية أمريكية في عرض المحيط لتفحص مشحوناتها ، حى غضب دوائر الأعمال الأمريكية ، وارتفع سخطها على هذا التدخل الاستبدادي غير المشروع من طرف دولة محاربة في حقوق المحايدين الأبرياء . غير أن الاحترام المتبادل بين السر إدوارد غراي وولتر بيج Walter Page السفير الأمريكي في بريطانيا ، عاون معاونة كبيرة على التلطيف من حدة المضايقات والمشاحنات ، التي ربما كانت أدت إلى متاعب خطيرة لو أنها عولجت معاملة أقل فطنة ووداً . وكان في استطاعة البريطانيين الرد على اعتراضات الأمريكيين ردّاً حسناً ، بأنه لما كان الألمان يحاولون محاصرة الساحل البريطاني بغواصاتهم ، فيحق لبريطانيا أن تنتقم لنفسها . غير أنه لم يكن من المنظور أن يقبل المحايدين هذه الحجة كرد مقنع .

وظلت حرية البحار مثار نزاع ، إلى أن دخلت الولايات المتحدة نفسها الحرب . فطوتها يد النسيان . وبوشر الحصار البحري لألمانيا بكل همة ونشاط ، بعد أن كان مثيراً لمضايقة الأمريكيين . وطرحت الولايات المتحدة وراء ظهرها بسرعة فائقة حوافزها القانونية . وقد قال أمريكي كبير للمستّر بلفور وزير الخارجية البريطانية أثناء زيارة قام بها الأخير للولايات المتحدة سنة ١٩١٧ ، « لقد أخذت بريطانيا ثلاث سنين حتى تهى نفسها لكسر جميع قوانين الحصار البحري ، ولكنك ستجد أنه لا يعوزنا غير شهر حتى نغلق مجرىين كبيراً مثلكم » .

تقاليد الأسطول
البريطاني

وكانت تقاليد الأسطول البريطاني تسودها روح نلسن ومناقبه : روح ذكية رائعة مقدامة في انتهاز القرص ، ولباقة سريعة الفهم رصينة النظر أثناء القتال . وهي صفات كان يُعتقد أنها من سمات البحارة البريطانيين وحدهم .

وكافت البلاد تتوقع نشوب ملاحم عنيفة وحملات عدوانية في بحر الشمال ، وإبراز التفوق البحري الذي اعتقد الإنجليز أنه لأسطولهم ، وإبراز هذا التفوق بشكل سريع برن دويه في الآفاق ، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل . فقد توارى الأسطول الإنجليزي وسط ضباب المياه الأسكتلندية وجوّها الملبد . وأغرقت الغواصات الألمانية عدة طرادات بريطانية . وكرت الأيام والشهور وظلت السفن الحربية الألمانية آمنة وراء حقول الألغام التي نثرتها لحمايتها ، على حين بدا الأسطول البريطاني الرئيسي كأنه لا يتوق إلى البروز من وكرة الأمين في سكاپافلو ، والأخذ بتلايب غريمه . وخلقت التطورات الجديدة في الحروب البحرية : كالألغام ، والطوربيدات ، والغواصات ، وأستار الدخان — خلقت أخطاراً جديدة ، وفرضت على رجال البحر المسؤولين اتخاذ تدابير واحتياطات جديدة .

وفي ٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ نشبت معركة نائية بالقرب من جزر فولكلند ، معركة فولكلند ، فثك فيها الأميرال ستردي Sturdee بقوة من الطرادات الألمانية بقيادة الأميرال فون شي Von Spee الذي كان قد أحرز قبل ذلك نصراً بحرياً على الأسطول الإنجليزي في المحيط الهادي . فأثار هذا النصر الحمية والشجاعة في النفوس ، لا لأنه أقصى فقط العدو إقصاء لا رجعة فيه عن عرض البحار الجنوبية ، بل لأنه أثبت أيضاً فطنة الأميرالية البريطانية وذكاءها ، وكفاية قواد البحر ، وبراعة رجال المدفعية البريطانيين في الرماية .

إلا أن الأسطول البريطاني لم يشتبك في شيء أشبه بموقعة عامة حتى مايو سنة ١٩١٦ . وعند ما حدث هذا الاشتباك ، جاءت نتيجته منجية لآمال الشعب الإنجليزي . فقد ترقب لإحراز انتصار حاسم . ولكنه أحبط علماً بنخب حملت معركة بحرية تكبد فيها الأسطول البريطاني الأكبر خسائر بلغت ضعف ما تكبده خصمه في الرجال والسفن الحربية . ولعل هذا الخذلان يرجع إلى أن سوء الرؤية خلال المعركة حرمت من الانتفاع بميزة تفوقه على أسطول العدو .

وقد أثارت الأنباء الأولى التي بلغت لندن عن معركة جتلند Jutland (٣١ مايو سنة ١٩١٦) إحساساً لا ينسى من التشاؤم والحزن ، فقد تساطل تاريخ أوروبا

الناس: أحقاً غدا تفوق بريطانيا البحرية أمراً مضمياً وانقضى . بعد أن تحدها الألمان تحدياً جدياً ، وهل كان جليكو القائد الأعلى للأسطول مصيباً في حرصه على قواته ، وتنكبه المحازقات غير الضرورية ؟ غير أن الأيام القادمة جاءت بالرد على هذه الأسئلة . فإن الأسطول الألماني الأكبر لم يجرؤ على الخروج من ملاذه مرة أخرى لمنازلة غريمه . فإذا كانت جتلند نصراً للألمان ، فقد كانت لها نتائج عديدة لا تنجم في المعارك البحرية الأخرى إلا عن الهزائم الفاصلة .

وكان بحارة كلا الأسطولين يمتازون بالشجاعة والنظام . إلا أن الألمان كانوا متفوقين في الاستعدادات الفنية . فإن تربتر القائد الأعلى للأسطول الألماني كان قد استشف ببعيد نظره المسائل التي تنطوي عليها العمليات البحرية في أحوال سوء الرؤية التي تسود بحر الشمال ، وهو أمر لم تعره الأمبرالية البريطانية الضائاً برغم أهميته ودقة شأنه . فلم تبسّن السفن الألمانية - بعكس السفن الحربية الإنجليزية - بقصد إحراز التفوق في السرعة ، أو للعمليات التي تجري بعيداً عن قواعدها ، أو القيام برحلات طويلة ، بل كان يقصد منها بلوغ هذا الهدف المحدود : وهو الالتحام بالعدو في المياه القريبة .

موازنة بين
مزايَا الأسطولين

فلم تكن السفن الألمانية تحمل إلا قدرأ ضئيلاً من الفحم ، ولم تهين لبحارتها من وسائل الراحة إلا أشدها ضرورة . ولكن قنابلها كانت نافذة للدروع ، ورمياتها في المراحل الأولى من القتال محكمة مضبوطة ، ودروعها الصلب من الشخانة بحيث تعذر تقريباً إغراقها . وبينما لم تحدث القنابل البريطانية الطائشة التصويب سوى أثر ضئيل في الدروع الصلبة السمكة التي كانت تقى سفن الأسطول الألماني ، كان في مقدور الألمان أن يخرقوا الدروع غير الواقية لأية طراداة بريطانية تجاسرت في طيش أن تدنو من مرمى مدافعهم ، وأن يعيشوا بها ويبحارها البواسل إلى قاع البحر .

ولكن نقصاً واحداً في نظام الأسطول الألماني استفحل خطبه ، حتى صار نكبة قاتلة أضاعت عليه مزايَا تفوقه . فبينما كان البحارة البريطانيون يلدعون البحار على الدوام ، فإن البحارة الألمان كانوا يقيمون خلال الشطر الأكبر

من أوقاتهم في ثكنات مشيدة على الشاطئ - إلا فترات قصيرة يقضونها في سفنهم - وذلك نظراً لضيق الأماكن المخصصة لإيوائهم في تلك السفن .
 وكان أثر هذا الإجراء ضاراً في النهاية بروج النظام البحري في الألمان . فإن البحارة المقيمين في غير سفنهم يتأثرون بكل مؤثر يظهر في بيئتهم . ولذا نرى في الشهور الأخيرة من الحرب ، أن عصياناً بحرياً حدث في كيبل قد شلّ الأسطول الألماني ، وأدى أخيراً إلى إحلال ومن عام به قتل من فرص الانتفاع به في مواصلة الحرب .

كتب يمكن استشارتها

خير المؤلفات التاريخية المختصرة عن الحرب هي :

G.R. Cruttwell : A History of the Great War. 1934.

B.H. Liddell Hart : The Real War. 1930.

أما إذا رغب القارئ كتباً مطولة : فليراجع :

John Buchan : The History of the Great War. 1921-2.

Winston Churchill : The World Crisis. 1923-1931.

وكتب معظم الذين ساهموا بأدوار هامة في الحرب مذكرات أهمها :

D. Lloyd George : War Memoirs. 1933.

Concise Ludendorff Memoirs : 1914-1918. 1933.

- Von Hindenburg : Out of My Life. Tr. F.A. Holt. 1920.
 The Memoirs of Marshall Joffre : tr. T.B. Mott. 1932..
 Feeh : Memoirs. 1931.
 Jellico : Crisis of the Naval War. 1920.
 R. Poincaré : Au service de la France. 1913-26.
 Sir Ian Hamilton : Gallipoli Diary. 1920.
 Sir W. Robertson : Soldiers and Statesmen. 1926.
 Admiral W.S. Sims and B.J. Kendrick : The Victory at Sea. 1920.
 J.J. Pershing : My Experiences in the World War. 1931.
 O. Czernin : In the World War. 1919.
 A. Brussilov : A Soldier's Notebook. 1930.
 Prince Rupprecht : Mein Kriegstage buch. 1929.
 Von Kluk : The March on Paris and the Battle of the Marne, 1914-1920.
 Huguet : Britain and the War. Eng. tr. 1928.
 Huguet : Memoirs of Falkenhayn : Berlin. 1920.
 Huguet : Memoirs of Hoffmann. Berlin. 1920.
 Huguet : Memoirs of Conrad von Hotzendorf. Vienna. 1925.

أما كتب التاريخ الإنجليزية الرسمية فهي :

- Brigadier General J.E. Edmonds : France.
 Brigadier General C.F. Aspinall-Oglander : Gallipoli.
 Cyril Falls : Palestine and Macedonia.
 Brigadier General F.J. Moberly : Mesopotamia.
 The official history of naval operations by Sir Julian Corbett and Sir

Henry Newbolt.

The official history of aviation in the War by Sir Walter Raleigh and
H.A. Jones.

وتوجد دراسة رائعة لمعارك سنة ١٩١٤ في كتاب :

General E.L. Spears : Liaison, 1930.

وللهجوم الإيطالية في كتاب :

G.M. Trevelyan : Scenes from Italy's War. 1919.

وللهجوم الإنجليزي على زيبروج بقلم :

Sir Hilton Young : By Sea and Land. 1924.

ولوصف الحرب في البلدان العربية يُنظر كتاباً لـلونس :

T.E. Lawrence : Revolt in the Desert. 1927.

T.E. Lawrence : The Seven Pillars of Wisdom. 1935.

الفصل الثالث والثلاثون

الحرب . الطور الأخير

حرب الفواصات ودخول أمريكا الحرب . الثورة الروسية . فترة كيرنسكى . فوز البلاشفة . إخراج لنين لروسيا من الحرب . قهر بريطانيا لحملة الفواصات . خذلان نقل وممركة ياشنديل العموية . فتح البريطانيين بغداد وبيت المقدس . المراقيل في سبيل السلام . الحرب خلال عام ١٩١٨ . انتصارات فوش وهاييج . الثورة الألمانية . الهدنة . نتائج الحرب المعطى على العالم والإمبراطورية البريطانية .

١ - حرب الفواصات ودخول أمريكا الحرب

تميز العام التالى (سنة ١٩١٧) بمحادثين قُدّر لكل منهما أن يؤثر تأثيراً بعيد المدى فى تاريخ العالم ، وهما : دخول الولايات المتحدة الحرب ، والثورة الروسية .

إعلان حرب
الفواصات

ولا محيص لقواد الجيوش وأمرء البحر الألمان من أن يتحملوا تبعه لإثارتههم عداوة الولايات المتحدة . فقد جروا - وعيونهم مفتحة متغابين عن الخطر - الإمبراطور وليم وبينان هولفج Betmann-Hollweg المستشار الإمبراطورى ، إلى انتهاج حرب الفواصات المطلقة من كل قيد من أول فبراير سنة ١٩١٧ . وكان معنى هذا القرار أن للفواصات الحق فى أن تفرق أية سفينة تجارية دون إنذار .

وكان هؤلاء الرؤساء العسكريون يدركون أنهم بهذا الإعلان السافر للقرصنة سيجلبون على ألمانيا عداوة الولايات المتحدة . فقد أغرقت غواصة قبل ذلك بستين سفينة الركاب لوزيتانيا على مقربة من ساحل لإرلندا ، فاستفز هذا العمل حكومة

مستولية
المسكربين

وشنطن ، وأوشك على دفعها إلى الحرب . غير أن رجال الحرب الألمان حسبوا أنه قبل أن تستطيع القوات الأمريكية أن تساهم بنصيب فعال في ساحات الحرب بفرنسا ، تكون الغواصات قد أجاعت لإنجلترا ، وأكهرتها على الاستسلام .

فشل حرب
الغواصات

وكان هذا العمل مقاومة خطيرة للقلع . وكادت ألمانيا تظهر بتحقيق مآربها . إلا أنها انتهت بالخذلان نتيجة للتدابير التي اتخذتها الأبرالية البريطانية لمكافحة الغواصات . وبإخفاق تلك الحملة قضى القضاء المبرم على جميع آمال ألمانيا في الانتصار . ولقد بلغ التزق والتهور بالحكومة الألمانية أنها حاولت في أوائل عام ١٩١٧ لغراء المكسيك على مهاجمة جارتها الكبرى ، بوعدها بضم تكساس والمكسيك الجديدة وأريزونا إليها ، وهي ثلاث ولايات من ولايات الجمهورية الأمريكية . ولكن قلم المحاربات بالأبرالية البريطانية استرق خفية نبأ هذا العرض ، وأبلغه إلى وشنطن ، فقادها ذلك في نهاية الأمر إلى إعلان الحرب .

إعلان الولايات
المتحدة الحرب

في صباح يوم مشرق من أيام أبريل (٦ أبريل سنة ١٩١٧) أبصر اللندنيون بأعين قريرة وأفئدة مفعمة بالأحاسيس العميقة علم الولايات المتحدة يخفق جنباً إلى جنب مع الراية الإنجليزية فوق الأبنية الرسمية .

وكان الرئيس ولسن متمهلاً في إشهاره الحرب . بل إنه كان متريثاً متباطئاً أكثر مما ينبغي في نظر زعماء الحزب الجمهوري الأمريكي في ولايات الاتحاد الشرقية الذين كانوا يرغبون في دخول بلادهم الحرب في ميدتها ، احتجاجاً على انتهاك حياد البلجيك . ولكن ولسن بجانب كونه بالفطرة ميالاً إلى السلام ، رأى نفسه مكراً على أن يحفل بالشعور القوي ضد إنجلترا الذي كان سائداً في أوساط أمريكية عديدة . هذا إلى أنه اعتقد أن الحكمة تدعوه إلى التريث . فقد كان يرى بعين الخيال والرؤيا دول أوروبا المتقاتلة سوف تستلهم العون والقوت ، وتناشده أن يقوم بينها حكماً منصفاً في خلافاتها ، وقصداً بالاحها ، بعد أن ينهك الصراع قواها ، وتطحنها الخطوب والأرزاء . واعتقد أن الاقتدار قد اصطفته للقيام بهذا الدور الذي اضطلح به فعلاً في الأيام المقبلة ، وهو الدور الذي جال في خاطره وتحت أنه دُعى للقيام به . ولما

لم يكن ثمة شيء بقادر على زحزحته من موقف العزلة والحياة المشرب بالرزانة والعطف الذي وقفه ، لولا غباوة لودندورف وتربتز العمياء في التشديد بإطلاق حرب الغواصات من كل عقال .

تقارب عواطف
الشمعين
الأنجلو-كسوفيين

فأثارت هذه الحرب كوامن عواطف الأمريكيين ومشاعرهم القوية . ولكن مراقباً فرنسياً^(١) نافذ النظر أعرب عن الرأي بأن الدافع الحقيقي لإعلان أمريكا الحرب - حتى وإن كان دافعاً لا يسلم به الكثيرون - هو العطف الذي يخفق في صدور الأمريكيين نحو وطنهم الأول وأسلافهم القدماء الذين خرج من صلبهم الشطر الأكبر من الأمة الأمريكية . فهو الذي حدا بتلك الأمة إلى عدم الوقوف موقف المتفرج ، بينما لإنجلترا تسحق وتوطأ بالأقدام ، حتى وإن التزمت أن تطوى في صدرها كراهتها التقليدية الطويلة الأمد للاشتباكات الأجنبية . ورأى هذا الفرنسي أن عطف الأمريكيين على فرنسا القائم على ذكرى لا فاييت خلال حرب الاستقلال ، كان شيئاً ضئيل الأثر في دفعهم إلى القتال بجانب الحلفاء ، إذا قيس هذا العطف بشعورهم نحو إنجلترا ، حتى وإن كان يُعرض على الأنظار بدرجة أعظم منه^(٢) .

وأثبت في النهاية دخول الولايات المتحدة الحرب أنه ذون نتائج حاسمة . فقد صار الحصار البحري المضروب على ألمانيا أحكم وأضيق ، بفضل عون الأسطول الأمريكي . وكانت بريطانيا تحمل على كاهها منذ إعلان الحرب الحصبة الكبرى من أعباء الحلفاء المالية . فتقدمت الآن أغنى أمم العالم في أدق لحظة في تاريخ الحرب إلى مشاركتها في تحمل هذا العبء الباهظ . وكما خففت القروض الأمريكية من متاعب الحلفاء وقلقهم المالي ، كذلك سلب ظهور جيش أمريكي جزار حسن العدة والتجهيز في الميدان الغربي في آخر

(١) هو أندريه سيجفريد .

(٢) خطب الأميرال سيمز Sims قائد الأسطول الأمريكي في الجلب هول بلندن سنة ١٩١٠ ، فقال : « إذا قدر أن يأتي اليوم الذي يهدد فيه حلف أوروبا الإمبراطورية البريطانية » فإن بريطانيا تستطيع أن تعتمد على ذوي قرياتها عبر البحار ، بأن يهبوا للنضال معها إلى آخر سفينة في أسطولهم ، وآخر دولار في جيوبهم ، وآخر قطرة من دناهم » .

عام من أعوام الحرب - سلب الدولتين الوسطيتين آخر فرصة لإبرام صلح ملائم لهما .

غير أن الجيوش لا تدرّب وتحشد بين طرفة عين وانتباهتها . وكان الأمريكيون بطيئين ، كالبريطانيين من قبلهم ، في شحذ همهم في جهودهم الحربية ، والاندفاع بقوة ونشاط في أعمال القتال ، الأمر الذي أثار أشد مخاوف الحلفاء وهو أجسامهم خلال الشهور التي كانت تدرّب فيها الجيوش الأمريكية وتجهّز .

٢ - الثورة الروسية

تتأزّل
قيصر روسيا ذلك أنه في ١٥ مارس سنة ١٩١٧ ، أى قبل تصديق الكونجرس الأمريكى على إعلان الحرب بثلاثة أسابيع ، أرغم قيصر روسيا على التزلزل عن عرشه . فإن الثورة التي ما فتئت جاثمة متوثبة في روسيا منذ رده طويل من الزمن ، اندلعت الآن لديها ، لا في فتنة منظمة عنيفة كما كان منظوراً ، بل في سلسلة من الاحتجاجات غير المدبرة التي جاءت عفواً في ظاهرها ، ثم تجمعت قواها ، وعظم خطرهما ؛ حتى صار من الواضح أن القوم قاطبة من أشراف وطبقة وسطى ومن ضباط وجنود ، ومن أحرار واشتراكيين ، قد طرخوا وراء ظهورهم الولاء لعرش القيصرية .

كيف بدأت
الثورة وبدأت سلسلة هذه الأحداث يشغب عام قام في بترغراد في ٨ مارس ، واقرن بميل عام للاعتصاب . وتلا ذلك انقطاع الصحف عن الظهور ، قناه اعتصاب عمال الترام في ١٠ مارس ، وفي ١١ مارس أعلنت أورطة عصيانها . ثم حدث في اليوم التالي أن تمرد الحرس القيصري . وانتشرت حركة الفتنة والعصيان انتشار النار في الهشيم .

وكانت هذه الثورة ثورة قام بها الروس ضد الجوع والشفاء والكلال الذي انتابهم ، واقرنت بمشاعر من الغيظ والسخط والاستياء ، وذلك حينما استعادوا إلى أذهانهم الحسائر الماثلة التي حاقت ببحوشهم قبيل ذلك ، واليئس الطويل من النكبات الحربية ، والأربعة الملايين من القتلى والجرحى ، واختلاس

أموال الدولة ، وسوء توزيع موارد البلاد ومنتجاتها ، والشكوك القوية التي خامرت النفوس بأن القيصرية تعاون الألمان خفية تحت تأثير راسبوتين الخليع الفاجر ، وأخيراً حينما تذكروا طرق القمع الرجعية التي استخدمها بروبوبوف Propopoff وزير الداخلية ، وآخر مشيرى القيصر وأقلهم فطنة وحصافة .

إنشاء حكومة مؤقتة

وكان أعضاء مجلس الدوما قد رفضوا قبيل تنازل القيصر إطاعة أمره بالانقضاء . وانتخبوا في ١٤ مارس حكومة وقتية برياسة الأمير لفوف Lvov تضم أغلبية الحزب الديمقراطي الدستوري . وكان أبرز أعضائها إسكندر كيرنسكى Alexander Kerensky ، وهو خطيب مجلس عمال بترغراد ، ووكيل لجنة السفيت المركزية التنفيذية . وقد حاولت هذه الحكومة أن تحكم البلاد ، وتدير دفة الحرب بعد سقوط القيصر .

ولكن الأمة الروسية كانت زاهدة في مثل هذه الحكومة . فلم تغن شيئاً نزاهة لفوف وكفاية مليكوف وغوشكوف وبلاغة كيرنسكى الثورية النارية ، أمام رغبة مجالس الجنود والعمال Soviets التي تكوّنت في طول البلاد وعرضها . ثم تمثلت هذه المجالس جميعاً في أوائل أبريل في مؤتمر مركزي اتخذ بترغراد مقراً له .

وشلّ ميل عام للتمرد والقعوس يد الحكومة ، وأقعداها عن العمل . ورفض موظفو التلفون والتلغراف والكتابة ، وهم عماد القوة المحركة الحاكمة في الدولة الحديثة - رفضوا أن يستأنفوا أعمالهم .

فوز البلاشفة

وتمكن البلاشفون^(١) في مؤتمر السفيت من السيطرة بقوة منطقهم وجلالته على أهواء الناس السذج البسطاء الجائعين ، وأفكارهم المبيلة الخائرة . وكان برنامج الحزب الذي ألقته هذه الجماعة واسع المدى شديد الغوابة : وهو توفير الغذاء للجميع ، وإبرام صلح عاجل ، وتوزيع الأراضي على الفلاحين ، وإقامة دكتاتورية عمالية . ولهذا ، ففي الحين الذي كان فيه كيرنسكى لا يألو جهداً في إثارة هم الجيش لمواصلة الحرب ، كان البلاشفة يسعون إلى إفساد النظام

(١) Bolsheviks ، وهي كلمة روسية معناها حزب الأغلبية .

الحرلى وبث روح المزيمة فى نفوس الجند . وكان شعار الثورة الجديدة : « لا فتوح جديدة ، ولا غرامات حربية » . وكان نجاحهم فى هذا المضمار عاجلاً كاملاً . فإنه ما حل آخر يوليو سنة ١٩١٧ حتى انهارت الجبهة الروسية أمام هجمات العدو .

ولم يكن فى جمعة كيرنسكى شىء يقدمه للشعب الروسى خير من الأمور التى وعده بها البلاشفة . فلم تجد ذرابة لسانه فتىلاً ، أو تعد الأمور إلى نصابها ، بعد أن تعقدت تعقداً خطيراً . واستطردت الحركة البلشفية تجمع قواها . ورغم فتنة طائشة قامت بها فى يوليو . وساعدها على تعاظم خطرهما ضعف الحكومة الوقتية . وخور عزيمتها . وانتصارات الألمان ، وازدياد شقاء الشعب وتعاثته . ولم يكن يرتجى من كيرنسكى الذى لم يستطع إنقاذ ريفاً من الوقوع فى حوزة الألمان فى سبتمبر سنة ١٩١٧ ، والذى نقصته الشجاعة فى إعدام الثوار حينما قبض عليهم متلبسين بالجريمة - نقول لم يكن يرتجى من كيرنسكى أن يبقى قابضاً على أزمة السلطة بعد فتنة جائحة كهذه . وضرب فى ٢ نوفمبر (٢٥ أكتوبر حسب التقويم الروسى القديم) البلشفيون ضربتهم التى مكثوا ردىحاً طويلاً يدبرون أمرها ويعلمون عدتها . فستطعت حكومة كيرنسكى كما تتساقط أوراق الخريف ، بهجوم الثوار الأحمر على قصر الشتاء ببيترغراد.

أما منظماً هذه الثورة : فكانا متفيين نكرتين رجماً حديتاً إلى روسيا ، هما لينين وترتسكى أليانوف Ulianoff الذى دعا نفسه لنين Lenin ، وبراونشتين Braunstein الذى اتخذ لنفسه اسم ترتسكى Trotsky . ولم يحدث قط أن قبض على أزمة الحكم فى دولة حديقة مغامرون أعظم جسارة وعزماً وثباتاً من هذين المغامرين الجبارين . فإنه ما انقضت ثلاثة أشهر على قبضهما على أعتة السلطة فى روسيا ، حتى كانا قد أخرجاها من صفوف القتال ، وسحقا الطبقات الغنية والوسطى ، وفوضا هيئة نيابية كانت قد دعيت لوضع دستور برلمانى لجمهورية روسية .

ولم يكن لنين يقيم للوطنية اعتباراً ، ولا للبرلمانات وزناً ، فإنه فى معاهدة برست ليتوفسك Brest - Litovsk المبرمة فى ٣ مارس سنة ١٩١٨ بين

ألمانيا وروسيا ، نزل للألمان عن رقعة فسيحة من الأراضي ^(١) دون أن يعترضه أى خجل ، أو يحس بأى أسف أو ندم .

٣ - الحرب فى أواخر عام ١٩١٧

لم يكن جزءاً من خطة لودندورف التى رسمها لسنة ١٩١٧ أن يحدد الهجوم فى الميدان الغربى . بل تراجع عدة أميال إلى مركز كان قد حُصن بحرص بالغ وعناية محكمة . وكان يعرف هذا المركز المنيع عند الألمان بخط سيغفريد ، وعند الإنجليز بخط هندنبرج . وأثر لودندورف أن يسمح لحصومه بأن يواصلوا هجماتهم الغالية الثمن التى أدمنوا عليها إدماناً قوياً . وكان أقل ميلاً الآن منه فى أى وقت آخر إلى تبديد أرواح جنده فى خطط هجومية ، إذ كان وطيء الثقة بأن الحرب التى كانت تشنها الغواصات فى البحار ستنتهى الحرب البرية فى بحر ستة أشهر ، أو فى بحر عام واحد على الأقصى . وامتلاً يقيناً بأن الغواصات ستجيب إنجلترا ، وتكرهها على الاستسلام قبل أن يصبح فى المقدور نقل الجنود الأمريكية المدربة إلى فرنسا .

لغزاف الألمان
خطة الدفاع

والحق أن وجدان الإنسانية وضائر البشر مستحکم حكماً قاسياً على هذا اللون من ألوان النضال الذى لجأ إليه الألمان ، برغم احتجاج كثير من خبرة رجالهم عليه ، واستنكارهم إياه . فإنه عند ما تضرب غواصة بالطوربيد سفينة تجارية أو سفينة ركاب ، فإن السفينة تفرق بكل من عليها دون أن تتاح لهم فرصة للنجاة . وقد وُجهت إلى قواد الغواصات الوسائل الأوامر بالألا يكتثروا للمجاملات البحرية التقليدية ، الأمر الذى هو أبغض ما يمكن أن يُتصور على نفس ضابط بحرى ، وأمقت شيء لديه . غير أنه لا يمكننا أن ننكر أن هذا الأسلوب الجديد غير المشروع للقتال كان يحوى أملاً قوياً فى النجاح . فإن بريطانيا أصبحت لا تملك فى آخر إبريل سنة ١٩١٧ سوى مقادير من الحنطة تكفيها ستة أسابيع فقط . فتجلى لأعين الحكومة البريطانية أنه ما لم تنقص حالاً نسبة السفن التجارية المخرقة

بشاعة حرب
الغواصات

(١) نزل من فنلندا ولاتفيا وليفونيا ، وكورلند ولتوانيا وبولندا الروسية .

فإنه ليس في استطاعتها ضمان كفاية المواد الغذائية لحوائج البلاد .

ولكن العسرة حُلّت ، وذلك من جهة باقتباس نظام القوافل الذي أرغم
المستر لويدي جورج رئيس الوزارة الأميرالية البريطانية على تجربته ، ومن جهة
أخرى باستخدام قنابل الأعماق التي تنفجر تحت سطح الماء ، وبتحسين
آلات الإنصات في السفن ، وباتخاذ تدابير أخرى كثيرة لا يتسع المقام
لذكرها . فقهر أخيراً خطر الغواصات ، بل بلغ من تغلب الأسطول البريطاني
على هذا السلاح أن جاء حين لم تكن ترجع فيه سوى غواصات قليلة العدد جداً
إلى قواعدها ، نعم كانت بسالة البحارة الألمان عظيمة ، وإقدامهم هائلاً .
ولكن هذه الروح من الجسارة والمخاطرة والبسالة لم تكن بأقل منها في نفوس ضباط
الأسطول التجاري البريطاني وبحارته ، الذين لم يفزعهم أى خطر مهما كان
مائلاً أكيداً عن ركوب البحار .

فتحطمت آمال لوندورف على صفحات الماء ، وفي أعماق المحيط . إلا
أن القتال الذي نشب في الميادين البرية أبان عن رجحان كفة الألمان ، ولو أنهم
لم يحرزوا فيه تفوقاً فاصلاً . فإن نقل Nivelle ، وهو قائد جذاب الحياكيل
له الإطراء والإطئاب كيلاً ، وكان قد خلف جوهر في قيادة الجيش الفرنسي
في ديسمبر سنة ١٩١٦ : قام في أكتوبر سنة ١٩١٧ بهجمة عنيفة على الإين
أعدت أحكم إعداد ، ولكنها باءت بالفشل والخذلان ، ونكبت فيها
الجيش الفرنسي بخسائر مروعة ، سببت تمرداً في صفوفه ، وذهبت بثقة المدنيين
والمحاربين على السواء بكفاية قوادهم الذين يدبرون كفة القتال ، الأمر الذي
هدد فترة ما تهديداً خطيراً بأن يشلّ مقدرة الأمة الفرنسية الحربية ، ويوهن
جهودها العسكرية .

ولكن الموقف عولج بحزم ، وأعيدت الثقة إلى النفوس ، وأوقف بيتان
بطل فردان ، الذي عين قائداً عاماً مكان نفل - أوقف عوامل الفساد
عن الانتشار ، وأرجع الروح المعنوية إلى الجيش . ووضع كليمنصو « الفر »
الذي صار في نوفمبر رئيساً للوزراء - وضع حداً للدعائس التي كانت تحاك

تعيين بيتان
قائداً عاماً

بيارس ، والتي كانت تحوى في ثناياها روح المزرعة . ومع هذا فقد ظل الموقف يثير هواجس قواد الحلفاء وقلقهم العظيم ، حتى إن الوزارة البريطانية أبدت الجبنال هايج في تصميمه على تحويل اهتمام العدو المركز إلى الجبهة البريطانية ، خشية أن يقع الجيش الفرنسى في تلك الفترة فريسة هجوم ألماني مباغت .

ملحة باشنديل
الدموية

وانهمر وابل قاس من الأمطار طول صيف وخريف عام ١٩١٧ على الأراضي المنخفضة المحيطة بپيرس . حيث شرع الجيش البريطاني ببذل قصارى جهده في شق طريقه إلى الساحل البلجيكي ، بعد أن مهد لهجومه بتركيز غلاظة من النيران الحاصدة من مدفعية الهائلة . ولم يحدث أن حابي الجو فريقاً ، وجار على فريق آخر ، كما حدث في تلك المعركة . فعلى حين كان الألمان في راحة نسبية نظراً لاحتلالهم المواقع الأكثر ارتفاعاً ، كانت مياه الأمطار تغمر الخنادق البريطانية حتى خصور الخند ، فأضيف إلى قائمة القذائع العادية لتراشق المدافع العنيف المتواصل ، الخطر بأن المقاتلين الذين يقدر لهم أن يُبحرخوا خلال المعركة ، قد يلقون حتفهم غرقاً في ماء الأمطار ، أو اختناقاً في الطين .

ولكن بالرغم من ذلك ، استمرت هذه الملحة المعروفة بمعركة باشنديل Passchendaele تعارب بعناد وثبات لا تلبث لهما قناة . ولم يتراجع الألمان إلا عن رقعة ضئيلة من الأرض . ولم تلحق بهم إلا خسائر قليلة نسبياً ، على حين حلفت خسائر البريطانيين إلى الرقم الهائل : ثلثمائة ألف من القتلى والجرحى . وكان قصف المدافع ودمدمة القنابل يسمعان في خفوت خلال تلك المعركة الدموية في كثير من القرى الهادئة الوديدة بولاية صرى بإنجلترا ، فيعلنان للناس عن مأساة من تلك المآسي الدموية القومية التي يزيد بها روعاً وهولاً تشكك الناس في ضرورتها ، وإرتيابهم في فائدتها .

والحق أنه حرى بنا أن نتساءل : هل كان من الضروري أن يتحمل البريطانيون هذه الخسائر المروعة في الأرواح ، لأجل إنقاذ الفرنسيين من

الملاك . أولم يكن أخلق ببريطانيا أن تحرص على قوتها في الرجال ؛ ولا سيما لأنه كان مرتقباً اشتراك الجيش الأمريكى في النضال في العام القادم ؛ إن المستر لويد جورج نصح بقوة بعدم القيام بهذا الهجوم ، ولكنه أخفى رأسه أمام مشورات رجال الحرب وإلحاحهم الشديد . وقد تجلت التكاليف الباهظة لهذه المعركة في القتال الذي دار حول كامبرى في نوفمبر ، وذلك حينما أخفقت هجمة بريطانية مباغتة صادقة تشد أزرها الدبابات ، في ترسيخ الجند أقدامهم في الأراضي التي كانوا قد غنموها أثناء زحفهم السريع العجيب في أول الهجوم . وذلك لنقص احتياطي الحلفاء في الرجال .

وقد أُكملت قائمة هزائم الحلفاء في ذلك العام المضطرب بهزيمة كابورتو (٢٤ أكتوبر) حينما اضططر الجيش الإيطالى الذى أعد لانتزاع تريستا من أيدي النمساويين إلى التراجع إلى نهر البياث ، في فوضى لا مثل لها ، متحملاً خسائر هائلة . وكانت الهزيمة شنيعة داعية إلى الخوف والملح ، لأنها كشفت عن المدى الكبير الذى بلغه فقدان الروح المعنوية والضجر من مواصلة القتال في نفوس مقاتلين هم بالفطرة جسورون بواصل .

هزيمة كابورتو
وأسبابها

والحق أن القيادة العليا الإيطالية لم تحفل إلا قليلاً باتخاذ الإجراءات والتدابير الكفيلة بالمحافظة على روح الجيش المعنوية وشجاعة الجند أثناء التجارب القاسية المروعة التي يتلون بها خلال الحروب الحديثة . فقد كانت وزارة الحرب الإيطالية غير منظمة ، والمدافع ناقصة عدداً وقوة . ولم تُعن بتوفير وسائل التسلية والتعليم التي بذلت الممالك الأخرى جهداً كبيراً في إعدادها لجندوها المقاتلين ، وسخاء حائماً لإدخال البهجة والسرور إلى قلوبهم . فإن الجندي الإيطالى عند عودته من ميادين القتال في فترات الإجازة النادرة ، كان يجد أسرته تنضور جوعاً ، في محاولتها العيش على المرتب الزهيد الذى خصصته لها خزانة الدولة ، والذي لم يكن كافياً بالمرة لحاجياتها . فليس عجباً إذن في ظروف كهذه أن يفتر نصيبال حتى بلوغ النمه على القنصر ، وأن يصيح السمع إلى نصائح الكهّان إذا كان متديناً ، وإلى أشباح السفيت إذا

كان اشتراكياً . فإنهم وإن تضاربوا غاية ، اتفقوا في أن يُسروا إليه بأن الحرب ينبغي أن توقف .

ولا مراء في أن عودة الروح المعنوية الحربية إلى الجبهة الإيطالية ، وتوطد الثقة في النصر بعد اندحار عظيم كهذا ، يرجع الفضل فيهما إلى براعة الجنرال كادورنا Cadorna القائد العام للجيش الإيطالية ، وإلى قدرة الإيطاليين على الصمود للخطوب . فقد ثبت الجيش الإيطالي أمام العدو على ضفاف البياف ، وبذلك أنقذ البندقية . ومع ذلك فإنه حينما حل الشتاء كانت الناس لا تزال غير واثقة فيما إذا كان الجيش الإيطالي تحت قيادة قائده الجديد : دياز Diaz ، وبعد أن دُعمت قواه بفرق فرنسية وإنجليزية ، يستطيع أن يفلح في صد هجوم العدو إذا ما تجدد .

انتصار
البريطانيين
في الشرق

وبينما كانت هذه النكبات الحربية تنزل بصفوف الحلفاء في الجبهات الروسية والفرنسية والإيطالية ، كان الجيش البريطاني يقوم بحركة اكتساحية واسعة النطاق ضد الترك في الشرق ، كانت نتيجتها انتزاعه من أيديهم الحاضرتين الشهيرتين : بغداد وبيت المقدس . فحلَّ العالم العربي بهذه الأعمال الباهرة من الأواصر التي ربطته دهرًا طويلا بدولة الترك ، وعادت إلى البريطانيين مكانتهم الرفيعة في الشرق

خطاب بلفور

وقد كُتِبَ لفتح فلسطين أن يؤدي إلى نتائج أبعد من ذلك ، وأن تُجنَى ثماره قبل أن تضع الحرب أوزارها . فقد أعلنت بريطانيا عزمها على إنشاء وطن قومي لليهود فيها^(١) في خطاب أرسله المستر بلفور في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ إلى اللورد روتشيلد Rotschild ، وبذلك ضمت إلى جانبها جماعات اليهود القوية العالمية التي تبسط سيطرتها على أسواق المال لا في نيويورك فقط ، بل في نواح عديدة أخرى من أنحاء العالم ، وحملتها على مناصرة قضية الحلفاء .

(١) كان أيضاً من بين دوافع الوزارة البريطانية لإصدار تصريح بلفور عدم وقوع فلسطين تحت سيطرة دولة أخرى ، وحتى لا تتكبد بريطانيا أى نفقات في إدارتها .

٤ - الحرب خلال عام ١٩١٨

ومضى الآن (سنة ١٩١٨) زمن طويل على الوقت الذى كان فيه إغلات النصر من يد ألمانيا
الألمان يحلمون فى غبطة وترقب ، بضم مساحات واسعة من الأراضى على حساب
غرامتهم . ولكن انتصاراتهم الرائعة الفخمة ، ودعائهم الداخلية المشجعة
الحادعة ، لم تكن لتحفزهم على التقدم بصلح تقبله دول الحلفاء . فقد كان
من الشروط الأساسية لمجلس الوزراء البريطانى لعقد الصلح وجوب جلاء
الألمان عن البلجيك ، وإعادة الألزاس واللورين إلى فرنسا ، ودفع غرامات
أو تعويضات حربية للحلفاء .

ولم تسمح القيادة العليا الألمانية ببحث مثل هذه الشروط . ولما أحسّت
بأن بئان هلفج المستشار الإمبراطورى يتزع إلى التساهل ، وفقّ لودندورف
إلى إقالته من منصبه (يوليو سنة ١٩١٧) . وصار الأخير من هذا الحين
إلى انتهاء الحرب ، سيد ألمانيا الفعلى . ولم يكن هذا الحدث بأول ضرر
يصيب الأمة الألمانية من تدخل كبار رجالها العسكريين . فإن القيادة الألمانية
العليا هى التى بمطالبها دفعت لإنجلترا وأمريكا إلى خوض غمار الحرب ، وهى
التي وقفت عقبة فى سبيل الوصول إلى عقد سلم ملائم يبق أسرى هومنزولرن
وهابسبرج متربعتين على عرشيهما . وكانت قيادة الأسطول الألماني العليا
تمتّ بنوع خاص التحلى عن الثغور البلجيكية الملاممة لأغراضها ، بعد أن
أيقنت أنه لا مفر من قيام حرب طاحنة ثانية مع إنجلترا .

وسحب لودندورف من الجبهة الروسية أربعين فرقة لمساعدته فى القيام
بمقامرة أخيرة لكسب النصر فى الميدان الغربى . وكان محققاً فى ترقيبه الفوز
فى هذه المقامرة . وكانت خطته الحربية هى أن يضرب الجيشين الإنجليزى
والفرنسى عند نقطة اتصاليهما ضربة قاصمة تمزق شملهما ، وتمكنه من دحر
كل منهما بعد ذلك على حدة . وكانت أساليبه التى جرّبها قبل ذلك بعناية
عند مهاجمته ريفاً فى سبتمبر سنة ١٩١٧ ، أساليب رائعة باهرة ، وهى أن

يقيم ستاراً هائلاً من النيران لا مثيل له في عنفه وشدته ، يمتد على جبهة طولها ثلاثة وأربعون ميلاً . بحيث يستطيع أن ينسف للجيش ممراً ضيقاً تناسب خلاله نخبة ممتازة من قاذبي القنابل وحملة المشاعل والمدفعيين الذين انتقوا ودربوا خصيصاً لهذا العمل ، وأرسلوا إلى المقدمة على جناح السرعة في سيارات النقل . ولم يكن ينتظر أن حائلاً أو عقبة يستطيعان أن يقفا في سبيلهم . وكان نجاح هذه المغامرة يتطلب عدداً كبيراً من مدافع الخنادق القوية . واحتياطياً ضخماً من الرجال والميرة . وكان لودندورف يملك هذه المعدات .

ووقعت الضربة الهائلة في ١٠ مارس . ففي ذلك اليوم انهزم سيل عرمرم من القنابل قذفته أفواه أربعة آلاف مدفع (كان الوبل الأول في معركة دامت أكثر من سبعة أشهر) — انهزم على الجيش البريطاني الخامس بقيادة الجنرال جَوْفْ Gough الذي كان قد أخذ من الفرنسيين قبيل الهجوم جانباً من خط قتالهم . فاكسح المهاجمون الذين حالفهم الضباب وصلابة الأرض كل شيء أمامهم : ما خلا جهة أراس Arras في أقصى الميسرة البريطانية . فحُطِّمَ الجيش البريطاني الخامس . وشرعت المدافع الألمانية تضرب خط السكة الحديدية جنوب أميان الذي بلغته بعد أيام قلائل من بدء الهجوم . وخيل كأن لودندورف على وشك أن يحقق وطره في فصل الجيشين . ولكن القدر قسم بغير ذلك . فإنه يبدو أن الألمان في تقدمهم السريع استنفلوا قوة اندفاعهم الأصلية ، فأمكن وقف زحفهم أمام أميان .

نزل آخر مجوم
ألماني عظيم

ولم يواصل الألمان هجمتهم القاتلة . بل قرَّ رأيهم ، حسب ما يبدو ، على إبدال خطتهم الأصلية بخطة أخرى . هي القيام بهجمات في جهات أخرى من خطوط الحلفاء . فهاجموا البريطانيين أولاً في قطاع بيرس (٩ — ٢٩ أبريل) ، وردوهم اثني عشر ميلاً إلى الوراء : ثم هزموا الفرنسيين (٢٧ مايو) هزيمة منكورة في ساحة شيان دي دام Chemins des Dame . غير أنه أمكن صد هذه الهجمات في نهاية الأمر برغم عنفها وشدة فتكها . والتفاد الاستراتيجيون يشكون في فائدة هذه الهجمات وحكمتها . فإنه ما جاء آخر

معارك بيرس
وشيان دي دام

يونيو حتى ظهر في خط القتال الألماني ثلاثة نتوءات عظيمة ، يقدم كل منها للخصم النشاط الذي لا يستقيم إلى السكون - يقدم هدفاً ملائماً للهجوم .

نتائج الهجوم
الألماني

وقد أصيب الألمان في هذا الزحف الداهم بخسائر هائلة ، كذلك التي تصحب عادة الحركات الحرة للكثائب المرصوفة ، إذا ما وقعت تحت وابل غزير من القنابل المتساقطة عليها من الجو ، والنار المتركرة من بطاريات العدو . وكانت هناك أيضاً نتيجة أخرى لهذا الهجوم ، لم يكن من اليسير على أحد أن يظن إليها . فقد كان الجيش البريطاني أفضل الجيوش المحاربة غذاء ، على حين كان عدوه يعيش منذ زمن طويل على جريات غير كافية للتغذية . ولهذا حينما اقتحم الألمان الخطوط البريطانية ألغوها زاحرة بالأغذية والمؤن من كل صنف ونوع . فدبَّ فجأة إلى قلوبهم شعور بأس وقنوط . ذلك أنهم أدركوا وقتئذ ، وللمرة الأولى منذ بدء الحرب ، أن حقائق الحرب قد أخفيت عنهم ، وأن العدو الذي مُثِّل لهم بأنه في حالة العوز والمسغبة ، يرتع في بحبوحة من التمتع ورغد العيش ، حُرِم الألمان منهما منذ دهر طويل . فتسرب في سبل عديدة هذا الاستيقاظ إلى ختل دعايتهم من جبهة القتال إلى صفوف المدنيين الخلفية ، وعاون على إشعال لهب الثورة الألمانية في أوائل نوفمبر سنة ١٩١٨ .

هجوم الحلفاء
الساحق

وشرع الحلفاء في ١٨ يوليو يشنون سلسلة هجماتهم العظيمة التي أنهت لدeshتهم الحرب في ١١ نوفمبر ، إذ كانت خططهم موضوعة على اعتبار أن القتال سيستغرق حولا آخر . وكان الجيش الألماني قد دب فيه ديبب اليأس ، واستسلم للقنوط . فبدا كل شيء مبشراً للحلفاء بالظفر والفلاح . وعوضوا خسائرهم التي نزلت بهم بتدفق الجنود الأمريكيين الجدد الذين بلغ عدد من وصل منهم إلى فرنسا زهاء سبائة ألف مقاتل . ومع أن مساهمة الجيش الأمريكي بقيادة الجنرال پرسنغ Pershing في ساحة القتال تأخرت إلى سبتمبر ، فإن فرقاً أمريكية فردية اشتركت وقتئذ في القتال جنباً إلى جنب مع الفرق الفرنسية والإنجليزية ، وأمكنها أن تبلو أحسن بلاء بنوع خاص في ملحمة

نشبت بالقرب من شاتو تييرى Chateau-Thierry .

وغدا الحلفاء الآن متفوقين على خصومهم فى كل لون من ألوان القتاد والذخائر ، ما عدا مدافع الخنادق . وجهزوا جيوشهم بمئات من الدبابات الخفيفة السريعة الحركة . فصارت لهم أداة لا ضريب لها لاختراق مواقع العدو الحصينة . أضف إلى ذلك أن الحلفاء أفلحوا فى علاج أسوأ خطأ ألحق بعملياتهم الحربية السابقة العثار والإخفاق . فإن نكبة الجيش البريطانى الخامس علّمت الجمهور البريطانى أن يرضى بوضع القوات البريطانية التى تقاثل فى الميدان الغربى تحت إمرة قائد عام فرنسى .

وكان القائد الذى اختير لهذا المنصب الرفيع فوش ؛ وهو جندى مثقف تميم فوش قائد
أهل لقوات
الحلفاء
ذو شخصية مسيطرة ، وبصر نافذ ، وقوة مندفة لا ترد . وكان صديقاً خليصاً للجنرال ولسن رئيس هيئة أركان الحرب البريطانية . ولم يكن فوش القائد المفرد لقوات الحلفاء ، بل وقف إلى جانبه يشد أزره فيجانب Weygand المتواضع النفس البعيد النظر ، بصفته رئيس هيئة أركان حربه . وكان فيجانب حقاً مستودعاً حياً للحقائق والأرقام .

وقد برّرت الحوادث هذا الانتقاء . فإنه من ١٨ يوليو ، وهو اليوم الذى قام فيه الجنرال منجان Mengin بهجوم مباغت على التواء الجنوى الألمانى بثلاثمائة دبابة خفيفة ، وأخذ فيه ثلاثين ألف أسير ، إلى آخر يوم من أيام النضال فى نوفمبر ، لم يرتب أحد لحظة واحدة فى أن الكفة الراجعة قد غدت نهائياً فى جانب الحلفاء .

ولكن إذا كان ثمة يوم من أيام ذلك العراك العنيف المتواصل الطويل الأمد قميئاً بأن يتميز عن غيره ، فهو ذلك اليوم الذى دعاه لودندورف « اليوم الأسود » للجيش الألمانى : وهو يوم ٨ أغسطس الذى شن فيه هايج هجمته المفجائية بالقرب من أميان . وهو يوم أسود مشنوم على الألمان ، لا لأنه وقع فى قبضة أعدائهم عشرون ألف أسير من مقاتليهم فحسب ، بل لأنهم طردوا ، برغم قواتهم الكافية ، من مواقع كانوا يعدونها ثابتة مأمونة .

انهيار الروح
المتنوية في
الجيش الألماني

فخلص رأى لودندورف من هذه القرينة إلى أن انحطاط الروح المعنوية قد أخذ يسرى ويشند بين جنوده . كما انتهى رأى هايج بأن في إمكانه إحراز الفوز النهائي بهجوم مركز عنيف على طول الجبهة برمتها . وقد صبح رأيه حينما هجم الجيش البريطاني في ٢٩ سبتمبر على خط سجنفريد ، فانهارت روح المقاومة الألمانية ، وتحطمت تحطيماً .

وفي اليوم التالي طلب لودندورف من حكومته أن تسعى إلى عقد الصلح . فكان رئيس أركان الحرب العامة الألمانية رأى قبل اندلاع الثورة في بلاده بشهر كامل عدم جدوى مواصلة القتال .

طلب بلغاريا
وتركيا والنمسا
الصلح

وتلا ذلك النصر البريطاني انتصارات عجيبة أخرى للحلفاء ، أخذ بعضها برقاب بعض في الأسابيع القليلة التالية ، ووضعت نهاية للمقاومة الطويلة الباسلة التي بدأتها دولتنا وسط أوروبا . فطلبت بلغاريا ثم تلتها تركيا ، وجاءت بعدهما النمسا تطلب الصلح من أعدائها ، بعد أن حلت بجيوشها الهزيمة والإعياء . ولكن ألمانيا ظلت تكافح وتقاتل خلال أيام الخريف الغبراء ، وجيوشها تحارب في أرض العدو حرب تأخير في صلابة وعناد .

الثورة في ألمانيا
وتنازل القيصر

غير أن الشعب الألماني كان قد أضناه الجوع ، وأسقمه الشقاء ، وأناخ عليه القنوط ، فأخذ يرفع عقيرته بالمطالبة بالصلح ، وبالصلح على التو . وإذ رأى أن الرئيس ولسن الذي تطلمعت أوروبا إليه في تلك اللحظة كالحكم القيصلي المقرر لمصايرها ، يظهر تردداً في التفاوض حتى مع حكومة برلمانية ألمانية ، طالما ظل القيصر جالساً على أريكة العرش ، رضى كل الرضا بنزوله عنه . ذلك أنه حينما صدر أمر للأسطول الألماني بالخروج من ملاذه في كبل إلى البحر لمقاتلة أساطيل الأعداء ، حدث تمرد بين صفوف بحارته ، فكان ذلك الحادث مبدأ للثورة ، وأكره القيصر وولى العهد على أن يلودا بالفرار إلى هولندا (في ٩ نوفمبر) . ونودى بالجمهورية في اليوم نفسه في برلين .

الاشتراكيون
الألمان يتسلمون
مقاليد الأمور

وفي الحق أن الاشتراكيين الألمان شجعان بواسل ، إذ قبلوا أن يتحملوا تبعاً لإدارة شئون بلادهم في أحلك أيامها وأحرج ساعاتها . ولا مراء في أن

هؤلاء الرجال الذين كانوا ينتمون إلى الطبقة الوسطى والذين تربعوا الآن مكان أعظم ملكيات أوروبا وأشدها تفاخراً ، كانوا ممن أوتوا قسطاً كبيراً من الإقدام والوطنية .

ولكن كان من سوء الطالع الكبير لقضية الديمقراطية في ألمانيا أن أول عمل للحكومة الجديدة - وهو عمل لم يكن لها مفر من القيام به - هو أن تقبل إبرام هدنة أكره الألمان بمقتضاها على الجلاء عن الأراضي التي فتوحها ، وتسليم طياراتهم ، ومدافعهم ، وعربات سكلك حديدهم . والشطر الأكبر من أسطولهم . وقد نُدِّد فيما بعد بالأحزاب الديمقراطية الألمانية لأنها وافقت على كل هذا . غير أنه في اللحظة التي انقطع فيها قصف المدافع في الساعة الحادية عشرة من صباح ١١ نوفمبر ، لم يكن هناك سوى شعور واحد وإحساس واحد يغمر جميع أرجاء أوروبا ، وهو شعور الشكر العظيم ، وإحساس الاغتياب البالغ ، بأن كابوس الحرب المخيف الهائل الذي جثم دهرأ طويلا فوق الصدور قد انزاح وانقشع .

٥ - نتائج الحرب العظمى

التغيرات التي طرأت على أوروبا الغربية غنمت الحرب الدول الديمقراطية الغربية ، واختفت الإمبراطوريات الحربية الثلاث في شرق أوروبا ووسطها . وصارت مقاليد الأمور في أوروبا في أيدي الزعماء الذين تعلموا مبادئهم في ساحات البرلمان ، وتهذبوا بقواعد الحياة البرلمانية وأصولها ، حتى وإن لم تنل المحادلات والمداولات البرلمانية إلا نصيباً ضئيلاً من الاكتراث خلال ضغط أحداث الحرب . ففي إنجلترا كان هناك أسكوث ولويد جورج وتشيرشل وبلفور وبونارلو ، وفي فرنسا برز بوانكاريه وبنليشي وبريان وكليمنصو .

وتبلغت الحقيقة ، المرة تلو المرة ، بأن الحرب أمر غاية في خطورة الشأن ، فلا ينبغي أن تُترك شؤونها لرجال الحرب وحدهم ، كما عبر عن ذلك بريان في هذه العبارة الطريفة الباردة . ولا ريب أن جانباً ليس بالقليل

من سقطة ألمانيا يجب أن يعزى إلى الحقيقة بأنها سمحت لرجال الحرب بأن يشغلوا مكاناً أعظم مما يتفق مع مصالحها وحياتها القومية .

اختفاء الحرية
الشخصية ونشر
الدعاية زمن
الحرب

واختفت الحرية الشخصية اختفاءً وقتياً ، واقترون اختفاؤها بازدياد عظيم جداً في سيطرة الحكومات على شؤون الأمة . وكان لهذا الاختفاء شران حتميان ، تحملهما الناس في رضا وقبول . فإن الشعب الإنجليزي ، برغم أنه أقل صبراً على الأساليب التحكيمية من الشعوب الأخرى . استميل إلى الموافقة على التجنيد الإجباري ، وعلى جرايات الأغذية ، وعلى تحديد بيع الخمور تحديداً كان يُظن في أزمنة السلم أنه لا يقبله . وُعدت ضرورة لازمة من ضرورات الحرب لتأمين تماسك القوى ، وتوفير التضافر الشعبي ، أن تنشر الحكومات في كل قطر من الأقطار المتحاربة دعاية محكمة التنظيم تصور العدو في أرذل الصور وأقبحها ، وتجعله موضع الازدراء والمقت . فأضيف بذلك إلى قسوة الحرب ، شرورُ التعصب والإفك والبهتان التي أعانتها الدول بالمال . ولا يستطيع بلد من البلدان المحاربة أن يدعى براءته من ارتكاب هذه الأوزار .

وبازدياد القلق والحيرة في النفوس ، برز في الصف الأول من صفوف الحكام بعض من الزعماء ذوي الطباع العنيفة والإرادة النافذة المسيطرة ، قبضوا على مقاليد الأمور في ديلم . فبرز لويد جورج في إنجلترا ، وكليمنصو في فرنسا ، ولودندورف في ألمانيا ، ولنين في روسيا .

وزارة الحرب
البريطانية

وما الانقلاب الوزاري الذي حدث في إنجلترا في شتاء سنة ١٩١٦ . إلا سمة من سمات التركيز المتزايد للسلطان في الدولة : هذا التركيز الذي حتمته الظروف الصارمة للحرب . فحل محل الوزارة البريطانية الائتلافية برياسة أسكوث . وزارة ائتلافية أخرى برياسة لويد جورج . وتألفت لجنة صغيرة من أبرز الوزراء برياسة رئيس الوزارة المتفجر حيوية ونشاطاً ، أخذت تسير دفة الحرب . وكان أعضاء هذه اللجنة على جانب كبير من المقدرة والكفافية . وإن اختلفوا في الرأي اختلافاً كبيراً . وقد وصفها المستر ونسن تشرشل أحد

أعضائها بقوله : « كانت كل مسألة حرية تُعرض عليها . وكان أعضاؤها يصلون إلى قراراتهم النهائية بنفس الفطنة وروح التسوية والنقاش المضمنى التى يصل بها مجلس العموم إلى ما يتخذ زمن السلم من قرارات ، وذلك حينما يعرض عليه مشروع قانون يشتد بشأنه الخلاف بين أعضائه » .

هذه هى وزارة الحرب التى رأسها المستر لويد جورج ، والتى قدم لها بعض ساسة المستعمرات المستقلة البارزين معونات وقتية ، والتى حكمت لإنجلترا والإمبراطورية خلال العامين الأخيرين من الحرب .

وقد يخيل للبعض أن الحرب ، التى هى بطبيعة أمرها معادية للحرية والعدالة ، كانت تميل إلى وقف تقدم الديمقراطية فى البلاد المحاربة . غير أنه يجب ألا يعزب عن البال أن ساحات الحروب أكبر عوامل التسوية بين الناس . فع أن روح المساواة فى إنجلترا أقل ارتفاعاً منها فى فرنسا وإيطاليا — وذلك لأسباب عديدة ، أحدها عدم وجود نظام للتجنيد الإجبارى بها — إلا أنه توارى إبانها شعور الفوارق الطبقة لزاء الأخطار الوبيلة التى جابهها عامة الناس فى رضى واختيار الصالح العام . وأحس مالك الأرض القابع فى منزله باتضاع فى حضرة بستانه جريح الحرب ، وأحس حامل محطة السكة الحديدية الذى خاطر بحياته فى رعى الهيجاء ، بفخر واعتزاز لم يستطع الممول الآمن على حياته وهو بعيد عن مواطن الخطر ، أن يشاطره إياهما .

شيوع روح
المساواة

وأعلن الزعماء والساسة البريطانيون أنه يجب ألا تحرم جموع العامة التى رضيت محتارة بأن تبذل كل ما ملكت يداها فى سبيل سلامة الوطن والود عنه — يجب ألا تحرم بعد الآن من شىء ، مهما غلا ثمنه . وأقرت الوزارة ، برغم كثرة مشاغلها الحربية ، مشروعات قوانين تقضى بتوسيع دائرة التعليم ، ومنع النساء حق الانتخاب ، ووجهت التفاتها إلى إعداد « منازل صالحة لسكنى الأبطال » . وكانت حالة العامة من الناس وظروف معيشتهم ماثلة على الدوام فى أذهان الوزراء — بعكس ما كانت عليه الحال خلال حروب نابليون .

مشروعات
إصلاح عديدة

وسرعان ما أُعلِنَت الحرب ، حتَّى التفتت على الفور المستعمرات المستقلة ، ومستعمرات التاج البريطانية ، في إجماع عجيب حول المملكة الأم . صحيح أن فورات من التمرد انفجرت في جنوب إفريقيا وإرلندا ، ولكنها قمعت في وجيز وقت . ومع أن هذه الفتن دلت على وجود عناصر متمردة في ذينك البلدين ، إلا أن هذه العناصر لم تكن من القوة بحيث تستطيع التغلب على روح الأخوة التي برزت فيهما ، ودعت أبناءهما إلى حمل السلاح جنبا إلى جنب مع الشعب البريطاني . ووقفت الهند : أفيالها وشعوبها ، تناصر الإمبراطورية ، وتساهم في جهودها الحربية : في فرنسا ، وفي غليبولي ، وفي العراق . وكانت خسائر نيوزيلندا في الأرواح أعظم نسبياً من الخسارة الفادحة التي أصابت البلجيك . ونهض الجنرال بوثا رئيس وزراء جنوب إفريقيا بفتح مستعمرة إفريقية الغربية الألمانية ، والجنرال سمطس بانتزاع مستعمرة إفريقية الشرقية الألمانية ، وقامت حملة أعدتها أستراليا بالاستيلاء على غينيا الجديدة . وارتضى الكنديون الفرنسيون أن ينخرطوا في صفوف القتال لإنقاذ فرنسا ، مع أنهم ربما كانوا يظهرون عداً وتمرداً لو أنهم دعوا إلى النضال في سبيل أية قضية أخرى .

ومع ذلك فإن نتائج هذا الحماس الواسع النطاق لم تكن بالضبط تلك التي تكهن بها الأكثرون . فإن الحرب بدلا من أن تقود أجزاء الإمبراطورية المختلفة إلى اتحاد أوثق ، ساعدت على إضعاف الأواصر الدستورية التي وحدت قبلا هذه الجماعة العظيمة من الأمم بعضها ببعض .

فقد كان الناس قبل الحرب يتحدثون عن إنشاء برلمان إمبراطوري تعاهدي يكون مقره في لندن ، وتمثل فيه أقطار الإمبراطورية المختلفة . ولكن الأيام أبانت بجلاء أن هذا الحل للعلاقات الإمبراطورية لا تقبله تلك الأقطار ، ولهذا لم يُطرح قط على بساط البحث . ففي بعض المستعمرات المستقلة برز شعور من الزهو والفخار القوي نتيجة تفصحياتها وانتصاراتها الحربية . وفي البعض الآخر ظهر شعور قوي يعززه لون من ألوان عدااء الإيرلنديين واليوير

التفاف
المستعمرات حول
بريطانيا

إضعاف أواصر
الاتحاد بين
شعوب
الإمبراطورية
البريطانية

لفكرة الإمبراطورية . وقد منعت هذه الأحاسيس المستعمرات من أن تقبل الظهور بأى شكل من الأشكال فى مظهر الخضوع للحكومة البريطانية .

ولا مراء فى أن المستعمرات المستقلة غنمت من ظهورها بمظهر الأمم المستقلة . فقد وقَّعت بهذه الصفة على معاهدات الصلح ، ودخلت عصبة الأمم . وطالبت بأن تكون على قدم المساواة مع بريطانيا فى خضوعها لسيادة التاج المشتركة . وتقدمت بالحجة القائلة بأنه ينبغى أن يعمل الحكام العامون لمستعمرات الدومينيون بمشورة الوزارات القائمة . كما هو شأن ملك بريطانيا مع الوزارات البريطانية . وقبلت الحكومة البريطانية هذا الطلب . ووضع قانون وستمنستر سنة ١٩٣١ قابلاً جديداً للعلاقات السياسية بين جماعة الأمم البريطانية ، يتفق مع الأمانى الجديدة للمستعمرات . واضطر الناس إلى التسليم بأن الحرب ، وإن قدَّمت للعالم أكبر دليل وأعجب مثال للناسك الإمبراطورى ، فإنها عاونت فى الوقت ذاته على انحلال الإمبراطورية إلى جمعات حرة من الدول المتساوية ^(١) ، هذا باستثناء الهند ومستعمرات التاج .

٦ - الحرب الكلية

وكانت الحرب العظمى حرب إبادة وإفناء إلى مدى لم يشهد له مثيل قط من قبل . فقد اشتركت الشعوب برمتها فى النضال ، وعُدَّ جميع أفرادها أهدافاً مشروعة للقتل والتقتيل . ومع أن الحرب الجوية كانت فى مهد طفولتها ، إلا أنها تقدمت قبيل عقد الهدنة إلى درجة أنها خلقت مباراة كريمة بين الدول المتحاربة فى ضرب المدن بالقنابل والفتك بالمدنيين . فقنابل الطائرات تنساقط على أى مكان ، فقد تقع على أطفال صغار ، وهم جالسون على

(١) حدد المؤتمر الإمبراطورى الذى عقد سنة ١٩٣٦ مركز مستعمرات الدومينيون بأنه « معادل فى المقام لمركز بريطانيا » وهذه المستعمرات غير خاضعة بأى شكل من الأشكال لإحداها لأخرى فى أية ناحية من نواحي شؤونها الداخلية أو الخارجية ، ولو أنها تتحد معاً برباط الولاء المشترك للتاج وترتبط معاً فى حرية كاملة بصفتهما أعضاء فى جماعة الأمم البريطانية .

مقاعدهم يتلقون دروسهم ، وقد تقع على المتعبدین ، وهم يركعون سجداً في الكنائس والبيع ، بل قد تسقط على الممرضات ، وهن يقمن بالعناية بالمرضى .

ولم تحفل الدول أيضاً إلا قليلاً بحقوق المحاربين . فإن غزو ألمانيا للبلجيك ، وحرب الغواصات المطلقة ، واستخدام الغازات الخائفة ، كانت جميعها أعمال قسوة وجرائم وحشية خارجة عن قواعد القانون الدولي ، اتهم الحلفاء ألمانيا بالإقدام على ارتكابها . ولكن من الجهة الأخرى فإن تعرض الأسطول البريطاني لتجارة المخايدين في عرض البحار ، واستيلاء الحلفاء على جزيرة كورفو لجعلها مصحة لجنودهم ، وفرض الأسطول الفرنسي الحصار على اليونان بحجة أنه يخشى انضمام ملكها قسطنطين إلى العدو ، كانت أيضاً في درجات متفاوتة ، أعمالاً ليس في وسع قانوني منصف أن يجد لها مبرراً مشروعاً يميزها .

وتجلى بأوضح بيان قلة اكتراث الأمم المحاربة بقواعد النصفة والرحمة التي احتواها القانون الدولي في مثال الولايات المتحدة الذي أشرنا إليه آنفاً . فلما قبل دخولها الحرب أعلنت باطراد وبملاء صوتها ، أنه ليس ثمة مملكة أشد منها تمسكاً بمبدأ حرية البحار وولاء له . ولكنها سرعان ما أشهرت الحرب ، وبدأت عملياتها الحربية ، حتى تغير موقفها تغيراً كلياً . فحصار ألمانيا البحري الذي كان في نظرها قبل دخولها الحرب بأسبوع جريمة دولية ، غداً عند إشهارها الحرب عملاً أمريكياً ممتازاً وفضيلة سامية . وضربت بحرية البحار عرض الحائط . ووجه الأسطول الأمريكي الجحيم النشاط عنايته كلها إلى حصار العدو حصاراً كاملاً لم تجرؤ الأميرالية البريطانية على احتذاء حذوه .

وليس في مقلود الكلمات أن ترسم آلام الأمم الأوربية وشقوتها وأرزاءها خلال ذلك الصراع الدامي الطويل الأمد . فقد ذهبت الحرب بعقول البعض ، وبأبصار آخرين ، وزهقت أرواح البعض اختناقاً بالغازات

آلام البشرية
وأرزاءها

السامة ، ومزقت الانفجارات أجسام بعض آخر ، وشوهت أعضاءهم .
وخرج الكثيرون من ساحات الوغى وقد تحطمت أعصابهم تحطيماً
مستديماً.

ولكن أعجب ما في الطبيعة البشرية ، وأدعاها إلى الإعجاب والتقدير ،
هو أن رد الفعل الذى نجم من الفرع والارتباك اللذين كادا يكونان عامين
في جميع الدول ، لم يكن الاستسلام للخوف والهلع من ويلات الحرب ،
بل كان تصميمياً قاطعاً على مواصلة إلى النهاية المحتومة ، برغم استنكار الناس
وسخطهم . فكان كل هجوم جوى على إنجلترا يدفع قومها إلى الإقبال
على التطوع في الجيش : وكان كل أسبوع تكثر فيه الخسائر في جبهة القتال
يضاعف من مجهودات عمال الذخيرة ، وكل قسوة يرتكبها الألمان
في البلجيك تجعل انتصارهم النهائي أبعد احتمالاً . وعلمت الحرب عبرة
يحمل بالأجيال القادمة أن توليها التفاتاً : وهى إفلاس العنف والإرهاب
كسياسة لتحصد إرادة دول أوروبا الممددة وقمع شعورها . فإن أهل دنكرك
برغم مهاجمة مدينتهم من الجو مهاجمة كادت تكون مستديماً ، كانوا ينهضون
بجميع أعمالهم العادية تقريباً كما ألفوها زمن السلم .

والم يكن مستطاعاً مواصلة حرب طويلة قاسية كهذه الحرب في أقطار
الاتحاد
لضروب الدعاية
كانت على جانب كبير نسبي من الحضارة ، إلا بالقيام بمجهود هائل من
الدعاية المتلاحقة المؤثرة في نفسية عامة الشعب . فكانت إثارة الهمم للتطوع
تذكى بخطب الحرب ، وكانت هذه الخطب طافحة بالأساطير والخرافات .
وحتى إنجلترا ارتكبت ضروباً من الإرهاب والجور ضد رعايا الأعداء
القاطنين بها . فقد اعتقلوا ، وصودرت أملاكهم ، وفي مراحل الحرب
الأخيرة رحلوا إلى ألمانيا .

وصار توزيع النشرات من الجو في أطوار الحرب الختامية بغية إضعاف
الروح المعنوية في جيش العدو مظهراً من مظاهر الحرب ، ذا أهمية متزايدة.

فقد جهد الألمان في بث العصيان في نفوس الجند الروس . وقادت الدعاية الإنجليزية عدداً كبيراً من الألمان إلى التشكك في عدالة قضية بلادهم ، والارتياح في صدق زعمائهم . وعُجِّلَ انحلال جيش الإمبراطورية النمساوية السبيّة التنظيم والانسجام ، بندايات بارعة أُعِدَّتْ في لندن ، ووزعت بالطيارات على أجناس الإمبراطورية التي كانت تنزمر منذ دهر طويل تحت الحكم النمساوي .

٧ - إنشاء تشكوسلوفاكيا

ولعل أعجب تذكّار قائم لنجاح الدعاية زمن الحرب ، هو ظهور جمهورية تشكوسلوفاكيا من بين حطام الإمبراطورية النمساوية . فإن معظم الدول نشأت نتيجة لانتصار السيف ، أو تمت عن طريق الاستعمار . أما تشكوسلوفاكيا فهي وليدة الدعاية . والحق أن قصة الأحداث التي خلقت هذه الدولة خلقاً : كيف أثار مازاريك Masaryk ، وهو ابن حوذي سلوفاكيا ، وبنيش Benes ، وهو ابن فلاح أجير - كيف أثار هذان الزعميان هياجاً ، وأججاً ناراً لتحرير مواطنيها التشك والسلوفاك ، وكيف كللت جهودهما بالنجاح إلى مدى كبير ، بفرار مواطنيها أفواجاً من الجيش النمساوي ، وتطوع بعض من أعلام الإنجليز والفرنسيين لخدمة قضيتهم ، والحماس البالغ الذي استقبل به مازاريك المنادى بتحرير التشك في شيكاغو (وهي تلي براغ في عدد التشك من سكانها) ، والعطف الكبير الذي أظهره الرئيس ولسن لقضية استقلال التشك ، وكيف ألف ٤٥ ألف تشكي من أسرى الحرب في روسيا من أنفسهم جيشاً ، زحف سيراً على الأقدام عبر سيبيريا ، ثم نُقِلُوا منها عن طريق المحيط الهادئ والولايات المتحدة إلى بلادهم الأصلية : إن قصة هذه الأحداث تؤلف حقاً فصلاً من أعجب

فصول التاريخ الحديث . ولهذا ليس عجيباً أن تدعى محطة براغ الرئيسية ،
 لا باسم قائد تشكى ، أو انتصار حربى تشكى ، بل باسم رئيس الجمهورية
 الأمريكية ، الذى إذ أعجب إعجاباً عظيماً بالدعاية البارعة التى قام بها
 هذان المنفيان العبقريان ، أعلن أن إنشاء جمهورية تشكوسلوفاكية هو أحد
 الأهداف التى يرمى الحلفاء إلى تحقيقها عقب إغماد السيوف .

الفصل الرابع والثلاثون

معاهدات الصلح

تراث الحرب . الظروف التي صيغت فيها معاهدات الصلح . الرئيس ولسن . نفوذ العظيم . مبدأ تقرير المصير . عهد عصبة الأمم . جورج كليمنصو . دافد لويد جورج . مسألة الترميمات والانتخابات الإنجليزية عام ١٩١٨ . وجهة النظر الإيطالية . عيوب معاهدة فرمى . تقطيع أوصال إمبراطورية النمسا والمجر . انتصار مبدأ ولسن الخاص بتقرير المصير . انسحاب أمريكا . تحالف فرنسا مع « الاتفاق الصغير » . تنظيم عصبة الأمم . الأفكار التي تضمنها عهد العصبة . بقاء المناقشات الدولية . سحب الحرب عام ١٩٣٥ .

١ - تراث الحرب

كانت حال أوروبا عقب الهدنة ، حالاً لا مثيل لها في الشقاء والاضطراب . حال أوروبا عقب الهدنة . فقد تقطعت أوصال إمبراطوريتي أوروبا الوسطى المهيمنتين . وكان على الجمهوريات الجديدة التي خلقتها معاهدات الصلح أن تعمل على تأمين نفسها ، وتكسب الثقة والهبة الضروريتين لها في حياتها الجديدة . فقد كانت جميع تلك الحكومات التي قامت في وسط أوروبا وشرقها في أقل درجات الخبرة والكفاية . وكان ولاء رعاياها لها متضارباً غير مأمون ، وحدودها متأرجحة غير مستقرة . وكان الإعياء الذي حل بها هو الخليف الأخير الذي نأصر النظام الاجتماعي القائم ومنع انهياره . وقد كانت هذه الأحوال جارية بشكل خاص في روسيا والبلدان المهزومة ، ففرض

كوارث الحرب والأوبئة واجب باهظ على رجال السياسة ومحبي الخير ، قصرت دونه وسائل العلاج التي كان في مقدور الجنس البشري أن يقدمها وقتئذ . فإن ثمانية ملايين من الشبان ، هم زهرة جيلهم وخبرة أمهم ، هلكوا في ساحات الوغى ، وعددًا أكبر من هذا أصبحوا عاجزين . وكانت الخسائر في الأنفس بسبب فتك الجوع وسوء التغذية والأمراض^(١) تعدل هذه الأرقام ، إن لم تزد عايبا . ولقد كان حصص هذه الأوباء للأرواح مريعاً ، خاصة في روسيا ، حيث زادت خطوب الثورات والحروب المستمرة من ويلات الكولرا والتيفوس ونقص الأطعمة .

وكانت هذه الكوارث عظيمة مروعة أيضاً في جميع أرجاء أوروبا الوسطى والشرقية : في بولندا التي أثنىها جروح الحرب حتى اضطرت الفلاحون إلى اقتيات الحشائش وجذوع الأشجار ، وفي ألمانيا حيث كان عدد المواليد عام ١٩١٨ أقل من عدد الوفيات ، وذلك لسوء التغذية ونقص الأطعمة ، وفي النمسا حيث كثر شبح المجاعة عن أنيابه في وجه جميع أسر الفقراء والعمال نتيجة تعطل المصانع لعدم وجود فحم ومواد خام بها ، وفي سيبيريا حيث كان نصف سكانها قد هلكوا زمن الحرب ، و ٣٥٪ منهم كانوا مصابين بمرض السل الوبيل .

ولأنه لمن العسير حقاً أن نرسم صورة للقنوط والتعاسة اللذين أنجبتهما هذه الأحوال القظيمة ، أو أن نقدر العواقب السيئة للحرب على سكان أوروبا — تلك العواقب التي نجمت عن سنين أربع طوال من الإنهاك والنصب وسوء التغذية . وكان تدمير رؤوس الأموال الثابتة بالمقذوفات المتفجرة خلال الحرب تافهاً حيناً ، إذا قيس بهذه الولايات — إلا في الحالات التي ازداد فيها العوز والمرض بسبب هذا التخريب .

ولم تكن هذه الكوارث مقصورة على الدول المهزومة دون غيرها . فقد

(١) قدر المجموع الكلي للوفيات التي نسبت أسبابها إلى الحرب بخمسة وعشرين مليوناً من الأنفس .

حافى أيضاً الظافرون والمحاملون بعض محنها وويلاتها . فكانت خسائر فرنسا هائلة في القتلى والجرحى ، وفي المزارع المحترقة وفي المصانع والمناجم المدمرة . واشتدت الفاقة والعوز في إيطاليا بسبب قلة الوقود . وفي الحق أن مغبة الحرب السيئة القاسية شعير بها في جميع أرجاء المسكونة . ولكن شعير بها بدرجة خطيرة في الأمصار الفقيرة التي أدى فيها ارتفاع أثمان الأطعمة ارتفاعاً زهيداً إلى فاقة الأهلين جميعاً وجوعهم ، وكان ذلك أيضاً حال الهند على أثر انتهاء الحرب ، حيث قضى انتشار وباء الأنفلونزا على ستة ملايين من أهلها ، على حين أنه كان يصبح في غير هذه الأحوال المروعة خفيف الويلات ، ضئيل الحصاد .

فأنتج عظم هذه الخطوب وفداحة هذه النكبات ، في عقول جماهير الناس ، تعطشاً بالغا إلى إقامة عالم ينظم على أنماط جديدة خير من النظم الماضية . وكما يحدث غالباً حينما تكون الرغائب قوية ، جالت في الخواطر فكرة بأن في الميسور بناء مجتمع فاضل . وقد تركزت آمال روسيا في تشييده في لنين ، وتطلعت أوروبا لخلاصها من نكباتها ، ونشلها من وهاتها ، إلى الرئيس ولسن .

٢ - أقطاب الصلح

وُضعت معاهدات الصلح بإشراف ثلاثة من الزعماء السياسيين الديمقراطيين ، كان كل منهم يظفر بمكانة سامية وهيبة فذة في بلاده ، وهم : ولسن وكليمنصو ولويد جورج . ومع أن كلا من هؤلاء الأقطاب الثلاثة أثر أثره الخاص في هذه المعاهدات ، بحيث في وسعنا أن نقول : هنا أثر ولسن ، وهنا لمسة لويد جورج ، وهنا لصيغ كليمنصو ، فإن قوام تسوية الصلح وجوهرها أملهما الحقائق الواقعة التي أكره هؤلاء الساسة على قبولها . فلو أن هؤلاء الأقطاب الثلاثة اغتيلوا فجأة لما استطاعت فئة أخرى من الساسة ، مهما استنارت ألبابهم ، أن تغير تلك الحقائق ، أو ألا تحفل بها .

تاريخ أوروبا

قوة القوميات
الجديدة

وكانت الحقيقة الأولى الغالبة المسيطرة هي انهيار الحكومات القديمة لروسيا وألمانيا والنمسا والمجر . نتيجة لصدمات الحرب وانكسار تلك الدول فيها ، ولأن البولنديين والتشكيين والرومانين والصربيين أقاموا حكومات وطنية جديدة في بلادهم . فحتى لو أن ساسة الحلفاء المجتمعين بباريس رغبوا في التصدي لهذه الحركات القومية ووقف سريانها ، لما كان في طاقتهم أن ينفذوا إرادتهم . اللهم إلا بالقوة المسلحة . ولكن أين لهم هذه القوة ؟ لقد أوهنت الحرب قوى الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين ، وأحلت في قلوبهم الضمجر والكلال . ولم يكن هنالك سوى جيش جديد واحد ما زال محتفظاً بعنفوانه . هو جيش الولايات المتحدة . ولكن هذا الجيش كان قد أدى مهمته . وما كانت حكومة الولايات المتحدة لتصدق لحظة واحدة على استخدام فرقة واحدة من جيشها في حملة تشنها للوقوف في وجه أماني البولنديين والتشكيين القومية .

غلبة روح
التشنى

وكان الظرف الثانى الذى سيطر على صوغ معاهدات الصلح هو الروح التى سادت البلدان الأوربية المحاربة يومئذ - تلك البلدان التى أنقذها القدر فى اللحظة الأخيرة بعد أن أشرفت على الهلاك . فإن ساسة الحلفاء عدوا ألمانيا مسئولة عن إشهار الحرب . واستشهدوا بالحجة بأن الصربيين لم يكونوا هم الذين غزوا النمسا ، أو البلجيكين هم الذين هاجموا ألمانيا ، بل العكس هو الصحيح . وقالوا إن الحكومة الألمانية هى التى أشهرت الحرب على روسيا وفرنسا والبلجيك . وامتلاًوا حيرة وحنقاً ورغبة فى التشنى والتنكيل . وكانوا يصبون إلى تأمين بلادهم من أخطار الحرب ، وإلى معاقبة الجرائم التى ارتكبت خلالها .

وليس فى مقدور سياسى يعيش فى بلد ديمقراطى ، أن يتغلب على رغائب بنى جلده الواضحة القوية ، مهما بلغ هذا السياسى من استقلال الرأى ورفعة المنزلة . ولذا ما كان فى مقدور كليمنصو أن يمثل فرنسا ، ولا أرلندو إيطاليا ، لو أنهما لم يسعبا إلى إضعاف دول الأعداء ، وتحسين وسائل

وقاية بلديهما من صنوف الاعتداء . أما لويد جورج فقد أعطاه مجلس العموم توكيلاً بأن يلزم العدو بدفع تعويضات عن أضرار الحرب . ولو أنه لم يحصل فعلاً في وثيقة الهدنة على حق حجز الأسطول الألماني ، لكان الناجبون البريطانيون سأله لماذا لم يفعل ذلك . ورغم أن كبير الوزراء البريطانيين كان من بين جميع ساسة أوروبا السياسي الوحيد الذي كان في مقدوره أن ينظر إلى الموقف بعين حرة متسامحة ، فقد أخذت عليه العهود الجلية قبل ذهابه إلى باريس بانتهاج سياسة من التشفي والانتقام .

وكان من سوء الطالع أن مؤتمر الصلح عُقِدَ في حاضرة مازالت تترنح تحت ويلات الحرب وآسى ضربها بالقنابل . ففي هذا الجو الحانق الذي ساد باريس وقتئذ ، كافحت المثل العليا للهدنة والمصالحة كفاحاً خاسراً غير متكافئ مع نوازع الشر ونزوات الانتقام . ولو أن مؤتمر الصلح عُقِدَ في بلدة سويسرية يهب عليها النسيم العليل — كما اقترحت الحكومة البريطانية — فلربما كان هذا المؤتمر قد وضع صلحاً منصفاً .

ودُعي مؤتمر الصلح إلى الالتئام بباريس في ١٨ يناير سنة ١٩١٩ . مؤتمر الصلح وكان جمعاً حافلاً لا مثيل له في التاريخ . فقد أزعجت الحرب كل امرئ في كل مكان ، وعجلت بظهور جميع ألوان الضغائن والكراهية ، وأنعشت كل مطلب ، وركّزت كل أمل ، وقوت كل شهوة . فأمام هذه الشهوات والمطالب والآمال والضغائن ، ارتقب العالم من حفنة من الساسة الذين كانت الحرب قد أوهنت قواهم ، والذين كان كل منهم مسئولاً أمام برلمان مدقق صارم في وطنه ، والذين أقلق بالهم هذيان صحافة منحطة متسفلة — ارتقب العالم من هؤلاء الساسة أن يعالجوا الأمور بأسمى ما تصل إليه حكمتهم .

وقد وصف الدكتور ديلون Dr. Dillon ، وهو شاهد عيان ، باريس خلال فترة المؤتمر وصفاً رائعاً ، قال : « لم تغدُ باريسُ المؤتمر ، باريسُ قصبة فرنسا . بل أضحت محط رجال جمهرة عظيمة لجموع خليطة

كثيرة . وصارت تزخر بألوان غير مألوفة من الحياة والصخب والضحج ،
وتملأ جنباتها عينات عجبية من شتى الأجناس والعشائر واللغات — جاءت
تنظر ما يأتي به الغد الغامض ، وترتقب مجرى الأمور القادمة .

« وكأن لمسة سحرية من لمسات ألف ليلة وليلة قد مست جيبن مدينة
النور ، فقدمت هذا المشهد الأخاذ العابر : مشهد مئات من الرجال الذين
وفدوا من أقطار المعمورة الأربعة — من بلاد التتار وكردستان ، ومن
كوريا وأذربيجان ، ومن أرمينيا وفارس والحجاز ، ورجال ذوى لحى مهيبة
وأنوف محدودة قدموا من صحارى سمرقند وبخارى وواحاتها . واختلطت
العائم والطرايش ، بالقبعات والقلنسوات ، وامتزجت فى عشية الصلح
الدائم المنشود البزات العسكرية التى ابتدعت من نماذج قديمة لحيوش دول
لم تر النور بعد — امتزجت بالبرانس الرجبية ، والعباءات الفصفاضة والأردية
الأنيقة . فعاونت كل هذه المظاهر على خلق محيط من الخيال الحالم فى هذه
المدينة التى أصبحت تُعرض فيها على بساط البحث أعقد المشكلات ،
وتعالج أدق الحقائق الواقعة .

« ثم جاء رجال المال والثروة ، ورجال الذكاء والعبقرية ، ورجال
الأعمال والمغامرات الصناعية ، وأنبياء النظام الخلقى الجديد ، وأعضاء
الجمعيات الاقتصادية . فى الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا وبولندا
وروسيا والهند واليابان ، ومثلوا آبار النفط ومناجم الفحم فى الأقطار القصية .
وفد أيضاً إلى باريس الحجاج والأفاكون والمتمصبون الغلاة من كل حذب
وصوب ، والكهان من جميع الأديان ، والمبشرون من كل مذهب . واختلط
هؤلاء بالأمرء والمراشلات والساسة والفوضويين وأنصار البناء وأشياع الهدم .
وكانوا جميعاً يتحرقون شوقاً إلى الدنو من البوتقة التى ستصهر فيها نظم العالم
السياسية والاجتماعية جمعاء ، وتصاغ من جديد » .

فى هذا المشهد الذى اختلط فيه الحابل بالنابل ، تألق نجم رئيس الجمهورية
الأمريكية فى أوائل أيام المؤتمر بسناء لامع ونور فياض ، وكأنه مسيح نزل

الرئيس وودرو
ولسن

على الأرض ليهدى البشر إلى طريق الخير والسلام . صحيح أنه مرت على
ولسن فترة أثناء الحرب كان فيها مبغوضاً أشد البغض بين الدول المتحاربة .
فقد أوصاها بأن تتجمل بالإنصاف « والعقل المحايده » ، كأن العالم صار
خلواً من الخلافات الأدبية والمعنوية . وحضها على عقد « صلح من غير
انتصار » ، كأن الحرب لا تترك في النفوس الإحزن والأحقاد . ولكن نُسى
الآن كل هذا : أفلم يناصر الرئيس الحلفاء ويُدخل أمريكا الحرب في
صفهم ؟

وكان ولسن قد حدد في سلسلة من الخطب البليغة السامية المقاصد
أهداف الحلفاء من الحرب ، وأبان فيها عن المؤسسات السياسية الجديدة
التي رغب في إنشائها بأوروبا ، وأوضح أن العدو هو « روح العسكرية
البروسية » ، وأن الهدف هو « جعل العالم مأموناً لقيام الديمقراطية » .
ومنه تعلم الحلفاء أنهم يجاهدون ، لا لإرجاع الألتراس واللورين إلى فرنسا
فحسب ، وإنما من أجل بعث دولة بولندية مجددة ذات اتصال بالبحر ،
ومن أجل إقامة جمهورية جديدة في تشكوسلوفاكيا .

وهو الذي حدد « النفط الأربع عشرة » ، وهو الذي تفاوض مع
الحكومة الألمانية قبيل عقد الهدنة بخصوص التسليم ، وهو الذي
أصر على وجوب قبولها شروط الهدنة الحربية . ولم تكن بلاده راغبة في تملك
أرض ، أو فرض غرامة حربية . بل إنه عدّ حتى في كثير من الأوساط
الألمانية مبعوثاً حكيماً تزيّنه مناقب الإنصاف والحكمة والبعد عن
المهوى ، ونبياً بعثه العالم الجديد ليظهر العالم القديم من أدرانته وأوضاره .
ولكنه نبى هو سيد دولة قوية وحامل لوائها ، على حين كان غيره من الأنبياء
« أصواتاً صارخة في البرية » . ذلك أن الحلفاء كانوا يعملون في موارد
الغذائية والمالية على بلاده . وكان مليونان من الجند الأمريكيين الذين لم
تضعف المعامع قناتهم بعسكرون في أرض فرنسا ، على حين كان مليونان
من زهرة شباب فرنسا وانجلترا يرقلون تحت أطباق الثرى .

وكانت ثمة نقطة ضعف وحيدة في مركز الرئيس ولنس وضح أمرها للأمر يكيين ، ولكن أوربا لم نعرها يومئذ التفاتاً ، وهى أنه لم يكن يمثل جميع مواطنيه . فقد كان ديمقراطياً ومثالياً ، على حين أن الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور في الولايات المتحدة لم يكونوا لاهذا ولاذاك . وكانت للحزب الجمهورى المعارض الأغلبية في مجلس الشيوخ ، الذى يهيمن في النهاية على سياسة الولايات المتحدة الأجنبية . ولهذا فإنه حينما قرر الرئيس الذهاب إلى باريس . كان من سداد الرأى لو أنه دعا إلى عونه بعضاً من أعضاء ذلك الحزب البارزين . ولكن الرئيس كان بطبعه أوتقراطياً . وكان في الشئون الداخلية شديد التحزب . فقصد باريس من غير أن يصحب أحداً من الجمهوريين . فنثار هؤلاء منه بأن أحبطوا جميع خططه ، وحلوا مجلس الشيوخ على عدم التصديق على معاهدات الصلح .

نقطة ضعف
في مركزه

وكانت هذه المعاهدات تحمل طابع مبادئ ولنس : فقد رُسمت خريطة أوربا الجديدة طبقاً لمبدأ تقرير المصير (اصطلاح مستعار من البلاشفة) الذى بشرّ الرئيس به العالم بأنه الباب الذى سيوصله خلال تيه من الآثام والشرور إلى العدالة والسلام . فأبد إقامة دولة جديدة من بولندا ، وإنشاء الممر البولندى ، وتأسيس دولة تشكوسلوفاكيا . ولعله كان بهذه الإجراءات راغباً في تقويم أخطاء التاريخ . ولكن لعله أيضاً كان يرى من وراء ذلك إلى ضم الناحيين الأمريكيين المنحدرين من سلالة بولندية وتشكيه إلى صفه .

مبدأ تقرير
المصير

فليس للأمر يكيين إذن أن يجأروا بالشكوى بأن المثل العليا الأمريكية قد أغفلت في المسائل الجوهرية لمعاهدات الصلح . فقد خُطّطت الحدود السياسية الجديدة وفق مبادئ ولنس ، ورُسمت بشكل جعل ٣ ٪ فقط من مجموع سكان قارة أوربا يعيشون خاضعين لحكم أجنبي . ولذا يمكن القول بأنه لم تُرسم قط من قبل حدود لدول أوربا خير من تلك التى رسمها مؤتمر صلح فرساي .

عهد عصبة الأمم

وكذلك وُضعت معاهدات الصلح من ناحية هامة أخرى وفق مبادئ
ولسن . فلولا الرئيس الأمريكي ، لما صيغ عهد عصبة الأمم في ذلك
الحين ، ولما وُضع ذلك العهد في صلب تلك المعاهدات . أما الفكرة ذاتها
الخاصة بإنشاء عصبة أمم ، فلم يكن ولسن هو مبتكرها الأصيل ، بل
هى فكرة أنجلوسكسونية غربية لدى الشعوب اللاتينية ، نبتت ونمت في
غضون الحرب العظمى في أذهان كثيرين من المحبين للسلام في إنجلترا
وأمریکا كليهما . وتقدم البعض بصوغ بعض الاقتراحات بشأنها، وكان
أهمها تلك التى صاغها اللورد فليمور والجنرال سمطس .

ولكن صياغة الاقتراحات شىء ، ووضعها موضع التنفيذ شىء آخر .
فقد اقتبس ولسن اقتراحات فليمور وسمطس ، وأصر على أن توضع مسألة
العصبة في مقدمة المسائل التى تعرض على المؤتمر . وترأس بنفسه اللجنة التى
وضعت نصوص عهد العصبة . وبنفوذ العظيم أنجز العمل وأقبر العهد في
وقت قصير . وبلغ من تصميم الرئيس على إكراه مجلس الشيوخ الأمريكى
على الموافقة على عهد العصبة أنه جعله جزءاً لا يتجزأ من معاهدة فرساي ،
وبذلك أضاع على مؤتمر الصلح شهرين ثمينين قبل أن ينشط المؤتمر إلى
عمله الحقيقى ، وهو تقرير شروط الصلح .

ولهذا ليس صحيحاً القول بأن معاهدات الصلح تنقصها الروح المثالية ،
أو أنها لا تقوم على مبادئ صائبة . فإنها تحوى في عهد العصبة
مثلاً أعلى ، كما أنها تتبع مبدأ ، هو مبدأ تقرير المصير . إلا أن هذا المثل الأعلى
لم ينل تأييد كثرة أوربيى القارة . وكان المبدأ ، مع عدالته ، مفعماً بالمخاطر
والبدع . فإنه أدى إلى إقامة دول خمس جديدة خامرت الناس الشكوك في
إمكان أى منها أن ترسخ أركانها ، وأدى أيضاً إلى تغيرات واسعة النطاق
في توزيع الأرض والسكان على حساب الجنسين التوتونى والمجرى .

فانتهت الحرب ضد الإمبراطورية الألمانية بصلح ثورى راديكالى
صاغه ساسة الدول الديمقراطية . واعترف هذا الصلح بمبدأ تحرير الأمم

دفاع عن
معاهدات الصلح

وضمن استقلال الجمهوريات الجديدة ، وأعد العدة لحماية الأقليات .
ولهذا فإن الميل العام لأوروبا صوب القومية والديمقراطية — وهو الميل الذى
أخذ يزداد نمواً ورسوخاً منذ ثورات سنة ١٨٤٨ — يلوح أنه بلغ ذروته
فى صلح فرساي .

كليمنصو

وكان رئيس وزراء فرنسا كليمنصو ، وكان فى العقد التاسع من العمر ،
فظ الأخلاق ، ذكى الخاطر ، لا تعرف الخيالات إلى ذهنه سبيلا ،
عظيم الولاء طوال حياته البرلمانية والصحفية العاصفة لثلاثة أشياء حبيبة إلى
قلبه وهى : العلوم ، وفرنسا ، والحرية . وكان مرآة صادقة لفرنسا الواقعية
المنطقية إلا فى نقطة واحدة ، وهى حبه للجنس الأنجلوسكسونى ، وفهمه
إياه ، وإدراكه أكثر من سائر مواطنيه فائدة صداقة فرنسا لشعوبه .

وقد تمثلت مرة أخرى فى شخص هذا الجمهورى الأملئى الناري
المزاج أطيب سياسات فرنسا القديمة : سياسات ريشليو ومزران ولويس
الرابع عشر ودانتون . فقد رأى كليمنصو بلاده تُغزى مرتين ، ورأى كيف
أنقذها من تهلكة ماحقة لإبرامها محالفات لم يكن منظوراً قط أن يتكرر
عقدها . وأدرك أنه لن يجيء عام ١٩٤٠ حتى يكون لألمانيا من الرجال
الذين فى سن القرعة العسكرية ضعف ما سيكون لفرنسا ، ولذا ارتأب فى
أن أى حلف تعقده بلاده يستطيع أن يفيدها ويحميها من العدو . أفكان
إذن عجيباً أن يمتلئ ذهنه بشيئين دون غيرهما ، وهما : التعويضات من
أضرار الماضي ، وسلامة بلاده فى المستقبل ؟ وهل كان أمراً يثير الدهشة
أن يؤيد هذا الرجل الذى لم تكن له أقل ثقة بعهود الألمان — أن يؤيد أصدق
تأييد مطلب المارشال فوش الذى تقدم به على أثر انتهاء الحرب ، وهالة
النصر تحيط بجبينه ، وهو المطلب الخاص بمنح فرنسا قواعد على ضفتى
الرين تكون لها بمثابة رؤوس حراب ؟ ومع ذلك لى هذا المطلب معارضة
قوية من جانب ولسن ولويد جورج اللذين حاجبا بأن يترأضى الرين
من الريخ معناه خلق ألتزاس ولورين جديدتين ، وبلربلور حرب مقبلة .

وكان لويد جورج صلياً كل الصلابة في موقفه . ولكنه مقابل عدم موافقته على ضم أراضي الرين إلى فرنسا ، تقدم إلى مؤتمر الصلح باقتراح إلغاء التجنيد الإجباري في ألمانيا ، وإنقاص الجيش الألماني وتحديدته بمائة ألف جندي ، وحظر تحصين منطقة الرين الواقعة على ضفته اليمنى . كما اقترح عقد معاهدة ضمان يوقعها هو وولسن ، ويتعهد فيها بلدهما بالدفاع عن الأراضي الفرنسية ضد أي اعتداء ألماني . واضطر كليمنصو إلى الانحناء أمام إرادة السياسيين الأنجلوسكسونيين . ولكن حينما أبى الكونجرس الأمريكي التصديق على معاهدة الضمان هذه ، شعرت فرنسا بأنها استغويت إلى قبول التنازل عن أراضي الرين جزاء قصاصة من الورق . وقيل يومئذ إن الجيش الفرنسي كسب الحرب ، ولكن كليمنصو باع الصلح .

أما رئيس الوزارة البريطاني فرجع إلى بلاده مفعم الوطاب من الغنائم ، جالبا لبلاده مكاسب ، كان يت الأكبر نفسه يغطه عليها . فقد أحضر إلى إنجلترا الجانب الأكبر من الأسطول الألماني ^(١) . والشطر الأكبر من الأسطول التجاري الألماني ، ومنح بريطانيا انتداباً في العراق وفلسطين ، وفي تنجيقا ، وفي أنفس المستعمرات الألمانية ، بينما ظفرت جنوب إفريقية وأستراليا ونيوزيلندا بمستعمرات ألمانية أخرى أقل أهمية من تلك التي غنمتها إنجلترا . وأعطيت بريطانيا حصصاً في التعويضات الألمانية ، واعترف بحق مستعمرات الدومينيون في الاشتراك في إبرام معاهدة الصلح ، والتمثيل في عصبة الأمم كدول منفصلة مستقلة . والحق أن مستر لويد جورج أفلح في كسب كل ما كان في مقدور الإمبراطورية البريطانية أن تكسبه .

فلإذا قيس نصره هذا بالمعايير التقليدية لسياسة القوى ، فإنه ليس ثمة ما هو أكمل وأروع من ذلك النصر . ومع ذلك فإن لويد جورج يرغم زعامته الباهرة خلال الحرب ، وبرغم الخدمات الحميدة التي قدمها لبلاده ، وبرغم الأعمال الرائعة التي صنعتها إنجلترا في البر والبحر ، فإنه ذهب إلى مؤتمر الصلح دون أن يكون

(١) الذي سلم بمقتضى شروط الهدنة ، ثم أغرقه بحارته فيما بعد في سكايافلو .

طليق اليد . فقد حدثت في إنجلترا إثر انتهاء الحرب نكبة لم يكن منها مفر؛ وهى إجراء انتخابات عامة فيها. فطغت على الناخبين روح نادرة من التزوات الجاحمة الراغبة فى التنكيل بالعدو . وزاد هذه التزوات سعيراً أصوات النساء اللاتى كن قد فزن بحق الانتخاب سنة ١٩١٧ ، فارتفعت الأصوات منادية بأنه يجب أن تُكره ألمانيا على دفع جميع نفقات الحرب ، وأن يُشنق الإمبراطور ، وأن يقدم جميع الألمان الذين انتهكوا قوانين الحرب إلى المحاكمة ويعاقبوا . وكان للناخبين البريطانيين عذر فى أن يروا ضرورة معاقبة مدبرى هذه الحرب باعتبارهم مجرمين . فقد سمعوا فى معاودة وإصرار المبدأ القاتل بأن الحرب جريمة ، وكان إغراق سفن الركاب البريطانية لا يزال ماثلاً فى أذهانهم .

انحرافه عن جادة العواب ولكن رجال السياسة كانوا أدركوا أنهم بالأمور . فجاء هذا الإعلان القوى لحق رأى العام صدمة مباغتة للقابضين على دفة الأمور فى إنجلترا . فانحرف الخطباء فى هذه الانتخابات عن جادة الرأى السديد . ولم يُستن رئيس الوزراء نفسه من هؤلاء . فساقه ضغط الانفعالات الشعبية بعيداً عن الصراط النبيل الذى كان يجدر به أن يسلكه ، وهو المطالبة بضرورة التعمير والبناء القومى ، اللذين جعلهما شعاراً له فى بدء حملته الانتخابية . ولم يحفل الناخبون ببناء «تشيد منازل صالحة للأبطال » ، بل عقدوا النية على التنكيل بغريمهم .

والخطيب شديد التأثير بمشاعر مستمعيه . ولذا نرى لهجة رئيس الوزراء تقسو ، ونراه يفيض فى الكلام عن ضرورة فرض عقوبات على ألمانيا . ومع أنه كان أريباً فى حرصه على الإعراب عن بعض تحفظات حكيمه ، ونقص يده من تبعه فرض المبالغ الطائلة العجيبة التى أوصت لجنة من الخبراء البريطانيين بإكراه ألمانيا على دفعها ، فإنه أعرب عن المبدأ القانونى القاتل : بأنه يجب أن يدفع الفريق المهزوم نفقات الحرب . وبذلك قاد البلاد بلا مراة إلى الاعتقاد بأنه يمكن ، بل ينبغي ، أن يكره العدو على دفع مبلغ طائل جداً .

ولكن كشفت فيما بعد هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن تقدير مقدرة ألمانيا على دفع زهاء أثنى مليون جنيه كتعويضات ، كان أقرب إلى السداد من الرقم

مائة التوبيخات

الخيالى العجيب، وهو ٢٤ ألف مليون جنيه، الذى وضعته تلك اللجنة الفنية البريطانية. غير أن إعلان رقم ضئيل كألفى مليون جنيه كان يحدث صدمة عنيفة للآمال الوهمية التى سادت عقول الناس وقتئذ. ولهذا لم يحدث رقم معين للتعويضات فى معاهدة فرساي. بل ترك هذا الأمر فى فطنة إلى تقدير لجنة «تعويضات» خاصة، دعت الولايات المتحدة إلى الاشتراك فيها. ونيط بهذه اللجنة تقرير الرقم المعقول الذى يجب فرضه على العدو المدحور.

وقد جر عدم تسوية مسألة التعويضات عاجلاً إلى ظهور شعور من الخلق الشديد بين الألمان ساعد على إضعاف الجمهورية التى أقاموها، وتأخير براء أوروبا من أدائها الاقتصادية. ولكن هذا الشر كان شراً موقوتاً عابراً. فقد أدرك رئيس الوزراء البريطانى فيما بعد ببعده نظره أنه لا يحىض من أن يتقابل رجال الأعمال مع عاجلاً أو آجلاً، وأن يحدوا - بمساعدة أمريكا أو بغير مساعدتها - الأقساط التى فى مقدور القطر المدين أن يقوم بالوفاء بها، والتى من فائدة الأقطار الدائنة أن تستولى عليها.

وأثبتت الحوادث صدق نظره. فقد ينذر تغيير الحدود بين قطرين دون الالتجاء إلى القوة. ولكن الدفعات المالية قابلة لأن تسوى بطرق لا حصر لها. ومع أن المفاوضات العديدة الخاصة بتحديد التعويضات، أحدثت كثيراً من الاضطراب والتقلقل والخوف، فإنه أمكن وضع حدود قصوى للتعويضات. ثم أخذت هذه الحدود تنضال شيئاً فشيئاً فى مؤتمرات عدة، إلى أن نقصت إلى أرقام تافهة لا تذكر بواسطة المؤتمر الذى عقد بلوزان فى ١٦ يونيو سنة ١٩٢٣ بقصد إيجاد تسوية نهائية لهذه المشكلة الخطيرة.

ومع أن إنجلترا كانت متفقة مع فرنسا فى وجهة النظر بأن الخطر الأكبر على سلام أوروبا هو روح العسكرية الألمانية، ومع أنها وافقت على رأى القائل بضرورة نزع جميع الأراضى غير الألمانية من ألمانيا والنمسا، فإنها اختلفت معها فى مسائلتين جوهريتين. فقد أدركت إنجلترا أن مصالحها التجارية تتطلب نهوض ألمانيا ورخاءها، وأن مصالحها السياسية تقتضى أن تكون ألمانيا مسالمة راضية. ولهذا

الاختلاف بين
وجهتى نظر
انجلترا وفرنسا

السبب ألتي مسر لويدي جورج بنفوذ القوى في كفة تخفيف شروط الصلح على تلك الدولة . فعارض الاقتراحات التي قُدمت بوجوب بتر أقاليم الرين من الريخ ، وتسليم كل مقاطعة سيليزيا العليا الغنية بالصناعات إلى البولنديين ، ومنح الحلفاء حق احتلال الأراضي الألمانية لمدة خمسة عشر عاماً . وأمكنه بتأييد رؤساء وزارات المستعمرات البريطانية المستقلة الموجودين معه في مؤتمر الصلح بباريس أن يكسب لسليزيا العليا الحق في أن تقرر مصيرها بمقتضى استفتاء يجري بين أهلها .

وجهة النظر
الإيطالية

أما إيطاليا فوَقفت في مؤتمر الصلح موقفاً أملت عليه مصالحها القومية البحتة . فلم تبذل أفكاراً خيرية واسعة المجال أذهان الساسة الإيطاليين الواقعيين ، ولم تجش بنفوسهم نزعات إنسانية جميلة . فلم تعبأ روما إلا قليلاً بعصبة الأمم التي كان إنشاؤها مغزياً لقلوب الكثيرين من أبناء الشعوب الأنجلوسكسونية عن خطوط الحرب وويلاتها ، وأخذ أنصار البابوية يسألون أنفسهم « ألا تعتدي هذه العصبة على حقوق الفاتيكان وامتيازاته القديمة العهد الخاصة بفرض وساطته على الأمم المسيحية المتنازعة ؟ »

وكان الإيطاليون يؤثرون مد تخومهم حتى قمم جبال الألب ، ومنحهم سلسلة من الثغور على البحر الأدرياتي — كانوا يؤثرون ذلك على إقامة برلمان عالمي في جنيف . وخاطب الإيطاليون أنفسهم قائلين : إن فرنسا تستحوذ على الأكراس واللورين ، وستغزو إنجلترا بنصيب الأسد في المستعمرات الألمانية ، فأى شيء مقابل هذا سنحصل عليه نحن ؟

وأخيراً بعد مفاوضات مطولة ، أعطيت إيطاليا الترينتينو وتريستا وزارا بدلاشيا ، كما اغتصب عنوة شاعرها الأكبر دانتي زوفريضة فيومي الهنغارية الواقعة في الشمال الشرق من البحر الأدرياتي . ولكن برغم هذا كله ، فاضت نفس الإيطاليين مرارة لإعطاء يوغوسلافيا إقليم دلاشيا ، وهو الإقليم الذي أدخله المرسلون الإيطاليون قديماً في حظيرة المسيحية ، والفنانون الإيطاليون في دائرة المجتمع الممدن .

٣ - عيوب معاهدات الصلح

حينما أحبط الألمان علماً بشروط معاهدة فرساي ، بدت لهم كأنها بلغت الذروة في القسوة ، وحدث الاستحالة في التنفيذ . وتراءى لهم مشروع المعاهدة كله بأنه مدبر لإبقاء بلادهم راسقة في أغلال أبدية من الخضوع والاستعباد . فقد فرضت المعاهدة على ألمانيا تجريدتها من السلاح ، وتركها عزلاء أمام أعدائها ، على حين أعطت الحلفاء حق فرض مبالغ مستحيلة من التعويضات عليها ، واحتلال بعض أجزاء منها كي يكون ذلك بمثابة مهماز في يد الحلفاء يحفزونها به على الدفع .

فارتفعت شكوى الألمان إلى عنان السماء بأن معاهدة الصلح تناقض كل المناقضة نقط ولسن الأربع عشرة ، وخطبه التي ألقاها بعد ذلك . وحاجتوا بأن تلك النقط والخطب هي التي دفعتهم إلى إلقاء السلاح ، معتمدين على أن شروط الصلح ستوضع وفقها . وكانت أطيايف فرض جزية طائلة قاسية يُكره جيلان من أبنائهم على دفعها ، واحتلال أرضهم احتلالاً طويلاً الأمد ، وتدمير أسلحة جيشهم الوطني وعتاده قسراً أمام لجنة متحالفة ، وإلغاء التجنيد الإجباري في بلادهم - كانت هذه الأطيايف كلها شروطاً مهينة عسيرة الاحتمال .

وكان الأنكى عليهم من ذلك الشروط التي فرضتها المعاهدة فيما يتعلق بالحدود الشرقية لبلادهم ، والإجراءات التي اتخذتها لإحياء بولندا وإنشاء الممر البولندي الذي يفصل بروسيا الشرقية عن مقاطعة براندنبيرج (ولو أن هذه الشروط كانت من بين النقط الأربع عشرة) ، وبترقعة كبيرة المساحة من سيليزيا الصناعية التي لولا العقول ورؤوس الأموال الألمانية ، لما وصلت إلى ما وصلت إليه من التقدم السريع الرائع ، وإعطاء هذه الرقعة إلى بولندا .

وفي الحق إنه لعجيب أن التخلي قسراً عن فتوح فردرك الأكبر في الشرق كان أشد شروط معاهدة الصلح جرحاً لكرامة الألمان ، وأمرها مذاقاً على نفوسهم . وكان فقدانهم ولايقي الأتراس واللورين اللتين خلقتا لهم مفعلة أقصت على

قسوة شروط
معاهدة فرساي
على الألمان

الدوام مضاجعهم ، والتنازل مؤقتاً عن وادى الساركتمويض عن الأضرار التي ألحقها الجيش الألماني بالمتاجم الفرنسية— كانت هذه الحسائر شيئاً تافهاً زهيداً بالقياس إلى التضحية الأولى .

ولذا ألقى على عاتق جمهورية بولندا هذا الواجب ، وهو أن تبرر بفعليتها وعدالة قوانينها ونظمها و بعدها عن التعصب والمغالاة ، الثقة التي وضعها موقعو معاهدة فرساي في الأمة البولندية .

أما الجانب الاقتصادي من المعاهدة ، فكان أشد وطأة وأثقل أعباء وأسوأ آثاراً على النظام الجمهوري واستقراره في ألمانيا : هذا النظام الذي كان واجب الحلفاء يقضى عليهم بأن يعاونوا على ترسيخه وتثبيت أركانه . ومع ذلك فإنه على حين وجه الإنكليز اللوم إلى معاهدة فرساي لفداحة شروطها ، فإن الرأي السائد في فرنسا هو أن كليمنصو في محاولته إرضاء رغائب الساسة الأنجلوسكسونيين ، ترك العدو أقوى مما ينبغي لصون السلام في أوروبا والعالم .

نقل أعباء
الشروط
الاقتصادية

وقد نُدِّب معاهدة فرساي ، لأن الحلفاء لم يتفاوضوا بشأنها مع ألمانيا ، بل فرضوها عليها فرضاً . ولكن حرى بنا أن نتذكر أن جميع المعاهدات التي تعقد بين غالب ومغلوب توضع تحت ضغط الإكراه والإلزام . فإن معاهدة برست ليتوفسك التي أملاها الألمان في مارس سنة ١٩١٨ على روسيا ، ومعاهدة بوخارست التي فرضوها على رومانيا في مايو سنة ١٩١٨ ، هما مثلاً قاطعان على قسوة المعاهدات التي من هذا الطراز . وحينما يذكر المرء اتساع الموضوعات التي تناولتها معاهدات الصلح وتعقدها وضرورة السرعة في إبرامها ، وكيف أن جيوش الحلفاء المنهكة كاد ينفد صبرها شوقاً إلى تسريحها ، وكيف كان من المحتمل أن تعرض بسهولة المباحثات المتشعبة وضع تسوية ملائمة للخطر— حينما يذكر المرء هذه الأشياء تصبح رغبة دول الحلفاء وشريكاتها في السير كما فعلت ، مفهومة معقولة .

فرض المعاهدة
على الألمان

وقدم مندوبون الألمان ردّاً كتابياً على مشروع المعاهدة ، وحوى رد الحلفاء الكتابي عليه إعطاهم بعض المنح والتساهلات . ولكن لم يكن أحد من ساسة

الحلفاء مستعداً في ذلك الجوالباريسي العنيف الحائق أن يمنح شروطاً أخرى وأكرم مما منحوه ، أو أن يكون أرحب صدرأ مما أبدوه (١) .

تقطع أوصال
النمسا

أما النمسا التي كانت السبب الأول في إيقاد نار الحرب ، فقد كانت أعظم الدول خسائر نتيجة لاندحارها فيها . فقد طوّحت عاصفة الهزيمة الهوجاء بالأسرة المالكة ، والجيش ، والإمبراطورية . وأعلن الهنغاريون استقلالهم . ثم ما لبث الرومانيون أن غزوا هنغاريا . وانفصل التشك والسلوفاكيون عنها ، مستقلين بأنفسهم . واستغل الصربيون انتصارهم في الجنوب فاقطعوا منها بعض أراضيها . ولم يبق من الإمبراطورية النمساوية : وهي الإمبراطورية العريقة الأصول الذائعة الصيت التي حكمت دهرأ طويلا خمسة عشر جنساً ، وبسطت رواق الأمن ، وفرضت سطوة القانون على وسط أوروبا — لم يبق من هذه الإمبراطورية بعد عقد معاهدة سان جرمان (المبرمة بينها وبين الحلفاء في سبتمبر سنة ١٩١٩) غير جمهورية صغيرة تألفت من ستة ملايين نسمة ، ومنعت هذه الجمهورية صراحة بمقتضى تلك المعاهدة من الاتحاد مع ألمانيا ، إلا إذا صدقت عصبة الأمم بالإجماع على هذا الاتحاد .

وغدت قصبة بلادها أعظم كثيراً مما تطلبت حوائجها بعد عقد الصلح ، فقد كانت تستخدم هيئة من الموظفين المدنيين كانت قد عيّنت في الأصل لإدارة إمبراطورية واسعة ، وأمست تجاورها الآن دول معادية تحارب تجارتها بتعريفاتها الجمركية العالية ، وصار أغلب سكانها حضريين تسرى في عروقهم عدوى البلشفية ، وكان فلاحوها لا يزالون يعمهون في بيداء جهالات العصور الوسطى وخزعلاتها . لهذا كله ساد النمسا عقب إبرام الصلح أحلك ألوان القنوط واليأس ، وتعلر عليها ، أمام روح القومية المتغالية العنيفة التي غلبت على الدول الجديدة ، أن تفرض اتحاداً جبركياً على دول الدانوب أو تحافظ عليه . ولم تكن

(١) مما يجدر ذكره أنه في المعاهدة التي تفاوضت فيها ألمانيا بحرية ، وأبرستها مع الولايات المتحدة سنة ١٩٢١ ، قبلت ألمانيا أحكاماً عديدة ، كان من بينها البند الخاص بتحملها تبعة اندلاع الحرب ، وهو البند الذي اعترفت بمدته حل وجوهه بمعاهدة فرساي .

النفس تبصر أمامها سوى بصيصين من الرجاء، وهما دار الأوبرا بفينا، وتدخل
عصبة الأمم في معالجة أدائها - هذا التدخل الذي أنقذ في أكتوبر سنة ١٩٢٢
هذه الجمهورية الجديدة في أقصى ساعات محنتها من الإفلاس .



أوروبا بعد سنة ١٩١٩

معاهدة تريانون Treaty of Trianon (المبرمة في ٤ يونيو سنة ١٩٢٠) على هنغاريا
ومن بين جميع معاهدات الصلح ، أثارت الشروط التي فرضتها معاهدة
معاهدة تريانون

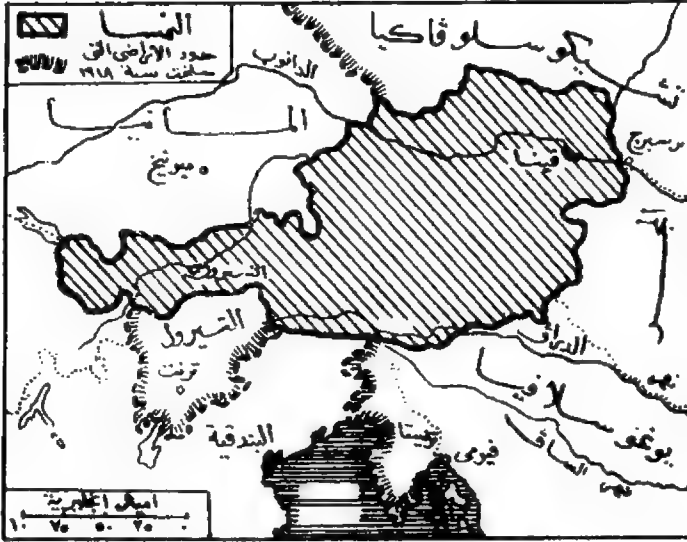
أشد استنكار . فقد سُلِّخ عنها ولاية سلوفاكيا التي ضمت إلى تشكوسلوفاكيا ، وولاية ترنسلفانيا التي فتحها الرومانيون عقب إعلان الهدنة ، وولاية كرواتيا التي أضحت جزءاً من مملكة يوغسلافيا ، وهي المملكة الجديدة التي صارت الآن تتألف من الصربيين والكرواتيين والسلوفينيين . فانتقل بمعامدة تريانون زهاء ستمائة ألف هنغاري ، وقرابة أربعة ملايين ونصف مليون غير هنغاري ، إلى حكم دول أجنبية^(١) . فبدا تقطيع أوصال مملكة هنغاريا العريقة الأصول بواسطة ديمقراطيات لم تكن ذات أصل كريم ولا مجد تليد — بدا إهانة لاتطاق في نظر الأرستقراطية الهنغارية المزهوة . أضف إلى ذلك أن هنغاريا فقدت أيضاً ولاية ترنسلفانيا ذات الجبال الرائعة المفاتن التي اعتاد نبلاء المجر أن يمرحوا فيها صيداً وقنصاً . فليس من الصعب والحال هذه أن ندرك مدى ألمهم وسخطهم .

لهذا خلقت معاهدات الصلح المختلفة قروحاً عدة . فهذه هي جمهورية النمسا الصغيرة صارت أضعف من أن تعيش بمفردها في حال من اليسر . ومع ذلك فقد منعتها هذه المعاهدات من الانضمام إلى ألمانيا إلا إذا وافقت عصبة الأمم على ذلك . وكان هناك المجر الذين أخضعوا لحكم أجنبي عنهم من غير استفتاء ، وهناك بولندا التي خلقت لنفسها مواضع احتكاك بينها وبين ألمانيا في الممر البولندي وسيليزيا . وهناك إخضاع ٢٣٠ ألف ألماني في التيرول ، ومليون وثلاثمائة ألف صربي يستوطنون دلماشيا لحكم إيطاليا .

وحقن الألمان كذلك بدرجة أصغر — ولكن بدرجة محسوسة — لبر إقليم يوبن Eupen ولميلدي الصغيرين المكسوين غابات وأحراشاً من بلادهم ، وضمهما إلى البلجيك ، وإخضاع إقليم السار مؤقتاً لسيطرة عصبة الأمم . ولكن برغم كل هذه العيوب . فإننا إذا نظرنا إلى خريطة أوروبا السياسية الجديدة نظرة

(١) إن هذه الأرقام أقرب حل الأرجح إلى تأييد المطالب الهنغارية منها إلى تبين الحقيقة . فقد كان عدد الهنغاريين الذين من أصل مجري ، وضمو إلى الدول الجديدة ، هو ٢,٩٤٥,٢٧٣ حسب الإحصاء الرسمي الهنغاري سنة ١٩١٠ .

مجملة منصفة ، نرى أنها وضعت بشكل كان أقرب إلى رغائب السكان ذوي الشأن منه في أى عهد مضى .



العثماني بعد معاهدة سان جرمان

ومع ذلك فإنه حينما وقعت معاهدة فرساي في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٩ في بهو المرايا بقصرها، حيث نودى قبل ذلك بنصف قرن بالإمبراطورية الألمانية ، شعر كل امرئ وقتئذ أن فرصة عظيمة لإسداء الخير وإقامة العدالة في العالم قد أفلتت من أيدي البشر . ذلك أن ساسة الدول لم يتساموا إلى عظمة الأحداث ، بل وضعوا صلحاً لم يكن بصلح منصف سليم . فاتفق المثلاليون الأمريكيون الذين لا تحزهم ضمائرهم على عدم تطبيق مبدأ تقرير المصير على الهنود الحمر والآسيويين الخاضعين للولايات المتحدة - اتفقوا مع المثلاليين الإنجليز الذين لا يرفعون الصوت بضرورة جلاء الجنود البريطانيين عن الهند ومصر - اتفق هؤلاء المثلاليون

أخطاء معاهدة
فرساي

معاً على التنديد بمعاهدات الصلح وإبراز نقائصها في الانحرافات التي لوحظت عليها فيما يتعلق بتطبيقها مبدأ تقرير المصير. فشعر كثير من الناس أن الإنسانية قد أخفقت في النهوض بواجبها، وأن الديمقراطية لم تجعل آمنة في أوروبا. وتوارت هتافات النصر وفرحة الفوز بعد وجيز وقت في ضباب الحقن وغمرة اليأس.



خريطة بولندا

إلا أنه من التعجل الفطير أن نصدر نحن حكماً نهائياً على عمل واضعي معاهدة الصلح. فإن أعمالهم سيحكم عليها بمقدار نجاح الدول التي خلقوها أو

وسعوا من رقعتها: بولندا الجديدة، وتشكوسلوفاكيا الجديدة، ورومانيا الجديدة، ويوغوسلافيا الجديدة، واليونان الجديدة. ولا يستطيع غير المؤرخ الذي سيجيء بعد الآن بقرن من الزمان أن يعرف مدى نجاحها. أما نحن الذين نجوس أقدامنا منطقة الاحتكاك والقلق البالغين، هذه المنطقة التي لا تزال فيها أهواء الحرب الجائعة حية تعصف بالأمم. والأقليات تتلطمل سخطاً وكراهية تحت ربة أسياها الحديد، والتي لم تألف بعد أعناقها نيرها الحديد، فإننا لا نستطيع أن نكون في شيء من الثقة رأياً، أو أن ندلى بحس وتخمين.

انصاف أمريكا وكان من أمانى الحلفاء المشتركة الأمنية بأن الولايات المتحدة لا توقع فحسب معاهدة فرساي التي صيغت وفق أفكار الرئيس ولسن ومبادئه، بل أن تنضم أيضاً إلى عصبة الأمم التي لعلها أجل وأبهى خدمة أسداها ذلك السياسي العظيم لتسوية مشكلات النظام الدولي. ولكن الولايات المتحدة خيبت في هاتين الناحيتين آمال أوروبا. فلم توقع أمريكا معاهدة فرساي، كما أنها لم تنضم إلى العصبة. ولهذا طاشت فجأة جميع الآمال. وتبخر كل رجاء بأن تعلن إنجلترا وأمريكا ضمهما لسلامة الأراضي الفرنسية، حتى تساهم أمريكا في التخفيف من وطأة التعويضات التي فُرِضت على ألمانيا. كذلك أمل الناس الشيء الكثير من المعاونة التي كانت أمريكا تستطيع أن تقدمها بصفقتها عضواً من أعضاء العصبة، باستخدام الضغط الاقتصادي كأداة فعالة لكبح جماح أي دولة تحدثها نفسها بالتأمر على تعكير صفو السلام في العالم.

خيبة الآمال وكانت خيبة الآمال عميقة بالغة. ومع ذلك فإن أية دراية وثيقة بتاريخ أمريكا، وأي إدراك لوجهة النظر الأمريكية، كانا حريين بإندثار الأوربيين بأنه من الطبيعي لأمريكا أن تنفض يدها من أوروبا، كما أنه كان من الطبيعي لإنجلترا أن تطلب من الألمان الجلاء عن البلجيك، ولفرنسا أن تطلب بعودة الألزاس واللورين إليها. فإن أهل الولايات المتحدة لم يدخلوا الحرب حينما انتهكت حيطة البلجيك، أو حينما أغرقت الباخرة لوزيتانيا، وإنما حزموا رأيهم على

امتشاق الحسام ، حينما شرعت الغواصات الألمانية تغرق بواخرهم التجارية ، فوطنوا العزم على إنزال القصاص بمن شنوا هذه الحرب . وحينما تم لهم ذلك ، رجعوا إلى سياسة الانسحاب من الاشتباكات الأوربية : وهى السياسة التى ورثوها من جورج واشنطن . صحيح أن الرئيس ولسن كان مثاليًا حقًا ، ولكنه فى ذلك كان وحيداً فى بلاده .

ولذا ناصر الأمريكيون بقوة الحزب الجمهورى الذى عادى ولسن وسفّه سياسته . وانتزعوا أنفسهم بدفعة قوية من سياسات أوربا وارثيا كاتها ومحنها . وقرت عيونهم بأجداد بلادهم ، وطابت نفوسهم لروثها الطائلة التى تفوق كل حلم وخيال . وحلّقوا من على فوق عالم سقيم قليل فقير .

ولكن ظهرت فى ذلك الحين معضلة ضخمة أخرى . فإن دولتى أوربا تحالف فرنسا مع
الاتفاق الصغير الوسطى كانتا قد دحيرتا بواسطة تحالف فريد ليس من المتوقع قط أن يتألف له شبيه فى المستقبل . فقد ضم هذا التحالف سبعا وعشرين دولة ، كان من بينها الولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية اللتان يترع أهلها بالفطرة إلى السلام . وقد بذل هذا التحالف جهوداً خارقة فى حشد جيوش جرارة بينما كانت الحرب تسير فى مجراها . فهذا المجهود الحربى المتحد الفائق القوة ، هو وحده الذى حطم فى ذلك الحين الأداة الحربية الألمانية الماثلة ، وجعلها عديمة القوة فى إرهاب شعوب القارة الأوربية . أما الآن فقد انسحبت أمريكا من هذا التحالف ، وألفت إنجلترا بموافقة أهلها الإجماعية نظام التجنيد الإجبارى ، وأنقصت جيشها وأسطولها ، وصارت إيطاليا توشك أن تمزقها الفتن والاضطرابات الداخلية .

فשמعت فرنسا بأنها وحيدة من الأصدقاء ، وأنها تواجه دولة ألمانية مدحورة حقًا ، ولكنها دولة يأكل الحقد قلبها ، وتتخفى للوثوب والبطش مرة أخرى ، وذات قدرة جبارة على الأذى والضرر . فأقامت فرنسا نفسها حارسة على سلامة أوربا وأمنها ، وراعية للنظام العام الذى رسمته معاهدات الصلح . ثم وجدت لها بين بعض أعضاء عصبة الأمم صديقات ، هن البلجيك وبولندا والدول الثلاث

التي انتفعت بسقوط الإمبراطورية النمساوية : تشكوسلوفاكيا وبوغسلافيا ورومانيا. وكونت هذه الدول جميعاً ما أطلق عليه اسم «الاتفاق الودي الصغير» Petite Entente وشرعت فرنسا تؤثّق علاقاتها السياسية مع هذه الدول، وألقت منها حلفاً يعوضها عن حليفتها السابقة روسيا، وتستخدمه كأداة ترجع بها كفتها في شرق أوروبا ضد قوات الجيش الألماني في وسط أوروبا.

نقد أنصار العصبية
هذه السياسة

غير أن أنصار عصبية الأمم في إنجلترا والأقطار السكندنافية لم يميلوا إلى النظر إلى مستقبل أوروبا بهذه النظرة. بل تأقت نفوسهم إلى تجنب أوروبا خطر انقسامها إلى فريقين متنافسين مدججين بالسلاح يتأمر كل منهما على الآخر. نعم، بدا أمراً طبيعياً أن تجهز نفسها بالأسلحة دول شرق أوروبا الصغيرة التي كانت لا تزال تدرج في المهمل ولم ترسخ بعد أركانها، والتي كانت قريبة الجوار من روسيا، هذه الجمهورية الغامضة ذات القوى الهائلة. غير أنه لم يكن أمراً طيب له الأنفس أن توجد على الإطلاق مثل هذه الضرورة. بل كان يرى وجوب إخضاع شؤون التسلح لرقابة جماعية، وتسوية الخلافات الدولية عن طريق التحكيم وروح المصالحة بمقتضى نظام معقول سديد.

ومع أن الحرب صفقة خاسرة لجميع الدول المتحاربة، فإنها على بريطانيا أشد وبالاً منها على أية دولة أخرى. ذلك أن هذه البلاد لا تستطيع أن تشيع بطون أهلها إلا من الأرباح التي تغنمها من وراء تجارتها الخارجية. وقد بشرها الساسة، وأمنت بشكل أعظم من فرنسا، بأن الحرب العظمى لم تكن سوى صراع من أجل اجتثاث أسباب الحروب من العالم، وجمال في ألباب البريطانيين هذا الحلم الجميل الذي طالما عقد البشر رجاءهم على تحقيقه، ولكنهم كثيراً ما أخفقوا في ذلك، وهو الحلم بتنظيم العالم على أساس من السلام والمحبة، لا على أسس من الخصام والنضال. وقد أمدَّ عهد عصبية الأمم معظم الإنجليز ببصيص من العزاء وقبس من الرجاء، بعد كل ما كابدهوا من أهوال الحرب وويلاتها.

٤ - عصبة الأمم

وترجع أهمية عصبة الأمم إلى أنها تقدم للبشر أداة لتنظيم العالم وحكمه ، في طوتهم أن يسيروها ويحملوها . وقد أدرك صانعو عهد العصبة بأن من العبث خلق حكومة عليا تلغى الحكومات القومية للدول ، وتحل محلها في السيطرة على شئونها . ولهذا السبب رفضوا العمل بالفكرة التي وجدت لها أنصاراً كثيرين في فرنسا ، والتي تجبذ لإنشاء جيش أو هيئة بوليسية دولية تأتمر بأمر العصبة . وأحجموا عن فرض أى لون من ألوان الإكراه المنظم المكتوب يجبر أى دولة من أعضاء العصبة على الانصياع لمشيئته . وآثروا أن تكون العصبة بمثابة جمعية من الدول تخوّل كل منها - مهما صغر شأنها - مركزاً وحقوقاً متساوية ، وتحمى امتيازاتها وسيادتها الداخلية من كل عدوان ، وذلك باشتراط عهد العصبة ضرورة حصول كل قرار يصدر منها على موافقة جميع أعضائها لتنفيذه - آثروا هذا على وضع أى حد لحقوق الدول وسيادتها الداخلية .

ولكن كم من المرات التأم شمل أناس من ذوى المقاصد السامية والرغائب الطيبة ، وعقدوا المؤتمرات للعمل على صون السلام ، ثم ارفضوا دون الوصول إلى شيء معين ، بعد إلقاء الخطب البليغة والأقوال الحميلة ! أما العصبة فقد قصد مؤسسوها أن تكون شيئاً مغايراً جداً للمغايرة لجميع هذه المظاهر الخيالية والإعلانات العقيمة ، وعقدت النية على أن تكون هيئة دائمة تدعمها وتشد أزرها الحكومات القومية ، بقصد تقرير الشئون الدولية ، وأن تتألف من جمعية عمومية مؤلفة من مندوبين يمثلون الدول الأعضاء في العصبة . وتنعقد هذه الجمعية مرة كل عام لمدة شهر في جنيف ، ومن مجلس كان يتكون أولاً من تسعة مندوبين ^(١) . وينعقد هذا المجلس أكثر من مرة واحدة في العام . أما أعمال الجمعية والمجلس فتعدها وتشرف على تنفيذها هيئة دولية من الموظفين المدنيين ، يطلق عليها اسم « سكرتارية العصبة » .

(١) خمسة مندوبون عن الدول الكبرى إلى لها كراسى دائمة في مجلس العصبة .

ثم أضيف إلى هذه الهيئات هيئات أخرى ، ككتب دولي للعمل يضطلع بوضع نظام مشترك للعمل وشروط متساوية للعمل في جميع أرجاء المعمورة ، وكمحكمة العدل الدولية في لاهاي . وأطلق للدول الحرية في الانتفاع كثيراً أو قليلاً ، حسبما يروق لها ، بهذه الأداة التي نظمت تنظيمًا دقيقاً .

ويقوم لباب عهد عصبة الأمم على الالتزام الذي أخذته جميع الدول الأعضاء على نفسها بأن تطرح منازعاتها على العصبة قبل أن تلجأ إلى استخدام القوة . وعهد العصبة لا يمنع منعاً باتاً احتمال حرب ، ولكنه أعد هيتين للتحكيم هما : مجلس العصبة ، ومحكمة العدل الدولية . وتعهدت الدول الأعضاء سلفاً بأن تعرض على مجلس العصبة ، أو على جمعيتها العمومية ، أى نزاع قد ينشأ بينها . وحددت فترة تعهدت فيها الدول المتنازعة بالمحافظة خلالها على صون السلام فيما لو كان حكم العصبة في النزاع المعروض غير مقبول لديها . فلو أن جميع الدول كانت منضمة إلى العصبة ، ومستعدة للامتناع حرفاً وروحاً لأحكام العهد ، فإن هذه التدابير التي أعدتها العصبة للمصالحة والتحكيم وتأخير إعلان الحرب ، كانت تصبح كافية لتخليص العالم من شبح الحرب .

المبادئ التي
تفصلها عهد
العصبة

وعهد أبنساً إلى العصبة واجب آخر ، هو أن تسعى بكل ما في وسعها إلى إنقاص التسليح بين دولها بمقتضى نظام يستق عليه فيما بينها . فقد كان الجميع يسلمون بشروط التنافس في التسليح ، ويجارون بالشكوى من فداحة أعبائه . وكان جميع العقلاء يسلمون بصحة النظرية القائلة ألا تنسلح أية دولة بأكثر مما تتطلبه حاجياتها القصوى لإقرار الأمن والهدوء داخل بلادها . والقيام بالتزاماتها الدولية المفروضة عليها .

ولكن الصعوبة كانت في وضع هذه المبادئ موضع التنفيذ ، حينما كانت ألمانيا تتميز حقاً لتجربتها الإيجاري من السلاح ، وحينما كانت فرنسا يسودها القلق ، إذ شعرت أنها ليست في مأمن من اعتداء ألمانيا عليها ، برغم كل التدابير والضمانات التي اتخذتها العصبة . والحق إنه دلالة قوية على مدى المخاوف الدولية ، وتمكن الإحن والضغائن بين الدول ، أنه برغم جهود العصبة المتواصلة ،

صعوبات التنفيذ

كانه عبء التسلح الذى أبهظ عاتق دول أوروبا سنة ١٩٣٥ أفدح فعلا بما كان فى عشية إعلان الحرب العظمى سنة ١٩١٤ .

فكرة توثيق
التعاون الدولى

ومن بين الأفكار الطيبة المثمرة التى حوّاها العهد فكرة توثيق التعاون الدولى بجميع أشكاله فى أزمنة السلم . فلم يقنع عهد العصبة بأن تتعهد الدول الأعضاء تعهداً صادقاً بالإقلاع عن الحرب ، وممارسة الدبلوماسية العلنية ، وإنقاص التسلح ، بل أوجب عليها أيضاً أن تتعلم التضافر معاً عن طريق العصبة ، لا فقط فى إنجاز الأعمال الكبرى التى تقتضى تعاون بنى الإنسان ، بل أيضاً فى التعاون معاً فى جميع الشؤون ذات المصالح المشتركة ، كصون مستوى المعيشة بين العمال ، ومناهضة الرقيق الأبيض فى النساء والأطفال ، وتنظيم تجارة الأفيون ، واتخاذ التدابير الناجمة لوقاية الصحة الدولية . وربما كان هذا الجانب الإنسانى من أعمال الجمعية هو الذى سيكتب له الفوز بأجمد انتصارات العصبة وأجل أعمالها فى المستقبل .

وكما شاهدنا مؤتمراً فينا على أثر انتهاء الحروب النابليونية يعنى بمسألة إلغاء تجارة الرقيق ، كذلك رأى واضعو عهد العصبة ، فى روح خيرة ماثلة ، أنه يجب أن يضع هذا العهد على كواهل الأمم الأوروبية التزامات ، لا نحو الأقليات العنصرية والدينية التى تعيش بين ظهرانيها فحسب ، بل أيضاً التزامات نحو الجماعات الضعيفة المتأخرة التى بسطت عليها الدول القوية سيطرتها .

ولقد درجت الإمبراطورية البريطانية زماناً طويلاً على أن تقوم علاقتها بتلك الجماعات على مبدأ الوصاية ، فتباشر سلطاتها لحبر الشعب المحكوم ونفعه . فقررّ الرأى الآن على انتهاز هذا المبدأ (وهو مبدأ مأخوذ من القانون الرومانى) فى حكم الأراضى التى استولى الحلفاء عليها من الألمان والأتراك . فليس مبدأ الفتح الحشن الممجى مسوح المبادئ الخلقية ، واعتُبرت الدول المتحالفة وشريكاتها — ما عدا فى أحوال قليلة — دولا متدبة من العصبة لإدارة الأملاك التى ضُمَّت إليها ، وألزمّت بأن تقدم فى فترات محددة حساباً عن قوامتها إلى

مبدأ الوصاية

لجنة خاصة من لجان العصبة . وفي الحق أن فرض مبدأ كهذا على الدول العظمى ، وقبول هذه الدول العمل وفقاً له ، هو تقدم جلى في الأخلاق الدولية .

وامتلاء عقل الرئيس ولسن وعقول شركائه الإنجليز أملاً ببناء عصبة أمم تعمل على بسط ظلال السلام على الأرض ، بحيث تنتظم في هذه العصبة في نهاية المطاف جميع شعوب الأرض ، ويكون فيها الجنس الأنجلوسكسونى واسطة العقد ، وحكومات الإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الأدوات الرئيسية لنشاطها وأعمالها ونفوذها . هكذا كانت الرؤيا التى جالت في قرائح أولئك الرجال وهم مجتمعون بباريس ، يصوغون قالباً جديداً للنظام الدولى .

ولكن هذه الآمال الكبيرة لم تعمر طويلاً . فإنه عند ما التأم عقد الجمعية الأولى للعصبة بجنيف في خريف عام ١٩٢٠ ، لم يكن ممثلاً بها غير أربع وأربعين دولة . ووقفت روسيا بعيداً عنها . ولم تر العصبة يومئذ أن ألمانيا وتركيا وغيرهما من دول الأعداء السابقة قد بلغت درجة كافية من النضج يسمح باشتراكها فيها . ولكن أخطر ضربة وُجّهت للعصبة هى عدم تمثيل الدولة التى كانت موافقها على قراراتها ، ومعاونتها في تنفيذها ، جوهريتين لتنفيذ العقوبات الاقتصادية التى قد تعاقب بها الدول الأعضاء التى تنقض عهدها ؛ وهى الدولة التى وضعت سائر الأمم ثقة كبيرة في ميلها إلى العدل ، وبعدها عن الهوى والغرض . فإن الولايات المتحدة رفضت يدها من عمل رئيس جمهوريتها ، وأبّت الانضمام إلى العصبة .

وعصبة الأمم ليس في إمكانها أن تكون خيراً من الدول الأعضاء التى تتألف منها . فإذا كانت هذه الدول تروم السلام ، فإن العصبة تقدم الأداة التى تمكنها من نياله ، والحفاظة عليه في خير السبل . ولكن سواء أكانت هناك عصبة ، أم لم تكن ، فإن أية دولة تعقد العزم على إشهار السيف تستطيع أن تصل إلى بغيتها . ولن يستطيع الجنس البشرى أن يتخلص تخلصاً فعالاً من هذا التهديد المائل حتى تعمر أذهان جميع أفرادها يقيناً بأن الحروب الحديثة تعرض المدينة لأخطار تبلغ من الهول والجسامة بحيث يجب أن يُعدّ جريمة

إعلان أى دولة الحرب من غير أن تراعى سوى مصلحتها القومية فقط ، وأن يوقع عليها القصاص العدل . ولكن العالم فى الوقت الحاضر لا يعتقد هذه المبادئ السديدة الفطنة ، ولا هو مهيا للسير بمقتضاها .

الخدمات التى
أُسديتها العصبة

لكن العصبة أدت فى الخمسة عشر عاماً الأولى من حياتها أعمالاً دولية ما كان مستطاعاً تأديتها بدونها ، بحيث كان يصبح من الضرورى خلقها لو لم تكن موجودة بالفعل . فقد أُلِف رجال السياسة جو الاستشارات العالمية الذى كان سائداً فى جنيف بعد الحرب . وأُلِفَت سكرتارية العصبة بطريقة تبعث على الثقة ، ونما عمل العصبة ، وامتدت رقعة التعاون الدولى .

وقد بسط فى قوة وإيمان ، اللورد روبرت سسل Lord Robert Cecil أحد واضعى عهد العصبة ومن أبرز المنضمين إليها خلال الأعوام الأولى الخطيرة الشأن فى تاريخها — بسط هذا النبيل المثل العليا للعصبة والأهداف السامية لجمعيتها العمومية . واستطاع زعماء الأمم الصغرى فى اجتماعاتها السنوية بجنيف أن يعرضوا أفكارهم وجهات نظرهم على هذا المعرض الدولى للحكمة والرشاد . ففى تلك الاجتماعات أسدى هيمانس Hymans البلجيكي ، وبرانتنج Branting السويدى ، ونانسن Nansen النرويجي ، و موتا Motta السويسري ، وبنيش التشيكوسلوفاكى ، وبوليتيس Politis اليونانى — أسدى هؤلاء جميعاً خدمات مجيدة للجماعة الأمم الأوربية .

وكانت أهم من ذلك الفرصة التى أتاحتها اجتماعات العصبة لتكوين الصداقات والتأليف بين القلوب ، وموازنة الأفكار ، وتوسيع المعلومات ، وتقريب وجهات النظر المتعارضة . وفى وسط مشاكل الحياة الدولية المعقدة وخلافاتها وصدماتها ، كان شهر سبتمبر الذى تعقد فيه الجمعية العمومية اجتماعاتها السنوية بمثابة الأشهر الحرم . وكان هذا الشهر أقرب الأمور إلى « هدنة الله » فى المصور الوسطى — حتى وإن لم يحفل المثاليون اليابانيون المحبون للحرب والطعان إلا قليلاً بالعصبة .

بقاء المتاحفات
الدولية

برغم ومع ذلك فإنه الخدمات العديدة التى قدمتها العصبة خلال الخمسة

عشر عاماً الأولى من حياتها ، لم تقُد العصابة دول أوروبا — كما شاهدنا آنفاً — إلى نزع سلاحها ، لا أديباً ولا مادياً . ومع أنه أنفق جهد كبير لحسم المشكلة الخاصة باختيار أنسب الطرق للتوفيق بين مطلب فرنسا المتعلق بسلامتها الحربية ، وبين مطلب ألمانيا الخاص بمعاملتها على قدم المساواة في شؤون التسليح مع الدول الأخرى ، فإن هذه المشكلة ظلت مستعصية على كل حل ، نتيجة تخوف الفرنسيين من تفوق الألمان عليهم في العدد ونسبة المواليد . وفيما عدا بريطانيا ، لم تقم دولة بجهد جدى لتخفيض تسليحها البرى . ولم يجد روح المسألة الذى ساد بريطانيا صدى لدى حكومات باريس وبرلين وروما وموسكو وطوكيو وبراغ . فلم يتورع سيد لإيطاليا الفاشسى مثلاً من أن يعرب على رؤوس الأَشهاد عن إيمانه بالسيف والقوة . واحتفظت الجمهورية السوفيتية — التى انضمت متأخرة سنة ١٩٣٤ إلى العصابة — بجيش مؤلف من تسعائة وأربعين ألف مقاتل ، وانسحبت اليابان سنة ١٩٣٣ ، وإيطاليا سنة ١٩٣٧ من العصابة ، وفى سنة ١٩٣٥ — أى بعد أكثر من عقد من السنين من التسامح السرى غير المشروع — رجع الريخ الألمانى جهاراً إلى نظام التجنيد الإجبارى ، وشهد العالم مرة أخرى دولة ألمانية حربية في المرتبة الأولى من القوة المسلحة .

إن الدعامة الأكيدة الوحيدة لسياسة نزع السلاح هى الوصول إلى اتفاق عام بين الدول فيما يتعلق بأهدافها السياسية . وقد أمكن الوصول سنة ١٩٢١ إلى اتفاق كهذا فيما يتعلق بمشاكل المحيط الهادى بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا واليابان . فعبء هذا الاتفاق الطريق للمشروع الهام الوحيد لنزع السلاح الذى أمكن الاتفاق عليه بالطرق الدبلوماسية .

سحب الحرب
عام ١٩٣٥

فإنه عندما كشفت الدول البحرية العظمى الأربع : بريطانيا العظمى والولايات المتحدة واليابان وفرنسا ، أنها متفقة في رغبتها في اتباع سياسة « الباب المفتوح » في الصين ، وصون استقلال هذه الجمهورية ، غدا نزع السلاح البحرى مسألة ميسورة نسبياً . وجدت دول المحيط الهادى في مؤتمر لندن

البحرى سنة ١٩٣٠ أن من السهل عليها أن تتفق معاً على نسب معينة لقواتها البحرية ، وأن تنقص مجموع حمولة بوارجها وتحظر تحصين قواعد بحرية جديدة فى ذلك المحيط .

ولكن حينما انشقت اليابان سنة ١٩٣٣ عن حليفاتها ، واستولت بعمل انفرادى على إحدى الولايات الصينية ، تعرض مشروع نزع السلاح البحرى الذى حوته معاهدة واشنطن (سنة ١٩٢١ - ١٩٢٢) تعرض بمرمه للخطر . ولم تضيع اليابان وقتاً فى إعلانها أنها ليست براغبة فى تجديد معاهدة لندن بعد سنة ١٩٣٦ - ذلك أنها شرعت فى تنفيذ سياسة ضخمة فى الصين ، ووطنت العزم على بناء أسطول أكبر يمكنها من تحقيق تلك السياسة التى تضاربت كثيراً بشأنها الآراء .

كتب يمكن استشارتها

- Winston Churchill : The World Crisis. 1929.
 F.H. Simonds : How Europe made Peace without America. 1923.
 Harold Nicolson : Peace Making. 1919.
 J.M. Keynes : The Economic Consequences of the Peace. 1919.
 H. Wilson Harris : The League of Nations. 1929.
 A. Toynbee : Survey of International Affairs. 1920-1923.
 H. Temperley : History of the Peace Conference at Paris 1921.
 E.M. House and C. Seymour : What really happened at Paris. 1921.
 E.J. Dillon : The Peace Conference. 1919.
 Colonel E.M. House : Intimate Papers. 1926.
 Prince Max of Baden : War Memoirs. Eng. tr. 1926.
 Ten Years of World Co-operation (Issued by the Secretariat of the League of Nations) 1939.
 F.J. Berber : A Collection of Documents. 1936.

الفصل الخامس والثلاثون

تطور تركيا

فينيزيلوس . نزول القوات اليونانية في إزمير . مصطفى كمال . ميثاق سيواس والحرب التركية - اليونانية . نكبة الجيش اليوناني في آسيا الصغرى . اتخاذ مسألة الشرق الأدنى وجهة جديدة . سقوط وزارة لويد جورج . معاهدة لوزان . تركيا الجديدة .

١ - بين الحلفاء واليونان

كان فينيزيلوس الكرسي المولد ، ورئيس وزراء اليونان ، أحد الشخصيات التي لمع اسمها في مؤتمر الصلح في باريس . وقتلهم هم الساسة الذين بزوه في تلك الحقبة في التغلب على عوائق كأداء كالتى واجهته ، سواء بصفته قائداً للمقاتلين الكربيين غير النظاميين بين تلال وطنه في أواخر القرن الماضي ، أو المحرك الأكبر لعصبة البلقان سنة ١٩١٢ ، أو المدافع عن سياسة تحالف بلاده مع دول الحلفاء في الحرب العظمى ، والحاض عليها حينما كان البلاط الملكي والرأي العام اليونانيان يعارضانه ، وكان نفوذهما في غير جانب . وكانت نظرته رحيمة الآفاق ، وبلاغته وسحر حديثه ولطفه تجذب إليه القلوب ، وتحفى له الهامات ، ودهاؤه ومكره وجراته وروح المغامرة التي تملكته نفسه تعينه على تحقيق مخطامه .

كان فينيزيلوس واثقاً من مبدأ الحرب العظمى أن الحلفاء سيكسبونها ، وأن مصلحة اليونان الحقة هي في مناصرة قضيتهم . صحيح أن الكتابات اليونانية

لم تحارب سنة ١٩١٥ جنباً إلى جنب مع الكتائب البريطانية في حملة الدردنيل ، ولم تخف سنة ١٩١٦ لإسعاف الجيش الصربي قبل أن يقضى عليه الجيش النمساوي القضاء المبرم في تلال ألبانيا . ولكن ذلك لم يكن نتيجة خطأ ارتكبه هو .

خدماته لقضية
الحلفاء

وإذا كان الأسطول الفرنسي قد تمكن من إقصاء قسطنطين ملك اليونان عن عرشه في يونيو سنة ١٩١٧ ، وبذلك أمكن لليونان أن تحشد ربع مليون من الجند ، وتشترك بنصيب في انتصار الحلفاء النهائي على البلغاريين ، فإن أكبر الفضل في ذلك ليعود إلى فينيزيلوس الذي اقترح إنزال حملة للحلفاء باليونان ، ونزل بقلب جسور معها في سالونيك ، وأقام بها في أغسطس سنة ١٩١٦ حكومة يونانية موالية للحلفاء ، وجند جيشاً مالياً لهم ، بينما كان الملك ووزارؤه ضالعين في عناد وإصرار مع الألمان . فلهذه الخدمات الجليلة ، جاء فينيزيلوس إلى مؤتمر الصلح وهو يشعر بأن له حقاً في أن ينتظر من الحلفاء مكافأة سخية ثمينة على هذه الخدمات لقضيتهم .

اليونانيون خارج
أرض الوطن

وكان من بين القواعد السياسية التي استرشد بها الحلفاء يومئذ ، أن يعدلوا أرضاً يونانية كل ما يمت بصله لليونان في تركيا أوروبا ، سواء من جهة اللغة أو الجنس ، وأن يضموها على هذا الأساس إلى بلاد اليونان . ولذا لم يجد الحلفاء صعوبة في أن يضموا إلى اليونان تساليا ومقدونيا وثرافية الشرقية . غير أنه وجدت نواة لمشكلة مستعصية ، حينما اقترح عليهم ضم آسيا الصغرى حيث انتثر في مدن ساحلها وفوق مضابها زهاء مليون من التجار ورجال المال والمصارف والبحارة وأصحاب الدكاكين وعمالها وزراع التبغ والكروم والأرز وصناع الطنافس كانوا ينتمون جميعاً إلى الأمة اليونانية ، وأثار حرج مركزهم فيها قلقاً شديداً في نفوس اليونانيين .

فقد كانت سلطة تركيا لا تزال ميسوطة فوق الأناضول بعد الحرب ، ومع أن القوات البريطانية انتزعت من الأتراك سوريا وفلسطين والعراق خلال الحرب ، فإن كراهيتهم للمسيحيين المقيمين بآسيا الصغرى — التي هي تركيا الحقيقية —

ومقتهم إياهم بلغا درجة كبيرة . أضف إلى هذا أن الترك كانوا مسلحين ، وكانوا قد أزهقوا أرواح زهاء مليون أرمني في غضون الحرب العظمى .

نزول اليونانيين
في إزمير

وإذ كان المتوقع أن يكون اليونانيون هم الضحايا التاليين ، فقد نال فينيزيلوس إذناً من رئيسي وزارتي بريطانيا وفرنسا بإنزال قوات يونانية في إزمير . كما أنه خشى أيضاً أن تقع تلك المدينة في قبضة الإيطاليين الذين كانوا يرمقونها بأعين طامعة ، إذا هو لم يبادر باحتلالها . وأمل أن يجد فيها اليونانيون القاطنون بداخلة آسيا الصغرى ملاذاً آمناً ، إذا صحت هواجسه وتفاقم الخطر عليهم .

٢ - الحرب التركية اليونانية

ولكن الترك قد يحتملون احتلال الإيطاليين لإزمير . أما أن تحقق الريبة اليونانية الحقةرة المزودة فوق أى صقع من أصقاع آسيا الصغرى ، فكان يعد من جانب كل تركي وطني صميم إهانة لا تغتفر ، ولا تطاق . ولذا أثار نزول الجيش اليوناني في ذلك الثغر في ١٥ إبريل سنة ١٩١٩ - هذا النزول الذي اقترن بالقسوة والجريمة - أثار موجدة الترك ، وأهاج حفيظتهم ، وأذكى في نفوسهم تصميمًا على مقارعتهم ، وأتاح لمصطفى كمال ، منقذ الدردنيل وأنبيغ قواد الجيش التركي ، الفرصة لخلق دولة تركية مستقلة جديدة من ركام الإمبراطورية العثمانية المهزومة وحطامها المبعثر .

إهانة لا تطاق

وكان مصطفى كمال يومئذ في الثامنة والثلاثين من عمره ، شرس الطباع ، قاسي القلب ، ميالاً إلى الحصام والشجار ، ذا بنية من حديد ، وإرادة قدت من الصلب . وقد انحدر من سلالة فلاحين من أهل الأناضول ، ولو أنه ولد في سالونيك . وكانت عربده فظة ، وفجوره قاسياً ، ودعاراته عنيفة متسقة مع تقاليد أمته ، فإن نفاذ بصره ، وجلاء فكره ، واستقلال رأيه ، وموهبته في الزعامة الحربية والسياسية ، كانت كلها مناقب انفرادها دون سائر بني جلدته .

مصطفى كمال

وكان شعاره طوال حياته «تركيا للترك» . وحينما كان في ميعة الشباب انضم إلى مؤامرة خلع السلطان عبد الحميد ، لا كلفاً بالحرية السياسية ، بل لأنه رأى بلاده تحت حكم ذلك السلطان المتعطش للدماء ، مهينة الجناح ، نهياً للأجانب ، يملأ قلوب الناس الفزع من أعين الرقباء والجواسيس ، وأبصر أنه لا رجاء لها في أن تصبح حرة قوية عزيزة الجانب إلا بهدم ذلك النظام الفاسد القتال . وقد خاض غمار معارك عديدة ، فحارب في لبنان ، وفي طرابلس ، وفي البلقان ، وفي الجبهة السورية ، فبلا الناس ، وسبر الأمور ، وكسب خبرة واسعة . وكان يغار من أنور وزير الحرية الباهر المواهب ، الموالى للألمان ، وينقد في فطنة وحذر السياسة التي جعلت من تركيا تابعاً لألمانيا ، وأداة طيعة في يدها ، والتي انتهت أخيراً ببوارها .

فما كان رجل مثله تعمى بصيرته عن رؤية الأحداث المعاصرة ودلالاتها الكبرى . وكانت العبرة التي استخرجها من الحرب العظمى هي أن تركيا هُزمت لأنها سمحت لنفسها أن تتورط في حياثل الدول الغربية ، وأن تهرب تهديداتهم ، وأنها ظلت جامدة متأخرة لا تسير موكب الحضارة ، وأنها أنهكت قواها في حكم الشعوب غير التركية . ورأى العلاج من هذه الأدواء في التحرر من التحكم الأجنبي ، والإصلاح الداخلي ، وإذكاء روح قومية ترتكز على أسس تركية في وطن الأتراك الأصلي . فقد هلكت هلاكاً أبدياً المطامع الإمبراطورية القديمة التي تمثلت في أنور وعصابته . فإن الترك أبعدها من ضفة قناة السويس ، وطُردوا من العراق وفلسطين وسوريا ، وألقي الأسطول البريطاني مراسيه في مضيق الدردنيل ، وغدا السلطان دمية في أيدي الساسة البريطانيين ، ولم يبق لمواطنيه الآن سوى آسيا الصغرى . وحتى في هذه استقر الغربيون في ركن من أركانها .

فبعد أربعة أيام من نزول اليونانيين في إزمير ، وطى مصطفى كمال بقدمه أرض وطنه الآسيوي ، يحمل انتداباً من السلطان . وكان قد حزم أمره على «البقاء في الأناضول إلى أن تظهر الأمة باستقلالها» . وألف جمعية نيابية تاريخ أوروبا

اجتمعت في سيواس ، وقعت في ١٣ سبتمبر سنة ١٩١٩ ميثاقاً يقضى بمواصلة الحرب إلى أن تحرر أرض الوطن من العدو الغازي . فانضموا تحت علمه كل من دبت في نفوسهم الحياة والحماس من الشعب التركي . وبايعوه على الوقوف وراءه صفّاً مرصوفاً .

فأقام حكومة في ٢٤ أبريل سنة ١٩٢٠ ، واتخذ أنقرة عاصمة له ، وأعلن انفصاله عن السلطان ، وصمم على أن يبدأ حياة جديدة وصفحة تاريخية جديدة لبني وطنه في هضاب الأناضول ذات النسيم العليل : هذه الأرض التي أظهر فيها آباؤه وأجداده للعالم بسالتهم وإقدامهم ، قبل أن يفتك بأخلاقهم جو الغرب الملوث .

نكبات اليونانيين وقلب كل شيء لليونانيين ظهر المحن في الحرب التي تلت هذه الحركة ، وطاشت خططهم بعد إحرازهم بضعة انتصارات أولية . ففي داخل اليونان حدثت سلسلة من الكوارث والاضطرابات . وفي الخارج أصيبت الجبهة اليونانية الحربية بتصدع جلي . فمن كان يدور في خلده أن إسكندر ملك اليونان (وابن قسطنطين) تعاجله المنية على حين بغتة نتيجة عضمة قرد أليف ؟ أو أنه في الاستفتاء الذي جرى بعيد هذا الحادث ، يغمر البلاد شعور قوي للانتصار للملكية يحرف فينيزيلوس من دست الحكم (في ١٤ نوفمبر سنة ١٩٢٠) ، ويرجع قسطنطين إلى أريكة العرش ، تكتنفه بطانته الموالية للألمان ؟

وكان لا بد من حدوث ردود فعل لهذه الأحداث في الجبهة الآسيوية . فإن الجيش اليوناني الذي قاده الآن قسطنطين شرع في زحف سريع على أنقرة . ولكنه منى بهزيمة نكراء على ضفاف سقارية (٢٣ أغسطس - ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢١) ، وزاده وهناً على وهن فصل كثير من ضباطه الضالعين مع فينيزيلوس ، فأصبح غير قادر على الصمود بشكل فعال أمام الأتراك .

وما كان للجيش أن ينتظر عوناً من الحلفاء . فقد كان الإيطاليون يمحّتون اليونانيين ، وكانت فرنسا قد أبرمت صلحاً مع تركيا في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢١ . ورفض الحلفاء اقتراح الوزارة اليونانية الذي قدمته في يونيو سنة ١٩٢٢ بالسماح

بلحيش تراقية بأن يُحثل القسطنطينية. والحق أن مستر لويد جورج من بين جميع ساسة الحلفاء البارزين هو وحده الذى أحس بمسئولية نحو الشعب اليونانى، وتاق إلى إنجاز العمل الخاص بسحق الترك نهائياً على يد الكتائب الهيلينية، وهو العمل الذى بدأه الجنرالان مود Maude وألنبي Allenby بداءة مجيدة فى العراق وفلسطين .

ولهذا ترك اليونانيون يمايون بمفردهم العاصفة. فلم يستطيعوا الصمود لها وتذليلها. إحرأق إزمير فقد روعتهم المزيمة ، وشل جهودهم الانشقاق، وساء ظنهم بأهلية قيادتهم العليا. فانهارت صفوفهم أمام أول ضربة قاسية وجهها لهم العدو (فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٢) ونكصوا على أعقابهم إلى الساحل فى اضطراب واختلال شديد. فدخل الترك إزمير فى أعقابهم ، وأشعلوا النيران بالمدينة، وذبحوا جميع من صادفهم من الجنس اليونانى. وأنقذت سفن الحلفاء أكثر من مليون مسيحي هاموا على وجوههم من ذلك الغضب المائل الطاغى . وقد أمكن توزيعهم فيما بعد بعمل مجيد من أعمال البر المنظمة على بلاد اليونان وجزرها .

نهض من حطام إزمير المحترقة شرق غير مألوف، ولكنه شرق يوحى برجاء كبير . صحيح أن عرشين ثلأ ، هما: العرش اليونان، وعرش آل عثمان . وكان الأول غريباً عن اليونان، حكمها قرابة تسعين عاماً، والثانى عريقاً فى أصول الشعب العثمانى وتقاليده. ولكن اليونان صارت بعد هذه النكبة دولة أغنى وأقوى وأكثر سكاناً مما كانت، نتيجة لقلوم المهاجرين الآسيويين الدعويين الذين يجمع وجوههم شطرها فى ساعة محنتهم. وكذلك امتازت الجمهورية التركية التى أقامها مصطفى كمال على أنقاض السلطنة العثمانية بتركيز سلطة الدولة وقوات الأمة . وبذلك كفت مسألة الأقليات المسيحية فى تركيا التى أفلقت وجدان الأوربيين، وصاغت سياسات الدول الغربية دهرأ طويلا - كفت هذه المسألة عن أن تقض مضاجع وزارات أوروبا. أجل : سفتك دماء الأقليات فى تلك البلاد، وطردوا من بيوتهم، ولكن من عجيب المتناقضات أن هول هذه النكبة كان أكبر سبب فى إزالة العداء

نهوض شرق
جديد

بين اليونانيين والترك. كما عاون إجراء بعض ترتيبات وُضعت لتبادل السكان بينهم على إزالة أسباب الكراهية بين الشعبين ، وإنشاء علاقات ودية بين حكومتَي أنقرة وأثينا . وهكذا نُفِّذَ مبدأ تقرير المصير عن طريق السيف والنار ، والذبح والتدمير ، في الشرق شبه المتحضر .

سقوط وزارة
لويد جورج

وسقط لويد جورج الزعيم الحر الضالع مع اليونانيين بهزيمة أصدقائه الهيلينيين. ذلك أن الصفوف الخلفية في حزب المحافظين غدت قلقة حائرة تحت زعامة رئيس وزارة ائتلافية بلغ من تنفيذه مبادئه الحرة الراديكالية في الشؤون الخارجية أنه تفاوض مع الإيرلنديين العصاة، وعقد معهم معاهدة في ٦ ديسمبر سنة ١٩٢١ مُنحت إرلندا بمقتضاها مركز المستعمرات البريطانية المستقلة ، وشجع اليونانيين على الحرب ، واقترح الآن الدفاع عن الدردنيل ضد هجوم الأتراك الظافرين .

فارتاع المحافظون من شبح حرب جديدة، وعقدوا اجتماعاً في مقر حزبهم في أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وقرروا الانسحاب من الوزارة المؤتلفة . فاضطر لويد جورج إلى تقديم استقالته . وهكذا أقصى هذا الربان الجسور الذي أدار سكان الإمبراطورية في أخرج ساعاتها خلال ستة أعوام عصيبة بلغت أثناءها سلطته ونفوذه وسيطرته على الشؤون العامة، سواء في زمن الحرب أو في زمن السلم ، أعظم ما بلغته سلطة وزير بريطاني ونفوذه منذ عهد الدوق ولنجتون .

وثبت سقوط الوزارة الائتلافية البريطانية أركان الفوز التركي . وعبر مصطفى كمال في هدوء شاطئ الدردنيل ، واحتل القسطنطينية بعد أن خلصته الأقدار من خليفة غلادستون^(١) .

معاهدة لوزان

واضطر الحلفاء في مؤتمر لوزان الذي عقد سنة ١٩٢٣ أن يصدقوا على النتائج السياسية التي ترتبت على الانتصار التركي . فأزيل كل شيء كان يرمز

(١) يقصد به المؤلف مستر لويد جورج .

إلى النظام القديم القائم على هيمنة الدول الأوروبية على تركيا. فألغيت الامتيازات الأجنبية التي كانت تمنح التجار الأوروبيين بعض المزايا في شئون القضاء والمال ، وهي الامتيازات التي ألزم الباب العالي بمنحها في أحوال عديدة لحماية رعاياه والأجانب المسيحيين القاطنين بأرضه . وعزم الترك على أن يكونوا سادة في بلادهم . ولم يستطع اللورد كرزن بدلاقة لسانه وتألق مواهبه - وهو الذي مثل بريطانيا في هذا المؤتمر - أن يحرم الترك من الانتفاع من انتصارات مصطفى كمال ، فإن راية الهلال ما زالت تخفق على استنبول وغاليبولي .

وتركيا الجديدة ، ومهدت الطريق الآن لهذه السلسلة من الإصلاحات الجريئة الجارفة ، التي كانت قد نوقشت وكثر الجدل بشأنها ردها طويلا من الزمن في أندية جماعة تركيا الفتاة ، والتي جعلت الآن مصطفى كمال يلعب كعلم من أعلام الأتراك ، وأعطت تركيا مظهر الدولة المتمدنة العصرية .

فألغيت الخلافة ، وألزم النساء برفع النقاب ، وجعلت المدارس تحت إشراف الدولة ، وترجم القرآن إلى التركية ، وصدر سنة ١٩٢٨ قانون ينص على إبطال الدين الإسلامي كالدين الرسمي للجمهورية التركية ، الأمر البعيد بعداً هائلا عن التقاليد التركية المرعية . واسترعى ما جلّ وما دق من الأمور أنظار الغازي واهتمامه : فالزم الترك بإبدال القبعة بالطربوش ، حتى يكره المصلين منهم على ألا تلمس جباههم الأرض خلال صلواتهم وعباداتهم . ووافق المجلس الوطني دون أن يبدى أية ممللة أو تذمر على هذا الإصلاح ، وعلى تغييرات عصرية أخرى غيره ، كإلغاء تعدد الزوجات ، وإدخال الحروف اللاتينية في الكتابة التركية ، واقتباس القوانين الأوروبية ، وتسريع طوائف الدراويش والسخره وكتابة التمام والتعاويذ والمنجمين .

وكان يكفي لإقرار أى شئ أن يوصى به الغازي . فإنه حينما أعرب بعض النواب في المجلس الوطني الكبير عن ربيتهم في فائدة كسر التقاليد القديمة : الأمر الذي نجم عن إلغاء السلطنة والخلافة ، حاجتهم مصطفى كمال بقوله : إن آخر الخلفاء الحقيقيين اغتيل سنة ٩٢٤ م . ثم قال : « إن السيادة تُنال

بالقوة والبطش والعنف . فبالعنف نال خلفاء عثمان حق حكم الأمة التركية ،
وبالقوة حافظوا على سلطانهم أكثر من قرون ستة . وقد ثارت الأمة الآن على
هؤلاء المعتصمين ، ووضعهم في مكانهم الصحيح . وتسلمت في يدها مقاليد
السلطان والسيادة^(١) . ثم سُمِعت في نهاية خطبته أصوات تقول : « الاقتراع ،
الاقتراع » . ولكن سُمع صوت واحد يقول : « إلى أعارض ذلك » . فاندهل
الترك إعجاباً وتقديراً . وصدعوا لأمر زعيمهم وقائدهم . أفليسوا هم الأمة التي
تتألف من جنود مقاتلين ؟

كتب يمكن استشارتها

- A. Toynbee : Survey of International Affairs for. 1925.
K. Krüger : Kemalist Turkey and the Middle East. 1932.
H.C. Armstrong : Grey Wolf. 1932.
Mustapha Kemal : Speech delivered from October 15, to 20, 1927
Koehler, Leipzig, 1929.
W. Miller : Greece. (Nations of the Modern World Series) 1928.
A. Toynbee, and M.P. Kirkwood : Turkey (Nations of the Modern
World Series) 1926.
H. Nicolson : Curzon : The Last Phase. 1934.

(١) من خطاب ألقاه الفاضل في المجلس الوطني من ١٥ إلى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٧ .

الفصل السادس والثلاثون

الدكتاتوريات الجديدة والديمقراطيات القديمة

الدكتاتوريات الجديدة ، والديمقراطيات القديمة . تفاؤل الإيمان بالحرية . تحدى الرأسمالية . العقيدة البلشفية . لنين . الحرب بين البلاشفة والروس البيض . روسيا وبولندا . معركة وارسو . الشيوعية في إيطاليا . بنيتو موسوليني . الثورة الفاشية . أدولف هتلر . ثورة فيجار . الفرنسيون يحتلون الرومر . شترسمان وسياسة النهاء بالتمهيدات . تأخير نزع السلاح . نكبة سنة ١٩٢٩ . الفلسفة النازية الراديكالية . انتصار المبادئ هتلرية . بريطانيا بعد الحرب المظلمى . مبادئ السياسة البريطانية وأسسا . دعر أوروبا . اللاجئون . ستالين . السلام والحرية .

١ - الدكتاتوريات الجديدة والديمقراطيات القديمة

بتزول خطوب الحرب على أوروبا ، وابتلائها بنكباتها وحشيتها ، وانتزاع الرحمة خلالها من قلوب أبنائها ، ضاع بدرجات غير محسوسة ذلك الإيمان القوى الذى كان يعمر أفئدة عامة الناس بقدرسية الحرية المدنية والإقناع السلمى ، اللذين كانا من السمات التى امتاز بها القرن التاسع عشر . وكان ثمة قبل الحرب أسباب قوية تدعو إلى الاعتقاد بأن النظم البرلمانية تحوى فى ثناياها اللواء الناجع الذى سيرى العصر القادم من جميع الأمراض والأسقام . فلم تستطع مملكة من ممالك العالم تزعم أنها راقية متمدينة - حتى روسيا نفسها - أن تقاوم مقاومة مجدية فعالة ضغط رأى العام الذى كان يجاهد فى سبيل الوصول إلى الحكومات المستولة ، والبرلمانات ، وحق الانتخاب العام . فقد كانت الإمبراطورية النمساوية تملك برلماناً منتخباً بالاقتراع العام ، وكان حزب المؤتمر الهندى يرفع صوته مطالباً بإنشاء برلمان فى بلاده .

إيمان الناس
بالديمقراطية
وببدأ حرية
العمل

وكان ثمة افتراض عام غلب على تفكير الناس قبيل الحرب العظمى بأن السبيل إلى التقدم السياسى هو فى توسيع حقوق الانتخاب ، وتثقيف الناخبين ، وتحسين الأداة الحكومية البرلمانية . هذا على الأقل هو الاعتقاد الذى آمن به الأحرار الإنجليز ، واضطر المحافظون إلى قبوله فى درجات متفاوتة . واعتبر كثرة الناس أن الأدلة على قيام حكومة متحضرة رشيدة فى بلد ما ، هى منحها كل مواطن من مواطنيها حق الفكر كما يحلو له ، وحق الخطابة كما يروق له ، وحق التصويت كما يطيب له . نعم ، إن هناك بعض أخطار للحرية ، ولكن هذه الأخطار كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه له إلى جانب خطر السماح لتذمر الرأى العام وسخطه بأن يتجمعا ويتركما تحت نظام من الطغيان والقمع .

وكان هذا الإيمان الواسع الانتشار بالحرية السياسية يقترن غالباً فى إنجلترا بمبدأ « حرية العمل » فى ميادين الأعمال الاقتصادية . ذلك أن صرح المجتمع الأوروبى فى أزمنة السلم لم يكن من صنع الحكومات . فلم تكن أبدى الحكومات هى التى جمعت ثروة بيت رتشيلد الطائفة ، ولم يكن من عمل الحكومات أن سكان أوروبا تمكنوا من التناسل والازدياد أكثر من ثلثمائة وخمسين مليون نسمة فى مائة وثلاثين عاماً .

إن ببيان المجتمع الأوروبى الرأسمالى يعود إلى الاختراعات الفردية ، وإلى المغامرات الفردية ، وإلى اعتمادات رؤوس الأموال الدولية المتجمعة من ادخار الأفراد ، والمتنقلة بعمل الحرية من بلد إلى آخر طوعاً لتأثير الكسب الفردى الخاص . وكانت أغنى مملكة فى أوروبا وأثراها هى التى حُصر فيها تدخل حكومتها فى شئون التجارة والصناعة فى أضيق الحدود . وكان خير إعلان لقيمة الحرية الاقتصادية هو أرقام تجارة بريطانيا ، والأرباح التى غنمها الشعب البريطانى .

تقدم الولايات
المتحدة المجيب

أما فى الجانب الآخر من الأطلسى ، فقد خبر مجتمع منحدر من

سلالة أوربية زيادة هائلة توشك أن تكون خيالية في عدد السكان ومقدار الثروة خلال القرن التاسع عشر . فإن تاريخ الولايات المتحدة الاجتماعي والاقتصادي ، من إعلان الاستقلال سنة ١٧٧٦ إلى الضائقة المالية العظيمة سنة ١٩٢٩ ، كان تاريخاً لضرب من الرخاء المتواصل المتزايد لا مثيل له على الإطلاق في التاريخ . ولكن برغم نمو عدد السكان السريع ، فإن موارد القارة الأمريكية كانت كافية لسد مطالبهم المتزايدة . ولم تتعارض الثروات الهائلة التي جمعها أمثال فندربلت وركفلر وفورد مع رغد مجموع الأمة الأمريكية وبلوغها في طيب العيش أرفع مستوى للراحة والرفاهية بلغته أمة في تاريخ البشرية .

ويرجع هذه الرفاهية العجيبة إلى مران وتقاليد طويلة الآماد في الأعمال والمغامرات الفردية ، بجانب هبات الطبيعة الجزيلة . فإنه من الأيام الأولى لاستعمار الولايات المتحدة ، حينما كان دستور كل مستعمرة أمريكية يشبه البيانات الجذابة للشركات عند أول إنشائها في تقدير الأرباح التي تتوقع كسبها ، كانت الأعمال الفردية بقصد الربح الشخصي هي شعار الأمة الأمريكية ، وكان ييسر كل شيء في وجه المهاجر والمستوطن والمغامر . فكان يُدعى إلى القდوم ، وينزل على الرحب والسعة بين ظهري المستعمرين ، ويستطيع أن يبتاع أرضاً في قطع صغيرة وبأثمان منخفضة . وكان أطفاله يعلمون بالبحان ، وكان يدرك أنه أينما طاب له أن يحط رحاله ويستقر ، فإن جميع القوانين الفردية والامتيازات الدستورية التي تمنحها كل ولاية في الاتحاد لمواطنيها ، ستُمنح له بعد مرور الوقت المناسب .

وكانت أمريكا أرض « الدولار » . فلم يحرم القانون أو العرف العام على أى مواطن أمريكي جمع الدولارات وتكديس الثروات . وإذا لم توجد في تلك البلاد أرستقراطية وراثية ، أو طبقة سياسية تُخص بالتبجيل ، وإذا كان في مقدور كل مواطن أمريكي أن يطمح إلى رغد العيش ، ويسعى إلى اقتناء المال الوفير ، فقد راح من عدم المساواة بين الأفراد نصف غضبتها

ومراتها . فكانت الثروة أهم ركن للاحترام والتبجيل بين القوم ، حتى ولو أنه كان من السهل يومئذ الظفر بها ، أو إضاعتها .

مؤاندة بين
أمريكا وأوروبا

ولم يمر هذا المشهد العجيب للفردوس المادى الذى تمثل فى أمريكا على أنظار أوروبا من غير أن يثير اهتمام أبنائها . وإذا كانت قد سُمِعت فى بعض الأحيان فى وسط هذه اللجب الصاخبة الأمريكية أصوات تذم ممولى وول ستريت ، وتندد بملوك الزيت والفولاذ ، فإنه ما من أحد داخله الريب قبل تدهور الأثمان العظيم سنة ١٩٢٩ فى أن معضلة الفقر الجبارة المستعصية قد حُلَّت حلا جاد موفق فى أمريكا ، حيث لا تمرقل القوانين مواهب الإنسان المنتجة ومقدرته على البناء والحشد .

أما فى أوروبا ، فعلى حين كانت أمواج الحرية السياسية تملو وتتضخم ، أخذت تيارات الحرية الاقتصادية تميل إلى الهبوط والنكوص . وكان أمراً معقولاً أن يفكر چيمس ميل* ويكتب سنة ١٨٢٠ عن الحكومات بأنها شيء سيئ ضار : ذلك لأن الحكومة الإنجليزية فى ذلك الحين كانت تسيطر عليها طبقة ممتازة صغيرة العدد، وُجِّهت إليها أحياناً تهمة الارشاء والسمسرة . ولكنه كان أمراً بعيداً عن السداد والصدق أن يُنظر الآن إلى هذه الحكومة بمثل هذه النظرة المحقَّرة بعد أن دخلت الأمة قاطبة فى حظيرة الدستور وكنفه . وقد لا تكون الحكومات الديمقراطية سديدة الرأى صالبة الحكم على الدوام ، ولكنه ينتظر منها على الأمل أن تصون مصالح الجمهور كجموع . كما أن تدخل حكومة كهذه قد يؤدي بشكل إيجابى إلى سعادة رعيئها وتوفير رغد العيش لها .

شروط النظام
الرسائل

بل إنه يؤمل أيضاً من مثل هذه الحكومة أن تكبح بنوع خاص شرور النظام الرأسمالى وآثامه : هذه الشرور وتلك الآثام التى تظهر فى تبديد الجهود نتيحة للمزاحمة المطلقة ، وفى عدم حرص الشركات ذات المسئولية المحدودة على الخير العام ، وفى ضغط مؤثرات المولدين الأثيمة على المجالس النيابية وشئون التشريع ، واستغلال الضعفاء وتسخيرهم ، والتفاوت العظيم فى الثروة

بين الإنسان وأختر. سحقى السنين التى قفت الحرب ، واجه العالم ظاهرة الفقر المدفع والحرمان المرير وسط فيض من الخيرات والنعم منقطع النظر . فعلى حين عاشت ملايين من البشر خاوية البطون عارية الأبدان ، كانت تدمر بالفعل المحاصيل لزيادتها على الحد الذى يأتى بالربح إلى جيوب أصحابها . فتساءل الناس : إلى أين العالم سائر ؟ وما هو المصير ؟ وارتفع النقاش ، واستمر الجدل ، بأن البرلمانات أصابها الإفلاس ، وأن الحضارة الديمقراطية بلغت نقطة التحول ، وأن مبدأ « حرية العمل » يجب أن يستعاض عنه بمبدأ « الاقتصاد المنظم » فى جميع الشئون . وحتى فى إنجلترا طالب العمال فى مؤتمرهم السنوى سنة ١٩١٩ بأن يعاد تشييد صرح المجتمع بأكمله من جديد .

٢ - الثورة البلشفية

وكان ثمة شر عظيم نجم عن الحرب ، وشاع فى قسم كبير من أوروبا ، هو انهيار النظام الاجتماعى . فقد قلت ثقة الناس بسلطان الحكومات ، ووهن نفوذ العرف والتقاليد ، وتحلل القوم فى جميع الممالك المنهزمة من أواصر النظم القديمة ، وتطلعوا إلى زعامة جديدة تهدى أقدامهم فى فجاج غير مطروقة . وصحّ هذا الأمر فى روسيا بخاصة . فقد كانت حكومتها القيصرية أسوأ الحكومات وأضعفها . وعُبدت فيها الطريق إلى الثورة خير تعبيد . وخرج من الاضطرابات والفتن التى قامت فيها فى تلك الساعة العصيبة ثلاثة أمور : رجل ، ومبدأ ، وإيمان .

أما المبدأ فقد استمدَّ من كتابات ماركس ، وهى تطالب بالاستعاضة بالشوعية عن النظام الرأسمالى الراهن الذى يقوم عليه المجتمع . وهى استعاضة رأى أنصار هذا المبدأ أنها النتيجة الحتمية للتطور الإنسانى الطويل الدهور . وهذا المذهب يتحدى الملكية الخاصة ، والإيمان بالله ، ونظام الطبقات ، وجميع الأفكار المتعلقة بالفنون والآداب والفلسفة التى تركز عليها الطبقة

الوسطى وتؤمن بها . وقد اضطّر الروسي - وهو الرجل المتعبد الخاشع - أن ينبذ كثيراً من معتقداته الدينية ، وبطلن كثيراً من تقاليده ، لكي يعتنق هذا الدين الجديد الذي يجانب توفيره له أسباب السلام والرزق ، ينادى بالمبدأ القائل بأن الأولين يكونون آخرين ، والآخرين يكونون أولين . فإن الشيوعية الروسية ، برغم تنديدها بالدين « كمخلد للشعب » ، حملت سمات العقيدة الدينية ، وكانت كدين الإسلام عالمية مجاهدة داعية ، وكان نبيها هو لنين ، وكنيسها هي الحزب الشيوعي .

وكان لنين نبياً متعصباً شديد الغلو . وقد ازداد سلطانه على النفوس أضعافاً مضاعفة لإيمانه إيماناً قلبياً عميقاً بأن الأقدار اختارته لكي يترجم ثورة روسية مفلحة ، ويقودها إلى النصر . فن غير أن يملك جاهاً أو مركزاً أو مالا ، كان هذا المؤتمر المضمور الذي قضى شطراً كبيراً من حياته في سجون سيبيريا ، أو مقباً في الأحياء الرخيصة بلندن وسويسرا - كان هذا المؤتمر ممثلاً يقيناً وثقة بأنه كتب له أن يقلب يوماً من الأيام نظام روسيا القديم رأساً على عقب ، وأن « يصفى » الطبقة البورجوازية ، وأن يقيم صرح دكتاتورية العمال . وقد كفلت له حيويته الفائقة ، ونشاطه الجهم ، وعقله الماضي ، وذكاؤه الأملعي القاسي ، ونظرنه الواضحة الجلية ، وموهبته النفسية - النادرة بين الروس - في الكلام-الموجز الفعال ، وسرعته في إنجاز الأعمال ، وقدرته التي كاد يكون فيها منقطع الضرب على جعل نفسه مرهوب الجانب - كفلت له هذه الصفات نفوذاً وسيطرة على أتباعه الثوريين يضارعان ما كان لپارنل من النفوذ والهيبة في الحزب البرلماني الإيرلندي .

وكانت هيئة أركان الحرب العامة الألمانية ، بتقدير صائب لمواهبه الفذة ، قد وضعت الترتيبات لنقله إلى روسيا من سويسرا حيث كان يقيم (عام ١٩١٧) ، كي يفسد الروح المعنوية للجيش الروسي . وفعل السم مفعوله ، وسرى بسرعة فائقة في أوصال الأمة الروسية . ذلك أنه قبل أن يتقضى عام واحد ، نصب هذا الجبار نفسه قيصراً على روسيا - قيصراً كان أشد هولاً

وأعظم فتكاً وأكبر سلطاناً وأكثر إنتاجاً وخلقاً ، من بطرس الأكبر نفسه . وكان لنين خلواً من المبادئ الخلقية والنواهي الأدبية . وكان إنسانياً إلى درجة رفيعة رحبية ، بحيث كان في وسعه أن ينظر في هدمه إلى قتل الناس جماعات ، الأمر الذي اقتضاه إنشاء نظامه وترسيخه . وبدت له الجماعات والحرب لا كأعداء ، بل كصديقات مسعفات : الجماعات لأنها أذكت حقن الفلاحين على حكومة القيصر ، والحرب لأن النضال المسلح الناشب وقتلت بين الأمم الرأسمالية سيقترون في نظره بالحرب المروعة القادمة الأشد هولاً ورعباً ، التي رأى أنها ستشب يوماً ما بين طبقات المجتمع ، والتي تستطيع وحدها أن تجلب في ذيلها السلام الذي تنادى به الشيوعية .

برناجه
وكان برناجه هو : الشيوعية لروسيا أولاً ، ثم لساثر أرجاء العالم فيما بعد . وألفت كتابات ماركس قرأه الذي يهتدى بوجيه وإرشاده . ولكن برغم أنه كان رجلاً نظرياً يسترشد بما توحى به الكتب ، فإنه لم تعوزه سمات السياسية العمل الرشيد .

فإنه أباح سنة ١٩٢١ حرية التجارة ، متحدياً بذلك النظريات الشيوعية ، حيناً رأى أن الشيوعية المطلقة من كل قيد ستورد الأمة الروسية موارد البوار . ولم يغمض عينيه عن رؤية المنافع التي تُجنى من استخدام رؤوس الأموال الأجنبية في دعم الصناعات الروسية . ولم يظفر بتأييده وموافقته مشروع ترسكي وزينشيف الذي حُض على القيام بحملة عنيفة من الدعاية الثورية في الأقطار الأجنبية ، بل اعتقد أن الأفضل هو ترسيخ النظام الشيوعي في روسيا نفسها بكل ما يمكنه الحصول عليه من مساعدات الدول الرأسمالية . فعقد اتفاقية تجارية مع إنجلترا سنة ١٩٢١ ، وأخرى مع ألمانيا سنة ١٩٢٢ . وأخذ يعلم بإنشاء دولة روسية يستطيع فيها كل فلاح أن يقرأ ويكتب ، وأن يملك بيتاً صغيراً يضاء ويدفأ بالكهرباء .

أدوات التنفيذ
وكانت الأدوات التي باشر بها لنين سلطانه هي : (أولاً) حزب شيوعي دقيق التنظيم ، (ثانياً) شرطة سرية ورثها عن النظام القيصري ، (ثالثاً)

الجيش الأحمر . وقد استخدم وسائل الإرهاب ، ولكن حكمة : كان نزيهاً خالياً من الرشوة والفساد . فقد خصص لنين ووزرائه لأنفسهم مرتبات صغيرة ، ومارسوا الزهد الشديد والتقشف المجهود اللذين دعوا إليهما الآخرين . فقدرت البلاد ولاءهم لمبادئهم ، ومجّدت إخلاصهم لقضية الشعب .

آثاره

وقدم الشعب طوعاً واختياراً إلى لنين خاصة ألواناً من التعظيم والتفخيم تدنو من تلك التي تقدّم للآلهة . وقد حكم لنين روسيا ستة أعوام دقيقة جليلة الخطر ، حول في خلالها حياة الشعب ، وبدل نظمه ومؤسسته . فاعتبر الناس محرّهم العظيم كل جريرة ، وصفحوا عن كتاباته العديدة الحافنة المحلبة للسأم ، وقسوة نظامه الذي لم يعرف في سبيل تنفيذه شفقة ، والسرور الشيطاني الرجم الذي فاض به قلبه لأرزاء الأغنياء وشقوة ميسوري الحال . وما يزال الحجاج الروس الورعون يحجون إلى اليوم أفواجاً إلى قبر هذا الزعيم الثوري العظيم ، ويسرون صفوفاً أمام جثمانه المحنط الذي كان خلال وجوده على قيد الحياة عفيف النشاط ، شائك الملمس ، والذي يرقد الآن رقدته الأبدية في الميدان الأحمر بموسكو ، يخيم عليه سلام الموت الوارف ، بينما تواصل إرادته وذهنه صوغ المثل العليا للدولة الروسية .

إخاد الثورة
الأهلية

وقد واجهت الشيوعية الروسية في مستهل حياتها شرّاً عظيماً داهماً ، هو اندلاع لظى حرب أهلية تؤيدها دول الحلفاء وشريكاتها . وكان وازع الحلفاء إبقاء روسيا في الحرب ضد ألمانيا ، بمد يد المعونة إلى العناصر الروسية التي كانت لا تزال راغبة في حفظ العهود التي عقدها حكومة القيصر معهم . فباتت الحكومة البلشفية هدفاً للهجوم من كل صوب : من ناحية سيبيريا ، ومن البحر الأحمر ، ومن أركانجل ومورمنسك ، ومن إستونيا . وأكهرت على الوقوف موقف الدفاع . ففي الشرق اكتسح الجنرال كلشاك Kolchak سيبيريا ، وفي الجنوب زحف دنيكين Denikin على موسكو .

ولكن كما امتلأ الفرنسيون حماساً خلال الثورة الفرنسية عندما هجمت الجيوش الأجنبية على بلادهم ، كذلك وحّد التدخّل الأجنبي الصفوف في

روسيا ، وأذكت الحمية للدفاع عن النظام الثورى . وأبلى المدافعون أحسن بلاء ، فصُدت الجيوش البيضاء فى كل مكان ، نتيجة لاختلال نظامها وقسوتها وحقاقتها وبسالة خصومها . وكسب يهودى ألمعى يدعى تروتسكى ، كان قد نبغ قبلا فى ارتكاب الجرائم الدنيا - كسب لاسمه صيتاً مجيداً كنظم ظافر ، وأشاد الناس بنبوغه « ككارنو » روسى .

وكانت الثورة البلشفية نذيراً يفوق هولاً وضخامة كل حركة من نوعها بلتها أوربا . وأحاطت بها فتنة خاصة وسحر عجيب لكفاءة زعمائها وقسوتهم البالغة . فإنه حتى فى إنجلترا ، هذا البلد المحافظ ، شرع زعماء العمال يتكلمون عن مجالس العمال ، « السوفييت » ، وعن لزوم القضاء على الحكومة البرلمانية بالعمل المباشر والإضراب العام .

وأخذ الساسة فى جميع دول غرب أوربا يسائلون أنفسهم : ما هو المدى الذى ستبلغه هذه النيران الآكلة ؟ وفى فنلندة أخذ الألمان ، دون رحمة ، الفتنة التى قام بها الثوار الحمر . وأخذ الرومانيون ثورة نشبت فى هنغاريا . ولكن من ذا الذى كان فى استطاعته أن يتكهن ساعثذ عن مغبة الدعاية البلشفية داخل الدول التى أنشأتها حديثاً معاهدات الصلح ، التى كان بعضها صغير الرقعة ، والبعض الآخر يسوده الاضطراب وعدم الاستقرار ؟ فلقد مرت لحظة فى عام ١٩٢٠ اشتد فيها الخطر على بولندا . وقد يكون حرياً بنا هنا أن نقف هنية أمامها ، حتى فى تاريخ عام لأوربا كالذى حواه هذا المؤلف .

٣ - روسيا وبولندا

لم تقاس سوى شعوب قليلة ما قاساه البولنديون خلال الحرب العظمى . فقد كانت بلادهم الساحة الكبرى لحروب الجبهة الشرقية . وارتوى أديمها بالدماء ، ومزقت بلدانها المتشجرات ، وكانت مشهداً لمجازر يعجز القلم عن وصف أهوالها : مجازر قام بها ، أو عانها ، هذا الشعب المحكوم التمس . وقاتل البعض من البولنديين فى جانب الروس ، والبعض الآخر فى صفوف

التمساويين ، و بعض آخر في الجيوش البروسية . وقد حارب جميعهم مكرهين . ثم أسعفهم حسن الطالع على غير انتظار بانهار الإمبراطوريات الثلاث التي تقاسمت بلادهم فيما بينها . ووجد البولنديون الذين أنهكت الحرب قواهم ، وعضهم الفقر بأنيابه - وجدوا أنفسهم بعد نيف وقرن من الزمان أحراراً وأسياداً في بلادهم .

فلا عجب إذاً أن أسكرتهم خمرة الحرية . وكانوا في مؤتمر الصلح بباريس كأطفال رضع يطالبون بوضع القمر في أيديهم . وكانوا في بلادهم كأنياء حاملين يحرون وراء المستحيل . فلأنهم تحت زعامة يوسف بلسودسكى Joseph Pilsudski ، وهو متأمر اشتراكي قوى الشكيمة ، وشخصية من أكبر شخصيات الحرب ، وكان منذ الثورة الروسية عام ١٩٠٥ يجمع في الخفاء عناصر الجيش البولندي القومي ، ويؤلف شمله - كان البولنديون تحت زعامة هذا القائد قد عقدوا النية على استعادة أمجادهم القديمة ، وبسط سيطرتهم حتى ضفاف الدنيبر .

نشوة الحرية
تسكرهم

ولكن برغم تدهور روح القومية في نفوس الروس إلى درك سافل ، فلأنها لم تنحط إلى الدرك الذي يطيقون فيه إقامة حكومة بولندية في كييف : هذه المدينة التي كانت قديماً عاصمة الإمبراطورية الموسكوفية . فردوا البولنديين الزاحفين في تهور طائش على أعقابهم ، ثم اكتسح البلاشفة بلدورهم بولنده ذاتها . وسُمِعَ قصص مدافع الشيوعيين في شوارع وارسو . وبدأ في كل عاصمة من عواصم أوروبا كأنه ليس أمام هذا الشعب المتهور المنكوب إلا أن يحصل على خير الشروط الممكنة من علو قاهر .

القتال بين
البولنديين
والروس

ولكن تاريخ بولندا سلسلة من المفاجآت . فإن جيشاً بولندياً بقيادة بلسودسكى ، يعاونه الجنرال فيجان ومعه نخبة من الضباط الفرنسيين ، ظفر بانتصار فاصل عجيب . وأكره الروس على الارتداد عبر الحدود من غير أن يتكبد كلا الفريقين سوى خسائر قليلة . واضطرت روسيا إلى طلب الصلح .

فكسب بلسودسكى بمناورته الحاسمة فى معركة وارسو عرفان أوروبا : فقد خلّص بولندا من براثن البلاشفة . وليس فى مقدور أحد أن يتنبأ عن المدى الذى كان يبلغه انتشار وباء البلشفية فى أوروبا ، لو لم يصنع بلسودسكى هذه المعجزة على ضفاف الفستولا .

وأسدى هذا القائد خدمتين أخريين لبلاده . فإنه لم يكن للبولنديين أية خبرة بفن الحكم الذاتى . فلأنهم وقد حرروا أنفسهم على حين غرة من نير عبوديتهم الطويلة الأمد ، وسطعت عليهم شمس الحرية ، أعدوا لأنفسهم - وهو أمر طبيعى على الأرجح - دستوراً برلمانياً من أحدث وأكمل طراز ، اقتبسوا فيه مبدأ التمثيل النسبى ، ومنح الجميع حق الانتخاب .

ولكن لما كان عدد أحزابهم لا يقل عن الأربعة عشر ، ولا يلائم برنامج أى واحد منها حوائج الموقف الجديد الذى نشأ عن الحرب ، فقد أوشكت كفاية الحكومة وحسن تصرفها للأمور ، أن يصبحا متعذرين . فقد تلت الوزارات بعضها بعضاً فى سرعة محيرة . ولم يكن ثمة استطراد لسياسة واحدة ، ولا اتساق فى الفكرة ، ولا ضمان للمقدرة الفنية فى الأوساط الحكومية . فقد يكون رئيس الوزارة فلاحاً ، فيذهب إلى مزرعته كى يشرف على شئونها ، وذلك فى ساعة حرجة قد ترتطم فيها سفينة الدولة بصخور القوضى البرلمانية ، هذه الدولة التى كانت قد نجت بأعجوبة من الهلكة فى حربها مع الروس .

واستمرت الأمور فى بولندا تسير من سيئ إلى أسوأ . فخلع بلسودسكى رداء عزله ، واقتحم وارسو فى ٤ مايو سنة ١٩٢٦ ، ووضع حداً للحماقة والعليش . وإن ما قام به من مجيد الأعمال للدليل على ذكاء واعتدال ناديرين فى شؤون أوروبا الوسطى السياسية . فقد أبى أن ينصب نفسه رئيساً للجمهورية . وأجلس فى هذا المركز أستاذاً عظيم التوقير . ولم يبلغ « اللدب » . كما أنه لم يحاول تأليف حزب فاشسى . ولم يسمع هذا الجندى المجاهد فى سبيل وطنه ، والتزىل الشريف بسجون سيبيريا وألمانيا سابقاً ، إلى أن يفرض نفسه دكتاتوراً على مواطنيه ، بل رأى أن يستمر اللدب على الانعقاد والتداول والمناقشة وكسب

الاختبار وتثقيف الأمة . ولكنه لم يخوله حق إسقاط الوزارة . فقد كان يعتقد أن عمل البرلمانات ليس هو إقالة الوزارات ، بل أن يتعلم منها فن الحكم . ولهذا السبب اختير مجلس وزراء من أولى الخبرة والمقدرة لإدارة دفة الدولة ، وأمنوا على البقاء في مراكزهم . وكان يكفي لتأمينهم أن يعرف عنهم أنهم مؤيدون من جانب بلسودسكى الذى تقلد وزارة الحرب ، وكسب ولاء الجيش وإخلاصه . فخلد لنفسه بهذه المآثر ذكرى عاطرة في نفوس البولنديين بحسن صنائعه ، وببيض أياديه عليهم .

والخدمة المحيدة الثانية التى أسداها هذا الرجل الفذ لبولندا هى انتهاجه سياسة خارجية رشيدة . فقد عقد ميثاق عدم اعتداء مع روسيا سنة ١٩٣٣ ، وآخر مع ألمانيا سنة ١٩٣٤ . فجلبا معهما روحاً من السلامة ، وشعوراً بالطمأنينة ، لأمة لا ترتاع من شيء أشد من ارتياحها من تجدد حرب في أرضها .

٤ - الثورة الفاشية

ويعود الفضل بلا مراء في ضعف أثر الدعاية البلشفية في دول أوروبا الجديدة إلى الحقيقة بأن طبقة الفلاحين في كل مكان تقريباً قد أيسر حالها وزاد دخلها بسنّ تشريعات زراعية واسعة النطاق بعيدة المدى . ففي بولندا وتشكوسلوفاكيا ورومانيا ، كما في دول البلطيق الصغيرة ، قُسمت الضياع الكبيرة ، وبيعت لصغار الفلاحين بشروط ملائمة . صحيح كان هناك كثيرون ندبوا اختفاء البيوتات الريفية الكبيرة - هذه البيوتات التى قامت بدور مجيد في ازدهار الفنون وتقدم الأدب والسياسة في أوروبا الوسطى الشرقية مدى قرون عديدة . ولكن كان من نتائج هذا الانقلاب الزراعى الواسع النطاق أنه أقام سياجاً قوياً من صغار الملاك الفلاحين بين الشيوعية الروسية ، وبين أوروبا الوسطى .

غير أنه لم يكن من المستطاع حصر آثار انقلاب ضخيم كالثورة الروسية حصراً كاملاً . فإنه لا يزال طيف لنين يهيم على الحقبة التى نعيش خلالها

تنفيذ
الإصلاحات
الزراعية في
الأمطار الأوروبية

شيوع المبادئ
البلشفية

الآن . ولم تشاهد أوروبا في روسيا حكومة تتربع في دست الحكم فقط ، وتسترشد بمبدأ معين تؤيده قوة السيف ، دولة جماعية تكتم في عنف وبأس شديدين أنفاس الحرية ، موطنه العزم على خلق طراز جديد من البشر ، وقالب جديد من المجتمع ، بفرضها نظاماً يغلب عليه الضغط والقمع - لم تنفرد روسيا وحدها بذلك ، بل كانت هناك أقطار أخرى ترسم خطاها في هذا السبيل . فإن منطق الشيوعية الروسية الصارم وجد له أنصاراً وأتباعاً في جهات أخرى . فبدأى الطغيان فُرضت بالعنف والدعاية على شعوب إيطاليا وألمانيا الطائفة المنقادة ، في لحظة بلغت فيها إرادة تلك الشعوب أسفل درك . ومع أن مذهب لنين عالمي في نزعته ، على حين أن الفاشية سواء في رداها الإيطالي أو في دثارها الألماني ، قومية الميول ، فإن جميع هذه الحكومات تتحد معاً في معارضتها للحرية الإنسانية . فإن الشيوعيين والفاشستيين على السواء طلقوا الفكرة القائلة بأن المسائل السياسية يمكن حلها وحسمها عن طريق المناقشة ، وأن حقوق الأقليات ينبغي أن يُحفل بأمرها ، وأن مقارعة الحجة بالحجة خير على الدوام من اللجوء للقوة والعنف .

الدكتاتورين
الحديثين

فإن الدكتاتورين الجدد يضارعون في طغيانهم واستبدادهم أى قيصر من قيصرة الروس ، أو أى بابا من باباوات روما . وينفذ هذا اللون الجديد من الاسترقاق والطغيان ، ويتغلغل في الأمم التي تُحكم بموجبه ، إلى درجة لم يسبرها العالم قط من قبل . فإن القوة الوحشية التي هي وليد الحرب والثورة ، مظهر مشترك للاستبداد الكلي الذي يشيع في الأشكال الدكتاتورية الثلاثة جميعاً : البلشفية ، والفاشية ، والنازية .

سريان روح
الاستياء

ولعب الرجل من سريان عدوى الوباء الرومى دوراً هاماً في سياسة إيطاليا . وأنتج انتهاء الحرب فيها شعوراً عاماً من الخور والكلال وخيبة الآمال . فقد شعر الإيطاليون بأنهم بعد أن عانوا أهوالاً شداداً ، لم يفوزوا إلا بالتأفف الزهيد من الغنائم . وكانت الدعاية الثورية قوية في إيطاليا . ولعبت دورها في إحداث هزيمة كاپورتو الملحقة .

وحينما خيم ظل السلام على العالم ، وجد الإيطاليون أنه لم يأت لهم إلا بالضرائب العالية ، وارتفاع أثمان الأغذية ، وندرة الوقود . فأخذ العمال الإيطاليون يسائلون أنفسهم عما جنوه من جهود بلادهم . وتعلكت نفوسهم روح الاستياء الشديد ضد الحكومة القائمة . وغدا اسم لنين محبوباً بين الجماهير ، ووزعت صورة هذا المبعوث الروسي في كل مكان . وتلا الإضراب الإضراب . وسخر الناس بجنود الحرب القدامى في الشوارع .

علم الديمقراطية
الإيطالية

ولما كان البرلمان الإيطالي ينتخب بطريقة التمثيل النسبي ، تعددت الأحزاب الإيطالية وكثرت ، وضعفت الوزارات . وكانت الخطابة حرة ، والمناقشات طليقة من جميع القيود . ولكن لم يكن ثمة شيء في حكومة البلاد يلهب الوطنية في النفوس ، وتلتف حوله الآراء . وكان كثير من زعماء البلاد البرلمانيين على جانب كبير من المقدرة والجدارة والتزاهة . ولكن شطراً وافراً من النشاط الذي كان ينبغى أن يخصص لبحث المسائل القومية الكبرى ، ضيّع سدى في سفسطات مجعدة ، ومناقشات عقيمة ، ومناورات لا تنقطع لتحسين المراكز الشخصية واعتلاء كراسي الحكم .

بروز بنيتو
موسوليني

فهذا التشيت الجلى للقوى القومية ، وهذا الشلل للجهود الوطنية ، يوضحان بروز بنيتو موسوليني وتآلق نجمه السريع في سماء إيطاليا^(١) .

(١) ولد موسوليني في ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٢ . وكان أبوه حذاداً مدمناً يقطن بنار فورلي Forli . وكانت أمه مملعة ، وكانت بطبيعتها مفكرة وديمة تميل إلى الصمت والعزلة . وعند ما بلغ بنيتو الثامنة عشرة ، مارس مهنة التدريس ، ولكنه شتمها بعد قليل . وسافر إلى سويسرا حيث اشتغل صبي بناء . وإذا كان يكثر من معايشة الفوضويين ، طرد من كل عمل التحق به ، وألقى به مراراً في غياهب السجون . ثم خرج من سويسرا هائماً على وجهه حتى وصل إلى باريس . وأقام فيها قليلاً ، ولكنه طرده منها لتشرده . فرجع إلى بلاده في الحادية والعشرين من العمر ، خاوي الوفاض ، ثائراً على النظم القائمة . ثم اضطر إلى الانخراط في سلك الجيش لقضاء مدة الخدمة العسكرية . وبعد خروجه أخذ يشتغل في الصحافة ، وعارض دخول إيطاليا الحرب سنة ١٩١١ ضد تركيا لملك طرابلس ، وحرّض المهالك على تخريب السكك الحديدية لمنع إرسال الجنود والمؤن . ثم عين محرراً بجزيرة اشتراكية . وغدا يمد في إيطاليا خطراً داهماً على النظام الاجتماعي القائم .

ففي صيف عام ١٩١٤ ، نشبت الحرب بين روسيا وألمانيا . وأخذ أعضاء
الريشتاغ الاشتراكيون يصدقون على الاعترافات الحربية التي طلبتها حكومتهم .
فأدرك موسوليني على الفور معنى ذلك . وعرف أن في ساعات الأمم الحرجة
يؤثر المرء وطنه على كل شيء . فلأن الاشتراكيين الألمان لم يحتجوا حتى على
انتهاك بلادهم أرض البلجيك . فرأى أنه ليس قميناً به أن يكون أشد اشتراكية
من قاداته الاشتراكيين الألمان . فأدار ظهره دفعة واحدة عن مبادئه الأولى .
وأخذ يحرص على دخول إيطاليا الحرب ضد النمسا لتحقيق مطامع بلاده
القومية . وانخرط بنفسه في صفوف الجيش . وحارب وجرح . ثم « خرج
في النهاية يشتعل حماساً ، وتزخر نفسه بالمطامع . وبرز كزعيم مغامر من مغامري
الحرب ، يبيع نفسه لأي حزب ، رجل متأهب ناري المزاج جلي الفكر
لا ينكسر عن ارتكاب أى عنف أو قسوة ، وأستاذ مطبوع على أفانين
الختل والمؤامرات » .

وكان أول عمل من أعماله تأليفه حزباً يشد أزره . ودعاه الحزب الفاشستي
Fascisti (١) . وكان يطمح إلى تكوين حزب يسوده النظام الدقيق ،
وتشيع فيه الحيوية ، ويعيش عيشة الحشونة الإمبرطية ، ويرنو إلى القبض
يوماً من الأيام على مقاليد الأمور .

وتما وازدهر حزبه هذا الذي أسسه في ٢٣ مارس سنة ١٩١٩ في مقر
جريدة كان يصدرها في ميلان . وبسط نفوذه وسيطرته على الدهماء والأوشاب .
وأخذ الفاشستيون الذين ارتدوا الآن قمصاناً سوداء يقتالون أحياناً خصومهم ،
وأحياناً يضربونهم ، وأحياناً يبحرونهم على تجرع زيت الخروع ، وأحياناً
يهجمون بالطريقة الإيطالية القديمة على بيت أحد الأحرار ، ويعملون فيه يد
النهب والتخريب . ووجد الحزب الفاشستي في جنود الحرب القدامى الساخطين ،

(١) من كلمة *Fasces* الرومانية ، ومعناها العصي التي كان الدكتور الروماني يحملها
أمام الرئيس الأعلى للدولة ، كرمز للسيطرة والسلطان .

بسبب إهمال أمرهم ، أتباعاً ومريدين ينضمون إلى فرقه . وفي الثلاثين من أكتوبر سنة ١٩٢٢ زحف موسوليني على رومة ، واحتفظ للملك بسلطانه الاسمية ، وقبض هو على زمام الدولة .

وتلا ذلك تطور عجيب خارق . فإن الحزب الفاشستي أخذ ينمو حتى احتوى الأمة الإيطالية بأسرها . وصار لا يُحتمل في إيطاليا رأى غير رأى الزعيم . وألزمّت الصحافة وأساتذة الجامعات والطبقة المثقفة بأن تسير وفق مبادئ الحزب الجديد . وكانت العقوبات التي تفرض لعدم الامتثال لنواهي الحزب ، هي جرعات من زيت الخروع أو السجن ، أو التني إلى إحدى الجزر . وكان اغتيال ماتيتوني Matteotti زعيم المعارضة في البرلمان : هذا الاغتيال الذي أزعج خصماً عنيداً من وجه موسوليني ، إعلاناً بأن المبادئ الحرة الإيطالية الدابرة قد قُضِي عليها .

التغيرات التي
أحدثها

وألقى « الدتشي » Duce قاعدة التمثيل النسبي . وقسم إيطاليا في نوفمبر سنة ١٩٢٣ إلى خمس عشرة دائرة انتخابية . وأعلن أن الحزب الذي سيحصل في الانتخابات القادمة على أغلبية الأصوات سيحصل على ثلثي كراسي البرلمان . وكان الحزب الفائز هو حزبه .

وكان الحزب الفاشستي مناصراً للإكليريكية ، معادياً لمنح النساء حقوق الانتخاب ، يتزع إلى القومية والتفرد بالحكم ، ويعارض في تعصب شديد المبادئ الحرة التي صارت الروح الهادية للحياة البرلمانية الإيطالية خلال الفترة التي امتنع فيها أنصار البابوية عن الاشتراك في شئون السياسة . وتنامى موسوليني في جسارة كبيرة ماضيه ، وكيف أنه فظّم اعتصاباً عاماً سنة ١٩١٤ . وأعلن الآن أن الاعتصابات والامتناع عن العمل محظورة . وأصبحت كل صناعة من صناعات البلاد ، بمقتضى قانون أصدره لتنظيم الجمعيات والشركات — أصبحت شطراً من مشروع عام ضخّم يدار بعين حريصة على حماية مصلحة العامل من ناحية ، وعلى رخاء الصناعات والأعمال التجارية وكفالة رؤوس أموالها وضمان أرباح معقولة من ناحية أخرى .

واستقبلت دول أوروبا الغربية الحرة النزعات طغيان الدكتاتور الإيطالي ،
 وأساليب قمعه واضطهاده ، بأحاسيس العداء والارتياح . فإن كتم حرية
 الجامعات وتدريب الصحافة على الخضوع الزرى ، والقضاء على الحرية البرلمانية ،
 وإبدال طرق الإقناع السلمى بالقوة الغشومة فى جميع جوانب الحياة القومية —
 بدت كل هذه الأمور متعارضة مع الميول الديمقراطية : هذه الميول التى اعتقد
 الناس أنها تبشر بالخير الجزيل للجنس البشرى .

ومع هذا وُجد حتى فى أيام الفاشستية الأولى بعض من الإيطاليين الرفاق
 القلوب ممن أشادوا بهذه الحركة التى جلبت إلى حياة إيطاليا السياسية شعوراً
 بالعظمة والمجد اللذين كانا لبلادهم فى عصر الإمبراطورية الرومانية ، وذلك
 برغم قسوة أساليب الفاشستية وعنف طرقها . فإن نبوغ الدتشى الباهر ونشاطه
 الجلم انتقلا إلى كل قسم من أقسام الدولة . فأصبح كل فرع من فروع
 الحكومة يطالب بمستوى جديد من الكفاية والنشاط . فانتظمت مواعيد
 القطارات ، وأُنزل القصاص الشديد بالموظفين غير النزهاء ، وبوشرت أعمال
 عامة ضخمة ، وشُجعت أعمال التنقيب عن الآثار القديمة تشجيعاً عظيماً ،
 ووُجّه الاهتمام بإعادة تنظيم روما وتجميلها ، وتعمير الأقاليم الجنوبية التى
 كانت مرتعاً للملاريا .

فاستُقبلت تدريجاً بالتبجيل والإعجاب الفاشستية التى كان يُنظر إليها
 فى مبدأ ظهورها كحلم ثورى عنيف لرجل مفتون . فلم تكن نظاماً سياسياً
 فحسب ، بل كانت مبدأً وديناً . فقد قاومت مبدأ الشيوعية الدولية الداعى
 للجهاد والكفاح ، بمبدأ آخر لا يقل عنه عنفاً وبطشاً : هو مبدأ قائم على
 الاشتراكية القومية المتحمسة ، يفسره حزب سياسى منظم يدعو إليه ، ويفرضه
 على الأمة ، ويؤيد كل قوة تعمل على اتحادها ، ويقمع بكل قسوة كل من يعمل
 على انشقاقها وببلبة أفكارها ، أو تنوير أذهانها . فأعيد التعليم الدينى إلى المدارس .
 وتصالحت الدولة مع الكنيسة (فى ١١ فبراير سنة ١٩٢٩) واحتفى كل لون
 من ألوان العداء فى صفوف الأمة — سواء أكان هذا العداء محلياً إقليمياً ،

أم دينياً أم طائفياً - في عبادة عامة مشتركة للدتشي . فأعاد الإيطاليون عبارات خضوعهم الجذلة الفياضة إلى الأذهان طرق التعبد قديماً للإسكندر وأغسطس .

فلذا كان الثمن الذى دفعه الإيطاليون للخيرات والمنافع التى جاءهم على أبدى الدتشي هو فقدانهم الحرية ، فلأنهم كانوا على استعداد لدفع هذا الثمن ، فقد أنجبت إيطاليا رجلاً مستبداً من طراز قيصر ، تحيطه هالة الخطيب الذرب ، وتحليه مكارم رجل من رجال الشعب وعطفه وسماحته . ولكنه هو أيضاً حاكم مستبد ، يكدرج ويكدح لكي يجعل أمنه قوية متحدة . وعملت أخلاق الزعيم الإيطالى الفذة ، والطريقة التى أفلح بها في تقويم خور الأمة الإيطالية وتردها وقنوطها ، وفي استخدامه جميع المناقب الحربية التى تعلمتها من دروس الحرب العظمى ، وفي براعته في إذكاء الحماس في نفوس الجماهير وإثارة حميتها وتوليد ثقها، وفي نجاحه في التغلب على اضطرابات العمال - عملت كل هذه الأمور على إثارة إعجاب الأقطار الأخرى بالفاشية وتقديرها ، وأدت إلى تأليف جماعات أو أحزاب فاشستية في تلك الأقطار .

٥ - الثورة النازية

وكان جاويش في فرقة المشاة البافارية السادسة عشرة راقداً في مستشفى ألماني في يوم الهدنة ، يعالج من آثار الغازات السامة التى كادت تفقده البصر . وعندما استرد عافيته ، وأبرئ من جروحه ، وأخذ يستعيد في ذهنه الأحداث التى مرت ببلاده عقب الهدنة ، شعر أن الرد على نشاط الشيوعيين الألمان ومطالب الحلفاء يجب أن يتخذ شكلاً كهذا الذى رسمه الدتشي لإيطاليا . وكان هذا الجندى البسيط ابن موظف صغير نمساوى من موظفى الجمارك . وكانت مهنته نقاشاً ومصوراً للمهارات . وكان اسمه أدولف هتلر Adolf Hitler . (وقد ولد في ٢٠ إبريل سنة ١٨٩٩) . وفتح هذا

أدولف هتلر

الشاب النكرة عينه بعد إبلاله ، فشهد وطنه الحديد صريعاً ، والحيش محطماً ، وروح الثورة تجيش في النفوس ، والديمقراطيين الاشتراكيين يقبضون على خيزرانة السلطة . قَالَى على نفسه أن يؤسس حزباً ألمانياً على غرار الحزب الفاشستي الإيطالي .

وكان هتلر رجلاً ناقماً على الحياة جاف الطباع ، قاسى القلب ، يتزع إلى الخيال ، تكاد كراهته لليهود تفقده صوابه . وكان كخطيب فياضاً ذرب اللسان ، عنيفاً إلى درجة المستيرية . ولكنه كان أيضاً عَفَّ اليد ، شديد التحمس ، يفيض قلبه زهواً بجنسه التوتوني . وكان يعرف كيف كانت ألمانيا عظيمة ممجدة قبل الحرب . وشعر بأن في وسعها العودة إلى سابق مجدها وعظمتها ، إذا ما حزمت أمرها ، وعقد أبنائها الخناصر على السعى إلى ذلك .

وكان كحارب قديم ، ينتمى إلى الطبقة الوسطى . وإذا كان متعصباً متطرفاً في تعصبه ضد اليهود ، رأى أن الديمقراطيين الاشتراكيين ، والشيوعيين ، واليهود ، والأحرار ، ليسوا بذى نفع له . وكان يسرى في حبات قلبه المبدأ الألماني الشهير بأن الدولة هي السلطان الذي يجب أن يخضع له الجميع : وهو المبدأ الذي نادى به هيجل* ومارسه بسمارك ، وبشر به ترينشكه .

إنشاء الحزب
النازي وأهدافه

وأطلق أصدقاؤه الذين كان بعضهم مثاليين متفانين ، وبعضهم الآخر من أحط الناس أخلاقاً — أطلقوا على أنفسهم اسم « الاشتراكيين الوطنيين » . وعُرفوا باسمهم المختصر « النازيين » Nazis (حوالى سنة ١٩٢٠) وطالبوا باتحاد جميع الألمان في دولة ألمانية مركزية ، وإبطال معاهدات الصلح ، وإرجاع المستعمرات الألمانية وإلغاء حقوق اليهود الانتخابية ، وتأسيس جيش وطني ، وهيمنة الدولة على الأعمال التجارية الكبيرة ، وهاجموا مبادئ المساواة والنزعة العالمية والنظام الرأسمالي .

وقد امتازوا بوطنية شديدة المغالاة ، ووطنوا النفس على أن يصلوا إلى القوة والسلطان . وقد أعانهم هذا التصميم القاطع في النهاية على الوصول إلى

هدفهم . وفي كتاب « كفاحي » Mein Kampf الذي كتبه هتلر بنفسه ، كترجمة روحية لحياته ، والذي ألف أكثر فصوله وهو ملق في السجن (١٩٢٣-١٩٢٤) ، أعلن تحدياً قوياً للجنس اليهودي والفضائل المسيحية ، فقال :

« إن الثورات الكبرى التي شبت في هذا العالم ما كانت لتقوم أو يمكن تصور قيامها ، لو أن قوتها الدافعة كانت تتركز على فضيلتي السلام والنظام - هاتين الفضيلتين اللتين كثيراً ما تشيد الطبقة الوسطى بمزاياهما . فإن هذه الثورات كانت نتيجة الأهواء الجائعة - بل أقول ، الأهواء المستيرية التي ظهرت بها في الواقع . ومع ذلك فإن عالمنا يسير صوب ثورة عظمى . وليس هناك سوى سؤال واحد هو موضع الخلاف ، وهو : هل سيكون في هذه الثورة خلاص الجنس الآري ؟ أو أنها ستكون مجرد مورد آخر من موارد الربح لليهودي الدائم الأزل ؟ إنه ينبغي للدولة الوطنية الحق أن تجعل واجباً ترقية نظام صالح لتربية شبيبتها ، بحيث يكون في وسعها أن تربي جنساً أعد لتولى شئون هذا العالم الخطيرة واتخاذ القرارات النهائية . وستكون أول أمة تسلك هذا السبيل هي الأمة الظافرة الفاتحة . وإن صفة الدولة الوطنية الحققة ، ونظم التعليم فيها ، يجب أن تدور حول الثقافة العنصرية . وينبغي أن توجه إليها أقصى العناية . فيجب أن يُنقش في الصلور معنى العنصرية والشعور الجنسي في قلوب وأذهان الذين يُعهد إليهم تهذيب الشبيبة وتثقيفها . وينبغي ألا يُسمح لصبي أو صبية أن يغادر المدرسة إلا إذا استوعب أدق المعارف عن روح نقاوة الجنس والأهمية البالغة لهذا الأمر » .

وكان من سوء طالع الجمهورية الألمانية أنها أقيمت في أحلك ساعات الهزيمة والقطوط . فقد كان الجمهوريون الألمانيون هم الذين مهرؤا صك المدينة بتوقيعاتهم . وهم أيضاً الذين وقعوا معاهدة فرساي . ومع أن جمعية فيمار التي انعقدت في ٦ فبراير سنة ١٩١٩ لوضع الدستور انتخبت بأغلبية ساحقة بواسطة الأمة الألمانية ، بحيث يكون من نافلة الكلام القول بأن الجمهورية لم تكن مظهرأ صحيحاً لإرادة أمة حرة متنبرة ، فإن الشقاء والأرزاء التي صحبت

الجمهورية
الألمانية تجابه
أعاصير موجاء

أيامها الأولى كانت أشياء لم يكن في مقدور الألمان نسيانها ، بل في نظر البعض منهم كان من الصعب اغتفارها .

وهبت الأعاصير الموحاء على الجمهورية وهي لا تزال في المهد . فقد سعى الشيوعيون والفوضويون من جهة ، والرجعيون والملكيون من جهة أخرى ، إلى قلبها . ولم يكن كلا الفريقين قوة يستهان بشأنها . فقد كان لقصة الثورة الروسية أثر عميق في نفوس أغلبية العمال في أرجاء أوروبا الوسطى ، وبنوع خاص في ألمانيا ، ولم تستطع الفظائع والمحن التي صهبت نهوض البلاشفة ووصولهم إلى السلطة أن تزعزع من أذهان العمال هذه الحقيقة الضخمة البعيدة الآثار ، وهي أنه في روسيا ، من بين جميع أمصار العالم ، أمكن للشعب أن يطرح عن كاهله نير أسياده ، وصار يحكم إمبراطورية مترامية الأطراف لخير الفقير وفائدته .

ولهذا شاعت مبادئ الشيوعية المتطرفة Spartacism بين عمال المصانع الألمانية : هذه المبادئ التي استرشدت بمذهب مقدس ، هو مذهب الماركسية ، وبكتابات تحض على الثورة ، هي المنشورات النارية لروزا لكسمبرج Rose Luxemburg . ولكن الشيوعيين برغم صخبهم وضجيجهم كانت تنقصهم الزعامة المجاهدة ، ويعوزهم التنظيم والترتيب . وفي الجهة المقابلة وقفت حكومة ما زال يمكنها الاعتماد على الموظفين المدنيين وضباط الجيش النظامي في تنفيذ أوامرها ، برغم زعزعة أحداث الحرب لسلطانها . فكان رئيس الجمهورية الألمانية : إيبيرت Ebert أكثر توفيقاً من كيرنسكى . فقد وجد بين يديه أدوات قوية ذات كفاية ومقدرة تأتمر بأمره . وامتاز من بين هذه الأدوات رجل ضليع هو نسكه Noake قائد الحرس الوطني ، الذي تمكن باتخاذ تدابير صارمة نفذت في الوقت المناسب ، من قمع الشيوعيين الفوضويين وتمكين الجمهورية من البقاء .

ولم تشعر الأمة الألمانية بعطف كبير على القيصر ولیم الثاني بعد نزوله عن العرش . فقد كان عاراً يكفي أن يفقده حب شعب امتاز بالبسالة والجلد

ذبوع المباحث
الشيوعية
المتطرفة

في الحروب أنه تخلى عن جيشه ، ولاذ بالفرار في ساعة خذلانه . ومع ذلك فإنه كانت هنالك بقية من الناس لا تزال تحتفظ في قلوبها بأحاسيس الولاء للنظم الحربية ، وللأرستقراطية ، وللإمبراطورية ، بحيث تستطيع مضايقة حكومة ألمانيا الاشتراكية التي لم تخبر قط من قبل أساليب الحكم ، والتي قبلت صلحاً ينص على نزع السلاح قسراً من ألمانيا .

وما فتنة الدكتور كاب Kapp التي اندلعت في مارس سنة ١٩٢٠ إلا مثال يوضح السهولة التي تستطيع بها حركة انقلاب جريئة أن تغتصب أزمة الحكم ، بأن تلعب على عواطف الشبيبة الحائرة القلقة في عهد جمهورية فيمار . فإن كاب هذا ، وهو ملكي ضئيل الشأن ، أمكنه أن يسيطر على برلين بعون الجنرال فون ليتتشر Von Lüttwitz قائد حاميتها . وكان يرى من وراء فتنه إلى إعادة الملكية . فانخلع قلب الحكومة وهربت إلى شتوتجارت .

غير أن جروح الحرب لم تكن قد اندملت بعد ، وكانت أرزاؤها ماثلة في الأذهان بحيث كان من المتعذر إعادة الملكية في أى شكل من الأشكال . فوقف الشعب الألماني وراء رئيس جمهوريته يشد أزره . وهُزم كاب ، لا نتيجة تقارع السيوف ، بل باستخدام الأمة السلاح الديمقراطي الفعال ، وهو قيام لإضراب عام .

ومع ذلك بقى خطر أعظم حتى من هذا . فقد ظلت شر ضغينة ، وأشدّها تأصلاً في النفوس باقية مضطربة : إذ وقفت فرنسا على رأس الحلفاء المنتصرين تلوح بمعامدة فرساي ، وتطالب بتنفيذ شروطها بمحاذيرها تنفيذاً كاملاً دقيقاً — وقفت هذا الموقف حيال الشعب الألماني الجائع ، المهك القوى ، المهبط الجناح ، الأعزل ، إلا أنه مع ذلك كان شعباً لا يزال يشعر بفعاله المحيدة وعزه الماضي ، ويحس بأن مستقبلاً باهراً ينتظره ، برغم ما نزل به من خيبة آمال ، وما حاق به من كرب .

وكان ممثل الروح الانتقامية في فرنسا هو بوانكاريه رئيس جمهوريتها من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٠ . وهو محام قدير خشن الطبع قوى الشكيمة

تشديد فرنسا

بوانكاريه

جم النشاط والدأب ، وكان أبرز شخصية سياسية في فرنسا خلال عهده الحرب وبعبدها . وقد حاجه معارضوه قائلين : إن تحول ألمانيا من إمبراطورية حربية إلى جمهورية اشتراكية يتم عن تحسن في عواطف الشعب الألماني . كما حاجت الحكومة البريطانية بأن أوروبا بأسرها ستألم ويحل بها الخسران ، لو أن ألمانيا أنهارت . غير أن هاتين الحجتين لم تحدثا أثراً في نفس هذا المحامي الصخري القلب .

وكان بوانكاريه يبغى شيئين : الحصول على تعويضات حربية ، وتأمين فرنسا . وكان يريد الحصول على التعويضات فوراً ، وتأمين فرنسا إلى مدى الأيام . وإذ لم يثق بادعاءات الألمان بقرهم ، بل اعتقد أنهم مدينون بمحاولون التهرب من التزاماتهم المالية بالتدليس وبكل حيلة غير شريفة ، صمم على إرهابهم باحتلال جزء من بلادهم . ولذلك زحفت الجند الفرنسية على أقاليم الرين ، وعسكر الجنود الزنوج في مدنه ، مما أثار سخط الألمان الشديد ، وحمل عمال مناجم الروهر على الاعتصام . فإكان من بوانكاريه إلا أن أرسل في يناير سنة ١٩٢٣ جيشاً لاحتلاله أيضاً .

وكان احتلال الروهر الذي احتجت عليه جميع الأحزاب السياسية البريطانية أحد تلك الأحداث التاريخية المشتومة التي تقوم أخطاها بنفسها . حينما يصل البلاء ذروة لا تحتمل . فقد كانت لجنة التعويضات حددت ، بتأثير فرنسا وبلجيكا ، مجموع التعويضات التي تفرض على ألمانيا بمبلغ ٦,٦٠٠ مليون جنيه . فكان من بين الأساليب التي قر رأى الألمان عليها للتخلص من دفع دين مستحيل خيالي كهذا أن يعملوا على تدهور قيمة عملتهم .

ولكن التضخم المالي سلاح غير مأمون . وهو معرض لأن يفلت زمامه من سيطرة الحكومات إذا التجئ إليه . فقد بلغت قيمة الجنيه الإنجليزي في أول يناير سنة ١٩٢٣ ، ٨٠ ألف مارك . ثم تضاعفت هذه القيمة ، حتى بلغت في أكتوبر الرقم الفلكي البالغ ١١٢ مليار مارك . فضاعفت بذلك ثروات طائلة ، وحل بالطبقات العليا والوسطى وطبقات الموظفين

أساءة التضخم
المال

والعمال قوى المرتبات والأجور النقدية الثابتة الضمنك البالغ والعسر الشديد .
ولقد لفتت صفة هذه المأساة النقدية وضخامتها أنظار العالم إليها ، وفي
الوقت عينه عملت على استفحال سوء الموقف الاقتصادى العام بين فرنسا
وألمانيا . فمن الجهة الواحدة قضى احتلال الجيش الفرنسى لحوض الروهر
على الصناعة الألمانية ، ومن الجهة الأخرى حالت المقاومة السلبية لعمال
المناجم وأصحابها - هذه المقاومة التى كانت الحكومة الألمانية تمولها - حالت
دون انتفاع فرنسا بهذه « الضمانات المنتجة » التى كانت أكبر هدف رمت
إليه من وراء ذلك الاحتلال .

الوصول إلى
تسوية

ولم يكن فى الاستطاعة استمرار هذا الصراع المرير دون نهاية . ففى
خريف ذلك العام تنازل الألمان عن مقاومتهم السلبية ، وأصلحو فى وقت
وجيز جداً عملتهم (فى أوائل صيف سنة ١٩٢٤) . ونخف الفرنسيون من
شروطهم القاسية عندما تدهور الفرنك ٥٠٪ من قيمته . فأقصوا بوانكاريه
عن رئاسة الوزارة على أثر الانتخابات العامة فى مايو سنة ١٩٢٤ ، ودعوا
هريو Herriot الزعيم الراديكالى إلى تسلم مقاليد الأمور . ثم أعيدَ المسرح
لتمثيل الفصول الثلاثة التى حسنت فى مجموعها جو أوروبا السياسى برهة
من الزمن . وهذه الفصول هى : تسوية دوز Daws سنة ١٩٢٤ ، واتفاقية
لوكارنو سنة ١٩٢٥ ، ودخول ألمانيا عصبة الأمم سنة ١٩٢٦ .

٦ - تحسن العلاقات الاقتصادية والسياسية

أحدثت الحرب انقلاباً تاماً فى العلاقات الاقتصادية بين أمريكا
وأوروبا . فقد كانت أمريكا قبل الحرب مدينة لأوروبا ، ولكنها أصبحت
بعدها دائنة لها بمبالغ طائلة لم تكن قط فى الحسبان . فكان لوزارة مالية
الولايات المتحدة فى ختام عام ١٩٢٣ (وهو عام الروهر) ديون على المالك
الأجنبية بلغ مجموعها هذا الرقم الضخم ، وقدره ٢,٣٦٠ مليون جنيه . وهو
يمثل الديون الأصلية مضافاً إليها فوائدها التى لم تُدفع . وكانت أمريكا
تداين بريطانيا بمبالغ لا تقل عن ٩٣٠ مليون جنيه . فكيف تستطيع إذن

أمريكا تصبح
دولة دائنة

حكومة واشنطن ألا تحفل بمقدرة البلدان المدينة التي تطالب بدفع مثل هذه الديون ؟ لقد أعرب المستر هيوز وزير الخارجية الأمريكية عن اهتمام بلاده بهذا الأمر بتصريحه في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٢ قائلا : « إنه يجب أن يتفق سياسة الدول على المبالغ التي تستطيع ألمانيا دفعها » . ولقد كان ما قاله حقاً . غير أنه قد ينجح الخبراء الماليون بإرشاد بعيد عن الهوى ، فيما يخفق فيه الساسة .

ومن هنا جاءت أهمية لجنة دوز التي انعقدت برياسة أمريكي ، وباقتراح تقرير لجنة دوز الحكومة الأمريكية في ١٤ يونيو سنة ١٩٢٤ ، للبحث عما تستطيع ألمانيا دفعه من التعويضات . وكانت اللجنة مكونة من خبراء عملوا في جو هادئ رصين . وكان أهم ما أوصت به : إعلان تأجيل دفع الديون ، وعقد قرض أجنبي لألمانيا ، وإنشاء بنك مركزي ، وتوصيات أخرى مماثلة لم تكن بذات أهمية نسبياً ، نظراً لأنها عُدَّت فيما بعد .

وكانت الدلالة الحقيقية لتقرير دوز هي أن الدول المنتصرة أفلحت عن الطريقة الحرقاء غير المجدية القاضية بإكراه ألمانيا بأسنة الرماح على دفع التعويضات ، وأخذت بمشروع يركز على التضافر ، ويتلاءم مع انتعاش الحالة الاقتصادية للدولة المدينة . وقبل هريو رئيس الوزارة الفرنسية في ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٤ هذه الخطوة ، وقبلت فرنسا الجلاء عن الروهر ومدن الرين التي كانت قد احتلتها كضمان للدفع .

وتميزت المرحلة الثانية من مراحل تهذبة أوروبا بميثاق لوكارنو (أول ميثاق لوكارنو ديسمبر سنة ١٩٢٥) . وقد كانت فكرة عقد ميثاق سلام يضمن حدود كل من فرنسا وألمانيا فكرة تتعارض أشد التعارض مع الأهواء الحربية التي تأثرت بها أذهان العسكريين الفرنسيين في تلك الساعة ، بحيث لاح من المتعذر تقريباً أن تكون أساساً لمعاهدة دولية . فقد رفضتها فرنسا رفضاً قاطعاً في سنة ١٩٢٢ . ولم تصدق عليها سنة ١٩٢٥ إلا نتيجة لهذه المصادفة السعيدة ، وهي أن الدول الثلاث التي يعينها الأمر أكثر من غيرها ، وهي

ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ، وجدت في ممثليها : شترسمان وبريان وأوستن تشمبرلين ساسة سديدى الرأى ، مستعدين أن يتحملوا بعض التبعات من أجل استتباب سلام أوروبا واستقراره .

واحتاج الأمر من جانب شترسمان (الملكى المبول فى دخيلة نفسه) إلى بعض الشجاعة كى يبصم معاهدة تسلم بحق فرنسا فى الألزاس واللورين ، وإلى بعض الشجاعة من جانب تشمبرلين لأنه ربط بلاده بتعهدا بمقاومة فرنسا إذا ما هى غزت ألمانيا ، ومقاومة ألمانيا إذا ما هى غزت فرنسا . كما أنه لم يكن سهلا على بريان - نظراً للأراء التى كانت غالبية على دوائر باريس السياسية وقتئذ . أن يطلق الحلم الجميل الذى هفت إليه قلوب مواطنيه ، وهو عقد تحالف دفاعى هجومى دائم مع بريطانيا ضد العدو القديم القابع عبر الرين . ولكن الأخطار ووجهت ، والمعاهدات مُهرت ، ووُضعت الحدود التى عينتها معاهدة فرساي بين فرنسا وألمانيا ، تحت ضمان بريطانيا وإيطاليا والبلجيك . وتعهد شترسمان بأن ألمانيا لن تحاول بقوة السلاح تغيير حدودها الشرقية التى رسمتها معاهدة فرساي ، حتى وإن كانت غير راضية بتلك الحدود . ووصف بريان الروح التى سادت مؤتمر لوكارنو بقوله : « لقد تفاوضنا فى لوكارنو كأوروبيين ، وهى لغة جديدة ينبغى لنا بلا نزاع تعلمها » .

وبدت الطريق بعد لوكارنو ممهدة لدخول ألمانيا عصبة الأمم . فقد تعهدت بأن تدفع التعويضات المفروضة عليها ، وقبلت حدودها الغربية الجديدة ، وأعطت كلمتها ألا تقدم على مغامرات حربية فى حدودها الشرقية . فاعتبر جميع اللذين يعنون بصلاح أوروبا واستتباب السلام فيها أنه من الأمور الطبيعية أن تُمنح كرسياً دائماً فى مجلس العصبة ، شأنها فى ذلك شأن الدول الكبرى الظافرة . فإن معاملتها على قدم المساواة مع تلك الدول كان شرطاً من شروط معاهدة فرساي .

ولكن حيل فى اللحظة الأخيرة بين دخول ألمانيا العصبة بسلسلة من

دخول ألمانيا
عصبة الأمم

الدسائس الزرية . فقد أثارت فكرة منح دولة عظمى جديدة مقعداً دائماً في مجلس العصبة غير الدول الصغرى . فتقدمت بولندا وأسبانيا ، بل البرازيل أيضاً ، إلى المطالبة بشدة بمنحها هي أيضاً كراسى دائمة في المجلس . فرفض طلب ألمانيا بواسطة صوت البرازيل ، الأمر الذى أثار سخط أوروبا . ولكن ألمانيا احتلت أخيراً مكانها في المجلس ، بأن زيد عدد الكراسى التى يتألف منها المجلس ، مما أدى إلى تقليل سلطانه ونفوذه .

ولم يكن ينتظر من هيئة تنص لاثنتها على وجوب صدور قراراتها بالإجماع التام لكى توضع موضع التنفيذ ، أن تقدم على إعادة النظر في الحدود التى عينها معاهدات الصلح . ولكن ظلامة ألمانيا الخاصة بعدم مساواتها مع الدول الأخرى في التسليح كانت تقع مباشرة في نطاق الأعمال التى في مقدور العصبة أن تسويها . فإن شرط عدم التسليح الذى فرضته معاهدة فرساي على ألمانيا ، برغم مزاياه الاقتصادية العظيمة لها ، لم تكن لتقبله أمة حربية كالأمة الألمانية عن رضا واختيار . فحقاً لها أن تطالب إما بالسلاح لها بالتسلح من جديد ، وإما أن يباشر جيرانها في جد تخفيض تسليحهم .

٧ - انتكاس الحالة

فطالبت الشبيبة الألمانية في شعور فياض إجماعى نادر المثال أن تعامل بلادهم على قدم المساواة مع الأقطار الأخرى . واحتجوا على استمرار بقاء نظام يجعلهم عاجزين قليلي الخيلة أمام طيارات البولنديين والتشكيين والفرنسيين ودباباتهم ومدفيعتهم الثقيلة . فأثيرت بذلك مشكلة جد دقيقة ومعقدة كذب الضب . وزاد من مشقة إيجاد حل لها دعاية الصحافة الألمانية العدائية ، والاعتقاد العام القائم على قرائن صحيحة بأن ألمانيا تجهز نفسها طي الحفاء بالأسلحة الحربية . وتقدمت عصبة الأمم باقتراح وضع نظام شامل متفق عليه من الجميع خاصر بنزع السلاح . ولكن تقدم هذا الاقتراح كان بطيئاً غاية البطء . فقد وضعت الدول المدججة بالسلاح العراقل في سبيله ، مما تاريخ أوروبا

تأخير نزع
السلاح

أوحى بالريية بأنها لم تكن تنوى الوصول إلى شىء جدى .

وكرت الأعوام ، ولقى شرسمان ربه سنة ١٩٢٩ ، فكانت وفاته خسارة لا تعوض على الجمهورية الألمانية . ومع ذلك بقيت معضلة نزع السلاح دون حل ، وأضعف تأخر العصبية ردحاً طويلاً من الزمن في إيجاد حل لها — أضعف مركز الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي كان يحكم وقتئذ ألمانيا ، والذي انتصر لسياسة احترام المعاهدات والوفاء بالعهود ، وكان مستعداً للبذل والتضحية في سبيل استقرار السلام الأوروبي . وظلت ألمانيا سبع سنين ، وهي تسعى إلى إرضاء جنيف ، وتعمل على كسب ثقتها ، دون أن يجدى مسعاها قليلاً .

وفي كل هذه الحقبة ، كان يخيم شعور بخاطر قيام حرب أهلية في الريخ الألماني . وكان هذا الشعور يزداد قوة باطراد . فإن ثورة عام ١٩١٩ ، وإن أنهت حكم البطانة الإمبراطورية والطبقة الأرستقراطية ، فإنها لم تصنع شيئاً لإضعاف مركز أقطاب الصناعة والمال الألمان ونفوذهم . فلم تبدُ الثلثة بين الأغنياء والفقراء أجلى وأوضح مما بدت به خلال الفترة التي تدهورت فيها قيمة المارك إلى الحضيض ، والتي أمكن في أثنائها لبعض المضاربين المحدودين أن يجمعوا ثروات ضخمة ، في وقت عمّ فيه الشقاء والتعس . ولذا لم يكن أمراً عجيباً أن تخطو الشيوعية ، التي هي وليدة الحسد واليأس ، خطى واسعة بين العمال الألمان .

خطر قيام حرب أهلية في ألمانيا

وفي الوقت عينه أملت بالجمهورية الألمانية نكبة اقتصادية قوّضت أركانها وطوّحت بها . وكان فعلها شديداً نظراً لأنها طرأت عقب نزول نوائب قاسية بألمانيا . فإن أرواء التضخم التقدي عام ١٩٢٣ عقبها خمس سنين من الرخاء الظاهري ، ازدهرت فيها الصناعات . وأسست المصارف ، وشيدت المصانع نتيجة منح ألمانيا قروضاً بلغت زهاء سبعمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات . وأعلنت موجة هوجاء من التبذير والإسراف عن ظهور طائفة جديدة من طلاب المكسب الحرام العاجل .

نكبة سنة ١٩٢٩ الاقتصادية

ولكن تلا هذه الموجة حدوث صدمة مالية عنيفة في نيويورك سنة ١٩٢٩ .

فسُحِبَت على القور الأموال الأمريكية من ألمانيا . فجر هذا الأمر أكبر النكبات على دوائر الأعمال الألمانية . فأُوصِد كثير من المصارف أبوابه ، وطردت المصانع عمالها ، وتضاءلت الدخول والأرباح . وجابهت وزارة الديمقراطيين الاشتراكيين العائرة الحظ - التي كانت قبيل ذلك قد فقدت في شترسمان أبرز رجائها - جابهت هذه المعضلة الجبارة ، وهي إيجاد عمل لقاربة ستة ملايين من العمال المتعطلين ، وضرورة موازنة الميزانية .

ففي هذه الضائقة الكبيرة التي رنّت فيها صرخات المتعطلين المريبة في جميع الآذان ، وخفقت الأعلام الشيوعية الحمراء في جميع الشوارع ، اكتسحت البلاد دعاية بارعة باهرة أخذت تفصح عن جميع ألوان السخط والاستياء التي جاشت في صدور الألمان ، وأعربت عن جميع الآمال التي ملأت صدور أمة لا زعيم لها يهديها سواء السبيل .

وكان أدلف هتلر يبدو على صفحات هذه الدعاية البارعة كمجاهد مناضل وجندى مقاتل ، والمنظّم الملهم للحزب النازي . وكانت أهدافه تطهير ألمانيا من اليهود ، وحق الشيوعية ، وبعث الشعب الألماني ، وإحياء أمجاده الحربية . وبعد أن أنفق هتلر سنة ١٩٢٣ في الوصول إلى السلطة عن طريق فتنة عسكرية ، بذل جهداً كبيراً ومقدرة فائقة في القيام بحملة دستورية . وكان خطيباً موهوباً عظيم التأثير ، يستطيع في عبارات موجزة نارية جلية أن يعبر عن أهواء مواطنيه ، الصالح منها والطالح .

وأمكن لهذا المبعوث المتساوى المغمور ، بعد حملة خطائية استغرقت أربعة عشر عاماً ، أن يذكى ناراً متأججة في نفوس بني جلدته ، وأن ييث في شعب قانط حائر روحاً قوية من الإقدام والثقة ، ونظم الإرهاب بمنتهى الجراءة . وأحرز سيطرة كاملة على رعايا الشوارع ودهماء الشعب بكتائبه المؤلفة من الطغام الإرهابيين^(١) ذوي القمصان السمراء . وتمكن من أن ينصب نفسه مستشار الريخ في يناير سنة ١٩٣٣ .

(١) ولقبهم S.R. وهو اختصار كلمتي Schutz abteilung أي « جنود الهجوم » .

وكانت الحكومة قبيل ذلك قد برح بها الضعف ، بحيث لم يكن في مقدورها أن تقمع جيوش الأحزاب المختلفة المرتدية قمصاناً من شتى الألوان ، والتي أخذت تستعرض قوتها في أرجاء البلاد ، وتهدد سلامتها وأمنها . كما كان من أكبر عوامل ضعف الحكومة أن فون باين Von Papen ، وهو نبيل ثرى كاثوليكي من نبلاء وستفاليا ملكى النزعة ، كان يؤمل إعادة الملكية عن طريق الحركة الهتلرية ، وقد أصبح مستشار الريخ في مايو سنة ١٩٣٢ ، فأمكنه أن يستحوذ على ثقة رئيس الجمهورية المارشال فون هيندنبرج الهرم الأعلى ، وأن يستأثر بتأييده لقضية النازيين ونصرتهم .

ففي الإعصار النازى العاتى الذى ثار سنة ١٩٣٣ تحطمت جمهورية فيمار التى كانت قد عانت الأمرين من هبوب العواصف الهوجاء عليها أمداً طويلاً . ولم يحزن غير القليلين من الألمان على القضاء على النظام الجمهورى الذى أخفق في جلب الرخاء إلى بلادهم ، وإثارة الأمل والرجاء في نفوسهم . فقد كان الريشتاغ أيام الجمهورية مجلساً يتألف من أعضاء حائرين شديدي الحق عديمي الخبرة . وانقسموا فرقاً وشيعاً شديدة الخلاف فيما بينها . ولم يكن من بينهم شخصيات محافظة قابلة للمران والتدريب . ولذلك لم يستطع أن يصبح أداة فعالة من أدوات الحكم . فحتى بروننغ Brüning آخر جمهورى حق من مستشارى الجمهورية ، وهو اشتراكى كاثوليكي وزعيم حزب الوسط — حتى هو أكرهه على إصدار مراسيم مستعجلة من غير أن يرجع إلى البرلمان خلال وزارته التى دامت من مارس سنة ١٩٣٠ إلى مايو سنة ١٩٣٢ .

ومع ذلك فإن جمهورية فيمار أسدت خدمات عدة لألمانيا التى راق لها الآن أن تتناساها . فقد استطاعت خلال فترة حرجة في تاريخ ألمانيا أن ترجع إلى العملة قيمتها ، وأن تحرر أرض الوطن من الجنود الأجنبية . وأدخلت ألمانيا عصبة الأمم كدولة من الدول العظمى ، وحملت الحلفاء على تخفيض التعويضات إلى رقم اسنى .

وفي عهد الجمهورية اتخذت الخطوات الأولى لاستعادة ألمانيا مكانها

بين جماعة الأمم الأوربية ، وذلك قبل أن يغتصب السلطة أدلف هتلر بمعاونة جيرنج Goering الطيار وجيبلز Goebels الداعية ، ويتحدى في جسارة وعتو القوات الأربع العظمى في الحضارة الحديثة وهي : الكاثوليك ، والبرستانت والراسماليون ، واليهود .

وقامت فلسفة الزعيم النازي المتهور السلم الطوية على وجهة النظر التي الغلطة النازية نالت تحبيذ فاجر ونيتشه وتأيدهما ، والتي بشر بها هاوستن تشمبرلين Houston Chamberlain قبيل الحرب العظمى ، وهي أن الجنس عماد كل شيء ، وأن روائع العالم المحيطة تمت جميعها على أيدي الجنس النوردي . وحاج بأن المسيح ودانتى وتوماس أكويناس كانوا بلا ريب نوردين ، وأن القوط الذين انحدروا من نفس هذا الجنس التيتونى صنعوا لتقدم الحضارة أكثر مما صنعه الرومان .

وكان أدلف هتلر من أنصار العنصرية المتطرفين . ونادى بأنه لا يصح ليهودى أن يكون مواطناً ألمانياً . وارتاب في وحى العهد القديم ، وفي صدق قصة صلب المسيح . فالعهد القديم كان في نظره مجموعة من أسفار اليهود ، أما قصة الصلب فهي مجرد رمز ديني من رموزهم . والحق أنه شقّ على مفكرى الحركة النازية التوفيق بين الأسفار المسيحية وبين نظام حكمهم الذى يسخر من مبدأ أخوة البشر . ويطرد من الجامعات الأساتذة ذوى المبادئ الحرة والمبول العالمية ، ويستأصل عامداً شأفة الحرية وروح البر والعطف الإنسانى من نظام البلاد التعليمى .

ونادى الكثير من النازيين بأن قوتان Wotan ، لا المسيح ، هو الإله الحق القيم للدين النازى (١) . ولكن كما اندمج الحزب بالدولة بطرق الإرهاب ، كذلك وُجد كثيرون ممن انضوا تحت لواء الحزب دون أن يقتبسوا تعاليمه . فلم تُمنح المسيحية كلية من البلاد الألمانية . فى الكنائس البروتستانتية

(١) « فى هذه اللحظة ، نحن الألمان الشعب الذى أعتق نفسه إلى أبعد مدى من التعاليم المسيحية » . (من خطاب ألقاه المارشال لودندورف فى عيد ميلاده السبعين ، ونشر فى جريدة التيمس فى ٩ أبريل سنة ١٩٣٥) .

والكاثوليكية على السواء احتج على رموس الأشهاد بعض ممن أوتوا الجرأة والشجاعة على ألوان الزرايات والتحفير التي لحقت بدينهم وإيمانهم .

والحق أن الثورة الداخلية التي أحدثها هتلر وحزبه الاشتراكي الوطني في ألمانيا كانت ظاهرة نفسانية فذة خارقة . وما ساعد على جعل الحكم الهتلري ممكناً ، وعمل على نشر مبادئه ، الفرع الشديد من الشيوعية ، وبغض الألمان لليهود ، ولطلاب الأرباح غير المشروعة ، والرغبة في جعل ألمانيا مرهوبة الجانب في الخارج ، والحاجة إلى إقامة حكومة أقوى وأنشط وأميل إلى الرقي من الجمهورية القائمة : حكومة تستطيع أن تنبذ معاهدات الصلح ، وتسير بألمانيا مرة أخرى في طريق المجد ، وتحلق بها في سماء المطامع . وما حدث في الفاشستية بإيطاليا ، حدث مثله في الهتلرية بألمانيا . فقد انضم الجنود القدماء أفواجا إلى الحركة النازية . ذلك أنهم بعد أن خدموا بلادهم في ساحات الوغى ، وقاسوا أحوال الخنادق ، وكابدوا شظف العيش ، شعروا بعوزهم وسوء حالهم وازدراء أثرياء الحرب من اليهود لعقب وضع الحرب أوزارها .

لهذا انتصرت
النازية

والألمان شعب نظامي مدقق . ودلالة الهتلرية أنها ، من بين جميع أشكال القومية التي ابتدعها عقل الإنسان ، أدق تلك الأشكال وأقربها إلى النظام . فهي تنادى بأنه يجب ألا تكون في الدولة طبقات ، أو تتألف فيها أحزاب أو نقابات للعالم ، أو تقوم ولايات تتمتع بحكم ذاتي — تلك الولايات التي هي من بقايا النظم الإقطاعية الألمانية القديمة . بل ينبغي أن تُنشأ دولة موحدة مركزية تتألف كلها من نازيين يرتدون قمصاناً من لون واحد ، ويحيون بعضهم بشكل واحد من التحية ، ويرددون نفس الصيغ الواحدة ، ويؤمنون بدين واحد . ويجب أن تعد هذه الدولة الألمانية المؤتمرة بأمر زعيم واحد ، بحيث تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها . فكان من الأعمال الأولى لهذا الزعيم الجديد حينما انتصر أنصاره من الدهماء في معارك الشوارع ، وأوصلوه إلى مقاليد السلطة ، أن سحب بلاده من عضوية عصبة الأمم ومؤتمر نزع السلاح (سنة ١٩٣٣) .

فيبدو في هذا التأكيد العنيف للروح والمبادئ الألمانية الكثير مما ألفه الناس من الألمان . فسياسة النازيين الأجنبية تماثل بوجه عام تلك التي ترسمتها جماعة الأمم الألمانية سابقاً . فالألمان يصبون إلى أن يشاهدوا جميع بني جلدتهم الأوربيين منضوين تحت الراية الألمانية ، وأن يظفروا بأملاك جديدة يستوطن فيها الشعب الألماني . كما أن نزعة النازيين الحربية ، وتعبدتهم أمام محراب القوة ، ورغبتهم في التوسع والاستعمار ، لم تكن بالبدع الجديدة في ألمانيا . وليس بالأمر الذي يثير دهشة دارس التاريخ الألماني أن يعرف السهولة التي أمكن بها ل هتلر أن يقلب النظم الحرة الألمانية ويقضى عليها . فإنه لم يخرج من الألمان بعد شارل ، معلم عظيم ينادى بمبادئ الحرية . وكانت الأحزاب والمبادئ الحرة في ألمانيا منذ سنة ١٨٤٨ شجرة ضعيفة لا تطرح ثمرأ .

أما الجديد في الحركة الاشتراكية الوطنية ، فهو إحلالها النظم المركزية محل النظام التعاهدي ، وتقويضها النظام القديم للخدمة المدنية الحكومية — هذا النظام الذي أتيح له أن يعمر بعد عاصفة الثورة الأولى (١٩١٨ — ١٩١٩) . وأصبحت الروح العسكرية الألمانية لا تقترن بالنظم الإمبراطورية السابقة أو بالبطقة الأرستقراطية ، بل صارت هذه الروح ثابتة قوية بصفتها عقيدة دولة ديمقراطية تسودها مبادئ المساواة . فهذا الضرب من الثورة الذي جعل فرنسا جبارة عظيمة كدولة حرية سنة ١٧٩٢ ، هو بعينه الذي جعل من ألمانيا سنة ١٩٣٥ أمة مسلحة تتغلغل في نفوس أبنائها العنجهية البروسية .

غير أن الدكتاتورية الهتلرية ، وإن ناصرت المساواة الاجتماعية ، إلا أنها لم تكن من الديمقراطية في شيء . فلم تنظر إلى المواطن كخادم الدولة فحسب ، بل كعبد المأسر . وقد استعاض في فلسفة النازيين عن المبدأ الأساسي للديمقراطية القائل بأن على الدولة أن تهدف إلى ضمان أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد — استعاض عن هذا المبدأ بالنظرية القائلة بأن غاية الفرد يجب أن ترمى إلى زيادة قوة الدولة المادية إلى أقصى حد ممكن ، وأن وظيفة المرأة الأولى هي أن تنجب للدولة رجالاً يحاربون في سبيلها ، وأن أمجد

مراى
دكتاتورية هتلر

مينة هي تلك التي يلقاها المرء في ساحة الميجاء ، وأن أسمى الفضائل هي البطولة التي تتجلى في مقارعة الأعداء ومواجهة أهوال الحرب . والحق أن أمة تبلغ من التعداد نيفاً وستين مليوناً تقبل حتى اسمياً فلسفة للحياة كهذه لتقدم الدليل على هذا النقص في اتزانها ورسالتها الذي نلاحظه يقترن بأخلاق هذه الأمة العجيبة التي جمعت بين أشد درجات الحيوية والحماس والجد ، وبين أعظم ألوان الخضوع والنظام والعواطف الجياشة .

ومات الرئيس هيندنبرج في الثاني من أغسطس سنة ١٩٣٤ . فتسلم هتلر منصب رئاسة الجمهورية محتفظاً بمنصب مستشارية الريخ . ومنحته الأمة الألمانية - متأثرة بضغط حكومي قوى - أغلبية ساحقة ، وخولت له السلطان الكامل على مصائر هذه الدولة الجماعية - وهو السلطان الذي كان غاية مطامعه . ولم تحفل الأمة بماضيه ، ولا بالسنين الأولى من الإرهاب البالغ القسوة الذي بسطه على الناس ، ولا الشك في أنه تسبب سراً في إحراق الريخستاغ (في ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣) هذا الشك الذي لم يقلل منه شيئاً محكمة بعض المتهمين ، وذلك كى ييث الخوف في نفوس مواطنيه من الشيوعيين ، « ولا حمام الدم » الذي جرى في ٣٠ يونية سنة ١٩٣٤ حينما أراق دماء زعماء حزبه القتلة الآثمين^(١) ، وأحرق جثثهم ، ومن بينهم روم Roehm الذي كان من أوائل المنضمين إلى حركته ، ولا اغتيال الدكتور دلفوس Dulfus مستشار الجمهورية النمساوية الذي حبكت بعض العصابات النازية في ميونخ مؤامرة قتله - اغتفر الشعب الألماني كل هذه الفظائع الوحشية التي تعيد إلى الأذهان ذكرى فظائع الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث ، وقنع بأن هتلر يمثل في نظره بطلا مقداماً من أبطال إحدى أوبرات فاجنر ، بطلا يمثل ألمانيا المزهرة المتحدة التي لا تترهب أحداً . وحينما أعاد دون سابق إنذار في ربيع سنة ١٩٣٥ نظام التجنيد الإجباري ، مخالفاً بذلك معاهدة فرساي ،

(١) العدد الرسمي لمن سقت دماؤهم في ذلك اليوم هو ٧٧ ، ولكن يبدو أن حوالى

١٢٠٠ شخص حل الأريخ لقوا مصرعهم يومئذ .

اهتزت الأمة كلها طرباً ونشوة .

وقد يكون هنتر نبياً ، ولكنه ليس بالرجل الإدارى . فهو على عكس نابليون وموسولنى ، نقصته هيئة الإدارة الرشيدة ، ولكن وقف خلف خطبه السحرية ، ودعايته النازية الجدد المزرية فى طرقها ، ولكنها الدعاية الشديدة الفعل فى نتائجها ، - وقف متوارين لا تراهم الأعين رجالُ الحرب والموظفون وأقطاب الصناعة يجمعون قواهم من جديد .

ومن ثم يرى أن هنالك ثلاثة أشكال من الحكومات استجدت فى القرن العشرين ، وهى : الشيوعية الروسية ، والفاشية الإيطالية ، والنازية الألمانية . وقد واجهت هذه الأشكال الثلاثة الديمقراطيتين البرلمانيتين اللتين تمتد أصول إحداهما إلى الثورة الإنجليزية عام ١٦٨٨ ، وأصول الأخرى إلى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ . وبذلك جابهت مبادئ هيجل وماركس ، فلسفات لوك وروسو .

عيوب
الديمقراطية
الفرنسية

ولم تكن هاتان الحكومتان الديمقراطيتان بكاملتين لا عيب فيهما . ففى فرنسا كانت السلطة التنفيذية أضعف مما ينبغى ، والسلطة التشريعية أقوى مما يجب ، فإن متوسط عمر الوزارة الفرنسية بين عامى ١٩١٨ و ١٩٣٤ هو ثمانية أشهر وخمسة وعشرون يوماً . ومثل هذا التقلقل لا يتلاءم والحكومة الحازمة المستقرة الأركان . وضروب الإصلاح وأنواع العلاج التى تحتاج إليها فرنسا معروفة جيد المعرفة - وهى ليست قط بالثورية ، ولكن كان أهم إصلاحين تطلع إليهما الفرنسيون وقتئذ هما : إلغاء اللجان البرلمانية التى سلبت الوزراء المسئولين وظيفتهم وأوهنت سلطتهم ، ومنح رئيس الوزراء حق حل مجلس النواب من غير ضرورة إلى تصديق مجلس الشيوخ .

ولم يكن هذان الإصلاحان سهلي المثال . فقد ينجح أشخاص أقل فطنة وسداد رأى ، حيث أخفق دومرج Doumerge الذى كان قبلُ رئيساً للجمهورية ، ثم صار رئيساً للوزارة سنة ١٩٣٤ بين تهليل الشعب واغتيابه عقب قيام الأزمة التى نجت من فضائح ستافسكى ، والتى أوهنت مركز

مجلس النواب ، وأنقصت هيئته إنقاصاً خطيراً . غير أنه من الشاق تنفيذ الإصلاحات التي تعود على الأمة بالنفع ، إذا كان تنفيذها يتطلب موافقة هيئات تتصور أن هذه الإصلاحات ستؤثر تأثيراً سيئاً في مركزها ، وتقلل سلطاتها . ولهذا السبب يمكن وضع مسألة إصلاح النظام النيابي الفرنسي في منزلة واحدة من الصعوبة مع مسألة الإصلاح المنشود لمجلس اللوردات البريطاني .

٨ - بريطانيا بعد الحرب العظمى

على حين هوى عرش إثر عرش في قارة أوروبا عقب وضع الحرب العظمى أوزارها ، زادت الملكية في بريطانيا قوة وجباً وتمكناً في النفوس . فإن البساطة غير المتكلفة والروح القوية للخدمة العامة اللتين ظهر بهما الملك جورج الخامس وقرينته الملكة ماري ، واللتين لوحظتا أيضاً في نطاق الدائرة الواسعة التي تضمها الأسرة المالكة ، كان لها أعمق الأثر في نفوس الأمة . فلا يترع الجليل الناشئ في بريطانيا إلى المبادئ الجمهورية . ولقد أبانت مظاهر الحماس الشديد والولاء الكبير اللذين أحيط بهما الملك جورج سنة ١٩٣٥ ، بمناسبة مضى خمس وعشرين سنة على تنويجه - أبانت هذه المظاهر في جلاء لكل مراقب ذكي بأن للملكية الدستورية مكاناً تستطيع أن تشغله في مجتمع ديمقراطي يقوم على أسس المساواة والعدالة .

رسوخ الملكية
البريطانية

والحكومة البرلمانية مستقرة مكيئة في بريطانيا . وقد جلبت محاولات الانتقاص من قيمتها ونفعها والمطالبة بإلغائها ، السخرية والازدراء على رؤوس القائمين بهذه المحاولات . وليس ثمة علامة أو رغبة في تنكب المبدأ البريطاني القويم بأن الوزارة هي المسئولة عن إدارة دفة شئون البلاد أمام مجلس العموم ، وهي بطريقة غير مباشرة ، مسئولة أمام هيئات الناخبين .

استقرار
الحكومة
البريطانية

صحيح أن البرلمان في هذا التعقيد المتعاضم للشئون العامة ، يمنع بعض سلطات تشريعية للمصالح الإدارية ، أو الهيئات المنشأة حديثاً بواسطة القانون ، كمصلحة ميناء لندن ، وشركة الإذاعة البريطانية ، وصحيح أن هناك

علامات تشير إلى أن هذه العملية ستزداد اتساعاً في المستقبل . ولكنه يوجد على اللوام وزير من وزراء العرش مسئول أمام البرلمان عن هذه الهيئات . ولا يسمح البرلمان بأن يوهن تحويل بعض الهيئات حصّة من سلطته التشريعية ، تركيزاً المسئولية في يده . فإننا نرى جميع الشئون الهامة القومية والإمبراطورية تعرض كل عام على أنظاره ، وتُبحث أهمّات المسائل ، وتوضع توجيهات السياسة في ساحته . فمثلاً لم يشرع قانون في كثرة بنوده ، وتشعب أحكامه ، وشدة مساسه بملايين كثيرة من البشر ، مثل ما شرّع قانون « حكومة الهند » الذي عرضه سنة ١٩٣٤ سير صمويل هور Sir Samuel Hoare وزير الهند يومئذ على البرلمان البريطاني . وإن المناقشات التي دارت في البرلمان في هذا الموضوع العسير غير المألوف لقمينة بخير تقاليد الحياة البرلمانية الإنجليزية .

نهوض حزب
العمال واعتدال
زعمائه

وقد عمل نهوض حزب العمال البريطاني على التعجيل في تضاؤل قوة حزب الأحرار : هذا الحزب الذي انقسم على نفسه سنة ١٩١٦ ، حينما أيد بعض أعضائه الوزارة الائتلافية التي شكّلت وقتئذ برئاسة المستر لويد جورج ، على حين اتخذ البعض الآخر موقف المعارضة لها بزعماء المستر أسكوت . ومع ذلك فإن ازدياد نمو حزب العمال وقوته خيَّب تنبؤات المتخوفين . ذلك أن زعماء هذا الحزب : مثل المستر رمسي مكدونالد ، والمستر آرثر هندرسن والمستر تومس ، والمستر كلايتز ، كانوا أبعد ما يكونون عن مناصرة الحركات الثورية . فع أن المستر رمسي مكدونالد كان نصيراً للسلام والهدنة ، إلا أنه كان بالفطرة محافظاً خيالياً ، وكان المستر ستودن من أنصار الراديكالية ، والمستر تومس استعمارياً شديد النزعة . ولم يميل واحد من هؤلاء القادة إلى احتذاء نهج روسيا . وحينما أشرفت البلاد سنة ١٩٣١ على الانهيار التجاري الذي جلبه عليها تبذير وزارة العمال القابضة يومئذ على زمام الأمور ، انضم هؤلاء الزعماء إلى المحافظين والأحرار في وزارة مؤتلفة قومية تعمل على معادلة الميزانية ، وإعادة الثقة والطمأنينة المالية إلى البلاد .

وبدا ثبت - عكس ما كان متظراً - أن المراتة التي يكسبها زعماء العمال

في قيادتهم حركة نقابات العمال هي إعداد حسن جداً لتقلد الوظائف العامة العليا ذات المسؤوليات الكبيرة . فقد كان لزعماء العمال خبرة سابقة وافرة بفن معاملة الأشخاص المتعبين من أنصارهم ، وخبروا المفاوضات مع أرباب الأعمال ، واختلطوا بالأجانب في مؤتمرات العمال الدولية ، وكانوا يعرفون أكثر مما يعرف معظم أعضاء مجلس العموم . كيف تعيش في الواقع غالبية أهل البلاد .

ولذلك فإن هذا الحزب برغم ما كان ينقص أعضائه نقصاً عظيماً من المعارف والثقافة ، فإنه حوى رجالاً ذوي خبرة ناضجة وكفاية كبيرة . فأدار المستر رمسي مكدونالد والمستر هندرسن وزارة الخارجية إدارة تدل على طول باعهما . وميز المستر سنودن نفسه في وزارة المالية . وكان الموظفون في السلك المدني يعملون في ولاء وإخلاص مع وزارات العمال ، ويقومون من أخطاء وزرائها الناتجة عن قلة الخبرة . ومع أن حزب العمال في وزارته القصيرة الأجل لم يكمل إلا القليل من مجيد المشروعات والقوانين ، إلا أنه علم البلاد هذه الحقيقة الواقعة ، وهي أن المقدرة السياسية ليست احتكاراً للطبقات العليا والوسطى .

٩ - أسس السياسة البريطانية

وكان من حسن طالع بريطانيا ، أنها حُكمت منذ « ثورتها المجيدة » عام ١٦٨٨ ، بطريقة أعظم فطنة وسداد رأى من أية دولة أوروبية أخرى . نعم ، ارتكبت بعض وزاراتها أخطاء ، ولكن هذه الأخطاء لم تكن قط من نوع يحفز إلى الاحتجاج العنيف والتمرد المؤيد بقوة السلاح ، أو الضار بمستقبل البلاد . وقد تحملت هذه الأمة المسألة صدمة الحرب ، ومولت حليقاتها ، وقبلت نظام التجنيد الإجباري الثقيل الوطأة المضاد لتقاليدها الطويلة الأمد ، دون أن تنبس بكلمة تبرم واحدة . وتغلبت في صبر وشجاعة على المتاعب التي واجهتها زمن السلم ، والتي كانت أخطر من وجوه عديدة من تلك التي جابهت فرنسا .

حكم بريطانيا
حكماً حسناً

فقد رجع خمسة ملايين من الرجال المدربين على الحرب إلى أعمال مدنية دون أن تُطلَقَ طلقة واحدة . وأُقلقَ وزارة لويد جورج الائتلافية اعتصابُ لرجال الشرطة ، ثم آخر لعمال السكك الحديدية ، ثم ثالث لعمال المناجم ، وجاءت هذه الاعتصابات الثلاثة متلاحقة . ولكن الوزارة أمكنها التغلب على كل اعتصاب منها . كذلك لم يفلح اعتصاب عام نشب سنة ١٩٢٦ ، ودام تسعة أيام . وقد عاجلته وزارة المستر بلدوين في حزم مقرون بالكرم والعطف . وناصرت الكثرة الكبرى للأمة الحكومة . فخفف إلى نجلتها أصحاب السيارات ، وجاء إلى معونتها اختراع الإذاعة اللاسلكية الذي كان جديداً في ذلك الحين . وكان تأمين العمال ضد البطالة هو صمام النجاة العظيم ضد القنوط واليأس ، بإبعاده شبح الجوع عن أعين العمال المتعطلين .

وكان استتباب أركان السلام في بريطانيا عقب الحرب أدعى نسبياً إلى إثارة العجب . فقد اضطرت هذه البلاد إلى إطعام ثلاثة ملايين نفس أكثر مما كانت تطعم قبل الحرب ، نتيجة للزيادة الطبيعية للسكان من ناحية ، ولوقف المهاجرة منها في غضون الحرب من ناحية أخرى . وكانت رؤوس الأموال التي استُخدمت في الصناعة أقل مما كانت قبل الحرب ، على حين زاد عدد البطون التي وجب إشباعها . وأرهق عبء مزمن من البطالة — كان أفدح كثيراً من النسبة العادية — أرهق هذا العبء ميزانية الاعتمادات المخصصة لتأمينات العمال ، وقوّى حجة أولئك الذين ابتغوا إعادة النظر في نظام حرية التجارة الذي سار بالبلاد قدماً خلال الحرب .

المدول عن
سياسة حرية
التجارة

وقُسم للمستر رمسي مكدونالد أن ينبذ بصفته رئيس الوزارة القومية سياسة حرية التجارة القاضية بعدم فرض رسوم جمركية على الواردات ، وهي السياسة التي أدخلها سير روبرت پيل سنة ١٨٤٦ ، والتي تمتعت بريطانيا خلال فترة العمل بها بحقبة من الرخاء العام لا مثيل لها في تاريخ العالم أجمع .

وتحمل الشعب البريطاني بعد الحرب دون شكوى عبثاً من الضرائب أثقل من عبء أية دولة أوربية أخرى . فإن المخصصات السنوية للدين الوطني العام

أربت وحدها على الثلاثمائة مليون جنيه . وتجي الدولة ، حتى بعد انصرام خمسة عشر عاماً على الحرب ، ضريبة قدرها أربعة شلنات وستة بنسات من كل جنيه من دخل دافعي الضرائب . ولا تدخل في ذلك الضريبة الإضافية الكبيرة المفروضة على الدخل التي تزيد على ألفي جنيه في العام .

ومع ذلك فإن من مميزات الروح الديمقراطية التي سادت هذه البلاد بعد الحرب العظمى أن مستوى الخدمات الاجتماعية ما زال أعلى من مستواها في أى بلد آخر ، وأكثر منه نفقات . ولم يعثره أى نقص خطير برغم كساد التجارة ، وفداحة الضرائب البريطانية . واجتمعت كلمة جميع الأحزاب على ضرورة العناية بتوفير أسباب الصحة والتعليم والسكنى لأفراد الأمة . فلم تُبْتَلِ أى طبقة من طبقات الشعب البريطانى منذ الحرب الماضية بمثل ما ابتلى به الألمان عند ضياع ثروات الطبقتين العليا والوسطى بسبب كارثة المارك ، أو طبقة أرباب الأملاك والممولين الفرنسيين بسبب تدهور قيمة الفرنك الفعائى . صحيح أنه حدث شقاء وتعاसे عظيمان في الجهات التي كثرت فيها البطالة في بريطانيا ، ومع ذلك فإنه إذا أخذنا أى معيار لقياس رفاهية الشعب . مثل إيرادات صناديق التوفير ، أو النفقات التي تصرف على زيارة السينما ، أو على الإجازات ، أو على السفر ، أو على أحذية صبية المدارس ، فإن هذا المعيار يدل على مجتمع لا ينقصه نقصاً فاحشاً تلك الكماليات الصغيرة التي تدخل السرور والبهجة في حياة الضجر والعناء التي يعانيها العامل .

غير أنه ذهب ذلك التفوق الاقتصادي القديم الذي تمتع أهل بريطانيا بخيراته خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن الماضي . فقد تعلمت ممالك أخرى أن تصنع لنفسها كثيراً من السلع التي تحتاج إليها ، ووضعت سياجاً من التعريفات الجمركية لحماية مصنوعاتها . وزادت الحرب العظمى كثيراً من نزعة الدول صوب الاكتفاء الذاتي من الوجهة الاقتصادية . كما أنه قلل من نطاق التجارة الدولية إضافة ستة آلاف ميل من الحدود الجديدة للممالك التي استحدثتها معاهدات الصلح ، والتي أقامت كل منها حاجزاً من التعريفات حول حدودها .

العناية بالخدمات
الاجتماعية

تطور اقتصادى
غير سليم

فكان تضخم الإنتاج والبطالة وتضاؤل حجم التجارة الدولية تضاؤلاً كبيراً . بعضاً من النتائج التي نجمت عن التطور القومي الاقتصادي غير السليم . ولم يؤدّ بلد نتيجة هذه الأمور مثل ما أوديت بريطانيا التي يتركز ثلث سكانها في مدن الثغور .

سياسة التفضيل
الإمبراطوري

فكان من الطبيعي في هذه الظروف المتبدلة أن تتحول أذهان كثير من الإنجليز إلى إمكان ترقية لون من ألوان الاكتفاء الذاتي الاقتصادي والسياسي بالتضامن مع مستعمرات الدومينيون ومستعمرات التاج . فرُسمت سياسة التفضيل الإمبراطوري في مؤتمر رؤساء وزارات الإمبراطورية الذي عقد في أتاوة عام ١٩٣٢ . غير أن المشروع الخاص بإباحة حرية التجارة داخل نطاق الإمبراطورية ، وهو مشروع أكثر جاذبية من مشروع التفضيل الإمبراطوري ، أخفق في إثارة حماس مستعمرات الدومينيون ، إذ أنها تفرض رسوماً عالية لحماية صناعاتها .

ضرورة مساهمة
بريطانيا في
شئون أوروبا

ولكن بريطانيا العظمى ، برغم العواطف القوية التي تربطها بشقي أقسام إمبراطوريتها ، يتعذر عليها أن تنفض يدها كلية من الشؤون السياسية للقارة الأوروبية ، أو أن تحصر مصالحها التجارية داخل نطاق مستعمراتها المستقلة وتلك الخاضعة للتاج . ويكفي تطور الطيران هذا التطور الكبير السريع ليقوم حجة ضد العودة إلى « سياسة العزلة المحيطة » التي كان اللورد سالسبري يحض عليها . فليست بريطانيا الآن بجزيرة . وإذا كانت مصلحة بريطانيا قبل الحرب الماضية قد فرضت عليها منع ألمانيا من اكتساح البلجيك ، أو الاستحواذ على ثغور القنال الإنجليزي ، أو السيطرة على فرنسا ، فإن منع هذه التغيرات في التوازن الأوروبي غداً الآن أمراً أعظم خطورة وأهمية لسلامتها مما كان قبلاً .

وبريطانيا ملزمة بصفحتها عضواً في عصبة الأمم ، وضامنة لميثاق لوكارنو ، وبهما غاية الأهمية حفظ السلام الأوروبي — ملزمة بأن تساهم بنصيب في رخاء ممالك أوروبا ، واستقرار الأمن والطمأنينة في ربوعها . ويستطيع دارسو الأسواق المالية والتجارية أن يتنبأوا في شيء كثير من الثقة بأنه برغم قرارات مؤتمر

أثاوة ، ستستمر تجارة بريطانيا عالمية ، وسيستمر أبنائها يتاجرون مع الأرجنتين والبرازيل والصين والولايات المتحدة ، كما يتاجرون مع الهند وكندا وأستراليا .

والعقلاء من أولى الرأى السديد فى جميع أصناف أوروبا يجمعون رأيهم على أنه تكون كارثة على العالم ، لو أن بريطانيا نفقت يدها من شئون أوروبا . وليس ذلك لأن البريطانيين محبوبون فى أقطارها ، فإن الهنات السطحية لأخلاقهم ومسلكهم المتعالى واضحة كل الوضوح لعيون الأجانب . ولكن الإنجليز ليسوا على الأقل بمكروهين فى فرنسا بدرجة الألمان فيها ، أو أنهم مبغوضون فى ألمانيا كما يبغض الفرنسيون . فإن الأوربيين يسلحون بأن هذا الشعب المتناقض ، الغرب الأطوار ، المتغابى ، ينشد السلام ، ويؤيد عصبة الأمم ، وأن بريطانيا تستطيع أن تقوم بدور من الوساطة ليس فى استطاعة دولة أوربية كبرى أخرى أن تجيد مثلها القيام به .

وإذا أتيج يوماً لأعظم المشكلات السياسية الحالية طرّاً ، ألا وهى مشكلة نزع السلاح ، أن تُحلّ حلاً موفّقاً ، فإن أكبر الفضل فى ذلك سيعود إلى الجهود المطردة للوزارات البريطانية وكبار الساسة البريطانيين الذين كانوا يقصدون جنيف من جميع فجاج الإمبراطورية ليساهموا فى وضع نظام دولى أفضل ، ومنع تكرار المنافسة القتالة التى قادت ، وكان لا مناص من أن تقود ، إلى اندلاع لظى الحروب .

ضرورة السلام
لرخاء إنجلترا

ذلك أن السلام ضرورة فى المقام الأول لجزيرة تجارية . وقد أدرك الساسة البريطانيون ، ما خلا عدداً قليلاً منهم ، هذه القاعدة الأساسية من قواعد سياسة بلادهم . وكذلك يمكن لرجال السياسة البريطانية الخارجية أن يقولوا إن لوناً من ألوان العواطف الإنسانية ، بعضها خيالى ، وبعضها مندفع لا يستند إلى رأى سديد ، ولكنها عواطف صادرة من قلوب محبة للإنسانية ، ومستمدة من التقاليد البيوريتانية التى نشأت خلال القرن السابع عشر - فى وسعهم أن يقولوا إن هذه العواطف تمتاز بعواطف خشنة تقوم على المنافع المادية الاقتصادية والسياسية فى تسيير دفة سياستهم .

فليس ثمة بلاد في أوروبا أكثر من هذه البلاد إحساساً وأشد منها عطفاً على الطوائف المهضومة الحقوق في الأقطار الأخرى ، فقد أظهرت إنجلترا في حقب شتى عطفها على طائفة الولدنيين^(١) الدينية وعلى القطلانيين والمهاجرين من الأشراف الفرنسيين ، وعلى الرقيق واليونانيين والإيطاليين والبلغار والأرمن والصربيين والبوير والبلجيكيين . ولا يحفل المثالي الإنجليزي إلا قليلاً بالريح أو الخسارة المادية في مساهمته في صوغ سياسة بلاده ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يغفل إغفالا تاماً أمر ذلك الريح ، أو تلك الخسارة .

تماظم شأن
الولايات المتحدة

وعلى الجانب المقابل من مياه الأطلنطي ، يبدى فرع آخر من فروع الجنس الأنجلوسكسوني في معاملاته العامة ، اهتماماً مماثلاً بالقضايا الإنسانية الكبرى والمكاسب الاقتصادية على السواء . وهو اتفاق في وجهتي النظر بين البلدين ستكون له نتائج ذات بال على مصائر العالم . ولهذا قبلت بريطانيا في غير تنمر ، وفي اللحظة التي بلغ تفوقها البحري أوجهه — قبلت مطلب الأمريكيين الخاص بالمساواة البحرية معها ، وهو مطلب رفضت بكل ما أوتيت من عزم وقوة ، خلال قرون عدة ، التسليم به لأية دولة أخرى . وأياً كان المصير الذي ينتظر قارة أوروبا ، فإن هدف السياسة البريطانية يرمى على الأقل إلى التمسك بأهداب السلام وصونه بين الشعبين الأنجلوسكسونيين .

استقلال إرلندا
الداخلي

ومن المعقول أن يجيش في صدر الشعب البريطاني هذا الأمل ، بعد أن تضاعف منذ سنة ١٩٢١ تضاعفاً محسوساً سبب قديم من أسباب الاحتكاك بينه وبين الشعب الأمريكي — إن لم يكن هذا السبب قد زال نهائياً . فلم يعد بعدُ خضوعُ إرلندا للنير البريطاني قذى تتأذى به عيون الأمريكيين . فبمقتضى المعاهدة التي أبرمت في ذلك العام بين بريطانيا والولايات الجنوبية الإيرلندية ، صارت إرلندا^(٢) تتمتع بمثل ما تتمتع به كندا من حرية واستقلال ذاتي .

(١) Waldenses ، ويطلق الفرنسيون على هذه الطائفة اسم Vaudois

(٢) ما خلا الولايات الست الشمالية التي تقع في الشمال الشرقي من إرلندا ، والتي رغبته في إبقاء علاقاتها مع بريطانيا .

وأصبح لا وجود لحاكم عام يترع في قلعة دبلن ، ولا لوزير بريطاني لإيرلندا ، ولا لكثائب بريطانية ترابط في أرضها .

وصار البرلمان الإيرلندي في دبلن هو الذي يجيز القوانين . والسلطة التنفيذية الإيرلندية هي التي تنفذ تلك القوانين في إيرلندا . وترفع إيرلندا علمها الخاص ، وترسل ممثليها السياسيين إلى الدول الأجنبية ، ومندوبيها إلى جنيف ، وممثليها إلى المؤتمرات الإمبراطورية . وهي تفرض مكوسها الخاصة على الواردات الأجنبية ، ومن بينها الواردات البريطانية . وفي وسعها منذ إقرار قانون وستمنستر سنة ١٩٣١ أن تسن قوانين مخالفة لتلك التي يسنها البرلمان البريطاني بل إنه حسب حكم أصدره المجلس الخاص البريطاني سنة ١٩٣٥ ، في وسع الديل (Dail كما يسمى البرلمان الإيرلندي) أن ينقض أحكام معاهدة عام ١٩٢١ نفسها - وهي المعاهدة التي خلقت دولة إيرلندا الحرة .

فلماذا كان مستر دي فاليرا De Valera الزعيم الإيرلندي الجمهوري يعارض في مركز بلاده الحاضر كما حددته تلك المعاهدة ، فإنه يفعل ذلك ، لا لينشئ جمهورية تجلب لإيرلندا قسطاً من الحرية ورغد العيش أوفر مما تستطيع الحصول عليه الآن ، بل لأنه يبغي لأسباب تتعلق بالمثل العليا ، أن يشاهد دولة إيرلندية متحدة خارجة عن دائرة الإمبراطورية البريطانية . فبعد أن كافح سنة ١٩١٦ ، ثم سنة ١٩٢١ ، في سبيل إقامة جمهورية ، لا يميل الآن إلى هجر حلمه الجميل بإقامة جمهورية إيرلندية فضلى يتكلم أبنائها اللسان الإيرلندي القديم - جمهورية لا تكثر لشئون هذا العالم المادية ، بل تعيش في عزلة غامضة واكتفاء ذاتي . ومع ذلك فلن وزارة مستر لويد جورج التي أبرمت المعاهدة الإيرلندية لم تبعد احتمال منح أنصار الجمهورية في إيرلندا الكاثوليكية مطلبهم هذا كاملاً غير منقوص .

١٠ - التجربة السوفيتية

رسوخ قدم
الحكومة
السوفيتية

لا تزال حكومة السوفييت الروسية قائمة برغم تنبؤ المتنبيين في دول غرب أوروبا في وثوق و يقين ، منذ الأيام الأولى لحكم لينين ، بزوالها العاجل . ولكن بقاءها يجب ألا يثير فينا عجباً . فإن بقاء النظام البلشفي في روسيا عائد إلى سماته المحافظة ، كما هو عائد أيضاً إلى صفاته المتدعة المستنيطة الجديدة . فقد ألّف الشعب الروسي الطغيان دهوراً طويلة . وأساليب القمع الصارمة التي تؤذي مشاعر الأحرار في الدول الغربية لا تثير سخطاً في تلك البلاد نصف الآسيوية .

الدكتاتورية
ليست بغريبة
عن روسيا

فإن حكم ستالين Stalin ، هذا الابن الفج الطباع لأسكافي من أهل ولاية جورجيا ، والذي تخرج في صفوف الجمعيات الثورية ، والذي كان أيام شبابه قاتلاً ولصاً من لصوص العصابات المسلحة التي تسلب القطارات - إن حكم ستالين ليس بأكثر عنفاً وقسوة أو أشد غلظة ووحشية من حكم ليوان المريع أو بطرس الأكبر . والبدعة الحقة في روسيا هي إقامة جمهورية برلمانية تعيش في جو من الحرية ، وتسير شؤونها بعد مجتها في مجادلات حرة طليقة . فإنه حينما ألغى لينين الجمعية التأسيسية ، لم يفعل شيئاً سوى أنه قضى على روسيا بأن تدبر ظهرها لبدع الغرب السياسية ، وتعود إلى أساليب القياصرة وأنظمتهم الاستبدادية المألوفة .

الجديد في النظام
السوفيتي

ولكن هناك أشياء في النظام السوفيتي ، لا شك في أنها جديدة . فإنه يقوم الآن في البلاد الروسية مذهب اجتماعي تنفذه دعابة واسعة النطاق ، هي سمّة من سمات هذا العصر العلمي . وتنفذه أيضاً المدافع الرشاشة والطائرات والتليفون والتلغراف والمطابع والسينما والإذاعة اللاسلكية وتسخير جميع الفنون لخدمة الدولة . فأمكن لنظام ضخم جبار قائم على الضغط الحكومي أن يمحصر في نطاق محدود مغلق مائة مليون وستين مليوناً من الأنفس ، وأن يوجب عنهم الحقائق غير المرغوب فيها . والحق أن جميع ألوان الطغيان السابقة التي دونتها

السجلات البشرية لتعد شيئاً تافهاً بالقياس إلى التجربة السوفيتية الهائلة .

مخاضة التنظيم
الاقتصادي
الروسي

وليس التنظيم الاقتصادي فكرة اختصت بها روسيا وحدها ، بل هو موجود في هذا الشكل أو ذاك في كل مشروع اشتراكي . ولكن الذي يثير الدهشة والإعجاب هو المجال الرحيب الذي نفذت فيه الحكومة السوفيتية هذا المشروع الضخم ، والمخاطر التي صادفتها والمقاومة التي تغلبت عليها ، وصنوف الشقاء التي فرضتها في قسوة بالغة على الأهلين الذين تحملوها في صبر وتجلد . فإن التنبؤ في أي عام من الأعوام عن حاجيات سكان مملكة مترامية الأطراف ممتدة الآفاق كروسيا ، هو عمل تنوء به مقدرة أعظم دول العالم خبرة ، وأوفر الناس ذكاء . وأصعب من هذا العمل الشاق هو موازنة الإنتاج بالتوزيع الاقتصادي ، لمقابلة مطالب السكان وحوائجهم . ومع ذلك فإن هاتين العمليتين الهائلتين : عملية التنبؤ وعملية الموازنة ، يقوم بهما الآن حكام روسيا الشيوعية في جميع أرجائها الرحيبة الخاضعة لسلطانهم والممتدة من حدود بولندا إلى سواحل المحيط الهادي .

حزب السيفيت

والحق أن مشهد أمة عظيمة تطبق على نفسها ضرباً جديداً من ضروب الحياة ، وتتحدى في جرأة وإقدام تقاليد الماضي وأهواءه المتجمعة - إن هذا المشهد ينجح في إثارة اهتمام الناس به ، وحج استطلاعهم لمعرفة كنهه . وتقوم الدعامة الأساسية التي تركز عليها الدولة الروسية الجديدة على حزب سياسي يتكون من مليونين أو ثلاثة ملايين من الرجال والنساء الذين اختبروا بالاقتراع ، وتبعاً لمؤهلات معينة تقوم على المعتقدات السياسية . ويظهر هذا الحزب بين آونة وأخرى من الأعضاء الذين يظهرون قصوراً في الشروط المطلوبة من حيث الثقافة والتفاني في الخدمة .

هذا هو الحزب الشيوعي الذي كرس أعضاؤه نفوسهم للعيش عيشة الزهد والفاقة والطاعة ، والذي نُظِمَّ في لجان متفاوتة الطبقات ، والذي يهيمن على معتقدات الشعب الروسي ، ويستأصل شأفة الأوهام والخرافات من عقولهم . وعن طريق الخدمة في الحزب الشيوعي قد يصل الرجل الطموح إلى المقام

الأول في مناصب الدولة . فقد يتسم منصب القوميسارية (الوزارة) ، أو قد يصل إلى منصب السكرتير العام للحزب ، ويستطيع بذلك أن ييسط سلطانه الأعلى على سياسة الدولة وشؤونها . ويقدم نظام الانتخاب الروسى الواسع المجال لكل مواطن يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً فأكثر فرصاً عديدة للخدمة العامة . ويستطيع المواطن الروسى أن يخطب ويقترح بصفته سياسياً في لجنة ، وبصفته منتجاً في لجنة أخرى ، وبصفته مستهلكاً في لجنة ثالثة . ولكن شيئاً واحداً فقط يحرم عليه ، هو أن يكون حراً في الانحراف عن العقيدة الشيوعية .

وليس في مقدور مراقب منصف أن ينكر أن للتجربة السوفيتية بعض المزايا أفضال السوفييتية والأفضال . فقد أصبح التعليم في روسيا عامّاً ، وطُهر منذ سنة ١٩٢٨ من شوائبه وشذوذه ، وأقيم على قواعد سليمة طبيعية . وتظهر الدولة عناية حكيمة بالصحة والرياضة العامة . ومع أنه ثبت أنه لا مناص من إعطاء أجور خاصة لمهرة العمال ، فإن الإحساس الضار الناتج من عدم المساواة الاجتماعية — هذا الإحساس الذى نراه شائعاً في المدن الصناعية بالأقطار الغربية — قد أزيل من النظام الحكومى الروسى ، فعاونت إزالته معاونة كبرى على التطور الطبيعى للبلاد متأخرة كروسيا — هذه البلاد التى ثابرت على تنفيذ برنامج إيجابى نشط يقوم على استخدام قواها الآتية ، وهو البرنامج الذى بدئ بتنفيذه في آخريات العهد القيصرى . وقامت مدن جديدة ، وأدخلت صناعات جديدة ، وبذلت محاولات منظمة لإدخال النظم الصناعية الأمريكية التى تقوم على الإنتاج الكبير ، من غير إدخال وإزعج الكسب الشخصى في نظام البلاد الصناعى . ولما كان العمل إجبارياً في كل مكان في روسيا ، فليس ثمة بطالة يعسر التغلب عليها^(١) .

(١) ملاحظة : رأينا أن نهمل ترجمة بعض فقرات من هذا الفصل ، لا يتجاوز مجموعها الصفحتين أو الثلاث ، يعرض فيها المؤلف آراءه في مصير الفاشية والنازية ، ويتعامل فيها حل سحجر أوروبا إلى حرب مدمرة مهلكة أخرى . فنحن نعرف الآن أن الحرب قد نشبت سنة ١٩٣٩ ، وأن الفاشية والنازية قد زالتا من الوجود ، بعد أن جرنا حل إيطاليا وألمانيا الحراب والخوان .

کتاب ممکن استشارتها

- Lord D'Abernon : The Eighteenth Decisive Battle of the World. 1931.
- Luigi Villari : Italy (Nations of the Modern World Series) 1929.
- Lord D'Abernon : An Ambassador of Peace. 1929.
- D.C. Sommervell : Reign of George V. 1935.
- J.S. Barnes : Fascism. 1931.
- H.J. Laski : Communism. 1927.
- H.J. Laski : Liberty in the Modern State. 1930.
- Rudolf Oeden : Stresemann. Tr. R.T. Clark. 1930.
- Vernon Bartlett : Nazi Germany Explained. 1933.
- H.F. Armstrong : Hitler's Reich. 1933.
- F.H. Simonds : How Europe made Peace Without America.
- Hitler : Mein Kampf. 1932.
- Sidney and Beatrice Webb : Soviet Communism. 2 vols. 1935.
- Arnold Toynbee : Survey of International Affairs.
- W. H. Chamberlain : Russia's Iron Age. 1933.

الفصل السابع والثلاثون

تذييل

والآن ، مع انقضاء نحو عشرين مليون سنة على ظهور الحياة في هذا الكوكب السيار ، لا يزال حظ الجانب الأكبر من بني الإنسان ، كما وصفه هوبز Hobbes الفيلسوف الإنجليزي « قاسياً قصير الأجل مخفواً بالمكاره » . ولا يزال من بين سكانه الألفى مليون نسمة زهاء مائة وخمسين مليوناً يعيشون على شفا الجوع والحرمان .

ولكن هذا المؤلف لا يتحدث عن هذا الشقاء الإنساني البالغ ، ولا يشغل نفسه بتلك التعاسة البشرية الشاملة ، اللذين ما زالا ينشران ألويتهما على أراضي آسيا وإفريقية وأمريكا الجنوية المسيحية المترامية ، حيث عاش ويعيش آلاف الملايين من الرجال والنساء ، بكدحون ويشقون ، ثم ينحلون إلى قبورهم دون أن يخلفوا ذكراً ، أو يسدوا خدمة للأيام المقبلة . ولكنى اجتهدت في هذه الصفحات أن أبسط في أوجز العبارات فكرة عامة عن قصة ذلك القسم من الجنس البشرى الذى هيات له المقادير في أوروبا مناخاً معتدلاً ، فازدهر أمره وترعرع شأنه ، ولم يقصر نشاطه على استعمار قارات جديدة ، بل بلغ بمجهودهاته ونضاله وآماله وأحلامه مستويات من الرفاهية ورغد العيش لم يكن يحلم البشر ببلوغها ، والاحتفاظ بها ، ونشرها في جهات المعمورة الأربع .

ولم تتمتع أوروبا في عهود حضارتها ببركات حكومة واحدة بسطت سيطرتها عليها إلا في حقبة واحدة طويلة الأمد . فإن الإمبراطورية الرومانية ،

والإمبراطورية الرومانية لا غير ، هي التي احتفظت خلال ثلاثة قرون خطيرة الشأن بكل ما هو نفيس في الحياة الأوربية . ثم حل بأوروبا خطب جسيم . ذلك أن الضرح السياسي لهذا النظام الشامخ الفخم تداعى وتقوض تحت ضربات معاول الجنس التيتونى . فهلكت الإمبراطورية الرومانية ، مخلفة وراءها إرثاً يشيد بسؤدها وعظمتها ، ويرى في روائع فرجيل وشيشرون ، وهوراس وأوغسطين وكنيسة روما ، وقواعد القانون الرومانى الشائعة الأركان . ولكن راح من البنيان الأوربى وحدته واستقرار النظام وشيوع الحرية والعواطف الإنسانية في أرجائه ، واضطرت الحضارة أن تشيد من جديد أسس صرح حياتها وسط محيط من البربرية الطاغية والجهالة السائدة ، فتقطعت الأواصر التي ربطت بين القسمين الشرق والغربى للإمبراطورية ، وانفصلت الكنيسة اليونانية عن الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية .

ولكن البابوية ، وهى أقوى المؤسسات التي أورتها الإمبراطورية لأوروبا دعائم ، وأرسخها قدماً ، عجزت عن أن تحفظ أسباب السلام بين الشعوب الجامعة الأهواء ، التزعة إلى النضال والحرب . فانتشرت فوضى جديدة في أرجاء أوروبا ، وتمزق شمل المجتمع الأوربى إلى أجزاء صغيرة ، وأخذت المدن والمقاطعات تشن الحرب بعضها على البعض الآخر أجيالاً طويلاً ، إلى أن برز بالتدريج من حاة هذه الفوضى أمم تركزت قواؤها حول عروش أسرات مالكة .

ثم نما شيئاً فشيئاً في داخل كل أمة نظام بدوى خشن من العدالة والأمن . ولكن ظلت علاقات الأمم بعضها ببعض لا ينظمها قانون ، ولا تسيطر عليها شريعة ، اللهم إلا تلك الأواصر التي أمكن للكنيسة الكاثوليكية أن تهيئها . ولكن حتى هذه المؤسسة التي كانت طوال العصور الوسطى متفرجاً عاجزاً مشلول اليد على جرائم البشر ومفاسدهم وحروبهم — حتى هذه المؤسسة أوهنت من سلطتها حركة الإصلاح ، فأضيف من ذلك الحين إلى الانشقاق الدينى بين الكنيسة اليونانية وكنيسة روما ، انقسام جديد بين البروتستانت والكاثوليك . فعقب الحروب الدينية في الغرب ، حروب الأسرات المالكة أثناء القرن

السابع عشر، والحروب الاستعمارية خلال القرن الثامن عشر. غير أنه لم يخرج من هذه المنازعات أكلا طيباً من التفاسك الأوربي، بل إنها بالأحرى وسعت للمات الانشقاق، وعمقت الهوة التي تفصل دول القارة بعضها عن البعض الآخر.

ومع ذلك لم يتأثر قط العقل الإنساني يوماً من الأيام بشكل ملموس، وفي نطاق واسع، بالأفكار الإنسانية السامية، أو بالنظرة إلى الإنسان كمواطن في أخوة عالمية، كما تأثر خلال الخمسين عاماً التي سبقت الثورة الفرنسية. فقد أخذ الناس يتساءلون وقتئذٍ: هل كتب لقارة أوروبا أن تشيد مرة أخرى بنياناً سياسياً مشتركاً لحضارة لاتينية مشتركة؟ ولكن نهوض نابليون ثم سقوطه، هياً الرد. فإنه منذ تمزق الإمبراطورية الرومانية، لم يحدث أن توحد شطر كبير من أرجاء أوروبا تحت صولجان واحد، كما توحد في عهد نابليون. ولكن هذا الاتحاد جاء متأخراً. فإن أمم أوروبا كانت قد قويت وبلغت أشدها. فقضت المقادير ألا يبسط «السلام النابليوني» عليها رواقه. فإن تحالفاً من الدول كانت بريطانيا الداعية إليه ودعامته، أطاش بآمال الفرنسيين، وحطم سيطرتهم على أوروبا. ومع أن حروب الثورة ونابليون تركت هذه القارة مضغضة القوى، فإنها تمتاز عن الحروب الأوربية الأخرى بظهور فكرة جديدة عقبا: وهي فكرة إقامة تحالف دائم من الدول العظمى ضد أي خطر يهدد أحد أصقاعها بالثورة. ثم جاءت فترة طويلة من السلام كانت نتيجة لإحياء أوروبا، أكثر من كونها نتيجة لتعلقها بأهداب الوثام. ولكن تخللت هذه الفترة حروب قومية مثيرة، جعلت من إيطاليا مملكة، ومن ألمانيا إمبراطورية.

غير أن أوروبا ظلت قلقة مضطربة، فقد أخذت تجيش في صدور الألمان مطامع السيطرة العالمية، وتملأ قلوب الفرنسيين الرغبة في الأخذ بالثأر. وأثار تقسيم إفريقيا، وتصعد أركان الإمبراطورية التركية كوامن الأطماع. وكانت القومية المكبوتة تنفث سمومها في أوصال القارة الأوربية طوال القرن التاسع عشر. فاستعرت لهب التمرد والثورة بين الإيرلنديين، والبولنديين، والتشكيين، والرومانيين، والكرواتيين، والصربيين. وعلق جومشيع بروح النضال، كفت

شرارة واحدة أن تلهب نيرانه .

وكانت مأساة الحرب العظمى هي أن النضال بين أمم أوروبا وأعلاها كعباً في المدنية ، نشب لسبب كان في مقدور نخبة قليلة من أرباب العقول الرشيدة المتزنة أن تسويه بسهولة . ولم يكن تسعة وتسعون في المائة من الأوروبيين يحفلون بسبب هذا الخلاف قليلاً أو كثيراً . ولذا فإن أهم ما يواجهه الآن السياسة السديدة الرصينة هو أن تعمل على اجتناب وقوع هذه الكارثة المروعة ، مرة أخرى ، وبخاصة لأن مركز أوروبا في العالم لم يصبح هذا الذي كان لها في العقد الثامن من القرن التاسع عشر . فقد كانت حضارة أوروبا وقوتها في تلك الأيام تبدوان قائمتين على أسس مكيئة مستقرة . فإن منتجات الاختراعات الأوروبية كانت تجد سبيلها في سهولة ويسر إلى أسواق الشرق والغرب . وكان الأوروبيون يتعاونون مقابلها من تلك الأسواق حوائجهم من الأغذية والمواد الخام الناتجة وفق قانون تزايد الغلة .

وبدا يومئذ أن ليس ثمة سبب قوى للخوف من عدم تمكن الأوروبيين من المحافظة على مستوى معيشة العمال ، بل تحسينه ، برغم ارتفاع نسبة المواليد ارتفاعاً هائلاً بينهم . فقد أخذت الأجور تزداد ، وشرعت بلدان كالمانيا كانت الحياة فيها قبلاً قاسية ، وأسباب العيش ضئيلة — شرعت هذه البلدان ترتفع في بحبوحة من العيش والرفاهية . وكانت الولايات المتحدة مفتحة الأبواب للمهاجرين الأوروبيين ، وهبات لرعوس الأموال الأوروبية سوقاً مربحة تكاد تكون لا حد لها . فكانت أمريكا بأخذها من أوروبا رجالها الفائضين ، وإرسالها إليها منتجاتها الفائضة ، جزءاً أساسياً مكملاً لرخاء العالم القديم ورغد عيشه .

ولكن الأحوال تغيرت الآن وتبدلت . فإن دول قارة أمريكا الجنوبية لم تعد تسبغ خيراتها الجزيلة على طلاب الثروة من محتاجي إيطاليا . وغدت أبواب الولايات المتحدة منذ عام ١٩٢٤ أكثر من نصف مغلقة في وجه المهاجرين الأوروبيين . وبدأ قانون تناقص الغلة يسرى مفعوله في مزارع الأقطار الغربية . ولم تعد أسرار الآلات احتكاراً أوروبياً . فإن الهند واليابان تستوردان هذه الآلات

من أوروبا ، أو تصنعها بنفسهما . ويهدد نظام الإنتاج الكبير الذى تقوم عليه صناعات الولايات المتحدة ورخص أجور العمال فى الأمم الشرقية مستوى معيشة العمال الأوروبيين . بل إن السوق البريطانية نفسها التى هى مصدر قوة بريطانيا الصناعية ، أمكن فتحها وغزوها . فإن عاملات مصانع النسيج فى لنكاشير يرتدين جوارب حريرية مصنوعة فى اليابان .

فأوروبا تدخل الآن فترة يُنتظر أن تكون المنافسة فيها أشد مما كانت فى الماضى . غير أنه ينبغي أن يُنظر إلى هذه الحقيقة الواقعة ، لا كأنها مثبطة للزمام ، بل كحافز للهيم ، داعية إلى مضاعفة الجهود . فإن العالم القديم ، وإن كانت لا تزال تعيقه ، وتشل خطاه عن التقدم ، الحروب ، وإشاعات الحروب ، والرسوم الجمركية العالية ، وتحديد حصص الاستيراد ، ومشاحنات الطبقات ، واعتصابات العمال ، وكل حماقة يمكن أن يتدعها شيطان المنافسة الاقتصادية القومية ، فإن دوله تمتاز بمجودة مصنوعاتها وإتقانها ، فينبى لها إذن أن تحرص على إجادة النوع أكثر من حرصها على زيادة الكم ، وأن تعيش وفق الذوق السليم ، والحكم السديد ، ومقتضيات الحال .

فإذا عمرت قلوب أبنائها بروح السلام ، وسادت الطمأنينة فى الخارج ، وقلت الأحقاد والاضطرابات ، وأزيلت العوائق والعراقيل التى تعيق التقدم ، فإن إجادة أوروبا لمصنوعاتها سيكون لها أثرها فى جميع أسواق العالم . ولا يمكن بغير ذلك أن يُرتجى تأمين العمال الأوروبيين على مستوى معيشتهم الحالى ، الذى وإن كان أقل بكثير مما نصبو إليه ، إلا أنه الأساس الذى ما زالت ترتكز عليه آمالنا فى تشييد حضارة سامية رفيعة .

وقد بلغت أوروبا الآن نقطة ، تبدو بشكل أجلى الآن منه فى أى زمن ماض ، أنها مفترق طريقين متضاربين أشد تضارب . فلما أن تتلرق فى الطريق الذى يقودها إلى حرب جديدة ، أو أن تتغلب على شهواتها وأهوائها وغلوها وجنونها ، وتبذل قصارى جهدها فى إقامة نظام دائم للسلام والاستقرار .

وفى كلتا الحالتين نرى الناس مدججين بالأسلحة المادية العظيمة . وتضع

آيات العلم وعجائب المخترعات تحت تصرفنا قوات هائلة ، في مقدورنا أن ننتفع منها ، كما أنه في مقدورنا أن نسيء استخدامهما ، ونبني بها أو نهدم . فبمعجزات العلم في وسعنا أن نقوض أركان الحضارة ، ونعيث في الأرض فساداً ، أو أن نبدأ فترة من الوفرة والرخاء والخيرات لم يعرف العالم لها مثيلاً في أى عصر من عصوره .

وفي الوقت عينه تركت لنا الحرب العظمى إرثاً من الشر جسيماً . ذلك أنها مزقت أواصر الاتحاد الأدبي بين شعوب أوروبا . فالوثنية النوردية تهاجم الحضارة المسيحية . وتوشك روح خبيثة من العنصرية الموحجاء الجنونية أن تمزق عرى الحضارة الأوروبية .

فاللهم هب الأجيال القادمة روحاً من لدنك ترشدها إلى معالجة القلوب الكليمة ، ورأب الصدوع القديمة ، وعوّضنا فيما نضيقه الآن من المهج ، ونبدده من بدرات الأموال ، واهدِ البشر الصراط السوى : صراط الإنسانية والاعتدال والتسامح .

الفصل الثامن والثلاثون

العالم يسير سراعاً نحو الحرب

أسباب التوتر الدولى - تقويض دعائم الأمن الجماعى - اليابان تغزو
الأراضى الصينية - قيام دولة منشوكو - حادث الصين - الحرب
الخبشية الإيطالية - عجز عصبة الأمم عن وقف العدوان - فتح
الخبشة - أهداف هتلر - انتصاراته الدبلوماسية - ضم النمسا لألمانيا -
المعاهدة الفرنسية الروسية - المعاهدة البحرية بين إنجلترا وألمانيا -
التقارب بين ألمانيا وإيطاليا - احتلال أراضى الرين - الحرب
الأهلية الألمانية - إقامة المحور - سياسة هتلر الاستعمارية -
إدماج النمسا فى الرايخ الألماني - النزاع بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا -
اتفاقية ميونخ - فشل سياسة التهدئة - احتلال ألمانيا تشيكوسلوفاكيا -
احتلال إيطاليا ألبانيا - إنشاء اتفاق ودى بلقانى - اتساع شقة الخلاف -
الاتفاق الروسى الألماني - نشوب الحرب العالمية الثانية .

١ - التوتر الدولى

لعل المرء لا يعلو الحقيقة حين يقول إن جميع الأحداث السياسية الهامة
ذات البصيرة الدولية التى حدثت خلال الفترة التى توسطت الحربين العالميتين
(١٩١٩ - ١٩٣٩) - إن هذه الأحداث جميعها تقريباً كانت نتيجة مباشرة
أو غير مباشرة للتسويات العامة التى أبرمت بين دول الحلفاء وأعدائها عقب
انتهاء الحرب العالمية الأولى . ولقد كان كثير من بقاع العالم إبان هذه الحقبة
يغلى فى مرجل من الحسد والقلق والبغضاء والتناوب والاضطراب نتيجة لما أثارته
معاهدات فرساي ، وسان جرمان ، ونويي ، وتريانون ، وسيفر ، من الحقن وخيبة
الآمل وغمرة اليأس وأسباب الانقسام والتفكك .

ولم يكن تقويض دعائم الأمن الجماعى مباحثاً أو غير متوقع . فقد استمرت عملية التفكك والتداعى طيلة هذه الفترة دون أن تبذل الدول الكبرى سوى محاولات ضئيلة مصطنعة لوقف تلك العملية .

وأخذت القوة فى العقد الرابع من هذا القرن تصبح الفصيل الأكبر فى تسوية الشئون والمنازعات الدولية ، وزاد التسلح تدريجاً فى جميع أقطار أوروبا ، وظهرت عصبية الأمم عاجزة عن فرض سلطانها على الدول الكبرى المعتدية ، واعترف أعضاؤها بأن العقوبات الأدبية هى أقصى ما يستطيعون اللجوء إليه من وسائل الضغط والقهر على الدول التى تخرق عهد العصبة ، ولا تحترم قراراتها . وأخذ الجو السياسى يتبلد بالغيوم ، ويندر بالبروق والرعود ، وانتهكت حرمة المعاهدات ومبادئ القانون الدولى دون حياء أو رادع . وما غزو اليابان لمقاطعة منشوريا ، وفتح إيطاليا لبلاد الحبشة ، إلا مثلاً صارخاً لما كان يجرى فى ذلك العقد من الزمان .

ومضت الدول الدكتاتورية قدماً توحد قواها وتضم صفوفها وتنظم هياتها . وأخذت ألمانيا وإيطاليا واليابان تتقارب تدريجاً فيما بينها ، ساعية إلى الظفر ببعض الأسلاب التى رنت بأعينها إليها ، شاعرة بأن التسويات الماضية قد حرمتها هذه الغنائم والأطاييب . ولاح لهذه الدول أنه يمكنها أن تظهر بما تشتهى بالتلويح بالقوة أو باستخدامها . وبدت لها الدول الديمقراطية شعوباً قد هربت ، وحلّ بها ضعف الشيخوخة ، ولاحت لعينها النظم الديمقراطية بطيئة فى إنجاز الإصلاحات الداخلية ، عقيمة فى الوصول إلى قرارات حاسمة . ووعد الدكتاتوريون بنى أوطانهم بأنهم سيجلبون علاجات ناجعة لمشكلاتهم الداخلية ، وحلولا شريفة عاجلة لعضلاتهم الخارجية ، وأنهم سيعملون على إقامة نظام جديد للعالم ، توزع بمقتضاه المستعمرات والمواد الخام والموارد الطبيعية بالمساواة والقسطاس بين الأمم ، وأن بلادهم ستجد العزة والكرامة والرخاء والنظام إذا ما التفت حولهم ، وانضوت تحت أعلامهم .

ولقد لقيت هذه الدعاية قلوباً واعية لدى تلك الشعوب ، نتيجة لتنظيم

هذه الدعاية على نحو فريد ونطاق رحيب ، وأظهرت الأنظمة الدكتاتورية درجة عالية من الكفاية والمقدرة والسرعة في إنجاز الأعمال ، والقضاء على أسباب الاضطراب الداخلي ، والضرب في شدة على أيدي المعارضين .

أما الدول الديمقراطية الكبرى فقد أصرت حتى اللحظة الأخيرة على إغماض عينها عن رؤية الخطر الداهم الذي يهدد سلامتها . فواصلت الولايات المتحدة سياسة العزلة ، وأبت أن تحمل على عاتقها أية مسئولية لكفالة السلام العام . واستنامت إنجلترا إلى صولة أسطولها ورفعها مقامها ، ودهاء سياستها ، فلم تبدل جهداً جدياً حاسماً لوقف الدول المهرومة كالإيطاليا واليابان ، أو الدول التي أحست بعار الهزيمة وذلة التسليم كألمانيا - لكف يدها عن البطش والعدوان . وبدأت إنجلترا مع فرنسا في الأعوام القليلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية سياسة عُرِفَت بسياسة « التهدة » ، تميزت بالحمول الذهني ، والتراخي الأدبي ، والجنح السياسي .

٢ - غزو اليابان الأراضي الصينية

كانت اليابان الدولة الجماعية الأولى التي شعرت بأنها من القوة بحيث تستطيع أن تضرب في سرعة ماضية وقوة قاهرة ضربة كبرى في سبيل التوسع والسلطان . وكانت تتميز حقناً من القيود التي فرضتها عليها سياسة الباب المفتوح في الصين ، ومعاهدة الدول التسع .

وأغرى اليابان على اختيار الصين مسرحاً لتدخلها وفرض نفوذها ، ما بدت عليه الجمهورية الصينية من ضعف شديد ، وانقسامات خطيرة بين زعمائها ، واشتعال حروب أهلية محتدمة الأوار بين كبار قوادها ، مما أنهك قواها ، وأهلك فيها الحرث والنسل . فخالها اليابان فريسة سهلة المثل ، ومجالاً فسيحاً لتحقيق أهدافها السياسية وأطماعها الاستعمارية .

وكانت مقاطعة منشوريا ذات أهمية عظمى لليابان من الناحيتين الاستراتيجية وغزومنشوريا والاقتصادية . وخشيت أن تقع هذه الولاية تحت النفوذ الشيوعي ، الأمر الذي

يهدد تهديداً خطيراً مصالحها الاقتصادية الكبيرة في تلك الجهات . وكان يحكم منشوريا قطب شبه مستقل من أقطاب العسكريين الصينيين كانت تشبه اليابان في ميوله القوية نحو الصين ، ووصله مع السوفييت .

واتفق أن كان يسيطر في مطلع العقد الرابع فريق متطرف من الحزب العسكري على الحكومة اليابانية ، ويسير دفقة شئونها . وحدث أن انفجرت على خط سكة حديد منشوريا الجنوية قنبلة أطاحت بأرواح عدد من اليابانيين ، كما اغتيل عدد آخر من اليابانيين الساكنين ببعض القرى الصينية ، واعتُدى على أملاكهم . فاعتنم الجنرال هاياشي هذه الفرصة ، وزحف في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣١ بقواته اليابانية من كوريا إلى منشوريا ، وتم له فتحها في غير عناء كبير .

ويعد كثير من المؤرخين المدققين هذا الحادث الذي يعرف « بحادث منشوريا » - يعلنونه بدءاً للحرب العالمية الثانية .

وأقام اليابانيون حكومة خاضعة لهم في تلك المقاطعة . وفي ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٢ أعلنوا منشوريا دولة مستقلة باسم مملكة منشوكو ، وأجلسوا على عرشها يوي إمبراطور الصين السابق ، وعملوا على إقصاء كل نفوذ للجمهورية الصينية عن تلك الولاية .

قيام مملكة
منشوكو

وبرغم أن هذا الغزو حدث انتهاكاً لعهد عصبة الأمم ، وخرقاً لميثاق كيلوج ، اللذين كانت اليابان إحدى الدول الموقعة عليهما ، والملزمة باحترام أحكامهما ، فقد وقفت عصبة الأمم موقف العاجز عن منع هذا العدوان ، أو إجبار المعتدي على رد غنيمته ، وحماية سلامة أراضي الصين بوصفها إحدى الدول الأعضاء بها ، وذلك وفق المادة العاشرة من عهد العصبة .

ولكى تغطي العصبة عجزها ، عينت لجنة برياسة لورد لى Lord Lytton لبحث الحالة في منشوريا . وقد قدمت هذه اللجنة تقريراً عُرض على الجمعية العمومية للعصبة في ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٣ ، وأوصت فيه بجعل منشوكو ولاية تتمتع باستقلال ذاتي تحت سيادة الصين . ولكن اليابان ضربت بهذه التسوية

ازدراء اليابان
لقرارات العصبة

عرض الحائط ، وانسحبت من عضوية عصبة الأمم ، ومضت قدماً توطد قبضتها على ذلك الإقليم الرحيب الغنى .

وازداد نفوذ الحزب العسكرى فى اليابان ، واستفحلت شوكته فى توجيه دفة البلاد ، وأقدم على اغتيال رئيس الوزراء وعدد من الوزراء الأقطاب المعروفين باعتدال النظرة . ونشط لتنفيذ برنامج ضخم من الاستعداد الاقتصادى والتسلح الحربى لغزو الصين نفسها .

ووقع فى صيف سنة ١٩٣٧ تصادم بين الجنود اليابانيين الذين كانوا -حادث الصين- يحرقون بعض المناورات ، والجنود الصينيين المرابطين على جسر ماركو پولو على مقربة من بلدة بينج . ويُعرف هذا التصادم « بحادث الصين » . ذلك أن الجيش اليابانى قام على إثره (٧ يوليو) بالزحف على الأراضى الصينية ، فى رجاء الاستحواذ على بعض مقاطعات الصين الشمالية . وبذلك طوح ببلاده فى مغامرة حرية هائلة .

والحق أن زعماء اليابان وقادتها العسكريين أخطأوا تقدير مقدرة الصين على الكفاح والجلاء والتصميم القاطع . واشتبك القطران الشرقيان فى حرب ضروس طويلة ، ما لبثت أن غدت جزءاً من الحرب العالمية الثانية .

٣ - الحرب الحبشية الإيطالية

شجع تخاذل الدول الديمقراطية أمام الغزو اليابانى لمقاطعة منشوريا ، وانتهاجها فى غير جلوى سياسة التهدئة ، وإخفاق عصبة الأمم فى محاولاتها تسوية حادث منشوريا بما يعيد الطمأنينة إلى الدول الصغيرة ، ويكفل سلامتها - شجعت هذه العوامل وغيرها بنيتو موسوليفى دكتاتور إيطاليا على الإقدام دون خشية على النزول فى حلبة الفتح والاستعمار . وامتشق الحسام فى وجه دولة صغيرة ضعيفة ، رنت أنظار الإيطاليين أمداً طويلاً إلى امتلاكها واستغلال مواردها الطبيعية .

وكانت إيطاليا قد اعترمت فى عام ١٩٣٣ الاستيلاء على الحبشة ، برغم تاريخ أوربا

اطاع إيطاليا
فى الحبشة

أن كلتا الدولتين كانت عضواً بمصبة الأمم . ووعد موسوليني أبناء جلدته ، بأنه حينما يمتحن عام ١٩٣٥ « ستصبح إيطاليا في مركز يجعل صوتها مسموعاً وحقوقها معترفاً بها » . ورأى أن الأوان قد حان لإعادة الإمبراطورية الرومانية ذات المجد التليد والسلطان الواسع . وبدت له الحبشة التي اعترضت الطريق بين المستعمرتين الإيطاليتين : ليبيا والصومال ، والتي كان يذاع عنها وفرة مواردها الطبيعية وضعف قوتها الحربية — بدت له لقمة سهلة سائقة يمكن أن يبدأ منها تحقيق آماله العريضة وأحلامه الضخمة . واستطاع أن يقنع في أوائل سنة ١٩٣٥ ببيير لافال رئيس الوزارة الفرنسية بالموافقة على هذا الفتح .

وأرسل موسوليني قوات ومعدات حربية هائلة ، وزحفت كتابته في أكتوبر سنة ١٩٣٥ على تلك البلاد البدوية الضعيفة . وكانت نتيجة القتال أمراً مفروغاً منه ، اللهم إلا إذا تدخلت عصبة الأمم للحيلولة دون هذا العدوان . واستصرخ النجاشي هيلاسلاسي العصبة بأن تمدّ له يد الغوث ، بعد أن تعرضت بلاده لفتك جميع المعدات الحربية للدولة أوربية من الدرجة الأولى في المصفحات والطائرات والغازات السامة .

وبعد مناقشات طويلة ونخبط مملّة ، أعلنت العصبة في أكتوبر أن إيطاليا دولة معتدية . وقررت في الشهر التالي توقيع « العقوبات » الاقتصادية التي يفرضها عهد العصبة في مثل هذه الحالة على الدول المعتدية . فطالبت من الدول الأعضاء أن تمتنع عن مدها بالسلح والمال ، وفرضت الحصار البحري عليها . بيد أن إيطاليا كانت تملك من الأسلحة والمواد — ما عدا البترول — ما يكفيها للإجهاز على فريستها . ورفضت أغلبية الدول الأعضاء أن تدخل في قائمة المواد المحظورة الحديد والصلب والقصدير وزيت البترول : الأمر الذي جعل من « العقوبات » الاقتصادية مهزلة كبرى ، وأضعف إلى مدى بعيد نفوذ العصبة الأدبي وسلطانها القانوني . هذا في حين أنه كان يُقصد في الحقيقة من وراء تطبيق المادة السادسة عشرة من عهد العصبة ، أن يكون قطع العلاقات التجارية والمالية مع الدولة المعتدية خطوة تمهيدية لعمل حربي حاسم تقوم به جميع الدول الأعضاء .

مجزعصة
الأمم من وقف
العدوان

وما وافى شهر مارس سنة ١٩٣٦ حتى كان الإيطاليون قد قضوا على كل مقاومة حرية جديّة من جانب الحبشة ، ودخلوا أديس أبابا فاتحين . وأكره هيلسلاسى على الفرار فى أوائل مايو . وانتشى الدوتشى بنجمة النصر بعد أن تحدى ثلاثاً وخمسين دولة ، وأعلن فى ٩ مايو ضم الحبشة كلها إلى إيطاليا ، ونادى بالملك فكتور عمانوئيل الثالث إمبراطوراً على الحبشة . وأظهرت بريطانيا وفرنسا أن كلتئهما تؤثر سياسة الهدنة الملتوية . وما لبثت العصبة أن أقرت جهازاً بمعجزها ، ورفضت العقوبات الاقتصادية عن إيطاليا فى منتصف عام ١٩٣٧ .

٤ - انتصارات هتلر الدبلوماسية

كان هتلر يرى إلى أهداف رئيسية ثلاثة ، هى : توحيد جميع الشعوب الألمانية فى دولة واحدة ، وسيطرة ألمانيا على أوروبا الوسطى والطريق إلى الشرق الأوسط ، وإقامة دولة جماعية كبرى تكون بمثابة حد حاجز دون طغيان الشيوعية على أوروبا .

والحق أن هتلر كان يضرب ضرباته السياسية فى حلق وجسارة فائقين ، جاءه بانتصارات سريعة عاجلة ، وبوآه مركزاً من السلطة والثفوذ لم يبلغها عاهل ألماني منذ عهد شارل الخامس . فقد تمكن بسلسلة من المناورات السياسية الباهرة والمغامرات الجريئة أن ييسط سلطانه على دولة ألمانية حقاً ، لا على أشتات من الممالك والمقاطعات والمدن الحرة . والتبف السواد الأعظم من الأمة الألمانية فى حماس بالغ ووطنية مشوبة يقفون من ورائه صفّاً مرصوصاً ، شعارهم : « أمة واحدة ، وحكومة واحدة ، وزعيم واحد » .

ولقد انتهجت كل من فرنسا وإنجلترا منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى سياسات متضاربة ، وظهر الخلاف بينهما جلياً فى مناسبات عديدة . وكان هتلر يعرف ذلك . فاستغل الانشقاق بين اللولتين الديمقراطيتين الكبيرتين أبداع استغلال . واتبع سياسة ، ظاهرها يدل على المغامرة والشطط ، ولكنها قامت فى الواقع على إلمام حسن بمجريات الأمور ، وحذق كبير لأفانين السياسة .

ضم ألمانيا
الساار

وما جاء عام ١٩٣٥ ، حتى شعر أنه من القوة ، وأحسن من الثقة بضعف بريطانيا وفرنسا وتفرق كلمتهما ، بحيث وقف منهما وقفة الواثق بقوته ، المطمئن إلى نتيجة سياسته . ففي يناير سنة ١٩٣٥ أُجِري استفتاء تحت إشراف عصبة الأمم في مقاطعة الساار طبقاً لمعاهدة فرساي ، جاءت نتيجته في صالح ألمانيا ، ذلك أن ٩٠٪ من أهل تلك المقاطعة أعلنوا رغبتهم في العودة إلى أحضان الوطن الألماني .

العودة إلى
الصلح

وأعاد هتلر جهاراً في مارس سنة ١٩٣٥ نظام التجنيد الإجباري العام ، وأنشأ قوة جوية ، وأقام المصانع الكبيرة لإنتاج الأسلحة والطائرات الحربية على نطاق كبير . برغم مخالفة هذه الأمور لأحكام معاهدة فرساي .

تحالف فرنسا
وروسيا

ولم تَرَ بريطانيا في هذه الإجراءات ما يثير قلقها ، مما باعد كثيراً بينها وبين فرنسا . فرأت الأخيرة أن تنجس نحو روسيا ، وسعت إلى توثيق صلاتها السياسية مع الجمهورية السوفيتية . وفي ٢ مايو سنة ١٩٣٥ أبرمت بين الجمهوريتين معاهدة كانت في صميمها تحالفاً حريياً ، ولو أنها اتخذت في ظاهرها صيغة ضمان متبادل يدخل في نطاق عهد عصبة الأمم .

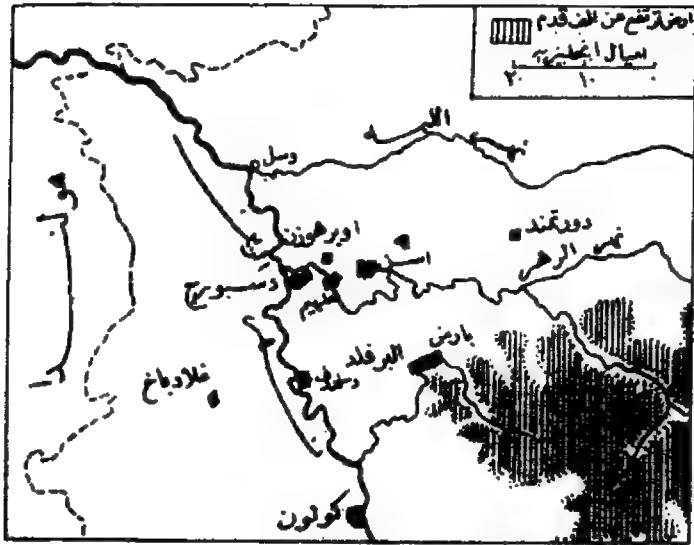
المعاهدة البحرية
الإنجليزية
الألمانية

فرد هتلر على هذه الاتفاقية بازدياد التقرب من إنجلترا . وأفلح في أن يعقد معها معاهدة بحرية في يونية سنة ١٩٣٥ ، وافقت فيها إنجلترا على أن يحرق هتلر أحكام معاهدة فرساي الخاصة بتحديد قوة ألمانيا البحرية تحديداً صارماً ، مقابل اعترافه بتفوق القوات البحرية البريطانية . فقد رضيت بأن يحدد الأسطول الألماني الذي انتوى الفوهرر بناءه بـ ٣٥٪ من مجموع حولة الأسطول البريطاني ، وتساھلت تساهلاً سخيّاً في عدد وحولة الغواصات التي يمكن لألمانيا بناؤها .

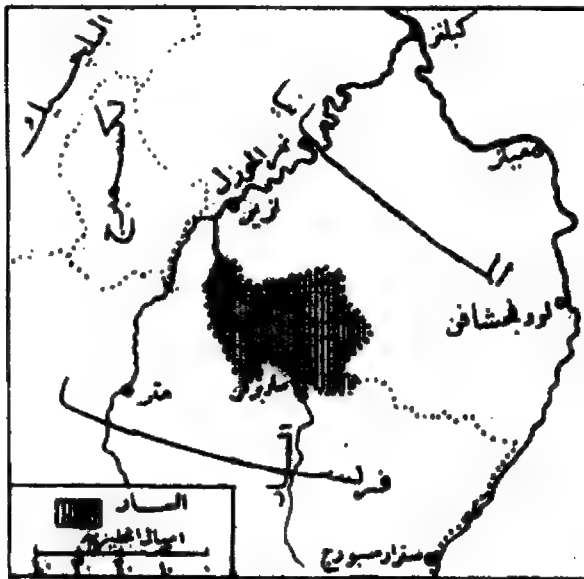
التقارب بين
إيطاليا وألمانيا

وكان هتلر يرى من وراء هذه المعاهدة إلى فصل بريطانيا عن دائرة الحلف الفرنسي - الروسي . وبذلك شرعت الدول الأوروبية العظمى تعيد من جديد تمثيل الألعوبة القديمة للتوازن الدولي على مسرح السياسة الأوروبية .

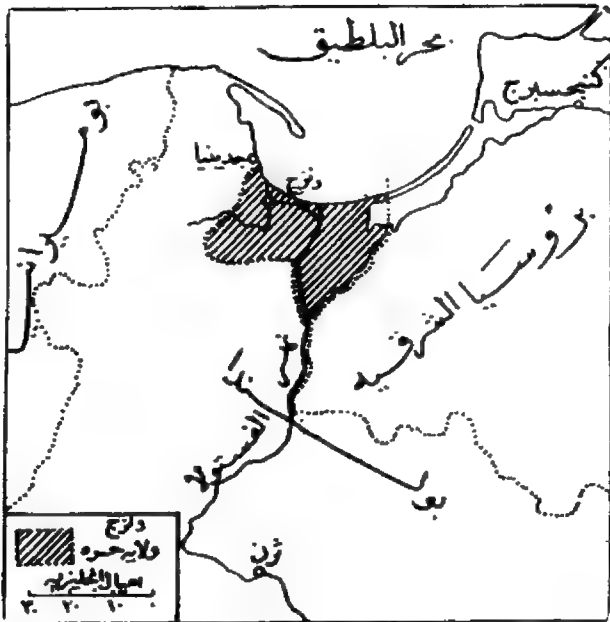
وانتهز هتلر فرصة حرج مركز إيطاليا الدولي خلال الحرب الحبشية ، فأيد موسوليني تأييداً قوياً في تحديه قرارات العصبة ، وإعلانه ازدراءه شأنها ، وعدم



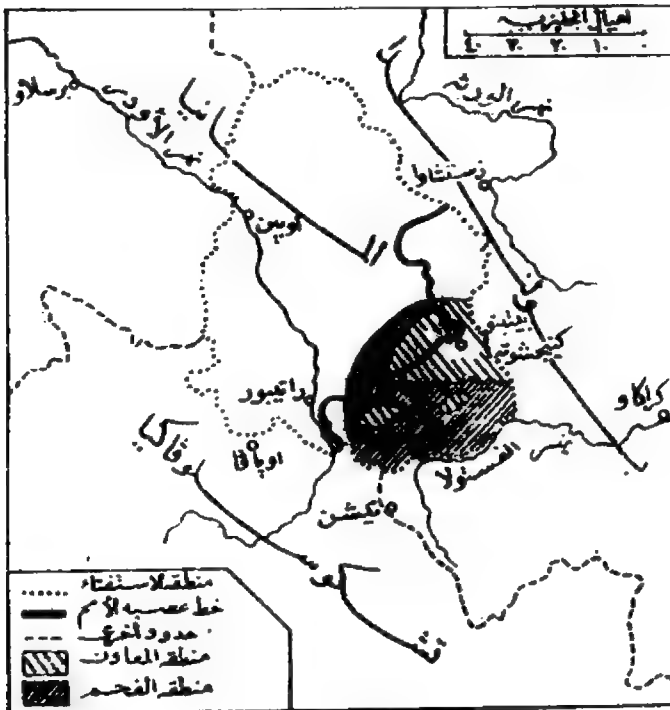
خريطة السمر



خريطة السمار



دنيبر والسر البولندي



خريطة سيليزيا

حظه بالتزامات المعاهدات والقانون الدولي إذا ما تعارضت هذه الالتزامات مع مصالح بلديهما . فضمن بذلك لنفسه ودّ زميله الإيطالي واعترافه بالجميل .

احتلال أراضي
الرين

وأدرك هتلر أن فرنسا لن تحمل السلاح بمفردها ضد ألمانيا ، إذا هي أقدمت على احتلال أراضي الرين وإعادة تحصينها ، فأعلن في ٧ مارس سنة ١٩٣٦ في خطبة قوية العبارات أنه يعترم تحصين تلك البقعة ، وكانت منطقة قد جردت من السلاح وفق معاهدة فرساي . وفي ليلة ذلك اليوم عينه دخلت جنوده تلك المنطقة ، ناقضاً بذلك معاهدة لوكارنو التي كان قد وعد قبيل ذلك بأنه يتوى احترام أحكامها . ودافع عن عمله بأن المعاهدة الفرنسية - الروسية هي في روحها ونصها انتهاك لميثاق لوكارنو . ورغم أن إنجلترا أعلنت على لسان وزير خارجيتها في خطبة ألقاها في ٢٦ مارس سنة ١٩٣٦ بأنها لن تردّد في خوض غمار الحرب إذا هاجمت ألمانيا فرنسا أو بلاده ، فقد حرز هتلر في حذس صادق أن إنجلترا زاهدة في تأييد فرنسا بالقوة ضد ألمانيا نتيجة لعدوانه الجديد . وأخذت الآن إيطاليا وألمانيا تدنوان سراعاً إحداهما من الأخرى ، يوحد بينهما مصالحهما المشتركة ، وضغط خصومهما عليهما . وحدث في صيف سنة ١٩٣٦ حادث جلل وثق عرى التفاهم بينهما ، وزادهما تقارباً واتحاداً . ذلك أنه اندلعت في إسبانيا في يولية سنة ١٩٣٦ نيران حرب أهلية تكاد تكون منقطعة النظير في شدة ضراوتها وفتكها وتدميرها .

ولنرجع القهقري قليلاً . فلقد كان الشعب الإسباني يئن متوجعاً مكتوم الأنفاس من نير ملكية جائرة وديكتاتورية عسكرية طاغية تمثلتا في شخصي الملك ألفونسو الثالث عشر والجنرال بريمو دي ريشيرا كبير الوزراء . ومع أن دي ريشيرا كان مقتلاً عفيف اليد ، إلا أنه لم يستطع أن يكسب حب مواطنيه . وأخيراً استقال في يناير سنة ١٩٣٠ ، خائب الأمل معتل الصحة .

ويمكن الجمهوريون الأسبان من الظفر بأغلبية ساحقة في الانتخابات المحلية التي جرت في أبريل سنة ١٩٣١ . فهدد زعيمهم زامورا Zamora بإضرام فتنة عامة ، إن لم يتزل الملك ألفونسو على الفور عن العرش . فانخلع قلب الملك ،

الحرب الأسبانية
الأهلية

ولاذ بالفرار من البلاد ، وإن لم يتنازل رسمياً عن الملك ، بل « أوقف استعمال سلطانه الملكية » .

فبادر زامورا على الأثر إلى تأليف حكومة مؤقتة أجرت انتخابات عامة في يونيو سنة ١٩٣١ جاءت بنتائج مؤيدة للجمهوريين . وأعلن البرلمان الأسباني في ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ إقامة الجمهورية الأسبانية الثانية ، و عمل على إقرار تغييرات اقتصادية ودينية شاملة . ولكن بقيت الأمور على حالها من القلق وعدم الاستقرار . وتعددت الوزارات خلال الأعوام الأربعة التالية . وحاولت كل وزارة أن تفرض سياسة لإصلاحية في ملكية الأرض ، ولحد من نفوذ الكنيسة ، وتطبيق لون من الإشراف الحكوى على الصناعة ، وإن لم يبلغ هذا اللون من الإشراف درجة تأميم المصانع .

وقابلت العناصر الأسبانية المحافظة هذه الإصلاحات بالسخط . وتفاقم النزاع بينها وبين الطوائف الراديكالية . وأجرى سنة ١٩٣٦ انتخاب عام جاء بأغلبية ضئيلة في صف الحكومة الشعبية . فاضطربت على الأثر الفتن وكثرت الاضطرابات . وتشجع « الوطنيون » ، يشد أزهم كبار ضباط الجيش وملوك الأرض والكنيسة ، فقاموا بحركة انقلاب بغية انتزاع الحكم من أيدي الجمهوريين المعتدلين .

وما انقضى زمن وجيز حتى وصل صدى هذه الحركات إلى بلاد المغرب الإسبانية . فشق الجنرال فرانكو Franco الذى كان على رأس القوات الأسبانية المرباطة بها — شق عصا الطاعة على الحكومة في ١٨ يولية . وسرعان ما امتدت لهب هذا التمرد إلى أسبانيا نفسها ، فشبت حرب أهلية لا مثل لها في وحشيتها وويلاتها بين أنصار الملكية والكنيسة وملوك الأرض وأصحاب المهن الحرة من جانب ، والأحرار والاشتراكيين والشيوعيين والفوضويين والوطنيين من أهل مقاطعة الباسك (وكانت حكومة الجمهورية قد وعدتهم بمنح مقاطعتهم الاستقلال الذاتى) من الجانب الآخر .

ورأت ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية أن الفرصة مواتية لها لإلحاق الهزيمة بدعاة الاشتراكية ومريدى الديمقراطية . فأمدتا فرانكو بالرجال والطائرات .

وحصل أنصار الجمهورية على بعض العون العسكرى من روسيا . ووقفت الحكومتان البريطانية والفرنسية موقفاً غامضاً متردداً ، خشية أن يؤدي تدخلهما إلى اتساع شقة هذا الصراع الدموى الهائل ، فيمتد إلى أوروبا بأسرها .

وواصلت الحكومة الجمهورية الأسبانية النضال دون هوادة . غير أن المساعدات الحربية الكبيرة التى قدمتها ألمانيا وإيطاليا للجنرال فرانكو جعلت انتصاره أمراً مؤكداً . واضطرت مدريد إلى التسليم فى ٣٠ مارس سنة ١٩٣٩ بعد حرب مريرة هلك فيها نحو مليون من الأنفس ، ودُمّرت الكثير من نفائس أسبانيا وثروتها . وأقام فرانكو حكومة دكتاتورية ما زالت متربعة فى دست الحكم إلى اليوم .

٥ - ضم النمسا وتشيكوسلوفاكيا

كان هتلر بطبيعته عدواً للوداء الشيوعية ، فأصلى الشيوعيين الألمان حرباً قاسية ، وسلط عليهم عذاباً أليماً . ورأى فى اليابان العسكرية وإيطاليا الفاشستية حليفين طبيعيتين . فوثق علاقاته السياسية بهما . وفى خريف سنة ١٩٣٦ أمضت اليابان وألمانيا ميثاقاً ضد الشيوعية . ثم انضمت إيطاليا إلى هذا الميثاق : فقد زار موسوليني فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٣٧ ألمانيا ، حيث أعلن الزعيمان وسط مظاهر الحماس الشديد إقامة محور برلين - رومة ، بوصفه تحالفاً سياسياً ذا أهمية لا تقدر « لنجور أوروبا وحفظ السلام فى ربوعها » . وما انقضى زمن طويل حتى أفلح هتلر فى عقد حلف كبير معاد للشيوعية ينتظم ألمانيا واليابان وإيطاليا وأسبانيا وهنغاريا .

وأشعرتة محالفاته الجديدة بالأمان ، وملأت قواته الحربية الجديدة نفسه بالثقة ، وشجعه تقاعس حكومتى فرنسا وبريطانيا ، وتدهور الروح المعنوية فى شعبيهما ، وعزلة الحكومة السوفيتية ، - شجعتة هذه العوامل على الشروع فى تحقيق سياسات كبيرة الأطلماع من التوسيع الإقليمى .

وكان هتلر كبسمارك - يعارض فى بده تسنمه مركزه الرفيع أى توسع

استعماري . وكان يرى أن على ألمانيا أن توجه أنظارها صوب الأراضي الواقعة على تخومها الشرقية ، مؤثراً أن يكون هذا التوسع على حساب روسيا في أوكرانيا . وعنى عناية خاصة بأن تكون علاقاته ودية ببريطانيا ، وتاق إلى تعزيز المعاهدة البحرية التي عقدها معها سنة ١٩٣٥ . ذلك أنه برغم اعتزازه بقوة الريخ الثالث الذي أقامه ، وبطش الجحافل الألمانية التي أبدع تدريبها ، فإنه كان يخشى أن يثير غضب تلك الدولة إذا ما تعارضت سياسته مع مصالحها الاستعمارية الكبيرة .

ولكنه أكره في نهاية الأمر - كما أكره بسمارك من قبله - تحت ضغط الرأي العام الألماني ، أن يطرح وراء ظهره هذه السياسة ، وأن يطالب بإرجاع المستعمرات الألمانية السابقة ، وكان أكرها قد وقع غنيمه في أيدي بريطانيا عقب الحرب العالمية الأولى . فانطوت هذه المطالبة على أكثر من تلميح لإنجلترا بما وصل إليه مركزها الدولي من تدهور نتيجة لضغطها العسكري .

إنجلترا تبدأ
استعدادها
الحربي

فعادت الحكومة البريطانية إلى سياسة توثيق تحالفها مع فرنسا ، بعد أن أشرف هذا التحالف على التداخي والانهيار . وقدم نفل تشيمبرلين رئيس الوزارة في ١٧ فبراير سنة ١٩٣٧ إلى مجلس العموم طلباً برصد أربعمائة مليون جنيه تنفق في سنة واحدة على إعادة تسليح بريطانيا ، على أن يزداد هذا المبلغ إلى ألف مليون وخمسمائة مليون جنيه تنفق على التسليح في بحر خمسة أعوام .

وفي العام التالي ، أعلن أن إنجلترا قد أخذت على عاتقها الدفاع بقوة السلاح لا عن فرنسا وبلجيكا فحسب ، إذا ما وُجّه ضدّها اعتداء خارجي ، بل إن هذا التعهد يمتد إلى البرتغال ومستعمراتها ، وإلى مصر والعراق أيضاً .

وصرح نفل تشيمبرلين في خطاب آخر ألقاه في ختام فبراير سنة ١٩٣٨ « بأن عصبة الأمم ، كما تتألف اليوم ، عاجزة عن تدبير الضمان الجماعي لأي عضو من أعضائها لذلك ينبغي ألا نخدع الأمم الصغيرة الضعيفة في الاعتقاد بأن عصبة الأمم تستطيع أن تحميها من الاعتداء » .

إدماج النمسا
في الرايخ

ولم تمض أسابيع ثلاثة على إلقاء هذا البيان حتى تجلّى صدقه . فقد كان أمراً طبعياً أن يبدأ هتلر بتنفيذ برنامجه في التوسع بضم النمسا إلى الرايخ الألماني الثالث . فقد كانت النمسا بلداً تتألف غالبية أهلها من الجنس الجرمانى . وكانت دولة صغيرة ، لا حول لها ولا قوة . وكانت تحتل مركزاً استراتيجياً هاماً في طريق ألمانيا إلى كل من إيطاليا وتشكوسلوفاكيا . لذلك قرأه في أواخر سنة ١٩٣٧ على العمل على إدماجها بألمانيا ، وإرجاع نحو عشرة ملايين ألماني يقطنون عبر الحدود إلى حظيرة الوطن الأكبر .

وفي ١٢ مارس سنة ١٩٣٨ ضرب هتلر ضربته . فقد أنفذ قواته المسلحة إلى النمسا ، في نفس الوقت الذي عمل فيه طابور خامس على السيطرة على قوات الجيش والبوليس النمساوية . وبعد يومين أعلن هتلر رسمياً اتحاد النمسا بألمانيا . وبذلك تمكن ، من دون أن يطلق رصاصة واحدة ، من ضم سبعة ملايين نسمة إلى الرايخ ، وجعل ممر برنر حداثاً فاصلاً بينه وبين إيطاليا ، وتطويق جناح تشكوسلوفاكيا ، وإقامة حاجز فعال بين روسيا وفرنسا .

بين ألمانيا
وتشكوسلوفاكيا

وقبل أن تفيق الدول الديمقراطية من وقع هذه الضربة ، كان هتلر قد أعد العدة لتوجيه ضربته التالية . وكانت غنيمة في هذه المرة أثمن وأدمم . ذلك أن تشكوسلوفاكيا كانت بلداً غنية بصناعاتها ومواردها الخام . ووقفت حائلاً دون وصول الألمان وادي الدانوب . وملك جيشاً وأسطولاً جويّاً قويين . فتطلع هتلر إلى الاستحواذ على معدّتها الكبيرة . وكان في الدولة التشكوسلوفاكية نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون من الألمان يقطنون مقاطعتي بوهيميا ومورافيا على طول تخوم ألمانيا الجنوبية . وكانوا قد ضموا إلى تشكوسلوفاكيا بمقتضى معاهدة فرساي . وكان يطلق عليهم اسم « السوديت » . وكانوا على بكرة أبيهم تقريباً يتلهفون إلى الانضمام إلى الوطن الأم . وإن رامت العناصر المعتدلة بينهم أن يتم هذا الانضمام دون إراقة دماء .

واستخدم الألمان جميع وسائل الدعاية في حرض السوديت على المطالبة بالاتحاد مع إخوانهم الألمان في ألمانيا . وأخذ هتلر يرسل بروقه وعوده إلى التشك

التصماء مهدداً منذراً ، في حين انتهج سياسة الوعيد تارة والملاينة تارة أخرى مع فرنسا وبريطانيا .

ولقد أفلحت أساليبه أيما إفلاح . فقد اندلعت في يولية سنة ١٩٣٨ الفتن في بلاد السودان ، وهددوا جهاراً بالانفصال ، وثارت المشاجرات في داخل البرلمان التشكوسلوفاكى .

ورأت الحكومة البريطانية أن تسعى إلى التخفيف من حدة النزاع . فبعثت في أوائل أغسطس بلورد رنصيمان Runciman أحد وزرائها ، بوصفه « مجرد وسيط شخصى » ، كى يساعد الفريقين على إيجاد حل لتسوية الخلاف . غير أن هنلاين Henlein زعيم السوديت قطع مفاوضاته مع الدكتور بنيش رئيس الجمهورية ولورد رنصيمان . وحدثت في ليلة ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٨ مصادمات دموية بين البوليس التشكوسلوفاكى والثوار السوديت في عدد من المدن السوديتية . فكان لذلك أسوأ وقع في ألمانيا ، وارتفعت الصيحات مطالبة بالتأثر للدم الألمانى الذى أُهريق خلال قمع هذه الاضطرابات . وفي هذه اللحظة الدقيقة تدخل نقل تشيمبرلين على نحو مثير . فقد طار في الخامس عشر من سبتمبر إلى برختسجادن Berchtesgaden الملاذ الجبلى هتلر . فصرح له الزعيم الألمانى بأنه « ليس ثمة شيء في مقدور المرء أن يصنعه للحيلولة دون غزو تشكوسلوفاكيا ، ما لم يمنح السوديت حق تقرير مصيرهم ، وما لم يُمنحوا هذا الحق على وجه السرعة » .

فقدمت بريطانيا وفرنسا في ١٩ سبتمبر مذكرة مشتركة إلى الحكومة التشكوسلوفاكية تشيران فيها عليها بالمبادرة إلى التنازل لألمانيا عن أى أراض يقطنها أكثر من ٥٠ ٪ من السوديت . وبعد أربعة أيام بعثت ألمانيا بمذكرة تضمنت ضرورة تقديم الحكومة التشكوسلوفاكية منحا أكثر . وفي ٢٦ سبتمبر ألقى هتلر خطاباً أعرب فيه عن عدم ثقته بالمرء في إخلاص الحكومة التشكوسلوفاكية . فرد عليه الدكتور بنيش بأن بلاده لن ترضخ للتهديد ، وأنها سوف تقاوم القوة بالقوة .

وكان نفل تشيمبرلين يروم تجنب الحرب ، أو على الأقل كسب الوقت الذى يمكن لبلاده فيه أن تستكمل استعدادها الحربى . فتقدم هتلر بضمآن الحكومة البريطانية لنقل الأراضي السوديتية التى يشب الاستفتاء أنه تقطعها أكثرية ألمانية إلى الرين . واقترح عليه عقد مؤتمر من الدول العظمى الأربع فى ميونخ . فوافق هتلر على هذا الاقتراح ، كما وافق عليه أيضاً موسولنى .

وحجج إلى ميونخ الأقطاب الأربعة : هتلر وموسولنى وتشيمبرلين ودالاديه (رئيس وزراء فرنسا وقتئذ) . وبعد مفاوضات قصيرة وصلوا إلى اتفاق وقعوه فى ٢٩ سبتمبر ، وبمقتضاه تنزل تشكوسلوفاكيا عاجلاً عن أقاليم معينة تقطعها أغليات كبيرة من السكان الألمان ، وتجرى فى أقاليم أخرى استفتاءات توضع تحت إشراف دولى . كما يوكل إلى لجنة دولية تخطيط الحدود الجديدة بين ألمانيا وتشكوسلوفاكيا . واتفق الكبار الأربعة على وضع تسوية لمطالب هنغاريا وبولندا لدى تشكوسلوفاكيا فى ظرف أشهر ثلاثة .

وعاد تشيمبرلين إلى لندن ، وخاطب مواطنيه قائلاً : « لقد جلبت لكم السلام مع الشرف » . ولكن ونستن تشرشل الذى وقف موقف المعارض لسياسة التهذبة ، رد عليه قائلاً : « لقد كان على بريطانيا وفرنسا أن يختارا بين الحرب والعار . ولقد اختارنا العار . ومع ذلك فستعظم الحرب نفسها عليهما » . ولقد صحت نبوءته قبل أن يمضى عليها حول واحد .

وأذعن تشكوسلوفاكيا مرغمة على هذه التسوية . وعبر الجند الألمان الحدود فى أول أكتوبر . وفى اليوم عينه أعلنت بولندا أن تشكوسلوفاكيا قد نزلت لها عن مدينة تشن Teschen . وفى اليوم التالى احتل المدينة الجند البولنديون . وتقدم الهنغاريون ببعض المطالب التى تضمنت ضم أنحاء فى ولاية سلوفاكيا تقطنها أغلبية هنغارية . ورضيت تشكوسلوفاكيا فى الثانى من نوفمبر بتحكيم ألمانيا وإيطاليا لتسوية هذه المطالب .

٦ - فشل سياسة « التهدئة »

وما من شك في أن اتفاقية ميونخ أرجأت موعد إعلان الحرب العالمية الثانية عاماً تقريباً ، ولو أنه كان عاماً حافلاً بالخاوف والأزمات والأحداث الجسام . فقد أخذت الغيوم التي لبدت الجو السياسى وحملت في طياتها نذر الحرب - أخذت تنفش ، وصفا الموقف في الظاهر ، ولو إلى فترة قصيرة . فقد أصدر هتلر ونشيمبرلين في صباح ٣٠ سبتمبر تصريحاً مشتركاً يعبران فيه عن رغبة أمتيهما بالألا تشهر إحداهما السيف في وجه الأخرى ، ويعربان عن « تصميمهما القاطع على استخدام طريقى المشاورة في حل جميع المسائل التي تهم البلدين » . وفي ٦ ديسمبر وقع فون رينتروب Von Ribbentrop وزير خارجية ألمانيا وبونيه Bonnet وزير الخارجية الفرنسية - وقعا في باريس تصريحاً مشتركاً أكدوا فيه أهمية إبقاء العلاقات السلمية بين الدولتين ، وأعلنا أنه ليس بينهما من مشكلات الأرض ما يفرق بينهما .

وأكد هتلر بنفسه في هذه الأثناء أن إعادة المستعمرات الألمانية ليست بالمشكلة التي تدعو إلى امتشاق الحسام . كما أدلى مستر ملكولم مكدونلد وزير المستعمرات البريطانية في ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٨ ببيان في مجلس العموم ، قال فيه : « إن إعادة أية مستعمرات لا يدخل الآن في مجال السياسة العملية » ، ولوأنه أعرب في الوقت عينه عن استعداد الحكومة البريطانية لدراسة أية مقترحات تُعرض عليها « لتوزيع المواد الخام توزيعاً أقرب إلى المساواة » .

ومع ذلك فقد تعكر الجو السياسى في غضون شتاء ١٩٣٨ - ١٩٣٩ بين فرنسا وإيطاليا حين ارتفعت في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٨ أصوات في مجلس النواب الإيطالى صائحة : « تونس ! قورشة ! جيوتى ! » فأفضى دالاديه في ٢٦ يناير سنة ١٩٣٩ بتصريح أعلن فيه أن بلاده غير مستعدة لأن تنزل عن أية بقعة تمتلكها .

وكانت اتفاقية ميونخ نصراً دبلوماسياً باهراً لهتلر - ما في ذلك ريب . ولقد

شجعه نكوص بريطانيا وفرنسا عن اتخاذ موقف حازم إزاء نقضه مرة بعد أخرى أحكام معاهدة فرساي ، ووجهلها من خوض غمار حرب أوربية ، والمشكلات الداعية التي جابهت الوزارة الفرنسية نتيجة محاولتها موازنة الميزانية وتنظيم الصناعة وزيادة الإنتاج ، مما أدى إلى قيام الإضرابات فيها وازدياد التذمر بين طبقاتها الدنيا — شجعت هذه الأمور هتلر على التمدد في السير بخطته حتى آخر الشوط المختوم . فقبض بيد من حديد على البلاد التي ضمت إلى الريخ ، وطرد اليهود البولنديين المستوطنين ألمانيا . وما زاد الطين بلة اغتيال شاب من يهود بولندا يقطن باريس لقون رات السكرتير الثالث للسفارة الألمانية بها . فأتخذت هذه الجريمة تعلقة لتشديد النازيين وطأهم على الطائفة اليهودية ، وقبض على عدد كبير من أفرادها ، وزج بهم في السجون ، وفرضت على اليهود عقوبات فادحة ، وكييل لهم من الإهانات والمذلة ألوان عديدة .

ثم شددت الحكومة الألمانية ضغطها على الحكومة التشكوسلوفاكية كي تقصى اليهود من المناصب العامة ، وتفصل عن عصبة الأمم . فاضطر بينش إلى تقديم استقالته ، وفر من بلاده . وانتخب في مكانه في ٣٠ نوفمبر الدكتور إميل هاشا Emil Hacha رئيساً للجمهورية .

وحدث أن أعلنت في ١٤ مارس سنة ١٩٣٩ ولاية سلوفاكيا استقلالها عن تشكوسلوفاكيا . فأراد هاشا أن يرغم تيسو Tiso رئيس وزارة سلوفاكيا على الاستقالة . فاستنجد تيسو على القوم بهتلر « ليحميه » من هذا الافتيات . فدعا هتلر هاشا إلى القدوم إلى برلين ، حيث أجبره على الموافقة ، لا على مطالب سلوفاكيا فحسب ، بل على التوقيع على وثيقة تجعل في الواقع من تشكوسلوفاكيا لياالة ألمانية . وتدفقت الجنود الألمانية على براغ ، وجعلت بوهيميا وموراخيا ولايتين تابعتين للريخ ، وسلوفاكيا محمية ألمانية . وفي الوقت نفسه غزت هنغاريا الضالعة مع ألمانيا مقاطعة روتينيا ، وأدجبتها في بلادها . وبذلك احت الجمهورية التشكوسلوفاكية من عالم الوجود .

وكان لتقويض هذه الدولة الناشئة آثار غاية في خطورة الشأن في الموقف

احتلال ألمانيا
تشكوسلوفاكيا

الدول الأوربي . فقد أرسلت كل من فرنسا وروسيا والولايات المتحدة وبريطانيا مذكرات قوية للهجة إلى الحكومة الألمانية تحتج فيها على تقطيع أوصال تشكوسلوفاكيا والقضاء على استقلالها . ومن تلك اللحظة انتهجت الحكومة البريطانية ، بتأييد قوى من الحكومة الفرنسية ، سياسة جديدة : هي سياسة المقاومة لاعتداءات هتلر . فأعلن نفل تشيمبرلين في مجلس العموم بأن حكومته تعترم ، بالتضافر مع الحكومة الفرنسية ، « تقديم كل معونة ممكنة للحكومة البولندية » على الفور في حالة اعتداء أية دولة على أرضها .

احتلال ألبانيا واقفنى الزعيم الإيطالى خطى زميله الألمانى . فأنفذ قوة حرية إلى ألبانيا في ٧ أبريل ، فلاذ ملكها زوغو بأذيال الفرار إلى اليونان . وفي الثانى عشر من ذلك الشهر التأم عقد جمعية تأسيسية ألبانية قررت عرض التاج الألبانى على الملك فكتور عمانوئيل ، الذى غدا من وقتئذ يلقب رسمياً « بملك إيطاليا وألبانيا وإمبراطور الحبشة » .

وانتابت المخاوف ساسة بريطانيا وفرنسا من أن تكون اليونان الفريسة التالية . فأصدرت كل من الدولتين في ١٣ إبريل تصريحاً يؤكد عزمهما على تقديم كل مساعدة ممكنة لتلك البلاد في حالة غزوها ، ومدّاً نطاق هذا التأكيد إلى رومانيا أيضاً .

إلغاء المعاهدة البحرية البريطانية الألمانية وبادرت بريطانيا وفرنسا إلى فتح باب المفاوضات مع روسيا وبولندا وتركيا واليونان ورومانيا لعقد « اتفاق ودى بلقانى » . وأقدمت الحكومة البريطانية في ٢٧ إبريل على فرض نظام التجنيد الإجبارى في بلادها . فعند هتلر هذا الإجراء عملاً عدائياً موجهاً ضد ألمانيا ، ورد عليه في اليوم التالى في خطاب ألقاه بمجلس الريشتاغ أعلن فيه أن ألمانيا لا تعدّ الاتفاقية البحرية المبرمة بين الدولتين سنة ١٩٣٥ ملزمة لها بعد الآن .

اتساع شقة الخلاف بين بولندا وألمانيا وأخذت تتسع سراعاً هوة الخلاف بين بريطانيا وفرنسا وبين ألمانيا ، وحول الزعيم الألمانى وجهة حملاته العنيفة إلى بولندا . فأخذت الجرائد الألمانية تحمل حملات شعواء على « الإرهاب الذى لا يطاق » الذى تلقاه الأقلية الألمانية على

أبدى الحكومة البولندية ، وتطالب بضرورة وضع نهاية لذلك الجور البالغ .

وتقدم هتلر إلى الحكومة البولندية يطالبها بإعادة مدينة دانترج الحرة ومنطقة واسعة من الممر البولندي إلى ألمانيا . وغدّ تصريح بريطانيا في ٦ إبريل سنة ١٩٣٩ الخاص بضمانها سلامة الأراضي البولندية من كل اعتداء - عدّ هذا التصريح تحدياً يهدد السلام الأوربي ، وخرقاً لنصوص وروح المعاهدة التي كان قد أبرمها مع بولندا في يناير سنة ١٩٣٤ ، والتي نصت على تحريم الحرب تحريماً قطعياً بين القطرين ، وعلى ضرورة استخدام المفاوضات المباشرة لتسوية جميع الخلافات التي تنشأ بينهما .

فسلط هتلر على البولنديين حرب أعصاب مخيفة ، منذراً إياهم بالويل والثبور إذا هم لم يرضخوا لمطالبه . وتقدم في الوقت عينه إلى بريطانيا يعدها بأن يضمن الإمبراطورية البريطانية مقابل إطلاق يده في بولندا . فكان الرد البريطاني الذي تلقاه حازماً . فقد جاء فيه : « حكومة جلالة الملك مرتبطة بالتزامات نحو بولندا ، وأنها تنوى الوفاء بتعهداتها » .

وكان موقف روسيا إزاء هذه الأحداث الخطيرة لغزاً غامضاً . فقد جرت مفاوضات بينها وبين فرنسا وبريطانيا منذ مارس سنة ١٩٣٩ بقصد الوصول إلى اتفاق بين هذه الدول للعمل ببدأ واحدة على مقاومة أى اعتداء يأتى من جانب ألمانيا . وأرسلت فرنسا وبريطانيا بعثتين حرييتين قامتتا بمحادثات طويلة مع هيئة أركان الحرب الروسية .

وتمكنّت بريطانيا في مايو سنة ١٩٣٩ من عقد حلف مع تركيا يقضى بالتعاون بينهما في حالة نشوب حرب في شرق البحر الأبيض . ووصلت فرنسا وتركيا إلى اتفاق مماثل في الشهر التالي ، بعد أن سويت بينهما مشكلة سنجق إسكندرونة بأن وافقت فرنسا على سلخه من سوريا وضمه إلى تركيا . وأمضت الدول الثلاث : تركيا وفرنسا وبريطانيا في ١٩ أكتوبر معاهدة توثق عرى التضام بينها ، وتؤكد اتحاد أهدافها وقوة تفضائها .

وسارت المفاوضات بين روسيا وبريطانيا وفرنسا متعيرة يسودها الارتياب موقف روسيا

والتيخوف . فقد اشترطت روسيا للحصول على موافقتها على عقد معاهدة تحالف بين الدول الثلاث أن تقبل الدولتان الديمقراطيةان وضع دويلات البلطيق : لتقياً ولتوانيا وإستونيا تحت وصايتها . غير أن هذه الدويلات لم تكن تقبل راضية الاندماج في جارتها القوية . وكانت لتوانيا قد عقدت صاغرة معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا في ٢٢ مارس سنة ١٩٣٩ ، وتنازلت لها بمقتضاها عن ميميل ، وعقبها لتقيا وإستونيا في عقد معاهدتي عدم اعتداء مماثلتين مع ألمانيا في أوائل يونيو ، كما أبدت فنلندة رغبة صريحة في الوقوف موقف الحياد الدقيق .

المعاهدة الألمانية الروسية
وفوجئ العالم بنحول خطير في الموقف الدولي حينما أعلن له توقيع ألمانيا وروسيا في موسكو في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ معاهدة عدم اعتداء بينهما . وحثت هذه المعاهدة ملحقاً سريعاً حُدّد فيه نفوذ كل منهما في دويلات البلطيق وبولندا وبساراييا .

وكانت ألمانيا قد وقعت في برلين معاهدة تحالف مع إيطاليا في ٢٢ مايو ، تعهدت فيها الدولتان بأن تقدم كل منهما للأخرى كل تأييد سياسي ودبلوماسي ، إذا ما هددت مصالح إحدهما ، وأن تمنحها كل تأييد عسكري إذا ما نشبت حرب بين إحدهما ودولة أخرى .

استفحال الموقف الدولي سوءاً
وكان إخفاق الحلفاء في الوصول إلى عقد معاهدة مع روسيا عاملاً فاصلاً في استفحال الموقف الدولي سوءاً . ذلك أن عقد المعاهدة الروسية الألمانية شجع تشجيعاً قوياً الزعيم الألماني على تشديد الحناق على الحكومة البولندية . وكانت الكثرة الكبرى من أهل دانترج يطالبون بالعودة إلى الوطن الأم . وقامت الصحافة الألمانية بحملة نارية على الحكومة البولندية تتهمها بسوء معاملة الأقلية الألمانية في بلادها . واتهمت الجرائد الألمانية بريطانيا بتشجيعها بولندا على هذا العدوان .

وبُذلت في آخر لحظة محاولات فاشلة لصون السلم ، والإحجام عن لإواقعة الدماء . فأرسل نفل تشيمبرلين خطاباً شخصياً إلى هتلر في ٢٢ أغسطس يطلب منه العمل على تجنب أوربا حرباً مخربة دموية . وأرسل إليه دالاديه مثل هذا

الخطاب في ٢٦ من ذلك الشهر . ووجه الرئيس فرنكلن روزفلت في الثالث والعشرين نداء إلى ملك إيطاليا يهيب به التوسط في النزاع المتفاقم ، كما أرسل في الرابع والعشرين نداء إلى هتلر ورئيس جمهورية بولندا يناشدهما تسوية خلافتهما بالطرق السلمية . وأصدر البابا بيوس الثاني عشر نداء حاراً يحث فيه دول أوروبا على التمسك بأهداف السلام . وتضافر ليوبلد الثالث ملك بلجيكا مع قلملمينا ملكة هولندا في عرض وساطتهما على الفريقين المتنازعين (٢٨ أغسطس) .

بيد أن الحوادث جرت سراعاً في الأيام الثلاثة الأخيرة من السلم . فقد فشل الوساطات رجت بريطانيا هتلر أن يعيد فتح باب المفاوضات مع بولندا . وقبل هتلر في مساء ٢٩ أغسطس هذا الرجاء في شيء من التردد . ولكنه اشترط أن تبعث بولندا مفوضاً تخول له حق قبول الشروط الألمانية ، على أن يصل إلى برلين في اليوم التالي . فرفضت بولندا هذا العرض ، وإن كانت قد حاولت في الحادي والثلاثين أن تتصل بألمانيا بالطرق الدبلوماسية المعتادة عن طريق سفيرها ببرلين . وفي مساء ذلك اليوم أذاع الراديو الألماني الشروط التي تقبل ألمانيا أن تجري المفاوضات على أساسها .

وفي ظهر ٣١ أغسطس أحاط موسوليني الحكومتين البريطانية والفرنسية علماً باستعداده لدعوة مؤتمر تعقده الدول الأوربية الكبرى للتوسط في النزاع . ولكن في الساعات الباكرة من صباح اليوم التالي بدأت المصفحات الألمانية تشق طريقها داخل بولندا ، والطائرات الألمانية تمطر ألوان الدمار والهلاك على المطارات والسكك الحديدية والسكان المدنيين .

فأرسلت كل من الحكومتين البريطانية والفرنسية إنذاراً نهائياً إلى الحكومة الألمانية في ذلك اليوم تطلب منها سحب قواتها الغازية من الأراضي البولندية . ولكن زعيم الريدخ الألماني رفض بالطبع قبول هذا الطلب . وفي اليوم الثالث من سبتمبر أشهرت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا .

الفصل التاسع والثلاثون

الحرب العالمية الثانية

(١٩٣٩ - ١٩٤٥) .

صحق بولندا - روسيا ودويلات البلطيق - الحرب بين روسيا وفنلندة -
الحرب الصامتة في الغرب - احتلال ألمانيا لألمانيا والنرويج -
انقضاء الألمان على هولندا وبلجيكا ولكسمبرج - انهيار الجبهة
الغربية - دنكرك - دخول إيطاليا الحرب - سقوط باريس -
عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا - معركة بريطانيا - زعامة تشرشل -
القتال يمتد إلى أفريقية وبلاد البلقان - القضاء على الإمبراطورية
الإيطالية - الألمان يكتسبون البلقان - احتلال كريت -
انتصارات روميل الرائعة - هتلر يشهر الحرب على روسيا -
انتصارات الألمان المهيمنة - القتال في القطاع الجنوبي - معركة
ستالندجrad الفاصلة - ميثاق الأطلنطي - دخول الولايات المتحدة
واليابان الحرب - نكبات الحلفاء في الشرق الأقصى - وقف الزحف
الياباني - معارك بحرية كبيرة - الحلفاء يبدون الهجوم في مختلف
الميادين - معركة الملين الفاصلة - نزول الحلفاء بإفريقية الشمالية
الفرنسية - تتابع هزائم الألمان - نزول الحلفاء بإيطاليا - إيطاليا تعلن
الحرب على ألمانيا - الحرب الجوية - نزول الحلفاء بفرنسا - ارتداد الألمان
في جميع ميادين القتال - استسلام القوات الألمانية - استسلام اليابان .

١ - سحق بولندا

لم يمض على انتهاء الحرب العالمية الثانية سوى سنوات معدودات . ولذا فإنه
يتعلم على المؤرخ المعاصر أن يعرف جميع الحقائق والمعلومات الصحيحة التي
تمكنه من أن يكتب في الوقت الحاضر تاريخاً بعيداً عن الهوى ، خالياً من
المفتريات التي تلازم بطبيعة الحال دعاوات الحرب وإشاعات المغرضين وميول
قوى المصالح .

ففي أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ شق الجيش الألماني الجبار الذي خلقه الريخ

الألماني الثالث - شق طريقه عبر بولندا ، فبدأ بذلك أعظم حرب دموية في تاريخ العالم ، وأكثرها نفقة ، وأوسعها نطاقاً ، وأشدّها تدميراً . فإنه بينما كان القتال في الحرب العالمية الأولى مقصوراً إلى درجة كبيرة على قارة أوروبا ، جعلت الحرب العالمية الثانية من القارات كلها - فيما عدا أمريكا الجنوبية - ساحة هائلة واسعة الرحاب للطمع والتزال . وأكهرت الدول جميعاً - حتى تلك التي لم تشترك فيها بالفعل - أن تتحمل في درجة كبيرة أو صغيرة غصصها وآلامها ، وأن تكتوى بنارها وويلاتها ، وأن تحس بكوارثها وفواجعها .

وبدأ الدور الأول للحرب بغزو بولندا ، وانتهى بسقوط فرنسا في شهر يونيو سنة ١٩٤٠ . وقد بدأ القتال بدون أن تعلن ألمانيا رسمياً الحرب على بولندا . وقامت القوات الألمانية بحرب خاطفة دامت أسبوعين مروعين لا مثيل لها رعباً وفتكاً وتدميراً في الحروب الحديثة . فقد حولت الأساطيل الجوية الألمانية الهائلة مدن بولندا وقرراها إلى أنقاض وركام . واضطر البولنديون إلى الارتداد أمام القوات المصفحة الكاسحة التي جردت عليهم . وما إن وافي اليوم السابع من سبتمبر حتى كان الألمان قد استحوذوا على حوض سيليزيا الصناعي ، وحطموا أقوى خطوط المقاومة البولندية ، وأخلعوا يدنون في سرعة مخيفة من وارسو .

روسيا تظن
بولندا من
الخلف

وفي فجر اليوم السابع عشر من سبتمبر عبرت الجنود الروسية - طبقاً لبلد سرى في اتفاقية ٢٣ أغسطس - عبرت حدود بولندا الشرقية ، واستولت على الأراضي التي كان الألمان والروس قد اتفقوا فيها بينهم على أن تكون حصّة روسيا من الغنيمة . وأكهرت فلول الجيش البولندي على التسليم إما إلى الروس أو إلى الألمان . واستبسلت حامية وارسو في الدفاع عن قصبة البلاد . ولكنها أجبرت على التسليم للألمان في ٢٨ سبتمبر . وبذلك انتهت كل مقاومة منظمة بولندية . وتمكنت ألمانيا بحسارة ضئيلة نسبياً في الرجال والعتاد من أن تخضع لسلطانها واحداً وعشرين مليون نسمة ، وأن تضع يدها على موارد بولندا العظيمة في الزراعة والصناعة .

وفي اليوم عينه الذي سقطت فيه وارسو في يد الألمان ، وقّعت في موسكو

معاهدة ألمانية روسية حددت مناطق الاحتلال الروسي والألماني في تلك البلاد المقهورة، وأعلنت الدولتان الملأ بأنهما «سوتا نهائياً المشكلات الناشئة عن انهيار الدولة البولندية، وأرستنا أساساً وطيداً لسلام دائم في شرق أوروبا».

رفض الحلفاء
مقد صلح

وبعد أن انتهى من بحق بولندا، تقدم هتلر ومولوتوف وزير خارجية روسيا في ٦ أكتوبر بعرضان في ثقة الظافر فتح المفاوضات لعقد الصلح طبقاً للإعلان الروسي - الألماني المشترك. ولكن بريطانيا وفرنسا لم تعيرا هذا العرض أى التفات. وكذلك أشاحتا بوجههما عن العرض الذي تقدم به ليوبلد الثالث ملك بلجيكا وقلهلمينا ملكة هولندا، حينما أهابا في السابع من نوفمبر بالدول المتحاربة أن تسعى جاهدة إلى تسوية خلافاتها عن طريق المفاوضات، والعمل على إعادة السلام إلى أرجاء أوروبا.

بين روسيا
ودول الحلفاء

ولكن رغم التحالف الذي أبرم بين ألمانيا وروسيا، ورغم إعلانهما المشترك الآنف، لم تشعر روسيا باطمئنان حقيقى إلى حسن نوايا الزعماء النازيين لإزاءها: فراحت تعمل في همة ونشاط في تعزيز حدودها الجديدة، وتوطيد مركزها في البحر البلطى. فطلبت من دويلات ذلك البحر منحها بعض الامتيازات الاقتصادية والحرية. فأجابتها تلك الدويلات دون إبطاء إلى مطالبتها. ففي التاسع والعشرين من سبتمبر وقعت إستونيا معاهدة مع روسيا لتبادل المساعدة، وقدمت لها عدداً من القواعد البحرية والجوية، وممحت لتقيا ولتوانيا لروسيا في أوائل أكتوبر بمراقبة بعض الحاميات العسكرية الروسية في نقط معينة داخل حدودهما.

روسيا وفنلندة

ثم قدمت روسيا عدداً من المطالب لفنلندة، ومن بينها التنازل لها عن بعض الجزر في خليج فنلندة، وميناء بتسامو Petsamo، وهو الميناء الوحيد في المنطقة المتجمدة الشبالية الذى لا يتجمد ماؤه خلال شهور الشتاء، وكذلك التنازل لها عن النصف الشبالي لبرزخ كارليان Karelian الواقع بين بحيرة لادوجا Ladoga وخليج فنلندة. ولكن فنلندة وقفت موقفاً عنيداً أمام جارتها الجبارة. فجردت روسيا عليها قواتها الحربية. وما لبث العالم أن وقف

مدهوشاً معجباً أشد إعجاب بالبسالة النادرة القرن التي أبداهما الفنلنديون في
الصمود أربعة أشهر كاملة أمام غريمهم المارد في ذلك القتال غير المتكافئ
وأخيراً اضطرت فنلندة إلى إلقاء سلاحها في أوائل مارس سنة ١٩٤٠ ، وعقدت
صلحاً مع روسيا احتفظت فيه باستقلالها ، ولكنها أكرهت على التنازل عن
بعض الأراضي الواقعة على تخومها الشرقية ، وعن جزيرة هانجو Hangoe
الاستراتيجية . وبعد أشهر قلائل استحوذت روسيا على دويلات البلطيق الثلاث
الآتفة ، وانتزعت ولاية بسارايا من رومانيا . وبذلك أكلت روسيا - كما هي
لها - نظامها الدفاعي ضد جحافل ألمانيا النازية حينما يجيء « اليوم الموعود » .

النظام السوفيتي
وممارسات
« التصفية »

وكانت روسيا تحكم طبق دستور أقر سنة ١٩٣٦ ، وعُرف فيه الاتحاد
السوفيتي بأنه دولة تعاهدية تتألف من إحدى عشرة جمهورية اشتراكية متساوية
الحقوق ، اتحدت بمحض اختيارها لمصالحها المشتركة . ولا يزال هذا الدستور
معمولاً به إلى الآن ، إلا في ناحية واحدة . فقد أُعدل في فبراير سنة ١٩٤٤ ،
كحي تُعطى كل من الجمهوريات المؤسسة للاتحاد حق إنشاء قوميسارات
(وزارات) منفصلة لشئون الدفاع والسياسة الخارجية .

ومع أن حركات « التطهير » و« تصفية » أعداء الجمهورية السوفيتية أمر
عادي في تلك البلاد الرجعية الخنثيات ، إلا أن العالم رُوع بنوع خاص بحركة
تصفية هائلة جرت في أغسطس سنة ١٩٣٦ ، حينما قُدم زينوفيف Zinoviev
وكامينيف Kameney اللذان كونا مع ستالين « الحكومة الثلاثية » المطلقة
التي أدارت دفة البلاد منذ موت لينين سنة ١٩٢٤ - حينما قدم هذان القطبان
الشيوعيان مع زمرة من كبار الشيوعيين الروس إلى المحاكمة بتهمة تنظيم عصابات
إرهابية لاغتيال ستالين وكبار أعوانه . وحُكم عليهم بالإعدام ، وأُعدم أكثرهم .
وفي يونيو سنة ١٩٣٧ حوكم سراً المارشال توكهاشفسكى Tukhachevsky
رئيس هيئة أركان الجيش ، مع سبعة من كبار القواد الروس ، وحُكم عليهم
بالإعدام ، وأُعدموا رمياً بالرصاص . وتلاهاتين المحاكتين القبضُ على مئات
الألوف من المدنيين والعسكريين ، وقُدِّموا إلى محاكمات صورية ، وحُكم عليهم

بالإعدام أو السجن أو النفي إلى سيبيريا ، أو اغتيلوا في الخفاء دون تقديمهم حتى إلى مثل تلك المحاكمات ، أو فصلوا من خدمة الحكومة والهيئات العامة .
ويعتقد أن أكثر هؤلاء الذين « صُفوا » كانوا ضالعين مع ألمانيا النازية ، وأنهم كانوا يسعون إلى تغيير سياسة روسيا الخارجية ، ومحاوله التقريب بينها وبين ألمانيا . ولذلك فإنه حينما غزا الألمان روسيا في مطلع صيف سنة ١٩٤١ ، وقف الروس صفّاً مرصوصاً في وجه الغزاة ، وقدموا بزعامه ستالين جبهة متحدة نُظمت تنظيمياً محكماً من الناحيتين السياسية والصناعية .
والحق إنه لأمر ذو مغزى أن عملية « تصفية » أخرى مماثلة جرت في ألمانيا في بواكير سنة ١٩٣٨ . فقد أعدم أو سجن أو فصل عدد كبير من الضباط الألمان الذين اشتبه في أنهم يؤثرون تعاون بلادهم مع روسيا السوفيتية .

٢ - انهيار الجبهة الغربية

أما في الغرب ، فقد سارعت الحكومة الفرنسية إلى تعبئة الجيش على أثر إعلانها الحرب . ومع ذلك فإن الفرنسيين لم يلتفتوا حول الوطن في الروح التي ملأت جوانحهم عام ١٩١٤ ، ولم تهترق قلوبهم حينما نُفِخ في بوق الحرب لدعوتهم إلى تلبية النداء « بأن الوطن في خطر » : ذلك النداء الذي طالما سارعوا إلى استجابة صيحته ، ونفروا عند سماعه إلى امتشاق الحسام واقتداء الوطن بالمهيج والأرواح .

تمهنة الأمة
الفرنسية للحرب

ذلك أن فرنسا لم يكن على رأسها وقتئذ زعماء ممتازون يقودون صفوفها ويظفرون بثقتها . وكانت الفوضى السياسية وخراب الدم والفساد الاجتماعي قد أناخ بكلكله على الهيئات العامة . ورفض الحزب الشيوعي الفرنسي وشيعه المنضمة إليه أن يؤيد حرباً « رأسمالية » ، وأشاع في نفوس الكثيرين من أفراد الطبقات الدنيا عدم الرضا ، وأثار الاضطراب وبث القلق في صفوف الأمة . أخضع إلى ذلك أن سياسة التهدئة التي انتهجها ساسة بريطانيا وفرنسا إلى ما قبيل لإشهار الحرب ، جعلت جانباً كبيراً من الأهليين مستعدين

أن يتحملوا كل إهانة تقريباً، إذا كان في ذلك تجنبهم مكاره الحرب وخطوبها. ومع ذلك فقد كانت فرنسا متأهبة إلى درجة كبيرة للاقافة العدو. وكان يمتد على طول الحدود الفرنسية الألمانية خط « ماجينو » الذي « مثل أعلى درجة من درجات تطور الدفاع العلمى بلغتها أوروبا حتى ذلك الحين ». ولكن هذا الخط الدفاعى المنيع اللما لم يمتد على طول الحدود الواقعة بين فرنسا وبلجيكا، فقد اكتفى رجال الهندسة العسكرية الفرنسية بتحسين تلك الحدود بوضع حزام من الأسلاك الشائكة ، وإقامة الأعمدة العائقة لسير الدبابات، وحفر الحفر لصيدها .

وشيد الألمان داخل حدودهم فى مواجهة خط ماجينو ، خط سيجفريد *Siegfried* « أو « السور الغربى » . وهى منطقة حصنت على نمط مشابه لخط ماجينو نفسه .

وقد جعل وجود هذين الخطين الدفاعيين المنيعين من السير على الجيوش المتحاربة أن تقوم بحركات حربية خاطفة على طول جبهة ألمانيا الغربية . وبدأت إنجلترا فى اليوم التالى لإعلانها الحرب على ألمانيا تنزل طلائع قواتها بأرض فرنسا . وأغلقت هذه القوات تحتل تدريجاً الأماكن التى خصصت لها على الحدود البلجيكية - الفرنسية شرق مدينة ليل .

وفى الوقت الذى كانت تسحق فيه قوات ألمانيا المصفحة مقاومة الجيش البولندى ، وقف البريطانيون والفرنسيون فى جبهتهم عاجزين عن أن يمدوا لحليفهم السيئة الطالع يد المعونة بالضغط على العدو المشترك . صحيح أنه حدث خلال الأسابيع الأولى من القتال بعض النشاط على طول خط ماجينو ، كان من نتيجته إكراه الألمان على الجلاء عن ساربريكن *Sarbrücken* ، ولكن الفرنسيين أكرهوا بدورهم على الارتداد من غابة لارندت *Warndt* . ولكن ساد الجبهة الغربية هدوء شامل تقريباً أثناء الأشهر السبعة الأولى من الحرب . وكانت هذه الأشهر التى ركذ فيها القتال فترة غلب خلالها على الجند الفرنسيين بنوع خاص السأم الشديد ، وانتشر بينهم السخط والتبرم ، وأغل

الحرب
الصلابة

روحهم المعنوى وحماهم الوطنى ينحطان بدرجة ملحوظة .

ولكن « الحرب الصامتة » بين ألمانيا وعلوتها انتهت على نحو مثير فى أوائل إبريل سنة ١٩٤٠ . ذلك أن الحصول على الحديد الخام من السويد كان من الأهمية بأعظم مكان للألمان . وكانوا يجلبون هذه المادة اللازمة لصناعاتهم الحربية خلال شهور الشتاء ، حينما يقل الجليد تغور ببحر البلطيق - كانوا يجلبون حديد السويد من ميناء نارفك Narvik النرويجية . وكان أمراً طبيعياً أن تحاول بريطانيا حمل النرويج على وقف هذا النقل فى مياها الإقليمية ، وسد الطريق البحرى فى وجه السفن الألمانية .

انتهاء الحرب
الصامتة

ولذلك فبينما كان الهدوء المستتب الشامل يخيم على ميادين الحرب البرية ، إذ بألمانيا تغير فى الساعات الأولى من صباح ٩ إبريل ، دون سابق إنذار ، على الدانمارك التى كانت قد أبرمت معها قبيل ذلك معاهدة عدم اعتداء .

احتلال ألمانيا
للدانمارك

وفى الصباح الباكر من اليوم عينه أنزل الألمان كتائبهم ، دون إنذار سابق أيضاً ، فى نقط عدة على طول الساحل النرويجى . حدث هذا فى نفس اللحظة التى كانت تضع فيها قوة بحرية إنجليزية - فرنسية الألغام فى مياه النرويج الإقليمية التى كانت السفن الألمانية المحملة بالحديد الخام تتخذها سبيلاً لها للتملص من هجوم السفن الحربية البريطانية عليها وإغراقها .

والنرويج

وما وفى مساء ذلك اليوم حتى كان الألمان قد قضوا على كل مقاومة فعالة فى النرويج ما عدا فى أقصى الشمال . وكانت خطة الهجوم الألمانية على النرويج من أبلع الفماذج الحربية لحسن التصميم وسرعة التنفيذ ودقة التعاون بين مختلف أسلحة الجيش .

وحاول البريطانيون أن ينجسوا النرويج . فترلت قوات بريطانية وفرنسية فى نارفك (١٥ إبريل) وفى نامسوس (١٦ إبريل) . ولكن الألمان تمكنوا فى سهولة من سحق هذه القوات . غير أن قوة كبيرة مؤلفة من جند بريطانيين وفرنسيين وبولنديين ونرويجيين أفلحت فى الاستيلاء على نارفك فى ٢٨ مايو . ولكن نظراً للأحداث الجلل التى كانت تجرى وقتئذ فى الجبهة الفرنسية ،

صُحبت هذه القوات من جنود الحلفاء في الثامن من يونيو . ولحاً ماكون ملك النرويج ووزارؤه إلى إنجلترا حيث وصلوا منها النضال . وغدت القوات النازية مدى أربعة أعوام سيدة النرويج .

المجوم الألماني
الساحق

وما كاد ينقضى شهر واحد على غزو النرويج ، حتى ضرب الألمان ضربتهم الكبرى في الغرب . فقد بدأوا هجوماً هائلاً قبيل فجر ١٠ مايو على هولندا وبلجيكا ولكسمبرج في آن واحد دون أى إعلان للحرب . ولم تمض ساعات قلائل حتى كانوا قد اكتسحوا لكسمبرج . واخترقوا في الثاني عشر من الشهر خط الدفاع الرئيسي للجيش الهولندي . وقاموا بغارات جوية عنيفة على المدن الهولندية دمرت جانباً كبيراً منها ، وألقت الرعب في نفوس الأهليين . وسقطت روتردام في الرابع عشر . وأكره الهولنديون عقب النكبات المروعة التي حلت بهم أن يلقوا بأسلحتهم في اليوم التالي .

سحق الجيش
البلجيكي

وفي الوقت عينه كان الألمان يوجهون ضربات هائلة لجيش بلجيكا الصغير . وكان ملكها قد استنجد ببريطانيا وفرنسا ؛ فدخل جيشاهما بلجيكا طبقاً لخطة موضوعة . ولكن القيادة الألمانية جردت قوات مصفحة كبيرة تحت قيادة المارشال فون رندشتد Von Rundsted حطمت خط دفاع الحلفاء في ١٤ مايو ، فاخترقته بين نامور وسيدان ، وعبرت نهر الميز ، شاققة طريقها خلال غابات الأردن التي كان يُظن أنه من المتعذر على أى جيش اختراقها . واتجه جزء من القوات المصفحة الألمانية غرباً نحو أميان ، وجنوباً نحو ويمس . ودخل الألمان أميان في ١٩ مايو وأبشيل Abbeville في اليوم التالي . وزحفوا سراعاً ميممين وجهتهم صوب الموانئ الفرنسية على القنال الإنجليزي . فوصلوا ساحله في الحادى والعشرين ، وهاجموا بولون وكاليه في الثالث والعشرين . وبدا كأن كل شيء ينزل الحلفاء بوقوع كارثة مروعة وهزيمة ماحقة . فقد انحطت روح الجيش الفرنسي إلى أسفل درك ، وأخذت الفرق الفرنسية ترتد أمام نار العدو الحاصدة دون انتظام ، وبما زاد من أسباب القوضى وعوامل الهزيمة امتلاء الطرق بمئات الألوف من النساء والأطفال الهاربين من وجه

اختراق خط
دفاع الحلفاء

الغزاة لا يلون على شيء .

وجعلت السرعة المخارقة للتقدم الألماني مركز الحلفاء غاية في الحرج . فقد حُصرت القوات البريطانية والفرنسية والبلجيكية التي أرسلت في الأصل للدفاع عن البلجيك - حُصرت في مثلث ، وتواري كل أمل لها في التمكن من التقدم .

ورأى لورد جورت Lord Gort القائد العام للقوات البريطانية أن البحر هو سبيله الوحيد لإنقاذ قواته من المأزق البالغ الحرج الذي وُجدت فيه . وفي منتصف ليلة ٢٧ - ٢٨ مايو سلم الجيش البلجيكي . وكان الجلاء الشهير للقوات البريطانية قد بدأ في السابع والعشرين من ميناء دنكرك . وقد تمكن ٣٣٤ ألفاً من المقاتلين البريطانيين وجنود الحلفاء من الجلاء تاركين وراءهم عتادهم بأكمله .

دنكرك

وخلف في ١٩ مايو الجنرال فييجان Weyand الجنرال جاملان Gamelin في منصب القائد الأعلى لقوات الحلفاء . ففُضِيَ نحو أسبوعين في تعزيز مواقع الدفاع الفرنسية على حدود فرنسا الشمالية والشمالية الشرقية . وكانت قوات الألمان المصفحة قد حولت وجهها صوب الجنوب . وتمكنت من اختراق خطوط الدفاع الفرنسية في كل مكان ، ومزقت الجيش الفرنسي شرمزق . فقررت الحكومة الفرنسية في ٨ يونيو الانتقال من باريس ، أولاً إلى تور ، ثم إلى بوردو .

تعزيز الجيش
الفرنسي

وطرح موسوليني موقف المتفرج وراء ظهره ، وأعلن في العاشر من يونيو الحرب على بريطانيا وفرنسا كي لا يفوته الظفر بنصيب من الأسلاب التي غدت الآن في ناظره سهلة المثال دانية القطوف .

دخول إيطاليا
الحرب

وسقطت العاصمة الفرنسية في أيدي الألمان بعد أيام خمسة ، فاستصرخت الحكومة الفرنسية الرئيس روزفلت وبريطانيا بأن يمدا إليها يد المعونة بمساعدات جديّة في هذه اللحظة الرهيبة . ولكن صرخاتها ذهبت هباء الريح . وسقطت وزارة رينوفي السادس عشر من يونيو ، وخلفه في رئاسة الحكومة

سقوط باريس

بيتان ومقد
الهدنة

المارشال بيتان العجوز بطل فردان . وطلب من الألمان وقف القتال تمهيداً لمقد هدنة بين الدولتين . واتخذت الحكومة الفرنسية مدينة فيشي مقراً لها . وكان الألمان قد احتلوا حتى تلك اللحظة نصف أراضي فرنسا . فأجابوا بيتان إلى طلبه . وفي الثاني والعشرين من يونيو أمضى المبعوثون الفرنسيون شروط الهدنة في كبيين Compiègne في نفس عربة السكة الحديدية وفي نفس البقعة التي كان الألمان قد وقعوا فيها في ذلة وامتهان صك الهدنة مع الحلفاء في نوفمبر سنة ١٩١٨ .

وبمقتضى شروط الهدنة خُوِّل الألمان احتلال جميع الأراضي الفرنسية الواقعة شمال وغرب خط يمتد من جنيف إلى تور ، ومن هناك جنوباً إلى حدود أسبانيا . ويدخل في منطقة الاحتلال جميع الموانئ الفرنسية الواقعة على القتال الإنجليزي والمحيط الأطلنطي . وفُرض على فرنسا أن تنزع سلاح قواتها المحاربة ، ثم تسرحها ، فبا عدا القوات التي يُحتاج إليها لحفظ الأمن العام ، وأن تتحمل فرنسا جميع نفقات الاحتلال ، وأن يبحر الأسطول الفرنسي إلى ثغور فرنسية معينة حيث يجرد من السلاح . وأعلنت ألمانيا أنه ليس لها أية نية في استخدامه ضد بريطانيا ، أو في الاحتفاظ به بعد إبرام الصلح بين البلدين . وتعهدت فرنسا أن تطلق سراح جميع الأسرى الألمان الذين كانوا قد وقعوا في قبضة الجيش الفرنسي ، على أن تستبق ألمانيا في بدها جميع أسرى الحرب الفرنسيين .

٣ - معركة بريطانيا

ووقفت بريطانيا الآن بمفردها ، وهي تكاد تكون عزلاء من السلاح ، في وجه عدوها الظافر الشديد المراس . وأبت تلك الجزيرة العنيدة - رغم تنبؤات الكثيرين بأن أيامها قد باتت معلودات - أبت أن تعقد مع ألمانيا هدنة ماثلة لتلك التي عقدتها فرنسا . ويعرب عدد غير قليل من النقاد العسكريين - ومن بينهم تشرشل نفسه عن الرأي ، بأنه كان من المرجح أن

الإمبراطورية
البريطانية
تقاتل بمفردها

يظفر هتلر بقمهرها - وبالتالي بالسيطرة على العالم - لو أنه أقدم على غزوها عقب انهيار فرنسا . ولكنه بدلاً من أن يرسل قواته القاهرة في أعقاب البريطانيين ، حول وجهة جبهته إلى إكمال فتح فرنسا ، ودعم فتوحاته . فأغلت من بين يديه النصر النهائي . فقد أمهل بريطانيا فسحة من الوقت استخدمتها خير استخدام في استدراج قواتها وتدريب محاربيها الجدد ، وتعويض ما كانت قد فقدته من عتاد .

وقبضت الأقدار السعيدة لبريطانيا أن يقبض على أزمة الحكم فيها في أحلك غمرتها وذروة محنتها زعيم عظيم وجبار مارد . فقد أجبر نفل تشيمبرلين ، إزاء الحملات القاسية التي شنها عليه أعضاء حزبه ، على أن يقدم استقالته في ١٠ مايو ، فتسّم ونستون تشرشل الحكم على رأس وزارة ائتلافية في أخرج الساعات التي مرت بتاريخ بلاده . فبعث في بنى جلده روحاً جديداً وتصميماً قاطعاً على الصمود في وجه العدو حتى يكمل النصر جبينهم ، أو يهلكوا . ولم يشنه عن عزمه الراسخ توالى المهزائم ، وتتابع الكوارث ، فظل يتفخ في نفوس مواطنيه روحاً من روحه الجبار ، ويضئء لهم قسماً خافئاً وسط دياجير الحزن والكروب التي أناخت عليهم . فعاطبهم قائلاً : « سنثبت مرة أخرى أننا قادرون على اللوذ عن حياض جزيرتنا ، وثنق طريقنا خلال أعاصير النضال وأنواء المعارك . وسنظل نكافح تهديد الطغيان ، ولو اضطررنا إلى القتال سنين عديدة ، وإلى القتال بمفردنا إذا اقتضى الأمر ذلك إننا لن نتعاس ، ولن نكص على أعقابنا . سنواصل النضال حتى النهاية . سنقاتل في فرنسا ، سنقاتل على متن البحار والمحيطات ، سنقاتل في ثقة متزايدة وقوة مطردة النمو في الجو ، وسندافع عن جزيرتنا مهما بهط الثمن . سنقاتل على شواطئ البحار ، وسنقاتل عند مراسي السفن ، وسنقاتل في الحقول وفي الشوارع ، وسنقاتل فوق التلال . ولكننا لن نفعل شيئاً واحداً : لن نلقى بسلاحنا » .

تشرشل يندو
زعيم بريطانيا
الأكبر

والحق أن بريطانيا كانت وقتئذ في أشد حاجة إلى قيادة ذلك الزعيم العملاق .
فقد أخذت أساطيل هتلر الجوية الهائلة تعطر الموت على بريطانيا ، وتنتشر

مركبة بريطانيا

الخرب فيها ، طوال صيف وخريف عام ١٩٤٠ ، كان ألمانيا قد عقدت نيته على تدميرها تدميراً منظماً من الجو . وبدأت الحملات الجوية الألمانية العنيفة في ٨ أغسطس ، فبدأت بذلك ما يسميه البريطانيون : « معركة بريطانيا » . وشرع الألمان يشنون غارات جوية بالغة العنف على قوافل البواخر التجارية الإنجليزية وعلى المدن الساحلية في الجنوب الشرقى من إنجلترا . ثم أعقبوا ذلك بغارات مركزة وُجّه أكثرها إلى المطارات ومصانع الطائرات . ثم بدأت في ٧ سبتمبر المرحلة الثالثة والأخيرة من هذه المبارزات الجوية الهائلة . فقد قاموا بشن غارات نهارية عنيفة على لندن ، وخاصة على منطقة مينائها . واستبسل الطيارون البريطانيون أعظم استبسال في الدفاع عن وطنهم خلال معركة بريطانيا التي استمرت حتى أواخر أكتوبر . ودمروا حسب الأرقام الرسمية ١٧٣٣ طائرة ألمانية ، وحالوا بذلك دون أن تحول ألمانيا هجماتها الجوية إلى غزو فعلي للجزر البريطانية .

ومع ذلك فقد واصل الألمان غاراتهم الجوية ليلاً على نطاق واسع . فاشتدت الحملات الليلية أولاً على لندن ، ثم تحولت إلى مدن الثغور . فصبت الطائرات الألمانية صواعقها على سوثمبتن وبلث ولقرپول وبرستل وغيرها . ثم نقل الألمان ميدان عملياتهم إلى المدن الصناعية . فدكوا في ١٤ نوفمبر مدينة كوفنتري وأنزلوا خراباً ذريعاً بمدن برمنجهام ومنشستر وشفيلد والمدن الواقعة على نهرى التين والكلايد . وبلغ عدد ضحايا هذه الغارات من المدنيين حوالى ٢٣,٠٠٠ من القتلى ، وعدداً أكبر كثيراً من هذا الرقم من الجرحى ، وذلك خلال الأشهر الخمسة من أغسطس إلى ديسمبر سنة ١٩٤٠ . ولكن الشعب البريطانى ظل قوى العزيمة ثابت الجنان . فما لانت قناته أمام الكوارث ، ولا وهن تصميمه من هول الشدائد . وكان إنخفاق هذه المحاولة الألمانية في قهر بريطانيا عن طريق الغارات الجوية ، وإرغامها بهذه الوسيلة على التسليم — كان إخفاقها من بين العوامل الرئيسية الكبرى في إنزال الهزيمة بألمانيا في آخر المطاف .

وواصلت بريطانيا الحرب ، تؤيدها مستعمراتها تأييداً قوياً ، وتسخر عليها سماء كبرى بالرجال والعتاد . ولم يقصر عمل قوات الجو البريطانية على ردّ غارات

العدو ، بل غزته في الوقت عينه في عقر داره ، وإن كان ذلك قد تم على نطاق ضيق . فقد أرسلوا طائراتهم لتدمير مصانع البترول الصناعي في ألمانيا الغربية ، والمنشآت الصناعية في الرهر ، والموانئ وأحواض السفن الألمانية . وفي ليلة ٢٥ أغسطس أغارت الطائرات البريطانية على برلين نفسها .

الحرب البحرية ولم يقصر ميدان الصراع بين ألمانيا وبريطانيا على الجو ، بل اشتد سعي القتال في البحار أيضاً . فقد هاجم الألمان في غير هودة منذ بدء الحرب السفن البريطانية المحملة بالأغذية والمواد الخام اللازمة لحياة الأهلين ولجهودهم الحربي . واستخدم الألمان في أواخر سنة ١٩٣٩ أول سلاح سرى استخدموه في ذلك النضال : وهو الألغام الممغطة التي كانت طائراتهم تلقها في مداخل الموانئ البريطانية . وقد منيت السفن التجارية البريطانية بخسائر فادحة في بدء استخدام ذلك السلاح الفتاك . ولكن ما مضى زمن قصير حتى تمكن العلماء البريطانيون من اختراع وسائل مضادة فلت إلى مدى كبير من حدة وطأته وقلقت من شدة فتكه .

وأمكن للأسطول البريطاني أن يتعقب بارجة الجيب الألمانية القوية : « جراف شبي » التي كانت ألمانيا قد بعثها مع أختها « دتشلند » إلى عرض الأطلنطي حيث أخذت تعيث إغراقاً بالسفن التجارية البريطانية . وأخيراً أمكن للطرادات البريطانية أن تعثر عليها في ديسمبر سنة ١٩٣٩ وتلحق بها عطياً جسيماً . فاضطرت « جراف شبي » إلى الالتجاء بشفر مُتفيدة ، حيث أغرقها بحارتها عند انصرام الأجل الذي أُحدد لبقائها فيه .

كذلك تمكنت القوات البريطانية من أن تسبق الألمان إلى احتلال جزيرة أيسلند وجزر فارو Faroe . ولكن الانهيار الحربي الذي أصاب الحلفاء في الميدان الغربي قلل إلى حين من الأهمية الاستراتيجية لذلك سبق .

٤ - القتال يمتد إلى إفريقية وبلاد البلقان

بلد حرب
شمال إفريقيا

كان موسوليني ، عند إعلان الحرب على بريطانيا - كان يرنو بناظره إلى القطر المصري ، وبسبيل لعبه للاستحواذ على ثروته واستغلال موارده الطبيعية الغنية . وشجعه ضعف بريطانيا على إنفاذ حملة كبيرة لاحتلاله . وعبرت هذه الحملة في سبتمبر سنة ١٩٤٠ الحدود المصرية ، وتقدمت حتى سيدى برانى . غير أن الجنود البريطانيين هاجموا الإيطاليين في أوائل ديسمبر ، وأجلوهم عن مصر . واستولوا في ٢٢ يناير سنة ١٩٤١ على طبرق : القاعدة البحرية الإيطالية الرئيسية في برقة . وما وافى شهر مارس سنة ١٩٤١ حتى كان الإيطاليون قد طردوا من ولاية برقة ، وبلغ البريطانيون بلدة العقيلة ، ووقع في يدهم خلال هذه العمليات الحربية أكثر من مائة ألف أسير إيطالي ، دون أن يفقدوا سوى مئات قليلة من القتلى . فبعثت هذه الانتصارات الكبيرة التي أحرزها الجنرال ويفل Wavell القائد الأعلى للقوات البريطانية بالشرق الأدنى - بعثت هذه الانتصارات بعض الثقة في نفوس البريطانيين .

طرد قوات
فيشي من سوريا
ولبنان

وأصاب البريطانيون بعض المكاسب الحربية الأخرى . فاحتلت جنودهم في شهر يولية سنة ١٩٤١ سوريا ولبنان اللتين كانتا خاضعتين للحكومة فيشي الفرنسية . وبذلك قوى مركز بريطانيا في الشرق الأوسط . كذلك أمكنها أن تقتل في المهد انقلاباً في العراق بغية الانضمام للدول المحور .

القضاء على
الإمبراطورية
الإيطالية

كذلك كان الإيطاليون ، على إثر إعلانهم الحرب ، قد تغلغلوا في يولية سنة ١٩٤٠ في أراضي كينيا ، ودخلوا السودان ، واكتسحوا الصومال البريطاني ، وهددوا تهديداً خطيراً مركز البريطانيين في عدن والبحر الأبيض .

ولكن القوات البريطانية تحت قيادة سير آلن كتنجهام Sir Alan Cunningham قامت في يناير سنة ١٩٤١ بهجمات مضادة قوية أسفرت عن نتائج باهرة . فقد تمكنت أثناء قتال لم يستغرق سوى أربعة أشهر من القضاء تاريج أوروبا

على الإمبراطورية الإيطالية في شرق إفريقية . فأقصوا الإيطاليين عن لاذريا . وسقطت أديس أبابا في أيديهم في ٦ إبريل . وفي الخامس من مايو - أى بعد خمسة أعوام من مناداة موسوليني بملك إيطاليا إمبراطوراً على الحبشة - دخل الإمبراطور هيتلر سلاسى قصبة ملكه . وبعد أسبوعين سلم دوق أوستا نائب ملك إيطاليا نفسه مع عدد كبير من الضباط والجنود إلى البريطانيين . ولم يختم نوفمبر سنة ١٩٤١ حتى كانت آخر فلول القوات الإيطالية في ذلك الميدان قد استسلمت دون قيد أو شرط .

الحرب في اليونان وألبانيا
وكان موسوليني قد أعلن الحرب على اليونان في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٠ . وهاجمت قواته تلك البلاد من ألبانيا . غير أن الجنود الإيطالية مُنيت بهزائم مشينة ذات بال . فطردهم اليونانيون شر طردة من وطنهم . وما جاء ختام عام ١٩٤٠ حتى كان اليونانيون قد أوغلوا ثلاثين ميلاً في أرض ألبانيا .

الألمان يفسون إلى جانبهم رومانيا وبلغاريا
فانهز الألمان هذه الفرصة ، وشنوا في غضون شتاء ١٩٤٠ - ١٩٤١ حرب أعصاب حامية على دول البلقان . وحشدوا قوات كبيرة في هنغاريا ورومانيا . ودخلوا صوفيا في أول مارس سنة ١٩٤١ ، وأكروها الحكومة البلغارية على الانضمام إلى صفهم . وفي أواخر ذلك الشهر عينه قامت مظاهرات صاخبة في بلغراد لمطالبة الحكومة بإشهار الحرب على دولتي المحور . فاستقالت الحكومة اليوغسلافية ؛ واحتلال يوغسلافيا وفرّ وصيّ العرش اليوغسلافي من البلاد . فأعلنت ألمانيا الحرب على يوغسلافيا في ٦ إبريل ، وجرد هتلر جحافلها عليها ، فاحتلوها بأسرها في أحد عشر يوماً . وأغارت طائراته على بلغراد ، فجعلتها خراباً ييباً .

احتلال اليونان
وفي ٦ إبريل أيضاً غزت الجنود الألمانية بلاد اليونان ، وخفقت بنود النصر فوق زحفها . فقد أرغمت اليونانيين على الانسحاب من تراقية الغربية ، وشقت طريقها في خلال أسبوع واحد إلى سالونيك . وتقدمت إنجلترا لمساعدة حليفها الجديدة بالرجال والذخيرة . ولكن العون الذي قدمته لها لم يكن بكاف لإنقاذ الموقف . فسأقت الكنائس الألمانية أمامها سوقاً القوات اليونانية والبريطانية والأسترالية والنيوزيلندية ، وأجبرتها على الانسحاب من موقع إثر موقع . واضطر

الجيش اليوناني إلى التسليم في الحادي والعشرين من إبريل ، ووفرت في السابع والعشرين الراية الألمانية ذات الصليب المعقوف فوق الأكرودوبوليس .

ومن ثم تدفقت القوات الإيطالية المهزومة على اليونان ، ولجى البلغار دعوة احتلال كريت الألمان إلى احتلال مقدونية وتراقية . وكان الأسطول البريطاني قد أجلى إلى كريت قرابة أربعين ألفاً من جنود بريطانيا والمستعمرات المستقلة ، ولو أنهم جلوا تاركين وراءهم الجانب الأكبر من عتادهم . وواصل الألمان تعقبهم ، فشنوا في ٢٠ مايو هجوماً عنيفاً عليهم بقوات أنزلوها بكريت من الجو . وطردوا البريطانيين من تلك الجزيرة .

وبذلك انتهى الطور الأول من أطوار الصراع في سبيل السيطرة على موارد بلاد البلقان ومواقفه الاستراتيجية . ولم يدم القتال في ذلك الطور سوى أسبوعين حاق خلالها بقوات بريطانيا واليونان ويوغسلافيا خسائر فادحة في الرجال والمعدات . وبدا للأعين كأن ألمانيا وإيطاليا قد سيطرتا تامة على جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط . وإن كانت تركيا حليفة بريطانيا قد احتفظت بحيدها .

وذهب الألمان مرة أخرى لنجدة حليفهم في شمال إفريقيا . وكان البريطانيون انتصارات رومل الباهرة قد اضطروا إلى تحويل عدد كبير من مقاتليهم ومقادير عظيمة من عتادهم إلى اليونان . فضعف مركزهم ضعفاً كبيراً في ميدان شمال إفريقيا . فأرسلت ألمانيا قائداً مجرباً من أفذاذ قوادها ، عُرِف بسعة الحيلة ودقة الخطط : هو الجنرال رومل Rommel — أرسلته ألمانيا على رأس فرقتين من صفوة محاربيها الأشداء . وشن رومل هجوماً كبيراً كلل بنجاح باهر لفت إليه الأنظار . وكانت الصحراء الغربية ميداناً مراً الأطراف يساعد على حركات الهجوم والإدبار في سرعة كبيرة . فأمكن لرومل في يونيو سنة ١٩٤١ أن يحرق أمامه قوات بريطانيا ومستعمراتها حتى بلغ مرسى مطروح ، ولاح كأن مصر عما قليل ستقع في قبضته .

٥ - هتلر يشهر الحرب على روسيا

كان هتلر يضمّر في سويداء قلبه أشدّ صنوف البغضاء والحقد على روسيا الشيوعية . وكان تحالفه معها في أغسطس سنة ١٩٣٩ زواج ضرورة أكثر منه تحالفاً قلبياً صادقاً ، فلم يمرّ أن يجازف بضرب إنجلترا ضربة فاصلة بغزو بريطانيا نفسها ، أو شن هجوم كبير على أملاكها في الشرق الأوسط ، بينما يقف منه ساسة الروس وقفة غامضة ، ويرابط الجنود الروس صفوفاً متراحة على حدود ألمانيا الشرقية .

الحليفان يضمران
لبعضهما أملاً
النيات

وفي الحين الذي شُغلت فيه ألمانيا في ربيع وأوائل صيف سنة ١٩٤٠ في غرب أوروبا - كما رأينا ، انتزع الروس ولاية بيسارابيا وشمال مقاطعة بوكوفينا من رومانيا ، وإن كان هذا الأمر قد تمّ بموافقة ألمانيا . وتلا ذلك إدماج روسيا دويلات البلطيق الثلاث : إستونيا ولتفيا ولتوانيا في الاتحاد السوفيتي . كما جرت على الحدود بعض الأحداث التي أثارت ريب الألمان في حسن نوايا الحكومة السوفيتية تجاهها ، وهيات الجو لنشوب القتال بين البلدين .

ففي فجر يوم الأحد ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ قذف هتلر بفرقه المصفحة وملايين مقاتليه عبر حدود روسيا . وقال في منشوره الذي أعلن فيه الحرب على تلك البلاد ، « لقد قررت اليوم أن أضبع مصير الشعب الألماني وحكومة الريخ ومصير أوروبا في أيدي جنودنا » . ووقف العالم كله مشدوهاً لهذه المغامرة الجسورة والمغامرة الهائلة ، وأدرك على الفور أن سيكون لهذا الصراع أبعد النتائج وأخطرها ، لا على تاريخ أوروبا فحسب ، بل على تاريخ الجنس البشري بأسره .

هتلر يشهر
الحرب

وانضم إلى جانب ألمانيا إيطاليا وهنغاريا ورومانيا وفنلندا . وفي الكفة الأخرى وقفت بريطانيا إلى جانب حليفها الجديدة ، دون أن تتأثر بعدائها المتأصل القديم لروسيا القيصرية ثم لروسيا الشيوعية . فصرح تشرشل بأن كل من يسير في ركاب هتلر هو خصم لنا ، وأن كل من ينازله هو حليف . ووقف الرئيس روزفلت موقفاً ودياً نحو روسيا . فقد كان يؤيد بريطانيا قلباً وقالباً ، ويرى

دفاعها عن بلادها وإمبراطوريتها دفاعاً عن قضية الحرية والنظم الديمقراطية. ولو أنه رأى أن الأوان لم يحن بعد للتزول ببلاده إلى حومة الوغى إلى جانبها .

وكان هتلر يثق بأن قواته ستظفر بنصر أكيد ، بل كان يتوقع أن تظفر أهداف هتلر أيضاً بنصر سهل . ويتطلع إلى الاستحواذ في حرب خاطفة على قمع أوكرانيا وبترول القوقاز والموارد الصناعية الضخمة في وادي نهرى الدونيت والفلجا ، ومن ثم يشق الجند الألمان طريقهم إلى الشرق الملىء بالخيرات الوفيرة والموارد الطبيعية الهائلة . كذلك خيل له أنه يستطيع أن ييذر بذور التفرقة في صفوف الدول الديمقراطية بوقفه موقف المحارب المصطفى في حرب صليبية ضد الشيوعية . غير أن هذه الأحلام العريضة والأهداف البعيدة تحطمت جميعها على صخرة المقاومة الروسية الباسلة ، وتضافر قوات الديمقراطية إزاء الخطر المشترك .

وحدث الهجوم الألماني على خطوط قتال كبيرة ثلاثة : الهجوم الأول المجوم في ثلاثة خلال جنوب بولندا في أوكرانيا ، والثاني خلال روسيا البيضاء إلى سمولنسك وموسكو ، والثالث هجومهم خلال دول البلطيق إلى لاتفيا .

وأصاب الألمان نجاحاً فائقاً في بادئ القتال ، وتغلغلوا بسرعة خاطفة ، انتصارات الألمان حتى بدا في وقت من الأوقات كأن هتلر يوشك أن يحقق هدفه الأكبر : وهو إقامة خط دفاعي يمتد على وجه التقريب من الفلجا إلى أوشانجل في أقصى الشمال . فقد اكتسح الألمان في الميدان الشمالي دول البلطيق في وقت وجيز . وواصلت قواتهم الزاحفة صوب بحيرة لادوجا إلى مشارف لاتفيا في أكتوبر ، وضربوا حصارهم على عاصمة روسيا القيصرية طوال ستة عشر شهراً تقريباً .

وفي القطاع الوسط للجبهة الروسية ، استولت الجيوش الألمانية بقيادة المارشال فون بـك Von Bock على سمولنسك في ١٦ يولييه . ثم توقفت قليلا كي تعد عدتها لهجومها الهائل على موسكو الذي بدأته في بواكير شهر أكتوبر . وكان تقدم الألمان سريعاً في بادئ الأمر ، حتى إنهم وصلوا في أوائل نوفمبر إلى مسافة مائة كيلومتر من موسكو . وهجم الألمان هجمة صادقة على الروس في السادس عشر ، ولكن الروس استماتوا في الدفاع عن حاضرتهم الكبرى ، وأمكنهم وقف

زحف فون بـك
السريع صوب
موسكو

فون بك طوال شهور الشتاء على بعد خمسين كيلومتراً من ضواحي موسكو .

وكذلك توجت أكايل النصر هجمات الجيوش الألمانية بقيادة المارشال فوز فون رندشتد في القطاع الجنوبي . فقد اكتسحت تلك الجيوش - مع معاونة فون رندشتد في القطاع الجنوبي - أكتسحت أوكرانيا ، وشقت طريقها خلال بشارايا على طول ساحل البحر الأسود إلى أودسا . فسقطت كييف في أيدي الألمان في ١٩ سبتمبر ، وأودسا في ١٦ أكتوبر ، وخاركوف في ٢٤ من ذلك الشهر . وفي خلال أيام خمسة اخترقوا شبه جزيرة القرم ، واستحوذوا على جميع أنحائها ، ما عدا ثغر سيواستوبول الذي كان الروس قد أحكموا تحصيناته حتى جعلوه أمتع من عقاب الجو . ثم تقدمت جيوش رندشتد شرقاً حتى وصلت إلى مدينة رستوف ، واستحوذت عليها في ٢٢ نوفمبر . ولكن الروس استرجعوها بعد أسبوع . واتخذت الجيوش الألمانية في الجنوب مواقعها الشتوية في أوائل ديسمبر على خط نهر الدونتر .

وكانت انتصارات الألمان في هجماتهم الأولى على أكبر جانب من الروعة والفقامة ، ومنى الروس خلال دفاعهم بخسائر مروعة . وفقدوا الحقول الغنية بالحنطة في أوكرانيا ، والجبهات الصناعية الهامة في أوكرانيا وحوض الدنيبر . كذلك استحوذ الألمان على مناجم فحم حوض الدونتر وجميع أرجاء شبه جزيرة القرم ، ما عدا سيواستوبول .

ومع جميع هذه الانتصارات الباهرة التي أحرزها الألمان ، فإن العالم أدرك للمرة الأولى خلال الحرب العالمية الثانية الطاحنة بأنهم لم يحققوا آمالهم التي منوا النفس بكسبها خلال حربيهم الخاطفة ، وأن الجيوش المدرعة الألمانية ليست بالقوات التي لا تُقهر . فقد حل الشتاء الروسي القارس البارد ، والألمان يدقون بمطارقهم الضخمة أبواب موسكو ولتنفراد اللتين استعصى عليهما فتحهما . فوقوا متعين حيارى أمام ذلك الغريم الجبار الذي لا تنفد موارده في الرجال ، برغم ما حاق به من النكبات والهزائم الملاحقة .

وجدد الجيش الألماني - الذي غدا الآن تحت قيادة فون بلك - جدد هجومه في أواخر ربيع سنة ١٩٤٢ ، وظفر بمدينة كرش Kerch . وفي الوقت عينه بدأت القوات الروسية بقيادة المارشال تيموشنكو Timoshenko هجوماً ، وهددت مدينة خاركوف . غير أن فون بلك قام بهجمة مضادة عبر نهر الدونتر ردتها على أعقابها .

ومما هو جدير بالملاحظة أنه بينما كان الألمان عام ١٩٤١ يرسلون هجماتهم الهائلة في القطاعات الرئيسية الروسية الثلاثة ، فإنهم اكتفوا عام ١٩٤٢ بتركيز قواتهم وهجماتهم في القطاع الجنوبي ، حيث بدأوا هجومهم الكبير في ٢٨ يونيو ، فاستولوا على سياستهول ، وبذلك دخلت في قبضتهم شبه جزيرة القرم بأكملها . ثم زحفت القوات الألمانية شرقاً بين الدونتر وأعلى نهر الدون ، ميممة وجهتها شطر حقول برول القوقاز ومدينة ستالنجراد ذات الأهمية الصناعية الكبرى . وقد أصاب الألمان نجاحاً في بادئ الأمر ، فقد أفلحوا في إرجاع الروس القهقري إلى الشاطئ الغربي للدون ، وبلغوا سفوح جبال القوقاز في أغسطس . وفي نهاية أكتوبر وصلوا إلى الطريق الحربي بمقاطعة جورجيا الذي يؤدي إلى تفليس . ولكن زحفهم أوقف في نوفمبر . ثم أجبرتهم الضرورات الحربية في الميادين الأخرى على الانسحاب من القوقاز .

ذلك أن الجيوش الألمانية عبرت نهر الدون في أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٤٢ ، وتقدمت إلى مدينة ستالنجراد ، حيث نشبت معركة دموية طاحنة قلم شهد تاريخ الحروب لها مثيلاً في الضراوة واستبسال المقاتلين الذين خاضوا غمارها . فقد قاوم الروس بحمية منقطعة الضريب هجمات الألمان ، ودافعوا عن مدينتهم شارعاً شارعاً ، وبيتاً بيتاً . ومع أن الألمان استولوا في النهاية على معظم أنحاء المدينة ، إلا أن ذلك كلفهم من الأرواح خسارة نحو مليون مقاتل من الملايين الأربعة الذين كانوا يقاتلون في الجبهة الروسية . وكان لهذه النكبة أبعاد الأثر في إبطاء تقدمهم في الأيام القادمة .

وفي ١٩ نوفمبر قام الجنرال زوكوف بهجمة مباغتة مكنته من الإحداق بالقوات

معركة ستالنجراد
الدموية الفاسلة

الألمانية . وأخفقت محاولات الألمان في إسعاف قواتهم . فاضطرت إلى التسليم في ٣١ يناير سنة ١٩٤٣ . وكان لهذه الكارثة تأثير عميق وألم مخصص في نفوس الألمان . فقد كانوا - كما سيجيء - قد أصيبوا بهزيمة فاصلة في ميدان شمال إفريقيا ، حيث جرت في أكتوبر سنة ١٩٤٢ معركة العلمين الذائعة الصيت التي كانت نقطة تحول في مصائر الحرب في ذلك الميدان الحيوى . وكاد تسليم القوات الألمانية في قطاع ستالنجراد يتفق تماما مع دخول الجيش الثامن البريطانى تونس .

٦ - دخول الولايات المتحدة واليابان

الحرب

تحيز الولايات المتحدة للحلفاء . وقد قدمت لهم مساعدات جمة اقتصادية وحرية ، بينما احتفظت اسمياً بحيادها . والحق أنها أخذت تسير باطراد منذ إعلان الحرب إلى الاشتراك الفعل في القتال في صف بريطانيا وفرنسا ، برغم معارضة أقلية قوية من زعمائها وأهلها في زج بلادهم في شؤون أوروبا وجبائلها ودساتيرها .

قانون الحياد الأمريكى فعند نشوب الحرب العالمية الثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، أقر الرئيس روزفلت قانون الحياد الأمريكى الذى حظر فيه تصدير الأسلحة على اختلاف أنواعها إلى جميع الدول المتحاربة دون استثناء . وكان هذا التشريع أضرم ببريطانيا وفرنسا منه بالمانيا .

تعديله وكان الرئيس روزفلت يعطف بكل جوانحه على قضية الحلفاء . فحضر مجلسى الكونجرس على تعديل أحكام ذلك القانون بحيث يباح للرعايا الأمريكين بيع العتاد الحربى . فأقر الكونجرس الأمريكى في ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٩ قانوناً سمح فيه للدول المتحاربة أن تبتاع نقداً من الأمريكين ما تروم من الأسلحة ، بشرط ألا تنقل على بواخر أمريكية . وكان هذا أقصى ما استطاع الرأى العام الأمريكى في ذلك الحين أن يهضمه لعون بريطانيا وفرنسا .

ولكن حينما انهارت فرنسا في صيف سنة ١٩٤٠ ، ووقفت بريطانيا ومستعمراتها تحارب بمفردها الألمان الأشداء ، تعاظم اهتمام الولايات المتحدة بمركز بريطانيا البالغ الحرج ، واشتد خوفها عليها من خطر الإبادة . فأعلن الرئيس روزفلت في خطاب ألقاه بجامعة فرجينيا في ١٠ يونيو « بأننا سندم أعداء العدوان بجميع الموارد المادية التي تملكها أمتنا » . كما أعلن بمقتضى قانون هافانا الذي اعتمده في ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٠ بأن مبدأ منرو يمتد إلى حماية الولايات المتحدة للمستعمرات التي تملكها الدول الأوروبية وأمريكا . وذلك كي يحول دون انتقال مستعمرات فرنسا وهولندا (بعد وقوع هاتين الدولتين في حوزة ألمانيا) في أمريكا الجنوبية إلى قبضة النازيين . وفي أغسطس أنشأت الولايات المتحدة وكندا مجلساً مشتركاً للدفاع .

وفي ٢ سبتمبر تم الاتفاق بين الولايات المتحدة وبريطانيا على أن تقرض تبادل المسرات الأولى الثانية خمسين مدمرة أمريكية مقابل تأجير بريطانيا إلى الولايات المتحدة عدداً من القواعد البحرية والجوية في جزر الهند الغربية وجزيرة نيوفنلند لمدة تسع وتسعين سنة .

واعتمد الرئيس روزفلت في ١١ مارس سنة ١٩٤١ « قانون الإعارة والتأجير » الشهير الذي جعل من الولايات المتحدة « المصنع الأكبر للديمقراطية » ، والذي وهبت بمقتضاه تلك البلاد لحليقاتها مواد حربية وغذائية ومشحونات أخرى خلال سنى الحرب قدرت قيمتها بما بين أربعين مليار دولار وخمسين مليار دولار . وقد تنازلت الولايات المتحدة بعد انتهاء العمل بهذا القانون في أغسطس سنة ١٩٤٥ - تنازلت عن جميع هذه المبالغ الطائلة لحليقاتها . ولقد قدم روزفلت العون على الفور إلى بريطانيا والصين . ثم مدّ نطاق هذا القانون إلى روسيا حينما دخلت الحرب في جانب الحلفاء ، بعد اعتماد القانون بأشهر ثلاثة .

ووضعت حكومة الولايات المتحدة يدها على جميع سفن المحور التي كانت قد اضطرت إلى البقاء ، في مواهبها خوفاً من الوقوع في أسر الأسطول البريطاني أثناء عودتها إلى بلادها . ثم استحوذت أمريكا في إبريل (سنة ١٩٤١) على

جزيرة جرينلند ، ووضعها تحت حمايتها المؤقتة . ووهبت بريطانيا في مايو خمسين سفينة لنقل البترول . واستولت على السفن الفرنسية اللاجئة بشغور الولايات المتحدة . وفي يونيو جمدت ثروات رعايا دولي المحور ، وأغلقت جميع قنصلياتها بالولايات المتحدة . واحتل الأسطول الأمريكي جزيرة أيسلند بالاشتراك مع البريطانيين .

ميثاق الأطلسي وتقابل الرئيس روزفلت وونستن تشرشل في ١٤ أغسطس في خليج أرجنتيا
Argentina Bay بجزيرة نيوفاوندلند ، حيث وضعوا « ميثاق الأطلسي »
Atlantic Charter الذائع الصيت الذي حوى « بعض المبادئ المشتركة
التي بنت عليها الدولتان آمالها لإقامة عالم أفضل » في المستقبل .

وتتلخص هذه المبادئ في القضاء على التوسع الاستعماري ، وعدم الموافقة على إجراء تغييرات في حدود الدول لا تتفق ورغائب الشعوب صاحبة الشأن . ونادى الميثاق بحق كل أمة في اختيار نوع الحكومة الذي ترضى به ، وبمنح الحكم الذاتي للشعوب المحرومة منه ، وتخويل جميع الدول ، دون تفرقة بين المنصورة والمقهورة منها - تخويلها الحصول على المواد الخام ، وتوفير التضامن الاقتصادي بين جميع الأمم . وأكد الميثاق نية الدولتين في السعي والجهد في سبيل تحرير العالم من الحروب ، ومن الخوف ، ومن العوز ، وكفالة حرية البحار لجميع الدول ، والامتناع عن استخدام القوة كأداة لتسوية الخلافات الدولية . والحق أن هذا الميثاق صورة مكرورة من فقط ولسن الأربع عشرة الشهيرة . فكان الزعيمين بإعادتهما تسجيلها في وثيقة رسمية في هذه الظروف ، اعترفاً بحكمة تلك المبادئ التي نادى بها وودرو ولسن قبل ذلك بربع قرن . وجاء ذلك شاهداً آخر على إخفاق العالم في السير بمقتضاها خلال الفترة التي توسطت الحربين العالميتين .

وتوتر العلاقات وكان السبب المباشر لدخول الولايات المتحدة الحرب هو تطور الأحداث
بين اليابان في الشرق الأقصى ، وازدياد التوتر في علاقاتها باليابان ؛ فقد احتدمت المعارك في
والولايات المتحدة الصين بين الجيوش اليابانية وجيوش شيانج كاي شك . وكانت بريطانيا والولايات

المتحدة تمدان قوات الصين ببعض المعونة الحربية عن طريق بورما والملايو. رغبت اليابان في احتلال هاتين المستعمرتين البريطانيتين ، حتى تقطع تلك الطريق ، وتستغل مواردهما الطبيعية الكبيرة . ورنث أيضاً بنظرها إلى انتهاء فرصة انشغال الدول الاستعمارية العظمى في الحرب ، فتحقق آمالها في إقامة إمبراطورية الشرق الكبرى التي حلم اليابانيون بتشيدها

ووجد زعماء اليابان العسكريون في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية حليفين طبيعيتين. فأعلن وزير الخارجية اليابانية أن سياسة بلاده ستقوم على « معاهدة الدول الثلاث » : اليابان وألمانيا وإيطاليا. وطلبت اليابان من حكومة فيشي الضعيفة السماح لها ببناء مطارات في الهند الصينية. فرضت تلك الحكومة لذلك الطلب . فردت الولايات المتحدة على هذا الإجراء بتقديمها قرضاً للصين ، وفرضها حصاراً جزئياً على اليابان .

وبدأ التوتر يشتد بين الدولتين في يولييه سنة ١٩٤١ حين أعلنت اليابان في الخامس والعشرين منه أنها أخذت على عاتقها حماية مستعمرة الهند الصينية الفرنسية . فرد روزفلت في اليوم التالي على ذلك الإعلان باتخاذة لإجراءين خطيرين الشأن كبيرى الدلالة : فقد ضم القوات المسلحة لجمهورية الفلبين إلى جيش الولايات المتحدة ، وعين الجنرال دجلاس ماك آرثر Douglas Mac Arthur قائداً أعلى لقوات الولايات المتحدة في الشرق الأقصى ، وأصدر أمراً بتجميد الأموال والممتلكات اليابانية في الولايات المتحدة . واقتضت بريطانيا وهولندا على الفور أثره . فقطع بذلك عن اليابان جميع مواردها من المطاط والحديد الخردة وزيت البترول .

فوطن حينئذ أقطاب العسكريين اليابانيين العزم على إعلان الحرب على تلك الدول في خلال ثلاثة أو أربعة أشهر . ولكن الحكومة اليابانية أرسلت وفداً إلى الولايات المتحدة ، إما بغية إزالة أسباب الاحتكاك بين الدولتين ، وإما سعياً لكسب الوقت لاستكمال تأهبها الحربى .

معركة بيرل هاربور
 ولكن بينما كانت المفاوضات دائرة في واشنطن بين الفريقين ، إذ سمع الأمريكيون وسائر أرجاء العالم دون سابق إنذار أن قاذفات القنابل اليابانية المنقولة على حاملات الطائرات أخذت في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والخمسين من صباح يوم الأحد ٧ ديسمبر - أخذت تقذف الطرايد وتمطر القنابل على الأسطول الأمريكي للمحيط الهادى الذى كان راسياً ساعتئذ بقاعدته البحرية الكبيرة في بيرل هاربور بجزر هاواى. وبذلك قضت اليابان بضربة واحدة على التفوق البحرى الأمريكى في ذلك المحيط .

وفى ظهر ذلك اليوم عينه هاجمت الطائرات اليابانية الخارجة من جزيرة فورموزا مطارات الجيش الأمريكى بالقرب من مانىلا ، فأنزلت بها خسائر مروعة .

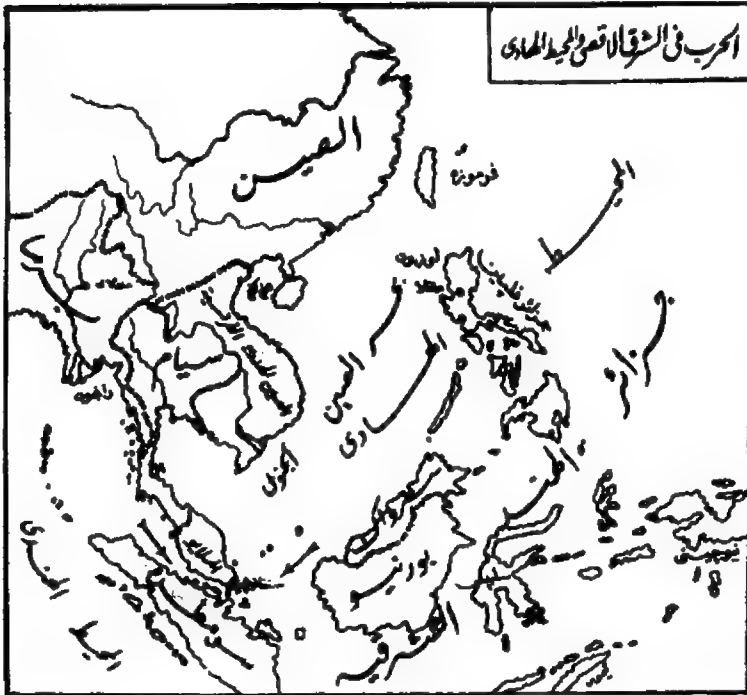
إعلان الحرب
 وأخذ القواد المحليون الأمريكيون ورجال الحكومة في واشنطن على غرة تامة ، وكادت الأمة الأمريكية لا تصدق أنباء ذلك الهجوم الغادر . وسرعان ما انقلب عدم تصديقهم إلى غضب هائل وتصميم قاطع على الانتقام من « ذلك الهجوم اللئيم غير المستفز » . فمُطعت المفاوضات على الفور. وأعلن الكونجرس في اليوم التالى وجود حالة حرب مع اليابان. وبعد أيام ثلاثة أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة .

موقف الحلفاء العام
 وكان موقف الحلفاء الحربى حينما نزلت أمريكا حومة الوغى - كان يبعث على شيء كثير من اليأس. فقد كانت جيوش هتلر المظفرة مسيطرة على أوروبا الغربية ودول البلقان ، ومتوغلة في قلب روسيا التى بدت لمعظم المراقبين كأنها تشرف على إلقاء سلاحها أمام قوة عدوها القاهرة . وكانت أسبانيا تخضع لسلطان دكتاتور عسكري يدين إلى مدى كبير بوجوده في منصة الحكم للمساعدات الحرية القيمة التى كانت دولتنا المحور قد قدمتها له ، ويتأهب في أية لحظة للانحياز إلى جانبهما؛ وقد أوردت أسراب الغواصات الألمانية التى انتشرت في المحيط الأطلنطى سفن الحلفاء موارد التهلكة. وأغلق البحر المتوسط في وجه سفن الحلفاء ، فاضطرت إلى استخدام طريق رأس الرجاء الصالح

القديم في أسفارها إلى مصر والهند . وغدا شمال إفريقية من تونس إلى حدود مصر الغربية خاضعاً لسلطان المهور . وهدد رومل تهديداً خطيراً مركز البريطانيين كله في الشرق الأدنى . فكان يطمع في الوصول إلى قناة السويس ، ومنها يقفز إلى فلسطين وسوريا . وبذلك يجبر - أكبر الظن - تركيا على الانحياز إلى جانب المهور . كما هددت ألمانيا القوقاز والعراق باجتياحهما .

وبالمثل أخذت النكبات الحربية في الشرق الأقصى تتعاقب على الحلفاء . وكانت الحلفاء الواحدة في إثر الأخرى في سرعة مخيفة خلال الأشهر الثمانية التالية لدخول في الشرق الأقصى اليابان الحرب . فلانه في اللحظة التي كانت الطائرات اليابانية تضرب الأسطول الأمريكي الراسي في ميناء بيرل ضربة أقعدته عن العمل ، كانت قواتها البرية تنزل في سيام وشمال شرق الملايو . ولم تطل مقاومة سيام أكثر من أربع وعشرين ساعة . ففتح سقوطها الطريق أمام الجيش الياباني إلى الملايو . وفي ١٠ ديسمبر أغرق اليابانيون في هجمة جوية صادقة البارجتين البريطانيتين The Repulse و The Prince of Wales ، فشُلَّ السلاح البحري البريطاني في الشرق الأقصى ، وسهلت هذه النكبة على اليابانيين تحقيق جميع أهدافهم الرئيسية في آسيا الجنوبية الشرقية . فسقطت هنج كونج في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٤١ ، ورابول - القاعدة التي كانت تحمي أستراليا - في يناير سنة ١٩٤٢ ، وسقطت سنغافورة التي كان البريطانيون قد أنفقوا على تشييد حصونها نفياً وثلاثين مليون جنيه ، واعتمدوا عليها أكبر اعتماد في الدفاع عن تلك الجهات - سقطت في ١٥ فبراير بعد ضربها بالقنابل يومين . وسقطت ، الواحدة تلو الأخرى ، سومطرة وجافا وبالي وتيمور وغيرها من جزر الهند الشرقية الآهلة بالسكان الوادعين النشطين ، وذات الموارد الثمينة من آبار البترول والمزارع الكبيرة للمطاط . وبتسليم جافا في ٩ مارس انهار أنهاراً تاماً حجاز الملايو ، وأصبح الطريق البحري إلى أستراليا مفتوحاً في وجه اليابانيين .

وحول جانب من القوات اليابانية وجهته بعد سقوط الملايو إلى بورما ، سقط بورما في حيث تقدم باطراد برغم المقاومة الصادقة التي لقيها من مقاتلي الحلفاء الذين كانوا حوزة اليابانيين



يشملون بعض الكتابات الصينية . فبلغت القوات اليابانية في وقت وجيز خليج مرتبان Mataban ، وأكرهت الجنود البريطانيين على الارتداد . وسقطت رانجون عاصمة بورما وأهم ثغورها في السابع من مارس ، ومندلای - المدخل الجنوبي لطريق بورما - في أول مايو . وبلغت الجيوش اليابانية بعد ذلك بأسبوع أكياب Akyab على خليج بنغال .

ودافع الأمريكيون عن باتان وكورييجيدور دفاعاً باسلاً مجيداً ، يعاونهم الجنود الفلبينيون . ولكن اضطر الجنرال كنج King إلى التسليم مع جنوده البالغ عددهم ١٢,٥٩٠ أمريكياً ، وأكثر من ٦٠ ألف فلبيني ، والجنرال وينرايت Wainright إلى التسليم مع جيشه البالغ ١١ ألفاً من الأمريكيين ، ونيفاً وخمسين ألفاً من الفلبينيين .

وبذلك تقوض في أقل من ستة أشهر الجانب الأكبر من الإمبراطوريات الاستعمارية الخاضعة لبريطانيا وهولندا والولايات المتحدة في الشرق الأقصى . ولم يهبط في التاريخ الحديث مقام الجنس الأبيض وهيته كما هوى إلى الدرك السحيق الذي انحدر إليه في ذلك الحين . كما أنه لم تسم قط مكانة الشعوب الآسيوية وتعظم صولتها ، كما سمت مكانتها وعظمت صولتها في شهر يونيو سنة ١٩٤٢ .

ولكن قوة الدفع الياباني في بورما وصلت إلى منتهىها عند هذا الحد . وكان ذلك إلى درجة كبيرة نتيجة للأمطار الموسمية الغزيرة التي يشتد هطولها في ذلك الفصل ، ولضرورة تعزيز اليابانيين مراكزهم وتوطيد أركان سيطرتهم على الفتوحات الكبيرة التي آتموها خلال هذه الأشهر الخمسة . وبذلك نجحت الهند من الغزو الياباني .

وكل ذلك وقف الزحف الياباني في جزر المحيط الهادى ، بعد أن استولوا على غينيا الجديدة وجزائر سليمان في مارس سنة ١٩٤٢ ، ونزلوا في ٨ إبريل بجزر الأميرالية Admiralty Islands . وما لبث الأمريكيون أن اتخذوا خطة الهجوم . فقاموا بغارات جوية على مراكز اليابانيين المتعددة ، ووجهوا في ١٨ إبريل غارة جوية إلى طوكيو لم تحدث بأبنيتها سوى أضرار بسيطة ،

تقويض
الإمبراطوريات
الاستعمارية

وقف الزحف
الياباني

ولكنها ألقت بعض الذعر فى نفوس اليابانيين .

وأصيب اليابانيون فى مطلع مايو بهزيمة بحرية كبيرة فى معركة بحر المرجان Coral Sea ، بينما كانوا يحاولون الاستيلاء على ميناء مورسبي Moresby وهى قاعدة ذات موقع استراتيجى هام فى غينيا الجديدة . وكان الجنرال ماك آرثر قد اتخذها نقطته التى سيبدأ منها « طريق العودة » . وكانت هذه الموقعة هى الأولى التى أحرز فيها الأسطول الأمريكى نصراً حاسماً فى الحرب العالمية الثانية ، كما كانت أيضاً المعركة البحرية الأولى فى تاريخ العالم التى قامت فيها الطائرات المحمولة على حاملات الطائرات بتدمير بوارج الخصم ، دون أن تشاهد أية سفينة من سفن الأسطولين المشتبكين فى المعركة سفن العدو .

معارك بحرية
كبيرة

ثم نفى الأمريكيون هذا الفوز بنصر بحرى آخر أوتوه فى أوائل يونيو ، وأغرقوا فيه أربع حاملات طائرات كبيرة يابانية ، خلال هجوم اليابانيين على جزيرة مدواى . وكانت هذه المعركة من المعارك البحرية الفاصلة ، فقد حالت دون تنفيذ اليابانيين خططهم التى كانت ترمى إلى الاستيلاء على جزر كاليدونيا الجديدة وفيجي وصاموا .

وتوقف القتال شهرين عمل كلا الفريقين المتحاربين فى غضونهما على تضميد جروحهم ، والاستعداد للجولة التالية . وقد دامت هذه الجولة ستة أشهر من الاشتباكات الدموية البالغة العنف التى جرت على مقربة من بونا جونا Bona Gona فى غينيا الجديدة لامتلاك جزر جودال Guadalcanal

معركة جزيرة سافرو
ويتعذر علينا أن نصف هنا تفصيلاً جولات تلك المباراة الطويلة الأمد البالغة الشراسة ، والتى تعج بالوان البسالة وصنوف الشقاء . ولكن يكتفى أن نشير إلى معركة جزيرة سافرو التى فيها باغتت فى الساعات الأولى من صباح ٩ أغسطس مجموعة من الطرادات اليابانية قسماً من الأسطول الأمريكى والأسترالى ، وكادت تدمره عن آخره . فقد أغرقت أربعة من الطرادات الأمريكية والطرادات الأسترالية الخمسة ، دون أن تصاب القوة البحرية اليابانية إلا بخسائر طفيفة . فكانت معركة جزيرة سافرو أسوأ هزيمة لحقت بالأسطول الأمريكى فى تاريخ

البحرية الأمريكية ، وكان لها نتائج بعيدة الآثار . كذلك نشبت معارك حامية بين حاملات الطائرات في جزر سليمان الشرقية (٢٤ أغسطس) ، وعند جزر سانتا كروز (٢٦ - ٢٧ أكتوبر) ، كما كانت تنشب معارك جوية كل يوم تقريباً في غضون تلك الأشهر الستة .

وأخيراً التحم الأسطولان الأمريكي والياباني في معركة جوادال المروعة (١٢ - ١٥ نوفمبر) . وقد خسر فيها الأمر يكيون طرادين وسبع مدمرات ، وفقد اليابانيون بارجتين وطراداً ومدمرتين وعشر نقالات . فزخر الأمريكيون ثقة في النتيجة النهائية للنضال . وما جاء ٩ فبراير سنة ١٩٤٣ حتى كان اليابانيون قد أدخلوا جزر جوادال .

ومع أن اليابانيين بزوا في بادئ دخولهم الحرب الألمان أنفسهم في سرعة زحفهم وقوة بطشهم ، ومع أن دول المحور كانت تحتل حتى صيف سنة ١٩٤٢ مساحات شاسعة من أراضي أعدائها ، فإن هذا النضال العالمي الضروس بدا للمراقب غير المتحيز كأنه بين قوتين تكادان تكونان متعادلتي . ففي الكفة الواحدة نرى ألمانيا وإيطاليا واليابان وعدداً من الدول الصغيرة التي سارت في فلكتها ، وفي الكفة المقابلة نرى بريطانيا ومستعمراتها المستقلة ذوات الموارد الطبيعية الهائلة ، وروسيا ، والولايات المتحدة ، والصين ، ومعظم دول أمريكا الجنوبية . وكان للحلفاء تفوق ظاهر في عدد المقاتلين الذين يستطيعون إنزالهم إلى ساحات الوغى ، والعمال الذين ينتجون العتاد الحربي . غير أنه خفض إلى حده ما من قيمة هذا التفوق استيلاء ألمانيا واليابان على مساحات شاسعة جداً من أراضي أعدائهما الآلهة بالسكان ، الغنية بالموارد الطبيعية . وبذلك أمكن للألمان واليابانيين ، أن يسخروا للعمل بمصانعهم الحرية ملايين العمال من الأمم الخاضعة لهم ، وأن يستغلوا قمح أوكرانيا ورومانيا ، وبترول رومانيا وجزر الهند الشرقية ، ومناجم القصدير ، ومزارع المطاط ، والكنين في بلدان الشرق الأقصى .

وكان الحلفاء في الكفة الأخرى يسيطرون على الجزء الأكبر من موارد البترول والحديد في نصف الكرة الغربي . كذلك كانوا يتفوقون على أعدائهم

تبادل كفتي
الفريقين
المتحاربين

في أمرين خطيرين : الأول ، في تضاعفهم وتمكنهم من توحيد صفوفهم . فلم يكن في داخل بلادهم طواير خامسة تخدم الخصوم ، ولا مثير و فتن وقلاقل ، ولا قوات مقاومة ، كالذين غصت بهم الأقطار التي احتلتها دول المحور مثل فرنسا وبولندا واليونان ويوغسلافيا ، ولا متآمرون كهؤلاء الذين حاولوا اغتيال هتلر وقلب حكومته في أول صيف سنة ١٩٤٤ ، مما بعثر جهود تلك الدول واستنزفت قواتها .

وكان الأمر الثاني الذي تفوق فيه الحلفاء توفيقهم الفريد في مجال الزعامة . فقد وجدت بريطانيا خلال أشد ساعات محنتها أعظم زعيم حربي تولى تسيير دفتها منذ عهد لورد تشاتم : وذلك في شخص ونستن تشرشل . وكذلك حالف التوفيق الأمريكيين في أن قاد صفوفهم فرنكلن روزفلت الذي أبقى قسماً وافراً من قوة العزيمة وصلابة الإرادة ، والحكمة السياسية والخبرة الحربية . وكان كلا الزعيمين محبوباً في بلاده ، وفي بلاد حلفائه ، ظافراً بثقة شعوبها .

أما دول المحور فلم تتمكن من أن تحقق فيما بينها اتحاداً حقيقياً في الأهداف السياسية ، أو توحيداً للخطط الحربية ، أو اشتراكاً في إنتاج الأسلحة ، أو تبادل الأسرار العلمية . وكانت إيطاليا بالوعة استنزفت جانباً كبيراً من قوة حليفتها ألمانيا . وقاوت اليابان في ميادينها الخاصة ، لتحقيق مع الحلفاء الخاصة ، دون أن تحفل بالمصالح الألمانية . مثال ذلك ، كان الهجوم الياباني على ميناء بيرل مخالفاً لرغبات هتلر والقيادة العليا الألمانية اللذين كانا يرومان أن تترك اليابان أمريكا جانباً ، ولو إلى حين ، وأن تنقض على روسيا في ميادين الشرق . ولم تكن حتى خطط الجيش الياباني متناسقة مع خطط الأسطول الياباني . ولم يكن للدول المحور هيئة أركان عليا موحدة توفق بين أعمال جيوشها المتعددة في ساحات القتال بقارات أوروبا وإفريقية وآسيا .

٧ - الحلفاء يبدأون الهجوم في مختلف الميادين الحربية

تسلم طبرق

بينما كان ونستن تشرشل يتحدث مع الرئيس روزفلت في البيت الأبيض خلال زيارة قام بها لوشنطن في يونيو سنة ١٩٤٢ ، إذ انقضى على مسامعه نبأ استيلاء الألمان على طبرق بليبيا. ولقد اعترف تشرشل لخاصته يومئذ بأنه يعد نفسه «أثعس إنجليزي زار أمريكا منذ أن سلم الجنرال برجوين قواته لعدوه»^(١). ذلك أن الجيش البريطاني فقد في طبرق معظم دباباته وكليات هائلة من العتاد والمؤونة ، وأصبح الطريق إلى القاهرة وقناة السويس مفتوحاً .

ولكن الجنرال ألكسندر القائد البريطاني العام للجيش الشرق الأدنى ، ومساعد الجنرال منتجورى ، تحصنا في العلمين ، وهو موقع استراتيجي منيع يساعد المدافعين على الصمود في وجه العدو . وبعثت أمريكا على وجه السرعة أربعمائة دبابة كبيرة إلى الجيش البريطاني بمصر ، فأمكنهما وقف رومل في زحفه الحاطف صوب النيل .

وكان قادة إنجلترا والولايات المتحدة قد وصلوا أثناء زيارة تشرشل هذه إلى اتفاق بشأن شن هجوم كبير على قوات دولتي المحور في شمال إفريقيا ، تمهيداً لفتح الجبهة الغربية التي كانت روسيا تلح عليهما مشددة بفتحها في أوروبا ، تخفيفاً لضغط الجيوش الألمانية الهائل عليها في الجبهة الشرقية .

واتفق على أن تزحف غرباً القوات البريطانية في مصر في نفس الوقت الذي يغزو فيه جيش أمريكي - بريطاني المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا . وبدأ هجوم الجيش الثامن البريطاني بقيادة الجنرال منتجورى في ليل يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، فاخترق خطوط الدفاع الرئيسية للقوات الألمانية بقيادة رومل بعد معركة حامية في العلمين . وأخذ الجيش الثامن يحرق أمامه

معركة العلمين
الفاصلة

(١) إشارة إلى تسليم هذا القائد البريطاني للجنرال جيتس Gates الأمريكي في معركة ساراتوجا سنة ١٧٧٧ خلال حرب الاستقلال الأمريكية .

الألمان باطراد ، ودون توقف . فطاردهم ١٣٥٠ ميلا في اثنين وثمانين يوماً . واستعاد طبرق في ١٢ نوفمبر ، وسقطت في يده العقيلة في ١٤ ديسمبر ، وطرابلس في ٢٣ يناير سنة ١٩٤٣ . واضطر رومل إلى الاحتماء بخط مارت Mareth الحربي وراء حدود تونس ، وهو منطقة كان الفرنسيون قد حصنوها تحصيناً منيعاً ، كى يتقوا من ورأها هجمات الإيطاليين .

ونزلت القوات الأمريكية والبريطانية التي جاءت من الأطلنطى لاحتلال إفريقيا الشمالية الفرنسية - نزلت على مقربة من كازابلانكا وهران والجزائر في الثامن من نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، وتمكنت من الاستيلاء على هذه البلدان دون أن تلقى أية مقاومة تقريباً من الفرنسيين . وإن كان هؤلاء لم يظهروا سوى رغبة زهيدة في التعاون مع الغزاة .

وكان رد الألمان على نزول الحلفاء بشمال إفريقيا أن بحثوا بقواتهم إلى تونس ، واحتلوا في ١١ نوفمبر جميع الأراضي الخاضعة لحكومة فيشي ، فيما عدا طولون التي كان يرسو بمينائها الأسطول الفرنسي . ولكن الألمان دخلوا هذا الثغر بعد ذلك بأسبوعين بقصد الاستحواذ على الأسطول خوفاً من فراره إلى الحلفاء . غير أن الفرنسيين آثروا إغراقه بأيديهم .

وواجه رومل الآن قوات العدو الزاحفة من جهتين : الجيش الثامن البريطاني من الشرق ، والجيش الأول البريطاني يعاونه فرقة أمريكية وعدد من الكتائب الفرنسية من الغرب . وقد حاولت القوات الألمانية مرتين : الأولى في فبراير ، والثانية في أوائل مارس سنة ١٩٤٣ - حاولت بشنها هجمات عنيفة أن تحدث التواء في خط هجوم الحلفاء في جنوب تونس . ولكنها أخفقت في كلتا المرات .

ومن ثم تتابعت هزائم الألمان ، واضطروا إلى الارتداد بلدة ببلدة ، وموقعاً موقعاً أمام جيوش أعدائهم المظفرة . ففي ليلة ٢٠ مارس هجم الجيش الثامن هجمة صادقة على خط مارت واخرقه . وما جاء اليوم السابع من إبريل حتى تم اتصال جيوش الحلفاء الزاحفة شرقاً وغرباً بعضها ببعض . وفي ٥ مايو قام الحلفاء بهجمة شديدة أنهت القتال في ميدان شمال إفريقيا . فدخلت الكتائب

الأمريكية بيزرته ، ودخل الجيش الأول البريطاني تونس في ٧ مايو . ولم يمض أسبوع بعد ذلك حتى استسلمت جميع قوات المحور في ذلك الميدان لأعدائها . وقد بلغ عدد الأسرى منها نحو ربع مليون جندي كانوا يؤلفون بعضاً من خيرة الفرق الألمانية والإيطالية .

مصرع رومل وتمكن رومل من الفرار جواً مع عدد قليل من كبار معاونيه إلى ألمانيا ، حيث وكل إليه هتلر إعداد العدة لمقاومة نزول جيوش الحلفاء المرتقب بفرنسا . ولكنه لقي مصرعه في صيف سنة ١٩٤٤ . وتضاربت الروايات في كيفية مقتله . فمن قائل إن هتلر أجبره على اكتراع السم حين كشف ضلعه في المؤامرة التي دبرت لاغتياله في يولية سنة ١٩٤٤ ، وإقصاء النازيين عن كراسي الحكم . أما الرواية الرسمية فأعلنت أنه قُتل في حادث اصطدام جرى لسيارته خلال غارة جوية للحلفاء .

نزول قوات الحلفاء بإيطاليا وكان من أهم نتائج النصر الكبير الذي أتي لقوات الحلفاء انهيار روح الإيطاليين المعنوية ، وقصورهم عن القتال ، ونشاط المتآمرين على موسوليني للقضاء على نظام حكمه . وعمل الحلفاء على تطهير البحر الأبيض المتوسط من قوات العدو البحرية حتى يمكن لهم إعادة استخدامه في نقل مقاتليهم ومهماتهم . فهجموا في أوائل يونيو سنة ١٩٤٣ على جزيرتي بانتلاريا Pantellaria ، ولبيلدوسا Lampedusa المحصنتين ، واستولوا عليهما . ثم نزلوا بصقلية . وما اختتم شهر أغسطس حتى كانت تلك الجزيرة بأكلها قد وقعت في أيديهم .

سقوط موسوليني وكان موسوليني قد استقال من منصبه في ٢٥ يولية . ثم أُلقي القبض عليه وسجن في معتقل خاص . وخلفه في رئاسة الحكومة المارشال بادوليو Badoglio . فشرع على الفور في فتح مفاوضات سرية لعقد هدنة بين بلاده والحلفاء . وقد أمضيت هذه الهدنة في ٣ سبتمبر ، وكان من أهم شروطها استسلام الإيطاليين بدون قيد أو شرط . وتوقف قواتهم البرية عن القتال ، وتسليمهم أسطولهم البحري وإلحوى إلى الحلفاء ، وضمانهم استخدام الحلفاء لجميع الموانئ والمطارات الإيطالية .

وما درى الألمان بخبر هذه الهدنة ، حتى احتلوا رومة في ١٠ سبتمبر ، وسيطروا على جميع مرافق البلاد ، ولا سيما في الشمال . ففر المارشال بادوليو ورجال حكومته إلى مراكز الحلفاء ، وأعلنوا الحرب على ألمانيا ، وُعدت إيطاليا دولة محاربة في صفوف الحلفاء .

ونزل البريطانيون في كالبريا بجنوب إيطاليا في ٣ سبتمبر ، ونزل الأمريكيون في سالرنو جنوب نابلي في ٩ سبتمبر . فركز الألمان فوراً قواهم في قطاع سالرنو . وزحفت وحدات من الجيش الثامن البريطاني ، واستولت على مدن تارنتو وبرنديزي وباري ، واتصل البريطانيون بالأمريكيين ، وقاموا معاً بهجمات صادقة طردت الألمان من سالرنو . وسقطت نابلي في أول أكتوبر في أيدي الأمريكيين . فراجع الألمان للاحتياء بخط دفاعي أقاموه عند نهر الفلُتورنو . ولكن تمكن الأمريكيون في منتصف أكتوبر من عبور النهر ، ودفعوا الألمان أمامهم إلى ما وراء نهر الجارليانو .

وفي ٢٠ يناير سنة ١٩٤٤ عبرت قوات الحلفاء نهر الجارليانو ، وأنزلوا معركة كاسينو بعد ذلك بيومين بعض كتائبهم في أنزيو Anzio ، كي يقطعوا على مؤخرة الألمان خط الرجعة . ولكن استطاع المارشال كسلرنج Kesselring القائد الأعلى للجيش الألمانية بإيطاليا أن يوقف تقدم الحلفاء قرابة أربعة أشهر في الإقليم الجبلي القريب من كاسينو . إذ لم تتمكن جيوش الحلفاء من إقصاء غريمها من مواقعها المنيعّة إلا في مايو ، حينما أكرهته على التقهقر العاجل صوب الشمال . وسقطت رومة في أيدي الجيش الخامس الأمريكي في ٤ يونيو ، أي قبل يومين من نزول الحلفاء في نورمندا بشمال فرنسا .

ومن ثم أخذ يترى باطراد سقوط البناجر والمدن الإيطالية في قبضة الحلفاء . تابع سقوط المدن فسقطت لجهورن في يوليو ، وفلورنسا في ١١ أغسطس ، وبيزا في أول سبتمبر ، وريميني في الثاني والعشرين منه ، ورافنا في أوائل ديسمبر .

وأوقف سوء الأحوال الجوية وزمهرير الشتاء زحف الحلفاء البطيء - ولكنه الزحف المطرد - خلال شهور الشتاء . ولكنهم بدأوا في العاشر من إبريل

سنة ١٩٤٥ المرحلة الأخيرة من الحرب في إيطاليا ، فهاجموا الألمان من كلا جانبي شبه الجزيرة . فسقطت بولونا ، ثم جنوه . وعلى الأثر انهارت دفعة واحدة قوى الألمان . وأخذوا يستسلمون في أعداد كبيرة . فأرسل كسلرنج مندوبين عنه كي يفاوضوا الحلفاء في شروطهم ، وقد وقعوها في ٢٩ إبريل . وبمقتضاها سلم الألمان أنفسهم ، وألقوا بأسلحتهم دون قيد أو شرط ، وتوقفوا عن القتال في الثاني من مايو .

وكان الألمان قد عرفوا مكان موسوليني . فبعثوا جواً بسرية من الجنود الفدائيين أنقذته من سجنه . وألف موسوليني حكومة إيطالية مناصرة لهم . وعند انحسار قوتهم ، اضطر إلى التقهقر معهم . وأخيراً تمكنت إحدى كتائب المقاومة الإيطالية من إلقاء القبض عليه في ٢٨ إبريل سنة ١٩٤٥ مع نفر من أنصاره الفاشستين في بلدة دُنْجُو على بحيرة كومو ، حيث أجريت له محاكمة صورية ، وحكم قضائه عليه بالإعدام . فأعدم هو وبعض رفاقه رمياً بالرصاص . وعلقت جثثهم في بعض ميادين كومو وميلان المقر القديم لرياسة الحزب الفاشستي .

إعدام موسوليني

وكان الأمريكيون والبريطانيون قد أرسلوا كميات ضخمة من العتاد الحربي إلى الروس عن طريق إيران وبحر قزوين ، وذلك بعد أن احتلت قوات بريطانية وروسية مواقع استراتيجية في إيران في أغسطس سنة ١٩٤١ .

الروس يبدأون زحفهم الكبير

وما إن أشرف عام ١٩٤٢ على الانتهاء حتى كان الزحف الألماني الهائل على الأراضي الروسية قد بدأ في الانحسار ، وتحول المد بعد هزيمة الألمان الدموية في ستالينجراد إلى ارتداد عاجل . فأكروها على الجلاء عن القوقاز . ثم طُردوا من حوض الدونتر ، واسترجع الروس مدينة خاركوف .

وكذلك تحول الروس في القطاع الشمالي إلى الهجوم . وما جاء منتصف يناير سنة ١٩٤٣ حتى كانوا قد تمكنوا من رفع الحصار عن لننغراد . وهجم المارشال تيموشنكو هجمة ظافرة في نهاية فبراير على الألمان في جنوب بحيرة إلين ، وحرر موسكو من تهديد الألمان لها ، وهو التهديد الذي ظل مصحلاً عليها منذ أواخر سنة ١٩٤١ .

ارتداد الألمان
المطرد في جميع
القطاعات

وكانت هجمات الروس في جبهاتهم متفقة في توقيتها مع هجمات الحلفاء في شمال إفريقيا ، ثم في إيطاليا . وأوقف الشتاء الروسى بزهميره الشديد القتال جميع القطاعات . ثم استؤنف الصراع المائل في يولييه سنة ١٩٤٣ بهجمة ألمانية قام بها الألمان على نتوء كورسك Kursk . فشن الروس هجمات مضادة بالغة العنف على طول الجبهة الممتدة من أورل Orel إلى البحر الأسود . وأخذ الروس يتقدمون تقدماً مطرداً . فاستردوا سمولنسك في أواخر سبتمبر ، وكييف في ٦ نوفمبر . وجرفوا الألمان أمامهم إلى خط الدنيبر جنوباً . وما انصرمت سنة ١٩٤٣ حتى كان الجيش الروسى قد حرر فعلاً ثلثى الأراضي التي كان الألمان قد احتلوها من أرض الوطن .

وحول الروس هجومهم الرئيسى في يناير سنة ١٩٤٤ إلى الجبهة الشمالية ، حيث اخترقوا خطوط الألمان حول لنتفرد ، وأكروهم على الارتداد من مواقع ظلت في قبضتهم منذ سنة ١٩٤١ . فاضطرت القوات الألمانية إلى الانسحاب حتى نهر التاركا ولايات البلطيق .

وفي الوقت عينه واصل الروس تقدمهم المطرد في قطاعات أخرى من ميدان الحرب . فسقطت رافنو ولوك في أوائل فبراير سنة ١٩٤٤ ، وطرد الألمان من أوكرانيا ، ومنوا بهزيمة كبرى بالقرب من كورسون حيث تمكن الروس من تطويق عشر فرق ألمانية وإبادتها قتلاً وأسراً . واستمر النصر حليف الروس خلال شهر مارس ، قبل أن ينهمر المطر وتلويب الثلوج التي تغطي الأرض ، فيجبر المتحاربون على وقف القتال حتى حلول الصيف . فعبروا أنهار بوج ودينستر وبروث ، وانتزعوا أودسا في ١٠ إبريل .

ثم غزا الروس شبه جزيرة القرم ، واستعادوها بأكملها في أسبوع ، فيما عدا سياستهول التي امتنعت عليهم حتى أوائل شهر مايو . وبذلك اقترب الروس من الأراضي الألمانية والممالك البلقانية التي كانت تدور في فلك هتلر . ففي الشمال وقف الروس على حدود إستونيا ، وفي الوسط وصلوا إلى مقربة من حدود بولندا ، وفي الجنوب تجاوزوا حدود رومانيا .

٨ - الحرب الجوية في غرب أوروبا

رأى البريطانيون والأمريكيون أن يمهّدوا لفتح الجبهة الغربية بأوروبا بإنفاذ غارات جوية هائلة لضرب الجسور والسكك الحديدية والموانئ والقنوات والمصانع في ألمانيا وفرنسا ضرباً متواصلاً لا هوادة فيه ولا رحمة لعرقلة طرق النقل، والقضاء على الإنتاج الألماني ، وإلقاء الفزع في قلب غريمهم .

وأخذ الحلفاء في بادئ الأمر يقومون بغارات جوية فتاكة على أهداف معينة في ألمانيا والأقطار التي احتلتها . وازدادت باطراد تلك الغارات كثرة في العدد ، واتساعاً في النطاق ، وشدة في التدمير منذ ربيع سنة ١٩٤٢ . فأمطرت الطائرات البريطانية بالقنابل مصنع آلات الديزل في أوجزبرج في إبريل . وفي ليل ٣٠ مايو بدأت الغارة الأولى من سلسلة الغارات الكثيرة التي كانت الواحدة منها تتألف من ألف قاذفة قنابل أو أكثر حينما أغار البريطانيون على كولون . ثم تعاقبت غاراتهم على المدن الصناعية : لسن^١ وبرمن^٢ وأسنابريك الألمانية .

ثم جاء دور الأمريكيين ، فبدأوا في يناير سنة ١٩٤٣ سلسلة من الغارات النهارية الكبيرة التي كانت كل غارة منها تتألف من عدد هائل من قاذفات القنابل الضخمة . واستخدمت في تلك الغارات قنابل أعظم فتكاً وطق جديدة أدق إحكاماً في إصابة المرمى . وزود الحلفاء انتصاراتهم في البحر الأبيض وإيطاليا بقواعد جوية أقرب إلى الأهداف الواقعة في وسط ألمانيا ومواقع استخراج البترول في رومانيا .

واستمرت هذه الغارات الجوية الكبيرة طوال سنة ١٩٤٣ ، وازدادت عنفاً وتدميراً في العام التالي . ولقد استمر تفوق الحلفاء في الجو دون منازع إلى أن وضعت الحرب أوزارها . وتبلو ضخامة الحرب الجوية التي شنها في غرب أوروبا من الأرقام التالية . فقد أرسلت القوتان الجويتان البريطانية والأمريكية خلال الحرب ١,٤٤٢,٢٨٠ من قاذفات القنابل و ٢,٦٨٦,٨٠٠ طائرة مقاتلة . وألقت هذه القاذفات ٢,٦٩٧,٤٧٣ طنّاً من القنابل والمتفجرات على الأراضي

الألمانية والأقطار التي احتلتها. وقد أُلقي أكثر من نصف هذه الكية على ألمانيا، ونحو السبع على مراكز الألمان بفرنسا، ونحو السبع أيضاً على إيطاليا. وبلغ مجموع الرجال من طيارين ومهندسين وغيرهم من الذين استخدموا في طيراتها ١,٣٣٥,٠٠٠ رجل ، وفقد الحلفاء خلال غاراتهم أكثر من أربعين ألف طائرة ، و ١٥٨,٠٠٠ طيار . ونحسر الألمان خلال الحرب ٥٧,٠٠٠ طائرة ، وقتل منهم نحو ٣٠٠,٠٠٠ رجل . وقتل وأصيب في ألمانيا من جراء هذه الغارات نحو مليون شخص من المدنيين . ودمر فيها ٣,٦٠٠,٠٠٠ بيت ومبنى تدميراً كلياً، كما خربت كل مدينة كبيرة ألمانية تخريباً كاد يكون تاماً .

ولقد أبدى الألمان حقاً رباطة جأش وبسالة وتجلداً وقوة احتمال فادحة المثل . واحتفظوا إلى آخر الشوط المرير بروح معنوية رفيعة . واستمروا يواصلون أعمالهم الحربية واجباتهم المنوطة بهم في مختلف ميادين الصناعة ، برغم الخراب الشامل الذي أحاط بهم من كل جانب — واصلوا القيام بأعمالهم إلى ما قبل وضع الحرب أوزارها . مثال ذلك أنتجت ألمانيا ١٥ ألف طائرة سنة ١٩٤٢ ، و ٢٥ ألف طائرة سنة ١٩٤٣ ، و ٤٠ ألف طائرة و ٣٥٧ غواصة سنة ١٩٤٤ ، برغم الغارات الجوية الهائلة التي أمطرتهم تدميراً وموتاً ورعباً طيلة هذه السنين . ومع أن طائرات الحلفاء ألقت نحو ٢٠ ألف طن من القنابل على مصانع المطاط الصناعي الألمانية ، فقد ازداد إنتاج هذا المطاط اطراداً حتى صيف سنة ١٩٤٤ . وبالمثل استمرت الزيادة اطراداً في صنع الصلب والمصفحات والمتفجرات . ولكن غارات الحلفاء الجوية أثرت تأثيراً حاسماً في إنقاص كمية البترول الصناعي الذي أنتجته ألمانيا ، وفي عرقلة طرق النقل .

وفي المرحلة الأخيرة من هذه المبارزات الجوية الضخمة التي جرت في سماء غرب أوروبا ، استخدم الألمان مقنوفات ضخمة هي عبارة عن قنابل طائرة نفائة ذات مدى بعيد رُمز إليها اصطلاحاً بحرف « V » ، ثم استخدموا فيها بعد نوعاً آخر من القنابل الصاروخية ذات السرعة الهائلة عُرِفَتْ بحرف « ٢ » . وكان الألمان يطلقون هذه المقنوفات الصاروخية من قواعد شيلوها

استخدام القنابل
الصاروخية

على طول شواطئ فرنسا وبلجيكا وهولندا على القتال الإنجليزي وبحر الشمال .
ولكن كان قد نعى خبر هذا السلاح الرهيب إلى سمع أقلام المخابرات
البريطانية . فركز السلاح الجوي البريطاني جهداً كبيراً في مهاجمة وتدمير
مصانع تلك المقذوفات وقواعدها . ولكن برغم الاحتياطات الكثيرة التي اتخذت ،
فقد أخذ الألمان يرشقون لندن بهذه القنابل الطائرة من ١٣ يونيو سنة ١٩٤٤ ،
أي بعد نزول قوات الحلفاء على ساحل نورمنديا بسبعة أيام . ثم بدأت الهجمات
الأولى بالقنابل الصاروخية في ٨ سبتمبر . ولقد ألحقت هذه المقذوفات خسائر
كبيرة في أرواح الإنجليز وأملاكهم ، حتى قضى الحلفاء على خطرهما في شهر
أكتوبر ، حين أكملوا احتلال مملكتي الأراضي المنخفضة .

٩ - الطور الأخير للحرب

وها هي ذى الحرب المدمرة المروعة تقترب في خطى حثيثة إلى ألمانيا ذاتها .
فقد أخذت بريطانيا وأمريكا تعملان في همة ونشاط هائلين لإعداد العدة لفتح
الجبهة الغربية لتحرير الممالك التي سطا عليها الألمان في حروبهم المخاطفة في ربيع
سنة ١٩٤٠ ، ولنقل ميدان القتال إلى عقر دارهم ذاتها . فعين الجنرال أيزنهاور
في ديسمبر سنة ١٩٤٣ قائداً أعلى لقوات الغزو ، وعين الجنرال منتجومي
قائداً للجيش البريطاني التي تحت إمرة أيزنهاور .

الاستعداد لفتح
الجبهة الغربية

وبدأ غز والحلفاء في صباح ٦ يونيو سنة ١٩٤٤ ، حينما اخنلوا يتزلون جنودهم
على الساحل الشمالي الفرنسي بين شربورج والهاثر . وكانت قد اتخذت جميع
الاستعدادات الممكنة لتسهيل عملية نزول الجنود ونقل المهومات الحربية إلى
البر . فصنع في بريطانيا مرفأ صناعيان هائلان ، ونقل قطعاً عبر القنال
الإنجليزي ، وجمعت أجزاؤهما على رقعة من الشاطئ الفرنسي .

وكان الحلفاء يسيطرون على البحر والجو . وقد مكّنهم تفوقهم الجوي من
تدمير مواصلات العدو وموارده ، ومكّنهم تفوقهم البحري من إرسال العتاد
والمؤونة والأمداد إلى قواتهم الغازية دون عناء كبير .

وبدأ الحلفاء عملية الغزو بإرسالهم جواً قوات كبيرة من الجند المدربين ، أمكنهم أن يتتبعوا في وجيز وقت رقعة من أرض الساحل اتخذوها قاعدة بحرية بعد أن وطلدوا أفدامهم بها . ثم وجهوا اهتمامهم إلى انتزاع شربورج وكاين من حوزة القوات الألمانية . فاستولى الأمريكيون في ٢٦ يونيو على شربورج ، وانتزع البريطانيون كاين في ٩ يولييه بعد قتال مرير . وبذلك امتلك الحلفاء مرفأين كبيرين على ساحل نورمانديا مكناهم من إنزال جنودهم وعتادهم في سهولة تامة .

ومن ثم أخذ سقوط المدن الفرنسية يتوالى في تعاقب سريع . فاستولى جيش أمريكي على سان لو ، وسقطت نانت في ١٠ أغسطس . وبعد أسبوع حُررت سارتر وأورليان . وأحرز الجنرال منتجومرى انتصاراً حاسماً على مقربة من فالنيز ، وعبرت وحدات بريطانية نهر السين في ٢٥ أغسطس ، وطاردت الألمان إلى السوم . وحرر أعضاء حركة المقاومة السرية الفرنسية قصبة البلاد في ٢٣ أغسطس ، ودخل الجنرال دييجول قائد القوات الفرنسية التي حاربت في جانب الحلفاء — دخل بعد يومين باريس دخول الظافر المنصور .

وفي نفس الوقت تقريباً الذي اخترق فيه الحلفاء خطوط الألمان إلى نهر السين ، أنزلوا جنودهم على ساحل الرفييرا الفرنسي بين طولون ونيس . فأبدى الألمان هناك مقاومة ضعيفة نسبياً . وبعد أن وطلد الحلفاء مراكزهم على شاطئ فرنسا الجنوبي ، شرعوا يطاردون الألمان في غير مهاودة . فسقطت طولون ومارسيليا في أواخر أغسطس ، وليون في ٢ سبتمبر . وما انتصف ذلك الشهر حتى كانت معظم أراضي فرنسا — فيما عدا موانئ الأطلنطي ومقاطعتي الألزاس واللورين — قد حررت .

ثم أخذ الحلفاء يشددون ضغطهم على الجيش الألماني الذي يحتل بلجيكا وهولندا . ذلك أن القوات البريطانية والكندية كانت قد استحوذت على أميان ، وعبرت السوم ، واستولت على آراس ، واجتازت حدود بلجيكا ، وحررت بركسل في ٣ سبتمبر ، وأنترب في اليوم التالي . وانضمت في ٥ سبتمبر الجنود الأمريكية

جلاء الألمان عن
بلجيكا وهولندا

بعد تحريرها شارلروا ونامور إلى الجيش البريطاني . وفي منتصف سبتمبر وصلت قوات الحلفاء إلى نهر الألباس والرين الأدنى . ووقع جنوب هولندا في قبضة البريطانيين . ووصلت القوات الفرنسية إلى مالهوزن ، واستحوذ الأمريكيون على ستراسبورج . وبذلك وصل الحلفاء إلى حدود ألمانيا الغربية ، حيث عقد الألمان تصميمهم على الوقوف في وجه العدو وفتنهم الأخيرة . فأسقط الحلفاء من طائرات كبيرة جنودهم في جنوب شرق هولندا كي يظفروا بممر للنهرين الآنفين ، وكي يطوقوا خط سيجمفريد من الشمال . ولكنهم أخفقوا في هذا المسمى . وبطلت تقدمهم في منتصف أكتوبر . ذلك أن خطوط إمداداتهم طالعت كثيراً ، وابتعدت مسافات كبيرة عن المراكز الرئيسية لقوتهم . فتوقفوا هنيئة كي يركزوا قواتهم لعبور نهر الرين والتقدم في الأرض الألمانية .

تقدم الجيش
الروسية المتواصل
تسليم الفنلنديين

وأخذ الألمان الآن في كلتا الجبهتين الشرقية والغربية ينددون عن أرض الوطن . ذلك أن الروس عبروا برنخ كارليان ، واخترقوا خط مانرهم ، وساقوا في الشمال الألمان أمامهم بين بحيرتي لادوجا وأونجا . فاضطر الفنلنديون إلى إلقاء سلاحهم قبل ختام أغسطس سنة ١٩٤٤ . وبمقتضى أحكام الهدنة التي وقعوها مع الروس ، تعهّدوا بأن ينسحب جنودهم إلى الحدود التي رسمتها معاهدة سنة ١٩٤٠ بين الدولتين ، وأن يسلموا بتسامو إلى روسيا ، وأن يدفعوا لها تعويضات حربية قدرها ثلثمائة مليون دولار

استرجاع
دويلات البلطيق
وبولندا

وفي نفس الوقت الذي جرت فيه هذه الأحداث ، بدأ هجوم الروس في جبهة روسيا البيضاء في أواخر شهر يونيو . فسقطت في أيديهم بلدة فيتبسك . في ٢٦ يونيو سنة ١٩٤٤ حيث أحرقوا بخمس فرق ألمانية ، وأبادوا معظمها . واضطرت بقيتها إلى التسليم . وفي الوقت عينه هجم الروس هجمة قوية في اتجاه وسط بولندا ، فاستولوا على منسك عاصمة روسيا البيضاء . وتقدموا على جبهة طولها مائتا ميل . وما لبثت جحافلهم أن تدفقت على دويلات البلطيق وبولندا . وسقطت مدن بولندا الحصينة في أيديهم : الواحدة تلو الأخرى . ووصلوا إلى نهر الفستولا . فصاروا بذلك على مدى عشرة أميال من وارسو . فقام أهل هذه



خريطة
الشرق من الجزيرة الشرقية

العاصمة في وجه المحتلين . ولكن الحامية الألمانية قمعت في بأس شديد ذلك العصيان ، وهدمت دون شفقة ما كان قد تبقي من مباني تلك الحاضرة . غير أن الروس غدوا السير في أراضي الدويلات البaltية الواقعة شمال بولندا . فسقطت في أيديهم في تعاقب سريع إيسكوف ونارفار وإدفنسك . وسقطت كوناس عاصمة لتوانيا في أول أغسطس . غير أن الألمان جمعوا شملهم على حدود روسيا الشرقية ، واستأنوا في القتال . فتمكنوا من إعاقة الزحف الروسي بعض الوقت .

وبدأ هجوم روسي جديد في البلقان في أغسطس . فظفروا بمدينة ياسي برومانيا . وأكروهوا الألمان على الارتداد عبر نهر الدنيستر . فأعلنت رومانيا على الفور قبولها عقد هدنة مع روسيا . ثم أشهرت الحرب على ألمانيا . ودخل الجند الروس بخارست ، وواصلوا زحفهم على الدانوب . وتعاونت الكتائب البلغارية مع قوات المقاومة اليوغسلافية بقيادة المارشال تيتو Tito في تعقب الجنود الألمان المتراجعين من البلقان ومضايقتهم وإنزال الخسائر بهم ، أينما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

واجتازت القوات الروسية في أوائل أكتوبر حدود هنغاريا من جهة رومانيا ، وزحفت سريعا نحو العاصمة بودابست . غير أن الجيوش الألمانية والهنغارية تصدت لها . وجرى قتال حامي الوطيس بين الفريقين ، برغم انضمام القائد العام الهنغاري وجانب من قواته إلى صفوف الروس . ولكن هنغاريا اضطرت أخيرا إلى الاستسلام ، وقعت هدنة مع الروس في ٢٠ يناير سنة ١٩٤٥ .

وأنزل البريطانيون بعض قواتهم في پيتراس باليونان في أكتوبر سنة ١٩٤٤ . وكان مركز الألمان في تلك البلاد غاية في الحرج . فأخلوها على جناح السرعة ، بينما كانت القوات البريطانية وقوات المقاومة اليونانية المطاردة تنهش أعقابهم . وما تصرم العام حتى كانت اليونان برمتها قد حررت .

فأكهرت الجيوش الألمانية من الشرق ، ومن الجنوب ، ومن الغرب ، على الارتداد في عجلة إلى داخل حدود الدولة الألمانية ذاتها . وبذلك دخلت الحرب

هجوم الروس
في البلقان

احتلال هنغاريا

إقصاء الألمان عن
اليونان

تقهقر الجيوش
الألمانية في
ميادين القتال

في طورها الأخير . وبدأ نصر الحلفاء يبرز ، ثم يشرق ، ثم يتألق في الأفق .
فإنه على الرغم من أن الألمان قاموا في الجبهة الغربية بهجمة صادقة في الآردن
في منتصف ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، وأفلحوا في صد الزحف الأمريكي صوب
كولون ، وكانوا يقصدون من ذلك الهجوم الاستيلاء على مدينة ليبج حيث جمع
الحلفاء مقادير هائلة من المؤن والعتاد - وعلى الرغم من إفلاحهم الجزئي في هذا
الهجوم العنيف ، فإن الحلفاء تمكنوا في أوائل العام الجديد من صدّ هذه المقامرة
الأخيرة . ولو أن هجوم الألمان هذا أعاق زحف الحلفاء على إقليم السار أسابيع ستة .

جيوش دول
القرب تدخل
الأراضي الألمانية

وفي ٨ فبراير سنة ١٩٤٥ شرعت القوات البريطانية والكندية في الهجوم
في جنوب شرق نيجمجنج ، ثم تلاه على الأثر هجوم الحلفاء العام على طول
الجبهة الغربية . فاستولوا على كولون . وعبر الجيش الأمريكي الرين ، وسقطت
كبلتر في منتصف مارس ، وظهر الشاطئ الغربي لنهر الرين شمال نهر الموزل
من الجنود الألمانية .

وفي الجنوب سقطت مدن السار الواحدة عقب الأخرى في أيدي القوات
الأمريكية والفرنسية . وما وافى اليوم الخامس والعشرون من مارس حتى كان
الحلفاء قد قضوا على كل مقاومة ألمانية منظمة غرب الرين .

وفي الشمال عبرت الجيوش التي تحت إمرة المارشال متجومري الرين الأدنى
في أربع نقط ، وتقدمت مائة وستين كيلومتراً شمالاً وشرقاً في أحد عشر يوماً .
وبذلك أفلحت في تطويق الزهر الغني بمصانعه الكبيرة ومناجم فحمه وحديد
الوفيرة الإنتاج - أفلحت في تطويقه تطويقاً كاملاً . وانتهت مقاومة الألمان فيه
في ١٨ إبريل .

وزحف الحلفاء الآن في قلب ألمانيا ، حيث كانت غاراتهم الجوية الهائلة زحف الحلفاء.
قد نشرت الدمار في مدنها ، وألقت الرعب البالغ في نفوس الأهليين . وأخذت في قلب المانية
جيوش الحلفاء تضيق الخناق على الألمان دون هوادة . وما لبثت كل مقاومة ألمانية
فعالة أن انهارت ، وأخذت المدن الألمانية ، أو بعبارة أصح ، أخذت أنقاض
المدن الألمانية تسلم للحلفاء في ثبث طويل محل .

تاريخ أوروبا

في الجبهة الشرقية أما في الجبهة الشرقية ، فقد جدد الروس هجومهم من نواح عدة . فبعد أن استولوا على وارسو في يناير سنة ١٩٤٥ ، اكتسحت قواتهم الأراضي البولندية ، ودخلوا بودابست ، وتقدموا في أعالي نهر الطونة إلى النمسا في نهاية مارس . وبلغت قواتهم فينا في منتصف إبريل . وشرعوا يشنون هجومهم العظيم على برلين في ١٦ إبريل . واستبسل الألمان في الدفاع عن حاضرتهم . ولكن صار الروس ، بعد خمسة أيام ، يقاتلون في ضواحيها . وكان الحلفاء الغربيون قد وصلوا وقتئذ إلى نهر الإلبه . فتقابلت جيوش الحلفاء الزاحفة من الشرق ومن الغرب في طورجاو .

سقوط برلين وسقطت برلين في الثاني من مايو بعد معارك شرسة جرت في الشوارع وفي المنازل . وبسقوط قصبة البلاد انهارت مقاومة الألمان انهياراً أوفى أن يكون تاماً في جميع الميادين .

انهيار كل مقاومة ذلك أنه في اليوم عينه الذي سلمت فيه برلين ، ألقت الجيوش الألمانية في إيطاليا بسلحها . واستسلمت بعد ذلك يومين الجيوش المقاتلة في شمال غربي ألمانيا ، وفي هولندا ، وفي الدانمارك .

انتحار هتلر وبذلك انتهى بين الأنقاض والخرائب المروعة الرينخ الثالث الذي فاخر هتلر بأنه سوف يعمر ألف عام من الدهر . وهلك هتلر بين أطلاله وركامه . فقد أزحق روحه مع نقر قليل من أخلص أعوانه في اليوم الأول من مايو في الخبأ العميق الذي شيده تحت دار المستشارية ، مؤثراً الموت عن أن يقع في قبضة أعدائه .

عقد الهدنة وفي السابع من مايو وقع الجنرال يودل Jodl رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية وثيقة التسليم من غير قيد أو شرط في رئاسة أركان حرب الجنرال أيزنهاور بريمس .

المهموم عل والآن بعد أن كسب الحلفاء النصر على دولتي المحور الأوربيتين ، ركزت فتوحات اليابان الولايات المتحدة وبريطانيا جميع مواردهما في قتالها الياباني التي وقعت بمفردها

بعد سقوطه حليفاتها صرعى . وكان اليابانيون قد بلغوا أقصى مدى لفتوحاتهم في ختام عام ١٩٤٢ . واتخذ الحلفاء في العام التالي خطة الهجوم . فشرع البريطانيون يرهقون إرهاباً متصلاً القوات اليابانية في ميدان بورما بهجماتهم المباشرة على خطوط مواصلاتها بنوع خاص ، على أيدي جنود دُرِّبوا تدريباً خاصاً على قتال الغابات الاستوائية .

وقام اليابانيون في مارس سنة ١٩٤٣ بهجوم كبير في آسام محاولين اختراق وادي براهما بوترا ، وإيصال الحرب إلى الهند . ولكن بعد قتال طاحن دام أشهراً ثلاثة اصطلمت جيوشهم ، وفرت فلولها لاتلوى على شيء عبر نهر شندون . وتلا ذلك قتال متصل حاشى الوطيس دام ستة أشهر واستمر حتى حلول موسم الأمطار الغزيرة . وفي أوائل سنة ١٩٤٥ عبرت القوات البريطانية نهر شندون ، وتمكنت من فتح طريق ليدو Ledo الموصل عبر بورما من الهند إلى الصين . واستولت في الجنوب على مندلاي في مارس ، ورانجون في مايو . وبذلك هُزم اليابانيون هزيمة فاصلة في بورما . وأخذ الحلفاء يعدون العدة لانزال قواتهم في الملايو . ولكن اليابانيين ألقوا بسلاحهم قبل وضع خططهم موضع التنفيذ .

القتال في المحيط
الهادئ

وكذلك ضعفت سيطرة اليابانيين على المحيط الهادئ . وأخذت قوات الحلفاء تحتل من جديد خلال النصف الثاني من سنة ١٩٤٣ مجموعات الجزر الصغرى في ذلك المحيط . ففي أوائل سبتمبر قام الجنرال ماك آرثر بهجوم في غينيا الجديدة انتهى باحتلال قواته جزر جلبرت ، وجزر مارشال ، وجزر الأدميرالية ، في بواكير عام ١٩٤٤ .

وتم للحلفاء في آخر الأمر التفوق برّاً وبحراً وجوّاً ، وغدوا في مركز يمكنهم من تهديد مواصلات اليابانيين وخطوط تموينهم . ونزلت القوات الأمريكية في أكتوبر سنة ١٩٤٤ في جزيرة ليت بجزر الفلبين ، وظفرت بمرسى قوى ، ووقفت في سبيل الأسطول الياباني على مقربة من جزيرة لوزون في معركة الفلبين البحرية الثانية في ٢٣ أكتوبر . واستمر القتال دائراً شهرين ، حتى حلت باليابانيين الهزيمة النهائية في جزيرة ليت .

واستولى الأمريكيون في أوائل يناير سنة ١٩٤٥ على لوزون ، كبرى جزر الفلبين . ودخلوا مانيلا عاصمة تلك الجزر في ٤ فبراير . ومن ثم بدأ قتال طاحن دام خمسة أشهر أخرى ، تمكن في نهايته الجنرال ماك آرثر من أن يعلن (في ٥ يولييه) تحرير جزر الفلبين تحريراً تاماً من العدو .

اقترب القتال
من اليابان

وأخذ الأمريكيون يدنون شيئاً فشيئاً من الجزر اليابانية الرئيسية . فاستحوذوا في مارس سنة ١٩٤٥ على جزيرة أوجيما ، وأكملوا في منتصف يونيو فتح جزيرة أوكيناوا الواقعة بين جزيرة فرموزا واليابان . فاضطرت القوات اليابانية إلى الارتداد في جزر غينيا الجديدة ، وبريطانيا الجديدة ، وبورنيو ، برغم مقاومتها المستميتة . وألحقت قاذفات القنابل الأمريكية خسائر مروعة بالأهليين والأملاك في غاراتها المتعددة على اليابان . فدمرت نصف مدينة بوكاهاما ، ومنيت طوكيو وأوزاكا وغيرهما بخسائر فادحة .

وكان مركز اليابانيين حرجاً إلى أقصى درجات الحرج ، حينما أحرز الحلفاء في أوائل مايو انتصاراتهم المبينة على ألمانيا ، وأكروها على التسليم . فلأنه على الرغم من أن اليابان استطاعت حتى في هذا الطور الأخير من أطوار النضال أن تلحق خسائر كبيرة بالحلفاء ، إلا أن النصر كان قد أفلت نهائياً من يدها .

وعلى أثر انعقاد مؤتمر بئسدام ، قلعت أمريكا وبريطانيا والصين إنذاراً نهائياً إلى اليابان (٢٦ يوليو سنة ١٩٤٥) تخيرها فيه بين الاستسلام دون قيد أو شرط ، أو أن يتزل بها الحلفاء « الحروب التام المعجل » .

قنبلتان فريتان
على هيروشيما
وناجازاكي

ومع أن الحكومة اليابانية كانت قد لحت عن طريق روسيا عن رغبتها في وضع نهاية للحرب ، إلا أنها تجاهلت إنذار بئسدام . بيد أنه حدث في ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ أن ألقت طائرة أمريكية على هيروشيما القنبلة الذرية الأولى التي استُخدمت في الحروب . فأحدثت تدميراً وتقتيلاً لم يشهد التاريخ لها مثيلاً من قبل . فقد دُمر تدميراً تاماً أربعة أميال مربعة من مباني تلك المدينة . وبعد أيام ثلاثة أُلقيت القنبلة الذرية الثانية على ناجازاكي ، فأنزلت بها نفس الخسائر المروعة في الأرواح والأملاك . فقد قدر عدد القتلى من اليابانيين في

هبروشيا وحدها بثمانين ألف قتيل ومائة وعشرين ألف جريح ، وصار مائتا ألف نسمة بلا مأوى .

وكانت روسيا قد أعلنت في اليوم السابق (٨ أغسطس) الحرب على اليابان ، وأرسلت جنودها على الفور لغزو مقاطعة منشوريا .

وفتح استخدام القنبلة الذرية ، ودخول روسيا الحرب ، أعين زعماء اليابان ^{استلام اليابان} إلى عقم الاستمرار في النضال . فطلبوا في ١٠ أغسطس عقد هدنة وفقاً للشروط التي وضعها الحلفاء في هتسدام . وفي الخامس عشر أعلن الإمبراطور هيروهيتو أنه ينوي قبول هذه الشروط . وفي الثاني من سبتمبر وقع المنسوبون اليابانيون وثيقة التسليم على ظهر البارجة مسوري الأمريكية التي كانت قد ألقت مراسيها في خليج طوكيو .

وبذلك وضعت أوزارها أعظم حرب مروعة عرفها التاريخ بعد اندلاعها بستة أعوام كاملة : حرب اتخذت من الكرة الأرضية بأسرها تقريباً ميداناً شاسع الأطراف لنيرانها الآكلة ومناجل الموت الحاصدة ، وخلفت في أعقابها الجوع والشقاء والفوضى .

كتب يمكن استشارتها

E.H. Carr : The International Crisis. 1919 - 1939.

Winston Churchill : The Second World War.

ظهر من هذا المؤلف خمسة مجلدات حتى الآن .

Ciano Diaries.

H.S. Commager : The Story of the Second World War.

D. Eisenhower : Crusade in Europe.

A.J. Grant and H. Temperley : Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries.

C.G. Haines and R. Hoffman : Origins and Background of the Second World War.

Langsam : The World since 1914.

F.D. Roosevelt's Papers.

الفصل الأربعون

في أعقاب الحرب

مشكلات مستعصية - الحلفاء يعمدون خلال الحرب مؤتمرات في كازابلانكا والقاهرة وطهران وموسكو وبالنسبة - مؤتمر برلين وودز - مؤتمر بتسدام - محاكمة كبار النازيين - معاهدات الصلح مع إيطاليا وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا - دول أوروبا الشرقية تخضع لنفوذ روسيا السوفيتية - تيتو في يوغسلافيا - إنشاء جمهوريتين ألمانييتين في الغرب والشرق - موقف روسيا المدافئ إزاء دول الغرب - معاهدات الضمان الجماعي - اتحاد أوروبا الغربية - عقد الصلح مع اليابان - حرب كوريا - إرساء أساس هيئة الأمم المتحدة - منظماتها .

١ - مشكلات مستعصية

ما انتهت الحرب حتى واجه الساسة والشعوب من المشكلات الكثيرة الخطيرة العظيمة التعقيد ما لم يعهده العالم من قبل . وبدا كأن الأمم والحكومات ليست بقادرة على فهمها ولا تذليلها . وقد مضى الآن سبع سنين على وضع الحرب أوزارها ، ولا يزال كثير من هذه المعضلات مستعصى الحل بعيداً عن التسوية . فلا تزال مشكلات فلسطين وكوريا والصين والحكم الدكتاتوري في أسبانيا ، وعقد صلح مع ألمانيا ، وعلاقة الدول العظمى المستعمرة بمستعمراتها المتأخرة ، واستخدام القنابل الذرية ، وعلاقات الدول الديمقراطية بروسيا والصين الشيوعيتين - لا تزال هذه المشكلات الخطيرة ، وعديد غيرها ، تتحدى حكمة ساسة العالم ودهاءهم .

ولقد أحدثت الحرب انقلابات جسيمة كبيرة الشأن في التوازن الدولي . فقد خرجت روسيا والولايات المتحدة دولتين عالميتين ، وغدت الشيوعية قوة يُحسب

حسابها في الشؤون العالمية ، وتناقص إلى مدى ما سلطان الإمبراطورية البريطانية ، فلم تعد بريطانيا تستطيع أن تواصل الاضطلاع بدورها التقليدي في توجيه الشؤون السياسية والاقتصادية العالمية .

وشرعت شعوب آسيا وإفريقية ، وهي الشعوب التي كان الغربيون يطلقون عليها « الشعوب المتأخرة » - شرعت تنزع عنها نير الاستعباد ، وتحطم قيود الاستعمار وأصفاد الاستغلال التي فرضتها عليها الدول الاستعمارية الكبرى ردحاً طويلاً من الزمان . وأخذت ترفع صيحات عالية مطالبة بحقوقها المشروع في أن تحكم نفسها بنفسها ، وأن يكون لها صوت في تدبير شؤون العالم .

وأخذ تسخير العلم لقوى الطبيعة يجعل من الكرة الأرضية قطراً واحداً ، ويوثق أكثر فأكثر عرى الأمم وصلاتها السياسية والثقافية واعتمادها بعضها على البعض الآخر . وتتضاؤل الكرة الأرضية ، تغيرت معالم السياسة العالمية ، فحلت الميول والضغائن التي تنجم عن اختلاف المذاهب الفكرية محل العواطف والتزعزعات القومية . وغداً شجار الدول يدور حول النظم ومبادئ الفلسفات السياسية والاقتصادية أكثر من دورانه حول المصالح المادية والمطالب القومية .

٢ - مؤتمرات الحلفاء أثناء الحرب

لم ينتظر ساسة دول الحلفاء نهاية القتال كي يبدأوا وضع تسويات للمشاكل التي سوف تخلفها لهم تلك الحرب الضروس في أعقابها . بل شملوا - حتى في الأيام التي استمر فيها الصراع - شملوا عن ساعد الجد كي يضعوا أسس عالم جديد ، ويخففوا من وطأة الفقر والجوع والحرب التي عانتها أقطار العالم جميعها تقريباً على نحو لا مثيل له في التاريخ . فقد كان يتفحص دول أوروبا عند خروجها من الحرب جميع مقومات الحياة المتحضرة ، وهام على وجوههم نحو عشرة ملايين من المشردين التعساء نتيجة تحركات الجيوش ، وقُدِّرَ أن هناك نحو أربعمئة مليون نسمة من سكان آسيا وحدها على شفا الهلاك جوعاً .

ولقد لعب الرئيس روزفلت ومعاونوه دوراً جليلاً الشأن في المفاوضات التي دارت بين قادة الحلفاء في تلك الفترة الخطيرة من تاريخ الجنس البشري . والحق أن الولايات المتحدة التي لم تسع وراء الصولة والسلطان ، قد أقحمت عليها الصولة والسلطان خلال الحرب وبعدها ، وتحولت في خلال قرن ونصف قرن - وهي حقبة قصيرة في نظر التاريخ - تحولت من دولة يكاد لا يؤبه لشأنها ، إلى مقام الزعامة بين أمم العالم . ونقضت عنها سياسة العزلة ، وشرعت تلعب دوراً خطيراً في توجيه السياسات العالمية .

فاقترحت الولايات المتحدة في يونيو سنة ١٩٤٣ إنشاء مؤسسة دولية لإسعاف الملايين من البؤساء المحرومين الذين سوف تخلفهم الحرب . وأنشئت بالفعل في نوفمبر «هيئة الإغاثة والتعمير للأمم المتحدة» (التي أطلق عليها اختصاراً اصطلاح UNRRA) . وانضم إليها ثمان وأربعون دولة . ولم تقتصر هذه الهيئة عملها ، في مدها يد الغوث للمحتاجين ، على توزيع الطعام والملابس والعقاقير فحسب ، بل قدمت أيضاً البذور والأدوات الزراعية والأسمدة والبهاثم للمزارعين ، كى تعينهم على فلاح أرضهم . وقد بلغ ما أنفقته هذه الهيئة على سدّ عوز البائسين نحو أربعة آلاف مليون دولار ، تكفلت الولايات المتحدة بدفع نحو ٦٠ ٪ من هذا المبلغ . وأنفقت الحصة الكبرى من هذه الإعانات على إطعام شعوب بولندا ويوغسلافيا واليونان ، وترحيل نحو مليون شريد إلى فلسطين ونيوزيلندا والبرازيل والولايات المتحدة وغيرها من الأقطار التي أظهرت استعداداً لقبولهم والانتفاع بخبراتهم ومهاراتهم .

والتأم في صيف سنة ١٩٤٤ عقد مؤتمر للأمم المتحالفة لبحث شؤون العالم مؤتمر برتين وودز Bretton Woods الاقتصادية والمالية فيما بعد الحرب - التأم عقده في برتين وودز Bretton Woods بالولايات المتحدة ، وقرر إنشاء هيئتين دوليتين لتنظيم النقد والمعاملات المالية الدولية : الهيئة الأولى ، مصرف دولي للإنشاء والتعمير ، والهيئة الثانية صندوق دولي للنقد يعمل على تثبيت سعر القطع الدولي ، وإزالة العوائق التي قد توجد لتحويل النقد بين دول العالم . وقد خصص لهذا الغرض رأس مال قدره نحو

تسعة مليارات من الدولارات. وخوّل للبنك الدولي إقراض المبالغ اللازمة لإقامة المنشآت التي تساعد على زيادة الإنتاج في مختلف أنحاء العالم .

وعقد أقطاب الدول المتحالفة مؤتمرات في كازابلانكا ، والقاهرة ، وطهران ، وموسكو . وبالتالي ، وبتسدام ، لوضع المبادئ والأسس التي سوف يشيدون عليها صرح الصلح . بيد أنه كانت تظهر خلال مفاوضاتهم اختلافات خطيرة ، لم يعلن عنها وقتئذ إلا تلميحاً . غير أنه سرعان ما أغمدت السيوف حتى انفجرت المنازعات بين حلفاء الأس في عنف شديد ودوى هائل . وتفاقم النزاع وتعاضمت على مر الأيام الإحزن والضغائن بينهم .

ولم تنتهِج الدول الظافرة عقب الحرب السياسة التقليدية التي اتبعتها مثيلاتها في جميع الحروب الماضية ، وذلك بأن يؤلف مؤتمر للصلح من مفاوضين عن الدول المتحاربة ، المنصورة منها والمقهورة على السواء ، بقصد وضع معاهدة للصلح يفرض فيها عادة الفريق الغالب شروطه ، ويرضخ لها الفريق المغلوب مذعناً صاغراً . فإنه لم توقع مثلاً معاهدة صلح مع اليابان إلا بعد انتهاء الحرب بأعوام خمسة . ولم توضع إلى الآن - برغم انقضاء سبعة أعوام على وضع الحرب أوزارها - لم توضع معاهدة صلح بين ألمانيا ودول الحلفاء .

مؤتمر كازابلانكا في مؤتمر كازابلانكا الذي عقد في يناير سنة ١٩٤٣ ، أصدر الرئيس روزفلت ومستر تشرشل إعلاناً - أيدته روسيا فيما بعد - يصرحان فيه بأن هدف الحلفاء من مواصلة الحرب هو تسليم ألمانيا وإيطاليا واليابان تسليمياً غير مشروط . وقالوا إن التسليم غير المشروط لا يعنى القضاء على الشعب الألماني ، أو الشعب الإيطالي ، أو الشعب الياباني . وإنما قصد به استئصال شأفة فلسفة معينة في ألمانيا وإيطاليا واليابان تقوم على الفتح وإخضاع الشعوب الأخرى .

ولقد أظهرت الأيام أن مبدأ التسليم بدون قيد أو شرط الذي أعلن في هذا المؤتمر . وكُرِّر إعلانه في مؤتمرى موسكو وبالتالي ، وطبق على ألمانيا واليابان عند استسلامهما - أظهرت الأيام أنه لم يكن بالقاعدة السليمة التي يمكن أن يشيد عليها صلح وطيد الأركان باقى الأثر .

وعقد الحلفاء مؤتمراً في موسكو في أكتوبر سنة ١٩٤٣ قرروا فيه إنشاء لجنة استشارية أوربية تكون مهمتها وضع المبادئ الأساسية التي تعامل ألمانيا وفقها بعد انتهاء الحرب . وقد قرر هذا المؤتمر ضرورة تدمير المصانع الحربية الألمانية ، وحل الحزب النازي ، ومحاكمة مجرمي الحرب ، والسعي بكل الوسائل ، واتخاذ جميع التدابير الصارمة لاقتلاع الروح العسكرية الألمانية من جذورها ، وإنشاء مناطق مراقبة للحلفاء ، وفرض أكبر مبلغ من التعويضات يمكن لإكراه ألمانيا على دفعه .

وحينما أشرف نصر الحلفاء على الانبلاج ، عقد زعمائهم مؤتمراً في يالتا في فبراير سنة ١٩٤٥ ، أيدوا فيه المبادئ الآتية ، واتخذوا خططاً غلب عليها الطابع الحربي . فقد اتفقوا على أن تقسم ألمانيا إلى ثلاث مناطق احتلال : تعطي كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا واحدة منها ، وأن تدعى فرنسا إلى الإشراف على منطقة رابعة . وقرروا أن يتولى الإشراف الأعلى على إدارة الأراضي الألمانية لجنة لإشراف مركزية عليا ، تتألف من القواد الأعلىين لهذه الدول الأربع ، ويكون مقرها برلين . وحدد بصفة مبدئية مبلغ عشرين ألف مليون دولار كتعويضات حربية . ووافق هذا المؤتمر أيضاً مبدئياً على أن تعطي روسيا الأراضي الواقعة شرق خط كرزن Curzon Line ، وأن تعرض بولندا عن الأراضي التي ستفقدتها بمقتضى هذه التسوية من الأراضي الألمانية .

وما إن انتهى شهر مايو سنة ١٩٤٥ حتى كان الحلفاء قد أكملوا احتلال جميع الأراضي الألمانية ، وأخلو بضمون موضع التنفيذ ما كانوا قد اتفقوا عليه .

فاجتمع ببندسام في ١٧ يولييه ترومان وستالين وأتلي^(١) ، ووضعوا قرارات كثيرة جلية الخطر : من أهمها التمجيل بإلغاء النظم المركزية وزيادة سلطات الحكومات المحلية في نظام ألمانيا السياسي والإداري عقب احتلالها ، وإنشاء

(١) حل مكان ونستون تشرشل في رئاسة الوزارة البريطانية عقب إحراز حزب العمال البريطاني الفوز في الانتخابات العامة التي جرت في يونيو سنة ١٩٤٥ .

مجلس لوزراء خارجية دول الحلفاء الكبرى الثلاث : الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا ، على أن ينضم إليهم ، كلما دعا الحال ، وزيراً خارجيتي فرنسا والصين . وتكون مهمة هذا المجلس وضع معاهدات الصلح مع إيطاليا والنمسا والدول الصغيرة التي قاتلت في جانب ألمانيا .

ونظم هذا المؤتمر مجلس الإشراف الأعلى لإدارة ألمانيا ، ووضع تفاصيل المبادئ العامة السياسية والاقتصادية التي سيسير الحلفاء بمقتضاها مدة احتلالهم أرضها . فقرر أنه برغم تقسيم هذه الدولة إلى مناطق احتلال أربع ، فإنه يجب أن تعامل كوحدة واحدة من الناحية الاقتصادية ، على أن تعطى كل دولة احتلال حق الحصول على تعويضاتها من المنطقة الألمانية التي تحتلها .

وقرر المؤتمر أيضاً تعديل حدود ألمانيا الشرقية . فتعطى روسيا مدينة كينجزبيرج والمنطقة المحيطة بها ، وأن يسلم من ألمانيا جميع أراضيها الواقعة شرق خط الأودر - نيسه Oder-Nei se ، وتعطى لبولندا .

غير أنه لم تبدل في هذه المرحلة أية محاولة لوضع معاهدة صلح مع ألمانيا . فقد كان ذلك في الواقع أمراً متعلواً . إذ كانت ألمانيا تقتذخاً من أية حكومة يمكن أن يبرم معها مثل هذه المعاهدة . أضف إلى ذلك أن الحلفاء أنفسهم كانوا منقسمين فيما بينهم بصدد الشروط التي يمكن أن تتضمنها .

وقبض على أثر انتهاء الحرب على عدد كبير من النازيين . وألفت دول الحلفاء الكبرى الأربع محكمة دولية لمحاكمة نفر من زعمائهم . وقدم أمام هذه الهيئة القضائية أربعة وعشرون قبطاً نازياً ، بوصفهم من كبار مجرمي الحرب . وقد استغرقت محاكمتهم عشرة أشهر . واتخذ الحلفاء من هذه المحاكمة فرصة يعلنون فيها للعالم بوجه عام ، وللألمان بوجه خاص ، اعتداءات الألمان على القانون الدولي ومبادئ الإنسانية .

محاكمة كبار
النازيين

وقد قضى على تسعة عشر منهم بأنهم مذنبون . وحكم بالإعدام شنقاً على اثني عشر زعيماً منهم . ومن أهمهم جيرنج نائب رئيس الريخ ، والمارشال كيبتل Keitel القائد العام للجيش الألماني ، ويودل رئيس هيئة أركان الحرب

العامه ، ورينتروب وزير الخارجية .

وشهدت ألمانيا أيضاً محاكمات أخرى كثيرة أمام المحاكم العسكرية التي ألفتها دول الاحتلال ، وقدم لها عدد كبير من الألمان بوصفهم مجرمي حرب . لكن يبدو أنه لم يكن لهذه المحاكمات الأثر القوي في نفوس الألمان الذي استهدفه الحلفاء منها . ولم تُنقِص الأمة الألمانية بأنها اقترفت حقاً هذه الجرائم التي يحاكم من أجلها نفر من أبنائها . كما أن هذه المحاكمات أثارت نقداً غير قليل حتى في بريطانيا والولايات المتحدة . فطعن كثيرون بأن تأليفها خارج عن نطاق القانون الدولي ، وأن قضائهم كانوا أدوات انتقام وتشف أكثر منهم موازين عدل ، وأن بعض إجراءات هذه المحاكم لم تخل من الشوائب التي دنست روح العدالة .

والحق أن الزمن خير حكم في شرعية هذه الهيئات القضائية ، أوفى مجازاتها لروح العدالة . غير أن إنشاء هذه المحاكم وضع سابقة دولية خطيرة قد يكون لها آثار بعيدة ، فلما ستييح للجانب المنتصر في حرب ما حق تقديم أعدائه المهزومين إلى المحاكمة بوصفهم مجرمي حرب خارجين على أحكام القانون الدولي .

استئصال شأفة
النازية

وفي الوقت عينه سار الحلفاء قدماً في جهودهم الكبيرة لاستئصال شأفة النازية من جميع نواحي الحياة الألمانية . فطُرد كل من شابهته شائبة اعتناق مبادئ النازية من وظائف الحكومة ومعاهد العلم والمصانع وجميع الهيئات العامة . غير أن المشرفين على تنفيذ هذا الأمر من الحلفاء اضطروا في النهاية إلى الرضوخ لمقتضيات الواقع ، وإلى التخفيف من وطأة الوسائل التي اتخذوها لقمع النازية . بل لقد اعتمدوا في دوائر الإدارة الجديدة التي أقاموها بألمانيا — اعتمدوا على بعض من كبار النازيين السابقين . ذلك أن النازية كانت قد تغلغلت في نفوس السواد الأعظم من الأمة الألمانية ، وكانت قد مدت أصولها العميقة إلى جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الألماني .

٣ - معاهدات الصلح بين الحلفاء وأعدائهم السابقين

ولكن يجدر بنا قبل التحدث عن تاريخ ألمانيا بعد الحرب أن نذكر كلمة الصلح مع إيطاليا جملة عن معاهدات الصلح التي عقدها الحلفاء مع أعدائهم السابقين . ولنبداً بإيطاليا التي كانت قد أشهرت الحرب على حليفتها السابقة في ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ على أثر انهيار الحكومة الفاشستية فيها - كما ذكرنا آنفاً . فقد اعتبر الحلفاء إيطاليا دولة محاربة في صفوفهم ، وأعلن أقطابهم في مؤتمر بمتسدام أنه ينبغي إبرام صلح عادل معها . وعهدوا بهذه المهمة إلى مجلس وزراء الخارجية .

ولقد عُقد هذا المجلس مرات عدة في أوقات مختلفة ، ودارت فيه مناقشات طويلة بشأن الشروط التي يجب أن تفرض على إيطاليا . وأخيراً وقعت معاهدة الصلح في ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ من مندوبي إيطاليا واللول الإحدى والعشرين التي كانت قد اشتركت في الحرب ضدها ، وبمقتضى هذه المعاهدة ، أعيدت حدود إيطاليا إلى ما كانت عليه في أول يناير سنة ١٩٣٨ ، مع إجراء بعض تعديلات فيها لصالح فرنسا ويوغسلافيا . وتنازلت إيطاليا لليونان عن جزر الدوديكانيز مع تجريد هذه الجزر من السلاح . واعترفت إيطاليا بكل من الحبشة وألبانيا دولة مستقلة ، وتنازلت عن مستعمراتها السابقة : ليبيا وإريتريا والصومال . وجعلت تريستا والمنطقة المحاورة لها منطقة حرة مستقلة تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة .

وقد قررت الجمعية العمومية لهيئة الأمم في نوفمبر سنة ١٩٤٩ أن ينادى بليبيا دولة مستقلة في موعد لا يتجاوز أول يناير سنة ١٩٥٢ ، على أن يحكمها في الفترة التي تكون فيها تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة - يحكمها مندوب تعينه الهيئة يعاونه مجلس استشاري . وقد أعلنت ليبيا دولة مستقلة سنة ١٩٥١ ، ونودي بالملك إدريس السنوسي الأول ملكاً عليها .

وقررت أيضاً الجمعية العمومية لهيئة الأمم أن تمنح الصومال استقلالها في عام ١٩٦٠ ، على أن تبقى تلك البلاد في غضون هذه الفترة تحت وصاية إيطاليا .

وقد ضُمَّت إريتريا سنة ١٩٥٢ إلى مملكة الحبشة ، على أن يؤلف القطران دولة تعاهدية يتسم عرشها المشترك لإمبراطور الحبشة .

النمسا

أما النمسا فقد كان أقطاب الحلفاء قد قرروا في المؤتمر الذي عقده بموسكو في أكتوبر سنة ١٩٤٣ ضرورة تحريرها من سيطرة ألمانيا ، وعودتها إلى حظيرة الدول المستقلة الحرة . وحينما جلت الجيوش النازية عن الأراضي النمساوية في إبريل سنة ١٩٤٥ ، ألقت بها حكومة مؤقتة تحت رئاسة الدكتور كارل رنر . Karl Renner

وقد قسم الحلفاء النمسا عقب احتلالهم أرضها في الشهر التالي إلى أربع مناطق احتلال ، تخضع كل منطقة لإحدى دول الحلفاء الأربع : روسيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا . كما قسمت فينا أيضاً هذا التقسيم عنه . وأنشئت لجنة لإشراف عليا من ممثلي هذه الدول . وقد اعترفت دول الاحتلال في بدء عام ١٩٤٦ بالنمسا دولة مستقلة . وسلمت لجنة الإشراف العليا جميع سلطاتها إلى الحكومة النمساوية ، فيما عدا بعض الشؤون ذات الارتباط بالاحتلال العسكري .

وقد بذلت محاولات عدة قوية لوضع معاهدة صلح مع النمسا . وإنه لما يجلب السأم أن نذكر تفصيلا هذه المحاولات . ولكن يكفي أن نذكر هنا أن مجلس وزراء الخارجية اجتمع في أوقات مختلفة في لندن وموسكو وباريس دون أن يعجل إلى قرارات حاسمة للتوفيق بين وجهات نظر دول الاحتلال .

وأجبر مجلس وزراء الخارجية تحت ضغط الرأي العام العالمي ، ورغم معاهدات الصلح مع بلغاريا ورومانيا وهنغاريا اتخذ - أجبر هذا المجلس على أن يصوغ في الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٤٦ معاهدات صلح بين دول الحلفاء وكل من هنغاريا وبلغاريا ورومانيا . وقد

وقعت هذه المعاهدات في باريس في ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ ، أى في نفس اليوم الذى شهد توقيع معاهدة الصلح الإيطالية السالفة الذكر .

وكانت معظم الشروط في هذه المعاهدات مماثلة . فودعت تلك الدول المهزومة أن تكفل لجميع رعاياها ، وخاصة للأقليات اليهودية التى تعيش بينها - أن تكفل لهم « الحريات الأساسية » و « الحقوق الإنسانية » التقليدية . ورُدَّت حدود هنغاريا إلى ما كانت عليه في أول يناير سنة ١٩٣٨ . وبقيت حدود رومانيا وبلغاريا كما كانت عليه في يناير سنة ١٩٤١ ، وأعلن أن الملاحه في نهر الدانوب « حرة ومفتوحة لجميع رعايا وبضائع وسفن جميع الدول » . وفرض على بلغاريا دفع ٧٠ مليون دولار ، وعلى كل من رومانيا وهنغاريا دفع ٣٠٠ مليون دولار ، بوصفها تعويضات .

وقد أقيمت في هذه الممالك : بلغاريا ورومانيا وهنغاريا ، جمهوريات « شعبية » اتخذت لها دساتير مماثلة لدستور الاتحاد السوفيتى . وتبذل فيها جهود قوية لتشييد أنظمة سياسية واقتصادية على غرار نظم روسيا الشيوعية .

أما دول أوروبا الشرقية الأخرى : تشكوسلوفاكيا وبولندا وألبانيا ويوغسلافيا ، حركة انقلاب فتشكوسلوفاكيا فقد أخضعت في درجة كبيرة أو صغيرة لنفوذ روسيا . فرى ذلك النفوذ قوياً بنوع خاص في بولندا ، في حين تمكنت القوى المضادة للبشفية في يوغسلافيا من السيطرة على الموقف والقبض على أزمة الحكم بعد صراع دموى طويل .

وقد ألغيت في تشكوسلوفاكيا النظم الحكومية الديمقراطية التى أقام صرحها توماس مازاريك مؤسس هذه الدولة عقب الحرب العالمية الأولى . ففي فبراير سنة ١٩٤٨ أحدث أتباع البلاشفة ومريدوهم التشكوسلوفاكيون بمعاونة وكلاء السوفييت - أحدثوا انقلاباً حكومياً ، وتربعوا في كراسى الحكم . وانضمت تشكوسلوفاكيا إلى الدول التى تسير في فلك روسيا .

ولقد كادت يوغسلافيا تلقى نفس المصير ، لولا أن زعيمها المارشال تيتو انتفض على نفوذ الزعماء الروس ، وأخذ يقرب في خطى بطيئة ، ولكنها خطى وطيئة - إلى المعسكر الغربى . وقدم شجعه على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة ما

أغدقته عليه دول الغرب ، وخاصة الولايات المتحدة ، من مساعدات حربية ومعونات اقتصادية ذات بال .

ولذلك فإنه باستثناء دولتي يوغسلافيا واليونان ، اتحدت الدول العديدة الواقعة بين بحر البلطيق شمالا وبحر إيجه جنوباً - اتحدت في تحالف وثيق مع جارتها الكبرى ، وتحت حمايتها وإشرافها . ويبدو للمرء أن حلم القياصرة الروس في القرن التاسع عشر بتكوين دولة سلافية عظمى تمتد من بحر البلطيق إلى بحر إيجه قد تحقق في معاملة الكبرى على أيدي البلاشفة .

٤ - ألمانيا

ولنعد مرة أخرى إلى ألمانيا ، حيث أخذ الخلاف يزداد تفاقمًا ووضوحًا بين الدول الغربية الثلاث : الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا من جهة ، وروسيا من جهة أخرى ، وبدا من المتعذر التوفيق بين سياستي هذين العسكريين المتنافسين ، وإيجاد تعاون حقيقى بينهما : الأمر الذى أدى إلى إلغاء مجلس الإشراف الرباعى الأعلى سنة ١٩٤٨ . وغدت ألمانيا في الواقع بيدقاً في اللعبة النضال المستعر الأوار بين الشرق والغرب .

ولكن برغم الصعاب المعقدة والمشكلات العديدة التى واجهت الحكومة العسكرية التى أقامها الحلفاء لإدارة شؤون ألمانيا ، فإنهم خطوا ، برغم خلافاتهم الشديدة ، خطوات كبيرة لإعادة الحكومة الألمانية إلى أيدي الألمان ، وإنعاش اقتصادياتهم ، وتعمير مدنهم المحرقة ، وإغاثة نحو عشرة ملايين ألماني هاجروا من شرق ألمانيا إلى غربها فراراً من وجه الروس والبولنديين .

وقد كان عمل الحلفاء في هذا المضمار بالغاً أشد ضروب التعقيد . ذلك أن الضغائن والكراهية والريب التى خلقتها الحرب في النفوس ، لم يكن من السهل إزالتها في يوم وليلة . وكانت ألمانيا ممزقة الأوصال على نحو عجيب . فكان الروس يسيطرون على الأقاليم الزراعية ومقاطعة سيليزيا الغنية بفحمها وحديدتها .

وكانت الدول الغربية تسيطر على غرب ألمانيا بمصانعه الكثيرة وعماله المهرة ، وكان تدمير الصناعات الألمانية يكاد يكون تاماً . واستنزفت التعويضات العينية التي انتزعتها الحلفاء من أيدي الألمان جانباً كبيراً من رأس المال الألماني الضئيل الذي لم تلحقه يد التخريب خلال الحرب . ومع ذلك فقد تمكنت لجنة الإشراف العسكرية العليا خلال الأعوام الأربعة التي تلت الحرب - تمكنت من تحسين حال الإدارة الحكومية ، ورفع مستوى الإنتاج الصناعي في ألمانيا . ووجدت بريطانيا والولايات المتحدة منطقتيهما في وحدة اقتصادية واحدة . وأغدقت الولايات المتحدة بسخاء عجيب إعاناتها المالية لإعادة الحياة الاقتصادية في ألمانيا الغربية . فكانت تقدم لها كل عام منحاً مالية تقرب من الخمسمائة مليون دولار . وفي سنة ١٩٤٨ نُحِلَ لألمانيا حق مشاطرة الدول الأوروبية في إعانة مارشال . وبذلك أخذت تنتعش تدريجاً الحياة الاقتصادية في ألمانيا الغربية ، وتسير في خطى ثابتة نحو الاكتفاء الاقتصادي .

وكانت صعوبة إقامة حكومة ألمانية لا تقل مشقة عن بذل الجهود لكي تقف ألمانيا على أقدامها من الناحية الاقتصادية . ذلك أن انهيار الحكم النازي ترك فراغاً سياسياً هائلاً في تلك الدولة . فاضطرت الإدارات العسكرية للحلفاء إلى أن تشيد نظاماً حكيمياً جديداً لألمانيا الغربية . وبدأت بإنشاء مجالس بلدية في المدن والبنادر الريفية . ثم وجهت عنايتها إلى إقامة حكومة واحدة لألمانيا الغربية .

ولقد نشب في صيف سنة ١٩٤٨ شجار شديد بين الروس ودول الاحتلال الغربية بشأن إنشاء مثل هذه الحكومة . فضربت روسيا حصاراً على مدينة برلين ، وقطعت جميع المواصلات التي بينها وبين مناطق الدول الغربية . واضطرت الحكومتان الأمريكية والبريطانية أن ترسل أساطيل جوية كبيرة لإغاثة السكان الألمان القاطنين بمنطقتيهما . وأخيراً أكرهت الإدارة الروسية على رفع الحصار في أواسط ربيع سنة ١٩٤٩ . وبذلك أحرز الغرب فوزاً أدبياً كبيراً .

والتأم في مدينة بون في سبتمبر سنة ١٩٤٨ عقد مجلس برلماني مؤلف من إنشاء جمهوريتين
ممثلين منتخبين عن نواحي ألمانيا الغربية . وعهد هذا المجلس إلى لجنة من أعضائه
بوضع قانون أساسي للدولة الجديدة المراد إنشاؤها . وبعد مناقشات استغرقت
سنة أشهر فُرج من وضعه . ووافقت دول الاحتلال على نصوصه .
ووضع موضع التنفيذ في مايو سنة ١٩٤٩ . وبمقتضاه أقيمت في ألمانيا الغربية
جمهورية تعاهدية مقرها مدينة بون الجامعية .

واقفتي الروس خطوات الدول الغربية ، فأقاموا هم أيضاً في منطقة احتلالهم
في أكتوبر سنة ١٩٤٩ « الجمهورية الألمانية الديمقراطية » ، واتخذوا من القطاع
الروسي ببرلين مقراً لها . وبذلك قُسمت ألمانيا إلى دولتين تكادان تكونان
منفصلتين انفصال تاماً في كل شيء . ولكن لم تُمنح كلتا الدولتين حقوق الدول
ذات السيادة . فقد احتفظت دول الاحتلال الأربع بحق الإشراف العام على
ألمانيا ، وخاصة على شؤونها الحربية وعلاقاتها الخارجية .

٥ - من مظاهر الانشقاق والاتحاد

بينما في الصفحات السالفة بعضاً من أوجه الخلافات الحادة التي شجرت
بين دول الكتلتين الشرقية والغربية . وسرعان ما تحولت تلك المنازعات إلى حرب
باردة شن فيها المعسكران حرب أعصاب حامية الوطيس أحدهما ضد الآخر .
وكان روزفلت يلزم أهمية تعاون الدول الغربية مع روسيا لتعمير العالم وتأمين
السلم بعد هزيمة دول المحور . وبرغم أن ونستون تشرشل لم يكن يشاركه هذا الأمل ،
إلا أن القراوات التي وصلت دول الحلفاء إليها في مؤتمر يالطا حفزت كثيرين
من الناس إلى الأمل بإمكان تحقيق الآمال العريضة التي تربووها . فقد عمل
الأمطاب على وضع تسويات يرضى بها الجميع ، وأبقى روزفلت وتشرشل الباب
مفتوحاً لمفاوضات مقبلة لبحث شتى الشئون التي تههم روسيا ، مثل حقوقها في
البرونيل ، وفي إيران ، ومستقبل دويلات البلقان ، وتوزيع المستعمرات
الإيطالية .

موقف روسيا ولكن ما إن وضعت الحرب أوزارها حتى انتهجت روسيا — لأسباب الممداني إزاء الدول الغربية واضحة تماماً — سياسة تحد وعدوان . فأضمرت نيران ثورات شيوعية في هنغاريا وبلغاريا ورومانيا ، ثم في تشكوسلوفاكيا (سنة ١٩٤٨) ؛ وجعلت هذه الدول الصغيرة تابع لها تسير في فلحها وتأنمر بأمرها . كذلك أكرهت فنلندا تحت ضغطها الشديد على أن تدخل في دائرة نفوذها في سياستها الخارجية .

كذلك عاونت روسيا الشيوعيين الصينيين في قتالهم المظفر ضد قوات شيانج كى شك التي كانت الحكومة الأمريكية تدعمها بالعناد والمشورة العسكرية ؛ ولقد تمكن الشيوعيون الصينيون من هزيمة قوات شيانج كى شك وإكراهه سنة ١٩٤٩ على الالتجاء إلى جزيرة فورموزا . وبذلك خلقت لهيئة الأمم مشكلة عسيرة جديدة . فقد أيد المعسكر الغربي احتفاظ الصين الوطنية بالكرسی المخصص للصين في تلك الهيئة ، في حين انتصرت روسيا لحكومة الصين الشيوعية الجديدة ، وطالبت في قوة بقبول ممثلها لدى هيئة الأمم المتحدة .

واستحوذت روسيا على ثروة منشوريا الصناعية ، وأفلحت في إثارة حركات ثورية في الهند الصينية وشبه جزيرة الملايو واندونيسيا وشمال كوريا ، وخلقت قلقا واضطرابات شيوعية في اليونان وإيران وتشكوسلوفاكيا ، وشددت الضغط على تركيا ، وعرقلت إبرام صلح مع النمسا ، وقاطعت كثيراً من منظمات الأمم المتحدة ومشروع مارشال ، وأكثرت من الالتجاء إلى استخدام حق الفيتو في القرارات التي يصل إليها مجلس الأمن .

فحفزت هذه العراقيل والمضايقات حكومات الدول الديمقراطية الغربية إلى توحيد صفوفها وعقد العناصر للوقوف جبهة متحدة إزاء العدوان الشيوعي . ومدت الولايات المتحدة يد العون إلى الدول الأوروبية ، وقدمت لها مساعدات مالية كبيرة القدر . وكان أكبر هذه المنح المالية ما قدمه لها مارشال وزير الخارجية الأمريكية في المشروع الضخم الذي حمل اسمه . فقد دعا في يونيو سنة ١٩٤٧ دول أوروبا الغربية إلى وضع برنامج كبير يهدف إلى إنعاش اقتصادياتها . وقدم في سماء منقطع النظر مبالغ طائلة من المال لتحقيق هذا المرمى .

وفي الوقت عينه وُضعت خطط مشتركة لتعاون دول أوروبا الغربية مع
الولايات المتحدة للدفاع عن الغرب . ف وقعت في ١٧ مارس سنة ١٩٤٨ في
بركسل معاهدة للضمان الجماعي بين بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ولكسمبرج .
وبعد عام وقعت الولايات المتحدة وكندا والدول الخمس الموقعة على معاهدة
بركسل وإيطاليا والدنمارك والنرويج والبرتغال وإيسلندة - وقعت معاهدة شمال
الأطلسطي (٤ إبريل سنة ١٩٤٩) . وهي اتفاقية تبين بجلاء اهتمام دول أوروبا
الغربية وقارة أمريكا الشمالية بضمان التعاون فيما بينها في شؤون الدفاع الحربي
وتأمين استقرارها المالي ورخائها الاقتصادي . وقد تعهدت هذه الدول بأن تتشاور
فيما بينها في كل ما يتعلق بشؤونها المشتركة .

وتطورت حركة نحو اتحاد أوروبا الغربية لا يمكن التنبؤ بما ستحدثه من
الأثر في تاريخ أوروبا المستقبل . فقد أقيم في مايو سنة ١٩٤٩ هيئة ثنائية لدول
أوروبا الغربية . فأنشئت جمعية استشارية التأم عقد اجتماعها الأول في ستراسبورج
في أول أغسطس سنة ١٩٤٩ . وقد تباحث أعضاؤها في التغيرات التي
يجدر إحداثها في نظم أوروبا السياسية والاقتصادية حتى تحقق هدفها الرئيسي :
وهو اتحاد دول أوروبا الغربية في كتلة دولية واحدة . وليس لهذه الجمعية الآن
سوى صفة استشارية محضة ، فلا تتخذ دولها رسمياً بالقرارات التي تتخذها .
ولهذه الجمعية مجلس وزراء يعد عنصرها التنفيذي .

ولا تزال هاتان الهيئتان في مرحلة الطفولة . ويتعذر على المرء أن يتكهن
بما ستتخذانه من شكل نهائي ، أو بالدور الذي سوف يضطلعان به في شؤون
أوروبا المستقبلية .

وكان لبعض دول أوروبا الغربية هذه مشكلاتها الخاصة بها . فقد شغلت
فرنسا بالاً بوضع دستور جديد ، بدلا من دستور الجمهورية الثالثة التي أسلمت
أنفاسها الأخيرة بأنصار الجيوش الفرنسية في أواخر ربيع سنة ١٩٤٠ . وقد وُلدت
الجمهورية الفرنسية الرابعة في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

معاهدات للضمان
الجماعي

اتحاد أوروبا
الغربية

الجمهورية
الفرنسية الرابعة

واقسم الرأي العام في البلجيكي على أثر انتهاء الحرب بخصوص دعوة ملكها السابق ليوبلد الثالث إلى اعتلاء عرشها مرة ثانية . وأخيراً وافق هذا العاهل على التنازل عن أريكة الملك لابنه الأكبر الأمير بودوان عند ما بلغ الثامنة عشرة من عمره .

اعتلاء الأمير
بودوان عرش
بلجيكا

٦ - اليابان

كان احتلال اليابان وإدارة شؤونها بعد استسلامها للحلفاء عملية بسيطة بالقياس إلى مثلها في ألمانيا . ذلك أنه بقيت حكومة الميكادو تنهض بأعباء الحكم حينما ألقت الجيوش اليابانية بسلاحها . وقد عُرف اليابانيون بانقيادهم السلس إلى صاحب السلطان فيهم . ولم تصب اليابان بتحطيم اقتصادياتها بالدرجة التي حاقت بألمانيا . كذلك لم تقسم البلاد إلى مناطق احتلال . بل عهد إلى الجنرال ماك آرثر وحده بإدارة شؤونها على النحو الذي يروق له .

وقد تمكن هذا القائد في خلال أشهر قلائل أن يستحوذ على ثقة العناصر اليابانية الحرة ، وعلى رأسها الإمبراطور هيرو هيتو ، وأن يحفزها إلى التعاون معه في ثقة وإخلاص . وأمكنه بذلك أن يحدث ، دون اضطراب أو قلقلة كبيرة ، انقلاباً شاملاً في نظام المجتمع الياباني . وقدم للمحاكمة عدد من كبار الوزراء والقواد بوصفهم مجرمي حرب ، وطهرت الحكومة من العناصر الرجعية ، وألغى البوليس السرى والجمعيات « الوطنية » المتطرفة ، وقضى على الشركات الكبيرة ، وانتزعت ملكية مساحات كبيرة من الأرض من أيدي حفنة قليلة من الأسر اليابانية الشريفة القوية النفوذ ، وجعل نظام ملكية الأرض وتأجيرها أقرب إلى المبادئ الديمقراطية ، وحُرمت كل تفرقة بين الأهلين بسبب الجنس أو الدين ، وأكره الإمبراطور على أن يعلن جهاراً استنكاره لاعتماد عامة شعبه بألوهيته المقدسة . وفي الوقت عينه بدت إصلاحات سياسية خطيرة الأثر بعيدة المدى . فانتخب برلمان جديد بمقتضى قانون انتخاب مصلح ، ووضع دستور

ديمقراطى جمل الإمبراطور مجرد رئيس شكلى للدولة ، وحوى مواد تكفل حقوق الأفراد وتستنكر الحروب .

وقد أمضت الدول الغربية مع اليابان فى سان فرنسكو (٨ سبتمبر سنة ١٩٥٠) ، أعيدت بمقتضاها نهائياً جميع الأراضى التى كانت اليابان قد انتزعتها من الصين ، وجميع فتوحها التى استولت عليها منذ الحرب العالمية الأولى .

وكانت روسيا على أثر إعلانها الحرب على اليابان قد أرسلت قواتها إلى تقيم كوريا . فقُسِّمَت تلك البلاد إلى منطقتى احتلال : احتلت الولايات المتحدة الجزء الجنوبى منها ، وهو غنى بأراضيه الزراعية ، واحتلت روسيا الجزء الشمالى ، وهو الشطر الصناعى من كوريا .

وأخذ الروس يطبقون النظم الشيوعية فى منطقة احتلالهم ، وانحاز الأمريكيون إلى جانب العناصر المحافظة من كبار ملاك الأرض فى كوريا الجنوبية . ولكن فى أواخر سنة ١٩٤٦ سلم الأمريكيون أزمة الحكم للعناصر الوطنية ، ولو أنهم أبقوا فى يدهم إشرافهم العسكرى . ووافق الأهليون سنة ١٩٤٨ على دستور يجعل من كوريا الجنوبية جمهورية . غير أن انتصار الجنرال ماو تسى تونج Mao Tse-tung القائد العام للجيش الصينية الشيوعية الذى وقعت روسيا من ورائه تويده وتمده بالمعونة العسكرية — انتصاره على شيانج كى شك قائد القوات الوطنية ، جعل موقف الأمريكيين فى كوريا شائكاً للغاية ، وأجبرهم على إبقاء حامية قوية بتلك البلاد .

وفى سنة ١٩٥٠ هاجمت قوات كوريا الشمالية، تشد أزرها قوات الصين وروسيا الشيوعيتين — هاجمت الجمهورية الكورية الجنوبية . فاضطرت هيئة الأمم المتحدة إلى أن تعلن استنكارها لهذا العدوان ، وأخذت الدول الديمقراطية على عاتقها رده . وقد وقع العبء الأكبر من مقاتلة الشيوعيين على قوات الولايات المتحدة .

٧ - إرساء أساس هيئة الأمم المتحدة

كان من بين نتائج إخفاق عصبة الأمم في كفالة استقلال الدول الصغيرة ، وصون السلام العالمى ، واشتباك أمم العالم في حرب طاحنة للمرة الثانية في غضون ربع قرن من الزمان ، أن اشتد تصميم قادة دول الحلفاء على ابتداع نظام دولى يكون في طوقه درء خطر الحروب عن الجنس البشرى ، واتخاذ الإجراءات الكفيلة بالحيلولة دون اتخاذ السيف حكماً فيصلاً بين الدول . وكان هذا الهدف النبيل مانثا بنوع خاص في ذهن روزفلت حين وقع ميثاق الأطلنطى .

وقد اعترف « الكبار الثلاثة » : روزفلت وتشرشل وستالين أثناء عقد مؤتمر موسكو (أكتوبر سنة ١٩٤٣) والحرب مستعرة الأوار - اعترفوا بضرورة وضع تنظيم دولى عام في أول ساعة ممكنة : تنظيم يقوم على مبدأ المساواة في حقوق السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام . وتعملوا بفتح باب العضوية لجميع هذه الأمم ، صغيرتها وكبيرتها ، كى تعمل على كفالة السلام والأمن الدوليين .

وقد اجتمع ممثلو بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة والصين بين أغسطس وأكتوبر سنة ١٩٤٤ في دُمبَرْتُون أوكس Dumbarton Oaks بواشنطن ، حيث عملوا بهمة فائقة لوضع مشروعات تمهيدية لمنظمة دولية تسهر على سلام العالم بتسوية المنازعات الدولية التى قد تهدده .

وعند ما بدأت تبشير النصر تبين في الأفق ، بعث الحلفاء الدعوة للدول المناصرة لهم « لعقد مؤتمر للأمم المتحدة » في سان فرنسكو . فلبت خمسون دولة الدعوة ، وأرسلت مندوبين عنها للاشتراك في وضع ميثاق هذه المؤسسة الدولية الجديدة ، وقد انعقد هذا المؤتمر في أواخر إبريل سنة ١٩٤٥ ، وظل ملتصقاً حتى شهر يونيو . وقد برزت خلال مداولاته خلافات حادة كثيرة . ولكن تمكن المندوبون من أن يخرجوا في النهاية ميثاق الأمم المتحدة الذى أعلن في مقدمته أن هدف هذه المنظمة الدلية هو « أن تنقل الأجيال المتعاقبة من لمة الحرب ،

أهداف هيئة
الأمم

وأن تؤكد من جديد الإيمان بحقوق الإنسان الأساسية ، وبكرامة الفرد وقيمه ، وفى التسوية فى الحقوق بين الرجال والنساء ، وبين الأمم الصغيرة والكبيرة ، والعمل على إنشاء أحوال تمكن من المحافظة على العدالة وصورها ، واحترام الالتزامات التى تنشأ من المعاهدات والمصادر الأخرى للقانون الدولى . والسعى إلى ازدياد التقدم الاجتماعى ، ورفع مستوى الحياة بإعطاء قسط أكبر من الحرية وضمان عدم استخدام القوة المسلحة إلا فى الصالح العام ، واستخدام النظم الدولية لزيادة التقدم الاقتصادى والاجتماعى لجميع الشعوب .

ولبلوغ هذه الأهداف السامية ، أنشئت منظمات عدة تؤلف فى مجموعها
الجمعية العمومية
الهيئة
هيئة الأمم المتحدة . فنص الميثاق على إنشاء جمعية عامة تتألف من جميع أعضاء
هيئة الأمم المتحدة . ول هذه الجمعية الحق فى بحث جميع المسائل التى تدخل فى
نطاق ميثاق الهيئة ، وفى التقدم بتوصيات بشأن هذه المسائل . ولكل دولة ممثلة
فى الجمعية صوت واحد .

والمنظمة الثانية هى مجلس الأمن ، ويتألف من أحد عشر عضواً ، تُختصت
الدول الكبرى الخمس الآتية : أمريكا وفرنسا وبريطانيا وروسيا والصين - بمقاعد
دائمة فيه ، وأعطيت المقاعد الستة الباقية لست دول أعضاء تنتخبها الجمعية
العمومية لمدة عامين .

ويهدف مجلس الأمن فى المكان الأول إلى صون السلم والأمن الدولى ، ونحو سماع
الشكاوى التى ترفعها له الدول الأعضاء . وله وحده حق الفصل فى المنازعات
الدولية . ويمكن للجمعية العمومية أن توجه نظره إلى أى موقف قد يعرض السلم
للخطر . ووافقت جميع الدول الأعضاء على أن تضع تحت تصرف المجلس أية
قوات مسلحة وتقدم كل تسهيلات عسكرية تُطلب منها ، أو يتفق عليها .
ولذلك فإن هذا المجلس يفضل مجلس عصبة الأمم فى أنه مُنح الوسائل التى تجعل
فى مقدوره تنفيذ القرارات التى يصدرها بخصوص تسوية المنازعات الدولية ومنع
الاعتداء . غير أن قراراته تحتاج فى تنفيذها إلى ضرورة موافقة سبعة من أعضائه
عليها على الأقل ، بشرط أن يدخل فيهم جميع الأعضاء الدائمين . وبذلك أعطى

الأعضاء الدائمون حق الاعتراض على قرارات المجلس ، أو ما اصطلح عليه « بحق الفيتو » .

محكمة العدل الدولية
والمؤسسة الثالثة التي أنشأها الميثاق بقصد الفصل في المنازعات الدولية هي محكمة العدل الدولية . وقد أنشئت على غرار المحكمة الدائمة للعدل الدولي التي أقامها عهد عصبة الأمم . وحولت سلطات تماثل إلى مدى كبير تلك التي كانت ممنوحة للمحكمة الدائمة .

المجلس الاقتصادي والاجتماعي
والمنظمة الرابعة هي « المجلس الاقتصادي والاجتماعي » ويتألف من ثمانية عشر عضواً تنتخبهم الجمعية العمومية . ويستهدف هذا المجلس « ترقية الرخاء الاجتماعي » ، و « تنمية احترام ومراعاة الحقوق الإنسانية والحريات الأساسية للجميع » .

مجلس الوصاية
والمنظمة الخامسة هي مجلس الوصاية . وقد حل مكان لجنة الانتداب الدائمة القديمة التي كانت عصبة الأمم قد أقامتها عقب الحرب العالمية الأولى . ويقوم مجلس الوصاية بالإشراف على شؤون المستعمرات السابقة لدول المحور .

سكرتيرية هيئة الأمم
ويشرف على أعمال هيئة الأمم سكرتيرية يرأس موظفيها سكرتير عام تعينه الجمعية العمومية بتوصية من مجلس الأمن .

اليونسكو
وقد تفرع من المجلس الاقتصادي والاجتماعي بعض المنظمات فوات الاختصاص ، كهيئة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وهي التي يرمز إليها باصطلاح « يونسكو » ، UNESCO ، ومؤسسة العمل الدولي ، وأخرى للصحة العالمية ، ورابعة للطعام والزراعة ، ومنظمات أخرى عديدة ذات صبغة فنية .

المقر الدائم
وقد جعلت مدينة نيويورك المقر الدائم لهيئة الأمم المتحدة ، اعترافاً بما أسدته الولايات المتحدة من جليل الخدمات لقضية العدالة والسلام العالمي .

بعض مآثر الهيئة
مع أن هيئة الأمم المتحدة لم تحقق جميع الآمال الكبيرة التي كانت ترجى منها ، إلا أنها قد منعت بعض المآثر الجلية لقضية السلام ، وحالت دون تفاقم الخلاف بين الدول المتنازعة . فوصلت مثلاً إلى تسوية نزاع خطير بين

روسيا وإيران بشأن جلاء جنود الدولة الأولى عن أرض الدولة الثانية ، وقضية استقلال إندونيسيا . وعرض عليها النزاع الخاص بوجود الجنود البريطانيين والفرنسيين في سوريا ولبنان ، ومطالبة مصر بريطانيا بإجلاء جنودها عن جميع أراضيها .

معارفات بين
الهيئة والمصبة

وقد غدت الجمعية العمومية لهيئة الأمم مجتمعاً عاماً لمثلثي شعوب العالم ، ومنيراً عالياً يجرون من فوقه مناقشاتهم ويعرضون خلافاتهم ، وندوة يبحثون فيها الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي تعود على أمهم بالخير والرفاهية . ولقد قامت منظماتها المتعددة ، كمنظمة اليونسكو ومنظمة الصحة الدولية ومنظمة العمل الدولي بخدمات ذات بال للعالم الديمقراطي قاطبة .

وقد وضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة ونظمها في ضوء الاختبارات التي اكتسبها العالم من تجربة عصبة الأمم . وقام واضعو الميثاق بمحاولة جديدة لتجنب الأخطاء التي انطوى عليها نظام العصبة القديمة . فيثاق الهيئة أكثر وضوحاً من عهد العصبة ، والسلطات والوظائف الممنوحة لهيئة الأمم أوسع نطاقاً وأكثر شمولاً من تلك التي تحولت للعصبة . وتشمل عضوية هيئة الأمم جميع الدول العظمى التي برزت من الحرب العالمية الثانية ، في حين أن الولايات المتحدة لم تدخل قط عصبة الأمم ، ولم يُسمح لروسيا بالانضمام إليها إلا بعد خمسة عشر عاماً من إنشائها .

ولكن خيبت أحداث ما بعد الحرب آمال الكثيرين في أن تفلح الهيئة فيما أخفقت فيه العصبة القديمة . ولعل أكبر عامل في هذه الخيبة راجع إلى منع الدول الكبرى حق « الفيتو » . فع أن واضعي الميثاق قصدوا ألا يستخدم إلا في حالات الطوارئ الهامة ، فإن روسيا أكثرت من استخدامه في مسائل كان أغلبها غير ذي شأن .

ونرى العالم اليوم ينقسم إلى معسكرين هائلين : معسكر تنزعه الولايات المتحدة ، ويتألف من أكثر الدول الديمقراطية في الغرب ، وآخر تقوده روسيا ، ويتنظم أقطار العالم التي تدين بالمشهد الشيوعي ، وتشيد وفق مبادئه أسس أنظمتها الاقتصادية .

وقد تجلى هذا الانقسام على نحو مثير في مقاطعة روسيا مجلس الوصاية ، واستعمالها حق القيتو في رفض طلبات العضوية التي قدمتها بعض الدول الحرة كإيرلندا وفنلندة . ويظهر في الحرب الباردة التي تجتاح في السنين الأخيرة صحف المسكونة - وفي حرب كوريا التي تهدد السلام العالمي تهديداً خطيراً . وأسوأ من هذا كله نراه في فشل مجلس الأمن في الوصول إلى اتفاق عام بشأن الإشراف على الطاقة الذرية . فإن جميع المفكرين في بقاع الكرة الأرضية يدركون جيد الإدراك أن الذرة قد تخرج من قمقمها الغول الرهيب الذي سوف يقضى لا على المدنية الحديثة فحسب ، بل على الجنس البشرى بأسره . بل قد يبيد جميع ضروب الحياة فوق ظهر هذا الكوكب . في حين أنه إذا استخدمت هذه القوة الحارقة في غايات نافعة ، ووضعت تحت ضمانات وافية ، فلأنها أكبر الظن . ستبدأ في تاريخ العالم عصراً جديداً لم يعلم به بشر ، ولم يخطر في ذهن إنسان : عصراً ينتنى فيه العوز والحرمان ، ويبسط الرخاء والأمن والسعادة ظلالها على الأمم والأمصار .

رؤساء الجمهورية الفرنسية الثالثة

موعد انتخابهم	
أغسطس سنة ١٨٧١	مارى جوزف لويس أدلف تيير
مايو سنة ١٨٧٣	مارى آدمى بتريس موريس دى مكماهون دوق ماجتتا .
يناير سنة ١٨٧٩	فرنسوا پول چول جرينى . أعيد انتخابه سنة ١٨٨٦ . استقال سنة ١٨٨٧ .
ديسمبر سنة ١٨٨٧	مارى فرنسوا سادى كارنو . اغتيل سنة ١٨٩٤
يونيو سنة ١٨٩٤	جان پول بيير كازيمير - بيريه . استقال سنة ١٨٩٥ .
يناير سنة ١٨٩٥	فرنسوا فلक्स فور . مات سنة ١٨٩٩
فبراير سنة ١٨٩٩	إميل لوبيه
يناير سنة ١٩٠٦	أرمان فايير
١٩١٣	ريمون پوانكاريه
١٩٢٠	پول ديشانل
١٩٢٠	ألكسندر ملليران
١٩٢٤	جاستون دومرج
١٩٣١	پول دومر
١٩٣٢	أليير لبران

رؤساء وزارات إنجلترا

في عهد الملك جورج الثالث (١٧٦٠ - ١٨٢٠)

جون ستيوارت إيرل بيوت : وزير الخزانة ١٧٦٢ - ١٧٦٣

جورج جرنفل : وزير المالية ١٧٦٣ - ١٧٦٥

تشارلس ونتورث واطسن . (ماركيز روكنجهام) ١٧٦٦

أوغسطس فترزوي ، دوق جرافتن ١٧٦٦ - ١٧٦٩

لورد نورث ١٧٧٠ - ١٧٨٢

ماركيز روكنجهام ١٧٨٢

وليم بتي ، إيرل سلبرن ١٧٨٢ - ١٧٨٣

وليم بنتنك (دوق هورتلند) ١٧٨٣

وليم پت ١٧٨٣ - ١٨٠١

هنري أدنجتون (فيكونت سيدمٲ) ١٨٠١ - ١٨٠٤

وليم پت ١٨٠٤ - ١٨٠٦

وليم ، لورد جرنفل ١٨٠٦ - ١٨٠٧

دوق هورتلند ١٨٠٧ - ١٨٠٩

سبنسر پرسيفال ١٨٠٩ - ١٨١٢

في عهد الملك جورج الرابع (١٨٢٠ - ١٨٣٠)

ايرل أوف ليفربول ١٨١٢ - ١٨٢٠ و ١٨٢٧ - ١٨٢٧

جورج كاننج ١٨٢٧

فيكونت جودرتسن ١٨٢٧

دوق ولنجتون ١٨٢٧ - ١٨٣٠

في عهد الملك وليم الرابع (١٨٣٠ - ١٨٣٧)

تشارلس جراي ١٨٣٠ - ١٨٣٤

۱۸۳۴	فیکونت ملبورن
۱۸۳۵ - ۱۸۳۴	سیر روبرت پیل
۱۸۳۷ - ۱۸۳۵	فیکونت ملبورن

فی عهد الملكة فکتوریا (۱۸۳۷ - ۱۹۰۱)

۱۸۴۱ - ۱۸۳۷	فیکونت ملبورن
۱۸۴۶ - ۱۸۴۱	سیر روبرت پیل
۱۸۵۲ - ۱۸۴۶	لورد جون رسل
۱۸۵۲	لیرل آوف در
۱۸۵۵ - ۱۸۵۲	لیرل آوف أبردين
۱۸۵۸ - ۱۸۵۵	فیکونت بلمرستون
۱۸۵۹ - ۱۸۵۸	لیرل آوف دربی
۱۸۶۵ - ۱۸۵۹	فیکونت بلمرستون
۱۸۶۶ - ۱۸۶۵	لیرل رسل
۱۸۶۸ - ۱۸۶۶	لیرل آوف دربی
۱۸۶۸	بنیامین دزرائیلی
۱۸۷۴ - ۱۸۶۸	ولیم غلادستون
۱۸۸۰ - ۱۸۷۴	بنیامین دزرائیلی
۱۸۸۵ - ۱۸۸۰	ولیم غلادستون
۱۸۸۶ - ۱۸۸۵	مارکیز آوف سالسبری
۱۸۸۶	ولیم غلادستون
۱۸۹۲ - ۱۸۸۶	مارکیز آوف سالسبری
۱۸۹۴ - ۱۸۹۲	ولیم غلادستون
۱۸۹۵ - ۱۸۹۴	لیرل آوف روزبری
۱۹۰۱ - ۱۸۹۵	مارکیز آوف سالسبری

في عهد الملك إدوارد السابع (١٩٠١ - ١٩١٠)

ماركيز أوف سالسبري	١٩٠١ - ١٩٠٢
١. ج. بلفور	١٩٠٢ - ١٩٠٥
سير هنري كامبل بانرمان	١٩٠٥ - ١٩٠٨
هنري أسكوث	١٩٠٨ - ١٩١٠

في عهد الملك جورج الخامس (١٩١٠ - ١٩٣٦)

هنري أسكوث	١٩١٠ - ١٩١٦
داقد لويد جورج	١٩١٦ - ١٩٢٢
١. بونارلو	١٩٢٢ - ١٩٢٣
ستانلي بلدون	١٩٢٣ - ١٩٢٤
رسمي مكنولند	٢٢ يناير ١٩٢٤ - نوفمبر سنة ١٩٢٤
ستانلي بلدون	١٩٢٤ - ١٩٢٩
رسمي مكنولند	١٩٢٩ - ١٩٣٥
ستانلي بلدون	١٩٣٥ - ١٩٣٧

في عهد الملك جورج السادس (١٩٣٦ - ١٩٥٢)

ستانلي بلدون	١٩٣٦ - ١٩٣٧
نقل تشيمبرلين	١٩٣٧ - ١٩٤٠
ونستن تشرشل	١٩٤٠ - ١٩٤٥
كلمنت أتلي	١٩٤٥ - ١٩٥١

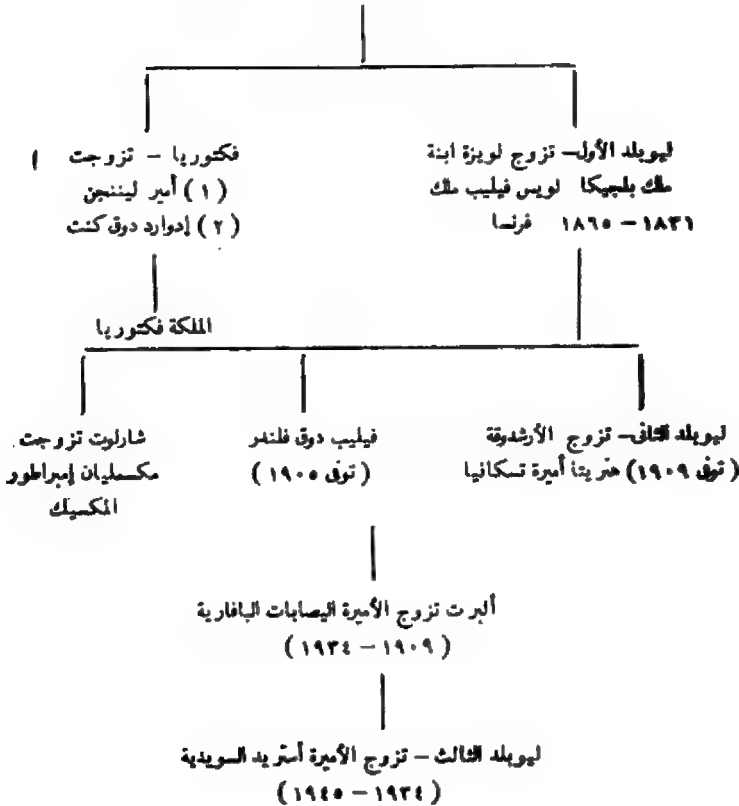
مستشارو الإمبراطورية الألمانية

(١٨٧١ - ١٨٨٨)	في عهد وليم الأول
١٨٧١ - ١٨٨٨	أتو فون بسمارك
(٩ مارس - ١٥ يونيو سنة ١٨٨٨)	في عهد فردريك الثالث
١٨٨٨	أتو فون بسمارك
(١٨٨٨ - ١٩١٨)	في عهد وليم الثاني
١٨٨٨ - ١٨٩٠	أتوفون بسمارك
١٨٩٠ - ١٨٩٤	جورج ليو فون كابريني
١٨٩٤ - ١٩٠٠	شلفيج فون هوهنلوهر شلنجنسفورت
١٩٠٠ - ١٩٠٩	فون بيلوف
١٩٠٩ - ١٩١٧	تيوبلد فون بتمان - هلفج
١٩١٧	فون ميشيليس
١٩١٧ - ١٩١٨	هارتلنج
١٩١٨	ماكس فون بادن

ملوك إيطاليا

فكتور عمانوئيل الثاني ١٨٦٢ - ١٨٧٨
 همبرت الأول ١٨٧٨ - ١٩٠٠
 فكتور عمانوئيل الثالث ١٩٠٠ - ١٩٤٦

البلجيكيك - أسرة كوبرج
 فرنسيس فريديك ، دوق كوبرج



الأسرة المالكة البريطانية

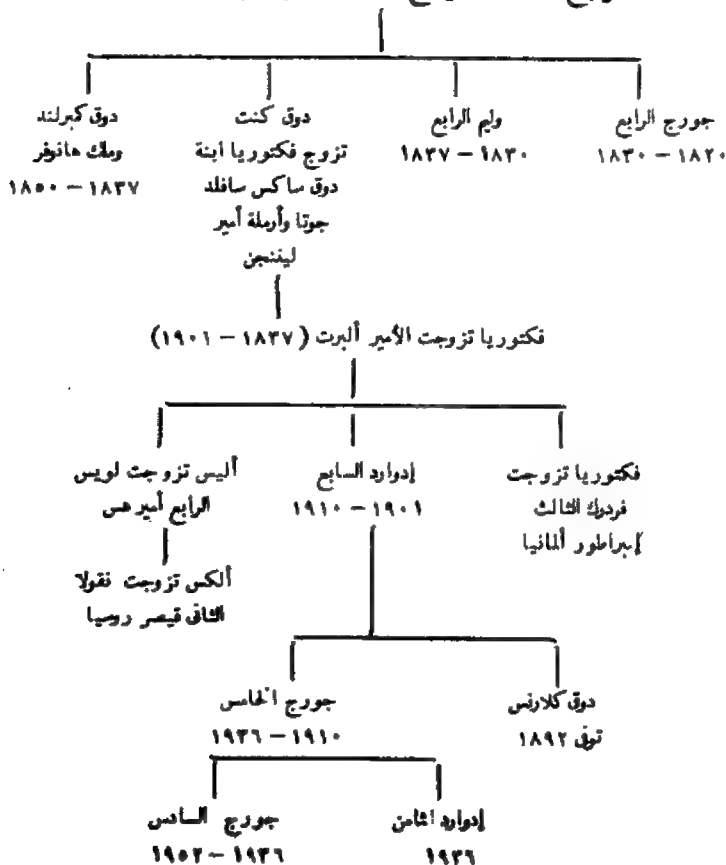
من عهد جورج الأول

جورج الأول - تزوج الأميرة صوفيا دورثيا (١٧١٤ - ١٧٢٧)

جورج الثاني - تزوج الأميرة كارولين (١٧٢٧ - ١٧٦٠)

فردريك لويس أمير ويلز (توفي ١٧٥١)

جورج الثالث - تزوج الأميرة شارلوت (١٧٦٠ - ١٨٢٠)



(ملحق ١)

الإصلاحات العاجلة التي يحث منشور كارل ماركس على ضرورة القيام بها ، هي :

- ١ - مصادرة الأراضي الخاصة ، واستخدام إيجارها في سد نفقات الدولة .
- ٢ - جباية ضريبة دخل متدرجة تدرجاً تصاعدياً .
- ٣ - إلغاء حق الإرث .
- ٤ - مصادرة أملاك جميع النازحين عن البلاد ، وأملاك العصاة .
- ٥ - تركيز الاعتمادات المالية لنفقات الدولة بإنشاء بنك مركزي تابع لها ، تدفع الدولة رأس ماله ، ويكون له احتكار مطلق .
- ٦ - تركيز وسائل النقل في يد الدولة .
- ٧ - زيادة تملك الدولة للمصانع ووسائل الإنتاج ، وإعادة توزيع الأراضي الزراعية وتحسينها طبقاً لخطة عامة .
- ٨ - إلزام جميع الأفراد بالعمل ، وإنشاء جيوش من العمال لاستخدامها في الزراعة بنوع خاص .
- ٩ - توحيد العمل في الزراعة مع العمل في الصناعة ، وإلغاء الاختلافات التي توجد بين الحضر والريف تدريجياً .
- ١٠ - توفير التعليم العام لجميع الأحداث ، وحظر استخدامهم في المصانع بالشكل الحالي ، وتوحيد التعليم مع ملاءمته للإنتاج الاقتصادي .

وبعد أن ينتقد المنشور بالتفصيل الحركات الاشتراكية المعاصرة -- وهو نقد ليس له سوى أهمية تاريخية -- يخلص إلى حكمه النهائي الذائع الصيت ، وينتهي بالشعار الذى يستهل به الصفحة الأولى للمنشور ، وهو :

« إن الشيوعيين يعلنون إخفاء آرائهم ونواياهم عمداً عفاً بلا جدوى . وهم يعلنون جهراً أن أهدافهم لا يمكن تحقيقها إلا بقلب النظام الاجتماعى الحالى بأكله بوسائل العنف .

« فلتزعزع الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية . وليس للطبقات العمالية شئ تخشى فقدته سوى أصفادها . ولكن أمامها العالم كله ثمرة يمكنها أن تغفر به .

« فيا أيها العمال من جميع الأقطار والأمصار ، هيا إلى الاتحاد . »

مقتبس من كتاب Karl Marx

تأليف C.H. Car

(ملحق ب)

بحث مجلس الحرب الأعلى بباريس في ٥ - ٧ أكتوبر سنة ١٩١٨ شروط الهدنة التي كان قد وضعها قواد البر وأمراء البحر ، وصدق على الشروط النهائية في ٤ نوفمبر . وأبلغ المستر لويد جورج هذه الشروط إلى وزارة الحرب بلندن في ٥ نوفمبر ، ذاكرًا أن فوش يظن أن الألمان سيرفضونها ، ولكنه يثق من تغلبه في أية حال على العدو قبل حلول عيد الميلاد .

وقد وضعت الشروط طبقاً للمبدأ بأن العدو يجب ألا يجعل في مركز يعينه على استئناف القتال فيما لو فشلت مفاوضات الصلح . ولهذا بُنيت المطالب الحرية ، وهي تسليم العدو ست بوارج ، وعشرة طرادات ثقيلة ، وثمانية طرادات خفيفة ، وخمسين مدمرة من أحدث طراز ، ومائة وستين غواصة : بنيت هذه المطالب على ضوء الحقيقة بأنه إذا لم يشترط أى شيء على ألمانيا ، فلنما ستخرج من الحرب ، وهي تملك ٢٥ سفينة حربية كبرى ، منها اثنتا عشرة سفينة مصنوعة على أحدث طراز وذات أكبر قوة في العالم ، كما ذكر الأدميرال هوب Hope ، وبذلك تصبح مصدر قلق دائم للأسطول الرئيسى البريطانى .

ووصل الحلفاء إلى الاتفاق بأن السفن التي ستسلم ، يجب أن تُحجز في ميناء محاييد تحت مراقبة الحلفاء . ولكن جلبت البوارج الألمانية أخيراً إلى سكا پافلو ، في ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، ثم أغرقها الألمان بأيديهم فيما بعد . فلن الثقات الحربيين أصروا على تسليم هذه السفن ، لاحتجزها . ولكن رجال السياسة قرروا تقديم شروط أخف من هذه للألمان . إذ اعتقدوا أن الشروط الحربية والبحرية للتسليم قاسية جداً ، وأنه سيصر على الحكومة الألمانية قبولها .

(ملحق -)

كانت نقط ولسن الأربع عشرة بالإيجاز هي :

- ١ - إبرام معاهدات علنية ، وعدم استخدام الدبلوماسية السرية في مفاوضات الدول في المستقبل*.
- ٢ - إطلاق الحرية للملاحة خارج المياه الإقليمية في أزمنة السلم والحرب ، إلا في حالة إقفال البحار تبعاً لترتيب دول .
- ٣ - إزالة جميع العوائق الاقتصادية ، بكل ما يتسع له الذرع .
- ٤ - تقديم ضمانات وافية لتخفيض تسليح الدول .
- ٥ - تسوية المطالبات الاستعمارية تسوية عادلة ، والاهتمام بمصالح الشعوب وتقديرها حق قدرها عند النظر في اختيار الحكومات التي يعهد إليها الإشراف على المستعمرات .
- ٦ - على الألمان الجلاء عن جميع الأراضي الروسية ، ومنح روسيا فرصة كاملة لترقية شؤونها . وعلى الدول أن تتعهد بتقديم مساعداتها لها .
- ٧ - يجب أن تعود للبليجك سيادتها وحريتها كاملتين .
- ٨ - يجب الجلاء عن جميع الأراضي الفرنسية ، وعلى بروسيا أن تصلح ما أفسدته عام ١٨٧١ .
- ٩ - إعادة تخطيط الحدود بين إيطاليا والنمسا حسب قاعدة القومية .
- ١٠ - منح شعوب النمسا والمجر الحكم الذاتي ، وإتاحتها فرصة للعمل على ترقية نفسها .

تاريخ أوروبا

١١ - الجلاء عن أراضي رومانيا وصربيا والجبل الأسود ، وإعطاء صربيا منفذاً إلى البحر ، وتسوية علاقات الدول البلقانية بعضها ببعض بمقتضى قاعدتي القومية والولاء .

١٢ - يجب أن يكفل لجميع القوميات غير التركية في الإمبراطورية العثمانية المجال لاستكمال استقلالها الذاتي ، وأن يكون مضيق الدردنيل حراً على الدوام في وجه جميع السفن .

١٣ - يجب أن تكون بولندا دولة مستقلة ، مع منحها منفذاً إلى البحر .

١٤ - تكوين جمعية عامة من الأمم يرتبط أعضاؤها معاً طبقاً لمهود معينة ، بقصد توفير الضمانات المتبادلة لاستقلالها الذاتي ، وسلامة أراضي الدول العظمى والدول الصغرى على السواء .

وعند ما عُرِضَت النقط الأربع عشرة على بساط البحث أمام مجلس الحرب الأعلى (في ٣ نوفمبر سنة ١٩١٨) احتج المستر لويد جورج على النقطة الثانية ، والمسبو هيان (البلجيكي) على النقطة الثالثة ، وقدم السنيور أرنلندو (إيطاليا) تحفظات فيما يتعلق بالنقطة التاسعة . وأعرب المستر لويد جورج بشكل مشدد عن معارضته للمبدأ الأمريكي الخاص بحرية البحار قائلاً : « إن الشعب الإنجليزي لن يقبله ، وهو في هذا الأمر متحد الصفوف » . كذلك أكد أهمية المطالبة بتعويضات عن الأضرار التي لحقت بدول الحلفاء . ولهذا أنفقت إلى الرئيس ولسن الرسالة التالية :

« لقد أنعمت حكومات الدول المتحالفة النظر في المراسلات التي تبذلت بين الرئيس ولسن والحكومة الألمانية . وهذه الحكومات مع احتفاظها بالتعديلات التالية ، تعلن قبولها لعقد الصلح مع حكومة ألمانيا ، وفق شروط الصلح التي بُسِطت في خطاب الرئيس إلى الكونجرس في ٨ يناير سنة ١٩١٨ ، وفق مبادئ التسوية التي بينها في خطبه التالية . غير أنه ينبغي أن نشير إلى أن المادة الثانية المتعلقة بما يوصف عادة بحرية البحار قابلة لتفسيرات شتى ، بعضها ليس في

الطاقة قبوله . وفي شروط الصلح التي بسطها الرئيس في خطابه إلى الكونجرس في ٨ يناير سنة ١٩١٨ ، أعلن أنه ينبغي أن تعاد جميع الأراضي التي فتحها الألمان إلى أصحابها ، كما أنه ينبغي الجلاء عنها وتحريرها . وتشعر الحكومات المتحالفة بأنه يجب ألا يوجد أى تشكك فيما ينطوى عليه هذا الشرط . فإن الدول المتحالفة تفهمه على أنه ينطوى على ضرورة دفع ألمانيا تعويضات عن جميع الأضرار التي ألحقها بسكان الدول المتحالفة المدنيين وبأموالهم ، نتيجة لاعتداء ألمانيا على أملاك الحلفاء برّاً وبحراً وجوّاً .

٣ نوفمبر سنة ١٩١٨

فهرس

اليوربون الأسبانية ٢٠٩ - ٢١٣ ،
موازينات ٢١٣ - ٢١٦ ، غلو عرشها
٢٨٥ - ٢٨٨ ، والاسترقاق ٣٥٨ - ٣٥١
اندلاع الحرب الأهلية ٦٥١ - ٦٥٣ ،
ودول المحور ٦٨٨
أستراليا ٤٥٩ ، ٥٠٧ ، ٥٤١ ، ٦٨٩ ،
الاسترقاق ٣٥٠ - ٣٦٠
أسترلز ، معركة ٨١ ، ٩٣
إسفلكي ٤٣٨ - ٤٤٠
إسكندر الأول ٨٣ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٥ ،
١٢٠
إسكندر الثاني ٣٦٧ - ٣٦٩
إسكندر ، ملك بلغاريا ٣٩١
إسكندرونة ٦٦١
أسكوب ٤٥٢
إسكوت ، لورد أكسفورد ٤٣١ ، ٤٥٧ ،
٤٦١ ، ٤٧٥ ، ٤٨٩ ، ٥٣٩
إساعيل ، الخديو ٤١٣
آسيا الصغرى ٤١٣ ، ٥٧٩ - ٥٨٤
الاشتراكية ١٥٧ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢١١
٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٣٦ ، ٤٢٠ ،
٤٦٢
الإصلاح ، قانون ١٤٨ - ١٥٠ ، ١٦٣
الأطلنطى ، معاهدة شال ٧٢٩
الأطلنطى ، ميثاق ٦٨٦
الإطاعة والتأجير ، قانون ٦٨٥
أغلدير ، حادث ٤٩٠ - ٤٥١
إفريقية الجنوبية ٣٩٣ ، ٤٠٥ - ٤١٣ ،
٤٢٢ - ٤٢٥ ، ٥٤١

أبردين ، لورد ٢٢٠ ، ٢٢١
أبرينغتش ٤٤٧
إسلاندى ١٢٧
آينسبرج ، معركة ١٠٠
أبو قير ، معركة ٥٢ ، ٥٥
أقاروا ، مؤتمر ٦٢٧
اتحاد الرين ٩٣ - ٩٤ ، ١٠٤ - ١٠٥
الاتحاد والشرق ، حزب ٤٤٨
الاتفاق الودى ٤١٨ ، ٤٢٠ - ٤٢١ ، ٤٣٣ ،
٤٣٤ -
الاتفاق الصغير ٥٦٩ - ٥٧٠
اتفاق ودى بلقانى ٦٥٩
الإدارة ، حكومة ٤١ - ٤٣
إدوارد السابع ٤٢٠ - ٤٢١ ، ٤٣٧ ، ٤٥٧
إفريقيا ٦٧٨ ، ٧٢٢ - ٧٢٣
الأردن ، مبارك ٦٧١ ، ٧٠٩
إرلندا ، وإيجلتر ٦١ - ٦٢ - ، والرق ٣٥٥
والحكم الذاتى ٣٧٣ - ٣٧٨ - ٣٨٣ ،
٤٥٨ ، ٤٦٣ - ٤٦٨ ، ٥٤١ ، ٥٨٤
استقلالها الداخلى ٥٢٩ - ٥٣٠
أرلنتو ٥٥٠
أشبانيا - ونابلين ٨٥ - ٩١ ، دستور ١٨١٢
٩١ ، تجدد القتال ١٠٠ ، ثورة إسبانيا
ضد فردينته السابع ١٢٤ ، ١٣٨ ،
ثورة المستعمرات الأسبانية فى أمريكا
الجنوبية ٢٠٥ - ٢٠٩ ، حكم أسرة

أفنيون ٤٩

أكرانيا ٦٥٤ ، ٦٨٢ - ٦٨١ ، ٧٠١

الألب ، جمهورية ٤٩ ، ٦٠ ، ٧٣

ألبانيا ٤٥٠ ، ٤٥٣ ، ٤٨٥ ، ٦٦٠ ،

٧٢٢

ألبرت : ملك البلجيكيين ٥٠٠

الألزاس والورين ١١٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ -

٢٩٩ ، ٣١٠ ، ٤٨٩ ، ٥٣٣ ، ٥٦٢

ألصتر ٣٦٣ ، ٤٦٣ - ٤٦٨

أنفونصو الثالث عشر ٦٥١

ألكسيف ٥١٢

ألا ، معركة ٢٢٤

ألمانيا - حروبها ضد نابليون ١٠٣ - ١٠٦

ألمانيا والنمسا ١٠٤ - ١٠٦ ، نماء المدن

١٣٣ ، الثورات في إماراتها ١٩٢ -

١٩٨ ، العمل في سبيل الوحدة ١٩٣ -

١٩٨ ، ٢٥٣ ، حرب السبعين ورسدة ألمانيا

٢٨٠ - ٢٩٩ ، إنشاء الإمبراطورية

٢٩٩ - ٣٠٢ ، التنيرات الاقتصادية

٣٨٥ ، مبدأ حماية التجارة ٣٨٦ ،

قوانين التأمين ٣٨٧ ، بيارك وفرنسا والنمسا

وروسيا ٣٨٩ - ٣٩٢ ، وإنجلترا ٣٩٣ -

٣٩٤ ، الإصلاحات الصرائية ٣٩٤ -

٣٩٦ ، والتوازن الدولي ٣٩٩ - ٤٠٥ ،

وحرب البوير ٤١٠ - ٤١٤ ، نمو قوتها

البحرية ٤٣٣ - ٤٣٧ ، وحادث طنجة

٤٣٣ - ٤٣٤ ، والاتفاق الإنجليزي

الروسي ٤٣٦ ، والاتقلاب السيلسي سنة

١٩٠٨ : ٤٣٧ - ٤٣٩ ، حادث أغادير

٤٥٠ - ٤٥١ ، وبريطانيا ٤٧٢ -

٤٧٨ ، وإعلان الحرب على صربيا ٤٨٥

٤٩٠ - ، الحرب عام ١٩١٤ ، ٤٩٤

٥٠٠ - ، والحرب العالمية الأولى ٥٠٠

٥٣٨ - ، نتائج الحرب ٥٣٨ - ٥٤٢

ومعاهدات الصلح ٥٤٧ - ٥٦٧ ، الثورة

النازية ٦٠٤ - ٦١٠ ، ومعاهدة لوكارنو

ودعول ألمانيا عصبة الأمم ٦١٠ - ٦١٣ ،

مطر يتسلم مقاليد الحكم ٦١٣ - ٦٢١ ،

وتقاربها من إيطاليا واليابان ٦٤٢ ، وضم

النمسا وتشيكوسلوفاكيا ٦٥٣ - ٦٦٠

وبولندا ٦٥٩ - ٦٦٥ ، والحرب العالمية

الثانية ٦٦٩ - ٦٨٤ ، ٦٩٣ - ٧٠٩ ،

وبعد انتهاء الحرب ٧٢٠ - ٧٢١ ، ٧٢٥

٧٧٧ -

آلتر ١٩٨ ، ٢١٨

أثيني ٥٨٣

أم دومان ، معركة ٤١٧

أمريكا الجنوبية ١٢٢ - ١٢٤ ، ١٣٣

أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة) ١١٧ ،

٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٣٥٣

٣٥٨ - ، ٤٣٠ ، ٤٦٧ - ٤٦٧ ،

٥٠٢ ، ٥١٦ - ٥١٩ ، ٥٢٢ -

٥٢٥ ، ٥٣٥ ، ٥٤٣ ، ٥٥٠ ،

٥٦٨ - ٥٦٩ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ - ٦١٠ ،

٦١٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٩ ، ٦٨٤ -

٧١٣ ، ٧٢٦ - ٧٣١

إمز ، بركة ٢٨٧ - ٢٨٩

الأمن ، مجلس ٧٣٣ - ٧٣٤

أميان ، معاهدة ٦٤

أنتورب ٤٩٦ ، ٥٠٠ ، ٧٠٥

إنجلترا : انظر بريطانيا العظمى

إنجلترا : فردريك ٣٣١

أندراسي : الكونت ٣٩٠

أنطونلي : الكروينال ٢٤٨

الانقلاب الصناعي ١٣٢ - ١٣٥

إنكرمان ، معركة ٢٢٤

أنكفيا ، معركة ٤٩

بارا ٤٠ ، ٤٣ ، ٥١
 بارنل ٣٨١ - ٣٨٢ ، ٤٦٧
 باريس ٢٩٧ ، ٦٧٢ ، ٧٠٥
 باريس ، معاهدات ١٠٩ ، ٢٢٥ ، ٧٢٤
 بازين ٢٩٢ - ٢٩٦
 باشنديل ، معركة ٥٣٠ - ٥٣١
 باوتزن ، معركة ١٠٤
 بت ، ولیم ٣٢ ، ٥٤ ، ١٢٠ ، ١٧٧ ، ٦٢٤
 ١٤٩ ، ١٥٥ ، ٣٥٦
 بتسدام ، مؤتمر ٧١٢ ، ٧١٩ - ٧٢٠
 البرازيل ١٢٣ ، ٢٠٨ ، ٣٥٤ ، ٦١٣
 براغ ، معاهدة ٢٧٦
 براوايم ١٥٤ ، ٣٥٤
 البرتنال ٨٩ ، ١٣٨ ، ٢٠٥ ، ٣٥٤
 برست ليتوفسك ، معاهدة ٥٢٨ ، ٥٦٢
 برسيرج ، معاهدة ٨٢
 برشتوك ٤٧٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧
 برشنج ٥٣٥
 بركل ١٤٣ ، ٣٥٩ ، ٤٩٥ ، ٧٠٥ ، ٧٢٩
 برلين ، مؤتمر ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٨٩ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠
 برنفلوت : ملك السويد ١٠٧
 برنز : جون ٢٣٥ ، ٤٦٢
 برنزوك : الدوق ٣١
 برنسب : غفريلو ٤٨٣

بروسيا - الحرب مع فرنسا ٣١ ، ٨١ ، حركة
 البعث ٩٢ - ٩٥ ، ، الحرب ضد نابليون
 ١٠٣ - ١٠٨ ، ضم أقاليم الرين ١١٠ ،
 ثورة سنة ١٨٤٨ : ١٩٥ - ١٩٨ ،
 نهضة بروسيا ٢٠١ - ٢٠٣ ، والتحالف مع
 إيطاليا ٢٤٧ ، صوب اتحاد ألمانيا ٢٥٣
 - ٢٥٥ ، وثورة بولندا ٢٥٩ - ٢٦١ ،
 رسالة شلزويج هولشتين ٢٦١ - ٢٦٤ :

أنور بلاش ٤٤٩ ، ٤٥٣ ، ٥٠٣ ، ٥٨١
 الأهرام ، معركة (معركة إنيابة) ٥٣
 أوبستبرج ٢٦١ - ٢٦٥
 أوبير ٥١
 أورشتاد ، معركة ٨٢
 أوكوفل ١٥٧
 أولم ، معركة ٧٩
 أوين : روبرت ١٥٧

إيران ٣٥٩ ، ٤٣٧ ، ٤٧٠ ، ٧٢٨ ، ٧٣٥
 إيطاليا : سيطرة نابليون عليها ٨٤ - ٨٥ ،
 سياسة الرجعية ١٢٢ ، ونابليون الثالث
 ١٧٤ ، وحركة البعث ١٧٩ - ١٨٤ ،
 حركة اتحادها ٢٢٩ - ٢٥١ ،
 وحروب بروسيا والنمسا ٢٦٦ - ٢٧٦ ،
 وتونس ٣١٢ ، ٣٨٩ ، وشيوع الاشتراكية
 ٣٣٦ ، والتحالف الثلاثي ٣٩٠ ،
 واحتلال طرابلس ٤٥١ ، والحرب العالمية
 الأولى ٥٠٧ - ٥٠٩ ، ٥٣١ - ٥٣٢
 ومعاهدات الصلح ٥٦٠ ، والثورة الفاشية
 ٥٩٨ - ٦٠٤ ، وحرب الحبشة ٦٤٥ -
 ٦٤٧ ، وتحالفها مع ألمانيا النازية ٦٤٢ ،
 ٦٤٨ ، والحرب العالمية الثانية ٦٧٢ ،
 ٦٧٧ - ٦٧٩ ، ٦٩٧ - ٧٠٠ ، عقد
 الصلح معها ٧٢٢ - ٧٢٣
 الإين ، معركة ٤٩٩ ، ٥٢٩

ب

البابوية ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٨٥ ، ٢٣٢ ،
 ٢٤٢ - ٢٥١ ، ٣٢١ - ٣٢٢ ، ٣٣٦
 باتافيا ، جمهورية ٦٠
 بلغ : إسكندر ٣٦٢
 بلغن ٩٣ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧
 بلغن بليل ٤٢٥

حرب مع النمسا ٢٦٥ - ٢٧٦ ، وحرب
السبعين ٢٨٠ - ٢٩٩ ، ثم انظر ألمانيا
بروسيلوف ٥١٤

بريان ٢٦٦ ، ٣١٨ ، ٦١٢
بريتن وودز ، مؤتمر ٧١٧ - ٧١٨
بريسو ٢٥

بريطانيا العظمى - الحرب مع فرنسا ٣٢ ، ٤٥ ،
٦٠ - ٦١ ، ٧٣ - ٧٥ ، ٨٤ ، الحرب
الاسبانية ٨٧ - ٩٠ ، سياستها بعد هزيمة
قابليون ١١٥ ، ١١٧ ، وحركة استقلال
أمريكا الجنوبية ١٢٣ - ١٢٤ ، واستقلال
اليونان ١٢٥ - ١٢٩ ، الانقلاب الصناعي
١٣٢ - ١٣٥ ، ١٥٠ - ١٥٢ واستقلال
بلجيكا ١٤٤ - ١٤٥ ، وقانون
الإصلاح البرلماني ١٤٨ - ١٥٠ ، تقدم
التعليم ١٥٢ - ١٥٤ ، عصر بيل ١٥٦
- ١٦١ ، وثورة المستعمرات الإسبانية ٢٠٨
- ٢٠٩ ، حرب القرم ٢١٧ - ٢٢٧ ،
وحركة اتحاد إيطاليا ٢٢٩ ، وحرب
السبعين ٢٨٢ ، والاشتراكية ٢٣١ - ٢٣٥
والهند ٢٣٨ - ٢٤٩ ، والاسترقاق ٣٥١
- ٣٦٠ ، وثورة البلقان سنة ١٨٧٥ :
٣٦٩ - ٣٧٢ ، وعصر غلامتون -
دزرائيل ٣٧٢ - ٣٨٣ ، ويسمانك ٣٨٩
- ٣٩٤ ، والتوازن الميل ٤٠٠ - ٤٠٥
حرب البوير ٤٠٥ - ٤١٢ ، ٤٢٣ -
٤٢٥ ، احتلال مصر ٤١٢ - ٤١٦ ،
استرجاع السودان ٤١٦ - ٤١٨ ، والاتفاق
الودي ٤١٨ ، ٤٢٠ - ٤٢١ ، السياسة
الداخلية ٤٢٥ - ٤٣١ ، حكاية الأحرار
٤٣١ - ٤٣٧ ، والمباراة البحرية مع
ألمانيا ٤٣٤ - ٤٣٦ ، والاتفاق مع روسيا
٤٣٦ ، مشكلة مجلس اللوردات ٤٥٦ -
٤٥٨ ، نمو الحركات الاجتماعية ٤٥٩ -

٤٦١ ، وحركة العمال ٤٦٢ - ٤٦٣ ،
والمسألة irlandية ٤٦٣ - ٤٦٨ ، وألمانيا
٤٦٨ - ٤٦٩ ، ٤٧٢ - ٤٧٧ ، وإعلان
الحرب العالمية الأولى ٤٨٥ - ٤٩٠ ،
وأحداث تلك الحرب ٤٩٤ - ٥٣٨ ،
ونواتج الحرب ٥٣٨ - ٥٤٢ ، ومساهمات
الصلح ٥٤٧ - ٥٦٧ ، والحرب التركية
اليونانية ٥٧٩ - ٥٨٥ ، أسس السياسة
للبريطانية ٦٢٢ - ٦٣١ ، سياسة الهند
٦٤٣ ، ٦٤٧ ، ٦٥٢ ، والمعاهدة البحرية
مع ألمانيا ٦٤٨ ، وتشكولوفاكيا ٦٥٦ -
٦٥٧ ، فشل سياسة الهند ٦٥٨ - ٦٦٤ ،
والحرب العالمية الثانية ٦٦٩ - ٦٧٩ ،
٦٨٤ - ٦٩١ ، ٦٩٦ - ٧١٢

بريجير ، انقلاب ٥٧
بشاربيا ٢٢٥ ، ٣٧١ ، ٤٩٠ ، ٦٦٢ ،
٦٦٧ ، ٦٨٠

بيلارك ١٩٨ - ١٩٩ ، ٢٥٥ - ٢٦٦ ،
٢٧٢ - ٢٧٨ ، ٢٨٠ - ٣٠٢ ، ٣١٠ ،
٣٦١ ، ٣٧١ ، ٣٨٤ - ٣٩٩ ، ٤١٣ ،
٤٦١

بشجرو ٤٥٥ ، ٥١ ، ٧٥
بط : إحقق ٣٨٠

البيث ، حركة ٥٠ ، ١٧٦ - ١٨٤
بنفاد ٤٨٥ ، ٥٣٢
بنفاديا ٩٣ ، ١٢١ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٣٠٠
بك ، المارشال فون ٦٨١ - ٦٨٣
بلا كلافا ٢٢٤

بلان : لويس ١٦٦ - ١٦٧
البلييك ٣٩ ، ٤٥ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٠ ،
١١٢ ، ١٣٤ ، ١٤٣ - ١٤٥ ، ١٨٩ ،
٤٩٤ - ٥٠٠ ، ٥٢٣ - ٥٢٨ ، ٥٦٦ ،
٥٦٩ ، ٦٧١ - ٦٧٢ ، ٧٣٠ ، ٧٥٥
بلوسكي ٥٩٦ - ٥٩٨

٢٢٥ ، ٢١٨ ، ١٨٦ ، ١٤٦ -
٢٥٩ - ٢٦٠ ، ٣٦٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٩
٥٩٥ - ٥٩٨ ، ٦٥٧ ، ٦٦٧-٦٦٠
٧٠٦ - ٧٠٨

بولنيك ١٤٠

بوليفار ١٢٣ ، ٢٠٨

بوهيميا ١٨٨ - ١٩٠ ، ٣٦٦ ، ٦٥٥ ،
٦٥٩

البوير ، حرب ٤٠٥ - ٤١٢ ، ٤٢٣ ،
٤٢٥

بيارتز ، مقابلة ٢٧٢

بيلف ، معركة ٥٣١ ، ٥٣٢

بيت المقدس ٥٣٢

بيتان ، المارشال ٥٢٩ ، ٦٧٣

بيلمست ١٣٨ ، ١٨١ - ١٨٢ ، ٢٢٨ ،
٢٥١ -

بيرك ٦٠

بيرل هاربر ، معركة ٦٨٨

بيرو ١٢٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨

بيرون ١٢٥

بيكسفيلد (ب . فزرائيل) ٢٥٤٤١٥٥

٢٧٠ - ٢٧٨ ، ٢٩٣ ، ٤٠٧

بيل ١٥٦ - ١٦١ ، ٦٢٥

بيلون ٤٣٣ ، ٤٧٢

بيوس الخلع ١٧٧ - ١٨٣ ، ٢٨٣

ت

تانتيرج ، معارك ٤٩٧ - ٤٩٨

تاليامستر ، معركة ٤٨

تاليران ١٠ ، ١٤ ، ٥٨ ، ٨٢ ، ١٠١

١٠٨ ، ١١١ ، ١١٤

تبو صاحب ٥٣

اتحاد المقدس ١١٨ - ١٢٠

تلفاريا ٣٦٩ - ٣٧٤ ، ٣٩٢ - ٣٩١

٤٣٧ - ٤٣٩ ، ٤٥١ - ٤٥٠٩٤٥٥٥

٥١١ ، ٥٣٧ ، ٦٧٨ ، ٧٢٤

تلفنا ٣٧٠

تلفور ، القرد ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٠١

٤٢١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٥١٦ ، ٥٣٢

البلقان ١٣٠ ، ٣٦٥ - ٣٦٧ ، ٣٦٩ -

٣٧٢ ، ٣٩١ ، ٤٣٧ - ٤٤٠ ، ٤٥٠

- ٤٥٥ ، ٥٠٣ - ٥٠٦ ، ٦٦٠

٦٧٨ - ٦٧٩

تلمسور ٢٢٣ ، ٢٢٥

تلمسور ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٤٤ ، ٢٢٠

٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٣٥٤ ، ٤٠١

تلمنز ، بلاغ ٢٦

تلمنر ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٤

تلم : جيري ١٥٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٦

٣٥٦

التنقية : ضحاح استعلا ٤٩ ، ١١٠

تورنيا ضد النمسا ١٧٦ - ١٨٤ ، ٢٣٢

٢٤٧ ، ضحاح إلى إيطاليا ٢٤٧

إتقلاها ٥٣٢

تنتي ٢٨٢ ، ٢٨٧

تورمان : كليل ٤٢٤ ، ٤٣٢ ، ٤٧٧

٥٤٥ ، ٥٧٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٩

توانكاريه ٤٨٥ ، ٦٠٨ - ٦١٠

توتا ٤٢٤ - ٤٢٥ ، ٤٣٢ ، ٥٤١

توتليت ، صلح ٣٩٢ ، ٤٧٧ ، ٥٦٢

توتو ٢٩٨ ، ٤٩٦

توتو ٦٨٧ ، ٦٨٩ - ٦٩١ ، ٧١١

التوت والمرك ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٤٣٧

٤٣٩ ، ٤٤٥ ، ٤٥٥ ، ٤٨٩

توت الاول ٥٩ ، ٦٣

توتيه ٣١٤ - ٣١٥

توتعا ٢٣ - ٢٥ ، ٢٥ ، ٩٥ ، ١١١ ، ١٤٥

التحالف الثلاثي ٤٠٠

تراقية ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٥٧٩ ، ٦٧٨

ترويتز ٤١١ ، ٤٣٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٤

توتسكي ٥٢٧ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥

تروجو ٨

تركيا - دخولها الحرب ضد فرنسا ٥٤ ، ثورة

اليونان عليها ١٢٥ - ١٣٠ ، وحرب

القرم ٢١٨ - ٢٢٧ ، وثورة البلقان عام

١٨٧٥ : ٣٦٩ - ٣٧٢ ، والانقلاب

السياسي سنة ١٩٠٨ : ٤٣٧ - ٤٤٠ ،

ثورة سنة ١٩٠٨ ، ٤٤٨ - ٤٥٠ ،

وحرب البلقان ٤٥٠ - ٤٥٣ ، سلخ

طرابلس ٤٥١ ، والحرب العالمية الأولى

٥٠٢ - ٥٠٧ ، ٥١١ ، ٥٣٢ ، تطورها

الحديث ٥٧٨ - ٥٨٦ ، حلفها مع

بريطانيا وفرنسا ٦٦١

ترويانو ، مؤتمر ١١٩

ترويلور ، انقلاب ٤٠ ، ٤٢

الترتيبي ٤٩٠ ، ٥٠٧ ، ٥٦٠

الترنغال ٤٠٥ - ٤١٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٢

ترنلقانيا ١٨٦ ، ٣٦٤ ، ٤٤٥ ، ٤٩٠ ،

٥٦٥

تريانون ، معاهدة ٥٦٥

تريتشكه ٣٠٢

تريستا ١١٠ ، ٤٩٠ ، ٥٠٧ ، ٥٦٠ ،

٧٢٢

تشرشل ٤٧٧ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٣٩ ،

٦٥٧ ، ٦٧٣ - ٦٧٤ ، ٦٨٠ ، ٦٨٦

٦٩٦ ، ٧٢٧

التشك ١٨٦ - ١٨٩ ، ٥٤٦ ، ٥٦٣

تشكولواكيا ٥٤٥ - ٥٤٦ ، ٥٦٥ ،

٥٦٩ ، ٦٥٤ - ٦٥٦ ، ٦٥٩ - ٦٦٠

٧٢٤ ، ٧٢٨

تشميرلين ، أوسن ٦١٢

تشميرلين : جوزف ٣٣٤ ، ٣٧٧ ، ٤٠٤

٤١٢ ، ٤١٨ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ - ٤٣٢

تشميرلين : نفل ٦٥٤ - ٦٥٨ ، ٦٧٤

التمايشي : الخليفة عبد الله ٤١٦

تقرير المصير ، مبدأ ١١٢ ، ٥٥٤ ، ٥٦٧ ،

٦٨٦

تلسن ، معاهدة ٨٠ ، ٨٣

التوازن الدولي في أوروبا ٣٩٩ - ٤٠٥ ،

٤٧٥ ، ٦٤٨ ، ٧١٥

تودلين ٢٢٤

التوراة ٣٢٢ - ٣٢٥

تونس ٣١١ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ، ٦٩٧

تيتو : ٧٠٨ ، ٧٢٤ - ٧٢٥

التيرول ١٠١ ، ٤٥٥ ، ٥٠٧

تيلك ٣٤٥

تيموشنكو ٦٨٣ ، ٧٠٠

تيير ١٤١ ، ١٦٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ -

٢٩٩ ، ٣٠٥ - ٣٠٦

ج

جاشتين ، معاهدة ٢٦٥

الجبل الأسود ٣٦٩ - ٣٧٢

جتلند ، معركة ٥١٧ - ٥١٨

جرامون ٢٨٦ - ٢٩٠

جرجيروي السادس عشر ٣٢١

جرش ٣١٤

الجزائر ١٤٠ ، ١٦٢ ، ٣١١ ، ٤٠٥ ،

٦٩٧

الجزويت ٢٠٧ ، ٣١٢

الجزيرة ، مؤتمر ٤٣٣

جنوة ٢٣٠ - ٢٣١

جوادال ، معركة ٦٩٣

جواويز ٢٦٨ - ٢٧٠

- جودوا ٨٩
جورج : دافد لويڊ ٣٨٨ ، ٣٩٨ ، ٤٥١
٤٦٩ ، ٥٠٣ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٩
٥٤٩ - ٥٥١ ، ٥٥٦ ، ٥٦٠ ، ٥٨٣
٥٨٤ ، ٦٢٥
جورج الخامس ٤٥٧ ، ٤٦٦ ، ٤٩٥ ،
٦٢٢
جوردان ٤١
جوزخاڻ ٣٤٥
جوزر ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٢٩
جيت ٣١ ، ٩٥ - ٩٧ ، ١٢٠
جيروم بوفابرت ٨٣ ، ٩٣
الجيرفنديون ٢٥ ، ٣٦
جيرو ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ٢٨٧
جيهليكو ٥٠٢ ، ٥١٨
جيمنس . غارة ٤٠٩
جيوتى ٤٥١
- دوسدن ، سركه ١٠٧
دريفيس ٣١٥ - ٣١٧
دلڪسيه ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٣٣
دلفيس ٦٢٠
دلتشيا ١١١ ، ٤٤٥ ، ٥٦٠
دمبرتن اوكس ، مؤتمر ٦٣٢
دنڪرك ٦٧٢
الدمارك ٨٣ ، ٢٦١ - ٢٦٤ ، ٢٨١ ،
٦٧٠
دوز ، بلخه ٦١١
الدهت الاكلاني ١٢١
ديياز ٥٣٢
ديلاك ٣٦٣
ديفاليرا ٦٣٠ - ٦٣١
ديكاز ١٣٧ ، ١٣٨
ديموريه ٢٨ ، ٣٧
ديمولان ٤٠

ر

- رائتنو ٥١٥
راڊتسكى ١٨٠
الرأس ، مسعمرة ١١٧ ، ٤٠٥ - ٤١١
راسپوتين ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٥١٢ ، ٥٢٦
راشعاف ، مؤتمر ٤٩
رسمند ، جين ٤٦٥ ، ٤٦٩ ، ٤٨٩
روكلف ٢٢٠ ، ٢٢١
رفشسته ٦٧١ ، ٦٨٢
الره ٦٠٩ - ٦١٠ ، ٧٠٩
روبريس ٤١١
رويسوير ٢٧ ، ٣٩ - ٤٠ ، ١٦٩
الروتيهين ٤٤٤ - ٤٤٧
رويس ، سسل ٤٠٥ - ٤١٠

ح

- الحشة ٦٤٥ - ٦٤٧ ، ٦٧٨ ، ٧٢٢
حرية البحار ، مبدأ ٦٣ - ٦٤ ، ٥١٦ ،
٦٨٦
الحصار القارى ٦٢ - ٦٤ ، ٨٤

د

- دانطين ٣٠ ، ٤٠
دالهيان : الدول ٧٥
دارين ٣٢٤ - ٣٢٥ ، ٤٢٠
دالاديه ٦٥٧ - ٦٥٨
دانترج ، مشكله ٦٦١ - ٦٦٢
دانترير ٣٣٦ ، ٥٦٠
الدليل ٣٧١ ، ٤٤٠ ، ٤٩٠ ، ٥٠٣ ،
٥٠٧

الريشتاغ ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ ، ٦٦٦
ريكلسول ٢٣٩ ، ٢٥١
ريتان ٣١٨ ، ٣٢٢

ز

زامورا ٦٥١ - ٦٥٢
الزلفرين ، اتحاد ٢٠١
زنجيبار ٣٥٨ ، ٣٩٣
زوكوف ٦٨٢
زيورخ ، مؤتمر ٢٢٨

س

سدوا (مركة كينجراتر) ٢٤٧ ، ٢٧٤
٢٨٠ ، ٣٦٢
السا ٢٧٧ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٦٤٨ ،
٧٠٩
ساردينيا ، ملكة ٤٨ ، ١١٠ ، ١٧٩ -
١٨٤ ، ٢٣٠ - ٢٥٠
سازوف ٤٨٥ ، ٤٨٦
-سافرو ، مركة ٦٩٢
سافوي ٤٥ ، ١٠٦ ، ٢٣٠ - ٢٤٥
سالميري ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٩ ،
٣٩٣ ، ٤٠١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧
سلسوف ٤٩٦
سان جريمان ٥٦٣
سان هونتيو ٧٤
سان ستيفانو ، معاهدة ٣٧٠ - ٣٧١
سان سيمون ١٦٦
سان فرنسكو ٧٢١ - ٧٢٢
سينر : هيريت ٣٢٧ - ٣٢٩ ، ٤٢٠
ستالجراد ٦٨٣ - ٦٨٤
ستالين ٦٢١ ، ٦٦٧ ، ٧١٩

دوريري ٣٧٧ ، ٤٢١

دورفلت : فرنكلن ٦٦٣ ، ٦٨٠ ، ٦٨٤ ،
٦٨٧ ، ٦٩٤ ، ٧١٧ ، ٧٢٧ ،
٧٣٢

دوسو ٢٠٣

روسيا - الحرب ضد نابليون ١٠١-١٠٣ ،
ويولندا ١١١ ، سلسها بعد حروب
نابليون ١١٧ ، ١١٩ ، وحرب القرم
٢١٨ - ٢٢٧ ، وثورة يولندا عام ١٨٦٣ ،
٢٥٩ - ٢٦١ ، وشيوع الاشتراكية ٢٣٦ ،
عهد إسكندر الثاني ٣٦٧ - ٣٧٢ ،
ويسارك ٣٨٩ - ٣٩٤ ، والتوازن العمول
٣٩٩ - ٤٠٥ . والحرب مع اليابان ٤٠٢ ،
الاتفاق الإنجليزي الروسي ٤٣٦ ،
والانقلاب السياسي سنة ١٩٠٨ ، ٤٣٨ -
٤٤٠ ، الثورة تبعها ٤٧٨ - ٤٨٠ ،
والحرب العالمية الأولى ٤٨٥ - ٤٩٠ ،
٤٩٤ - ٥٠٠ ، ٥٠٩ - ٥١٥ ، الثورة
البشفية ٥٢٥ - ٥٢٨ ، ٥٩١ - ٥٩٥
ويولندا ٥٩٥ - ٥٩٨ ، تجربة النظام
السوفييتي ٦٣١ - ٦٣٤ ، تحالفها مع
فرنسا ٦٤٧ ، ومعاهدة ٢٣ أغسطس ٦٦٢ ،
وهجرها على يولندا وفلندا ٦٦٥ - ٦٦٧
وحربها مع ألمانيا ٦٨٠ - ٦٨٤ ، ٧٠٠ -
٧٠١ ، ٧٠٦ - ٧٠٨ ، صراعها ضد
الغرب ٧٢٢ - ٧٢٨

رولان ، سلام ٢٥

روسيا ١٨١ - ١٨٢ ، ١٩٠ ، ٢٤٥ -
٢٥٠

رومانيا ٢٢٥ ، ٤٩٠ ، ٥١٤ - ٥١٥ ،
٥٦٥ ، ٥٦٩ ، ٦٨٠ ، ٧٠٨ ، ٧٢٤

رول ٦٧٩ ، ٦٨٩ ، ٦٩٦ - ٦٩٨

الروماني الشرق ٣٩١

رون : فين ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ - ٢٨٩ ، ٢٥٦

شارل الرابع ، ملك أسبانيا ٨٩ - ٩٠
شارل الناصر ، ملك فرنسا ١٣٩ - ١٤١ ،
٣١١

شارلروا ، معركة ٤٩٦
شامبور ، الكونت ٣٠٣
شرسمان ٦١٢ ، ٦١٤
شتين ٩٤ ، ٩٥ ، ١٤٠
شفاوتزنبيرج ١٩١ ، ١٩٨
شلزويج - هلمشين ٢٦١ - ٢٦٥ ، ٤٤٣
شلقر ٩٨ ، ٦١٩
شليغن ٤٣٢ ، ٤٩١
شن فين ، حزب ٤٦٥
شويت ٤٠
شون برون ، معاهدة ٨٢
شيانج كي شك ٦٨٦ ، ٧٢٨
شيراسكو ، حفلة ٤٨
شيلي ٢٠٨

ص

صربيا ١٢٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ - ٣٦٧ ،
٣٦٩ - ٣٧٢ ، ٣٩١ - ٣٩٢ ، ٤٣٨ -
٤٣٩ ، ٤٤٢ - ٤٤٨ ، ٤٥١ - ٤٥٥
٤٨٤ - ٤٨٨ ، ٥١١ ، ٥٦٣
مقلية ١٣٨ ، ٢٤٢ - ٢٤٦ ، ٢٩٨
الصومال ٧٢٢ - ٧٢٣
الصين ٤٠٢ ، ٥٧٦ - ٥٧٧ ، ٦٤٣ ،
٦٨٧ ، ٧١٢ ، ٧٢٨ ، ٧٣١

ط

طبرق ٦٧٧ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧
طرابلس ٥٤١
الطرف الآخر ، معركة ٧٨ ، ٢٠٨

سدموث ، لورد ١٤٩ ، ١٥٢
سراجيفو ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧
سفوروف ٥٤

سقاريه ، معركة ٥٨٢
سكوتيا ١١١ ، ٢٧٨
السلاف ١٢٥ : ١٨٩ - ١٩٠ ، ٢٦٢ ،
٣٦٥ - ٣٦٧ ، ٣٦٩ - ٣٧٢ ، ٤٢٩

سلافونيا ٣٦٤
سلفرينو ، معركة ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٦٣
السلواك ١٨٦ - ١٩٠ ، ٢٦٥ - ٢٦٧ ،
٤٤٤ - ٤٤٧ ، ٥٤٦ ، ٥٦٣

سلوفاكيا ٦٥٧ ، ٦٥٩
سمت : آدم ٣٢٦ ، ٣٥٦
سمطس ٥٤١ ، ٥٥٥
سمولنسك ١٠٢ ، ٦٨١ ، ٧٠١
سنغافورة ، معركة ٦٨٩
السودان ٤١٣ - ٤١٨ ، ٦٧٧
السويد ٦٥٥ - ٦٥٧
سوريا ٥٤ ، ٥٥ ، ١٢٨ ، ٦٧٧
سويسرة ٤٠٥

السوم ، معركة ٥١٢ - ٥١٤
السويس ، قناة ٣٧٧ ، ٤١٣
سيلم ٤٢١ ، ٦٨٩
سيانتيو ٢٢٣ - ٢٢٤ ، ٦٨٢ - ٦٨٣
سيجفريد ، خط ٢٦٩ ، ٧٠٦
سيدان ، ممالك ٢٩٥ ، ٦٧١
سيلان ١١٧
سيليزيا ١٣٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٦٦٥
سيواس ، ميثاق ٥٨٢
سيرز ٥٦ ، ٥٩

ش

شارل ألبرت ، ملك سردينيا ١٨٠ - ١٨١

فروت ٢٩٣ ، ٣٠٠

فردان ٤٩٦ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٥

فردك وليم الثالث ٨١

فردك وليم الرابع ١٩٥ - ١٩٨ ، ٢٥٥

فردك السابع ٢٦٢ - ٢٦٤

فروينند ألتاف ، ملك نابول ٢٣٢

فروينند ، إمبراطور النمسا ١٩١

فروينند السابع ، ملك أسبانيا ٨٩ - ٩٠ ،

٢٠٩ ، ٢١٢

فروينند الأول ، ملك بلغاريا ٣٩٢ ، ٤٥٤

فرساي ، معاهدة ٢٦٣ ، ٥٥١ - ٥٦٩ ،

٦١٢

فركتيشور ، انقلاب ٥١

فروتز فروينند ، ولي عهد النمسا ٤٤٢ ، ٤٥٥ ،

٤٨٣ ، ٤٨٦

فرنسا : الثورة ٥ - ١٨ ، الحرب مع النمسا

وبروسيا ٢٥ - ٣٢ ، ٤٦ - ٥٠ ، عهد

الإرهاب ٣٦ - ٤٠ ، عصر الإمبراطورية

٧٣ - ١٠٨ ، واحتلال أسبانيا ١٢٤ ،

ثورة يوليو ١٣٥ - ١٤١ ، وثورة البلجيك

١٤٤ - ١٤٥ ، وثورة بولندا ١٤٦ ،

ملكية لويس فيليب ١٦٢ - ١٧٠ ،

الجمهورية الثانية ١٧٠ - ١٧٤ ، وحرب

القرم ٢١٩ - ٢٢٧ ، وحركة اتحاد

إيطاليا ٢٢٩ - ٢٥٠ ، حملة المكسيك

٢٦٨ - ٢٧٢ ، وحرب عام ١٨٦٦ ،

٢٧٦ ، حرب السبعين ٢٨٠ - ٢٩٩ ،

ثورة كومين باريس ٣٠٣ - ٣٠٦ ،

دستور عام ١٨٧٥ : ٣٠٦ - ٣٠٩ ،

التصريح الاستعماري ٣١١ - ٣١٣ ،

الأحزاب السياسية ٣١٣ - ٣١٩ ، وألمانيا

٣٨٩ - ٣٩٤ ، التحالف الفرنسي الروسي

٣٩٩ - ٤٠٥ ، واحتلال إنجلترا لمصر

٤١٢ - ٤١٣ ، وحادث فاشودة ٤١٧ -

ع

عبد الحميد الثاني ٤٤٨ - ٤٥٠ ، ٥٨١

عراقي ٤١٣

العراق ٥٣٢ ، ٥٥٧ ، ٦٥٤ ، ٦٧٧

عصبة الأمم ٥٥٤ - ٥٥٥ ، ٥٦٨ ، ٥٧١

- ٥٧٧ ، ٦١٣ ، ٦٤٢ ، ٦٤٤ -

٦٤٧ ، ٧٣٣ - ٧٣٦

الطلعين ، معركة ٦٨٤ ، ٦٩٦

غ

غاريبالي ١٨٣ ، ٢٤٢ - ٢٥٠

غالسيا ٤٤٥ ، ٤٩٧ ، ٥٠٩

غاليبول ٤٥٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧

غاندى ٣٤٨

غراي : الإيرل ١٤٩

غراي : السر إدوارد ٤٣٣ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠

٤٧٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٥١٢

غسبتا ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٦ ،

٣١٣ ، ٣٦٢

غلاستون ٢٢٩ ، ٣٧٢ - ٣٨٣ ، ٤٠١ ،

٤٠٧ ، ٤١٣ - ٤١٦

غوريتشاكوف ٣٧٢ ، ٣٩٠

غوردن ٣٥٤ ، ٣٧٨ ، ٤١٤ - ٤١٦

ف

الفايبيون ٣٣٤ - ٣٣٥

فاشودة ٣١١ ، ٤١٧

فانر ٢٩٥

فالسي ، معركة ٣١ ، ١١٤

فتوريو فينتو ، معركة ٥٠٨

فنزويلا ٢٠٨
فنلندة ٦٦٦ - ٦٦٧ ، ٦٨٠ ، ٧٠٦ ،
٧٢٨
فوربيه ١٦٦
فوش ٥٣٦ ، ٥٥٦
فوشيه ٥٨
فولكلند ، ممركة ٥١٧
فيجان ٥٣٦ ، ٦٧٢
فيرونا ، مؤتمر ١١٩
فيجار ، ٦٠٧ - ٦٠٨ ، ٦١٥ - ٦١٧
فيئا ، مؤتمر ١٠٩ - ١١٥ ، ٣٥٧
فيرينجينج ، معاهدة ٤٢٤
فيثيليف ٧٨
فينيزيلوس ٤٥١ ، ٥٧٨ ، ٥٨٤

ق

قبرص ٣٧١
القرم ٢١٧ - ٢٢٤ ، ٦٨٢ - ٦٨٣ ، ٧٠١
قره جورج ١٢٦
قسطنطين : ملك اليونان ٥٧٩ - ٥٨٢
القنصلية ، حكومة ٥٦
قوسوط ١٨٦ ، ١٩١ ، ٢١٩
القوية ١٢٩ - ١٣٠ ، ١٧٤ ، ٢٠١ ،
٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٤٤٣ ، ٤٨٩

ك

كاب ، فنة ٦٠٨
كابوتو ، ممركة ٥٠٨ ، ٥٣١ - ٥٣٢
كاترين الثانية ٣٤ ، ٦٣
كادورفا ٥٣٢
كاراجيوريليفش ٤٤٧
كاربوناري ، جمعية ١٣٨

٤١٨ ، الاتفاق الودي ٤٢٠ - ٤٢١ ،
حادث أفادير ٤٥٠ - ٤٥١ ، والحرب
العالمية الأولى ٤٩٤ - ٥٠٠ ، ٥٠٩ -
٥٣٨ ، ومعاهدات الصلح ٥٤٧ - ٥٦٧ ،
والاتفاق الصنير ٥٦٩ - ٥٧٠ واحتلال
الزهر ٦٠٩ - ٦١٠ هيوب الديمقراطية
الفرنسية ٦٢١ - ٦٢٢ وهتلر ٦٤٧ - ٦٥٢
والحرب العالمية الثانية ٦٦٨ - ٦٧٣ ،
٧٠٤ - ٧٠٦ ، والجمهورية الرابعة ٧٢٩
فرنسيس الثاني ، إمبراطور النمسا ٢٧
فرنسيس الثاني ، ملك نابلي ٢٤٢ - ٢٤٤
فرنسيس جوزيف ١٩٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦٣ ،
٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٨٥
فريش ٤٩٦ - ٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥١٢
فرلكنفورت ، برلمان ١٩٣ - ١٩٨ ، ٢٥٨ -
٢٥٩

فرلكنفورت ، صلح ٢٩٨ ، ٣٠٦
فريكو ٦٥٢ - ٦٥٣
فري : جول ٣١٠ - ٣١٣
فريدلند ٨٠ ، ٨٣
فريسنيه ٣١٧
فلياني ٣١٩ ، ٤٨٥
فكتور مانويل الأول ١٨١ ، ٢٣١ ، ٢٣٧
فكتور مانويل الثالث ٦٤٧ ، ٦٦٠
فكتورها ، الملكة ١٦٠ ، ٢٢٩ ، ٢٤١ ،
٣١٠ ، ٣٧٨ ، ٤٠١ ، ٤١٨ - ٤٢٠
فكس ٦٠ ، ١٥٤ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦
فلافريكا ، عنة ٢٣٦
الفليين ٦٨٧ ، ٧١١ - ٧١٢
فلسطين ٥٠ ، ١٢٨ ، ٥٢٣ ، ٥٥٧
فلكنهاين ٥٠٩ - ٥١٢
فيرو ، ممركة ٨٨
فستيلو ، معاهدة ٨٩ ، ١٠٨
فنه شجراتر ١٨٩ ، ١٩١

- كارزين ٤٦٤ ، ٤٦٩
 كارنو ٣٨ ، ٥١
 كازابلنكا ، مؤتمـ ٧١٨
 كاسانوف ، معركة ٥٤
 كاسلريه ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ - ١٢٠
 كاسينو ، معركة ٦٩٩
 كافيناك ١٤١ ، ١٧٢ ، ١٧٣
 كافور ١٨١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٠ ، ٢٤٩
 كايون ٩
 كاليش ، معاهدة ١٠٤
 كاننج ٨٤ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٣ ،
 ١٢٥ ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٤٠١
 كبدن ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢٤١
 كشتـ ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٢٤ ، ٤٩٢ ،
 ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٣
 كرزين ٣٤٨ ، ٣٧٧ ، ٥٨٥
 كرستيان الثامن ٢٦٢
 كرستيان التاسع ٢٦٤
 كرواتيا ١٨٦ - ١٩٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ -
 ٣٦٧ ، ٤٤٥ - ٤٤٦ ، ٥٦٥
 كروجر ٤٠٨ - ٤١٠
 كروجر ٤١٦ ، ٤١٧
 كريت ٤٥٠ ، ٦٧٩
 كستفيدارو ، معركة ٢٤٥
 كستوزا ، معركة ١٨١ ، ١٩٠
 كشرين ١٢٣ ، ٢٠٨
 كلاريند ٢٢٠ ، ٢٨٥
 كلوك : فون ٤٩٦ ، ٤٩٨
 كليمنصو ٣١١ ، ٤٢٣ ، ٥٢٩ ، ٥٣٩ ،
 ٥٥٦
 كلال : مصافى ٥٠٦ ، ٥٨٠ - ٥٨٦
 كبردون ، معركة ٥٢
 كبرى ، معركة ٥٣١
 كبر فورسيو ، معاهدة ٤٩
 كيون ٤١٨ ، ٤٢١
 كندا ١١٧ ، ١٣٣
 كتـ ٤١
 الكنيسة الإنجليزية ١٥٢ ، ٣٥٢ - ٣٥٣ ،
 ٣٧٣ ، ٤٥٦
 الكنيسة الأسبانية ١٢٢ ، ٢٠٩ - ٢١٠ ،
 ٣٥٢ - ٣٥٣
 الكنيسة الفرنسية ١٨ - ٢٠ ، ٥٨ ، ٦٧ -
 ٦٩ ، ١٣٥ - ١٣٧ ، ١٦٣ ، ٢٨٣
 ٣١٣ ، ٣١٤
 الكنيسة اللاتينية ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
 كورونا ١٠٠
 كوربا ٧٣١
 كوريس ١٢٦
 كولار ٣٦٦
 كوليا ١٢٣ ، ٢٠٨
 كوليه ، معركة ٢٩٦
 كومانوف ، معركة ٤٥٢
 كومون باريس ، ثورة ٣٠٣ - ٣٠٦
 كيرنكي ٥٢٦ - ٥٢٧
 ل
 لافاييت ١٢ ، ١٤٢ ، ٥٢٤
 لامرتين ١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٣
 لامورسير ٢٤٥
 لانغشوت ، معركة ١٠٠
 لانوجـ ٢٦٤ - ٢٦٥
 لينان ٦٧٧
 لنفيا ٦٦٢ ، ٦٦٦
 لنن ، لجنة ٦٤٤
 لتوانيا ٥٢٨ ، ٦٦٢ ، ٦٦٦ ، ٧٠٨
 لجنة الأمن العام ٣٨
 لتنجستون ٣٥٤ - ٣٥٨ ، ٤٢٠

لفيف ٥٢٦

لكسمبورج ١٤٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٤٩٤ ،

٦٧١

لمبارديا ٤٩ ، ١١٠ ، ١١٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ،

٤٤٣

لمبرج ١٤٥ ، ٥١٠

لندن ، معاهدات ١٢٨ ، ١٤٥ ، ٢٦٢ ،

٥٥٧ ، ٥٧٧

لندن ، مؤتمرات ١٤٥ ، ٢٦٢ ، ٤٥٣ ،

٥٧٧

لنكلن ٣٥٨

لنين ٣٠٥ ، ٥٢٧ - ٥٢٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٩ ،

٥٩٢ - ٥٩٤ ، ٥٩٨ ، ٦٣١

لهاي ، مؤتمرا ٤٣٦ ، ٤٨٨

لوفنبورف ٤٩٧ ، ٥١٥ ، ٥٢٤ ، ٥٢٩ ،

٥٣٣ - ٥٣٩

لوي ، معركة ٤٨

لوزان ، معاهدة ٥٨٤ - ٥٨٥

لوكازنو ، معاهدة ٦١١ - ٦١٢ ، ٦٥١

لويج جورج ، أنظر جورج : لويج

لويس السادس عشر ٧ - ١٢

لويس الثامن عشر ١٠٨ - ١٠٩ ، ١١٤ ،

١٣٦ - ١٣٩

لويس بونابرت ٩٠ ، ١٦٥

لويش فيليب ١٤١ - ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦٢

١٦٤ -

ليخ ، مؤتمر ١١٩

ليتزج ، معركة ١٠٦

ليبيا ، ملكة ٧٢٢

ليجوريا ، جمهورية ٤٩ ، ٦٠

ليشيل ، صلح ٦٠

ليو الثالث عشر ٣٢٢

ليوبلدف ، إمبراطور النمسا ٢٦

ليوبلدف الأول ، ملك الهليجيكون ١٤٤

ليوبلدف الثاني : ملك الهليجيكون ٣٥٩

ليوبلدف الثالث ٦٦٣ ، ٦٦٦ ، ٧٣٠

ليوبلدف : أمير هونزولرن ٢٨٦ - ٢٨٨

ليون ٤٨

م

ماجنتا ، معركة ٢٣٦ ، ٢٦٢

ماجويبا ، معركة ٤٠٧

ماجينو ، خط ٦٦٩

مارتيناك ١٤٠

مارشال ، مشروع ٧٢٦ ، ٧٢٨

ماركس : كاول ١١٧ ، ٢٢٩ - ٢٣٦

٥٩١ ، ٦٤٧ ، ٧٤٤

المارن ، معركة ٤٩٨

مارنجو ، معركة ٥٩

ماري أنطونيت ٨

ماري لويز ١٠٢ ، ١١٠

مازاريك ٥٤٥ - ٥٤٦

مازيني ١٧٩ ، ١٨٢ ، ٢٣٢ - ٢٤٨

مالك آرثر ٦٨٧ ، ٦٩٢ ، ٧١١ - ٧١٣ ،

٧٣٠

ماكزون ٥١٠ - ٥١١

ماكول ٣٤٠ ، ٤٢٠

مالقة ٧٤ ، ١١٧

ماتيو ، معركة ٤٨

ماتين ١٧٦ ، ١٨٤

مترنخ ١٠٤ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٨ ،

١٢٠ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ١٩٩ - ٢٠١

متر ٢٩٤ - ٢٩٨

متر هينر ٤٠٢

مجلس طبقات الأمة ٩ - ١١

محمد حل ٥٣ ، ١٢٦ - ١٢٩ ، ٤١٢

المحور : برلين - موسكو ٦٥٣ ، ٦٨٨ - ٦٩٠

موسكو ، مؤتمر ٧١٩ ، ٧٣٢
 موسوليني ٤٩٠ ، ٦٠٠ - ٦٠٤ ، ٦٤٥ -
 ٦٥٣ ، ٦٥٧ ، ٦٦٠ ، ٦٧٢ ، ٦٧٧
 - ٦٧٨ ، ٦٩٨ ، ٧٠٠
 موناستير ٤٥٢
 ميلا : ملك نابلي ٤٣ ، ٨٩ ، ١١٠
 ميروبو ١٧
 ميونخ ، مؤتمر ٦٥٧ - ٦٥٨

ن

نابلي ٤٦ ، ٥١ ، ٦٣ ، ٨٤ ، ١٣٠ ،
 ١٧٩ ، ١٩٠ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ - ٢٤٦
 نابليون بونابرت ٤٣ ، ٤٥ - ٥٣ ، ٥٦ -
 ٦٠ ، ٦٥ - ٦٧ ، ٧٠ - ١١٥ ،
 ١٦٤ - ١٦٥ ، ٦٣٧
 نابليون الثالث ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨٢
 ٢١٩ - ٢٢٧ ، ٢٣٣ - ٢٥٠ ، ٢٦٦
 - ٢٧٧ ، ٢٧٦ - ٢٩٥
 نادى الصحافة ١٧
 نازيك ، معركة ٦٧٠
 النرويج ١٠٧ ، ٦٧٠ - ٦٧١
 نفل ٥٢٩
 نقرلا الأول ١٤٥ - ٢١٨
 نقرلا الثاني ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٧٩ - ٤٨٠ ،
 ٤٨٨ ، ٥١٢ ، ٥٢٥ - ٥٢٦
 نقرلا : الفرناط ٤٩٧ - ٥٠٤ ، ٥٠٩ ،
 ٥١٢
 نكر ٨ - ١٢
 لنس ٥٢ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٣٥٣
 النسا - الحرب مع فرنسا ٢٨ - ٥٠ ، ٧٧ -
 ٨٢ ، ١٠٠ - ١٠٧ ، تسوية لينا ١١٠
 وحركة البعث الإيطالية ١٧٧ - ١٨٤ ،
 قيام ثورات بداخلها ١٨٥ - ١٩٢

مدغشقر ٣١١ ، ٤٢١
 منواي ، معركة ٦٩٢
 المغرب ٣١٢ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ ،
 ٤٥٠ - ٤٥١
 المرجان ، معركة بحر ٦٩٢
 المستعمرات البريطانية ٣٥٧ - ٣٦٠ ، ٣٩٢ ،
 ٤٣٠ ، ٤٤١ ، ٦٢٧
 المستعمرات الألمانية ٥١٦ ، ٥٤١
 مولنجي ، معركة ١٢٥
 مينا ٥٤ ، ٥٩
 مصر ٥٠ - ٥٣ ، ١٢٦ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ،
 ٤١٧ - ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ ، ٥٠٥ ،
 ٦٥٤ ، ٦٧٧ ، ٦٧٩ ، ٧٣٥
 مقفونيا ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ،
 ٤٥٤ ، ٥٧٩ ، ٦٧٩
 مكنولاند ، رسي ٦٢٣ ، ٦٢٥
 مكسليان ٢٧٠ - ٢٧١
 المكسيك ١٢٣ ، ٢٠٦ ، ٢٦٨ - ٢٧٢ ،
 ٥٢٣
 مكاهون ٢٩٣ - ٢٩٥ ، ٣٠٦ - ٣٠٧
 مل : جون ستيوارت ١٦٤ ، ٣٢٦ ، ٣٧٥ ،
 ٤٢٠ ، ٥٩٠
 الملايو ٦٨٧ ، ٦٨٩ ، ٧١١ ، ٧٢٨
 ملكه ٢٤٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥
 ملكه ، علمت ٤٣٨ ، ٤٩٤ ، ٥٠٩
 ملتر ٣٧٧ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤
 مستجيري ٦٩٦ ، ٧٠٤
 مترو : مينا ١٢٤ ، ٦٨٥
 منسليد : القود ٣٥٤ ، ٣٥٦
 منشوريا ٦٤٣ - ٦٤٥ ، ٧١٣
 منشوكو ، ملكة ٦٤٤
 المهدي ٤١٤ - ٤١٥
 المؤتمر الوطني ٣١ ، ٣٨ ، ٤٢
 مورو ٥٤ ، ٦٠ ، ٧٥

هكس باشا ٤١٤
هكسل ٣٢٦ ، ٤٢٠
هلدين ٤٦٨ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧
هلستين : البارون ٤٣٣
الهلستية : الجمهورية ٥٢ ، ٦٠
الهند ٧٤ ، ٣٢٨ - ٣٤٨ ، ٣٧٦ ، ٥٠٥ ، ٥٤١
الهند الشرقية : جزر ٦٨٩
الهند الغربية : جزر ٣٥٧ ، ٦٨٥
الهند الصينية ٣١١ ، ٦٨٧ ، ٧٢٨
هنبشوة ، معركة ٣٩
هندنبرج ٤٩٧ ، ٥١١ ، ٥١٥ ، ٦١٦
هنفاريا ١٨٦ - ١٩٢ ، ٣٦٢ - ٣٦٥ ،
٤٤٤ - ٤٤٦ ، ٤٩٠ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥
٦٥٣ ، ٦٥٩ ، ٦٨٠ ، ٧٠٨ ، ٧٢٤
٧٢٨
هوش ٤٥
هولفج : بنان ٥٢٢ ، ٥٣٣
هولندا ٣٩ ، ١١٠ ، ١٤٣ - ١٤٥ ،
٤٠٥ ، ٦٧١ ، ٦٨٥ ، ٧٠٦
هولنلند ، معركة ٦٠
هيئة الأمم المتحدة ٧٣١ - ٧٣٦
هيبير ٤٠
هيروشيا ٧١٢ - ٧١٣
هيو ٧١٣ ، ٧٣٠
هيو سلاسي ٦٤٦ - ٦٤٧ ، ٦٧٨

و

وارسو ، دوقية ٨٣ ، ١١١
ووجرام ، معركة ١٠٠
ورنبرج ٩٣ ، ٢٨٢ ، ٣٠٠
وستغاليا ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٣٨٥
وستمنستر ، قانون ٥٤٢ ، ٦٣٠

وبروسيا ١٩٨ - ١٩٩ ، إخفاق سياسة
مترنخ ١٩٩ - ٢٠١ ، وحرب القرم ٢١٩
- ٢٢١ ، وحركة اتحاد إيطاليا ٢٢٩ -
٢٥٠ ، واتحاد ألمانيا ٢٥٨ - ٢٥٩ ،
ومسألة شلزويج وهلستين ٢٦١ - ٢٦٥ ،
والحرب مع بروسيا ٢٦٥ - ٢٧٦ ،
ومشكلاتها المنصرية ٣٦٢ - ٣٦٧ ،
والتحالف الثنائي ٣٨٩ - ٣٩٤ ، والانقلاب
السياسي سنة ١٩٠٨ : ٤٣٦ - ٤٤٠ ،
والروح القويمة السلافية ٤٤٢ - ٤٤٨ ،
والحرب البلقانية ٤٥٢ - ٤٥٥ ، وجريمة
ساراجيفو ٤٨٤ - ٤٨٧ ، والحرب العالمية
الأولى ٥٠٧ - ٥١٥ ، ومعاهدة سان
جيرمان ٥٦٣ - ٥٦٦ ، وضمها إلى ألمانيا
٦٥٥ ، ٧١٠ ، عقد صلح معها ٧٢٣

نوارين ، معركة ١٢٩

نوفارا ، معركة ١٨١

النيلست ٣٦٨

نيتنجيل : فلورنس ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ٣٦٧ ،
٤٢٥

نيوتنلند ٤٢١

نيوزيلندة ٥٠٧ ، ٥٤١

هـ

هاردنبرج ٩٤ ، ١٠٤

هايج ٥٠٣ ، ٥١٢ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧

هاينه ٩٧ - ٩٨ ، ١٦٨

هتزلورف ٤٣٨ - ٤٤٠

هتزل ٣١٧ ، ٦٠٤ ، ٦١٥ - ٦٢١ ،
٦٤٧ - ٧١٠

هبل ١٣٢ ، ٢٠٣

هريو ٦١٠ ، ٦١١

هس - كسل ٩٣ ، ١٩٨

ولبر : روس ٣٥٤ - ٣٥٦

وليك - روس ٣١٧ - ٣١٨

ولسن : وودور ١١٢ ، ٥٢٣ - ٥٢٤ ،

٥٣٧ ، ٥٤٥ ، ٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٥

٥٦٨ - ٥٦٩ ، ٦٨٦ ، ٧٤٧ - ٧٤٩

ولنجتن ٨٨ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٥

وليم الأول ، ملك بروسيا ٢٥٥ - ٢٥٦ ،

٣٠٠ ، ٣٨٥

وليم الثاني ، إمبراطور ألمانيا ٣٩٧ - ٤٠١ ،

٤٠٥ ، ٤١٠ - ٤١٢ ، ٤٣٣ - ٤٣٥

٤٣٩ ، ٤٧٣ - ٤٧٤ ، ٤٨٦ ، ٤٩٥

٥٢٢ ، ٥٣٨ ، ٦٠٧

وليم الرابع ، ملك بريطانيا ١٤٩ ، ١٦٠

ووتولو ، معركة ٨٩ ، ١١٤ ، ١٣٨

ويغل ٦٧٧

ي

اليابان ٤٠١ - ٤٠٢ ، ٤٣٢ ، ٥٠٢ ،

٥٧٦ - ٥٧٧ ، ٦٤٢ - ٦٤٥ ، ٦٨٦

٦٩٤ ، ٧١٠ - ٧١٣ ، ٧٣٠ -

٧٣١

ياكنا ، مؤتمر ٧١٩

يبرس ، معارك ٤٩٩ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥٣٠

٥٣٤

اليد السوداء ، جمعية ٤٤٧ ، ٤٨٤

يلاسليك ١٩٠

اليهود ٩٤ ، ٥٣٢ ، ٦١٧ ، ٦٥٩ ، ٧٢٤

يوشيفي ، الإمبراطورة ٢٦٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤

٢٩٥ -

يوسف بونابرت ٩٠

يوغوسلافيا ٤٤٥ ، ٥٦٥ ، ٥٦٩ ، ٦٧٨ ،

٧٢٤ - ٧٢٥

اليونان ١٢٥ - ١٣٠ ، ٤٥١ - ٤٥٥ ،

٥٧٨ - ٥٨٥ ، ٦٦٠ ، ٦٧٨ - ٦٧٩

٧٠٨ ، ٧٢٢

ييتا ، معركة ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٣

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥١٤٦ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٢

تاريخ أوروبا في العصر الحديث

هذا الكتاب جعل المؤرخ بدايته تاريخ الثورة الفرنسية كأنما كانت معلماً من معالم الطريق إلى عالم جديد ، وجعل نهايته تاريخ أوروبا إلى قبيل الحرب العالمية الثانية . وفي خلال ذلك المدى القريب أو البعيد ، يتحدث المؤلف عن فرنسا وإنجلترا والوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية ، واستعمار بريطانيا للهند ، وموقف أوروبا من الرقيق ، ومشكلات البلقان وأوروبا الشرقية ، ومعاهدات الصلح ، والحرب الأولى ، وتركيا في تطورها الأخير .